

الشوقيات

أحمد شوقي

الشوقيات

تأليف
أحمد شوقي



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة

تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبرُ الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: هاني ماهر.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٤٣١ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٦

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَحَّصَة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤.٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.

All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.

<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>

المحتويات

١١	الجزء الأول
١٣	مقدمة الطبعة الأولى
٢٧	كبار الحوادث في وادي النيل
٤٣	الهمزية النبوية
٥١	صدى الحرب
٦٧	انتصار الأتراك في الحرب والسياسة
٧٣	بعد المنفى
٧٧	ذكرى المولد
٨٣	مشروع ملنر
٨٧	مشروع ٢٨ فبراير
٩١	الله والعلم
٩٥	ذكرى كانارفون
١٠٣	أيها العمال
١٠٥	نجاة
١١١	إلى عرفات
١١٧	مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات
١٢١	خلافة الإسلام
١٢٥	تكريم
١٢٩	على سفح الأهرام
١٣٣	المطرية تتكلم

١٣٧	الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد
١٤٣	انتحار الطلبة
١٤٩	عبث المشيب
١٥٣	أبو الهول
١٦٩	مملكة النحل
١٧٣	في سبيل الهلال الأحمر
١٧٥	الأزهر
١٧٩	وداع فروق
١٨١	رحالة الشرق
١٨٥	براءة
١٨٧	الصُّحافة
١٨٩	عيد الفداء
١٩١	نكبة بيروت
١٩٣	تكليل أنقرة وعزل الآستانة
١٩٩	عيد الدهر وليلة القدر
٢٠٥	وداع اللورد كرومر
٢٠٩	بين الحجاب والسفور
٢١٥	العلم والتعليم وواجب المعلم
٢١٩	بنك مصر
٢٢١	مرحباً بالهلال
٢٢٥	يا شباب الديار
٢٢٩	نهج البردة
٢٤٩	خاتمة رياض
٢٥٣	ضجيج الحجيج
٢٥٧	استقبال
٢٦١	أرسططاليس وترجمانه
٢٦٥	شهيد الحق
٢٦٩	تحية للترك
٢٧١	الأسطول العثماني

المحتويات

٢٧٧	الأندلس الجديدة
٢٨٧	ضيف أمير المؤمنين
٢٩٣	ذكرى دنشواي
٢٩٥	الهلال الأحمر
٢٩٩	روما
٣٠٥	على قبر نابليون
٣١١	تكريم
٣١٥	اعتداء
٣١٩	توت عنخ آمون
٣٢٩	تحية المؤتمر الجغرافي
٣٣٣	الصليب الأحمر
٣٣٥	تحية للترك
٣٤٣	الدستور العثماني
٣٤٩	الهلال والصليب الأحمران
٣٥٣	الجزء الثاني
٣٥٥	باب الوصف
٤٦٥	باب النسيب
٤٩٥	متفرقات
٥٣٩	الجزء الثالث
٥٤١	سليمان باشا أباطه
٥٤٣	مصطفى باشا فهمي
٥٤٧	أبو هيف بك
٥٥١	مولانا محمد علي
٥٥٣	سيد درويش
٥٥٧	عمر المختار
٥٦١	عبد الحليم العلالي بك
٥٦٣	حافظ إبراهيم

٥٦٧	محمد تيمور
٥٧١	يعقوب صرُوف
٥٧٥	حسين شيرين بك
٥٧٩	محمد عبد المطلب
٥٨١	يرثي جدّته
٥٨٥	محمد عبده
٥٨٧	رياض باشا
٥٩٣	عثمان باشا غالب
٥٩٥	عبد الحي
٥٩٧	محمد ثابت باشا
٥٩٩	محمد فريد بك
٦٠٣	البنون والحياة الدنيا
٦٠٧	ثروت باشا
٦١١	عبد العزيز جاويش
٦١٥	تعزية ورثاء
٦١٧	ذكرى هيجو
٦١٩	عبده الحامولي
٦٢٣	قاسم بك أمين
٦٢٧	تولستوي
٦٣١	عمر بك لطفي
٦٣٣	عمر بك لطفي
٦٣٧	الأميرة
٦٤١	ذكرى مصطفى كامل
٦٤٥	المنفلوطي
٦٤٩	عاطف بركات باشا
٦٥٣	المويلحي
٦٥٧	إسماعيل باشا صبري
٦٦٣	فوزي الغزي
٦٦٧	كريمة البارودي

المحتويات

٦٦٩	فتحي ونوري
٦٧٣	علي باشا أبو الفتوح
٦٧٧	جورجي زيدان
٦٨١	شهداء العلم والغربة
٦٨٥	سعيد زغلول بك
٦٨٧	أمين بك الرافعي
٦٩١	الشيخ سلامة حجازي
٦٩٣	أدهم باشا
٦٩٥	عثمان باشا الغازي
٦٩٧	بطرس باشا غالي
٦٩٩	يبكي والدته
٧٠٣	الملك حسين
٧٠٧	يرثي أباه
٧٠٩	مصطفى كامل باشا
٧١٣	حسن بك أنور
٧١٥	أم المحسنين
٧١٩	الدكتور أحمد فؤاد
٧٢٣	نجل إمام اليمن
٧٢٧	عبد الله بك الطوير
٧٢٩	سعد باشا زغلول
٧٣٥	الشاعر الموسيقي فردي
٧٣٧	إسماعيل أباطة باشا
٧٤١	علي بهجت
٧٤٥	إيضاح لا بد منه
٧٤٧	الجزء الرابع
٧٤٩	مقدمة
٧٥٣	متفرقات
٨٠١	الخصوصيات

٨١١

٨٤٥

٨٥١

٨٥٧

الحكايات

ديوان الأطفال

من شعر الصِّبا

محجوبيات

الجزء الأول

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل

(١) كانت مصر إلى حين قدوم الحملة الفرنسية إليها في سنة ١٧٩٨م بعيدة عن الاحتكاك بدول أوروبا، خلا ما كان من مرور بعض التجار والمتاجر بأرضها في ذهابهم وعودتهم بين الغرب والشرق. وكانت بحكم خضوعها لاستبداد المماليك — تحت سيادة تركيا — تسود فيها الدسائس، ويعمل كل من أمرائها لما يجرُّ إليه النفع، وكانت الحركة العلمية والأدبية خامدة فيها خمودها في سائر بلاد الدولة العثمانية، وبلغ من ذلك أن تدلَّى علماء الفقه الإسلامي، الذين كانوا في مختلف العصور فخرَ مصر وزينتها، وفتر نشاطهم وفسد نتائجهم في ذلك العصر، فأما الأدب من شعر ونثر فلم تقم له إلى ذلك العصر قائمة منذ امتدَّ سلطان الأتراك على مصر، وإنك لتعجب حين تقرأ كاتبًا كالجبرتي، أو ابن إياس؛ لضعف تأليفه ولغته، ولسقم ما فيه من آثار الأدب، شعراً كانت هذه الآثار أم نثرًا.

فلما جاء الفرنسيون إلى مصر، وتغلغلوا فيها، وسارت مع حملة الجنود حملة العلماء، رأى المصريون مظهرًا جديدًا من مظاهر الحياة لم يكن لهم في تاريخهم الأخير به عهد. ولما جاء محمد علي في سنة ١٨٠٦م، وقام بما قام به من الإصلاح في مصر بأن بعث البعث من أبنائها إلى أوروبا، وبعث إلى جوانب الحياة من صور النشاط ما حرَّك النفوس وأثار طلعتها، هبَّ على البلاد نسيمٌ صالح لعله أول بشائر البعث لأمم الشرق العربي كافة. ثم لما عاد المرسلون من أوروبا، وكانوا قد شهدوا فيها نشاطًا ضاعفه ما خلفته

الثورة الفرنسية ورائها من جَمى الفكر والقلب والعاطفة، كانوا هم طلائع هذا البعث والعاملين عليه.

كان من بينهم الأطباء والمهندسون والصُّناع والقُواد، ومن بينهم قام رفاعة بك رافع وتلاميذه يُحيون عهد الأدب العربي في مصر، ولكنها كانت حياةً تحيط بها ظلمات ماضٍ طويل؛ لذلك كان سريان نورها ضئيلاً قصير المدى، لكنها مع ذلك كانت بدءاً له ما بعده. فلما كان عهد إسماعيل سارت في سبيل النضج والقوة، ثم كانت الثورة العربية وما تلاها من الحوادث مثاراً للشاعرية أكابر الشعراء، من أمثال سامي باشا البارودي وإسماعيل باشا صبري، ووحياً لخيال شُبان كان روح الشعر آخذاً بنفوسهم، مُتهيئاً ليفيض منها ما ينفخ في الأدب العربي روحاً وقوة.

وكانت الفترة التي انقضت ما بين الحملة الفرنسية في مصر سنة ١٧٩٨م واحتلال الإنجليز إيها على أثر الثورة العربية في سنة ١٨٨١م، فترةً تقلُّباتٍ سياسية عجّت بين الشرق والغرب والمسلمين والنصارى؛ فقد كانت تركيا من قبل ذلك التاريخ في عهد تدهورها، وكانت مطمح أطماع روسيا، فلم تكن تمرُّ حقبةً من الزمن من غير أن تشبَّ بينهما حرب تنقص من أطراف المملكة العثمانية. وضعف تركيا هو الذي دفع محمد علي إلى غزوها، لكنه ما كاد يقترب من الآستانة حتى تألَّبت عليه إنكلترا وفرنسا وروسيا؛ مخافة أن يُزعجهم قيامه في عاصمة آل عثمان بين الدول الأوروبية بعد ما كان من انتصاراته الباهرة في الشرق، ومن سعيه لتوطيد قوة السيف وقوة العلم في مصر. وكأن ما قامت به الثورة الفرنسية من نشر مبادئ حرية الرأي والعقيدة لم يغيّر من نفس تلك الدول التي جعلت من الإسلام والمسيحية والشرق والغرب خصمين لا يتهادنان من غير أن تنطوي الضلوع على حفيظة.

فأما المسلمون في أقطار الأرض فلم يشتدَّ حقدهم على محمد علي؛ ذلك بأن الدول الأوروبية كافةً، وروسيا خاصةً، كانت لا تفتأ تشنُّ الغارة على الأتراك، وتزيدهم ضعفاً على ضعفهم؛ فقد انتهت حروب الإمبراطورة كاترينا في سنة ١٧٩٢م بمدِّ الحدود الروسية إلى الدنيستر، ثم تحالفت روسيا وإنكلترا وفرنسا في سنة ١٨٢٨م، وسلخن اليونان من جسم الدولة العثمانية، وأقمْنَهَا مملكةً مستقلة، وفي سنة ١٨٥٣م كانت حرب القرم. ولولا خوف إنكلترا وفرنسا من طغيان روسيا، ومن اكتساح الجنس السلافي أوروبا، لَنال الروس من تركيا أكثر مما نالوا من قبل، ولَنفذوا برنامجهم بإجلاء الأتراك عن أوروبا.

وهذا الضعف والاضمحلال الذي أُصيبَت الدولة التركية به هو الذي جعل المسلمين لا يحقدون على محمد علي حين غزا الأتراك، متمسكين بقول الشاعر:

فإن كنتُ مأكولًا فكُن أنت آكلي وإلا فأدرِكني ولمَّا أُمزَّق

على أن الحرب التي شَبَّتَ نارها بين روسيا وتركيا في سنة ١٨٧٧م، والتي خَلَدَ فيها الغازي عثمان باشا انتصار الترك بدفاعه المجيد عن «بلغنا»، أحييت في نفوس المسلمين آمالًا في دولة الخلافة التي كانت تُوشِك أن تنهدم وتنهَار.

ولقد كان المصريون إلى ذلك العهد يعطفون على تركيا عطفَ غيرهم من المسلمين، ولكنهم كانوا أبدًا يفكرُون في استقلالهم عنها ويريدون تحقيقه، ولم يكن الأمل في ذلك بعيدًا بعد فرمان الذي استصدره إسماعيل باشا في سنة ١٨٧٣م، واستقلَّ فيه بإدارة الدولة، وبالتشريع لها، وبإنشاء الجيش الذي يقوم بحاجاتها ومطامعها؛ لذلك كان عطفهم على تركيا مُنبعثًا عن شعورٍ دينيٍّ بحثٍ لا أثر للتبعية السياسية فيه. فلما حطَّمت إنكلترا وفرنسا آمال إسماعيل، وقضتا عليه باسم ديون مصر، ودفعتا تركيا إلى خلعه، وانتهت إنكلترا باحتلال مصر بعد الثورة العربية، ونكثت بعد الاحتلال وعودها بالجلاء، وأحسَّ المصريون بتدخلها في شئونهم، اشتدَّ عطفهم على تركيا، وضعُفَ تبرُّمهم بسيادتها عليهم، وثبت عندهم اليقين بأن دول النصرانية تُطارِد دول الإسلام، وقويت فيهم النزعة الدينية؛ وكان من ذلك ما زاد النشاط في بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربي في مصر. (٢) وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية وُجد «أحمد شوقي بك»، وُلِدَ ب «باب

إسماعيل»، وشبَّ في جواره، ونشأ في حماه؛ فكان طبيعيًّا أن تتأثَّر نفسه بالبيئة الاجتماعية والسياسية، وأن تكون أكثر تأثُّرًا بها لقربها من المسرح الذي تشتبك فيه أصول هذه العوامل وأسبابها، وتضطرب فيه اضطرابًا يُخفيه ما تقضي به حياة القصور، ثم تصدر إلى الحياة بعد أن تكون قد نُظِّمت وهُدِّبت. وشوقي خُلِقَ شاعرًا، والشاعر يتأثَّر أضعاف ما يتأثَّر سائر الناس؛ لذلك كان لكل هذه العوامل أثرٌ باٍ في شعره وفي حياته.

ومع أن شوقي درس في مصر، ثم أتمَّ دراسته في أوروبا، وتأثَّر بالوسط الأوروبي وبالحياة الأوروبية وبالشعر الأوروبي تأثُّرًا كبيرًا، فقد ظلَّ تأثُّره بالبيئة التي وصفنا ظاهرًا في حياته وفي شعره، كما ظلَّ تأثُّره بالبيئة الأوروبية ظاهرًا فيهما كذلك.

وإنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه — بعد أن يتم نشرها جميعاً — كأنك أمام رجلين مختلفين جدًّا الاختلاف لا صلة بين أحدهما والآخر، إلا أن كليهما شاعرٌ مطبوع يصل من الشعر إلى عليا سمواته، وأن كليهما مصري يبلغ حبه مصر حدًّا التقديس والعبادة. أما فيما سوى هذا فأحد الرجلين غير الرجل الآخر؛ أحدهما مؤمنٌ عامر النفس بالإيمان، مسلمٌ يقدّس أخوة المسلمين، ويجعل من دولة الخلافة قدسًا تفيض عليه شئونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه، حكيمٌ يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، مُحافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ولكل معنى ولكل فكرة ولكل خيال. والآخر رجلٌ دنيا يرى في المتاع بالحياة ونعيمها خير آمال الحياة وغاياتها، مُتسامحٌ تسع نفسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله، ساخر من الناس وأمانتهم، مجدّد في اللغة لفظًا ومعنى. وهذا الازدواج ظاهر في شعر شوقي من أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر، وإن كان لتأثره بالقديم الغلبة اليوم، وكانت آثار الرجل الآخر لا تظهر اليوم في شعر شوقي إلا قليلًا.

ولا تقل إن الازدواج النفسي شأن الشعراء، وإن أبا نواس الذي كان يقول:

ألا فاسقني خمراً وقُل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

والذي كان يقول:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراءٌ وداوني بالتي كانت هي الداءُ

هو أبو نواس الذي كان يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت له عن عدوٍّ في ثيابٍ صديقٍ

فليس هذا من أبي نواس ازدواجًا في الروح، وما الحكمة الزاهدة عنده إلا فتور نفس أجهذتها اللذة فأضعفتها، فأخافها الضعف، فألجأها إلى جَمي الحكمة والزهد، وإلى استغفار الله والتوبة إليه؛ لذلك لا تلبث نفسه أن تُعاودها القوة حتى تعود إلى نعيم الترف والإباحة. وذلك هو السر في أنك لا ترى الزهد في شعر أبي نواس إلا عَرَضًا واستثناءً، وذلك شأن الشعراء جميعًا إلا قليلًا منهم، وشوقي من هذا القليل؛ ففي شعره

صورتان من صور الحياة تقوم كلُّ منهما مستقلة، كأنما صاحبها غير الآخر، فأنت تقرأ:

حفَّ كأسها الحبُّ فهني فضة ذهبُ

أو تقرأ:

رمضان ولَّى، هاتِها يا ساقِي مُشتاقَةٌ تسعى إلى مُشتاقِ

فترك في حضرة شاعرٍ مُغرَم بالحياة وبمتاعها ونعمتها، شاعرٍ تختلف روحه جدَّ الاختلاف عن صاحب نهج البردة التي مطلعها:

ريمٌ على القاع بين البان والعلمِ أحلَّ سفكَ دمي في الأشهر الحُرَمِ

وصاحب الهزمية النبوية الذي يقول:

وُلد الهدى فالكائنات ضياءُ وفمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ

وهذان الروحان، أو هاتان الصورتان من صور الحياة، تتجاوران في نفس شوقي، وتصدران عنها وهي في كل قوتها وسلطانها؛ وأنت لذلك حين تقرأ القصيدتين الأوليين تمتلئ إعجاباً بالحياة ومتاعها ولذتها، وحين تقرأ الثانيةين تكون أشدَّ إعجاباً بكلمة الإيمان وروح الحق ورسالته. وأنت لا تشعر في أي الحالين بضعفِ نفساني عند الشاعر دفع به إلى لبوس روح غير روحه، بل أنت فيهما جميعاً يَبْهَرُك شوقي بقوة شاعريته الممتلئة حياةً وخيالاً، والتي تفيض بمتاع العيش فيضها بنور الإيمان.

كيف كان هذا الازدواج؟ كيف جمع شوقي في نفسه بين هذين الشاعرين؛ شاعر الحياة العربية بحضارتها الإسلامية وبما فيها من قدم وإيمان، وبين شاعر الحياة الغربية الخاضعة لحكم العلم وما يكشف عنه كل يوم من جديد؟

مسألة تبدو للنظرة الأولى دقيقةً معقّدة؛ فقد تزدوج في نفسٍ واحدة حيتان بينهما من الصلة ما يُبيح الازدواج، فيكون الرجل الواحد فيلسوفًا وشاعرًا، كما كان المعري أو

كما كان فولتير، فأما أن يكون الرجل شاعراً، وحدة حياته الشعر، ثم تكون نفسه مقسمة مع هذه الوحدة قسمة ازدواج على نحو شوقي، فذلك عجب في شاعر مطبوع يفيض عنه الشعر كما يفيض الماء من النبع، وكما ينهمل المطر من الغمام. على أن لهذا الازدواج سبباً لم يكن مفرّاً من أن يؤدي إليه؛ ذلك أن شوقي كان في طبع شبابه رسول الحياة، كان شاعر:

حَفَّ كَأَسْهَا الْحَبِّبُ فَهِيَ فَضَّةٌ زَهَبٌ

لكن هذا الشباب لم يكن في ملك نفسه؛ فقد بعث به المغفور له الخديو توفيق باشا ليتمّ علومه في أوروبا، وكان من قبل ذلك شاعراً متفوقاً، وكان في تفوّقه ككلّ شاعر شابّ يُرسل القول كما تلهمه إياه نفسه. فلما عاد إلى مصر اتّصل بالأمرير الشاب عباس حلمي باشا، وصار كلمته، ورأى يومئذٍ صنواً له على العرش جعلته روحه الشابة مقدماً لا يهاب. ومع ما فوجئ به أول ولايته في حادث عرض الجيش في السودان — ممّا اضطره للاعتذار — قد بقي شبابه يدفعه إلى ما كان يندفع إليه جدّه إسماعيل من مغامرة، لكن قيام الاحتلال الإنجليزي في مصر جعل الخصومة بينه وبينهم وليست بينه وبين الأتراك، بل لقد كان منظوراً إليه أكثر الأحيان بشيءٍ غير قليل من العطف في بلاد آل عثمان؛ لذلك كانت عواطفه متّفكة وعواطف المسلمين الذين كانوا بعد انتصار الأتراك يرون في الخليفة المُوئل الأخير لأُمم الإسلام جميعاً.

اتصل الشاعر الشاب بالأمرير الشاب؛ فتحتمّ عليه ذلك أن يكون المعبر عن الميول والآمال الكمينية في نفوس المسلمين جميعاً، لا في نفوس المصريين وحدهم؛ وبذلك اجتمع في نفسه من أوّل حياته مَيْلُهُ للحياة وحُبُّ إياها، وحرصه على المتاع بها، مع إيمان المسلمين جميعاً وحرصهم على وحدتهم وعلى كياناتهم، بإزاء الأُمم الغربية التي كانت تنظر إليهم بعينٍ صليبيّةٍ بحتة، وكانت هذه الناحية التي تمثّلها نفسه من ظروف الحياة ومن البيئة المحيطة به أكثر استيحاءً لشعره من الناحية الأولى التي هي طبيعة نفسه؛ فكان بذلك كالرجل القوي الذي يرى وطنه في خطر، ويصبح جندياً، وجندياً بأسلاً، ويتفوق في كل مواقف الحرب، ويصبح القائد الأعظم، ولو أن وطنه لم يكن في خطر لرأيته صديق النعمة، السعيد بها غاية السعادة.

(٣) وهذا الجزء الأول من ديوان شوقي فيه طائفة من شعره أُوحى إليه بها على أنه ممثِّل المصريين والعرب والمسلمين، وأولى قصائده التي مطلعها:

هَمَّتْ الْفُلُكُ واحتواها الماءُ وحداها بمن تَقَلُّ الرجاءُ

هي رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي، وقف فيها الشاعر وقفةً مصري صادق العاطفة تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرَفها التاريخ؛ أي منذ عرف الناس شيئاً اسمه التاريخ. وأنت تراه في عرضه هذا التاريخ ممتلئ النفس فخراً بمجد مصر حين يرتفع بها المجد إلى عليا ذراه، أسفاً حزيناً حين تمرُّ بمصر فترات ظلم وذلة، مستفزاً للهمم حافزاً لعزائم أهل جيله والأجيال التي بعده كي يُعيدوا مجد الماضي وعظمته.

وتراه في انتقاله من الفخر إلى الأسف إلى الاستفزاز يسير مع الحوادث مُتدفقاً، مُندفعاً فوق موج الماضي، آتياً من لا نهايات القدم، كأنما هو قيثاره آلهة ذلك الزمان البعيد، يدفع إليها كل جيل نسائمه، فتتغنّى وتشدو بأهازيج النصر تارة، وبترانيم المسرة طوراً، وبشجو الألم أحياناً.^١

^١ انظر الانتقال في هذه الأبيات التي اخترناها:

قُلْ لِبَنِي فِشَادَ فغَالِي	لَمْ يَجُزْ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ
أَجْفَلَ الْجَنُّ عَنْ عَزَائِمِ فِرْعَوِ	ن وَدَانَتْ لِبَاسُهَا الْآثَاءُ
زَعَمُوا أَنَهَا دَعَائِمُ شَيْدَتِ	بِيَدِ الْبَغْيِ مِلْؤُهَا ظُلْمَاءُ
إِنْ يَكُنْ غَيْرَ مَا أَتَوْهُ فَخَاؤُ	فَأَنَا مِنْكَ يَا فِخَارَ بَرَاءُ
لَا رَعَاكَ التَّارِيخُ يَا يَوْمَ قَمْبِيهِ	ز وَلَا طَنْطَنْتَ بِكَ الْآثَاءُ
جِيءَ بِالْمَالِكِ الْعَزِيزِ ذَلِيلًا	لَمْ تُزَلْزِلْ فَوَادَهُ الْبِئْسَاءُ
بَنَتْ فِرْعَوْنُ فِي السَّلَاسِلِ تَمْشِي	أَزْعَجَ الدَّهْرَ عَرِيْهَا وَالْحَفَاءُ
وَالْأَعَادِي شَوَاحِصُ وَأَبْوَاهَا	بِيَدِ الْخَطْبِ صَخْرَةُ صَمَاءُ
فَأَرَادُوا لِيَنْظُرُوا دَمْعَ فِرْعَوِ	نَ وَفِرْعَوْنُ دَمْعُهُ الْعَنْقَاءُ

وللقدم وللماضي على نفس الشاعر أثرٌ يذهب إلى أعماقها، وليس لثل الآثار المصرية من القدم نصيب؛ فهذه الأهرام ما تزال تحتوي من الطلاس ما يحارُّ العقل في حلِّه، وهذا أبو الهول في مجثمه بين رمال الصحراء أكثر ثباتاً من الليل والنهار ومن الشمس والقمر، وهو في روعة صمته ينطق كل خط خطَّته الدهور على صحائف جثمانه، بما حوته من غيرِ أيسرها دوام انهيار الأشياء لدوام تجدُّدها. وهذا الملك الشاب «توت عنخ آمون» نبش قبره النابشون باسم العلم، فإذا فيه من طُرْف الفن ما يُزري بكل فن وعلم. هذه وسواها من الآثار تُثير في النفس — إلى جانب صورتها الظاهرة، وما يدل عليه إبداع صنْعها ودقة فنها من حضارة كُمُلت لها كل أنواع الحضارة — صورةَ الماضي الذاهب في القدم إلى أغوار الأزل، وتُثير من شاعرية شوقي معاني بالغة في الموعظة والعبرة مبلَّغها من السمو والعظمة.

وأنت إذ تقرأ قصائده «على سفح الأهرام»، و«أبو الهول»، و«توت عنخ آمون»، يهزُّك الشعور بصورة هذا الماضي في قداستها ومهابتها، وتمتلكك نفس الشاعر فترتفع بك من مستوى الحياة الدنيا إلى سموات الخلد؛ ذلك بأن شوقي يُهديك المعنى الذي كانت تلتسمه نفسك فلا تقع عليه، ويرسم أمامك — بوضوح وقوة وسموً خيال ونبُل عاطفة — كلَّ ما ينبض به قلبك ويهتُّز له فؤادك.

خلَع القدم على هذه الآثار معنى البقاء والثبات؛ لذلك كان ما يفيض من الوحي إلى روح شاعر الشرق ثابتاً باقياً، لا تُزعزعه الحوادث، ولا تعصف به الغير، فأما ما سوى ذلك من شئون هذه العصور الحديثة فشوقي فيه هو كلمة الأمة. وفي هذه العصور الحديثة تغَيَّر قدر الناس للحوادث إصغاراً وإكباراً، بمبلغ رجائهم فيها، أو خشيتهم آثارها. وقد تعجَّب إذ ترى قصيدتين من أبعد قصائد شوقي وأحراها بالخلود مُتجاورتين في هذا الجزء الأول من الديوان؛ إحداهما في وداع لورد كرومر، ومطلعها:

أيامُكم أم عهدُ إسماعيلاً أم أنتَ فرعونُ يسوس النيلاً

والثانية في ارتقاء السلطان حسين كامل على أريكة مصر، ومطلعها:

المُلك فيكم آلُ إسماعيلاً لا زال بيتكم يُطلُّ النيلاً

فترى الشاعر ينظر في كلِّ من القصيدتين إلى الحوادث والأشخاص بغير ما ينظر إليها في الأخرى، ثم تجد مثل هذا في غير هاتين القصيدتين؛ وليس لذلك من علة إلا

الاضطراب الذي أصاب العالم قبل الحرب وبعدها، والذي ما يزال عظيم الأثر على تفكير المفكرين وكتابة الكتاب وشعر الشعراء.

على أن هذا التأثير بالحوادث في بعض الشئون التي لا يستقرُّ للناس فيها عادةً رأيٌ قبل أن يُصير التاريخ عليها حكمًا خاليًا من الغرض؛ لا يؤثرُ بشيءٍ في روعة القصائد التي كان فيها، وهو بعدُ لا يشغل من هذه القصائد إلا حيزًا ضيقًا؛ فإن شوقي لا يزيد في القصائد التي تُقال لمناسبة حادث من الحوادث على أن يُشير لهذا الحادث بأبياتٍ خلال القصيدة وفي آخرها، فأما أكثر أبيات القصيدة فحكمٌ غوالٍ، أو وصفٌ رائع، أو ما سوى ذلك مما يلدُّ عقل شوقي أو خياله أن يفكر فيه أو يلهو به. وهذه الحكم لم يتغير تقدير شوقي لها؛ فهو يرى أن الأمم لا تقوم على دعامةٍ غير دعامة الأخلاق، وهو يرى ذلك برغم ما قد يبدو في بعض الأمم القوية من تدهور الأخلاق؛ فالعلم عنده حسن وله فائدته، والغنى حسن كذلك، وسائر أدوات الحضارة تُصلح الأمم، لكنها جميعًا لا فائدة من رقيها وغازاتها إذا انحطَّت أخلاق الأمة، فأما إن قويت هذه الأخلاق فقليل من ذلك كله كافٍ ليرتفع بالأمة إلى ذروة المجد والسؤدد.

وليس معنى هذا أن شوقي يحقّر من شأن ما سوى الأخلاق؛ فله عن العلم والفن والعمل والترحال وغيرها آياتٌ بيّنة، لكننا معناه أن الأخلاق عنده في المحلّ الأول، وهو لا يملُّ من أن يكرّر الدعوة إلى الخلق الصالح على أنه قوام حياة الأمم في كل قصيدة يقولها عن مصر، أو عن غير مصر، وكثير من أبياته في هذا المعنى قد أصبح مثلاً يتداوله كل كاتب، وكل أستاذ، وكل تلميذ، ويردّده الجميع على أنه الحكمة لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها، أولاً ترى قوله:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همُ ذهبَت أخلاقهم ذهبوا

قد بلغ من تواتره على الألسن أن أصبح الكثيرون لا يعرفون إن كان لشوقي أو لشعراء العصور الزاهرة في أيام العرب، إلا لأنهم يريدون أن يكون فخر هذا البيت وغيره من مثله لهم، بنسبته لشاعر مصر والشرق في عصرهم.

(٤) إلى جانب مقام العاطفة الوطنية التي هي قوةٌ متسلّطة على نفس شوقي، تقوم عاطفةٌ أخرى لا تقلُّ عنها قوة، وربما كانت أشدَّ أخذًا بهذه النفس وإثارةً لشاعريتها، تلك هي العاطفة الإسلامية؛ فشوقي شاعر الإسلام والمسلمين، كما أنه شاعر مصر وشاعر الشرق، وعاطفة المسلم تتّجه حتى العصور الأخيرة إلى جهتين، ثم إلى قومين؛ فهي تتّجه

صَوَّبَ مكة مَسْقَطَ رأس النبي ﷺ ومقام إبراهيم كعبة المسلمين وقبلة أنظارهم، ومكة في بلاد العرب، والنبي عربي، والقرآن عربي. وهي تتجه — أو كانت تتَّجه — صَوَّبَ الآستانة، مَقَرَّ الخلافة الإسلامية، ومقام الخليفة من آل عثمان، والآستانة عاصمة التُّرك، وخليفة المسلمين كان تركياً؛ فكل مسلم تَعْنِيهِ وحدة المسلمين كان يتجه ببصره — إلى حين أُلغيت الخلافة — نحو مكة ونحو الآستانة؛ يستمد من الأولى المدد الروحي، ومن الثانية مدد السيف والمدفع.

إلى جانب ما يرجوه المسلم من أهل بلاد الشرق العربي في مكة من مددٍ روحي، تحرَّك نفسه إلى هذه الأنحاء عاطفةً أخرى هي العاطفة العربية؛ هي عاطفة هذه اللغة التي تربط اليوم أكثر من سبعين مليوناً أكثرهم مسلمون، وكلهم خاضع لما يخضع له غيره من بطش القوة وسلطان التحكم. واللغة في حياة الأمم ليس شأنها هيناً؛ فأمة لا لغة لها لا حياة لها، ورُقِّي اللغة في أمة آية صادقة من آيات رُقِّيها. وما دام العرب مصدر اللغة، وعلى رجلٍ منهم هبط الوحي، وبينهم قام صاحب الشريعة، فلهم — عند المسلمين كافة، وعند الذين يتكلمون العربية خاصة — حُرمة تدفعهم إلى التغني بآثارهم، والإشادة بقديم مجدهم، وتمنِّي خير الأمانى لهم.

لذلك كان العرب ومكة والوحي والقرآن والإسلام والرسول، كلها معانٍ لها من الأثر في نفس شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي؛ ولذلك لم يكن شوقي يُشيد بذكر المسلمين وبخلافاتهم لغاية سياسية صرفة، بل إنه لَيؤمن بهذه المعاني إيماناً يتجلّى في الكثير من قصائده على صورة تتركنا في حيرة؛ كيف يبلغ الإيمان من نفس هذا المُحب للحياة كل هذا المبلغ؟! فلا نجد لحيرتنا جلاءً إلا من الحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

وبحسبك أن تقرأ الهمزية النبوية، ونهج البردة، وقصيدته في ذكرى المولد التي مطلعها:

سَلُوا قلبي غداً سلا وتاباً لعل على الجمال له عتاباً

لترى في غير إبهامٍ أنه إنما أملت هذه القصائد قوةً غلبت طبع الشاعر؛ هي قوة الإيمان.

لكنك قد يدْهشك — مع تجلّي الإيمان في هذه القصائد وغيرها — أن يكون شوقي أكثر تحدثاً عن التُّرك وعن الخليفة منه عن العرب وعن الرسول؛ فهذا الجزء الأول من

ديوانه يشتمل ثلاث قصائد عن العرب ومكة والرسالة، ويشتمل ثماني عشرة قصيدة عن الخلافة وعن التُّرك، وأنت تلمس في هذه القصائد الثماني عشرة جميعاً حساً أدقّ من العاطفة، وفيضاً أغزر من الشُّعر، وقوّة تكاد تعتقد معها أن شوقي إذ يتحدث عن التُّرك إنما يُملي ما يُكُنّه فؤاده، وإنما يندفع بقوة كمينه هي قوة دم الجنس، أو إن اتصاله بالبيت المالك في مصر كان قويّ الأثر في نفسه إلى حدّ جعله يفيض من ذكر التُّرك بما ينبض به قلب سلاله محمد علي.

وليس عليك إلا أن تقرأ أيّاً من قصائده التركية لتقتنع بما نقول. اقرأ قصيدته العظيمة العامرة عن الحرب العثمانية اليونانية التي مطلعها:

بسیفک یعلو الحق والحق أغلبُ ويُنصر دين الله أيّانَ تضربُ

أو قصيدته في رثاء أدرنة، أو تحيته للتُّرك أيام حرب اليونان. اقرأ أيّاً من هذه القصائد التي قيلت قبل الحرب الكبرى، أو اقرأ غيرها مما قيل بعد الحرب على أثر انتصار الأتراك على اليونان، كقصيدته التي مطلعها:

الله أكبر! كم في الفتح من عجبٍ يا خالد التُّرك جدّد خالد العربِ

وإنك لمؤمنٌ حقاً بأن هذه القصائد التركية هي أقوى قصائده عن الحوادث وأصدقها حساً وعاطفة.

ولعل مرجع ذلك أن قد اجتمعت في الأتراك عوامل كثيرة كان لشوقي اتصال بها؛ فكانت لذلك تهزّه أكثر مما تهزُّ سواه؛ فالتُّرك — فوق أنهم كانوا مقرّ الخلافة وقبلة المسلمين الزمنية، وأصحاب السيادة على مصر سيادةً يشلّها الاحتلال الإنجليزي — يجري من دهمهم في عروق الشاعر الكبير، ومنهم أصحاب عرش مصر الذين بباهم وُلد شوقي، وفي جماهم شبٌّ ونشأ.

وقد بلغ من حُب شوقي للتُّرك أن كان يعتبرهم مجموعة فضائل لا تشوبها نقیصة. (٥) على أن شوقي — وإن كان شاعر مصر وشاعر العرب وشاعر المسلمين، وكان فيه الازدواج بين حُب الحياة ومتاعها والإيمان ونعيمه — له ذاتيته التي لا تخفى؛ فهو شاعر الحكمة العامة، وهو شاعر اللغة العربية السليمة. وإنك لتعجب أكثر الأحيان حين

ترى عنوان قصيدة من قصائده ثم لا تجد في القصيدة غير أبياتٍ معدودة تدخل في موضوع العنوان، بينما سائرهما حكمة أو غزل أو وصف، أو ما شاء لشوقي هواه. وما أحسب شاعرًا بالغ في ذلك ما بالغ شوقي، ولست أضرب لك مَثَلًا لذلك مما في هذا الجزء الأول من الديوان إلا بقصائد ثلاث: لجان التموين، والانقلاب العثماني، وبين الحجاب والسفور. هذا وإنك واجدٌ في غير هذه القصائد الثلاث ما يُظهر لك منه ما ألقينا به إليك؛ فشیطان شوقي أشدَّ حرصًا على متاعه بالشعر للشعر منه بموضوع خاص. أما القصائد التي يملك موضوعها أبياتًا جميعًا فهي القصائد التي ملك موضوعها شوقي فأنساه نفسه بما كان له في هذا الموضوع من لذة ومتاع، وما أفاضه على شاعريته من وحي وإلهام.

وحكمة شوقي، وما يصدر عنه من وصف وغزل، وما يميّز شعره جميعًا، يبدو كأنه شرقيٌّ عربيٌّ لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار. وهذا طبيعيٌّ ما دام شوقي شاعر العرب والمسلمين، وما دام يجد في الحضارة الشرقية القديمة ما يُغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بالمقدار الذي تحتاج إليه أمم الشرق في حياتها الحاضرة لسيرها في سبيل المنافسة العامة. ولقد ترى شوقي يغلو في شرقيته وعربيته أحيانًا، ولقد تراه يتعمد ذلك في لفظه ومعناه؛ وسبب ذلك هو ما يراه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة بنفوس كثيرة تصبو إلى نسيان ما خلف السلف من تراث، والأخذ بكل ما يلمع به الحاضر من وراء الغرب.

وقد يكون غلُو شوقي أكثر وضوحًا في جانب اللغة منه في جانب المعاني؛ فهو بمعانيه وصُوره وخیالاته يُحيط مما في الغرب بكل ما يُسيغه الطبع الشرقي وترضاه الحضارة الشرقية، أما لغته فتعتمد على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس، وصاروا لا يُحبونها لأنهم لا يعرفونها. ولعل سر ذلك عند شوقي أن البعث وسيلة من وسائل التجديد، بل لقد يكون البعث أكدَّ وسائل التجديد؛ نتيجة ما يُوجد من أرباب اللغة ممَّن يفيضون على الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها. والبعث له إلى جانب ذلك من المزايا أنه يصل ما بين مدنية دارسة ومدنية وليدة، يجب أن تتصل بها اتصال كلِّ خلفٍ بسلفه.

ومن ذا ترى من أرباب اللغة قديرًا قدرة شوقي على أن يبعث في الألفاظ القديمة روحًا تكفل حياتها في الحاضر، وتفيض عليها من ثوب الشعر ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل من المعاني والأخيلة والصور؟ إن اليونانية ما تزال موضع دراسة

العلماء واللغويين؛ لأن هومير كتب بها إلياذته، واللاتينية ما تزال حياتها كمينة وإن تدثرت بحُجُب الماضي أن كتب بها فرجيل شعره، واللغة العربية هي حتى اليوم لغة التفاهم بين سبعين مليوناً من أهل هذا الشرق العربي، وهي حية وستبقى أبداً حية، ولكن كمال حياتها يحتاج إلى أن يبعث الله لها أمثال شوقي؛ ليزيدوا تلك الحياة قوة وروعة وجملاً.

وما أنا بحاجة إلى أن أدلّ على هذه القوة وتلك الروعة وذلك الجمال؛ فكل أديب أو متأدب يعرف منها ما أعرف، وما هي ذي مَجْلُوة في هذا الديوان بكل ما لشوقي على اللغة والأدب والشعر من سلطان.

كبار الحوادث في وادي النيل^١

هَمَّتِ الْفُلُكُ وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبابِ حَوَالِي
وَرَأَى الْمَارِقُونَ مِنْ شَرِكِ الْأَر
وَجِبَالًا مَوَائِجًا فِي جِبَالِ
وَدُيًّا كَمَا تَأْهَبُتِ الْخِي
لُجَّةٌ عِنْدَ لُجَّةٍ عِنْدَ أُخْرَى
وَسَفِينٌ طَوْرًا تَلُوحُ وَحِينًا
نَازِلَاتٌ فِي سَيْرِهَا صَاعِدَاتٌ
رَبٌّ إِنْ شِئْتَ فَالْفُضَاءُ مَضِيقٌ
وَحَدَاهَا بِمَنْ تُقِلُّ الرِّجَاءُ^٢
هِيَ سَمَاءٌ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ^٣
ضِ شِبَاكًا تَمُدُّهَا الدُّمَاءُ^٤
تَتَدَجَّى كَأَنَّهَا الظَّلْمَاءُ^٥
لِ وَهَاجَتْ حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ
كَهَضَابٍ مَاجَتْ بِهَا الْبِيدَاءُ^٦
يَتَوَلَّى أَشْبَاحَهُنَّ الْخَفَاءُ^٧
كَالْهُوَادِي يَهْزُهُنَّ الْخُدَاءُ^٨
وَإِذَا شِئْتَ فَالْمَضِيقُ فُضَاءُ

^١ قالها في المؤتمر الشرقي الدولي المنعقد في مدينة جنيف في سبتمبر سنة ١٨٩٤م، وكان مندوبًا للحكومة المصرية فيه.

^٢ حدا الإبل وحدا بها: ساقها وغنى لها.

^٣ العباب: ارتفاع السيل أو الموج.

^٤ مرق السهم من الرمية مروقا: نفذ فيها وخرج من الجانب الآخر، فهو مارق، والمقصود هنا الهارب. الدماء: البحر.

^٥ تدجى الليل: أظلم.

^٦ السفين: جمع سفينة.

^٧ الهوادي: أول رغيل من الإبل. الحداء: الغناء في أثر الإبل.

مة فيها الرياح والأنواء^٨
 س وأنت الحياة والإحياء
 منك في كل جانب لألاء
 وإذا ما رَغَت فذاك دعاء^٩
 هيبةً فُهي والبساطُ سواءُ
 لك فيه تحية وثناء
 جع بنُعمى زمانها الوجناء^{١٠}
 أرض وانقاد بالشرع الماء^{١١}
 ق وقام الوجود فيما يشاء
 وعَلَونا فلم يَجُزنا علاءُ
 والبرايا بأسرهم أسراءُ
 لم يَجُز مصرَ في الزمانِ بناءُ
 ببال شُماً وأن تُنال السماء^{١٢}
 ن ودأنت لبأسها الأناء^{١٣}
 شأ عصرٌ ولا بنى بناءُ
 فُهي والناس والقرون هباءُ
 ويُوَارَى الإصباح والإمساءُ
 والجديدان والبلى والفناء^{١٤}
 بيدِ البغي ملؤها ظُلُماءُ
 مُوا فصعبٌ على الحسود الثناء

فاجعل البحرَ عصمةً وابعث الرحد
 أنت أنسُ لنا إذا بَعُدَ الأنسُ
 يتولَّى البحارَ مهما أدلهمَّت
 وإذا ما علَّت فذاك قيامُ
 فإذا راعها جلالُك خرَّت
 والعريض الطويل منها كتابُ
 يا زمانَ البحارِ لولاك لم تُف
 فقديماً عن وَخِدها ضاق وجه الـ
 وانتَهت إمرة البحارِ إلى الشرُ
 وبنينا فلم نُخلُ لبانِ
 وملَكنا فالمالكون عبيدُ
 قل لبانِ بنى فشادَ فغالى
 ليس في الممكنات أن تُنقل الأجـ
 أجفل الجنُّ عن عزائم فرعو
 شاد ما لم يشد زمانٌ ولا أنـ
 هيكلاً تُنثر الديانات فيه
 وقبورٌ تحطُ فيها الليالي
 تُشفق الشمس والكواكب منها
 زعموا أنها دعائمُ شيدت
 فاعذر الحاسدين فيها إذا لا

^٨ الأنواء: الأمطار.

^٩ رغا: ضجَّ في صوته.

^{١٠} الوجناء: الناقة الشديدة.

^{١١} وخدها: سيرها السريع وسعة خطوها.

^{١٢} الأجبال: جمع جبل. والشُّم: جمع أشم، وهو المرتفع.

^{١٣} أجفل: نفر وفِرَّ خائفاً.

^{١٤} الجديدان: الليل والنهار.

دُمِرَ النَّاسُ وَالرَّعِيَّةُ فِي تَشْهَدِ
أَيْنَ كَانَ الْقَضَاءُ وَالْعَدْلُ وَالْحُكْمُ
وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعَزَّةٍ مِصْرٍ
فَادَّعَوْا مَا ادَّعَى أَصَاغِرُ آثِيهِ
وَرَأَوْا لِلَّذِينَ سَادُوا وَشَادُوا
إِنْ يَكُنْ غَيْرَ مَا أَتَوْهُ فَخَارٌ
لَيْتَ شِعْرِي وَالدَّهْرُ حَرْبٌ بَنِيهِ
مَا الَّذِي دَاخَلَ اللَّيَالِي مَنَا
فَعَلَا الدَّهْرُ فَوْقَ عَلِيَاءِ فَرَعُو
أَعْلَنْتَ أَمْرَهَا الذُّنَابُ وَكَانُوا
وَأَتَى كُلُّ شَامِتٍ مِنْ عِدَا الْمُلْكِ
وَمَضَى الْمَالِكُونَ إِلَّا بِقَايَا
فَعَلَى دَوْلَةِ الْبُنَاةِ سَلَامٌ
وَإِذَا مِصْرُ شَاءَ خَيْرَ لِرَاعِي السُّلْطَانِ
قَدْ أَذَلَّ الرِّجَالَ فَهِيَ عَبِيدُ
فَإِذَا شَاءَ فَالْرِقَابُ فِدَاهُ
وَلِقُومِ نَوَالِهِ وَرِضَاهُ
فَفَرِيقٌ مِمَّتَعُونَ بِمِصْرٍ

يُيِيدُهَا وَالْخِلَائِقُ الْأُسْرَاءُ
مِةَ وَالرَّأْيِ وَالنُّهْيِ وَالذِّكَاةُ
وَالْعِلْمُ الَّتِي بِهَا يُسْتَضَاءُ
نَا وَدَعَوَاهُمْ خَنَا وَافْتِرَاءُ^{١٥}
سُبَّةً أَنْ تُسَخَّرَ الْأَعْدَاءُ
فَأَنَا مِنْكَ يَا فَخَارَ بَرَاءُ
وَأَيَادِيهِ عِنْدَهُمْ أَفْيَاءُ^{١٦}
فِي صَبَانَا وَلِلْيَالِي دِهَاءُ^{١٧}
نَ وَهَمَّتْ بِمُلْكِهِ الْأَرْزَاءُ
فِي ثِيَابِ الرُّعَاةِ مِنْ قَبْلُ جَاءُوا^{١٨}
لَهُمْ فِي تَرَى الصَّعِيدِ التَّجَاءُ
وَعَلَى مَا بَنَى الْبُنَاةَ الْعَفَاءُ
وَوَيْسِيرُ إِذَا أَرَادَ الدَّمَاءُ
وَلَأَقْوَامِ الْقِلَى وَالْجَفَاءُ^{١٩}
وَفَرِيقٌ فِي أَرْضِهِمْ غُرْبَاءُ

^{١٥} الخنا: الفُحْشُ فِي الْكَلَامِ.

^{١٦} الأفياء: جَمْعُ فِيءٍ، وَهُوَ الْغَنِيمَةُ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الدَّهْرَ لَا يُحْسِنُ إِلَى النَّاسِ إِلَّا رَاغِمًا، فَكَأَنَّهُمْ لَا يَظْفِرُونَ مِنْهُ بِنِعْمَةٍ إِلَّا كَغَنِيمَةِ حَرْبٍ.

^{١٧} أَيِ تَفْعَلُ فِعْلَ الدَّهْمَةِ.

^{١٨} ملوك الرُّعَاةِ أَوْ الْهَكَسُوسُ: فَاتِحُونَ مِنْ آسِيَا، انْتَهَزُوا فُرْصَةَ الضَّعْفِ الَّذِي حَلَّ بِالْبِلَادِ عَلَى أَثَرِ انْقِضَاءِ عَهْدِ الْأُسْرَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، وَالتَّنَازُعِ الَّذِي حَدَثَ عَلَى الْمُلْكِ بَيْنَ طَبَقَةِ الْأَشْرَافِ، فَغَزَوْهَا فِي سَنَةِ

١٦٧٥ ق.م.

^{١٩} الْقِلَى: الْبَغْضُ.

إن ملكت النفوس فابغ رضاها
يسكن الوحش للوثوب من الأس
يحسب الظالمون أن سيُسودو
والليالي جوائرٍ مثلما جا
فلها ثورةٌ وفيها مضاء^{٢٠}
ر فكيف الخلائق العقلاء
ن وأن لن يؤيد الضعفاء
رؤا وللدهرٍ مثلهم أهواء

* * *

لبثت مصر في الظلام إلى أن
لم يكن ذاك من عمى، كل عين
ما نراها دعا الوفاء بنيها
ليزيحوا عنها العدا فأزاحوا
وأعيد المجد القديم وقامت
وأتى الدهر تائباً بعظيم
من كرمسيس في الملوك حديثاً
بايعته القلوب في صلب سיתי
واستعد العباد للمولد الأك
جل سيزوستريس عهداً وجلت
فسمعنا عن الصبي الذي يع
ويرى الناس والملوك سواء
وأرانا التاريخ فرعون يمشي
قيل مات الصباح والأضواء
حجب الليل ضوءها عمياء
وأتهم من القبور النداء
وأزيحت عن جفنها الأقداء
في معالي آبائها الأبناء
من عظيم أبائه عظماء
ولرمسيس الملوك فداء^{٢١}
يوم أن شاقها إليه الرجاء
بر وأزيّنت له الغبراء
في صباه الآيات والآلاء
فغو وطبع الصبا الغشوم الإباء
وهل الناس والملوك سواء
لم يحل دون بشره كبرياء

* * *

يولد السيّد المتوجّ غضاً
طهرته في مهدها النعماء^{٢٢}

^{٢٠} مضاء السيف: نفاذه في الضريبة.

^{٢١} هو رمسيس الثاني ابن سיתי الأول، أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة المصرية، ولي عرش مصر وهو صغير، واستمر حكمه من سنة ١٢٩٢-١٢٢٥ قبل الميلاد، ويُعرف برمسيس الأكبر لما اكتسبه من الشهرة الفائقة التي جعلت كثيراً من الناس يزعمون أنه أعظم ملوك مصر، والذي كوّن له هذه الشهرة الكبيرة تلك المباني العديدة التي شيّدها في جميع أنحاء البلاد.

^{٢٢} الغض: النضير.

لم يغيِّره يومَ ميلاده بؤ
فإذا ما المملِّقون تولَّو
وسرى في فؤاده زخرفُ القو
فإذا أبيضُ الهديل غرابُ
سُ ولا نالَه وليدًا شقاء
هُ تولَّى طباعه الخيلاء^{٢٣}
ل تراه مستعدَّبًا وهو داءُ
وإذا أبلجُ الصباح مساءً^{٢٤}

* * *

جلَّ رمسيسُ فطرةً وتعالى
وسما للعلَّا فنالَ مكانًا
وجيوشُ ينهضنَ بالأرض ملگا
وجودُ يُساس والقولُ فيه
وبناءً إلى بناءٍ يودُّ الـ
وعلومُ، تُحيي البلادَ و«بنتا
إيه سيزوستريس ماذا ينال الـ
كُبرت ذاتك العلية أن تُحـ
لك آمونُ والهللُ إذا يكـ
ولك الريف والصعيد وتاجًا
ولك المُنشآتُ في كل بحر
ليت لم يُبلِك الزمانُ ولم يبـ
هكذا الدهر حالةٌ ثم ضدُّ
شيمه أن يقوده السفهاء
لم ينلَه الأمثالُ والنُّظراءُ
ولواءٍ من تحته الأحياءُ
ما يقول القضاة والحكماءُ
خُلد لو نال عمره والبقاء
هُورُ» فخرُ البلاد والشعراءُ^{٢٥}
وصفُ يومًا أو يبلغ الإطراءُ
صي ثناها الألقابُ والأسماءُ
جبرُ والشمسُ والضُّحى آباءً^{٢٦}
مصر والعرشُ عاليًا والرداءُ
ولك البرُّ أرضه والسماءُ
لَ لِمَلِكِ البلاد فيك رجاءُ
ما لحالٍ مع الزمانِ بقاءُ

* * *

^{٢٣} الخيلاء: العُجب والكِبَر.

^{٢٤} الهديل: ذكر الحَمَام. وبلج الصباح: أشرق وأُناَر.

^{٢٥} بنتاهور: شاعرٌ مصريٌّ قديم.

^{٢٦} آمون: إله الشمس في اعتقاد القدماء. وقد كان القدماء يعتقدون أن الملوك نسل الآلهة التي أُشير إليها في هذا البيت بالشمس والقمر.

لا رعاك التاريخُ يا يومَ قمبيزِ
دارت الدائرات فيك ونالت
فبمصر ممّا جنّيت لمصرِ
نكدُ خالد وبؤسُ مُقيمِ
يومَ منفيس والبلادُ لكسرى
يأمر السيفُ في الرقاب وينهى
جيءَ بالممالك العزيز ذليلاً
يُبصر الآلَ إذ يُراح بهم في
بنتُ فرعون في السلاسل تمشي
فكأن لم ينهض بهودجها الدهـ
رَ ولا طنطنت بك الأنباء^{٢٧}
هذه الأمة اليدُ العسراءُ
أيّ داءٍ ما إن إليه دواءُ^{٢٨}
وشقاء يجدُ منه شقاءُ
والملوكُ المُطاعةُ الأعداءُ^{٢٩}
ولمصر على القذى إغضاءُ
لم تُزلزل فؤادَه البأساءُ
موقف الذل عَنوةً ويُجاءُ
أزعج الدهرُ غريها والحفاءُ^{٣٠}
رُ ولا سارَ خلفها الأمراءُ^{٣١}

* * *

وأبوها العظيم ينظرُ لمّا
أعطيت جرّةً وقيل إليك النّـ
فمشت تُظهر الإباء وتحمي الدّ
والأعادي شواخصُ وأبوها
رُدّيت مثلما تُردّي الإماءُ^{٣٢}
هرَ قومي كما تقوم النساءُ
مع أن تسترقّه الضراءُ^{٣٣}
بيدِ الخطب صخرةُ صماءُ^{٣٤}

^{٢٧} قمبيز: أحد ملوك الفُرس، استولى على مصر سنة ٥٢٥ ق.م، وسلك في المصريين مسلك العسف والظلم، وخرب المعابد والهيكل، وقتل العجل أبيس إله المصريين وغير ذلك. ويوم قمبيز: هو اليوم الذي انتصرت فيه جيوشه على جيوش أبسمتيك آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين في الفرما ومنف، والذي أخذ فيه الملك أسيراً، فأُذيق من الذل ما سترى. وطنطن: صوّت.
^{٢٨} إن: هنا زائدة. وما: نافية بمعنى ليس.
^{٢٩} منفيس: هي منف التي ذكرناها، وكانت العاصمة حينئذ. وكسرى: لقب لكل ملك من ملوك الفرس، والمراد به قمبيز.

^{٣٠} الحفا (مقصورة ومُدّت): المشي بلا خُفٍّ ولا نعل.

^{٣١} الهودج: مَحمل النساء.

^{٣٢} ردّاها: أي ألْبَسها الرداء. وتُرْدّي: أصلها تتردى؛ أي تلبس الرداء.

^{٣٣} استرقّه: ملكه. والضراء: الشدة.

^{٣٤} شواخص: جمع شاخص، وهو الناظر بحيث لا تطرف عيناه.

فأرادوا لينظروا دمعَ فرعو نَ وفرعونُ دمعُه العنقاء^{٣٥}
فأزوه الصديقَ في ثوبِ فقر يسألُ الجَمْعَ والسؤالُ بلاءُ
فبكى رحمةً وما كان من يب كي ولكنما أراد الوفاءُ
هكذا المُلْكَ والملوك وإن جا رَ زمانٌ ورَوَّعتْ بَلِواءُ

* * *

لا تَسَلْنِي ما دولة الفُرس! ساءت دولةُ الفُرس في البلاد وساءوا^{٣٦}
أمةٌ همُّها الخرائبُ تُبلي ها وحقُّ الخرائبِ الإِعلاءُ^{٣٧}
سَلَبَتِ مصرَ عِزَّها وكَسَتْها ذلَّةٌ ما لها الزمانُ انقضاءُ
وارتوى سيفُها فعاجَلها الله بسيفٍ ما إنْ له إرواءُ^{٣٨}
طَلَبَةُ للعبادِ كانت لإسكن درَ في نيلها اليدُ البيضاءُ^{٣٩}
شاد إسكندرُ لمصرَ بناءً لم تشدْهُ الملوكُ والأمراءُ
بلدًا يرحلُ الأنامُ إليه ويحجُّ الطُّلابُ والحُكماءُ
عاش عُمرًا في البحرِ ثَغَرَ المَعالي والمَنارَ الذي بهِ الإِهْتداءُ
مطمئنًا من الكتائبِ والكُت ب بما ينتهي إليه العَلاءُ
يبعثُ الضوءَ للبلادِ فتَسري في سناءُ الفهومِ والفهماءُ
والجواي في البحرِ يُظْهَرْنَ عِزُّ ال مُلْكِ والبحرُ صولةٌ وثرأءُ^{٤٠}
والرعايا في نعمةٍ ولِبْطَلِي مُوسُ في الأرضِ دولةٌ علياءُ^{٤١}

^{٣٥} العنقاء: طائرٌ معروف الاسم مجهول الجسم، ويكنى به في الشيء البعيد المنزل.

^{٣٦} يعود الضمير هنا إلى الفُرس أنفسهم.

^{٣٧} الخربة: موضع الخراب، وجمعها خرائب، والغرض منها هنا بقايا الهياكل والآثار.

^{٣٨} إن: زائدة. وما: نافية.

^{٣٩} هو الإسكندر الأكبر المقدوني الذي افتتح مصر سنة ٣٣٢ ق.م، وقضى على حكم الفُرس، وأنشأ مدينة الإسكندرية.

^{٤٠} الجواي: السفن.

^{٤١} بطليموس: حاكم مصر بعد الإسكندر، ومؤسس دولة البطالسة التي استمرت من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٣٠ ق.م؛ إذ سقطت في عهد كليوباترا.

فَقَضَى اللّهُ أَنْ تُضَيِّعَ هَذَا الـ
تَخَذَتْهَا رُومًا إِلَى الشَّرِّ تَمْهِيدِ
فَتَنَاهَى الْفَسَادَ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ
ضَيَّعَتْ قَيْصَرَ الْبَرِيَّةِ أَنْثَى
فَتَنَّتْ مِنْهُ كَهْفَ رُومًا الْمُرْجَى
قَاهَرَ الْخَصْمَ وَالْجَحَافِلَ مَهْمَا
فَأَتَاهَا مَنْ لَيْسَ تَمْلِكُهُ أَنْـ
بَطْلُ الدَّوْلَتَيْنِ حَامِي جَمِي رُومِ
أَخَذَ الْمُلْكَ وَهِيَ فِي قَبْضَةِ الْأَفْ
سَلَبَتْهَا الْحَيَاةَ فَاعْجَبَ لِرَقْطَا
لَمْ تُصَبَّ بِالْخِدَاعِ نُجْحًا وَلَكِنْ
قَتَلَتْ نَفْسَهَا وَظَنَّتْ فِدَاءً
سَلَّ كِلَوْبَتَرَةَ الْمَكَايِدِ هَلَّا
فِي رُومًا تَأَيَّدَتْ وَبِرُومًا
وَلِرُومًا الْمُلْكَ الَّذِي طَالَمَا وَ
وَتَوَلَّتْ مِصْرًا يَمِينُ عَلَى الْمِصْرِ

مُلْكَ أَنْثَى صَعْبٌ عَلَيْهَا الْوَفَاءُ^{٤٢}
عَدَا وَتَمْهِيدُهُ بِأَنْثَى بِلَاءُ
ضَ وَجَارَ الْأَبَالَسَ الْإِغْوَاءُ
يَا لَرَبِّي مِمَّا تَجَرُّ النِّسَاءُ^{٤٣}
وَالْحُسَامَ الَّذِي بِهِ الْإِتِّقَاءُ^{٤٤}
جَدَّ هَوْلُ الْوَعَى وَجَدَّ الْلِقَاءُ
ثَى وَلَا تَسْتَرْقُهُ هَيْفَاءُ^{٤٥}
مَا الَّذِي لَا تَقْوُدُهُ الْأَهْوَاءُ^{٤٦}
عَى عَنِ الْمُلْكَ وَالْهَوَى عَمِيَاءُ^{٤٧}
أَرَاحَتْ مِنْهَا الْوَرَى رَقْطَاءُ^{٤٨}
خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنَاءُ
صَغُرَتْ نَفْسُهَا وَقَلَّ الْفِدَاءُ
صَدَّهَا عَنِ وِلَاءِ رُومَا الدَّهَاءُ
هِيَ تَشْقَى وَهَكَذَا الْأَعْدَاءُ
فَاهُ فِي السَّرِّ نَصَحُهَا وَالْوِلَاءُ
رِيٍّ مِنْ دُونِ ذَا الْوَرَى عَسْرَاءُ

^{٤٢} كليوباترا: هي آخر ملكة حكمت مصر من دولة البطالسة، وقد هام بها قيصران: يوليوس، وهو الذي انتهت بموته الجمهورية الرومانية، وكانت صنيعه له؛ وأنطونيوس، وهو الذي أنشأ بالاشتراك مع أكتافايوس الإمبراطورية الرومانية، وقد كان هُيام الأخير بها سبباً لغزو أكتافايوس لمصر وانتصاره على كليوباترا، التي حاولت عبثاً أن تؤثر في قلبه بجمالها؛ فانتحرت بأن وضعت على صدرها حية، وانتحرت أنطونيوس.

^{٤٣} المقصود بقيصر هنا: أنطونيوس.

^{٤٤} الكهف: الملجأ.

^{٤٥} أكتافايوس قيصر.

^{٤٦} الدولتان: دولة الغرب، ودولة الشرق.

^{٤٧} هي: أي كليوباترا.

^{٤٨} الرقطاء: الحية التي يُخالط بياضها نقطُ سوداء، أو العكس.

تُسَمِّعُ الْأَرْضُ قَيْصَرًا حِينَ تَدْعُو وَعَقِيمٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ الدَّعَاءِ^{٤٩}
وَيُنِيلُ الْوَرَى الْحَقُوقَ فَإِنْ نَا دَتَهُ مِصْرٌ فَأُذِنُ صَمَاءُ
فَاصْبِرِي مِصْرٌ لِلْبَلَاءِ وَأَتَى لِكَ وَالصَّبْرُ لِلْبَلَاءِ بَلَاءُ
ذَا الَّذِي كُنْتَ تَلْتَجِينَ إِلَيْهِ لَيْسَ مِنْهُ إِلَى سِوَاهِ التَّجَاءِ

* * *

رَبِّ شَقَّتِ الْعِبَادَ أَزْمَانَ لَا كُتُّ حَبٌّ بِهَا يُهْتَدَى وَلَا أَنْبِيَاءُ^{٥٠}
نَهَبُوا فِي الْهَوَى مَذَاهِبَ شَتَّى جَمَعَتْهَا الْحَقِيقَةُ الزَّهْرَاءُ^{٥١}
فَإِذَا لَقِبُوا قَوِيًّا إِلَهًا فَلَهُ بِالْقَوَى إِلَيْكَ انْتِهَاءُ
وَإِذَا آثَرُوا جَمِيلًا بَتَنْزِيلِ بِهِ فَإِنَّ الْجَمَالَ مِنْكَ جِبَاءُ^{٥٢}
وَإِذَا أَنْشَأُوا التَّمَاثِيلَ غُرًّا فَإِلَيْكَ الرَّمُوزُ وَالْإِيمَاءُ^{٥٣}
وَإِذَا قَدَّرُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَا بَا فَمِنْكَ السَّنَا وَمِنْكَ السَّنَاءُ^{٥٤}
وَإِذَا أَلَّهُوا النِّبَاتَ فَمِنْ آ ثَارِ نِعْمَاكَ حُسْنُهُ وَالنِّمَاءُ
وَإِذَا يَمَّمُوا الْجِبَالَ سَجُودًا فَالْمِرَادُ الْجَلَالَةُ الشَّمَاءُ^{٥٥}
وَإِذَا تُعَبَّدَ الْبَحَارُ مَعَ الْأَسَدِ حَمَامٌ وَالْأُمَهَاتُ وَالْأَبَاءُ
وَسَبَاحُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرِ خُضْعٌ وَالْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ^{٥٦}
لِعُلاكَ الْمُذَكَّراتُ عَبِيدُ

^{٤٩} عقيم: أي لا خير وراءه.

^{٥٠} شاقَّة الحب إليه: هاجه. والمراد بالكتب: الكتب الإلهية التي تنزلت على الأنبياء.

^{٥١} الحقيقة الزهراء: هي وجود الله وتوحيده. ولقد تنوعت ديانة قدماء المصريين؛ فكانوا في أول أمرهم يعتقدون بوجود إله واحد، ورمزت له كل قبيلة برمز خاص، ثم رمزوا لصفات هذا الإله برموز صارت بعدئذ معبودات، ثم عبدوا الكائنات الطبيعية التي لها تأثير محسوس في حياتهم كالشمس والقمر والنيل، ثم اعتقدوا بحلول الآلهة في أجساد الحيوان، فعبدوا العجل (أبيس) والقط والكلب وما إلى ذلك.

^{٥٢} التنزيه: التقديس. والحباء: العطاء.

^{٥٣} الرمز والإيماء: الإشارة.

^{٥٤} السنا: الضوء. والسنا: الرفعة.

^{٥٥} السماء: الرفيعة.

^{٥٦} المذكرات: ما كان من هذه الآلهة مذكراً.

جَمَعَ الخُلُقَ والفضيلةَ سرُّ شَفَّ عنه الحِجابُ فهو ضياءُ

* * *

سجَدَتِ مصرُ في الزمانِ لإيزيسَ
 إِنَّ تِلِ البَرِّ فالبلادُ نُضارُ
 أو تِلِ النفسَ فهي في كلِّ عضوٍ
 قِيلَ إيزيسَ رَبَّةُ الكونِ لولا
 واتَّخَذَتِ الأنوارَ حُجْبًا فلم تُبْ
 أَنْتِ ما أظهرَ الوجودَ وما أَخْ
 لِكَ آبيسُ والمُحِبِّبِ أوزيـ
 مُثِّلَتِ للعِيونِ ذاتِكَ والتمـ
 وادَّعَاكِ اليونانُ من بعدِ مصرِ
 فإذا قِيلَ ما مَفاخرُ مصرِ
 سِ النَّدَى مَن لها اليدُ البيضاءُ^{٥٧}
 أو تِلِ البحرَ فالرياحُ رُخاءُ^{٥٨}
 أو تِلِ الأفقَ فهي فيه ذُكاءُ^{٥٩}
 أَنْ تَوَحَّدَتِ لم تَكُ الأشياءُ
 صِرِكَ أرضُ ولا رَأَتِكَ سماءُ
 ففى وَأَنْتِ الإظهارَ والإخفاءُ
 ريسُ وابناه كلهم أولياءُ^{٦٠}
 ثيلُ يُدني مَن لا له إدناءُ
 وتلاه في حُبِّكَ القدماءُ
 قِيلَ منها إيزيسُها الغراءُ

* * *

رَبِّ هَذي عقولُنا في صباها
 فعشِقناكَ قبل أن تأتي الرُّسـ
 ووصلنا السَّرى فلولا ظلامُ الـ
 واتخذنا الأسماءَ شَتَّى فلمَّا
 حَجَّنا في الزمانِ سِحْرًا بسِحْرِ
 ويريد الإلهُ أن يُكرِّمَ العقـ
 ظنَّ فرعونُ أَنَّ موسى له وا
 نالها الخوفُ واستبأها الرجاءُ
 لُ وقامتَ بحُبِّكَ الأعضاءُ
 جهلُ لم يخطُنا إليك اهتداءُ^{٦١}
 جاء موسى انتهت لك الأسماءُ
 واطمأنت إلى العصا السعداءُ^{٦٢}
 لُ وألا تُحقِّقِ الآراءُ
 في وعند الكرامِ يُرجى الوفاءُ

^{٥٧} إيزيس: إلهة من آلهة القدماء.

^{٥٨} النضار: الذهب. ورخاء: لين.

^{٥٩} ذكاء: من أسماء الشمس.

^{٦٠} آبيس: هو العجل آبيس، معبود القدماء، كما قدَّمنا. وأوزيريس: هو إله الشمس في اعتقاد القدماء.

^{٦١} السرى: السَّير ليلاً. ولم يخطُنا: لم يُجاوزنا.

^{٦٢} حَجَّه: غلبه بالحُجة.

لم يَكُنْ في حسابهِ يومَ رَبِّي
فرأى الله أن يعقِّ ولله
مصرُ موسى عند انتماء، وموسى
فبِهِ فخرُها المؤيَّد مهمما
إن تكن قد جفَّتْه في ساعة الشكِّ
خلَّةً للبلاد يَشقى بها النَّا
فكبيرُ ألا يُصان كبيرُ

أَنْ سيأتِي ضدَّ الجزاءِ الجزاءُ
تفِي لا لغيرهِ الأنبياءُ
مصرُ إن كان نسبةً وانتماءُ
هُزَّ بالسيدِّ الكليمِ اللواءُ^{٦٣}
فحظُّ الكبيرِ منها الجَفَاءُ
س وتَشقى الديارُ والأبناءُ
وعظيمُ أن يُنبذَ العُظماءُ

* * *

وُلد الرِّفقُ يومَ مَولِدِ عيسى
وازدهى الكونُ بالوليدِ وضاءتِ
وسرَّتْ آيةُ المسيح كما يسـ
تملأ الأرضُ والعوالمُ نورًا
لا وعيدٌ لا صولةٌ لا انتقامُ
ملكٌ جاوَر الترابَ فلمَّا
وأطاعته في الإله شيوخُ
أذعنَ الناسُ والملوكُ إلى ما
فلهم وقفةٌ على كل أرض
دخلوا ثيبةً فأحسنَ لُقيا
فهِموا السرَّ حينَ ذاقُوا وسهلُ
فإذا الهيكلُ المقدَّسُ دَيرُ
وإذا ثيبةٌ لعيسى ومنفيـ

والمُروءاتُ والهُدى والحياءُ
بَسَناهِ مِنَ الثرى الأرجاءُ
ري من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
فالثرى مائجٌ بِهَا وضَاءُ
لا حُسامٌ لا غزوةٌ لا يَماءُ
ملَّ نابتَ عن الترابِ السماءُ^{٦٤}
خُشَّعَ خُضَّعَ له ضعفاءُ
رسموا والعقولُ والعقلاءُ
وعلى كل شاطئِ إرساءُ
هم رجالٌ بثيبةٍ حكماءُ^{٦٥}
أن ينالَ الحقائقَ الفُهماءُ^{٦٦}
وإذا الدَّيرُ رَونقٌ وبهاءُ
سُ ونيلُ الثراءِ والبطحاءُ^{٦٧}

^{٦٣} هز الكوكب: انقض، والمراد: مهما خذل.

^{٦٤} يشير إلى رفعه إلى السماء.

^{٦٥} ثيبة: عاصمة من عواصم مصر القديمة.

^{٦٦} السر: أي سر عبادة الله على دين المسيح.

^{٦٧} البطحاء: مَسيل الماء فيه دقاق الحصى.

إنما الأرض والفضاء لرَبِّي
لَهُمُ الحُبُّ خالِصًا من رعايا
إنما يُنكَرُ الدياناتِ قومٌ
هَرِمَت دولةُ القياصر والدُّو
ليس تُغْنِي عنها البلادُ ولا ما
نالَ روما ما نالَ مِن قبلِ آثِي
سُنَّةُ الله في المَمالِكِ مِن قبـ

وملوكُ الحَقِيقَةِ الأنبياءُ
هم وكلُّ الهوى لهم والولاءُ
هم بما يُنكَرُونَهُ أَشقياءُ
لأَنَّ كَالنَّاسِ داوُهنَ الفَناءُ^{٦٨}
لُ الأقاليمِ إن أَتاهَا النداءُ^{٦٩}
حنا وَسِيمَتُهُ ثِيبَةُ العَصماءِ^{٧٠}
لُ وَمِن بَعْدُ ما لِنُعْمَى بقاءُ

* * *

أظلمَ الشرقُ بعد قيصر والغر
فالورى في ضلاله مُتَمادٍ
عَرَفَ اللهَ ضِلَّةً فَهُوَ شَخْصٌ
وتولَّى على النفوس هوى الأو
فراى الله أن تَطْهَرُ بالسَّيِّ
وكذاك النفوسُ وهى مِراضُ
لم يُعَادِ اللهَ العبيدَ ولكن
وإذا جَلَّتِ الدُّنوبُ وهالَت
أشرقَ النورُ في العوالمَ لَمَّا
باليتيمِ الأُمِّيِّ والبَشَرِ المُو
قوَّةُ الله إن تولَّتْ ضَعِيفًا
أشرفَ المُرسَلينَ آيَتُهُ النُّطـ

بُ وعمَّ البريةَ الإِدْجاءُ^{٧١}
يِفْتَكُ الجَهلُ فيه والجَهلَاءُ
أو شهابٌ أو صخرةٌ صمَاءُ^{٧٢}
ثانِ حَتَّى انتَهَتْ لهُ الأهواءُ
ف وأن تَغسلَ الخطايا الدماءُ
بعضُ أعضائها لِبعضِ فِداءُ
شَقِيقَتِ بالغَباوةِ الأغبياءُ
فَمِنَ العَدلِ أن يَهُولَ الجِزاءُ
بشَرَّتِها بأحمَدَ الأنبياءُ
حَى إِلَيهِ العِلومُ والأَسْماءُ
تَعَبَّتْ في مِراسِهِ الأقوياءُ^{٧٣}
قُ مُبِينًا وقومُهُ الفُصحاءُ

^{٦٨} دولة القياصر: الدولة الرومانية. والهرم: بلوغ أقصى الكبر.

^{٦٩} النداء: نداء الفناء.

^{٧٠} سامه الأمر: كلَّفه إياه، وأكثر ما يُستعمل في الشر والعذاب.

^{٧١} الإِدْجاء: الظلام.

^{٧٢} ضلة: ضلالاً. والشهاب: شعلة من نارٍ ساطعة، وقد يُطلق على الكوكب.

^{٧٣} المراس: هنا بمعنى المأخذ والمعالجة.

سَبَقَ الْخَلْقَ نَحْوَهُ الْبُلْغَاءُ
وَلَبَّى الْأَعْوَانُ وَالنُّصْرَاءُ^{٧٤}
لَمْ يُوَلَّفْ شَتَاتَهُنَّ لَوَاءُ^{٧٥}
وَالْحَقُّ وَالصَّوَابُ وَرَاءُ
وَهَبُوطٌ إِلَى الثَّرَى وَارْتِقَاءُ
سُلْبَتِهِ النُّجُومُ وَالْجَوَازُ
ضِيَاءٌ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ^{٧٦}
لِ كَمَا يَنْسَخُ الضِّيَاءُ الضِّيَاءُ
عُ عَلَى الْخَصْمِ بَيْنَهُمْ رُحَمَاءُ
وَتَتَوَلَّى الْعُلُومُ وَالْعِلْمَاءُ^{٧٧}
مَطْمَئِنٌّ بِهِ السَّنَا وَالسَّنَاءُ
جَاوَزَ الرُّشْدُ أَهْلَهَا وَالذِّكَا^{٧٨}
لُ وَنَالَتْ حَقْوَقَهَا الضَّعْفَاءُ
زَانَ مِنْ دِينِهَا إِلَى مَنْ تَشَاءُ
هُوَ طَبُّ الْوُجُودِ وَهُوَ الدَّوَاءُ
سَنٌّ وَالْجَاحِدُونَ وَالْأَعْدَاءُ
ذَوُوهَا وَيَشْتَهِي الْأَذْكَيَاءُ
وَلِمَنْ أَثَرُ الشَّقَاءِ شَقَاءُ
عُ عَجِيبًا أَنْ تُنْجِبَ الْبِيدَاءُ^{٧٩}
عُ تَرَاهَا آسَادَهَا الْهَيْجَاءُ

لَمْ يَفْهُ بِالنُّوَابِغِ الْغُرِّ حَتَّى
وَأَتَتْهُ الْعَقُولُ مُنْقَادَةَ اللَّبِّ
جَاءَ لِلنَّاسِ وَالسَّرَائِرُ فَوْضَى
وَجِمَى اللَّهِ مُسْتَبَاحٌ وَشَرَعُ اللَّهِ
فَلِجَبْرِيلَ جِيئَتْ وَرَوَاحُ
يُحْسَبُ الْأَفْقُ فِي جَنَاحِيهِ نَوْرُ
تِلْكَ آيِ الْفُرْقَانِ أَرْسَلَهَا اللَّهُ
نَسَخَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّينَ وَالرُّسَدَ
وَحَمَاهَا غُرٌّ كِرَامٌ أَشَدًّا
أُمَّةٌ يَنْتَهِي الْبَيَانُ إِلَيْهَا
جَازَتْ النُّجُومَ وَاطْمَأَنَّتْ بِأَفْقِ
كُلَّمَا حَثَّتِ الرِّكَابَ لِأَرْضِ
وَعَلَا الْحَقُّ بَيْنَهُمْ وَسَمَا الْفَضْ
تَحْمِلُ النُّجُومَ وَالْوَسِيلَةَ وَالْمِي
وَتُنِيلُ الْوُجُودَ مِنْهُ نِظَامًا
يَرْجِعُ النَّاسُ وَالْعَصُورُ إِلَى مَا
فِيهِ مَا تَشْتَهِي الْعِزَائِمُ إِنْ هَمَّ
فَلِمَنْ حَاوَلَ النُّعِيمَ نَعِيمٌ
أَبْرَى الْعُجْمِ مِنْ بَنِي الظِّلِّ وَالْمَا
وَتُثِيرُ الْخِيَامَ آسَادَ هَيْجَا

^{٧٤} اللب: ما ذكا من العقل.

^{٧٥} الشتات: المتفرق.

^{٧٦} الآي: جمع آية.

^{٧٧} تتول: ترجع.

^{٧٨} حثَّ الركاب: أي حَضَّ الإبل على أن تُسرِع، والمراد: كلما انتقلت لأرض.

^{٧٩} أنجب الرجل: ولد ولدًا نجيبًا.

ما أُنَافَت على السواعد حتى الـ
تشهدُ الصيْنُ والبِحارُ وبغدا
مَنْ كَعَمِرُو البلادِ والضادُ ممَّا
شَادَ للمسلمين ركنًا جسامًا
طالما قامت الخلافةُ فيه
وانتهى الدَّيْنُ بالرجاءِ إليه
مَنْ يَصْنُه يَصْنُ بَقِيَّةَ عَزٍّ
فابكِ عَمْرًا إِنْ كُنْتَ مُنْصِفَ عَمْرٍو
جَادَ للمسلمين بالنَّيْل والنَّيِّبِ
فهي تَعْلُو شَأْنًا إِذَا حُرِّرَ النَّيِّبِ
أَرْضُ طُرًّا فِي أَسْرِهَا والفضاءُ
د ومَصْرُ والغرب والحمراءُ^{٨٠}
شَادَ فِيهَا والمِلَّةُ الغُرَّاءُ
ضَافِي الظِّلِّ دَابُّهُ الإيَّوَاءُ^{٨١}
فَاطْمَأْنَنْتْ وَقَامَتْ الخُلَفَاءُ
وَبَنُو الدَّيْنِ إِذْ هُمْ ضُعَفَاءُ
غِيْضُ التَّرْكُ صَفْوُهُ والثَّوَاءُ^{٨٢}
إِنَّ عَمْرًا لَنَيِّرٌ وَضَاءُ
لِ لِمَنْ يِقْتَنِيهِ أَفْرِيْقَاءُ
لُ وَفِي رِقِّهِ لَهَا إِزْرَاءُ^{٨٣}

* * *

واذْكُرِ الغُرَّ آلَ أَيُوبَ وامْدَحْ
هم حُمَاةَ الإسلامِ والنفرِ البِيْدِ
كُلَّ يَوْمٍ بالصالحيةِ حِصْنُ
وبمَصْرٍ للعلمِ دَارٌ وللضَّيِّبِ
ولأَعْدَاءِ آلِ أَيُوبَ قَتْلُ
يَعْرِفُ الدَّيْنُ مَنْ صَلاَحٌ وَيَدْرِي
فَمِنْ المَدْحِ للرجالِ جزاءُ^{٨٤}
ض الملوكِ الأَعَزَّةِ الصُّلَحَاءُ^{٨٥}
وَبِئْلَبَيْسَ قَلْعَةً شَمَاءُ
فَإِنْ نَارٌ عَظِيْمَةٌ حَمْرَاءُ
ولَأَسْرَاهُمْ قِرَى وثَوَاءُ^{٨٦}
مَنْ هُوَ المَسْجِدَانِ والإِسْرَاءُ^{٨٧}

^{٨٠} الحمراء: قصرٌ مشهور بالأندلس.

^{٨١} الجسام: العظيم.

^{٨٢} الثَّوَاءُ: الإقامة.

^{٨٣} أَرَى عليه عمله: عابه.

^{٨٤} يشير إلى الدولة الأيوبية التي أسَّسها صلاح الدين الأيوبي، وحكمت مصر من سنة ١١٧١ إلى سنة

١٢٥٠م.

^{٨٥} الأبيض: السيف أو النجم، والجمع بيض.

^{٨٦} القرى: الضيافة. والثَّوَاءُ: الإقامة.

^{٨٧} صلاح: صلاح الدين الأيوبي.

إنه حصنه الذي كان حصناً
يوم سار الصليب والحاملوه
بنفوس تجول فيها الأماني
يضمرون الدمار للحق والنا
ويهدون بالتلاوة والصُلـ
فتلقَّتْهم عزائمُ صدق
مزقت جمعهم على كل أرض
وسبت أمرد الملوك فردت
ولو أن المليك هيب أذاه
هكذا المسلمون والعربُ الخا
فيهم في الزمان نلنا الليالي
ليس للذل حيلة في نفوس

وجماه الذي به الاحتماء
ومشى الغرب قومُه والنساء
وقلوب تثور فيها الدماء
س ودين الذين بالحق جاءوا
بان ما شاد بالقنا البناء
نص للدين بينهم خباء^{٨٨}
مثلما مزق الظلام الضياء
ه وما فيه للرعايا رجاء^{٨٩}
لم يخلصه من أذاها الفداء
لون لا ما يقوله الأعداء
وبهم في الورى لنا أنباء
يستوي الموت عندها والبقاء

* * *

واذكر الترك إنهم لم يطاعوا
حكمت دولة الجراكس عنهم
واستبدت بالأمر منهم فـ «باشا» التـ
يأخذ المال من مواعيد ما كا
ويسومونه الرضا بأمور
فيداري ليعصم الغد منهم

فيرى الناس أحسنوا أم أساءوا
وهي في الدهر دولة عسراء^{٩٠}
رك في مصر آلة صماء
نوا لها منجزين فهي هباء
ليس يرضى أقلهن الرضاء^{٩١}
والمُداراة حكمة ودهاء

* * *

^{٨٨} نص الشيء: رفعه. والخباء: ما يعمل من وبر أو صوف أو شعر، ويكون عمودين أو ثلاثة.
^{٨٩} سبي العدو: أسره. وأمرد الملوك: لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أبطال الصليبيين، أسره توران شاه في موقعة المنصورة الفاصلة، ثم فدى نفسه وبقيّة أهله وعساكره بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ فرنك.
^{٩٠} الجراكس: المماليك. وعسراء: أي شديدة ظالمة.
^{٩١} سامه الأمر: كلفه إياه، وأكثر ما يكون في الشر.

وَأَتَى النَّسْرُ يَنْهَبُ الْأَرْضَ نَهَبًا
يَشْتَهِي النَّيْلَ أَنْ يَشِيدَ عَلَيْهِ
حَلَمَتْ رُومَةٌ بِهَا فِي اللَّيَالِي
فَأَتَتْ مِصْرَ رُسُلُهُمْ تَتَوَالَى
وَلَوْ اسْتَشْهَدَ الْفَرَنْسِيُّسُ رُومًا
عَلِمَتْ كُلُّ دَوْلَةٍ قَدْ تَوَلَّتْ
قَاهِرُ الْعَصْرِ وَالْمَمَالِكِ نَابِلْ-
جَاءَ طَيْشًا وَرَاحَ طَيْشًا وَمِنْ قَبْ
سَكَّتَتْ عَنْهُ يَوْمَ عَيْرِهَا الْأَهْ
فَهِيَ تُوجِي إِلَيْهِ أَنْ تَلِك «وَاتِرْ

حَوْلَهُ قَوْمُهُ النَّسُورُ ظُمَاءٌ^{٩٢}
دَوْلَةٌ عَرْضُهَا الثَّرَى وَالسَّمَاءُ
وَرَأَاهَا الْقِيَاصُ الْأَقْوِيَاءُ
وَتَرَامَتْ سَوَادَنَهَا الْعُلَمَاءُ^{٩٣}
لَأَتَتْهُمْ مِنْ رُومَةٍ الْأَنْبَاءُ
أَنَّنَا سَمُّهَا وَأَنَا الْوِبَاءُ
يُونُ وَلَّتْ قَوَادُّهُ الْكُبْرَاءُ
لُ أَطَاشَتْ أَنْسَاهَا الْعَلِيَاءُ
رَامُ لَكِنْ سَكُوتُهَا اسْتَهْزَاءُ
لَوْ» فَأَيْنَ الْجِيُوشُ أَيْنَ اللَّوَاءُ^{٩٤}

^{٩٢} النسْر: نابليون بونابرت.

^{٩٣} ترامى القوم: رمى بعضهم بعضًا.

^{٩٤} واترلو (في ١٨ يونيو سنة ١٨١٥م): موقعة دارت رحاها بين نابليون وولنجتون القائد الإنجليزي الشهير، فانتصر الأخير بمساعدة بلوخر القائد الروسي، وكان من نتائج هزيمة نابليون في هذه الموقعة أسره ونفيه إلى جزيرة «سنت هيلانة»، حيث قضى البقية الباقية من حياته.

الهمزية النبوية

وُلِدَ الْهُدَى فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ
الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَأْتُ حَوْلَهُ
وَالْعَرْشُ يَزْهُو وَالْحَظِيرَةُ تَزْدهي
وَحَدِيقَةُ الْفُرْقَانِ ضَاكِكَةُ الرُّبَا
وَالْوَحْيُ يَقْطُرُ سِلْسِلًا مِنْ سِلْسِلِ
نُظْمَتِ أَسَامِي الرُّسُلِ فَهِيَ صَحِيفَةٌ
اسْمُ الْجَلَالَةِ فِي بَدِيعِ حُرُوفِهِ
وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ
لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ^١
وَالْمُنْتَهَى وَالسُّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ^٢
بِالْتَرَجْمَانِ شَذِيَّةٌ غَنَاءُ^٣
وَاللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْبَدِيعُ رُؤَاءُ^٤
فِي اللَّوْحِ وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ^٥
أَلِفٌ هُنَالِكَ وَاسْمُ «طه» الْبَاءُ

* * *

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الْوُجُودَ تَحِيَّةً
بِئْتُ النَّبِيِّينَ الَّذِي لَا يَلْتَقِي
مَنْ مُرْسَلِينَ إِلَى الْهُدَى بِكَ جَاءُوا
إِلَّا الْحَنَائِفُ فِيهِ وَالْحُنَفَاءُ^٦

^١ الروح الأمين: لقب جبريل. والملا: الأشراف. والملائك: الملائكة. وبُشْرَاء: جمع بشير.

^٢ يزهو: يَشْرِق. وسدرة المنتهى: يقال إنها شجرة نبيّ على يمين العرش.

^٣ الرُّبَا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض.

^٤ الرواء: ماء الوجه وحسن المنظر.

^٥ الطغراء: ما يُسمَّى العامة «طرة»، وأصلها طغرى بالقصر، وهي التي تُكتب بالقلم الغليظ في صدر الأوامر.

^٦ الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، وكل مَنْ كان على دين إبراهيم عليه السلام، والجمع حُنَفَاء، والمؤنث حنيفَة، وجمعها حَنَائِف.

خَيْرُ الْأَبْوَةِ حَازَهُمْ لَكَ «آدَمُ»
 هُمْ أَدْرَكُوا عِزَّ النَّبُوَّةِ وَانْتَهَتْ
 خُلِقَتْ لَبَيْتِكَ وَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهَا
 بِكَ بِشَرِّ اللَّهِ السَّمَاءُ فَرِيقَتِ
 وَبَدَأَ مُحْيَاكَ الَّذِي قَسَمَاتُهُ
 وَعَلَيْهِ مِنْ نُورِ النَّبُوَّةِ رَوْنَقُ
 أَتْنَى «الْمَسِيحِ» عَلَيْهِ خَلْفَ سَمَائِهِ
 يَوْمَ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ
 الْحَقُّ عَالِي الرُّكْنِ فِيهِ مُظْفَرُ
 دُعِرَتْ عُرُوشُ الظَّالِمِينَ فُزِّلَتْ
 وَالنَّارُ خَاوِيَةُ الْجَوَانِبِ حَوْلَهُمْ
 وَالْأَيُّ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةُ
 نِعَمَ الْيَتِيمِ بَدَتْ مَخَايِلُ فَضْلِهِ
 فِي الْمَهْدِ يُسْتَسْقَى الْحَيَا بِرَجَائِهِ
 بِسَوَى الْأَمَانَةِ فِي الصَّبَا وَالصَّدَقُ لَمْ
 يَا مَنْ لَهُ الْأَخْلَاقُ مَا تَهْوَى الْعُلَا
 لَوْ لَمْ تُقَمِّ دِينًا لِقَامَتْ وَحدها

دُونَ الْأَنْفَامِ وَأَحْرَزْتَ حَوَاءُ
 فِيهَا إِلَيْكَ الْعِزَّةُ الْقَعَسَاءُ^٧
 إِنْ الْعِظَائِمُ كُفُّواهَا الْعُظْمَاءُ
 وَتَضَوَّعَتْ مَسْكََا بِكَ الْغَبْرَاءُ^٨
 حَقٌّ وَغُرَّتْهُ هُدًى وَحِيَاءُ^٩
 وَمِنْ الْخَلِيلِ وَهَدِيهِ سِيمَاءُ^{١٠}
 وَتَهَلَّلَتْ وَاهْتَزَّتْ «الْعِذْرَاءُ»^{١١}
 وَمَسَاوَاهُ بِ «مَحْمَدٍ» وَضَاءُ
 فِي الْمُلْكِ لَا يَعْلُو عَلَيْهِ لَوَاءُ
 وَعَلَتْ عَلَى تَيْجَانِهِمْ أَصْدَاءُ
 خَمَدَتْ ذَوَائِبُهَا وَغَاضَ الْمَاءُ^{١٢}
 «جَبْرِيلُ» رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ^{١٣}
 وَالْيَتِيمُ رَزَقٌ بَعْضُهُ وَذَكَاءُ^{١٤}
 وَبِقِصْدِهِ تُسْتَدْفَعُ الْبِأَسَاءُ^{١٥}
 يَعْرِفُهُ أَهْلُ الصَّدَقِ وَالْأَمْنَاءُ
 مِنْهَا وَمَا يَتَعَشَّقُ الْكُفْرَاءُ
 دِينًا تُضِيءُ بِنُورِهِ الْآنَاءُ

^٧ القعساء: المنبعة الثابتة.

^٨ تضوَّع المسك: انتشرت رائحته. والغبراء: الأرض.

^٩ القسمة: ما بين الوجنتين والأنف، وجمعها قسَمَات.

^{١٠} الخليل: إبراهيم عليه السلام.

^{١١} العذراء: السيِّدة مريم.

^{١٢} خمدت النار: سكن لهيبها. والذوائب: جمع ذؤابة، وهي أعلى كل شيء، والمراد بالذوائب هنا السنة
 اللهيب.

^{١٣} تترى: تتوالى. ورَوَّاحٌ غَدَاءُ: أي يروح ويغدو.

^{١٤} المخيلة: المظنة.

^{١٥} استسقى الرجل: طلب السقي. والحيا: المطر.

يُغْرَى بِهِنَّ وَيُوَلِّعُ الْكُرَمَاءُ
 وَمَلَا حَةَ «الْصَدِّيقِ» مِنْكَ أَيَّاءُ^{١٦}
 مَا أُوتِيَ الْقَوَادُ وَالزُّعَمَاءُ
 وَفَعَلْتَ مَا لَا تَفْعَلُ الْأَنْوَاءُ^{١٧}
 لَا يَسْتَهِينُ بِعَفْوِكَ الْجُهْلَاءُ
 هَذَا فِي الدُّنْيَا هُمَا الرُّحَمَاءُ
 فِي الْحَقِّ لَا ضِغْنٌ وَلَا بَغْضَاءُ^{١٨}
 وَرِضَا الْكَثِيرِ تَحْلُمٌ وَرِيَاءُ^{١٩}
 تَعْرِوُ النَّدَى وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ^{٢٠}
 جَاءَ الْخُصُومَ مِنَ السَّمَاءِ قَضَاءُ
 أَنْ الْقِيَاصِرَ وَالْمُلُوكَ ظِمَاءُ
 يَدْخُلُ عَلَيْهِ الْمُسْتَجِيرَ عَدَاءُ
 وَلَوْ أَنَّ مَا مَلَكَتْ يَدَاكَ الشَّاءُ
 وَإِذَا ابْتَنَيْتَ فِدُونَكَ الْآبَاءُ^{٢١}
 فِي بُرْدِكَ الْأَصْحَابُ وَالْخُلَطَاءُ
 فَجَمِيعُ عَهْدِكَ زِمَّةٌ وَوَفَاءُ
 وَإِذَا جَرَيْتَ فَإِنَّكَ النُّكْبَاءُ^{٢٢}
 حَتَّى يَضِيقَ بِعَرَضِكَ السُّفْهَاءُ
 وَلِكُلِّ نَفْسٍ فِي نَدَاكَ رَجَاءُ^{٢٣}

زَانَتْكَ فِي الْخُلُقِ الْعَظِيمِ شَمَائِلُ
 أَمَّا الْجَمَالُ فَأَنْتَ شَمْسُ سَمَائِهِ
 وَالْحَسَنُ مِنْ كَرَمِ الْوُجُوهِ وَخَيْرُهُ
 فَإِذَا سَخَوْتَ بَلَغْتَ بِالْجُودِ الْمَدَى
 وَإِذَا عَفَوْتَ فَقَادِرًا وَمَقْدَرًا
 وَإِذَا رَجِمْتَ فَأَنْتَ أُمٌّ أَوْ أَبٌ
 وَإِذَا غَضِبْتَ فَإِنَّمَا هِيَ غَضَبُهُ
 وَإِذَا رَضِيتَ فَذَلِكَ فِي مَرْضَاتِهِ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ
 وَإِذَا قَضَيْتَ فَلَا ارْتِيَابَ كَأَنَّمَا
 وَإِذَا حَمَيْتَ الْمَاءَ لَمْ يُورَدَ وَلَوْ
 وَإِذَا أَجَرْتَ فَأَنْتَ بَيْتُ اللَّهِ لَمْ
 وَإِذَا مَلَكَتِ النَّفْسَ قُمْتَ بِبِرِّهَا
 وَإِذَا بَنَيْتَ فَخَيْرُ زَوْجٍ عَشْرَةٌ
 وَإِذَا صَحِبْتَ رَأَى الْوَفَاءَ مَجَسَّمًا
 وَإِذَا أَخَذْتَ الْعَهْدَ أَوْ أَعْطَيْتَهُ
 وَإِذَا مَشَيْتَ عَلَى الْعِدَا فَعُضُنْفَرُ
 وَتَمَدُّ حِلْمِكَ لِلْسَفِيهِ مُدَارِيًا
 فِي كُلِّ نَفْسٍ مِنْ سَطَاكِ مَهَابَةٌ

^{١٦} أَيَّاءُ الشَّمْسِ وَأَيَّاتُهَا: نُورُهَا وَحُسْنُهَا.

^{١٧} النَّوَاءُ: الْمَطَرُ.

^{١٨} الضِّغْنُ: الْحَقْدُ.

^{١٩} التَّحْلُمُ: تَكْلُفُ الْحِلْمِ.

^{٢٠} النَّدَى: النَّادِي.

^{٢١} بَنَى بِأَهْلِهِ: زُفَّ إِلَيْهِمْ. وَابْتَنَى: صَارَ لَهُ بَنُونَ.

^{٢٢} غُضُنْفَرُ: أَسَدٌ. وَالنُّكْبَاءُ: رِيحٌ بَيْنَ رِيحَيْنِ.

^{٢٣} سَطَا: جَمَعَ سَطْوَةً.

والرأي لم يُنص المهند دونه كالسيف لم تُضرب به الآراء^{٢٤}

* * *

يا أيها الأمي حسبك رتبة
الذكر آية ربك الكبرى التي
صدّر البيان له إذا التقت اللغى
نسخت به التوراة وهي وضيفة
لما تمشى في «الحجاز» حكيمة
أزرى بمنطق أهله وبيانهم
حسدوا فقالوا شاعر أو ساحر
قد نال بـ «الهادي» الكريم وبـ «الهدى»
أمسى كأنك من جلالك أمة
يوحى إليك الفوز في ظلماته
دين يشيد آية في آية
الحق فيه هو الأساس وكيف لا
أما حديثك في العقول فمشرع
هو صبغة الفرقان نفحة قدسه
جرت الفصاحة من ينابيع النهى

في العلم أن دانت بك العلماء^{٢٥}
فيها لباعي المعجزات غناء^{٢٦}
وتقدّم البلغاء والفصحاء^{٢٧}
وتخلف الإنجيل وهو ذكاء^{٢٨}
فضت «عكاظ» به وقام جراء^{٢٩}
وحي يقصر دونه البلغاء^{٣٠}
ومن الحسود يكون الاستهزاء
ما لم تنل من سؤد سيناء
وكأنه من أنسه بيداء
مُتتابعا تجلى به الظلماء
لبنائه السورات والأضواء
والله جل جلاله البناء
والعلم والحكم الغوالي الماء^{٣١}
والسين من سوراته والراء^{٣٢}
من دوحه وتفجر الإنشاء^{٣٣}

^{٢٤} نضا السيف من غمده: سلّه. والمهند: السيف المطبوع من حديد.

^{٢٥} دان به: اتخذ دينا.

^{٢٦} الباغي: الطالب. والغناء: ما يُعني.

^{٢٧} اللغى: جمع لغة.

^{٢٨} ذكاء: من أسماء الشمس.

^{٢٩} جراء: الغار الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ ونزل عليه فيه الوحي.

^{٣٠} أزرى به: عابه.

^{٣١} مشرع: مورد.

^{٣٢} الصبغة: النوع.

^{٣٣} الدوح: الشجر العظيم المتسع.

فِي بَحْرِهِ لِلْسَابِحِينَ بِهِ عَلَى أَدَبِ الْحَيَاةِ وَعِلْمِهَا إِرْسَاءُ
أَتَتْ الدَّهْورُ عَلَى سُلَافَتِهِ وَلَمْ تَفْنِ السُّلَافُ وَلَا سَلَا النُّدْمَاءُ^{٣٤}

* * *

بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللَّهِ قَامَتْ سَمْحَةٌ بِالْحَقِّ مِنْ مِلَلِ الْهُدَى غَرَاءُ^{٣٥}
بُنِيَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَهِيَ حَقِيقَةٌ نَادَى بِهَا سَقْرَاطُ وَالْقُدْمَاءُ
وَجَدَ الزُّعَافَ مِنَ السُّمُومِ لِأَجْلِهَا كَالشَّهْدِ ثُمَّ تَتَابَعَ الشُّهْدَاءُ
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بَنُورِهَا كُھَّانُ وَادِي النِّيلِ وَالْعُرْفَاءُ^{٣٦}
إِيزِيسُ ذَاتُ الْمُلْكِ حِينَ تَوَحَّدَتْ أَخَذَتْ قِوَامَ أُمُورِهَا الْأَشْيَاءُ^{٣٧}
لَمَّا دَعَوَتْ النَّاسَ لِبَنَى عَاقِلٌ وَأَصَمَّ مِنْكَ الْجَاهِلِينَ نِدَاءُ
أَبَوْا الْخُرُوجَ إِلَيْكَ مِنْ أَوْهَامِهِمْ وَالنَّاسُ فِي أَوْهَامِهِمْ سُجْنَاءُ
وَمِنْ الْعُقُولِ جِدَاوِلٌ وَجِلَامِدٌ وَمِنْ النِّفُوسِ حِرَائِرٌ وَإِمَاءُ^{٣٨}
دَاءُ الْجَمَاعَةِ مِنْ أَرِسْطَالِيسَ لَمْ يُوصَفْ لَهُ حَتَّى أَتَيْتَ دَوَاءُ
فَرَسَمْتَ بَعْدَكَ لِلْعِبَادِ حَكُومَةً لَا سُوقَةً فِيهَا وَلَا أُمَرَاءُ
اللَّهُ فَوْقَ الْخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ وَالنَّاسُ تَحْتَ لِوَائِهَا أَكْفَاءُ
وَالدِّينُ يُسَرُّ وَالْخِلَافَةُ بَيْعَةٌ وَالْأَمْرُ شُورَى وَالْحَقُوقُ قِضَاءُ
الْإِشْتِرَاكِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَوْلَا دَعَاوَى الْقَوْمِ وَالْغُلُوءُ^{٣٩}
دَاوَيْتَ مُتَنَدِّدًا وَدَاوَاوَا طَفِرَةً وَأَخَفُ مِنْ بَعْضِ الدَّوَاءِ الدَّاءُ^{٤٠}
الْحَرْبُ فِي حَقِّ لَدِيكَ شَرِيعَةٌ وَمِنْ السُّمُومِ النَّاقِعَاتُ دَوَاءُ^{٤١}

^{٣٤} السلاف والسلافة: أفضل الخمر.

^{٣٥} السمحة: الملة التي ليس فيها ضيق.

^{٣٦} العراف: المنجم، والجمع عرفاء.

^{٣٧} إيزيس: من آلهة المصريين القدماء.

^{٣٨} الجدول: النهر الصغير، والجلمود: الصخر.

^{٣٩} الغلواء: الغلؤ.

^{٤٠} متندداً: متأنياً. وطفر: وثب.

^{٤١} الناقعات: القاتلات.

والبرُّ عندك ذمَّةٌ وفريضةٌ
جاءت فوحَّدت الزكاةُ سبيلَه
أنصفت أهلَ الفقرِ من أهلِ الغنى
فلو أنَّ إنسانًا تخيَّرَ مِلَّةً
لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وجِبَاءٌ^{٤٢}
حتى التقي الكرماءُ والبُخلاءُ
فالكلُّ في حق الحياة سواءُ
ما اختار إلا دينك الفقراءُ

* * *

يا أيها المُسرى به شرفًا إلى
يتساءلون وأنت أظهُرُ هيكلٍ
بهما سموتَ مُطَهَّرين كلاهما
فضلٌ عليك لذي الجلالِ ومِنَّةٌ
تغشى الغيوبَ من العوالمِ كُلِّما
في كلِّ مِنطقةٍ حواشي نورها
أنتَ الجمالُ بها وأنتَ المُجتلى
اللهُ هيأَ من حظيرةِ قُدسِه
العرشُ تحتك سُدةٌ وقوائِمًا
والرُّسلُ دون العرشِ لم يُؤذَنَ لهم
ما لا تنالُ الشمسُ والجِوزاءُ^{٤٣}
بالرُّوحِ أم بالهيكلِ الإسراءُ^{٤٤}
نورٌ وريحانيةٌ وبَهَاءُ
واللهُ يفعل ما يرى ويشاءُ
طُوِيَتِ سماءٌ قُلِّدَتِك سماءُ^{٤٥}
نونٌ وأنتَ النقطةُ الزهراءُ
والكفُ والمِراةُ والحسناءُ
نُزُلًا لِذاتِكَ لم يَجْزِهَ علاءُ
ومَنَّاكِبُ الرُّوحِ الأَمِينِ وطاءُ
حاشا لغيرِكَ مَوعِدُ ولقاءُ

* * *

الخيل تَأبَى غيرَ «أحمد» حاميًا
شيخُ الفوارسِ يَعْلَمون مكانَه
وإذا تصدَّى للظُّلِّبا فمُهَنَّدُ
وإذا رمى عن قوسِه فيمِينُهُ
وبها إذا ذُكِرَ اسمُه خِيلاءُ
إنَّ هَيَّجَتِ آسَادَها الهَيِّجاءُ
أو للرماحِ فصَّعدتُ سمراءُ^{٤٦}
قَدَرُ وما ترمي اليمِينُ قضاءُ

^{٤٢} البرُّ: الإحسان. وذمة: عهد. والمِنَّة: العطية. والمنونة: المتبوعة بالمنِّ.

^{٤٣} الإسراء: السَّير ليلاً.

^{٤٤} الهيكل: الجسم والصورة والشخص.

^{٤٥} غشي المكان يغشاه: أتاحه.

^{٤٦} الظُّبا: جمع ظُبة، وهي حد السيف. والصعدة: القناة المُستوية.

فَلِسَيْفِهِ فِي الرَّاسِيَّاتِ مَضَاءٌ^{٤٧}
أَمِنْتُ سَنَابِكَ حَايِلِهِ الْأَشْلَاءُ
مَا لَمْ تَزِنْهَا رَأْفَةً وَسَخَاءُ
فَالْمَجْدُ مِمَّا يَدْعُونَ بَرَاءُ
وَيَنْوُو تَحْتَ بَلَائِهَا الضُّعْفَاءُ
فِيهَا رِضًا لِلْحَقِّ أَوْ إِعْلَاءُ
فِي إِثْرِهَا لِلْعَالَمِينَ رِخَاءُ
فَعَلَى الْجَهَالَةِ وَالضَّلَالِ عَفَاءُ
حَقَنْتَ دِمَاءً فِي الزَّمَانِ دِمَاءُ

مَنْ كُلِّ دَاعِي الْحَقِّ هَمَّةٌ سَيْفِهِ
سَاقِي الْجَرِيحِ وَمُطْعِمُ الْأَسْرَى وَمَنْ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الرِّجَالِ غِلَظَةٌ
وَالْحَرْبُ مِنْ شَرَفِ الشُّعُوبِ فَإِنْ بَغَا
وَالْحَرْبُ يَبْعَثُهَا الْقَوِيُّ تَجَبُّرًا
كَمْ مِنْ غَزَاةٍ لِلرَّسُولِ كَرِيمَةٍ
كَانَتْ لَجُنْدِ اللَّهِ فِيهَا شِدَّةٌ
ضَرَبُوا الضَّلَالَةَ ضَرْبَةً زَهَبَتْ بِهَا
دَعَمُوا عَلَى الْحَرْبِ السَّلَامَ وَطَالَمَا

* * *

بَيْنَ النَفُوسِ حِمَى لَهُ وَوَقَاءُ
إِلَّا صَبِيٍّ وَاحِدٌ وَنِسَاءُ
مُسْتَضْعَفُونَ قَلَائِلُ أَنْضَاءُ^{٤٨}
مَا لَا تَرُدُّ الصَّخْرَةَ الصَّمَاءُ
بَرْدٍ فِيهِ كَتِيبَةٌ خَرَسَاءُ^{٤٩}
وَاسْتَأْصَلُوا الْأَصْنَامَ فَهِيَ هَبَاءُ^{٥٠}
وَبِهِمْ حِيَالٌ نَعِيمِهَا إِغْضَاءُ
لَمْ يُطْغِهِمْ تَرْفٌ وَلَا نَعْمَاءُ

الْحَقُّ عَرِضُ اللَّهِ كُلُّ أَبِيَّةٍ
هَلْ كَانَ حَوْلَ «مُحَمَّدٍ» مِنْ قَوْمِهِ
فَدَعَا فَلَبَّى فِي الْقَبَائِلِ عُصْبَةٌ
رَدُّوا بِبَاسِ الْعَزَمِ عَنْهُ مِنَ الْأَذَى
وَالْحَقُّ وَالْإِيمَانُ إِنْ صُبًّا عَلَى
نَسَفُوا بِنَاءَ الشُّرْكِ فَهُوَ خَرَابٌ
يَمْشُونَ تَغْضِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ هَيْبَةٌ
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ لَهُمْ أَطْرَافُهَا

* * *

وَهُوَ الْمُنَزَّهَ مَا لَهُ شُفْعَاءُ
وَالْحَوْضُ أَنْتَ حِيَالَهُ السَّقَاءُ

يَا مَنْ لَهُ عِزُّ الشَّفَاعَةِ وَحَدُّهُ
عَرْشُ الْقِيَامَةِ أَنْتَ تَحْتَ لَوَائِهِ

^{٤٧} مضى السيف مَضَاءً: قطع.

^{٤٨} النَّضْوُ: المهزول من الإبل وغيرها.

^{٤٩} الكَتِيبَةُ الخرساء: التي لا يُسَمَعُ فيها صوت.

^{٥٠} الهَبَاءُ: الغبار.

والصالحاتُ ذخائرُ وجزاءُ
وانشَقَّ مِنْ خَلَقٍ عَلَيْكَ رِداءُ
تُيِّمَنَّ فِيكَ وَشَاقَّهِنَّ جِلاءُ^{٥١}
فمُهورُهُنَّ شِفاعَةُ حَسَناءُ
ماذا يَقُولُ وَيَنْظُمُ الشُّعراءُ
هي أَنْتَ بَلْ أَنْتَ اليَدُ البِيضاءُ
وَمِنَ المِديحِ تَضَرُّعٌ ودُعاءُ
فِي مِثْلِها يُلقَى عَلَيْكَ رِجاءُ
رَكِبْتَ هِواها والقلوبُ هِواءُ
ثِقَّةٌ وَلَا جَمَعَ القلوبُ صِفاءُ
ونَعِيمُ قومٍ فِي القُيودِ بلاءُ

تَروي وتَسقي الصالحينَ ثِوابَهُم
أَلِمْثِلِ هَذَا ذُقْتَ فِي الدُّنيا الطَّوى
لي فِي مِديحِكَ يا رِسلُ عِرائِسُ
هُنَّ الجِسانُ فَإِنْ قَبِلْتَ تَكَرُّماً
أَنْتَ الَّذِي نَظَّمَ البَريَّةَ دِينُهُ
المُصلِحونَ أَصابِعُ جُمِعتَ يَدًا
ما جِئْتَ بِأَبْكَ مادِحًا بل دَاعيًّا
أَدْعوكَ عَن قَومِي الضُّعافِ لِأَزمَةٍ
أَدْرى رِسلُ اللّهِ أَنَّ نُفوسَهُم
مُتَفَكِّكونَ فَمَا تَضُمُّ نُفوسَهُم
رَقَدُوا، وَغَرَّهْمُ نَعِيمٌ باطلٌ

* * *

ما لَمْ يَنَلْ فِي رِوَمَةِ الفُقهاءُ
فِي الدِّينِ والدُّنيا بِها السُّعداءُ
حَادٍ وَحَنَّتْ بِالْفلَا وَجَناءُ^{٥٢}
بِجَنانٍ عَدِنَ أَلْكَ السُّمحاءُ
سَبَبٌ إِلَيْكَ فَحَسْبِي «الزَّهراءُ»

ظَلَمُوا شَريعَتَكَ الَّتِي نَلَّنا بِها
مَشَتْ الحِضارَةُ فِي سَناهاِ واهْتَدَى
صَلَّى عَلَيْكَ اللّهُ ما صَحِبَ الدُّجى
وَاسْتَقْبَلَ الرِّضوانَ فِي عُزْفَاتِهِم
خَيْرُ الوِسايلِ مَن يَقَعُ مِنْهُمُ عَلَى

^{٥١} شاقَّه الحبُّ: هاجَّه.

^{٥٢} الوجناء: الناقة الشديدة.

صدى الحرب^١

وَيُنْصِرُ دِينَ اللَّهِ أَيَّانَ تَضْرِبُ
وَلَا الْأَمْرُ إِلَّا لِلَّذِي يَتَغَلَّبُ
لِنِعَمِ الْمُرَبِّي لِلطُّغَاةِ الْمُؤَدَّبِ
فَنِعَمَ الْحَسَامِ الطَّبِّ وَالْمُتَطَبِّبِ^٢
وَأِنْ هُوَ نَامَ اسْتَيْقَظَتْ تَتَأَلَّبُ
و«أَرْمِينِيَا» تُكَلِّي وَ«حُورَانُ» أَشِيبُ^٣
رَجَاؤُكَ يُعْطِيهَا، وَخَوْفُكَ يَسْلُبُ
بِأَسْطَعِ مِثْلَ الصَّبْحِ لَا يَتَكَذَّبُ^٤
يُسَارِيهِ مِنْ عَالِي ذِكَاكَ كَوَكْبُ^٥
تَكْشَفُ دَاجِي الْخَطْبِ وَانْجَابَ غَيْهَبُ^٦
لَهُمْ مَأْرَبُ فِيهَا وَلِلَّهِ مَأْرَبُ

بَسِيفِكَ يَعْطُو الْحَقُّ وَالْحَقُّ أَغْلَبُ
وَمَا السِّيفُ إِلَّا آيَةُ الْمَلِكِ فِي الْوَرَى
فَأَدَّبَ بِهِ الْقَوْمَ الطُّغَاةَ فَإِنَّهُ
وَدَاوِ بِهِ الدُّوَلَاتِ مِنْ كُلِّ دَائِهَا
تَنَامُ خُطُوبُ الْمَلِكِ إِنْ بَاتَ سَاهِرًا
أَمِنَا اللَّيَالِي أَنْ نُرَاعَ بِحَادِثِ
وَمَمْلَكَةُ «الْيُونَانِ» مُحَلُولَةُ الْعُرَى
هَدَدَتْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كِيَانَهَا
وَمَا زَالَ فَجْرًا سَيْفُ «عُثْمَانَ» صَادِقًا
إِذَا مَا صَدَعَتْ الْحَادِثَاتِ بِحَدِّهِ
وَهَابَ الْعِدَا فِيهِ خِلَافَتُكَ الَّتِي

^١ في وصف الوقائع العثمانية اليونانية.

^٢ المتطبيب: المتعاطي علم الطب.

^٣ تكلّي: مُصَابَةٌ بَيْنِيهَا الَّذِينَ نَالَهُمْ صَارِمُ التَّأْدِيبِ وَتَأْدِيبُ الصَّارِمِ. وَأَشِيبُ: عِلَاةُ الشَّيْبِ؛ لِكَثْرَةِ مَا أُدِّبُ وَأُنَّبِ.

^٤ الخطاب للسلطان عبد الحميد. وكيانها: وجودها. وبأسطع: بسيفٍ شديد السطوع.

^٥ معناه: لكل فجر كوكبٍ يُسَارِيهِ وَيُصْحِبُهُ، وَفَجَرَ هَذَا السِّيفُ رَأْيِكَ الْوَضَاءَ، وَمَا مُنَحَّتَ مِنْ نَادِرِ الذِّكَاةِ.

^٦ الداجي: المظلم. وانجاب: انكشف. والغيب: الظلام.

أُبُوَّةُ أمير المؤمنين

سما بك يا «عبد الحميد» أُبُوَّةُ
قياصرُ أحياناً خلائفُ تارةً
نجومُ سُعودِ المُلكِ أقمارُ زُهوهِ
تواصوا به عصراً فعصراً فزادَهُ
هُمُ الشمسُ لم تبرحَ سمواتِ عِزِّها
ثلاثون حُضَّارُ الجلالة غُيِّبُ^٧
خواقينُ طوراً والفَخَّارُ المقلَّبُ^٨
لو أنَّ النجومَ الزُّهرَ يجمعُها أبُ
مُعَمَّمُهُم من هِيبةٍ والمُعَصَّبُ^٩
وفينا ضُحاها والشعاعُ المُحَبَّبُ

الجلوسُ الأسعدُ

نهضتَ بعريشٍ ينهضُ الدهرُ دونهُ
مَكِينٍ على متنِ الوجودِ مُؤَيَّدٍ
ترَقَّتْ له الأسواءُ حتى ارتقيتَهُ
فَكَنتَ كعَيْنٍ ذاتِ جَرِيٍّ كمينَةٍ
موكَّلةٍ بالأرضِ تنسابُ في الثرى
فأَحْيَيْتَ مِيتاً دارِسَ الرسمِ غابِراً
وشدَّتْ مَناراً للخلافةِ في الورى
سَهَرَتْ ونامَ المسلمونَ بِغِبْطَةٍ
فَنَبَّهَنَّا الفتحُ الذي ما بفجرِهِ
خشوعاً وتخشاها الليالي وترهبُ
بشمسِ استواءٍ ما لها الدهرُ مَغْرَبُ^{١٠}
فَقُمْتَ بها في بعضِ ما تتنكَّبُ^{١١}
تَفِيضُ على مرِّ الزمانِ وتَعَذُّبُ
فيحيا وتجري في البلادِ فُتْخَصِبُ
كأنَّكَ فيما جئتَ عيسى المُقَرَّبُ^{١٢}
تُشْرِقُ فيهم شمسُهُ، وتُغْرِبُ
وما يُزْعِجُ النُّومَ والساهرُ الأبُ
ولا بِكَ يا فجرَ السلامِ مُكْذَبُ

^٧ أُبُوَّةُ: آباء. وحُضَّارُ وغُيِّبُ: جمع حاضر وغائب.

^٨ معناه: انفردوا بأمر المسلمين فهُمُ الخلفاء، واستوى عرشهم على الغرب والشرق فهم قياصر عظماء، وهم الخواقين (ملوك الترك).

^٩ معممهم: ذو العمامة منهم، وكذا المعصَّب، هو أيضاً المتَّوَجُّ. والعمامة والعصابة والتاج ممَّا لبس سلاطين آل عثمان.

^{١٠} مَكِين: عظيم مرتفع. والمتن: الظَّهر.

^{١١} الأسواء: جمع سوء، وهو كل ما يسوء. وتتنكَّب: تحمل.

^{١٢} الرسم: ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار. ودرس: أي بلي وعفا.

حلمٌ عظيم وبطشٌ أعظم

حُسَامُكَ مِنْ سِقْرَاطَ فِي الْخَطْبِ أَخْطَبُ
وعُودُكَ مِنْ عُودِ الْمَنَابِرِ أَصْلَبُ^{١٣}
وعِزُّكَ مِنْ «هُومِيرَ» أَمْضَى بَدِيهَةً
وَأَجْلَى بَيَانًا فِي الْقُلُوبِ وَأَعْدَبُ^{١٤}
وإنْ يَذْكُرُوا «إِسْكَندَرًا» وَفَتْوحَهُ
فَعَهْدُكَ بِالْفَتْحِ الْمُحْجَلِ أَقْرَبُ^{١٥}
وَمُلْكُكَ أَرْقَى بِالْأَدْلِيلِ حَكُومَةً
وَأَنْفَذُ سَهْمًا فِي الْأُمُورِ وَأَصُوبُ
ظَهُورًا يَسُوءُ الْحَاسِدِينَ وَيُتَعَبُ
لِرَأْيِكَ فِيهِمْ أَوْ لِسَيْفِكَ مَضْرِبُ^{١٦}
هَمٌّ مَلَأُوا الدُّنْيَا جَهَامًا وَرَاءَهُ
جَهَامٌ مِنَ الْأَعْوَانِ أَهْدَى وَأَكْذَبُ^{١٧}
فَلَمَّا اسْتَلَّتْ السَّيْفَ أَخْلَبَ بَرَقَهُمْ
وَمَا كُنْتَ يَا بَرَقَ الْمَنِيَّةِ تَخْلُبُ^{١٨}
أَخَذْتَهُمْ لَا مَالَكِينَ لِحَوْضِهِمْ
مِنْ الدَّوْدِ إِلَّا مَا أَطَالُوا وَأَسْهَبُوا
وَلَمْ يَتَكَلَّفْ قَوْمُكَ الْأُسْدُ أَهْبَةً
وَلَكِنَّ خُلُقًا فِي السَّبَاعِ التَّأَهُبُ
كَذَا النَّاسَ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صِلَاخُهُمْ
وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ
وَمِنْ شَرَفِ الْأَوْطَانِ أَلَا يَفُوتُهَا
حَسَامٌ مُعِزٌّ أَوْ يَرَاغُ مَهْدَبُ

معجزات الجنود على الحدود

مَلَكَتْ سَبِيلَهُمْ فِي الشَّرْقِ مَضْرِبُ
لِجَيْشِكَ مَمْدُودٌ وَفِي الْغَرْبِ مَضْرِبُ^{١٩}
ثَمَانُونَ أَلْفًا أُسْدٌ غَابَ ضَرَاغِمُ
لَهَا مَخْلَبٌ فِيهِمْ وَلِلْمَوْتِ مَخْلَبُ
إِذَا حَلَمْتَ فَالْشَّرُّ وَسَنَانُ حَالِمُ
وإنْ غَضِبْتَ فَالْشَّرُّ يَقْظَانُ مُغْضَبُ

^{١٣} سقراط: خطيب اليونان وحكيمها المشهور.

^{١٤} هومير: أكبر شعراء اليونان الأقدمين.

^{١٥} المحجل: المضيء المشرق.

^{١٦} نبا السيف عن الضريبة: كل وارتد.

^{١٧} الجهام: السحاب العظيم الذي لا ماء فيه. وهذى في الكلام: أكثر منه في خطأ.

^{١٨} أخلب برقهم: بطل وعيدهم. وتخلب: أي تخدع.

^{١٩} مضرب: فسطاط عظيم.

وَأَبْعَدُ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَقْرَبُ^{٢٠}
وَتَظْهَرُ فِي جِدِّ الْقِتَالِ وَتَلْعَبُ
وَتَطْلُعُ فِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ وَتَغْرُبُ
وَتُدِيرُ عِلْمًا بِالْوَعَى وَتُعْقِبُ^{٢١}
وَتَأْخُذُ عَفْوًا كُلَّ عَالٍ وَتَغْصِبُ^{٢٢}
فَتُثَبِّهُنَّ الْبِكْرُ وَالْبِكْرُ ثِيْبُ^{٢٣}
سَدِيدُ الْمَرَائِي فِي الْحُرُوبِ مُجْرِبُ^{٢٤}
كَمَا تَدْفَعُ اللَّجَّ الْبِحَارُ وَتَجْذِبُ^{٢٥}
فَكُلَّ خَمِيسٍ لَجَّةً تَتَضَرَّبُ^{٢٦}
كَمَا يَتَلَقَّى الْعَارِضُ الْمُتَشَعِّبُ^{٢٧}
كَمَا دَارَ يَلْقَى عَقْرَبَ السَّيْرِ عَقْرَبُ^{٢٨}
نَوَاطِرَ مَا تَأْتِي اللَّيْوُثُ وَتَغْرِبُ^{٢٩}
وَتَعْجَبُ بِالْقَوَادِ وَالْجُنْدُ أَعْجَبُ^{٣٠}
وَمُلْهِمَهَا فِيمَا تَنَالُ وَتَكْسِبُ^{٣١}
وَلَا الْجَيْشُ إِلَّا رَبُّهُ حِينَ يُنْسَبُ

فِيَالِقُ أَفْشَى فِي الْبِلَادِ مِنَ الضُّحَى
وَتُصْبِحُ تَلْقَاهُمْ، وَتُمْسِي تَصْدُهُمْ
تَلُوحُ لَهُمْ فِي كُلِّ أَفْقٍ وَتَعْتَلِي
وَتُقَدِّمُ إِقْدَامَ اللَّيْوُثِ وَتَنْثَنِي
وَتَمْلِكُ أَطْرَافَ الشُّعَابِ وَتَلْتَقِي
وَتَغْشَى أَبْيَاتَ الْمَعَاقِلِ وَالذُّرَا
يَقُودُ سَرَايَاهَا وَيَحْمِي لَوَاءَهَا
يَجِيءُ بِهَا حِينًا وَيَرْجِعُ مَرَّةً
وَيَرْمِي بِهَا كَالْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
وَيُنْفِذُهَا مِنْ كُلِّ شَعْبٍ فَتَلْتَقِي
وَيَجْعَلُ مِيقَاتًا لَهَا تَنْبِرِي لَهُ
فَظَلَّتْ عَيُونُ الْحَرْبِ حَيْرَى لِمَا تَرَى
تُبَالِغُ بِالرَّامِي وَتَزْهَوُ بِمَا رَمَى
وَتُنْثِنِي عَلَى مُزْجِي الْجِيُوشِ بـ «يَلْدِزِ»
وَمَا الْمُلْكُ إِلَّا الْجَيْشُ شَأْنًا وَمَظْهَرًا

٢٠ الفَيْلِقُ: الجيش العظيم، والجمع فيالق.

٢١ أدبر: ولى. وتعقب: أي تعود.

٢٢ الشعاب: جمع شعب، وهي الطريق في الجبل.

٢٣ الأبيات: جمع أبيّة، وهي التي لا ترضى الدنيّة كبراً. والمَعْقِلُ: الملجأ. والذرا: الأمكنة المرتفعة. والثيب:

نقيض البكر.

٢٤ السرايا: جمع سرية، وهي القطعة من الجيش. والمرائي: جمع مرأى، وهو المنظر.

٢٥ اللج: معظم الماء.

٢٦ الخميس: الجيش.

٢٧ يُنْفِذُهَا: يُسْرِهَا. والشعب: الطريق في الجبل. والعارض المتشعب: السحاب المتفرق.

٢٨ انبرى له: اعترض.

٢٩ أغرب الرجل: أتى بشيء غريب.

٣٠ زها: تاه وتكبر.

٣١ أزجى الجيش: ساقه.

زينب بني عثمان

تُحَذِّرُنِي مِنْ قَوْمِهَا التُّرْكُ زَيْنَبُ
وَتُكْثِرُ ذِكْرَ الْبَاسِلِينَ وَتَنْثَنِي
وَتَسْحَبُ ذَيْلَ الْكِبْرِيَاءِ وَهَكَذَا
وَزَيْنَبُ إِنْ تَاهَتْ وَإِنْ هِيَ فَاخَرَتْ
يُؤَلِّفُ إِيْلَامُ الْحَوَادِثِ بَيْنَنَا
نَمَا الْوَدُّ حَتَّى مَهَّدَ السُّبُلَ لِلْهَوَى
وَدَانِي الْهَوَى مَا شَاءَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا

وَتُعْجِمُ فِي وَصْفِ اللَّيْثِ وَتُعْرِبُ
بَعْرٌ عَلَى عِزِّ الْجَمَالِ وَتُعْجِبُ
يَتِيَهُ وَيَخْتَالُ الْقَوِيُّ الْمَغْلَبُ
فَمَا قَوْمُهَا إِلَّا الْعَشِيرُ الْمُحَبَّبُ^{٣٢}
وَيَجْمَعُنَا فِي اللَّهِ دِينَ وَمَذْهَبُ
فَمَا فِي سَبِيلِ الْوَصْلِ مَا يُتَّصَعَّبُ
فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْأَرْضُ وَالْأَرْضُ تَقْرُبُ^{٣٣}

الحالة في بحر الروم

رَكِبْتُ إِلَيْهَا الْبَحْرَ وَهُوَ مَصِيدَةٌ
تَرُوحُ الْمَنَاءِ الزُّرْقُ فِيهِ وَتَغْتَدِي
وَتَبْدُو عَلَيْهِ الْفُلُكُ شَتَّى كَأَنَّهَا
حَوَامِلُ أَعْلَامِ الْقِيَاصِرِ خُضَّرُ
تُجَارِي خُطَاهَا الْحَادِثَاتِ وَتَقْتَفِي
وَيُوشِكُ يَجْرِي الْمَاءُ مِنْ تَحْتِهَا دَمًا
فَقُلْتُ أَلْأَشْرَاطُ الْقِيَامَةِ مَا أَرَى
أَمَانًا أَمَانًا لُجَّةَ الرُّومِ لِلرُّومِ
كَأَنِّي بِأَحَادِثِ الزَّمَانِ مُلِمَّةٌ

تُمَدُّ بِهَا سُفْنُ الْحَدِيدِ وَتُنْصَبُ^{٣٤}
وَمَا هِيَ إِلَّا الْمَوْجُ يَأْتِي وَيَذْهَبُ
بُئُوزُ تُرَاعِيهَا عَلَى الْبُعْدِ أَعْقَبُ^{٣٥}
عَلَيْهَا سَلَاطِينُ الْبَرِّيَّةِ غُيْبُ
وَتَطْفُو حَوَالِيهَا الْخُطُوبُ وَتَرْسُبُ^{٣٦}
إِذَا جَمَعَتْ أَثْقَالَهَا تَتَرَقَّبُ
أَمْ الْحَرْبُ أَدْنَى مِنْ وَرِيدٍ وَأَقْرَبُ^{٣٧}
لَوْ أَنَّ أَمَانًا عِنْدَ دَأْمَاءَ يُطْلَبُ^{٣٨}
وَقَدْ فَاضَ مِنْهَا حَوْضُكَ الْمُتَضَرِّبُ

^{٣٢} العشيرة: القبيلة.

^{٣٣} داني: قارب.

^{٣٤} مَصِيدَةٌ وَمُضَيَّةٌ: بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَهِيَ مَا يُصَادُ بِهِ.

^{٣٥} بُئُوزُ: جَمْعُ بَازٍ. وَأَعْقَبُ: جَمْعُ عُقَابٍ. وَكِلَاهُمَا مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ.

^{٣٦} اقْتَفَى أَثَرَهُ: تَبِعَهُ.

^{٣٧} الْأَشْرَاطُ: جَمْعُ شَرَطٍ، وَهُوَ الْعَلَامَةُ.

^{٣٨} لُجَّةُ الرُّومِ: بَحْرُ الرُّومِ. وَالدَّأْمَاءُ: الْبَحْرُ.

فَأُزْعِجَ مَغْبُوطٌ وَرُوعَ آمِنٍ
فَقَالَتْ أَطْلَتِ الْهَمُّ لِلْخَلْقِ مَلَجاً
وَسَلَامُ الْبِرَايَا فِي كَلَاءَةِ فَرْقِدٍ
وَإِنْ أُمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوَابِلُ
رَأَى الْفِتْنَةَ الْكَبْرَى فَوَالَى انْهَمَالُهُ
وَوَالِ سَلَامَ الْعَالَمِينَ التَّعَصُّبُ
أَبْرُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَأَحْدَبُ^{٣٩}
بِ «يَلْدَرْ» لَا يَغْفُو وَلَا يَتَغَيَّبُ^{٤٠}
مِنْ الْغَوْثِ مُنْهَلٌّ عَلَى الْخَلْقِ صَيْبُ^{٤١}
فَبَادَتْ وَكَانَتْ جَمْرَةً تَتْلَهُبُ^{٤٢}

منعة السواحل العثمانية

فَمَا زِلْتُ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى اقْتَحَمْتُهَا
أَحْوِضَ اللَّيَالِي مِنْ عُبَابٍ وَمِنْ دُجَى
إِلَى مُلْكِ عَثْمَانَ الَّذِي دُونَ حَوْضِهِ
فَلَاخٌ يُنَاغِي النِّجْمَ صَرْحُ مُثَقَّبٍ
بِرُوحٍ أَعَارَتْهَا الْمَنُونُ عِيُونَهَا
رَوَاسِي ابْتِدَاعٍ فِي رَوَاسِي طَبِيعَةٍ
فَقُمْتُ أَجِيلُ الطَّرْفِ حَيْرَانَ قَائِلًا
فِمِثْلِ بِنَاءِ التُّرْكِ لَمْ يَبِنْ مَشْرِقُ
تَظَلُّ مَهُولَاتِ الْبَوَارِجِ دُونَهُ
إِذَا طَاشَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالصَّخْرِ سَهْمُهَا
يُسَدِّدُهُ عَزْرِيْلُ فِي زِيٍّ قَاذِفٍ
وَقَدْ تَرَكِبْتُ الْحَاجَاتُ مَا لَيْسَ يُرْكَبُ^{٤٣}
إِلَى أَفُقٍ فِيهِ الْخَلِيفَةُ كَوَكِبُ^{٤٤}
بِنَاءِ الْعَوَالِي الْمُشْمَخِرُ الْمُطَنَّبُ^{٤٥}
عَلَى الْمَاءِ قَدْ حَاذَاهُ صَرْحُ مُثَقَّبٍ
لَهَا فِي الْجَوَارِي نَظْرَةٌ لَا تُخَيَّبُ
تَكَادُ ذُرَاهَا فِي السَّحَابِ تَغَيَّبُ
أَهْذِي ثَغُورُ التُّرْكِ أَمْ أَنَا أَحْسَبُ
وَمِثْلُ بِنَاءِ التُّرْكِ لَمْ يَبِنْ مَغْرِبُ
حَوَائِرَ مَا يَدْرِيْنَ مَاذَا تُخَرِّبُ
أَتَاهَا حَدِيدٌ مَا يَطِيْشُ وَأُسْرُبُ^{٤٦}
وَأَيْدِي الْمَنَايَا وَالْقَضَاءُ الْمُدْرَبُ

٣٩ أحذب: من الحذب، وهو التعطف.

٤٠ كلاءة: أي حفظ.

٤١ الغوث: الإسعاف. والوابل: المطر الشديد. والصيب: السحاب.

٤٢ الانهمال: دوام الانسكاب.

٤٣ اقتحم الهول: رمى نفسه فيه بشدة.

٤٤ الدجى: الظلمة.

٤٥ العوالي: الرماح. والمشمخِرُ: العالي. والمطنَّبُ: المشدود بالأطناب.

٤٦ الأسرب: الرصاص.

عَلَّتْ مُصْعِدَاتِ أَنْهَا لَا تُصَوِّبُ^{٤٧} قَذَائِفُ تَخْشَى مُهْجَةَ الشَّمْسِ كُلَّمَا
وَعَانِمُهَا النَّاجِي فَكَيْفَ الْمُخِيبُ إِذَا صَبَّ حَامِيهَا عَلَى السُّفْنِ انْتَثَتْ
وَهَلْ عَاصِمٌ مِنْهُمْ إِلَّا التَّنْكَبُ^{٤٨} سَلِ الرُّومَ هَلْ فِيهِمْ لِلْفَلَكِ حِيلَةٌ
إِلَى الرُّشْدِ نَارٌ تَمَّ لَا تَتَذَبَذُبُ تَذَبَذَبَ أُسْطُولَاهُمْ فَدَعَتَهُمَا
وَلَا الْغَرْبُ فِي أُسْطُولِهِ مُتَّحِي الْجَمَى فَلَا الشَّرْقُ فِي أُسْطُولِهِ مُتَّقَى الْجَمَى

زينب المتطوعة في موقعة

وَمَا رَاعَنِي إِلَّا لَوَاءٌ مُخَضَّبٌ هُنَاكَ يَحْمِيهِ بَنَانٌ مُخَضَّبٌ^{٤٩}
فَقُلْتُ مَنْ الْحَامِي أَلَيْتُ غَضَنْفَرُ مِنَ التُّرْكِ ضَارٍ أَمْ غَزَالُ مُرَبِّ^{٥٠}
أَمْ الْمَلِكُ الْغَازِي الْمَجَاهِدُ قَدْ بَدَا أَمْ النَّجْمُ فِي الْأَرَامِ أَمْ أَنْتِ زَيْنَبُ
رَفَعْتَ بَنَاتِ التُّرْكِ قَالَتْ وَهَلْ بَنَا بَنَاتِ الضَّوَارِي أَنْ نَصُولَ تَعْجُبُ
إِذَا مَا الدِّيَارُ اسْتَصْرَحَتْ بَدَرَتْ لَهَا كِرَائِمُ مِنَّا بِالْقَنَا تَتَنَقَّبُ
تُقَرِّبُ رَبَّاتِ الْبُعُولِ بُعُولَهَا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَعْلٌ فَنَفْسًا تُقَرِّبُ^{٥١}
وَلَا حَتَّ بِأَفَاقِ الْعَدُوِّ سَرِيَّةٌ فَوَارِسُ تَبْدُو تَارَةً وَتَحَجَّبُ
نَوَاهِضُ فِي حَزْنٍ كَمَا تَنْهَضُ الْقَطَا رَوَاكِضُ فِي سَهْلٍ كَمَا انْسَابَ ثَعْلَبُ^{٥٢}
قَلِيلُونَ مِنْ بُعْدٍ كَثِيرُونَ إِنْ دَنَوْا لَهُمْ سَكَنٌ أَنَا وَأَنَا تَهَيَّبُ
فَقَالَتْ شَهِدْتَ الْحَرْبَ أَوْ أَنْتَ مُوشِكُ فَصِفْنَا فَأَنْتَ الْبَاسِلُ الْمُتَأَدَّبُ
وَنَادَتْ فَلَبَّى الْخَيْلُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَلَبَّى عَلَيْهَا الْقَسُورُ الْمُتَرَقَّبُ^{٥٣}

^{٤٧} معناه: إذا ارتفعت هذه القنابل خشيت الشمس أن تخطئ هدفها وأن تستمر صاعدة فتصيب مهجتها.

^{٤٨} الضمير في «فيهن» و«منهن» راجع للقنابل. والتنكب: العدول والتجنب.

^{٤٩} اللواء المخضب: هو الراية العثمانية الحمراء. ويحميه بنان مخضب: أي أنثى مخضوبة البنان.

^{٥٠} ربب الصبي: رباه حتى أدرك.

^{٥١} البعل: الزوج.

^{٥٢} الحزن: ما غلظ من الأرض.

^{٥٣} القصور: الأسد، والمراد به فارس الترك.

خَفَافًا إِلَى الدَّاعِي سِرَاعًا كَأَنَّمَا
مُنِيفِينَ مِنْ حَوْلِ اللِّوَاءِ كَأَنَّهُمْ
وَمَا هِيَ إِلَّا دَعْوَةٌ وَإِجَابَةٌ
فَأَبْصَرْتُ مَا لَمْ تُبْصِرَا مِنْ مَشَاهِدٍ
مِنَ الْحَرْبِ دَاعٍ لِلصَّلَاةِ مُثَوِّبٌ
لَهُ مَعْقِلٌ فَوْقَ الْمَعَاوِلِ أَغْلَبُ
أَنَّ التَّحَمُّتَ وَالْحَرْبُ بَكَرٌ وَتَغْلِبُ^{٥٤}
وَلَا شَهِدَتْ يَوْمًا مَعْدُ وَيَعْرُبُ

مَضِيقُ مَلُونَا

جِبَالُ «مَلُونَا» لَا تَخُورِي وَتَجْزَعِي
فَمَا كُنْتَ إِلَّا السِّيفَ وَالنَّارَ مَرْكَبًا
عَلَوْا فَوْقَ عَلِيَاءِ الْعَدُوِّ وَدُونَهُ
فَكَانَ صِرَاطُ الْحَشْرِ مَا تَمَّ رَيْبُهُ
يَمْرُونَ مَرَّ الْبَرْقِ تَحْتَ دُجْنَةِ
حَثِيثِينَ مِنْ فَوْقِ الْجِبَالِ وَتَحْتِهَا
تَمْدُهُمْ قُذَافُهُمْ وَرُمَاتُهُمْ
تُذَرِّي بِهَا شَمُّ الذُّرَا حِينَ تَعْتَلِي
تُسَمِّرُ فِي رَأْسِ الْقَلَاعِ كُرَاتُهَا
فَلَمَّا دَجَى دَاجِي الْعَوَانِ وَأَطْبَقَتْ
وَرَدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا الرُّومُ بَعْدَمَا
جَنَاحِينَ فِي شِبْهِ الشَّبَاكِينَ مِنْ قَنَّا
عَلَى قُلُلِ الْأَجْبَالِ حَيْرَى جُمُوعُهُمْ
إِذَا مَالَ رَأْسٌ أَوْ تَضَعُضِعُ مَنَكِبُ
وَمَا كَانَ يَسْتَعِصِي عَلَى التَّرْكِ مَرْكَبُ
مَضِيقُ كَحْلِقِ اللَّيْثِ أَوْ هُوَ أَصْعَبُ
وَكَانُوا فَرِيقَ اللَّهِ مَا تَمَّ مُذْنِبُ
دُخَانًا بِهِ أَشْبَاحُهُمْ تَتَجَلَّبَبُ^{٥٥}
كَمَا انْهَارَ طَوْدٌ أَوْ كَمَا انْهَالَ مِذْنَبُ^{٥٦}
بَنَارِ كَنِيرَانَ الْبَرَائِكِينَ تَدَابُّ
وَيَسْفَحُ مِنْهَا السَّفْحُ إِذْ تَتَصَبَّبُ^{٥٧}
وَيَسْكُنُ أَعْجَازَ الْحَصُونِ الْمُذْنَبُ^{٥٨}
تَبْلَجُ وَالنَّصْرَ الْهَلَالَ الْمُحْجَبُ^{٥٩}
تَنَازَّرَ مِنْهَا الْجَيْشُ أَوْ كَادَ يَذْهَبُ
وَقَلْبًا عَلَى حَرِّ الْوَعَى يَتَقَلَّبُ
شَوَاحِصُ مَا إِنَّ تَهْتَدِي أَيْنَ تَذْهَبُ^{٦٠}

^{٥٤} بكر وتغلب: قبيلتان لم تقف بينهما العداوة عند حد؛ فتشبيه المقاتلين بهما جيد.

^{٥٥} أي تحت ظلمة من الدخان تختفي بها أشباحهم.

^{٥٦} المذنب: مسيل الماء إلى الأرض. والمعنى: كما انقضَّ جبل، أو انحطَّ سيل.

^{٥٧} تُذَرِّي: من التذرية، وهي الإطارة والإثارة. والذُّرَا: جمع ذروة، وهي أعلى الشيء. والشَّم: جمع شَمَاء،

من الشَّمم، وهو الارتفاع. ويسفح: ينصب. عرض الجبل المضطجع.

^{٥٨} المذنب: ذو الذنب من القنابل الكبيرة.

^{٥٩} العوان: الحرب الشديدة.

^{٦٠} القلة: أعلى الرأس.

إذا صعدت فالسيف أبيض خاطف
تطوع أسرا منهم ذلك الذي
وتم لنا النصر المبين على العدا
فجئت فتاة الترك أجزي دفاعها
فقبلت كفاً كان بالسيف ضارباً
وقلت أفي الدنيا لقومك غالب
رويداً بني عثمان في طلب العلا
أفي كل أن تغرسون ونجتني
وما زلت يسقيكم النصر خمره
إلى أن أحل السكر من لا يحله

وإن نزلت فالنار حمراء تلهب
تطوع حرباً والزمان تقلب
وفتح المعالي والنهار المذهب
عن الملك والأوطان ما الحق يوجب
وقبلت سيفاً كان بالكف يضرب
وفي مثل هذا الجبر رُبوا وهذبوا
وهيهات لم يستبق شيء فيطلب
وفي كل يوم تفتحون ونكتب
وتسقونه والكل نشوان مضاب^{٦١}
ومد بساط الشرب من ليس يشرب

الحاج عبد الأزل باشا

وأشمط سؤاس الفوارس أشيب
رفيقاً ذهاب في الحروب وجيئة
إذا شهداها جددا هزة الصبا
فيهتر هذا كالحسام وينثني
توالى رصاص المطلقين عليهما
فقل أنل أقدامك الأرض إنها
فقال أيرضي واهب النصر أننا
ذروني وشأني والوعى لا مبالياً
أحملني عمراً ويحمي شبيبتي
إذا نحن متنا فادفنونا ببقعة

يسير به في الشعب أشمط أشيب^{٦٢}
قد اصطحباً والحُر للحر يصحب
كما يتصابى ذو ثمانين يطرب
وينفر هذا كالغزال ويلعب
يخضل من شيبهما ويخضب
أبر جواداً إن فعلت وأنجب
نموت كموت الغانيات ونعطب
إلى الموت أمشي أم إلى الموت أركب
وأخذله في وهنه وأخيّب^{٦٣}
يظل بذكرانا تراها يطيب

^{٦١} المضاب: من شرب حتى ارتوى.

^{٦٢} الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد. والمراد بالأول الفارس، والثاني فرسه.

^{٦٣} الوهن: الضعف. والمعنى: ليس من الوفاء ولا من حسن الجزاء أن يكون نصيبه مني في شبه الترك والخذلان، وقد كان نصيبي منه الصبر على الأهوال، والمعاناة على القتال.

ولا تعجَبوا أن تبسلَ الخيلُ إنها
فماتًا أمامَ الله موتَ بسالةٍ
وما شهداءُ الحربِ إلا عمادُها
مدادُ سِجْلِ النصرِ فيها دماؤهم
فهل من «ملونا» مَوْقفٌ ومَسمعٌ
فأسألُ حِصْنَيْهَا العَجِيْبَيْنِ في الوري
وأستشهد الأطوادَ شَمَاءَ والذُرا
هل البأسُ إلا بأسُهم وثباتُهم
أو الدينُ إلا ما رأت من جهادِهم
وأني فضاءٍ في الوغى لم يُضَيِّقوا
وهل قبلَهم من عانقَ النارَ راغبًا
وهل نال ما نالوا من الفخرِ حاضرٌ
سلامًا «ملونا» واحتفاظًا وعِصمةً
وَضَنِي بَعْظِمٍ في ثراكِ مُعْظَمٍ

لها مثْلُ ما للناسِ في الموتِ مَشْرَبٌ^{٦٤}
كأنهما فيه مِثالٌ مُنْصَبٌ^{٦٥}
وإن شَيْدَ الأحياءِ فيها وطَنُبو^{٦٦}
وبالتَّبْرِ من غالي ثَراهم يُتَرَبُّ^{٦٧}
ومن جبَلِها مِنبرٌ لي فأخطبُ
ومَدخلُها الأعصى الذي هو أعجَبُ
بَواذِخِ تُلُوي بالنجومِ وتجذبُ^{٦٨}
أو العِزْمُ إلا عِزْمُهم والتَلْبُبُ^{٦٩}
أو المُلْكُ إلا ما أعزُّوا وهَيَّبوا^{٧٠}
وأني مَضيقٌ في الوري لم يُرْحَبوا
ولو أنه عَبَّادُها المُتَرَهَّبُ
وهل حُبِّي الخالون منه الذي حُبُّوا^{٧١}
لِمَن بات في عالي الرِّضا يتقلبُ
يُقَرِّبه الرحمنُ فيما يُقَرِّبُ

هزيمة طرناو

و«طرناو» إذ طارَ الذهولُ بجيشها
عشيَّةً ضاقت أرضُها وسماؤها

وبالشَّعبِ فوضى في المَذاهِبِ يذهبُ
وضاقَ فضاءٌ بين ذاك مُرَحَّبُ

^{٦٤} تبسل: تشجع.

^{٦٥} منْصَب: مرفوع.

^{٦٦} طَنَّب البيت: شدَّه بالأطناب، وهي الحبال.

^{٦٧} السجل: كتاب العهد أو الحكم. وتَرَبَّ الكتابة: وضع عليها التراب لتجفَّ.

^{٦٨} الشَماء: المرتفعة. والبواذِخ، من بذخ الجبل: طال. وألوى بثوبه أو يده: أشار بها.

^{٦٩} التَلْبُب، من تلَبَّ الرجل للحرب: تحرَّم وتشمَّر لها.

^{٧٠} هَيَّبَه: صَيَّرَه مَهِيَّبًا.

^{٧١} حباه الشيء: أعطاه إياه.

خَلَّتْ مِنْ بَنَى الْجَيْشِ الْحِصُونَ وَأَقْفَرَتْ
وَنَادَى مُنَادٍ لِلْهَزِيمَةِ فِي الْمَلَا
فَأَعْرَضَ عَنْ قُوَادِهِ الْجَنْدُ شَارِدًا
وَطَارَ الْأَهَالِي نَافِرِينَ إِلَى الْقَلَا
نَجَوْا بِالنُّفُوسِ الذَاهِلَاتِ وَمَا نَجَوْا
وَطَالَتْ يَدٌ لِلْجَمْعِ فِي الْجَمْعِ بِالْحَنَا
يَسِيرُ عَلَى أَشْلَاءٍ وَالِدِهِ الْفَتَى
وَتَمْضِي السَّرَايَا وَاطِّائَاتٍ بِخَيْلِهَا
فَمِنْ رَاجِلٍ تَهْوِي السَّنُونُ بِرَجْلِهِ
وَمَاضٍ بِمَالٍ قَدْ مَضَى عَنْهُ وَآلُهُ
يَكَادُونَ مِنْ ذُعَرٍ تَفَرُّ دِيَارَهُمْ
يَكَادُ الثَّرَى مِنْ تَحْتِهِمْ يَلِجُ الثَّرَى
تَكَادُ خُطَاهُمْ تَسْبِقُ الْبَرْقَ سُرْعَةً
تَكَادُ عَلَى أَبْصَارِهِمْ تَقْطَعُ الْمَدَى
تَكَادُ تَمْسُ الْأَرْضَ مَسًّا نِعَالَهُمْ
هَزِيمَةٌ مَن لَّا هَازِمٌ يَسْتَحِثُّهُ
قَعْدُنَا فَلَمْ يَعْدِمْ فَتَى الرُّومِ قَيْلَقًا

مَسَاكُنُ أَهْلِهَا وَعَمَّ التَّخْرُبُ^{٧٢}
وَأَنَّ مُنَادِيَ التُّرْكِ يَدْنُو وَيَقْرُبُ
وَعَلَّمَهُ قُوَادُهُ كَيْفَ يَهْرُبُ
مِئِينَ وَآلَفًا تَهَيَّمُ وَتَسْرُبُ^{٧٣}
بَغِيرِ يَدٍ صَفَرٍ وَأُخْرَى تُثْقَلُ
وَبِالسَّلْبِ لَمْ يَمُدِّ بِهَا فِيهِ أَجَنْبُ^{٧٤}
وَيَنْسَى هُنَاكَ الْمُرْضِعَ الْأُمُّ وَالْأَبُ^{٧٥}
أَرَامِلَ تَبْكِي أَوْ تُوَاكِلَ تَنْدُبُ
وَمِنْ فَارِسٍ تَمْشِي النِّسَاءُ وَيَرْكَبُ^{٧٦}
وَمُزَجٍ أَثَاثًا بَيْنَ عَيْنَيْهِ يُنْهَبُ^{٧٧}
وَتَنْجُو الرُّوَاسِي لَوْ حَوَاهُنَّ مَشْعَبُ^{٧٨}
وَيَقْضُمُ بَعْضُ الْأَرْضِ بَعْضًا وَيَقْضِبُ^{٧٩}
وَتَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ أَيَّانَ تَذْهَبُ
وَتَنْفِذُ مَرْمَاهَا الْبَعِيدَ وَتَحْجُبُ^{٨٠}
وَلَوْ وَجَدُوا سُبُلًا إِلَى الْجَوِّ نَكَّبُوا^{٨١}
وَلَا طَارِدٌ يَدْعُو لَذَاكَ وَيُوجِبُ
مَنْ الرُّعْبِ يَغْزُوهُ وَآخِرُ يَسْلُبُ

^{٧٢} بَنَى: جمع بنية، بكسر الباء، وهي البنيان، والمراد بها هنا: القلاع والثكنات.

^{٧٣} تسرب: من سرب الرجل في الأرض، إذا ذهب على وجهه فيها ومضى.

^{٧٤} معناه: تعدى بعضهم على بعض بالفحش والسلب. والأجنب: الأجنبي، والمراد به التُّرك.

^{٧٥} أشلاء: جمع شلو، وهي أعضاء الإنسان بعد البلى والتفريق.

^{٧٦} الراجل: الماشي على رجله. وتهوي السنون برجله: أي تزلُّ به القدم من ثقل وطأة الهرم.

^{٧٧} الوأل: الملجأ. مُزج، من أَرْجَاهُ بمعنى: ساقه ودفعه برفق. الأثاث: متاع البيت.

^{٧٨} الذعر: الخوف الشديد. والرَّوَاسِي: الجبال. والمشعب: الطريق.

^{٧٩} يلج: يدخل. ويقضم: يأكل. ويقضب: يقطع.

^{٨٠} مدى البصر: مُنتهَاهُ وَغَايَتُهُ. وتنفذ مرمَها: تبلغه وتتجاوزها.

^{٨١} نَكَّبُوا: مالوا.

ظَفَرْنَا بِهِ وَجَهَا فَظَنَّ تَعَقُّبًا
فَوَلَّى وَمَا وَلَّى نِظَامُ جَنُودِهِ
يَسُوقُ وَيَحْدُو لِلنَّجَاةِ كِتَائِبًا
مَنْظُمَةً مِنْ حَوْلِهِ بَيَدَ أَنَّهَا
مَوْزَّرَةٌ بِالرُّعْبِ مَلْدُوغَةٌ بِهِ
تَرَى الْخَيْلَ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ تَخِيلًا
فَمِنْ خَلْفِهَا طَوْرًا وَحِينًا أَمَامَهَا
فَوَارِسُ فِي طُولِ الْجِبَالِ وَعَرَضِهَا
فَمَهْمَا تَهْمُ يَسْنُخُ لَهَا ذُو مُهْنَدٍ
وَتَنْزِلُ عَلَيْهَا مِنْ سَمَاءٍ خَيَالِهَا
رُؤَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا يَكُنْ مِنْ وَرَائِهَا

وماذا يَزِيدُ الظَّافِرِينَ التَّعَقُّبُ
ويا شَوْمَ جَيْشٍ لِلْفِرَارِ يُرْتَّبُ
لَهُ مَوَكَّبٌ مِنْهَا وَلِلْعَارِ مَوَكَّبُ
تَوَدُّ لَوْ انْشَقَّ الثَّرَى فَتُغَيَّبُ
فَفِي كُلِّ ثَوْبٍ عَقْرَبٌ مِنْهُ تَلَسِبُ^{٨٢}
فِيَأْخُذُ مِنْهَا وَهَمُّهَا وَالتَّهْيِيبُ
وَأَوْنَةً مِنْ كُلِّ أَوْبٍ تَأْلُبُ^{٨٣}
إِذَا غَابَ مِنْهُمْ مِقْنَبٌ لَاحَ مِقْنَبُ^{٨٤}
وَيَخْرُجُ لَهَا مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ مِحْرَبُ^{٨٥}
صَوَاعِقُ فِيهِنَّ الرَّدَى الْمُتَصَبِّبُ
مَلَائِكَةُ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ يُغْلَبُ^{٨٦}

التلاقي على سهل فرسالا

و«فرسال» إذ باتوا وبِتْنَا أَعَادِيًا
وَقَامَ فَتَانَا اللَّيْلَ يَحْمِي لَوَاءَهُ
تَوَسَّدَ هَذَا قَائِمَ السَّيْفِ يَتَّقِي
وَهَلْ يَسْتَوِي الْقِرْنَانِ هَذَا مُنْعَمٌ
حَمِينًا كِلَانَا أَرْضَ «فرسال» وَالسَّمَاءِ

على السَّهْلِ لُذًّا يَرْقُبُونَ وَنَرْقُبُ^{٨٧}
وَقَامَ فَتَاهُمْ لَيْلَهُ يَتَلَعَّبُ
وَهَذَا عَلَى أَحْلَامِهِ يَتَحَسَّبُ^{٨٨}
غَرِيرٌ وَهَذَا ذُو تَجَارِيِبَ قُلُوبُ^{٨٩}
فَكُلُّ سَبِيلٍ بَيْنَ ذَلِكَ مَعْطَبُ^{٩٠}

^{٨٢} أَرَزَهُ: غَطَّاهُ وَقَوَّاهُ. وتلَسب: أي تلدغ.

^{٨٣} تألب، من التألَّب وهو: التَّجَمُّعُ. والأوب: الناحية.

^{٨٤} أي يجسَّمها لهم الويل فيرونها كذلك. والمقنب: الجماعة من الخيل تجتمع للغارة.

^{٨٥} المحرب: الشجاع الشديد في الحرب.

^{٨٦} الرؤى: جمع رؤيا، وهي المنام.

^{٨٧} اللدُّ: جمع الألد، وهو الشديد الخصومة.

^{٨٨} يتحسب: يتوسد.

^{٨٩} القرن: النظر المقاوم. والغرير: العديم الخبرة. والمُحتال البصير بتقلب الأمور.

^{٩٠} معطب: مهلك.

وَرُحْنَا يَهْبُ الشَّرُّ فِينَا وَفِيهِمْ
كَأَنَّا أَسْوَدُ رَابِضَاتٍ كَأَنَّهُمْ
كَأَنَّ خِيَامَ الْجَيْشِ فِي السَّهْلِ أَيْنُقُ
كَأَنَّ السَّرَايَا سَاكِنَاتٍ مَوَائِجَا
كَأَنَّ الْقَنَا دُونَ الْخِيَامِ نَوَازِلَا
كَأَنَّ الدُّجَى بَحْرٌ إِلَى النَّجْمِ صَاعِدٌ
كَأَنَّ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرٍ ظَلَامِهِ
كَأَنَّ صَهِيلَ الْخَيْلِ نَاعٌ مُبَشِّرٌ
كَأَنَّ وَجْوهَ الْخَيْلِ غُرًّا وَسِيمَةً
كَأَنَّ أَنْوَفَ الْخَيْلِ حَرَّى مِنَ الْوَعَى
كَأَنَّ صَدُورَ الْخَيْلِ غُدْرٌ عَلَى الدُّجَى
كَأَنَّ سَنَا الْأَبْوَاقِ فِي اللَّيْلِ بَرْقَهُ
كَأَنَّ نَدَاءَ الْجَيْشِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كَأَنَّ عَيُونَ الْجَيْشِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ
كَأَنَّ الْوَعَى نَارٌ كَأَنَّ جُنُودَنَا

وَتَشْمُلُ أَرْوَاحُ الْقِتَالِ وَتَجْنُبُ^{٩١}
قَطِيعٌ بِأَقْصَى السَّهْلِ حَيْرَانٌ مُذْتَبٌ^{٩٢}
نَوَاشِرُ فَوْضَى فِي دُجَى اللَّيْلِ شَرْبٌ^{٩٣}
قَطَائِعُ تُعْطَى الْأَمْنُ طَوْرًا وَتُسَلَبُ^{٩٤}
جَدَاوِلُ يُجْرِيهَا الظَّلَامُ وَيَسْكَبُ^{٩٥}
كَأَنَّ السَّرَايَا مُوجُهُ الْمُتَضَرِّبِ
هَمُومٌ بِهَا فَاضَ الضَّمِيرُ الْمُحَجَّبُ
تَرَاهَنٌ فِيهَا ضَحَكًا وَهِيَ نَحْبٌ^{٩٦}
دَرَارِي لَيْلٍ طُلُعَ فِيهِ ثَقَبٌ^{٩٧}
مَجَامِرُ فِي الظُّلُمَاءِ تَهْدَا وَتَلْهَبُ^{٩٨}
كَأَنَّ بَقَايَا النَّضْحِ فِيهِنَّ طُحْلَبٌ^{٩٩}
كَأَنَّ صَدَاها الرِّعْدُ لِلْبَرْقِ يَصْحَبُ
دَوِيُّ رِيَاكِ فِي الدُّجَى تَتَذَابُ^{١٠٠}
مِنْ السَّهْلِ جِنٌّ جَوْلٌ فِيهِ جُوبٌ^{١٠١}
مَجُوسٌ إِذَا مَا يَمَّمُوا النَّارَ قَرَّبُوا^{١٠٢}

^{٩١} تشمل، من شملت الريح: هبَّت شمالاً. وجنبت: هبَّت جنوباً.

^{٩٢} القطيع: الطائفة من الغنم. وأذأب القطيع: فزع من الذئب، فهو مذتب.

^{٩٣} الأينُق: جمع ناقة. ونواشر: مرتفعة. وشَرْبٌ: متفرقة.

^{٩٤} القطائع: جمع قطيعة، وهي هنا ما قُطِعَ من الجيش.

^{٩٥} القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

^{٩٦} نَحْبٌ: أي منتحبات باكيات.

^{٩٧} ثَقَبُ النجم: أضاء. والدراي: النجوم الثواقب.

^{٩٨} المجامر: جمع مجمر، وهو ما يُوضَعُ فيه الجمر.

^{٩٩} الغدر: جمع غدير. والططب: خُضرة تعلو الماء المزمّن. والنضح: رشاش الماء.

^{١٠٠} تتذأب الريح: تجيء مرةً كذا ومرةً كذا.

^{١٠١} عيون الجيش: أرصاده وجواسيسه.

^{١٠٢} قربوا لله: قدّموا له القربان.

كَأَنَّ الْوَغَى نَارٌ كَأَنَّ الرَّدَى قَرَى
كَأَنَّ الْوَغَى نَارٌ كَأَنَّ بَنِي الْوَغَى
وَتَبْنَا يَضِيقُ السَّهْلُ عَنْ وَتْبَاتِنَا
مَشَتْ فِي سَرَايَاهُمْ فَحَلَّتْ نِظَامَهَا
كَأَنَّ وَرَاءَ النَّارِ حَاتِمَ يَأْدِبُ^{١٠٣}
فَرَّاشٌ لَهُ فِي مَلَمِسِ النَّارِ مَأْرَبُ
وَتَقْدُمْنَا نَارٌ إِلَى الرُّومِ أَوْثَبُ
فَلَمَّا مَشِينَا أَدْبَرَتْ لَا تَعْقُبُ

غصب دوموقو

رَأَى السَّهْلُ مِنْهُمْ مَا رَأَى الْوَعْرُ قَبْلَهُ
وَحِصْنٌ تَسَامَى مِنْ «دَمُوقُو» كَأَنَّهُ
أَشْمٌ عَلَى طَوْدٍ أَشْمٌ كِلَاهُمَا
تَكَادُ تُقَادُ الْغَادِيَاتُ لِرَبِّهِ
حَمَّتْهُ لِيَوْثٌ مِنْ حديدٍ تَرَكَّزَتْ
تَثُورُ وَتَسْتَأْنِي وَتَنَأَى وَتَدْنِي
تَأْبَى فَظَنَّ الْعَالَمُونَ اسْتِحَالَةً
فَمَا فِي الْقُوَى أَنْ السَّمَوَاتِ تُرْتَقَى
سَمَوْتُمْ إِلَيْهِ وَالْقَنَابِلُ دُونَهُ
فَكُنْتُمْ يَوَاقِيَتِ الْحُرُوبِ كِرَامَةً
صَعَدْتُمْ وَمَا غَيْرُ الْقَنَا نَمَّ مَصْعَدُ
كَمَا ازْدَحَمَتْ بِيْزَانُ جَوْ بِمَوْرِدِ
فِيَا قَوْمُ حَتَّى السَّهْلُ فِي الْحَرْبِ يَصْعَبُ؟
مُعَشَّشٌ نَسِرَ أَوْ بِهَذَا يُلَقَّبُ
مَنُونُ الْمُفَاجِي وَالْجِمَامُ الْمُرْحَبُ
فِيُزْجِي وَتَنْزَمُ الرِّيحُ فَيُرَكَّبُ^{١٠٤}
عَلَى عَجَلٍ وَاسْتَجْمَعَتْ تَتَرَقَّبُ
وَتَغْدُو بِمَا تَغْدِي وَتَرْمِي وَتَنْشَبُ^{١٠٥}
وَأَعْيَا عَلَى أَوْهَامِهِمْ فَتَرِيَّبُوا^{١٠٦}
بِجَيْشٍ وَأَنْ النَّجْمُ يُغْشَى فَيُغْضَبُ^{١٠٧}
وَشُهْبُ الْمَنَايَا وَالرِّصَاصُ الْمُصَوَّبُ
عَلَى النَّارِ أَوْ أَنْتُمْ أَشَدُّ وَأَصْلَبُ^{١٠٨}
وَلَا سُلْمٌ إِلَّا الْحَدِيدُ الْمُذْرَبُ^{١٠٩}
أَوْ ارْتَفَعَتْ تَلْقَى الْفَرِيْسَةَ أَعْقَبُ^{١١٠}

^{١٠٣} الْقَرَى: مَا قُرِيَ بِهِ الضَّيْفُ؛ أَيْ قُدِّمَ لَهُ. وَحَاتِمٌ: هُوَ حَاتِمُ الطَّائِي الْمَضْرُوبِ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْجُودِ.

^{١٠٤} الْغَادِيَاتُ: جَمْعُ غَادِيَةٍ، وَهِيَ السَّحَابَةُ تَنْشَأُ غَدَوَةً. وَيُزْجِي: يَسُوقُ. وَتَنْزَمُ: تُزَمُّ بِزِمَامٍ.

^{١٠٥} اسْتَأْنَى: انْتَظَرَ. وَادْنَى: اقْتَرَبَ.

^{١٠٦} تَأْبَى: امْتَنَعَ. وَتَرِيَّبُوا: تَخَوَّفُوا.

^{١٠٧} يُغْضَبُ (عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ): يَصَابُ بِالْغَضَابِ، وَهُوَ الْقَذَى فِي الْعَيْنِ.

^{١٠٨} يُقَالُ إِنَّ الْيَاقُوتَ لَا يَحْتَرِقُ بِالنَّارِ.

^{١٠٩} الْحَدِيدُ الْمَذْرَبُ: الْمَسْمُومُ. وَذَرَبَ السَّيْفُ: حَدَّهُ.

^{١١٠} الْبِيْزَانُ: جَمْعُ بَازٍ. وَالْأَعْقَبُ: جَمْعُ عُقَابٍ. وَهُمَا مِنْ جَوَارِحِ الطَّيْرِ.

فما زِلْتُمْ حَتَّى نَزَلْتُمْ بُرُوجَهُ
هَنَالِكْ غَالِي فِي الْأَمَادِيحِ مَشْرِقُ
وَزَيْدَ حِمَى الْإِسْلَامِ عِزًّا وَمَنْعَةً
رَفَعْنَا إِلَى النِّجْمِ الرَّءُوسَ بِنَصْرِكُمْ
وَمَنْ كَانَ مَنْسُوبًا إِلَى دَوْلَةِ الْقَنَا
وَلَمْ تُحْتَضَرْ شَمْسُ النَّهَارِ فَتَغْرُبُ
وَبَالِغَ فَيْكُم أَلَّ عَثْمَانَ مَغْرِبُ
وَرَدَّ جِمَاحَ الْعَصْرِ فَالْعَصْرُ هَيِّبُ
وَكُنَّا بِحُكْمِ الْحَادِثَاتِ نُصُوبُ
فَلَيْسَ إِلَى شَيْءٍ سِوَى الْعِزِّ يُنْسَبُ

أحلام اليونان

فِيَا قَوْمُ أَيْنَ الْجَيْشِ فِيمَا زَعَمْتُمْ
وَأَيْنَ أَمِيرِ الْبَأْسِ وَالْعِزِّ وَالْجَبَا
وَأَيْنَ تُخُومُ تَسْتَبِيحُونَ دَوَسَهَا
وَأَيْنَ الَّذِي قَالَتْ لَنَا الصُّحُفُ عَنْكُمْ
وَمَا قَدْ رَوَى بَرَقُ مِنَ الْقَوْلِ كَاذِبُ
وَمَا شِدْتُمْ مِنْ دَوْلَةٍ عَرَضُهَا الثَّرَى
لَهَا عِلْمٌ فَوْقَ الْهَلَالِ وَسُدَّةُ
أَهَذَا هُوَ الذُّودُ الَّذِي تَدْعُونَهُ
أَهَذَا الَّذِي لِلْمَلِكِ وَالْعَرِضِ عِنْدَكُمْ
أَهَذَا سِلَاحُ الْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَالْعُلَا
أَهَذَا الَّذِي لِلذِّكْرِ خَلْبٌ مَعَشَرُ
أَسَأْتُمْ وَكَانَ السَّوَاءُ مِنْكُمْ إِلَيْكُمْ
إِلَى ذِي انْتِقَامٍ لَا يَنَامُ غَرِيمُهُ
شَقِيقْتُمْ بِهَا مِنْ حِيلَةٍ مُسْتَحِيلَةٍ
فَلَوْلَا سَيْوَفُ التُّرْكِ جَرَّبَ غَيْرُكُمْ
وَأَيْنَ الْجَوَارِي وَالِدِفَاعُ الْمُرَكَّبِ^{١١١}
وَأَيْنَ رَجَاءٌ فِي الْأَمِيرِ مُخَيَّبُ
وَأَيْنَ عَصَابَاتُ لَكُمْ تَتَوَثَّبُ^{١١٢}
وَأَسْنَدُ أَهْلُهَا إِلَيْكُمْ فَأَطْنَبُوا
وَأَخْرَجُوا مِنَ فِعْلِ الْمُحِبِّينَ أَكْذَبُ
يَدِينُ لَهَا الْجَنَسَانِ تُرْكُ وَصَقْلَبُ^{١١٣}
تُنْصُ عَلَى هَامِ النُّجُومِ وَتُنْصَبُ^{١١٤}
وَنَصْرُ «كُرَيْدٍ» وَالْوَلَا وَالتَّحَبُّبُ
وَاللَّجَارِ إِنْ أَعْيَا عَلَى الْجَارِ مَطْلَبُ
أَهَذَا مَطَايَا مَنْ إِلَى الْمَجْدِ يَرْكَبُ
عَلَى ذِكْرِهِمْ يَأْتِي الزَّمَانُ وَيَذْهَبُ
إِلَى خَيْرِ جَارٍ عِنْدَهُ الْخَيْرُ يُطَلَّبُ
وَلَوْ أَنَّهُ شَخْصُ الْمَنَامِ الْمُحَجَّبُ
وَأَيْنَ مِنَ الْمُحْتَالِ عِنَقَاءُ مَغْرِبُ^{١١٥}
وَلَكِنْ مِنَ الْأَشْيَاءِ مَا لَا يُجَرَّبُ

^{١١١} الجواري: السفن.

^{١١٢} التخوم: الحدود.

^{١١٣} صقلب: الجنس السلافي.

^{١١٤} تُنْصُ: أي تُرْفَع.

^{١١٥} عنقاء مغرب: طائر من طيور الأساطير.

عفو القادر

فَعَفَوْا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَأُمَّةٍ
ضَرَبْتَ عَلَى آمَالِهَا وَمَالَهَا
إِذَا خَانَ عَبْدُ السَّوءِ مَوْلَاهُ مُعْتَقًا
وَلَا تَضْرِبَنَّ بِالرَّأْيِ مُنَحَلَّ مَلِكِهِمْ
لَقَدْ فَتِنْتَ أَرْزَاقَهُمْ وَرَجَالَهُمْ
فَإِنْ يَجِدُوا لِلنَّفْسِ بِالْعَوْدِ رَاحَةً
وَإِنْ هُمْ بِالْعَفْوِ الْكَرِيمِ رَجَاؤُهُمْ
فَمَا زِلْتَ جَارَ الْبِرِّ وَالسَّيِّدِ الَّذِي
يُلَاقِي بَعِيدَ الْأَهْلِ عِنْدَكَ أَهْلُهُ

دَعَتْ قَادِرًا مَا زَالَ فِي الْعَفْوِ يَرِغُبُ
وَأَنْتَ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا الْيَوْمَ تَضْرِبُ
فَمَا يَفْعَلُ الْمَوْلَى الْكَرِيمُ الْمَهْذَبُ
فَمَا زِلْتَ مُذْ هَبُّوا بِسَيْفَيْنِ تَضْرِبُ
وَلَيْسَ بِفَانٍ طَيْشُهُمْ وَالتَّقْلُبُ
فَقَدْ يَشْتَهِي الْمَوْتَ الْمَرِيضُ الْمُعَذَّبُ
فَمِنْ كَرَمِ الْأَخْلَاقِ أَلَا يُخَيَّبُوا
إِلَى فَضْلِهِ مِنْ عَدْلِهِ الْجَارُ يَهْرُبُ
وَيَمْرُحُ فِي أَوْطَانِهِ الْمَتَغَرَّبُ

التماس القبول

أَمْوَالِي غَنَّتْكَ السِّيُوفُ فَأَطْرَبْتَ
فَعِنْدِي كَمَا عِنْدَ الظُّبَا لَكَ نَعْمَةٌ
أَعْرَبُ مَا تُنْشِي عَلَيْكَ وَإِنَّهُ
مَدْحَتِكَ وَالْدُنْيَا لِسَانٌ وَأَهْلُهَا
أَنَاوِلُ مِنْ شِعْرِ الْخِلَافَةِ رَبِّهَا
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ
فَإِنْ لَمْ يَلْقَ شِعْرِي لِبَابِكَ مَدْحَةٌ
وَإِنِّي لَطَيْرُ النِّيلِ لَا طَيْرَ غَيْرُهُ
إِذَا قُلْتُ شِعْرًا فَالْقَوَافِي حَوَاضِرُ
وَلَمْ أَعْدِمِ الظِّلَّ الْخَصِيبَ وَإِنَّمَا
فَلَا زِلْتَ كَهْفَ الدِّينِ وَالْهَادِي الَّذِي

فَهَلْ لِيِرَاعِي أَنْ يُغْنِي فَيُطْرِبُ
وَمُخْتَلَفُ الْأَنْغَامِ لِلْأُنْسِ أَجْلَبُ^{١١٦}
لَفِي لُطْفِهِ مَا لَا يَنَالُ الْمُعْرَبُ
جَمِيعًا لِسَانُ يُمْلِيَانِ وَأَكْتُبُ
وَأَكْسُو الْقَوَافِي مَا يَدُومُ فَيَقْشَبُ^{١١٧}
فَكُلُّ لِسَانٍ فِي مَدِيحِكَ طَيِّبُ
فَمُرْ يَنْفَتَحْ بَابٌ مِنَ الْعُذْرِ أَرْحَبُ
وَمَا النِّيلُ إِلَّا مِنْ رِيَاضِكَ يُحَسَّبُ
وَبَغْدَادُ بَغْدَادٌ وَيَثْرَبُ يَثْرَبُ
أُجَاذِبُكَ الظِّلَّ الَّذِي هُوَ أَخْصَبُ
إِلَى اللَّهِ بِالزُّلْفَى لَهُ نَتَقَرَّبُ

^{١١٦} الظُّبَا: جمع ظُبَّة، وهي حُدُ السَّيْفِ، أَوْ السَّنَانِ.

^{١١٧} يَقْشَبُ الشَّيْءَ: يَجْعَلُهُ جَدِيدًا.

انتصار الأتراك في الحرب والسياسة

يا خالدَ التُّركُ جدُّ خالدَ العَرَبِ^١
فالسيفُ في غِمدِه والحقُّ في النُّصْبِ^٢
وطيِبَ أُمْنِيَّةٌ في الرأْيِ لم تَخِبِ
وأنتَ أَكْرَمُ في حَقَنِ الدِّمِ السَّرِبِ^٣
فيه القِتالُ بلا شرعٍ ولا أدبٍ
قَنَّاكَ من حُرْمَةِ الرُّهْبَانِ والصُّلْبِ
ولو سَأَلْتُ بغيرِ النَصْرِ لم تُجِبْ^٤
وأذعنَ السيفُ مَطوياً على عَضْبِ
سيوفِ قومِكَ لا ترتاحُ للقُرْبِ^٥
كلُّ المروءَةِ في الإسلامِ والحسبِ
فَهَبْ لَهُم هُدْنَةً من رَأْيِكَ الضَّرِبِ^٦

الله أكبر كم في الفتح من عَجَبٍ
صلحٌ عزيزٌ على حربٍ مُظَفَّرَةٍ
يا حُسْنَ أُمْنِيَّةٍ في السيفِ ما كَذَبَتْ
خُطَاكَ في الحقِّ كانت كُلُّهَا كَرَمًا
حَذَوْتَ حربَ «الصلاحيين» في زمنٍ
لم يَأْتِ سيفُكَ فحشاءٌ ولا هتَكَتْ
سَأَلْتُ سَلَمًا على نصرٍ فَجَدْتَ بها
مَشِيئَةً قَبِلَتْهَا الخِيْلُ عَاتِبَةً
أَتَيْتَ ما يُشْبِهُ التقوى وإن خُلِقْتَ
ولا أَزِيدُكَ بالإسلامِ معرفةً
منحتَهُم هُدْنَةً من سيفِكَ التَّمَسَّتْ

^١ خالد التُّرك: يُراد به الغازي مصطفى باشا كمال. وخالد العرب: هو خالد بن الوليد، وله في الحروب الإسلامية صوتٌ بعيد.

^٢ النُّصْب: جمع نصاب، وهو الأصل والمرجع.

^٣ السرب: المسفوح.

^٤ الضمير في «بها» للسلم بالكسر والفتح، مؤنثة، بمعنى: الصلح والسلام.

^٥ القرب: جمع قراب، وهو الغمد.

^٦ الضرب: القاطع.

جاءت به الحربُ من حَيَّاتها الرُّقْبِ^٧
ولا يَضيقُ بِجَهْرِ الْمُحَنَّقِ الصَّخِبِ
إِلَّا قَضَى وَطَرًا مِنْ ذَلِكَ الْأَرْبِ
ومَهَّدَ السَّيْفُ فِي «لُوزَانَ» لِلخُطْبِ
عَلَى الْكَتَائِبِ يُبْنَى الْمُلْكُ لَا الْكُتْبِ
الْحَقُّ عِنْدَهُمْ مَعْنَى مِنَ الْغَلْبِ
عُودٌ مِنَ السُّمْرِ أَوْ عُودٌ مِنَ الْقَضْبِ^٨
حَتَّى يَكُونُوا مِنَ الْأَخْلَاقِ فِي أَهْبِ^٩
تَسَاوَتْ الْأُسْدُ وَالذُّوبَانُ فِي الرُّتْبِ
مِنَ السِّلَاحِ وَمَا سَاقُوا مِنَ الْعُصْبِ
كَتُكْنَةِ النَحْلِ أَوْ كَالْقَنْفِذِ الْخَشْبِ^{١٠}
كُتِبْنَ فِي صُحُفِ الْأَخْلَاقِ بِالذَّهَبِ
كُدِّرْنَ بِالْمَنْ أَوْ أَفْسِدْنَ بِالْكَذِبِ
وَلَسْتَ تَعْرِفُهَا بِاسْمٍ وَلَا لَقَبِ
جَمَعَ الذَّبَائِحَ فِي اسْمِ اللَّهِ وَالْقُرْبِ^{١١}
وَمَطَمَعُ لَقَبِيلٍ نَاهِضِ أَرْبِ
حَتَّى انْجَلَى لِيْلُهَا عَنْ صُبْحِهِ الشَّنْبِ^{١٢}
نُورُ الْيَقِينِ ظِلَامَ الشَّكِّ وَالرَّيْبِ
كَالسَّيْفِ مِنْ سُلْمٍ لِلْعَزِّ أَوْ سَبَبِ

أَتَاهُمْ مِنْكَ فِي «لُوزَانَ» دَاهِيَةٌ
أَصَمُّ يَسْمَعُ سِرَّ الْكَائِدِينَ لَهُ
لَمْ تَفْتَرُقْ شَهَوَاتُ الْقَوْمِ فِي أَرْبِ
تَدَرَّعَتْ لِلِقَاءِ السَّلَامِ «أَنْقَرَةَ»
فَقُلْ لِبَانَ بِقَوْلِ رُكْنٍ مَمْلُكَةٍ
لَا تَلْتَمِسُ غَلْبًا لِلْحَقِّ فِي أُمَمٍ
لَا خَيْرَ فِي مَنَبِرٍ حَتَّى يَكُونَ لَهُ
وَمَا السِّلَاحُ لِقَوْمٍ كُلُّ عَدَّتِهِمْ
لَوْ كَانَ فِي النَّابِ دُونَ الْخُلُقِ مَنَبَهَةٌ
لَمْ يُغْنِ عَنْ قَادَةِ الْيُونَانِ مَا حَشَدُوا
وَتَرَكُّهُمْ «آسِيَا الصَّغْرَى» مُدَجَّجَةٌ
لِلتَّرِكِ سَاعَاتُ صَبْرٍ يَوْمَ نَكَبَتْهُمْ
مَغَارِمُ وَضَحَايَا مَا صَرَخْنَ وَلَا
بِالْفِعْلِ وَالْأَثَرِ الْمَحْمُودِ تَعْرِفُهَا
جُمِعْنَ فِي اثْنَيْنِ مِنْ دِينٍ وَمِنْ وَطَنِ
فِيهَا حَيَاةٌ لَشُعْبٍ لَمْ يَمُتْ خُلُقًا
لَمْ يَطْعَمِ الْغُمُضُ جَفْنَ الْمُسْلِمِينَ لَهَا
كُنَّ الرِّجَاءَ وَكُنَّ الْيَأْسَ ثُمَّ مَحَا
تَلَمَّسَ التَّرِكَ أَسْبَابًا فَمَا وَجَدُوا

^٧ الرقب: جمع رقيب، وهي الحية الخبيثة. والمقصود بالداهية: عصمت باشا مندوب الترك في مؤتمر «لوزان»، والمشهور عنه أن في سمعه ضعفًا، لا تصل إليه إلا الأصوات العالية.

^٨ السمر: الرماح. والقضب: السيوف.

^٩ أهب: جمع إهاب.

^{١٠} حينما ينكمش القنفذ ويتخشب يتسع ما بين شعراته من الانفراج، بخلاف حالة الانبساط، فإن شعراته حينئذ تكون متضامة.

^{١١} القرب: جمع قرية، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من أعمال البر والطاعة.

^{١٢} الشنب: الأبلج، من الشنب، وهو عذوبة الأسنان.

عَبَرَ النَجَاةَ فَكَانَتْ صَخْرَةَ الْعَطَبِ^{١٣}
 فِي الْعَاصِفَاتِ وَلَمْ تُغْلَبْ عَلَى خُشْبِ^{١٤}
 بِحُسْنِ عَاقِبَةٍ مِنْ سَوْءِ مُنْقَلَبِ
 مِنْ كَيْدِ حَامٍ وَمِنْ تَضْلِيلِ مُنْتَدِبِ
 طَغَتْ فَأَغْرَقَتْ الْإِغْرِيقَ فِي اللَّهَبِ^{١٥}
 كَانَتْ قِيَادَتُهُمْ حَمَالَةَ الْحَطَبِ
 يَا ضُلَّ سَاعِ بَدَاعِي الْحَيْنِ مُنْجَذِبِ
 إِلَّا مَسَالِكَ فِرْعَوْنِيَّةِ السَّرَبِ
 وَأَشْأَمُ الرَّأْيِ مَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرْبِ
 مِنْ لِبْدَةِ اللَّيْثِ أَوْ مِنْ غِيْلَةِ الْأَشْبِ^{١٦}
 وَمَنْ تَنْزَرَهُ فِي الْأَجَامِ لَمْ يَوْبِ
 كِلَا السَّرَابَيْنِ أَظْمَاهُمْ وَلَمْ يَصُبِ^{١٧}
 مِنَ الْأَمَانِيِّ وَالْأَحْلَامِ مُخْتَلِبِ
 حَزْبَيْنِ ضِدَّيْنِ عِنْدَ الْحَادِثِ الْحَزْبِ^{١٨}
 عَلَى الْوَهَادِ وَلَا رَفَقٍ عَلَى الْهَضْبِ^{١٩}
 يَحْمِلُنْ أَسَدَ الشَّرَى فِي الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ^{٢٠}
 وَالثَّلْجِ فِي قُلُلِ الْأَجْبَالِ لَمْ يَذُبِ
 طَارَوْا بِأَجْنَحَةٍ شَتَى مِنَ الرُّعْبِ

خَاضُوا الْعَوَانَ رَجَاءً أَنْ تُبَلِّغَهُمْ
 سَفِينَةُ اللَّهِ لَمْ تُقْهَرْ عَلَى دُسْرِ
 قَدْ أَمَّنَ اللَّهُ مَجْرَاهَا وَأَبْدَلَهَا
 وَاخْتَارَ رُبَّانَهَا مِنْ أَهْلِهَا فَنَجَّتْ
 مَا كَانَ مَاءً «سَقَارِيًّا» سَوَى سَقَرِ
 لَمَّا انْبَرَتْ نَارُهَا تَبْغِيهِمْ حَطَبًا
 سَعَتْ بِهِمْ نَحْوُكَ الْأَجَالُ يَوْمئِذٍ
 مَدُّوا الْجُسُورَ فَحَلَّ اللَّهُ مَا عَقَدُوا
 كَرْبٌ تَغْشَاهُمْ مِنْ رَأْيِ سَاسَتِهِمْ
 هُمْ حَسَنُوا لِلْسَّوَادِ الْبُلْهَ مَمْلَكَةً
 وَأَنْشَأُوا نَزْهَةً لِلْجَيْشِ قَاتِلَةً
 ضَلَّ الْأَمِيرُ كَمَا ضَلَّ الْوَزِيرُ بِهِمْ
 تَجَاذَبَاهُمْ كَمَا شَاءَ بِمُخْتَلِفِ
 وَكَيْفَ تَلْقَى نَجَاحًا أُمَّةً زَهَبَتْ
 زَحَفَتْ زَحَفَ أَتَيْ غَيْرِ نِي شَفَقِ
 قَذَفَتْهُمْ بِالرِّيَّاحِ الْهُوجِ مُسْرَجَةً
 هَبَّتْ عَلَيْهِمْ فَذَابُوا عَنْ مَعَاقِلِهِمْ
 لَمَّا صَدَعَتْ جَنَاحِيهِمْ وَقَلْبُهُمْ

^{١٣} الحرب العوان: التي قُوِّلَ فيها مرةً بعد أخرى. وعبر الوادي (بالفتح والكسر): شاطئه.

^{١٤} دسر: جمع دسار، وهو المسمار، أو الخيط من ليف تُشَدُّ به ألواح السفينة.

^{١٥} الإغريق: اليونان.

^{١٦} اللبدة: شعر وبرة الليث، ويضرب بها المثل في المنعة، فيقال: أَمْنَعُ مِنْ لِبْدَةِ الْأَسَدِ. والغيل: موضع الأسد. والأشب: الشائك المشتبك.

^{١٧} لم يصب، من الصوب: أي المطر.

^{١٨} الحزب: الشديد.

^{١٩} الأتي: السيل.

^{٢٠} الشرى: مأسدة يضرب بها المثل بجانب الفرات. والببيض: الخوذ. واليلب: الدروع.

قَنَاتَهُ وَتَخَلَّى كُلُّ مُحْتَقِبٍ^{٢١}
تُدْعَى الهزيمةُ فيه حُسْنٌ مُنْسَحَبٍ
هَبِطَتْ مِنْ صُعْدٍ أَمْ جِئَتْ مِنْ صَبَبٍ^{٢٢}
فَلَمْ تَتَمَّ وَكَانَتْ خُطَّةَ الْهَرَبِ
قَرَبَتْ مَا كَانَ مِنْهَا غَيْرَ مُقْتَرِبٍ
وَسَائِرُ الْخَيْلِ مِنْ لَحْمٍ وَمِنْ عَصَبٍ
وَتَقْطَعُ الْأَرْضَ مِنْ قُطْبٍ إِلَى قُطْبٍ
تَطْفِرُ وَأَيُّ حَصُونِ الرُّومِ لَمْ تَثْبِ^{٢٣}
مَاءٌ سِوَاهَا وَلَا حَلَّتْ عَلَى عُشْبٍ
تَوَارَتْهُ أَبَا فِي الرُّوعِ بَعْدَ أَبٍ
فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ^{٢٤}
مِنْ نَابِهِ الذِّكْرُ لَمْ يُسَمَكْ عَلَى الشُّهْبِ^{٢٥}
فَلَمْ يُكَذَّبْ وَلَمْ يَذْمَمْ وَلَمْ يُرَبِّ
عَلَى الصَّعِيدِ وَخَيْلُ اللَّهِ فِي السُّحْبِ
بَدْرِئَةُ الْعُودِ وَالْدِيْبَاجِ وَالْعَذَبِ^{٢٦}
مِنْ سَكْرَةِ النُّصْرِ لَا مِنْ سَكْرَةِ النَّصَبِ
كَالْمِسْكِ مِنْ جَنَابَاتِ «السَّكْبِ» مُنْسَكِبِ^{٢٧}
مَشْيِ الْمُجَلِّي إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْقَصَبِ

جَدَّ الْفِرَارُ فَأَلْقَى كُلُّ مُعْتَقِلٍ
يَا حُسْنٌ مَا انْسَحَبُوا فِي مَنْطِقِ عَجَبٍ
لَمْ يَدِرْ قَائِدُهُمْ لَمَّا أَحْطَتْ بِهِ
أَخَذَتْهُ وَهُوَ فِي تَدْبِيرِ خُطَّتِهِ
تِلْكَ الْفِرَاسِخُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
خَيْلُ الرُّسُولِ مِنَ الْفُؤَادِ مَعِدْنُهَا
أَفِي لِيَالٍ تَجُوبُ الرَّاسِيَاتِ بِهَا
سَلِ الظِّلَامَ بِهَا أَيُّ الْمَعَاقِلِ لَمْ
آلَتْ لَنْ لَمْ تَرِدْ «أَزْمِيرَ» لَا نَزَلَتْ
وَالصَّبْرُ فِيهَا وَفِي فِرْسَانِهَا خُلُقٌ
كَمَا وَلِدْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلِدَتْ
حَتَّى طَلَعَتْ عَلَى «أَزْمِيرَ» فِي فَلَكٍ
فِي مَوَكِبٍ وَقَفَ التَّارِيخُ يَعْرِضُهُ
يَوْمٌ كَ «بَدْرِ» فَخَيْلُ الْحَقِّ رَاقِصَةٌ
غُرٌّ تُظَلِّلُهَا غُرَاءٌ وَارِفَةٌ
نَشَوَى مِنَ الظَّفَرِ الْعَالِي مُرْنَحَةٌ
تُذَكِّرُ الْأَرْضَ مَا لَمْ تَنْسَ مِنْ زَبَدٍ
حَتَّى تَعَالَى أَذَانُ الْفَتْحِ فَاتَّأَدَتْ

* * *

^{٢١} المحتقب: المأخوذ، ويقال: احتقب فلان الشيء؛ أي ادخره، أو احتمله خلفه.

^{٢٢} الصبيب: ما انحدر من الأرض.

^{٢٣} تطفر: من الطفور، وهو الوثوب في ارتفاع، والطفرة كذلك: الوثبة.

^{٢٤} الأعراف: جمع عرف، وهو شعر عنق الفرس.

^{٢٥} لم يُسَمَكْ: لم يُرْفَع.

^{٢٦} غُرَاءٌ وارفَةٌ: يصف العَلَمَ (اللواء). والعذب: خرق الألوية.

^{٢٧} السكب: فرس من أفراس النبي.

تحية أيها الغازي وتهنئة
وقيماً من ثناء لا كفاء له
الصابرين إذا حلّ البلاء بهم
والجاعلين سيوف الهند ألسنهم
لا الصعب عندهم بالصعب مركبته
ولا المصائب إذ يرمى الرجال بها
قواد معركة وراؤ مهلكة
بلوتهم فتحدثت كم شددت بهم
وكم ثلّمت بهم من معقل أشب
وكم بنيت بهم مجدًا فما نبسوا
من قلّ جيش ومن أنقاض مملكة
أخرجت للناس من ذلّ ومن فشل
لما أتيت ببدر من مطالعها
وهشت الروضة الفيحاء ضاحكة
ومست الدار أركى طيبتها وأنت
وأرج الفتح أرجاء الحجاز وكم
وازيّنت أمهات الشرق واستبقت
هزت «دمشق» بني «أيوب» فانتبهوا
ومسلمو «الهند» و«الهندوس» في جدل
ممالك ضمّها الإسلام في رجم
من كلّ ضاحية ترمي بمكتحل
تقول لولا الفتى التركيّ حلّ بنا

بآية الفتح تبقى آية الحقب
إلا التعجب من أصحابك النجب
كاليث عض على نابيه في النوب
والكاتبين بأطراف القنا السلب^{٢٨}
ولا المحالّ بمستعص على الطلب
بقاتلات إذا الأخلاق لم تصب
أوتاد مملكة أساد مُحترَب
من مُضمحلّ وكم عمّرت من حرب
وكم هزمت بهم من جحفل لجب
في الهدم ما ليس في البنيان من صخب
ومن بقية قوم جئت بالعجب^{٢٩}
شعبًا وراء العوالي غير مُنشعب
تلفت البيت في الأستار والحجب
إلى المنورة المسكية الترب
باب الرسول فمست أشرف العتب
قضى الليالي لم ينعم ولم يطب
مهارج الفتح في الموشية القشب
يُهَنُّون «بني حمدان» في «حلب»
ومسلمو «مصر» والأقباط في طرب
وشيجة وخواها الشرق في نسب^{٣٠}
إلى مكانك أو تُومي بمختضب
يوم كيوم يهود كان عن كُتب

^{٢٨} السلب: جمع سلب، وهو الطويل.

^{٢٩} الفل: واحد الفلول. وفلول السيف: كسور في حده.

^{٣٠} الرحم الوشيعة: المتصلة القرابة.

بعد المنفى^١

أُنَادِي الرَّسْمَ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا
وَقَلَّ لِحَقِّهِ الْعِبْرَاتُ تَجْرِي
سَبَقْنَ مُقَبَّلَاتِ التُّرْبِ عَنِّي
فَنَثْرِي الدَّمْعَ فِي الدَّمَنِ الْبَوَالِي
وَقَفْتُ بِهَا كَمَا شَاءَتْ وَشَاءُوا
لَهَا حَقٌّ وَلِلْأَحْبَابِ حَقٌّ
وَمَنْ شَكَرَ الْمَنَاجِمَ مُحْسِنَاتٍ
وَبَيْنَ جَوَانِحِي وَافٍ أَلُوفُ
رَأَى مَيْلَ الزَّمَانِ بِهَا فَكَانَتْ
وَأَجْزِيهِ بِدَمْعِي لَوْ أَثَابَا^٢
وَأَدَيْنَ التَّحِيَّةَ وَالخَطَابَا
كَنْظَمِي فِي كَوَاعِبِهَا الشَّبَابَا^٣
وَقَوْفًا عَلَّمَ الصَّبْرَ الذَّهَابَا
رَشَفْتُ وَصَالَهُمْ فِيهَا حَبَابَا^٤
إِذَا التَّبَرُّ انْجَلَى شَكَرَ التَّرَابَا
إِذَا لَمَحَ الدِّيَارَ مَضَى وَثَابَا
عَلَى الْأَيَّامِ صُحْبَتُهُ عِتَابَا

^١ كانت هذه القصيدة فاتحة شعر الشاعر بعد عودته من منفاه ببلاد الأندلس، وقد أشاد فيها بذكر تلك البلاد شكرًا لها وعرفانًا بجميلها، ثم انتقل إلى استقبال بلاده بعد تلك الغيبة الطويلة، وعجَّ على مسألة التموين التي كانت حينئذٍ شغلَ البلاد الشاغل، وقد أنشدت هذه القصيدة في اجتماع لجان التموين (بالأوبرا الملكية سنة ١٩٢٠م).

^٢ الرسم: ما كان لاحقًا بالأرض من آثار الدار.

^٣ الدَّمْن: آثار الديار. والكواعب من الجواري: ناهدات الثدي، والمراد بها هنا: الديار قبل أن تستحيل إلى

دمن.

^٤ رشف الماء: مصَّه بشفتيه. والحباب: الحبيب.

* * *

وداعاً أرض أندلس وهذا
وما أثْنَيْتُ إلا بعدَ عِلْمٍ
تَخَذْتُكَ مَوْتًا فَحَلَلْتُ أُنْدَى
مُغْرَبُ آدَمٍ مِنْ دَارِ عَدْنٍ
شَكَرْتُ الْفُلْكَ يَوْمَ حَوَيْتِ رَحْلِي
فَأَنْتِ أَرْحَتْنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ
وَمَنْظَرٍ كُلِّ خَوَّانٍ يِرَانِي
وَلَيْسَ بِعَامِرٍ بَنِيَانُ قَوْمٍ
ثَنَائِي إِنْ رَضِيتَ بِهِ ثَوَابًا
وَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَثْنَى فَعَابًا
ذُرًّا مِنْ وَائِلٍ وَأَعَزَّ غَابًا^٥
قَضَاهَا فِي حِمَاكِ لِي اغْتَرَابًا^٦
فِيَا لِمُفَارِقِي شَكَّرَ الْغُرَابَا
كَأَنْفِ الْمَيِّتِ فِي النَّزْعِ انْتِصَابًا
بَوَجْهِ كَالْبَغْيِيِّ رَمَى النِّقَابَا
إِذَا أَخْلَقَهُمْ كَانَتْ خَرَابَا

* * *

أَحَقُّ كُنْتُ لِلزَّهْرَاءِ سَاحًا
وَلَمْ تَكُ «جورُ» أَبْهَى مِنْكَ وَرْدًا
وَأَنْ الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا رَحِيقُ
أَوَّلُكَ أُمَّةٌ ضَرَبُوا الْمَعَالِي
جَرَى كَدْرًا لَهُمْ صَفْوُ اللَّيَالِي
مُشَيَّبَةُ الْقُرُونِ أُدِيلَ مِنْهَا
مُعَلَّقَةٌ تَنْظُرُ صَوْلَجَانًا
تُعَدُّ بِهَا عَلَى الْأُمَمِ اللَّيَالِي
وَكُنْتُ لِسَاكِنِ «الزاهي» رَحَابَا
وَلَمْ تَكُ بَابِلُ أَشْهَى شَرَابَا
إِذَا طَالَ الزَّمَانُ عَلَيْهِ طَابَا
بِمَشْرِقِهَا وَمَغْرِبِهَا قِبَابَا
وَعَايَةُ كُلِّ صَفْوٍ أَنْ يُشَابَا
أَلَمْ تَرِ قَرْنَهَا فِي الْجَوْ شَابَا^٧
يَخْرُ عَنْ السَّمَاءِ بِهَا لِعَابَا
وَمَا تَدْرِي السَّنِينَ وَلَا الْحَسَابَا

* * *

ويا وطني لِقَيْتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ
وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَتُوبُ يَوْمًا
كَأَنِّي قَدْ لَقَيْتُ بِكَ الشَّبَابَا
إِذَا رُزِقَ السَّلَامَةُ وَالْإِيَابَا

^٥ وأل: طلب النجدة. والموتل: الملقأ. ووائل: جبل، وسُميت به قبيلة من العرب.
^٦ إن الله الذي أخرج آدم من الجنة ليجعل الأرض منفاه، قد قضى علياً أن يكون منفاه في جنة من حماك. وهذه مبالغة من الشاعر في تكريم هذه البلاد التي آوته وهو غريب.
^٧ أدال الله فلاناً من فلان: نزع الدولة من الثاني وحولها إلى الأول، والكلام على الشمس.

ولو أني دُعيتُ لكنتَ ديني
أديرُ إليك قبلَ البيتِ وجهي
وقد سبقتَ ركائبي القوافي
تجوبُ الدَّهرَ نحوكَ والفيافي
وتُهديكِ الثَّنَاءَ الحُرَّ تاجًا
عليه أقابلُ الحتمَ المُجابًا^٨
إذا فُهِتُ الشهادةَ والمَتَابَا
مُقلِّدةً أزمَّتْها طِرَابَا
وتقتحمُ الليالي لا العُبابَا
على تاجيكِ مُؤتَلِّقا عُجابَا

* * *

هدانا ضوءُ ثغركِ من ثلاثٍ
وقد غشي المنارُ البحرَ نورًا
وقيل الثُّغُرُ فاتَّأَدَتِ فأرستِ
فصفحًا للزمانِ لصبحِ يومٍ
وحيا لله فتيانًا سَمَاحًا
ملائكةُ إذا حَفُّوكِ يومًا
وإن حملتِ أيديهم بحورًا
تلقوني بكلِّ أغرٍّ زاهٍ
تري الإيمانَ مُؤتَلِّقا عليه
وتلمحُ من وضاءِ صفحتيه
وما أدبي لما أسدَّوه أهلُ
شبابِ النِيلِ إنَّ لكم لَصوتًا
فهزُّوا «العرشَ» بالدعواتِ حتى
أمنُ حربِ البسوسِ إلى غَلاءِ
وهل في القومِ يوسفُ يتَّقِيها

كما تهدي «المنورةُ» الرُّكَّابَا
كنارِ «الطورِ» جَلَّتِ الشَّعَابَا
فكانت من ثراكِ الطُّهرِ قابَا
به أضحي الزمانُ إليَّ ثابَا
كسَّوا عِطْفِيَّ من فخرِ ثيابَا
أحبَّك كلُّ من تَلقى وهَابَا
بلغتَ على أَكْفُهُم السحابَا
كَأَنَّ على أَسْرَتِهِ شهابَا
ونورَ العلمِ والكرمِ اللَّبابَا^٩
مُحيًا مصرَ رائعةً كَعَابَا^{١٠}
ولكنَّ مَنْ أحبَّ الشيءَ حابَا
مُلَبِّي حين يُرْفَعُ مُستجابَا
يُخَفِّفُ عن كنانَتِهِ العذابَا
يكادُ يُعِيدُهَا سَبْعًا صِعَابَا
ويُحسِنُ حِسْبَةً ويرى صوابَا^{١١}

^٨ دُعيت إلى الموت: نُوديت. والحتم المجاب: هو الموت.

^٩ جَلَّ الشيء: غَطَّاه وغمه.

^{١٠} اللباب: الخالص.

^{١١} الوضاعة: الحُسْن والنظافة.

^{١٢} الحسبة: الحساب.

عبادُكَ رَبِّ قَدْ جَاعُوا بِمَصْرِ
 حَنَانِكَ وَاهِدٍ لِلْحُسْنَى تِجَارًا
 وَرَقَّقَ لِلْفَقِيرِ بِهَا قُلُوبًا
 أَمَّنْ أَكَلَ الْيَتِيمَ لَهُ عِقَابُ
 أُصِيبَ مِنَ التَّجَارِ بِكُلِّ ضَارٍ
 يَكَادُ إِذَا غَزَاهُ أَوْ كَسَاهُ
 وَتَسْمَعُ رَحْمَةً فِي كُلِّ نَادٍ
 أَكَلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا
 إِذَا مَا الطَّاعِمُونَ شَكُّوا وَضَجُّوا
 فَمَا يَبْكُونَ مِنْ ثُكُلٍ وَلَكِنْ
 وَلَمْ أَرِ مِثْلَ سُوقِ الْخَيْرِ كَسْبًا
 وَلَا كَأَوْلِئِكَ الْبُؤْسَاءُ شَاءَ
 وَلَوْلَا الْبِرُّ لَمْ يُبْعَثْ رَسُولُ

أَنِيلًا سُقَّتْ فِيهِمْ أُمُّ سَرَابًا
 بِهَا مَلَكُوا الْمَرَافِقَ وَالرَّقَابَا
 مُحَجَّرَةً وَأَكْبَادًا صِلَابَا
 وَمَنْ أَكَلَ الْفَقِيرَ فَلَا عِقَابَا
 أَشَدَّ مِنَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ نَابَا
 يُنَازِعُهُ الْحُشَّاشَةُ وَالْإِهَابَا^{١٣}
 وَلَسْتُ تُحِسُّ لِلْبِرِّ انْتِدَابَا
 زَكَاةَ الْمَالِ لَيْسَتْ فِيهِ بَابَا
 فَدَعَهُمْ وَاسْمِعِ الْغَرثَى السَّغَابَا^{١٤}
 كَمَا تَصَفُّ الْمَعْدَّةُ الْمُصَابَا
 وَلَا كِتَابَةَ السُّوءِ اِكْتِسَابَا
 إِذَا جَوَّعَتْهَا انْتَشَرَتْ ذَنَابَا
 وَلَمْ يَحْمِلْ إِلَى قَوْمٍ كِتَابَا

^{١٣} الحشاشة: بقية الروح في المريض. والإهاب: الجلد.

^{١٤} الغرثى: جمع غرثان، وهو الجائع. والسغاب: جمع ساغب، وهو الجائع أيضًا.

ذكرى المولد

سَلُّوا قلبي غداةَ سَلا وتابًا
ويُسألُ في الحوادثِ ذو صوابٍ
وكنْتُ إذا سألتُ القلبَ يومًا
ولي بين الضلوعِ دَمٌ ولحمٌ
تسرَّبَ في الدموعِ فقلْتُ ولَّى
ولو خُلِقَتْ قلوبٌ من حديدٍ
وأحبابٌ سُقِيَتْ بهم سُلَافًا
ونادَمْنَا الشبابَ على بَسَاطِ
وكلُّ بَسَاطٍ عيشٍ سوفِ يُطَوَى
كأنَّ القلبَ بعدهمُ غريبٌ
ولا يُنْبِيكُ عن خُلُقِ الليالي
أخا الدنيا أرى دنياكَ أفعى
وأنَّ الرُّقْطَ أيقِظُ هاجعاتٍ

لعلَّ على الجمالِ له عِتَابًا
فهل تركَ الجمالُ له صوابًا؟
تولَّى الدمعُ عن قلبي الجوابًا
هما الواهي الذي ثكَلَ الشبابًا^١
وصفَّقَ في الضلوعِ فقلْتُ تابًا^٢
لما حمَلَتْ كما حملَ العذابًا
وكان الوصلُ من قَصْرِ حَبَابًا^٣
من اللذاتِ مختلفٍ شرابًا
وإن طال الزمانُ به وطابًا
إذا عادَتَه ذكرى الأهلِ ذابًا
كَمَنَ فَقَدَ الأَجِبَّةِ والصَّحَابَا
تُبَدِّلُ كلَّ آونةٍ إهابًا
وأترَعُ في ظلالِ السَّلمِ نابًا^٤

^١ الواهي: الضعيف. وثكل الشباب: فقده. والمقصود بالدم واللحم هنا: القلب.

^٢ تاب: رجع بعد ذهاب.

^٣ السلاف: خالص الخمر. وحباب الماء: نفاخاته التي تملؤه.

^٤ الرقطة: جمع رقطاء، وهي الحية على جلدها سوادٌ مشوب بالبياض. وأترع: أسرع إلى الشر.

وَمِنْ عَجَبٍ تُشَيِّبُ عَاشِقِيهَا
فَمَنْ يَغْتَرُّ بِالدُّنْيَا فَإِنِّي
لَهَا ضَحِكُ الْقِيَانِ إِلَى غَبِيٍّ
جَنَيْتُ بَرُوضَهَا وَرَدًّا وَشَوْكًا
فَلَمْ أَرَ غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمًا
وَلَا عَظَمَتٍ فِي الْأَشْيَاءِ إِلَّا
وَلَا كَرَمَتٍ إِلَّا وَجْهَ حُرٍّ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ جَمْعِ الْمَالِ دَاءً
فَلَا تَقْتُلُكَ شَهْوَتُهُ وَزَنُّهَا
وَحُذْ لِبَنِيكَ وَالْأَيَّامِ دُخْرًا
فَلَوْ طَالَعْتَ أَحْدَاثَ اللَّيَالِي
وَأَنَّ الْبِرَّ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ
وَأَنَّ الشَّرَّ يَصْدَعُ فَاعِلِيهِ
فَرَفَقًا بِالْبَنِينَ إِذَا اللَّيَالِي
وَلَمْ يَتَقَلَّدُوا شُكْرَ الْيَتَامَى
عَجِبْتُ لِمَعَشَرٍ صَلُّوا وَصَامُوا
وَتُلْفِيهِمْ حِيَالَ الْمَالِ صُمًّا
لَقَدْ كَتَمُوا نَصِيبَ اللَّهِ مِنْهُ

وَتُفْنِيهِمْ وَمَا بَرَحَتْ كَعَابًا^٥
لَبِستُ بِهَا فَأَبْلَيْتُ الثِّيَابَا
وَلِي ضَحِكُ اللَّبِيبِ إِذَا تَغَابَى^٦
وَذُقْتُ بِكَأْسِهَا شَهْدًا وَصَابَا
وَلَمْ أَرَ دُونَ بَابِ اللَّهِ بَابَا
صَحِيحَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ اللَّبَابَا^٧
يُقَلِّدُ قَوْمَهُ الْمِنْنَ الرَّغَابَا^٨
وَلَا مِثْلَ الْبَخِيلِ بِهِ مُصَابَا
كَمَا تَزِنُ الطَّعَامَ أَوْ الشَّرَابَا
وَأَعْطِ اللَّهَ حِصْنَتَهُ احْتِسَابَا^٩
وَجَدْتُ الْفَقْرَ أَقْرَبَهَا انْتِيَابَا^{١٠}
وَأَبْقَى بَعْدَ صَاحِبِهِ ثَوَابَا
وَلَمْ أَرَ خَيْرًا بِالشَّرِّ أَبَا
عَلَى الْأَعْقَابِ أَوْقَعَتِ الْعِقَابَا
وَلَا ادَّرَعُوا الدَّعَاءَ الْمُسْتَجَابَا^{١١}
ظَوَاهِرَ خَشْيَةٍ وَتُقَى كِذَابَا^{١٢}
إِذَا دَاعَى الزَّكَاةَ بِهِمْ أَهَابَا^{١٣}
كَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُحِصِ النَّصَابَا

^٥ الكعاب: الجارية الناهد.

^٦ القيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية.

^٧ اللباب: المختار الخالص.

^٨ الأرض الرغاب: التي لا تسيل إلا من مطر كثير.

^٩ احتسب عند الله أمرًا: قدّمه.

^{١٠} انتابه: أتاها مرة بعد أخرى.

^{١١} ادَّرع: لبس الدرع.

^{١٢} الكذاب: الكذب.

^{١٣} أهاب به: دعاه.

وَمَنْ يَعْدِلْ بِحُبِّ اللَّهِ شَيْئًا
أَرَادَ اللَّهُ بِالْفُقَرَاءِ بَرًّا
فَرُبَّ صَغِيرٍ قَوْمٍ عَلَّمُوهُ
وَكَانَ لِقَوْمِهِ نَفْعًا وَفَخْرًا
فَعَلَّمْ مَا اسْتَطَاعَتْ لَعْلَ جِيلًا
وَلَا تُرْهِقْ شَبَابَ الْحَيِّ يَأْسًا
يَرِيدُ الْخَالِقُ الرِّزْقَ اشْتِرَاكًا
فَمَا حَرَمَ الْمُجِدِّ جَنَى يَدِيهِ
وَلَوْلَا الْبَخْلُ لَمْ يَهْلِكْ فَرِيقُ
تَعِبْتُ بِأَهْلِهِ لَوْمًا وَقَبْلِي
وَلَوْ أَنِّي خَطَبْتُ عَلَى جَمَادٍ
أَلَمْ تَرِ لِلْهَوَاءِ جَرَى فَأَفْضَى
وَأَنَّ الشَّمْسَ فِي الْأَفَاقِ تَغْشَى
وَأَنَّ الْمَاءَ تَرَوَى الْأَسَدُ مِنْهُ
وَسَوَّى اللَّهُ بَيْنَكُمْ الْمَنَایَا
وَأَرْسَلَ عَائِلًا مِنْكُمْ يَتِيمًا

كحِبِّ الْمَالِ ضَلَّ هَوَىٰ وَخَابَا
وَبِالْإِيْتَامِ حُبًّا وَارْتَبَابَا^{١٤}
سَمَا وَحَمَى الْمُسُومَةَ الْعَرَابَا^{١٥}
وَلَوْ تَرَكُوهُ كَانَ أَذَىٰ وَعَابَا^{١٦}
سَيَأْتِي يُحْدِثُ الْعَجَبَ الْعُجَابَا
فَإِنَّ الْيَأْسَ يَخْتَرُمُ الشَّبَابَا^{١٧}
وَإِنْ يَكُ خَصَّ أَقْوَامًا وَحَابَىٰ^{١٨}
وَلَا نَسِيَ الشَّقَى وَلَا الْمُصَابَا^{١٩}
عَلَى الْأَقْدَارِ تَلْقَاهُمْ غَضَابَا
دُعَاةُ الْبِرِّ قَدْ سَنَمُوا الْخِطَابَا
فَجَرَتْ بِهِ الْيَنَابِيعُ الْعِذَابَا
إِلَى الْأَكْوَاخِ وَاخْتَرَقَ الْقِبَابَا^{٢٠}
جَمَى كَسَرَى كَمَا تَغْشَى الْيَبَابَا^{٢١}
وَيَشْفِي مَنْ تَلْعَلُهَا الْكَلَابَا^{٢٢}
وَوَسَّدَكُمْ مَعَ الرُّسُلِ التَّرَابَا^{٢٣}
دَنَا مِنْ ذِي الْجَلَالِ فَكَانَ قَابَا^{٢٤}

^{١٤} ارتبَّ الصبِّيَّ ارتبَابًا: رَبَّاهُ حَتَّى أَدْرِكَ.

^{١٥} الْخِيلُ الْمُسُومَةُ: الْمَرْعِيَّةُ، وَالْخِيلُ الْعَرَابُ: الْكَرَائِمُ.

^{١٦} الْعَابُ: الْعَيْبُ.

^{١٧} أَرْهَقَهُ طَغْيَانًا: أَغْشَاهُ إِيَّاهُ. وَيَخْتَرُمُ الشَّبَابُ: يَسْتَأْصِلُهُ.

^{١٨} حَابَاهُ: اخْتَصَّه وَمَالَ إِلَيْهِ.

^{١٩} الْجَنَى: مَا نَجَنِي مِنَ الشَّجَرِ.

^{٢٠} أَفْضَى: بَلَغَ.

^{٢١} الْيَبَابُ: الْقَفَرُ.

^{٢٢} تَلْعَلُ الْكَلْبُ: دَلَعَ لِسَانَهُ عَطْشًا.

^{٢٣} سَوَّى: جَعَلَكَم فِيهَا سَوَاءً.

^{٢٤} عَائِلًا: فَقِيرًا. وَقَابُ الْقَوْسِ: مَا بَيْنَ الْمَقْبُضِ وَالسِّيَةِ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ كَانَ قَرِيبًا.

نَبِيُّ الْبَرِّ بَيْنَهُ سَبِيلًا وَسَنَّ خِلَالَهُ وَهَدَى الشُّعَابَا^{٢٥}
تَفَرَّقَ بَعْدَ عَيْسَى النَّاسُ فِيهِ فَلَمَّا جَاءَ كَانَ لَهُمْ مَتَابَا^{٢٦}
وَشَافِي النَّفْسِ مِنْ نَزَعَاتِ شَرٍّ كَشَافٍ مِنْ طِبَائِعِهَا الذَّنَابَا^{٢٧}
وَكَانَ بَيَانُهُ لِلْهَدْيِ سُبُلًا وَكَانَتْ خَيْلُهُ لِلْحَقِّ غَابَا
وَعَلَّمَنَا بِنَاءَ الْمَجْدِ حَتَّى أَخَذْنَا إِمْرَةَ الْأَرْضِ اغْتِصَابَا
وَمَا نَيْلُ الْمَطَالِبِ بِالْتَمَنِي وَلَكِنْ تُوُخِذُ الدُّنْيَا غِلَابَا^{٢٨}
وَمَا اسْتَعَصَى عَلَى قَوْمٍ مَنَالٌ إِذَا الْإِقْدَامُ كَانَ لَهُمْ رِكَابَا

* * *

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي وَعَمَّتْ بِشَائِرُهُ الْبُودَايَ وَالْقِصَابَا^{٢٩}
وَأَسَدَتْ لِلْبَرِيَّةِ بِنْتُ وَهَبٍ يَدَا بِيضَاءَ طَوَّقَتِ الرِّقَابَا^{٣٠}
لَقَدْ وَضَعْتَهُ وَهَاجًا مُنِيرًا كَمَا تَلِدُ السَّمَوَاتُ الشَّهَابَا^{٣١}
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نَوْرًا يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنُّقَابَا^{٣٢}
وَضَاعَتْ يَثْرُبُ الْفِيحَاءُ مِسْكًَا وَفَاحَ الْقَاعُ أَرْجَاءَ وَطَابَا^{٣٣}
أَبَا الزَّهْرَاءِ قَدْ جَاوَزْتُ قَدْرِي بِمَدْحِكَ بَيْدَ أَنَّ لِي انْتِسَابَا
فَمَا عَرَفَ الْبَلَاغَةَ ذُو بَيَانٍ إِذَا لَمْ يَتَّخِذْكَ لَهُ كِتَابَا
مَدَحْتُ الْمَالِكِينَ فَزِدْتُ قَدْرًا فَحِينَ مَدَحْتُكَ اقْتَدَتْ السَّحَابَا
سَأَلْتُ اللَّهَ فِي أَبْنَاءِ دِينِي فَإِنْ تَكُنِ الْوَسِيلَةَ لِي أَجَابَا

^{٢٥} الشعاب: الطُّرُق.

^{٢٦} الضمير في «فيه» يعود على البر.

^{٢٧} النزغات: الوسوس.

^{٢٨} غلابًا: قهراً.

^{٢٩} القصابا: جمع قصبة، وهي المدينة.

^{٣٠} بنت وهب: السيدة آمنة، أمه ﷺ.

^{٣١} الشهاب: الكوكب.

^{٣٢} نقاب: جمع نقب، وهو الطريق في الجبل.

^{٣٣} ضاع المسك: تحرَّك فانتشرت رائحته.

وما للمسلمين سواكَ حصنٌ
كأنَّ النَّحْسَ حينَ جرى عليهم
ولو حفظوا سبيلَكَ كانَ نورًا
بنيتَ لهم من الأخلاق ركنًا
وكانَ جنابُهم فيها مهيبةً
فلولاها لساوى الليثُ ذئبًا
فإنَّ قُرْنَتَ مَكارمِها بعِلمٍ
وفي هذا الزمانَ مَسيحُ عِلمٍ

إذا ما الضُّرُّ مَسَّهُمْ ونابًا
أطارَ بكلِّ مملكةٍ غرابًا
وكانَ من النُّحوسِ لهم حجابًا
فخانوا الركنَ فانهدم اضطرابًا
وللأخلاقِ أجدرُ أن تُهابًا
وساوى الصارمُ الماضي قِرابًا^{٣٤}
تذللَّت العُلا بهما صِعبًا
يردُّ على بني الأممِ الشَّبابًا

^{٣٤} الصارم: السيف. والقِراب: الغمد.

مشروع ملنر^١

اثنِ عِنانَ القلبِ واسلِّمْ به
ومن تثنِّي الغيدِ عن بانه
ظباؤه المنكسراتُ الظُّبا
بيضُ رِقاقِ الحسَنِ في لمحَةٍ
ذوابِلُ النرجسِ في أصلِهِ
زِنَّ على الأرضِ سماءُ الدُّجى
يمشِينَ أسرابًا على هِينَةٍ
من رَبِّبِ الرملِ ومن سِرْبِهِ^٢
مُرتجَّةَ الأردافِ عن كُثْبِهِ^٣
يَغْلِبَنَّ ذا اللَّبِّ على لُبِّهِ^٤
من ناعمِ الدرِّ ومن رَطْبِهِ
يَوانِعُ الوردِ على قُضْبِهِ
وزِدَنَّ في الحُسَنِ على شُهْبِهِ
مَشْيَ القِطَا الأَمَنِ في سِرْبِهِ^٥

^١ في سنة ١٩١٩م ثارت البلاد في طلب استقلالها، وسافر الوفد المصري لعرض قضية البلاد في مؤتمر السلام العام في «فرساي»، وتلقَّى هناك دعوةً من لورد «ملنر» وزير المستعمرات الإنجليزية إذ ذاك؛ ليتفق معه على مركز البلاد، وتحديد علاقة إنكلترا بها، فتمخَّضت المحادثات بينهما عن مشروع قدَّمه لورد ملنر، واتفق مع الوفد على عرضه على البلاد لأخذ رأيها فيه مع التزام الحيدة؛ فانتهب الوفد أربعةً من أعضائه للقيام بهذه المهمة، وقد كانت الأفكار يومئذٍ متَّجهةً إلى أن المشروع يصلح أساسًا للمفاوضة ببعض تعديلات.

^٢ الربرب: القطيع من بقر الوحش. والسرب (بكسر السين): جماعة الظباء أو النساء.

^٣ الغيد: جمع غيداء، وهي المرأة اللَّيِّنة الأعطاف. والبان: شجرٌ يُشَبَّه به القدُّ لطوله. والكتب: جمع كتيب، وهو التل من الرمل، يُشَبَّه به الرِّدف.

^٤ الظُّبا: جمع ظُبَّة، وهي حدُّ السيف.

^٥ الهينة (بالكسر): السكينة والوقار.

مِنْ كُلِّ وَسْنَانٍ بِغَيْرِ الْكَرَى
 جَفَنُ تَلَقَّى مَلَكًا بِابِلٍ
 يَا ظَبِيَّةَ الرَّمْلِ وَقِيَتِ الْهُوَى
 وَلَا ذَرَفَتِ الدَّمْعَ يَوْمًا وَإِنْ
 هَذَا الشَّوَاكِي النَّجْلُ صَدَنَ امْرَأً
 صَيَّادَ آرَامَ رَمَاهُ الْهُوَى
 شَابَ وَفِي أَضْلَعِهِ صَاحِبُ
 وَاهٍ بِجَنْبِي خَافَقُ كُلَّمَا
 لَا تَنْثَنِي الْآرَامُ عَنْ قَاعِهِ
 حَمَلْتُهُ فِي الْحُبِّ مَا لَمْ يَكُنْ
 مَا خَفَّ إِلَّا لِلْهُوَى وَالْعُلَا
 أَرْبَعَةٌ تَجْمَعُهُمْ هَمَّةٌ
 قَطَارُهُمْ كَالْقَطْرِ هَزَّ الثَّرَى
 لَوْلَا اسْتِلَامُ الْخَلْقِ أَرْسَانَهُ
 كُلُّهُمْ أَغْيَرُ مِنْ وَائِلٍ
 لَوْ قَدَرُوا جَاءُوكُمْ بِالْثَّرَى
 وَمَا اعْتَرَاضُ الْحِظِّ دُونَ الْمُنَى

تَنْتَبَهُ الْأَجَالُ مِنْ هُدْبِهِ
 غَرَائِبَ السَّحَرِ عَلَى غَرْبِهِ^٦
 وَإِنْ سَعَتْ عَيْنَاكَ فِي جَلْبِهِ
 أَسْرَفَتْ فِي الدَّمْعِ وَفِي سَكْبِهِ
 مُلْقَى الصَّبَا أَعَزَلَ مِنْ غَرْبِهِ^٧
 بِشَادِنٍ لَا بُرَاءَ مِنْ حُبِّهِ^٨
 خَلَوْ مِنْ الشَّيْبِ وَمِنْ خَطْبِهِ^٩
 قُلْتُ تَنَاهَى لَجَّ فِي وَثْبِهِ
 وَلَا بَنَاتُ الشَّوْقِ عَنْ شِعْبِهِ^{١٠}
 لِيَحْمَلَ الْحَبَّ عَلَى قَلْبِهِ
 أَوْ لَجَلَالِ الْوَفْدِ فِي رَكْبِهِ
 يَنْقُلُهَا الْجِيلَ إِلَى عَقْبِهِ^{١١}
 وَزَادَهُ خِصْبًا عَلَى خِصْبِهِ^{١٢}
 شَبَّ فَنَالَ الشَّمْسَ مِنْ عُجْبِهِ^{١٣}
 عَلَى حِمَاهُ وَعَلَى شَعْبِهِ^{١٤}
 مِنْ قُطْبِهِ مُلْكًا إِلَى قُطْبِهِ
 مِنْ هَفْوَةِ الْمُحْسِنِ أَوْ ذَنْبِهِ

^٦ هاروت وماروت: الملكان اللذان أنزل عليهما السحر. وغرب العين: مقدّمها أو مؤخرها. والغرب: السيف. وعلى هذا المعنى يكون المراد بالجفن: غمد السيف.

^٧ الشواكي: المسلحة. وغرب الشباب: حدته ونشاطه.

^٨ آرام: جمع رثم، وهو الظبي الخالص البياض. والشادن: ولد الظبية.

^٩ صاحب: يريد القلب.

^{١٠} القاع: أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والأكام. والشعب (بالكسر): الناحية.

^{١١} يريد بالأربعة: الأعضاء المندوبين لعرض المشروع. والعقب: الولد وولد الولد.

^{١٢} القطر: المطر.

^{١٣} أرسان: جمع رسن، وهو الزمام.

^{١٤} وائل: قبيلة من العرب.

وليس بالفاضل في نفسه
 ما بال قومي اختلفوا بينهم
 كأنهم أسرى أحاديثهم
 يا قوم هذا زمن قد رمى
 لو أن قيذا جاءه من عل
 وهذه الضجة من ناسه
 من يخلع النير يعش برهه
 يا نشأ الحي شباب الحمى
 بني الألى أصبح إحسانهم
 موسى وعيسى نشأ بينهم
 وعالجا أول ما عالجا
 ما نسيتم مصر لكم برها
 مزقتهم الوهم وألفتهم
 حتى بنيتهم هرما رابعا
 يوم لكم يبقى ك «بدر» على
 قد صارت الحال إلى جدّها
 الليث، والعالم من شرقه

من يُنكر الفضل على ربّه
 في مدحة المشروع أو ثلّيه^{١٥}
 في لئن القيد وفي ضلّيه
 بالقيد واستكبر عن سحبه^{١٦}
 خشيت أن يأبى على ربّه
 جنازة الرقّ إلى تربّه
 في أثر النير وفي ندبه^{١٧}
 سلالة المشرق من نجبه^{١٨}
 دارت رحي الفن على قطبه
 في سعة الفكر وفي رحيه
 من علل العالم أو طبه^{١٩}
 في حازب الأمر وفي صعبه^{٢٠}
 أهلة الله على ضلّيه
 من فئة الحق ومن جزيه
 أنصار سعد وعلى صحبه^{٢١}
 وانتبه الغافل من لعبه
 في هيبة الليث إلى غربه^{٢٢}

^{١٥} ثلّبه: عيبه وتنقصه.

^{١٦} السحب: الجر على الأرض.

^{١٧} النير: الخشبة المعترضة في عنق الثورين بأداتها، وتُعرف عند العامة بـ «الناف». والندب: جمع ندبة، وهي أثر الجرح الباقي على الجلد.

^{١٨} النجب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

^{١٩} الطب: الشهوة، وهو أيضًا علاج الجسم والنفس.

^{٢٠} حازب الأمر: شديده.

^{٢١} بدر: أكبر وقعة انتصر فيها الإسلام على أعدائه.

^{٢٢} الليث: الأسد البريطاني. وهنا يبدأ الشاعر في سرد نقاط المشروع الهامة.

قضى بأن نبني على نايه
ونبلغ المجد على عينه
ونصل النازل في سلمه
ونصرف النيل إلى رأيه
يبيح أو يحمي على قدرة
أمر عليكم أو لكم في غد
لا تستقلوه فما دهركم
نسمع بالحق ولم نطلع
ينال باللين الفتى بعض ما
فإن أنستم فليكن أنسكم
وفي احتشام الأسد دون القذى
قد أسقط الطفرة في ملكه
يا رب قيد لا تحبونه
ومطلب في الظن مستبعد
والياس لا يجل من مؤمن

ملك بنينا وعلى خليه^{٢٣}
وندخل العصر إلى جنبه
ونقطع الداخل في حربه
يقسمه بالعدل في شربه^{٢٤}
حق القرى والناس في عذبه
ما ساء أو ما سر من غبه^{٢٥}
بحاتم الجود ولا كعبه^{٢٦}
على قنا الحق ولا قضبه^{٢٧}
يعجز بالشدة عن غصبه
في الصبر للدهر وفي عتبه
إذا هي اضطرت إلى شربه^{٢٨}
من ليس بالعاجز عن قلبه^{٢٩}
زمانكم لم يتقيد به
كالصبح للناظر في قربه
ما دام هذا الغيب في حجه

^{٢٣} الخلب (بالكسر): الظفر.

^{٢٤} الشرب (بالكسر): النصيب من الماء.

^{٢٥} الغب: العاقبة.

^{٢٦} حاتم طي وكعب بن مامة: من أجواد العرب.

^{٢٧} القنا: الرماح. والقضب: السيوف.

^{٢٨} احتشام: إحجام.

^{٢٩} الطفرة: الوثبة في ارتفاع. وأسقط الطفرة: تركها. وقلب الملك: تبديله وتغيير نظامه.

مشروع ٢٨ فبراير

أُعِدَّتِ الرَّاحَةُ الْكُبْرَى لِمَنْ تَعَبَا
وَمَا قَضَتْ مَصْرُ مِنْ كُلِّ لُبَانَتَهَا
فِي الْأَمْرِ مَا فِيهِ مِنْ جِدٍّ فَلَا تَقِفُوا
لَا تُثَبِّتِ الْعَيْنُ شَيْئًا أَوْ تُحَقِّقْهُ
وَالصَّبْحُ يُظْلِمُ فِي عَيْنَيْكَ نَاصِعُهُ
إِذَا طَلَبْتَ عَظِيمًا فَاصْبِرَنَّ لَهُ
وَفَازَ بِالْحَقِّ مَنْ لَمْ يَأْلُهُ طَلِبَا^١
حَتَّى تَجْرَ ذِيُولَ الْغِبْطَةِ الْقَشْبَا^٢
مِنْ وَقَعَ جَزْعًا أَوْ طَائِرٍ طَرَبَا^٣
إِذَا تَحَيَّرَ فِيهَا الدَّمْعُ وَاضْطَرَبَا^٤
إِذَا سَدَلْتَ عَلَيْهِ الشَّكَّ وَالرَّيْبَا^٥
أَوْ فَاحْشَدَنَّ رِمَاحَ الْخَطِّ وَالْقُضْبَا^٦

^١ لم يألُ: لم يُقَصِّر. قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ حَبَالًا﴾. وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تتاح لغير أمير الشعراء؛ فكم وراء جهاد الحياة من راحة! وكم وراء الضعف من قوة!

^٢ اللبانة: الحاجة. والقشب، جمع قشيب: الجديد. وفي هذا البيت استفزاز للهيم، وبيان لأن سبيل المجد طويل وميدانه متسع.

^٣ الجد: الاجتهاد في الأمر. وفي هذا البيت نوع من البيان المربّي للأُمم في نهوضها؛ فكثيرًا ما يستفز الطرب أناسًا فيطير بهم، أو يستحكم اليأس منهم فيُردّهم.

^٤ تثبت العين: تصحّح. وفي هذا البيت تصوير للتردد والذعر والهلع والشك الذي يصيب الإنسان من أموره، فلا يستطيع الاهتداء، ولا يستبين طريق الصواب.

^٥ الريب: جمع ريبة، مثل سدرة وسدر، الظن. وكم من رجل تُسدُّ أمامه كوى الحياة، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ولا سبب لهذا إلا الشكوك والأوهام.

^٦ الخط: موضعٌ باليمامة يُنسب إليه على لفظه، فيقال: رماح خطية. والرماح لا تثبت به، ولكنه ساحل للسفن التي تحمل القنا إليه وتعمل به. وقال الخليل: إذا جعلت النسبة اسمًا لازمًا قلت خطية، بكسر

ولا تُعَدُّ صَغِيرَاتِ الْأُمُورِ لَهُ إِنَّ الصَّغَائِرَ لَيْسَتْ لِلْعُلَا أَهْبَاً^٧
ولن ترى صحبةً تُرْضَى عَوَاقِبُهَا كَالْحَقِّ وَالصَّبْرِ فِي أَمْرِ إِذَا اصْطَحَبَا^٨
إِنَّ الرِّجَالَ إِذَا مَا أُلْجِئُوا لَجِئُوا إِلَى التَّعَاوُنِ فِيمَا جَلَّ أَوْ حَزَبَا^٩

* * *

لا رَيْبَ أَنَّ خُطَا الْأَمَالِ وَاسِعَةٌ وَأَنْ لَيْلَ سُرَاهَا صُبْحُهُ اقْتَرَبَا^{١٠}
وَأَنْ فِي رَاحَتِي مَصْرٍ وَصَاحِبِهَا عَهْدًا وَعَقْدًا بِحَقِّ كَانَ مُغْتَصَبَا^{١١}
قَدْ فَتَحَ اللَّهُ أَبْوَابًا لَعَلَّ لَنَا وَرَاءَهَا فَسَحَ الْأَمَالِ وَالرَّحَبَا^{١٢}

الخاء، ولم تذكر الرماح، وهذا كما قالوا: ثياب قبطية (بالكسر)، فإذا جعلوه اسماً حذفوا الثياب وقالوا قُبطية (بالضم)؛ فرقاً بين الاسم والنسبة. وما أحسن أن تنتشر هذه الحكمة بين أفراد أمتنا الناهضة؛ حتى تعرف حقوقها وواجباتها.

^٧ أهب: جمع إهاب، ككتاب وكتب، والإهاب: الجلد.

^٨ بَيِّنَ في هذا البيت شاعرنا نوعاً من أنواع الصحبة هو خيرها، وهو وحده المحمود عواقبه؛ ذلك النوع هو أن يصحب الحق — وهو السمع الكريم — صبرٌ جميل على وثبات الباطل حتى يدمغه فإذا هو زاهق. والصبر من خير الفضائل التي هي جماع كل خير؛ ولهذا ذُكر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، وروى أنه كان الرجلان من أصحاب محمد ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يوصي كلُّ منهما أخاه بالصبر والحق. ^٩ أُلْجِئُوا: اضطُروا وأكْرهُوا. وَلَجِئُوا: اعتصموا. وَجَلَّ الشَّيْءُ يَجِلُّ (بالكسر): عَظُمَ، فهو جليل. وَحَزَبَهُمُ الأمر يحزبهم، من باب قتل: أصابهم. ولعمري إن المفزع الوحيد عند وثبات الأحداث إنما هو في الاعتصام بالتعاون والقضاء على التحزب.

^{١٠} السُّرَى: جمع سرية، بضم السين وفتحها، يقال: سرينا سرية من الليل، وسرية. قال أبو زيد: ويكون السُّرى أول الليل وأوسطه وآخره. وقد استعملت العرب سُرَى في المعاني تشبيهاً لها بالأجسام مجازاً واتساعاً. قال الله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. وكأن الشاعر أراد حفز الهمم وشحذ العزائم لاجتماع صبح الآمال.

^{١١} الراحة: بطن الكف، والجمع راحات وراح. قصد الشاعر في هذا البيت أن مصر أصبح بين يديها عهدٌ جديد، وأن في يد مليكها عقداً وثيقاً، ومظهر ذلك كله استقلال البلاد الذي أعلنه جلالة الملك بعد أن عدا العادي زمناً طويلاً عليه.

^{١٢} فسح: جمع فسحة، مثل غرفة وغرف. والرحب، جمع رحبة، مثل قصبة وقصب، وهي الساحة المنبسطة.

لولا يَدُ اللَّهِ لَمْ نَدْفَعْ مَنَاكِبَهَا
 لَا تَعْدُمُ الْهَمَّةُ الْكِبْرَى جَوَائِزَهَا
 وَكُلُّ سَعْيٍ سَيَجْزِي اللَّهَ سَاعِيَهُ
 لَمْ يُبْرِمْ الْأَمْرَ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكُمْ
 نِلْتُمْ جَلِيلًا وَلَا تُعْطُونَ خَرْدَلَةً
 تَمَهَّدَتْ عَقَبَاتُ غَيْرِ هَيْئَةٍ
 وَأَقْبَلَتْ عَقَبَاتُ لَا يُذَلِّلُهَا
 لَهُ غَدًا رَأْيُهُ فِيهَا وَحِكْمَتُهُ

وَلَمْ نُعَالِجْ عَلَى مِصْرَاعِهَا الْأَرْبَا^{١٣}
 سَيَّانٍ مِّنْ غَلَبِ الْأَيَّامِ أَوْ غُلْبَا^{١٤}
 هِيَهَاتَ يَذْهَبُ سَعْيُ الْمُحْسِنِينَ هَبَا^{١٥}
 أَسَاءَ عَاقِبَةً أَمْ سَرَّ مُنْقَلَبَا^{١٦}
 إِلَّا الَّذِي دَفَعَ الدِّسْتُورَ أَوْ جَلَبَا^{١٧}
 تَلْقَى رِكَابُ السُّرَى مِنْ مِثْلِهَا نَصَبَا^{١٨}
 فِي مَوْقِفِ الْفَصْلِ إِلَّا الشَّعْبُ مُنْتَخِبَا
 إِذَا تَمَهَّلَ فَوْقَ الشُّوكِ أَوْ وَتَبَا^{١٩}

^{١٣} يَدُ اللَّهِ: قدرة الله. والمناكب: جمع مَنْكَبٍ كَمَجْلَسٍ، وهو مجتمع رأس العضد والكنف. وعالج الأمر: باشره بمشقة. والمصرع من الباب: الشطر. والأرب: الحاجة. ولقد شاء الشاعر أن يُصوِّرَ جهاد الأمة وقد دجا ليل الحوادث، واستأسد العادي، والأمة تُصابره، وتُدافع الخطوب، وتُلقي عنها نيرها، وتريد الإفلات من عَنَّتِهَا إلى حيث أبواب النصر.

^{١٤} ما أَحْسَنَ أن يُودِعَ الشاعر في ثنايا هذا البيت الأمل الواسع يدركه ذو الهمة الكبيرة ولو بعد حين.
^{١٥} في هذا البيت شفاء لما يصيب النفوس من ألم الإخفاق وصدّات الأيام؛ فلئن أعيا الإنسانَ شأنُ تلك الحياة فلن يعدم الخير العميم في دار النعيم؛ وبذلك يعد المرء بإحدى الحسنيين، ولن يذهب العُرف بين الله والناس.

^{١٦} لقد شاء أن تقيس الأمة أمرها بمقياس صحيح حتى تتجاوز الخطل.

^{١٧} وفي هذا البيت أراد أن يضع بين يدي الأمة كلّ دقيق وجليل من أمرها؛ حتى تستبين حقيقة أمرها، فقال: إن ما جدّ، وإن كان جليلاً، إلا أنه قليل إذا قيس بحقوق الأمة الكاملة. ثم شاء أن يضع على عواتق رجال الأمة الأمور الخطيرة في حاضرها ومستقبلها، فقال: إن الأمر للدستور يرفع ما شاء ويجلب ما نفع.

^{١٨} الركاب (بالكسر): المَطِي، الواحد: راحلة، من غير لفظها. والسُرى: السير ليلاً، جمع سُرية مثل مُدِيّة ومُدَيّ. ونصباً: تعباً. وقد صوّر شاعرنا في هذا البيت ما قطعته الأمة من مراحل جهادها في سبيل حريتها.

^{١٩} في هذين البيتين يُبيِّن الشاعر ما للآراء المجتمعة من تصريف الأمور وقيادة الأمم وتهوين الصعاب، وسبيل ذلك اصطفاء نخبة رجالها إذا جدَّ الجدُّ وحزب الأمر، فإن شاءوا بحكمتهم جاوزوا الصعاب وتخطّوا شوك القتاد، وإن قعدت بهم همهم وأعوزتهم حكمتهم ذاقوا وأذاقوا الأمة عذاب الهون، وقلّبوها على جمر الغضا.

وسَهِّلَ الغدُّ في الأشياءِ ما صَعُبَا^{٢٠}
 لا تَمَلُّوا الشَّدَقَ من تعريفها عَجَبَا
 تُحْصُونَ مَنْ ماتَ أوْ تُحْصُونَ ما سَلَبَا^{٢١}
 يَدَا تُؤَلِّفُهَا دُرًّا ومَخْشَلَبَا^{٢٢}
 مِنْ بَيْنِكُمْ سَبَقَ الْأَنْبَاءِ وَالْكُتُبَا
 يَدَاهُ تَرْتَجِلَانِ الْمَاءِ وَاللَّهَبَا^{٢٣}
 فَاحْكُمْ هُنَاكَ أَنَّ الْعَقْلَ قَدْ ذَهَبَا
 بَلْ كَانَ بَاطِلُهَا فَيْكُمُ هُوَ الْعَجَبَا
 كِنَانَةُ اللَّهِ حَزْمًا يَقْطَعُ الذَّنْبَا
 بِأَيِّ سَيْفٍ عَلَى يَافُوخِهَا ضَرْبَا^{٢٤}
 أَمْ بِالذِّي هَزَّ يَوْمَ الْحَرْبِ مُخْتَضَبَا
 مِنْ أَرْبَعِينَ يُنَادِي الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا^{٢٥}
 لَيْسَ الصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ بَلْ خَشَبَا
 وَكَيْفَ جَاوَزَ فِي سُلْطَانِهِ الْقُطْبَا
 وَأَنَّ لِلْحَقِّ لَا لِلْقُوَّةِ الْغَلْبَا

كَمْ صَعَّبَ الْيَوْمُ مِنْ سَهْلٍ هَمَمَتْ بِهِ
 ضَمُّوا الْجُهُودَ وَخَلُّوها مُنْكَرَةً
 أَفِي الْوَعَى وَرَحَى الْهَيْجَاءِ دَائِرَةً
 خَلُّوا الْأَكَالِيلَ لِلتَّارِيخِ إِنَّ لَهُ
 أَمْرَ الرِّجَالِ إِلَيْهِ لَا إِلَى نَقَرٍ
 أَمْلَى عَلَيْهِ الْهَوَى وَالْحَقْدُ فَاَنْدَفَعَتْ
 إِذَا رَأَيْتَ الْهَوَى فِي أُمَةٍ حَكَمًا
 قَالُوا الْحَمَايَةَ زَالَتْ قُلْتُ لَا عَجَبُ
 رَأْسُ الْحَمَايَةِ مَقْطُوعٌ فَلَا عَدِمَتْ
 لَوْ تَسْأَلُونَ «الْأَنْبِيَا» يَوْمَ جَنْدَلِهَا
 أَيْلَ الَّذِي جَرَّ يَوْمَ السَّلَامِ مُتَشَحًّا
 أَمْ بِالتَّكَاتُفِ حَوْلَ الْحَقِّ فِي بَلَدٍ
 يَا فَاتَحَ الْقُدْسِ خَلَّ السَّيْفَ نَاحِيَةً
 إِذَا نَظَرْتَ إِلَى أَيْنَ انْتَهَتْ يَدُهُ
 عَلِمْتَ أَنَّ وَرَاءَ الضَّعْفِ مَقْدَرَةٌ

^{٢٠} قصد الشاعر إلى أن بعيد النظر يرى الدهر قلبًا والأحداث لا تبقى سرمدًا؛ فلا يؤيسه الخطب الداهم، ويرجو في الغد ما أعجزه اليوم.

^{٢١} يريد الشاعر أن يبين ما يعتور الأمم في نهوضها فيثنيها عن غايتها، ويعوق وثوبها، ثم هو بعد يأمر أمته بأن تحاذر الوقوع في هذا الشر، ورأس تلك الآثام الاعتداد بالنفس، والإعجاب بالعمل، وانتفاخ الأوداج صلفًا وكبرياء، ثم شاء أن يضرب مثلًا بالجيش المقاتل ينسى ما هو فيه من جلائل الأخطار، ويعمد إلى حطام فإن يحصيه ويجمعه، فلا جرم أن نصيب هذا الجيش الفشل اللازم، ولقد أدب الله المؤمنين أدبًا عاليًا حينما خالفوا محمدًا ﷺ ولاح لهم النصر، فأخذوا يجمعون الغنائم ويحصون الأسلاب؛ ففشلوا وندموا، وذلك مفضل في سورة «آل عمران».

^{٢٢} الأكاليل: جمع إكليل، شبه عصابة تُزَيَّنُ بالجوهر، ويُسمَّى التاج إكليلًا. والمخشلب: الزجاج.

^{٢٣} ترتجلان: تبتدئان من غير تهيئة. وقد شاء الشاعر أن ينحي على أولئك الذين يضعون أنفسهم موضع التاريخ، فيكيلون الثناء ويُفحشون في الألقاب، ويخلطون بين المتناقضين.

^{٢٤} جندلها: أرداها. واليافوخ: مقدم الرأس.

^{٢٥} حرب، كفرح: كلب واشتد غضبه، فهو حرب.

الله والعلم^١

لَمَنْ ذَلِكَ الْمُلْكُ الَّذِي عَزَّ جَانِبُهُ
أُمْلِكُكَ يَا «إِدُورْدُ» وَالْمَلِكُ الَّذِي
أَرَادَ بِهِ أَمْرًا فَجَلَّتْ صُدُورُهُ
رَمَى وَاسْتَرَدَّ السَّهْمَ وَالْخَلْقُ غَافِلٌ
أَيَبْطُلُ عِيدُ الدَّهْرِ مِنْ أَجْلِ دُمْلٍ
وَيَرْجِعُ بِالْقَلْبِ الْكَسِيرِ وَفُودُهُ
وَتَسْمُو يَدُ الدَّهْرِ ارْتِجَالًا بِبَاسِهَا
لَقَدْ وَعَظَ الْأَمْلَاكُ وَالنَّاسَ صَاحِبُهُ^٢
يَغَارُ عَلَيْهِ وَالَّذِي هُوَ وَاهِبُهُ^٣
فَأَتْبَعَهُ لُطْفًا فَجَلَّتْ عَوَاقِبُهُ
فَهَلْ يَتَّقِيهِ خَلْقُهُ أَوْ يُرَاقِبُهُ^٤
وَتَخْبُو مَجَالِيهِ وَتُطَوِّى مَوَاقِبُهُ^٥
وَفِيهِمْ مَصَابِيحُ الْوَرَى وَكَوَاكِبُهُ
إِلَى طُنْبِ الْأَقْوَاسِ وَالنَّصْرِ ضَارِبُهُ^٦

^١ نَظُمْتُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بِمُنَاسَبَةِ حَفْلَةِ تَتْوِيحِ الْمَلِكِ إِدُورْدِ السَّابِعِ، وَتَاجِيلِ إِقَامَةِ الْحَفْلَةِ لِصَاحِبَةِ جَلَالَتِهِ بِدَمْلٍ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ ١٩٠٢ م.

^٢ عَزَّ جَانِبُهُ: قَوِيٌّ. وَعَظَ الْأَمْلَاكُ وَالنَّاسَ: نَصَحَهُمْ وَذَكَّرَهُمْ بِالْعَوَاقِبِ.

^٣ الْمَلِكُ الَّذِي يَغَارُ عَلَيْهِ وَالَّذِي هُوَ وَاهِبُهُ: هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

^٤ جَلَّتْ صُدُورُهُ: عَظُمَتْ. وَصُدُورُ الْأَمْرِ: جَمْعُ صَدْرٍ، وَصَدَرَ كُلُّ شَيْءٍ: أَوَّلَهُ. وَعَوَاقِبُهُ: جَمْعُ عَاقِبَةٍ، وَهِيَ آخِرُ كُلِّ شَيْءٍ أَيْضًا. وَأَتْبَعَهُ لُطْفًا: أَلْحَقَهُ. وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ الَّذِي وَهَبَ هَذَا الْمُلْكَ قَضَى فِيهِ بِأَمْرِ عَظِيمٍ، هُوَ مَوْتَ الْمَلِكَةِ فَيْكْتُورِيَا، وَلَكِنَّهُ لَطَفَ فِي هَذَا الْقَضَاءِ بِتَتْوِيحِ إِدُورْدٍ؛ فَكَانَتْ عَوَاقِبُ اللَّطْفِ عَظِيمَةً كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُ الْخَطْبِ عَظِيمَةً.

^٥ اسْتَرَدَّ السَّهْمَ: رَدَّهُ وَأَرْجَعَهُ إِلَيْهِ، وَالْأَلْفُ وَالسِّينُ زَائِدَتَانِ. وَالْغَفْلَةُ: غَيْبَةُ الشَّيْءِ عَنِ بَالِ الْإِنْسَانِ وَعَدَمُ تَذَكُّرِهِ لَهُ، وَقَدْ غَفَلَ فَهُوَ غَافِلٌ.

^٦ يَبْطُلُ عِيدُ الدَّهْرِ: يَتَعَطَّلُ. تَخْبُو: تُطْفَأُ. وَمَجَالِيهِ: مَوَاضِعُهُ، مِنْ جَلَا الْأَمْرِ: وَضَحَ وَانْكَشَفَ. وَالْمَوَاكِبُ: جَمْعُ مَوْكَبٍ، وَهُوَ الْقَوْمُ الرَّاكِبُونَ لِلزَّيْنَةِ.

^٧ تَسْمُو: تَعْلُو. وَارْتِجَلُ الْأَمْرِ: ابْتِدَآءُهُ مِنْ غَيْرِ تَهْيِئَةٍ قَبْلُ. وَالْبَاسُ: الشَّدَّةُ. وَالطَّنْبُ: حَبْلُ الْخُبَاءِ.

ويجمع من ذيل المَخيلة ساجبُه^٨ ويستغفر الشعبُ الفخورُ لربِّه
وتنقصُ من أطرافهن مآربُه^٩ ويحجبُ ربُّ العيدِ ساعةَ عيِّده
فهلَّا تأنَّى في الأمانِي خاطبُه^{١٠} ألا هكذا الدنيا وذلك ودُّها
وما في حسابِ الله ما هو حاسبُه أعدُّ لها إدورْدُ أعيادَ تاجِه
مشارقُه عن أمرِها ومغاربُه مشَّت في الثرى أنباؤها فتساءلت
وكأثَر في البرِّ الحصى مَنْ يَجوبُه وكأثَر في البحرِ في البحرِ راكبُه^{١٢}
ولن يتهادى فوقها ما يُقاربُه إلى موكبٍ لم تُخرج الأرض مثله
وشدَّت مغاويرَ الملوكِ ركائبُه^{١٤} إذا سارَ فيه سارتِ الناسُ خلفه
وتملأُ آفاقُ البحارِ مراكبُه تحيطُ به كالنملِ في البرِّ خيلُه
زمانٌ وشيكٌ ريبُه ونوائبُه^{١٥} نظامُ المجالي والمواكبِ حلُّه

^٨ المَخيلة: الكُثْر.

^٩ يُحجَب: يُمنَع عن الناس. والمآرب: جمع مآربة، وهي الحاجة.

^{١٠} الودُّ، مفتوح الواو ومضمومها ومكسورها: هو المودة. تأنَّى في الأمر: ترفَّق وتنظَّر. والأمانِي: جمع أمنية؛ ما يتمناه المرء. الخاطب: الداعي إلى نفسه، من قولهم خطب المرأة: دعا أهلها إلى تزويجها منه. والمراد أن مَنْ يطلب لنفسه مودة الدنيا ينبغي له أن يترفق في ذلك؛ فضمير خاطبه يرجع إلى «الود».

^{١١} الثرى: التراب، والمراد الأرض. الأنباء: الأخبار، والضمير للأعياد. مشارقه ومغاربه: أي مشارق الأرض ومغاربها. وأمرها: أي الأعياد أيضًا؛ بمعنى أن أنباء تلك الأعياد ذاعت في أقطار الأرض، فتساءلت عنها مشارقها ومغاربها.

^{١٢} كآثره: غالبه بالكثرة. والبرّ: ضد البحر. والحصى: جمع الحصة. وجاب البلاد يجوبها: قطعها. لكثرة المُقْبِلين على تلك الأعياد صار مَنْ يجوبون منهم الأرض من الكثرة بحيث يَغلبون الحصى إذا كآثروه، وكذلك راكبو البحر المقبلون عليها يَغلبون موجه بالكثرة.

^{١٣} يتهادى: يمشي مشيًا غير قوي متماياً. وما يقاربه: أي ما يدانيه.

^{١٤} شدَّ الشيء: أوثقه، ومنه شد الرحال. والمغاوير: جمع مغوار، وهو الكثير الهجوم على العدو لشجاعته. الركائب: جمع ركوبة، وهي كل ما رُكب.

^{١٥} نظام الشيء: ملاكه وطريقته التي عليها يستقيم، وهو أيضًا الخيط الذي يُنظم به اللؤلؤ. والمجالي: جمع مجلّ. وشيك، قريب. والريب هنا: ما يُكره من الحوادث. والنوائب: جمع نائبة، وهي ما يُصيب الإنسان من مكروه.

فَبَيْنَا سَبِيلَ الْقَوْمِ أَمِنْ إِلَى الْمُنَى
إِذَا جَاءَتِ الْأَعْيَادُ فِي كُلِّ مِسْمَعٍ
رَجَاءٌ فَلَمْ يَلْبَثْ فَخَوْفٌ فَلَمْ يَدُمْ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ كَانَتْ جَنُودُهُ؟
وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ سَفِينُهُ
وَكَيْفَ أَفَاتَتَهُ الْحَوَادِثُ طَلِبَةً
لَكَ الْمُلْكُ يَا مَنْ خَصَّ بِالْعِزِّ ذَاتَهُ
فَلَا عَرْشَ إِلَّا أَنْتَ وَارِثُ عِزِّهِ
وَأَمَنْتَ بِالْعِلْمِ الَّذِي أَنْتَ نَوْرُهُ
تُؤَامِنُ مِنْ خَوْفٍ بِهِ كُلٌّ غَالِبٍ
سَلُّوا صَاحِبَ الْمُلْكِ هَلْ مَلَكَ الْقُوَى

إِذَا هُوَ خَوْفٌ فِي الظُّنُونِ مَذَاهِبُهُ^{١٦}
تَجُوبُ الثَّرَى شَرْقًا وَغَرْبًا جَوَائِبُهُ^{١٧}
سَلِّ الدَّهْرَ أَيُّ الْحَادِثِينَ عَجَائِبُهُ^{١٨}
وَكَيْفَ تَرَاخَتْ فِي الْفِدَاءِ قَوَاضِيهِ؟^{١٩}
وَمَا رَدَّهَا فِي الْبَحْرِ يَوْمًا مُحَارِبُهُ؟^{٢٠}
وَمَا عَوَّدَتْهُ أَنْ تَفُوتَ رَغَائِبُهُ؟^{٢١}
وَمَنْ فَوْقَ أَرَابِ الْمُلُوكِ مَارِبُهُ؟^{٢٢}
وَلَا تَاجَ إِلَّا أَنْتَ بِالْحَقِّ كَاسِبُهُ؟^{٢٣}
وَمَنْكَ أَيَادِيهِ وَمَنْكَ مَنَاقِبُهُ؟^{٢٤}
عَلَى أَمْرِهِ فِي الْأَرْضِ وَالْدَّاءُ غَالِبُهُ؟^{٢٥}
وَأُسْدُ الشَّرَى تَعْنُو لَهُ وَتُحَارِبُهُ؟^{٢٦}

^{١٦} بينا، كينما: ظرف زمان للمفاجأة. وقيل هما للابتداء. وعلى كل حال تقع بعدهما جملة اسمية أو فعلية، ويحتاجان إلى جواب يتم به المعنى. والسبيل: الطريق. وأمن: مأمونة. والظنون: جمع ظن، وهو غير اليقين. والمذاهب: الطُّرُق والمسالك، جمع مذهب.

^{١٧} المسمع: الأذن. وجاب الأرض يجوبها: قطعها، ومنه الجواب.

^{١٨} الرجاء: الأمل. ولم يلبث: لم يمكث.

^{١٩} شعري: علمي، من شعر بالشيء شعراً إذا فطن إليه وعلمه. ويا ليت شعري: أي ليتني علمت. وتراخت: أبطأت. وقواضيه: سيوفه القواطع.

^{٢٠} رُدَّتْ: أُرْجِعَتْ. وأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخَّر القدم، يقال: رجع على عقبه، ورجعوا على أعقابهم؛ أي على الطريق الذي كانوا يضعون فيه أقدامهم. والسفين: جمع سفينة.

^{٢١} أفاتته طَلِبَتُهُ: أذهبتْها عنه. والطَلْبَةُ: الشيء المطلوب، وسكون اللام لضرورة الشعر. والرغائب: جمع رغبة، وهي الأمر المرغوب فيه، والعطاء الكثير أيضاً.

^{٢٢} خَصَّهُ بالشيء: جعله له دون سواه. والآراب: جمع أرب، وهو الحاجة.

^{٢٣} العرش: سرير الملك. والتاج: أصله للعجم، يقال: تُوِّجَ، إذا لبس التاج، كما تقول العرب: عُمِّمَ، إذا لبس العمامة، ثم استعمل على وجه العموم. وكاسبه: نائله وراجه.

^{٢٤} أياديه: جمع يد، وهي هنا النعمة. ومناقبه: جمع منقبة، وهي الفعل الطيب.

^{٢٥} تؤامن: أي تعطي الأمان. وكل غالب على أمره: أي لا يُعْجِزُهُ شيء.

^{٢٦} القوى: جمع قوة، ضد الضعف. وتعنو: تخضع وتذل.

وهل رفع الداء العُضالَ وزيْرُهُ؟ وهل حجب البابَ الممنَع حاجِبُهُ؟^{٢٧}
 وهل قدّمتْ إلّا دعاةً شعوبُهُ؟ وساعَفَ إلّا بالصلاةِ أقاربُهُ؟^{٢٨}
 هنالك كان العلمُ يُبلي بلاءَهُ وكان سلاحُ النفسِ تُغني تجارِبُهُ؟^{٢٩}

* * *

كريمُ الظُّبا لا يَقرب الشرَّ حَدُّهُ وفي غيره شرُّ الوري ومَعاطِبُهُ^{٣٠}
 إذا مرَّ نحوَ المرءِ كان حياتُهُ كأصْبَعِ عيسى نحوَ ميّتٍ يُخاطِبُهُ
 وأسهلُ من جُرحِ الصُّدودِ فعالُهُ وأسَهْلُ من سيفِ اللِّحَاظِ مضاربُهُ^{٣١}
 عجيبٌ يُرَجِّي «مشرطاً» أو يهابُهُ مَن الغربِ راجيه، مَن الشرقِ هائبُهُ^{٣٢}
 فلو تُفتدى بالبيضِ والسُّمرِ فديّةُ لَأَلَقْتُ قناها في البلادِ كتابُهُ^{٣٣}
 ولو أن فوق العلمِ تاجًا لتوجوا طبيبًا له بالأمس كان يُصاحبُهُ^{٣٤}
 فآمنتُ باللهِ الذي عزَّ شأنُهُ وآمنتُ بالعلمِ الذي عزَّ طالبُهُ^{٣٥}

^{٢٧} الداء العضال: الشديد الذي يُعَي الأَطباء. والباب الممنع: الذي لا يُرام.

^{٢٨} ساعف: ساعد.

^{٢٩} يبلي بلاءه: يجتهد اجتهداه. والتجارب: جمع تجربة، من جرّبت الشيء، إذا اختبرته مرّة بعد أخرى.
^{٣٠} كريم الظُّبا: من إضافة الصفة للموصوف؛ أي الظبا الكريمة. والظبا: جمع ظبة، وهي حدّ السيف، أو السنان، أو نحو ذلك، والمراد السيوف أو نحوها ليستقيم المعنى، فيكون مجازاً من إطلاق اسم الجزء على الكل. والمعاطب: المهالك، جمع معطب.

^{٣١} الصدود: الإعراض. وفعاله: جمع فعل. واللاحاظ: جمع لحظ. ومضاربه: جمع مضرب.

^{٣٢} عجيب: صفة موصوف مقدّر؛ أي أمرٌ عجيب. ويرجّي: أي يرجو. والمشرط: الموضع الذي يفتح به الطبيب الجراحات. ويهابه: يخافه. و«مَن» في «مَن الغرب راجيه ... إلخ»: فاعل «يرجّي». يقول: إنه لأمرٌ عجيب أن هذا الملك الذي يرجوه الغرب ويخافه الشرق، يتعلّق رجاءه أو خوفه بمشرط الطبيب الذي يفتح له دملّه.

^{٣٣} تُفتدى: تُستنقذ بالفدية. والبيض والسمر: السيوف والرماح. والقنا: جمع قناة، وهي الرمح. والكتائب: جمع كتيبة، وهي الطائفة من الجيش مجتمعة.

^{٣٤} توجّه: ألبسوه التاج.

^{٣٥} عزَّ شأنه: قوي. وطالب العلم: مُحصّله.

ذكرى كانارفون

في الموتِ ما أَعْيَا وفي أَسْبَابِهِ
أَسَدٌ لَعَمْرُكَ من يَمُوتُ بِظُفْرِهِ
إن نامَ عنكَ فكلُّ طَبِّ نافعٌ
دَاءُ النفوسِ وكلُّ داءٍ قَبْلَهُ
النفْسُ حربُ الموتِ إلا أنها
تَسْعُ الحياةَ على طَوِيلٍ بلائِها
هو منزلُ الساري وراحةٌ رائِحٌ
كلُّ امرئٍ رهنٌ بِطَيِّ كتابِهِ^١
عند اللقاءِ كَمَنْ يَمُوتُ بِنَابِهِ^٢
أو لم يَنْمُ فالطَّبُّ من أُنَابِهِ
هَمٌّ نَسِينَ مَجِيئَهُ بِذَهَابِهِ^٣
أَتَتِ الحياةَ وَشُغْلُهَا من بَابِهِ^٤
وتَضَيَّقُ عنه على قَصِيرِ عَذَابِهِ^٥
كثُرَ النهارُ عليه في إِتْعَابِهِ^٦

^١ ما أَعْيَا: أي ما أتعِب وأعجز عن إدراك حقيقته. ورهن بطي كتابه: أي باقٍ في الحياة كبقاء الرهن حتى ينتهي أجله.

^٢ لعمرك: يقول النحاة إنه قَسَم، واللام فيه لتوكيد الابتداء، وهو مبتدأ خبره محذوف؛ أي لعمرك قسمي، أو ما أَقْسِمُ به.

^٣ الدَّاءُ: العلة والمرض. ونسين: أي النفوس.

^٤ حرب الموت: أي حرب للموت، والمراد أنها تكرهه وتُدافعه. أتت: جاءت. والضمير في «شغلها» للحياة، والضمير في «بابه» للموت.

^٥ بلاء الحياة: ما فيها من ألمٍ وهم. أي إن النفس تسع الحياة وتحتملها مع ما فيها من هموم وآلام لا تنتهي، وتضيق عن الموت وتأباه وهو ليس فيه إلا شيء من الألم قصير.

^٦ هو: أي الموت. والساري: الذي يقطع الليل سيرًا. الراح: الذهاب. وإتعب: مصدر أتعِب.

وشفاء هذي الروح من آلامها ودواء هذا الجسم من أوصابه^٧
 مَنْ سرّه ألا يموتَ فيالْعُلا خُلِدَ الرجالُ وبالفَعَالِ النابه^٨
 ما مات مَنْ حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه^٩
 قُلْ لِلْمِدْلِ بماله وبجابه وبما يُجِلُّ الناسُ من أنسابه^{١٠}
 هذا الأديمُ يصدُّ عن حُضاره وينامُ ملءَ الجَفَنِ عن غُيابه^{١١}
 إلا فتى يمشي عليه مُجدِّداً ديباجتيه مُعمِّراً بخرابه^{١٢}
 صادت بقارعة الصعيدِ بَعوضه في الجوِّ صائدَ بازِه وعقابه^{١٣}
 وأصاب خُرطومُ الذبابةِ صفحةً خُلِقَتْ لسيفِ الهندِ أو لذبابه^{١٤}
 طارت بخافية القضاءِ ورَأَاتُ بكريمتيه ولامست بلعابه^{١٥}

^٧ وشفاء هذي الروح، إلى آخر البيت: متّصل بالبيت الذي قبله. والأوصاب: الأوجاع، جمع وصب.
^٨ العلا: إما الرفعة والشرف، وإما جمع عُليا، وهي المنزلة الرفيعة. الفَعَال النابه: الفعل الشريف المذكور.

^٩ حاز الشيء: ضمّه إليه. والثرى: التراب النّدي. والآثار: جمع أثر، وهو ما بقي من الشيء. واستولت على آدابه: غلبت عليها وتمكّنت منها. والآداب: جمع أدب، وهو كل ما يتحلّى به الإنسان من فضيلة من الفضائل.

^{١٠} المدل بماله ... إلخ: الذي يتّيه به على أقرانه. والجاه: القدر والمنزلة. ويُجِلُّ: يُعْظَم.
^{١١} الأديم: الجلد المدبوغ، وقد يُطلق على وجه الأرض، وهو المراد هنا. يصدُّ عن حُضاره: يُعرض عنهم. والحُضار: جمع حاضر. وجفن العين: غطاؤها من أعلاها وأسفلها، والمراد العين نفسها. والغُياب: جمع غائب.

^{١٢} الديباجتان: الخدان. أي إلا فتى يمشي على وجه الأرض يجدد خديّه، والمراد ما يكون له كالخدّين لوجه الإنسان.

^{١٣} القارعة: الشديدة من شدائد الدهر. والصعيد: بلاد مصر العليا. والباز والعقاب: من جوارح الطير. يقول: إن تلك البعوضة صادت في الجو مَنْ كان يصيد بُزاته وعقبانه.
^{١٤} الخرطوم: الأنف. والمراد بالذبابة: تلك البعوضة نفسها. وصفحة كل شيء: جانبه. وذباب السيف: طرفه الذي يضرّ به.

^{١٥} الخافية: واحدة الخوافي، وهي ما دون الريشات العشر من مقدّم الجناح. والقضاء: هنا معناه الصنع والتقدير، والمراد به قضاء الله. ويقال: رأراً بعينيّه، إذا حدّد النظر، أو إذا أدارهما. والكريمتان: العينان. واللعاب: ما يسيل من الفم. والضمير في «طارت» يرجع إلى «الذبابة».

لا تَسْمَعَنَّ لِعُصْبَةِ الْأَرْوَاحِ مَا قالوا بباطلِ عِلْمِهِمْ وَكِذَابِهِ^{١٦}
الرُّوحُ لِلرَّحْمَنِ جَلَّ جَلَالُهُ هي مِنْ ضَنَائِنِ عِلْمِهِ وَغِيَابِهِ^{١٧}
غَلِبُوا عَلَى أَعْصَابِهِمْ فَتَوَّهُمُوا أَوْهَامَ مَغْلُوبٍ عَلَى أَعْصَابِهِ

* * *

ما آبَ جَبَّارُ الْقُرُونِ وَإِنَّمَا يَوْمُ الْحِسَابِ يَكُونُ يَوْمَ إِيَابِهِ^{١٨}
فَذَرُوهُ فِي بِلَدِ الْعَجَائِبِ مُغَمِّدًا لا تَشْهَرُوهُ كَأَمْسٍ فَوْقَ رِقَابِهِ^{١٩}
الْمُسْتَبِدُّ يُطَاقُ فِي نَاوُوسِهِ لا تَحْتَ تَاجِيهِ وَفَوْقَ وَثَائِهِ^{٢٠}
وَالْفَرْدُ يُؤَمِّنُ شَرَّهُ فِي قَبْرِهِ كَالسِّيفِ نَامَ الشَّرُّ خَلْفَ قِرَابِهِ^{٢١}
هَلْ كَانَ «تَوْتَنَخُ» تَقْمَصُ رَوْحُهُ قُمْصَ الْبَعُوضِ وَمُسْتَحَسَّ إِهَابِهِ^{٢٢}
أَوْ كَانَ يَجْزِيكَ الرَّدَى عَنْ صُحْبَةٍ وَهُوَ الْقَدِيمُ وَفَاؤُهُ لَصِحَابِهِ^{٢٣}
تَاللهِ لَوْ أَهْدَى لَكَ الْهَرَمَيْنِ مِنْ نَهَبٍ لَكَانَ أَقْلًا مَا تُجْزَى بِهِ
أَنْتَ الْبَشِيرُ بِهِ وَقِيَمُ قَصْرِهِ وَمُقَدَّمُ النَّبْلَاءِ مِنْ حُجَابِهِ^{٢٤}

^{١٦} العصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين، والمراد هنا الجماعة بغير عدد. والكذاب: الكذب.
^{١٧} ضنائن علمه: أي خصائص علمه ممَّا اختصَّ به نفسه، فلا يعلم به سواه. وغيبه: إما جمع غيب، وهو ما غاب عنك من الأمر، وإما مصدر غاب يغيب، وهو كالغيب في معناه.
^{١٨} آب: رجع. جبَّارُ القرون: يريد توت عنخ آمون. ويوم الحساب: اليوم الآخر.
^{١٩} نروه: اتركوه. بلد العجائب: الأقصر؛ لما فيها من عجائب الآثار. مغمداً: أي باقياً في قبره كما يبقى السيف في غمده. لا تشهروه: من شهر السيف إذا سله؛ يعني لا تُخرجه محمولاً على الرقاب كما كان يُحمَل على الرقاب التي يملكها وهو حي.
^{٢٠} المستبد: من استبدَّ بالشيء إذا انفرد به. يُطاق: من أطاق الشيء إذا قدر عليه. والناووس: هو مقبرة النصرارى خاصة، وقد استعمل لمقبرة موتاهم. الوثاب: السرير الذي لا يرح الملك عليه.
^{٢١} قراب السيف: قيل هو غمده، وقيل هو وعاء يُوضَع فيه السيف بغمده، وقيل غير ذلك.
^{٢٢} تَقْمَصُ روحه قصص البعوض: أي لبسها. والقمص: جمع قميص. المستحس: الخسيس. الإهاب: الجلد الذي لم يُدبغ.
^{٢٣} يجزيك: يقضيه لك ويُنْيِك عليه. الردى: الهلاك. الوفاء: ضد الغدر. الصحاب: جمع صاحب.
^{٢٤} البشير: المبشر بالخير. قيَمُ القصر: سائس أمره. النبلاء: جمع نبيل، وهو الذكي النجيب. الحُجَاب: جمع حاجب.

أَعْلَمْتَ أَقْوَامَ الزَّمَانِ مَكَانَهُ وَحَشَدْتَهُمْ فِي سَاحِهِ وَرَحَابِهِ^{٢٥}
لَوْلَا بَنَانُكَ فِي طَلَاسِمِ تُرْبِهِ مَا زَادَ فِي شَرْفٍ عَلَى أُتْرَابِهِ^{٢٦}

* * *

أَخْنَى الْجِمَامُ عَلَى ابْنِ هَمَّةٍ نَفْسِهِ فِي الْمَجْدِ وَالْبَانِي عَلَى أَحْسَابِهِ^{٢٧}
الْجَائِبُ الصَّخَرِ الْعَتِيدَ بِحَاجِرٍ دَبَّ الزَّمَانُ وَشَبَّ فِي أُسْرَابِهِ^{٢٨}
لَوْ زَايَلَ الْمَوْتَى مَحَاجِرَهُمْ بِهِ وَتَلَفَّتُوا لَتَحْيَرُوا كَضْبَابِهِ^{٢٩}
لَمْ يَأْلُهُ صَبْرًا وَلَمْ يَنْ هَمَّةً حَتَّى انْتَنَى بِكُنُوزِهِ وَرَغَابِهِ^{٣٠}
أَفْضَى إِلَى خَتَمِ الزَّمَانِ فَفَضَّهُ وَحَبَا إِلَى التَّارِيخِ فِي مِحْرَابِهِ^{٣١}
وَطَوَى الْقُرُونِ الْقَهْقَرَى حَتَّى أَتَى فَرَعُونَ بَيْنَ طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ^{٣٢}
الْمَنْدَلُ الْفَيَّاحُ عَوْدُ سَرِيرِهِ وَاللُّؤْلُؤُ اللَّمَّاحُ وَشَيْ ثِيَابِهِ^{٣٣}

^{٢٥} أقوام: جمع قوم. حشدتهم: جمعتهم. الساح: جمع ساحة، وهي الموضع المتسع أمام الدار ونحوها. الرحاب: جمع رحبة، وهي الساحة.

^{٢٦} البنان: أطراف الأصابع، مفردا بنانة. التراب: أتراه: لداته، جمع ترب، وهم من ولدوا معه. ^{٢٧} أخنى عليه: أهلكه. والجمام: الموت. الأحساب: جمع حسب، وهو ما للرجل من مفاخر الآباء، أو هو دين الرجل، أو ماله.

^{٢٨} العتيد: الحاضر المهيأ. دب: يقال دب الصبي إذا مشى. شب: أدرك شببيته. الأسراب: جمع سرب، وهو البيت تحت الأرض.

^{٢٩} زایل: فارق. والموتى: جمع ميت. محاجرهم: النواحي التي اتخذت لهم من الأرض، أو هي القبور في الأرض المتحجرة. الضباب: جمع ضب.

^{٣٠} لم يألِه صبرا: أي لم يقصّر في حمله على الصبر. ولم ين همة: أي لم تضعف همته، من ونى في الأمر إذا ضعف عنه. انتنى: رجع. الكنوز: جمع كنز. الرغاب: جمع رغبة، وهي هنا الشيء المرغوب فيه، وتكون أيضا بمعنى العطاء الكثير.

^{٣١} أفضى إلى ختم الزمان: وصل إليه. فضّه: كسره. حبا إلى التاريخ: دنا منه. المحراب: صدر المجلس، وقيل هو أشرف المجالس، ومنه محراب الصلاة.

^{٣٢} طوى القرون: قطعها. والقرون: جمع قرن، وهو الجيل من الناس، مدته ثمانون سنة، وقيل أكثر، وقيل أقل. القهقرى: الرجوع. أي طوى القرون حتى رجع بها القهقرى.

^{٣٣} المندل: العود المعروف بطيب رائحته. الفياح: الفياض بنشره وطيبه. اللماح: الشديد اللمعان. وشي الثوب: نقشه وتحسينه. والضمير في «سريره» و«ثيابه» لفرعون.

وَكأنَّ راحَ القاطفينَ فَرغَنَ مِن
أثمارِهِ صُبْحًا وَمِنَ أرطابِهِ^{٣٤}
جَدْتُ حوى ما ضاقَ «غُمدانُ» بِهِ
مِن هالَةِ المُلِكِ الجسيمِ وغابِهِ^{٣٥}
بنيانُ عُمرانٍ وصَرَحُ حضارَةٍ
في القبرِ يلتقيانِ في أَطْنايِهِ^{٣٦}
فَتَرى الزمانَ هناكَ قَبْلَ مَشْيِهِ
مِثْلَ الزمانِ اليَوْمَ بَعْدَ شَبابِهِ
وَتَحسُّ ثَمَّ العلمَ عِنْدَ عُبابِهِ^{٣٧}
تحتِ الثَّرى والثَّرَى عِنْدَ عُجابِهِ^{٣٨}

* * *

يا صاحِبَ الأخرى بَلَغْتَ مَحَلَّةً
هي مِن أخي الدنيا مُناخُ رِكايِهِ^{٣٩}
نُزْلُ أَفاقٍ بجانبِيهِ مِنَ الهوى
مَنْ لا يُفِيقُ وَجَدًا مِنَ تَلْعابِهِ^{٤٠}
نامَ العدوُّ لَدِيهِ عَن أَحقابِهِ
وَسَلا الصديقُ بِهِ هوى أَحابِيهِ^{٤١}

^{٣٤} الرَّاحُ: جمع راحة، وهي الكف. القاطفين: جمع قاطف، وهو من يجتني الثمر. أثمار. جمع ثمر. أرطاب: جمع رطب، وهو ما نضج من البلح. والمراد بالآثمار والأرطاب: التحف والآثار الغالية التي وُجدت في قبر فرعون، وهي لم تزل على جدتها كأنها مصنوعة الآن.

^{٣٥} الجدث: القبر. حوى الشيء: أحرز. غمدان: قصر كان مشهورًا، يرَّجَّحون أنَّ يشرح بن الحارث بن صيفي بن سبأ جد بلقيس ملكة اليمن هو الذي بناه، وجعل له أربعة وجوه: أحمر، وأبيض، وأصفر، وأخضر، وبنى داخله قصرًا بسبعة سقوف، بين كل سقْفين أربعون ذراعًا، وقيل كان ارتفاع السقف مائتي ذراع. الهالة: دارة القمر. الغاب: الرماح، جمع غابة.

^{٣٦} العمران: اسم لما يعمر به المكان وتحسُن حاله. الصرح: القصر، وكل بناء مرتفع. الحضارة: الإقامة في الحضر. الأطناب: جمع طنْب، وهو الحبل الذي يُشدُّ به السرايق، ويُستعمل مجازًا في الناحية، وهي المرادة هنا.

^{٣٧} تحسُّ العلم: تشعر به. ثَمَّ: ظرف مكان بمعنى هناك. العباب: ارتفاع السيل وكثرته. العجاب: ما جاوز حد العجب.

^{٣٨} المحلَّة: المنزل. المناخ: مَبَرِّك الإبل، ومحل الإقامة مجازًا. الركاب: الإبل. والأخرى: يريد بها الآخرة. والخطاب للورد المَرثي. يقول: بلغت منزلًا هو نهاية المسير لأهل الدنيا، وهو القبر.

^{٣٩} النزل: ما هَيئ للضيف أن ينزل عليه. أَفاق: صحا واستيقظ. الهوى: إرادة النفس غير المحمودة. التلعاب: اللعب.

^{٤٠} الأحقاد: جمع حقد، وهو الغضب الثابت. سلا الشيء: نسيه وغفل عن ذكره. الهوى في هذا البيت: العشق.

الراحة الكبرى ملاك أديمه والسلوة الطولى قوام ترايه^{٤١}

* * *

«وادي الملوك» بكت عليك عيونه
ألقى بياض الغيم عن أعطافه
يأسى على حرباء شمس نهاره
ويود لو ألبست من برديه
نوهت في الدنيا به ورفعته
أخرجت من قبر كتاب حضارة
فصلته فالبرق في إيجازه
بمُرَقَرَق كالْمُزَن في تَسْكَابِه^{٤٢}
حُزْنًا وَأَقْبَلَ في سَوَادِ سَحَابِه^{٤٣}
وَنَزِيلِ قَيْعَتِه وَجَارِ سَرَابِه^{٤٤}
بُرْدِينَ ثَم دُفِنْتَ بَيْن شِعَابِه^{٤٥}
فَوْق الْأَدِيم بِطَاحِه وَهَضَابِه^{٤٦}
الْفَنِّ وَالْإِعْجَازُ مِنْ أَبْوَابِه^{٤٧}
يُبْنَى الْبَرِيدُ عَلَيْهِ فِي إِطْنَابِه^{٤٨}

^{٤١} ملاك الشيء: قوامه. السلوة: السلو. الطولى: مؤنث الأطول؛ أي العظيمة الطول. القوام: ما يقوم به.

^{٤٢} دمع مرقق: أي دائر في حلاق العين. المزن: السحاب البيض، جمع مزنة. التسكاب: الانسكاب.

^{٤٣} الغيم: السحاب، واحده غيمة. الأعطاف: جمع عطف، وهو جانب الشيء، وعطف الرجل: جانبه من رأسه إلى وركبه.

^{٤٤} الحرباء: اسم للذكر، والأنثى حرباء، وهي حيوان اسمه «أم حبين»، يستقبل الشمس ويدور معها كيف دارت، ويتلون بحرًا ألوانًا مختلفة، وهو يضرب مثلًا في الثقلب. القيعه: قيل جمع قاع، وهو أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال، وقيل هي مفرد في معنى القاع. السراب: ما تراه نصف النهار من شدة الحر كأنه ماء يلصق بالأرض.

^{٤٥} البردي: نبات تعمل منه الحصر، وهو ينبت كثيرًا في مناطق الماء. بردين: مثني برد، وهو ثوب مخطط. والمراد هنا مطلق ثوب. الشعاب: جمع شعب، وهو الطريق المنفرج بين جبلين. والضمائر في «يود» و«برديه» و«شعابه» يرجع إلى وادي الملوك.

^{٤٦} نوه به: رفع ذكره وعظمه. الأديم هنا: وجه الأرض. البطاح: جمع أبطح، وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى. الهضاب: جمع هضبة، وهي الجبل المنبسط على وجه الأرض.

^{٤٧} الفن في الأصل: النوع من الشيء، ثم توسعوا فأرادوا به الصناعة والعلم وما إليهما. والإعجاز: مصدر أعجز، وهو أداء المعنى بطريق لا قدرة لأحد عليها.

^{٤٨} فصلته: بينته. والبرق: وميض السحاب، واستعمل الآن في نقل الرسالات بـ «التلغراف» مجازًا لسرعة النقل، كأنه الوميض. البريد: المسافة التي يقطعها الرسول، والمراد به الآن نقل الرسالات بواسطة «البوستة». الإيجاز: اختصار الكلام. والإطناب: إطالته.

طَلَعَا عَلَى «لُوزَانَ» والدنيا بها وعلى «المحيط» وما وراءَ عُبَابِهِ^{٤٩}
جَنَّتَ الشُّعُوبَ الْمُحْسِنِينَ بِشَافِعٍ مِنْ مِثْلِ مُتَّقِنٍ فَهُمْ وَلُبَابِهِ^{٥٠}
فَرَفَعَتْ رُكْنًا لِلْقَضِيَةِ لَمْ يَكُنْ «سَحْبَانُ» يَرْفَعُهُ بِسِحْرِ خِطَابِهِ^{٥١}

^{٤٩} طلعا: أي البريد والبرق. لوزان: مدينة في سويسرا كان بها مجلس الدول الذي تمّ فيه الصلح بين تركيا واليونان سنة ١٩٢٢م، وإلى هذا المجلس يشير بقوله «والدنيا بها». المحيط: البحر الذي يحيط باليابسة. وما وراء عبابه: بلاد أمريكا التي يحيط بها المحيطان المتجمدان من الشمال والجنوب، والمحيطان الأطلسي والهادي من الشرق والغرب. والمعنى أن البرق والبريد طلعا على العالم المتحضر كله بخير تلك الآثار التي وُجدت في القبر.

^{٥٠} الشافع: مَنْ يُعَاوَنُكَ عِنْدَ غَيْرِكَ، أَوْ يَسْعَى لَكَ فِي مَطْلَبِكَ. المتقن: الْمُحْكَم. اللباب: المختار الخالص من كل شيء.

^{٥١} الركن: الجانب الأقوى من الشيء. سحبان: رجل من وائل كان خطيباً فصيحاً، وَيُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ، فَيُقَالُ: «أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانٍ».

أيها العمال

أَيُّهَا الْعُمَالُ أَفْنُوا الـ
واعمروا الأرضَ فلولاً
إِنَّ لِي نَصْحًا إِلَيْكُمْ
فِي زَمَانٍ غَيْبِي النَّأ
أَيْنَ أَنْتُمْ مِنْ جُدُودِ
قَلْدُوهُ الْأَثَرَ الْمُعـ
وَكَسَوُهُ أَبَدَ الدَّهـ
أَتَقْنُوا الصَّنْعَةَ حَتَّى
إِنْ لِلْمُتَقِنِ عِنْدَ اللَّهِ
أَتَقِنُوا يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ
أَرْضِيْتُمْ أَنْ تُرَى «مَصـ
بعدما كانت سماءً

عُمَرَ كَدًّا وَاكْتِسَابًا
سَعْيُكُمْ أَمَسَتْ يَبَابًا^١
إِنْ أَذِنْتُمْ وَعِتَابًا
صَحَّ فِيهِ أَوْ تَغَابَى
خَلَّدُوا هَذَا التَّرَابَا
جَزَّ وَالْفَنِّ الْعُجَابَا
رٍ مِنَ الْفَخْرِ ثِيَابَا
أَخَذُوا الْخُلْدَ اغْتَصَابَا
وَالنَّاسِ ثَوَابَا
وَيَرْفَعُكُمْ جَنَابَا
رُ» مِنَ الْفَنِّ خَرَابَا
لِلصَّنَاعَاتِ وَغَابَا

* * *

أَيُّهَا الْجَمْعُ لَقَدْ صِرْ
فَكُنِ الْحُرَّ اخْتِيَارًا

تَ مِنَ الْمَجْلِسِ قَابَا^٢
وَكُنِ الْحُرَّ انْتِخَابَا

^١ الأرض اليباب: الخراب.

^٢ يريد بالمجلس: دار النيابة.

إِنَّ لِلْقَوْمِ لَعَيْنًا ليس تألوك ارتقابًا
 فتوقّع أن يقولوا مَنْ عن الْعَمَالِ نابًا
 ليس بالأمر جديرًا كلُّ مَنْ ألقى خطابًا
 أو سخا بالمال أو قدَّ م جاهًا وانتسابًا
 أو رأى أُمِّيَّةً فآخَ تلبَّ الجهلَ اختلابًا
 فتخيّر كلَّ مَنْ شبَّ على الصّدقِ وشابًا
 واذكرِ الأنصارَ بالأمر سِ ولا تنسِ الصّحابًا
 أيُّها الغادون كالنح ل ارتياذًا وطلابًا
 في بُكورِ الطير للرِّزِّ قِ مَجِيئًا وذهابًا
 اطلبوا الحقَّ برفقٍ واجعلوا الواجبَ دابًا^٣
 واستقيموا يفتح الله لكم بابًا فبابًا
 اهجروا الخمرَ تطيعوا الله أو تُرضوا الكتابًا
 إنها رجسٌ فطوبى لامرئٍ كفَّ وتابًا
 تُرعشُ الأيدي وَمَنْ يَرِ عش من الصُّناعِ خابًا
 إنما العاقلُ مَنْ يَجِ علُّ للدهرِ حسابًا
 فاذكروا يومَ مَشيِبِ فيه تَبْكَونَ الشبابًا
 إِنَّ لِّلْسَنَ لَهُمَّا حينَ تعلُّو وعذابًا
 فاجعلوا من مالكم للشَّ يبِ والضعفِ نصابًا
 واذكروا في الصّحةِ الدَّا ءَ إذا ما السُّقْمُ نابًا
 واجمعوا المالَ ليومِ فيه تَلْقَوْنَ اغتصابًا
 قد دعاكم ذنْبَ الهي ثة دأع فأصابًا
 هي طاووسٌ وهل أح سنُّه إلا الذُّنابى؟

^٣ أي دابًا، وخُفِّفت للضرورة.

نِجَاةٌ^١

هَنِيئًا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّمَا
هَنِيئًا لَطْفُهُ وَالْكِتَابِ وَأُمِّهِ
أَخَذَتْ عَلَى الْأَقْدَارِ عَهْدًا وَمَوْثِقًا
وَمَنْ يَكُ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ وَثُوْبِهِ
يَكَادُ يَسِيرُ الْبَيْتُ شُكْرًا لِرَبِّهِ
وَتَسْتَوْهَبُ الصَّفْحَ الْمَسَاجِدُ خُشْعًا
وَتَسْتَغْفِرُ الْأَرْضُ الْخَصِيبُ وَمَا جَنَّتْ
نَجَاتِكَ لِلدَّيْنِ الْحَنِيفِ نِجَاةٌ^٢
بِقَاؤِكَ إِبْقَاءً لَهَا وَحَيَاةٌ^٣
فَلَسْتَ الَّذِي تَرْقَى إِلَيْهِ أَذَاةٌ^٤
تَجْزُهُ إِلَى أَعْدَائِهِ الرَّمِيَاتُ^٥
إِلَيْكَ وَيَسْعَى هَاتِفًا عِرْفَاتُ^٦
وَتَبْسُطُ رَاحَ التَّوْبَةِ الْجُمُعَاتُ^٧
وَلَكِنْ سَقَاهَا قَاتِلُونَ جُنَاةً^٨

^١ أُلْقِيَتْ عَلَى جَلَالَةِ الْخَلِيفَةِ قَذِيفَةً فِي سَبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٩٠٥ م، ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ النِّجَاةَ مِنْ شَرِّهَا؛ فَكَتَبَ الشَّاعِرُ يَهْنُئُهُ.

^٢ أَتَاكَ الشَّيْءُ هَنِيئًا، وَهُوَ هَنِيءٌ لَكَ: أَيُّ سَائِغٍ ثَابِتٍ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ.

^٣ طه: مِنْ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ. الْكِتَابُ: الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. وَالْأُمَّةُ: الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا.

^٤ الْأَقْدَارُ: جَمْعُ قَدَرٍ، وَهُوَ مَا يُقَدَّرُ اللَّهُ مِنْ قَضَائِهِ، وَيُعْرَفُهُ بَعْضُهُمْ بِأَنَّهُ تَعَلَّقُ إِرَادَةُ اللَّهِ بِالْأَشْيَاءِ. الْعَهْدُ هُنَا: بِمَعْنَى الضَّمَانِ. الْمَوْثِقُ: الْعَهْدُ. تَرْقَى إِلَيْهِ: تَصْعَدُ. الْأَذَاةُ: الْمَكْرُوهُ.

^٥ الْبُرْدُ: ثَوْبٌ مَخْطُوطٌ. تَجْزُهُ: تَتَعَدَاهُ إِلَى غَيْرِهِ. الرَّمِيَاتُ: جَمْعُ رَمِيَةٍ.

^٦ الْبَيْتُ: الْكَعْبَةُ. عِرْفَاتُ: مَكَانٌ عَلَى مَقَرِّبَةٍ مِنْ مَكَّةَ، الْوُقُوفُ بِهِ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ الْحَجِّ.

^٧ تَسْتَوْهَبُ الصَّفْحَ: تَطْلُبُ هَيْبَتَهُ. وَالصَّفْحُ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الذَّنْبِ. خُشْعًا: جَمْعُ خَاشِعٍ. الرَّاحُ: جَمْعُ رَاحَةٍ، وَهِيَ الْكَفُ.

^٨ تَسْتَغْفِرُ: تَطْلُبُ الْمَغْفِرَةَ. الْأَرْضُ الْخَصِيبُ: الْكَثِيرَةُ الْعُشْبِ، كُنَايَةٌ عَنْ كَثْرَةِ خَيْرِهَا. وَ«مَا» فِي «مَا جَنَّتْ»: لِلنَّفْيِ.

وَتُثْنِي مِنَ الْجَرْحَى عَلَيْكَ جِرَاحُهُمْ وَتَأْتِي مِنَ الْقَتْلَى لَكَ الدَّعَوَاتُ^٩
 ضَحَكَتَ مِنَ الْأَهْوَالِ ثُمَّ بِكَيْتَهُمْ بَدَمَعَ جَرَّتْ فِي إِثْرِهِ الرَّحِمَاتُ^{١٠}
 تُثَابُ بِغَالِيهِ وَتُجْزَى بِطُهْرِهِ إِلَى الْبَعْثِ أَشْلَاءُ لَهُمْ وَرُفَاتُ^{١١}
 وَمَا كُنْتُ تُحْيِيهِمْ فَكُلُّهُمْ لَرَبِّهِمْ فَمَا مَاتَ قَوْمٌ فِي سَبِيلِكَ مَاتُوا^{١٢}
 رَمَتَهُمْ بِسَهْمِ الْغَدْرِ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ عَصَابَةٌ شَرٌّ لِلصَّلَاةِ عُدَاةُ^{١٣}
 تَبَرَّأَ عَيْسَى مِنْهُمْ وَصِحَابُهُ أَتَّبَاعُ عَيْسَى ذِي الْحَنَانِ جُفَاةُ^{١٤}
 يُعَادُونَ دِينًا لَا يُعَادُونَ دَوْلَةً لَقَدْ كَذَبْتَ دَعْوَى لَهُمْ وَشَكَاةُ^{١٥}
 وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي حَقْوِقِهَا إِذَا قِيلَ طُلَّابُ الْحَقُوقِ بُغَاةُ^{١٦}
 بَأْيٍ فَوَادٍ تَلْتَقِي الْهَوْلَ ثَابِتًا وَمَا لِقُلُوبِ الْعَالَمِينَ ثَبَاتُ^{١٧}
 إِذَا زُلْزِلَتْ مِنْ حَوْلِكَ الْأَرْضُ رَادَا وَقَارُكَ حَتَّى تَسْكُنَ الْجَنَبَاتُ^{١٨}

^٩ تُثْنِي عَلَيْكَ: تمدحك. الجرحى: جمع جريح. والجراح: جمع جرح. القتل: جمع قتل.
^{١٠} الأهوال: جمع هول، وهو المخوف من الأمر لا يدري الإنسان ما يهجم عليه منه. بكيتهم: أي الجرحى والقتلى. الرحمات: جمع رحمة.
^{١١} تُثَابُ: تُجَازَى. بِغَالِيهِ وَبَطْهَرِهِ: الضمير فيها للدمع. البعث هنا: من بعث الموتى؛ أي نشرهم يوم القيامة. الرُفَات: الحُطَام وكل ما تَكَسَّرَ وبلى. أَشْلَاءُ الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفريق.
^{١٢} كُلُّهُمْ لَرَبِّهِمْ: من وكل إليه الأمر؛ أي تركه له وفوضه إليه. فِي سَبِيلِكَ: أي من أجلك وبسببك.
^{١٣} الغدر: الخيانة وعدم الوفاء. العصابة: الجماعة، قيل العشرة، وقيل ما بين العشرة والأربعين. العداة: جمع عدو، والمراد نصارى الأرمن الذين دبّروا حادث القنبلة.
^{١٤} تبرأ منه: تخلص منه وأنكره. عيسى: ابن مريم، النبي عليه السلام. الصحاب: جمع صاحب. أتباع: جمع تابع، والهمزة للاستفهام. الحنان: الرحمة. الجفاة: جمع جاف، وهو الغليظ الخلق.
^{١٥} الشكاة: الشكوى، وهي التظلم.
^{١٦} الطلاب: جمع طالب. البغاة: جمع باغ، وهو الظالم.
^{١٧} الفؤاد: القلب. تلتقي الهول: تستقبله. الهول: المخيف المفاجئ. الثبات: الاستقرار. والخطاب لأمر المؤمنين.
^{١٨} زلزلت الأرض: أرجفت. راد الأرض: تفقدها ليرى هل تصلح للنزول بها. الوقار: الحلم والرزانة. الجنبات: النواحي، جمع جنبه.

وإن خَرَجْتَ نَارُ فَكَانَتْ جَهَنَّمَ	تُغْذَى بِأَجْسَادِ الْوَرَى وَتُقَاتُ ^{١٩}
وَتَرْتَجُ مِنْهَا لُجَّةٌ وَمَدِينَةٌ	وَتَصَلَّى نَوَاحٍ حَرَّهَا وَجِهَاتُ ^{٢٠}
تَمْشِيَتْ فِي بُرْدِ الْخَلِيلِ فَخَضَّتْهَا	سَلَامًا وَبَرْدًا حَوْلَكَ الْغَمَرَاتُ ^{٢١}
وَسِرَتْ وَمِلءُ الْأَرْضِ حَوْلَكَ أَدْرُعُ	وَيَدْرُعُ قَلْبُ خَاشِعٍ وَصَلَاةُ ^{٢٢}
ضُحُوكًا وَأَصْنَافُ الْمَنَايَا عَوَابِسُ	وَقُورًا وَأَنْوَاعُ الْحُتُوفِ طُغَاةُ ^{٢٣}
يَحُوطُكَ إِنْ خَانَ الْحُمَاةَ انْتَبَاهُهُمْ	مَلَائِكُكَ مِنْ عِنْدِ الْإِلَهِ حُمَاةُ ^{٢٤}
تُشِيرُ بِوَجْهِ أَحْمَدِيٍّ مُنَوَّرٍ	عَيُونُ الْبِرَايَا فِيهِ مُنْحَسِرَاتُ ^{٢٥}
يُحْيِي الرِّعَايَا وَالْقَضَاءُ مُهْلَلٌ	يُحْيِيهِ وَالْأَقْدَارُ مُعْتَذِرَاتُ ^{٢٦}
نَجَاتُكَ نَعْمَى لِلْإِلَهِ سَنِيَّةٌ	لَهَا فِيكَ شُكْرٌ وَاجِبٌ وَزَكَاةُ ^{٢٧}
فَصِيرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثَنَاءَهَا	مَآثِرُ تُحْيِي الْأَرْضَ وَهِيَ مَوَاتُ ^{٢٨}

^{١٩} تُغْذَى، من غذاه: أطعمه. أجساد: جمع جسد. الورى: الخلق. تُقَات: من قاته أعطاه قوتًا، وهو ما يُؤْكَل لِيَمْسِكَ الرَّمَق.

^{٢٠} تَرْتَجُ: تَضْطَرِب. لُجَّةُ الْمَاءِ: مَعْظَمُهُ. تَصَلَّى حَرَّهَا: تَجَدَّه وَتَحَسَّه. النَوَاحِي: جَمْعُ نَاحِيَةٍ. الْجِهَاتُ: جَمْعُ جِهَةٍ. وَالْمَرَادُ: يَرْتَجُ مِنْهَا الْبُرْدُ وَالْبَحْرُ. وَتَخْتَرِقُ بِهَا جِهَاتُ الْأَرْضِ وَنَوَاحِيهَا: أَيِ إِنَّهَا نَارٌ عَامَّةٌ عَظِيمَةٌ.

^{٢١} تَمْشِيَتْ: مَشِيَتْ. الْبُرْدُ: الثَّوْبُ. الْخَلِيلُ: هُوَ النَّبِيُّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقِصَّةُ خَوْضِهِ النَّارَ الَّتِي أَوْقَدَهَا لَهُ النَّمْرُودُ مَشْهُورَةٌ. سَلَامًا: أَيِ سَلَامَةً. وَبَرْدًا: أَيِ لَا حَرًّا. الْغَمَرَاتُ: الشَّدَائِدُ وَالْمَكَارِهِ.

^{٢٢} مِلءُ الشَّيْءِ: مَا يَمْلَأُهُ. أَدْرُعُ: جَمْعُ دَرَعٍ، وَهِيَ ثَوْبٌ يُنْسَجُ مِنْ زَرْدِ الْحَدِيدِ، وَيُلْبَسُ فِي الْحَرْبِ لِلْوَقَايَةِ مِنْ سِلَاحِ الْعَدُوِّ.

^{٢٣} الضُّحُوكُ: الْكَثِيرُ الضَّحْكَ. الْمَنَايَا: جَمْعُ مَنِيَّةٍ، وَهِيَ الْمَوْتُ. عَوَابِسُ: كَوَالِحُ الْوُجُوهِ مُتَجَهِّمَاتٌ. الْوُقُورُ: الْحَلِيمُ الرَّزِينُ. الْحُتُوفُ: جَمْعُ حُتْفٍ، وَهُوَ الْمَوْتُ أَيْضًا. طُغَاةُ: جَمْعُ طَاغٍ، وَهُوَ الظَّالِمُ الْمُسْرِفُ فِي ظَلَمِهِ.

^{٢٤} يَحُوطُكَ: يَحْفَظُكَ وَيَتَعَهَّدُكَ. الْحُمَاةُ: جَمْعُ حَامٍ. الْإِنْتِبَاهُ: الْيَقَظَةُ لِلْأَمْرِ. وَالْمَلَائِكَةُ: الْمَلَائِكَةُ.

^{٢٥} وَجْهَ أَحْمَدِيٍّ: مَنَسُوبٌ إِلَى أَحْمَدَ، وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ، نَسَبَةً تَشْرِيفَ وَتَبْعِيَةً. مُنَوَّرٌ: مُضِيءٌ. مُنْحَسِرَاتُ: يَرِيدُ حَسِيرَاتٍ، وَالْعَيْنُ الْحَسِيرَةُ: الْكَلِيلَةُ الَّتِي يَنْقَطِعُ بِصَرِّهَا مِنْ طَوْلِ الْمَدَى.

^{٢٦} يُحْيِي الرِّعَايَا: يُسَلِّمُ عَلَيْهَا. وَرِعَايَا الْمَلِكِ: الْقَوْمُ الْخَاضِعُونَ لَهُ، جَمْعُ رِعْيَةٍ. الْقَضَاءُ هُنَا: تَقْدِيرُ اللَّهِ. مُهْلَلٌ: مِنَ التَّهْلِيلِ، وَهُوَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَالْأَقْدَارُ: جَمْعُ قَدَرٍ.

^{٢٧} النُّعْمَى، كَالنُّعْمَةِ: مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ. سَنِيَّةٌ: رَفِيعَةٌ عَظِيمَةٌ.

^{٢٨} صَيْرَ: أَيِ اجْعَلْ. مَآثِرُ: جَمْعُ مَأْثَرَةٍ، وَهِيَ الْمَكْرَمَةُ. أَرْضُ مَوَاتٍ: لَا يُنْتَفَعُ بِهَا.

إذا لم يَفُتْنَا من وجودك فائتُ
بلوناك يقظانَ الصوارمِ والقنا
سهرتَ ولذَّ النومُ وهو مَنِيَّةٌ
فلولاكَ مُلكُ المسلمين مُضَيِّعُ
لقد ذهبَت رايأتهم غيرَ رايةٍ
تَظَلُّ على الأيامِ غَرَاءَ حُرَّةٍ
حنيفيَّةٌ قد عَزَّها، وأعزَّها
حماها وأسمائها على الدهر منهمُ
غمائمٌ في مَحَلِ السنينِ هواطلُ
فليس لآمالِ النفوسِ فواتُ^{٢٩}
إذا ضَيَّعَ الصَّيْدَ الملوكُ سُبَاتُ^{٣٠}
رعايا تولَّاهَا الهوى ورُعاةُ^{٣١}
ولولاكَ شملُ المسلمين شَتَاتُ^{٣٢}
لها النصرُ وَسَمٌ والفتوحُ شِيَاتُ^{٣٣}
مُحَجَّلَةٌ في ظلِّها الغزواتُ^{٣٤}
ثلاثونَ مَلَكًا فاتحونَ غَزَاةً^{٣٥}
ملوكٌ على أملاكه سَرَواتُ^{٣٦}
مصاييحُ في ليلِ الشكوكِ هُدَاةُ^{٣٧}

^{٢٩} فاته الشيء: أعوزه وذهب عنه فلم يُدركه. الآمال: جمع أمل، وهو الرجاء.

^{٣٠} بلونك: جربناك واختبرناك. اليقظان: المتنبِّه المستيقظ. الصوارم: جمع صارم، وهو السيف القاطع. القنا: جمع قناة، وهي الرمح. الصَّيْد: جمع أصيد، وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يميناً ولا شمالاً، والأصل أنه الجمل الذي لا يستطيع الالتفات من داء الصيد. السُّبَات: النوم والراحة.

^{٣١} سهرت: أرقّت فلم تنم. لذَّ النوم رعايا ورعاة: أي صار لذيذاً لهم. والرعاة: جمع راع، وهو الوالي.

^{٣٢} مُضَيِّعٌ: مُهْمَلٌ أو مفقود. الشمل: ما اجتمع من الأمر وما تفرَّق منه، يقال: جمع الله شملهم؛ أي ما تشبَّهت من شملهم، وفَرَّقَ الله شملهم؛ أي ما اجتمع منه. الشتات: المشتَّت المتفرَّق.

^{٣٣} الراية: العَلَم، جمعها رايات. الوسم: الأثر والعلامة. الفتوح: جمع فتح، وهو النصر. الشيات: جمع شِيَة، وهي العلامة.

^{٣٤} تَظَلُّ: تبقى، والمراد الراية. الغَرَاء: مؤنث الأغر، وهو الفرس بجبهته بياضٌ قَدَرُ الدرهم، والأبيض من كل شيء، والكريم الفَعَال الواضحها، ومن المجاز: يومٌ أغرٌ مُحَجَّلٌ، ومثله: رايةٌ غَرَاءٌ مُحَجَّلَةٌ. المحجَّلَة: من التحجيل، وهو بياض في قوائم الفرس، والمراد أن بها بياضاً كأنه التحجيل. الغزوات: جمع غزوة، وهي الواحدة من الغزو، وهو المسير إلى قتال العدو.

^{٣٥} الحنيفية: المائلة إلى الإسلام الثابتة عليه، وهو وصف للراية أيضاً. عَزَّها: قَوَّاهَا. وأعزَّها: أجَلَّها. مَلَكًا: لغة في مَلِك. غَزَاة: جمع غَزَا.

^{٣٦} حماها: دافع عنها. أسماها: أعلاها. سروات: سادات ورؤساء. وضمير «حماها» و«أسماها» للراية.

^{٣٧} غمائم: سحائب، وهي جمع غمامة. المحل: الجذب ويبس الأرض من الكلأ لانتقطاع المطر. الهواطل: جمع هاطلة، وهي السحابة التي يتتابع مطرها. مصاييح: جمع مصباح، وهو السراج. هداة: جمع هادٍ، وهو المُرشِد الدالُّ على الطريق.

تَهَادَتْ سَلَامًا فِي ذُرَاك مُطِيفَةً
 تَمُوتُ سِبَاعُ الْجَوِّ غَرثِي حِيَالَهَا
 سَنَنْتَ اعْتِدَالَ الدَّهْرِ فِي أَمْرِ أَهْلِهِ
 فَأَنْتَ غَمَامٌ وَالزَّمَانُ خَمِيلَةٌ
 وَأَنْتَ مَلَاكُ السَّلَامِ إِنْ مَادَ رُكْنُهُ
 أَكَانَ لِهَذَا الْأَمْرِ غَيْرَكَ صَالِحٌ
 وَمَنْ يَسُسُ الدُّنْيَا ثَلَاثِينَ حِجَّةً
 مَلَكَتْ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ابْنَ هَانِيٍّ
 وَمَا زَلْتُ حَسَانَ الْمَقَامِ وَلَمْ تَزَلْ
 زَهْدْتُ الَّذِي فِي رَاحَتِكَ وَشَاقْنِي
 لَهَا رَغَبَاتُ الْخَلْقِ، وَالرَّهَبَاتُ^{٣٨}
 وَتَحْيَا نَفُوسُ الْخَلْقِ وَالْمُهَجَاتُ^{٣٩}
 فَبَاتَ رَضِيًّا فِي ذَرَاكَ وَبَاتُوا^{٤٠}
 وَأَنْتَ سِنَانٌ وَالزَّمَانُ قَنَاءُ^{٤١}
 وَأَشْفَقَ قَوَّامٌ عَلَيْهِ ثِقَاتُ^{٤٢}
 وَقَدْ هَوَّنَتْهُ عِنْدَكَ السَّنَوَاتُ؟^{٤٣}
 تُعْنَهُ عَلَيْهَا حَكَمَةٌ وَأَنَاةُ^{٤٤}
 بِفَضْلِ لِهَ الْأَلْبَابِ مُمْتَلَكَاتُ
 تَلِينِي وَتَسْرِي مِنْكَ لِي النِّفَحَاتُ^{٤٥}
 جَوَائِزُ عِنْدَ اللَّهِ مُبْتَغِيَاتُ^{٤٦}

^{٣٨} تهادت: من التهادي، وهو أن يمشي الرجل وحده مشيًا غير قوي متميلاً، والضمير عائد إلى الراجحة. الذرا: أعالي الأشياء، واحدها ذرة. مطيفة: من أطاف بالشيء ألم به وقاربه، أو حام حوله، أو أحاط به. الرغبات: جمع رغبة، وهي إرادة الشيء والحرص عليه. الرهبات: جمع رهبة، وهي الخوف.

^{٣٩} السباع: جمع سبع، وهو المفترس من الحيوانات مطلقاً، والمراد بسباع الجو سباع الطير. غرثي: جمع غرثان، وهو الجائع. حيالها: أي قبالتها وإزاءها. المهجات: جمع مهجة، وهي الدم، أو هي دم القلب، يقال: سالت مهجته والنفس، يقال: بذلت له مهجتي، والخالص من كل شيء.

^{٤٠} سننت: أبنت وصورت. والاعتدال: الاستقامة. ورضياً: راضياً. والذرا: الملجأ.

^{٤١} الغمام: السحاب. والخميلة: الشجر الكثير الملتف حيث كان، وهي أيضاً الموضع الكثير الشجر. السنان: نصل الرمح. القناة: الرمح.

^{٤٢} ملاك السلم: قوامه الذي يملك به. والسلم: السلام والأمان. وماد: تحرك واضطرب. وقوام: جمع قائم. وثقات: جمع ثقة، يقال: هو ثقة؛ أي موثوق به.

^{٤٣} هونته: سهلته وخففته. والسنوات: جمع سنة.

^{٤٤} يسس: من ساس الشيء دبّره وقام بأمره. يُعْنَهُ: يُسَاعِدُهُ وَيُظَاهِرُهُ. والحكمة: العدل، والعلم، ووضع الأمر في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الرفق، وهي الجلم أيضاً.

^{٤٥} ما زلت حسان المقام: أي ما زلت قائماً منك مقام حسان من النبي ﷺ، وهو حسان بن ثابت الشاعر والصحابي. تليني: تدنو مني. تسري: تتسلسل. النفحات: العطايا.

^{٤٦} زهدت الشيء: تركته ورغبت عنه. الراحتان: الكفان. شاقني جوائز: هيجتني. الجوائز: جمع جائزة، وهي العطيّة. مبتغيات: مطلوبات.

وَمَنْ كَانَ مِثْلِي أَحْمَدَ الْوَقْتِ لَمْ تَجْزُ
 وَلِي دُرُّ الْأَخْلَاقِ فِي الْمَدْحِ وَالْهَوَى
 نَجَتْ أُمَّةٌ لَمَّا نَجَوْتَ وَدُورِكْتَ
 وَصَيْنَ جَلَالُ الْمَلِكِ وَامْتَدَّ عِزُّهُ
 وَأُمِّنَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
 سَلَامِي عَنْ هَذَا الْمَقَامِ مُقَصِّرٌ
 عَلَيْهِ وَلَوْ مِنْ مِثْلِكَ الصَّدَقَاتِ^{٤٧}
 وَلِلْمُتَنَبِّي دُرَّةٌ وَحَصَاةُ^{٤٨}
 بِلَادٍ وَطَالَتْ لِلسَّرِيرِ حَيَاةُ^{٤٩}
 وَدَامَ عَلَيْهِ الْحُسْنُ وَالْحَسَنَاتُ^{٥٠}
 يَتَامَى عَلَى أَقْوَاتِهِمْ وَعُفَاةُ^{٥١}
 عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتُ^{٥٢}

^{٤٧} لم تجز: لم تكن جائزة. الصدقات: جمع صدقة، وهي العطية، يُراد بها الثواب.
^{٤٨} الدرر: جمع درة، وهي اللؤلؤة العظيمة. المتنبي: أبو الطيب أحمد بن الحسين المشهور. الحصة: الحجر الصغير. يريد أن للمتنبّي الجيد والريء من الشعر، أما هو فله الجيد دائماً.
^{٤٩} نجت: خلصت. ودورك: فعل المجهول من داركه إذا لحقه. السرير: سرير الملك.
^{٥٠} صين: حَفِظَ. الجلال: التناهي في عَظَمِ القدر ورفعَة الشَّأن. والعزُّ: القوة وعدم الذل. والحسن: الجمال. والحسنات: جمع حسنة، وهي ضد السيئة.
^{٥١} أُمِّنَ: أُعْطِيَ الْأَمَانَ. يتامى: جمع يتيم، وهو مَنْ مات أبوه. أقوات: جمع قوت، وهو ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام. العفاة: طُلَّابُ المعروف، جمع عافٍ.
^{٥٢} مقصّر: من قصر عن الأمر إذا تركه ولم يقدر عليه.

إلى عرفات

إلى عرفاتِ الله يا خيرَ زائرٍ عليك سلامُ الله في عرفاتِ^١
ويومِ تُوَلِّي وجهَهُ البيتَ ناضراً وسيمَ مَجالي البشرِ والقسماتِ^٢
على كلِّ أفقٍ بالحجازِ ملائِكُ تزُفُ تحايا الله والبركاتِ^٣
إذا حُدِيتَ عيسُ الملوكِ فإنهم لعيسك في البیداءِ خيرُ حُداةٍ^٤
لدى «الباب» جبريلُ الأمينِ بِراحِهِ رسائلُ رحمانیَّة النِّفحاتِ^٥

* * *

وفي الكعبةِ الغرَّاءِ ركنٌ مُرحَّبٌ بكعبةِ قُصَّادٍ ورُكنِ عَفَاةٍ^٦
وما سكبَ المِيزابُ ماءً وإنما أفاضَ عليك الأجرَ والرحماتِ^٧

^١ عرفات: اسم موضع وقوف الحاج، على مقربة من مكة، وهو اسمٌ واحد في صورة الجمع.
^٢ تَوَلَّى وجههُ البيت: تستقبلها. والوجهة: المكان الذي يستقبله الإنسان. ناضراً: من النُّضرة، وهي الحُسن. وسيم: جميل مجالي البشر، والمراد الوجه. والبشر: طلاقة الوجه. القسمات: جمع قسمة، وهي الوجه، وقيل ما بين الوجنتين والأنف.

^٣ الأفق: الناحية. ملائِك: جمع ملك. التحايا: جمع تحية.
^٤ حديت: من الحداء، وهو سَوَق الإبل والغناء لها. والعيس: الإبل البيض التي يُخالط بياضها شيءٌ من الشقرة. والبیداء: المفازة. الحُداة: جمع حادٍ.

^٥ جبريل: هو أمين الوحي. والراح: جمع راحة، وهي الكف.
^٦ مُرحَّب: مِنْ رَحَّبَ به؛ أي قال له مرحباً. وقُصَّاد: جمع قاصد. وعفاة: جمع عافٍ، وهو طالب المعروف.
^٧ سكب الماء: صبَّه. الميزاب، ويقال له مِثْزَاب ومِرْزَاب ومزْرَاب: ما يسيل منه الماء من مكانٍ عالٍ، قالوا: ومنه ميزاب الكعبة؛ أي مَصْبُ ماء المطر من فوقها، وهو المراد هنا. أفاض: أفرغ.

«وزمزم» تجري بين عينيك أعيناً
ويرمون إبليس الرجيم فيصطلي
يُحييكَ «طه» في مضاجع طهره
ويُثني عليك «الراشدون» بصالح
لك الدين يا رب الحجيح جمعتهم
أرى الناس أصنافاً ومن كل بقعة
تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت
عنت لك في التراب المقدس جبهة
منورة كالبدر شماء كالسها
ويا رب لو سخرت ناقة «صالح»
من الكوثر المعسول مُنفجرات^٨
وشانيك نيراناً من الجمرات^٩
ويعلم ما عالجت من عقبات^{١٠}
ورب ثناء من لسان رفات^{١١}
لبيت طهور السّاح والعرصات^{١٢}
إليك انتهوا من غربة وشتات^{١٣}
لديك ولا الأقدار مختلفات
يدين لها العاتي من الجبهات^{١٤}
وتُخفّض في حق وعند صلاة^{١٥}
لعبدك ما كانت من السّلسات^{١٦}

^٨ زمزم: بئر عند الكعبة. والكوثر: نهر في الجنة، والكثير من الماء. والمعسول: الحلو.
^٩ إبليس: عَلِمَ جنس للشيطان. والرجيم: هو المطرود، والملعون، والرمجوم بالحجارة. ويصطلي نيراناً: يحترق بها. والشاني: المُبغض. والجمرات: الحصى، واحدها جمرة.
^{١٠} يَحْيِيكَ: من حيّاه إذا قال له حيّك الله؛ أي أطال عمره. وطه: اسم النبي عليه الصلاة والسلام. ومضاجع: جمع مضطجع، وهو مكان الاضطجاع. العقبات: واحدها عقبة، وهي الطريق الصعب في أعلى الجبل، والمراد هنا صعاب الأمور.
^{١١} يثني عليك الراشدون: يذكرونك بخير. والراشدون: الخلفاء الأربعة بعد النبي، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي. والرفات: ما يلي من جسم الإنسان بعد موته.
^{١٢} الحجيح: جمع حاج، وهم الحجاج. والساح: جمع ساحة، وهي ساحة الدار. والعرصات: جمع عرصة، وهي البقعة من بين الدور ليس فيها بناء.
^{١٣} الأصناف: الأنواع. والغربة: الاغتراب. والشتات: التفرُّق.
^{١٤} عنت لك: خضعت وذلت. والتراب: التراب. ويدين لها: يطيعها. والعاتي من الجبهات: أي الجبهة العاتية التي تجاوزت الحد في الاستكبار والجبروت. والخطاب لله تعالى. يريد أن جبهة المدوح عنت لله، وهي التي أطاعها العتاة المتكبرون.
^{١٥} منورة: صفة للجبهة في البيت السابق. وشماء: مرتفعة، صفة للجبهة أيضاً. والسها: كوكب من بنات نعش الصغرى. وتخفّض: من الخفض ضد الرفع.
^{١٦} سخرت: من التسخير، وهو تذليل الدابة وركوبها بغير أجرة. والسلسات: جمع سلسة، وهي المنقادة.

ويا رَبِّ هلْ سِيَارَةٌ أَوْ مَطَارَةٌ
ويا رَبِّ هلْ تُغْنِي عن العبد حَجَّةً
وتشهد ما أذيت نفساً ولم أضُرْ
ولا غلبتني شقوة أو سعادة
ولا جال إلا الخير بين سرائري
ولا بَتُّ إلا كابن مريم مُشْفِقًا
ولا حُمِلَتْ نفسٌ هوى لبلادها
وإنِّي ولا مَنْ عليك بطاعة
أبالغ فيها وهي عدلٌ ورحمة
وأنت وليُّ العفو فامحُ بناصعٍ
فَيَدْنُو بَعِيدُ الْبَيْدِ وَالْفَلَوَاتِ^{١٧}
وفي العمر ما فيه من الهفوات^{١٨}
ولم أبغ في جَهري ولا خُطراتي^{١٩}
على حكمة آتيتني وأناة^{٢٠}
لدى سُدَّةٍ خيريَّةِ الرغباتِ^{٢١}
على حُسدي مستغفرًا لُعداتي^{٢٢}
كنفسي في فعلي وفي نفثاتي^{٢٣}
أجلُّ وأغلي في الفروض زكاتي^{٢٤}
ويتركها النُّسَّاك في الخلوات^{٢٥}
من الصفح ما سوَّدت من صفحاتي^{٢٦}

^{١٧} السَّيَّارَةُ: صيغة مبالغة من السير، جعله المتأدبون اسمًا لـ «الأتمبيل». المطارة: سمى بها المركبة التي تطير في الجو بالوسائل الصناعية. يدنو: يقرب. والبيد والفلوات: جمع بيداء وفلاة.

^{١٨} هل تغني عن العبد حجة: أي هل تنفعه حجة في مهم أمره عند الله. والهفوات: الزَّلَّات.

^{١٩} وتشهد أنت يا رب ما أذيت نفساً؛ أي لم أضل إليها بأذى. ولم أضر: لم أفعل ما يضر. ولم أبغ: لم أرتكب البغي. والجهر: العلانية. والخطرات: وأحدثها خطرة، وهي ما يلوح للإنسان في فكره.

^{٢٠} الشقوة: ضد السعادة. والحكمة: العدل، والجلم، وقيل ما يمنع الجهل، وقيل هي كل كلام واقع الحق، وقيل هي وضع الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسداده. والأناة: الجلم.

^{٢١} جال: طاف غير مستقر. والسرائر: جمع سريرة، وهي ما أسرّه الإنسان من أمره. والسُدَّة: الباب.

^{٢٢} ابن مريم: عيسى عليه السلام. ومشفقاً على حُسدي: حريصاً على صلاحهم. والحُسْد: جمع حاسد. مستغفرًا لعداتي: طالبًا لهم المغفرة. والعادة: جمع عُدو.

^{٢٣} الهوى: الحب. والنفثات: جمع نفثة، تُطْلَق على الشعر مجازًا، فيقال: ما أحسن نفثات فلان؛ أي ما أحسن شعره!

^{٢٤} المُنُّ: الامتنان بتعداد الصنائع. وأجلُّ زكاتي: أعظمها. وأغليها: أجعلها غالية. والفروض: ما فرضه الله من العبادات الخمس، والزكاة أحد هذه الفروض.

^{٢٥} أبالغ فيها: من بالغ في الأمر؛ أي اجتهد فيه ولم يُقَصِّر. والنُّسَّاك: جمع ناسك، وهو العابد المتزهّد. في الخلوات: متعلق بالنُّسَّاك.

^{٢٦} وليُّ العفو: أي متولّيه وصاحبه. والعفو: ترك العقوبة والإعراض عن المؤاخذه. امحُ: أزل. الناصع: الخالص الصافي. والصفح: ترك الشيء والإعراض عنه.

وَمَنْ تَضَحَكِ الدُّنْيَا إِلَيْهِ فَيَغْتَرِرُ
يُمُتْ كَقَتِيلِ الْغَيْدِ بِالْبَسَمَاتِ^{٢٧}
وَرَكِبْ كِلَاقْبَالَ الزَّمَانِ مُحَجَّلِ
كَرِيمِ الْحَوَاشِي كَابِرِ الْخَطَوَاتِ^{٢٨}
يَسِيرُ بِأَرْضٍ أَخْرَجَتْ خَيْرَ أُمَّةٍ
وَتَحْتَ سَمَاءِ الْوَحْيِ وَالسُّورَاتِ^{٢٩}
يُفِيضُ عَلَيْهَا الْيَمْنَ فِي غَدَوَاتِهِ
وَيُضْفِي عَلَيْهَا الْأَمْنَ فِي الرُّوحَاتِ^{٣٠}

* * *

إِذَا زَرْتِ يَا مَوْلَايَ قَبَرَ مُحَمَّدٍ
وَقَبَّلْتَ مَثْوَى الْأَعْظَمِ الْعَطِرَاتِ^{٣١}
وَفَاضَتْ مَعَ الدَّمْعِ الْعَيُونُ مَهَابَةً
لَأَحْمَدَ بَيْنَ السُّتْرِ وَالْحُجَرَاتِ^{٣٢}
وَأَشْرَقَ نُورٌ تَحْتَ كُلِّ ثَنِيَّةٍ
وَضَاعَ أَرِيحُ تَحْتَ كُلِّ حَصَاةٍ^{٣٣}
لَمُظْهِرِ دِينَ اللَّهِ فَوْقَ تَنُوفَةٍ
وَبَانِي صُرُوحِ الْمَجْدِ فَوْقَ فَلَائَةٍ^{٣٤}

^{٢٧} يَغْتَرُّ: يُخَذَعُ بِالشَّيْءِ وَيَظُنُّ بِهِ الْأَمْنَ فَلَا يَتَحَفَظُ. والغيد: جمع غيداء، وهي المرأة الطويلة العنق، والتي تنتني ليئاً، والتي لَطَفَتْ بِشَرَّتِهَا وَكَمَّلَ حُسْنَهَا. والبسمات: واحدها بسمه، وهي الضحكة من غير صوت.

^{٢٨} الْمُحَجَّلُ مِنَ الْخَيْلِ: مَا فِي قَوَائِمِهِ بَيَاضٌ. والمعنى ركب مطاياهم محجلة، أو هو محجل، ويكون المراد «مُشْرِقٌ مُضِيٌّ» عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، كَقَوْلِهِمْ: يَوْمٌ أَغْرُ مُحَجَّلٌ. والحواشي: الجوانب والنواحي. والكابر: رفيع الشأن.

^{٢٩} يَسِيرُ بِأَرْضٍ: يَرِيدُ أَرْضَ الْحِجَازِ، وَيُرِيدُ بَخِيرَ أُمَّةِ الْعَرَبِ خَاصَّةً وَالْمُسْلِمِينَ عَامَةً. والوحي: أصله كُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ إِلَى غَيْرِكَ، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى مَا يُلْقَى لِلْأَنْبِيَاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. والسورات: هي سور القرآن، جمع سورة.

^{٣٠} يُفِيضُ: يُسِيلُ. واليمن: الخير والبركة. والغدوات: جمع غدوة، وهي المرة من الغدو. ويضفي عليها الْأَمْنَ: يُسَبِّغُهُ عَلَيْهَا. والروحات: جمع روحة، وهي المرة من الرواح. والغدو والرواح على إطلاقهما: الذهاب والمجيء في أي وقت. وضمير «عليها» للأرض في البيت السابق.

^{٣١} إِذَا زَرْتِ يَا مَوْلَايَ: الْخُطَابَ لِلْخُدَيْوِ. والمثوى: المقام. والأعظم: جمع عظم. والعطرات: المتطيبات بالعطر.

^{٣٢} فَاضَتْ: سَالَ مَآوُهَا. والمهابة: الخوف والتوقير. وأحمد: اسم النبي أيضاً. الستر: مَا يُسْتَرُ بِهِ. والحجرات: جمع حجرة، وهي البيت الصغير في الدار.

^{٣٣} الثنية: طريق العقبة. وضاع: فاح. والأريح: الرائحة الطيبة.

^{٣٤} مُظْهِرُ دِينِ اللَّهِ: مُعْلِنُهُ وَالْجَاهِرُ بِهِ. والتنوفة: المفازة، وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف. والصروح: جمع صرح، وهو القصر، وكل بناء عالٍ. والفلاة: أي الصحراء القفر الواسعة.

فَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
شَعُوبُكَ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
بَأَيْمَانِهِمْ نُورَانِ ذِكْرٌ وَسُنَّةٌ
وَذَلِكَ مَاضِي مَجْدِهِمْ وَفَخَارِهِمْ
وَهَذَا زَمَانُ أَرْضِهِ وَسَمَاوُهُ
مَشَى فِيهِ قَوْمٌ فِي السَّمَاءِ وَأَنْشَأُوا
فَقُلْ رَبِّ وَفَقُّ لِلْعِظَائِمِ أُمْتِي
أَبْتُكَ مَا تَدْرِي مِنَ الْحَسَرَاتِ^{٣٥}
كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِي عَمِيقِ سُبَاتِ^{٣٦}
فَمَا بِالْهَمِّ فِي حَالِكِ الظُّلُمَاتِ^{٣٧}
فَمَا ضَرَّهْمُ لَوْ يَعْمَلُونَ لِأَتِي^{٣٨}
مَجَالٌ لِمَقْدَامِ كَبِيرِ حَيَاةِ^{٣٩}
بَوَارِجٍ فِي الْأَبْرَاجِ مُمْتَنِعَاتِ^{٤٠}
وَزَيْنٌ لَهَا الْأَفْعَالُ وَالْعَزَمَاتِ^{٤١}

^{٣٥} أبْتُكَ: أَطْلَعَكَ. وما تدري: ما تعلم. والحسرات: جمع حسرة، وهي أشد التلهُّف على الفائت.

^{٣٦} شعوبك: جمع شعب، وهو القبيلة العظيمة من الناس. والكهف: البيت الواسع المنقور في الجبل. والعميق: البعيد الغور. والسُّبَات: النوم.

^{٣٧} أيمانهم: جمع يمين، وهي الجهة المضادة لليسر، والجارحة أيضًا، وهي المرادة هنا. والمعنى معهم نوران ... إلخ. والذكر: القرآن. والسنة: الشريعة، وقد تُطلق عند الفقهاء على جملة أحاديث النبي ﷺ.

والبال: الحال والشأن. أي ماذا غيَّر حالهم حتى صاروا في الظلمات الحالكة؟ وال حالك: الشديد السواد.

والظلمات: جمع ظلمة، وهي زهاب النور.

^{٣٨} المجد: العزُّ والرفعة. والفخار: المباهاة بالمناقب والمكارم.

^{٣٩} المجال: مكان الجولان، وهو الطواف في غير استقرار. المقدام: أصله الكثير الإقدام على العدو، والمراد هنا الكثير الإقدام على عظام الأمور.

^{٤٠} مشى فيه: أي في هذا الزمان. وأنشئوا: أحدثوا. وبوارج: جمع بارجة، وهي سفينة كبيرة للقتال. والأبراج: جمع برج، وهو في السماء بابها، وقيل منزلة القمر، وقيل الكوكب العظيم. وممتنعات: محتميات. والمعنى أن قومًا بلغوا من العزَّة في هذا الزمان أن مشَّوا في جوِّ السماء؛ يريد: طاروا فيه، وأنشئوا طياراتٍ ترتفع حتى تكاد تصل إلى السماء.

^{٤١} وفق للعظائم أمتي: ألهمها إياها. والعظائم: جمع عظيمة، وهي ما عظم من الأمور. وزين لها الأفعال: اجعلها زينة عندها؛ أي غير مَشِينة. والعزمات: جمع عزمة، وهي الثبات والصبر فيما يُعزَّم عليه.

مصر تجدد نفسها بنسائها المتجددات^١

قُم حَيِّ هَذِي النَّيِّرَاتِ	حَيِّ الْحِسَانَ الْخَيْرَاتِ
وَاخْفِضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً	لِلْخُرْدِ الْمُتَخَفِّرَاتِ ^٢
زَيْنِ الْمَقَاصِرِ وَالْجِجَا	لِ وَزَيْنِ مِحْرَابِ الصَّلَاةِ ^٣
هَذَا مَقَامُ الْأَمْهَاتِ	بِتَ فَهَلْ قَدَّرْتَ الْأَمْهَاتِ؟
لَا تَلْغُ فِيهِ وَلَا تَقْلُ	غَيْرَ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ ^٤
وَإِذَا خَطَبْتَ فَلَا تَكُنْ	خَطْبًا عَلَى مِصْرَ الْفِتَاةِ
اذْكُرْ لَهَا الْيَابَانَ لَا	أُمَمَ الْهَوَى الْمُتَهْتِكَاتِ
مَاذَا لِقَيْتَ مِنَ الْحِضَا	رَا يَا أَخِي التُّرْهَاتِ ^٥
لَمْ تَلَقْ غَيْرَ الرِّقِّ مِنْ	عُسْرِ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ

^١ أُلْقِيَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي جَمْعٍ حَافِلٍ مِنَ السِّدَاتِ الْمِصْرِيَّاتِ بِمَسْرَحِ حَدِيقَةِ الْأَزْبَكِيَّةِ.

^٢ الْخُرْدُ: الْعِذَارَى. وَالْمُتَخَفِّرَاتُ: الْمُسْتَحْيَاتُ.

^٣ الزَّيْنُ: ضِدُّ الشَّيْنِ. وَالْمَقَاصِرُ: جَمْعٌ مَقْصُورَةٌ، وَهِيَ إِمَّا الدَّارُ الْوَاسِعَةُ الْمُحَصَّنَةُ، أَوْ الْحِجْرَةُ مِنْ حِجْرِ الدَّارِ. وَالْحِجَالُ: جَمْعُ حِجْلٍ، وَهُوَ الْخِلْعَالُ.

^٤ لَا تَلْغُ: لَا تَقْلُ بَاطِلًا عَنْ غَيْرِ رُويَّةٍ وَفِكْرٍ. وَالْفَوَاصِلُ: جَمْعٌ فَاصِلَةٌ، وَهِيَ مِنَ السَّجْعِ بِمَنْزِلَةِ الْقَافِيَةِ مِنَ الشَّعْرِ.

^٥ التُّرْهَاتُ: الطُّرُقُ الصَّغَارُ تَتَشَعَّبُ عَنِ الْجَائِدَةِ، وَاحْدَتُهَا تُرْهَةٌ، ثُمَّ اسْتُعِيرَتْ لِلْبَاطِلِ.

حُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيدِ حِثِّ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الثَّقَاتِ^٦
 وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِيءِ حَقَّةً وَاتَّبِعْ نُظْمَ الْحَيَاةِ
 هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ يُنْقِصْ حَقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ
 الْعِلْمُ كَانَ شَرِيعَةً لِنِسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ^٧
 رُضْنُ التَّجَارَةِ وَالسِّيَا سَةِ وَالشُّنُونِ الْأَخْرِيَاتِ^٨
 وَلَقَدْ عَلَتِ بِبُنَاتِهِ لُجَجُ الْعُلُومِ الزَاخِرَاتِ
 كَانَتْ سُكِينَةً تَمْلَأُ الدَّ نِيَا وَتَهْزَأُ بِالرُّوَاةِ^٩
 رَوَتْ الْحَدِيثَ وَفَسَّرَتْ آيَ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ
 وَحَضَارَةُ الْإِسْلَامِ تَنْدُ طَقُ عَنْ مَكَانِ الْمُسْلِمَاتِ
 بَغْدَادُ دَارُ الْعَالَمَا تِ وَمَنْزِلُ الْمُتَأَدِّبَاتِ^{١٠}
 وَدِمَشْقُ تَحْتَ أُمِّيَّةٍ أُمُّ الْجَوَارِي النَّابِغَاتِ^{١١}
 وَرِيَاضُ أُنْدَلُسٍ نَمِيْ نَ الْهَاتِفَاتِ الشَّاعِرَاتِ^{١٢}

* * *

ادْعُ الرِّجَالَ لِيَنْظُرُوا كَيْفَ اتِّحَادُ الْغَانِيَاتِ
 وَالنَّفْعَ كَيْفَ أَخَذْنَ فِي أَسْبَابِهِ مُتَعَاوِنَاتِ
 لَمَّا رَأَيْنَ نَدَى الرَّجَا لٍ تَفَاخُراً أَوْ حُبَّ ذَاتِ^{١٣}

^٦ الثقات: جمع ثقة، وهي الموثوق به، ويوصف به المفرد وغير المفرد، والمذكر والمؤنث.

^٧ المتفقهات: من تفقه؛ أي تعلم الفقه وتعالاه، والفقه هو علم الدين، أو من تفقه في العلم إذا تعلمه.

^٨ رُضْنٌ: من راض الشيء ذلله وجعله مطيعاً.

^٩ سَكِينَةٌ، هي بنت الحسين ابن الإمام عليٍّ، وحفيدة الرسول ﷺ.

^{١٠} بغداد: مقرُّ مُلْكِ العباسيين بالعراق. والمتأدِّبات: المتعلّقات الأدب.

^{١١} دمشق: مقرُّ الأمويين في الشام. والجواري: جمع جارية، وهي الفتاة.

^{١٢} أُنْدَلُس: بلاد في غرب أوروبا، هي الآن مملكة إسبانيا أو بعضها، وكانت قديماً مقرَّ ملك إسلامي

عظيم، أوّل مَنْ دخلها ونقل إليها حضارة وأنشأ بها ذلك الملك هو عبدُ الرحمن الداخل الأموي المسمّى

«صقر قریش». ونمين الهاتفات: من قولهم نمته عشيرته؛ أي رفعته بالانتساب إليها.

^{١٣} الندى: الجود.

ورأينَ عندهُمُ الصنا نَع والفنونَ مُضيَّعاتٍ
والبرَّ عند الأغنيا ِ من الشئونِ المُهمَّلاتِ
أقبلُ يَبْنينَ المَنا ِر للنجاحِ مُوفَّقاتِ

* * *

للصالحاتِ عقائلُ الـ وادي هوى في الصالحاتِ^{١٤}
الله أنبتهنَّ في طاعاته خيرَ النَّباتِ
فأتينَ أطيَّبَ ما أتى زهرُ المَناقِبِ والصِّفاتِ^{١٥}
لم يكفِ أن أحسنَّ حتَّى ى زِدْنَ حَضَّ المحصناتِ؟^{١٦}
يمشين في سوقِ الثوا بِ مُساوماتِ رابحاتِ
يلبسنَ ذلَّ السائلِا ِ وما ذَكَرْنَ البائساتِ^{١٧}
فوجوههنَّ وماؤها سترُ على المُتجمَّلاتِ^{١٨}
مصرُ تُجدِّد مَجدها بنسائها المتجدداتِ
النافراتِ من الجُمو د كأنه شَبَحَ المَما^{١٩}
هل بينهنَّ جوامدًا فَرَّقَ وبين المُمومياتِ^{٢٠}
لما حضنَّ لنا القضيَّ َةَ كَنَّ خيرَ الحاضناتِ^{٢١}
غذيَّنها في مُهدِها بلبانِهنَّ الطاهراتِ
وسبقنَ فيها المُعلِّمِ نَ إلى الكريهةِ مُعلِّماتِ^{٢٢}

^{١٤} الصالحات: ذوات الصلاح من النساء. والعقائل: جمع عقيلة، وهي الكريمة المُخدَّرة. والصالحات — في آخر البيت — صفة لمحدوف؛ أي والأفعال الصالحات.

^{١٥} المناقب: المفاخر.

^{١٦} الحَضُّ: مصدر حَضَّه على الأمر إذا حمَّله عليه.

^{١٧} البائسات: الشديديات الحاجة.

^{١٨} المتجمَّلات: الفقيرات اللاتي لم يُظْهَرْنَ ذلَّ الفقر.

^{١٩} الجمود: التيبس.

^{٢٠} الموميات. واحدتها موميا، وهي يونانية معناها حافظ الأجسام، وتُطَلَّق اليوم على الأجسام المحنَّطة.

^{٢١} القضية: هي قضية استقلال وادي النيل.

^{٢٢} المُعلِّمون: الفرسان لهم علامة في الحرب لبطولتهم.

الشوقيات

يَنْفُثْنَ فِي الْفَتِيَانِ مِنْ رُوحِ الشَّجَاعَةِ وَالتَّجَبُّاتِ^{٢٣}
يَهْوَيْنَ تَقْبِيلَ الْمُهَنْدِ^{٢٤} بِدِ أَوْ مُعَانَقَةَ الْقَنَاةِ^{٢٤}
وَيَرَيْنَ حَتَّى فِي الْكَرَى قُبَلَ الرِّجَالِ مُحَرَّمَاتِ

^{٢٣} ينفثن: من قولهم نفث الله الشيء في القلب ألقاه.

^{٢٤} المهند: السيف. والقناة: الرمح.

خلافة الإسلام^١

عادت أغاني العُرسِ رَجَعَ نَوَاحٍ وَنُعِيتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ^٢
كُفِّنَتْ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثَوْبِهِ وَدُفِنَتْ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِصْبَاحِ^٣
شُيِّعَتْ مِنْ هَلَعٍ بِعَبْرَةٍ ضَاكِ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَسَكْرَةٍ صَاحٍ^٤
ضَجَّتْ عَلَيْكَ مَآذِنٌ وَمَنَابِرُ وَبَكَتْ عَلَيْكَ مَمَالِكُ وَنَوَاحٍ^٥
الْهِنْدُ وَالْهَيَّةُ وَمَصْرُ حَزِينَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ بِمَدْمَعِ سَحَّاحٍ^٦
وَالشَّامُ تَسْأَلُ وَالْعِرَاقُ وَفَارَسُ أَمَحَا مِنَ الْأَرْضِ الْخِلَافَةَ مَاحٍ^٧
وَأَتَتْ لِكَ الْجَمْعُ الْجَلَالُ مَاتِمًا فَقَعَدَنَ فِيهِ مَقَاعِدَ الْأَنْوَاحِ^٨

^١ ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة؛ ذلك النصر الحاسم الذي كان حديث الدنيا، والذي تمَّ على يد مصطفى باشا كمال في سنة ١٩٢٣م، حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة، ونفى الخليفة من بلاد الأتراك؛ فنظَّم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، ويُنبِّه ممالك الإسلام إلى إسداء النصح للغازي؛ لعله يبني ما هُدم ويُنصف مَنْ ظَلِم.

^٢ الأغاني: جمع أغنية، وهي ما يُترنم به ويُتغنى فيه من شعر ونحوه. والرجع: ما يُردُّ في المكان الخالي على الإنسان إذا رفع صوته. والمعالم: جمع معلَم، وهو موضع الشيء الذي يُظن فيه وجوده.

^٣ تبَلُّجُ الإصباح: إشراقه وإنارته.

^٤ الهلع: الجزع الشديد. والعبرة: الدمعة قبل أن تفيض، وقيل هي تحلُّب الدمع.

^٥ الوالهة: الحزينة، أو التي ذهب عقلها حزناً. وسحاح: كثير السحَّ، وهو أن يسيل الماء من أعلى إلى أسفل.

^٦ الجَمْع: واحدها جمعة، وهي الصلاة المفروضة بهذا الاسم. والأنواح: النوائح.

يا للرجالِ لحرّةِ موءودةٍ
 إنّ الذين أسّت جراحك حربهم
 هتكوا بأيديهم مُلاءةَ فخرهم
 نزَعوا عن الأعناقِ خيرَ قلادةٍ
 حَسَبُ أَتَى طُولُ اللياليِ دونَهُ
 وعَلاقةُ فُصِمَت عُرَى أسبابِها
 جَمَعَت على البرِّ الحُضورَ وربّما
 نظمت صفوفَ المسلمين وخَطوهم
 بكَت الصلاةَ وتلك فتنةٌ عابِثُ
 أَفتى خُزَعْبَلَةٌ وقال ضلالةُ
 إنّ الذين جرى عليهم فِقْهُهُ
 إن حَدَّثُوا نطقوا بخُرسِ كتائبِ
 أَسْتَغْفِرُ الأخلاقَ لستُ بجاحِدِ
 ما لي أَطوَّقُهُ المَلامَ وطالما

فُتِلَت بغيرِ جريرةٍ وجُناحٍ^٧
 قَتَلَتِكَ سَلْمُهُمْ بغيرِ جراحٍ^٨
 مَوْشِيَّةٌ بِمَوَاهِبِ الفَتّاحِ^٩
 ونَضُوا عن الأعطافِ خيرَ وشاحٍ^{١٠}
 قد طاح بينَ عَشِيَّةٍ وصباحٍ^{١١}
 كانت أبرَّ علائقِ الأرواحِ
 جَمَعَت عليه سرائِرُ النُّزّاحِ^{١٢}
 في كلِّ غُدوةٍ جُمعةٍ ورواحٍ
 بالشرعِ عَرَبِيْدِ القِضاءِ وَقاحٍ^{١٣}
 وأتى بكفر في البلادِ بَرّاحٍ^{١٤}
 خُلِقُوا لِفِقهِ كَتِيبَةٍ وسلاحٍ
 أو خُوطِبُوا سَمِعُوا بِصُمِّ رِماحٍ
 مَنْ كُنْتُ أَدْفَعُ دونَهُ والأُحي^{١٥}
 قَلَدْتُه المَأْثُورَ من أمداحي

^٧ الموءودة: التي تُدْفَن حَيَّةً في التراب. والجُناح: الإثم.

^٨ أسّت جراحك: داوتها. السلم: الصلح، والسلام أيضًا.

^٩ يقال: هتك الستر ونحوه خرّقه، أو جذبه فقطعه من موضعه، أو شق منه جزءًا فبدا ما وراءه. وموشية: منقوشة منمنمة. والفتّاح: من أسماء الله تعالى.

^{١٠} نَضُوا: خلَعُوا. والأعطاف: جمع عطف، وهو الجانب من كل شيء. والوشاح: شبه قلادة يُنَسَج من جلد عريض ويرصع بالجواهر، فتشده المرأة بين عاتقها وكشحيها.

^{١١} طاح: ذهب.

^{١٢} البرّ: الصلة والرفق. والنُّزّاح: البعيدون، جمع نازح.

^{١٣} العربيد: الشرير، والكثير العريضة، وهي سوء الخُلُق من السُّكْرِ. والوقاح: ذو الوقاحة، وهي قلة الحياء.

^{١٤} الخزعبلة: الفكاهة والمزاح، أما الباطل فهو الخزعبيل والخزعبل. ويقال: جاء بالكفر بواحا؛ أي بينّا، وقيل جهارًا.

^{١٥} أَدْفَعُ دونهُ: أَرُدُّ عَنْهُ بِالْحُجَّةِ. الأُحي: من الملاحة، وهي الملاعة.

هو ركنٌ مملكةٍ وحائطٌ دولةٍ
أَقُولُ مَنْ أَحْيَا الْجَمَاعَةَ مُلْحِدٌ
الْحَقُّ أَوْلَى مِنْ وَلِيِّكَ حُرْمَةً
فَامْدَحْ عَلَى الْحَقِّ الرِّجَالَ وَلُمُهُمْ
وَمِنْ الرِّجَالِ إِذَا انْبَرَيْتَ لَهْدْمِهِمْ
فَإِذَا قَذَفْتَ الْحَقَّ فِي أَجْلَادِهِ
أَدُّوا إِلَى الْغَازِي النَّصِيحَةَ يَنْتَصِحُ
إِنْ الْغُرُورَ سَقَى الرَّئِيسَ بِرَاحِهِ
نَقَلَ الشَّرَائِعَ وَالْعَقَائِدَ وَالْقُرَى
تَرْكَتْهُ كَالشَّبَحِ الْمُؤَلَّهِ أُمَّةٌ
هُمْ أَطْلَقُوا يَدَهُ كَقَيْصَرَ فِيهِمْ
غَرَّتْهُ طَاعَاتُ الْجُمُوعِ وَدَوْلَةٌ
وَإِذَا أَخَذَتِ الْمَجْدَ مِنْ أُمِّيَّةٍ
مَنْ قَائِلٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَقَالَةً
عَهْدُ الْخِلَافَةِ فِي أَوَّلِ ذَائِدٍ
حُبٌّ لِذَاتِ اللَّهِ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ
إِنِّي أَنَا الْمَصْبَاحُ لَسْتُ بِضَائِعٍ

وَقَرِيعُ شَهْبَاءٍ وَكَبْشُ نِطَاحٍ^{١٦}
وَأَقُولُ مَنْ رَدَّ الْحَقُوقَ إِبَاحِي
وَأَحَقُّ مِنْكَ بِنَصْرَةٍ وَكِفَاحٍ
أَوْ خَلَّ عَنْكَ مَوَاقِفَ النَّصَاحِ
هَرَمٌ غَلِيظٌ مَنَاكِبِ الصُّفَّاحِ^{١٧}
تَرَكَ الصَّرَاعَ مُضْعَضَعِ الْأُلُوحِ^{١٨}
إِنْ الْجَوَادُ يَثُوبُ بَعْدَ جِمَاحٍ^{١٩}
كَيْفَ احْتِيَالُكَ فِي صَرِيعِ الرَّاحِ
وَالنَّاسُ نَقَلَ كِتَابٍ فِي السَّاحِ^{٢٠}
لَمْ تَسْلُ بَعْدَ عِبَادَةِ الْأَشْبَاحِ
حَتَّى تَنَاوَلَ كُلَّ غَيْرِ مُبَاحٍ
وَجَدَ السَّوَادُ لَهَا هَوَى الْمُرْتَاحِ
لَمْ تُعْطَ غَيْرَ سَرَابِهِ اللَّمَّاحِ^{٢١}
لَمْ يُوجِها غَيْرَ النَّصِيحَةِ وَاحٍ
عَنْ حَوْضِهَا بِبِرَاعَةِ نَضَّاحِ^{٢٢}
وَهَوَى لِذَاتِ الْحَقِّ وَالْإِصْلَاحِ
حَتَّى أَكُونَ فَرَاشَةَ الْمِصْبَاحِ^{٢٣}

^{١٦} القرية: الغالب في المقارعة، وهي أن يضرب الأبطال بعضهم بعضاً. والشهباء: الكتيبة العظيمة الكثيرة السلاح.

^{١٧} المناكب هنا: الجوانب والنواحي، والصُّفَّاح: حجارة عريضة رقيقة.

^{١٨} الأجلاد والتجاليد: جسم الإنسان وبدنه.

^{١٩} الغازي: مصطفى كمال، وهو أيضاً المراد بالرئيس في البيت الثاني.

^{٢٠} الساح: جمع ساحة، والمراد ساحة الحرب.

^{٢١} اللَّمَاح: اللَّمَاع.

^{٢٢} الذائد: الحامي الدافع. والنضاح: الدافع أيضاً.

^{٢٣} الفراشة: حيوان ذو جناحين، يطير ويتهاافت على السراج حتى يحترق.

غزواتُ «أدهم» كُلَّتْ بذوايلِ وفتوحُ أنورَ فُصِّلَتْ بِصَفاحِ^{٢٤}
وَلَّتْ سيوفُهما وبانَ قناهما وَشَبَا يِرَاعِي غيرُ ذاتِ بَرّاحِ^{٢٥}
لا تَبْذِلُوا بُرْدَ النبي لِعَاجِزِ عَزْلٍ يُدَافِعُ دونَه بِالرَّاحِ^{٢٦}
بِالْأَمْسِ أَوْهَى المسلمين جِرَاحَةً واليومَ مدَّ لهم يَدَ الجَرَاحِ^{٢٧}
فَلتَسْمَعُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ داعِيَا يدعو إلى «الكَذَابِ» أو لِسَجَاحِ^{٢٨}
وَلتَشْهَدُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فِتْنَةً فيها يُباعُ الدِّينُ بِبَيْعِ سَمَاحِ
يُفْتَى على ذَهَبِ الْمُعَرِّ وسيفِهِ وهوى النفوسِ وَحِقْدِهَا المِلْحَاحِ^{٢٩}

^{٢٤} الذوايل: صفة للرماح. والصفاح: جمع صفح، وهو عرض السيف. وأنور: هما القائدان التركيان الكبيران. والمراد بالرماح والسيوف هنا: الأعلام.

^{٢٥} القنا: جمع قناة. والشَّبا: جمع شَبَاة، وهي حدُّ كل شيء. البراح: الزوال.

^{٢٦} العاجز العزل: حسين بن علي شريف الحجاز؛ يريد أنه طامع في الخلافة، فالأتراك إذا أصرُّوا على خروجها منهم، كانوا بذلك قد بذلوا لهذا العاجز الذي لا يملك لحمايتها إلا يدًا خالية. والراح: جمع راحة، وهي بطن الكف.

^{٢٧} بالأمس أوهى ... إلخ: الموصوف بهذا العمل هو حسين بن علي أيضًا، وهو إشارة إلى خروجه على المسلمين، وموالاته أعداءهم في الحرب الكبرى.

^{٢٨} يريد أن تنحِّي الأتراك عن الخلافة أطمع فيها مَنْ لا يصلح لها، وجعل الدعاة لهؤلاء الطامعين يظهرون بكل مكان. والمراد بالكَذَاب: مسيلة الكَذَاب. وسجاح: امرأة كانت تدَّعي النبوة.

^{٢٩} المراد بذهبه وسيفه: المال الذي كان يبذل لمن أطاعوه، والعقاب الذي كان يصيب مَنْ خالفوه.

تكريم^١

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا الباسماتِ عن اليتيمِ نضيدا^٢
الرانياتِ بكلِّ أَحَوَرَ فاترِ يذُرُ الخليَّ من القلوبِ عميدا^٣
الراوياتِ من السُّلافِ مَاحَجراً الناهلاتِ سِوَالفاً وخدوداً^٤
اللاعباتِ على النسيمِ غدائراً الراتعاتِ مع النسيمِ قُوداً^٥
أَقْبَلَنَ في ذهبِ الأصيلِ ووُشِيهِ مِلءَ الغلائِلِ لَوْلُواً وفريداً^٦
يَحْدِجَنَ بالحدَقِ الحواسِدِ دُمِيَّةً كَطِباءٍ وَجَرَةً مُقْلَتَيْنِ وَجِداً^٧

^١ في وزارة سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٤م أُطلقَ سجناء كانت المحاكم العسكرية الإنجليزية قد أدانتهم في مؤامرةٍ شاعَ يومئذٍ أنها مُبالَغ فيها، وقد احتفل شباب البلاد بنجاة إخوانهم، فرجوا صاحب الديوان أن يشاركهم في هذا الاحتفال؛ فنظم هذه القصيدة، مُشيراً فيها إلى أهم ما كان يشغل بال الناس في ذلك العهد من الحوادث.

^٢ بأبي وروحي: أي أفتدي بهما. والغيد: جمع غيداء، وهي الجارية اللَّيْثَةُ الأعطاف. واليتيم من كل شيء: ما لا نظير له، والمراد هنا الأسنان. والنضيد: المنضود المتسَّق.

^٣ الرانيات: اللاتي يَدْمَنُ النظر بطرفٍ ساكن. والأحور: من الحور، وهو شدة سواد العين في شدة بياضها. والعميد من القلوب: ما هدَّه العشق.

^٤ السلاف: أطيب الخمر، ويراد به هنا سحر العيون. والناهل: الرَيَّان. والسوالف: صفحات الأعناق.

^٥ الغدائر: جمع غديرة، وهي الذَّوَابَةُ من الشعر. والقُدود: جمع قُدٌّ، وهو القامة.

^٦ الوشي: النمنمة والتحسين. والغلائل: الأثواب الرقيقة. والفريد: الدُر المنظوم.

^٧ حدجه بنظره: حدَّدَ النظر إليه. والحدَق: الأحداق. والدمية: الصورة المنقَّشة المزيَّنة، فيها حمرة كالدم، ويضرب بها المثل في الحسن، ويراد بها هنا الحسناء. ووجرة: موضع بين مكة والبصرة، تسكنه الطباء والوحوش. والمراد في هذا البيت أن أولئك الجميلات على ما أسبغ الله عليهنَّ من نعمة الجمال، وقفنَّ

حَوّت الجمالَ فلو ذهبَت تزيدها
لو مرَّ بالولدان طيفُ جمالِها
أشهى من العودِ المرئمِ منطَقًا
لو كنتَ سعدًا مُطلقَ السجناءِ لم
ما قصّر الرؤساءُ عنه سعى له
يا مصرُ أشبالُ العرينِ ترعرعت
قاضي السياسة نالهم بعقابه
أنتَ الحوادثُ دونَ عقدِ قضائه
تقضي السياسة غيرَ مالكةٍ لما
قالوا أتنظّم للشباب تحيةً
قلتُ الشبابُ أتمَّ عقدٍ مآثرٍ
قبِلتُ جهودَهم البلادُ وقبِلتُ
خرجوا فما مدُّوا حناجرَهم ولا
خفي الأساسُ عن العيون تواضعًا
ما كان أظنّهم لكلِّ خديعةٍ
لمّا بنى الله القضيةَ منهم
جادوا بأيامِ الشبابِ وأوشكوا
طلبوا الجلاءَ على الجهادِ مَثوبَةً

في الوهم حُسناً ما استطعتَ مزيداً
في الخلدِ خرُّوا رُكعًا وسُجوداً
والذُّ من أوتاره تغريداً
تُطلق لساحرِ طَرْفِها مصفوداً^٨
سعدٌ فكان مُوفقاً ورشيداً
ومشّت إليك من السجون أسوداً
خَشِنَ الحكومةِ في الشبابِ عتيداً^٩
فانهار بيّنةً ودكَّ شهيداً^{١٠}
حكمتَ به نقضاً ولا توكيداً
تبقى على جيدِ الزمانِ قصيداً
من أن أزيدهم الثناء عُقوداً
تاجاً على هاماتهم معقوداً^{١١}
منّوا على أوطانهم مجهوداً
من بعد ما رفع البناءَ مَشيداً
ولكلِّ شرٍّ بالبلادِ أريداً
قامت على الحقِّ المُبينِ عُموداً^{١٢}
يتجاوزون إلى الحياةِ الجوداً
لم يطلبوا أجرَ الجهادِ زهيداً^{١٣}

ينظرنَ إلى هذه الحسناء التي ابتدأ الشاعر في وصفها، يحسدنها على ما أوتيت من سحر؛ ويدلُّ هذا الحسد على أن حظها من الحسن عظيم.

^٨ المصفود: الموثق المغل. وهنا يتخلص الشاعر من هذا الغزل الرقيق؛ ليسوق إليك ما أراد من تعزية السجناء عما نالهم من ظلم، وتهنئتهم بما أتيح لهم من نجاة، ثم شكر المحسنين إلى هؤلاء السجناء.

^٩ خشن الحكومة: أي قاسياً. والعتيد: الجسيم، وهو هنا الجسيم من الظلم.

^{١٠} الشهيد: الشاهد. وانهيار البيّنة: ثبوت بطلانها. وسقوط الشهود: ثبوت تزويرهم.

^{١١} الهامات: الرؤوس.

^{١٢} القضية: السياسة المصرية.

^{١٣} يريد بالجلاء: جلاء الجنود الإنجليزية المحتلة عن أرض البلاد.

والله ما دون الجلاء ويومِهِ
وَجَدَ السَّجِينَ يَدًا تُحَطِّمُ قَيْدَهُ
رَبَحَتْ مِنْ «التَّصْرِيحِ» أَنْ قَيودَهَا
أَوْ مَا تَرَوْنَ عَلَى «الْمَنَابِعِ» عُدَّةٌ
يَا فِتْيَةَ النَّيْلِ السَّعِيدِ خُذُوا الْمَدَى
وَتَنَكَّبُوا الْعُدْوَانَ وَاجْتَنِبُوا الْأَذَى
الْأَرْضُ أَلَيْقُ مَنْزِلًا بِجَمَاعَةٍ
أَنْتُمْ غَدًا أَهْلُ الْأُمُورِ وَإِنَّمَا
فَابِنُوا عَلَى أَسْسِ الزَّمَانِ وَرُوحِهِ
الْهَدْمُ أَجْمَلُ مِنْ بِنَايَةِ مُصْلِحٍ
وَجْهَ الْكَنَانَةِ لَيْسَ يُغْضِبُ رَبَّكُمْ
وَلَوْ إِيْلِهِ فِي الدُّرُوسِ وَجُوهَكُمْ
إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْبِلَادَ حَبَاكُمُ
قَدْ كَانَ وَالْدُنْيَا لُحُودٌ كُلُّهَا
مَجْدُ الْأُمُورِ زَوَالُهُ فِي زَلَّةٍ
الْفِرْدُ بِالشُّورَى وَبِاسْمِ نَدِيَّهَا
خَلَعَتْهُ دُونَ الْمُسْلِمِينَ عِصَابَةٌ
يَقْضُونَ ذَلِكَ عَنْ سَوَادٍ غَافِلٍ
جَعَلُوا مَشِيئَتَهُ الْغَبِيَّةَ سُلْمًا
إِنِّي نَظَرْتُ إِلَى الشُّعُوبِ فَلَمْ أَجِدْ

يَوْمٌ تُسَمِّيهِ الْكِنَانَةُ عِيدًا
مَنْ ذَا يُحَطِّمُ لِلْبِلَادِ قَيودًا
قَدْ صِرْنَ مِنْ زَهَبٍ وَكُنَّ حَدِيدًا^{١٤}
لَا تَنْجِلِي وَعَلَى الضَّفَافِ عَدِيدًا^{١٥}
وَاسْتَأْنِفُوا نَفْسَ الْجِهَادِ مَدِيدًا
وَقِفُوا بِمَصْرَ الْمَوْقِفِ الْمَحْمُودِ^{١٦}
يَبْغُونَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ قُعودًا
كُنَّا عَلَيْكُمْ فِي الْأُمُورِ وَقُودًا
رُكْنَ الْحَضَارَةِ بَانَحًا وَشَدِيدًا
يَبْنِي عَلَى الْأُسُسِ الْعِتَاقِ جَدِيدًا
أَنْ تَجْعَلُوهُ كُوجِهَهُ مَعْبُودًا
وَإِذَا فَرَعْتُمْ وَاعْبُدُوهُ هُجُودًا^{١٧}
بِلَدًا كَأَوْطَانِ النُّجُومِ مَجِيدًا^{١٨}
لِلْعَبَقَرِيَّةِ وَالْفَنُونِ مُهُودًا
لَا تَرْجُ لِاسْمِكَ بِالْأُمُورِ خُلُودًا
لُفْظَ «الْخَلِيفَةُ» فِي الظَّلَامِ شَرِيدًا^{١٩}
لَمْ يَجْعَلُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَجُودًا
خُلِقَ السَّوَادُ مُضَلَّلًا وَمَسُودًا^{٢٠}
نَحْوَ الْأُمُورِ لِمَنْ أَرَادَ صُعودًا
كَالْجَهْلِ دَاءٌ لِلشُّعُوبِ مُبِيدًا

^{١٤} تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ م.

^{١٥} منابع النيل.

^{١٦} تنكَّبوا العدوان: أي تجنبوه.

^{١٧} الهجود: جمع هاجد، وهو النائم، أو المصلي بالليل.

^{١٨} حباه: أعطاه. وأوطان النجوم: كناية عن السماء.

^{١٩} الندى: المجمع. ولَفَظَهُ: رمى به وطرحه.

^{٢٠} سواد الناس: عامتهم.

الجهلُ لا يلدُ الحياةَ مَواتُهُ إلا كما تَلدُ الرِّمامُ الدوداً^{٢١}
 لم يخلُ من صُورِ الحياةِ وإنما أخطاهُ عُنصرُها فمات وليداً^{٢٢}
 وإذا سبى الفردُ المُسلَّطُ مجلساً أَلْفَيْتَ أحرارَ الرجالِ عبيداً
 ورأيتَ في صدرِ النَّدِيِّ مُنَوِّماً في عُصْبَةٍ يتحرَّكون رُقوداً
 الحقُّ سهمٌ لا ترشُهُ بباطلٍ ما كان سهمُ المُبِطِّلين سديداً^{٢٣}
 والعَبُّ بغيرِ سلاحه فلَرَبِّماً قتلَ الرجالَ سلاحُهُ مردوداً

^{٢١} موات الجهل: الخراب الذي يحدث بسببه. والرمام: جمع رَمَّة، وهي العظام البالية، والمراد بها هنا الجيفة. ومعنى البيت أن الجاهل ميت، والميت بطبعه لا يلد ولا يأتي بعظيم، فإن ولد فكالجيفة المستحيلة لا ينشأ منها إلا الدود.

^{٢٢} الإشارة إلى الدود في البيت السابق.

^{٢٣} راش السهم يريشه: ألصق عليه الريش حتى يكون أكثر نفاذاً.

على سفح الأهرام^١

قَفِ نَاجٍ أَهْرَامَ الْجَلَالِ وَنَادِ
نَشْكُو وَنَفْزَعُ فِيهِ بَيْنَ عَيُونِهِمْ
وَنُبْثُهُمْ عِبْثَ الْهَوَى بِتُرَاثِهِمْ
وَنُبِينُ كَيْفَ تَفَرَّقَ الْإِخْوَانُ فِي
إِنِ الْمُغَالِطَ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَهُ
هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلَسٌ أَوْ نَادٍ^٢
إِنَّ الْأُبُوَّةَ مَفْزَعُ الْأُولَادِ^٣
مَنْ كُلُّ مُلْقٍ لِلْهَوَى بِقِيَادِ^٤
وَقَتِ الْبَلَاءِ تَفَرَّقَ الْأَضْدَادِ^٥
بَاغٍ عَلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ عَادٍ^٦

* * *

^١ أمين أفندي الريحاني أديب من أدباء سوريا، وفد على مصر فأقام له بعض الأدباء حفلًا على سفح الأهرام، شاطرهم إيَّاه صاحب الديوان.

^٢ ناج: من المناجاة، وهي المسألة. والجلال: التناهي في عظم القدر. والبناة: جمع بان. المجلس: مكان الجلوس. والنادي: اسم للمجلس حين يجتمع فيه القوم ليتحدثوا، فإذا تفرَّقوا فليس ناديًا.

^٣ نشكو: نعلن الشكوى. ونفزع: نستغيث. وضمير «فيه» للمجلس أو النادي. بين عيونهم: أي أمامهم. والأبوة: كون الرجل أَبًا.

^٤ نبثهم: نُكاشِفهم. والعبث: اللعب. والهوى: إرادة النفس، وهو غالب في الشر. القياد: في الأصل حبل يُقاد به.

^٥ نبين: مضارع أبان الشيء أوضحه. والبلاء: الغم يُبلي الجسم.

^٦ المغالط نفسه: موقعها في الغلط. باغ: ظالم. عاد: ظالم أيضًا.

قُلْ لِلْأَعَاجِبِ الثَّلَاثِ مَقَالَةٌ من هَاتِفٍ بِمَكَانِهِنَّ وَشَادٍ^٧
لِلَّهِ أَنْتَ فَمَا رَأَيْتُ عَلَى الصِّفَا هَذَا الْجَلَالَ وَلَا عَلَى الْأَوْتَادِ^٨
لِكَ كَالْمَعَابِدِ رَوْعَةٌ قَدْسِيَّةٌ وَعَلَيْكَ رُوحَانِيَّةُ الْعِبَادِ^٩
أُسِّسَتْ مِنْ أَحْلَامِهِمْ بِقَوَاعِدِ وَرُفِعَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ بِعِمَادِ^{١٠}
تِلْكَ الرَّمَالُ بِجَانِبَيْكَ بِقِيَّةٍ مِنْ نِعْمَةٍ وَسَمَاحَةٍ وَرِمَادِ^{١١}
إِنْ نَحْنُ أَكْرَمْنَا النِّزِيلَ حِيَالَهَا فَالضَّيْفُ عِنْدَكَ مَوْضِعُ الْإِرْفَادِ^{١٢}
هَذَا «الْأَمِينُ» بِحَائِطَيْكَ مُطَوِّفًا مُتَقَدِّمَ الْحُجَّاجِ وَالْوَفَادِ^{١٣}
إِنْ يَعُدُّهُ مِنْكَ الْخُلُودُ فَشِعْرُهُ بَاقٍ وَلَيْسَ بَيَانُهُ لِنَفَادِ^{١٤}

* * *

إِيَّاهُ «أَمِينٌ» لِمَسَّتْ كُلَّ مُحَجِّبٍ فِي الْحُسْنِ مِنْ أَثَرِ الْعُقُولِ وَبَادِ^{١٥}
قَمَّ قَبْلَ الْأَحْجَارِ وَالْأَيْدِيِ التِّي أَخَذَتْ لَهَا عَهْدًا مِنَ الْآبَادِ^{١٦}

^٧ الأعاجيب الثلاثة: يريد بها الأهرام الثلاثة، وإنما كانت أعاجيب؛ لأن الإنسان يستعظمها، فتعترية روعة عند ذلك، وهذا هو العجب، والمفرد أعجوبة، وهي اسم لما يكون العجب منه. هاتِف: مَدَح، من هَتَفَ به مدحه. شَادٍ: من شَدَا الشعر؛ أي غَنَّى به وترنَّم.

^٨ الصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الصلد الضخم الذي لا يُنبت. الأوتاد: الجبال.

^٩ الروعة: الفزعة، والمسحة من الجمال. والعباد: جمع عابد.

^{١٠} الأحلام: العقول، جمع حلم. وعماد الشيء: ما يُسند به. والخطاب في هذا البيت والبيتين قبله للأعاجيب الثلاثة.

^{١١} السماحة: موافقة الرجل على ما يُراد منه، وهي الجود والعطاء أيضًا. والرماد: ما يبقى من المواد المحترقة بعد احتراقها، وقد كُنِيَ به عن الكرم، كما يقولون: فلان كثير الرماد؛ أي كريم؛ لأنه يُكثَر من إيقاد النار لكثرة صنع الطعام للأكلين من الأضياف.

^{١٢} النزِيل: الضيف. وحيالها: قبالتها. الإرفاد: الإعطاء.

^{١٣} مُطَوِّفًا: دائِرًا حولهما. والحجَّاج: القُصَاد. والوفاد: جمع واعد، من وفد إذا قَدِم.

^{١٤} إِنْ يَعُدُّهُ: أي إِنْ جَاوَزَهُ وَيَقْتَهُ. والخلود: الدوام والبقاء، والمراد خلود الذِّكْر لا خلود الشخص. والنفاذ: الذهاب والانقطاع.

^{١٥} إِيَّاهُ: اسم فعل، معناه زِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ. المحجَّب: المستور. البادي: الظاهر.

^{١٦} الآباد: جمع أبد، وهو الدَّهر.

وَحُذِّ النَّبُوغَ عَنْ الْكِنَانَةِ إِنَّهَا
أُمُّ الْقِرَى إِنْ لَمْ تَكُنْ أُمُّ الْقِرَى
مَا زَالِ يَغْشَى الشَّرْقَ مِنْ لِمَحَاتِهَا
رَفَعُوا لَكَ الرِّيحَانَ كَاسِمِكَ طَيِّبًا
وَتَخَيَّرُوا لِلْمِهْرَجَانِ مَكَانَهُ
سَلَفَ الزَّمَانِ عَلَى الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا
وَإِذَا جَمَعَتِ الطَّيِّبَاتِ رَدَدَتْهَا
يَا نَجْمَ سُوْرِيَا وَلَسْتَ بِأَوَّلِ
اطْلُغْ عَلَى يَمَنِ بَيْمَنِكَ فِي غَدٍ
وَأَجَلْ خِيَالِكَ فِي طُلُولِ مَمَالِكِ
وَسِلِّ الْقُبُورَ وَلَا أَقُولُ سِلِّ الْقِرَى
مَهْدُ الشَّمُوسِ وَمَسْقُطُ الْأَرَادِ ١٧
وَمَثَابَةُ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْرَادِ ١٨
فِي كُلِّ مُظْلِمَةٍ شُعَاعٌ هَادٍ ١٩
إِنْ الْعِمَارَ تَحِيَّةُ الْأَمْجَادِ ٢٠
وَجَعَلْتُ مَوْضِعَ الْإِحْتِفَاءِ فَوَادِي ٢١
سَنَوَاتُ صَحْوِ بِلْ سَنَاتُ رِقَادِ ٢٢
لَعَتِيقِ خَمْرِ أَوْ قَدِيمِ وَدَادِ ٢٣
مَاذَا نَمَتَ مِنْ نَيْرٍ وَقَادِ ٢٤
وَتَجَلَّ بَعْدَ غَدٍ عَلَى بَغْدَادِ
مَمَّا تَجُوبُ وَفِي رُسُومِ بِلَادِ ٢٥
هَلْ مِنْ رَبِيعَةٍ حَاضِرٍ أَوْ بَادِ ٢٦

١٧ النبوغ: الإجابة. والكنانة: مصر. والأراد: جمع راد، والمراد الضحى، وهو وقت ارتفاع الشمس وانبساط الضوء في الخمس الأول من النهار.

١٨ القري: الضيافة، أو ما قُري به الضيف. والقري: جمع قرية. والمثابة: مجتمع القوم بعد تفرقهم. والأعيان: جمع عين، وهو كبير القوم وشريفهم. أفراد الناس: كبارهم، ولا يقال للإنسان الواحد فرد، بل يقال له فريد.

١٩ يغشى الشرق: يغطيه. واللمحات: جمع لمحة، وهي النظرة الخفيفة بالعجلة. والشعاع: ما ينتشر من ضوء الشمس.

٢٠ الريحان: نبات طيب الرائحة. والأمجاد: جمع مجيد، وهو الكريم الشريف.

٢١ المهرجان: هو عيد الفرس، وكان يوافق أول الشتاء، ثم صار في الخريف، والمراد به هنا الاحتفال والاحتفاء: المبالغة في الإكرام وإظهار السرور والفرح.

٢٢ سلف: مضى. والسنوات: جمع سنة. والسنوات: جمع سنة، وهي النعاس. والرقاد: النوم.

٢٣ رددتها: أي أرجعت نسبته. والعتيق: القديم.

٢٤ ولست بأول: احتراس من الإطلاق؛ أي وإن كنت نجم سوريا فلست الأول من نجومها، الأول سواك، أو لست أول نجم لها، فقد سبقك أوائل آخرون. وماذا نمت: أي كم ذا رفعت بالانتساب إليها.

٢٥ الطلول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الدار. والرسوم: جمع رسم، وهو الأثر.

٢٦ ربيعة: قبيلة من العرب. والحاضر: من ينزل الحضر. والبادي: من يذهب إلى البادية.

سترى الديار من اختلافِ أمورِها نطقَ البعيرُ بها وعيَّ الحادي^{٢٧}

* * *

قضيت أيامَ الشبابِ بعالمٍ ليسَ السنينَ قشيبَةَ الأبرادِ^{٢٨}
ولَدَ البدائعَ والروائعَ كلها وعدتُهُ أن يَلِدَ البيانَ عوادِ
لم يخترعَ شيطانَ حَسَّانٍ ولم تُخْرِجَ مَصانِعُهُ لسانَ زيادِ^{٢٩}
اللهُ كَرَّمَ بالبيانِ عصابةً في العالمينَ عزيزةَ الميلاذِ
«هوميرُ» أحدثُ من قرونٍ بعدهُ شعراً وإن لم تخلُ من آحادِ^{٣٠}
والشَّعرُ في حيثِ النفوسِ تلذُّهُ لا في الجديدِ ولا القديمِ العادي
حقُّ العشيرةِ في نبوغِك أوَّلاً فانظرْ لعلك بالعشيرةِ بادِ^{٣١}
لم يكفهم شطرُ النبوغِ فزدهمُ إن كنت بالشرطينَ غيرَ جوادِ
أو دَع لسانك واللغاتِ فربَّما غنَّى الأصيلُ بمنطقِ الأجدادِ
إن الذي ملأَ اللغاتِ محاسناً جعلَ الجمالَ وسرَّهُ في الضادِ^{٣٢}

^{٢٧} عيَّ الحادي: لم يستطع البيان والإفصاح.

^{٢٨} قضيت: خطاب للريحاني. والعالم الذي قضى به أيام شبابه هو أمريكا التي قام بها. قشيبَة الأبراد: جديدها. والأبراد: جمع بُرد.

^{٢٩} لم يخترع ... إلخ: يريد أنه عالم لم يرتق في اختراعه إلى حيث يبتدع البلاغة اللسانية التي كرم الله بها العرب. وحسان: الشاعر الصحابي المعروف. وزياد: هو زياد بن أبي سفيان، كان من أخطب العرب.
^{٣٠} هومير: شاعر يوناني قديم، كان شعره قصصاً يضمُّنه وصف الأبطال والإشادة بذكورهم، وهو صاحب الإلياذة. يريد أن شعره — على أنه قديم — أجود من شعر الذين جاءوا بعده، وإن كانت أيامهم لم تخلُ من شعراء مجيدين هم آحاد في عددهم.

^{٣١} حق العشيرة ... إلخ: في هذا البيت والأبيات بعده أمورٌ أخذ بها الريحاني في رفق ولين، فهو يقول له إن كانت معانيك في كتابتك جيدة، فألفاظك فيها رديئة؛ لأنك أهملت جانب اللغة العربية، وهي الشطر الثاني من شطري النبوغ، وأيضاً يقتضي الوفاء لعشيرتك وقومك أن تحسن لغتهم حتى تغني بها.

^{٣٢} الضاد: اللغة العربية، وإنما سُميت كذلك؛ لأن الضاد لا توجد في لغة سواها، ولا يقوى أهل اللغات الأخرى على النطق بها.

المطرية تتكلم^١

يا ناشرَ العلم بهذي البلادُ
بانِي صرَحِ المَجْدِ أَنْتَ الَّذِي
بالعلم سادَ الناسُ في عصرهم
أَيَطْلُبُ المَجْدَ وَيَبْغِي العُلا
نَقَّادُ أَعْمَالِكَ مُغِلٌّ لَهَا
ما أَصْعَبَ الفَعْلَ لِمَنْ رَامَهُ
سمْعًا لشكوايَ فَإِنْ لم تجد
عدلاً على ما كان من فضلکم
أَسْمِعْ أحيانًا وحينًا أرى
قَدِّمْتَ قَبْلِي مُدْنًا أو قَرَّيْ

وُفِّقْتَ نشرُ العلم مثلُ الجهادِ
تبني بيوتَ العلم في كلِّ نادٍ
واخترقوا السبعَ الطِّبَاقَ الشَّدَّادُ^٢
قومٌ لسوقِ العلمِ فيهم كسادُ
إذا غلا الدُّرُّ غلا الانتقادُ^٣
وأسهلَ القولَ على مَنْ أَرادَ
منك قبولًا فالشكاوى تُعادُ^٤
فالفضلُ إن وُزِعَ بالعدلِ زادُ^٥
مدرسةً في كلِّ حيٍّ تُشادُ
كنتُ أنا السيفَ وكُنَّ النُّجَاجُ^٦

^١ أحسَّ صاحب الديوان أيام كان يسكن «المطرية» بحاجة هذا البلد إلى مدرسة تُهذَّبُ أبناءه، فناشد وزير المعارف يومئذٍ «سعد زغلول باشا» على لسان المطرية أن يقوم بإنشاء هذا الأثر الجليل.

^٢ ساد الناس: مجدوا وجلّوا. والسبع الطِّبَاق: السموات السبع، وهي طباق أي مطابقة بعضها بعضًا.

^٣ النِّقَّاد: مبالغة من النقد، وهي في الكلام إظهار ما به من العيوب، وفي غير الكلام النظر إلى الشيء لمعرفة جيده من رديئه. ومغِلٌّ لها: من أغلَى الشيء؛ أي جعله غاليًا.

^٤ سمْعًا لشكواي: أي اسمعها سمعًا.

^٥ عدلاً: أي أطلب عدلاً زائدًا على ما حصل من فضلکم.

^٦ النُّجَاج: حمائل السيف.

أنا التي كنتُ سريراً لَمَنْ ساد «كإِدْوَرْدَ» زماناً وشاداً^٧
 قد وَّحدَ الخالقَ في هيكَلٍ من قبلِ سقراطٍ ومِن قبلِ عاداً^٨
 وهذَّبَ الهندُ دياناتهم بكلِّ خافٍ من رموزي وبأد^٩
 ومن تلاميذَي موسى الذي أُوحِيَ مِن بعدُ إليه فهاداً^{١٠}
 وأَرْضَعَ الحكمةَ عيسى الهُدَى أيامَ تُربِّي مَهْدُهُ والوساد^{١١}
 مدرستي كانت حياضُ النُّهى قرارةَ العرفانِ دارَ الرشاد^{١٢}
 مشايخُ اليونان يأتونها يُلقُون في العلم إليها القياد^{١٣}
 كنّا نُسمِّيهم بصبيانِه وصِبيتي بالشَّيبِ أهلُ السداد^{١٤}
 ذلك أمسي ما به ريبةٌ ويومِي «القبةُ» ذاتُ العِماد^{١٥}
 أصبحتُ كالفرديوس في ظلِّها من مِصرَ للخنكا لِظُلِّي امتداد^{١٦}
 لولا جُلَى زيتوني النُّضْرِ ما أقسَمَ بالزيتونِ ربُّ العباد^{١٧}

^٧ السرير: تخت الملك. وساد: صار سيِّدَ قومه متسلِّطاً عليهم. وإدوارد: ملك الإنجليز قبل الملك جورج القائم حينذاك. وشاد: رفع البناء.

^٨ الهيكل: بيت الأصنام. وسقراط: حكيم من حكماء اليونان. وعاد: اسم رجل من العرب الأولى سُمِّيَ به قومه، وهم الذين أُرسلَ إليهم هود نبي الله.

^٩ هذَّبَ الشيء: خلَّصه مما يشينه، وطهَّره من العيوب. والخافي: المستتر. والبادي: الظاهر.

^{١٠} موسى: النبي عليه السلام. وأوحِيَ إليه: أنزل الله عليه الوحي. وهاد: رجع إلى الحق.

^{١١} الحكمة: صواب الأمر، ووضع الشيء في موضعه، والعلم، والعدل، والحلم. وعيسى: ابن مريم عليه السلام. والترب: التراب. والمهد: الموضع يُهَيَّأ للصبي. والوساد: المتكأ، وكل ما يُتَوَسَّد به من قماش وغيره. أي أيام أن كان ترابي مهده ووساده.

^{١٢} مدرسة المطرية القديمة: إحدى مدارس العلم الكبرى عند المصريين القدماء، وكان يقصدها الطلاب من بلاد اليونان وغيرها. القرارة: القاع المستدير يجتمع فيه ماء المطر.

^{١٣} وصِبيتي بالشَّيب: أي وتُسَمَّى صِبيتي بالشَّيب.

^{١٤} القبة: ضاحية من ضواحي القاهرة، بها قصرٌ عظيم بناه الخديو عباس حلمي، وقد غلب اسمها على هذا القصر. والعماد: الأبنية الرفيعة، تُذَكَّر وتؤنَّث، مفردها عمادة.

^{١٥} الزيتون: شجرٌ مُثمِرٌ معروف، وثمره يُسمَّى زيتوناً أيضاً، وتُسَمَّى به ضاحيةٌ أخرى من ضواحي القاهرة مجاورة للقبة.

الواحة الزَّهراء ذاتُ الغنى تُربي التي ما مثلها في البلاد^{١٦}
تُريك بالصبح وجُنح الدُّجى بُدورَ حُسن وشموس اتقاد

* * *

بَنِيَّ يا سعدُ كزُغبِ القطا لا نَقصُ اللهُ لهم منِ عِداد^{١٧}
إِنْ فاتَكَ النسلُ فأكرمهم بهم ورُبَّ نسلٍ بالندى يُستفاد
أخشى عليهم من أذى رائج يجمعهم في الفجر والعصر غاد^{١٨}
صفيْرُهُ يَسْلُبني راحتي ويمنعُ الجَفَنَ لذيذَ الرقاد^{١٩}
يعقوبُ من ذئبٍ بكى مُشفِّقا فكيفَ أنيابُ الحديدِ الحداد^{٢٠}
فانظُرْ رعاك الله في حاجهم فنظرُهُ منكَ تُنيلُ المراد^{٢١}
قد بسطُوا الكفَّ على أنهم في كرمِ الراحِ كصوبِ العِهاد^{٢٢}
إِنْ طُلِبَ «القسط» فما منهم إلا جوادٌ عن أبيه الجواد

^{١٦} الواحة الزَّهراء: هي واحة عين شمس، والواحة: وادٍ متسعٌ مُنخفض في الصحراء.

^{١٧} الزغب: جمع أزغب، وهو ما له شعر، أو ريش صغير. القطا: جمع قطة، وهي طائر في حجم الحمامة.

^{١٨} رائج، غاد: يريد قطار البخار الذي يركبه الأبناء إلى المدارس في القاهرة.

^{١٩} صفيْرُهُ: أي صفيِر القطار.

^{٢٠} يعقوب: النبي أبو يوسف، بكى على يوسف حين رجع إليه أبنائُه إخوة يوسف فأخبروه أن الذئب أكله، وقد كان يخاف عليه هذا من قبل، وقصة ذلك مبسطة في كتب التاريخ الديني.

^{٢١} الحاج: جمع حاجة.

^{٢٢} كصوب العهاد: أي كنزول المطر. والعهاد: جمع عهد. والمطر ينزل متعاقبًا، فيُدرِك آخره أوله.

الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد

سَلْ «يَلِدِرَا» ذَاتَ الْقَصُورِ هل جاءها نبأ البدور^١
لو تستطيعُ إجابةً لبكتك بالدمع الغزيرِ
أخنى عليها ما أنا خَ على الخورنقِ والسديرِ^٢
ودها الجزيرةَ بعد إسـ ماعيل والملك الكبيرِ^٣
ذهب الجميعُ فلا القُصو رُ تُرى ولا أهلُ القُصورِ
فلكُ يدورُ سُعودُهُ ونُحوسُهُ بيدِ المديرِ
أين الأوانسُ في ذُرا ها من ملائكة وحُورِ^٤
المُترعاتُ من النعيـ م الرواياتُ من السرورِ^٥

^١ يلدز، في لغة الترك: اسم نجم، وقد سُمِّي به قصرٌ عظيم في الآستانة، كان يسكنه السلطان عبد الحميد أيام ملكه. والمخاطب بقوله «سَلْ ... إلخ» هو هذا السلطان.

^٢ أخنى عليه الدهر: أتى عليه وأهلكه. والخورنق: قصر كان في الحيرة بالعراق للملك النعمان الأكبر أحد ملوك بني المنذر. والسدير: قصر كان بالحيرة أيضًا للمناذرة.

^٣ دهاه الأمر: أصابه. والجزيرة: هي جزيرة الروضة في النيل شرقي القاهرة، وكان بها قصر عظيم من قصور الخديو إسماعيل، وهو المراد.

^٤ الأوانس: جمع آنسة، وهي الطيبة النفس. والخور: جمع حورية، وهي المرأة البيضاء الناعمة.

^٥ المترعات: جمع مترعة، من أترع الإناء؛ أي ملأه.

العائثراتُ من الدلا
الأمراتُ على الولا
الناعماتُ الطيبا
الذاهلاتُ عن الزما
المُشرفاتُ وما انتقلُ
من كلِّ بلقيسٍ على
أمضى نفوذاً من زُبَيْدٍ
بين الرِّفارف والممشا
والرَّووض في حجم الدُّنا
والدرُّ مُؤْتَلِقِ السَّنا
في مسكنٍ فوق السَّما
بين المَعاقِلِ والقَنَا
سَمَّوه «يَلْدِر» والأفُو
دارت عليهنَّ الدَّوا
أمسينَ في رِقِّ العبيدِ

لِ الناهضاتُ من الغُورِ
ةِ الناهياتُ على الصدورِ^٦
تُ العَرَفِ أمثالُ الزهورِ^٧
نِ بنشوةِ العيشِ النضيرِ
نَ على الممالكِ والبحورِ
كرسيٍّ عَزَّتْها الوثيرِ^٨
دَّة في الإمارةِ والأميرِ^٩
رِف والزخارفِ والحريرِ^{١٠}
والبحرِ في حجم الغديرِ
والمِسكِ فيَّاحِ العبيرِ
كِ وفوقَ غاراتِ المُغيرِ^{١١}
والخيلِ والجمِّ الغفيرِ
لُ نهايةُ النجمِ المُغيرِ
تُر في المَخادعِ والخدورِ^{١٢}
لِ وبتنَ في أَسْرِ العشيرِ^{١٣}

^٦ الولاة: جمع وإل. الصدور: جمع صدر، ويقال له الصدر الأعظم، وهو كبير وزراء السلطان في الدولة التركية.

^٧ العرف: الرائحة الطيبة.

^٨ بلقيس: ملكة سبأ من أرض اليمن، وقصتها مع الملك سليمان مبسوبة في كتب التاريخ الديني. والوثير: اللين الموطأ.

^٩ زبيدة: زوجة الخليفة هارون الرشيد.

^{١٠} الرِّفارف: جمع رفر، وهو الفراش. والمشارف: جمع مشرف، وهو الموضع يُشرف منه، ومشارف الأرض: أعاليها.

^{١١} السَّمَك: كوكب.

^{١٢} الدوائر: جمع دائرة، وهي النائبة من صروف الدهر. والمخادع: جمع مخدع، بضم الميم وكسرهما، بيت يكون في البيت الكبير يُحَرَّز فيه الشيء.

^{١٣} العبيل: الضخم الغليظ.

ما ينتهين من الصلا
يطلبن نصرة ربهن
صبغ السواد حبيرهن
أنا إن عجزت فإن في
خطب الإمام على النّظير
عظة الملوك وعبرة الـ
شيخ الملوك وإن تضع
نستغفر المولى له
ونراه عند مصابه
ونصونه ونجله
عبد الحميد حساب مث
سدت الثلاثين الطوا
تنهى وتأمّر ما بدا
لا تستشير وفي الجمي
كم سبّحوا لك في الرّوا
ورأيتهم لك سجّدا
خفّضوا الرّؤوس وتروا
ماذا دهاك من الأمو
ما كنت إن حدّدت وجلّ
أين الرّويّة والأنبا

ة ضراعة ومن النذور
وربهن بلا نصير^{١٤}
وكان من يقق الحبور^{١٥}
بردي أشعر من «جريد»
م يعزّ شرّا والنثير
أيام في الزمن الأخير
ضع في الفؤاد وفي الضمير
والله يعفو عن كثير
أولى بباك أو عذير
بين الشّماتة والنكير
لك في يد الملك الغفور
لّ ولنّ بالحكم القصير^{١٦}
لك في الكبير وفي الصغير
عدّد الكواكب من مشير
ح والّهوك لدى البُكور
كسجود موسى في الحضور^{١٧}
بالذلّ أقواس الظهور^{١٨}
ر وكنّت داهية الأمور
ت بالجزوع ولا العثور
ه وحكمة الشيخ الخبير

^{١٤} ربهن: سيدهن، وهو السلطان عبد الحميد.

^{١٥} الحبير: الناعم الجديد. اليقق: الشديد البياض.

^{١٦} الثلاثين الطوال: الأعوام التي مضت له وهو سلطان.

^{١٧} كسجود موسى في الحضور: أي حضوره حين تجلّى له الله فكلمه.

^{١٨} وتروا بالذلّ أقواس الظهور: أي جعلوا الذلّ وترا لأقواس ظهورهم؛ يعني أن الذلّ قوس ظهورهم كما يفعل الوتر بالقوس إذا شدّ عليها.

إِنَّ الْقَضَاءَ إِذَا رَمَى دَكَ الْقَوَاعِدَ مِنْ «ثُبَيْر»^{١٩}
 دَخَلُوا السَّرِيرَ عَلَيْكَ يَحْ تَكْمُونَ فِي رَبِّ السَّرِيرِ^{٢٠}
 أَعْظَمَ بِهِمْ مِنْ أَسْرِي مَنْ وَبِالْخَلِيفَةِ مِنْ أَسِيرِ
 أَسَدُ هَـصُورٍ أَنْشَبَ الـ أَظْفَارَ فِي أَسَدِ هَـصُورِ^{٢١}
 قَالُوا اعْتَزَلْ قُلْتَ اعْتَزَلْ حَتَّ الْحُكْمُ لِلَّهِ الْقَدِيرِ
 صَبَرُوا لِدَوْلَتِكَ السَّنِي مَنْ وَمَا صَبَرْتَ سِوَى شَهْوِ
 أَوْدَيْتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ وَحَنَنْتَ لِلْحُكْمِ الْعَسِيرِ
 وَغَضِبْتَ كَالْمَنْصُورِ أَوْ هَارُونَ فِي خَالِي الْعَصُورِ^{٢٢}
 ضَنُّوا بِضَائِعِ حَقِّهِمْ وَضَنَنْتَ بِالدُّنْيَا الْغُرُورِ
 هَلَّا احْتَفَظْتَ بِهِ احْتَفَا ظًا مُرَحَّبٍ فَرِحَ قَرِيرِ
 هُوَ حَلِيَّةُ الْمَلِكِ الرَّشِيدِ بِدِ وَعِصْمَةُ الْمَلِكِ الْغَرِيرِ
 وَبِهِ يُبَارَكَ فِي الْمَمَا لِكَ وَالْمُلُوكِ عَلَى الدُّهُورِ

يَا أَيُّهَا الْجَيْشُ الَّذِي لَا بِالْدَّعْيِ وَلَا الْفَخُورِ
 يَخْفَى فَإِنْ رِيحَ الْحِمَى لَفَتَ الْبَرِّيَّةَ بِالظَّهْورِ^{٢٣}
 كَاللَّيْثِ يُسْرِفُ فِي الْفِعَا لٍ وَلَيْسَ يُسْرِفُ فِي الزَّئِيرِ^{٢٤}
 الْخَاطِبِ الْعَلِيَاءِ بِالـ أَرْوَاحِ غَالِيَةِ الْمَهْوَرِ
 عِنْدَ الْمُهَيِّمِ مَا جَرَى فِي الْحَقِّ مِنْ دَمِكَ الطَّهْوَرِ
 يَتَلَوُ الزَّمَانُ صَحِيفَةً غَرًّا مُذْهَبَةً السُّطُورِ
 فِي مَدْحِ «أَنْوَرِكَ» الْجَرِي ۞ وَفِي «نِيَاذِيكَ» الْجَسُورِ

^{١٩} ثُبَيْر: جبلٌ معروف.

^{٢٠} يحتكمون في ربِّ السرير: يتصرّفون فيه وفق مشيئتهم.

^{٢١} أنشب أظفاره في الشيء: أعلقها فيه.

^{٢٢} أبو جعفر المنصور، وهارون الرشيد: من الخلفاء العباسيين.

^{٢٣} ريح الحمى: أي راعه شيء وأفزعه.

^{٢٤} الزئير: صوت الأسد.

يا «شوكت» الإسلام بل يا فاتحَ البلدِ العسيرِ^{٢٥}
وابنَ الأكارمِ من بني «عمر» الكريمِ على «البشير»^{٢٦}
القابضين على الصليب لـ كجدهم وعلى الصريرِ^{٢٧}
هل كان جدُّك في ردا ثـك يومَ زحفك والكرورِ
فقدنصت صيَّادَ الأسو دـ وصدت قنَّاصَ النسورِ
وأخذت «يلدز» عنوةً وملكْتَ عنقاءَ الثُّغورِ^{٢٨}

* * *

المؤمنون «بمصر» يُهـ دُونَ السَلامِ إلى الأميرِ
ويُبايعونك يا «محمـ دُ» في الضمائرِ والصدورِ^{٢٩}
قد أمَّلوا لِهلالِهم حظَّ الأهلَّةِ في المَسيرِ
فابلغْ به أوجَ الكما لـ بقوةِ اللهِ النصيرِ
أنتَ الكبيرُ يُقلِّدو نـكَ سيفَ «عثمان» الكبيرِ
شيخُ الغُزاةِ الفاتحيـ نـ حُسامُهُ شيخُ الذكورِ^{٣٠}
يُمضى ويُغمَد بالهدى فكأنه سيفُ النذيرِ^{٣١}
بُشرى الإمامِ محمـ بخِلافةِ اللهِ القديرِ
بُشرى الخِلافةِ بالإما م العادلِ النَّزهِ الجديرِ

^{٢٥} أنور، ونيازي، وشوكت: كانوا من كبار القوَّاد في الجيش العثماني، وكانوا على رأس الحركة التي قام بها هذا الجيش لحمل السلطان عبد الحميد على إعادة الدستور، وجعله أساس الحكم في البلاد التركية.
^{٢٦} عمر: هو الخليفة عمر بن الخطاب، كان شوكت باشا من سلالته. والبشير: من أسماء النبي محمد ﷺ.

^{٢٧} الصليب: الصوت يُسمَع عند المقارعة بالسيوف. الصرير: صوت القلم عند الكتابة به.
^{٢٨} أخذ الشيء عنوةً: أي قهراً. العنقاء: طيرٌ معروف الاسم مجهول الجسم، يُضرب مثلاً لكل عزيز ممتنع. والمراد أنه ملك ثغر الآستانة الذي يُشبهه العنقاء في عزَّته وامتناعه.

^{٢٩} محمد: هو السلطان محمد رشاد الخامس، الخليفة بعد السلطان عبد الحميد.

^{٣٠} الذكور: جمع ذكر، وهو السيف.

^{٣١} النذير: من أسماء النبي.

الباعثِ الدستورَ في الـ إسلامٍ مِنْ حُفَرِ القبورِ
أودى «معاوية» به وبعثته قبلَ النُّشورِ^{٣٢}
فعلى الخلافةٍ منكما نورٌ تَلألأَ فوقَ نورِ^{٣٣}

^{٣٢} أودى به: ذهب به وأضاعه. ومعاوية بن أبي سفيان: أول ملوك الدولة الأموية، وكان حُكم الخلفاء الراشدين قبله شورى بين المسلمين، وهي معنى حكم الدستور، فلما أخذ معاوية الملك استقلَّ فيه برأيه.

^{٣٣} منكما: أي من الخليفة ومن الدستور.

انتحار الطلبة^١

ناشئ في الورد من أيامه
سدّد السهم إلى صدر الصبا
بيد لا تعرف الشر ولا
بسطت للسم والحبل وما
غفر الله له ما ضرّه
لم يمتّع من صبا أيامه
يتمنى الشيخ منه ساعة
ليس في الجنة ما يشبهه
فصبا الخلد كثير دائم
حسبه الله أبا الورد عثر؟^٢
ورماه في حواشيه الغرر^٣
صلحت إلا لتلهو بالأكر^٤
بسطت للكأس يومًا والوتر
لو قضى من لذّة العيش الوتر
ولياليه أصيل وسحر^٥
بحجاب السمع أو نور البصر^٦
خفة في الظل أو طيب قصر
وصبا الدنيا عزيز مختصر

* * *

^١ رأى صاحب الديوان ذلك المَفزع الوبئ، الذي يفرع إليه صغار الطلبة في مصر بعد سقوطهم في الامتحانات؛ فنظم لهم هذه القصيدة، يقطع عليهم فيها سبيل الأُس، ويبسط لهم سبيل الأمل.

^٢ حسبه الله: أي كفاه الله.

^٣ الصبا: الميل إلى جهالة الفتوة. والحواشي: الجوانب.

^٤ الأكر: جمع أكرة، وهي الكرة.

^٥ الأصيل: وقت ما بعد العصر إلى المغرب، والسحر: قبيل الصبح.

^٦ منه: أي من صبا الأيام.

كُلَّ يَوْمٍ خَبِرْتُ عَنْ حَدَثٍ سَتَمَ الْعَيْشَ وَمَنْ يَسَامُ يَذَرُ^٧
عَافَ بِالدُّنْيَا بِنَاءً بَعْدَمَا خَطَبَ الدُّنْيَا وَأَهْدَى وَمَهَرُ^٨
حَلَّ يَوْمَ الْعُرْسِ مِنْهَا نَفْسُهُ رَجِمَ اللَّهُ الْعُرُوسَ الْمُخْتَضِرُ^٩
ضَاقَ بِالْعَيْشَةِ ذَرْعًا فَهَوَى عَنْ شِفَا الْيَأْسِ وَبِئْسَ الْمُنْحَذَرُ^{١٠}
رَاحِلًا فِي مِثْلِ أَعْمَارِ الْمُنَى ذَاهِبًا فِي مِثْلِ آجَالِ الزَّهْرِ
هَارِبًا مِنْ سَاحَةِ الْعَيْشِ وَمَا شَارَفَ الْغَمْرَةَ مِنْهَا وَالْغُدُرُ^{١١}
لَا أَرَى الْأَيَّامَ إِلَّا مَعْرَكَا وَأَرَى الصَّنْدِيدَ فِيهِ مَنْ صَبَرُ^{١٢}
رُبَّ وَاهِي الْجَاشِ فِيهِ قَصْفُ مَاتَ بِالْجَبَنِ وَأَوْدَى بِالْحَذَرُ^{١٣}

* * *

لَامَهُ النَّاسُ وَمَا أَظْلَمَهُم وَقَلِيلٌ مَنْ تَغَاضَى أَوْ عَذَرَ
وَلَقَدْ أَبْلَاكَ عَذْرًا حَسَنًا مُرْتَدِي الْأَكْفَانِ مُلْقَى فِي الْحَفْرِ
قَالَ نَاسٌ صَرَعَةً مِنْ قَدَرٍ وَقَدِيمًا ظَلَمَ النَّاسُ الْقَدَرُ
وَيَقُولُ الطَّبُّ بَلْ مِنْ جِنَّةٍ وَرَأَيْتُ الْعَقْلَ فِي النَّاسِ نَذَرُ^{١٤}
وَيَقُولُونَ جَفَاءً رَاعَهُ مِنْ أَبٍ أَعْلَظَ قَلْبًا مِنْ حَبَرُ^{١٥}

^٧ الحدث: الشاب. ويذر: يترك.

^٨ عاف: كره. وبناء: من قولهم بنى بأهله؛ أي رُفَّت إليه. خطب: من خطبة الزواج. أهدى: أعطى الهدية. مهر: أعطى المهر.

^٩ المختضر: أي الميت في صباه، من اختضار الكلاء؛ أي قطعه وهو أخضر.

^{١٠} ضاق بالشيء ذرعًا: ضعفت عنه طاقته، ولم يجد مخلصًا من مكروهه. والشفاء: حرف كل شيء.

^{١١} شارف الشيء: قاربته ودنا منه. وغمرة الشيء: شدته ومزدهمه. والغدر: جمع غدير، وهو النهر، أو القطعة من الماء يغادرها السيل.

^{١٢} الصنديد: السيد الشجاع.

^{١٣} الواهي: الضعيف المتداعي إلى السقوط. الجأش: نفس الإنسان، أو هو رواع القلب عند الفزع. والقصف: الخور والضعف. أودى: هلك.

^{١٤} الجنَّة: الجنون.

^{١٥} الجفاء: غلظة العشرة.

وامتحان صَعَّبَتْهُ وَطْأَةً
لا أرى إلا نظامًا فاسدًا
من ضحاياها وما أكثرها!
ما رأى في العيش شيئًا سرَّهُ
نزل العيش فلم ينزل سوى
ونهار ليس فيه غِبْطَةٌ
ودُروسٍ لم يُذَلِّ قطفها
ولقد تُنْهَكُه نهْكَ الضَّنَى
ويُلاقِي نَصَبًا ممَّا انطوى
إخوةً ما جمَعَتْهم رَحِمٌ
لم يُرْفِرِفْ مَلَكُ الحُبِّ على
خَلَقَ اللّهُ من الحُبِّ الورى

شَدَّهَا فِي الْعِلْمِ أَسْتَاذٌ نَكِرٌ^{١٦}
فَكَّكَ الْعِلْمَ وَأَوْدَى بِالْأُسْرِ؟
ذَلِكَ الْكَارِهُ فِي غَضِّ الْعُمُرِ^{١٧}
وَأَخَفُ الْعِيشِ مَا سَاءَ وَسَرُّ
شَعْبَةِ الْهَمِّ وَبَيْدَاءِ الْفِكْرِ^{١٨}
وَلِيَالٍ لَيْسَ فِيهِنَّ سَمَرٌ^{١٩}
عَالِمٌ إِنْ نَطَقَ الدَّرْسَ سَحَرٌ^{٢٠}
ضَرَّةٌ مَنَظَرُهَا سُقْمٌ وَضُرٌّ^{٢١}
فِي بَنِي الْعَلَاتِ مِنْ ضِغْنٍ وَشَرٌّ^{٢٢}
بَعْضُهُمْ يَمْشُونَ لِلْبَعْضِ الْخَمَرُ^{٢٣}
أَبْوِيهِ أَوْ يُبَارِكُ فِي الثَّمَرِ
وَبَنَى الْمُلْكَ عَلَيْهِ وَعَمَرُ

* * *

نشأ الخير رُويْدًا قَتَلَكُمْ
لو عصيْتُمْ كاذِبَ اليأسِ فما

فِي الصَّبَا النَّفْسَ ضَلَالٌ وَخُسْرٌ^{٢٤}
فِي صِبَاهَا يَنْحَرُ النَّفْسَ الضَّجَرُ^{٢٥}

^{١٦} النَّكِرُ: الْفَطِنُ.

^{١٧} غَضُّ الْعُمُرِ: أَيِ الْعَمَرِ الْغَضُّ النَّاضِرُ.

^{١٨} شَعْبَةُ الْهَمِّ: الطَّائِفَةُ مِنْهُ.

^{١٩} الْغِبْطَةُ: حُسْنُ الْحَالِ. وَالسَمَرُ: الْحَدِيثُ فِي اللَّيْلِ.

^{٢٠} يَذَلُّ: مِنْ ذَلَّ الشَّيْءُ جَعَلَهُ هَيِّئًا. وَقُطِفَ الثَّمَرُ: جَنِيَهُ وَجَمَعَهُ، وَقُطِفَ الشَّيْءُ: أَخَذَهُ بِسُرْعَةٍ.

^{٢١} تُنْهَكُهُ: تُضْنِيهِ. وَالضَّنَى: الْمَرَضُ وَالْهَزَالُ. وَضَرَّةُ الْمَرْأَةِ: امْرَأَةُ زَوْجِهَا، وَهِيَ ضَرَّاتَانِ، وَهِيَ ضَرَائِرُ.

^{٢٢} بَنُو الْعَلَاتِ، بَفَتْحِ الْعَيْنِ: هُمُ بَنُو أُمَهَاتٍ شَتَّى مِنْ رَجُلٍ وَاحِدٍ. وَالضِّغْنُ: الْحَقْدُ.

^{٢٣} بَعْضُهُمْ يَمْشُونَ لِلْبَعْضِ الْخَمَرُ، بَفَتْحِ الْخَاءِ: أَيِ يَخْتَلُونَهُمْ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: هُوَ يَدْبُ لَهُ الضَّرَاءُ وَيَمْشِي لَهُ الْخَمَرُ.

^{٢٤} نَشَأَ الْخَيْرُ: أَيِ يَا نَشَأَ الْخَيْرِ. وَالنَّشَأُ، بَفَتْحِ الشَّيْنِ: جَمْعُ نَشَأَ؛ بِسُكُونِهَا: وَهُوَ النَّسْلُ. وَرُويْدًا: أَيِ مَهَلًا لِتَسْمَعُوا مَا أَقُولُ. وَالْخُسْرُ، بِضَمِّ السَّيْنِ: الْخُسْرَانُ.

^{٢٥} لَوْ عَصَيْتُمْ كَاذِبَ الْيَأْسِ: حُضُّ، مَعْنَاهُ اعْصُوا كَاذِبَ الْيَأْسِ.

تُضْمِرُ اليَأْسَ من الدنيا وما
فِيمَ تَجْنُونَ على آبائكم
وتعقون بلادًا لم تزلْ
فمُصَابُ المُلْكِ في شُبَّانِهِ
ليس يدري أحدٌ منكم بما
رُبَّ طفلٍ برَّحَ البُؤْسُ بهِ
وصبِّيْ أَزْرَتِ الدُّنْيَا بهِ
ورفيعٍ لم يُسَوِّدْهُ أبٌ
فلكُ جَارٍ ودُنْيَا لم يدُم
رُوحُوا القلبَ بلذاتِ الصِّبَا
عالجوا الحكمةَ واستشفوا بها
واقرءوا آدابَ مَنْ قبلكم
واغنموا ما سَخَّرَ الله لكم
واطلبوا العِلْمَ لِذَاتِ العِلْمِ لا
كَمْ غُلَامٍ خَامِلٍ في درسهِ
ومُجِدٍّ فيه أَمْسَى خَامِلًا

عندها عن حادثِ الدُّنْيَا حَبَرَ
أَلَمَ التُّكُلِ شديدًا في الكِبَرِ
بينَ إشفاقٍ عليكم وحدَرِ
كُمُصَابِ الأَرْضِ في الزرعِ النَّضْرِ
كان يُعْطَى لو تَأَنَّى وانتظرُ
مُطَرَّ الخَيْرِ فَتَيًّا وَمَطَرُ^{٢٦}
شَبَّ بين العزِّ فيها والخطرُ^{٢٧}
مَنْ أبو الشمسِ وَمَنْ جُدُّ القَمَرِ
عندها السَّعْدُ ولا النَحْسُ استمرُ
فكفى الشَّيْبُ مجالًا للكَدَرِ^{٢٨}
وانشدوا ما ضلَّ منها في السَّيْرِ^{٢٩}
رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مَنْ غَبَرَ^{٣٠}
من جَمَالٍ في المعاني والصُّورِ^{٣١}
لشهاداتٍ وآرَابٍ أُخِرَ^{٣٢}
صارَ بحرَ العلمِ أستاذَ العُصْرِ
ليس فيمَنْ غَابَ أو فيمَنْ حَضَرَ

* * *

^{٢٦} برَّحَ به: جهَّده وآذاه. ومُطَرَّ الخَيْر، بضم الميم: أي أصابه كما يُصيب المطر الأرض. ومَطَر، بفتح الميم: أي صدر عنه الخير كالمنطق.

^{٢٧} أَزْرَت به: تهاونت.

^{٢٨} رُوحُوا القلب: أي أنعشوه وطبَّبوه.

^{٢٩} الحكمة: صواب الأمر وسداده، ووضع الشيء في موضعه. السير، بكسر السين: جمع سيرة، وهي للإنسان طريقة سلوكه بين الناس.

^{٣٠} مَنْ غَبَرَ: مَنْ مَضَى.

^{٣١} اغنموا: من غنم الشيء؛ أي فاز به من غير مشقة، وأخذَه بغير بذل.

^{٣٢} آرَاب: جمع أَرَب، وهو الحاجة.

أَسَخَطَ اللَّهُ وَلَمْ يُرِضِ الْبَشَرُ	قَاتِلُ النَّفْسِ وَلَوْ كَانَتْ لَهُ
جَعَلَ الْوَرْدَ بِإِذْنِ وَالصَّدْرُ ^{٣٣}	سَاحَةً الْعَيْشِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي
قَامَ بِالْمَوْتِ عَلَيْهَا وَقَهَرُ	لَا تَمُوتُ النَّفْسُ إِلَّا بِاسْمِهِ
سَاعَةَ الرَّوْعِ إِذَا الْجَمْعُ اشْتَجَرَ ^{٣٤}	إِنَّمَا يَسْمَحُ بِالرُّوحِ الْفَتَى
مَنْ يَعِشْ يُحْمَدُ وَمَنْ مَاتَ أُجِرُ	فَهَنَّاكَ الْأَجْرُ وَالْفَخْرُ مَعًا

^{٣٣} الورد: بلوغ الماء. والصدر: الرجوع عنه.

^{٣٤} الروع: الفرع، ويأتي بمعنى الحرب، وهو المراد هنا.

عبث المشيب

ظلمَ الرجالُ نساءَهم وتَعَسَّفوا
يا معشرَ الكُتَّابِ أينَ بلاؤُكم
أيَهمُّكم عبثٌ وليس يَهمُّكم
عندي على ضِيمِ الحرائرِ بينكم
مِمَّا رأيتُ وما عَلِمْتُ مسافرًا
فيه مجالٌ للكلامِ ومَذهبٌ
هل للنساءِ بمصرَ من أنصارٍ^١
أينَ البَيانُ وصائبُ الأفكارِ^٢
بَنِيانُ أخلاقٍ بغيرِ جدارٍ^٣
نَبأٌ يُثيرُ ضَمائرَ الأحرارِ
والعِلْمُ بعضُ فوائِدِ الأسفارِ
ليراعَ «باحثة» و«ستُ الدارِ»^٤

* * *

كثُرَت على دارِ السعادةِ زُمرةٌ
يتزَوَّجون على نساءٍ تحتَهم
مِنَ مصرَ أهلُ مزارِعٍ وَيَسارٍ^٥
لا صاحباتِ بَغى ولا بِشَرارٍ^٦

^١ تَعَسَّفوا: ظلّموا، أو لم يُنصِفوا.

^٢ البلاء: الاختبار.

^٣ العبث: اللعب. الجدار: الحائط.

^٤ الحرائر: جمع حُرّة. الضمائر: جمع ضمير، وهو قلب الإنسان وباطنه.

^٥ باحثة: هي المرحومة ملك ناصف، وكانت قد اتخذت لنفسها اسم «باحثة البادية» تُذيلُ به مقالاتُ كانت تُذيعها بواسطة الصحف في شئون اجتماعية ونسوية. وست الدار: اسمُ كانت تُذيلُ به مقالات في الصحف أيضًا.

^٦ دار السعادة: هي الآستانة. الزمرة: الجماعة متفرقة. اليسار: الغنى.

^٧ البغى والبغاء، مقصور وممدود: الزنى.

شاطرَنَهم نَعَم الصِّبا وسَقَيْنَهم
الوالداتُ بَنِيهمُ وبناتَهم
الصَّابراتُ لضرَّةٍ ومضرَّةٍ
دهراً بكأْسٍ للسُّرورِ عُقارِ^٨
الحائِطاتُ العِرضُ كالأسوارِ^٩
المُحيياتُ الليلَ بالأذكارِ

* * *

مِن كُلِّ ذي سبَعينِ يَكْتُمُ شَيبَهُ
يَأبَى لَهُ فِي الشَّيْبِ غَيْرَ سَفَاهَةٍ
ما حَلَّه عَطْفٌ ولا رِفْقٌ ولا
كم ناهِدٍ فِي اللّاعِباتِ صَغِيرَةٍ
مَهما غدا أو راح فِي جِولاتِهِ
شُغْلُ المَشايخِ بِالمَتابِ وشُغْلُهُ
فِي كُلِّ عامٍ هُمٌّ فِي طُفْلَةٍ
يَرشُو عَلَيْها الوالِدَينِ ثَلاتَةَ
المالِ حَلَلٍ كُلِّ غَيرِ مُحَلَّلٍ
سَحَرَ القُلُوبَ فَرَبَّ أُمَّ قَلْبُها
والشَّيْبُ فِي فَوَدِيهِ ضَوْءُ نَهارِ^{١٠}
قَلْبٌ صَغِيرُ الهَمِّ والأَوطارِ^{١١}
بَرٌّ بِأَهْلِ أو هَوًى لَدِيارِ
أَلهَتِهِ عَن حَفْدٍ بِمَصرِ صِغارِ^{١٢}
دَفَعَتِهِ خاطِبَةً إِلى سَمسارِ^{١٣}
بِتَبَدُّلِ الأَزْواجِ والأَصْهارِ^{١٤}
كَالشَّمْسِ إِن حُطِبَتِ فَلِلْأَقْمارِ^{١٥}
لَم أَدِرْ أَيُّهُمُ الغَلِيظُ الضَّارِ
حَتَّى زَواجِ الشَّيْبِ بِالأَبْكارِ
مِن سِحْرِهِ حَجَرٌ مِنَ الأَحْجارِ

^٨ شاطرَنَهم: من شاطره الشيء؛ أي ناصفه إيَّاه. والعقار: الخمر؛ لأنها تعقر العقل، أو لأنها تُعاقِر البدن؛ أي تُلزِمُه.

^٩ الوالدات: أي اللاتي هن والدات أبنائهن وبناتهن. والحائِطات: من حاط الشيء؛ أي حفظه وتعهَّده. والعِرض: هو ما يصونه الإنسان من نفسه، أو سلفه، أو مَنْ يلزمه أمره، أو هو محلُّ المدح والذمِّ من الإنسان. والأسوار: جمع سور.

^{١٠} الفودان: تننية فود، وهو معظم الرأس مما يلي الأذن، وقيل هو ناصية الرأس.

^{١١} الهَمُّ: ما يهْمُ به الإنسان في نفسه، ويقال رجلٌ هُمٌّ؛ أي ذو همة يطلب معالي الأمور. الأوطار: جمع وطر، وهو الحاجة.

^{١٢} الناهد: الجارية ارتفع ثديها. والحفد، بفتح الفاء: جمع حافد، وهو ولد الولد كالحفيد.

^{١٣} الخاطبة: مَنْ تتوسط في تزويج الرجال من النساء.

^{١٤} المَشايخ: أي مَنْ أدركتهم الشيخوخة. والمتاب: التوبة.

^{١٥} الطُّفْلَةُ، بفتح الطاء: الرِّخصة الناعمة.

دَفَعَتْ بُنْيَتَهَا لِأَشَامٍ مَضَجَّ
وتعلَّلت بالشرع قُلْتُ كَذِبَتِهِ
ما زُوِّجَتْ تلك الفتاة وإنما
بعضُ الزواج مُذَمَّمٌ ما بالزنى
فَتَشَّتْ لَمْ أَرْ فِي الزَّوْجِ كِفَاءَةً
أَسْفَى عَلَى تِلْكَ الْمَحَاسِنِ كُلَّمَا
إِنَّ الْحِجَابَ عَلَى «فُرُوقٍ» جَنَّةٌ
وعلى وجوه كالأهْلَةِ رُوِّعَتْ
وعلى الذَّوَابِّ وَهِيَ مِسْكٌ خُوِلَتْ
وعلى الشَّفَاهِ الْمُحْيِيَّاتِ أَمَاتَهَا
وعلى الْمَجَالِسِ فَوْقَ كُلِّ خَمِيلَةٍ
تَدْنُو الزَّوَارِقُ مِنْهُ تُنْزِلُ جَوْذَرًا
يَرْفُلْنَ فِي أُرْرِ الْحَرِيرِ تَنْوَعَتْ
الطَّاهِرَاتُ اللَّحْظُ أَمْثَالُ الْمَهَا
الدَّهْرُ فَرَّقَ شَمْلَهُنَّ فَمُرَّ بِهِ

وَرَمَتْ بِهَا فِي غُرْبَةٍ وَإِسَارٍ^{١٦}
ما كان شرعُ الله بالجزارِ^{١٧}
بِيعَ الصُّبَا وَالْحُسْنَ بِالْدِينَارِ
وَالرَّقُّ إِنْ قَيْسًا بِهِ مِنْ عَارِ
كَكْفَاءَةِ الْأَزْوَاجِ فِي الْأَعْمَارِ
نُقِلَتْ مِنْ «الْبَالِي» إِلَى الدَّوَّارِ
وَحِجَابُ مَصْرَ وَرَيْفُهَا مِنْ نَارِ
بَعْدَ السَّفُورِ بِبَرْقِعٍ وَخِمَارٍ^{١٨}
عند العناق بِمِثْلِ ذَوْبِ الْقَارِ^{١٩}
رِيحُ الشَّيْخِ تَهْبُّ فِي الْأَسْحَارِ
بَيْنَ الْجِبَالِ وَشَاطِئِ مِحْبَارٍ^{٢٠}
بِقِلَادَةٍ أَوْ شَادِنًا بِسَوَارٍ^{٢١}
أَلَوَانُهُ كَالزَّهْرِ فِي آذَارٍ^{٢٢}
الناطقاتُ الْجَرَسُ كَالْأَوْتَارِ^{٢٣}
يَا رَبِّ تَجْمَعُهُ يَدُ الْمَقْدَارِ

^{١٦} أشام مضجع: أي أشد المضاجع شؤماً. والإسار: الأسر.

^{١٧} تعلل بالشيء: تلهى به واكتفى. وكذبت: أي كذبت عليه.

^{١٨} وعلى وجوه: أي وأسفى على وجوه. والأهلة: جمع هلال. والخمار، بكسر الخاء: ما تغطي به المرأة رأسها.

^{١٩} الذوائب: جمع ذؤابة، وهي الناصية. والقار: قيل هو ما يُسمى بالزفت.

^{٢٠} الخميعة: الشجر الكثيف اللتف، وقيل الموضع الكثير الشجر. والمحبار: الأرض السريعة النبات الحسنة.

^{٢١} الجؤذر: ولد البقرة الوحشية، تُشَبَّه به الحسان لجمال عينيه. والشادن: ولد الظبية.

^{٢٢} يرفلن: من رفل في ثيابه؛ أي أطالها وجَرَّها متبخترًا. والأزر: جمع إزار، وهو كل ما سترك. وآذار: الشهر الثالث من السنة المسيحية.

^{٢٣} المها: جمع مهاة، وهي البقرة الوحشية. والجرس: الصوت.

أبو الهول^١

أبا الهول طالَ عليك العُصُرُ وبُلِّغْتَ في الأرضِ أقصى العُمُرُ^٢
فيا لِدَةَ الدَّهْرِ لا الدَّهْرُ شَبَّ ولا أنتَ جاوزتَ حدَّ الصَّغَرِ^٣
إِلَامَ رُكُوبِكَ مَتَنَ الرِّمالِ لِطَيِّ الْأَصِيلِ وَجَوِبِ السَّحَرِ^٤
تُسَافِرُ مُنْتَظِلًا في القُرُونِ فأَيَّانَ تُلْقِي غُبَارَ السَّفَرِ
أَبِينِكَ عَهْدٌ وَبَيْنَ الْجِبَالِ تزولان في المَوعِدِ المُنتَظَرِ^٥

^١ رُفِعَ الستار في مسرح حديقة الأزيكية يوم افتتاحه عن تمثال أبي الهول، يُناجيه رجل بهذه القصيدة.

^٢ طال عليك العصر: العُصُرُ والعِصْرُ والعُصْرُ: الدَّهْرُ، فالعُصْرُ هنا مفرد لا جمع، ومعنى طول الدهر على أبي الهول أنه عُمُرُ أعمارًا طوَالًا. وقد أوضح ذلك مع زيادة في التوكيد بقوله: وبُلِّغْتَ في الأرضِ أقصى العمر. والعُمُرُ، بضم العين والميم: لغة في العُمُر.

^٣ فيا لِدَةَ الدَّهْرِ: فيا أبا الدَّهْرِ وقرينه، فكأنك والدَّهْرُ توءمان، خُلِقْتما معًا في أوان. والبيت كما ترى آية في الإبداع وروعة البيان. ولا أنتَ جاوزتَ حدَّ الصغر: أي برغم أنك بلغت في الأرضِ أقصى العمر.

^٤ إِلَامَ رُكُوبِكَ: إلى: من حروف الجر، دخلت على «ما» الاستفهامية، فبُنِيَتْ بناء كلمة واحدة، وسقطت الألف من «ما» طلبًا للخفة، واعتدًا بإلى الموصولة بها، وكذلك يفعلون في بَمَ وفيَمَ ومِمَّ، ولا يفعلون ذلك بما الخبرية، ومن العرب مَنْ يَقف على مثل هذا بالهاء، فيقولون: إلامه وعَمَهَ وفيمه ولمَه. هذا وإنه لَتصويرٌ شعريٌّ بديعٌ رائع؛ تصوير أبي الهول راكبًا متن الرمال، يطوي الليل والنهار، ويسافر متنقلًا في القرون والأدهار. وَجَوِبُ: في معنى طي.

^٥ في الموعِدِ المنتَظَرِ: يوم يزول كل شيء؛ أي في اليوم الآخر.

أبا الهول ماذا وراء البقاء إذا ما تطاول غير الضجر^٦
عجبت للقمآن في حرصه على لبْد والنُسر الأخر^٧
وشكوى لبيدٍ لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر^٨

^٦ ماذا وراء البقاء: يقول ما وراء البقاء المتطاول غير السأم. قال زهير بن أبي سلمى:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

^٧ لقمان: هو لقمان بن عاديء، وتزعم العرب أنه الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستسقي لها، فلما أهلكوا، خيّر لقمان بين بقاء سبع بقرات سمر، من أظب عفر، في جبلٍ وعر، لا يمسه القطر، أو بقاء سبعة أنسر، كلما أهلك نسر خلف بعده نسر؛ فاستحقر الأبقار وآثر النسر. فلما لم يبق غير السابع قال ابنُ أخٍ له: يا عم، ما بقي من عمرك إلا عمر هذا. فقال لقمان: هذا لبْد. ولبد، بلسانهم: الدهر. قالوا: وكان يأخذ فرخ النسر، فيجعله في حوبة في الجبل الذي هو في أصله، فيعيش الفرخ خمسمائة سنة، أو أقل أو أكثر، فإذا مات أخذ آخر مكانه، حتى هلكت كلها إلا السابع، أخذه فوضعه في ذلك الوضع وسماه لبداً، وكان أطولها عمراً؛ فضربت العرب به المثل، فقالوا: «طال الأبد على لبْد». قال الأعشى:

وأنت الذي ألهيت قتيلاً بكأسه ولقمان إذ خيّر لقمان في العمر
لنفسك أن تختار سبعة أنسر إذا ما مضى نسر خلوت إلى نسر
فعمّر حتى خال أن نسوره خلودٌ وهل تبقى النفوس على الدهر؟

فعاش لقمان — كما زعموا — ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة، وقال النابغة:

أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبْد

وهذا لقمان بن عاديء، غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم.

^٨ وشكوى لبيد: أي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة ... إلخ، وهو لبيد بن ربيعة، الشاعر الجاهلي الإسلامي المخضرم، صاحب المعلقة المشهورة التي أولها:

عفت الديار محلها فمقامها بيمنى تأبّد غولها فرجامها

كان لبيد من المعمرين، روي أنه مات وهو ابن مائة وأربعين، وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومائة أول خلافة معاوية، أما شكواه التي ألح إليها، فذلك حيث يقول:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟

ولو وُجِدَتْ فيك يا ابنَ الصِّفَاةِ لحقَّتْ بِصَانِعِكَ الْمُقْتَدِرُ^٩
فإنَّ الحَيَاةَ تَفُلُّ الحَدِيدَ إذا لبستهُ وتُبْلِي الحَجَرَ^{١٠}

* * *

أبا الهول ما أنتَ في المَعْضَلَاتِ لقد ضَلَّتْ السُّبُلَ فيكَ الْفَكْرُ^{١١}
تَحَيَّرْتَ البَدُو مَاذَا تَكُونُ وضَلَّتْ بِوَادِي الظُّنُونِ الْحَضَرُ^{١٢}
فكُنْتَ لَهُمْ صُورَةَ الْعُنْفُوانِ وكُنْتَ مِثَالَ الْحِجَا وَالْبَصَرُ^{١٣}
وَسِرُّكَ فِي حُجْبِهِ كَلِمَا أَطَلَّتْ عَلَيْهِ الظُّنُونُ اسْتَتَرَ^{١٤}
وما راعهم غيرُ رَأْسِ الرَّجَالِ على هَيْكَلٍ مِنْ ذَوَاتِ الظُّفْرِ
ولو صُورُوا مِنْ نَوَاحِي الطَّبَاعِ تَوَالُوا عَلَيْكَ سِبَاعَ الصُّورِ^{١٥}

يقول: إذا لم يكن وراء البقاء المتطاوِل إلا الضجر، فإني أعجب للقمان في حرصه على أن تطول حياته. وللبيد الذي إن ملَّ الحياة وسئم من طولها، فإنه لا محالة كان أكثر شكاة إذا هي لم تطل؛ لأنَّ حبَّ الحياة جبلةٌ مركوزة في الطباع.

^٩ وُجِدَتْ: أي الحياة. يا ابن الصفاة: الحجر الصلد الذي لا يُنبت شيئاً. وفي المثل: فلان ما تندى صفاته. وفي الحديث: لا تفرح لهم صفاة. أي لا ينالهم أحد بسوء. وأبو الهول ابن الصفاة؛ لأنه من الحجر. لحقت ... إلخ: أي لأدرك الموت.

^{١٠} فإن الحياة: من المعاني المبتكرة التي لا نظن صاحب الديوان قد سبق إليها على هذا الوجه.

^{١١} ما أنت في المعضلات: خبرني أي معضلة أنت في المعضلات وأي معمى!

^{١٢} تَحَيَّرْتَ: يقول حار الناس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي.

^{١٣} صورة العنقوان: لما ينطوي عليه جسمك الذي صُوِّر على صورة الأسد من معاني القوة. مثال الحجا والبصر: لما ينمُّ عنه وجهك ورأسك المصوران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور.

^{١٤} يقول: ومع ذلك لا يزال سرك مكتئناً في حجبهِ، والناس من أمرك في ظلام.

^{١٥} ولو صُوروا: أي ما كان ينبغي أن يُروَّع النَّاسُ منك أن كان رأسك على هيكَل من ذوات الظفر؛ لأنَّ الناس لو صُوروا من نواحي شيمهم وطباعهم لتوالوا عليك كأنهم وحوش. وهذا معنى حسنٌ بدیع، وقد زاده حُسناً وأكَّده بقوله: فیا رَبِّ وجهٍ كصافي النمير.

فيا رَبِّ وجهِ كصافي النميرِ تشابهَ حامِلِهِ والنَّمِرِ^{١٦}

^{١٦} النمر: الماء الناجع في الري، أو النامي، أو الكثير. والنمر: هو ذلك الحيوان المعروف بمكره وخبثه وشراسته. وهذا البيت من جوامع الكلم وروائع الحكم، ولا يخفى ما فيه من الجناس بين النمر وبين النمر، وللشعراء فيما يتصل بهذا المعنى ويقاربه ما يُخطئه العدُّ والإحصاء، فمن ذلك ما يقول القائل:

لا يَغُرُّكَ ما ترى من أناسٍ إن تحت الضلوع داءٌ دويًّا

ويقول الأبيوردي:

يلقاك والعسلُ المُصَفَّى يُجتنى من قوله ومن الفعالِ العلقمُ
يُبدى الهوى ويثور — إن عرضت له فرص — عليك كما يثور الأرقمُ

ويقول الشريف الرضي:

لا تجعلَنَّ دليلَ المرءِ صورته كم مخبرٍ سمجٍ عن منظرٍ حسنٍ

ويقول:

وكم صاحبٍ كالرمح زاعت كُعبه أبى بعد طول العمر أن يتقوما
تقبَلْتُ منه ظاهراً مُتَبَلِّجاً وأدمج دوني باطناً مُتَجَهِّماً
ولو أنني كَشَفْتُهُ عن ضميره أَقَمْتُ على ما بيننا اليومَ مأتماً

وقال آخر:

يُعطيك ودًّا صادقاً بلسانه ويُجِنُّ تحت ضلوعه ألوانا

وقال أبو فراس:

وقد صار هذا الناس إلا أَقلُّهم ذئاباً على أجسادهنَّ ثيابُ

وقال آخر:

ظننت بهم خيراً فلماً بلوتهم نزلت بوابٍ منهم غير ذي زرع

أبا الهول وَيَحْك لا يُسْتَقْلُ مع الدَّهْر شيءٌ ولا يُحْتَقَرُ^{١٧}
تهزَّأت دَهْرًا بَدِيكَ الصَّبَاحِ فنَقَرَ عَيْنِيكَ فيما نَقَرُ^{١٨}
أَسال البِياضَ وَسَلَّ السَّوَادَ وأَوَعَلَ مِنْقارُهُ فِي الحُقَرِ

ويقول أبو تمام:

إن شئت أن يسودَّ ظنك كله فأَجَلُهُ فِي هذا السَّوَادِ الأعْظَمِ
ليس الصديق بَمَنْ يُعِيرُكَ ظاهراً متبسِّمًا عن باطنٍ متجهمٍ

^{١٧} لا يُسْتَقْلُ: لا يُعَدُّ قَلِيلًا. وهذا البيت كالتمهيد لما بعده.

^{١٨} ديك الصباح: يريد الزمن. والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحية صياحها فيه معروفة، وإنه لَتَخَيَّلُ شعريٌّ جميل. ومن بارع حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويهه خلقه، حتى أسال بياض عَيْنَيْهِ وَسَلَّ سَوادَهُما، هو هُزءُ أَبِي الهول به، وسخريته منه، وعدم اكتراثه له، ثم تعبيره عن الدَّهْر بديك الصباح. هذا، ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول إنه ورد في بعض الآثار: «لا تسبوا الديكة؛ فإنها تدعو إلى الصلاة.» ولابن المعتز:

بَشْرٌ بالصَّبحِ هاتِفٌ هَتَفًا هاج بالليل بعدما انتصَفَا
مُذَكَّرٌ بالصُّبُوحِ هاج بنا كخاطبٍ فوق منبرٍ وقفا
صَفَّقَ إِمَّا ارتِياحَةً لِسَنَّا الـ ففجر وإمَّا على الدُّجَى أسَفَا

وللمعري:

أيا ديكٌ عُدَّتْ من أياديك صَبِيحَةً بعثتَ بها مَيِّتَ الكرى وَهُوَ نائمٌ
هتفتَ فقال الناسُ أوسُ بنُ مَعْيَرٍ أو ابن رباحٍ بالحلَّةِ قائمٌ

إلى أن يقول:

عليك ثيابٌ خاطَها اللهُ قادِرًا بها رَمَمْتَكَ العاطفاتُ الروائِمُ
وتاجك معقود كأنك هرمز يُبَاهِي به أَملاكه وَيُؤائِمُ
وعينك سقطت ما خبا عند قرّة كلمعةٍ برقي ما لها الدهرُ شائِمُ
وما زلتَ للدين القويم دعامة إذا قلقَت من حاملِها الدعائمُ

فَعُدَّتْ كَأَنَّكَ ذُو الْمَحْبِسِينَ قَطِيعَ الْقِيَامِ سَلِيبَ الْبَصْرِ^{١٩}
كَأَنَّ الرِّمَالَ عَلَى جَانِبَيْكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ ذَنْبُ الْبَشْرِ
كَأَنَّكَ فِيهَا لَوَاءُ الْقَضَاءِ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ دِيدَانُ الْقَدَرِ^{٢٠}
كَأَنَّكَ صَاحِبُ رَمْلٍ يَرَى خَبَايَا الْغُيُوبِ خِلَالَ السَّطْرِ^{٢١}

* * *

أَبَا الْهَوْلِ أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَانِ نَجِيُّ الْأَوَانِ سَمِيرُ الْعُصْرِ^{٢٢}
بَسَطْتَ ذَرَاعِيكَ مِنْ آدَمَ وَوَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ^{٢٣}
تُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهْلُ وَتُوفِّي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضِرُ^{٢٤}
فَعِينُ إِلَى مَنْ بَدَا لِلْوُجُودِ وَأُخْرَى مُشْيِعَةً مَنْ غَبَرَ^{٢٥}
فَحَدَّثَ فَقَدْ يُهْتَدَى بِالْحَدِيثِ وَخَبَّرَ فَقَدْ يُوتَسَى بِالْخَبَرِ^{٢٦}

أوس بن معير: هو مؤذن رسول الله بمكة بعد الفتح. وابن رباح: هو بلال، كان يؤذن لرسول الله سقراً وحضراً. ورثمتك: عطفت عليك ولزمتك. ويوائم: يوافق ويلائم. والسقط: ما سقط من النار بين الزندين قبل استحكام الوري. والقرة: البرد.

^{١٩} المحبسین: الحبس الموضع الذي يُحبس فيه، وكان يقال عن أبي العلاء المعري: رهين المحبسین؛ أي رهين عماه وبيته؛ فكأنه من عماه في محبس، وكذلك أبو الهول، عدّه شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه من عماه وسكونه في محبسین.

^{٢٠} ديدبان: فارسية معربة، أصلها ديدة بان، ومعنى ديدة العين، وبان ذو؛ أي الرقيب والعين، ومعناها الخاص: الجندي المكلف بالحراسة.

^{٢١} السَّطْرُ: السطر، والسطر الصف من الكتاب والشجر ونحوهما. ومعنى البيت ظاهر.

^{٢٢} نَجِيُّ الْأَوَانِ: النجى، بوزن فعيل، الذي تُسأَرُه، وفي الحديث: «اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيّك». وهو المناجي المُحدَّث للإنسان.

^{٢٣} من آدم: أي من قديم القديم. والزمر: جمع زمرة؛ الجماعة من الناس، والمراد هنا الناس جميعاً.

^{٢٤} يستهل: يعني يُقدِّم على الدنيا، من استهل الصبي بالبكاء؛ أي رفع صوته وصاح عند الولادة. ويُحتضر: حُضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت.

^{٢٥} وأُخْرَى مُشْيِعَةً مَنْ غِبَر: مَنْ مَضَى. وإنَّ هذا البيت لَمْشَبَع من الروعة والجلال.

^{٢٦} فحدَّث: هذا البيت هو كالمداخل لما بعده.

ألم تبُلُ فرعونَ في عزِّه إلى الشمس مُعتزِّياً والقمر^{٢٧}
 ظليلَ الحضارةِ في الأولين^{٢٨} رفيعَ البناءِ جليلَ الأثر^{٢٩}
 يؤسِّسُ في الأرض للغابرين^{٣٠} ويغرسُ للآخرين الثمر^{٣١}
 وراعك ما راعَ من خيلٍ قمبيز زَ ترمي سَنابكُها بالشرز^{٣٢}

^{٢٧} ألم تبُلُ فرعون: بلاه يبلوه بلواً وابتلاء أي جرَّبه واختبره. وفرعون: لقب يُطلق على كل من ولي مَلِك مصر، كالنجاشي للملك الحبشة، وقيصِر للملك الرومان، وفرعون أصلها في الهيروغليفية مُركَّبة من «بي» وهي أداة التعريف كأل، و«راع» أي الشمس، فتكون كلمة واحدة، و«راع» أو «راهو» معبودٌ قوي وحاكمٌ جبار، يقاتل احتفاظاً بالحياة وإبقاءً على الكون، ومن هنا كان العتوُّ والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فرعون عند العرب؛ وإذن لا يقصد بفرعون فرعوناً مُعيَّناً، ولكن جميع فراعنة مصر، وقد ابتلاهم أبو الهول. إلى الشمس معتزِّياً: تقول ألم تبُلُ يا أبا الهول فرعون وهو في عزِّه، حتى لكأنه من العزِّ والمنعة بحيث ينطاح الشمس والقمر؛ لأنَّ مَنْ اعتزَّى إلى شيءٍ قاربَه وشاكله، وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صورة أوزيريس الشمس، وإيزيس القمر؛ لأنهما من أصنامهم، فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العز والمنعة.

^{٢٨} ظليل الحضارة: مكانٌ ظليلٌ ذو ظلٍّ دائمٍ يُستظلُّ به. يريد أن حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تُظلُّ الناس، ويرتعون في دُراها وكنفها. والحضارة، بكسر الحاء وفتحها: الإقامة في الحضر. والحضر والحضرة والحاضرة: خلاف البدو والبادية، وهي المدن والقُرى والريف؛ سُمِّيت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، قال القطامي:

فَمَنْ تَكُنَ الحضارةُ أَعَجَبَتْهُ فأَيُّ رجالِ باديةِ ترانا

وقال المتنبي:

حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية وفي البداوةِ حُسْنٌ غيرِ مجلوبٍ

ولكن الحضارة هنا بمعنى التمدن.

^{٢٩} للغابرين: الغابر من الأضداد، فيكون بمعنى الباقي، ويكون بمعنى الماضي؛ ومن ثَمَّ يكون معنى البيت: إما أن فرعون يُخلِّد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتماثيل، ويغرس للآتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها، وإما أن فرعون يؤسِّس ويغرس لهم كل ما يُجدي ويُثمر.

^{٣٠} قمبيز: هو ابن كورش الأكبر الذي أسَّس دولة الفُرس العظيمة. ومعلوم أن الفُرس من الدول التي غزَّت مصر واستولت عليها حيناً من الدهر، قال المؤرخون: أخذ الفُرس في غزو مصر أزماناً الأسرة السادسة والعشرين، وذلك حين وُلِّي الملك «أبسمتيك الثالث» أحد ملوك هذه الأسرة، فأعدَّ الفُرس لهذه

جوارفُ بالنارِ تغزو البلادَ وآونةً بالقنا المُشتجرُ
وأبصرتُ إسكندراً في المَلا قشيبَ العُلا في الشبابِ النَّضِرُ^{٣١}

الغزاة المُعدَّات الكبيرة، وجاء مَلِكهم «قمبيز» بجيش جرَّار لفتح البلاد التي طالما تأقَّت نفس أبيه «كورش» إلى إخضاعها، وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة. يقول مؤرخو الإغريق: إن أحد الجنود اليونانية، هو الذي خان مصر والمصريين، ودلَّ الفُرس على أسهل الطُّرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد، فهُوِجَت مدينة «بلوز» (الفرما) بحرًا، وزحفت الجنود الفارسية على مصر برًّا، وبعد مقاومة عنيفة جهَّتي بلوز ومنف، سقطت البلاد، وأخذ قمبيز أبسمتيك أسيرًا، وكان ذلك سنة ٥٢٥ ق.م، ثم سار قمبيز أوَّل أيامه سيرةً حسنة، وعاملَ المصريين معاملَةً طيبة، يحترم دياناتهم وتقاليدهم، ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر، وحنق على البلاد ومَن فيها، فكَرَّ على المعابد والهياكل فهدمها، وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة، وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق.م، ولمَّا ولي ملك فارس «دارا الأوَّل» زار مصر، وأراد أن يُصلِّح ما أفسده قمبيز، فأبدى احترامًا كبيرًا لديانة المصريين ومعبوداتهم، وشيَّد هيكلًا عظيمًا للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى، وعُضد التجارة، وشيَّد كثيرًا من المدارس، وفتح الخليج الموصَّل ما بين النيل والبحر الأحمر، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة «مرتون» في حربه مع الإغريق، فخرجوا عن طاعته، وطردهو الفُرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق.م، ثم غزا الفُرس مصر ثانية، وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق.م.

^{٣١} إسكندر: هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم، قال المؤرخون: بعد أن هزم الإسكندر الفُرس في واقعة أسوس، زحف على مدينة صور فأخذها عنوةً؛ وبذلك تم استيلاؤه على الشام، ثم قَدِم إلى مصر، وكان الفُرس قد استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الإسكندر. فلما وصل الإسكندر إلى «بلوز» (الفرما) سنة ٣٣٢ ق.م، رحَّب به المصريون؛ لِما سمعوه عن عدالة حكمه، ولِما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفُرس، ففتحت له مصر أبوابها، ودخلها دون عناء، حتى إن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته، وقابله في منف بترحاب؛ ومن ثم سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى، ودخل معبد آمون، ولقَّبه الكهنة بابن آمون، فاحترم ديانة المصريين وقَدَّم القرابين لمعبوداتهم، ولم يُهمل مع ذلك التقاليد الإغريقية، فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النظامية. ولمَّا رأى الإسكندر أن قرية «راقودة» — وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندرية — ذات موقع بحري مُوفَّق، أنشأ بجوارها حاضرةً جديدة له هي الإسكندرية، وبعد أن استوثق الأمر للإسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق، وكانت وفاته سنة ٣٢٣ م، وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ونيقًا، لم يَقم بمصر — كما ترى — إلا قليلًا، فذلك حيث يقول في البيت التالي:

فلم يعد في الملك عمر الزهر

تَبَلَّجَ فِي مِصْرَ إِكْلِيلُهُ فَلَـمَ يَعُدْ فِي الْمُلْكِ عُمَرَ الزَّهْرُ^{٣٢}
 وشاهدتَ قيصَرَ كيفَ استَبَدَّ وكيفَ أذلَّ بِمِصْرَ الْقَصْرُ^{٣٣}
 وكيفَ تَجَبَّرَ أَعْوَانُهُ وساقوا الخلائقَ سَوْقَ الْحُمُرِ
 وكيفَ ابْتَلَوْا بِقَلِيلِ الْعَدِيدِ من الفاتحينَ كَرِيمِ النَّفَرِ
 رَمَى تَاجَ قَيْصَرَ رَمَى الزُّجَاجِ وفَلَّ الْجُمُوعَ وَثَلَّ السُّرُرُ^{٣٤}
 فدَعَ كُلَّ طَاغِيَةٍ لِلزَّمَانِ فَإِنِ الزَّمَانَ يُقِيمُ الصَّعْرُ^{٣٥}
 رأيتَ الدِّيَانَاتِ فِي نَظْمِهَا وَحِينَ وَهَى سِلْكُهَا وَانْتَثَرُ^{٣٦}
 تُشَادُّ الْبُيُوتُ لَهَا كَالْبُرُوجِ إِذَا أَحَدَ الطَّرْفُ فِيهَا انْحَسَرُ^{٣٧}

وخلف الإسكندر على مصر البطالسة، وما زالوا بها إلى أن استولى الرومان عليها.
 ٣٢ إكليله: تاجه.

٣٣ قيصِر: أسلفنا أن قيصراً هذا لقب ملوك الرومان، قال المؤرخون: ما كادت دولة الرومان تظهر بين ممالك الأرض، حتى أخذت العلائق تنشأ بينها وبين البطالسة في مصر، ولبثت بين الدولتين مدة طويلة من أيام مجد البطالسة إلى انقراضهم، تطوّرت أثناءها في عدة أطوار؛ ابتدأت بمصادقة الرومان للبطالسة، ثم انتقلت إلى حمايتهم لهم، ثم السيطرة عليهم، ثم انتهت باستيلائهم على مصر سنة ٣٠ ق.م في عهد أغسطس، ودخلت مصر باستيلاء الرومان عليها في عهد خمولى سياسى طويل، امتد نحواً من ٦٧ سنة، لم يكن لها فيها شيءٌ يُذكر في التاريخ، بل كانت كحقلٍ لإنتاج الحبوب وتصديرها إلى رومية لسدّ أهم جزء من الخراج، وما زال الرومان بمصر حتى أدال الله منهم بالعرب سنة ٦٤١ م على يد عمرو بن العاص، فذلك حيث يقول: «وكيف ابتلوا بقليل العديد ... إلخ». القصِر: أي الأعناق، قال الشاعر:

لا تدلك الشمس إلا حذو منكبه في حومة تحتها الهاماتُ والقصِرُ

٣٤ رمى: أي هذا النفر القليل، وهم أصحاب عمرو بن العاص. وفَلَّ الجموع: هزمها. وثَلَّ السرر: كسرها. والسرر: جمع سرير، والمراد هنا العروش التي يجلس عليها القياصرة.
 ٣٥ الصعر: ميل في العنق، وانقلاب في الوجه إلى أحد الشَّقَّين، وقد صَعَّرَ خَدَّهُ أُمَالَهُ مِنَ الْكِبَرِ، قال المثلَّث:

وكنا إذا الجبار صَعَّرَ خَدَّهُ أقمنا له من رِدْته فتقوِّمًا

والزمان يُقِيمُ الصعر: يعدل الطغاة، يقال أقمت الشيء فقام؛ أي استقام.

٣٦ في نظمها وحين وهى سلكها: في حالتها قوتها وضعفها.

٣٧ انحسر: كَلَّ، والبصر يُحَسِرُ عند أقصى بلوغ النظر.

تَلَقَى أُسَاسًا وَشَمَّ الْجِبَالِ كَمَا تَتَلَقَى أَصُولُ الشَّجَرِ^{٣٨}
وَإِيزِيسُ خَلْفَ مَقَاصِيرِهَا تَخْطِي الْمُلُوكُ إِلَيْهَا السُّتُرُ^{٣٩}
تُضِيءُ عَلَى صَفَحَاتِ السَّمَاءِ وَتُشْرِقُ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا الْحَجَرُ^{٤٠}
وَأَبِيسُ فِي نِيرِهِ الْعَالَمُونَ وَبَعْضُ الْعَقَائِدِ نِيرٌ عَسِرُ^{٤١}

^{٣٨} تلاقى: تتلاقى، بحذف إحدى التاءين. يريد أنها راسخة راسوخَ الجبال.
^{٣٩} إيزيس: هي من معبودات قدماء المصريين، وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه، وأم عوروس وهاريوقراط. يرى قدماء المصريين أن إيزيس هذه وليت أمر مصر مع أخيها وزوجها أوزيريس حيناً من الدهر ازدهرت فيه الزراعة، ويؤخذ من تقاليد إيزيس أنها عندهم رمز للقمر، وأوزيريس رمز للشمس، ومن هنا يريد بـ «إيزيس» القمر. وقوله «تخطى»: أي تتخطى، بحذف إحدى التاءين.
^{٤٠} قوله «تضيء على صفحات السماء»: أي إيزيس؛ بمعنى قمر السماء الحقيقي. وقوله «وتشرق في الأرض منها الحجر»: أي القمر؛ بمعنى المعبود في الأرض. وعلى ذلك يكون في الكلام استخدام، وهو عند علماء البيان أن يراد بلفظ له معنيان أحدهما، ثم يراد بضميره الآخر، أو يراد بأحد ضميرين أحدهما، ثم بالآخر الآخر؛ فالأول كقول معوذ الحكماء:

إذا نزل السماء بأرض قومٍ رعيناه وإن كانوا غصابا

فإنه أراد بالسماء الغيث، وبضميره النبت. والثاني كقول البحري:

فسقى الغضا والساكنيه وإن هم شَبُّوه بين جوانح وقلوب

فإنه أراد بضمير الغضا في قوله «والساكنيه» المكان، وفي قوله «شَبُّوه» أي أوقدوا الشجر. والحجر: جمع حجرة، كغرفة وغرف.

^{٤١} وأبيس: هو العجل أبيس، رَوَا أن «تيفون» إله الشر تغلب أخيراً على أوزيريس إله الخير وقتله؛ فتقمصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يُمثلُ الخصب والتوليد الخلقي، وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمصته روحه هو ابن بقرة حملت به بواسطة شعاع من الشمس وشعاع من القمر، وله علامات ظاهرة في جسده، فإنه يكون أسود اللون، وفي جبهته سمة بيضاء مربعة، أو مثلثة، وصورة نسر على ظهره، وصورة خنفساء تحت لسانه، وكان الكهنة عندما يجدون العجل بعد موت سلفه، يركبون مركبة حربية ويسرون به باحتفال عظيم إلى هليوبوليس، وكانوا يضعونه فيها في هيكل يتركونه مفتوحاً للعبادة أربعين يوماً، وكان الأهالي عند موته ينوحون ويلبسون ثوب الجداد، ويضعونه في تاوويس ثمين جداً، وكانوا يقومون بالاحتفال بأيامه المقدسة كل سنة عند ارتفاع النيل، وذلك بإقامة الولائم والأفراح، وكانوا يطرحون في ذلك الوقت إناءً من الذهب في النيل لإخماد غضب التماسيح. في

تُسَاسُ بِهِ مُعْضَلَاتُ الْأُمُورِ وَيُرْجَى النِّعِيمُ وَتُخْشَى سَقَرُ
وَلَا يَشْعُرُ الْقَوْمُ إِلَّا بِهِ وَلَوْ أَخَذَتْهُ الْمُدَى مَا شَعُرُ
يَقِلُّ أَبُو الْمِسْكِ عَبْدًا لَهُ وَإِنْ صَاغَ أَحْمَدُ فِيهِ الدَّرَزُ^{٤٢}
وَأَنْسَتْ مُوسَى وَتَابَوْتُهُ وَنُورَ الْعَصَا وَالْوَصَايَا الْغُرَزُ^{٤٣}
وَعِيسَى يَلُمُّ رِذَاءَ الْحَيَاءِ وَمَرِيْمُ تَجْمَعُ ذَيْلَ الْخَفَرِ^{٤٤}
وَعَمْرُو يَسُوقُ بِمِصْرَ الصُّحَابِ وَيُزْجِي الْكِتَابَ وَيَحْدُو السُّورُ^{٤٥}
فَكَيْفَ رَأَيْتَ الْهُدَى وَالضَّلَالَ وَدُنْيَا الْمُلُوكِ وَأُخْرَى عُمَرُ^{٤٦}
وَنَبَذَ الْمُقَوْقِسَ عَهْدَ الْفُجُورِ وَأَخَذَ الْمُقَوْقِسَ عَهْدَ الْفَجَرِ^{٤٧}
وَتَبْدِيلَهُ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ بِصَبْحِ الْهَدَايَةِ لَمَّا سَفَرُ^{٤٨}
وَتَأْلِيْفَهُ الْقِبْطَ وَالْمُسْلِمِينَ كَمَا أَلْفَتْ بِالْوَلَاءِ الْأَسْرُ^{٤٩}

نيره: النير هو الخشبة المعترضة على عنق الثورين المقرونين بالحرثاة بأداتها، وهم يقولون: فلان تحت نير فلان، يريدون الخضوع والاستخاء.

^{٤٢} أبو المسك: كافور الإخشيدي. وأحمد: أبو الطيب المتنبي.

^{٤٣} التابوت: الذي وُضِعَ فِيهِ مُوسَى وَقُذِفَ بِهِ فِي النَّيْلِ. وَعَصَا مُوسَى وَمَا كَانَ مِنْهَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْوَصَايَا الْعَشْرَ، كُلُّ أُولَئِكَ مَعْرُوفٌ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى الْإِفَاضَةِ فِيهِ.

^{٤٤} وعيسى يَلُمُّ رِذَاءَ الْحَيَاءِ: يَقُولُ: وَشَاهَدْتُ عِيسَى وَهُوَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى لِلْحَيَاءِ، وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ الْعِذْرَاءِ.

^{٤٥} وعمر: يَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ إِذْ يَسُوقُ الْمُسْلِمِينَ لِفَتْحِ مِصْرَ، وَيُزْجِي كِتَابَ اللَّهِ وَأَيَاتِهِ.

^{٤٦} فكيف رأيت: يَقُولُ خَبَّرْنِي يَا أَبَا الْهَوْلِ كَيْفَ رَأَيْتَ فَرْقَ مَا بَيْنَ هُدَى الْمُسْلِمِينَ وَأُخْرَى عَمْرٍ: أَيِ دُنْيَاهِ الَّتِي كَانَتْهَا الْأُخْرَى فِي الْإِصْلَاحِ، وَمَا إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ مِثْلًا أَيَّامَ الْفَارُوقِ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ — وَمَا بَيْنَ الضَّلَالِ وَدُنْيَا الْمُلُوكِ مِنَ الْقِيَاصَةِ وَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَمَنْ إِلَيْهِمْ.

^{٤٧} المقوقس: هُوَ سَيْرُوسُ، بِطَرِيقِ الطَّائِفَةِ الْمَكَانِيَةِ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ، وَالْحَاكِمُ الْإِدَارِي بِمِصْرَ مِنْ قَبْلِ الرُّومَانِ، وَالَّذِي فَتَحَ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ مِصْرَ فِي عَهْدِهِ، وَفِي الْمَقْرِيزِيِّ: أَنَّهُ يُسَمَّى الْمَقَوْقِسَ بْنَ قَرْقَفَتَ، وَلَعَلَّهُ مُحَرَّفٌ عَنْ سَيْرُوسَ. عَهْدُ الْفُجُورِ: عَهْدُ الْإِنْحِرَافِ عَنِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ، عَهْدُ الْإِسْرَافِ فِي الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، عَهْدُ الرُّومَانِ الَّذِي اسْتَبْدَلَ بِهِ الْمَقَوْقِسَ. عَهْدُ الْفَجَرِ: أَيِ عَهْدِ الْخَيْرِ الْعَمِيمِ، عَهْدُ النُّورِ، عَهْدُ التَّقَى وَالْإِصْلَاحِ، عَهْدُ الْإِسْلَامِ: إِذْ مَالًا الْمُسْلِمِينَ وَعَبَدَ لَهُمْ طَرِيقَ الْفَتْحِ.

^{٤٨} وتبديله: فِي مَعْنَى الْبَيْتِ قَبْلَهُ. لَمَّا سَفَرُ: سَفَرُ الصَّبْحِ وَأَسْفَرُ أَضَاءِ.

^{٤٩} وتأليفه: أَيِ الْمَقَوْقِسِ. وَالْأَسْرُ: جَمْعُ الْأَسْرَةِ، وَأَسْرَةُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ وَرَهْطُهُ الْأَدْنَوْنَ.

أبا الهول لو لم تكن آيةً لكان وفاؤك إحدى العبر^{٥٠}
أطلت على الهرمين الوقوف كثاكلة لا تريم الحفر^{٥١}
ترجّي لبانيهما عودةً وكيف يعود الرميم النخر^{٥٢}
تجوس بعين خلال الديار وترمي بأخرى فضاء النهر^{٥٣}
تروم بمنفيس بيض الظبا وسمر القنا والخميس الدثر^{٥٤}
ومهد العلوم الخطير الجلال وعهد الفنون الجليل الخطر

^{٥٠} إحدى العبر: إحدى الآيات.

^{٥١} أطلت ... إلخ: بيان لوفاء أبي الهول. كثاكلة: يقول إنك في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاءً منك، كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ولا تزايله، والثاكلة هي التي فقدت ولدها. ولا تريم: أي لا تبرح. والحفر: جمع حفرة، وهي ما يُحفر في الأرض، والمراد بها هنا القبر.

^{٥٢} لبانيهما: أي لباني الهرمين.

^{٥٣} تجوس: تطوف وتتخلل. والنهر والنهر: واحد الأنهار؛ يعني نهر النيل.

^{٥٤} تروم: تنشئ وتطلب. ومنفيس: منف، وموضعها اليوم البدرشين، وميت رهينة: هي عاصمة ملك الفراعنة، والذي بناها هو «مينا» مؤسس الأسرة المالكة، وكانت كما قال شاعرنا:

ومهد العلوم الخطير الجلال وعهد الفنون الجليل الخطر

ولا يخفى ما في هذا البيت من العكس، والعكس هذا من المحسنات البديعية، وهو أن تقدّم في الكلام جزءاً، ثم تعكس، فتقدّم ما أخرت وتؤخر ما قدّمت، مثل قول الحماسي:

فردّ شعورهن السود بيضاً وردّ وجوههنّ البيض سودا

وقول أبي الطيب:

فلا مجد في الدنيا لمن قلّ ماله ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وقول الآخر:

إن الليالي للأنام مناهيل تطوى وتُنشر دونها الأعمار
فقسارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

فلا تستبين سوى قرية أجد محاسنها ما اندثر^{٥٥}
تكاد لإغراقها في الجمود إذا الأرض دارت بها لم تدّر
فهل من يبلغ عنا الأصول بأن الفروع اقتدت بالسّير^{٥٦}
وأنا خطبنا حسان العُلا وسقنا لها الغالي المدّخر

الخميس الدثر: الجيش الكثير. يقول: إنك يا أبا الهول لأوفى الأوفياء؛ إذ كأني بك وقد فقدت تلك الحضارة الباهرة، والمدنية الزاهرة، التي تحليت بها حيناً من الدهر، وشاهدت عصرها الذهبي، ثم ذهبت وذهب أهلوها، وأصبحت منفرداً وحيداً.

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فأبى عليك وفاؤك إلا أن تطيل الوقوف على الهرمين، شأن التّكول فقدت وحيدها، فأبى عليها وجدها أن تريم قبره، وكأنك في وقوفك هذا تُرجي لباني الهرمين عودة تعود معها تلك المعاني الساميات، وتنشد بمنفيس — وهي منك عن كتب — عهد القوة والعظمة والسلطان، وعهد العلوم والعرفان، وعهد الفنون الخطير الجلال ممّا رأيت في الزمن الخالي، فلا تصيب شيئاً من ذلك، ولا تقع عينك من منفيس هذه إلا على قرية قد اندثرت، ودمنة قد عفت، تكاد لإغراقها في الجمود إذا الأرض دارت بها لم تدّر، فتري في هذه الأبيات صورة أبي الهول في وقوفه هذا، صورة شعرية آية في الإبداع والتخيّل الشعري، ثم ترى فيها وصف عظمة المصريين، وأن مصر كانت مهد الحضارة والتمدن، ولا جرم فقد أمّها، وجاور فيها للاستفادة أمثال ليكرغ وصولون من كبار المتشرّعين، وفيثاغورس وأفلاطون وإقليدس من شيوخ الفلسفة، كما تؤمّ اليوم بلاد الغرب للمجاورة فيها والإفادة منها، ومن هنا قال بعد ذلك: «... فهل من يبلغ عنا الأصول؟»

^{٥٥} أجد محاسنها ما اندثر: يقول إن طولها الدوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدت محاسنها، وهو معنى دقيق عجيب، ولعله ينظر إلى قول أبي نواس:

لَمَنْ دمن تزداد حُسَنَ رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم
تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواء ثوب نعيم

هذا ويجوز أن يكون «أجد» مبتدأ، و«ما اندثر» خبر؛ أي إن أجد ما بقي من هذه القرية وأجلّه، هو آثارها الدوارس.

^{٥٦} الأصول: أصولنا وأباؤنا الذين وصف. الفروع: نحن المصريين أبناء هذا الجيل. واقتدت بالسّير: حذت حذو أصولها؛ إذ كان منّا في هذه الآونة ما قصّه بعد.

وَأَنَا رَكِبْنَا غِمَارَ الْأُمُورِ وَأَنَا نَزَلْنَا إِلَى الْمُؤْتَمَرِ^{٥٧}
 بِكُلِّ مُبِينٍ شَدِيدِ اللَّدَادِ وَكُلِّ أَرِيْبٍ بَعِيدِ النَّظَرِ^{٥٨}
 تُطَالِبُ بِالْحَقِّ فِي أُمَّةٍ جَرَى دَمُهَا دُونَهُ وَانْتَشَرَ^{٥٩}
 وَلَمْ تَفْتَخَرْ بِأَسَاطِيلِهَا وَلَكِنْ بِدَسْتُورِهَا تَفْتَخَرُ^{٦٠}
 فَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَجِفْ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ لَمْ يَطِرْ
 تَحَرَّكَ أَمَا الْهَوْلُ هَذَا الزَّمَانُ تَحَرَّكَ مَا فِيهِ حَتَّى الْحَجَرُ

فَلَمَّا أَتَمَّهَا أَجَابَهُ آخَرُ كَانَ يَخْتَفِي وَرَاءَ التَّمَثَالِ وَيَنْطِقُ بِلِسَانِهِ:

نَجِيَّ أَبِي الْهَوْلِ آنَ الْأَوَانُ وَدَانَ الزَّمَانُ وَلَانَ الْقَدَرُ
 خَبَاتٌ لِقَوْمِكَ مَا يَسْتَقُونُ وَلَا يَخْبَأُ الْعَذَبُ مِثْلُ الْحَجَرِ
 فَعِنْدِي الْمَلُوكُ بِأَعْيَانِهَا وَعِنْدَ التَّوَابِيْتِ مِنْهَا الْأَثَرُ
 مَحَا ظِلْمَةَ الْيَأْسِ صُبْحُ الرَّجَاءِ وَهَذَا هُوَ الْفَلَقُ الْمُنتَظَرُ

ثُمَّ انشَقَّ صَدْرُ أَبِي الْهَوْلِ عَنْ فَتَى وَفَتَاةٍ، مَثَلًا أَمَامَهُ، وَأَنْشَدَا هَذَا النَشِيدَ:

الْيَوْمَ نَسُودُ بِوَادِينَا وَنُعِيدُ مَحَاسِنَ مَاضِينَا
 وَيَشِيدُ الْعِزُّ بِأَيْدِينَا وَطَنْ نَفْدِيهِ وَيَفْدِينَا
 وَطَنْ بِالْحَقِّ نُؤَيِّدُهُ وَبِعَيْنِ اللَّهِ نُشَيِّدُهُ
 وَنُحَسِّنُهُ وَنُزَيِّنُهُ بِمَآثِرِنَا وَمَسَاعِينَا
 سِرُّ التَّارِيخِ وَعُنْصُرُهُ وَسِرُّ الدَّهْرِ وَمِنْبَرُهُ

^{٥٧} غمار الأمور: شدائدها، جمع غمرة. المؤتمر: مؤتمر الصلح الذي عُقد على أثر انتهاء الحرب الأوروبية العامة سنة ١٩٢٠م، الذي فزعنا إليه في شخص الوفد المصري.

^{٥٨} الشديد اللداد: أي الشديد الخصومة والجدل الذي لا يُغلب. والأريب: العاقل البعيد النظر.

^{٥٩} تطالب: أي الفروع. ودونه: دون هذا الحق.

^{٦٠} ولم تفتخر: أي إنها مع ذلك لم تعتز بقوّتها المادية من جيش وأسطول وما إلى ذلك، ولكنها تعتز بحقها الطبيعي الذي ليس إلا به كيانها.

وَجَنَانُ الْخُلْدِ وَكَوْثُرُهُ	وَكَفَى الْآبَاءُ رِيَا حِينَا
نَتَّخِذُ الشَّمْسَ لَهُ تَاجًا	وَضُحَاهَا عَرْشًا وَهَاجًا
وَسَمَاءَ السُّودِ أَبْرَاجًا	وَكَذَلِكَ كَانَ أَوَالِينَا
الْعَصْرُ يَرَاكُمْ وَالْأُمَمُ	وَالْكِرْنُكَ يَلْحِظُ وَالْهَرَمُ
أَبْنِي الْأَوْطَانِ أَلَا هِمَمُ	كِبْنَاءِ الْأَوَّلِ يَبْنِينَا
سَعِيًّا أَبَدًا سَعِيًّا سَعِيًّا	لَأَثِيلِ الْمَجْدِ وَلِلْعَلِيَّا
وَلَنَجْعَلْ مِصْرَ هِيَ الدُّنْيَا	وَلَنَجْعَلْ مِصْرَ هِيَ الدِّينَا

مملكة النحل

بامراًة مؤمرة	مملكة مدبرة
نّاع عبء السيطرة	تحمل في العمال والصّ
ونّ عليهم قيصة	فاعجب لعمال يؤلّ
نكارة مغبرة ^١	تحكمهم راهبة
عن ساقها مشمرة	عاقدة زنارها
ن وارتدته مئزرة	تلثمت بالأرجوا
شرارة مطيرة	وارتفعت كأنها
كأنها مسمرة ^٢	ووقعت لم تختلج

* * *

من خلق مصورة	مخلوقة ضعيفة
وما أجل خطرّه	يا ما أقل ملگها
بأي عقل دبره	قف سائل النحل به
ي كالقول جوهرة	بجبك بالأخلق وهـ
تغني القوى المفكرة	تغني قوى الأخلاق ما
من شاء حتى الحشرة	ويرفع الله بها

^١ التغبير: ترديد الصوت بالقراءة.

^٢ الاختلاج: الاضطراب.

* * *

أَلَيْسَ فِي مَمْلَكَةِ النَّـ
مُلْكُ بَنَاهِ أَهْلُهُ
لَوْ التَّمَسَّتْ فِيهِ بَطٌّ
تُقْتَلُ أَوْ تُنْفَى الْكُـ
تَحْكُمُ فِيهِ قَيْصَرَةٌ
مِنْ الرِّجَالِ وَقِيـ
لَا تُورِثُ الْقَوْمَ وَلَوْ
الْمُلْكُ لِلْإِنَاثِ فِي الدُّ
نَيِّرَةٌ تَنْزَلُ عَنْ
فَهْلٍ تُرَى تَخْشَى الطُّمـ
فَطَالَمَا تَلَاعَبُوا
وَعَبَرُوا غَفْلَتَهَا
وَفِي الرِّجَالِ كَرَمُ الضـ
وَفِتْنَةُ الرَّأْيِ وَمَا
أَنْثَى وَلَكِنْ فِي جَنـ
ذَائِدَةٌ عَنْ حَوْضِهَا
تَقَلَّدَتْ إِبْرَتَهَا
كَأَنَّهَا تُرْكِيَّةٌ
كَأَنَّهَا «جَانْدَرُكُ» فِي
تَلْقَى الْمُغِيرَ بِالْجَنـ

حَلٍ لِقَوْمٍ تَبْصِرَةٌ
بِهَمَّةٍ وَمَجْدَرَةٌ^٣
حَالَ الْيَدَيْنِ لَمْ تَرَهُ
لَى فِيهِ غَيْرَ مُنْذَرَةٍ
فِي قَوْمِهَا مَوْقَرَةٌ
بِ حُكْمِهِمْ مَحْرَرَةٌ
كَانُوا الْبَنِينَ الْبَرَّة
سَتُورُ لَا لِلذُّكْرَةِ^٤
هَالَتْهَا لِنَيِّرَةٍ
عَ فِي الرِّجَالِ وَالشَّرَّةُ^٥
بِالْهَمَجِ الْمُصَيِّرَةِ
إِلَى الظُّهُورِ قَنْطَرَةٌ
عِفٍ وَلَوْ الْمُقَدَّرَةِ
وَرَاءَهَا مِنْ أَثَرَةٍ
حَيَّهَا لِبَاءٌ مُخْدِرَةٌ^٦
طَارِدَةٌ مَنْ كَدَّرَهُ
وَأَدْرَعَتْ بِالْحَبَرَةِ
قَدْ رَابَطَتْ بِأَنْقَرَةٍ
كَتَيْبَةٍ مُعْسِكِرَةٍ
بِ الْخُشْنِ الْمُنْمَرَةِ

^٣ يقال هذا الأمر مجدرة ذلك: أي جدير به.

^٤ الذكرة: الذكور.

^٥ الطماع: الطمع.

^٦ اللبابة: اللبوة.

السابغين شَكَّةً
قد نثرتهم جُعبَةً
مَنْ يَبِنِ مُلْكًا أَوْ يَذُدْ
إِنَّ الْأُمُورَ هِمَّةٌ
ما الملكُ إِلَّا فِي ذُرَا الْـ
عَرِينُهُ مُذْ كَانَ لَا
رَبُّ النُّيُوبِ الزُّرْقِ وَالـ

البالغين جَسْرَةً^٧
ونفضتْهم مئْبَرَةً^٨
فِيَالْقَنَا الْمَجْرَّةُ
ليس الْأُمُورُ ثَرْثَرَةً
أَلْوِيَةِ الْمُنَشَّرَةِ
يَحْمِيهِ إِلَّا قَسُورَةً^٩
مَخَالِبِ الْمَذْكُورَةِ

* * *

مالِكَةُ عَامِلَةٌ
الْمَالُ فِي أَتْبَاعِهَا
لَا يَعْرِفُونَ بَيْنَهُمْ
لَوْ عَرَفَوْهُ عَرَفُوا
وَاتَّخَذُوا نِقَابَةً
سَبْحَانَ مَنْ نَزَّهَ عَنِـ
وَسَاسِهِ بِحُورَةٍ
صَاعِدَةٍ فِي مَعْمَلٍ
وَارِدَةٍ دَسْكُرَةٍ^{١٠}
بَاكِرَةٍ تَسْتَنْهَضُ الْـ
السَّامِعِينَ الطَّائِعِينَ
مَنْ كُلٌّ مَنِ خَطَّ الْبِنَا

مُصْلِحَةٌ مُعَمَّرَةٌ
لَا تَسْتَبِينُ أَثَرَهُ
أَصْلًا لَهُ مِنْ ثَمَرَةٍ
مِنْ الْبَلَاءِ أَكْثَرَهُ
لَأَمْرِهِمْ مَسِيرَةٌ
هُ مُلْكُهُمْ وَطَهْرُهُ
عَامِلَةٍ مَسْخَرَةٍ
مِنْ مَعْمَلٍ مُنْحَدِرَةٍ
صَادِرَةٍ عَنْ دَسْكُرَةٍ^{١١}
عَصَائِبِ الْمَبْغُورَةِ^{١٢}
نَ الْمُحْسِنِينَ الْمَهْرَةِ
ءَ أَوْ أَقَامَ أَشْطَرَهُ

^٧ الشكة: السلاح. والجسرة: الجسارة.

^٨ المئبرة: بيت الإبرة.

^٩ القسورة: الأسد.

^{١٠} الدسكرة: القرية.

^{١١} العصائب: جمع عصابة.

أَوْ شَدَّ أَصْلَ عَقْدِهِ أَوْ سَدَّهُ أَوْ قَوَّرَهُ^{١٢}
أَوْ طَافَ بِالْمَاءِ عَلَى جَدْرَانِهِ الْمَجْدَرَةِ^{١٣}

* * *

وتذهب النحلُ خِفا فَا وَتَجِيءُ مُوقِرَةً
جَوَالِبَ الشَّمْعِ مِنْ الـ خَمَائِلِ الْمَنُورَةِ
حَوَالِبَ الْمَازِيِّ مِنْ زَهْرِ الرِّيَاضِ الشَّيْثَةِ^{١٤}
مَشْدُودَةً جُيُوبُهَا عَلَى الْجَنَى مُزَرَّرَةً
وَكُلُّ خُرْطُومٍ أَدَا هُ الْعَسَلِ الْمُقَطَّرَةِ
وَكُلُّ أَنْفٍ قَانِيٍّ فِيهِ مِنَ الشَّهْدِ بُرَّةٌ^{١٥}
حَتَّى إِذَا جَاءَتْ بِهِ جَاسَتْ خِلَالَ الْأَدُورَةِ^{١٦}
وَغَيَّبَتْهُ كَالسُّلَا فِي الدَّنَانِ الْمُحْضَرَةِ^{١٧}
فَهَلْ رَأَيْتَ النَحْلَ عَنْ أَمَانَةٍ مُقْصَرَةٍ
مَا اقْتَرَضَتْ مِنْ بَقْلَةٍ أَوْ اسْتَعَارَتْ زَهْرَةً
أَدَّتْ إِلَى النَّاسِ بِهِ سُكَّرَةً بِسُكَّرَةٍ

^{١٢} قور الشيء: قطعه من وسطه خرقاً مستديراً.

^{١٣} المجدرة: أي المشيدة.

^{١٤} المازي: العسل. والشيرة: الجميلة الحسنة.

^{١٥} البرة: الحلقة في الأنف.

^{١٦} الأدورة: الديار، يُرادُّ بها الخلايا هنا.

^{١٧} السُّلاف: أفضل الخمر.

في سبيل الهلال الأحمر

واكتب ثواب المحسنين وسطر
واطلب مزيداً في الرخاء لموسر
يفتح على أمم الهلال وينصر
واقعد بهم في ذلك المستمطر
لله من ملأ كريم خير
والله زانك بالقبول الأنور
من كل أبلج في الأكارم أزهر
فكأنها قطع الغمام الممطر
بيع الحصى في السوق ببغ الجواهر
أين المساوم في الثواب المشتري
ومن المهابة بين ألف معسكر
لا يسمحون بها وبين الكوثر^١
لا يطعنون القرن ما لم يندر^٢
أخذ المعازل بالقنا المتشجر^٣

جبريل هلل في السماء وكبر
سل للفقير على تكرمه الغنى
وادع الذي جعل الهلال شعاره
وتول في الهيجاء جند محمد
يا مهرجان البر أنت تحية
هم زينوك بكل أزهر في الدجى
حسنت وجوهك في العيون وأشرقت
كثرت عليك أكفهم في صوبها
لو يعلمون «السوق» ما حسنتها
جبريل يعرض والملائك باعة
ومجاهدين هناك عند معسكر
موفين للأوطان بين حياضها
عرب على دين الأبوة في الوغى
ألفوا مصاحبة السيوف وعودوا

^١ أي لا يسمحون بالكوثر بدلاً منها لو خيروا بين حياض نيلها وبينه.

^٢ القرن: الكفاء والنظر.

^٣ القنا: الرماح. والمتشجر: المشتبك.

يمشون من تحتِ القذائفِ نحوها
 في أعينِ الباري وفوقَ يمينه
 من كلِّ ميمونِ الضُّمادِ كأنما
 جذلانُ هيئتهُ عليه جراحُهُ
 ضُمِدَتِ بأهدابِ الجفونِ وطالما
 عُودُهُ يتمسَّحون برُؤْذنه
 وتكادُ من نورِ الإلهِ حيالُه
 لا يسألونَ عن السعيرِ المُمطرِ
 جَرَحَى نُجْلُهُمْ كَجَرَحَى خَيْبَرِ
 دُمُ أَهْلٍ بدرٍ فيه أو دُمُ حَيْدَرٍ
 وجِراحُهُ في قلبِ كلِّ غضنفرِ
 ضُمِدَتِ بأعرافِ الجِيادِ الضُّمَرُ^٥
 كالوَفْدٍ مَسَّحَ بِالْحَطِيمِ الأطهرِ^٦
 تبيضُ أثناءً «الهِلالِ الأحمرِ»

^٤ الحيدر: الأسد، ولقب من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب. والضماد: عصاة الجرح.

^٥ الضمَر: جمع ضامر، وهو من الخيل القليل اللحم الدقيق. والأعراف: جمع عَرَف، وهو شعر عنق الفرس.

^٦ الردن: أصل الكُم.

الأزهر^١

قُمْ فِي فَمِ الدُّنْيَا وَحَيِّ الْأَزْهَرَ
وَاجْعَلْ مَكَانَ الدَّرِّ إِنْ فَصَلْتَهُ
وَإِذْكُرْهُ بَعْدَ الْمَسْجِدَيْنِ مُعْظَمًا
وَإِخْشَعْ مَلِيًّا وَاقْضِ حَقَّ أُمَّةٍ
كَانُوا أَجَلٌ مِنَ الْمُلُوكِ جَلَالَةً
زَمَنُ الْمَخَافِ كَانَ فِيهِ جَنَابُهُمْ
مِنْ كُلِّ بَحْرٍ فِي الشَّرِيعَةِ زَاخِرٍ
لَا تَحْذُ حَذُوَ عَصَابَةِ مَفْتُونَةٍ
وَلَوْ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكُرُوا
مِنْ كُلِّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدِمِهِ
وَأَتَى الْحَضَارَةَ بِالصَّنَاعَةِ رَتَّةً

وَأَنْثُرْ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَ
فِي مَدْحِهِ خَرَزَ السَّمَاءِ النِّيْرَا
لِمَسَاجِدِ اللَّهِ الثَّلَاثَةِ مُكْبِرَا^٢
طَلَعُوا بِهِ زُهْرًا وَمَاجُوا أَبْحُرَا
وَأَعَزَّ سُلْطَانًا وَأَفْخَمَ مَظْهَرَا
حَرَمَ الْأَمَانِ وَكَانَ ظِلُّهُمْ الذَّرَا^٣
وَيُرِيكُهُ الْخُلُقُ الْعَظِيمُ غَضَنْفَرَا
يَجِدُونَ كُلَّ قَدِيمٍ شَيْءٍ مُنْكَرَا
مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ عُمَّرَا
وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبِنَايَةِ قَصْرَا
وَالْعِلْمِ نَزْرًا وَالْبَيَانِ مُثَرِّرَا^٤

* * *

^١ قِيلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِمُنَاسَبَةِ إِصْلَاحِ الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ وَالْبَدَأَ فِيهِ فِي سَنَةِ ١٩٢٤ م.

^٢ الْمَسْجِدَانِ: الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى.

^٣ الذَّرَا: الْمُلْجَأُ.

^٤ النَّزْرُ: الْقَلِيلُ. وَالْمُثَرِّرُ: الْمُخْطَطُ.

يا مَعْهَدًا أَفْنَى الْقُرُونِ جِدَارُهُ
ومشى على يَبَسِ الْمَشَارِقِ نُورُهُ
وَأَتَى الزَّمَانُ عَلَيْهِ يَحْمِي سُنَّةً
في الفاطميينَ انْتَمَى يَنْبُوْعُهُ
عينٌ من الفرقانِ فَاضَ نَمِيرُهَا
ما ضَرَّنِي أَنْ لَيْسَ أَفْقُكَ مَطْلَعِي
لا والذي وَكَّلَ الْبَيَانَ إِلَيْكَ لَمْ
لَمَّا جَرَى الْإِصْلَاحُ قَمْتُ مُهْنًا
نَبَأُ سَرَى فَكَسَا الْمَنَارَةَ حَبْرَةً
وَسَمَا بِأَرْوَقَةِ الْهُدَى فَأَحْلَهَا
ومشى إلى الحِلَقَاتِ فَانْفَرَجَتْ لَهُ
حَتَّى ظَنَنَّا الشَّافِعِيَّ وَمَالِغَا
إِنَّ الَّذِي جَعَلَ الْعَتِيقَ مَثَابَةً
الْعِلْمُ فِيهِ مَنَاهِلًا وَمَجَانِيًا

وطَوَى اللَّيَالِي رُكْنُهُ وَالْأَعْصُرَا
وَأَضَاءَ أَبْيَضَ لُجَّهَا وَالْأَحْمَرَا
وَيَذُودُ عَنْ نُسْكِ وَيَمْنَعُ مَشْعَرَا^٥
عَذَبَ الْأَصُولِ كَجَدِّهِمْ مُتَفَجِّرَا^٦
وَحِيًّا مِنَ الْفَصْحَى جَرَى وَتَحَدَّرَا^٧
وَعَلَى كَوَاكِبِهِ تَعَلَّمْتُ السُّرَى
أَكْ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ مُقْصِّرَا
بِاسْمِ الْحَنِيفَةِ بِالْمَزِيدِ مُبَشِّرَا^٨
وَرَهَا الْمُصَلَّى وَاسْتَخَفَّ الْمِنْبَرَا^٩
فَرَعَ الثُّرَيَّا وَهِيَ فِي أَصْلِ الثَّرَى
حَلَقًا كَهَالَاتِ السَّمَاءِ مُنَوَّرَا
وَأَبَا حَنِيفَةَ وَابْنَ حَنْبَلٍ حُضْرَا
جَعَلَ الْكِنَانِيَّ الْمُبَارَكَ كَوْثَرَا^{١٠}
يَأْتِي لَهُ النَّزَّاعُ يَبْغُونَ الْقِرَى^{١١}

* * *

يا فِتْيَةَ الْمَعْمُورِ سَارَ حَدِيثُكُمْ
المعْهَدُ الْقُدْسِيُّ كَانَ نَدِيُّهُ
وُلِدَتْ قَضِيَّتُهَا عَلَى مِحْرَابِهِ
نَدَاً بِأَفْوَاهِ الرُّكَابِ وَعَنْبَرَا^{١٢}
قُطْبًا لِدَائِرَةِ الْبِلَادِ وَمَحُورَا
وَحَبَّتْ بِهِ طِفْلًا وَشَبَّتْ مُعْصِرَا^{١٣}

^٥ النسك: العبادة. والمشرع: موضع من مناسك الحج.

^٦ جدُّ الفاطميين: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد كان مَضْرَبَ الْمَثَلِ فِي التَّبَحُّرِ فِي الْعُلُومِ.

^٧ الفرقان: القرآن. والحيا: المطر. والفصحى: اللغة العربية.

^٨ الحنيفة: الشريعة.

^٩ المنارة: المذنة. والحررة: السرور.

^{١٠} العتيق: المسجد الحرام. والمثابة: مجمع الزمر.

^{١١} النَّزَّاعُ: الْقَصَاد. وَالْقِرَى: الضيافة.

^{١٢} المعمر: الأزهر.

^{١٣} طِفْلًا: أَي طِفْلة. وَالْمَعْصِر: الْفَتَاة الْمُدْرِكَة.

وتقدّمت تُزجِي الصفوف كأنها «جاندرُك» في يدها اللواءُ مظفّرًا

* * *

هُزُوا الْقُرَى مِنْ كَهْفِهَا وَرَقِيمِهَا
الْغَافِلُ الْأُمِّيُّ يَنْطِقُ عِنْدَكُمْ
يُمَسِّي وَيُصْبِحُ فِي أَوَامِرِ دِينِهِ
لَوْ قُلْتُمْ اخْتَرُ لِلنِّيَابَةِ جَاهِلًا
ذُكِرَ الرِّجَالُ لَهُ فَأَلَّهُ عَصَبَةً
أَبَاؤُكُمْ قَرَأُوا عَلَيْهِ وَرَتَّلُوا
حَتَّى تَلَفَّتَ عَنْ مَحَاجِرِ رُومَةٍ
وَدَعَا لِمَخْلُوقٍ وَأَلَّهُ زَائِلًا
فَجَنَى عَلَى الْعَرْشِ الْبَلَاءَ وَمَا نَوَى
كُونُوا سِيَاحَ الْعَرْشِ وَالتَّمَسُّوا لَهُ
وَتَفَيَّئُوا الدُّسْتُورَ تَحْتَ ظِلَالِهِ
لَا تَجْعَلُوهُ هَوًى وَخُلَفَا بَيْنَكُمْ
الْيَوْمَ صَرَّحَتْ الْأُمُورُ فَأَظْهَرَتْ
قَدْ كَانَ وَجْهَ الرَّأْيِ أَنْ نَبْقَى يَدًا
فَإِذَا أَتَيْنَا بِالصَّفُوفِ كَثِيرَةً
غَضِبَتْ فِغْصَ الطَّرْفِ كُلِّ مُكَابِرٍ
لَمْ تَلَقْ إِصْلَاحًا يُهَابُ وَلَمْ تَجِدْ
حَظًّا رَجَوْنَا الْخَيْرَ مِنْ إِقْبَالِهِ

أَنْتُمْ لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْصَابُ الْقُرَى
كَالْبَبِّغَاءِ مُرْدِّدًا وَمُكَرِّرًا
وَأُمُورِ دُنْيَاهِ بِكُمْ مُسْتَبْصِرًا
أَوْ لِلخَطَابَةِ بَاقِلًا لِتَخِيرًا^{١٤}
مِنْهُمْ وَفَسَّقَ آخِرِينَ وَكَفَّرًا^{١٥}
بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الرِّجَالِ مُزَوَّرًا
فَرَأَى «عُرَابِي» فِي الْمَوَاكِبِ قَيْصَرًا
وَارْتَدَّ فِي ظُلُمِ الْعُصُورِ الْقَهْقَرَى
وَجَنَى عَلَى الْوَطَنِ الْبَلَاءَ وَمَا دَرَى
نَصْرًا مِنَ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ مُؤَزَّرًا
كَنَفًا أَهْشَ مِنَ الرِّيَاضِ وَأَنْضَرًا
وَمَجَرَّ دُنْيَا لِلنَّفُوسِ وَمَتَجَرَّ
مَا كَانَ مِنْ خُدَعِ السِّيَاسَةِ مُضْمَرًا
وَنَرَى وَرَاءَ جَنُودِهَا إِنْكَلْتِرَا
جُنًّا بِصَفٍّ وَاحِدٍ لَنْ يُكْسَرَا
يَلْقَاكَ بِالْخُدِّ اللَّطِيمِ مُصْعَرًا
مِنْ كُتْلَةٍ مَا كَانَ أَعْيَا مِلَنْرَا^{١٦}
عَاثَ الْمُفَرَّقُ فِيهِ حَتَّى أَدْبَرَا

^{١٤} باقل: عربي يُضرب به المثل في العي والفهاة.

^{١٥} فسَّقه: رماه بالفسق. وكفَّره: نسبته إلى الكفر.

^{١٦} المراد بالكتلة: الأمة مجتمعة. واللورد ملنر: هو أحد الوزراء الإنجليز، وكان قديم إلى مصر في جماعة من قومه سنة ١٩٢٠م ليتقصوا رغائبها وأمالها، فقاطعتهم البلاد وأحالتهم على الوفد المصري الذي كانت وگلته في الدفاع عن حقها إذ ذاك.

دارُ النِّيابة هُيِّئَتْ درجاتُها فليَرْقَ في الدَّرَجِ الذَّوائِبُ والذُّرَا^{١٧}
الصارخون إذا أُسيءَ إلى الحمَى والزائرون إذا أُغْيِرَ على الشَّرَى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يمشون في ذَهَبِ القيودِ تبخُترَا

^{١٧} المراد بالذوائب والذُّرَا: عليّة القوم وأكفأؤهم.

وداع فروق

تجلَّد للرحيل فما استطاعاً
عسى الأيامُ تجمعني فإني
ألا ليتَ البلادَ لها قلوبٌ
وليتَ لدى «فروق» بعضَ بُني
أما والله لو علِمَت مكاني
حوَت رِقَّ القواضبِ والعوالي
سألتُ القلبَ عن تلك الليالي
فقال القلبُ بل مرَّت عَجالاً
أدارَ «محمدٍ» وراثَ «عيسى»
فهل نبذَ التعصُّبَ فيك قومٌ
أرى الرحمنَ حصنَ مَسجديهِ

وداعاً جَنَّةَ الدنيا وداعاً^١
أرى العيشَ افتراقاً واجتماعاً
كما للناسِ تنفطرُ التِّباعاً^٢
وما فعلَ الفراقُ غداةَ راعاً^٣
لأنطَقَت المآذنَ والقلاعاً
فلمَّا ضفَّتْها حوَتَ اليراعاً^٤
أكنَّ ليلالياً أم كُنَّ ساعاً^٥
كدقَّاتي لِذِكرِها سِراعاً
لقد رَضِيكَ بينهما مشاعاً^٦
يمدُّ الجهلُ بينهم النِّزاعاً
بأطولِ حائِطٍ منك امتناعاً

^١ تجلَّد: تكلف الجَدَّ وأظهره، والجَدَّ قوة الصبر.

^٢ تنفطر: تنشق. والالتِباع: احتراق القلب من الهم أو الشوق.

^٣ فروق: الآستانة. والبث: أشدُّ الحزن. راع: أفزع.

^٤ القواضب: السيوف القاطعة، مفردها قاضب. والعوالي: جمع عالية، وهي من الرمح أعلى رأسه، أو نصفه الذي يلي السَّنان، أو ما دخل منه تحت السنان إلى ثلثه.

^٥ الساع: جمع ساعة.

^٦ المشاع (بفتح الميم وضمها): المشترك غير المقسوم.

فكنتِ لبَيْتِهِ المحجوجِ ركنًا وكنتِ لبَيْتِهِ الأقصى سِطَاعًا^٧
هواؤكِ والعيونُ مُفَجَّرَاتُ كفى بهما من الدنيا متاعًا^٨
وشمسُكِ كلما طلعتْ بأفُق تخطَّرتِ الحياةُ به شُعَاعًا
وغَيْدُكِ هُنَّ فوقَ الأرضِ حُورٌ أوانسٌ لا نقابَ ولا قِنَاعًا
حوالي لُجَّةٍ من لازَوْرِدٍ تعالى الله خَلْقًا وابتداعًا
يروح لُجَيْنُهَا الجاري ويغدو على الفردوسِ آكامًا وقاعًا^٩

^٧ السطاع: عمود البيت.

^٨ العيون: هي عيون الماء.

^٩ لجينها: أي اللجنة، واللجين الفضة. والآكام: التلال. والقاع: أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام.

رحالة الشرق^١

أَقْدِمُ فَلَيْسَ عَلَى الْإِقْدَامِ مُمْتَنِعٌ
لِلنَّاسِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ عَجَائِبِهِ
هَلْ كَانَ فِي الْوَهْمِ أَنَّ الطَّيْرَ يَخْلُفُهَا
وَأَنَّ أَدْرَاجَهَا فِي الْجَوِّ يَسْلُكُهَا
أَعْيَا الْعُقَابَ مَدَاهُمْ فِي السَّمَاءِ وَمَا
قُلُّ لِلشَّبَابِ بِمَصِيرٍ عَصْرُكُمْ بَطَلٌ
أُسُّ الْمَمَالِكِ فِيهِ هِمَّةٌ وَجَجًا
يُعْطِي الشُّعُوبَ عَلَى مِقْدَارٍ مَا نَبْغُوا
مَاذَا تُعِدُّونَ بَعْدَ الْبِرْلَمَانِ لَهُ
الْبَرُّ لَيْسَ لَكُمْ فِي طَوْلِهِ لُجْمٌ
هَلْ تَنْهَضُونَ عَسَاكُمُ تَلْحَقُونَ بِهِ
وَاصْنَعْ بِهِ الْمَجْدَ فَهُوَ الْبَارِعُ الصَّنْعُ^٢
مَا لَمْ يَكُنْ لَامِرِيٍّ فِي خَاطِرٍ يَقَعُ
عَلَى السَّمَاءِ لَطِيفُ الصَّنْعِ مُخْتَرَعُ
جَنُّ جُنُودٍ سَلِيمَانٍ لَهَا تَبَعُ
رَامُوا مِنَ الْقُبَّةِ الْكُبْرَى وَمَا فَرَعُوا^٣
بِكُلِّ غَايَةِ إِقْدَامٍ لَهُ وَلَعُ
لَا التُّرَهَاتُ لَهَا أُسٌّ وَلَا الْخُدَعُ
وَلَيْسَ يَبْخَسُهُمْ شَيْئًا إِذَا بَرَعُوا
إِذَا خِيَارُكُمْ بِالْدَوْلَةِ اضْطَلَعُوا^٤
وَالْبَحْرُ لَيْسَ لَكُمْ فِي عَرْضِهِ شُرْعُ^٥
فَلَيْسَ يَلْحَقُ أَهْلَ السَّيْرِ مُضْطَجِعُ

^١ بعد رحلة طويلة شاقّة في صحراء ليبيا، استطاع الرحالة المصري الكبير أحمد حسنين أن يُسدي إلى العلم يدًا بيضاء، وأن يكشف للناس عن مجاهل هذه البدياء، فلمّا عاد قابله البلاد بالحفاوة والترحاب، واحتفل به القوم احتفالاً فخماً، أُلقيت فيه هذه القصيدة.

^٢ الصَّنْع: الحاذق.

^٣ فرع الجبل: صعده.

^٤ اضطلعوا: أي نهضوا بها.

^٥ الشرع: جمع الشُّراع، والمراد بها هنا السفن، من إطلاق الجزء على الكل. واللُّجْم والشُّرْع: يُراد بها قوّة البر وقوّة البحر.

إن المِقْصَّ خَفِيفٌ حين يَقتطَعُ
منه الضغائنُ ما لم تشهد الضُّبْعُ
فيه على الجِيفِ الأحزابُ والشَّيْعُ
وللمَسالكِ فيه الناصحُ الورعُ
يكون صُنْعُكُمْ غَيْرَ الذي صنَعُوا
من الولاية والمالُ الذي جَمَعُوا
إلا عواري حِظٌّ ثم تُرتَجِعُ^٦
حِيالَه وعلى تَمَثَّله اجتمِعُوا
فالصبرُ يَنفَعُ ما لا يَنفَعُ الجَزَعُ
وفي صناعاتِ عصرٍ ناسُه صُنْعُ
دعائمِ العصرِ من رُكنِيهِ مُنْصِدِعُ
فهل تُرى القومُ الحرِّيَّةَ انتَفَعُوا

لا يُعجِبَنَّكُمْ ساعٍ بتفرقةٍ
قد أشهدوكم من الماضي وما نبُشَّتْ
ما للشباب وللماضي تَمُرُّ بهم
إن الشبابُ غَدٌ فليهدِهِم لَغْدٌ
لا يَمْنَعَنَّكُمْ بِرُّ الأبَوَّةِ أنْ
لا يُعجِبَنَّكُمْ الجاهُ الذي بَلَغُوا
ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حَسُنَا
عليكمُ بخيالِ المَجْدِ فَأَتَلِفُوا
وأَجْمِلُوا الصبرَ في جِدِّ وفي عملٍ
وإن نَبَغْتُمْ ففي علمٍ وفي أدبٍ
وكلُّ بُنيانٍ قومٌ لا يقومُ على
شريفٍ مَكَّةَ حُرٌّ في ممالكِهِ

* * *

كلتاها في مُفاجأةِ الفتى شَرَعُ^٧
لا تَعْلَمُ النفسُ ما يَأْتِي وما يَدْعُ
تَهْبُّ رِيحاهما أو يَطْلُعُ السَّبْعُ
من العواصفِ فيها الخوفُ والهَلْعُ
متى تَحُطُّ رَحالاً أو متى تَضَعُ
أَنَّ الدليلَ وإن أَرَدَاكَ مُتَبَّعُ
إلا سرابٌ على صحراءَ يَلْتَمِعُ

كم في الحياة من الصحراءِ من شَيْهٍ
وراءَ كُلِّ سَبِيلٍ فيهما قَدَرٌ
فلستَ تدري وإن كنتَ الحريصَ متى
ولستَ تأمَنُ عند الصحو فاجئَةً
ولستَ تدري وإن قَدَّرْتَ مجتهدًا
ولستَ تملكُ من أمرِ الدليلِ سوى
وما الحياةُ إذا أَظْمَتَ وإن خَدَعَتْ

* * *

ترومُ ما لا يرومُ الفِتيَةُ القُنْعُ
فيما يُبَلِّغُها حَمْدًا فتندفعُ

أكبرتُ من «حَسَنَيْنِ» هَمَّةٌ طَمَحَتْ
وما البطولةُ إلا النفسُ تدفعُها

^٦ العواري: جمع عارية، وهي العطية بلا عوض.

^٧ شرع: أي سواء.

ولا يُبالي لها أهلٌ إذا وصلوا
رَحَالَةَ الشرقِ إِنَّ البِيدَ قد عَلِمَتْ
ماذا لِقِيَتْ من الدَّوِّ السَّحِيقِ وَمِنْ
وهل مَرَرْتَ بِأَقْوَامٍ كَفَطَرْتَهُمْ
ومن عَجِيبٍ لغيرِ اللَّهِ ما سجدوا
كيف اهتدى لهمُ الإسلامُ وانتقلت
جزَّتكَ مصرُ ثناءً أَنْتَ مُوضِعُهُ
ولو جزَّتكَ الصحاري جِئْنَا مَلِكًا

طاحُوا على جَنَابَاتِ الحَمْدِ أم رَجَعُوا
بَأَنَّكَ اللَّيْثُ لم يُخْلَقْ له الْفَرَعُ
قَفَرٍ يَضِيقُ على السَّارِي وَيَتَّسِعُ^٨
من عهدِ آدَمَ لا خُبْتُ ولا طَبَعُ^٩
على الْفَلَا ولغيرِ اللَّهِ ما رَكَعُوا
إِلَيْهِمُ الصَّلَاةُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعُ
فلا تَذُبْ من حَيَاءٍ حِينَ تَسْتَمِعُ
من الملوِكِ عَلَيْكَ الرِّيشُ وَالْوَدْعُ^{١٠}

^٨ الدو: المفازة.

^٩ الطبع: الشين، والعيب، والدنس.

^{١٠} الريش والودع: عنوان العظمة في أواسط أفريقيا.

براءة^١

الناسُ للدنيا تبِعْ	ولِمَنْ تُحَالِفْهُ شِيْعُ
لا تهَجَعَنَّ إِلَى الزما	نِ فَقَدْ يُنَبِّهْ مَنْ هَجَعُ ^٢
وارباً بجِلْمِكَ في النوا	زِلِ أَنْ يُلِمَّ بِهِ الْجَزَعُ
لا تخلُ مِنْ أَمَلٍ إِذَا	ذهبَ الزمانُ فَكَمْ رَجَعُ
وانفعَ بِوُسْعِكَ كُلِّهِ	إِنْ المَوْفَّقُ مَنْ نَفَعُ

* * *

مصرٌ بَنَتْ لقضائِها	ركناً على النجمِ ارتَفَعُ
فيه احتَمَى استقْلالُها	وبه تحصَّنَ وامْتَنَعُ
فليَهِنْها وليَهِنْنا	أَنْ القضاءَ به اضْطَلَعُ ^٣
اللَّهُ صانَ رِجالَهُ	مِمَّا يُدَنِّسُ أَوْ يَضَعُ
سارُوا بسيرةِ مُنْذِرٍ	وأبي حنيفةٍ في الورَعُ
وكانَ أيامَ القضا	ءِ جميعَها بِهِمُ الجَمْعُ
قُلْ للمُبْرَأِ مُرْقِصِ	أَنْتِ النقيُّ مِنَ الطَّبَعِ ^٤

^١ حُرِّمَ الأستاذ مرقص فهمي حيناً من الاشتغال بالمحامة، ثم برَّأه القضاء من تلك التهمة التي عُزِّيت

إليه؛ فاحتفل بعودته إلى المحامة احتفالاً أُلْقِيَتْ فيه هذه القصيدة.

^٢ الهجوع: النوم.

^٣ اضطلع: قَوِيَ.

^٤ الطَّبَع: الشين والعيب.

يُمنَى وبالسرى نزع	هذا القضاء رماك بالـ
تثُلُ الحكومة مُتَّبِع	هذا قضاء الله مُمـ
سفة عود مُشتاقٍ ولع	عُد للمحاماة الشريـ
كرداء مرقص في البيع ^٥	والبس رداءك طاهرًا
محروم أبلغ من دفع	وادفع عن المظلوم والـ
بالأمس نالك أو وقع ^٦	واغفر لحاسدٍ نعمة
تب أو تحاسب مُتَّسِع	ما في الحياة لأن تُعا

^٥ البيع: جمع ببيعة، وهي مُتَعَبِّد النصارى.

^٦ وقع فلان في فلان: سبّه وعابه.

الصَّحَافَةُ^١

لكلِّ زمانٍ مضى آيةٌ
لسانُ البلادِ ونَبْضُ العبادِ
تسيرُ مَسِيرَ الضحى في البلادِ
وتمشي تَعْلَمُ في أمةٍ
فيا فتية الصَّحَفِ صبرًا إذا
فإنَّ السعادةَ غيرُ الظهورِ
ولكنها في نواحي الضميرِ
خذوا القصدَ واقتنعوا بالكفافِ
وروموا النبوعَ فَمَنْ ناله
وما الرزقُ مجتنبُ حِرْفَةٍ
إذا آخَتِ الجوهريُّ الحظوظُ
وإنَّ أعرضت عنه لم يحلُ في

وآيةٌ هذا الزمانِ الصُّحُفُ
وكهفُ الحقوقِ وحربُ الجَنَفِ^٢
إذا العِلْمُ مَزَّقَ فيها السَّدَفُ^٣
كثيرةٌ مَنْ لا يخطُّ الألفُ
نبا الرزقُ فيها بكم واختلفُ
وغيرُ الثراءِ وغيَرُ الترفُ
إذا هو باللؤمِ لم يُكْتَنَفُ
وخلُّوا الفضولَ يغلُّها السَّرَفُ^٤
تلقَى من الحظِّ أسنى التُّحَفِ
إذا الحظُّ لم يهجر المُحْتَرَفُ
كفلنَ اليتيمَ له في الصَّدَفِ^٥
عيونُ الخرائدِ غيرُ الخَرْفِ^٦

^١ أَلَّف أصحاب الصحف العربية نقابة تجمع كلمتهم، وقد أَلْقِيت هذه القصيدة في الاحتفال بإنشائها.

^٢ الجنف: الحيف.

^٣ السدف: الظلام.

^٤ الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة. وغالها السرف يغولها: أتى عليها.

^٥ اليتيم: اللؤلؤ المنقطع النظير.

^٦ الخرائد: العذارى.

* * *

رعى الله ليلتكم إنها	تلت عنده ليلة المنتصف ^٧
لقد طلع البدر من جُنْحها	وأوما إلى صُبْحها أن يقف
جلوتم حواشيها بالفنون	فمن كل فن جميل طرّف
فإن تسألوا ما مكانُ الفنون	فكم شرف فوق هذا الشرف ^٨
أريكة «موليير» فيما مضى	وعرش «شكسبير» فيما سلف
وعود «ابن ساعدة» في عكاظ	إذا سالَ خاطره بالطرّف ^٩
فلا يرقين فيه إلا فتى	إلى درجات النبوغ انصرف
تُعلم حكمته الحاضرين	وتسمع في الغابرين النطف ^{١٠}

* * *

حمدنا بلاءكم في النضال	وأمسِ حمدنا بلاء السلف
ومن نسي الفضل للسابقين	فما عرف الفضل فيما عرف
أليس إليهم صلاح البناء	إذا ما الأساس سما بالغرف
فهل تأذنون لذي خلّة	يفض الرياحين فوق الجيف
فأين «اللواء» وربّ اللواء	إمام الشباب مثال الشرف ^{١١}
وأين الذي بينكم شبْلُهُ	على غاية الحق نعم الخلف
ولا بدّ للغرس من نقله	إلى من تعهد أو من قطف
فلا تجحدن يد الغارسين	وهذا الجنى في يدك اعترف
أولئك مروا كدود الحرير	شجّاهم النفاق وفيه التلف ^{١٢}

^٧ المنتصف: منتصف شعبان.

^٨ الشرف أولاً: العلو والمجد. والشرف ثانياً: الموضع العالي، وهو هنا المسرح.

^٩ عود ابن ساعدة: أي منبر قس بن ساعدة، وهو أخطب خطباء الجاهلية.

^{١٠} الغابرين: الآتين. والنطف: جمع نطفة، وهي أصل النسل.

^{١١} ربّ اللواء: المرحوم مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء.

^{١٢} النفاق: النفع.

عيد الفداء^١

أَمَّا الْعِتَابُ فَبِالْأَحَبَّةِ أَخْلَقُ وَالْحَبُّ يَصْلُحُ بِالْعِتَابِ وَيَصْدُقُ
يَا مَنْ أُحِبُّ وَمَنْ أُجِلُّ وَحُسْبُهُ فِي الْغَيْدِ مَنْزِلَةٌ يُجَلُّ وَيُعْشَقُ
الْبُعْدُ أَدْنَانِي إِلَيْكَ فَهَلْ تُرَى تَقْسُو وَتَنْفِرُ أَمْ تَلِينَ وَتَرْفُقُ
فِي جَاهِ حُسْنِكَ ذِلَّتِي وَضِرَاعَتِي فَاعْطِفْ فَذَاكَ بِجَاهِ حُسْنِكَ أَلِيقُ

* * *

خَلَقَ الشَّبَابُ وَلَا أَزَالُ أَصُونُهُ وَأَنَا الْوَفِيُّ مَوَدَّتِي لَا تَخْلُقُ^٢
صَاحِبَتُهُ عَشْرِينَ غَيْرَ ذَمِيمَةٍ حَالِي بِهِ حَالٍ وَعِيشِي مُوْنِقُ^٣
قَلْبِي، أَذْكَرَتَ الْيَوْمَ غَيْرَ مُوَفَّقٍ أَيَّامَ أَنْتَ مَعَ الشَّبَابِ مُوَفَّقُ
فَخَفَقْتَ مِنْ ذِكْرِي الشَّبَابِ وَعَهْدِهِ لَهْفِي عَلَيْكَ لِكُلِّ ذِكْرٍ تَخْفِقُ
كَمْ ذُبْتُ مِنْ حُرْقِ الْجَوَى وَالْيَوْمِ مِنْ أَسْفٍ عَلَيْهِ وَحَسْرَةٍ تَتَحَرَّقُ
كَنْتُ الشُّبَّاءَ وَكَانَ صَيْدًا فِي الصَّبَا مَا تَسْتَرْقُ مِنَ الظُّبَاءِ وَتُعْتِقُ
خَدَعْتَ حَبَائِلُكَ الْمِلَاحَ هُنِيهَةً وَالْيَوْمَ كُلُّ حَبَالَةٍ لَا تَعْلُقُ
هَلْ دُونَ أَيَّامِ الشَّبَابِ لِلْفَتَى صَفْوٌ يَحِيطُ بِهِ وَأَنْسُ يُحْدِقُ

^١ كان لهذه القصيدة يوم نُشِرت ضجة هائلة، ولعلها استمَدَّت معظمها من تلك الأبيات التي تنطق فيها ذكرى الشباب، والتي قلَّما وُفِّقَ إلى مثَلها شاعر. ولقد نُظِمت هذه القصيدة معارضةً لأخرى من رويها للمرحوم إسماعيل صبري باشا.

^٢ خلق الشيء: بلي.

^٣ الحالي: الطو، أو المزِين.

نكبة بيروت^١

يا رَبُّ أَمْرِكَ فِي الْمَمَالِكِ نَافِذٌ
إِنْ شِئْتَ أَهْرِقْهُ وَإِنْ شِئْتَ احْمِ
وَاحْكَمْ بَعْدَكَ إِنَّ عَدْلَكَ لَمْ يَكُنْ
أَلْجَلِ آجَالٍ دَنْتَ وَتَهَيَّأْتُ
مَا كَانَ يَحْمِيهِ وَلَا يُحْمَى بِهِ
هَذَا بِجَانِبِهَا الْكَسِيرِ غَرِيقَةٌ
وَالْحَكْمُ حَكْمُكَ فِي الدِّمِ الْمَسْفُوكِ
هُوَ لَمْ يَكُنْ لِسَوَاكَ بِالْمَمْلُوكِ
بِالْمُتَمَتِّرِ فِيهِ وَلَا الْمَشْكُوكِ
قَدَّرْتَ ضَرْبَ الشَّاطِئِ الْمَتْرُوكِ
فُلَكَانٍ أَنْعَمَ مِنْ بَوَاخِرِ «كُوكِ»^٢
تَهْوِي وَتِلْكَ بَرَكْنِهَا الْمَدْكُوكِ

* * *

بيروتُ، مَاتَ الْأُسْدُ حَتْفَ أَنْوْفِهِمْ
سَبْعُونَ لَيْتًا أُحْرِقُوا أَوْ أُغْرِقُوا
كُلُّ يَصِيدِ اللَّيْثِ وَهُوَ مَقِيدٌ
يَا مَضْرِبَ الْخَيْمِ الْمَنِيفَةِ لِلْقَرْىِ
مَا كُنْتَ يَوْمًا لِلْقَنَابِلِ مَوْضِعًا
لَمْ يُشْهَرُوا سَيْفًا وَلَمْ يَحْمُوكِ
يَا لَيْتَهُمْ قُتِلُوا عَلَى «طَبْرُوكِ»
وَيَعَزُّ صَيْدُ الضِّيْغِ الْمَفْكُوكِ
مَا أَنْصَفَ الْعُجْمُ الْأَلَى ضَرْبُوكِ^٣
وَلَوْ أَنَّهَا مِنْ عَسَجِدٍ مَسْبُوكِ

^١ قِيلَتْ عَلَى أَثَرِ ضَرْبِ الْأَسْطُولِ الْإِيطَالِيِّ مَدِينَةَ بَيْرُوتِ.

^٢ أَي لَمْ تَكُنْ تَسْتَطِيعُ حِمَايَتَهُ هَاتَانِ السَّفِينَتَانِ الصَّغِيرَتَانِ اللَّتَانِ أُعِدَّتَا بِهِ لِلرِّيَاضَةِ وَالتَّنْعَمِ، لَا لِلْحَرْبِ وَالْقِتَالِ.

^٣ الْقَرْىِ: الضِّيَافَةُ.

بيروتُ يا راحَ النزيلِ وأنسهُ
الحُسْنُ لفظُ في المدائنِ كلَّها
نادمتُ يوماً في ظلالِكَ فتيةً
يُنْسُون «حساناً» عصابةً «جَلَقَ»
تالله ما أحدثتِ شرًّا أو أذىً
أنتِ التي يحمي ويمنع عِرضَها
إن يجهلوك فإنَّ أُمَّكَ سوريا
والسابقين على المفاخرِ والعُلا
سالت دماءً فيكَ حولَ مَساجِدِ
كنا نُؤمِّل أن يَمُدَّ بقاؤُها
لِكَ في رُبا النِيلِ المُبارَكِ جيرةً

يمضي الزمانُ عليَّ لا أَسْلوكِ
ووجدتُه لفظاً ومعنى فيكَ
وسَمُوا الملائكَ في جلالِ ملوكِ
حتى يكَادَ بجَلَقٍ يَفديكَ^٥
حتى تُراعي أو يُراعَ بَنوكِ
سيفُ الشريفِ وخنجرُ الصُّلوكِ
والأبلَقُ الفردَ الأشمَّ أبوكِ^٦
بلَّه المَكَارِمَ والندى أهْلوكِ
وكنائسَ ومَدارسٍ و«بُنوكِ»
حتى تَبَلَّ صدى القنا المشبوكِ
لو يَقْدِرون بدمعهم غَسْلوكِ

^٤ واسمه في الحُسْنِ فوسَّمه: أي غلبه فيه.

^٥ حَسَّان بن ثابت: شاعر النبي ﷺ. وعصابة جَلَقَ: هم ملوك غسان. وجلق: هي دمشق. وكان حَسَّان بن ثابت كثيراً ما يَفْدُ على آل غسان ويمدحهم، وينال منهم، فَمِمَّا يناسب هذا المقامَ قولُه:

لله دُرُّ عصابة نادمتُهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم الفضلِ
بَرْدَى يصفُقُ بالريحِ السلسلِ
يُغشون حتى ما تهرُّ كلابهم
شَمُّ الأنوف من الطرازِ الأوَّلِ
لا يسألون عن السوادِ المقبلِ
يَوْمًا بجَلَقٍ في الزمانِ الأوَّلِ

^٦ الأبلق: جبل لبنان.

تكليل أنقرة وعزل الآستانة

قُم نَادِ «أَنْقَرَةَ» وَقِلْ يَهْنِيكَ
أَعْطَيْتَهُ ذُودَ اللَّبَاةِ عَنِ الشَّرَى
وَأَقَمْتَ بِالْدَمِ جَانِبِيهِ وَلَمْ تَزَلْ
فَعَقَدْتَ تَاَجَكَ مِنْ ظُبًّا مَسْلُولَةٍ
تَاَجٌ تَرَى فِيهِ إِذَا قَلَّبْتَهُ
وَتَرَى الضَّحَايَا مِنْ مَعَاقِدِ غَارِهِ
وَتَرَاهُ فِي صَخَبِ الْحَوَاثِ صَامِتًا
خَرَزَاتُهُ دَمٌ أُمَةٌ مَهْضُومَةٌ
بِالْوَجَبِ التَّمَسُّ الْحَقُوقَ وَخَابَ مَنْ
مُلْكٌ بَنَيْتَ عَلَى سَيُوفِ بَنِيكَ
فَأَخَذْتَهُ حُرًّا بِغَيْرِ شَرِيكَ^١
تُبْنِي الْمَمَالِكُ بِالْدَمِ الْمَسْفُوكِ
وَحَلَلْتَ عَرْشَكَ مِنْ قَنًا مَشْبُوكِ^٢
جَهْدَ الشَّرِيفِ وَهَمَّةَ الصُّعْلُوكِ^٣
وَعَلَى جَوَانِبِ تَبْرِهِ الْمَسْبُوكِ^٤
كَالصَّخْرِ فِي عَصْفِ الرِّيحِ النُّوكِ^٥
وَجُهُودُ شَعْبٍ مُجْهَدٍ مِنْهُوكِ
طَلَبَ الْحَقُوقَ بِوَجَبٍ مَتْرُوكِ

^١ الذود: مصدر زاده عن الشيء؛ دفعه عنه. واللابة: أنثى الأسد. والشرى: مكان في جانب الفرات تكثر فيه الأسود، ويُصَرَّب به المثل في ذلك.

^٢ الظُّبَّا: جمع ظبّة، وهي حدُّ السيف والسنان ونحوهما.

^٣ الجهد، بضم الجيم وفتحها: الطاقة، وقيل المشقة.

^٤ المعاهد: مواضع الانعقاد. والغار: شجرٌ عظيم، واحدته غارة، وكان الإغريق الأقدمون والرومان أيضًا يضيفون منه أكاليل لأبطالهم المنتصرين في الحروب. والتبر: الذهب غير المضروب. المسبوك: المذوب المفرغ في القالب.

^٥ الصخب. الصوت شديدًا. وعصف الرياح: اشتدادها. والنوك: نوكاء، وهي الحمقاء.

لا الفردُ مَسَّ جبينَكَ العالي ولا
لَمَّا نفرتِ إلى القتالِ جماعةٌ
هَدَرُوا دماءَ الأُسْدِ في آجامِها
يا بِنْتَ «طوروس» المُمَرِّدِ طَاطَأَتْ
أَمْعَنْتُمَا في العَرِّ واستعصمتُمَا
نَحَتَ الشعوبُ من الجبالِ ديارَهُم
فلَوْ أَنَّ أخلاقَ الرجالِ تَصَوَّرَتْ
إِنَّ الذينَ بَنَوْكَ أَشَبَّهُ نِيَّةً
حلفوا على الميثاقِ لا طِعِمُوا الكرى
رَعموا «الفرنسي» المُحَجَّلَ صورةً
«النَّسْرُ» سَلَّ السيفَ يَبْنِي نَفْسَهُ
والنَّسْرُ مملوكٌ لسلطانِ الهوى
يا دولةَ الخُلُقِ التي تاهت على

أَعوانُهُ بأَكْفَهُم لَمَسوكِ^٦
أَصْلوكِ نَارَ تَلَصُّصِ وَفُتوكِ^٧
والأُسْدُ شارِعَةُ القَنَا تحميكِ^٨
شُمُّ الجبالِ رُءُوسَها لأَبِيكَ^٩
هو في السحابِ وَأَنْتِ في أَهْلِكَ^{١٠}
والقومُ من أخلاقِهِم نَحَتوكِ
لرَأَيْتِ صَخْرَتَها أَساسًا فيكِ
بشبابٍ «خَيْر» أو كهولٍ «تَبوكِ»^{١١}
حتى تذوقِي النصرَ هل نصروكِ^{١٢}
في حَلْبَةِ الفرسانِ من حاميكِ^{١٣}
وفَتَاكِ سَلَّ حُسامِهِ يَبْنِيكَ^{١٤}
ووجدتُ نَسْرَكَ ليس بالمملوكِ
رُكْنَ السَّمَكِ بِرُكْنِها المسموكِ^{١٥}

^٦ لا الفرد: أي لا الفرد المستبد بالحكم، والخطاب لأنقرة، ويريد بالفرد السلطان محمد وحيد الدين. وأعوانه: وزرأوه الذين أرادوا أن يُخمدوا حركة الأناضول ضد اليونان والإنجليز.
^٧ نفرت إلى قتال: ذهبت إليه بسرعة. وأصلوك: أحرقوك؛ أي أولئك الأعوان. والتلصص: أن يصير الإنسان لصًا، وأن يتخلق بأخلاق اللصوص. والفتوك: مصدر فتك؛ أي بطش، وفتك فلان في الخبث إذا بالغ فيه.
^٨ الأجمة: الشجر الكثير الملتف، جمعها أجم بفتح الجيم، وجمع الجمع آجام، وهو الوارد في البيت. وهو يشير إلى فتوى شرعية كانت حكومة الأستانة قد أذاعتها في أول أمر الفاتحين في الأناضول تحلل بها قتالهم.

^٩ طوروس: جبلٌ عظيم في آسيا الصغرى. والمرد: المطول الملس.
^{١٠} أمعنتما: أبعدتما. واستعصمتما: امتنعتما.
^{١١} خير: اسم مكان كان به سبعة حصون، غزاه النبي ﷺ. وتبوك: أرض بين المدينة والشام نسبت إليها غزوة من غزوات النبي أيضًا.

^{١٢} الميثاق: أَمُورٌ كان القائمون بدعوة القتال قد أخذوا على أنفسهم أن يقاتلوا حتى تتم للأمة.
^{١٣} الفرنسي: نابليون بونابرت.
^{١٤} النسْر: لقب نابليون. يريد بفتاك — في هذا البيت — وبحاميك — في البيت قبله — مصطفى كمال.
^{١٥} السماك: كوكبٌ معروف. والمسموك: المرفوع.

بينني وبينك مِلَّةٌ وَكِتَابُهَا
 قد ظنَّني اللاحي نطقتُ عن الهوى
 لم يُنْقِذِ الإسلامُ أو يرفعْ له
 ردُّوا الخيالَ حقيقةً وتطلَّعوا
 لم أكذبِ التاريخَ حين جعلتُهم
 لم ترضني ذنبًا لنجمكِ همَّتي
 قلمي وإن جهَلَ الغبيُّ مكانَهُ
 ظفرت بيونانَ القديمةَ حكمتي
 والشرقَ يَنمِينِي كما يَنمِيكَ
 وركبتُ متنَ الجهلِ إذ أُطْرِيكَ^{١٦}
 رأسًا سوى النفرِ الألى رفَّعوك
 كالحقِ حصصَ من وراءِ شُكوكِ^{١٧}
 رُهبانَ نُسكِ لا عجولَ نسيكِ^{١٨}
 إنَّ البيانَ بنجمه يُنبِيكِ^{١٩}
 أبقى على الأحقابِ من ماضيكِ^{٢٠}
 وغزا الحديثَ ظافراً غازيكِ

* * *

مَنِّي لِعَهْدِكَ يَا «فروق» تحيةً
 أو كالنسيمِ غداً عليك وراحَ من
 أو كالأصيلِ جرى عليك عقيقُهُ
 تلكَ الخمائلُ والعيونُ اختارها
 قد أفرغتُ فيكِ الطبيعةَ سحرها
 خلعتُ عليكِ جمالها وتأمَّلتُ
 تالله ما فتَنَ العيونَ ولذَّها
 كعيونِ مائكِ أو رُبا واديكِ^{٢١}
 فُوفِ الرياضِ ووَشِيها المحبوكِ^{٢٢}
 أو سالَ من عَقيانِه شاطيكَ^{٢٣}
 لك من رُبا جنَّاتِه باريكِ^{٢٤}
 مَن ذا الذي مِن سحرِها يَرقيقُ
 فإذا جمالكِ فوقَ ما تكسوكِ
 كقلائدِ الخُلجانِ في هاديكِ

^{١٦} اللاحي: اللائم. متن الجهل: ظهره.

^{١٧} حصص الحق: بان بعد كتمانها.

^{١٨} النسيك: الذهب والفضة.

^{١٩} يُنبِيك: يُخبرك.

^{٢٠} الأحقاب: جمع حُقب، بضم الحاء، قيل هو ثمانون عاماً، وقيل هو الدهر.

^{٢١} فروق: هي الآستانة.

^{٢٢} فوف الرياض: زهرها، تشبيهاً لها بفوف الثياب، وهي نوع من بُرود اليمن. والوشي: نممة الثوب وتحسينه، وهو أيضاً نوع من الثياب الموشية، تسميها لها باسم المصدر. والمحبوك: من حبك الحائك الثوب؛ حسن أثر الصنعة فيه.

^{٢٣} الأصيل: هو ما بعد العصر إلى المغرب. والعقيان: الذهب الخالص.

^{٢٤} الخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الكثير الملتف.

عن جيدك الحالي تَلَفَّتَ الرُّبَى
 إن أنس لا أنس الشبيبة والهوى
 ولياليا لم ندر أين عشاؤها
 وصبوحنا من «بندلار» وشرشر
 لو أن سلطان الجمال مُخَلَّدٌ
 خلعوك من سلطانهم فسليهم
 لا يحزننك من حماتك خطة
 أيقال فتیان الحمى بك قصروا
 وهم الخفاف إليك كالأنصار إذ
 المشتروك بمالهم ودمائهم
 هدروا دماء الذائدين عن الحمى
 شربوا على سر العدو وغردوا
 لو كنت «مكة» عندهم لرأيتهم

واستضحكت حور الجنان بفيك
 وسوالف اللذات في ناديك^{٢٥}
 من فجرها لولا صياح الديك
 وغبوقنا بـ «ترابيا» و«بيوك»^{٢٦}
 لمليحة لعذلت من عذوك
 أمن القلوب وملكها خلعوك
 كانت هي المثلى وإن ساءوك
 أو ضيعوا الحرمات أم خانوك
 قل النصير وعز من يفديك
 حين الشيوخ بجبة باعوك
 بلسان مفتي النار لا مفتيك^{٢٧}
 كالبوم خلف جدارك المدكوك^{٢٨}
 كـ «محمد» و«رفيقه» هجروك^{٢٩}

* * *

يا راكب الطامي يجوب لجاجه
 إن جئت «مرمرة» تحت الفلك في
 وأتيت «قرن التبر» ثم تحفه

من كل نيرة وذات حلوك^{٣٠}
 بهج كآفاق النعيم ضحوك^{٣١}
 تحف الضحى من جوهر وسلوك^{٣٢}

^{٢٥} إن أنس لا أنس: أي إن نسيت شيئاً فلست أنسى الشبيبة ... إلخ.

^{٢٦} الصبوح: شراب الصباح. والغبوق: شراب العشي. وبندلار وترابيا وبيوك: أسماء أمكنة في الآستانة.

^{٢٧} الذائدين عن الحمى: جمع ذائد، وهو المدافع. ومفتي النار: شيخ الإسلام الذي أفتى بقتالهم.

^{٢٨} شربوا: أي الشيوخ.

^{٢٩} عندهم: عند فتیان الحمى الذين اشتروك بمالهم ودمائهم.

^{٣٠} الطامي: البحر. واللجاج: جمع لجة. من كل نيرة: أي كل لجة نيرة بيضاء، يكنى بذلك عن البحر الأبيض المتوسط. وذات حلوك: أي ومن كل لجة سوداء ذات حلوك، يكنى بذلك عن البحر الأسود.

^{٣١} مرمرة: هو بحر مرمرة تدخله من مضيق الدردنيل، ويصله بالبحر الأسود مضيق البسفور.

^{٣٢} قرن التبر: هو القرن الذهبي، وهو جزء من البسفور.

فاطلع على «دار السعادة» وابتهل
 قُل للخلافة قولَ باكٍ شمسها
 يا جذوة التوحيد هل لك مُطْفِئُ
 خَلَّتِ القرونُ وأنتِ حربُ ممالكٍ
 يرميكِ بالأممِ الزمانُ وتارةً
 عُودي إلى ما كنتِ في فجرِ الهدى
 إن الذين توارثوكِ على الهوى
 لم يلبسوا بُردَ النبي وإنما
 إني أُعيدُك أن تَرَي جَبَّارَةً
 أو أن تَرْفَ لك الوراثةَ فاسقًا
 فُضِّي نِيوبَ الفردِ ثم خذي به
 لا فرقَ بين مُسلِّطٍ مُتتَوِّجٍ
 إني أرى الشورى التي اعتصموا بها

في بابها العالي وأدُّ ألوكي^{٣٣}
 بالأمس لَمَّا آذَنْتِ بدُلوكِ^{٣٤}
 واللهُ جلَّ جلالُهُ مُذَكِّيكِ^{٣٥}
 لم يغفُ ضدُّك أو ينمُ شانيكِ^{٣٦}
 بالفردِ واستبداده يرميكِ
 عُمَرُ يسوسُك و«العتيقُ» يليك^{٣٧}
 بعد «ابنِ هندٍ» طالما كذبوكِ^{٣٨}
 لبسوا طقوسَ الرومِ إذ لبسوكِ
 كالبابويةِ في يدَي «رُدريكِ»
 ك «يزيدٍ» أو كالحاكمِ المأفوكِ^{٣٩}
 في أيُّ ثوبِيهِ به جاءوكِ^{٤٠}
 ومُسلِّطٍ في غيرِ ثوبٍ مليكِ
 هي حبلُ ربِّك أو زمامُ نَبِيكِ

^{٣٣} دار السعادة: هي الآستانة. والألوك: الرسالة.

^{٣٤} الدلوك: غروب الشمس.

^{٣٥} مُذَكِّيك: مُوقِدك.

^{٣٦} لم يغفُ: لم ينم. والشانئ: المُبغض.

^{٣٧} يشير إلى ترك الملك المحصور في أسيرة واحدة، والرجوع إلى جعله حقًا يتولاه من تبايعه الأمة، كما كان لعهد الخلفاء الراشدين.

^{٣٨} ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان أول الخلفاء من بني أمية.

^{٣٩} يزيد: هو يزيد بن الوليد، من ملوك بني أمية، كان من أصحاب الدعارة والفسوق. والحاكم: هو الحاكم بأمر الله أحد الملوك الفاطميين في مصر، كان فاسقًا مختبلاً، وكانت له بدع وضلالات يحمل الناس عليها قسراً.

^{٤٠} فُضِّي نِيوب الفرد: انثريها، ومنه قولهم فضَّ الله فَمَ فلان؛ أي نثر أسنانه. والنيوب: جمع ناب.

عيد الدهر و ليلة القدر^١

المُلْكُ بَيْنَ يَدَيْكَ فِي إِقْبَالِهِ
حُرٌّ وَأَنْتَ الْحَرُّ فِي تَارِيخِهِ
فِيضًا عَلَى الْأَوْطَانِ مِنْ حُرِّيَّةٍ
سَعِدْتَ بِعَهْدِكُمَا الْمُبَارِكِ أُمَّةٌ
بِفَدْيِكَ نَصْرَانِيَّةً بِصَلِيبِهِ
وَفَتَى الدُرُوزِ عَلَى الْحُزُونِ بِشَيْخِهِ
صَدَقُوا الْخَلِيفَةَ طَاعَةً وَمَحَبَّةً
يَجِدُونَ دَوْلَتَكَ الَّتِي سَعَدُوا بِهَا
جَدَّدْتَ عَهْدَ «الرَّاشِدِينَ» بِسِيرَةٍ
بُنِيَتْ عَلَى الشُّورَى كَصَالِحِ حُكْمِهِمْ

عَوَّذْتُ مُلْكَكَ بِالنَّبِيِّ وَآلِهِ^٢
سَمَحُ وَأَنْتَ السَّمَحُ فِي أَقْيَالِهِ^٣
فَكَلَّاكُمَا الْمَفْتَكُ مِنْ أَغْلَالِهِ^٤
رَقَّتْ لِحَالِكَ حَقَبَةٌ وَلِحَالِهِ^٥
وَالْمُنْتَمِي لـ «مُحَمَّدٍ» بِهِلَالِهِ
وَالْمُوسَوِيَّ عَلَى السَّهُولِ بِمَالِهِ^٦
وَتَمَسَّكُوا بِالطُّهْرِ مِنْ أَذْيَالِهِ
مِنْ رَحْمَةِ الْمَوْلَى وَمِنْ أَفْضَالِهِ
نَسَجَ «الرَّشَادُ» لَهَا عَلَى مَنَوَالِهِ
وَعَلَى حَيَاةِ الرَّأْيِ وَاسْتَقْلَالِهِ

^١ قِيلَتْ فِي احْتِفَالٍ بِالْمَوْلِدِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ.

^٢ الْمَلِكُ بَيْنَ يَدَيْكَ: الْخَطَابُ لِلْخَلِيفَةِ مُحَمَّدٍ رِشَادَ الْخَامِسِ.

^٣ حُرٌّ: أَيُّ الْمَلِكِ، يَرِيدُ أَنَّهُ غَيْرُ مَقِيدٍ بِسُلْطَةِ الْفَرْدِ الْمُسْتَبَدِّ. وَأَنْتَ الْحَرُّ فِي تَارِيخِهِ: لِأَنَّ الْخَلِيفَةَ مُحَمَّدَ رِشَادَ أَوَّلِ خَلِيفَةِ دَسْتُورِيٍّ. وَسَمَحٌ: يُقَالُ رَجُلٌ سَمَحٌ: أَيُّ ذُو سَمَاحَةٍ وَعَطَاءٍ. وَالْأَقْيَالُ: جَمْعُ قَيْلٍ، وَهُوَ الْمَلِكُ.

^٤ كَلَّاكُمَا: أَيُّ أَنْتَ وَالْمَلِكُ. وَالْمَفْتَكُ: الْمَطْلَقُ. وَالْأَغْلَالُ: جَمْعُ غُلٍّ، بَضْمُ الْغَيْنِ، وَهُوَ طَوْقٌ مِنْ حَدِيدٍ يُجْعَلُ فِي الْعُنُقِ.

^٥ الْحَقَبَةُ: الْمُدَّةُ مِنَ الدَّهْرِ.

^٦ الْحُزُونُ: جَمْعُ حَزْنٍ، بِفَتْحِ الْحَاءِ؛ مَا غُلِظَ مِنَ الْأَرْضِ.

وَالْحَقُّ مَنْصُورٌ عَلَى خُذَالِهِ^٧ حَقٌّ أَعَزَّ بِكَ الْمُهِيمَنُ نَصْرُهُ
فِي الْمُلْكِ أَقْوَامٌ عِدَادُ رِمَالِهِ شَرُّ الْحُكُومَةِ أَنْ يُسَاسَ بِوَاحِدٍ
وَتَرَى بِإِذْنِ اللَّهِ حُسْنَ مَالِهِ^٨ مُلْكُ تُشَاطِرِهِ مَيَامَنَ حَالِهِ
فِي مُقْفِرَاتِ الْبِيدِ مِنْ رِثْبَالِهِ^٩ أَخَذَتْ حُكُومَتَكَ الْأَمَانَ لظَبِيهِ
تَاجًا لَوَجْهِكَ فَوْقَ تَاجِ جَلَالِهِ^{١٠} مَكَّنْتَ لِلدُّسْتُورِ فِيهِ وَحَزَنَتُهُ
نِعِمَّتْ شُعُوبُ الْأَرْضِ تَحْتَ ظِلَالِهِ^{١١} فَكَأَنَّكَ «الْفَارُوقُ» فِي كَرْسِيِّهِ
وَيَهَابُهُ الْأَمْلاَكُ فِي أَسْمَالِهِ^{١٢} أَوْ أَنْتَ مِثْلُ «أَبِي تَرَابٍ» يَتَّقَى
بِ «مُحَمَّدٍ» أُولَى وَسَمَحٍ خِلَالِهِ عَهْدُ النَّبِيِّ هُوَ السَّمَاحَةُ وَالرِّضَا
فِي حَاضِرِ الدُّسْتُورِ وَاسْتِقْبَالِهِ بِالْحَقِّ يَحْمِلُهُ «الإِمَامُ» وَبِالْهَدَى
قَدْ جَمَلُوا الْإِسْلَامَ فَوْقَ جَمَالِهِ^{١٣} يَا ابْنَ الْخَوَاقِينِ الثَّلَاثِينَ الْأَلَى
الرَّافِعِينَ الْمُلْكَ أَوْجَ كَمَالِهِ^{١٤} الْمُبْلِغِينَ الدِّينَ نُرُوءَ سَعْدِهِ
مَا لَمْ يَفِزْ «إِسْكَندَرُ» بِوَصَالِهِ^{١٥} الْمُوَطِّئِينَ مِنَ الْمَمَالِكِ خَيْلَهُمْ
مَا يَحْتَذِي الْخُلَفَاءُ حَذْوَ مَثَالِهِ^{١٦} فِي عَدْلِ «فَاتِحِهِمْ» وَ«قَانُونِيَّهِمْ»
حَتَّى يُبَيِّنَ الْحَشْرُ عَنْ أَهْوَالِهِ أَمَّا الْخِلَافَةُ فَهِيَ حَائِطٌ بَيْتَكُمْ
لَكُمْ الْقَنَا بِقِصَارِهِ وَطَوَالِهِ^{١٧} أَخَذَتْ بَحْدَ الْمَشْرِفِيِّ وَحَازَهَا

^٧ الخذال: جمع خاذل، وهو الذي لا ينصر.

^٨ الميامن: جمع ميمنة، وهي اليمن والبركة.

^٩ الرثبال: الأسد.

^{١٠} مكنت للدستور: أي جعلته مكيناً ثابتاً. والدستور: هو القانون الذي يُنظم حكم الشورى.

^{١١} الفاروق: لقب عمر بن الخطاب.

^{١٢} أبو تراب: كنية علي بن أبي طالب. والأسمال: الثياب البالية، واحداً سمل، بفتح الميم.

^{١٣} الخواقين: جمع خاقان، وهو اسم لكل ملك من ملوك الترك.

^{١٤} الأوج: العلو.

^{١٥} إسكندر: هو المقدوني الفاتح العظيم.

^{١٦} فاتحهم وقانونيهم: لقبان أولهما للسلطان محمد الفاتح؛ لُقِّبَ به لأنه أول ملك في الإسلام استطاع

أن يفتح القسطنطينية ويقضي على كل سلطة للروم بها، وثانيهما للسلطان سليمان القانوني؛ لُقِّبَ به لأنه أول واضع قانون للدولة التركية.

^{١٧} المشرفي: السيف، نسبة إلى موضع في اليمن كانت تُصنع به السيوف.

لا تسمعوا للمُرجفين وجهلهم
 طمعُ القريب أو البعيد بنيلها
 ما الذئبُ مُجترئاً على ليثِ الشرى
 فمصيبَةُ الإسلام من جُهلِهِ^{١٨}
 طمعُ الفتى من دهرِهِ بمُحالِهِ
 في الغابِ مُعتدياً على أشبالِهِ^{١٩}
 بأضلَّ عقلاً وهي في أيمانكم
 ممَّن يُحاول أخذها بشمالِهِ

* * *

رضيَ المُهيمنُ والمسيحُ وأحمدُ
 الهازئين من الثرى بسهولة
 القاتلين عدوهم في حصنه
 الآخذين الحصنَ عزَّ سبيلُهُ
 المُعرضين ولو بساحةٍ يلدز
 القارئين على «عليٍّ» علمها
 المُلكُ زُلزلَ في «فروق» ساعةً
 لولا انتظامُ قلوبهم ككفوفهم
 والمرءُ ليس بصادقٍ في قوله
 والشعبُ إن رامَ الحياةَ كبيرةً
 شكرُ الممالك للسخيِّ بروحه
 عن جيشك الفادي وعن أبطالِهِ
 الدائسين على رءوسِ جبالِهِ
 بالرأي والتدبير قبلَ قتالِهِ
 مثلَ السها أو في امتناعِ منالِهِ^{٢٠}
 في الحرب عن عرضِ العدوِّ ومالِهِ
 وعلى الغزاةِ المتقين رجالِهِ^{٢١}
 كانوا له الأوتادُ في زلزالِهِ
 لنثرتُ دمعي اليومَ في أطلالِهِ^{٢٢}
 حتى يؤيدَ قوله بفعالِهِ
 خاضَ الغمارَ دماً إلى أمالِهِ^{٢٣}
 لا للسخيِّ بقيله أو قالِهِ
 يسمو إليك بجَدِّه وبخالِهِ^{٢٤}
 إليه «فروق» الحُسنِ نجوى هائم

^{١٨} المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة ليوقعوا الناس في الاضطراب.

^{١٩} الأشبال: جمع شبل، وهو ولد الأسد.

^{٢٠} السها: كوكبٌ خفي من بنات نعش الصغرى.

^{٢١} علي: هو علي بن أبي طالب، والضمير للحرب.

^{٢٢} الأطلال: ما شخص من آثار الديار.

^{٢٣} الغمار، بضم الغين وفتحها: لغيف الناس.

^{٢٤} إليه: اسم فعل للاستزادة من الحديث. والنجوى: المسارّة بالكلام، وهي السرُّ أيضاً. الهائم: المحبُّ، والذاهب من العشق أو غيره لا يدري أين يتوجّه، يريد نفسه؛ أي إنه هائم بحب فروق، وهي الآستانة، لما بها من حسن. ومعنى «يسمو إليك بجده وبخاله» أنه من أصلٍ تركي من ناحية أبويه.

أُخْرِجَتْ لِلْعَرَبِ الْفِصَاحِ بَيَانُهُ
 لَمْ تُكْثِرِ «الْحَمْرَاءُ» مِنْ نَظَائِهِ
 جَعَلَ الْإِلَهَ خَيَالَهُ «قَيْسَ» الْهُوَى
 فِي كُلِّ عَامٍ أَنْتِ نَزْهَةٌ رَوْحِهِ
 يَغْشَاكِ قَدْ حَنَنْتِ إِلَيْكِ مَطِيئُهُ
 أَفْرَاحُهُ لَمَّا رَأَى طَلِيْقَةً
 وَسُرُورُهُ بِكَ مِنْ قِيُودِكَ حُرَّةً
 اللَّهُ صَاغَكَ جَنْتَيْنِ لَخَلْقِهِ
 لَوْ أَنَّ لِلَّهِ اتِّخَاذَ خَمِيلَةٍ
 فَكَأَنَّمَا الصَّفَتَانِ فِي حُسْنِيهِمَا
 وَكَأَنَّمَا «الْبَسْفُورُ» حَوْضُ «مُحَمَّدٍ»
 وَكَأَنَّ شَاهِقَةَ الْقُصُورِ حَيَالَهُ
 وَكَأَنَّ عِيدَكَ عِيدُهَا لَمَّا مَشَى

قَبَسًا يُضِيءُ الشَّرْقَ مِثْلَ كَمَالِهِ^{٢٥}
 نَسَلًا وَلَا «بَغْدَادُ» مِنْ أَمْثَالِهِ^{٢٦}
 وَجُعِلَتْ «لَيْلَى» فِتْنَةً لَخَيَالِهِ^{٢٧}
 وَنَعِيمٌ مَهْجَتِهِ وَرَاحَةٌ بِأَلِهِ
 وَيَثُوبُ وَالْأَشْوَاقُ مِلءُ رِحَالِهِ
 أَفْرَاحُ «يُوسُفَ» يَوْمَ حُلِّ عِقَالِهِ^{٢٨}
 كَسْرُورِ «قَيْسٍ» بَانْفِلَاتِ غَزَالِهِ^{٢٩}
 مُحْفُوفَتَيْنِ بِأَنْعَمِ لِعِيَالِهِ
 مَا اخْتَارَ غَيْرَكَ رَوْضَةً لِجَلَالِهِ^{٣٠}
 دِيْبَاجَتَا خَدَّ يَتِيَهُ بِخَالِهِ^{٣١}
 وَسَطَ الْجَنَانِ وَهْنٌ فِي إِجْلَالِهِ^{٣٢}
 حُجْرَاتُ «طِه» فِي الْجَنَانِ وَأَلِهِ^{٣٣}
 فِيهَا الْبَشِيرُ بِبَشِيرِهِ وَجَمَالِهِ^{٣٤}

^{٢٥} أخرجت: الخطاب لفروق، والضمير للهائم في البيت قبله.

^{٢٦} الحمراء: هي مدينة غرناطة بالأندلس. وبغداد: حاضرة العراق.

^{٢٧} قيس: هو ابن الملوحي، وقيل هو قيس بن معاذ المعروف بالمجنون. وليل: هي محبوبته التي جُنَّ بها. يقول: إن الله صرف خياله في الشعر إلى الآستانة، فهو يجيد المعاني في وصفها، حتى شَغِفَ بها كَشَغَفِ قَيْسٍ لَيْلَى.

^{٢٨} يقول: إنه فرح لها كما فرح يوسف — عليه السلام — بخروجه من السجن.

^{٢٩} يشير بقوله «كسرور قيس بانفلات غزاله» إلى ما قيل من أن المجنون رأى ظبية في حباله صيادين، فسألها أن يُطْلِقَها ويضع مكانها شاة من غنمه، ففعل.

^{٣٠} الخميلى: الشجر الكثير الملتف. والروضة: ما اجتمع من الحدائق.

^{٣١} الديباجتان: تثنية ديباجة، وهي الوجه، يقال فلان يصون ديباجته، والديباجتان أيضًا الخدان. والخال: شامة في الخد.

^{٣٢} حوض محمد: يريد الحوض المورود يوم القيامة. ومحمد: هو النبي ﷺ.

^{٣٣} حياله: أي قبالاته وإزاءه. والحجرات: جمع حجرة، وهي الغرفة. وطه: اسم من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

^{٣٤} البشير: من أسماء النبي ﷺ أيضًا.

عيد الدهر و ليلة القدر

تِيهِي بَعِيدِكَ فِي الْمَمَالِكِ وَاسْلَمِي فِي السَّلَامِ لِلآلَافِ مِنْ أَمْثَالِهِ
وَاسْتَقْبَلِي عَهْدَ الرِّشَادِ مُجَمَّلًا بِمَحَاسِنِ الدِّسْتُورِ فِي اسْتِهْلَالِهِ
دَارُ السَّعَادَةِ أَنْتِ ذَلِكَ بِأُيُّهَا شُلَّتْ يَدُ مُدَّتْ إِلَى إِقْفَالِهِ

وداع اللورد كرومر

أيامكم أم عهد إسماعيل
أم حاكم في أرض مصر بأمره
يا مالكا رقب الرقاب ببأسه
لما رحلت عن البلاد تشهدت
أوسعتنا يوم الوداع إهانة
هلا بدا لك أن تجامل بعدما
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه

أم أنت فرعون يسوس النила^١
لا سائلا أبدا ولا مسئولا
هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا^٢
فكانك الداء العياء رحلا
أدب لعمرك لا يُصيب مثيلا
صاغ الرئيس لك الثنا إكليلا^٣
تجد الرئيس مهذبًا ونبيلا

* * *

في ملعب للمضحكات مُشيد
مثلت فيه المبكيات فصولا^٤

^١ إسماعيل: هو الخديو إسماعيل باشا. وفرعون: لقب كل ملك من ملوك مصر الأقدمين.

^٢ رقب الرقاب: استعبادها. والبأس: الشدة والقوة.

^٣ الرئيس: هو مصطفى باشا فهمي، كان رئيس مجلس الوزراء لعهد اللورد كرومر، وهو الذي أقام له حفلة توديع في دار الأوبرا يوم خروجه من مصر، وخطب له يودعه ويثني عليه، ثم خطب اللورد فأهان الأمة، وأهان الخديو إسماعيل في وجه الأمير حسين كامل (السلطان حسين)، ولم يراع شيئاً من الأدب ولا المجاملة.

^٤ يريد ملعب دار الأوبرا.

شهد «الحسين» عليه لعن أصوله
جُبْنُ أَقْلٍ وَحَطٌّ مِنْ قَدَرِيهِمَا
لَمَّا ذَكَرْتَ بِهِ الْبِلَادَ وَأَهْلَهَا
أَنْذَرْتَنَا رِقًّا يَدُومٌ وَذِلَّةً
أَحْسَبْتَ أَنَّ اللَّهَ دُونَكَ قَدْرَةً
اللَّهُ يَحْكُمُ فِي الْمُلُوكِ وَلَمْ تَكُنْ
فَرَعُونَ قَبْلَكَ كَانَ أَعْظَمَ سَطْوَةً
الْيَوْمَ أَخْلَفْتَ الْوَعْدَ حُكُومَةً
دَخَلْتَ عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ وَشَرَعِهِ
هَدَمْتَ مَعَالِمَهَا وَهَدَّتْ رُكْنَهَا
قَالُوا جَلِبَتْ لَنَا الرِّفَاهَةُ وَالْغِنَى
كَمْ مَنَّةٍ مُوهُومَةٍ أَتْبَعَتْهَا
فِي كُلِّ تَقْرِيرٍ تَقُولُ خَلَقْتُمْ
هَلْ مِنْ نَدَاكَ عَلَى الْمَدَارِسِ أَنَّهَا
وَتَصَدَّرَ «الأعمى» بِهِ تَطْفِيلًا^٥
وَالْمَرْءُ إِنْ يَجْبُنْ يَعْشُ مَرْذُولًا
مَثَّلْتَ دَوْرَ مِمَاتِهَا تَمَثِيلًا^٦
تَبْقَى وَحَالًا لَا تَرَى تَحْوِيلًا
لَا يَمْلِكُ التَّغْيِيرَ وَالتَّبْدِيلًا
دَوْلٌ تُنَازِعُهُ الْقُوَى لِنَدُولًا^٧
وَأَعَزَّ بَيْنَ الْعَالَمِينَ قَبِيلًا^٨
كُنَّا نَظُنُّ عَهْدَهَا الْإِنْجِيلًا
مَصْرًا فَكَانَتْ كَالسُّلَالِ دُخُولًا^٩
وَأَضَاعَتْ اسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولًا^{١٠}
جَحَدُوا الْإِلَهَ وَصُنْعَهُ وَالنَّبِيلًا^{١١}
مَنَّا عَلَى الْفَطْنِ الْخَبِيرِ ثَقِيلًا^{١٢}
أَفْهَلْ تَرَى تَقْرِيرَكَ التَّنْزِيلًا^{١٣}
تَذُرُ الْعُلُومَ وَتَأْخُذُ «الْفُوتِبُولًا»^{١٤}

^٥ الحسين: هو السلطان حسين كامل. والأعمى: هو الشيخ عبد الكريم سلمان، وكان قد ضعف بصره وكاد يكف.

^٦ لَمَّا ذَكَرْتَ بِهِ: أي بذلك الملعب.

^٧ لتدول: لتظهر على غيرها ويحالفها إقبال الحظ.

^٨ القبييل: الجماعة من أصل واحد.

^٩ السلال، بضم السين: هو داء السُّل.

^{١٠} المعالم: جمع مَعْلَم، وهو موضع الشيء الذي يظن الناس فيه وجوده.

^{١١} قالوا جلبت: الخطاب للورد كرومر.

^{١٢} المَنَّةُ: أَنْ تَعُدَّ لغيرك ما فعلته معه من الصنائع، كَأَنْ تَقُولَ فَعَلْتَ لَكَ كَذَا وَأَعْطَيْتَكَ كَذَا، وَهُوَ قَبِيحٌ مَذْمُومٌ.

^{١٣} كان اللورد كرومر يضع كل سنة تقريرًا مطوَّلًا عن الحالة العامة في مصر والسودان، وكان في كل تقرير يدَّعي لنفسه من وجوه الإصلاح في مصر ما يُكذِّبه الواقع.

^{١٤} الندى: الكرم. تذر: تترك. والفوتبول: كلمة من لغة الإنجليز معناها كرة القدم.

أَمْ مِنْ صَيَانَتِكَ الْقَضَاءُ بِمَصْرَ أَنْ
أَمْ هَلْ يَعُدُّ لَكَ الْإِضَاعَةَ مِنْنَةً
انْظُرْ إِلَى فِتْيَانِهِ مَا شَأْنُهُمْ
حَرَمْتَهُمْ أَنْ يَبْلُغُوا رُتَبَ الْعُلَا
فَإِذَا تَطَلَّعَتِ الْجِيُوشُ وَأَمَلَتْ
مِنْ بَعْدَمَا زَفُّوا لِإِدْوَرَدَ الْعُلَا
لَوْ كُنْتُ مِنْ حُمْرِ الثِّيَابِ عَبْدُكُمْ
أَوْ كُنْتُ بَعْضُ الْإِنْجِلِيزِ قَبْلْتُكُمْ
أَوْ كُنْتُ عَضْوًا فِي «الكلوب» مَلَأْتُهُ
أَوْ كُنْتُ قَسِيْسًا يَهِيْمُ مُبَشِّرًا
أَوْ كُنْتُ صَرَّافًا بَلَنْدَنْ دَائِنًا
أَوْ كُنْتُ «تِيْمَسْكَم» مَلَأْتُ صَحَائِفِي
أَوْ كُنْتُ فِي مَصْرٍ نَزِيْلًا جَاهِدًا
أَوْ كُنْتُ «سِرْيُونًا» حَلَفْتُ بِأَنْكُمْ
مَا كَانَ مِنْ عَقَبَاتِهَا وَصِعَابِهَا

تَأْتِي بِقَاضِي دِنْشَوَايَ وَكِيلًا^{١٥}
جِيْشَ كَجِيْشِ الْهِنْدِ بَاتَ ذَلِيْلًا
أَوَّلِيْسَ شَأْنًا فِي الْجِيُوشِ ضَعِيْلًا
وَرَفَعْتَ قَوْمَكَ فَوْقَهُمْ تَفْضِيْلًا
مُسْتَقْبَلًا لَمْ يَمْلِكُوا التَّأْمِيْلًا
فَتَحًّا عَرِيْضًا فِي الْبِلَادِ طَوِيْلًا^{١٦}
مِنْ دُونِ عِيْسَى مُحْسِنًا وَمُنِيْلًا^{١٧}
مَلِكًا أَقْطَعُ كَفَّهُ تَقْبِيْلًا
أَسْفًا لِفُرْقَتِكُمْ بُكَى وَعَوِيْلًا^{١٨}
رَتَلْتُ آيَةَ مَدْحِكُمْ تَرْتِيْلًا^{١٩}
أَعْطَيْتُكُمْ عَنْ طِيْبَةٍ تَحْوِيْلًا
مَدْحًا يُرَدِّدُ فِي الْوَرَى مُوَصُولًا^{٢٠}
سَبَّحْتُ بِأَسْمِكَ بُكْرَةً وَأَصِيْلًا
أَنْتُمْ حَيَوْتُمْ بِالْقَنَاءِ الْجِيْلًا^{٢١}
ذَلَّلْتُمُوهُ بِعِزْمِكُمْ تَذَلِيْلًا

^{١٥} قاضي دنشواي: هو أحمد فتحي زغلول باشا، كان قاضيًا في المحكمة المخصوصة التي عاقبت أهل دنشواي بالشنق والجلد والسجن، جعله اللورد كرومر بعد هذه المحاكمة وكيلًا لوزارة الحقانية، وقد كان رئيسًا لمحكمة مصر الابتدائية الأهلية.

^{١٦} يشير إلى فتح السودان، وأن الجيش المصري هو الذي قام بعبئه كله، ولم يكن لجنود الإنجليز فيه من أثر يذكر. وإدوارد: هو ملك الإنجليز.

^{١٧} حمر الثياب: هم الإنجليز. يقول: لو كنت إنجليزيًا لعبدتك ولم أعبد عيسى؛ لأنك أثلت الإنجليز وأحسنيت إليهم بما لا مثيل له من إنالة وإحسان. والخطاب للورد كرومر.

^{١٨} الكلوب: دار ندوة في القاهرة، يشترك في الإنفاق عليه كل من يشاء من السراة المصريين وكبار الموظفين الإنجليز.

^{١٩} ذلك لأن اللورد كرومر كان يؤيد التبشير بالمسيحية في مصر، ويحمي القسوس القائمين به.

^{٢٠} أو كنت تيمسكم: أي لو كنت جريدة التيمس الخاصة بكم.

^{٢١} المسيو دي سريون: مدير شركة قناة السويس.

عهدُ الفرنج وأنت تعلم عهدهم
 فارحل بحفظِ الله جلَّ صنيعُهُ
 واحمل بساقك رِبطةً في لندن
 أو شاطرِ المَلِكِ العَظيمِ بلادَهُ
 إِنَّا تَمَنَّيْنَا عَلَى اللَّهِ المُنَى
 مَن سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ فَمُحَمَّدٌ
 لا يبخسون المَحْسِنِينَ فَتَيْلَا
 مستَعْفِيًا إِن شئتَ أو معزولا
 واخْلُفْ هُناكَ غِرايَ أو كَمبَيْلا^{٢٢}
 وَسُيسِ المَمالِكَ عَرْضُها والطولا
 واللَّهُ كانَ بَنيلَهَنَّ كَفَيْلا
 مَتَمَكَّنْ عِندَ الإِلهِ رَسولا^{٢٣}

^{٢٢} واحمل بساقك رِبطة: يشير إلى نشان عند الإنجليز يُسمَّى نشان رِبطة الساق، قيل يوم عزل كرومر أُنعِمَ عليه به. وغراي وكمبيل: وزيران من وزراء الإنجليز.

^{٢٣} كان اللورد كرومر قد طعن على الدين الإسلامي في تقريره سنة ١٩٠٦م، فزعم أنه دين لا يصلح لهذا العصر، فشاعرنا يشير إلى ذلك بقوله: مَن سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... إلخ.

بين الحجاب والسفور

رِ ويا أَمِيرَ الْبُلْبُلِ ^١	صَدَّاحُ يَا مَلِكَ الْكَنَا
وَرُزِقْتُ قَرَبَ «الموصلي» ^٢	قد فَزْتُ مِنْكَ بِ «مَعْبِدٍ»
مَا رَا وَحُسْنَ تَرْتُلٍ ^٣	وَأُتِيحَ لِي «داوودُ» مِز
بِرِ قَطُّ لَمْ تَتَرَجَّلِ ^٤	فَوْقَ الْأَسْرَةِ وَالْمَنَا
مُرْتَجِّ لِحْظِ الْأَحْوَلِ ^٥	تَهْتَزُّ كَالدِينَارِ فِي
عِبٍ لَمْ تَدَعِ لِمُمَثِّلٍ ^٦	وَإِذَا خَطَرَتْ عَلَى الْمَلَا
دِقِّ فِي مَقَاطِعِ «جِرَوْلٍ» ^٧	وَلَكِ ابْتِدَاءُ «الْفِرَزِ

^١ الصَّدَّاحُ: الصيَّاح الرفيع الصوت. والكنار: الكناري، طائرٌ حسن الصوت، ريشه أبيض يضرب إلى الصفرة، وقوادم جناحيه طويلة إلى الخضرة، ويُنسب إلى جزائر كناريا، وهي الجزائر الخالدات. والبلبُل: طائرٌ صغيرٌ سريع الحركة، يُضْرَبُ به المثل في طلاقة اللسان.

^٢ معبد: مغنٍّ مشهور، كان أيام الدولة الأموية. والموصلي: يُطلق على إسحاق الموصلي وابنه إبراهيم، وكانا مغنَّيين، وكان لهما مع ذلك فقه وأدب.

^٣ داوود: النبي. ومزاميره: ما كان يترنم به من الأدعية والأناشيد.

^٤ التَرَجُّلُ: أَنْ يَنْزِلَ المرءُ عن ركوبته ويمشي.

^٥ الأحول: مَنْ فِي عينه حول.

^٦ لم تدع لممثل: أي لم تترك له ما يجيده من التمثيل والغناء؛ لأنك أجود صوتاً وفناً من كلِّ مغنٍّ وممثل.

^٧ الفرزدق: لقب همام بن صعصعة الشاعر المشهور، كان في صدر الدولة الأموية. وجرول: اسم الحطيئة، وهو شاعر أدرك الجاهلية والإسلام. والابتداءات: أوائل القصائد. والمقاطع: جمع مقطع، وهو آخر بيت من القصيدة.

ولقد تَخَذَتْ مِنَ الضُّحَى صُفَرَ الْغَلَاثِلِ وَالْحَلِي^٨
وَرَوَيْتَ فِي بَيْضِ الْقَلَا نِسَ عَنْ عِذَارَى الْهَيْكَلِ^٩

* * *

يَا لَيْتَ شِعْرِي يَا أُسَيِّدَ رُ شَجِّ فَوَاذِكْ أَمْ خَلِي^{١٠}
وَحَلِيفُ سُهَيْدٍ أَمْ تَنَا مُ اللَّيْلِ حَتَّى يَنْجَلِي^{١١}
بِالرَّغْمِ مِنِّي مَا تُعَا لُجُ فِي النَّحَاسِ الْمُقْفَلِ^{١٢}
جِرْصِي عَلَيْكَ هَوًى وَمَنْ يُحَرِّزُ ثَمِينًا يَبْخُلُ
وَالشَّخْ تُحْدِثُهُ الضُّرُ رَةٌ فِي الْجَوَادِ الْمُجَزَلِ^{١٣}
أَنَا إِنْ جَعَلْتُكَ فِي نُضَا رٍ بِالْحَرِيرِ مُجَلَّلِ^{١٤}
وَلَفَفْتُهُ فِي سَوْسَنِ وَحَفَفْتُهُ بِقَرْنَفَلِ^{١٥}
وَحَرَقْتُ أَزْكَى الْعُودِ حَوْ لَيْهِ وَأَعْلَى الصَّنَدِلِ
وَحَمَلْتُهُ فَوْقَ الْعِيَوِ نِ وَفَوْقَ رَأْسِ الْجَدُولِ^{١٦}
وَدَعَوْتُ كُلَّ أَغْرٍ فِي مُلْكِ الطَّيُورِ مُحَجَّلِ

^٨ الغلاثل: واحدها غلالة، بكسر الغين، وهي شعار يُلبس تحت الثوب. يشير بهذا المجاز إلى أن طائرته الصِّدَّاح أصفر اللون.

^٩ القلانس: جمع قلنسوة، نوع من لباس الرأس. والعذارى: جمع عذراء، وهي البكر. والهيكل: معناه هنا الموضع في صدر الكنيسة، يُقَرَّبُ فيه القربان كما تزعم النصارى. وفي هذا البيت أنواع من المجاز، ثم كناية عن المعنى المقصود، وهو يريد أن طائرته أبيض الرأس كأنه يلبس قلنسوة بيضاء، كالعذارى الراهبات المنقطعات لخدمة الهيكل.

^{١٠} الشجِّي: المشغول. والخلي: الخالي من الهم.

^{١١} الحليف: كل شيء لزم شيئاً آخر فلم يفارقه. والسهد: الأرق وعدم النوم. وينجلي: يمضي.

^{١٢} ما تعالج: أي ما تزاول وتمارس. والمراد بالنحاس المقفل: القفص الذي حُبس فيه الطائر.

^{١٣} الجواد: الكريم. والمجزل: المكثّر من العطاء.

^{١٤} النضار: الذهب. والمجلل: المغطى.

^{١٥} السوسن، بفتح السين الأولى وضمها: نبات طيب الرائحة.

^{١٦} العيون هنا: عيون الماء. والجدول: النهر الصغير.

فَأَتَتْكَ بَيْنَ مُطَارِحٍ	وَمُحَبَّبٍ وَمُدَلِّلٍ ^{١٧}
وَأَمَرْتَ بِابْنِي فَالْتَقَا	كَ بِوَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ ^{١٨}
بِيَمِينِهِ فَالْوَدُجُ	لَمْ يُهْدَلِ «الْمَتَوَكِّلِ» ^{١٩}
وَزَجَاجَةٌ مِنْ فُضَّةٍ	مَمْلُوءَةٌ مِنْ سَلْسَلِ ^{٢٠}
مَا كُنْتُ يَا «صَدَّاحُ» عِنْدَ	حَدِّكَ بِالْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ
شُهِدُ الْحَيَاةِ مَشُوبَةً	بِالرَّقِّ مِثْلُ الْحَنْظَلِ ^{٢١}
وَالْقَيْدُ لَوْ كَانَ الْجُمَا	نَ مُنْظَمًا لَمْ يُحْمَلِ ^{٢٢}
يَا طَيْرُ لَوْلَا أَنْ يَقُو	لُوا جُنَّ قُلْتُ تَعْقِلِ
اسْمِعْ فَرُبَّ مُفْصَّلِ	لَكَ لَمْ يُفِدِكَ كَمْجَمِلِ
صَبْرًا لِمَا تَشْقَى بِهِ	أَوْ مَا بَدَا لَكَ فَاغْفِلِ
أَنْتَ ابْنُ رَأْيٍ لِلطَّبِيبِ	عَةِ فِيكَ غَيْرِ مُبَدَّلِ
أَبَدًا مَرْوُوعٌ بِالْإِسَا	رِ مَهْدَدٌ بِالْمَقْتَلِ ^{٢٣}
إِنْ طَرَتْ عَنْ كَنْفِي وَقَعُ	تَ عَلَى النُّسُورِ الْجُهْلِ ^{٢٤}

* * *

يَا طَيْرُ وَالْأَمْثَالُ تُضْ	رَبُّ لِلْبَيْبِ الْأَمْثَلِ ^{٢٥}
دْنِيَاكَ مِنْ عَادَاتِهَا	أَلَّا تَكُونَ لِأَعْزَلِ ^{٢٦}
أَوْ لِلْغَبِيِّ وَإِنْ تَعَلَّ	لَ بِالزَّمَانِ الْمُقْبِلِ

^{١٧} المدلل، بفتح اللام: المرفقه.

^{١٨} المتهلل: المتلألئ.

^{١٩} الفالودج: حلواء من دقيق وعسل وماء. والمتوكل: أحد الخلفاء العباسيين.

^{٢٠} السلسل: الخمر اللينة.

^{٢١} الشهد، بضم الشين وسكون الهاء: العسل.

^{٢٢} الجمال: اللؤلؤ.

^{٢٣} الإسر: الأسر.

^{٢٤} الكنف: الجانب والناحية.

^{٢٥} الأمثل: الأفضل.

^{٢٦} الأعزل: مَنْ لَا سِلَاحَ عِنْدَهُ.

جُعِلَتْ لِحُرٍّ يُبْتَلَى فِي ذِي الْحَيَاةِ وَيَبْتَلَى
يَرْمِي وَيُرْمَى فِي جِهَا دِ الْعَيْشِ غَيْرَ مُغْفَلٍ
مُسْتَجْمِعٍ كَاللَيْثِ إِنْ يُجْهَلُ عَلَيْهِ يَجْهَلُ^{٢٧}
أَسْمَعَتْ بِالْحَكَمَيْنِ فِي الْ- إِسْلَامِ يَوْمَ «الْجَنْدَلِ»^{٢٨}
فِي الْفِتْنَةِ الْكُبْرَى وَلَوْ لَا حِكْمَةً لَمْ تُشْعَلِ^{٢٩}
رَضِيَ الصَّحَابَةُ يَوْمَ ذَ لِكَ بِالْكِتَابِ الْمُنْزَلِ^{٣٠}
وَهُمُ الْمَصَابِيحُ الرُّوَا دُ عَنْ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ
قَالُوا الْكِتَابُ وَقَامَ كُلُّ مُفَسِّرٍ وَمُتَوَلِّ
حَتَّى إِذَا وَسَّعَتْ «مَعَا وَيَّةٌ» وَضَاقَ بِهَا «عَلِيٌّ»^{٣١}
رَجَعُوا لَظْلَمٍ كَالطَّبَا نَعٍ فِي النَفُوسِ مُؤَصَّلِ
نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ الْقَوِيِّ وَعِنْدَ رَأْيِ الْأَحْيَلِ^{٣٢}
صَدَّاحُ حَقٍّ مَا أَقْوَا لُ حَفَلَتْ أُمٌ لَمْ تَحْفَلِ
جَاوَرَتْ أُنْدَى رَوْضَةٍ وَحَلَلَتْ أَكْرَمَ مَنْزِلِ
بَيْنَ الْحَفَاوَةِ مِنْ حُسَيْبٍ مِنْ وَالرَّعَايَةِ مِنْ عَلِيٍّ
وَحَنَانٍ «أَمْنَةٍ» كَأَمٍّ لَكَ فِي صَبَاكَ الْأَوَّلِ^{٣٣}

^{٢٧} المستجمع: مَنْ يبذل غاية إمكانه. ويُجْهَلُ عليه: يتسافه عليه.

^{٢٨} الحكمان: هما أبو موسى الأشعري، ارتضاه الإمام عليٌّ حَكَمًا لَهُ، وعمرو بن العاص، اختاره معاوية حَكَمًا لَهُ، وقصة هذا التحكيم مشهورة. ويوم الجندل: وهو أحد أيام الحرب بين عليٍّ ومعاوية. والجندل: اسم مكان.

^{٢٩} ولولا حكمة: أي ولولا حكمة أرادها الله تعالى لم تُشْعَلِ تلك الفتنة.

^{٣٠} رضي الصحابة ... إلخ: ذلك أن أصحاب معاوية لما رأوا أن الهزيمة ستكون لهم، رفعوا المصاحف على أطراف الأُسْتَةِ، ونادَوْا عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ أَنْ يَنْزِلُوا وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَأَمَرَ عَلِيٌّ أَصْحَابَهُ أَنْ يَكْفُوا عَنْ الْحَرْبِ.

^{٣١} حتى إذا وسعت معاوية: أي حتى إذا وسعت ولاية الأمر معاوية بسبب أن الحيلة التي فعلها عمرو بن العاص جازت على أبي موسى الأشعري، رجعوا لظلم ... إلى آخر ما في البيتين التاليين.

^{٣٢} الأحيل: الأكثر حيلة.

^{٣٣} حسين، وعلي، وأمنة: أبناؤه.

أبناءً بالمستقبلِ	صَحَّ بالصَّباحِ وببُشرِ الـ
تأتي وتهبطُ من علِّ	واسألْ لمصرَ عنايةً
والخيرَ منك فأرسلِ	قل ربِّنا افتح رحمةً
مة ربِّنا وتَقَبَّلِ	أدركْ كنانَتَكَ الكريـ

العلم والتعليم وواجب المعلم^١

قُمْ للمعلِّم وفِّهِ التبجيلا
أعلِّمتْ أَشْرَفَ أو أَجَلَّ مِنَ الذي
سبحانَكَ اللهم خيرَ مُعلِّمٍ
أخرجْتَ هذا العقلَ من ظلماتِهِ
وطبعتَهُ بيدِ المعلِّم تارةً
أرسلْتَ بالتَّوراةِ موسى مُرْشِداً
وفجَّرتَ يَنْبوعَ البَيانِ محمداً
علِّمتَ يوناناً ومصرَ فزالتا
واليومَ أَصْبَحْتَا بِحالِ طُفولَةٍ
من مَشْرِقِ الأرضِ الشُّموسُ تظاهَرتْ
يا أرضُ مُذْ فَقَدَ المعلِّمُ نَفْسَهُ

كاد المعلِّمُ أن يكون رسولا
يبنِي وَيُنشِئُ أنفُساً وعقولا
علِّمتْ بالقلمِ القرونَ الأولى
وهديتْهُ النورَ المُبينَ سبيلا
صَدِئَ الحديدِ وتارةً مصقولاً^٢
وابنَ البتولِ فعَلَّمَ الإنجيلا^٣
فسقى الحديثَ وناولَ التنزيلا^٤
عن كلِّ شمسٍ ما تُريدُ أفولا
في العلمِ تلتَمَسانِهِ تطفيلاً^٥
ما بالُ مَغْرِبِها عليه أدبلا^٦
بينَ الشُّموسِ وبينَ شَرْقِكِ جِلا

^١ أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلٍ قام به نادي مدرسة المعلمين العليا.

^٢ طبع السيف: صاغه. وصدئ الحديد: أي غير مجلّ ولا مصقول.

^٣ البتول: لقب السيدة مريم عليها السلام.

^٤ التنزيل: القرآن.

^٥ التطفيل: التطفّل.

^٦ أدبيل المغرب على المشرق: أي فاقه وانتزع منه الدولة.

ذهب الذين حمّوا حقيقة علمهم
في عالمٍ صجِبَ الحياةَ مقيّدًا
صرعته دنيا المستبِدِّ كما هوت
سقراطُ أعطى الكأسَ وهي مَنيّةٌ
عرضوا الحياةَ عليه وهي غباوةٌ
إن الشجاعة في القلوبِ كثيرةٌ
واستعذبوا فيها العذابَ وببلا
بالفردِ مخزومًا به مغلولًا^٧
من ضربةِ الشمسِ الرعوسُ ذُهلًا
شفَتني مُحبٌّ يشتهي التقبيلًا
فأبى وأثر أن يموت نبيلًا^٨
ووجدتُ شجعانَ العقولِ قليلًا

* * *

إن الذي خلق الحقيقةَ علقمًا
ولربّما قتل الغرامُ رجالها
أوكلُ من حامى عن الحقِّ اقتنى
لو كنتُ أعتقدُ الصليبَ وخطبهُ
لم يُخلِ من أهلِ الحقيقةِ جيلًا
قُتل الغرامُ كم استباحَ قتيلا
عندَ السوادِ ضغائنًا وذُحولًا^٩
لأقمتُ من صلبِ المسيحِ دليلًا

* * *

أُعلِّمي الوادي وساسةَ نشئهِ
والحاملينَ إذا دُعوا ليُعلِّموا
كانت لنا قدمٌ إليه خفيفةٌ
حتى رأينا مصرَ تخطو أصبعًا
تلك الكفورُ وحشوها أُميَّةٌ
تجدُ الذين بنى «المسلّة» جدُّهم
ويُدلّلون إذا أُريدَ قيادُهم
يتلو الرجالُ عليهم شهواتهم
الجهلُ لا تحيا عليه جماعةٌ
والطابعينَ شبابهَ المأمولا
عبءَ الأمانةِ فادحًا مسئولا
ورمتُ بدنلوبٍ فكان الفيلا^{١٠}
في العلمِ إن مشّت الممالكُ ميلا
من عهدِ «خوفو» لم ترَ القنديلا
لا يُحسِنون لإبرةِ تشكيلا
كالْبُهْمِ تأنسُ إذ ترى التدليلا
فالناجحون ألدُّهم ترتيلا
كيف الحياةُ على يدي عزريلا

^٧ مخزومًا به: أي مسخرًا له.

^٨ النبل: الذكاء.

^٩ الذحول: جمع نحل، وهو الثأر.

^{١٠} الفيل: ورُمّ يصيب الساق. ودنلوب: مستشار إنجليزي مُنيت به نظارة المعارف المصرية، فأساء إلى العلم والتعليم.

والله لولا ألسُنٌ وقرائحٌ دارت على فِطَنِ الشَّبَابِ شَمولاً^{١١}
وتعهَّدَت من أربعين نفوسَهم تغزو القنوطَ وتغرُسُ التأميلاً
عرِفَت مواضعَ جذبهم فتتابعَت كالعين فيضاً والغمام مَسيلاً
تُسدي الجميلَ إلى البلاد وتستحي من أن تُكافأ بالثناءِ جميلاً
ما كان دنلوبٌ ولا تعلیمُهُ عند الشدائد يُغنيان فتيلاً

* * *

رَبُّوا على الإنصافِ فتیانَ الحمى تجدوهم كهفَ الحقوق كهولاً
فهو الذي يبني الطباعَ قويمَةً وهو الذي يبني النفوسَ عُدولاً
ويُقيمُ منطقَ كلِّ أعوجِ منطقٍ ويُريه رأياً في الأمور أصيلاً
وإذا المعلمُ لم يكن عدلاً مشى رُوحُ العدالة في الشباب ضئيلاً
وإذا المعلمُ ساءَ لحظٌ بصيرةٍ جاءت على يده البصائرُ حُولاً^{١٢}
وإذا أتى الإرشادُ من سببِ الهوى ومن الغرورِ فسَمَّه التضليلاً
وإذا أُصيبَ القومُ في أخلاقهم فأقمَ عليهم مأتماً وعويلاً
إنِّي لأعذرکم وأحسبُ عِبأکم من بينِ أعباءِ الرجالِ ثقيلاً
وجد المُساعدَ غيرُکم وحُرمتُم في مصرَ عَوْنِ الأمهاتِ جليلاً
وإذا النساءُ نشأنَ في أُميَّةٍ رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخملاً
ليس اليتيمُ من انتهى أبواه من همَّ الحياةِ وخلفاه ذليلاً
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما وبُحَسِن تربيَةِ الزمانِ بديلاً
إنَّ اليتيمَ هو الذي تَلَقَى له أُمًّا تَخَلَّتْ أو أباً مشغولاً^{١٣}

* * *

مصرٌ إذا ما راجعت أيامها لم تلقَ للسَّبتِ العظيمِ مثيلاً^{١٤}

^{١١} الفطن: جمع فطنة، وهي الحذق والذكاء. والشمول: الخمر.

^{١٢} الحَوْل: جمع حولاء، والحولاء مَنْ في عينها حَوْل، والحَوْل إقبال الحدقة على الأنف، وهو عيب.

^{١٣} أُمًّا تَخَلَّتْ عن تربيته، وأباً مشغولاً عن العناية به وتهذيبه.

^{١٤} السبت: ١٥ مارس سنة ١٩٢٤م، وهو اليوم الذي افتُتِح فيه «البرلمان» الأول، وقد كان هذا اليوم قريباً من يوم الاحتفال.

ظلاً على الوادي السعيد ظليلاً
ألا يكون على البلاد بخيلاً
دنت القطوف وذُللت تذليلاً
وضعوا على أحجاره إكليلاً
جمًّا وحظُّ الميِّت منه جزيلاً
حتى يرى جنديَّه المجهولاً^{١٥}
لا تبعثوا للبرلمان جهولاً
أحملن فضلاً أم حملن فضولاً
لم تلقَ عند كماله التمثيلاً
لأولي البصائر منهم التفضيلاً
لجهالة الطبع الغبيِّ مَحِيلاً
ثم انقضى فكأنه ما قِيلاً
مَن كان عندكم هو المخذولاً
كرَّم الشبابُ شمائلًا وميولاً
صوت الشباب مُحبَّبًا مقبولاً
أجدُ الثباتَ لكم بهنَّ كفيلاً
فألهُ خيرُ كافلاً ووكيلاً

«البرلمان» غداً يُمدُّ رواقه
نرجو إذا التعليم حرَّكَ شجوه
قل للشباب اليوم بُورك غرسكم
حيُّوا من الشهداء كلَّ مُغيِّب
ليكون حظُّ الحيِّ من شكرانكم
لا يلمس الدستور فيكم رُوحه
ناشدتكم تلك الدماءُ زكيةً
فليسألنَّ عن الأرائك سائلُ
إن أنت أطلعت المُمثِّل ناقصاً
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا
إن المُقصرَ قد يحولُ ولن ترى
فلربَّ قولٍ في الرجالِ سمعتمُ
ولكم نصرتم بالكرامة والهوى
كرَّم وصفح في الشباب وطالما
قوموا اجمعوا شُعَبَ الأبوةِ وارفَعوا
ما أبعد الغايات إلا أنني
فَكِلُوا إلى الله النجاح وثابروا

^{١٥} يريد بالجندي المجهول: مَنْ يعمل في غير جلبة ولا ضوضاء، وفي غير انتظار مكافأة أو جزاء.

بنك مصر^١

واذكرُ رجالاً أَدَالُوها بإجمالٍ
لا في جوانبِ رسمِ المنزلِ البالي
في العينِ أزيَنَ من بُنيانِها الحالي
على مثالٍ من الدنيا ومِنوالٍ
وبؤسُ ساعٍ ونُعْمَى قاعدٍ سالي
والناسُ مُذْ خَلِقُوا عُبادُ تمثالٍ
أو الممالكُ فاندُبْها كأطلالٍ
خُذْها من العلمِ أو خُذْها من المالِ
لم يُبْنَ ملكٌ على جهلٍ وإقلالٍ
يُدُ الدعاءِ سراعاً غيرَ بُخَالٍ
فامضوا إلى الماءِ لا تَكُؤُوا على الآلِ^٢
وبينَ زَهْرٍ من الأحلامِ قتالٍ
رأياً لرأيٍ ومِثقالاً لمِثقالٍ
فابنوا بِناءَ قريشٍ بيتَها العالي

قَفْ بالممالكِ وانظرْ دولةَ المالِ
وانقلْ ركابَ القوافي في جوانبِها
ما هيكُلُ الهرمِ الجيزيِّ من ذهبٍ
عَلا بها الجِرْصُ أركاناً وأخرجها
فيها الشقاءُ لقومٍ والنعيمُ لهم
والمالُ مُذْ كانَ تمثالٌ يُطافُ به
إذا جفا الدُّورُ فأنعَ النازلين بها
يا طالباً لمعالي الملكِ مجتهداً
بالعلمِ والمالِ يبني الناسُ مُلكَهُم
سِراةَ مصرَ عهدناكم إذا بَسَطَتْ
تَبَيَّنَ الصدقُ من بينِ الأمورِ لكم
لا يذهبُ الدهرُ بينَ التُّرُهاَتِ بكم
هاتوا الرجالَ وهاتوا المالَ واحتشدوا
هذا هو الحجرُ الدرِّيُّ بينكم

^١ قِيلَتْ هذه القصيدة في الاحتفال بإنشاء بنك مصر بدار «الأوبرا» الملكية.

^٢ الآل: السراب.

الشوقيات

دارُ إذا نزلت فيها ودائعُكم أودعتُم الحَبَّ أرضًا ذاتَ إغلالِ
أمالُ مصرَ إليها طالما طمحت هل تبخلونَ على مصرَ بآمالِ
فابنوا على بركاتِ الله واغتنموا ما هَيَّأَ اللهُ من حظٍّ وإقبالِ

مرحبًا بالهلال^١

العامُ أَقْبَلَ قُمْ نُحْيِ هَلالاً
طُغْرَى كِتَابِ الكائِناتِ لِقارِي
مَلَكِ السَّماءِ فَكانَ في كُرْسِيِّه
تَتَنافَسُ الأَمالُ فيه كَأَنَّهُ
والشَّمْسُ تُزَلِّفُ عِيدَها وتُرْفُهُ
عِيدُ المَسيحِ وعِيدُ أَحمدَ أَقبَلا
مِيلادُ إِحسانٍ وهجرَةُ سُودِدِ

كالتاجِ في هامِ الوجودِ جلالاً
يَزِنُ الكلامَ وَيَقْدُرُ الأَقوالا
بِينَ الملائِكِ والملوكِ مِثْلالا
تُغْرِ العِنايةَ ضاحِكِ الأَمالا
بُشْرَى بِمَطلَعِ السَّعيدِ وفالا^٢
يَتبارِيانِ وضاءَةً وجمالا
قد غَيَّرا وَجَهَ البَسيطةِ حالا

* * *

قُمْ لِلهلالِ قِيامَ مُحْتَفِلٍ بِهِ
نورَ السَّبيلِ هَدَى لِكُلِّ فَضيلَةٍ
ما بَينَ مَولِدِهِ وبَينَ بِلوِغِهِ
مُتَواضِعُ وَاللَّهُ شَرَّفَ قَدْرَهُ
مُتَوَدِّدٌ عِندَ الكَمالِ تَخالُّهُ

أُثنى وبالغِ في الثناءِ وغالى
يَهْدِي الحَكيْمُ لَها وَسَنَ خِلالا
مَلأَ الحِياةَ مآثِراً وفَعالا
بِالشَّمسِ نَدًا والكواكِبِ آلا^٣
في راحَتِكَ وَعَزَّ ذاكَ مَنالا

^١ قِيلَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ فِي رَأْسِ سَنَةِ ١٣٢٦ هَجْرِيَّةً.

^٢ تَزَلَّفُهُ: أَيِ تَقَرَّبَ بِهِ.

^٣ النَّدُّ: النَّظِيرُ. وَالْأَلُّ: الْأَهْلُ.

وافٍ لجارة بيته يرمى لها
عَوْنُ السُّرَاةِ على تصاريِفِ النوى
ويُصَانُ من سِرِّ الصَّبَابَةِ عندهُ
ويُشَكُّ فيه فلا يُكَلِّفُ نفسهُ
سَاءتْ ظَنُونُ الناسِ حتى أحدثوا
والظَنُّ يأخذُ في ضميرك مأخذًا
ومن العجائبِ عندَ قِمَةِ مَجْدِهِ
يطوي إلى الأَوَجِ السمواتِ العُلا
ويُفْلُ من هُوجِ الرياحِ عزائمًا
ويُضِيءُ أَثناءَ الخُمائلِ والرُّبَى
ويَجُولُ في زهرِ الرياضِ كأنه

* * *

أُمَمَ الهلالِ مقالةً من صادقٍ
مُتَلَطِّفٍ في النصحِ غيرِ مُجَادِلٍ
من عادةِ الإسلامِ يرفعُ عاملاً
ظلمتهُ ألسنةُ تُؤَاخِذهُ بكم
هذا هلالُكمُ تكفَّلَ بالهدى
سَرَتِ الحضارةُ حَقَبَةً في ضوئه
وبنى له العربُ الأجاوُدُ دُولَةً
رفعوا له فوقَ السَّمَاكِ دعائمًا
اللهُ جلَّ ثَنَاؤُهُ بلسانهم
وتخيَّرَ الأخلاقَ أحسنها لهم
كالرُّسُلِ عزماً والملائكِ رحمةً

٤ جارة بيته: هي الزهرة التي تلازمه دائماً. وبيته: هو الهالة التي تحيط به.

٥ السُّرَاة: السائرون ليلاً.

٦ السرُّ المذال: الذي لا يُكْتَم.

عَدَلُوا فَكَانُوا الْغَيْثَ وَقَعًا كُلَّمَا
وَالْعَدْلُ فِي الدُّوَلِثِ أُسُّ ثَابِتُ
أَيَّامَ كَانَ النَّاسُ فِي جَهْلَاتِهِمْ
مَنْ جَهْلِهِمْ بِالْدِّينِ وَالْدُنْيَا مَعًا
ضَلُّوا عَقُولًا بَعْدَ عِرْفَانِ الْهَدْيِ
حَتَّى إِذَا انْقَسَمُوا تَقَوَّضَ مُلْكُهُمْ
لَوْ أَنَّ أَبْطَالَ الْحُرُوبِ تَفَرَّقُوا
نَهَبُوا يَمِينًا فِي الْوَرَى وَشَمَالًا
يُفْنِي الزَّمَانَ وَيُنْفِدُ الْأَجْيَالَ
مِثْلَ الْبَهَائِمِ أُرْسِلَتْ إِرْسَالًا
عَبَدُوا الْأَصَمَّ وَاللَّهُوَ التَّمَثَلَا
وَالْعَقْلُ إِنْ هُوَ ضَلَّ كَانَ عِقَالًا^٧
وَالْمُلْكُ إِنْ بَطَلَ التَّعَاوُنُ زَالَا
غَلَبَ الْجَبَانُ عَلَى الْقَنَا الْأَبْطَالَا

^٧ العقال: في الأصل يُشَدُّ بِهِ الْبَعِيرُ، وَهَذَا بِمَعْنَى الْقَيْدِ.

يا شباب الديار^١

غالٍ في قيمة ابن بطرس غالي
نحتفي بالأديب والحق يقضي
أدبُ الأكثرين قولٌ وهذا
يُظهرُ المدحُ رونقَ الرجلِ الما
رُبَّ مدحٍ أذاع في الناس فضلاً
وثناءً على فتى عمّ قومًا
إنما يُقدَّرُ الكرامَ كريمٌ
وإذا عظمَ البلادَ بنوها
توجَّتْ هامهم كما توجَّوها

علمَ الله ليس في الحقِّ غالي^٢
وجلالُ الأخلاقِ والأعمالِ
أدبٌ في النفوسِ والأفعالِ
جدُّ كالسيفِ يزدهي بالصِّقالِ^٣
وأَتاهم بقُدوةٍ ومِثالِ
قيمةِ العِقدِ حُسْنُ بعضِ اللاكي
ويُقيِّمُ الرجالُ وزنَ الرجالِ^٤
أنزلتْهم منازلَ الإجلالِ
بكريمٍ من الثناءِ وغالي

^١ قِيلَتْ هذه القصيدة في تكريم واصف غالي باشا سنة ١٩٠٦م (واصف غالي بك يومئذٍ)، ولعلها كانت أول دعوة إلى اتحاد عنصري هذه الأمة الكريمين، ولعل صاحب الديوان كان يتكشف له الغيب، فبرى خيال هذا الاتحاد، ويدعو إليه، والناس عنه عمّون، وحديث المؤتمرين ما زال يومئذٍ ملء الأفواه والأسماع، ولقد شاء الله أن يستجيب دعاءه، وأن يربط بين الأخوين برباطٍ مقدس، كان لصاحب الديوان فضل الخيط الأول في نسيجه.

^٢ غالٍ في المدح: بالغ فيه. وغالي (الثانية): إما أن يُراد بها الأمر، أو يُراد بها اسم والد المكرّم المرحوم بطرس باشا غالي.

^٣ صقل السيف صقالاً: جلاه.

^٤ قدّره: عظّمه.

سلاق في دولة المَشارِقِ عالي
هذَّبَتْه تَجاربُ الأحوالِ
فَعُ لا للهوى ولا للضلالِ
عَصَرَ العُرْبُ في السنينِ الخوالي
رِ وأوعى جوائزَ الأمثالِ^٥
في أداءِ الوجوه والأشكالِ
شَرَكَ الحُسْنِ أو شباكِ الدلالِ
لِ إذا لاحَ وهو بالزهرِ حالي
لِ تَجَلَّى على رعاةِ الضالِ^٦
زال أهلوهُ وهو في إقبالِ
واللسانُ المُبينُ ليس ببالي
قام فحلُ فحالِ دونَ الزوالِ

إنما «واصفُ» بناءً من الأخـ
ونجيبُ مُهذَّبٌ من نجيبِ
واهِبُ المالِ والشبابِ لِمَا يَنـ
ومُذيقُ العقولِ في الغربِ ممَّا
في كتابِ حوى المَحاسِنِ في الشُعـ
من صفاتِ كأنها العينُ صدقًا
ونسيبِ تُحاذِرُ الغيْدُ منه
ونظامٍ كأنه فلَكُ الليـ
وبيانٍ كما تَجَلَّى على الرُؤسـ
ما عَلِمْنَا لغيرهم من لسانِ
بَلَيْتِ هاشمٍ وبادت نزارُ
كُلِّما همَّ مَجْدُهُ بزوالِ

* * *

حِ فهذا تشبُّثٌ بمُحالِ
بِ ودعوى من العِراضِ الطَّوالِ
أُمَّةٌ وُجِّدَتْ على الأجيالِ
فهو أصلٌ وأدمُ الجَدُّ تالي
ومن مائِهِ القَرَّاحِ الزُّلالِ^٧
رُسِّفًا في القيودِ والأغلالِ
سِ وحثوِ الترابِ والإعوالِ
ا لِطَّةَ ودينه بجمالِ
وتُضاعُ الأمورُ بالإهمالِ
ولواءِ العرينِ للأشبالِ

يا بَنِي مصرَ لم أَقلْ أُمَّةَ القَبـ
واحتيالٌ على خيالٍ من المَجـ
إنما نحنُ مسلمينَ وقبَطًا
سبق النيلُ بالأبوةِ فينا
نحن من طينةِ الكريمِ على الله
مَرَّ ما مَرَّ من قرونِ علينا
وانقضى الدهرُ بينَ زَغَرِدَةِ العُرـ
ما تَحَلَّى بكم يسوعُ ولا كُنَّـ
وتُضاعُ البلادُ بالنومِ عنها
يا شبابَ الديارِ مصرُ إليكم

^٥ يشير إلى كتابِ فرنسي ألفه واصف باشا، وكان موضع تكريمه.

^٦ الضال: نوع من الشجر، والمراد: رعاة ما يأكل الضال من الحيوان؛ أي رعاة الإبل.

^٧ الماء القراح: الصافي.

يا شباب الديار

كُلَّمَا رُوعَتْ بِشَبْهَةِ يَأْسٍ جَعَلَتْكُمْ مَعَاقِلَ الْأَمَالِ
هَيَّئُوهَا لِمَا يَلِيقُ بِمَنْفٍ وكَرِيمِ الْأَثَارِ وَالْأَطْلَالِ
وَانْهَضُوا نَهْضَةَ الشُّعُوبِ لِدُنْيَا وَحَيَاةٍ كَبِيرَةِ الْأَشْغَالِ
وَالِلَّهِ مَنْ مَشَى بِصَلِيبٍ فِي يَدَيْهِ وَمَنْ مَشَى بِهَلَالِ

نهج البردة

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَانِ وَالْعَلَمِ
رَمَى الْقَضَاءُ بَعَيْنَيَّ جُؤْذِرٍ أَسَدًا
لَمَّا رَنَا حَدَّثْتَنِي النَّفْسُ قَائِلَةً
جَحَدْتُهَا وَكَتَمْتُ السَّهْمَ فِي كَبْدِي
رُزِقْتَ أَسْمَحَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خُلُقٍ
يَا لَأَتَمِّي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدْرٌ
أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهَرِ الْحُرْمِ^١
يَا سَاكِنَ الْقَاعِ أَدْرِكْ سَاكِنَ الْأَجَمِ^٢
يَا وَيْحَ جَنْبِكَ بِالسَّهْمِ الْمُصِيبِ رُمِي^٣
جُرْحُ الْأَحِبَّةِ عِنْدِي غَيْرُ ذِي أَلَمٍ
إِذَا رُزِقْتَ التَّمَسَّاسَ الْعُذْرَ فِي الشَّيْمِ^٤
لَوْ شَقَّكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعِزِلْ وَلَمْ تَلْمِ^٥

^١ الرِّيمُ (بالهمزة ويُخَفَّفُ بقلب الهمزة ياءً): الطَّيْرُ الْخَالِصُ الْبَيَاضُ. وَالْقَاعُ: الْأَرْضُ السَّهْلَةُ الْمَطْمَئِنَّةُ. وَالْبَانُ: جَمْعُ بَانَةٍ، ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ. وَالْعَلَمُ: الْجَبَلُ. وَالْأَشْهَرُ الْحَرَمُ: أَرْبَعَةٌ؛ ثَلَاثَةٌ مُتَابِعَةٌ هِيَ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَوَاحِدُهُ فَرْدٌ وَهُوَ رَجَبٌ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تَسْتَحِلُّ فِيهَا الْقِتَالَ، وَفِي الشُّطْرِ الثَّانِي طَبَاقٌ بَيْنَ قَوْلِهِ «أَحَلَّ» وَقَوْلِهِ «الْحَرَمَ»، وَلَا يَذْهَبُ عَنِ الْقَارِئِ مَا فِي الْبَيْتِ مِنْ بَرَاةِ الْاسْتِهْلَالِ.

^٢ الْجُؤْذَرُ: وَلَدُ الْبَقْرَةِ الْوَحْشِيَّةِ. وَالْأَجَمُ: جَمْعُ أَجْمَةٍ، وَهِيَ الشَّجَرُ الْكَثِيرُ الْمَلْتَفُ، وَهُوَ مَسْكَنُ الْأَسَدِ. يَرِيدُ بِالْجُؤْذَرِ الْمَحْبُوبَةِ الَّتِي شَبَّهَهَا فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ بِ «الرَّيْمِ» تَشْبِيهًا لَهَا بِالْجُؤْذَرِ فِي جَمَالِ عَيْنَيْهِ وَاتِّسَاعِهِمَا. وَيَرِيدُ بِ «الْأَسَدِ» نَفْسَهُ. وَفِي الشُّطْرِ الثَّانِي يَسْتَعِيثُ بِالْمَقْتُولِ لِلْقَاتِلِ — لَا مِنْهُ — وَيَسْتَنْجِدُ لِلْأَسَدِ بِالْغِزَالِ، وَهُوَ بَدِيعٌ.

^٣ رَنَا: أَدَامَ النَّظَرَ مَعَ سُكُونِ الطَّرْفِ. وَيَا وَيْحَ: كَلِمَةٌ تُقَالُ لَمَنْ وَقَعَ فِي الشَّدَةِ وَالْمَكْرُوهِ، يُسْتَنْجَدُ لَهُ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ.

^٤ جَحَدْتُهَا: الْجَحْدُ هُوَ الْإِنْكَارُ مَعَ الْعِلْمِ.

^٥ الشَّيْمُ: جَمْعُ شَيْمَةٍ، وَهِيَ الْخُلُقُ وَالطَّبِيعَةُ.

^٦ شَقَّكَ الْوَجْدُ: أَهْزَلَهُ وَأَنْحَلَ جِسْمَهُ.

لقد أنلنتك أذنًا غيرَ واعيةٍ
يا ناعسَ الطرفِ لا نُقَتَ الهوى أبدًا
أفديك إلْفًا ولا ألوَ الخيالَ فدَى
سرى فصادفَ جرحًا داميًا فأسا
من الموائسُ بانًا بالرُّبا وقنًا
السافراتُ كأمثالِ البُدرِ ضحَى
القاتلاتُ بأجفانٍ بها سَقَمُ
العائثاتُ بألبابِ الرجالِ وما
المُضرماتُ خُدودًا أسفرتَ وجلتَ
الحاملاتُ لواءَ الحُسنِ مختلفًا
من كلِّ بيضاءٍ أو سمرَاءٍ زِينَتَا

وَرُبَّ مُنْتَصِتٍ وَالْقَلْبُ فِي صَمَمٍ^٧
أُسْهَرَتْ مُضْنَاكَ فِي حَفِظِ الْهَوَى فَنَمَ^٨
أَغْرَاكَ بِالْبَخْلِ مَنْ أَغْرَاهُ بِالْكَرَمِ^٩
وَرُبَّ فَضْلٍ عَلَى الْعُشَاقِ لِلْحُلُمِ^{١٠}
اللاعِبَاتُ بِرُوحِي السَّافِحَاتُ دَمِي^{١١}
يُغَرِّنُ شَمْسَ الضُّحَى بِالْحَلِيِّ وَالْعَصَمِ^{١٢}
وَلِلْمُنْيَةِ أَسْبَابُ مِنَ السَّقَمِ
أَقْلَنَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّلِّ فِي الرَّسَمِ^{١٣}
عَنْ فِتْنَةٍ تُسَلِّمُ الْأَكْبَادَ لِلضَّرَمِ^{١٤}
أَشْكَالُهُ وَهُوَ فَرْدٌ غَيْرُ مُنْقَسِمِ^{١٥}
لِلْعَيْنِ وَالْحُسْنُ فِي الْأَرَامِ كَالْعَصَمِ^{١٦}

^٧ انتصت: سكت سكوتَ مُستمع. وفي الشطر الثاني من البيت طباق بين قوله «منتصت»، وقوله «في صمم».

^٨ الناعس: الوسنان. والطرف (بالفتح): العين. والمضنى: الذي أثقله المرض. ومضناك: الذي أضنيته بما لحقه من الوله عليك. وفي الشطر الثاني طباق بين قوله «أسهرت»، وقوله «فنم».

^٩ الألو هنا: المنع والتقصير. وأغراه بالشيء: زينه له وحرضه عليه.

^{١٠} السرى: المشي في الليل. وأسا الجرح يأسوه: داواه.

^{١١} الموائس: جمع مائسة، وهي المتبخثرة. والبان: ضرب من الشجر، واحدها بانه، يُشبه القوام بأغصانها لِدُونَتِهَا. والقنا: جمع قناة، وهي الرمح. وسفح الدم: سفكه وأساله.

^{١٢} يقال سفرت المرأة: أي كشفت عن وجهها. والحلي: ما تُزَيَّن به المرأة من مَصَوِّغِ المعادن وكريم الحجاره. والعصم: القلائد، جمع عصمة، كعنب وعنية.

^{١٣} العثرة: الزلة والسقطة. وأقاله من عثرته: أنهضه منها. والدلُّ: قريب المعنى من الهدى، وهما من السكينة والوقار في الهيئة والمنظر والشماثل وغير ذلك. والرسم: حُسْنُ المشي.

^{١٤} الضرم: اشتعال النار.

^{١٥} اللواء: العلم، وحمل لواء الحسن كناية عن نهاية الحُسن فيه.

^{١٦} العصم: جمع أعصم، الذي فيه العصمة (بالضم)، وهي بياض اليدين، والعصماء من المعز البيضاء الذراعين وساثرها أسود أو أحمر، وحركَ الصاد إتياعًا لحركة العين قبلها.

يُرْعَنَ لِلْبَصْرِ السَّامِي وَمَنْ عَجِبَ
وَضَعْتُ خَدِّي وَقَسَمْتُ الْفَوَادَ رُبَا
يَا بِنْتَ ذِي اللَّبَدِ الْمَحْمِي جَانِبُهُ
مَا كُنْتُ أَعْلَمُ حَتَّى عَنْ مَسْكَنُهُ
مَنْ أَنْبَتَ الْغُصْنَ مِنْ صَمْصَامَةٍ ذَكَرَ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ سُمْرِ الْقَنَا حُجْبُ
لَمْ أَغْشَ مَغْنَاكَ إِلَّا فِي غُضُونِ كَرَى
يَا نَفْسُ دُنْيَاكَ تُخْفِي كُلَّ مُبْكِيَةٍ

إِذَا أَشْرَنَ أُسْرَنَ اللَّيْثُ بِالْعَنَمِ^{١٧}
يَرْتَعَنُ فِي كُنُسٍ مِنْهُ وَفِي أَكْمِ^{١٨}
أَلْقَاكَ فِي الْغَابِ أَمْ أَلْقَاكَ فِي الْأُطَمِ^{١٩}
أَنْ الْمُنَى وَالْمَنَايَا مَضْرِبُ الْخِيَمِ^{٢٠}
وَأَخْرَجَ الرِّيمَ مِنْ ضَرْغَامَةٍ قَرِمِ^{٢١}
وَمِثْلُهَا عِفَّةٌ عُذْرِيَّةُ الْعِصَمِ^{٢٢}
مَغْنَاكَ أَبْعَدُ لِلْمَشْتَاقِ مِنْ إِرَمِ^{٢٣}
وَإِنْ بَدَا لَكَ مِنْهَا حُسْنٌ مُبْتَسَمِ^{٢٤}

^{١٧} يرعن: يخفن. والعنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء تُشَبَّه بها البنان المخضوبة. وفي البيت جناس بين قوله «أشرن»، وقوله «أسرن».

^{١٨} وضع الخد هنا: كناية عن الخضوع والاستسلام. والكنس (بضمّتين): جمع كناس، وهو مُسْتَقَرُّ الطلاب في الشجر. والأكم: جمع أكمة، وهي الموضع يكون أشدَّ ارتفاعاً ممّا حوله.

^{١٩} اللبد: جمع لبد، وهي الشعر المترابك بين كتفي الأسد. والغاب: جمع غابة، وهي الشجر المتكاثر. والأطم: القصر، وكل حصن مبني بالحجارة.

^{٢٠} عن الشيء: بان وظاهر. والمنايا: جمع المنية، وهي الموت. يريد بـ «المنى» محبوبته، أو لقاءها؛ وبـ «المنايا» أباه، أو لقاءه، مبالغةً. ومضرب الخيم: المكان الذي تُضْرَب فيه وتُقام؛ أي حيث تنزل تلك المحبوبة في جوار أبيها. وفي البيت جناس.

^{٢١} الصمصامة: السيف. والضرغامة: الأسد. والقرم: شديد الشهوة إلى اللحم، وهنا كناية عن شدة البأس والافتراس. وأراد بـ «الغصن» و«الرّيم» معشوقته، وبـ «الصمصامة» و«الضرغامة» أباهما. يتعجب كيف يُولَدَ لِمِثْلِ هذا الرجل، الشبيه بالسيف في صلابته ومضائه، مِثْلُ هذه المعشوقة، التي هي كالغصن في اللونة ولطف التثني، وأيضاً كيف يكون لِمَنْ يُشَبَّه الأسد في قوته وسطوته وبأسه، مِثْلُ هذه التي تُشَبَّه الغزال في رقتها وضعفه.

^{٢٢} العفة العذرية: نسبة لقبيلة بني عذرة، اشتهر شبابها بالعشق والعفاف. والعصم: جمع عصمة، وهي المنع والحفظ.

^{٢٣} غشي المكان: وافاه. والمغنى: المنزل الذي غني به أهله. والكرى: النوم. وإرم: هي إرم ذات العماد التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

^{٢٤} المبتسم: بمعنى المصدّر؛ أي الابتسام، ويجوز أن يراد به الموضع؛ أي الثغر، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف.

فُضِّيَ بِتَقْوَاكَ فَاهَا كُلَّمَا ضَحَكَتْ كَمَا يُفَضُّ أَدَى الرَقَشَاءِ بِالْثَّرَمِ^{٢٥}
 مَخْطُوبَةً مِنْذُ كَانَ النَّاسُ خَاطِبَةً مِنْ أَوَّلِ الدَّهْرِ لَمْ تُرْمَلْ وَلَمْ تَتِّمِ^{٢٦}
 يَفْنَى الزَّمَانُ وَيَبْقَى مِنْ إِسَاءَتِهَا جَرْحُ بَادِمٍ يَبْكِي مِنْهُ فِي الْأَدَمِ^{٢٧}
 لَا تَحْفَلِي بِجَنَاهَا أَوْ جَنَائِثِهَا الْمَوْتُ بِالزَّهْرِ مِثْلُ الْمَوْتِ بِالْفَحَمِ^{٢٨}
 كَمْ نَائِمٌ لَا يَرَاهَا وَهِيَ سَاهِرَةٌ لَوْلَا الْأَمَانِيُّ وَالْأَحْلَامُ لَمْ يَنْمِ^{٢٩}
 طَوْرًا تَمَدُّكَ فِي نُعْمَى وَعَافِيَةٍ وَتَارَةً فِي قَرَارِ الْبُؤْسِ وَالْوَصَمِ^{٣٠}
 كَمْ ضَلَلْتُكَ وَمَنْ تُحَجِّبُ بِصِيرَتِهِ إِنْ يَلْقَ صَابًا يَرِدُّ أَوْ عَلَقَمًا يَسُمِ^{٣١}
 يَا وَيْلَتَاهُ لِنَفْسِي رَاعَاهَا وَدَهَا مُسَوَّدَةُ الصُّحُفِ فِي مُبَيَضَّةِ اللَّمَمِ^{٣٢}
 رَكَضَتْهَا فِي مَرِيْعِ الْمَعْصِيَاتِ وَمَا أَخَذْتُ مِنْ حِمِيَةِ الطَّاعَاتِ لِلتُّخَمِ^{٣٣}

^{٢٥} الرقشاء من الحيات: المنقطة بالسواد والبياض. وأذى الرقشاء: سُمُّها. والثرم: كسر السن من أصلها.
^{٢٦} أرملت المرأة: إذا مات عنها زوجها. وأمت المرأة تقيم، والأيم: التي لا زوج لها، سواء أكانت بكراً أم كان لها زوج فقدته.

^{٢٧} الأدم: الجلد. يقول: مع أن حالها وحال الناس ما ذكرنا، فإن إساءتها ما تنتهي، حتى إن آدم (عليه السلام) لا ينسى كيدها إلى آخر الزمان. وفي البيت جناس بين آدم والأدم.

^{٢٨} الجنى: ما يجتنى من الشجرة ويُقطف من ثمرها.

^{٢٩} يريد بالنائم: المغتر بالدنيا الغافل عن مصائبها وغيرها.

^{٣٠} الوصم (بالتحريك): الألم والمرض، يقال وصمته الحمى فتوصم: أي آلمته فتألم.

^{٣١} الصاب: جمع صابة، شجرٌ مرٌّ. والعلقم: الحنظل. ويسم: من سام يسوم؛ أي رعى يرعى.

^{٣٢} دها: أي دهاها. اللمم: جمع لمة، وهي الشعر يجاوز شحمة الأذن. مسودة الصحف: كناية عن العمل السيئ. ومبيضة اللمم: الشيب، والإضافة فيها من إضافة الصفة للموصوف.

^{٣٣} ركضتها: أصل الركض تحريك الرجل، ويقال ركضت الفرس برجلي إذا استحثثته ليعدو، والمراد هنا مجرد إطلاق النفس وإرسالها في طريق غوايتها، وفيه تشبيه النفس بالسائمة تشبيهاً مضمراً في النفس على سبيل الاستعارة المكنية. والمريع: الخصب. ومريع المعصيات: من إضافة المشبه به للمشبه؛ أي المعصيات التي هي شبيهة بالمريع المريع تستطيه الدابة؛ ففيه تشبيه ضمني لمن يرسل نفسه في المعاصي بالبهيم الذي يستطيه المرعى ويسترسل فيه. وحمية الطاعات: كذلك من إضافة المشبه به للمشبه؛ أي الطاعات التي شبيهة بالحمية، وفيها أيضاً تشبيه ضمني لمن يتعفف عن مساورة المعاصي بمن يمسك نفسه أن ينال ما يهيضه من ألوان الطعام. والتخم: جمع تخمة، قيل هي فساد الطعام في المعدة، وقيل فساد المعدة بالطعام. وقوله «التخم»؛ أي للتحرز عن التخم.

هامت على أثر اللذات تطلبها
 صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
 والنفس من خيرها في خير عافية
 تطغى إذا مكننت من لذة وهوى
 إن جلّ ذنبي عن الغفران لي أمل
 ألقى رجائي إذا عزّ المجير على
 إذا خفضت جناح الذلّ أسأله
 وإن تقدّم ذو تقوى بصالحة
 لزمت باب أمير الأنبياء ومن
 فكلّ فضل وإحسان وعارفة
 علقت من مدحه حبلاً أعزّ به

والنفس إن يدعها داعي الصبا تهم^{٣٤}
 فقوّم النفس بالأخلاق تستقم
 والنفس من شرّها في مرتع وخم^{٣٥}
 طغى الجياد إذا عضّت على الشكّم^{٣٦}
 في الله يجعلني في خير معتصم^{٣٧}
 مفرج الكرب في الدارين والغمّ^{٣٨}
 عزّ الشفاعة لم أسأل سوى أمّ^{٣٩}
 قدّمت بين يديه عبّرة الندم^{٤٠}
 يمسك بمفتاح باب الله يغتنم^{٤١}
 ما بين مستلم منه وملتزم^{٤٢}
 في يوم لا عزّ بالأنساب واللحم^{٤٣}

^{٣٤} هامت الناقة على وجهها: ذهبت ترعى. وداعي الصبا: اللهو والشباب.

^{٣٥} المرتع: من رعت الماشية ترتع رتوعاً؛ أي أكلت ما شاءت، والمرتع موضع الرتوع. والوخم: الرديء الوبي.

^{٣٦} الشكّم: جمع شكيمة، وهي الحديدّة المعترضة في لجام الفرس.

^{٣٧} عصمة الله العبد: حفظه مما يؤيِّقه ويُهْلِكُه، والمعتصم الموضع منها، أو بمعنى المصدر؛ أي الاعتصام.

^{٣٨} الغمّ: جمع غمة، وهي الهم والحزن. والمجير هنا: بمعنى المنقذ. إذا عزّ المجير: أي يوم القيامة. ومفرج الكرب في الدارين: هو الرسول الأمين صلوات الله وتسليماته عليه؛ لأنه أخرج في الدنيا من ظلمة الغواية إلى نور الهداية، وهو في الآخرة صاحب الشفاعة العظمى.

^{٣٩} الأمّ: اليسير. وخفض جناح الذلّ: كناية عن شدة التواضع والانكسار.

^{٤٠} العبّرة: تحلبّ الدمع.

^{٤١} أمير الأنبياء: هو محمد ﷺ. ولزوم بابه: كناية عن الالتجاء إلى كرمه، وعدم الانحراف عن التوسّل به في قضاء الطلبات.

^{٤٢} العارفة: المعروف.

^{٤٣} اللحم: جمع لحمة، وهي القرابة.

يُزِرِّي قَرِيضِي زُهَيْرًا حِينَ أَمْدَحُهُ وَلَا يُقَاسُ إِلَى جُودِي لَدَى هَرَمٍ^{٤٤}
 مُحَمَّدٌ صَفْوَةُ الْبَارِي وَرَحْمَتُهُ وَبُغْيَةُ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ وَمِنْ نَسَمٍ^{٤٥}
 وَصَاحِبُ الْحَوْضِ يَوْمَ الرُّسُلِ سَائِلَةٌ مَتَى الْوَرُودُ وَجَبْرِيلُ الْأَمِينِ ظَمِي^{٤٦}
 سَنَاؤُهُ وَسَنَاهُ الشَّمْسُ طَالَعَةٌ فَالْجَرْمُ فِي فَلَكٍ وَالضُّوءُ فِي عِلْمٍ^{٤٧}
 قَدْ أَخْطَأَ النَّجْمُ مَا نَالَتْ أَبْوَتُهُ مَنْ سَوَّدِدِ بَاذِخٍ فِي مَظْهَرٍ سَنِمٍ^{٤٨}
 نُمُوا إِلَيْهِ فزَادُوا فِي الْوَرَى شَرْفًا وَرُبَّ أَصْلٍ لِفِرْعٍ فِي الْفَخَارِ نُمِي^{٤٩}
 حَوَاهِ فِي سُبُحَاتِ الطُّهْرِ قَبْلَهُمْ نُورَانٍ قَامَا مَقَامَ الصُّلْبِ وَالرَّجَمِ^{٥٠}
 لَمَّا رَأَاهُ بَحِيرًا قَالَ نَعْرِفُهُ بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسَّيَمِ^{٥١}
 سَائِلُ حِرَاءَ وَرُوحُ الْقُدُسِ هَلْ عَلِمَا مَصُونٌ سَرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمٍ^{٥٢}

^{٤٤} يزري: يعيب. والقريض: الشعر. وزهير: هو زهير بن أبي سلمى المزني، كان سيدًا غنيًا في الجاهلية، معروفًا بالجلم والحكمة، شاعرًا فحلًا. وهرم (بكسر الراء): هو هرم بن سنان بن أبي حارثة المُرِّي، مدح زهير هرمًا فأحسن، ووصله هرم فأجزل الصلة وبالع في العطاء.

^{٤٥} النسم: جمع نسمة، وهي النفس، أو هي الإنسان.

^{٤٦} وجبريل الأمين ظمي: الملائكة لا تظلم، ففعل مراده بالظما هنا لازمه، وهو الطلب؛ أي للناس؛ بمعنى أن حاله تقتضي ذلك إشفافًا على حالها، لما يَرِهَقهم من شدة الظما وحرص الموقف.

^{٤٧} سناؤه: رفعت. وسناهُ: نوره. والعلم هنا: العالم.

^{٤٨} السؤدد: السيادة. والباذخ: العالي. والسنم (ككتف): المرتفع. وأبوته: أي ذوو أبوته، والأبوة المعنى المأخوذ من الأب كالأخوة والبنوة.

^{٤٩} نُمُوا: نُسبوا.

^{٥٠} السُّبُحَاتِ (بضمّتين): مواضع السجود، وسيحات وجه الله أنواره.

^{٥١} السَّيَمِ: كعَلَب، جمع سيمة، وهي العلامة. وبحيرا (بفتح الباء وكسر الحاء): الراهب النصراني المشهور.

^{٥٢} حراء: جبل بمكة فيه غار كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل الرسالة. وروح القدس: جبريل عليه السلام، والإضافة فيه من إضافة الصفة للموصوف؛ أي الروح القدس. والقدس: الطهر. ومصونٌ سرٌّ: من إضافة الصفة للموصوف؛ أي السر المصون. وقوله «منكتم»: وصف مؤكّد للسرّ المصون؛ لأن السرّ لا يكون إلا كذلك. وتنكير «سر» للتعظيم.

كم جيئةً وذهابٍ شُرِّفَتْ بهما
 ووحشةً لابنِ عبدِ اللهِ بينهما
 يُسامِرِ الوحيَ فيها قبلَ مهبطه
 لَمَّا دعا الصَّحْبُ يستسقونَ من ظمأٍ
 وظَلَّلَتْه فصارت تستظلُّ به
 محبةً لرسولِ اللهِ أَشْرَبَهَا
 إِنَّ الشَّمَائِلَ إِن رَقَّتْ يكاد بها
 ونوحيّ اقرأُ تعالىُّ اللهُ قائلُها
 هناك أُنْ لِلرَّحْمَنِ فامتَلأتْ
 فلا تسَلْ عن قريشٍ كيف حَيَّرَتْها

بَطْحَاءُ مَكَّةَ فِي الْإِصْبَاحِ وَالْغَسَمِ^{٥٣}
 أَشْهَى مِنَ الْأُنْسِ بِالْأَحْبَابِ وَالْحَشَمِ^{٥٤}
 وَمَنْ يُبَشِّرُ بِسِمَى الْخَيْرِ يَتَّسِمِ^{٥٥}
 فَاضَتْ يَدَاهُ مِنَ التَّسْنِيمِ بِالسَّنَمِ^{٥٦}
 غَمَامَةٌ جَذَبَتْهَا خَيْرَةُ الدَّيَمِ^{٥٧}
 قَعَائِدُ الدَّيْرِ وَالرُّهْبَانُ فِي الْقَمَمِ^{٥٨}
 يُغْرِى الْجَمَادُ وَيُغْرِى كُلُّ ذِي نَسَمٍ
 لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمٍ
 أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَّةِ النَّغَمِ^{٥٩}
 وَكَيْفَ نُفَرِّتُهَا فِي السَّهْلِ وَالْعَلَمِ^{٦٠}

^{٥٣} البطحاء: المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. والغسم: الإمساء وظلمة الليل. الإصباح والغسم: أي من كل مرة كان يطلب فيها النبي ﷺ حراء، لا كل صباح وكل غسم، فإنه ﷺ كان يتزوّد، فيقيم في حراء الليالي والأيام.

^{٥٤} ابن عبد الله: هو النبي ﷺ. والحشم: الخدم الخاصون بمولاهم. والوحشة: الخلوة والهَم، والمراد بها هنا مجرد الخلوة والانتقطاع عن الناس.

^{٥٥} مهبطه هنا: بمعنى هبوطه.

^{٥٦} التسنيم: ماء بالجنة يجري فوق الغُرف، وسنم الإناء تسنيمًا: ملأه، فكأنه أراد بالسنم هنا الإناء المملوء. والأحاديث الواردة في نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كثيرة.

^{٥٧} الديم: جمع ديمة، وهي المطر الدائم.

^{٥٨} القعائد: جمع قعيدة، وقعائد الدير مُلَازِمُوهُ من متنسكة النصارى. والقمم: جمع قمة، وهي أعلى الرأس من كل شيء، والمراد بها هنا أعالي الجبل.

^{٥٩} أُنْ لِلرَّحْمَنِ: أي دعا إلى الله. وقوله «من قدسية النغم»: ترشيحٌ لتشبيه الدعاء إلى الله تعالى بالصوت الجميل. وقدسية النغم: النغم المطهّرة المنزهة عن تطريب الغناء بتكبير الألفاظ واعتصار الحناجر وإيقاع الأصوات.

^{٦٠} فلا تسَلْ: يعني أن الأمر واضحٌ غنيٌّ عن السؤال، يقال عند ظهور الأمر ووضوحه: لا تسأل. العَلَم: الجبل.

رمى المشايخ والولدان باللَّمَمِ ٦١
 هل تجهلون مكانَ الصادقِ العَلَمِ ٦٢
 وما الأمينُ على قولٍ بمُتَّهِمِ
 بالخلْقِ والخلْقِ من حُسْنٍ ومن عِظَمِ
 وجئتنا بحكيمٍ غير مُنصرِمِ ٦٣
 يزينهنَّ جلالُ العتقِ والقَدَمِ ٦٤
 يُوصيكِ بالحق والتقوى وبالرحمِ
 حديثُك الشَّهْدُ عند الذائقِ الفَهمِ
 في كلِّ مُنتَثِرٍ في حُسْنِ مُنتَظِمِ ٦٥
 تُحيي القلوبَ وتُحيي ميِّتَ الهَمِّ
 في الشرق والغرب مَسرى النور في الظُّلَمِ
 وطيرت أنفُسَ الباغيين من عجمِ ٦٦
 من صدمةِ الحق لا من صدمةِ القُدَمِ ٦٧
 إلا على صنمٍ قد هام في صنمِ
 لكلِّ طاغيةٍ في الخلقِ مُحْتَكِمِ

تساءلوا عن عظيمٍ قد أَلَمَّ بهم
 يا جاهلين على الهادي ودعوته
 لَقَبْتُمُوهُ أَمِينَ القومِ في صِغَرِ
 فاقَ البدورَ وفاقَ الأنبياءَ فكم
 جاءَ النبيون بالآياتِ فانصرمت
 آياتُهُ كُلُّما طالَ المَدَى جُدُدُ
 يكاد في لفظةٍ منه مُشْرِفةٌ
 يا أفصحَ الناطقين الضادَ قاطبةً
 حَلَّيْتَ من عَطَلٍ جِدِّ البيانِ به
 بكلِّ قولٍ كريمٍ أنتَ قائلُهُ
 سَرَّتْ بِشائِرُ بالهادي ومولده
 تَخَطَّفَتْ مُهَجَ الطاغين من عربِ
 رِيَعَتْ لها شُرَفُ الإيوانِ فانصدعت
 أَتَيْتِ والناسَ فَوَضَى لا تمرُّ بهم
 والأرض مملوءةٌ جَوْرًا مُسَخَّرَةٌ

٦١ أَلَمٌ: نزل. واللمم (محرَّكة): الجنون. والمعنى أنه قد أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن الأمر العظيم الذي نزل بهم، وهو أن يقوم رجل ليس له ما لهم من البأس والمنعة يُزعجهم عما كان يعبد آبائهم — وهم سادات قريش وجباهاها — ويأخذهم عما ألفوا من عاداتهم وأخلاقهم المغرورة فيهم، دُهِشوا لهذا واستعظموه، حتى جُنَّ منه شببهم وشبابهم.

٦٢ العلم: الظاهر المشتهر. والجاهلون على الهادي: المتعنتون. والاستفهام في قوله «هل تجهلون»: إنكاري.

٦٣ انصرمت: انقطعت. منصرم: منقطع. الحكيم: القرآن، وقد وصفه الله تعالى بالحكيم في مواضع منه.

٦٤ جدد: جمع جديد، كسُرر وسرير.

٦٥ يقال: عطلت المرأة عطلاً، إذا لم يكن عليها حلي.

٦٦ مهج: جمع مهجة، وهي دم القلب.

٦٧ ريعت: دُعِرَتْ وخافت. وشُرَف: جمع شرفة، وهي ما يوضع على القصور ونحوها. والقدم: جمع

قُدوم. روي أن شُرَفَ الإيوان — وهو مأوى سلطان الأكاسرة — ارتجَّتْ وهوت ليلة مولده ﷺ، لم تعمل فيها المعاول، ولم تهدمها القُدَم، بل تداعت من صدمة الحق.

وَقِيصِرُ الرُّومِ مِنْ كِبَرِ أَصَمٍّ عَمٍ
وَيَذْبَحَانِ كَمَا ضَحَّيْتَ بِالْغَنَمِ
كَالْلَيْثِ بِالْبُهَمِ أَوْ كَالْحَوْتِ بِالْبَلَمِ^{٦٨}
وَالرُّسُلُ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى عَلَى قَدَمِ^{٦٩}
كَالشُّهْبِ بِالْبَدْرِ أَوْ كَالْجُنْدِ بِالْعَلَمِ
وَمَنْ يَفْزُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَأْتِمُ^{٧٠}
عَلَى مُنَوَّرَةِ دُرِّيَةِ اللُّجَمِ^{٧١}
لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الْأَيْنُقِ الرَّسْمِ^{٧٢}
وَقَدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشُّكِّ وَالْتَّهَمِ
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمِ
وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ
يَا قَارِئَ اللُّوحِ بَلْ يَا لِمَسِّ الْقَلَمِ^{٧٣}
لَكَ الْخَزَائِنُ مِنْ عِلْمٍ وَمِنْ حِكْمِ^{٧٤}

مُسَيِّطِرُ الْفُرْسِ يَبْغِي فِي رَعِيَّتِهِ
يُعَذِّبَانِ عِبَادَ اللَّهِ فِي شُبِّهِ
وَالْخَلْقُ يَفْتِكُ أَقْوَاهُمْ بِأَضْعَفِهِمْ
أَسْرَى بِكَ اللَّهُ لَيْلًا إِذْ مَلَأَتْهُ
لَمَّا خَطَرَتْ بِهِ التَّفُؤُوا بِسَيِّدِهِمْ
صَلَّى وَرَاءَكَ مِنْهُمْ كُلُّ ذِي خَطَرٍ
جُبَّتِ السَّمَوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ
رَكُوبَةٌ لَكَ مِنْ عَزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ
مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعَتُهُ
حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُتْبَتِهِ
خَطَطَتْ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا عُلُومَهُمَا
أَحَطَّتْ بَيْنَهُمَا بِالسَّرِّ وَانْكَشَفَتْ

^{٦٨} البهم: جمع بهمة، وهي ولد الضأن والمعز. والبلم: صغار السمك.

^{٦٩} المسجد الأقصى: بيت المقدس. وعلى قدم: قائمون محتشدون.

^{٧٠} ذي خطر: ذي قدرة ومنزلة. ويأتمم: أي يأتم، والأصل وَمَنْ يَأْتِمُ بِحَبِيبِ اللَّهِ يَفْزُ، ولكنه قلب للمبالغة والمبادرة بذكر الفوز.

^{٧١} بهم: أي بملابسة بعضهم فيها، فإنه ورد أنه مر ببعضهم في السموات، لا كما هو المتبادر من قوله إنهم صاحبه حين جاب السموات. ويريد بقوله «منورة دُرِّيَةِ اللُّجَمِ»: البراق.

^{٧٢} «من» في قوله «من عز ومن شرف»: للتعليل؛ أي لأجل عرك وشرفك. والأَيْنُقُ الرَّسْمُ: النوق الشديدة الوطء لقوتها، حتى كأنها ترسم في الأرض بمشيها آثارًا ظاهرة. والرُّسْمُ: واحدتها رسوم. والجياذ: جمع جواد، وهو الفرس الرائع البين الجودة.

^{٧٣} خطه علوم الدين والدنيا: كناية عن تعليمها الناس وبثها فيهم. وقراءة اللوح ولس القلم: كناية عن إطلاع الله له على ما أطلع عليه من الغيوب.

^{٧٤} عن ابن عباس — رضي الله عنه — أنه ﷺ قال: «عَلَّمَنِي رَبِّي لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ عُلُومًا شَتَّى؛ عَلَّمَ أَخْذَ عَلِيٍّ كَتَمَانَهُ، وَعَلَّمَ خَيْرَنِي فِيهِ، وَعَلَّمَ أَمْرَنِي بِتَبْلِيغِهِ».

وضاعَفَ القُرْبُ ما قُلِدَتْ من مَنِّ ۖ بلا عِدائٍ وما طُوِّقَتْ من نِعَمٍ ٧٥
 سَلَّ عَصَبَةَ الشُّرْكِ حَوْلَ الغارِ سائِمةً ۖ لولا مطاردةُ المختارِ لم تُسَمِّ ٧٦
 هل أَبْصَرُوا الأثرَ الوضَاءَ أم سَمِعُوا ۖ هُمَسَ التَّسَابِيحِ والقرآنِ من أُمِّ ٧٧
 وهل تَمَثَّلَ نَسْجُ العنْكَبوتِ لَهم ۖ كالغابِ والحائِماتِ الرُّغْبُ كالرَّحَمِ ٧٨
 فادْبَرُوا ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم ۖ كباطِلٍ من جلالِ الحقِّ مُنْهَزِمٍ ٧٩
 لولا يَدُ اللهِ بالجارِينِ ما سَلِمَا ۖ وعينُهُ حَوْلَ رِكنِ الدينِ لم يَقُمْ ٨٠
 تَوَارِيا بَجَنَاحِ اللهِ واستَترا ۖ ومن يَضُمُّ جَنَاحَ اللهِ لا يُضَمُّ ٨١
 يا أَحْمَدَ الخَيْرِ لي جَاهٌ بِتَسْميتي ۖ وكيف لا يَتَسامى بالرسولِ سَمي ٨٢

٧٥ يجوز أن يكون «القرب» فاعلاً لـ «ضاعف»، و«ما» وما بعدها مفعولاً به، والمعنى أن قربه من الله تعالى قد أربى على جميع ما وليه ﷺ من النعم التي لا يدركها العد، فكانت بإضافة القرب إليها أضعاف ما كانت قبله، ويجوز أن يكون مفعولاً، والفاعل «ما» وما بعدها، والمعنى أن ما تجلى الله تعالى عليه به من النعم التي لا تُعدُّ وأولاه من الفضائل التي لا تُحصى قد زاد قربه؛ لأنه قرب على قرب، والأول أولى.

٧٦ عصبه الشوك: أي عصبه من أهل الشوك الذين ذهبوا يطلبونه ﷺ يوم هجرته. والغار: كالثقب بجبل أسفل مكة. سائمة: راعية.

٧٧ من أمم: من قرب.

٧٨ الغاب: الشجر الكثير المتكاثف. والحائِمات الرُّغْب: الحمام. والرخم: جمع رخمة، وهي طائر على شكل النسر إلا أنه منقط السواد والبياض.

٧٩ شَبَّهَ إِدْبارَهم ونكوصَهم على أعقابهم خائِبين بدمغ الباطل وإدحاضه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾. ونسبة اللعن لوجوه الأرض مجازٌ عقلي، واللاعن من فيها من المسلمين والملائكة، أو المراد وجوه أهلها؛ أي أعيانهم وأفاضلهم.

٨٠ الجاران: الرسول ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. والمراد باليد: النعمة. وعينه: عنايته. وحرف الشرط مقدَّر في الجملة الثانية.

٨١ جناح الله: لطفه وستره. ويَضُمُّ: يلحق به الضيم.

٨٢ من أسمائه ﷺ: أحمد، وقد سُمِّي الشاعر به تيمناً باسم الرسول الأكرم. ويتسامى: يتعالى. والاستفهام في البيت إنكارى.

المادحون وأربابُ الهوى تَبَعُ
مديحُه فيك حُبُّ خالصٍ وهوى
اللهُ يشهدُ أنني لا أعارضُه
وإنَّما أنا بعضُ الغابطينَ ومَن
هذا مقامُ من الرحمنِ مُقتَبَسُ
البدْرِ دونك في حُسنٍ وفي شرفٍ
شُمُ الجبالِ إذا طاولَتْها انخفضَتْ
والليثُ دونك بأَسًا عند وثبته
تهفو إليك وإن أدميت حَبَّتْها
محبَّةُ الله ألقاها وهيبَتُه
كأنَّ وجهك تحتَ النَّقْعِ بدرٌ دُجى
بدرٌ تطلَّعَ في بدرٍ فغرَّتْهُ

لصاحبِ البردةِ الفيحاءِ ذي القَدَمِ^{٨٣}
وصادقُ الحُبِّ يُملي صادقُ الكَلِمِ^{٨٤}
مَن ذا يُعارضُ صوبَ العارضِ العَرِمِ^{٨٥}
يغيبُ وليك لا يُذَمُّ ولا يُلَمُّ^{٨٦}
تَرمي مهابتُه سَحبانَ بالبَكَمِ^{٨٧}
والبحرُ دونك في خيرٍ وفي كرمٍ
والأنجُمُ الزُّهرُ ما واسَمَتْها تَسِمُ^{٨٨}
إذا مشيتَ إلى شاكِي السلاحِ كَمي^{٨٩}
في الحربِ أفئدةُ الأبطالِ والبَهمِ^{٩٠}
على ابنِ آمِنَةٍ في كلِّ مُصطَدَمِ^{٩١}
يُضيءُ مُلتَثِمًا أو غيرَ مُلتَثِمِ^{٩٢}
كغُرَّةِ النصرِ تجلو داجي الظُّلَمِ^{٩٣}

^{٨٣} تبع: أخبر بالمصدر مبالغةً، وأفرده لأنه يستوي فيه الواحد والجمع، أو على تقدير مضاف؛ أي ذوو تبع؛ أي مقتدون به. والقدم: التقدُّم والمنزلة. وصاحب البردة: هو الإمام البوصيري.

^{٨٤} مديحه حب: أي ناشئ من الحب، أو ذو حب؛ أي دالٌّ عليه.

^{٨٥} الصوب: الانصباب، ومجيء السماء بالمطر. والعارض: السحاب المعترض في الأفق. والعرم: يريد المطر الشديد.

^{٨٦} الغابط: الذي يتمنى مثل ما للغير، وليس هذا القدر بمذموم. ويذم: يذم.

^{٨٧} البكم: الخرس. وسحبان: هو سحبان وائل من بني باهلة، كان يُضرب بفصاحته المثل.

^{٨٨} يقال واسمه في الحسن فوسمه: غلبه فيه. انخفاض الجبال: كناية عن ظهورها قصيرة بالنسبة لارتفاع قدره ﷺ وعلو شأنه.

^{٨٩} الكمي: لابس السلاح.

^{٩٠} تهفو: هفا الظبي في المشي يهفو هفواً وهفواناً؛ أسرع وخفَّ فيه، والمراد هنا شدة ميل القلوب له وانجذابها إليه ﷺ. وحبَّة القلب: سويداؤه. والبهم: جمع بهمة، وهو الشجاع.

^{٩١} مصطدم: بمعنى المصدر، أي الاصطدام؛ أو الموضع، أي موضع الاصطدام، وهو ميدان الحرب.

^{٩٢} النقع: غبار الحرب.

^{٩٣} بدر: موضع بين الحرمين الشريفين، وفيه كانت الغزوة المشهورة التي دمع الله فيها الشرك وأعزَّ الإسلام.

ذُكِرَتْ بِالْيَتِيمِ فِي الْقُرْآنِ تَكْرِمَةً
 اللَّهُ قَسَمَ بَيْنَ النَّاسِ رِزْقَهُمْ
 إِنْ قُلْتَ فِي الْأَمْرِ لَا أَوْ قُلْتَ فِيهِ نَعَمْ
 أَخَوِكَ عَيْسَى دَعَا مَيْتًا فَقَامَ لَهُ
 وَالْجَهْلُ مَوْتٌ فَإِنْ أُوتِيَتْ مُعْجَزَةٌ
 قَالُوا غَزَوْتَ وَرُسُلُ اللَّهِ مَا بُعِثُوا
 جَهْلٌ وَتَضْلِيلٌ أَحْلَامٌ وَسَفْسُطَةٌ
 لَمَّا أَتَى لَكَ عَفْوًا كُلُّ ذِي حَسَبٍ
 وَالشَّرُّ إِنْ تَلَقَّه بِالْخَيْرِ ضِيقَتْ بِهِ
 سَلِ الْمَسِيحِيَّةَ الْغُرَاءَ كَمْ شَرَبَتْ
 طَرِيدَةُ الشَّرِكِ يُؤْذِيهَا وَيُوسِعُهَا
 لَوْلَا حُمَاةُ لَهَا هَبُّوا لِنُصْرَتِهَا

وَقِيْمَةُ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ فِي الْيَتِيمِ^{٩٤}
 وَأَنْتَ خُيِّرْتَ فِي الْأَرْزَاقِ وَالْقِسَمِ^{٩٥}
 فَخَيْرَةُ اللَّهِ فِي لَا مِنْكَ أَوْ نَعَمْ
 وَأَنْتَ أَحْيَيْتَ أَجْيَالًا مِنْ الرَّمَمِ
 فَابْعَثْ مِنَ الْجَهْلِ أَوْ فَابْعَثْ مِنَ الرَّجَمِ^{٩٦}
 لَقَتَلِ نَفْسٍ وَلَا جَاءُوا لِسَفْكِ دَمٍ
 فَتَحَتْ بِالسَّيْفِ بَعْدَ الْفَتْحِ بِالْقَلَمِ
 تَكْفَلُ السَّيْفُ بِالْجَهَّالِ وَالْعَمَمِ^{٩٧}
 ذَرْعًا وَإِنْ تَلَقَّه بِالشَّرِّ يَنْحَسِمِ
 بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الْغَلِمِ^{٩٨}
 فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالًا سَاطِعَ الْحَدَمِ^{٩٩}
 بِالسَّيْفِ مَا انْتَفَعَتْ بِالرَّفْقِ وَالرُّحْمِ^{١٠٠}

^{٩٤} اليتيم في الناس: فقدان الأب، وهو في الأشياء: التفرد وعدم وجود نظائر لها. واللؤلؤة اليتيمة: التي لا نظير لها في العقد. ذُكرت باليتيم في القرآن: يشير إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾. وحرك التأء إتباعاً لحركة الباء قبلها في قوله «اليتيم»، ولا يخفى ما فيه من حسن التعليل.

^{٩٥} روى الترمذي عنه رحمته الله قال: «عرض عليّ ربي أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً».

^{٩٦} والجهل موت: كالترشيع للاستعارة في البيت السابق، وهو تشبيه بليغ. وأوتيت: خطاب لغير معين. والرجم: القبر.

^{٩٧} العمم: اسم جمع للعمامة.

^{٩٨} الغلم: الهائج الثائر.

^{٩٩} الحدم (بالتحريك): شدة احتراق النار.

^{١٠٠} الرُحْم: الرقة والمغفرة والتعطف. لم يكن استعمال القوة في إقامة الدعوة للدين شأن الدين الإسلامي وحده، وهذه الديانة المسيحية الموصوفة بديانة الرهبة والسلام، لم تبدأ الدعوة إليها حتى أصاب أهلها ما أصابهم، من الطرد والقتل والتعذيب والتشريد والتمثيل، بأيدي الجبابرة الطغاة من الملوك والقيصرة، بل بأيدي الشعوب والأمم، وتاريخ المسيحية بين أهل رومية مما تشيب له الولدان، فترى الدين المسيحي دين الرهبة والسلام ما دخل البلاد إلا على رءوس الأسنة، ولا حِيلَ إلى الأمم إلا على متون السيوف.

لولا مكانٌ لعيسى عند مُرسِلِهِ
لُسْمِرَ البدنُ الطُّهرُ الشريفُ على
جلِّ المسيحِ وذاقَ الصَّلْبَ شائِنُهُ
أخو النبي وَرُوحُ اللهِ في نُزُلٍ
عَلِّمَتْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ يَجْهَلُونَ بِهِ
دَعَوَتْهُمْ لِجِهَادٍ فِيهِ سَوَّدَتْهُمْ
لولاه لم نَرِ للدولَاتِ في زمنٍ
وَحُرْمَةً وَجَبَتْ للروحِ في القِدَمِ ١٠١
لُوحَيْنِ لم يَخْشَ مُؤْذِيهِ ولم يَجِمِ ١٠٢
إِنْ العِقَابَ بِقَدْرِ الذَّنْبِ والجُرْمِ ١٠٣
فوقَ السَّمَاءِ ودُونَ العَرْشِ مُحْتَرَمِ ١٠٤
حَتَّى القِتَالِ وَمَا فِيهِ مِنَ الذَّمِّ ١٠٥
والْحَرْبِ أَسْ نِظَامِ الكَوْنِ والأُمَمِ
مَا طَالَ مِنْ عُمْدٍ أَوْ قَرٍّ مِنْ دُعْمِ ١٠٦

١٠١ المكان: المكانة بمعنى القرب وارتفاع المنزلة؛ لأن الله تعالى منزّه عن المكان والجهة. ووجبت: ثبتت له من القدم؛ لأن الله تعالى عليم الأشياء وأرادها أولاً فصارت واجبة؛ بمعنى أنها لم تتخلف أبداً، والخبر محذوف في قوله «مكان» و«حرمة»: أي ثابتان.

١٠٢ لُسْمِرَ: جواب الشرط في البيت السابق. والطره: الطاهر من أدران المعاصي، ووُصِفَ بالمصدر مبالغةً. واللوحان: الصليب الذي أُعِدَّ له عليه السلام. والمراد بالتسمير: الصلب. لم يجم: لم يفزع.

١٠٣ جلَّ المسيح: تنزّه عما رماه به اليهود من كاذب التّهم وباطل الأقاويل، وعما زعموا من أنهم صلبوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾. وشائنه: مبغضه. وحرك الرأ في قوله «والجرم» إتباعاً لحركة الجيم قبلها.

١٠٤ أخو النبي: أي في الرسالة. روح الله: أي روح منه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ وسُمِّيَ روحاً لإحيائه الموتى بإذن الله، ولأنه نفخة من جبريل، قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، ونسبة النفخ إلى الله تعالى مجاز. و«من» في الآية: للابتداء. فوق السماء: أي السماء الدنيا. محترم: صفة لقوله «نُزُل» بضمّتين، وهو في الأصل المنزل، وما هُيئَ للضيف أن ينزل عليه.

١٠٥ الذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان، والحق.

١٠٦ عمد: جمع عمود. وقرّ: ثبت. ودعم: جمع دعاء، وهو عماد البيت، والدعم هنا كناية عما يستقيم به نظام الممالك، ويرتفع به شأن الأمم.

تلك الشواهد تَتَرى كُلَّ آوَنَةٍ
بالأُمسِ مالت عروشٌ واعتَلَّتْ سُرُرُ
أَشْياعٍ عيسى أَعَدُّوا كُلَّ قاصِمةٍ
مهما دُعيتَ إلى الهِجاءِ قُمتَ لها
على لَوائِكِ منهم كُلُّ مُنتَقِمٍ
مُسَبِّحٍ لِلقاءِ اللَّهِ مُضْطَرِمٍ
في الأَعْصِرِ العُرِّ لا في الأَعْصِرِ الدُّهْمِ^{١٠٧}
لولا القذائفُ لم تُثَلِّمْ ولم تُصَمِّ^{١٠٨}
ولم نُعَدَّ سوى حالاتٍ مُنْقَصِمٍ^{١٠٩}
ترمي بأَسَدٍ ويرمي اللَّهَ بالرُّجْمِ^{١١٠}
لله مُسْتَقْتَلٍ في اللَّهَ مُعْتَزِمٍ^{١١١}
شوقًا على سابِحِ كالبرقِ مُضْطَرِمٍ^{١١٢}

١٠٧ الغُرُّ: جمع أغرٍّ، صفة لذي الغُرَّة، وهي بياض في الجبهة، والأعصر الغُرُّ: التي ساد فيها العلم، وعَمَّتْ أسباب العدل. الدُّهْم: المظلمة التي شاع في أهلها الجهل، وفشا فيها الظلم.
ما زالت الغلبة للقوة، ولا زالت مُعْتَمِدُ الدُولِ ومُسْتَنْدُ الأُمَمِ في رفع عماد الملك وتثبيت دعامة الحكم، استوت في ذلك الأزمان السالفة التي يظنونها أزمان تأخر وتقهر، والأيام الحاضرة التي يزعمونها أيام تقدُّم وتنوُّر. وفي البيت الطباق.

١٠٨ اعتلت: علت.

١٠٩ قاصمة: كاسرة، ومنقصم: منكسر. في هذا البيت مقارنة بين أهل الديانة المسيحية وأهل الديانة الإسلامية، فذكر أن المتشيعين اليوم إلى الدين المسيحي (دين الهدوء والسلام) هم أهل القوة الحربية، الدائبون على إعداد المهلكات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا ولم يبقَ لهم من شغل يشغلهم إلا استخراج الذهب من بطون الأرض، وإنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتنوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يدمموا على الناس، ويأخذوهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم، حتى قاموا على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رؤوسهم بكل دهياء، على حين أن أهل الديانة الإسلامية، الذين يتهمهم الظالمون بحب الفتوح والجهاد، ويشنون سمعتهم بحب الطعن والجلاد، واللولوغ في دماء العباد، هم القوم أهل السكينة والسلام، وهيهات أن يدانوا أهل الديانة المسيحية في حب الفتوح والحروب، أو يشاكلوهم في ادخار آلات الحرب واستعداد مُعدَّات الكفاح.

١١٠ الهِجاء: الحرب. الرجم: النجوم التي يرمي بها. رجع إلى خطابه ﷺ، وشبَّ أصحابه بالأسود؛ لما لهم من شجاعتهم وبأسهم. ورميه بهم: كناية عن ندهب إياهم للجهاد، وتقديمهم إلى مواطن الطعن والجلاد. والرمي بالرجم يكون للشياطين؛ ففيه استعارة مكنية؛ أي إنهم كالشياطين يرمون بالرجم.
١١١ على لوائك: أي مُنْضَوٍ تحت لوائك. استعارة العلو للتحية استعارة تمليلية.

١١٢ الاضطرام: توقد النار وتأججها. سابح: جواد، شبَّ حميتهم ونشاطهم في الحرب وجولاتهم فيها باضطرام النار، وهو توقدها وتأججها، وأخذها يمينًا وشمالًا، واستعار الاضطرام لذلك المعنى، ثم اشتق منه مضطرم، على سبيل التبعية.

لو صادفَ الدهرَ يَبْغِي نُقْلَةً فرمى
بيضُ مَفَالِيلُ من فعلِ الحروبِ بهم
كم في الترابِ إذا فُتِّشَتْ عن رجلٍ
لولا مواهبُ في بعضِ الأنامِ لَمَّا
شريعةُ لك فَجَرَّتَ العقولَ بها
يلوحُ حَوْلَ سنا التوحيدِ جوهرُها
غَرَاءُ حامت عليها أنفُسُ ونُهَى
نورُ السبيلِ يُساسِ العالمونَ بها
يجري الزمانُ وأحكامُ الزمانِ على
لَمَّا اعتَلَّتْ دولةُ الإسلامِ واتَّسَعَتْ

بعزمه في رحالِ الدهرِ لم يَرمِ^{١١٣}
من أسيْفِ الله لا الهنديَّةِ الخُذْمُ^{١١٤}
مَن ماتَ بالعهدِ أو مَن ماتَ بالقسمِ^{١١٥}
تفاوتَ الناسُ في الأقدارِ والقيَمِ^{١١٦}
عن زاجرِ بصنوفِ العلمِ مُلتَطِمِ
كالحلِيِّ للسيفِ أو كالوشِيِّ للعَلَمِ^{١١٧}
ومَن يَجِدُ سَلَسَلًا من حكمةٍ يَحُمُ^{١١٨}
تَكَفَّلَتْ بشبابِ الدهرِ والهَرَمِ^{١١٩}
حُكْمُ لها نافِذٌ في الخَلْقِ مُرْتَسِمِ
مَشَتْ مَمالِكُهُ في نُورها التَّمَمِ^{١٢٠}

^{١١٣} يبغى: يريد. وشبه العزم بالسهم، بجامع المضاء والنفوذ في كلِّ. وشبه الدهر بذِي رحال، بجامع التحول في كلِّ. وحذف المشبه به، ورمز إليه بلازمه — وهو الرحال — على طريقة الاستعارة المكنية. لم يرم: لم ينتقل ولم يتحول.

^{١١٤} مفاليل: الفل الثلم في السيف. والهندية: نسبة إلى الهند، كانت مشتهرة بطبع السيوف. والخذم: جمع خَذَم، ككتف، السيف القاطع. بيض: أي سيوفٌ بيض. شبههم بالسيوف لإزهاقهم نفوس الأعداء، وهو تشبيهٌ بليغ، ومفاليل ترشيح للتشبيه بالسيوف.

^{١١٥} بالعهد: أي احتفاظاً بما عاهدوا الله ورسوله عليه من نصرته للرسول. من: تفصيل لحال الرجل، أو تفصيل لمعنى «كم».

^{١١٦} أشار في هذا البيت إلى أن ما ناله أصحاب الرسول ﷺ من الفوز بالسعادة وارتفاع الدرجة عند الله تعالى، إنما كان بما تقدم لهم من الفضائل والبلاء في نصرة الدين، وتعرضهم للقتل والظن في سبيل الله تعالى، ولولا ذلك ما كان لهم فضل على سائر الناس، ولا عدت درجاتهم منزلة غيرهم من العالمين.

^{١١٧} الوشي: النقش.

^{١١٨} حامت: عطف وتالت. ونهى: جمع نهية، وهي العقل. والسلسل: الماء العذب.

^{١١٩} نور السبيل: لأنها يَهْتَدَى بها إلى غاية النجاح والفلاح في الدنيا، والفوز والسعادة في الآخرة. وشباب الدهر والهزم: كناية عن أوَّلِه وآخره، أو عن حالتي إقباله وإدباره. وتكفلها بشباب الدهر ... إلخ: أي تكفلها بما يُعْلِي أهلها، ويُصلح من شأنهم على كل حال من الأحوال، بلا تغيير في أحكامها ولا تبديل لنصوصها.

^{١٢٠} التَّمَم: التام.

وَعَلَّمت أُمَّةً بالقفرِ نازلةً
 كم شَيْدَ الْمُصْلِحُونِ العاملون بها
 للعلمِ والعدلِ والتمدينِ ما عزموا
 سرعانَ ما فتحوْا الدنيا لِمَلَّتْهم
 ساروا عليها هُدَاةُ الناسِ فَهَي بهم
 لا يهدِمُ الدهرُ رُكْنًا شَادَ عدْلُهُم
 نالوا السعادةَ فِي الدَّارَيْنِ واجتمعوا
 دُعْ عنكَ روما وأثينا وما حوَّتَا
 وخرلَّ كِسْرَى وإيوانًا يُدِلُّ به
 واتركُ رعمسيسَ إن المُلْكَ مَظْهَرُهُ
 دارُ الشرائعِ روما كُلُّما ذُكِرَتْ

رُعِيَ القياصرِ بعدَ الشَّاءِ والنَّعمِ
 فِي الشرقِ والغربِ مُلْكًا باذِخَ العِظَمِ
 من الأمورِ وما شَدُّوا من الحُزْمِ^{١٢١}
 وأنهلوا النَّاسَ من سَلْسالِها الشَّيْمِ^{١٢٢}
 إلى الفلاحِ طريقُ واضِحِ العِظَمِ^{١٢٣}
 وحائطُ البغيِ إن تلمِسْهُ ينهدِمُ
 على عميمٍ من الرضوانِ مُقْتَسَمِ
 كُلِّ اليواقيتِ فِي بغدادَ والتُّومِ^{١٢٤}
 هوى على أَثَرِ النيرانِ والأُيُمِ^{١٢٥}
 فِي نهضةِ العدلِ لا فِي نهضةِ الهَرَمِ^{١٢٦}
 دارُ السلامِ لها أَلَقَتْ يَدَ السَّلَمِ^{١٢٧}

^{١٢١} الحزم: جمع حزام.

^{١٢٢} سرعان: اسم فعل، يُسْتَعْمَلُ خَبْرًا مُحَضًّا، وَخَبْرًا فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ، يَقَالُ سُرْعَانُ مَا فَعَلَ كَذَا؛ أَيِ مَا أَسْرَعَهُ. وَالنَّهْلُ: أَوَّلُ الشَّرْبِ، تَقُولُ أَنْهَلْتَ الْإِبِلَ إِذَا شَرَبَتْ مِنْ أَوَّلِ الْوَرْدِ. وَالسَّلْسَالُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ. وَالشَّيْمُ: الْبَارِدُ.

^{١٢٣} ساروا عليها: أَخَذُوا بِهَا وَجَرُوا عَلَى أَحْكَامِهَا. هِدَاةُ النَّاسِ: أَيِ حَالَةِ كَوْنِهِمْ هَادِينَ لِلنَّاسِ. فَهِيَ: أَيِ الْمَلَّةِ بِهِمْ: أَيِ بِسَبَبِ قِيَامِهِمْ بِهَا وَنَشْرِهِمْ لَهَا.

^{١٢٤} روما: هِيَ الْمَدِينَةُ الْمَعْرُوفَةُ الْآنَ بِهَذَا الْاسْمِ، قَاعِدَةُ لِمْلَكَةِ إِيطَالِيَا، وَكَانَتْ فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ قَاعِدَةُ لِمْلَكَةِ الرُّومَانِ الْمَشْهُورَةِ. وَأَثِينَا: قَاعِدَةُ مِمْلَكَةِ الْيُونَانِ الْآنَ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ مَدَنِ الْأُمَّةِ الْيُونَانِيَّةِ فِي الْعَصُورِ السَّابِقَةِ. وَبَغْدَادُ: قَاعِدَةُ الْخِلاَفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ. وَالتُّومُ: جَمْعُ تَوْمَةٍ، وَهِيَ الْحَبَّةُ مِنَ الْفَضَّةِ تُعْمَلُ عَلَى شَكْلِ الدَّرَّةِ.

^{١٢٥} كِسْرَى: لَقَبٌ لِكُلِّ مَنْ يَلِي مَلِكَ فَارَسَ. وَالنِّيرانُ: لَعْلُهُ يَرِيدُ بِهَا نِيرَانُ فَارَسَ، الَّتِي خَبَتْ لَيْلَةَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ ذَلِكَ أَيَّامَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ. وَالْأُيُمُ: الدِّخَانُ.

^{١٢٦} الهرم: الْأَهْرَامُ فِي مِصْرَ كَثِيرَةٌ، وَأَشْهَرُهَا أَهْرَامُ الْجِيزَةِ الثَّلَاثَةِ، وَأَكْبَرُهَا أَشْهَرُهَا وَأَعْجَبُهَا، حَتَّى إِذَا ذُكِرَ لَفْظُ الْهَرَمِ صُرِفَ إِلَيْهِ. وَرَعْمَسِيسُ: اسْمُ بَعْضِ الْفِرَاعِنَةِ (مُلُوكِ مِصْرَ الْقَدَمَاءِ)، وَقَدْ تَسَمَّى بِهَذَا الْاسْمِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَلَعَلَّ الشَّاعِرَ يَرِيدُ أَوْلَئِكَ الْفِرَاعِينَ — عَلَى الْجُمْلَةِ — الَّذِينَ يَنْتَسِبُ مَجْدُهُمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْعَمَلِ الْخَطِيرِ، وَإِنْ كَانَ بَانِي الْهَرَمِ لَيْسَ رَعْمَسِيسَ بَعِينَهُ.

^{١٢٧} دار السلام: بَغْدَادُ. وَالسَّلَمُ: التَّسْلِيمُ.

ما ضارَعَتها بيانًا عند مُلتَأَمٍ ولا حَكَّتْها قضاءً عند مُختَصِمٍ^{١٢٨}
 ولا احتوت في طرازٍ من قياصرها على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعْتَصِمٍ^{١٢٩}
 من الذين إذا سارت كتائبُهم تصرَّفوا بحدودِ الأرضِ والتَّخَمِ^{١٣٠}
 ويجلسون إلى علمٍ ومعرفةٍ فلا يُدانون في عقلٍ ولا فَهَمٍ
 يُطأطئ العلماءُ الهامُ إن نَبَسوا من هيبةِ العلمِ لا من هيبةِ الحُكْمِ
 ويمطِّرون فما بالأرض من محلٍ ولا بمن باتَ فوق الأرض من عُدَمٍ^{١٣١}
 خلائفُ الله جلُّوا عن موازنةٍ فلا تقيسنَّ أملاكَ الوري بهم^{١٣٢}
 من في البرية كالفاروق معدلةً وكابن عبد العزيز الخاشع الحشمِ^{١٣٣}
 وكالإمام إذا فضَّ مزدحمًا بمدمعٍ في مآقي القوم مُزدجِمِ^{١٣٤}

١٢٨ ملتأم: مجتمع. مختصم: بمعنى المصدر؛ أي اختصام. كما اشتهرت «روما» بقضاها وقوانينها قد اشتهرت بخطبائها وشعرائها، وكان من عادة الرومانيين أنهم إذا نزل بهم الأمر العظيم، نفروا إلى بعض أماكنهم العامة، فخطبهم الخطباء، وأنشدهم الشعراء، الذين كان لفصاحة ألسنتهم في الناس تأثيرٌ عجيب، ومع هذا فما دانوا في قضائهم شأؤ بغداد، التي كان يُقضى فيها بدين الله، وهو أجلُّ من أن يقاس به غيره، ويوازن به ما سواه، ولا بلغوا في فصاحتهم شأن فصحاء الدولة العباسية، الذين قالوا في كل باب، فهزُّوا النفوس وخبِلوا الألباب.

١٢٩ الطراز: علم الثوب، والجيد من كل شيء. ولا احتوت على رشيد ... إلخ: أي على أمثالهم في الفضل والعدل والحزم. ورشيد: هو هارون الرشيد. ومأمون: هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد الخليفة العباسي المشهور. ومعتصم: هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، ولي الخلافة يوم وفاة أخيه المأمون.

١٣٠ الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش. والتخم، كعنق: جمع تخوم، وهي الفواصل بين الأرضين من معالم الحدود.

١٣١ المحل: الجذب. والعدم: فقدان المال.

١٣٢ خلائف الله: هذا قولٌ مستأنفٌ عامٌ لجميع الخلفاء المتقدمين والمتأخرين، وذكر الخلفاء الراشدين بعده من ذكر الخاص بعد العام؛ اهتمامًا بشأنهم، وتيمناً بذكرهم، ووصل بهم عمر بن عبد العزيز — رضي الله عنه — لشدة فضله وورعه، وتشبُّهه بهم، واقتدائه في حكومته بحكومتهم، فكان حقيقاً أن يُذكر فيهم ويلحق بهم.

١٣٣ المعدلة: العدل.

١٣٤ الإمام: هو الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ومآقي العيون: أطرافها مما يلي الأنوف، وهي مجاري الدمع.

الزَاخِرِ الْعَذْبِ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدَبٍ وَالنَّاصِرِ النَّذْبِ فِي حَرْبٍ وَفِي سَلَمٍ ١٣٥
أَوْ كَابِنِ عَفَانٍ وَالْقِرَّانِ فِي يَدِهِ يَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْقَطَمِ ١٣٦
وَيَجْمَعُ الْآيَ تَرْتِيبًا وَيَنْظُمُهَا عَقْدًا بِجِيدِ اللَّيَالِي غَيْرَ مُنْفَصِمٍ
جُرْحَانٍ فِي كِبَدِ الْإِسْلَامِ مَا التَّامَا جُرْحُ الشَّهِيدِ وَجُرْحُ بِالْكِتَابِ دَمِي ١٣٧
وَمَا بَلَاءُ أَبِي بَكْرٍ بِمَتَّهِمْ بَعْدَ الْجَلَائِلِ فِي الْأَفْعَالِ وَالْخِدَمِ
بِالْحَزَمِ وَالْعَزَمِ حَاطَ الدِّينَ فِي مَحَنٍ أَضَلَّتْ الْجِلْمَ مِنْ كَهْلٍ وَمُحْتَلِمٍ ١٣٨
وَجَدَنَ بِالرَّاشِدِ الْفَارُوقِ عَنْ رَشْدٍ فِي الْمَوْتِ وَهُوَ يَقِينٌ غَيْرُ مُنْبِهِمُ ١٣٩
يُجَاوِلُ الْقَوْمَ مُسْتَلًّا مُهَنْدَهُ فِي أَعْظَمِ الرُّسُلِ قَدْرًا كَيْفَ لَمْ يَدُمُ ١٤٠
لَا تَعْذِلُوهُ إِذَا طَافَ الدُّهُولُ بِهِ مَاتَ الْحَبِيبُ فَضْلَ الصَّبِّ عَنْ رَغَمٍ

* * *

يَا رَبِّ صَلِّ وَسَلِّمْ مَا أُرَدَّتْ عَلَى نَزِيلِ عَرْشِكَ خَيْرِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ
مُحْيِي اللَّيَالِي صَلَاةً لَا يَقْطَعُهَا إِلَّا بِدَمْعٍ مِنَ الْإِشْفَاقِ مُنْسَجِمٍ

١٣٥ يقال رجل ندب: أي خفيف في الحاجة سريع ظريف نجيب.

١٣٦ ابن عفان: هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه. والفُطْمُ: جمع فطيم، وهو الصبي المفصول عن الرضاع.

١٣٧ وجرح بالكتاب دمي: أي وجرح دمي به الكتاب، وقلب للمبالغة؛ وذلك أن قتلة عثمان — رضي الله عنه — دخلوا عليه الدار، وخبطوه بالسيوف وهو صائم والمصحف في حجره، وهو يقرأ فيه، فوقع المصحف من يده وسال الدم عليه.

١٣٨ يشير إلى حروب الردة بعد وفاة النبي ﷺ، وانتصاره على المرتدّين.

١٣٩ يقول: ما ظنك بتلك المحن التي تنحرف بعمر — رضي الله عنه — عن الرشده وله ما تعلم من كمال الرشده، ووفور العقل، وصدق اليقين، وتذهله عن إدراك أمر من أظهر البديهيّات لديه، هو أن يدرك الموت رسول الله ﷺ.

١٤٠ وذلك أنه لما قبض رسول الله ﷺ، وقال الناس مات رسول الله، أسرع عمر إلى سيفه، وتوعد من يقول ذلك، وقال إنني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، فلما حضر أبو بكر، وأخبر الخبر، كشف عن وجه رسول الله ﷺ، ثم أكب عليه فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجعل الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متّها. ثم خرج إلى الناس وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

ضُرًّا من السُّهْدِ أو ضُرًّا من الورَمِ
وما مع الحبِّ إن أخلصتَ من سَأَمِ
جعلتَ فيهم لواءَ البيتِ والحرَمِ^{١٤١}
شُمُّ الأنوفِ وأنفُ الحادثِ حَمِي^{١٤٢}
في الصَّحْبِ صُحْبَتُهُم مَرْعِيَةُ الحُرَمِ
ما هال من جَلَلٍ واشتدَّ من عَمَمِ^{١٤٣}
الضاحكين إلى الأخطار والقَحَمِ^{١٤٤}
واستيقظت أُمٌّ من رقدةِ العدمِ
تُديلُ من نِعَمٍ فيه ومن نِقَمِ
أكرِمَ بوجهك من قاضٍ ومُنْتَقِمِ
ولا تَزِدْ قَوْمَهُ خَسْفًا ولا تَسْمِ
فَتَمِّمِ الفضلَ وامْنَحْ حُسْنَ مُخْتَتَمِ^{١٤٥}

مُسَبِّحًا لك جُنْحَ الليلِ مُحْتَمِلًا
رضيَّةً نفسُهُ لا تشتكي سَأَمًا
وصلَّ ربِّي على آلٍ له نُحْبٍ
بيضُ الوجوه ووجهُ الدهرِ ذو حَلَكٍ
وأهدِ خيرَ صلاةٍ منك أربعةً
الراكبين إذا نادى النبيُّ بهم
الصابرين ونفسُ الأرضِ واجفةً
يا ربَّ هبَّتْ شعوبٌ من منيَّتها
سعدٌ ونحسٌ ومُلْكٌ أنت مالِكُهُ
رأى قضاؤك فينا رأيَ حكمته
فالطُّفُ لأجلِ رسولِ العالمين بنا
يا ربَّ أحسنتَ بدءَ المسلمين به

^{١٤١} النخب: جمع نخبة، وهو الرجل المختار.

^{١٤٢} الحلك (محركة): شدة السواد. والشمم في الأنف: ارتفاع القصبة وحسنها، وهو هنا كناية عن الحمية وشرف النفس. وأنف الحادث حمي: كناية عن اشتداد الخطب واستفحال الأمر.

^{١٤٣} هاله الأمر هولاً: أفزعه. والجلل هنا: الأمر العظيم. والعمم: التام العام من كل أمر، يقال أمرٌ عمم؛ أي تآمٌ عام.

^{١٤٤} القحم: جمع قحمة بالضم، ومن معانيها الأمر الشاق لا يكاد يركبه أحد، وهو المراد هنا.

^{١٤٥} لا يخفى ما في «حسن مختتم» من حسن الختام.

خاتمة رياض^١

كبيرَ السابقين من الكرام
مقامُك فوق ما زعموا ولكن
لقد وجدوك مفتونًا فقالوا
وقال البعض كيدُك غيرُ خافٍ
وقيل شططت في الكفران حتى
غمرت القومَ إطرًا وحمداً
برغمي أنْ أنالك بالملام^٢
رأيتُ الحقَّ فوقك والمقام^٣
خرجت من الوقار والاحتشام^٤
وقالوا رميةً من غيرِ رام^٥
أردتَ المُنعمين بالانتقام^٦
وهم غمروك بالنعم الجسام^٧

^١ قيلت بعد خطبة المرحوم رياض باشا في مدرسة محمد علي الصناعية في ٨ يونيو سنة ١٩٠٤م.
^٢ الخطاب في هذا البيت لمصطفى رياض باشا، وكان قد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية، التي أنشأتها في الإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤م، وكان اللورد كرومر عميد الدولة المحتلة حاضراً هذا الافتتاح؛ فتملّقه الخطيب بكلام كفر به نعمة مصر وأصحاب عرشها.

^٣ رأيت الحق فوقك والمقام: أي وفوق مقامك.

^٤ الوقار: الرزانة والجلم. والاحتشام: الاستحياء.

^٥ الكيد: المكر والخبث وإرادة ضرر الغير خفية. ورمية من غير رام: يريد أنه لم يقصد الكيد بما قاله، وأصل المثل رُبَ رمية من غير رام، وهو يقال لمن يصيب في أمر وعادته أن يخطئ.

^٦ شططت: أفرطت.

^٧ غمرت القوم: من قولهم غمرت فلاناً بالمعروف والفضل؛ أي بالغت في الإحسان إليه.

رأوا بالأمس أنفك في الثريا
 أما والله ما علموك إلا
 إذا ما لم تكن للقول أهلاً
 خطبت فكنت خطباً لا خطيباً
 لهجت بالاحتلال وما أتاه
 وما أغناه عمّن قال فيه
 أحببتك البلاد طویل دهر
 حقّرت لها زمماً كنت فيه
 محاسنُه غراسك والمساوي
 فهلاً قلت للشبان قولاً
 يبتّ تجارب الأيام فيهم
 خطبت على الشبيبة غير دار
 ولولا أن للأوطان حباً
 جنيت على قلوب الجمع يأساً
 أراكَ مَقْتَلٌ من مصر باقي

فكيف اليوم أصبح في الرّغام^٨
 صغيراً في ولائك والخصام
 فما لك في المواقف والكلام
 أضيف إلى مصائبنا العظام
 وجرحك منه لو أحسست دامي^٩
 وما أغناك عن هذا الترامي^{١٠}
 وذا ثمنُ الولاء والاحترام
 لَعُوباً بالحكومة والذمام^{١١}
 لك الثمران من حمدٍ وذام^{١٢}
 يليق بحافل الماضي الهمام
 ويدعو الرابضين إلى القيام^{١٣}
 بأنك من مَشِيكِ في منام
 يُصمُّ عن الوشاية كالغرام
 كأنك بينهم داعي الحمام^{١٤}
 فقمت تزيد سهماً في السهام^{١٥}

^٨ الثريا: سبعة كواكب في عنق البرج المعروف بالثور. والرّغام (بفتح الراء): التراب.

^٩ لهجت بالاحتلال: من قولهم لهج بالشيء، إذا أغري به فتأبر عليه. والدامي: الذي يسيل دمه.

^{١٠} وما أغناه ... إلخ: أي ما أغنى الاحتلال عنك، وما أغناك من أن تترامى على أصحابه بمثل ما قلت.

^{١١} حقرت (بفتح القاف مخففة): استصغرت. الزمام (بالزاي): ملاك الأمر. والذمام (بالذال): الحق والحرمة.

^{١٢} محاسنه: الضمير للزمام؛ أي أنت الذي غرست ما لهذا الزمام من المحاسن والمساوي، فلك ما يُثمر من حمد وذم.

^{١٣} يبتّ: ينشر ويذيع. والتجارب: جمع تجربة، وهي اختبار الشيء مرة بعد مرة. والرابضين: جمع رابض، وهو من يأوي إلى المكان فلا يفارقه.

^{١٤} يقول: لولا أن الذين سمعوك يحبون بلادهم حباً يمنهم من القعود عن العمل لإنقاذها من الاحتلال، لأصابهم اليأس والقنوط بسبب كلامك.

^{١٥} أراكَ: أي أفضعك. والمقتل: العضو الذي إذا أصيب لا يكاد صاحبه يسلم. يقول: هل أفضعك أن رأيت بعض مقاتل مصر سليمة لم تُصَب فزدت سهماً ليصيبها؟

وهل تركت لك السبعون عقلاً
ألا أنبيك عن زمنٍ تولّى
سلّ «الحلمية» الفيحاء عنه
وسلّ من كان حولك عبدَ جاهٍ
رأوا إرثاً سيذهبُ بعدَ حينٍ
ونالوا السمعَ من أذنٍ كريمٍ
هُمُ حزبٌ وسائرُ مصرَ حزبٍ
وكيف ينالُ عونَ اللهِ قومٌ
إذا الأحلامُ في قومٍ تولّت
فيا تلك الليالي لا تَعودي
أحبُّكِ مصرُ من أعماقِ قلبي
سيجمعُني بك التاريخُ يوماً
لأجلِك رُحْتُ بالدنيا شقيّاً
وأنظرُ جَنَّةً جمعت ذئاباً
وهبتكِ غيرَ هيأٍ يَراعاً

لعرفانِ الحلالِ من الحرامِ
فتذكُّرَه ودمعُكَ في انسجامٍ^{١٦}
وسلّ داراً على «نورِ الظلامِ»^{١٧}
يُريكَ الحُبَّ أو باغي حُطامٍ^{١٨}
فكانوا عُصبةً في الاقتسامِ
فنالوا منه أنواعَ المرامِ^{١٩}
وأنتِ أصمُّ عن داعي الوثامِ^{٢٠}
سراتهمُ عواملُ الانقسامِ^{٢١}
أتى الكبراءُ أفعالَ الطغامِ^{٢٢}
ويا زمنَ النفاقِ بلا سلامٍ^{٢٣}
وحبُّكِ في صميمِ القلبِ نامي^{٢٤}
إذا ظهرَ الكرامُ على اللثامِ^{٢٥}
أصدُّ الوجَهَ والدنيا أمامي
فَيَصْرِفُني الإِبَاءُ عن الزحامِ^{٢٦}
أشدَّ على العدوِّ من الحسامِ^{٢٧}

^{١٦} أنبيك: أخبرك. والانسجام: سيلان الدمع.

^{١٧} الحلمية: حيٌّ من أحياء القاهرة. ونور الظلام: اسم شارع بهذا الحي فيه دار رياض.

^{١٨} الباغي: الطالب. والحطام: المال قلٌّ أو كثر.

^{١٩} رجلٌ أذن (بضم الذال): إذا كان يسمع مقال كل أحد ويقبله.

^{٢٠} الوثام: الوفاق.

^{٢١} السراة: جمعُ سرِّي، وهو السيد الشريف السخي.

^{٢٢} الأحلام: العقول. والطغام (بفتح الطاء): أوغاد الناس.

^{٢٣} بلا سلام: أي اذهب بلا سلام.

^{٢٤} في صميم القلب: أي في القلب، والصميم: الخالص من الشيء.

^{٢٥} إذا ظهر الكرام على اللثام: أي إذا غلبوهم.

^{٢٦} الإِبَاء: الكبر والنخوة.

^{٢٧} اليراع: القلم. والحسام: السيف.

الشوقيات

سيكتبُ عنكِ فوقَ ثرى رياضٍ وفي التاريخِ صفحةَ الاتهامِ
أُفي السبعين والدنيا تولّت ولا يُرجى سوى حُسْنِ الختامِ
تكون وأنت أنتِ رياضُ مصرٍ عرابي اليوم في نظرِ الأنامِ

ضجيج الحجيج^١

ضَجَّ الْحِجَازُ وَضَجَّ الْبَيْتُ وَالْحَرَمُ
قَدْ مَسَّهَا فِي حِمَاكِ الضَّرُّ فَاقْضِ لَهَا
لَكَ الرِّبُوعُ الَّذِي رِيعَ الْحَجِيجِ بِهَا
أَهْيَنَ فِيهَا ضِيُوفُ اللَّهِ وَاضْطَهَّدُوا
أَفِي الضُّحَى وَعَيُونُ الْجَنْدِ نَاطِرَةٌ
وَيُسْفَكَ الدَّمُ فِي أَرْضٍ مَقْدَسَةٍ
يَدُ الشَّرِيفِ عَلَى أَيْدِي الْوَلَاةِ عَلَتْ
«نَيِّرُونَ» إِنَّ قَيْسَ فِي بَابِ الطُّغَاةِ بِهِ
أَدَّبَهُ أَدَّبُ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا
وَاسْتَصْرَحَتْ رَبَّهَا فِي مَكَّةَ الْأُمَمِ^٢
خَلِيفَةَ اللَّهِ أَنْتَ السَّيِّدُ الْحَكَمُ
أَلِلشَّرِيفِ عَلَيْهَا أَمْ لَكَ الْعِلْمُ؟^٣
إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَنْتَقِمْ فَاللَّهُ مُنْتَقِمٌ
تُسَبَّى النِّسَاءُ وَيُؤْذَى الْأَهْلُ وَالْحَشَمُ
وَتُسْتَبَاحُ بِهَا الْأَعْرَاضُ وَالْحَرَمُ^٤
وَنَعْلُهُ دُونَ رُكْنِ الْبَيْتِ تُسْتَلَمُ^٥
مُبَالِغٌ فِيهِ وَ«الْحَجَّاجُ» مُتَّهَمٌ^٦
فِي الْعَفْوِ عَنْ فَاسِقٍ فَضْلٌ وَلَا كَرَمٌ

^١ رُفِعَتْ إِلَى السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ اسْتِصْرَاحًا مِنَ الشَّرِيفِ وَأَعْوَانِهِ فِي ١٤ أَيْرِيلِ سَنَةِ ١٩٠٤ م.

^٢ ضَجَّ: فَزَعٌ مِنْ شَيْءٍ خَافَهُ فَصَاحَ.

^٣ الرِّبُوعُ: جَمْعُ رِبْعٍ، وَهُوَ الدَّارُ. وَالْحَجِيجُ: جَمْعُ الْحَاجِّ.

^٤ الْحَرَمُ: جَمْعُ حَرَمَةٍ، وَهِيَ مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكُهُ.

^٥ تُسْتَلَمُ: مِنْ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ وَرُكْنِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَغَيْرِهِ، وَهُوَ لَمَسُهُ بِالْيَدِ أَوْ بِالْقَبْلَةِ.

^٦ نَيِّرُونَ: طَاغِيَةُ رُومَانِيٍّ قَدِيمٍ. وَالْحَجَّاجُ: طَاغِيَةُ عَرَبِيٍّ كَانَ وَالِيًا عَلَى الْعِرَاقِ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ أَحَدِ الْخُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ.

لا ترجُ فيه وقارًا للرسول فما
ابنُ الرّسولِ فتى فيه شمائلُهُ
ما كان طه لرهطِ الفاسقين أبًا
خليفةَ الله شكوى المسلمين رقت
الحجُّ ركنٌ من الإسلام نُكِبِرُهُ
من الشريف ومن أعوانه فعلت
عزَّ السبيلُ إلى طه وتربّيته
محمدٌ رُوِّعَتْ في القبرِ أعظُمُهُ
وخان «عون الرفيق» العهد في بلدٍ
قد سال بالدم من ذبح ومن بَشِرِ
وفُرِّعَتْ في الخدورِ الساعياتُ له
أبَتْ ثكالي أيامى بعدما أخذت

بين البُغاة وبين المصطفى رَحِمُ^٧
وفيه نحوته والعهدُ والشَّمَمُ^٨
آلُ النبي بأعلام الهدى خِمْمُوا^٩
لِسُدَّةِ اللهِ هل ترقى لك «الكلم»^{١٠}
واليومَ يوشك هذا الركنُ ينهدمُ^{١١}
نُعْمى الزيادة ما لا تفعلُ النِّقْمُ
فَمَنْ أراد سبيلًا فالطريقُ دمُ^{١٢}
وبات مُستأمنًا في قومه الصنمُ^{١٣}
منه العهدُ أتت للناس والذَّممُ^{١٤}
واحمرَّ فيه الجمى والأشهرُ الحُرْمُ^{١٥}
الداعيات وقربُ الله مُغتَنَمُ^{١٦}
من حَوْلِهِنَّ النوى والأينقُ الرُّسْمُ^{١٧}

^٧ لا ترجُ: لا تخف، من رجا بمعنى خاف. والوقار هنا: العظمة، وفي القرآن الكريم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ

لِلَّهِ وَقَارًا﴾: أي لا تخافون الله عظمة.

^٨ الشامائل: جمع شمال، بكسر الشين، وهو الطبع. والنخوة: الحماسة والمروءة. والعهد: الوفاء والأمانة. والشمم: التكبر.

^٩ طه: من أسماء النبي ﷺ. والرهط: من ثلاثة إلى عشرة، ولا تكون فيهم امرأة.

^{١٠} رقت: صعدت. والكلم: اسم جنس جمعي لكلمة.

^{١١} نكبره: نعظمه. ويوشك: يقارب.

^{١٢} عزَّ السبيل: من قولهم عزَّ الشيء، إذا قلَّ فلا يكاد يوجد ولا يُقدَّر عليه.

^{١٣} الصنم: صورة، أو تمثال يُتخذ للعبادة، وقيل هو كل ما عُبد من دون الله.

^{١٤} عون الرفيق: اسم الشريف الذي اقترف تلك المظالم. والذمم: جمع ذمة، وهي العهد والأمان.

^{١٥} الأشهر الحرم: أربعة: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب؛ سُميت كذلك لأن العرب كانت تجعل القتال فيها حرامًا، ما عدا بني خثعم وطىء. والضمير في «سال» و«فيه»: للبلد في البيت المتقدم. واحمرار الحمى والأشهر الحرم: كناية عن اقترافه القتل فيهما.

^{١٦} فُرِّعَتْ: حُوِّفَتْ. والخدور: البيوت. والساعيات له: أي لذلك البلد.

^{١٧} الثكالي: جمع ثكلى، وهي مَنْ فقدت ولدها. والأيامى: جمع أيم، وهي من لا زوج لها. والنوى: البعد. والأينق: جمع ناقة. والرسم: جمع رسوم، وهي الناقة تَوَثَّرَ أخفافها في الأرض من شدة الوطء.

حُرِّمْنَ أَنْوَارَ خَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ كُتُبٍ
أَيُّ الصَّغَائِرِ فِي الْإِسْلَامِ فَاشِيَةٌ
يَجِيئُ صَدْرِي وَلَا يَجْرِي بِهَا قَلَمِي
أَغْضَيْتُ ضَنْئًا بَعْرُضِي أَنْ أَلُمَّ بِهِ
مَوْهُ عَلَى النَّاسِ أَوْ غَالِطُهُمْ عِبْثًا
مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْبُلُوَى وَإِنْ عَظُمَتْ
كُلُّ الْجِرَاحِ بِأَلَامٍ فَمَا لَمَسَتْ
وَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنْهَا وَهِيَ دَامِيَةٌ

فَدَمَعُوهِنَّ مِنَ الْحَرَمَانِ مُنْسَجِمٌ^{١٨}
تُوْدَى بِأَيْسَرِهَا الدُّوَلَاتُ وَالْأُمَمُ^{١٩}
وَلَوْ جَرَى لِبَكِي وَاسْتَضْحَكَ الْقَلَمُ^{٢٠}
وَقَدْ يَرُوقُ الْعَمَى لِلْحُرِّ وَالصَّمَمُ^{٢١}
فَلَيْسَ تَكْتَمُهُمْ مَا لَيْسَ يَنْكُتُمُ^{٢٢}
أَنْ يَعْلَمَ الشَّامِتُونَ الْيَوْمَ مَا عَلِمُوا
يَدُ الْعَدُوِّ فَتَمَّ الْجَرْحُ وَالْأَلَمُ
إِذَا أَسَاها لِسَانٌ لِلْعِدَا وَفَمُ

* * *

رَبِّ الْجَزِيرَةِ أَدْرِكْهَا فَقَدْ عَبَثَتْ
إِنْ الَّذِينَ تَوَلَّوْا أَمْرَهَا ظَلَمُوا
فِي كُلِّ يَوْمٍ قِتَالٌ تَقْشَعُرُ لَهُ
أَزْرَى الشَّرِيفِ وَأَحْزَابُ الشَّرِيفِ بِهَا
لَا تَجْزِيهِمْ عَنْكَ جَلَمًا وَاجْزِهِمْ عَنْتًا

بِهَا الذَّنَابُ وَضَلَّ الرَّاعِي الْغَنَمُ^{٢٣}
وَالظُّلْمُ تَصَحَّبُهُ الْأَهْوَالُ وَالظُّلْمُ^{٢٤}
وَفِتْنَةٌ فِي رُبُوعِ اللَّهِ تَضْطَرُّمُ^{٢٥}
وَقَسَمُوهَا كَارِثَ الْمَيْتِ وَانْقَسَمُوا^{٢٦}
فِي الْجِلْمِ مَا يَسِمُ الْأَفْعَالُ أَوْ يَصِمُ^{٢٧}

^{١٨} من كتب: أي من قرب. والمنسجم: السائل.

^{١٩} الصغائر: جمع صغيرة، وهي من الذنوب أخف من الكبيرة في حكم الشرع. وتودى: تهلك. والدولات: جمع دولة.

^{٢٠} يجيش صدري: يغلي غيظًا. استضحك: بمعنى ضحك.

^{٢١} أغضيت: أي صبرت وأمسكت. وضئًا: بخلاً. وألم به: أي بما يؤذيه، من قولهم ألم بالذنب إذا فعله. ويروق العمى: من راقه الشيء؛ أعجبه.

^{٢٢} مؤه على الناس: أي زخرف لهم الأخبار وزورها عليهم.

^{٢٣} رب الجزيرة: أي صاحب الجزيرة، وهي جزيرة العرب.

^{٢٤} الأهوال: جمع هول، وهو المخافة من الأمر لا يعرف الإنسان ما يهجم منه. والظلم: جمع ظلمة.

^{٢٥} تضطرم: تشتعل.

^{٢٦} أزرى بها: تهاون.

^{٢٧} العنت: الشدة والهلاك. وما يسم: أي ما يكون سمة وعلامة. وما يصم: أي ما يكون وصمة وعبأ.

كفى الجزيرة ما جرُّوا لها سفهاً وما يحاولُ من أطرافها العَجَمُ^{٢٨}
 تلك الثغورُ عليها وهي زينتها مناهلٌ عذبتُ للقوم فازدحموا^{٢٩}
 في كلِّ لُجٍّ حوالِيتها لهم سُفنٌ وفوقَ كلِّ مكانٍ يابسٍ قَدَمُ^{٣٠}
 والأهمُّ أمراءُ السوءِ واتَّفَقوا مع العُداة عليها فالعُداة هُمُ
 فجرَّدَ السيفَ في وقتٍ يُفيدُ به فإنَّ للسيفِ يوماً ثم ينصرمُ^{٣١}

^{٢٨} العجم هنا: أهل الغرب، ممَّن كانوا يحققون على الدولة التركية وجودها.

^{٢٩} المناهل: جمع منهل، وهو المورد. والمراد بالقوم: أولئك العجم.

^{٣٠} اللج: معظم الماء.

^{٣١} جرَّد السيف: سلَّه. وينصرم: يمضي.

استقبال

يا راكبَ الريحِ حيَّ النيلَ والهَرَمَا
وقِفْ على أثَرِ مرِّ الزمانِ به
واخفِضْ جناحَكَ في الأرضِ التي حَمَلَتْ
وأخَرَجَتْ حكمةَ الأجيالِ خالدةً
وشرَّقتْ بملوكِ طالما اتَّخذوا
هذا فضاءً تُلِمُّ الريحُ خاشعةً
فمرحبًا بِكما من طالعِين به
وعظَّمِ السفحَ من سيناءَ والحَرَمَا^١
فكان أثَبَتْ من أطوايدِهِ قَمَمَا^٢
موسى رضيعًا وعيسى الطُّهرَ مُنقِطَمَا^٣
وبيَّنتَ للعبادِ السيفَ والقَلَمَا^٤
مَطيَّهِهم من ملوكِ الأرضِ والخدمَا^٥
به ويمشي عليه الدهرُ مُحْتَشِمَا^٥
على سوى الطائرِ الميمونِ ما قَدِمَا^٦

* * *

عاد الزمانُ فأعطى بعدما حرَمَا
وتاب في أُنْزِلِ المحزونِ فابتسما

^١ السفح: عرض الجبل المضطجع. والحرم: ما لا يحلُّ انتهاكه.

^٢ الأطوايد: الجبال. والقمم: واحدتها قمة، وهي أعلى كل شيء.

^٣ الحكمة: صواب الأمر وسداده. والأجيال: جمع جيل، وهم أهل الزمن الواحد. والخالدة: الدائمة الباقية.

^٤ طالما اتَّخذوا مطاياهم وخدمهم من ملوك الأرض: أولئك هم ملوك مصر الأقدمون، حين كانوا يأسرون في حروبهم ملوك الأقطار الأخرى.

^٥ المحتشم: المستحي.

^٦ على الطائر الميمون: مأخوذ من قولهم في الدعاء للمسافر: سيّر على الطائر الميمون.

فيا رعى الله وفداً بين أعيننا ويرحم الله ذاك الوفد ما رحماً^٧
 هم أقسموا لتدينن السماء لهم واليوم قد صدقوا في قبرهم قسماً^٨
 والناس باني بناء أو متممه وثالث يتلافى منه ما انهدما
 تعاون لا يحل الموت عروته ولا يرى بيد الأرزاء منقصما^٩

* * *

يا صاحبي «أدرميد» حسبها شرفاً أن الرياح إليها ألقَت اللُجُما^{١٠}
 وأنها جاوَزَت في القدس منطقة جري البساط فلم يجتز لها حرماً^{١١}
 مشّت على أفق مرّ البراق به فقبَلَت أثراً للخف مُرتسماً^{١٢}
 ومسّحت بالمصلّى فاكتست شرفاً وبالمُغار المُعلّى فاكتست عظماً^{١٣}
 وكلّما شاقها حادٍ على أفق كانت مزاميرُ داوودٍ هي النغما^{١٤}
 جشمتماها من الأهوال أربعة الرعد والبرق والإعصار والظُلُما^{١٥}

^٧ كانت الدولة العليّة قد نذبت للقيام برحلة جوية بين الآستانة والقاهرة اثنين من ضباطها الطيارين، فسقطت طيارتهما في الطريق وماتا، فنذبت الدولة غيرهما، فوصلا سالمين، وإلى هذا يشير بالوفدين في البيت.

^٨ لتدينن: أي لتخضعن وتذلّن.

^٩ العروة: كل ما يؤتق به. والمنقصم: المنقطع.

^{١٠} أدرميد: اسم الطائرة التي ركبها إلى مصر.

^{١١} القدس: مدينة بيت المقدس في الشام. والبساط: هو بساط سليمان، وفي التاريخ الديني أنه كان يتخذ مع الريح بساطاً يُجرّيه حيث يشاء.

^{١٢} البراق في اللغة الدينية: دابة كان يركبها الأنبياء، وقد ركبها النبي محمد ﷺ ليلة إسرائه من مكة إلى بيت المقدس. والخف: أي خفّ الرسول، ويقال إن أثره مرتسم هناك.

^{١٣} المصلى: مكان الصلاة. والمغار (بفتح الميم وضمها): الكهف. والمعلّى: المرفوع.

^{١٤} شاقها: هاجها وشوّقها. والحادي: سائق الإبل الذي يغني لها. ومزامير داوود: ما كان يرتلّه في صلاته من الأناشيد والترانيم.

^{١٥} جشمتماها: كلّفتماها. والأهوال: جمع هول، وهو المخافة من أمر لا يُعرّف ما يهجم منه على الإنسان. والإعصار: ريح ترتفع بتراب بين السماء والأرض، أو تستدير كأنها عامود. والظلم: جمع ظلمة.

حتى حوتها سماء النيل فانحدرت كالنسر أعيا فوافى الوكر فاعتصما^{١٦}

* * *

يا آل عثمان أبناء العمومة هل
إذا حزنتم حزناً في القلوب لكم
وكم نظرنا بكم نعمى فجسمها
ونبذل المال لم نحمل عليه كما
صبراً على الدهر إن جلّت مصائبه
إذا المقاتل من أخلاقهم سلّمت
وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
نمت على كل ثار لا قرار له
فنال من سيفكم من كان ساقية
قال العذول خرجنا في محبتكم
فما على المرء في الأخلاق من حرج
ولو وهبتم لنا عليا سيادتكم
نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطناً
هذي كرائم أشياء الشعوب فإن

تشكون جرحاً ولا نشكو له أما^{١٧}
كالأم تحمل من هم ابنها سقما
لنا السرور فكانت عندنا نعمة^{١٨}
يقضي الكريم حقوق الأهل والذمما^{١٩}
إن المصائب مما يوقظ الأمما
فكل شيء على آثارها سلّما
فإن تولّت مضوا في إثرها قدما^{٢٠}
وهل ينأى مصيب في الشعوب دما
كما تنال المدام الباسل القدما^{٢١}
من الوقار فيا صدق الذي زعما
إذا رعى صلّة في الله أو رجما
ما زادنا الفضل في إخلاصنا قدما
ولا سريراً ولا تاجاً ولا علماً
ماتت فكل وجود يشبه العدم

^{١٦} حوتها: أي حازتها. وانحدرت: هبطت. والنسر: طائر من الجوارح وكلها تخافه، وهو حادّ البصر، وأشدّ الطيور ارتفاعاً، وأقواها جناحاً. وأعيا: تعب. ووافى الوكر: أتاه. والوكر: عش الطائر أينما كان في شجر أو في غيره. فاعتصم به: أي لزمه.

^{١٧} العمومة: مصدر من العم، كالخثولة من الخال.

^{١٨} النعمى: ما أنعم به.

^{١٩} الذمم: جمع ذمة، وهي العهد.

^{٢٠} القدم (بضم القاف والدال): أي يمضي الإنسان فلا يعرج على شيء، ولا ينثني.

^{٢١} المدام: الخمر. والباسل: البطل الشجاع. والقدم (بفتح القاف والدال): الشجاع أيضاً.

أرسططاليس وترجمانه^١

وَهَدَيْتَ بِالنَّجْمِ الْكَرِيمِ	عَلَّمْتَ بِالْقَلَمِ الْحَكِيمِ
بَأَرْسُطَطَالِيسَ الْعَظِيمِ	وَأَتَيْتَ مِنْ مِحْرَابِهِ
لَنْهَائِهِ الْمُلْكَ الْجَسِيمِ	مَلِكِ الْعَقُولِ وَإِنِّهَا
نَا وَابْنِ بَرْقَيْنِ الْحَكِيمِ ^٢	شَيْخُ ابْنِ رُشْدٍ وَابْنِ سَيِّدِ
حِ وَكَانَ فِي رُشْدِ الْكَلِيمِ	مَنْ كَانَ فِي هَدْيِ الْمَسِيدِ
قَبْلَ الْبَنِيَّةِ وَالْحَطِيمِ ^٣	وَعِدَا وَرَاحَ مُوَحِّدًا
بِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْهَزِيمِ ^٤	صَوْتُ الْحَقِيقَةِ بَيْنَ رَعِ
مِ وَبَيْنَ طُغْيَانِ الْمُسِيمِ ^٥	مَا بَيْنَ عَادِيَةِ السَّوَا
رِ بِنَاءِ جَبَّارِ رَحِيمِ	يَبْنِي الشَّرَائِعَ لِلْعُصُو
أَجْيَالِ تَفْصِيلِ الْيَتِيمِ ^٦	وَيُفْصِّلُ الْأَخْلَاقَ لِلـ

^١ ترجم الأستاذ أحمد لطفي باشا السيد كتاب أرسططاليس في علم الأخلاق إلى العربية، فكتب إليه صاحب الديوان هذه التهنئة.

^٢ برقين: بلدة المترجم لطفي باشا السيد.

^٣ البنية: الكعبة.

^٤ الهزيم: صوت الرعد.

^٥ السوام: المرعية، والمسيم: الراعي.

^٦ اليتيم: اللؤلؤ.

في واضحٍ لَحَبِ الطَّريقِ قِ من المَذهبِ مُستقيمٍ^٧
ورسائلٍ مِثْلِ السُّلَا فِ إذا تَمَشَّتْ في النَّدِيمِ
قدسيةِ النَفحاتِ تُسـ كِر بالمذاقِ وبالشَّمِيمِ

* * *

يا لُطْفِ أَنْتَ هُوَ الصَّدَى من ذلك الصوتِ الرخيمِ
أَرْجُ الرِّياضِ نَقْلَتَهُ ونسختَهُ نَسَخَ النَسِيمِ
وسرِيتَ من شِعْبِ الأَلَمِ بَ به إلى وادي الصَّرِيمِ^٨
فتجارتِ اللغَتانِ لِلـ غاياتِ في الحسبِ الصمِ
لغةٍ من الإغريقِ قِيَّ مةً وأخرى من تميمِ
وَأَتَيْتَنَا بِمُفَصَّلِ بالتَّبَرِّ علويِّ الرِّقيمِ
هو ضِنَّةُ الْمُثْرِي من الـ أخلاقِ أو مالُ العديمِ^٩

* * *

مَشَاءَ هَذَا العَصْرِ قِفْ حَدَّثَ عَنِ العُصْرِ القديمِ^{١٠}
مِثْلُ لَنَا اليُونانِ بِيـ نَ العلمِ والخُلُقِ القويمِ
أَخْلَاقُهَا نُورُ السَّبِيـ لَ وعِلْمُهَا نُورُ الأديمِ
وشبابُها يتعلمو نَ على الفراقِدِ والنجومِ
لَمَسُوا الحَقِيقَةَ في الفَنو نِ وأدركوها في العلومِ
حَلَّتْ مَكَانًا عِنْدَهُم فَوْقَ المُعَلِّمِ والزَّعيمِ^{١١}
والجَهْلُ حَظُّكَ إِنْ أَخَذَ تَ العِلْمَ من غيرِ العليمِ
ولَرُبَّ تَعْلِيمٍ سَرَى بالنشءِ كالمرضِ المُنيمِ^{١٢}

^٧ الطريق للحب: الواسع.

^٨ الألب: جبل من جبال اليونان. والصريم: وادٍ من أودية العرب.

^٩ الضنة: الشيء الذي يُضَنُّ به.

^{١٠} المشاءون: تلاميذ أرسططاليس.

^{١١} هذه إشارة إلى قول أرسططاليس المشهور: أفلاطون حبيب إليّ، ولكن الحقيقة أحبُّ إليّ منه.

^{١٢} المرض المنيم: النوم.

يَتَلَبَّسُ الحُلْمُ اللّٰذِي ذُو عَلَيْهِ بِالْحُلْمِ الْأَلِيمِ
ومدارسٍ لَا تُنْهَضُ إلَّا أَخْلَاقَ دَارِسَةِ الرُّسُومِ
يَمْشِي الفَسَادُ بِنَبَاتِهَا مَشْيَ الشَّرَارَةِ بِالْهَشِيمِ

* * *

لَمَّا رَأَيْتُ سَوَادَ قَوٍ مِي فِي دُجَى لَيْلٍ بِهِيمِ
يُسْقَوْنَ مِنْ أُمِّيَّةٍ هِيَ غُصَّةُ الْوَطَنِ الْكَظِيمِ
وَسَرَاتِهِمْ فِي مُقْعِدٍ مِنْ مَطْلَبِ الدُّنْيَا مُقِيمِ
يَسْعَوْنَ لِلْجَاهِ الْعَظِيمِ لَيْسَ لِلْحَقِّ الْهَظِيمِ
وَبُصْرَتُهَا بِالدُّسْتُورِ يُزْ هَقُّ وَهُوَ فِي عُمْرِ الْفُطِيمِ
لَمْ يَنْجُ مِنْ كَيْدِ الْعَدُوِّ لَهُ وَمَنْ عَبَثِ الْحَمِيمِ
أَيَقْنَتُ أَنَّ الْجَهْلَ عَلَّ لَهُ كُلَّ مَجْتَمَعٍ سَقِيمِ
وَأَتَيْتُ يَا رَبَّ النَّثِي رٍ بِمَا تُحِبُّ مِنَ النُّظِيمِ
أَجِزْ اجْتِهَادَكَ فِي جَنَى النَّ مَرَاتٍ لِلنَّشْأِ النَّهِيمِ^{١٣}
مِنْ رَوْضَةِ الْعِلْمِ الصَّحِي حٍ وَرَبْوَةِ الْأَدَبِ السَّلِيمِ
الْعَاشِقِينَ الْعِلْمَ لَا يَأْلُوهُ طَلَبُ الْغَرِيمِ
الْمُعْرِضِينَ عَنِ الصَّغَا ئِرِ وَالسَّعَايَةِ وَالنَّمِيمِ

* * *

قَسَمًا بِمِزْهَبِكَ الْجَمِي لٍ وَوَجْهِ صُحْبَتِكَ الْقَسِيمِ
وَقَدِيمِ عَهْدٍ لَا ضَرِي لٍ فِي الْوُدَادِ وَلَا ذَمِيمِ
مَا كُنْتُ يَوْمًا لِلْكِنَا نَةٍ بِالْعَدُوِّ وَلَا الْخَصِيمِ
لَمَّا تَلَاخَى النَّاسُ لَمْ تَنْزِلْ إِلَى الْمَرْعَى الْوَحِيمِ^{١٤}
كَمْ شَاتِمٍ قَابَلْتَهُ بِتَرْفَعِ الْأَسَدِ الشَّتِيمِ^{١٥}

^{١٣} النهيم: الذي لا يشبع.

^{١٤} تلاخى الناس: تلاعنوا.

^{١٥} الشتيم: العابس.

بِ مِنْ الْجُهْدِ عَنِ الْعَقِيمِ	وَشَغَلَتْ نَفْسَكَ بِالْخَصِيـ
دَ وَلَمْ تَزَلْ أَوْفَى خَدِيمٍ ^{١٦}	فَخَدِمْتَ بِالْعِلْمِ الْبِلَا
ثِرِ وَالْمَمَالِكِ مِنْ قَدِيمِ	وَالْعِلْمُ بِنَاءُ الْمَا
نِ وَحَطَّمُوا ذُلَّ الشَّكِيمِ	كَسَرُوا بِهِ نِيرَ الْهَوَا

^{١٦} الخديم: الخادم.

شهيد الحق^١

إِلَامَ الْخُلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَّا مَا
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
وَأَيْنَ الْفَوْزُ لَا مَصْرُ اسْتَقَرَّتْ
وَأَيْنَ زَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لَمَّا
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغُنْمًا
وَتَقْتُمْ وَاتَّهَمْتُمْ فِي اللَّيَالِي
شَبَبْتُمْ بَيْنَكُمْ فِي الْقَطْرِ نَارًا
إِذَا مَا رَاضَهَا بِالْعَقْلِ قَوْمٌ
تَرَامَيْتُمْ فَقَالَ النَّاسُ قَوْمٌ
وَكَانَتْ مَصْرُ أَوَّلَ مَنْ أَصَبْتُمْ
إِذَا كَانَ الرُّمَاءُ رِمَاءَ سُوءٍ
أَبْعَدَ الْعُرْوَةِ الْوَثْقَى وَصَفَّ

وهذي الضَّجَّةُ الْكَبْرَى عَلَامَا
وَتُبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَا
عَلَى حَالٍ وَلَا السُّودَانُ دَامَا
رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّلَامَا
وَكَانَ شِعَارُهَا الْمَوْتَ الرُّؤْمَا
فَلَا ثَقَّةً أَدْمَنَ وَلَا اتِّهَامَا
عَلَى مُحْتَلَّهِ كَانَتْ سَلَامَا
أَجَدَّ لَهَا هَوَى قَوْمٍ ضِرَامَا
إِلَى الْخِذْلَانِ أَمْرُهُمْ تَرَامَى
فَلَمْ تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلَا الْكِلَامَا^٢
أَحَلُّوا غَيْرَ مَرْمَاهَا السَّهَامَا
كَأَنْيَابِ الْغَضَنْفَرِ لَنْ يُرَامَا

^١ نظمها صاحب الديوان بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد تناول فيها وصف ما أصاب البلاد في سنة ١٩٢٤م من انقسام وتشاحن وتناحر، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير وموقف بعض الزعماء حياله، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى فقيده البلاد المرحوم مصطفى كامل فوفاه حقه، واستطرد من ذلك إلى البحث فيما تحتاج إليه البلاد من وسائل الإصلاح.

^٢ الكلام (بكسر الكاف): الجروح.

تَبَاغَيْتُمْ كَأَنَّكُمْ خَلَايَا مِنْ السَّرَطَانِ لَا تَجِدُ الضُّمَامَا^٢
أَرَى طَيَّارَهُمْ أَوْفَى عَلَيْنَا وَحَلَّقَ فَوْقَ أَرْوُسِنَا وَحَامَا
وَأَنْظُرْ جَيْشَهُمْ مِنْ نَصْفِ قَرْنٍ عَلَى أَبْصَارِنَا ضَرْبَ الْخِيَامَا
فَلَا أُمْنَاؤُنَا نَقْصُوهُ رَمَحًا وَلَا خُوَانُنَا زَادُوا حَسَامَا
وَنُلْفِي الْجَوَّ صَاعِقَةً وَرَعْدًا إِذَا قَصُرَ الدُّبَارَةُ فِيهِ غَامَا
إِذَا انْفَجَرَتْ عَلَيْنَا الْخَيْلُ مِنْهُ رَكِبْنَا الصَّمْتَ أَوْ قُدْنَا الْكَلَامَا^٤
فَأُبْنَا بِالتَّخَاذُلِ وَالتَّلَاحِي وَآبَ بِمَا ابْتَغَى مِنَّا وَرَامَا^٥

* * *

مَلَكْنَا مَارِنَ الدُّنْيَا بِوَقْتٍ فَلَمْ نُحْسِنْ عَلَى الدُّنْيَا الْقِيَامَا^٦
طَلَعْنَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ أَسْوَدًا وَرُحْنَا وَهِيَ مُدْبِرَةٌ نَعَامَا
وَلَيْنَا الْأَمْرَ حَزْبًا بَعْدَ حَزْبٍ فَلَمْ نَكُ مُصْلِحِينَ وَلَا كِرَامَا
جَعَلْنَا الْحُكْمَ تَوَلِيَّةً وَعِزًّا وَلَمْ نَعُدْ الْجَزَاءَ وَالْإِنْتِقَامَا
وَسُسْنَا الْأَمْرَ حِينَ خَلَا إِلَيْنَا بِأَهْوَاءِ النُّفُوسِ فَمَا اسْتِقَامَا
إِذَا التَّصْرِيحُ كَانَ بِرَاحٍ كَفَرٍ فَلِمَ جُنَّ الرِّجَالُ بِهِ غَرَامَا^٧
وَكَيْفَ يَكُونُ فِي أَيْدٍ حَلَالًا وَفِي أُخْرَى مِنَ الْأَيْدِي حَرَامَا
وَمَا أَدْرِي غَدَاةَ سُقَيْتُمُوهُ أَتَرِيَاقًا سُقَيْتُمْ أَمْ سِمَامَا^٨

* * *

شَهِيدَ الْحَقِّ قُمْ تَرَهُ يَتِيمًا بِأَرْضٍ ضُيِّعَتْ فِيهَا الْيَتَامَى
أَقَامَ عَلَى الشُّفَاهِ بِهَا غَرِيبًا وَمَرَّ عَلَى الْقُلُوبِ فَمَا أَقَامَا^٩

^٢ الضمام: ما ضمنت به شيئاً آخر. والسرطان: ورمٌ سوداوي تظهر عليه عروقٌ حمراء وخضراء متشعبة.

^٤ ركبنا الصمت: أي وجدناه خيراً. وقدنا الكلام: استرسلنا فيه.

^٥ التلاحي: التلاعن والتلاوم.

^٦ المارن: الأنف، أو ما لان منه، والمراد بمارن الدنيا ذروتها وأعلاها.

^٧ البراح: الصراح. والتصريح: تصريح ٢٨ فبراير، يشير إلى موقف بعض الزعماء منه.

^٨ السمام: جمع سم. والترياق: ما يدفع السموم من الدواء.

^٩ أي تلفظه الأفواه ولا تحسُّ به القلوب.

سَقِمْتَ فلم تَبْتَ نفسٌ بخيرٍ
ولم أَرِ مثْلَ نَعَشِكَ إذ تَهَادَى
تَحْمَلُ هِمَّةً وَأَقْلَّ دِينًا
وما أَنْسَاكَ فِي الْعَشْرِينَ لَمَّا
يُشَارُ إِلَيْكَ فِي النَّادِي وتُرْمَى
إِذَا جِئْتَ الْمَنَابِرَ كُنْتَ قُسًّا
وَأَنْتِ أَلَدُّ لِلْحَقِّ اهْتِزَازًا
وتَحْمَلُ من أَدِيمِ الْحَقِّ وَجْهًا
أَتَذْكُرُ قَبْلَ هَذَا الْجِيلِ جِيلًا
مِهَارُ الْحَقِّ بَغْضُنَا إِلَيْهِمْ
لَوَاؤُكَ كَانَ يَسْقِيهِمْ بِجَامٍ
من الْوِطْنِيَّةِ اسْتَبَقُوا رَحِيقًا
غَرَسْنَا كَرَمَهَا فَرْكًَا أَصُولًا
جَمَعْتَهُمْ عَلَى نَبْرَاتِ صَوْتٍ

كَأَنَّ بِمَهْجَةِ الْوِطْنِ السَّقَامَا
فَغَطَّى الْأَرْضَ وَانْتَضَمَ الْأَنَامَا^{١٠}
وَضَمَّ مَرْوَةً وَحَوَى زَمَامَا^{١١}
طَلَعَتْ حِيَالَهَا قَمَرًا تَمَامَا
بَعَيْنِي مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ تَعَامَى
إِذَا هُوَ فِي عُكَاطٍ عَلَا السَّنَامَا^{١٢}
وَالْطَّفُ حِينَ تَنْطِقُهُ ابْتِسَامَا
صُرَاحًا لَيْسَ يَتَّخِذُ اللَّثَامَا^{١٣}
سَهْرُنَا عَنْ مُعْلَمِهِمْ وَنَامَا^{١٤}
شَكِيمَ الْقَيْصَرِيَّةِ وَاللَّجَامَا^{١٥}
وَكَانَ الشُّعْرُ بَيْنَ يَدَيَّ جَامَا^{١٦}
فَضَضْنَا عَنْ مُعَنَّيْهَا الْخَتَامَا^{١٧}
بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَزَكَا مُدَامَا^{١٨}
كَنْفَخِ الصُّورِ حَزَّكَ الرَّجَامَا^{١٩}

^{١٠} تهادى: تمايل على الأعناق.

^{١١} زمام القوم: مقدّمهم وصاحب أمرهم.

^{١٢} قسّ: هو قس بن ساعدة الإيادي، ويضرب به المثل في بلاغة الخطباء، ويروى عنه أنه كان يخطب الناس في عكاظ وهو على ظهر بعير.

^{١٣} الأديم: الوجه والصفحة.

^{١٤} سهرنا عن معلمهم: أي تركنا هذا المعلم ينام، وقمنا نحن على تهذيبهم وإنشائهم.

^{١٥} المهار: جمع مهر، والمراد بالمهار هنا الشباب. والشكيم: جمع شكيمة، وهي من اللجام حديدة تعترض فم الفرس، والمراد بشكيم القيصريّة ولجامها قسوة الاحتلال وجبروته.

^{١٦} اللجام: إناء من فضة. والمعنى أنك كنت تغذوهم بما كنت تنثر عليهم من لوائك من ثمر الأدب، وكنت أنا أيضًا أغذوهم بما أُرْجِي لهم من زهور الشعر والبيان.

^{١٧} استبقوا الرحيق: تسابقوا إليه. والرحيق: الخمر. والمعنى: القديم، وقدم الخمر يحسنها ويزيد لذة شاربها. وفضضنا الختام: فتحناه.

^{١٨} الكرم: العنب. وزكا: نما. والمدام: الخمر.

^{١٩} الرجاء: القبور.

لك الخُطْبُ التي غَصَّ الأعادي	بَسَوْرَتِها وساعت للندامي ^{٢٠}
فكانت في مرارتها زئيراً	وكانت في حلاوتها بُغاماً ^{٢١}
بك الوطنية اعتدلت وكانت	حديثاً من خرافة أو مَناماً ^{٢٢}
بنيت قضية الأوطان منها	وصيرت الجلاء لها دِعاماً ^{٢٣}
هزرت بني الزمان به صبيّاً	ورُعت به بني الدنيا غلاماً

^{٢٠} السورة: الحدة والحدة. وغَصَّ بالشيء: اعترض في حلقه فمنعه التنفُّس، والمراد بغصّة الأعادي غضبهم. والندامي: جمع ندمان، وهو نديم الشَّراب، والمراد بهم الشيعة والأصدقاء.

^{٢١} البغام: صوت الطَّيبي.

^{٢٢} خرافة: رجلٌ عذري اختطفته الجن فيما زعموا، ثم رجع إلى قومه، وأخبر بما رأى منها، فكذَّبوه، وأصبح حديثه مثلاً لكلِّ حدِّثٍ باطل.

^{٢٣} الدعام: العماد.

تحية للتُّرك

الدهرُ يقْظانُ والأحداثُ لم تنمِ
لعلكم من مِراسِ الحربِ في نَصَبٍ
لقد فتحتم فأعرضتم على شَبَعٍ
هَبُّوا بكم وبنا للمجدِ في زمنِ
هذا الزمانُ تُناديكم حوادثُهُ
فالسيفُ يهدمُ فجراً ما بُني سَحَراً
قد مات في السَّلمِ مَنْ لا رأيَ يَعصُمُهُ
وأصبح العلمُ ركنَ الآخذين به

فما رُقَادُكُمْ يا أَشْرَفَ الأُمَمِ
وهذه ضجعةُ الأسادِ في الأَجَمِ^١
والفتحُ يعترضُ الدُّولَ بالتُّخَمِ^٢
مَنْ لم يكن فيه ذنباً كان في الغنمِ
يا دولةَ السيفِ كُوني دولةَ القلمِ
وكلُّ بنيانٍ علمٍ غيرُ مُنْهَدِمٍ^٣
وسوَّتِ الحربُ بينَ البَهِمِ والبَهِمِ^٤
مَنْ لا يَقِمُّ ركنَه العرفانُ لم يَقِمِّ

^١ مراس الحرب: مزاولتها. والنصب: التعب. والضجعة: الرقدة. والأساد: جمع أسد. والأجم (بفتح الجيم): جمع أجمة، وهي الشجر الملتف.

^٢ فتحتم: تغلبتم على البلاد التي حاربتموها حتى ملكتموها. والتخم: جمع تخمة، وهي ثقل الأكل.

^٣ يهدم فجراً ... إلخ: أي يهدم وقت الفجر ما يكون قد بناه وقت السحر، والمعنى أن بنيان السيف لا دوام له.

^٤ السلم: ضد الحرب. ويعصمه: يحفظه ويقيه. والبهم (بفتح الباء وسكون الهاء): جمع بهمة (بفتح الباء وسكون الهاء أيضاً)، وهي أولاد الضأن والمعز والبقر. والبهم (بضم الباء وفتح الهاء): جمع بهمة (بضم الباء وسكون الهاء)، وهي الرجل الشجاع.

الناسُ تسحبُ فضفاضَ الغنى مرَّحاً
يا فتيةَ التُّركِ حيَّا اللهُ طلعتكم
أنتم غدُ المُلِكِ والإسلامِ لا برحاً
تُجلُّكم مصرُ منها في ضمائرِها
فنحن إن بعدت دارٌ وإن قرَّبت
ناهيك بالسببِ الشرقيِّ من نسبٍ
شملُ اللغاتِ لدى الأقوامِ مُلتئمٌ
فقرَّبوا بيننا فيها وبينكم
وكلُّنا إن أخذنا بالفلاح يدُ
فلا تكوننَّ «تركياً الفتاة» ولا
فسيفُها سيفُها في كلِّ مُعتركٍ

ونحن نلبسُ عنه ضيقةَ العُدَمِ^٥
وصانَكُم وهداكم صادقَ الخِدَمِ^٦
منكم بخيرِ غدٍ في المجدِ مُبتسمٌ^٧
وتُعلنِ الحبَّ جمًّا غيرَ متَّهمٍ^٨
جارانِ في الضادِ أو في البيتِ والحرَمِ^٩
وحبذا سببُ الإسلامِ من رجمٍ^{١٠}
والضَّادُ فينا بشملٍ غيرِ مُلتئمٍ^{١١}
فإنها أوثَّقُ الأسبابِ والدِّمَمِ
وسعيُّنا قَدَمٌ فيه إلى قَدَمِ
تلك العجوزَ وكُونوا تركيا القَدَمِ
وعدُّها طَوَّقَ الإسلامَ بالنَّعَمِ

^٥ الفضفاض: الواسع. والمرح: التبخر والاختيال. والضيقة (بفتح الضاد وكسرها): سوء الحال. والعُدَم
يضم العين والدال وتُسَكَّن داله أيضاً): الفقر.

^٦ صادق الخدم: أي الخدم الصادقة، وهي جمع خدمة.

^٧ أنتم غد الملك والإسلام: أي أنتم الذين تهَيَّئون لهما غدهما، والمراد مُقبِل حالهما.

^٨ جمًّا: كثيرًا. وغير متهم: أي غير مشكوك في صدقه.

^٩ الضاد: تُطلق اسمًا للغة العربية؛ وذلك أن حرف الضاد لا يوجد في لغة سواها، ولا يقوى عليه إلا أهلها.

^{١٠} ناهيك: كلمة استعظام وتعجُّب، وتأويلها في الكلام أن هذا الشيء هو غاية فيما تطلبه، حتى إنه ينهاك عن طلب غيره، فمعنى البيت أن السبب الشرقي هو ما يطلب من النسب بيننا وبينكم، فلا تطلبوا نسبًا سواه. وحبذا: كلمة مدح.

^{١١} الشمل: ما تفرَّق من الأمر وما اجتمع منه، يقال جمع الله شملهم، وفرَّق الله شملهم. وملتئم: منضم وملتصق.

الأسطول العثماني^١

هَزَّ اللِّوَاءَ بَعَزَّكَ الْإِسْلَامُ وَعَنْتَ لِقَائِمِ سَيْفِكَ الْأَيَّامُ^٢
وَانْقَادَتِ الدُّنْيَا إِلَيْكَ فَحَسْبُهَا عَذْرًا قِيَادُ أُسْلَسَتْ وَزِمَامُ^٣
وَمَشَى الزَّمَانُ إِلَى سَرِيرِكَ تَائِبًا خَجَلًا عَلَيْهِ الذُّلُّ وَالْإِرْغَامُ
عَرْشُ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ جَنَابَتُهُ نُورٌ وَرَفْرَفُهُ الطَّهْوَرُ غَمَامُ^٤
لَمَّا جَلَسْتَ سَمَا وَعَزَّ كَأَنَّمَا هَارُونُ وَابْنَاهُ عَلَيْهِ قِيَامُ^٥
الْبَحْرُ مُحْشَوْدُ الْبَوَارِجِ دُونَهُ وَالْبَرُّْ تَحْتَ ظِلَالِهِ آجَامُ^٦

^١ كان صاحب الديوان في الآستانة، وشاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العلية من ألمانيا، فأخذته هزة الطرب، وعز عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض قاعدين عن إعانة أسطول الدولة، فجرى لسانه بهذه القصيدة.

^٢ عنت: خضعت وذلّت، والخطاب في هذا البيت والبيتين بعده للخليفة محمد رشاد.

^٣ القيادة: ما يُقَادُ به، ويُستعمل بمعنى الطاعة. وأسلس: جعلته سلساً؛ أي سهلاً ليناً. والزمَام: مقود البعير.

^٤ الجنابات: النواحي، مفردُها جنبة. والرُفْرُف: كل ما فضل فثنى. والَطَّهْوَر: هو الطاهر في نفسه والمطهر غيرها.

^٥ سما: ارتفع. وهارون: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وابناه: هما الأمين والمأمون.

^٦ البوارج: سفن القتال الكبيرة، واحدها بارجة. والآجام: جمع أجَم، والأجَم جمع أجمة، وهي الشجر الكثير الملتف، والأسود تتخذها مأوى لها. والضمير في «دونه» و«ظلاله»: للعرش في البيت المتقدم؛ يعني أنه مصون، تحميه سفن القتال المحشودة في البحر، والجيش المقيمة في البر كأنها الأسود في آجامها.

نَعَمْ الرعيَّةُ في ذَرَاكَ، ونَضَّرَتْ
في كُلِّ ناحيَّةٍ وكلَّ قبيلَةٍ
حمل «الصليب» إليك من فتِيانِه
والدَّيْنُ ليس برافع مُلْكًا إذا
باللهِ قد دان الجميعُ وشأنُهم
أيامهم في ظلِّك الأحكامُ^٧
عدلٌ وأمنٌ مُورِفٌ ووئامٌ^٨
جندًا وقاتلَ دونك «الحاخام»^٩
لم يَبْدُ للدنيا عليه نظامٌ
باللهِ ثم بعَرْشِكَ استعصامٌ^{١٠}

* * *

يا ابنَ الذين إذا الحروبُ تتابعت
المُظْهِرينَ لنور «بدر» بعدما
عشرون خاقانًا نموك وعَشْرَةٌ
نسبٌ إذا ذُكِرَ الملوكُ فإنه
لا تحفلنَ من الجراحِ بقيَّةٌ
جرتِ النحوسُ لغايةٍ فتبدَّلَتْ
صلُّوا على حدِّ السيوفِ وصامُوا^{١١}
خيفَ المحاقُ عليه والإِظْلَامُ^{١٢}
غرُّ الفتوحِ خلائِفُ أعلامُ^{١٣}
لِرَفِيعِ أنسابِ الملوكِ سنامُ^{١٤}
إن البقيةَ في غدٍ تلتامُ^{١٥}
ولكلِّ شيءٍ غايةٌ وتَمَامُ

^٧ نعم الرعية: رفهوا وأخصبوا. والذرا: الملجأ. ونضرت أيامهم الأحكام: جعلها ناضرة، والناضرة: الحسنة.

^٨ مورف: متسع وممتد.

^٩ حمل الصليب ... إلخ: يريد أن رعاياك من النصارى واليهود مُخلصون، يقاتلون من دونك لما أظللتهم به من العدل والأمن.

^{١٠} بالله قد دان الجميع: أي آمنوا به. والاستعصام: الاستمسك.

^{١١} صلوا على حدِّ السيوف وصاموا: أي لزموها كما يلزم المتعبِّدُ صلاته وصيامه.

^{١٢} بدر: اسم الغزوة المشهورة في صدر الإسلام؛ سُميت باسم المكان الذي وقعت فيه. والمحاق (مثلك الميم): قيل هو آخر الشهر حيث يُمَحَق نور القمر، وقيل هو ثلاث ليالٍ من آخره.

^{١٣} الخاقان: هو كل ملك من الأتراك. ونموك: أي رفعوك بالانتساب إليهم. وعشرة غرُّ الفتوح: أي ونماك أيضًا عشرة خواقين، امتازوا بالفتح والتوسُّع في الملك، فاختصُّوا بوصف الفاتحين، فلا يقال هذا الوصف لغيرهم من سلاطين آل عثمان. وخلائف: جمع خليفة.

^{١٤} السنام: اللحم المرتفع على ظهر البعير.

^{١٥} لا تحفلن بقية: أي لا تبالِ بها، فهي سترأ وتلتحم. يشير بذلك إلى حوادث كانت تشغل الدولة التركية يومئذٍ.

تَعَبَتْ بِأَمَّتِكَ الْخُطُوبُ فَأَقْصَرَتْ
لَبَّتَتْ تَنْوُشُهُمُ الْحَوَادِثُ حَقَبَةً
وَلَقَدْ يُدَاسُ الذُّنْبُ فِي فَلَوَاتِهِ
زَدَهُمْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقُوَى
الْمُلْكُ وَالذُّوَلَاتُ مَا يَبْنِي الْقَنَا
وَالْحَقُّ لَيْسَ، وَإِنْ عَلَا، بِمُؤَيِّدٍ
خَطَّ النَّبِيُّ بِرَاحَتِيهِ خَنْدَقًا
وَالدَّهْرُ يُقْصِرُ وَالْخُطُوبُ تَنَامُ^{١٦}
وَتَصْدُهَا الْأَخْلَاقُ وَالْأَحْلَامُ^{١٧}
وَيُهَابُ بَيْنَ قَيُودِهِ الضَّرْغَامُ^{١٨}
إِنْ الْقُوَى عَزَّ لَهُمْ وَقَوَامُ
وَالْعِلْمُ لَا مَا تَرْفَعُ الْأَحْلَامُ^{١٩}
حَتَّى يُحَوِّطَ جَانِبِيهِ حَسَامُ^{٢٠}
وَمَشَى يُحِيطُ بِهِ قَنَا وَسِهَامُ^{٢١}

* * *

يَا بَرَبْرُوسُ عَلَى ثَرَاكَ تَحِيَّةٌ
أَعْلِمْتُ مَا أَهْدَى إِلَيْكَ عَصَابَةً
نَشَرُوا حَدِيثَكَ فِي الْبَرِيَّةِ بَعْدَمَا
خَصُّوكَ مِنْ أَسْطُولِهِمْ بِدَعَامَةٍ
شَمَاءَ فِي عَرْضِ الْخِضَمِّ كَأَنَّهَا
كَانَتْ كَبْعُضِ الْبَارِجَاتِ فَحَقَّهَا
مَا مَاتَ مِنْ نُبْلِ الرِّجَالِ وَفَضْلِهِمْ
وَعَلَى سَمِيكَ فِي الْبِحَارِ سَلَامُ^{٢٢}
غُرُّ الْمَآثِرِ مِنْ بَنِيكَ كِرَامُ^{٢٣}
هَمَّتْ بَطِيَّ حَدِيثِكَ الْيَوْمَ
يُبْنَى عَلَيْهَا رُكْنُهُ وَيُقَامُ^{٢٤}
بَرْجٌ بِذَاتِ الرَّجْعِ لَيْسَ يُرَامُ^{٢٥}
لَمَّا تَحَلَّتْ بِاسْمِكَ الْإِعْظَامُ
يَحْيَا لَدَى التَّارِيخِ وَهُوَ عِظَامُ

^{١٦} أقصرت: أي انتهت وأمسكت عنها.

^{١٧} تنوشهم: تتناولهم. وتصدُّها: أي تصدُّ الحوادث. والأحلام: العقول.

^{١٨} الضرغام: الأسد.

^{١٩} القنا: الرماح. والأحلام هنا: جمع حُلْم، وهو ما يراه النائم.

^{٢٠} يحوط جانبيه، بواو مشددة: أي يحفظهما ويتعهدهما. والحسام: السيف.

^{٢١} الخندق: حفير حول أسوار المدينة.

^{٢٢} بربروس: هو خير الدين بربروس من أبطال العثمانيين، جعلت الحكومة التركية اسمه علمًا لبارجة هي الأولى في الأسطول العثماني.

^{٢٣} عصابة غرُّ المآثر: هم رجال الحكومة العثمانية الذين أوجدوا البارجة بربروس.

^{٢٤} الدعامة: عماد البيت.

^{٢٥} شَمَاءَ: مرتفعة عظيمة. والخضم: البحر. والبرج: واحد بروج السماء. وذات الرجع: هي السماء والرجع: المطر بعد المطر.

يمضي وَيُنْسَى الْعَالَمُونَ وَإِنَّمَا
تَبْقَى السِّیُوفُ وَتَخْلُدُ الْأَقْلَامُ^{٢٦}
وَتَلَاكَ «طَرغُودٌ» كَمَا قَدْ كُنْتُمَا
أَرَسَى عَلَى بَابِ الْإِمَامِ كَأَنَّهُ
جَمَعَتْكُمَا الْأَيَّامُ بَعْدَ تَفَرُّقٍ
سَيْشِدُ أَرْزَكُ وَالشَّدَائِدُ جَمَّةٌ^{٢٧}
مَا السُّفْنُ فِي عَدَدِ الْحَصَى بِنَوَافِعِ
لَمَّا لِمَحْتَكَمَا سَكَبَتْ مَدَامَعِي
وَسَأَلْتُ هَلْ مِنْ «لَوْلُؤٍ» أَوْ «طَارِقٍ»
حَتَّى يَهْزَ لَوَاءَهَا مِقْدَامُ^{٢٨}
فِرْحًا وَطَالَ تَشَوُّفٌ وَقِيَامُ^{٢٩}
فِي الْبَحْرِ تَخَفُّقُ فَوْقَهُ الْأَعْلَامُ^{٣٠}

* * *

يَا مَعْشَرَ الْإِسْلَامِ فِي أَسْطُولِكُمْ
عَزَّ لَكُمْ وَوَقَايَةُ وَسَلَامُ^{٣١}
جُودُوا عَلَيْهِ بِمَالِكُمْ وَاقْضُوا لَهُ
مَا تُوجِبُ الْأَعْلَاقُ وَالْأَرْحَامُ^{٣٢}
لَا الْهِنْدُ قَدْ كَرَّمَتْ وَلَا مِصْرُ سَخَتْ
وَقَوَى وَأَنْتُمْ فِي الطَّرِيقِ نِيَامُ^{٣٣}
سَيْلُ الْمَمَالِكِ جَارِفٌ مِنْ شِدَّةِ

^{٢٦} وإنما تبقى السيوف: أي يبقى ما تفعله السيوف، ويخلد ما تسطره الأقلام.
^{٢٧} تلاك: أي جاء تاليًا لك. وطرغود: هو أيضًا من أبطال البحر العثمانيين، جعلت الحكومة التركية اسمه كذلك علمًا لبارجة أخرى. والعباب: كثرة السيل وارتفاعه، والمراد به هنا كثرة ماء البحر. والضرام: اشتعال النار. والمعنى: أن البارجة التي سُميت باسم طرغود، هي مع البارجة المسماة باسمك، فهما في البحر كما كنتما فيه من قبل، حين كانت تشتعل نار القتال فوق عبابه.
^{٢٨} أرسى: وقف وثبت. والفلك: السفن، يستعمل للمفرد وللجمع بلفظ واحد. وفي البيت إشارة إلى أن مرسى البارجتين كان أمام قصر الخليفة.
^{٢٩} الأزر: الظهر. والجمّة: الكثيرة. والجسام: العظام، جمع جسيم.
^{٣٠} سكبت: صببت. والتشوّف: التطلّع.
^{٣١} لؤلؤ: هو حسام الدين لؤلؤ، أمير الأسطول المصري في الحروب الصليبية. وطارق: هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور.
^{٣٢} الأعلاق: نفائس الأشياء.
^{٣٣} جارف: من جرف الشيء؛ ذهب به كله أو أكثره.

وَالْجِدُّ رُوحٌ مِنْهُ وَالْإِقْدَامُ ^{٣٤}	حُبُّ السِّيَادَةِ فِي شَمَائِلِ دِينِكُمْ
رَجَعَتْ إِلَى آيَاتِهِ الْأَقْوَامُ ^{٣٥}	وَالْعِلْمُ مِنْ آيَاتِهِ الْكُبْرَى إِذَا
عَرِفَ الْبَنُونَ الْمَجْدَ كَيْفَ يُرَامُ	لَوْ تُقَرِّئُونَ صِغَارَكُمْ تَارِيخَهُ
سَادَ الْبَرِّيَّةَ فِيهِ وَهُوَ عِصَامُ ^{٣٦}	كَمْ وَاثِقٌ بِالنَّفْسِ نَهَّاضٍ بِهَا

^{٣٤} الجِدُّ: الاجتهاد في الأمر. وروح منه: أي من دينكم.

^{٣٥} والعلم من آياته: أي من آيات الدين.

^{٣٦} النهَّاض: مبالغة من النهوض، وهو القيام. وهو عصام: أي كعصام، وهو رجلٌ شَرُفَ بنفسه وعمله، لا بنسبه وآبائه، حتى قيل فيه «نفس عصام سوّدت عصامًا»، فَضُرِبَ به المثل في ذلك.

الأندلس الجديدة

يا أخت أندلس عليك سلامٌ
نزل الهلالُ عن السماء فليتها
أزرى به وأزاله عن أوجه
جرحان تمضي الأمتان عليهما
بكما أصيب المسلمون وفيكما
لم يُطو مآتمها وهذا مآتمٌ
ما بين مصرعها ومصرعك انقضت
خلت القرون كليلة وتصرمت
والدهر لا يألو الممالك مُنذرًا

هوت الخلافةُ عنك والإسلامُ^١
طويت وعمّ العالمين ظلامٌ
قدّر يحطُّ البدر وهو تمامٌ^٢
هذا يسيل وذاك لا يلتامٌ^٣
دفن اليراعُ وغيب الصمصامُ^٤
لبسوا السوادَ عليك فيه وقاموا^٥
فيما نُحب ونكره الأيامُ
دولُ الفتوح كأنها أحلامٌ^٦
فإذا غفلن فما عليه ملامٌ^٧

^١ يا أخت أندلس: يخاطب مدينة أدرنة، وقد كانت من أمهات المدن العثمانية في مقدونية، وبها مقابر كثيرين من سلاطين آل عثمان، جاءت الأنباء بغلبة البلغار عليها في الحرب سنة ١٩١٢م، بعد أن أبلت حاميتها في الدفاع عنها بلاءً حسنًا.

^٢ أزرى له: وضع من شأنه. والأوج: العلو.

^٣ جرحان: أحدهما خروج أدرنة من أيدي المسلمين، والثاني خروج الأندلس من أيديهم. والأمتان: هما العرب أيام نكبة الأندلس، والترك أيام ضياع أدرنة.

^٤ اليراع: القلم. والصمصام: السيف.

^٥ لم يُطو مآتمها: أي مآتم الأندلس.

^٦ خلت: مضت. وتصرمت: انقضت.

^٧ لا يألو: لا يقصّر ولا يببط.

* * *

مقدونيا والمسلمون عشيرةً
أترينهم هانوا وكان بعزهم
إذ أنت ناب الليث كل كتيبة
ما زالت الأيام حتى بدلت
أرايت كيف أدل من أسد الشرى
زعموك همًا للخلافة ناصبًا
ويقول قوم كنت أشأم مورد
ويراك داء الملك ناس جهالة
لو آثروا الإصلاح كنت لعرشهم
وهم يقيد بعضهم بعضًا به
صور العمى شتى وأقبحها إذا
ولقد يُقام من السيوف وليس من

كيف الخئولة فيك والأعمام^٨
وعلوهم يتخايل الإسلام^٩
طلعت عليك فريسة وطعام^{١٠}
وتغير الساقى وحال الجام^{١١}
وشهدت كيف أبيحت الآجام^{١٢}
وهل الممالك راحة ومنام^{١٣}
وأراك سائغة عليك زحام
بالمك منهم علة وسقام
زكنا على هام النجوم يُقام^{١٤}
وقيود هذا العالم الأوهام
نظرت بغير عيونهن الهام
عثرات أخلاق الشعوب قيام

* * *

ومُبشِّر بالصلح قلت لعله خير عسى أن تصدق الأحلام^{١٥}

^٨ مقدونيا: اسم الإقليم الذي تقع فيه أدرنة. والعشيرة: قبيلة الرجل. والخئولة: النسبة إلى الخال، كالعمومة، وهي النسبة إلى العم.

^٩ يتخايل: يتبخر.

^{١٠} إذ أنت ناب الليث: أي مثل ناب الليث في أنه مخوف لا يمكن الوصول إليه. والكتيبة: الجيش، وقيل القطعة منه. والمعنى أن الإسلام كان يتخايل بعز أبنائه في مقدونيا، حينما كانت ممتنعة على العدو كامتناع ناب الليث على من يريده، وحينما كانت تفنى دونها جيوش الأعداء.

^{١١} حال: تحوّل من حال إلى حال. والجام: إناء من فضة تُسقى فيه الخمر.

^{١٢} الشرى: مكان تكثر فيه الأسود. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الملتف تألفه الأسود أيضًا.

^{١٣} الهُم الناصب: المتعجب.

^{١٤} لو آثروا الإصلاح: أي لو اختاروه. والهام: جمع هامة، وهي رأس كل شيء.

^{١٥} ومُبشِّر بالصلح: يشير إلى ما كان قد جاء من الأنباء بأن الصلح سيتم بين المتحاربين.

ترك الفريقان القتال وهذه
يَنعَى إلينا المُلْكَ ناعٍ لم يَطأ
برقٌ جوائِبُهُ صواعقُ كُلِّها
إن كان شرٌّ زارَ غيرَ مُفارقٍ
بالأَمْس «أفريقا» تولَّتْ وانقضَى
نظمَ الهلالُ به ممالكَ أربَعًا
من فتحِ هاشمٍ أو أُمَيَّةٍ لم يَضَعْ
واليومَ حُكْمُ اللَّهِ في مقدونيا
كانت من الغربِ البقيةَ فانقضت

سَلِمَ أَمْرٌ من القتالِ عُقَامٌ^{١٦}
أَرْضًا ولا انتقلت به أقدامُ^{١٧}
ومن البروقِ صواعقُ وَغَمَامٌ^{١٨}
أو كان خيرٌ فالَمَزَارُ لِمامٍ^{١٩}
مُلْكٌ على جِيدِ الخِصَمِ جِسامُ^{٢٠}
أصبحنَ ليس لعقدِهنَ نظامُ^{٢١}
آساسُها تَتَرُّ ولا أعجامُ^{٢٢}
لا نقضَ فيه لنا ولا إبرامُ
فَعَلَى بَنِي عِثْمَانَ فيه سلامُ

* * *

أخذَ المدائنَ والقُرَى بخناقها جيشٌ من المتحالفين لَهَا^{٢٣}
غَطَّتْ به الأرضُ الفضاءَ وجوهَها وكسَتْ مناكبَها به الآكامُ^{٢٤}

^{١٦} يقال داءٌ عُقَام: أي لا يُرجى البرء منه، وحربٌ عُقَام: أي شديدة، وكلا المعنيين صالح هنا. ويشير بقوله هذه سلم ... إلخ: إلى ما كان من ممالأة الدول الأوروبية الكبرى لدول البلقان الصغيرة على تركيا، وإرهاقها بشروط الصلح.

^{١٧} ينعى إلينا ... إلخ: يشير إلى الأنباء البرقية التي تنقل شروط الصلح الظالم. والناعي الذي لم يَطأ أرضًا ... إلخ: هو سلك البرق.

^{١٨} الجوائِب: الأخبار الطارئة، جمع جائبة.

^{١٩} اللمام: جمع لمة، وهي المرة، يقال أنت ما تزورنا إلا لمامًا؛ أي من حين إلى حين.

^{٢٠} الجيد: العنق. والخضم: البحر. وجسام: عظام، جمع عظيم.

^{٢١} ممالك أربَعًا: هنَّ مصر وطرابلس وتونس والجزائر.

^{٢٢} من فتح هاشم أو أُمَيَّة: أي هذه الممالك الأربع مما فتحه بنو هاشم وبنو أُمَيَّة في عصر الإسلام الأول. والآساس (بالمد): جمع أساس.

^{٢٣} المتحالفون: هم دول البلقان: اليونان ورومانيا والبلغار والصرب، تحالفوا على حرب الدولة التركية. واللُّهَام (بضم اللام): الجيش العظيم، كأنه يلتهم كل شيء.

^{٢٤} مناكبها: نواحيها. والآكام: التلال، وقيل هي الحجارة المجتمعة في أُمَكَنَة واحدة.

تمشي المناكرُ بين أيدي خيله
ويحُثُّه بِاسْمِ الْكِتَابِ أَقْسَةً
ومُسيطِرونَ على الممالك سُخَّرَت
من كلِّ جَزَّارٍ يرومُ الصدرَ في
سُكَّينِه ويَمِينُه وحزامُه
أَنَّى مشى والبغي والإجرامُ^{٢٥}
نشطوا لِمَا هو في الكتابِ حرامُ^{٢٦}
لهم الشعوبُ كأنها أنعامُ^{٢٧}
نادي الملوكِ وجَدُّه غَنَّامُ^{٢٨}
والصولجانُ جميعُها آثامُ^{٢٩}

* * *

«عيسى» سبيلُك رحمةً ومحبةً
ما كنتَ سَفَاكَ الدماءِ ولا امرأً
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى
أنتَ الذي جعلَ العبادَ جميعَهم
أنتَ القيامةُ في ولايةِ يوسفٍ
كم هاجَهِ صيدُ الملوكِ وهاجَهم
البغي في دينِ الجميعِ دنيَّةً
في العالمين وعصمةً وسلامُ
هانَ الضعافُ عليه والأيتامُ^{٣٠}
كثُرَت عليه بِاسْمِكَ الآلامُ^{٣١}
رَجِمًا وبِاسْمِكَ تُقَطَّعُ الأرحامُ
واليومَ بِاسْمِكَ مرتينِ تُقامُ^{٣٢}
وتُكافأُ الفُرسانُ والأعلامُ^{٣٣}
والسَّلْمُ عهدٌ والقتالُ زِمَامُ

^{٢٥} المناكر: جمع منكر، وهو كل قول أو فعل ليس فيه رضا الله. وأنى مشى: أي كيف مشى.
^{٢٦} الأقسة: جمع قسيس. ونشطوا: خفوا وأسرعوا.
^{٢٧} ومسيطرون: أي ويحثه مسيطرون، والمسيطر: المسلط على الشيء ليُشرف عليه ويتعهد أحواله، والمراد بهم ملوك دول البلقان.
^{٢٨} يروم الصدر: يطلبه. والصدر هنا: معناه أعلى أمكنة النادي.
^{٢٩} الصولجان: المحجن، وهو عصاً منعطفة الرأس.
^{٣٠} سَفَاكَ الدماء: مُريقها بكثرة.
^{٣١} يشير بقوله: يا حامل الآلام ... إلخ: إلى ما يعتقده النصارى من أن السيد المسيح صُلب ليحمل عن بني آدم خطيئتهم الأولى؛ أي حامل الآلام فيما يزعمه هؤلاء السفاكون الذين يزعمون أنهم على طريقك.
^{٣٢} يوسف: هو السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي، قامت في أيامه قيامة الصليبيين على المسلمين، فحاربهم ونصره الله عليهم.
^{٣٣} هاجه: أثاره، والضمير ليوسف. وصيدُ الملوك: جمع أصيد، وهو الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا ولا شمالًا، كالبعير الذي أُصيب بداء الصيد في عنقه فلا يلتفت.

واليومَ يهتَفُ بالصليبِ عصائبُ
 خلطوا صليبَكَ والخنَاجَرَ والمُدَى
 أوما تَراهم ذبَّحوا جيرانَهم
 كم مُرضِع في حجرِ نَعمتِه غدا
 وصبيَّةٌ هَتَكَتْ خَميلَةً طُهرَها
 وأخي ثمانينَ اسْتَبِيحَ وقارُهُ
 وجريحِ حربٍ ظامئٍ وأدوهُ لم
 ومُهاجِرينَ تَنكَرَتْ أوطانُهم
 السيفُ إن ركبوا الفِرارَ سبيلُهم
 يتلفَتون مُودَّعين ديارَهم
 هم لئِلِه ورُوحِه ظُلَّامٌ^{٣٤}
 كلُّ أَداءٍ لَلأذى وجِمامٌ^{٣٥}
 بين البيوتِ كأنهم أغانمُ
 وله على حدِّ السيوفِ فِطامٌ^{٣٦}
 وتناثَرَت عن نورِه الأكمامُ^{٣٧}
 لم يُغنِ عنه الضَعْفُ والأَعوامُ
 يعطِفُهم جُرحُ دمٍ وأوامٌ^{٣٨}
 ضلُّوا السبيلَ من الذَهلِ وهامُوا^{٣٩}
 والنَّطعُ إن طلبوا القَرارَ مُقامٌ^{٤٠}
 واللحظُ ماءٌ والديارُ ضِرامٌ^{٤١}

* * *

يا أُمَّةٌ بـ «فروق» فَرَّقَ بينهم
 فيمَ التخاذُلُ بينكم ووراءكم
 قَدَرُ تطيشُ إذا أتى الأحلامُ^{٤٢}
 أُمٌّ تُضاعُ حقوقُها وتُضامُ^{٤٣}

^{٣٤} العصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، وقيل ما بين العشرة والأربعين. وظلام: جمع ظالم.

^{٣٥} خلطوا صليبك: أي الصليب الذي ينسبونه إليك. والجِمام: الموت.

^{٣٦} كم مرضع: أي طفل ترضعه أمه. والفِطام: فصله عن الرضاع.

^{٣٧} الخميعة هنا: الدثار، من المخمل، وهو ثوب له وبر كالهداب، أو هي الشجر الكثير الملتف. والنور: هو

الزهر الأبيض. والأكمام: جمع كم، بكسر الكاف، وهو غطاء النور.

^{٣٨} وأدوه: أي قتلوه، كما تُقتل البنت بالوَد، وهو دفنها حية. وجرحُ دمٍ: أي يقطر منه الدم. والأوام: العطش ودوار الرأس.

^{٣٩} هاموا: ذهبوا على وجوههم من الظلم، فلا يدرون أين يتوجهون.

^{٤٠} النَّطع: بساط من الجلد يُفرَش لمن يُضرب عنقه. والقرار: المكان الذي يقرُّ فيه الإنسان، أو هو الثبات

في المكان والسكون فيه.

^{٤١} والديار ضرام: أي مشتعلة نارًا.

^{٤٢} فروق: الآستانة. والأحلام: العقول.

^{٤٣} التخاذل: التدابر وأن يخذل بعضهم بعضًا.

الله يشهد لم أكن مُتَحَرِّبًا وفي الرُّزءِ لا شَيْعٌ ولا أَحْزَامٌ^{٤٤}
 وإذا دعوتُ إلى الوِثَامِ فشاعرٌ أقصى مُناهَ محبَّةً ووِثَامٌ^{٤٥}
 مَنْ يَضْجِرُ البلوى فغايةُ جهدهِ رُجِعَى إلى الأقدارِ واستسلامٌ^{٤٦}
 لا يأخذنَّ على العواقبِ بعضُكم بعضًا فِقْدَمًا جارتِ الأحكامُ
 تَقْضِي على المرءِ الليالي أو له فالحمدُ من سلطانها والذَّامُ^{٤٧}
 من عادةِ التاريخ ملءُ قضائِهِ عدلٌ وملءٌ كِنَانَتِيهِ سِهَامٌ^{٤٨}
 ما ليس يدفعه المَهْنَدُ مُصَلَّتًا لا الكُتُبُ تدفعه ولا الأقلامُ^{٤٩}
 إن الألى فتحوا الفتوحَ جلائلاً دخلوا على الأسدِ الغِيَاضَ وناموا^{٥٠}
 هذا جناه عليكم أبائُكم صبرًا وصفحًا فالجُناةُ كرامٌ^{٥١}
 رفعوا على السيفِ البناءَ فلم يَدُمَ ما للبناءِ على السيوفِ دوامٌ
 أبقي الممالكَ ما المعارفُ أُسُّهُ والعدلُ فيه حائطٌ ودِعامٌ^{٥٢}
 فإذا جرى رَشْدًا وَيُمنًا أمرُكم فامشوا بنورِ العلمِ فهو زِمَامٌ
 ودعوا التفاخرَ بالتُّراثِ وإن غلا فالمجدُ كسبٌ والزمانُ عِصَامٌ
 إنَّ الغُرورَ إذا تملكَ أُمَّةً كالزَّهرِ يُخفي الموتَ وهو زُؤَامٌ^{٥٣}

^{٤٤} الرُّزء: المصيبة. والشيع: جمع شيعة، وهي أتباع الرجل وأنصاره. والأحزام: الأحزاب.

^{٤٥} الوِثَام: الوفاق.

^{٤٦} رُجِعَى إلى الأقدار: أي رجوع إليها.

^{٤٧} الذَّام: الذمُّ.

^{٤٨} الكِنَانَتان: تثنية كنانة، وهي جعبة السهام من الجلد أو من الخشب.

^{٤٩} المَهْنَد: السيف.

^{٥٠} الغِيَاض: جمع غيضة، وهي مجتمع الشجر في مغيض ماء، وهي أيضًا الأجمة. والمعنى: أن أسلافكم قنعوا من البلاد التي فتحوها بمجرد الفتح والغلبة، ولم يلتفتوا إلى أن أهلها يُضْمِرُونَ لهم العداوة، ويتربصون بهم الدوائر.

^{٥١} هذا: أي ما أنتم فيه من عداوة.

^{٥٢} الدِّعَام: عماد البيت.

^{٥٣} كالزهر يخفي الموت: ذلك أن الزهر يتنفس فيفسد الهواء في الأمكنة الضيقة، فيحدث الاختناق. والزؤام: السريع من الموت.

لا يعدِلَنَّ المُلكَ في شهواتِكُم
ومناصبٌ في غير موضعِها كما
المُلكُ مرتبةُ الشعوبِ فإن يَفُتَّ
ومن البهائمِ مُشَبَّعٌ ومُدَلَّلٌ
وقَفَ الزمانُ بكم كموقِفِ «طارق»
الصبرُ والإقدامُ فيه إذا هما
يُحصي الدليلُ مدى مطالبه ولا
هذي البقيةُ لو حرصتم دولةً
قسَمُ الأئمةِ والخلائِفِ قبلكم
سَرَتِ النبوةُ في طُهورِ فضائِهِ
وتدفَّقَ النهرانِ فيه وأزهَرَتِ
أثَرَتِ سواحله وطابت أرضُهُ

عَرَضُ من الدنيا بدا وحُطامٌ^{٥٤}
حلَّت محلَّ القدوةِ الأصنامُ^{٥٥}
عزُّ السَّيادةِ فالشعوبُ سَواءٌ
ومن الحريرِ شَكيمَةٌ ولجامٌ
اليأسُ خُلِفَ والرجاءُ أمامُ^{٥٦}
قُتِلَا فَأَقْتَلُ منهما الإحجامُ
يُحصي مدى المستقبلِ المِقدامُ
صَالَ الرشيدُ بها وطالَ هشامُ^{٥٧}
في الأرضِ لم تُعَدَلْ به الأقسامُ^{٥٨}
ومشَى عليه الوحيُ والإلهامُ
بغدادُ تحت ظلاله والشامُ^{٥٩}
فالدُرُّ لُجٌّ والنُّضارُ رَغامُ^{٦٠}

* * *

شرفاً أدرنه هكذا يَقِفُ الحمى
للغاصبين وتثبتُ الأقدامُ^{٦١}

^{٥٤} عرض الدنيا: ما لا دوام له منها. وحطامها: ما فيها من مال كثير أو قليل.
^{٥٥} مناصب جمع منصب، بكسر الصاد، وهو في كلام المولدين ما يتولاه الرجل من العمل، وأصله المقام. والأصنام: جمع صنم، وهو تمثال إنسان أو حيوان يُتَّخَذُ للعبادة.
^{٥٦} طارق: هو طارق بن زياد بطل الأندلس المشهور، يروي بعض المؤرخين أنه لما عَبَرَ بجيشه البحر ليقاتل الأعداء، أمر فأحرقَت السفائن، ثم خطب في الجيش أن البحر وراءه والعدوُّ أمامه، فإذا نكص عن القتال وقع بين عدوين ليس منهما غير الهلاك.
^{٥٧} هذي البقية: أي ما بقي للأتراك من البلاد بعد حرب البلقان. ولو حرصتم: أي لو حرصتم عليها.
والرشيد: هو هارون الرشيد الخليفة العباسي. وهشام: هو ابن عبد الملك أحد خلفاء بني أمية.
^{٥٨} القسم (بكسر القاف): النصيب.
^{٥٩} النهران: دجلة والفرات. وبغداد: حاضرة العراق.
^{٦٠} أثرت: كثر فيها الغنى والمال. فالدُرُّ لُجٌّ: أي كثير كاللج. والنضار: الذهب. والرغام: التراب؛ أي إنه لكثرت صار كالتراب.
^{٦١} شرفاً أدرنه: أي لقد شرفت شرفاً. والحمى: ما يُحمى من الشيء.

وَتُرِدُّ بِالدِّمِّ بَقْعَةً أُخِذَتْ بِهِ
وَالْمُلْكُ يُوْخَذُ أَوْ يُرَدُّ وَلَمْ يَزَلْ
عَرَضُ الْخِلَافَةِ ذَاكَ عَنْهُ مُجَاهِدٌ
تَسْتَعَصِمُ الْأَوْطَانُ خَلْفَ ظُبَاتِهِ
«عُثْمَانُ» فِي بُرْدِيهِ يَمْنَعُ جَيْشَهُ
عِلْمَ الزَّمَانُ مَكَانَ «شَكْرِي» وَانْتَهَى

* * *

صَبْرًا أَدْرَنَةً كُلُّ مُلْكٍ زَائِلٌ
خَفَتِ الْأَذَانُ فَمَا عَلَيْكَ مُوَحِّدٌ
وَحَبَّتْ مَسَاجِدُ كُنَّ نُورًا جَامِعًا
يَدْرُجْنَ فِي حَرَمِ الصَّلَاةِ قَوَانِنًا

يَوْمًا وَيَبْقَى الْمَالِكُ الْعَلَامُ^{٦٢}
يَسْعَى وَلَا الْجَمْعُ الْجِسَانُ تُقَامُ^{٦٣}
تَمْشِي إِلَيْهِ الْأُسْدُ وَالْأَرَامُ^{٦٤}
بَيْضَ الْإِزَارِ كَأَنَّهُنَّ حَمَامُ^{٦٥}

^{٦٢} العرين: مأوى الأسد. والضَّرغام: الأسد.

^{٦٣} الحسام: السيف.

^{٦٤} العِرَض: جانب الرجل الذي يصونه من نفسه أو سلفه، أو هو موضع المدح والذم منه. وذاد عنه: طرد عنه العدو ودفعه.

^{٦٥} تستعصم: تلجأ وتمتنع. الظُّبَات: جمع ظُبَّة، بضم الظاء، وهي حدُّ السيف. وتعزُّ: تصير عزيزة مكرمة.

^{٦٦} ابن الوليد: هو خالد بن الوليد، قائدٌ عظيم من الصحابة.

^{٦٧} شكري: هو بطل أدرنة، وقائد حاميتها الذي تولى الدفاع عنها أثناء شهور الحصار.

^{٦٨} صبرًا أدرنة: أي اصبري صبرًا.

^{٦٩} خفت: سكن وانقطع. والموَحِّد: مَنْ يعتقد أن الله واحد لا شريك له ولا ولد. والجمع: هي صلوات الجمع الأسبوعية.

^{٧٠} خبت: سكنت. والأسد: هم الرجال الذاهبون إلى المساجد. والآرام: النساء الذاهبات إليها، والرثم: الطبي الأبيض.

^{٧١} يدرجن: يمشين، والضمير للآرام في البيت المتقدم. والقوانن: جمع قاننة، من القنوت، وهو الطاعة والدعاء.

وَعَفَتْ قُبُورُ الْفَاتِحِينَ وَفُضَّ عَنْ
نُبِشَتْ عَلَى قَعَسَاءٍ عَزَّتْهَا كَمَا
فِي ذِمَّةِ التَّارِيخِ خَمْسَةُ أَشْهُرٍ
السَّيْفُ عَارٍ وَالْوَبَاءُ مُسَلِّطٌ
وَالْجُوعُ فَتَاكٌ وَفِيهِ صَحَابَةٌ
ضَنُّوا بِعَرَضِكَ أَنْ يُبَاعَ وَيُشْتَرَى
ضَاقَ الْحَصَارُ كَأَنَّمَا حَلَقَاتُهُ
وَرَمَى الْعِدَا وَرَمَيْتَهُمْ بِجَهَنَّمَ
بِعِتِّ الْعَدُوِّ بِكُلِّ شَبْرٍ مَهْجَةً
مَا زَالِ بَيْنَكَ فِي الْحَصَارِ وَبَيْنَهُ
حَتَّى حَوَاكِ مَقَابِرًا وَحَوَيْتِهِ

حُقِرَ الْخَلَائِفُ جَنْدَلٌ وَرِجَامٌ^{٧٢}
نُبِشَتْ عَلَى اسْتِعْلَائِهَا الْأَهْرَامُ^{٧٣}
طَالَتْ عَلَيْكَ فِكْلٌ يَوْمَ عَامٍ^{٧٤}
وَالسَّيْلُ خَوْفٌ وَالثَّلُوجُ رُكَامٌ^{٧٥}
لَوْ لَمْ يَجُوعُوا فِي الْجِهَادِ لَصَامُوا
عَرَضَ الْحَرَائِرِ لَيْسَ فِيهِ سُوَامٌ^{٧٦}
فَلَكَ وَمَقْدُوفَاتُهَا أَجْرَامٌ^{٧٧}
مِمَّا يَصْبُ اللَّهُ لَا الْأَقْوَامُ
وَكَذَا يُبَاعُ الْمُلْكُ حِينَ يُرَامُ^{٧٨}
شُمُّ الْحَصُونِ وَمِثْلُهُنَّ عِظَامُ^{٧٩}
جُنَّتَا فَلَا غَبْنٌ وَلَا اسْتِزْمَامُ^{٨٠}

^{٧٢} عفت: اضمحلت وامّحت. وفُضَّ جندل ورجام: أي كُسِر متفرقًا. والجندل: الحجارة. والرجام: ما يُبنى عليه البر، وتعرض فوقه الخشبة للدلو.

^{٧٣} العزة القعساء: المنيع الثابتة.

^{٧٤} خمسة أشهر: هي مدة حصار أدرنة.

^{٧٥} السيف عار: أي مجرّد من غمده كما يتجرّد الإنسان من ثيابه، والمراد أن القتال مستمرّ. والوباء مسلط: هو الوباء الذي يحدث عادةً في كل مكان يكثر فيه القتل والقتال، ويكون محصورًا من الخارج. والسيل خوف: أي مخيف. والثلوج ركام: أي متراكم بعضها فوق بعض.

^{٧٦} الحرائر: جمع حرة. والسوام (بضم السين): أن تُعرض السلعة ويُذكر ثمنها.

^{٧٧} الفلك: مدار النجوم. والأجرام: هي الأجسام التي في الفلك.

^{٧٨} المهجة: الروح، أو دم القلب. أي إن العدو لم ينك إلا بعد أن بذل في كل شبر من أرضك رجلًا من رجاله.

^{٧٩} شُمُّ الحصون: أي الحصون العالية.

^{٨٠} حواك: ملكك. والاستزمام: فعل ما يقتضي الذم. والمعنى: أن الحصون بقيت ثابتة بينك وبين الأعداء كما كان بينك وبينهم من عظام القتلى أكوام كالحصون، فلم يأخذك إلا بعد أن صرت مقابر لرجالهم جثثًا هامدة؛ وبهذا لم تفعلي ما فيه غبن ولا ما يقتضي الذم.

ضيف أمير المؤمنين^١

رَضِيَ الْمُسْلِمُونَ وَالْإِسْلَامُ
كَيْفَ نُحْصِي عَلَى عُلَاكَ ثَنَاءً
هَلْ كَلَامُ الْعِبَادِ فِي الشَّمْسِ إِلَّا
وَمَكَانُ الْإِمَامِ أَعْلَى وَلَكِنْ
إِيَّاهُ «عَبْدَ الْحَمِيدِ» جَلَّ زَمَانُ
مَا رَأَتْ مِثْلَ ذَا الَّذِي تَبْتَنِي الْأَقْفُ
دَوْلَةً شَادَ رَكْنَهَا أَلْفُ عَامٍ
وَأَسَاسٌ مِنْ عَهْدِ عُثْمَانَ يُبْنَى
حِكْمَةً حَالَ كُلُّ هَذَا التَّجَلِّي

فَرَعَ عُثْمَانُ دُمَ فِدَاكَ الدَّوَامُ^٢
لَكَ مِنْكَ الثَّنَاءُ وَالْإِكْرَامُ
أَنَّهَا الشَّمْسُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامُ
بِأَحَادِيثِهِ يَتِيَهُ الْأَنَامُ^٣
أَنْتَ فِيهِ خَلِيفَةُ وَإِمَامُ
وَأَمُّ مَجْدًا وَلَنْ يَرَى الْأَقْوَامُ
وَمَثَلَاتُ تُعِيدُهَا أَعْوَامُ^٤
فِي ثَمَانٍ وَمِثْلَهُنَّ يُقَامُ
دُونَهَا أَنْ تَنَالَهَا الْأَفْهَامُ

^١ نزل صاحب الديوان بالآستانة، فبلغ أنه ضيف أمير المؤمنين ما أقام بها.

^٢ فرع عثمان: هو السلطان عبد الحميد.

^٣ يتيه: يتكبر.

^٤ إيه: اسم فعل، معناه الاستزادة من الحديث.

^٥ شاد ركنها ألف عام ومئات: أي رفع ركنها ألف عام ومئات، وهي دولة الإسلام منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام. تعيدها أعوام: أي ترجعها إلى مثل قوتها أعوام معدودة، هي التي توليت فيها أمرها.

يسأل الناس عندها الناس هل في النَّـ
 أم من الناس بعدُ مَنْ قوله وخـ
 صدق الخلق أنت هذا وهذا
 شرف باذخ ومُلك كبير
 «عمر» أنت بيد أنك ظل
 ما تتوجت بالخلافة حتى
 وسرى الخصب والنماء ووافى الـ
 وتلقى الهلال منك جبين
 فسلام عليهم وعليه
 وبدا الملك ملك عثمان من علـ
 يهرع العرش والملوك إليه
 هكذا الدهر حالة ثم ضد
 ولأنت الذي رعيته الأسـ
 أمة الترك والعراق وأهلـ

س ذو المقلة التي لا تنام^٦
 سي كريم وفعله إلهام^٧
 يا عظيمًا ما جازه إعظام^٨
 ويمين بسط وأمر جسام^٩
 للبرايا وعصمة وسلام^{١٠}
 توج البائسون والأيتام
 بشر والظل والجنى والغمام^{١١}
 فيه حسن وبالعفاة غرام^{١٢}
 يوم حييتهم به الأيام
 ياك في الذروة التي لا ترام^{١٣}
 وبنو العصر والولة الفخام^{١٤}
 ما لحال مع الزمان دوام
 د ومسرى ظلالها الآجام^{١٥}
 ه ولبنان والرّبا والخيام

^٦ يسأل الناس عندها: أي عند هذه الحكمة، والمعنى أن بعضهم يسأل بعضًا: هل فيهم من هو مثلك ساهر على الملك فلا تنام عينه؟

^٧ أم من الناس: أي يسألون أيضًا أمنهم من يكون له ذكر بعدك، أنت الذي يصدر عنك القول صادقًا مطاعًا كأنه الوحي، ويصدر عنك العمل صوابًا كأنه إلهام من الله.

^٨ صدق الخلق: أي صدقوا في الحالين؛ فأنت الذي لا تنام عينك، وأنت القائل الصدق والفاعل الصواب.

^٩ شرف باذخ: طويل. ويمين بسط (بضم الباء): أي مبسطة مطلق، كناية عن الجود والسخاء. أمر جسام: بضم الجيم: عظيم ضخ.

^{١٠} عمر أنت: أي أنت كعمر بن الخطاب في عدله وتقواه.

^{١١} الخصب: رغد العيش. والجنى: ما يُجنى من الشجر.

^{١٢} وبالعفاة غرام: أي وفيه غرام العفاة. والعفاة: جمع عافٍ، وهو طالب الفضل والرزق.

^{١٣} من عليك: أي من عليائك، والعلياء: ما علا من الشيء.

^{١٤} يهرع: يمشي إليه بسرعة. والفخام: جمع فخم، وهو العظيم القدر.

^{١٥} المسرى: السريان كما يسري الماء، أو السير عامة الليل. والآجام: جمع أجم، وهو الشجر الكثير المتلف.

عالمٌ لم يكن لينظّم لولا
هذبته السيوفُ في الدهرِ واليو
أيقولون سكرةً لن تجلّى
ليذوقنّ للمُهلهلِ صحواً
وضع الشرقُ في يديك يديه
بالولاءِ الذي تُريدُ الأيادي
غيرَ غايٍ أو خائنٍ أو حسود
كيف تُهدى لما تُشيدُ عيونُ
مُقلٌ عانتِ الظلامَ طويلاً
قد تعيش النفوسُ في الضيمِ حتى
أيها النافرون عودوا إلينا

أنك السّلمُ وسطّه والوئامُ^{١٦}
مَ أتمّت تهذيبه الأقلامُ^{١٧}
وقعودٌ مع الهوى وقيامُ^{١٨}
تَشرفُ الكأسُ عنده والمُدامُ^{١٩}
وأئت من حُماته الأقسامُ^{٢٠}
والولاءِ الذي يُريد المَقامُ^{٢١}
برئت من أولئك الأحلامُ^{٢٢}
في الثرى ملؤها حصى ورغامُ^{٢٣}
فعماما في أن يزول الظلامُ^{٢٤}
لترى الضيمَ أنها لا تُضامُ^{٢٥}
ولجوا البابَ إنه الإسلامُ^{٢٦}

^{١٦} ينظم: أي ينتظم. والسلم: ضد الحرب. والوئام: الوفاق.

^{١٧} هذبته: أصلحته.

^{١٨} لن تجلّى: أي لن تنجلي؛ تنفرج وتنكشف.

^{١٩} ليذوقنّ: هنا قسم؛ أي والله ليذوقن، والضمير في هذا الفعل للجماعة، يرجع إلى القائلين الذين يدلّ عليهم قوله «أيقولون» في البيت المتقدم. والمهلهل (بكسر الهاء الثانية): هو عدي بن ربيعة، أخو كليب بن ربيعة، وكليب هذا كان من الرؤساء في الجاهلية، قتله جساس أخو امرأته، وخبرهما مشهور في أيام العرب وحروبهم، وكان المهلهل صاحب شراب وقمار ونساء، فلما علم بقتل أخيه هجر النساء والغزل، وحرّم القمار والشراب، وشغل عن هذا كله بالحرب وطلب الثأر، وإلى هذا يشير بقوله: ليذوقنّ للمهلهل صحواً ... إلخ؛ أي ليذوقنّ صحواً كصحو المهلهل، وحرّباً كالحرب التي أثارها.

^{٢٠} الحماة: جمع حام، وهو المانع الدافع. والأقسام: الأيمان، جمع قسم.

^{٢١} الذي تريد الأيادي ... إلخ: أي أتوا يحثّهم الولاء الذي تقتضيه أياديك عليهم — جمع يد، وهي النعمة — والولاء الذي يستوجبه مقامك الرفيع.

^{٢٢} برئت من أولئك: أي من هذه الأصناف الثلاثة. والأحلام: العقول.

^{٢٣} لما تشيد: لما تبني. والثرى: التراب، وكذلك الرغام.

^{٢٤} مقلٌ: جمع مقلة، وهي العين.

^{٢٥} الضيم: الظلم والقهر.

^{٢٦} النافرون: المتفرقون المتباعدون. لجوا: ادخلوا.

غَرَضُ أَنْتُمْ فِي الدَّهْرِ سَهْمٌ يَوْمَ لَا تَدْفَعُ السَّهَامَ السَّهَامُ^{٢٧}
نِمْتُمْ ثُمَّ تَطْلُبُونَ الْمَعَالِي وَالْمَعَالِي عَلَى النَّيَامِ حَرَامُ^{٢٨}
شَرُّ عَيْشِ الرِّجَالِ مَا كَانَ حُلُمًا قَدْ تَسِيخُ الْمَنِيَّةُ الْأَحْلَامُ^{٢٩}
وَيَبِيتُ الزَّمَانُ أُنْدَلَسِيًّا ثُمَّ يُضْجِي وَنَاسُهُ أَعْجَامُ^{٣٠}

* * *

عَالِيِ الْبَابِ هَزَّ بِأَبْكَ مِنَّا فَسَعَيْنَا وَفِي النَفُوسِ مَرَامُ^{٣١}
وَتَجَلَّيْتَ فَاسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّدَا سِيسَ بِالرَّكْنِ ذِي الْجَلَالِ اسْتِلَامُ^{٣٢}
نَسْتَمِيحُ الْإِمَامَ نَصْرًا لِمَصْرِ مِثْلَمَا يَنْصُرُ الْحَسَامَ الْحَسَامُ^{٣٣}
فَلِمَصْرِ وَأَنْتِ بِالْحُبِّ أَدْرَى بَكَ يَا حَامِيِ الْحِمَى اسْتَعْصَامُ^{٣٤}
يَشْهَدُ اللَّهُ لِلنَّفُوسِ بِهَذَا وَكَفَانَا أَنْ يَشْهَدَ الْعَلَمُ^{٣٥}
وَأِلَى السَّيِّدِ الْخَلِيفَةِ نَشْكُو جَوْرَ دَهْرِ أَحْرَارِهِ ظُلَامُ^{٣٦}
وَعَدُّوْهَا لَنَا وَعُودًا كِبَارًا هَلْ رَأَيْتِ الْقُرَى عِلَاهَا الْجَهَامُ^{٣٧}
فَمَلَّلْنَا وَلَمْ يَكُ الدَّاءُ يَحْمِي أَنْ تَمَلَّ الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَامُ^{٣٨}
يَمْنَعُ الْقَيْدُ أَنْ تَقُومَ فَهَلْ تَا جَّ فَبِالْتَّاجِ لِلْبِلَادِ قِيَامُ^{٣٩}
فَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا هِيَ مَصْرُ وَارْفَعِ الصَّوْتَ إِنَّهَا الْأَهْرَامُ^{٤٠}

^{٢٧} الغرض: الهدف الذي يرمى إليه.

^{٢٨} المعالي: جمع مَعْلَاة (بفتح الميم)، وهي الرفعة والشرف.

^{٢٩} الحلم (بضم الحاء): ما يراه النائم، جمعه أحلام.

^{٣٠} أندلسياً: أي كزمان الأندلس أيام عز العرب والإسلام فيها.

^{٣١} عالي الباب: أي يا من بابك العالي. هَزَّ بِأَبْكَ مِنَّا: أي هَزَّنَا. وفي النفوس مرام: مطلب.

^{٣٢} تجلّيت: ظهرت. والركن: ركن الكعبة. والاستلام: اللمس إما بِالْقُبْلَةِ أو بِالْيَدِ.

^{٣٣} نستميح: نسأل. والحسام: السيف.

^{٣٤} الحمى: ما حُمِيَ من شيء. استعصام: استمسك.

^{٣٥} الجور: الظلم. وظلّام: جمع ظالم.

^{٣٦} القرى: جمع قرية. والجهم (بفتح الجيم): السحاب لا ماء فيه؛ يعني أن تلك الوعود كانت كالسحاب الذي لا خير فيه.

^{٣٧} ولم يَكُ الدَّاءُ يَحْمِي ... إلخ: أي لم يكن من شأن الداء أن يمنح الأرواح والأجسام من أن تملَّه وتسأمه.

وَارْعَ مَصْرًا وَلَمْ تَزَلْ خَيْرَ رَاعٍ
 إِنَّ جَهْدَ الْوَفَاءِ مَا أَنْتَ آتٍ
 وَلْيَصُولُوا بِمَنْ لَهُ الدَّهْرُ عَبْدٌ
 فَالْإِثْمُ الَّذِي تَلَقَّوْا رَفِيعٌ
 مَنْ يُرِدْ حَقَّهُ فَلِلْحَقِّ أَنْصَابُ
 لَا تَرْوِقَنَّ نَوْمَةُ الْحَقِّ لِلْبَا
 إِنَّ لِلْوَحْشِ وَالْعِظَامِ مَنَاقِبًا
 رَافِعَ الضَّادِ لِلْسُّهَاءِ هَلْ قَبُولُ
 قَامَتِ الضَّادُ فِي فَمِي لَكَ حُبًّا
 إِنَّ فِي «يَلْدَن» الْهُدَى لَخِلَالًا
 قَدْ تَجَلَّتْ لِخَيْرِ بَدْرِ أَقْلَّتْ
 فَالْزَمِ التَّمَّ أَيُّهَا الْبَدْرُ دَوْمًا

فَلَهَا بِالَّذِي أَرْتَكَ زِمَامُ
 فَلْيَقُمْ فِي وَقَائِكَ الْخُدَامُ^{٣٨}
 وَلَهُ السَّعْدُ تَابِعٌ وَغِلَامُ^{٣٩}
 وَالْأُمُورُ الَّتِي تَوَلَّوْا عِظَامُ
 رُ كَثِيرٌ وَفِي الزَّمَانِ كِرَامُ
 غِي فَلِلْحَقِّ هَبَّةٌ وَانْتِقَامُ
 لَمَنَاقِبَ أَسْبَابُهَا الْعِظَامُ^{٤٠}
 فَيُبَاهِي النُّجُومَ هَذَا النِّظَامُ^{٤١}
 فَهِيَ فِيهِ تَحِيَّةٌ وَابْتِسَامُ
 أَنَا صَبُّ بَلُطَفِهَا مُسْتَهَامُ^{٤٢}
 فِي كِمَالٍ بَدَتْ لَهُ أَعْلَامُ^{٤٣}
 وَالزَّمِ الْبَدْرُ أَيُّهَا التَّمَامُ^{٤٤}

^{٣٨} إِنَّ جَهْدَ الْوَفَاءِ: أَيُّ غَايَةِ الْوَفَاءِ. مَا أَنْتَ آتٍ: أَيُّ آتِيهِ وَفَاعِلِهِ.

^{٣٩} وَلْيَصُولُوا: أَيُّ وَلْيَسْطُوا بِأَمْرِكَ عَلَى مَنْ ظَلَمُوا مِصْرَ حَتَّى يَقْهَرُوهُمْ.

^{٤٠} الْعِظَامُ: جَمْعُ عَظْمٍ. وَمَنَاقِبُهَا: جَمْعُ أَمْنِيَّةٍ. وَمَنَاقِبُهَا: جَمْعُ مَنِيَّةٍ. أَيُّ إِنَّ الْوَحْشَ تَجِدُ مَنِيَّتَهَا فِي الْعِظَامِ وَهِيَ تَطْلُبُهَا لِلْأَكْلِ وَالْغِذَاءِ.

^{٤١} الضَّادُ: اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ. وَالسُّهَاءُ: كَوْكَبٌ خَفِيَ مِنْ بَنَاتِ نَعَشِ الصَّغْرَى. هَذَا النِّظَامُ: أَيُّ الشَّعْرِ.

^{٤٢} يَلْدَنُ: قَصْرُ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ فِي الْأَسْتَانَةِ.

^{٤٣} أَقْلَّتْ: حَمَلَتْ.

^{٤٤} التَّمَّ وَالتَّمَامُ: الْكِمَالُ.

ذكرى دنشواي^١

يا دنشواي على رُباك سلامٌ
شهداء حُكمك في البلاد تفرّقوا
مرّت عليهم في اللحد أهلةٌ
كيف الأراملُ فيك بعد رجالها
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها
يا ليت شعري في البروج حمائمٌ
«نيرون» لو أدركت عهد «كرومر»
نهبَت بأنسِ رُبوعك الأيامُ
هيهات للشملِ الشّتيتِ نظامُ
ومضى عليهم في القيود العامُ
وبأيّ حال أصبح الأيتامُ
بعد البشاشة وحشة وظلامُ
أم في البروج منيةٌ وجمامُ
لعرفت كيف تُنفذ الأحكامُ

* * *

نُوحِي حمائم دنشواي ورّوعي
إن نامت الأحياء حالت بينه
مُتوجّع يتمثّل اليوم الذي
السوطُ يعمل والمشانقُ أربعُ
والمستشارُ إلى الفضاء ناظرُ
في كل ناحية وكل محلّة
وعلى وجوه الثاكليين كآبةٌ
شعباً بوادي النيل ليس ينامُ
سحراً وبين فراشه الأحلامُ
ضجّت لشدة هوله الأقدامُ
متوحّداً والجنود قيامُ
تدمى جلود حوله وعظامُ
جزعاً من الملاء الأسيف زحامُ
وعلى وجوه الثاكلات رغامُ

^١ قيلت بعد مرور عام على حادثة هذه القضية في سبيل طلب العفو عن سجنائها.

الهلال الأحمر^١

يا قومَ عثمانَ والدنيا مُداوِلَةٌ
كُونُوا الجدارَ الذي يقوى الجدارُ به
أَمسى السبيلُ لغيرِ المُحسِنينَ دَمًا
البِرُّ من شُعَبِ الإيمانِ أَفْضَلُها
هل ترحمونَ لعلَّ اللهَ يرحمُكم
في ذِمَّةِ اللهِ أَوْفَى ذِمَّةٍ نَفَرُ
إِنْ سَالَ جِرَاحُهُمْ من غُرْبَةٍ ووَعَى
هذا يَحِنُّ إلى البسفورِ مُحْتَضِرًا

تعاوَنوا بينكم يا قومَ عثمانًا^٢
فاللهُ قد جعلَ الإسلامَ بنيانًا^٣
فشأنُكم وسبيلًا نُورُهُ بانا
لا يقبلُ اللهُ دونَ البِرِّ إيمانًا^٤
بالبيدِ أَهْلًا وبالصحراءِ جيرانًا
على طرابُلُسٍ يقضُّونَ شجعانًا^٥
باتوا على الجمرِ أرواحًا وأبدانًا^٦
وذاك يبكي الغضا والشَّيخَ والبانا^٧

^١ كانت جماعة الهلال الأحمر المصرية قد أحيَت ليلة تجمع بها التبرعات لإعانة المقاتلين في طرابلس الغرب من الجيش العثماني حين أغارت إيطاليا عليها، فقال في ذلك هذه القصيدة.

^٢ مداولة: من داول الله الأيام بين الناس؛ أي صرفها بينهم.

^٣ الجدار: الحائط.

^٤ البِرُّ: الخير والعطاء. والشعب: جمع شعبة، وهي غصن الشجرة، أو هي الطائفة من الشيء.

^٥ يقضون: يموتون.

^٦ جرحاهم: أي الجرحى منهم. والوغي: الحرب.

^٧ هذا يحنُّ إلى البسفور ... إلخ: أي مَنْ كان منهم تركيًّا يحنُّ إلى بلاده التي كُنِيَ عنها بالبسفور، ومَنْ كان عربيًّا بكى فُرقة بلاده التي كُنِيَ عنها بالغضا والبان، وهما نوعان من الشجر ينبتان في بلاد العرب. والشَّيخ: هو نبات طيب الرائحة. والمحتضر: مَنْ حضرته الوفاة.

يُودِّعون على بُعْدِ ديارهمُ وَيُنْشِدُونَ بُنْيَاتٍ وَصَبِياناً^٨
أَذْنُبُهُمْ عِنْدَ هَذَا الدَّهْرِ أَنَّهُمْ يَحْمُونَ أَرْضاً لَهُمْ رِيَسَتْ وَأُوطَاناً
مَاتُوا وَعَرَضَهُمُ الْمَوْفُورُ بَعْدَهُمْ وَالْعَرَضُ لَا عِزَّ فِي الدُّنْيَا إِذَا هَانَا^٩
قَوْمِي - وَجَلَّتْ وَجْوهُ الْقَوْمِ - مَصْرُ بَكْم أَلَقْتُ عَلَى كُرْمَاءِ الدَّهْرِ نَسِياناً^{١٠}
لَا تَسْأَلُونَ عَنِ الْأَعْوَانِ إِنْ قَعَدُوا وَتَنْهَضُونَ إِلَى الْمَلْهُوفِ أَعْوَاناً^{١١}
أَكْلَمَّا هَزَّكُم دَاعٍ لِّصَالِحَةٍ قُمْتُمْ كُھُولاً إِلَى الدَّاعِي وَفَتِياناً^{١٢}
لَوْ صُوِّرَ الشَّرْقُ إِنْسَاناً أَخَا كَرَمٍ لَكُنْتُمْ الرُّوحُ وَالْأَقْوَامُ جَثْمَاناً^{١٣}
إِذَا هُزِزْتُمْ تَلَاقَى السِّيفُ مُنْصَلِثاً وَالرِّيحُ مُرْسَلَةٌ وَالْغَيْثُ هَتَّاناً^{١٤}
إِذَا الْمَكَارِمُ فِي الدُّنْيَا أُشِيدَ بِهَا كَانَتْ كِتَاباً وَكُنَّا نَحْنُ عُنُوناً^{١٥}
إِنَّ الْحَيَاةَ نَهَارٌ أَوْ سَابِثَةٌ فَعِشْ نَهَارَكَ مِنْ دُنْيَاكَ إِنْسَاناً
أَرَى الْكَرِيمَ بَوَّجِدَانٍ وَعَاطِفَةٍ وَلَا أَرَى لِبَخِيلِ الْقَوْمِ وَجْدَاناً^{١٦}

* * *

هذا الهلالُ الذي تُحْيُونَ لَيْلَتَهُ أَبْهَى الْأَهْلَةَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْوَاناً^{١٧}

^٨ ينشدون بنيات ... إلخ: يطالبونها ويسألون عنها؛ أي ينشدون بنياتهم وصبيانهم.

^٩ ماتوا وعرضهم الموفور: أي ماتوا في سبيل صيانة عرضهم، فتركوه عزيزاً موفوراً.

^{١٠} قومي: أي يا قومي. وجلت وجوه القوم: أي وجوهكم، وهذه جملة معترضة بين المنادى وما كان من أجله النداء، وهو الإخبار بأنهم لما جاءوا بالخبر العظيم نسي سواهم من الكرماء في غير مصر، فلم يعد لهم ذكر.

^{١١} لا تسألون: أي أنتم لا تسألون. وتنهضون: تقومون. والملهوف: المظلوم المستغيث.

^{١٢} أكلما: الهمزة للاستفهام، وكلما هي لفظ «كل» مضافة إلى «ما» المصدرية الظرفية، وهي حينئذ تقييد التكرار. ولصاحلة: أي فعلة صاحلة. والكهول: جمع كهل، وهو الرجل من أربع وثلاثين إلى إحدى وخمسين.

^{١٣} الجثمان: الجسم.

^{١٤} السيف المنصلت: المجرد من غمده. والهتان: المنصب.

^{١٥} أشيد بها: أي دكرت بالثناء عليها.

^{١٦} الوجدان والعاطفة: من استعمالات المولدين، يراد بهما الشعور القلبي.

^{١٧} الهلال: اسم لراية الدولة التركية، وهي حمراء اللون في وسطها رسم الهلال بلون أبيض.

أراه من بين أعلام الوغى مَلَكًا
 قان ففيه من الجرحى مُشاكَلَةً
 لِحَامِلِيهِ جلالٌ منه مُقْتَبَسٌ
 كأنَّ ما احمرَّ منه حَوْلُ غُرَّتِهِ
 كأن ما ابيضَّ في أثْناءِ حُمُرَتِهِ
 كأنه شفقٌ تسمُو العيونُ له
 كأنه من دمِ العُشاقِ مُخْتَضَبٌ
 كأنه من جمالِ رائعٍ وهْدَى
 كأنه وردةٌ حمراءُ زَاهِيَةٌ

وما سواه من الأعلامِ شيطاناً^{١٨}
 حتّى إذا قيل ماتوا اخضرَّ ريحاناً^{١٩}
 كأنما رفعوا للناسِ قُرْآناً^{٢٠}
 دمُ البريء ذِكْيُ الشَّيْبِ عُثْماناً^{٢١}
 نورُ الشهيد الذي قد مات ظمآنً^{٢٢}
 قد قلَّد الأفقَ ياقوتاً ومَرجاناً
 يُثيرُ حيثُ بدا وَجْداً وأشْجاناً^{٢٣}
 خدودُ يوسفَ لَمَّا عَفَّ وَلَهْاناً^{٢٤}
 في الخُلْدِ قد فُتحت في كفِّ رضواناً^{٢٥}

^{١٨} أراه من بين أعلام الوغى: أي من بين الأعلام المنشورة في الحرب. وملكاً: أي كالمَلِك في تنزُّهه وطهارة عمله، وهو واحد الملائكة.

^{١٩} المشاكلة: المشابهة.

^{٢٠} الجلال: التناهي في عِظم القدر. ومقتبس: مَتَّخَذ ومستفاد.

^{٢١} الغرة: بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم، شَبَّ بها رسم الهلال لأنه أبيض. وعثمان: هو الخليفة عثمان بن عفان.

^{٢٢} الأثْناء: تضاعيف الشيء ومطاويه، واحدها ثَنِي، بكسر التاء.

^{٢٣} مختضب: ملوّن. والوجد: الحبُّ. والأشْجان: الأحزان والهموم.

^{٢٤} الجمال الرائع: الذي يَرُوع الراثي؛ أي يُعْجبه. ويوسف: هو يوسف الصديق. وعَفَّ: كفَّ عما لا يحلُّ. والولهان: الحزين، أو الذي ذهب عقله حزناً.

^{٢٥} رضوان: من الملائكة، وهو — كما يقول رجال الدين — موَكَّل بأبواب الجنة.

روما^١

صديقي المحترم

صدرت^٢ عن باريس وكأنها بابل ذات البرج والجسر وهي في دولتها؛ أو طيبة^٣ في الزمن الأول، إلا أنها مدينة الشمس، وباريس مدينة النور؛ أو روما مقر القياصر، ومُزدهم الأجناس والعناصر، وهي في رفعة مُلكها الفاخر، تموج

^١ نظم صاحب الديوان هذه القصيدة، وقَدَّمها بكتاب إلى صديقه المؤرِّخ الأستاذ إسماعيل بك رَأفت. صدرت عن باريس: رجعت وانصرفت. وبابل: مدينة قديمة بناها «بختنصر» في آسيا الصغرى، وكان بها بناءً عظيم ذو طبقات بعضها فوق بعض، وهو ما يُسمَّى برجًا، وقالوا في صفته إنه كان ذا طبقات، طول كل من جوانب الطبقة الأولى بلغ ٢٧٢ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وفوقها طبقة ثانية طول كل من جوانبها ٢٣٠ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، كانت مائلة فوق الطبقة الأولى إلى الطرف الجنوبي الغربي، وكانت الطبقات الباقية موضوعة هذا الوضع، وكان طول الثالثة ١٨٨ قدمًا وارتفاعها ٢٦ قدمًا، وكان طول الرابعة ١٤٦، والخامسة ١٠٤، والسادسة ٦٢، والسابعة ٢٠، وكان ارتفاع كل من هذه الطبقات الأربع الأخيرة ١٥ قدمًا. ويقولون إنه كانت هناك قنطرة أو قبة تغطِّي رأس الطبقة السابعة أو معظمه، وكان ارتفاعها ١٥ قدمًا أيضًا، وكان يتألف من ذلك كله هرمٌ مُنحَن، أضعف ميله إلى الشمال الشرقي، وأشدّه إلى الجنوب الغربي، وكان لكل طبقة لونٌ مخصوص، ويزعمون أنه كان فوق هذا كله مذبح فيه مائدة ذهبية وفراش نفيس، وكان ارتفاعه ١٥ قدمًا. وأما جسر بابل فيذكرون عنه أنه كان هناك نهر يشقُّ المدينة من الشمال إلى الجنوب، وكان على كل من جانبي النهر سورٌ له باب عند منتهى كل سوق من أسواق المدينة، وكان فوق هذا النهر جسرٌ واحد، هو الجسر المنسوب إلى بابل. ويذكرون لها عجائب أخرى، كالبسّاتين المعلقة وسواها.

^٢ طيبة: مدينةٌ مصريةٌ قديمة كانت مقرَّ الملك في بعض الأزمنة، وكانت بها عبادة الشمس؛ ولهذا سمّاها مدينة الشمس.

^٣ روما: عاصمة الدولة الإيطالية في هذا الزمن، وكانت مقرَّ ملك الرومان في الزمن القديم. والقياصر: جمع قيصر، وهو لقب لكل ملك من ملوك الروم.

بالأمم كالبحر الزاخر؛ أو الإسكندرية^٥ ذات المسلة — والمسلة في باريس — وهي في ذروة سعدها وأوج كمالها، تُغير الشمس في سرير مجدها بجلالها وجمالها؛ أو «بغداد»^٦ في إِبَّانِ إقبالها، وسلطان أقيالها، وأيمن أمرها، وأسعد حالها، فسبحان النعم، أعطى «مدينة المعروض» الأسماء كلها، وجلّت قدرته، بعث المدائن في واحدة.

رحلتُ عنها في اليوم الذي أسفر صباحُه عن ليلة الاحتفال بتوزيع الجوائز على العارضين، وقد نالها منهم ستون ألفاً أو يزيدون، كلهم من مشهوري الصُّناع، وكبار المخترعين، شيعوا في ذلك جنازة القرن التاسع عشر، ومشى الخلائق فيها حتى دفنائه، وكأنه نهارٌ مرَّ أو ليلةٌ تقصّت بالسَّمر،^٧ ثم انقلبنا ننفذ الأنامل من ترابه، ونذكر من محاسنه أنه جيلٌ واضح الغرر والتحجيل،^٨ يذكره التاريخ بالتعظيم والتبجيل، قام العلمُ فيه على أمتن بنيان، ورُفعت الحُجب بين الحقائق والإنسان، ضُربت له أطولُ سماء من ضروب العرفان، واستمدَّ من القادر^٩ مبالغ الإمكان، فاقتاد البرَّ بشعرة، وزمَّ البحر بإبرة،^{١٠} وفرَّق^{١١} الأرض وبلغ الجبال، وأوشك أن يمدَّ إلى السماء بحبال، ونفذ على النجم المدى، ووجد على القطب هدًى، وغاص على الحروب الماء، وركب إلى الوقائع الهواء، وكسر شِرةَ الداءِ^{١٢} وقتل قتالَه وراضَ العياء، ودخل بصره على الجسم الأحشاء، وأنطق الآلة الصمَّاء، ونقل الحديث من فضاءٍ إلى فضاء،

^٥ الإسكندرية: المدينة الثانية في الدولة المصرية، مشهورة في التاريخ القديم بمسلاتها العجيبة، والمسلة التي في باريس نقلها الفرنسيون حين أغاروا على البلاد المصرية منذ نحو قرن.

^٦ بغداد: عاصمة العراق العربي، كانت مقرَّ ملك الدولة العباسية. وسلطان أقيالها: قوَّة ملوكها. وأيمن أمرها: أي أتم أمرها يُمنًا وبركة.

^٧ السمر: حديث الليل.

^٨ الغرر: جمع غرة، وهي بياض قدر الدرهم في جبهة الفرس. والتحجيل: بياض في قوائم الفرس أيضًا.

^٩ القادر: اسم من أسماء الله تعالى.

^{١٠} زمَّ البحر: من قولهم زمَّ الشيء، إذا شدَّه وجمعه.

^{١١} فرق الأرض، بتخفيف الراء: فصلها وأبان مسالكها.

^{١٢} الداء العياء: الذي لا براء منه.

على انقطاع الصلّة بين النطق والإصغاء، وحرّك الصُور وهي هباء، إذا رأيَتها حسبَتها جماعة الأحياء، ونال سرائر الحوباء،^{١٢} وخاض في الطبائع^{١٤} والأهواء، فانكشف له الغطاء وبرح الخفاء،^{١٥} ونثرَ فكاد يُوحى إليه في الإنشاء، ونظم فلم يدع من آية في الأرض ولا في السماء.

كل هذا أيها الأستاذ عرضته «باريس» للناس في خيرٍ معرضٍ أُخرجَ لهم، فواهاً^{١٦} له من سوقٍ ثم ينفضُ، ويا أسفاً على بنيانه يومَ ينقضُ.

برحثُها وهي تجرُّ الذيلَ على المدائنِ الكُبرى،^{١٧} وتُزري بالحضارات ما حضر منها وما غبر،^{١٨} وقصدت إلى روما لعلِّي أَرُدُّ النفسَ إلى الخشوع، وأداوي الفؤاد من نشوة اغتراره بما رأى، فبلغتها وإذا أنا بين أثرٍ يكاد يتكلّم وحجرٍ كاد لكرامته يُستلم،^{١٩} فوقفتُ أتأملُ ذا الجدارَ وذا الجدارَ،^{٢٠} وأنشدُ^{٢١} ذلك القصر وتلك الدار، إلى أن ثار الشعر — والشعر ابن أبوين: «التاريخ والطبيعة» — فنظمت، وكأني بها في يدك تقرأ.

أحبُّ التوفيقَ إليَّ — أيها الأستاذ — إكرام العالم وإجلال الصديق، وأنت لي — بحمد الله — هذان كلاهما، فهل تمنُّ بقبول هدية هي إلى التاريخ أدنى منها إلى الشعر؟

^{١٢} السرائر: جمع سريرة، وهي السرُّ الذي يُكتم. والحوباء: النفس.

^{١٤} الطبائع: جمع طبيعة، وهي السجّية التي جُبِلَ عليها الإنسان، وقيل هي القوة السارية في الأجسام التي بها يصل الجسم إلى كماله الطبيعي.

^{١٥} برح الخفاء: أي وضح.

^{١٦} واهاً: كلمة للتعجب من طيب كل شيء؛ أي ما أطيبه، وتكون للتلهّف وللتفجّع أيضاً، يقال: واهاً على ما فات.

^{١٧} الكبر: جمع كبرى.

^{١٨} تُزري: تضع منها أو تصغر شأنها. وما غبر: ما مضى.

^{١٩} استلم الحجر: لمسه بالقبلة أو باليد.

^{٢٠} الجدار: الحائط.

^{٢١} أنشد ذلك القصر ... إلخ: أسأل عنه أو أطلبه.

قَفْ بروما وشاهدِ الأمرَ واشْهَدْ
دولةً في الثرى وأنقاضَ مُلْكٍ
مزَّقَتْ تاجَه الخطوبُ وألَقَتْ
طلُلٌ عندَ دِمْنَةٍ عندَ رسمٍ
وتماثيلُ كالحقائِقِ، تزدا
مَنْ رآها يقولُ هذي ملوكُ الدَّ
وبقايا هياكلٍ وقصورٍ
عبثَ الدهرُ بالحواريِّ فيها
وجرَّتْ ها هنا أمورٌ كبارٌ
راحَ دينٌ وجاءَ دينٌ وولَّى
والذي حصَّلَ المُجدُّونَ إهرا
ليتَ شعري إلَامَ يقتتلُ النَّا

أَنْ لِلْمُلْكِ مالِگًا سَبْحَانَهُ
هَدَمَ الدهرُ في العُلا بُنْيَانَهُ^{٢٢}
في الترابِ الذي أرى صولجانَهُ^{٢٣}
ككتابٍ مَحَا البلى عُنوانَهُ^{٢٤}
دُ وضوحًا على المدى وإبانَهُ^{٢٥}
هَرِ هذا وقارُهُم والرزانَةُ^{٢٦}
بينَ أَخَذِ البلى ودفعِ المتانَةِ^{٢٧}
وبِ «يلیوس» لم يَهَبْ أرجوانَهُ^{٢٨}
واصلَ الدهرُ بعدها جَرِيانَهُ
مُلْكُ قومٍ وحلَّ مُلْكُ مكانَهُ^{٢٩}
قُ دماءٌ خَلِيقَةٍ بالصيانةِ^{٣٠}
سُ على نِي الدَّنيَةِ الفتَّانَةِ^{٣١}

^{٢٢} الثرى: التراب. والأنقاض: جمع نقض، بضم النون، وهي ما انتقض من البنيان. والعلّا: الرفعة والشرف.

^{٢٣} الصولجان: هو المحجن، وهو عصا منعطفة الرأس.

^{٢٤} الطلل: ما شخص من آثار. والدمنة: آثار الدّيار أيضًا. والرسم: ما كان لاصقًا بالأرض من آثار الدار.

^{٢٥} تماثيل: جمع تمثال، بكسر التاء. والإبانة: الإيضاح.

^{٢٦} الوقار والرزانة: بمعنًى واحد، وهو الجلم والعظمة.

^{٢٧} هياكل: جمع هيكل، وهو هنا إما البناء المرتفع، وإما بيت الأصنام.

^{٢٨} الحواري: الناصر، والناصر أيضًا. ويليوس: هو يليوس قيصر أحد قياصرة الرومان الأقدمين. والأرجوان: صبغ أحمر، وقيل هو الحمرة من الألوان، والمراد به هنا الدّم لحمرته، كناية عن القوّة التي يستحلّ صاحبها سفك الدماء.

^{٢٩} راح دين: ذهب، وهو دين الرومان قبل النصرانية. وجاء دين: وهو النصرانية. وولّى ملك الرومان الأقدمين، وحلّ مكانه ملكُ الغالبيين بعد ذلك التاريخ.

^{٣٠} والذي حصَّلَ المُجدُّونَ ... إلخ: أي إن أولئك الذين سعوا بالحرب والقتال ليُحلُّوا في روما دينًا بدل دين، ويقيموا ملكًا جديدًا على أنقاض ملك ذاهب، لم يجنوا من ذلك كله ثمرة إلا إراقة دماء البشر التي تستحق الصيانة والحفظ.

^{٣١} الدنيّة الفتّانة: هي الدنيا.

بلدٌ كان للنصارى قتادًا
 وشعوبٌ يمحون آيةَ عيسى
 ويُهينون صاحبَ الروحِ ميثًا
 عالمٌ قُلُوبٌ وأحلامٌ خَلَقَ
 رومةَ الزهوِ في الشرائعِ والحكِّ
 والتناهي فما تعدى عزيزًا
 ما لحيٍّ لم يُمس منكِ قبيلٌ
 يصبحُ الناسُ فيك مولًى وعبدًا
 أين مُلكٌ في الشرقِ والغربِ عالٍ
 قادرٌ يمسحُ الممالكَ أعما
 أين مالٌ جَبِيَّتِه ورعايا

صار مُلكُ القُسوس عرشَ الديانةِ^{٣٢}
 ثم يُعلُون في البرِّيَّةِ شأنَه
 ويُعزُّون بعده أكَفَانَه^{٣٣}
 تتبارى غباوةً وفطانةً^{٣٤}
 مة في الحُكمِ والهوى والمجانةِ^{٣٥}
 فيك عِزٌّ ولا مَهيَنًا مهانةً^{٣٦}
 أو بلادٌ يُعَدُّها أوطانَه^{٣٧}
 ويرى عبدُك الورى غِلَمانَه^{٣٨}
 تحسُدُ الشمسُ في الضحى سلطانهَ^{٣٩}
 لا ويُعطي وَسِيعَها أعوانَه^{٤٠}
 كلُّهم خازنٌ وأنتِ الخِزانةُ^{٤١}

٣٢ القتاد: شجرٌ صلب له شوك كالإبر، والمراد أن وصولهم إليه كان صعبًا شاقًا كالمشقة التي يجدها الإنسان من القتاد في خرطه وإشاكته.

٣٣ المعنى في هذا البيت والبيت الذي قبله أنهم يخالفون شريعة عيسى، بينما يدعون تعظيمه.

٣٤ القلب، بتشديد اللام: المحتل.

٣٥ الزهو: المنظر الحسن والكبر والتهى والفخر. والمجانة: الهزل.

٣٦ التناهي: بلوغ النهاية. فما تعدى عزيزًا ... إلخ: أي إنك بلغت النهاية في كل شيء، فمن كان فيك عزيزًا لم يفته شيء من أسباب العز، ومن كان مهينًا لم يفته شيء من موجبات المهانة.

٣٧ أي لم يكن لغير أهلك عشيرة يعترزون بها، ولا بلاد يتخذونها وطنًا يلجئون إليه؛ لأنك أسقطت العشائر والعصبيات، وغلبت الجميع على أوطانهم.

٣٨ يصبح الناس فيك ... إلخ: يعني أن أهلك كانوا سادة وعبيدًا، وكان للعبيد على الأجانب عزُّ السادة وسلطانهم.

٣٩ سلطانه: قوته.

٤٠ قادر: وصف للملك في البيت المتقدم. ويمسح الممالك أعمالًا: أي يحولها أعمالًا، والأعمال ما يكون من البلاد تحت حكم الملكة ومضافًا إليها.

٤١ جبيته: جمعته.

أَيْنَ أَشْرَافِكَ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الدَّ
 أَيْنَ قَاضِيكَ مَا أَنَاخَ عَلَيْهِ
 قَدْ رَأَيْنَا عَلَيْكَ آثَارَ حَزْنٍ
 أَقْصِرِي وَاسْأَلِي عَنِ الدَّهْرِ مَصْرًا
 هَبْكَ أَفْنَيْتِ بِالْحَدَادِ اللَّيَالِي
 هَرٍ حَتَّى أَذَاقَهُمْ طَغْيَانَهُ^{٤٢}
 أَيْنَ نَادِيكَ مَا دَهَى شَيْخَانَهُ^{٤٣}
 وَمِنَ الدُّورِ مَا تَرَى أَحْزَانَهُ
 هَلْ قَضَتِ مَرَّتَيْنِ مِنْهُ اللَّبَانَةَ^{٤٤}
 جَعَلَ الْقِسْطَ بَيْنَهَا مِيزَانَهُ^{٤٥}
 لَنْ تَرُدِّي عَلَى الْوَرَى رِوْمَانَهُ^{٤٦}

^{٤٢} الأشراف: جمع شريف، وكان في روما لعهدا القديم طائفة الأشراف تسودت على من عداها؛ ونشأ بذلك في الشعب فريقان منفصلان، هما فريق السادة المسيطرين، وفريق العامة المسخرين.

^{٤٣} أين ناديك: المراد به دار ندوة الرومان، وكانت هي ما نُسَمِّيهِ الآن في النظم الدستورية مجلس الشيوخ. وما دهي: ما أصاب. وشيخانه: جمع شيخ، وهو الرجل تتألف منه ومن سواه جماعة المجلس.

^{٤٤} أقصري: أي انتهي عند هذا الحد، وأمسكي عن الاسترسال. واللبانة: الحاجة.

^{٤٥} القسط: العدل.

^{٤٦} هبك: اسم فعل؛ أي افرضي أنك أفنيت ... إلخ.

على قبر نابليون

قَفَّ على كنزٍ بباريسَ دفينُ
وافتقدَ جوهرةً من شرفٍ
قد توارت في الثرى حتى إذا
غرَّبت حتى إذا ما استيأست
لم تُذِبْ نارُ الوغى ياقوتها
لا تلوموها أليست حُرَّةً
من فريدٍ في المعاني وثمانٍ
صدفُ الدهرِ بتربيتها ضنينٌ^١
قدَّمَ العهدُ توارت في السنينُ
دنت الدارُ ولكن لات حينُ
وأذابته تباريحُ الحنينِ^٢
وهوى الأوطانِ للأحرارِ دينُ

* * *

غَيَّبَتْ باريسُ ذخراً ومضى
نزلَ الأرضَ ولكن بعدما
أعظمُ الليثِ تلقاها الشرى
تُرَّبُّها القيِّمُ بالجرزِ الحصينِ^٣
نزلَ التاريخَ قبرَ النابغينِ
ورُفَاتُ النَّسْرِ حازته الوكونُ^٤

^١ التَّرب: اللدة والنظير، والتثنية هنا في معنى الأفراد.

^٢ تباريح الشوق: توهجه، على أنه جمع لا مفرد له، أو هو جمع تبريح.

^٣ الجرز: الموضع الحصين.

^٤ الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضرب بها المثل. والوكون: جمع وكن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار.

وحوى الغمدُ بقايا صارمٍ لم تُقَلِّبْ مثله أيدي القيون^٥
 شيدَ الناسُ عليه وبنوا حائطَ الشكِّ على أسِّ اليقين^٦
 لستَ تُحصي حوله ألويةً أسرتَ أمسٍ وراياتِ سُبِينِ^٧
 نامَ عنها وهي في سُدَّتِه ديدبانُ ساهِرُ الجفنِ أمينُ
 وكأني من عدوِّ كاشحٍ لك بالأمسِ هو اليومَ خدينُ^٨
 ووليٌّ كان يسقيك الهوى عسلًا قد بات يسقيك الوزينُ^٩
 فإذا استكرمتَ ودًّا فاتَّهمُ جوهرُ الودِّ وإن صَحَّ ظنينُ^{١٠}

* * *

مرمرٌ أضجعَ في مسنونه حَجَرُ الأرضِ وضرغامُ العرينِ^{١١}
 جلَّلتَه هيبَةُ الثاوي به رَوْعَةُ الحكمةِ في الشعرِ الرصينِ^{١٢}
 هل درى المرمزُ ماذا تحته من قُوَى نفسٍ ومن خَلْقٍ متينِ
 أيها الغالون في أجداثهم ابحثوا في الأرضِ هل عيسى دفينُ^{١٣}
 يمحى الميثُ ويَبلى رمسُهُ ويَغولُ الربعَ ما غَالَ القطينُ^{١٤}
 حصَّنوا ما شئتُم موتاكمُ هل وراءَ الموتِ من حصنٍ حصينُ

^٥ الصارم: السيف القاطع. والقيون: جمع قين، وهو صانع الحديد. والشرى والوكون والغمد كلها في هذين البيتين كنايات عن باريس.

^٦ حائط الشك: كناية عن القبر. وأسِّ اليقين: هو الموت الذي يتمثل فيما ضم القبر من رفات.
^٧ يشير إلى تلك الأعلام التي غنمها نابليون في حروبه، ثم وُضعت على قبره رمزًا لما نال في هذه الحروب من نصر وتوفيق.

^٨ العدو الكاشح: هو الباطن العداوة. والخدين: هو الصاحب والحيب.

^٩ الوزين: حبُّ الحنظل المطحون.

^{١٠} الظنين: المتهم.

^{١١} المرمز المسنون: المصقول. وحجر الأرض: كناية عن محورها، والمراد به نابليون. والضرغام: الأسد.

^{١٢} الثاوي: المقيم.

^{١٣} الغالون: جمع غال، وهو المسرف.

^{١٤} يمحى: أي يزول. والرمس: القبر. والقطين: السكان.

ليس في قبرٍ وإن نال السُّها
فانزل التاريخَ قبرًا أو فنم
واخذع الأحياء ما شئت فلن
ما يزيد الميتَ وزنًا ويزين^{١٥}
في الثرى غفلاً كبعض الهامدين^{١٦}
تجد التاريخ في المنخدسين

* * *

يا عصامياً حوى المجد سوى
أُمك النفس قديماً أكرمت
نسبُ البدر أو الشمس إذا
وأصول الخمر ما أركى على
لا يقولنَّ امرؤُ أصلي فما
قد تتوجت فقالت أُمم
وتزوجت فقالوا ما له
قسماً لو قدروا ما احتشموا
فضلة قد قسّمت في المعرقين^{١٧}
وأبوك الفضل خير المنجبين^{١٨}
جيء بالآباء مغمور رهين
خُبث ما قد فعلت بالشاربين
أصله مسك وأصل الناس طين
ولد الثورة عقّ الثائرين^{١٩}
ولحور من بنات الملك عين^{٢٠}
لا يعف الناس إلا عاجزين

* * *

أرايتَ الخيرَ وافى أمةً
يصلحُ الملكُ على طائفةٍ
ملئوا الدنيا على قلتهم
يحسنُ الدهرُ بهم ما طلعا
قد أقاموا قدوةً سالحةً
إنما الأسوةُ والدنيا أسى
لم ينالوا حظّهم في النابغين
هم جمالُ الأرض حيناً بعد حين
وقديماً ملئت بالمرسلين
وبهم يزدادُ حسناً آفلين^{٢١}
ومضوا أمثلةً للمحتزين
سببُ العُمرانِ نَظْمُ العالمين^{٢٢}

^{١٥} السُّها: كوكب من بنات نعش الصغرى، يُضرب به المثل في السمو والارتفاع.

^{١٦} غفلاً: أي مجهولاً.

^{١٧} الفضلة: البقية من كل شيء. والمعرق: العريق الأصل.

^{١٨} أكرمت: أي ولدت كراماً.

^{١٩} يشير إلى زواجه من ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا.

^{٢٠} أفول النجم: غروبه، والمراد به هنا الموت.

^{٢١} الأسوة: القدوة، وجمعها أَسَى.

يا صريع الموتِ ندمانَ البلى كلُّ حيٍّ بالذي دُقتَ رهيْنُ^{٢٢}
 كِدَتْ من قتلِ المنايا خبرةً تعلَّمُ الآجالُ أيَّانَ تحينُ^{٢٣}
 يا مُبيدَ الأسدِ في آجامها هل أبادت حَيْلُكَ الدودَ المهينُ
 يا عزيزِ السجنِ بالبابا إلى كم تردَّى في الثرى ذُلُّ السجينِ^{٢٤}
 ربِّ يومٍ لك جَلَى وانثنى سائلُ الغُرَّةِ ممسوحَ الجبينِ^{٢٥}
 أحرَزَ الغايةَ نصرًا غاليًا لفرنسا وحوى الفتَحَ الثمينُ
 قيصرًا الأنسابِ فيه نازلاً قيصرَ النفسِ عصامَ المالِكينِ^{٢٦}
 مُجلِسَ التاجِ على مَفْرِقِهِ بيديهِ لا بأيدي المُجلِسينِ^{٢٧}
 حَوْلَ «أسترتلز» كان المُنتقى واصطدامُ النَّسرِ بالمُستنسرينِ^{٢٨}
 وُضِعَ الشُّطرنجُ فاستقبلتهُ ببنانِ عابثٍ باللاعبينِ
 فإذا المَلِكُانِ هذا خاضعُ لك في الجمعِ وهذا مُستكينُ^{٢٩}
 صدتْ شاهَ الرُّوسِ والنمسا معًا مَنْ رأى شاهينَ صيدا في كمينِ

* * *

يا مُلقَى النصرِ في أحلامه أين من وادي الكرى «سنتِ هلين»^{٣٠}

^{٢٢} الندمان: النديم على الشراب، وندمان البلى: كناية عن الميت.

^{٢٣} يشير إلى قول نابليون: «إن الرصاصة التي تخرق هذا الصدر لم تُخلَقْ بعد». يقول: إنك لكثرة ما

اختبرت المنايا بقتل أعدائك أصبحت تعرف متى تحين الآجال.

^{٢٤} يشير إلى ما فعل نابليون بالبابا.

^{٢٥} جل: سبق. والغرة في جبين الفرس: بياض. ومسح الجبين: عادة لسؤاس الخيل يأتونها بعد سبق جياهم في حلبة الرهان. ولا يخفى ما في البيت كله من مراعاة النظر.

^{٢٦} يريد بقيصري الأنساب: ملكي روسيا والنمسا، وقد ولدا للملك والسلطان. وقيصر النفس: نابليون، وهو الذي سوّد نفسه ولم تسوّده الأنساب.

^{٢٧} الإشارة إلى نابليون، يشير إلى أنه هو الذي توجّ نفسه بيده يوم قدّم إليه التاج، ولم يرَ لأحد ممّن قدّموه له حقًا في هذا العمل.

^{٢٨} أسترتلز: موقعة من المواقع التي انتصر فيها نابليون.

^{٢٩} الملك: بتسكين اللام، هو الملك.

^{٣٠} سانت هيلين: الجزيرة التي نُفي إليها نابليون.

يا مُنيلَ التاجِ في المهدِ ابنُهُ
أتَيْدُ في أُمَّةٍ أرهَقَتْهَا
أتعبَ الرِّيحَ مَدَى ما سلَكتْ
من أديمٍ يَهْرأُ الدَبَّ إلى
لك في كُلِّ مُغارٍ غارُهُ
ومن المَكْرِ تَغْنِيكَ بها
سُخِرَ النَّاسُ وإن لم يشعروا
والجماعاتُ ثنايا المُرتقى
ما الذي غرَّكَ بالغيبِ الجنينُ^{٣١}
إنها كالنَّاسِ من ماءٍ وطِينُ
من سُهولٍ وأجازت من حُزونِ^{٣٢}
فلواتِ تُنضِجُ الضَّبَّ الكنينِ^{٣٣}
وعليها الدمعُ فيه والأنينُ^{٣٤}
هل يُزَكِّي الذَّبَحَ غيرُ الذابحينِ^{٣٥}
لقويٍّ أو غنيٍّ أو مُبينِ
في المعالي وجُسورِ العابرينِ

* * *

يا خطيبَ الدهرِ هل مالَ البلى
تُرجِحُ السَلْمُ إذا حَرَكَتْهُ
خُطْبُ لا صوتَ إلا دونَها
من قصيرِ اللفظِ في مَكْرِ النُّهى
غيرَ وضَّاعٍ ولا واشٍ ولا
سِرْنَ أمثالاً فلو لم يُحيِه
بلسانِ كان ميزانَ الشئونِ
كِفَّةً أو تُرجِحُ الحربُ الرِّبونِ
في صداها الخيلُ تجري والسنينُ
وطويلِ الرُّمَحِ في كيدِ الوتينِ
مُنكَرِ القولِ ولا لغوِ اليمينِ
سيفُهُ أحييَنه في الغابرينِ^{٣٦}

* * *

قُمْ إلى الأهرامِ واخشعْ واطَّرحْ
وتمهَّلْ إنما تمشي إلى
هو كالصخرةِ عندَ القبطِ أو
خيلةَ الصَّيْدِ وزهو الفاتحينِ^{٣٧}
حَرَمِ الدهرِ ومِحْرابِ القرونِ
كالحطيمِ الطُّهرِ عندَ المسلمينِ

^{٣١} يشير إلى قول نابليون يوم بُشِّرَ بولي عهده، أو كما سمَّاه «ملك روما»: المستقبل لي.

^{٣٢} الحزون: جمع حزن، وهو ما غلظ من الأرض.

^{٣٣} الأديم هنا: سطح الأرض. وهراً اللحم: أنضجه. والكنين: المستور في جحره.

^{٣٤} المغار: الغارة على الأعداء. والغار: ورق الكروم، وقد كان يُتخذ منه إكليل للفتاح المنصور عند القدماء.

^{٣٥} التزكية: المدح. والذبَح: ما يُذبح.

^{٣٦} الغابر: الماضي والآتي، من أسماء الأضداد.

^{٣٧} الصيد: الملوك.

وتسَنَّم مِنبَرًا من حَجَرٍ
وإذُعُ أَجْيَالًا تَوَلَّتْ يَسْمَعُوا
وَأَعْدَهَا كَلِمَاتٍ أَرْبَعًا^{٣٨}
أَلْهَبَتْ خَيْلًا وَحَضَّتْ فَيْلَقًا
قَدْ عَرَضَتْ الدَّهْرَ وَالْجَيْشَ مَعًا
مَا عَلِمْنَا قَائِدًا فِي مَوْطِنٍ
فَتَرَى الْأَحْيَاءَ فِي مُعْتَرِكٍ
عِظَّةً قَوْمِي بِهَا أَوْلَى وَإِنْ
هَذِهِ الْأَهْرَامُ تَارِيخُهُمْ

* * *

يَا كَثِيرَ الصَّيْدِ لِلصَّيْدِ الْعُلَا
قُمْ تَرِ الدُّنْيَا كَمَا غَادَرَتْهَا
وَتَرِ الْحَقَّ عَزِيزًا فِي الْقَنَا^{٣٩}
وَتَرِ الْأَمْرَ يَدًا فَوْقَ يَدٍ
وَتَرِ الْعِزَّ لِسَيْفٍ نَزَقَ
سَنَنْ كَانَتْ وَنَظْمٌ لَمْ يَزَلْ

^{٣٨} يشير إلى تلك الجملة المشهورة التي قالها وهو على قمة الهرم يشجع جنوده البواسل: «أيها الجنود،

إن أربعين قرنًا تنظر إليكم من قمة الأهرام.»

^{٣٩} صفح الكتاب: قَلْبَ صفحاته.

^{٤٠} القنا: جمع قناة، وهي الرمح.

^{٤١} الضَّئِن: الغنم.

تكريم^١

وطنٌ يرفُ هوىً إلى شُبَّانِهِ
هم نَظْمُ حليته وجَوْهرُ عقيدِهِ
يرجو الربيعَ بهم ويأملُ دولةً
من غاب منهم لم يَغِبْ عن سَمْعِهِ
وإذا أتاه مُبَشِّرٌ بقدومِهِم
ولقد يَخُصُّ النافعين بعطفِهِ
هيهات يَنسى بذلَهُم أرواحَهُم

كالرَّوضِ رِقَّتُهُ على ريحانِهِ^٢
والعِقدِ قيمَتُهُ يَتِيمُ جُمانِهِ^٣
من حُسْنِهِ ومن اعتدالِ زمانِهِ^٤
وضميرِهِ وفؤادِهِ ولسانِهِ
فمن القميصِ ومن شذى أردانِهِ^٥
كالشيخِ خَصَّ نجيبَهُ بحنانِهِ^٦
في حفظِ راحتِهِ وجلبِ أمانِهِ

^١ نظم صاحب الديوان هذه القصيدة الاجتماعية في احتفالٍ تكريمي أُقيمَ للأساتذة: عبد الملك حمزة، وإسماعيل كامل، وعوض البحراوي، في فندق شبرد.

^٢ يرف هوىً إلى شُبَّانِهِ: يرتاح إليهم. والرَّوضُ: الأرض المخرَّرة بالنبات، جمع روضة.

^٣ نظم حليته: جمعها وضم بعضها إلى بعض. واليتيم: الثمين الذي لا نظير له. والجُمان: اللؤلؤ، واحده جمانة.

^٤ يرجو الربيع ... إلخ: أي إن هذا الوطن يرجو أن يكون له مثل الربيع، وهو خير فصول السنة، ويأمل أن تقوم له دولة منهم، لها من الحسن والاعتدال ما يكون منها للربيع وزمنه.

^٥ وإذا أتاه مبشِّر ... إلخ: أي إذا أتى الوطنَ مبشِّرٌ بأنهم قادمون عليه من غيبتهم، كان تأثير هذه البشرى فيه كتأثير قميص يوسف في أبيه يعقوب. والشَّذى: قوة نكاء الرائحة. والأردان: جمع ردن، وهو أصل الكم.

^٦ يَخُصُّ النافعين بعطفه: يُفردهم به. والنجيب: الولد كَرُمَ حسَبُهُ وحمد رأيه أو قوله أو فعله.

وَقَفُوا لَهُ دُونَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ وَمَشَتْ حَدَائِثُهُمْ عَلَى حَدَثَانِهِ^٧
فِي شِدَّةٍ نَقَلْتُ أَنَاةً كَهَوْلِهِ فِيهَا وَحَكَمْتُهُمْ إِلَى فِتْيَانِهِ^٨

* * *

قُمْ يَا خَطِيبَ الْجَمْعِ هَاتِ مِنَ الْحُلَى مَا كُنْتَ تَنْشُرُهُ عَلَى آذَانِهِ
فَلَطَالَمَا أَبْدَى الْحَنِينَ لِقُسِّهِ وَاهْتَزَّ أَشْوَاقًا إِلَى سَحْبَانِهِ^٩
نَادِ الشَّبَابَ فَلَمْ يَزَلْ لَكَ نَادِيًا وَالْمَرْءُ ذُو أَثَرٍ عَلَى أَخْدَانِهِ^{١٠}
امدِّدْ حُدَاكَ فِي النَّجَائِبِ تَنْصَرِفْ بِهِوَیْ أَعْنَتْهَا إِلَى تَحْنَانِهِ^{١١}
أَلْقِ النَّصِيحَةَ غَيْرَ هَائِبٍ وَقِعْهَا لَيْسَ الشَّجَاعُ الرَّأْيِ مِثْلَ جَبَانِهِ
قُلْ لِلشَّبَابِ زَمَانُكُمْ مُتَحَرِّكٌ هَلْ تَأْخُذُونَ الْقِسْطَ مِنْ دُورَانِهِ^{١٢}
قُمْتُمْ عَلَى الْأَحْلَامِ تَلْتَزِمُونَهَا كَالْعَالَمِ الْخَالِي عَلَى أَوْثَانِهِ^{١٣}
وَتُنَازِعُونَ الْحَيَّ فَضْلَ ثِيَابِهِ وَالْمِيتَ مَا قَدْ رَثَ مِنْ أَكْفَانِهِ
وَلَقَدْ صَدَقْتُمْ هَذِهِ الْأَرْضَ الْهَوَى وَالْحُرُّ يَصْدُقُ فِي هَوَى أَوْطَانِهِ
أَمَلٌ بِذَلَّتُمْ كُلَّ غَالٍ دُونَهُ وَفَقَدْتُمْ مَا عَزَّ فِي وَجْدَانِهِ^{١٤}
الليثُ يَدْفَعُكُمْ بِشِدَّةٍ بِأَسِهِ عَنْهُ وَيُطْعِمُكُمْ بِفَرَطٍ لِبَانِهِ^{١٥}
وَيُرِيدُ هَذَا الطَّيْرَ حُرًّا مُطْلَقًا لَكِنْ بِأَعْيُنِهِ وَفِي بُسْتَانِهِ

^٧ الحداثة: صغر السن. والحدثان (بفتح الدال): نواثب الدهر.

^٨ الأناة: الجمل والوقار.

^٩ قسُ بن ساعدة: خطيبُ عربي من نجران، يُضَرَّبُ المثل ببلاغته. وسحبان: خطيبٌ كذلك، وهو من وائل، والضمير فيها للوطن.

^{١٠} الشباب: جمعُ شابٍّ. والأخدان: الأصدقاء، جمع خدن.

^{١١} الحُداء: الغناء للإبل لتنشط في مسيرها. والنجائب: النياق الكريمة. والأعنة: جمع عنان، وهو سير اللجام الذي تُمسك به الدابة. والتحنان: الحنين.

^{١٢} القسط: النصيب.

^{١٣} الأحلام: جمع حلم، وهو ما يراه النائم. والخالي: الماضي. والأوثان: جمع وثن، وهو ما يُتَّخَذُ للعبادة من حجر ونحوه.

^{١٤} وجدان الشيء: إدراكه والظفر به.

^{١٥} اللبان: اللب.

* * *

أَوْفَدْتُمْ وَفَدًا وَأَوْفَدَ رَبُّكُمْ
العَصْرُ حُرٌّ وَالشُّعْبُ طَلِيقَةٌ
فَاضَ الزَّمَانُ مِنَ النُّبُوغِ فَهَلْ فَتَى
أَيْنَ التَّجَارَةُ وَهِيَ مِصْمَارُ الْغَنَى
أَيْنَ الْجَوَادُ عَلَى الْعُلُومِ بِمَالِهِ
أَيْنَ الزَّرَاعَةُ فِي جَنَانٍ تَحْتَكُمُ
أَنَذَا أَصَابَ الْقَطْنَ كَاسِدُ سُوْقِهِ
يَا مَنْ لِشُعْبٍ رُزُوهُ فِي مَالِهِ
الْمُلْكُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ قَطْنَ فَلَمْ
«الْفَاطِمِيَّةُ» شَيَّدَتْ مِنْ عَزِّهِ
بِالْقَطَنِ لَمْ يَرْفَعْ قَوَاعِدَ مُلْكِهِ
لَكِنْ بَأَوَّلِ زَارِعٍ نَقَضَ الثَّرَى
وَبِكُلِّ مُحْسِنٍ صَنَعَةٍ فِي دَهْرِهِ

معه العناية فَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ
مَا لَمْ يَحْزُهَا الْجَهْلُ فِي أَرْسَانِهِ^{١٦}
غَمَرَ الزَّمَانُ بِعَلِمِهِ وَبَيَانِهِ
أَيْنَ الصَّنَاعَةُ وَهِيَ وَجْهُ عَنَانِهِ^{١٧}
أَيْنَ الْمُشَارِكُ مِصْرَ فِي فِدَائِهِ^{١٨}
كَخَمَائِلِ الْفِرْدَوْسِ أَوْ كَجَنَانِهِ^{١٩}
قُمْنَا عَلَى سَاقٍ إِلَى أَثْمَانِهِ
أَنَسَاهُ ذِكْرُ مُصَابِهِ بِكِيَانِهِ^{٢٠}
يُغْلِبُ أَبَوْتُنَا عَلَى عُمرَانِهِ^{٢١}
وَبَنَى «بَنُو أَيُّوبَ» مِنْ سُلْطَانِهِ^{٢٢}
فِرْعَوْنُ وَالْهَرْمَانُ مِنْ بَنِيَانِهِ
بِذَكَائِهِ وَأَثَارِهِ بِبَنَانِهِ^{٢٣}
تَتَعَجَّبُ الْأَجْيَالُ مِنْ إِتْقَانِهِ

^{١٦} الأُرسَان: جمع رَسَن، وهو الزمام يكون على أنف الدابة.

^{١٧} العنان (يفتح العين): السحاب.

^{١٨} الجواد: الكريم الكثير الجود.

^{١٩} الجنان: جمع جَنَة. والخمائل: جمع خميلة، وهي الشجر الكثير الملتف. والفردوس: الجنة أو نعيمها.

^{٢٠} يا مَنْ لِشُعْبٍ ... إلخ: كان قد لحق القطن كسادٌ عظيم، فارتاع له المصريون جميعاً، وكاد يشغلهم أمره عن الجهاد في قضية الاستقلال، فهو يشير إلى ذلك.

^{٢١} أبوتنا: آبائنا.

^{٢٢} الفاطمية: أي الخلفاء الفاطميون أو الدولة الفاطمية، وهي إحدى الدول التي قامت في مصر بعد الإسلام، ومؤسسها المعز لدين الله، قديم من بلاد المغرب ففتح مصر، وكانت دولتهم عزيزة الجانب مرهوبة السلطان. وبنو أيوب أيضاً: مؤسسو الدولة الأيوبية، وكان أعظمهم شأنًا السلطان يوسف صلاح الدين الأيوبي.

^{٢٣} الثرى: التراب، والمراد به الأرض. ونقضها: أي شقها للزرع. والبنان: أطراف الأصابع.

وبهَمَّةٍ في كُلِّ نَفْسٍ حَلَّقَتْ في الجَوِّ وارتَفَعَتْ على كَيَوَانِهِ^{٢٤}
مُلْكُ من الأخلاقِ كان بِنَاؤُهُ من نَحْتِ أَوْلِكُمْ ومن صَوَّانِهِ^{٢٥}
فَأَتُوا الهياكلَ إن بَنَيْتُمْ واقْبِسُوا من عَرِشِهِ فيها ومن تِيْجَانِهِ

^{٢٤} حَلَّقَتْ: من حَلَّقَ الطائر، إذا ارتفع في طيرانه واستدار كالحلقة. وكَيَوَان: اسم زحل بالفارسية.
^{٢٥} الصَوَّان (بفتح الصاد وتشديد الواو): ضرب من الحجارة شديد.

اعتداء^١

نجا وتَمَائلَ رَبَّانُها ودَقَّ البشائرَ رُكبانُها^٢
وهلَّلَ في الجوّ قِيدومُها وكَبَّرَ في الماءِ سُكَّانُها^٣
تحوَّلَ عنها الأذى وانثنى عُبَابُ الخطوبِ وطوفانُها
نجا «نوحُها» من يدِ المُعتدي وضَلَّ المقاتِلَ عُدوانُها^٤
يدٌ للعناية لا ينقضي وإن نَفدَ العُمُرُ شُكرانُها
وقى الأرضَ شرَّ مقاديرِهِ لطيفُ السماءِ وَرحمانُها^٥
ونجَّى الكنانةَ من فتنةٍ تهدَّدَتِ النِّيلَ نيرانُها^٦

^١ اعتزم سعد زغلول السفر إلى إنجلترا للمفاوضة مع حكومتها، وكان على رأس الوزارة المصرية يومئذٍ، فترصد له شابٌ وأطلق عليه النار، ولكن الله أنجى حياته، ووقى البلادَ شرَّ فتنةٍ كادت تعصف بين الأحزاب، فنظم صاحب الديوان هذه القصيدة تهنئةً له، ونصيحةً لأهل النزق والطيش من الشبان، وحضاً على الإصلاح العملي، وتذكيراً بمنزلة السودان وقناة السويس، اللذين هما من مصر بمنزلة الروح من الجسد.

^٢ تماثل العليل: أقبل وقارب البرء. والرُّبان: مُجري السفينة.

^٣ هلل: قال لا إله إلا الله. وقيدومها: صدرها. وسكانها، بضم السين: ذنبها.

^٤ المقاتل: جمع مقتل، وهو العضو الذي إذا أُصيبَ لا يكاد صاحبه يسلم.

^٥ المقادير: جمع مقدور، وهو الأمر المحتوم. والضمير لِلطيفِ السماء وهو الله تعالى.

^٦ الكنانة: مصر.

يسيلُ على قرنٍ شيطانها عقيقُ الدماءِ وعِقيانُها^٧
 فيا «سعدُ» جرحُك ساءَ الرجالَ فلا جُرِحتَ فيك أوطانُها
 وقتك العنايةُ بالراحَتين وطوَّقَ جِيدَك إحسانُها^٨
 منايا أبى الله إذ ساورتك فلم يُلِقْ نابيه تُعبانُها^٩
 حوت دمك الأرض في أنفها زكياً كأنك «عثمانُها»^{١٠}
 ورقَّت لآثاره في القميص كأن قميصك قرآنُها
 وريعت كما ريعت الأرض فيك نواحي السماءِ وأعنانُها^{١١}
 ولو زُلَّتْ غِيَّبَ «عمرو» الأمور وأخلى المنابرَ «سحبانُها»^{١٢}

* * *

رماك على غرّة يافع مثارُ السريرة غضبانُها^{١٣}
 وقَدْماً أحاطت بأهلِ الأمور ميولُ النفوسِ وأضعافُها^{١٤}
 تلمَسَ نفسك بين الصفوفِ ومن دونِ نفسك إيمانُها^{١٥}
 يريدُ الأمورَ كما شاءها وتأبى الأمورُ وسلطانُها
 وعندَ الذي قهرَ القيصرين مصيرُ الأمورِ وأحيانُها^{١٦}

^٧ العقيان: الذهب؛ أي الدماء التي تُشبه في حرمتها العقيق والعقيان.

^٨ الراحتان: تثنية راحة، وهي الكف. والجيد: العنق.

^٩ المنايا: جمع منية، وهي الموت. وساورتك: وثبت عليك.

^{١٠} عثمانها: يريد الخليفة عثمان بن عفان، ثالث الخلفاء الراشدين، قُتل وهو جالس يتلو القرآن وفي حجره المصحف.

^{١١} ريعت: فزعت، بتشديد الزاي. وأعنان السماء: نواحيها.

^{١٢} عمرو الأمور: أي مُصرّف الأمور بحذقه وفطنته، وهو عمرو بن العاص وسحبان: خطيب عربي مشهور من بني وائل.

^{١٣} اليافع: من راهق العشرين، أو من ترعرع وناhez البلوغ. والسريرة: ما يُسرّه الإنسان من أمره.

^{١٤} الأضعاف: الأحقاد.

^{١٥} تلمس نفسك: تطلبها مرة بعد أخرى.

^{١٦} مصير الأمور: مرجعها. وأحيانها: جمع حين، وقالوا إنه وقت مبهم يصلح لجميع الأزمان، طالت أو قصرت. والقيصران: ملك الروم وملك الفرس حين الفتح الإسلامي، والله تعالى هو الذي قهرهما.

ولو لم يُسابقْ دروسَ الحياةِ لبصَّره الرُّشدَ لقمانها^{١٧}
 فإنَّ الليالي عليها يحولُ شعورُ النفوسِ ووجدانها^{١٨}
 ويختلف الدهرُ حتى يبينَ رُعاةُ العهودِ وخوانها^{١٩}

* * *

أرى مصرَ يلهو بحدِّ السلاحِ ويلعبُ بالنارِ ولدانها^{٢٠}
 وراحَ بغيرِ مجالِ العقولِ يُجِيلُ السياسةَ غلمانها
 وما القتلُ تحيا عليه البلادُ ولا همّةُ القولِ عُمرانها
 ولا الحُكمُ أنْ تنقضي دولةُ وتُقِيلَ أخرى وأعوانها
 ولكن على الجيشِ تقوى البلادُ وبالعِلْمِ تشتدُّ أركانها
 فأين النبوغُ وأين العلومُ وأين الفنونُ وإتقانها
 وأين من الخُلُقِ حظُّ البلادِ إذا قتلَ الشيبَ شبانها^{٢١}
 وأين من الرِّيحِ قسطُ الرجالِ إذا كان في الخُلُقِ خسرانها
 وأين المُعلِّمُ ما خُطبُهُ وأين المدارسُ ما شأنها
 لقد عبثتْ بالنِّياقِ الحُداةُ ونامَ عن الإبلِ رُعيانها^{٢٢}
 إلى الخُلُقِ أنظرُ فيما أقولُ وتأخذُ نفسي أشجانها

* * *

ويا «سعدُ» أنتَ أمينُ البلادِ قد امتلأتْ منك أيمانها^{٢٣}

^{١٧} لقمانها: أي مَنْ هو كلقمان، وهو يُضْرَبُ به المثل.

^{١٨} عليها يحول: أي يتحوَّلُ ويتبدَّلُ. والمراد أن ما يكون للنفوس من ميول ووجدان يتغيرُ بمضي الزمن.

^{١٩} رعاة العهود: الحافظون لها، جمع راعٍ. وخوانها: جمع خائن.

^{٢٠} الولدان: الصِّبيان، جمع وليد.

^{٢١} الخلق: المروءة والدِّين والسَّجِيَّة، ويغلب الآن على السَّجِيَّة الفاضلة. والمعنى أنه إذا كان شبان البلاد يقتلون شبَّيها، فلا حظَّ لها من الخلق النافع.

^{٢٢} الحُداة: جمع حادٍ، وهو مَنْ يَغْنِي للإبل لتتنشط في سيرها.

^{٢٣} أيمانها: جمع يمين، وهي إحدى يَدَي الإنسان، والمراد أنها تأكَّدت فيما بلغ إليه حُسن ظنِّها أنك أمين عليها، كما يتأكَّد الإنسان مما يكون في يده.

ولن ترتضي أن تُقَدَّ القناة
وحَجَّتْنا فيهما كالصباح
فمصرُ الرياضِ وسوادُنْها
وما هو ماءٌ ولكنَّه
تُتَمِّمُ مصرَ ينابيعُها
وأهلُوه منذ جرى عذْبُه
وأما الشريكُ فِعِلَّاتُه
وحربُ مَضَت نحن أوزارُها
وكم مَن أتاك بمجموعةٍ
فأين من «المنش» بحرُ الغزالِ
وأين التماسيحُ من لُجَّةٍ
ولكن رءوسَ لأموالهم
ودعوى القويِّ كدعوى السباعِ

ويُبَيَّرَ من مصرَ سوادُنْها^{٢٤}
وليس بمُعْييك تَبَيَّانُها^{٢٥}
عيونُ الرياضِ وخلصانُها^{٢٦}
وريدُ الحياةِ وشريانُها^{٢٧}
كما تَمَّ العينُ إنسانُها^{٢٨}
عشيرةُ مصرَ وجيرانُها
هي الشُّركاءُ وأقطانُها
وخيلُ خَلَّت نحن فرسانُها^{٢٩}
من الباطلِ الحقُّ عنوانُها
وفيضُ «نيانزا» وتهتانُها^{٣٠}
يموتُ من البردِ حيتانُها^{٣١}
يُحرِّكُ قرْنِيه شيطانُها
من النابِ والظُّفرِ بُرهانُها

^{٢٤} القدُّ والبتر، هنا: بمعنى الضياع.

^{٢٥} وليس بمعْييك: أي بمعجزك.

^{٢٦} الرياض: أي كالرياض في نضرتها وجمالها. والسودان: كالعيون والخلجان التي تستقي منها ماءها، فكما تجفُّ الرياض وتقفّر إذا انقطعت عنها العيون والخلجان، كذلك تقفر مصر وتبور إذا فُصل عنها السودان.

^{٢٧} الوريد: عرق في العنق من الأوردة التي ترتبط بها الحياة. والشریان: العرق الذي يحمل الدّم من القلب.

^{٢٨} الينابيع: عيون الماء، واحدها ينبوع. وإنسان العين: الدائرة التي تَرى في سوادها.

^{٢٩} أوزارها: أسلحتها، جمع وزر، وهو السلاح.

^{٣٠} المنش: بحر في الشمال الغربي لأوروبا، بين إنجلترا شمالاً وفرنسا جنوباً. وبحر الغزال: أحد فروع النيل الأبيض في السودان. ونيانزا: إحدى البحيرات الثلاث التي يخرج منها النيل.

^{٣١} وأين التماسيح ... إلخ: أي إن مسافة التقاطع وعدم الاتصال بعيدة جداً بين السودان وبلاد الإنجليز بقدر التناقض بين طبيعتهما؛ فهذا تعيش التماسيح في مائه، وتلك تموت الحيتان في مائها.

توت عنخ آمون

قُفِي يَا أُخْت «يُوشَعَ» خَبْرِينَا	أَحَادِيثَ الْقُرُونِ الْغَابِرِينَا ^١
وَقُصِّيَ مِنْ مَصَارِعِهِمْ عَلَيْنَا	وَمِنْ دُولَاتِهِمْ مَا تَعَلَّمِينَا ^٢
فَمِثْلُكَ مَنْ رَوَى الْأَخْبَارَ طَرًّا	وَمَنْ نَسَبَ الْقِبَائِلَ أَجْمَعِينَا ^٣
نَرَى لَكَ فِي السَّمَاءِ خَضِيبَ قَرْنٍ	وَلَا نُحْصِي عَلَى الْأَرْضِ الطَّعِينَا ^٤
مَشِيَتِ عَلَى الشَّبَابِ شَوَاطِئَ نَارٍ	وَدُرَّتِ عَلَى الْمَشِيبِ رَحَى طَحُونَا ^٥

^١ الخطاب للشمس، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس، فقد رُوي أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم، ويدخل السبت فلا يحلُّ له قتالهم فيه، فدعا الله تعالى، فردَّ له الشمس حتى فرغ من قتالهم، وقد لُحَّ ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله:

وما أنْسَ لا أنْسَ المليحة إذ بدت دجى فأضاء الأفق من كلِّ موضع
فحدتْ نفسي أنها الشمس أشرقت وأنى قد أوتيت آية يوشع

القرون الغابرون: الأجيال الماضية.

^٢ قصي: حدثي، ومنه: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ». ومصارعهم: مهالكهم. ودولاتها: جمع دولة، بضم ففتح، وهي الدَّاهية، يقال: جاء الدهر بدولته؛ أي بدواهيه.

^٣ طرًّا: جميعًا من دون أن تترك منها شيئًا. ونسب القبائل: ذكر أنسابها.

^٤ الخضيب: الملون بالخضاب. والقرن: حاجب الشمس. والطعين: المطعون.

^٥ بالضم والكسر: دُخان النار.

تُعِينِينَ الموالِد والمنايا وَتَبْنِينَ الحِياة وتَهْدِمِينَا^٦
فِيَا لِكَ هِرَّةً أَكَلَتْ بَنِيهَا وَمَا وَلَدُوا وَتَنْتَظِرُ الْجَنِينَا^٧

* * *

أُمُّ المَالِكِينَ بَنِي «أَمُون» لِيَهْنِكَ أَنَّهُمْ نَزَعُوا «أَمُونَا»^٨
وَلَدَتْ لَهُ «الْمَامِينَ» الدَوَاهِي وَلَمْ تَلِدِي لَهُ قَطُّ «الْأَمِينَا»^٩
فَكَانُوا الشُّهْبَ حِينَ الْأَرْضُ لَيْلٌ وَحِينَ النَّاسُ جِدُّ مُضَلَّلِينَا
مَشَتْ بِمَنَارِهِمْ فِي الْأَرْضِ «رُومَا» وَمِنْ أَنْوَارِهِمْ قَبَسَتْ «أَثِينَا»^{١٠}
مَلُوكُ الدَّهْرِ بِالوَادِي أَقَامُوا عَلَى «وَادِي الْمُلُوكِ» مُحَجَّبِينَا^{١١}
فَرَبٌّ مُصَفِّ مِنْهُمْ وَكَانَتْ تُسَاقُ لَهُ الْمُلُوكُ مُصَفَّدِينَا^{١٢}
تَقْيِدٌ فِي التَّرَابِ بِغَيْرِ قَيْدٍ وَحَلَّ عَلَى جَوَانِبِهِ رَهِينَا
تَعَالَى اللَّهُ كَانَ السَّحَرُ فِيهِمْ أَلَيْسُوا لِلْحَجَارَةِ مُنْطَقِينَا^{١٣}

^٦ المنايا: جمع منيئة، وهي الموت.

^٧ الهرة: القطّة، ويقال في المثل: «أعق من الهرة». لأنها تأكل أولادها. والجنين: الولد ما دام في الرحم.
^٨ نزع أباه: أشبهه، إشارة إلى أم «أمون»، واختلف المؤرخون: هل كانت أمّه زوجة شرعية لأبيه، أو إحدى سراريه؟ وكان من عادتهم ألا يتولى الملك إلا من كانت أمّه زوجة شرعية لأبيه، إلا أن «توت عنخ آمون» تولّى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك خون آتون.

^٩ إشارة للخليفين: الأمين والمأمون، وقد اختار المأمون؛ لأنه كان أفضل بني العباس حزمًا وجلماً وعلمًا ورأيًا ودهاءً وهيبةً وشجاعة؛ أي ولدت له أبناء صاروا ملوكًا، وكانت صفاتهم في الملك كالصفات التي عرفناها في المأمون.

^{١٠} روما: عاصمة إيطالية. وقبست: أخذت. وأثينا: عاصمة اليونان. وفيه إشارة إلى ما أخذته الأم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة.

^{١١} وادي الملوك: هو إلى الشاطئ الغربي للنيل بالأقصر على مسير نصف ساعة تقريبًا، وهو هضابٌ صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها، وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإتقانها إلى حدٍّ يفوق الوصف.

^{١٢} مصفدين: مقيدين، يصف فراعنة مصر في مقرهم الأخير، وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسوقة.

^{١٣} منطقين: أي أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة، ويريد أنهم أنشئوا من الأبنية ما يدلُّ على عظمة شأنهم دلالة النطق على معناه، وأشهر الأبنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة، وهما من أعجب ما بنى البناة، وفيهما دليلٌ على أن المصريين القدماء كانوا أعلم الأمم قاطبة بفنِّ العمارة وهندستها، وقد توالى

غَدُوا يَبْنُونَ مَا يَبْقَى وَرَاحُوا
إِذَا عَمِدُوا لِمَأْثَرَةٍ أَعْدُوا
وَلَيْسَ الْخُلْدُ مَرْتَبَةً تُلَقَّى
وَلَكِنْ مُنْتَهَى هِمَمٍ كَبَارٍ
وَسُرَّ الْعَبْقَرِيَّةُ حِينَ يَسْرِي
وَأَثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ
وَأَخَذَكَ مِنْ فَمِ الدُّنْيَا ثَنَاءً
فَغَالِي فِي بَنِيكَ الصَّيْدِ غَالِي
شَبَابٌ قَنَّعٌ لَا خَيْرَ فِيهِمْ
فَنَاجِيهِمْ بَعْرِشٌ كَانَ صِنُوءًا
وَكَانَ الْعَزُّ جَلِيَّتَهُ وَكَانَتْ
وَتَاجٌ مِنْ فَرَائِدِهِ «ابْنُ سَيْتِي»
وَرَاءَ الْآبِدَاتِ مُخَلَّدِينَا
لَهَا الْإِتْقَانُ وَالْخَلْقُ الْمَتِينَا
وَتُؤَخَّذُ مِنْ شِفَاهِ الْجَاهِلِينَا
إِذَا زَهَبَتْ مَصَادِرُهَا بَقِينَا
فَيَنْتَظِمُ الصَّنَائِعُ وَالْفَنُونَا
إِلَى التَّارِيخِ خَيْرُ الْحَاكِمِينَا
وَتَرْكُكَ فِي مَسَامِعِهَا طَنِينَا^{١٤}
فَقَدْ حُبَّ الْغُلُوِّ إِلَى بَنِينَا^{١٥}
وَبُورِكَ فِي الشَّبَابِ الطَّامِحِينَا^{١٦}
لِعَرْشِكَ فِي سَبِيبَتِهِ سَنِينَا^{١٧}
قَوَائِمُ الْكَتَائِبِ وَالسَّفِينَا^{١٨}
وَمِنْ خَرَزَاتِهِ «خَوْفُو» وَ«مِينَا»^{١٩}

الدهر عليها فلم ينل منهما مرُّ الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب، قال أحد الحكماء: «كل شيء يُخشى عليه الدهر إلا الأهرام، فإن الدهر يُخشى عليه منها».

^{١٤} الطنين: صوت الذباب والطست والناقوس ونحو ذلك.

^{١٥} الصيد: جمع أصيد، وهو الرجل يرفع رأسه كبراً وعجباً، ولا يلتفت من زهوه يميناً وشمالاً.

^{١٦} شَبَابٌ قَنَّعٌ: أي قانعون لا يطلبون شيئاً وراء ما بلغوا. والطامحون: المتفانون في طلب المعالي.

^{١٧} الصنوء: الأخ الشقيق والابن. والسنين (بفتح السين): مَنْ يكون في سنك.

^{١٨} الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجيش.

^{١٩} ابن سיתי: هو رمسيس الثاني المعروف بسوزستريس، ويُلقَّب بالأكبر؛ لأنه كان أعظم ملوك مصر سُلطةً وقوةً، وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار المصرية وتزايدت العمارات، حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا وعليه اسمه ورسمه، وولي الملك صغيراً في حياة والده، وقد تربى على الشجاعة والحماسة، وأراد أبوه أن يعلمه اقتحام الأهوال، فأرسله في جيش إلى بلاد الشام، وكان عمره عشر سنين، فغزاها حتى أدخلها تحت الطاعة، وله حروبٌ عظيمة، ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشمالية، وكان في أيامه بنتاءُور الشاعر المصري، وله فيه عدَّة مدائح يصف بها شجاعته وإقدامه. «خوفو» و«مينا»: من الملوك الفرعنة الذين بلغت مصر في عهدهم شوطاً بعيداً في المدنية، ومن آثارهما الخالدة الأهرامات.

علا خدًا به صَعَرُ وَأَنفًا تَرَفَّعَ فِي الْحَوَادِثِ أَنْ يَدِينَا^{٢٠}
ولستُ بِقَائِلٍ ظَلَمُوا وَجَارُوا عَلَى الْأَجْرَاءِ أَوْ جَلَدُوا الْقَطِينَا^{٢١}
فإنَّا لَمْ نُوقِ النِّقْصَ حَتَّى نُطَالِبَ بِالْكَمَالِ الْأُولِينَا^{٢٢}
وما «البستيل» إِلَّا بِنْتُ أَمْسٍ وَكَمْ أَكَلَ الْحَدِيدُ بِهَا صَحِينَا^{٢٣}
وَرُبَّ بَيْعَةٍ عَزَّتْ وَطَالَتْ بِنَاهَا النَّاسُ أَمْسٍ مُسَخَّرِينَا^{٢٤}
مُشِيدَةً لَشَافِي الْعُمَى «عيسى» وَكَمْ سَمَلَ الْقَسُوسُ بِهَا عَيُونَا^{٢٥}

* * *

«أخا اللوردات» مِثْلُكَ مَنْ تَحَلَّى بِحِلْيَةِ آلِهِ الْمُتَطَوِّلِينَا^{٢٦}
لَكَ الْأَصْلَ الَّذِي نَبَتَتْ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ الْمَجْدِ مِنْ «كَرْنَارْفُونَا»^{٢٧}

٢٠ علا خدًا: أي ذلك التاج. والصعر: أن يميل الرجل بخدّه عن النظر إلى الناس تهاونًا وكبرًا.
٢١ القطين: الخدم. أي إنه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون أن الملوك الفراعنة كانوا يظلمون
الأجراء، ويجلدون الخدم ليسخّروهم في إنشاء تلك الأبنية.
٢٢ لم نوقِ النقص: أي لم نحفظ منه.

٢٣ البستيل: سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩م، وفي هذا
السجن ذاق رجال العلم والفضل في فرنسا أشد أنواع العذاب أيام الاستبداد، فكم هلك فيه فيلسوف
عظيم، وفني بين جدران المظلمة مُصلِح كبير، وكم من سياسي جنى عليه عمله لخير بلاده فدخله حيًّا
وفارقه ميتًا. وقد ذكر الفرنسيون «البستيل» واسم «البستيل»، وعدّوه مُستَقَرَّ الظلم، ومعهد العسف
والقسوة، فلم يكادوا يثورون على حكومتهم حتى كان أول غرضهم «البستيل»، فهدموا واقتلعوا أصوله،
وأخذت فتات أحجاره فجعلها النسوة عقودًا يتحلّين بها في أمكنة اللالك؛ إشارةً لغلبة الأمة على الظلم
وانتقامها من الظالمين، وكان أخذه في ١٤ يوليو سنة ١٧٨٩م، وقد أُقيمَ اليوم مكان هذا البناء تمثال
الحرية، ولا يزال الفرنسيون يحتفلون بذكره إلى الآن.

٢٤ البيعة (بكسر الباء): معبد النصرى. ومسخرين: أي كُفّفوا عملهم بلا أجرة.

٢٥ سمل العين: فقأها بحديدة محمّاة وقلعها.

٢٦ المخاطب اللورد كرنارفون الذي اهتدى إلى الكنوز، وكانت وفاته بالقاهرة في سحر ليلة الخميس
٥ أبريل سنة ١٩٢٣م بفندق الكونتنتال، وكانت قد عضّته بعوضة، فطُبِّب خمسة عشر يومًا حتى أخذت
تزول أعراض التسمم الذي أصابه من هذه العضة، ولكنه لم يقوَ على احتمال ذات الرئة التي أُصيبَ بها
فأودت به. المتطولين: أصحاب الغنى والسعة.

٢٧ لك الأصل ... إلخ: وذلك أنه من بيوتات إنجلترا القديمة في المجد.

وما لك لا يُعَدُّ وكلُّ مالٍ سيَفنى أو سيَفنى المالِكينا^{٢٨}
 وجدتَ مذاقَ كلِّ تليدٍ مَجِدٍ فكيف وجدتَ مَجَدَ الكاسبينا^{٢٩}
 نشرتَ صفائِحًا فجزَّتكَ مصرٌ صحائفٌ سوِّدٍ لا ينطوينا^{٣٠}
 فإن تَكُ قد فتحتَ لها كنوزًا فقد فتحتَ لك الفتحَ المُبينا^{٣١}
 فلو «قارون» فوقَ الأرضِ إلا تمنى لو رُضيتَ به قرينا^{٣٢}
 سبيلُ الخلدِ كان عليك سهلًا وعادته يكُدُّ السالكينا^{٣٣}
 رأيتَ تنكُرًا وسمعتَ عتبًا فعذرًا للغضابِ المُحنِّقينا^{٣٤}
 أبوتنا وأعظمُهم تُراثٌ نُحاذرُ أن يئولَ لآخرينا^{٣٥}
 ونأبى أن يحلَّ عليه ضيمٌ ويذهبَ نُهبةً للناهبينا^{٣٦}
 سكتَ فحامَ حولك كلُّ ظنٍّ ولو صرَّحتَ لم تُثِرِ الظُّنونا^{٣٧}
 يقول الناسُ في سرٍّ وجهٍ وما لك حيلةٌ في المُرجفينا^{٣٨}

^{٢٨} وما لك لا يُعَدُّ ... إلخ: فهو يملك في بلاد الإنجليز ألف فدان.

^{٢٩} وجدتَ مذاق ... إلخ: إشارة إلى استمراره في أعمال الحفر والتنقيب في وادي الملوك؛ فقد بدأها منذ ست عشرة سنة، ولم يزل حتى اهتدى إلى أعظم أثر بين الآثار التي عثر عليها العلماء منذ قرن من الزمن، وقد ضمن له هذا العمل الجليل خلود اسمه، ورفعته ذكره، وكان اهتداؤه إلى هذا الكنز الثمين في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٢م، وفي مدافن ملوك طيبة تحت مدفن رمسيس السادس. والصفائح: حجارة القبور.

^{٣٠} الصفائح: حجارة القبور.

^{٣١} إشارة إلى ما حواه هذا الكنز العظيم من التحف الثمينة النادرة المثال، واللآلئ الغالية القليلة الوجود.

^{٣٢} قارون: رجل كان صاحب كنوز عظيمة، يُضرب به المثل في الغنى.

^{٣٣} التنكُر: تغْيُر الرجل عن حالٍ تسره إلى حالٍ يكرهها، وفي الأساس تنكُر لي فلان لقيني لقاءً بشعًا. والمحققون: الذين ملأهم الغيظ.

^{٣٤} أبوتنا: أي أبائنا. والتُّراث: الميراث، وفيه إشارة إلى ما قيل يومئذٍ ونشرته الصحف، من أن اللورد كرنافون أخذ خفيةً أعلى ما في الكنز من تحف، بينها تاج الملكة وعقدها.

^{٣٥} الضيم: الظلم. أي نأبى أن يُظلم ذلك التُّراث بذهابه نهبًا كما روت الأنباء البرقية في ذلك الحين.

^{٣٦} سكتَ فحام حولك ... إلخ: أي إن الذي قيل وشاع لاقى منك سكوتًا عن نفيه، فلحقك الشبهات بسبب سكوتك.

^{٣٧} المرجفون: مَنْ يخوضون في الأخبار السيئة.

أَمَنْ سَرَقَ الْخَلِيفَةَ وَهُوَ حَيٌّ يَعِفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مُكَفَّنِينَ^{٣٨}

* * *

خَلِيلِيْ اهْبِطَا الْوَادِي وَمِيْلَا إِلَى غُرَفِ الشَّمُوسِ الْغَارِبِيْنَ^{٣٩}
وَسِيْرَا فِي مَحَاجِرِهِمْ رَوِيْدًا وَطُوفَا بِالْمَضَاجِعِ خَاشِعِيْنَ^{٤٠}
وَحْصًا بِالْعِمَارِ وَبِالتَّحَايَا رُفَاتِ الْمَجْدِ مِنْ «تَوْتَنَخْمِيْنَا»^{٤١}
وَقَبْرًا كَادَ مِنْ حُسْنِ وَطِيْبٍ يُضِيءُ حَجَارَةً وَيَضُوْعُ طِيْنَا^{٤٢}
يُخَالُ لِرَوْعَةِ التَّارِيْخِ قُدَّتْ جَنَادِلُهُ الْعُلَا مِنْ «طَوْرِ سِيْنَا»^{٤٣}
وَكَانَ نَزِيْلُهُ بِالْمَلِكِ يُدْعَى فَصَارَ يُلَقَّبُ الْكَنْزَ الثَّمِيْنَا^{٤٤}
وَقُومَا هَاتِفَيْنِ بِهِ وَلَكِنْ كَمَا كَانَ الْأَوَائِلُ يَهْتَفُونَا^{٤٥}

^{٣٨} أَمَنْ سَرَقَ الْخَلِيفَةَ ... إلخ: هذا ما يقوله الناس؛ وذلك أن إنجلترا هي التي نقلت الخليفة وحيد الدين من قصره في الآستانة، وألجأته إلى المدرعة البريطانية «مالايا» هرباً من الكماليين، فذهبت به إلى مالطة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٢١م، فإذا كانت هذه الدولة تفعل ذلك بالملوك الأحياء، فلا يبعد على رجالها أن يفعلوه بالملوك الأموات، وبما في قبورهم من جواهر ودرر. وقد ذكرت الأنباء في إثبات ذلك أن اللورد كرنارفون أهدى إلى ابنة ملك الإنجليز عقداً مصرياً قديماً له قيمة عظيمة، وأنها لما علمت بوفاته وأن بعوضة من القبر عضته، نزعته من عنقها ذلك العقد خوفاً من انتقام توت عنخ آمون الذي نُسبت إليه يومئذ وفاة اللورد.

^{٣٩} يريد بالشموس الغارين: ملوك الفراعنة. وغرفهم: مدافنهم.
^{٤٠} المحاجر: ما يحمية الملوك حول منازلهم، ومنها محاجر أقيال اليمن، وهي أحماؤهم؛ أي ما كان يحمية كل واحد منهم.

^{٤١} العمار: التحية، وهو أيضاً الريحان يُزَيَّن به مجلس الشراب، واستعماله هنا على الإطلاق؛ إذ لا يليق أن يكون مقيداً بتزيين هذا المجلس. التحايا: جمع تحية. والرُفات: كل ما تكسر وبلي.
^{٤٢} يَضُوع: يتحرك وينتشر. أي كادت حجارته تضيء حسناً، وكادت تنتشر رائحته الطيبة الزكية.
^{٤٣} الروعة: المسحة من الجمال. والجنادل: جمع جندل، وهو الحجارة. وطور سينا: هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى.

^{٤٤} النزيل: الضيف.

^{٤٥} هاتفين به: أي بالملك الذي هو نزيل القبر. وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له أيام حياته.

فثُمَّ جَلَالَةٌ قَرَّتْ وَرَامَتْ على مَرِّ القُرُونِ الأربَعِينَا^{٤٦}
 جَلالُ المُلِكِ أيامٌ وتمضي ولا يمضي جلالُ الخالدينَا^{٤٧}
 وَقُولاً لِلنَزِيلِ قُدُومَ سَعْدٍ وحياً اللهُ مَقْدِمَكَ اليمينَا^{٤٨}
 سَلامٌ يَوْمَ وارْتِكَ المَنايا بِواديها وَيَوْمَ ظَهَرْتَ فينا^{٤٩}
 خَرَجْتَ مِنَ القُبُورِ خُروجَ عيسى عليك جَلالَةٌ في العالَمِينَا^{٥٠}
 يَجُوبُ البَرَقُ بِاسْمِكَ كُلِّ سَهْلٍ ويخترقُ البُخارُ به الحُزونا^{٥١}
 وَأَقْسِمُ كُنْتُ فِي «لُوزان» شُغْلاً وَكُنْتُ عَجِيبَةً المُتَفَاوِضِينَا^{٥٢}
 أَتَعَلَّمُ أَنَّهُمْ صَلَفُوا وَتَاهُوا وَصَدُّوا البابَ عَنَّا مُوصِدِينَا^{٥٣}
 وَلَوْ كُنَّا نَجِرُ هُناكَ سَيْفًا وَجَدْنَا عِنْدَهُمْ عَطْفًا وَلِينَا^{٥٤}
 سَيَقْضِي «كَرزن» بِالْأَمْرِ عَنَّا وَحاجاتُ «الْكَنانَةِ» ما قُضِينَا^{٥٥}

* * *

^{٤٦} فثُمَّ: فهناك. والجَلالَةُ: عِظَمُ القَدْرِ. ورامت: أقامت. والقُرُونِ الأربَعُونِ: هي التي مضت منذ عهد توت عنخ آمون.

^{٤٧} أي إن الجلال الصحيح ما خُلِدَ به صاحبه في التاريخ، أما جلال الملك فلا بقاء له.

^{٤٨} اليمين: المَبَارَك، وهو من اليَمَنِ.

^{٤٩} وارْتِكَ: أخفّتك.

^{٥٠} خروج عيسى: أي كما خرج عيسى من القبر على رأي النصارى. وصاحب الديوان لا يعتقد ذلك، وإنما ينظر فيه إلى رأيهم.

^{٥١} يجوب: يقطع. والبرق: اسمٌ منقول من معناه الأصلي للتلفراف. والبخار: اسمٌ منقول كذلك للوابور، أو هو من باب تسمية الشيء باسم المؤثر فيه. والحزون: جمع حَزَن، وهو ما غلَظ من الأرض.

^{٥٢} لوزان: إحدى مدن سويسرا، وقد عُرِفَتْ بمؤتمر الدول الذي اجتمع بها للنظر فيما بينهن من الخلاف، ولتقرير الصلح بين التُّرك واليونان، وقد وافق اجتماع المؤتمر ظهورَ قبر الملك توت عنخ آمون ومعرفة ما فيه.

^{٥٣} صلفوا: تمَحَّحوا بما ليس فيهم، وأدعوا فوق ذلك إعجابًا وتكبرًا. وَصَدُّوا البابَ عَنَّا: منعهوا عَنَّا؛ أي لم يفتحوه لنا. وموصدين: من أوصد الباب، أطبقه وأغلقه.

^{٥٤} أي لو كانت لنا قوة من السلاح لَعَامَلُونَا باللين والمودة؛ لأنهم يُدارون الأقوياء ويُمالئونهم.

^{٥٥} كرزن: وزيرٌ إنجليزيٌّ مشهور، كان هو مندوب إنجلترا في مؤتمر لوزان. والْكَنانَةُ: هي مصر.

تعالَ اليومَ خَبَرْنَا أَكَانَتْ
وماذا جُبَّتْ من ظلماتٍ ليلٍ
وهل تبقى النفوسُ إذا أقامت
وما تلك القبابُ وأين كانت
مُمرِّدَةُ البِنَاءِ، تُخَالُ برَجًّا
تَغطِّي بالأثاثِ فكان قصرًا
حملت العرشَ فيه فهل تُرجِّي
وهل تلقى المهيمَنَ فوقَ عرشٍ
وما بالُ الطعامِ يكاد يَقْدَى
ولم تُكْ أَمْسِ تصبرُ عنه يومًا
لقد كان الذي حَذَرَ الأوَّلي
يحبُّ المرءُ نبشَ أخيه حيًّا
نواكَ سِنَاتِ نومٍ أم سَنِينَا^{٥٦}
بَعِيدِ الصبحِ يُنْضِي المَدْلَجِينَا^{٥٧}
هياكلُها وتبلى إن بَلِينَا
وكيف أضلَّ حافرُها القرونا^{٥٨}
ببطنِ الأرضِ محطوطًا دفينَا^{٥٩}
وبالصُّورِ العِتاقِ فكان زونا^{٦٠}
وتأملُ دولةً في الغابرينَا^{٦١}
ويلقاه المَلا مُترجِّلِينَا^{٦٢}
كما تركته أيدي الصانعِينَا^{٦٣}
فكيف صبرتَ أحقابًا مئِينَا^{٦٤}
وخافَ بنو زمانك أن يكونَا^{٦٥}
وينبشه ولو في الهالكِينَا

^{٥٦} تعالَ اليوم ... إلخ: الخطاب لتوت عنخ آمون. ونواك: بُعدك. والسَّنات: جمع سِنَة، بكسر السين، وهي النعاس.

^{٥٧} يُنْضِي: يَهْزِل. والمدلجون: الذين يسرون من أول الليل.

^{٥٨} وما تلك القباب ... إلخ: أي وخبرنا ما تلك القباب، جمع قبة، وهي ما ظهر من أبنية المقبرة الفخمة. والقرون: جمع قرن، وهو مائة عام.

^{٥٩} ممرِّدَةُ البناء: مملَّستَه.

^{٦٠} تَغطِّي: أي هذا البناء تَغطِّي ... إلخ. والأثاث: متاع البيت. والصور: جمع صورة، يريد بها الرسوم التي تُحاكي صور الأشياء. والعِتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو النجيب من الخيل، والجارج من الطير. والزون: الموضع تُجمَع فيه الأصنام.

^{٦١} في الغابرين: في الباقين، وفي القرآن الكريم ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، ويكون أيضًا بمعنى الماضي؛ فهو من الكلمات التي تُستعمل للأضداد.

^{٦٢} المهيمن: من أسماء الله تعالى. والمترجلون: الذين ينزلون عن ركائهم ويمشون على أرجلهم.

^{٦٣} ما بال الطعام: ما حاله. ويقْدَى: من قدى الطعام؛ أي طاب طعمه ورائحته.

^{٦٤} الأحقاب: جمع حَقْب، بضم الحاء، وهو الدهر. والمئين: جمع مائة.

^{٦٥} لقد كان: أي لقد حصل الذي حذر الأوَّلي. والأوَّلي: جمع أول. والمعنى: أن ما كنتم تخافونه وتحذرون وقوعه من نبش قبوركم، قد حصل ولم تمنعه مبالغتكم في الوقاية منه.

سُلِلْتَ مِنَ الحَفَائِرِ قَبْلَ يَوْمِ يَسْلُ مِنْ التَّرَابِ الهَامِدِينَا^{٦٦}
فَإِنْ تَكُ عِنْدَ بَعْثٍ فِيهِ شَكٌّ فَإِنَّ وَرَاءَهُ الْبَعْثَ الْيَقِينَا^{٦٧}
وَلَوْ لَمْ يَعْصُمُوكَ لَكَانَ خَيْرًا كَفَى بِالْمَوْتِ مُعْتَصِمًا حَصِينَا^{٦٨}
يُضَرُّ أَخُو الْحَيَاةِ وَلَيْسَ شَيْءٌ بِضَائِرِهِ إِذَا صَحِبَ الْمَنُونَا^{٦٩}

* * *

زَمَانُ الْفَرْدِ يَا «فِرْعَوْنَ» وَلَّى وَدَالَتْ دَوْلَةُ الْمُتَجَبِّرِينَ^{٧٠}
وَأَصْبَحَتْ الرِّعَاةُ بِكُلِّ أَرْضٍ عَلَى حُكْمِ الرِّعِيَّةِ نَازِلِينَ

^{٦٦} سُلِلْتَ: أُخْرِجْتَ مِنْهَا بِرَفْقٍ. الحَفَائِرُ: جمع حفيرة. واليوم الذي يسلم الهامدين من التراب: هو يوم القيامة.

^{٦٧} فَإِنْ تَكُ عِنْدَ بَعْثٍ ... إلخ: أي فَإِنْ تَكُنِ الْآنَ تَشْكُ فِي هَذَا الْبَعْثِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ مِنْ قَبْرِكَ، فَلَا مُحَالَةَ سِيَأْتِي الْبَعْثَ الَّذِي لَا تَشْكُ فِيهِ، وَهُوَ بَعْثُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

^{٦٨} يَعْصُمُوكَ: يَمْنَعُوكَ مِنَ الْمَكْرُوهِ. أي لو أَنَّهُمْ تَرَكُوكَ فَلَمْ يَتَّخِذُوا لَكَ هَذِهِ الْعَصْمَةَ لَمَا أَصَابَكَ مَكْرُوهُ؛ لِأَنَّ الْمَوْتَ يَمْنَعُ الْأَذَى أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، وَجَلَاءَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْبَيْتِ الثَّانِي.

^{٦٩} يُضَرُّ: يَضُمُّ الْبَاءَ وَفَتْحَ الضَّادِ.

^{٧٠} زَمَانُ الْفَرْدِ: أي زَمَانُ حُكْمِ الْفَرْدِ. وَدَالَتْ: انْقَلَبَتْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. وَالْمُتَجَبِّرُونَ: الْمُتَكَبِّرُونَ.

تحية المؤتمر الجغرافي

هل تهبطُ النِّيرَاتُ الأرضَ أحيانًا
نزلنَ أولَ دارٍ في الثرى رَفَعَت
تفنَّنتَ قبلَ خلقِ الفنِ وانفجرتَ
أبوةً لو سَكَّتْنَا عن مَفاخرِهِم
هم قَلَّبُوا كُرَّةَ الدنيا فما وَجَدَت
وصيَّروا الدهرَ هُزَاءً يسخرون به
وهل تَصَوَّرُ أَفرادًا وأعيانًا^١
لِلشمسِ مُلْكًا ولِلأقمارِ سُلطانًا^٢
علمًا على العُصْرِ الخالي وعِرفانًا^٣
تواضعًا نطَقْتَ صخرًا وصَوَّانًا^٤
أقوى على صَوْلجانِ المُلِكِ أيمانًا^٥
حتى يَنالَ لهم بالهدمِ بُنيانًا^٦

^١ النِّيرَات: الكواكب، واحدها نِيرٌ، بالياء المشددة. وتتصوَّر: تتصور. والأعيان: جمع عين، وهو شريف القوم. يقول: إن هؤلاء العلماء الذين أقبلوا من البلاد الأخرى ليحضروا المؤتمر في مصر هم الكواكب المنيرة، ولكنهم مع ذلك أفراد من الناس، وأعيانٌ شرفاء في أقوامهم، فهل الكواكب تهبط الأرض وتكون كذلك؟

^٢ نزلن: أي هذه النيرات. وأول دار ... إلخ: هي مصر، وذلك كناية عن أنها سبقت العالم إلى العلم والمدنية، حتى رسخت قدمها فيها.

^٣ تفننت: تنوعت فنونها، أو أخذت في فنون كثيرة. والعُصْر (بضمّتين): الدهر. والخالي: الماضي.

^٤ أبوة: جمع أب؛ أي لنا أبوة أو أولئك أبوة. والمفاخر: جمع مفخرة، بفتح الخاء وضمها، وهي المأثرة أو ما يُفتخر به. والصَوَّان: نوع من الحجارة.

^٥ الصولجان: عصا منعطفة الرأس، والأيمان: جمع يمين، وهي اليد. أي ما وجد أيمانًا أقوى على صولجان الملك من أيمانهم.

^٦ حتى ينال لهم بالهدم بنيانًا: أي وهو لا ينال ذلك، فهم يسخرون به أبدًا.

لم يَسْلُكِ الأرضَ قومٌ قبلهم سُبُلًا
تقدّمَ النَّاسَ منهم مُحْسِنُونَ مضَوْا
جَابُوا العُبابَ على عُوْدٍ وساريةِ
أَزمانٍ لا البَرُّ بـ «الوابور» مُنتَهَبًا
هل شَيَعَ النشءُ رَكَبَ العلمِ واكتنفوا
وسايرُوا الموكَبَ المرموقَ مُتَشَحًّا
يسيرُ تحتَ لواءِ العلمِ مُؤْتَلِفًا
العلمُ يجمعُ في جنسٍ وفي وطنٍ
ولم يَزِدْكَ كَرَسَمِ الأرضِ معرفةً
علمُ أَبانٍ عن الغبراءِ فانكشفت

ولا الزواخرَ أثباجًا وشُطْآنًا^٧
للموتِ تحتَ لواءِ العلمِ شُجعانًا
وأوغلُوا في الفَلا كالأسدِ وُحْدانًا^٨
ولا «البُخارَ» لبنتِ الماءِ رُبَّانًا^٩
للعبقريّةِ أحمالًا وأظلعانًا^{١٠}
عزَّ الحضارةِ أعلامًا وركبانًا^{١١}
ولن ترى كجنودِ العلمِ إخوانًا
شتَّى القبائلِ أجناسًا وأوطانًا^{١٢}
بالأرضِ دارًا وبالأحياءِ جيرانًا^{١٣}
زَرعًا وضرعًا وإقليمًا وسُكانًا^{١٤}

^٧ لم يسلك الأرض ... إلخ: وذلك أن المصريين القدماء هم أول من طاف الأرض برًا وبحرًا. والسبل: جمع سبل. والزواخر: البحار، مفرداها زاجر. والأثباج: جمع ثبج، وهو معظم البحر. والشطآن: جمع شط، وهو الشاطئ.

^٨ جابوا: طافوا. والعباب: أكثر السيل، والمراد البحر. والعود: الخشب، والمراد به السفينة. والسارية: عمود يُنصب في وسط السفينة ليعلّق القلح به. والفلا: جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة، وقيل المفازة لا ماء فيها. والوحدان: جمع واحد.

^٩ أزمان: أي فعلوا ذلك من أزمان لم يكن بها الوابور ينهب البر، ولا البخار يُجري السفن. والربان: مَنْ يُجري السفينة. وجوب الأرض على هذه الحال يستدعي عزائم قوية، ويؤدي إلى مخاطر عظيمة.

^{١٠} هل شيع النشء ... إلخ: أي هل خرجوا مع ركب العلم يودعونهم. والنشء: جمع ناشئ، وهو الغلام جاوز حدّ الصغر. وركب العلم: هم العلماء الذين جاءوا فحضروا المؤتمر ثم رجعوا إلى بلادهم. واكتنفوا أحمالًا وأظلعانًا: أحاطوا بها. والعبقريّة: أصلها نسبة إلى عبقر، وهو موضع كانت العرب تزعم أنه كثير الجن، وقد جعله المعاصرون اسمًا وأرادوا به التناهي في حذق الشيء وإتقانه. والأحمال: الهواذج، واحدها حمل، بكسر الحاء وفتحها. والأظلعان: الهواذج أيضًا.

^{١١} المرموق: الذي يُنظر إليه طويلاً. ومتشحًا: لابسًا.

^{١٢} شتى القبائل: أي القبائل المتفرقة.

^{١٣} كرسم الأرض: يريد العلم الذي يُعرّف به رسم الأرض، وهو علم الجغرافيا.

^{١٤} أبان عن الغبراء: أوضحها، والغبراء: الأرض.

وقَسَّـمَ الأرضَ أَكْـامًا وأودِيَّةً
وبَيَّنَّ النَّاسَ عَادَاتٍ وَأَمْزَجَةً
وَفَدَّ المَمَالِكِ هَـزَّ النِّيلُ مَنَكِبَهُ
غدا على الثَّغْرِ غَادٍ من مَوَاكِـبِكُمْ
جَرَتْ سَفِينَتُكُمْ فِيهِ فَقَلَّبَهَا
يَلْقَاكُمْ بِسَمَاءِ البَحْرِ ضَاحِيَةً
ولو نزلتم به والدهرُ مُعْتَدِلٌ
إِنْ «الْفَنَارُ» وراءَ البَحْرِ مُؤْتَلِقٌ
أَنَافٌ خَلَفَ سَمَاءِ اللَّيْلِ مُتَقِدًا
تَطْوِي الجَوَارِي إِلَيْهِ الـيَمَّ مُقْبِلَةً
نورَ الحضارة لا تبغي الرِّكَابُ له

وفصَّلَ البَحْرَ أَصْدَافًا ومرجَانًا^{١٥}
ومَيَّرَ النَّاسَ أَجْنَاسًا وأديانًا
لَمَّا نزلتم على واديه ضِيفَانًا^{١٦}
فَرَاخَ مُبْتَسِمِ الأَرْجَاءِ جَذْلَانًا^{١٧}
على الكرامة قِيدومًا وسُكَّانًا^{١٨}
وتارَةً بفضاءِ البَرِّ مُزْدَانًا^{١٩}
نزلتم بِعُروِسِ المُلْكِ عُمرَانًا^{٢٠}
كَأَنَّهُ فَلَـقٌ من خِدره بَانَا^{٢١}
يُخَالُ فِي شُرَفَاتِ الجَوِّ «كَيَوَانًا»^{٢٢}
تجري بوارِجُ أو تنساب خُلْجَانًا^{٢٣}
لا بالنهار ولا بالليل بُرْهَانًا

^{١٥} الأكام: التلال، وقيل ما اجتمع من الحجارة في مكان واحد. والأودية: جمع وادٍ، وهو المنفَرَج بين جبلَيْن أو تَلَيْن. والأصداق: جمع صدف، وهو غشاء الدُر. والمرجان: عروقُ حُمُرٍ تطلع من البحر.

^{١٦} المنكب: هو من الحيوان مجتمع رأس الكتف والعضد، ومن غير الحيوان ناحية كل شيء وجانبه، والمراد المعنى الأول، كناية عن نهوضه لإكرامهم.

^{١٧} غدا: أقبل. والثَّغر: هو ثغر الإسكندرية. والمواكب: جمع موكب، وهو الجماعة ركبَانًا أو مشاة. والأرجاء: النواحي. والجذلان: الفرخان.

^{١٨} الكرامة: العزازة. والقيدوم: الصدر. والسكان (بالضم): ذنَب السفينة.

^{١٩} ضاحية: بارزة منكشفة؛ وهو كناية عن صفائها.

^{٢٠} ولو نزلتم به: أي بالثغر. ومعتدل: مستقيم؛ أي ليس منحرفًا ولا معوجًا عن إنصافنا.

^{٢١} إِنْ الفَنَارُ: أي إِنْ يكون الفَنَار ... إلخ. والفنار: هو منارة السفن، تُقَامُ عالية في الميناء ليهتدي الرابطة في الليل بنورها. ومؤتلق: لامع. والفلق: الصبح أو ما انفلق من عموده. والخدر: السَّتر، وقيل هو كل ما وارك من بيت ونحوه.

^{٢٢} أَنَافٌ: طال وارتفع. وشرفات: واحدتها شرفة، وهي ما أشرف من بناء القصر. وكَيَوَان: اسمٌ فارسي لكوكب زحل.

^{٢٣} الجواري: السفن، جمع جارية. واليَمُّ: البحر. والبوارج: جمع بارجة، وهي سفينة كبيرة للقتال. وتنساب: تجري وتتدافع. والخُلْجان: جمع خليج، وهو شرم من البحر.

يا موكب العلم قف في أرض منف به
بكى تائمته طفلاً بها وبكى
أرض ترعرع لم يصحب بساحتها
عيسى ابن مريم فيها جر بردته
لولا الحياء لناجتكم بحاجتها
إذا تفرقتم في الغرب السنة
يُناج مهذا ويذكر للصبا شانا^{٢٤}
ملاعباً من ربا الوادي وأحضاننا^{٢٥}
إلا نبيين قد طابوا وكهانا
وجر فيها العصا موسى بن عمران
لعل منكم على الأيام أعوانا
لينتم كل قلب لم يكن لانا

^{٢٤} أرض منف: هي الأرض المصرية، ومنف: مدينة مصرية قديمة، بناها الملك «مينا» مؤسس الأسرة الأولى الفرعونية وجعلها مقر ملكه، وبقيت مقراً للملك حتى زالت الأسرة الثامنة. وينا: من ناجاه؛ ساره. والمهد: الموضع يهيا للصبي ويوطأ. يقول: قف بالعلم في الأرض التي نشأ فيها؛ لينا: لينا في مهده الأول، ويذكر عهد صباه.

^{٢٥} بكى: أي العلم. وتائمه: جمع تميم، وهي العوذة التي تعلق للأطفال مخافة العين. والملاعب: جمع ملعب، وهو مكان اللعب. والربا: جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض.

الصليب الأحمر

سِرْ يا «صليب» الرَّفَقِ في سَاحِ الوغَى
وادخل على الموتِ الصفوفَ مُواسِيًا
والمِسْ جِراحاتِ البرِّيَّةِ شافيًا
وَإِذَا الوطيسُ رمى الشبابَ بنارِهِ
واجعل وسيلتكِ المسيحَ وأُمَّهُ
الله جاركِ في عَوانٍ لم تَهَبْ
وسلِّمتَ يا «حرمَ المعاركِ» من يدِ
وانشر عليها رحمةً وحناناً^١
وَأَعِنْ على آلامه الإنسانَا
ما كنتَ إلا للمسيحِ بناناً^٢
خُضْ كـ «الخليل» إليهمُ النيرانَا^٣
واضرعِ وسلِّ في خلقه الرحمانَا^٤
للهِ لا بِيَعًا ولا صُلبانَا^٥
هدمتَ لِسَلَمِ العالمينِ كيانَا^٦

* * *

يا أهلَ مصرَ رمى القضاءُ بلطفِهِ
وأرادَ أمرًا بالبلادِ فكانَا

^١ السّاح: جمع ساحة. والوغى: الحرب.

^٢ الجراحات: جمع جراحة. والبنان: أطراف الأصابع، مفردُها بنانة.

^٣ الوطيس: شدة الحرب. والخليل: هو إبراهيم عليه السلام، وقصة إلقائه في النار مشهورة.

^٤ الوسيلة: ما يُتَقَرَّبُ به إلى الغير. واضرع: من ضرع إليه، خضع وذلَّ. والرحمن: اسم من أسماء الله تعالى.

^٥ العوان: الحرب التي قُوِّلتَ فيها مرة بعد أخرى. والبِيع (بكسر الباء): جمع بَيْعة، بكسرها أيضًا، وهي مُتَعَبَّدُ النَّصارَى.

^٦ السّلم: ضدُّ الحرب. وكيان الشيء: وجوده أو طبيعته.

إن الذي أُمِرُ الممالكِ كلُّها
أبقى عليها عرشها في برهة^٧
وكسا البلادَ سكينَةً من أهلها
أوما ترون الأرضَ خُرْبَ نصفها
يرعى كرامتها ويمنع حوضها
كجنودِ «عمرو» أينما ركزوا القنا
إن الشجاع هو الجبانُ عن الأذى
بيديه أحدث في «الكنانة» شانا
ترمي العروشَ وتنتثرُ التيجانا^٨
ووقى من الفتَنِ العبادَ وصانا
وديارُ مصرٍ لا تزال جنانا^٩
جيشُ يعافُ البغي والعُدوانا^٩
عَفُوا يَدًا ومُهَنَّدًا وسنانا^{١٠}
وأرى الجريءَ على الشرورِ جبانا

* * *

أُمَمَ الحضارةِ أنتم أبأونا
رَقَّتْ لكم منَّا القلوبُ كأنما
ومن المروءةِ وهي حائطُ ديننا
ولئن غزاكم من ذوينا معشرٌ
حتى إذا الشحناءُ نامت بينهم
منكم أخذنا العلمَ والعرفانا
جرحاكم يومَ الوغى جرجانا
أن نذكُرَ الإصلاحَ والإحسانا^{١١}
فلربَّ إخوان غزوا إخوانا
لم يعرفوا الأحقادَ والأضغانا^{١٢}

^٧ البرهة: قطعة من الزمن طويلة. وتنتثر التيجان: ترميها متفرقة.

^٨ الجنان: جمع جنة.

^٩ يعاف: يكره.

^{١٠} كجنود عمرو: هو عمرو بن العاص فاتح مصر واليها من قبل الخليفة عمر بن الخطاب. وركزوا القنا: غزوها في الأرض. والقنا: الرماح، جمع قنّاء. عَفُوا: تركوا الشهوات. والمُهَنَّد: السيف. والسنان: نصل الرمح.

^{١١} الحائط: الجدار؛ أي وهي من ديننا كالحائط من الدار.

^{١٢} الشحناء: عداوة امتلأت منها النفوس. والأضغان: الأحقاد.

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ^١

بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحَمْدِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
لَقِينَا فِي عَدُوِّكَ مَا لَقِينَا لَقِينَا الْفَتْحَ وَالنَّصَرَ الْمُبِينَا

* * *

هُمْ شَهَرُوا أُنًى وَشَهَرَتْ حَرْبًا فَكَنْتُ أَجَلً إِقْدَامًا وَضَرْبًا
أَخَذَتْ حُدُودَهُمْ شَرْقًا وَغَرْبًا وَطَهَّرَتْ الْمَوَاقِعَ وَالْحَصُونَا

* * *

وَقَبْلَ الْحَرْبِ حَرْبٌ مِنْكَ كَانَتْ نَتَائِجُهَا لَنَا ظَهَرَتْ وَبَانَتْ
أَلَنْتَ الْحَادِثَاتِ بِهَا فَلَانَتْ وَغَادَرَتِ الْقِيَاصِرَ حَائِرِينَا

* * *

جَمَعْتَ لَنَا الْمَمَالِكَ وَالشُّعُوبَا وَكَانَتْ فِي سِيَاسَتِهَا ضُرُوبَا
فَلَمَّا هَبَّ «جُورْجِيهِمْ» هُبُوبًا تَلَفَّتْ لَا يُصِيبُ لَهُ مُعِينَا^٢

* * *

^١ قِيلَتْ فِي الْحَرْبِ بَيْنَ الْيُونَانِ وَالْأَتْرَاكِ سَنَةَ ١٣١٤ هَجْرِيَّةً، وَقَلَّمَا نَالَتْ قَصِيدَةً فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ بِأَجْمَعِهِ مَا نَالَتْهُ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ أَيَّامَ ظُهُورِهَا مِنْ حِفَاوَةٍ وَانْتِشَارٍ؛ وَذَلِكَ لِمَا وَرَدَ فِيهَا مِنْ وَصْفٍ وَتَهَكُّمٍ صَادِفٍ هَوَى فِي النَفُوسِ.

^٢ جُورْجِي: مَلِكُ الْيُونَانِ يَوْمَئِذٍ.

رأى كيف السبيلُ إلى كريدِ وكيف عواقبُ الطيشِ المزيدِ
وكيف تنامُ يا عبدَ الحميدِ وتغفل عن دماءِ العالمينا

* * *

ولا واللهِ والرُّسلِ الكرامِ وبيتك خير بيت في الأنامِ
لَمَّا كانوا وسيفُك ذو انتقامِ يُعادلُ جَمْعُهُم مَنَّا جنينا

* * *

رأيتَ الجِلْمَ لَمَّا زادَ غَرًّا وجرًّا مَلَكُهُم حتى تجرًّا^٣
فجاءتكَ الدعاوى منه تترى وجاءته جُنودُك مُبطلينا

* * *

بَخِيلٍ في الهضابِ وفي الروابي ونارٍ في القلاعِ وفي الطوابي
وسيفٍ لا يلينُ ولا يُحابي إذا الآجالُ رَجَّتْ منه لينا

* * *

وجيشٍ من غُزاةٍ عن غُزاةٍ هُمُ الأبطالُ في ماضٍ وآتي
ومن كرمٍ أذلُّوا كلَّ عاتي وذُلُّوا في قتالِ المؤمنينِ

* * *

أبعدَ بلائِهِم في كلِّ حربٍ وضربٍ في الممالكِ أيَّ ضربٍ
تُحاولُ صِبيَّةً في زِيِّ شعبٍ وتطمعُ أن تدوسَ لهم عرينا

* * *

جنودٌ للجراحِ الدهرَ مَرَهُمُ يُدبِّرُها البعيدُ الصَّيِّتِ أدهمُ
فأنجدَ في تساليةٍ وأتهمُ وكانت للعِدا حصناً حصيناً

* * *

^٣ تجرًّا: مخفف تجرًّا.

^٤ تسالية: موقعة من مواقع هذه الحرب. وأنجدَ وأتهمُ: نزل نجداً وتهامة، والمراد أنه أتى على كل ما فيها، ما ارتفع منه وما انخفض.

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ

أَرَوْتُرْ لَا تَدَسَّ السَّمَّ دَسًّا ومَهْلًا فِي التَّهْوُسِ يَا «هَوَسًا»^٥
سَلِ الْيُونَانَ هَلْ ثَبَّتَ لـ «رَسًا» وَهَلْ حَفِظَ الطَّرِيقُ إِلَى أَثِينَا^٦

* * *

مَعَاذَ اللَّهِ كَلًّا ثُمَّ كَلًّا هُمُ الْبَحَّارَةُ الْغُرُّ الْأَجِلَّا
وَمَا أَسْطَوُلُهُمْ فِي الْبَحْرِ إِلَّا «شَخَاشُخٌ» مَا يَرْحَنُ وَمَا يَجِينَا^٧

* * *

وَكَمْ بَعَثُوا جِيوشًا مِنْ أَمَانِي أَتَتْ دَارَ السَّعَادَةِ فِي أَمَانٍ
وَمَا سَارَتْ سِوَى يَوْمِي زَمَانٍ فَأَهْلًا بِالْغُزَاةِ الْفَاتِحِينَ

* * *

وَكَمْ بَاتُوا عَلَى هَرْجٍ وَمَرْجٍ وَقَالُوا الْمَالُ مَبْذُولٌ لَجُورِجِي^٨
وَكُلُّ الْمَالِ مِنْ دَخَلٍ وَخَرْجٍ دُيُونٌ لَا تُقَدَّرُهَا دِيُونَا^٩

* * *

وَكَمْ فَتَحُوا الثَّغُورَ بِلَا تَوَانِي وَبِالْأَسْطُولِ جَاءُوا مِنْ مَوَانِي
وَلِلْبَسْفُورِ طَارُوا فِي ثَوَانِي فَأَهْلًا بِالْإِوَزِّ الْعَائِمِينَ^{١٠}

* * *

وَفِي الْأَسْتَانَةِ انْتَصَرُوا انْتِصَارًا وَبِطَرْسَبَرْجٍ دَكُّوْهَا حِصَارًا
فِيَا لِلْمُسْلِمِينَ وَلِلنَّصَارَى وَقِيصَرَ وَالْمُلُوكِ الْآخِرِينَ

* * *

^٥ هوسا: المراد به هافاس، وهي الشركة البرقيّة المعروفة.

^٦ لرسا: موقعة من مواقع هذه الحرب.

^٧ شخاشخ: جمع «شخشيخة»، وهي لعبة معروفة للأطفال.

^٨ الهرج والمرج: الفتنة والاختلاط.

^٩ لا تُقَدَّرُهَا دِيُونَا: أي لضعفها. والمراد في كل هذه الأبيات التهكم باليونان.

^{١٠} وصف الإوز بجمع المذكر قد يُراد به التعظيم أو التحقير.

ويا غليومُ أين لك الفرارُ إذا جورجي وعسكره أغاروا
فضاقت عن سفينهم البحارُ وضاق البرّ عنهم واجفينا

* * *

أمورُ تضحك الصبيانُ منها ولا تدري لها العقلاءُ كُنْها
فسلُ روترُ وسلُ هافاسُ عنها فإنَّ لديهما الخبرَ اليقينا

* * *

ويومَ ملونَ إذ صَحنا وصاحوا نكزنا اللهَ من فرحٍ وناحوا
ودارت بينهم بالراحِ راحُ ودارت راحةُ الإيمانِ فينا^{١١}
على الجبلينِ قد بتنا وباتوا وقتناهم منيتهم وقاتوا
وقد متنا ثباتًا واستماتوا وما البُسلُ كالمُستبسِلينا

* * *

خسفنا بالحصون الأرضَ خسفاً تزيد تأبياً فنزيدُ قذفاً
بنارٍ تنسفُ الأجيالَ نسفاً وتلقفُ نارهم والمُطليقينا

* * *

مدافعُ ما تنوبُ بغيرِ زادِ براكينُ تصوبُ بلا نفاذِ^{١٢}
نصبناها لهم في كلِّ وادي فكنَّ الموتُ أو أهدى عيونا

* * *

جعلنا الأرضَ تحتهمُ دماءً وصيرنا الدُخانَ لهم سماءَ
وإذ راموا من النارِ احتماءَ حمتُ أسيافنا منهم مئينا

* * *

وربُّ مُجاهدٍ شيخٌ مُبجلٌ ترجلتِ الجبالُ وما ترجلُ
أرادَ ليركبَ الموتَ المُحجلُ إلى أجداده المُستشهدينا

^{١١} ملون: موقعة. والراح الأولى: الأكف، والثانية: الخمر.

^{١٢} تصوب: أي يسقط حممها كالطر.

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ

* * *

وَفَى لَجَوَادِهِ وَحَنَّا عَلَيْهِ وَقَدْ شَخَصَتْ بِنَادِقُهُمْ إِلَيْهِ
وَصَابَ رِصَاصُهَا يُدْمِي يَدَيْهِ وَأَوْشَكَتِ السَّوَاعِدُ أَنْ تَخُونَا

* * *

تَعَوَّدَ أَنْ يُصِيبَ وَأَنْ يُصَابَا فَخُوطِبَ فِي النُّزُولِ فَمَا أَجَابَا
وَقَالَ وَقَدْ قَضَى قَوْلًا صَوَابَا هُنَا فَلْيَطْلُبِ الْمَرْءُ الْمَنُونَا

* * *

* * *

وَقَدْ زَادَ الْبَسَالَةَ مِنْ وَقَارِ هَزَبٍ مِنْ لُيُوثِ التُّرْكِ ضَارِي
تَقَدَّمَ نَحْوَ نَارٍ أَيْ نَارِ لَيْسَبَقَ نَحْوَ خَالِقِهِ الْقَرِينَا

* * *

جَرَى فَأَذَلَّ هَاتِيكَ الْأُلُوفَا وَزَحَزَحَ عَنْ مَوَاضِعِهَا الصَّفُوفَا
فَخَاضَ إِلَى مَكَامِنِهَا الْحُتُوفَا وَمَا هَابَ الرُّمَاءَ مُسَدِّدِينَا

* * *

دَعَا لِلَّهِ فِي وَجْهِ الْأَعَادِي كَلَيْثٍ زَائِرٍ فِي بَطْنِ وَادِي
فَلَبَّتَهُ الْفِيَالِقُ وَالْأَرَادِي وَدَارَ هَلَالُ رَايَتِنَا يَمِينَا^{١٣}

* * *

فَلَمَّا أَدْعَنُوا أَنَا الْمَنَايَا وَأَنَا خَيْرُ مَنْ قَادَ السَّرَايَا^{١٤}
تَفَرَّقَ جَمْعُهُمْ إِلَّا بَقَايَا عَلَى قُلُلِ الْجِبَالِ مُجَنَّدَلِينَا

* * *

^{١٣} الأَرَادِي: جمع أَرْدَى، وهو الجيش.

^{١٤} السَّرَايَا: جمع سَرِيَّة، وهي القطعة من الجيش.

الشوقيات

صَلَاةُ اللَّهِ رَبِّي وَالسَّلَامُ عَلَى قَتْلَى بِفَرَسَالُو أَقَامُوا^{١٥}
هُمُ الشَّهَدَاءُ حَوْلَ اللَّهِ حَامُوا فَأَدْنَاهُمْ وَكَانُوا الْفَائِزِينَ

* * *

أَنَالُوا الْمُلْكَ فَتَحًا أَيَّ فَتَحٍ وَشَادُوا لِلْخِلَافَةِ أَيَّ صَرَحٍ
وَجَاءُوا رَبَّهُمْ مِنْهُمْ بِذَبْحٍ تَقَبَّلَهُ وَكَانَ بِهِ ضَنِينَا^{١٦}

* * *

سَلَامًا سَفَحَ فَرَسَالُو سَلَامًا وَكُنْ خَيْرَ الْمُقَامِ لِمَنْ أَقَامَا
وَضَنَّ بِهَا وَإِنْ بَلِيَتْ عِظَامَا تُطِيفُ بِهَا الْمَلَائِكُ حَائِمِينَ

* * *

أَدَّاهُمْ هَكَذَا تُقْنَى الْمَعَالِي وَتُقْنَى بِالْقَوَاضِبِ وَالْعَوَالِي^{١٧}
لَقَدْ بَيَّضَتْ لِلْمَلِكِ اللَّيَالِي بِسَيْفٍ يَفْضَحُ الْفَجَرَ الْمُبِينَا

* * *

أَخَذَتْ النِّصْرَ بِالْجَبَلَيْنِ غَضَبًا وَكَنْتَ اللَّيْثَ تَخْطِئًا وَوَثْبًا
حَمَلَتْ فَمَا جَتِ الْحُمْلَانُ رُعْبًا يَظْنُهُمُ الْجَهْلُ مُقَاتِلِينَ

* * *

وَفِي فَرَسَالٍ قَدْ جِئْتَ الْعُجَابَا بِسَطَتِ الْجَيْشَ تَقْرُؤُهُ كِتَابَا
وَقَدْ أَحْصَيْتَهُ بَابًا فَبَابَا وَكَانُوا عَنْ كِتَابِكَ غَافِلِينَ

* * *

ثَبَّتْ مُؤَمَّلًا مِنْكَ الثَّبَاتُ تُوَافِيكَ الرِّسَائِلُ وَالسُّعَاةُ
وَحَوْلَكَ أَهْلُ شُورَاكَ الثُّقَاتُ تَسُوسُونَ الْجِيُوشَ مُظَفَّرِينَ

^{١٥} فرسالو: موقعة.

^{١٦} الذبح: ما يُذبح.

^{١٧} القواضب: السيوف. والعوالي: الرماح.

تَحِيَّةٌ لِلتُّرْكِ

* * *

هناك الصُّحُفُ سارت حاكياتِ وطُيِّرَتِ البُرُوقُ مُحَدَّثَاتِ
وحدَّثَتِ الممالكُ آخِذَاتِ علومَ الحربِ عنكم والفنونا

* * *

بنِي عِثْمَانَ إِنَّا قَدْ قَدَرْنَا فَتَوَحَّكُمُ الْكِبَارَ وَقَدْ شَكَّرْنَا
سَأَلْنَا اللَّهَ نَصْرًا فَانْتَصَرْنَا بَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَ

الدستور العثماني

بشرى البرية قاصيها ودانيها
لما رآها بلا ركنٍ تداركها
وبالأبيين من قوم أماتهم
حنوا إليها كما حنت لهم زمناً
مشتتين على الغبراء تحسبهم
لا يقرب اليأس في البأساء أنفسهم
حاط الخلافة بالدستور حاميتها^١
بعد «ال خليفة» بالشورى وناديتها^٢
بعد الديار وأحياءهم تدانيتها^٣
وأوشك البين يبلّيه ويبلّيتها^٤
رحالة البدو هاموا في فيافيها^٥
والنفس إن قنطت فاليأس مُردّيتها^٦

* * *

أسدى إلينا «أمير المؤمنين» يدًا
جلّت كما جلّ في الأملاك مُسديها^٧

^١ حاط الخلافة: حفظها وتعهدها. وحاميتها: هو الله تعالى.

^٢ الشورى: التشاور في الأمر، والمراد الرجوع في الحكم إلى رأي الأمة.

^٣ الأبيون: جمع أبي، من الإباء وهو الكبر والنخوة.

^٤ البين: الفُرقة.

^٥ البدو: الصحراء. ورحالة البدو: أي الرحالة من أهل البدو. وهاموا: ذهبوا لا يدرون أين يتوجهون.

والفيافي: جمع فيفاء، وهي المكان المستوي، أو المفاضة لا ماء فيها.

^٦ اليأس: أن يقطع الإنسان أمله من الشيء، وهو القنوط أيضاً.

^٧ أسدى: أحسن. وأمير المؤمنين: هو السلطان عبد الحميد. واليد: النعمة، والمراد الدستور. وجلّت: عظمت. والأملاك: الملوك.

بيضاء ما شابها للأبرياء دمٌ
وليس مُستعظماً فضلٌ ولا كرمٌ
إن الندى والرضا فيه وأسرته
قومٌ على الحب والإخلاص قد ملكوا
إذا الخلائف من بيت الهدى حُمِدَت
خلافه الله في أحضان دولتهم
دروغها تحتمي في النائبات بهم

ولا تكذّر بالآثام صافيتها^٨
من صاحب «السكة الكبرى» ومُنشيتها^٩
والله للخير هاديه وهاديه
وحسبُ نفسك إخلاصٌ يُزكّيها^{١٠}
أعلى الخواقين من عثمان ماضيها^{١١}
شاب الزمان وما شابت نواصيها
من رمح طاعنها أو سهم راميتها

* * *

الرأي رأيي «أمير المؤمنين» إذا
وإنما هي شورى الله جاء بها
حقنت عند مناداة الجيوش بها
ولو منعت أريقّت للعباد دماً
ومن يسس دولة قد سستها زمناً
أتى ثلاثون حولاً لم تذق سنةً

حارت رجالاً وضلت في مرآيتها^{١٢}
كتابهُ الحق يُعليها ويغليها
دم البرية إرضاءً لباريتها^{١٣}
وطاح من مَهج الأجناد غاليها^{١٤}
تهن عليه من الدنيا عواديها^{١٥}
ولا استخفك للذات داعيها

^٨ بيضاء ... إلخ: وذلك أنه لم تكد أمة تستخلص الحكم من الملك المستبد به وتُعيده إلى رأيها، إلا بعد حرب تقع بينه وبينها، ولكن السلطان عبد الحميد لم يكد يعلم أن الجيوش زاحفة لتستخلص الحكم الشوري حتى رضيه وأقرّه، فلم تقع يومئذ حرب ولا أريقّت دماء، وإن كانت قد حدثت بعد ذلك فتنة أريد بها إرجاع الاستبداد، وانتهت بخلع السلطان.

^٩ السكة الكبرى: هي السكة الحديدية الحجازية، وقد أنشأتها الدولة في أيامه.

^{١٠} يزكّيها: يطهرها.

^{١١} الخلائف: جمع خليفة. وبيت الهدى: هو بيت النبوة. والخواقين: جمع خاقان، وهو اسم لكل ملك من التُّرك. وعثمان: هو مؤسس الدولة التركية.

^{١٢} المرآي: الآراء، جمع مرأى.

^{١٣} حقنت دم البرية: منعه أن يسفك. والبرية: الخلق. والباري: الخالق.

^{١٤} أريقّت: من أراق الماء، صبّه. والدّما: جمع دم. وطاح: هلك. والمهج: الأرواح. والأجناد: العسكر، جمع جند.

^{١٥} عواديها: جمع عادية، من عدا عليه؛ ظلمه؛ أي العوادي التي تصيبه منها.

مُسَهَّدَ الجَفَنِ مَكْدودَ الفؤادِ بما يُضِني القلوبَ شجِيَّ النفسِ عانيها^{١٦}
تَكَادُ من صُحْبَةِ الدنيا وَخِبرَتِها تُسيءُ ظَنُّكَ بالدنيا وما فيها

* * *

أما ترى المُلْكَ في عُرسٍ وفي فرح لَمَّا استَعَدَّ لها الأَقْوامُ جِئَتْ بها
كالماءِ عند غَلِيلِ النفسِ صاديها^{١٧} فَضْلٌ لِدَاثِكَ في أَعناقِها وَيَدٌ
عندَ الرعيَّةِ من أَسْنَى أياديها^{١٨} خِلافُهُ اللّهِ جَرَّ الذيلَ حاضِرُها
بما منحتَ وهزَّ العِطْفَ باديها^{١٩} طارتَ قناها سرورًا عن مراكِزِها
وألَقَتِ الغِمْدَ إعجابًا مَواضيها^{٢٠} هَبَّ النسيمُ على «مقدونيا» بَرْدًا
من بعدما عَصَفَتْ جمرًا سوافيها^{٢١} تَغْلِي بِساكنِها ضِغْنًا ونائِرَةً
على الصُورِ إذ ثارت دواعيها^{٢٢} عاشت عِصائِبُ فيها كالذئابِ عَدَتْ
على الأَقاطيعِ لَمَّا نام راعيها^{٢٣} خَلا لها من رُسومِ الحُكْمِ دارُها
وَعَرَّها من طُلُولِ المُلْكِ باليها^{٢٤}

^{١٦} مسَهَّدَ الجَفَنِ: من سَهَّده، بالتشديد، جعله يسهد؛ أي لا ينام. ومكدود الفؤاد: مُتَعَبِه. ويضني القلوب: يثقلها. وشجِيَّ النفس: مشغولها. والعاني: الأسير.

^{١٧} الغليل: شدة العطش. وغليل النفس: أي مغلولها، من غلَّ الرجل، بضم الغين، اشتدَّ عطشه. والصادي: الشديد العطش أيضًا.

^{١٨} اليد هنا: النعمة.

^{١٩} الحاضر: المقيم في الحضر. والبادي: المقيم في البادية.

^{٢٠} مراكِزها: جمع مركز، من ركز القناة، إذا غرزها في الأرض. والغمد: جفن السيف. والمواضي: السيوف.

^{٢١} مقدونيا: هي إقليم البلقان، من تركيا أوروبا. والبرد: حبُّ الغمام. والعصف: اشتداد الريح. والسواني: الرياح تُذري التراب، جمع سافية.

^{٢٢} تغلي: أي مقدونيا. والضغن: الحقد. والنائرة: يقال نارت في الناس نائرة؛ أي هاجت هائجة. ودواعي الصدور: همومها.

^{٢٣} عانت: أفسدت. والعصائب: جمع عصابة، وهي الجماعة من الرجال، قيل العشرة، وقيل ما بين العشرة إلى الأربعين. عدت: وثبت. والأقاطيع: جمع قطيع، وهو الطائفة من الغنم.

^{٢٤} الرسم الدارس: العافي القديم. والطلول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار.

فسامَرَ الشرَّ في الأجيالِ رائحُها
مظلومةٌ في جوارِ الخوفِ ظالمةٌ
رثتَ لها وبكتَ من رقةٍ دُولُ
أعلامِ مملكةٍ في الغربِ خافقةٌ
لَمَّا مُلئنا قنوطاً من سلامتها
من كلِّ مُستبسلٍ يرمي بمُهجتهِ
كأنها وسلامُ المُلكِ يطلبها

وصبَحَ السهلَ بالعدوانِ غاديتها^{٢٥}
والنفسُ مؤذيةٌ من راحٍ يؤذيتها
كالبومِ يبكي ربوعاً عزَّ باكيها^{٢٦}
لآلِ عثمانَ كادَ الدهرُ يطويها
توثَّبتَ أسدُ الآجامِ تحميها^{٢٧}
في الهولِ إن هي جاشت لا يراعيتها^{٢٨}
أمانةٌ عندَ ذي عهدٍ يؤذيها

* * *

الدينُ لله من شاءَ الإلهُ هدى
ما كان مُختلفُ الأديانِ داعيةً
الكتُّبِ والرُّسلِ والأديانِ قاطبةً
محبةً لله أصلُ في مراشدها
وكلُّ خيرٍ يُلقي في أوامرها
تسامحُ النفسِ معنًى من مروءتها
تخلُقُ الصفحَ تسعدُ في الحياةِ به

لكلِّ نفسٍ هوًى في الدينِ داعيها
إلى اختلافِ البرايا أو تعاديها
خزائنُ الحكمةِ الكبرى لإواعيها
وخشيةُ الله أسُّ في مَبانيها^{٢٩}
وكلُّ شرٍّ يُوقى في نواهيها
بل المروءةُ في أسمى معانيها
فالنفسُ يُسعدُها خُلُقٌ ويُشقيها^{٣٠}

^{٢٥} فسامر الشر: من المسامرة، وهي الحديث ليلاً. وصبح، بتشديد الباء: أتاح صباحاً.

^{٢٦} رثت لها: رحمتها. وهذا البيت والأبيات قبله وصف لحالة مقدونيا؛ وذلك أن دول أوروبا كانت دائماً تدبر المكاييد للدولة التركية، وكانت تجد مقدونيا أصلح مكان لمكايدها؛ لما بين أهلها من اختلاف كثير في الجنس والدين واللغة، وكانت الدولة العلية لا تكاد تطفئ فتنة في ناحية منها حتى تشب فتنة في ناحية أخرى، وكلما كانت تتذرع بالقوة وإظهار الحزم في القضاء على أصحاب الثورات كان يشتد خوف الناس في هذا الإقليم.

^{٢٧} يريد بأسد الآجام: رجال الجيش الذين طلبوا من السلطان عبد الحميد إعلان الدستور فأذعن لهم.
^{٢٨} المستبسل: المستقتل. والمهجة: الروح. والهول: الخوف من الأمر لا يدرى ما يهجم عليه منه. وجاشت: اضطربت.

^{٢٩} المرشد: مقاصد الطرق.

^{٣٠} تخلق الصفح: أي اجعله خُلُقاً لك. والصفح: الإعراض عن ذنوب الغير.

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا نَفْسِي بِجَاهِلَةٍ مَنْ أَهْلُ خِلَّتِهَا مَمَّنْ يُعَادِيهَا^{٣١}
لئنْ غَدَوْتُ إِلَى الْإِحْسَانِ أَصْرَفُهَا فَإِنْ ذَلِكَ أَجْرِي مِنْ مَعَالِيهَا
وَالنَّفْسُ إِنْ كَبُرَتْ رَقَّتْ لِحَاسِهَا وَاسْتَغْفَرَتْ كَرَمًا مِنْهَا لِشَانِيهَا^{٣٢}

* * *

يَا شَعْبَ عَثْمَانَ مَنْ تُرِكَ وَمَنْ عَرَبَ حَيَّاكَ مَنْ يَبْعَثُ الْمَوْتَى وَيُحْيِيهَا
صَبِرْتَ لِلْحَقِّ حِينَ النَّفْسُ جَازِعَةٌ وَاللَّهُ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْحَقِّ مُوصِيهَا
نِلْتَ الَّذِي لَمْ يَنْلَهُ بِالْقَنَا أَحَدٌ فَاهْتَفِ لِ «أَنُورِهَا» وَاحْمَدُ «نِيَاذِيهَا»^{٣٣}
مَا بَيْنَ آمَالِكَ اللَّائِي ظَفِرَتْ بِهَا وَبَيْنَ «مَصْرَ» مَعَانٍ أَنْتَ تَدْرِيبُهَا

^{٣١} الْخِلَّةُ (بكسر الخاء): الْمَصَادَقَةُ وَالْإِخَاءُ.

^{٣٢} شَانِيهَا: مُبْغِضُهَا.

^{٣٣} الْقَنَا: الرَّمَاخُ، جَمْعُ قَنَاءَ. وَأَنُورُ وَنِيَاذِي: هُمَا بَطَلَا الدِّسْتُورِ الْعَثْمَانِي الْمَشْهُورَانِ.

الهلال والصليب الأحمران

«جبريل»، أنت هدى السما
ابسُطْ جَنَاحَيْكَ اللَّذِي
وَزِدِ «الهلال» من الكرا
فُهُمَا لِرَبِّكَ رَايَةً
لم يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ أَكْ
الأحمرانِ عن الدم الـ
الغاديانِ لَنَجْدَةٍ
يَتَأَلَّقَانِ عَلَى الْوَغَى
يَقِفَانِ فِي جَنْبِ الدِّمَا
لو خِيَمَا فِي «كربلا»
ء وَأَنْتَ بَرَهَانُ الْعِناية¹
نِ هُمَا الطَّهَارَةُ وَالْهَدَاية
مَةِ و«الصليب» من الرعاية
وَالْحَرْبُ لِلشَّيْطَانِ رَايَةً
جَبَرَ مِنْهُمَا فِي الْبِرِّ آيَةً
غَالِي وَحُرْمَتِهِ كُنَايَةً²
الرَّائِحَانِ إِلَى وَقَايَةٍ³
رُشْدًا تَبَيَّنَ مِنْ غَوَايَةٍ⁴
كَالْعُذْرِ فِي جَنْبِ الْجَنَايَةِ
لَمْ يُمْنَعِ «السَّبْطُ» السَّقَايَةُ⁵

¹ جبريل: من الملائكة، مختص بالوحي.

² الأحمران ... إلخ: أي اللذان جُعلا أحمرين ليُكنَّى بهما عن الدم وحرمته.

³ النجدة: الإعانة.

⁴ يتألقان: يلعبان ويُضيئان.

⁵ كربلا: مدينة في العراق بها قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما. والسبط: ولد الولد، والحسين سبط النبي ﷺ. يشير بذلك إلى مقتل الحسين، وما قيل من أن قتلته منعوا عنه الماء حين طلبه وهو في النزاع.

أو أدركا يومَ المَسيحِ حَ لَعاوناه على النكاية^٦
ولناولاه الشَهدَ لا الـ خَلُّ الذي تَصِفُ الرواية^٧
يا أيها «اللّادي» التي أَلَقْتُ على الجَرَحى حِماية^٨
أُبَلِّيتُ في نزعِ السَّها مِ بلاءَ دَهْرِكَ في الرماية^٩
ومررتُ بالأَسرى فكنـ حَتِ نَسيمَ واديهم سِراية^{١٠}
وبناتُ جنسِكَ إن بنىـ مَن البِرِّ أَحسَنَ البِناية^{١١}
بالأمسِ لِادي «لوثر» لم تَأَلُ جِيرَتَها عناية^{١٢}
أُسَدَّتْ إلى أَهلِ الجنو دِ يَدًا وغالت في الحفاية^{١٣}
ومُحجَّباتُ هُنَّ أَطـ هَرُ عِنْدَ نائِبَةٍ كفاية^{١٤}
يُسَعِفَنَّ رِيًّا أو قَرى كَنسائِ طيِّ في البداية^{١٥}
إن لم يَكُنْ ملائِكَ الرِّ حَمِنَ كُنَّ هُمُ حِكاية^{١٦}
لَبَّيْنَ دَعوتِكَ الكَريـ مَـ واستَبَقَنَّ البِرَّ غاية^{١٧}
المُحسِنون هُمُ اللُّبا بُ وسائِرُ الناسِ النُّفاية^{١٨}

^٦ يوم المسيح: أي اليوم الذي يزعم النصارى أن المسيح صُلب فيه.

^٧ ولناولاه الشهد ... إلخ: وذلك أن النصارى تدّعي أن المسيح طلب وقت شدة الصلب ماءً فأعطوه خلًّا.

^٨ اللادي: لقب عام لزوجات لوردات الإنجليز، وهي هنا زوجة المعتمد البريطاني في مصر أثناء الحرب

الكبرى؛ وذلك أنها قامت تجمع المال إعانةً للصليب الأحمر، وتدعو إلى ذلك.

^٩ أبليت، من أبلى في الحرب: أظهر بأسه حتى اختبره الناس وامتحنوه.

^{١٠} السراية: مصدر سرى؛ أي تسلل.

^{١١} لادي لوثر: إنجليزية أخرى، ولوثر: اسم زوجها. والجيرة: الجيران.

^{١٢} الحفاية: الحفاوة، وهي أن تتلطف بالرجل، وتُبالغ في إكرامه، وتُظهر السرور به.

^{١٣} ومحجبات: أي ورُبَّ نساءٍ محجباتٍ لسنِّ سافراتٍ مثلكن. والكفاية: ما يحمل به الاستغناء والقناعة.

^{١٤} الري (بكسر الراء وفتحها): أي تشرب الماء حتى تشبع. والقرى: ما قُرِيَ به الضيف. وطي: قبيلة

من العرب مشهورة بالكرم.

^{١٥} الملائك: جمع ملك، بفتح اللام.

^{١٦} لَبَّيْنَ: أجبن. واستبقن البرّ: جاوزنه.

^{١٧} اللباب: المختار الخالص من الشيء. والنفاية (بضم النون وفتحها): ما نفيتَه من الشيء لردائه.

يا أيها الباغون رُكَّ	باب الجهالة والعماية
الباعثون الحرب حُبَّ	اللتوسع في الولاية
المُدَّعون على الورى	حق القيامة والصاية
المُتكلون الموتى	ن الهادمون بلا نهاية ^{١٨}
كل الجراح لها التئ	م من عزاء أو نساية ^{١٩}
إلا جراح الحق في	عصر الحصافة والدراية ^{٢٠}
ستظل دامية إلى	يوم الخصومة والشكاية

^{١٨} المتكلون، من أكلها ولدها: أماته. والموتمون: الذين يجعلون الأبناء يتامى بقتل آبائهم في الحرب.

^{١٩} النساية: النسيان.

^{٢٠} الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.

الجزء الثاني

باب الوصف

آية العصر في سماء مصر

(نُظِّمَتْ عِنْدَ قُدُومِ «فَدْرِينَ» وَ«بُونِيه» طَائِرَيْنِ مِنْ بَارِيسَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ١٩١٤ م.)

وَتَمَلَّكَتِ مَقَالِيدَ الْجَوَاءِ ^١	يَا فَرَنْسَا نِلْتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ
وَتَنَحَّى لَكَ عَنْ عَرْشِ الْهَوَاءِ	غُلِبَ النَّسْرُ عَلَى دَوْلَتِهِ
لَكَ يَا بَلْقِيسُ مِنْ أَوْفَى الْإِمَاءِ ^٢	وَأَتَتْكَ الرِّيحُ تَمْشِي أَمَّةً
طَوَّعَ سُلْطَانَيْنِ عِلْمٍ وَذِكَاةً	رُوِّضَتْ بَعْدَ جِمَاحٍ وَجَرَتْ
خَيْلَ جَبْرِيلَ لِنَصْرِ الْأَنْبِيَاءِ	لَكَ خَيْلٌ بِجَنَاحٍ أَشْبَهَتْ
بُرْدٍ ^٣ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِطَاءٍ ^٤	وَبَرِيدٌ يَسْحَبُ الذَّيْلَ عَلَى
فَوْقَ عُنُقِ الرِّيحِ أَوْ مَتَنِ الْعَمَاءِ ^٥	تَطْلُعُ الشَّمْسُ فَيَجْرِي دُونَهَا
لَبِثْتَ غَيْرَ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ	رَحْلَةَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ مَا
لِفَرِيقٍ مِنْ بَنِيكَ الْبُسْلَاءِ	بُسْلَاءُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ فِدَى

^١ أسباب السماء: مراقبيها، أو طرقها، أو نواحيها، أو أبوابها.

^٢ الأمة: المملوكة. وبلقيس: صاحبة نبي الله سليمان الذي سخرت له الريح.

^٣ بُرد: جميع برید.

^٤ بطاء: جمع بطيء.

^٥ العماء: السحاب المرتفع، أو الكثيف، أو الممطر، أو الرقيق.

ضاقَت الأرضُ بهم فاتَّخَذُوا
فِتْيَةً يُمَسُّونَ جِيرَانَ السُّهَى
حُومًا فَوْقَ جِبَالٍ لَمْ تَكُنْ
لِسُلَيْمَانَ بِسَاطٍ وَاحِدٌ
يُرْكَبُونَ الشُّهْبَ وَالسُّحْبَ إِلَى
يَا «نُسُورًا» هَيِّطُوا «الْوَادِي» عَلَى
دَارِكُمْ مَصْرُ وَفِيهَا قَوْمُكُمْ
طَرِئْتُمْ فِيهَا فَطَارَتْ فَرَحًا
هَلْ شَجَاكُمْ فِي ثَرَى أَهْرَامِهَا
أَيْنَ نَسَرْتُ قَدْ تَلَقَّى قَبْلَكُمْ
لَوْ شَهِدْتُمْ عَصْرَهُ أَضْحَى لَهُ
جَرَحَ الْأَهْرَامَ فِي عِزَّتِهَا
أَخَذَتْ تَاجًا بَتَاجِ ثَارِهَا
وَتَمَنَّتْ لَوْ حَوَتْ أَعْظَمُهُ

فِي السَّمَوَاتِ قُبُورَ الشُّهَدَاءِ
سُمَرَاءَ النُّجْمِ فِي أَوْجِ الْعَلَاءِ^٦
لِلرِّيَّاحِ الْهُوجِ يَوْمًا بِوَطَاءِ
وَلَهُمْ أَلْفُ بِسَاطٍ فِي الْفَضَاءِ
رَفَعَةِ الذِّكْرِ وَعِلْيَاءِ الثَّنَاءِ
سَالَفِ الْحُبِّ وَمَأْثُورِ الْوَلَاءِ
مَرْحَبًا بِالْأَقْرَبِينَ الْكُرَمَاءِ
بِأَعَزِّ الضَّيْفِ خَيْرِ النُّزَلَاءِ^٧
مَا أَرْقَتُمْ مِنْ دُمُوعٍ وَدُمَاءِ
عِظَّةِ الْأَجْيَالِ مِنْ أَعْلَى بِنَاءِ^٨
عَالَمِ الْأَفْلاكِ مَعْقُودِ الْوَلَاءِ
فَمَشَى لِلْقَبْرِ مَجْرُوحِ الْإِبَاءِ
وَجَزَتْ مِنْ صَلَفٍ بِالْكَبْرِيَاءِ^٩
بَيْنَ أَبْنَاءِ الشَّمُوسِ الْعُظَمَاءِ

* * *

جَلَّ شَأْنُ اللَّهِ هَادِي خَلْقِهِ
زَفَّ مِنْ آيَاتِهِ الْكِبَرَى لَنَا
مَرْكَبٌ لَوْ سَلَفَ الدَّهْرُ بِهِ
نِصْفُهُ طَيْرٌ وَنِصْفُ بَشَرٍ
رَائِعٌ مُرْتَفِعًا أَوْ وَاقِعًا
مُسْرَجٌ فِي كُلِّ حِينٍ مُلْجَمٌ

بِهُدَى الْعِلْمِ وَنُورِ الْعُلَمَاءِ
طَلَبَةً طَالَ بِهَا عَهْدُ الرِّجَاءِ
كَانَ إِحْدَى مُعْجِزَاتِ الْقُدَمَاءِ
يَا لَهَا إِحْدَى أَعَاجِبِ الْقَضَاءِ
أَنْفُسَ الشُّجْعَانِ قَبْلَ الْجَبْنَاءِ
كَامِلُ الْعُدَّةِ مَرْمُوقُ الرُّوَاءِ^{١٠}

^٦ السُّهَى: كوكبٌ خفي من بنات نعل الصغرى.

^٧ الضيف: النزير على غيره، ويكون للواحد والجمع؛ لأنه في الأصل مصدر.

^٨ يريد به نابليون الأول.

^٩ الصلف: مجاوزة قدر الظرف.

^{١٠} الرُّوَاء: حُسْنُ المنظر.

كِبْسَاطِ الرِّيحِ فِي الْقُدْرَةِ أَوْ هُدُودِ السَّيْرِ فِي صِدْقِ الْبَلَاءِ
أَوْ كَحُوتٍ يَرْتَمِي الْمَوْجَ بِهِ سَابِحٍ بَيْنَ ظُهُورٍ وَخَفَاءِ
رَاكِبٍ مَا شَاءَ مِنْ أَطْرَافِهِ لَا يُرَى مِنْ مَرَكَبٍ ذِي عُذْوَاءٍ^{١١}

* * *

مَلَأَ الْجَوَّ فِعَالًا وَغَدَا وَتَرَى السُّحْبَ بِهِ رَاعِدَةً
حَمَلَ الْفُولَانَ رِيشًا وَجَرَى فِي عِنَانَيْنِ لَهُ نَارٌ وَمَاءٌ
وَجَنَاحٌ غَيْرِ ذِي قَادِمَةٍ مَسَّهَ صَاعِقَةً مِنْ كَهْرِبَاءِ
يَتَرَاءَى كَوَكَبًا ذَا ذَنْبٍ فَإِذَا جَازَ الثَّرِيًّا لِلثَّرَى
يَمْلَأُ الْآفَاقَ صَوْتًا وَصَدَى طَنَّ فِي آذَانِ سُكَّانِ السَّمَاءِ
أَرْسَلَتْهُ الْأَرْضُ عَنْهَا خَبْرًا

* * *

يَا شَبَابَ الْغَدِ وَابْنَايَ الْفَدَى لَكُمْ أَكْرَمُ وَأَعَزُّ بِالْفِدَاءِ
هَلْ يَمُدُّ اللَّهُ لِي الْعِيشَ عَسَى أَنْ أَرَاكُمْ فِي الْفَرِيقِ السُّعْدَاءِ
وَأَرَى عَرْشَكُمْ فَوْقَ السُّهَاءِ وَأَرَى عَرْشَكُمْ فَوْقَ ذُكَاءِ^{١٢}
مَنْ رَأَى قَالَ مَصْرُ اسْتَرْجَعْتَ عَزَّهَا فِي عَهْدِ «خَوْفُو» وَ«مَنَاءِ»
أُمَّةٌ لِلْخُلْدِ مَا تَبْنِي إِذَا مَا بَنَى النَّاسُ جَمِيعًا لِلْعَفَاءِ^{١٣}
تَعْصَمُ الْأَجْسَامَ مِنْ عَادِي الْبَلَى وَتَقِي الْأَثَارَ مِنْ عَادِي الْفَنَاءِ
إِنْ أَسَانَا لَكُمْ أَوْ لَمْ نُنْسِئْ نَحْنُ هَلَكَى فَلَكُمْ طَوْلُ الْبَقَاءِ

^{١١} مَرَكَبٍ ذِي عُذْوَاءٍ: أَي لَيْسَ بِمُطْمَئِنٍّ.

^{١٢} الرَّوَاءُ: الْمَاءُ الْعَذْبُ.

^{١٣} الْقَادِمَةُ: وَاحِدَةُ الْقَوَادِمِ، وَهِيَ عَشْرُ رِيشَاتٍ فِي مَقْدَمِ الْجَنَاحِ، وَهِيَ كِبَارُ الرِّيشِ.

^{١٤} ذُكَاءُ: اسْمٌ لِلشَّمْسِ.

^{١٥} الْعَفَاءُ: الدُّرُوسُ وَالْهَلَاكُ وَالْفَنَاءُ.

إنما مصرُ إليكم وبُكم
عصرُكم حُرٌّ ومُستقبلُكم
لا تقولوا حطَّنا الدهرُ فما
هل علمتُم أُمَّةً في جهلِها
باطنُ الأُمَّة من ظاهرِها
فخذوا العلمَ على أعلامه
واقروا تاريخكم واحتفظوا
أنزلَ الله على السُّننهم
واحكموا الدنيا بسلطانٍ فما
واطلبوا المجدَ على الأرض فإن
وحقوقُ البرِّ أولى بالقضاء
في يمينِ الله خيرُ الأُمْناء
هو إلا من خيالِ الشعراء
ظهرت في المجدِ حسناء الرِّداء
إنما السائلُ من لونِ الإناء
واطلبوا الحكمةَ عندَ الحكماء
بفصيحِ جاءكم من فُصحاء
وَحْيِهِ في أعْصِرِ الوحي الوضاء^{١٦}
خُلِقَتْ نَضْرَتُها للضعفاء
هي ضاقت فاطلبوه في السماء

شيكسبير

أعلى الممالك ما كرسِيه الماء
يا جِيرة «الْمَنْشِ» حَلَاكُم أَبَوْتُكُمْ
مُلْكٌ يُطَاوِلُ مُلْكَ الشَّمْسِ عِزَّتُهُ
تَأْوِي الحَقِيقَةَ مِنْهُ وَالْحَقُوقُ إِلَى
أَعْلَاهُ بِالنَّظَرِ الْعَالِي وَنَطْقِهِ
وَحَاطَهُ بِالْقَنَا فِتْيَانُ مَمْلَكَةٍ
يُسْتَصْرَخُونَ وَيُرْجَى فَضْلُ نَجْدِيهِمْ
وَدَوْلَةٌ لَا يَرَاهَا الظَّنُّ مِنْ سَعَةٍ
عَصْمَاءُ لَا سَبَبُ الرَّحْمَنِ مُطَرِّحُ
وما دِعَامَتُهُ بِالْحَقِّ شَمَاءُ^{١٧}
ما لم يُطَوَّقْ بِهِ الْأَبْنَاءُ آبَاءُ
في الغربِ بَادِخَةٌ فِي الشَّرْقِ قَعَسَاءُ^{١٨}
رُكْنٌ بَنَاهُ مِنَ الْأَخْلَاقِ بِنَاءُ
بَحَائِطِ الرَّأْيِ أَشْيَاخُ أَجْلَاءُ
فِي السَّلْمِ زَهْرٌ رَبًّا فِي الرَّوْعِ أَرْزَاءُ
كَأَنَّهُمْ عَرَبٌ فِي الدَّهْرِ عَرَبَاءُ^{١٩}
ولا وراءَ مَدَاهَا فِيهِ عَلِيَاءُ
فِيهَا وَلَا رَجِمُ الْإِنْسَانِ قَطْعَاءُ

^{١٦} الوضاء: المشرقة الحسنة.

^{١٧} الدعامة أو الدعام: عماد البيت.

^{١٨} قعساء: أي ثابتة.

^{١٩} العرباء من العرب: الصُّرْحَاء الْخُلُص.

تلك «الجزائر» كانت تحتهم رُكُنًا
وكان وُدُّهم الصافي ونُصرتهم
وراءَهَنَّ لباغي الصَّيْدِ عَنقَاءُ^{٢٠}
للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

* * *

دستورُهم عَجَبُ الدنيا وشاعرُهم
ما أُنْجِبَتْ مِثْلُ «شيكسبير» حاضرةً
نالت به وَحْدَهُ «إنجلترا» شرفًا
لم تُكْشِفِ النفسُ لولاه ولا بُلِيَتْ
شِعْرُ من النَّسَقِ الأعلى يُؤَيِّدُهُ
من كلِّ بيتٍ كَأَيِّ الله تسكنُهُ
وكلُّ معنَى كعيسى في مَحاسِنِهِ
أو قصيدة ككِتَابِ الدهرِ جامعةً
مهما تُمَثِّلُ تَرِ الدنيا مُمَثِّلَةً
يَدُّ على خَلْقِهِ لله بيضاءُ
ولا نَمَتْ من كريمِ الطيرِ غَنَاءُ^{٢١}
ما لم تُتَلِّ بالنجومِ الكُثْرَ جَوَاءُ^{٢٢}
لها سرائرُ لا تُحصى وأهواءُ^{٢٣}
من جانبِ الله إلهامٌ وإيحاءُ
حقيقةً من خيالِ الشَّعرِ غَرَاءُ^{٢٤}
جاءت به من بناتِ الشَّعرِ عَذَاءُ
كلاهما فيه إضحاكٌ وإبكاءُ
أو تُتَلَّ فُهي من الإنجيلِ أجزاءُ

* * *

يا صاحبَ العُصْرِ الخالي أَلَا خَبِرُ
أما الحياةُ فأمرٌ قد وصفتَ لنا
بِمَنْ أَمَاتَكَ قُلْ لي كيف جمجمةٌ
كانت سماءَ بيانٍ غيرَ مُقْلَعَةٍ
عن عالمِ الموتِ يرويهِ الألبَاءُ^{٢٥}
فهل لِمَا بَعْدُ تمثيلٌ وإدناءُ^{٢٦}
غبراءُ في ظُلُمَاتِ الأرضِ جَوَاءُ^{٢٧}
شُؤْبُوبُهَا عسلٌ صافٍ وصهباءُ^{٢٨}

^{٢٠} طائرٌ معروف الاسم مجهول الجسم.

^{٢١} الروضة الكثيرة العشب.

^{٢٢} الجوزاء: برج في السماء.

^{٢٣} بُليت: امتحنت.

^{٢٤} ناصعة.

^{٢٥} الألباء: العقلاء، جمع لبيب.

^{٢٦} أدنى الشيء: قُرْبُهُ إليه.

^{٢٧} جوفاء: فارغة.

^{٢٨} مُقْلَعَة: ذاهبة. والشؤبوب: الدفعة من المطر.

فأصبحت كأصيصٍ غير مُفتَقِدٍ جفته ريحانةً للشَّعرِ فيحاء^{٢٩}
وكيف باتَ لسانٌ لم يدعَ غرضًا ولم تفتَّهُ من الباغين عوراء^{٣٠}
عفا فأمسى زُنابىٍ عقرِبٍ بليت وسُمُّها في عروقِ الظلمِ مشاءٌ
وما الذي صنعتَ أيدي البلى بيدٍ لها إلى الغيبِ بالأقلامِ إيماءٌ
في كلِّ أنملةٍ منها إذا انبجست برقٌ ورعدٌ وأرواحٌ وأنواء^{٣١}
أُمستَ من الدودِ مثلَ الدودِ في جدثٍ قُفَّازُها فيه حصباءٌ وبوغاء^{٣٢}
وأين تحت الثرى قلبٌ جوانبُهُ كأنهنَّ لَوادي الحقِّ أرجاءُ
تُصغي إلى دَقِّه أذنُ البيانِ كما إلى النواقيسِ للرهبانِ إصغاءُ
لئن تمشى البلى تحت الترابِ به لا يُؤكِّلُ الليثُ إلا وهوَ أشلاء^{٣٣}

* * *

والناسُ صنفانِ موتى في حياتهم وآخرون ببطنِ الأرضِ أحياءُ
تأبى المواهبُ فالأحياءُ بينهم لا يستوون ولا الأمواتُ أكفاءُ
يا واصفَ الدِّمِ يجري ها هنا وهنا قُمْ انظُرِ الدِّمَ فهو اليومَ دأماء^{٣٤}
لاموكَ في جَعَلِكَ الإنسانَ ذئبَ دم واليومَ تبدو لهم من ذاكَ أشياءُ
وقيل أكثرَ ذَكَرَ القتلِ ثم أتوا ما لم تسعهُ خيالاتٌ وأنباءُ
كانوا الذئبابَ وكان الجهلُ داءهم واليومَ علَّمهمُ الراقي هو الداءُ
لؤمُ الحياةِ مشى في الناس قاطبةً كما مشى آدمٌ فيهم وحواءُ
قُمْ أيِّدِ الحقَّ في الدنيا أليسَ له كتيبةٌ منك تحت الأرضِ خرساءُ
وأين صوتُ تَمييدِ الراسياتِ له كما تَمَيدُ يومَ النارِ سيناء^{٣٥}

^{٢٩} الأصيص: نصف الجرّة يُزرع فيها الرياحين.

^{٣٠} العوراء: الكلمة أو الفعل القبيحة.

^{٣١} انبجست: أي انفجرت.

^{٣٢} الحصباء: الحصى، الواحدة حصبة. والبوبغاء: ما يثور من الغبار ودقائق التراب.

^{٣٣} أشلاء، واحدها شلو: العضو والجسد من كل شيء.

^{٣٤} الدأماء: البحر.

^{٣٥} يريد النار التي ظهرت لموسى الكليم وهو سائرٌ بأهله شطر طور سينا.

وَأَيْنَ مَاضِيَّةٌ فِي الظُّلَمِ قَاضِيَّةٌ وَأَيْنَ نَافِذَةٌ فِي البَغْيِ نَجْلَاءُ
أَيْتَرَكُ الْأَرْضَ جَانُوهَا وَلَيْسَ بِهَا صَحِيفَةٌ مِنْكَ فِي الْجَانَيْنِ سَوْدَاءُ
تَأْوِي إِلَيْهَا الْأَيَّامُ فَهِيَ تَعْزِيَّةٌ وَيَسْتَرِيحُ الْيَتَامَى فَهِيَ تَأْسَاءُ^{٣٦}

أَثَرُ الْبَالِ فِي الْبَالِ

(فِي وَصْفِ لَيْلَةٍ رَاقِصَةٍ أُقِيمَتْ فِي قَصْرِ عَابِدِينَ.)

حَفَّ كَأَسْهَا الْحَبَبُ فَهِيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ^{٣٧}
أَوْ دَوَائِرُ دُرَرُ مَائِجٌ بِهَا لَبَبُ^{٣٨}
أَوْ فَمُ الْحَبِيبِ جَلَا عَنْ جُمَانِهِ الشَّنْبُ^{٣٩}
أَوْ يَدَاهُ بَاطِنُهَا عَاطِلٌ وَمُخْتَضِبُ
أَوْ شَقِيقُ وَجْنَتِهِ حِينَ لِي بِهِ لَعَبُ^{٤٠}
رَاحَةُ النَفُوسِ وَهَلْ عِنْدَ رَاحَةٍ تَعَبُ
يَا نَدِيمُ خَفَّ بِهَا لَا كَبَا بِكَ الطَّرَبُ
لَا تَقُلْ عَوَاقِبُهَا فَالْعَوَاقِبُ الْأَدْبُ
تَنْجَلِي وَلِي خُلُقُ يَنْجَلِي وَيَنْسَكُبُ
يَرْقُبُ الرَّفَاقُ لَهُ كُلَّمَا سَرَى شَرِبُوا
شَاعِرُ الْعَزِيزِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا اللَّقْبُ
لَيْلَةٌ لَسَيِّدِنَا فِي الزَّمَانِ تُرْتَقُبُ
دُونَهَا الرِّشِيدُ وَمَا أَخْلَدَتْ لَهُ الْكُتُبُ
يُهْرَعُ النَّزِيلُ لَهَا وَالرَّعِيَّةُ النُّخْبُ^{٤١}

^{٣٦} أَيَّامِي: جَمْعُ أَيَّامٍ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي تَفْقِدُ زَوْجَهَا، أَوْ الرَّجُلَ الَّتِي يَفْقِدُ امْرَأَتَهَا. وَتَأْسَاءُ: تَعْزِيَّةٌ وَتَسْلِيَّةٌ.

^{٣٧} الْحَبَبُ: الْفَقَاقِيعُ الَّتِي تَعْلُو الْخَمْرَ.

^{٣٨} اللَّبَبُ: مَوْضِعُ الْقِلَادَةِ مِنَ الصَّدْرِ.

^{٣٩} جَلَا: أَيَّ كَشَفَ. وَالْجَمَانُ: اللَّوْلُؤُ. وَالشَّنْبُ: عَذُوبَةُ الْأَسْنَانِ.

^{٤٠} الشَّقِيقُ: وَاحِدُ شَقَائِقِ النِّعَمَانِ، وَهِيَ أَزَاهِرُ حَمْرَاءٍ فِيهَا بَقْعٌ سَوْدَاءُ.

^{٤١} النُّخْبُ: جَمْعُ نَخْبَةٍ، وَهِيَ الْمُخْتَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

فالسراي جَوْهَرَةٌ للعُقُولِ تَخْتَلِبُ
أَوْ كِبَاقَةٌ زَهْرًا للعيونِ تَأْتَشِبُ^{٤٢}
الْجَلالُ قَبَّيْتُهُ والسَّنا لَهُ طُنْبُ^{٤٣}
ثابِتٌ وَذِرْوَتُهُ في الفِضاءِ تَضْطَرِبُ
أَشْرَقَتْ نِوافِذُهُ فَهِيَ مَنظَرٌ عَجِبُ
وَاسْتَنارَ رَفْرَفُهُ والسُّجُوفُ وَالْحُجُبُ^{٤٤}
تَعَجَّبُ العيُونُ لَهُ كَيْفَ تَسْكُنُ الشُّهُبُ^{٤٥}
أَقْبَلَتْ شُمُوسُ ضُحَى ما لَهَنَ مُنْتَقِبُ^{٤٦}
الظُّلَامُ رايَتُها وَهِيَ جَيْشُهُ اللَّجِبُ^{٤٧}
في هَوادِجِ عَجَلًا بالجِيارِ تَنْسَحِبُ
قامَ دُونُها سَبَبُ واستَحَنَّتْها سَبَبُ^{٤٨}
فَهِيَ تارَةً مَهْلٌ وَهِيَ تارَةً حَبَبُ^{٤٩}
تَرْتَمِي بِهِنَّ حِمَى لا يَجُوزُهُ رَعْبُ^{٥٠}
بَابُهُ لِدَاحِلِهِ جَنَّةٌ هِيَ الْأَرَبُ
قامَتِ السُّرَاةُ بِهِ والمَعِيَّةُ النُّجُبُ^{٥١}
وَانْبَرَى النِّساءُ لَهُ عُجْمُهُنَّ وَالْعَرَبُ

^{٤٢} ائتشب الشجر: التف. والزهر: الزهراء.

^{٤٣} السنا هنا: مقصور من السناء؛ بمعنى الرفعة. والطنب: الود، أو الحبل الذي يُشدُّ به سرادق البيت.

^{٤٤} الرفرف: الرقيق من ثياب الديباج. والسجوف: الستور، جمع سجاف.

^{٤٥} يشبه مصابيح القصر بشهب ثابتة.

^{٤٦} المنتقب: النقاب.

^{٤٧} الجيش اللجِب: ذو الكثرة والضجيج.

^{٤٨} السبب: الحبل، ويشير به أولاً إلى زمام الدابة، وثانياً إلى سوط السائق.

^{٤٩} الخبب: سرعة عدو الجياد.

^{٥٠} ترتمي: بمعنى ترمي. والرَّعْب: الابتهاال. والمعنى أنها تذهب بهنَّ إلى ملجأ هو وحده غاية الراحي

وكعبة الضارع.

^{٥١} السُّرَاة: جمعُ سريٍّ، وهو السيد الشريف في سخاء ومروءة. والنُّجُب: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب.

والجمالُ والحَسَبُ	العفافُ زينَتُها
عابدينُ والرحَبُ ^{٥٢}	أنجُمُ مَطالِعُها
وهي منه تقتربُ	سيّدي لها فلَكُ
بَدْرُه لَنَا كَثَبُ ^{٥٣}	عندَ رُكنِ حُجرتِه
والمَطارفُ القُشْبُ ^{٥٤}	يزدهي السَّريرُ به
حوْلَ عرشه عَرَبُ	حوْلَ عرشه عَجَمُ
تستوي بها الرُّتَبُ	رتبَةُ الجُدودِ له
تالدٌ ومُكتَسَبُ ^{٥٥}	شُرِّفت به وَسَما
والظباءُ تنسربُ	اللُّيوثُ ماثِلَةُ
واللُّجَيْنُ والذَّهَبُ ^{٥٦}	الحريزُ مَلبَسُها
لا الرِّمالُ والعُشْبُ	والقصورُ مَسرَحُها
لا صدى ولا لَجَبُ ^{٥٧}	يستفزُّها نَعَمُ
تارةً ويُقتَضِبُ	يُستَعادُ مُرقِصُه
بيدَ أنها تَثِبُ ^{٥٨}	فالقُدودُ بانُ رُبّا
وهو مُشفِقٌ حَدِبُ ^{٥٩}	يلعبُ العناقُ بها
وهي مَرَّةً صَبَبُ ^{٦٠}	فهني مَرَّةً صُعْدُ
تَلتقي وتَصطحبُ	وهي ها هنا وهُنا

^{٥٢} الرَّحَبُ: جمع رحبة، وهي الأرض المتسعة.

^{٥٣} الكَثَبُ: القريب.

^{٥٤} المطارف: أودية من خز. والقُشْبُ: الجدد.

^{٥٥} التالد: القديم.

^{٥٦} اللُّجَيْنُ: الفضة.

^{٥٧} اللُّجَبُ: الضجيج.

^{٥٨} البان: شجرٌ سبط القوام لئِن، ويُشَبَّه به القَدُّ لطوله.

^{٥٩} الحدب: العطوف.

^{٦٠} الصعد: جمع صعد، بكسر العين، وهو المرتفع. والصبيب: المنحدر.

مِثْلَمَا التَّقَّتْ أَسْلُ الرُّعُوسُ مَائِلَةً
أَوْ تَعَانَقَتْ قُضْبُ فِي الصُّدُورِ تَحْتَجِبُ
وَالنُّحُورُ قَائِمَةٌ قَاعِدُ بِهَا الْوَصْبُ ٦٢
وَالنُّهُودُ هَامِدَةٌ وَالْخُصُورُ وَاهِيَةٌ
سَالَتْ الْأَكْفُ بِهَا سَالَتْ الْأَكْفُ بِهَا
الْخِوَانُ دَائِرَةٌ لِّلُوفُودِ مَائِدَةٌ
وَالطَّرِيقُ مُتَّصِلٌ وَالطَّعَامُ حَاضِرُهُ
بَارِدٌ وَمِنْ عَجَبٍ سَائِغٌ لِذِي سَغَبٍ
سَائِغٌ وَلَا سَغَبٍ ٦٥ حَاضِرٌ وَلَا طَلَبُ
وَالْمُدَامُ أَكْوُسُهَا وَهِيَ بَيْنَنَا سَلَبُ
شَرُفَتْ مَنَافِحُهَا حَوْلَهَا الْحَوَائِمُ مَا
يَغْتَبِطْنَ فِي حَرَمٍ مَا سِوَى الْحَدِيثِ بِهِ
٦١ أَو تَعَانَقَتْ قُضْبُ ٦٢ فِي الصُّدُورِ تَحْتَجِبُ
٦٣ قَاعِدُ بِهَا الْوَصْبُ ٦٤ وَالنُّهُودُ هَامِدَةٌ
٦٥ وَالْخُصُورُ وَاهِيَةٌ ٦٦ سَالَتْ الْأَكْفُ بِهَا
٦٧ سَالَتْ الْأَكْفُ بِهَا ٦٨ الْخِوَانُ دَائِرَةٌ
لِّلُوفُودِ مَائِدَةٌ ٦٩ وَالطَّرِيقُ مُتَّصِلٌ
٧٠ وَالطَّعَامُ حَاضِرُهُ ٧١ بَارِدٌ وَمِنْ عَجَبٍ
٧٢ سَائِغٌ لِذِي سَغَبٍ ٧٣ سَائِغٌ وَلَا سَغَبٍ
٧٤ حَاضِرٌ وَلَا طَلَبُ ٧٥ وَالْمُدَامُ أَكْوُسُهَا
٧٦ وَهِيَ بَيْنَنَا سَلَبُ ٧٧ شَرُفَتْ مَنَافِحُهَا
٧٨ حَوْلَهَا الْحَوَائِمُ مَا ٧٩ يَغْتَبِطْنَ فِي حَرَمٍ
٨٠ مَا سِوَى الْحَدِيثِ بِهِ

٦١ الأسْل: الرماح. والقضب: السيوف.

٦٢ الوصب: التعب.

٦٣ النُّهْبُ: جمع نُهْبَةٍ، وهي المنهوب.

٦٤ الخوان (بكسر الخاء وضمُّها): ما يوضع عليه الطعام. والقطب بتسكين الطاء ويُخَفَّف: سيّد القوم.

٦٥ السَّغَب: الجوع.

٦٦ العُلبُ: نوع من الأقداح الضخمة.

٦٧ السَّلَبُ: ما يُسَلَب ويُنهَب.

٦٨ الحوائم: العطاش. والقَرْب: سير الليل لورد الغد.

هكذا الكرامُ كرا	مُ «وإن هُم طَرِبُوا»
ليلةً علَّتْ وغَلَّتْ	ليتَ فَجَرَهَا كَذِبُ
يكفلُ الأميرُ لنا	أن تُعيدَهَا الحِقَبُ ^{٦٩}
عاشَ للندى مَلِكُ	سيِّدُ لنا وأبُ
حاتمُ الملوكِ إذا	ضاقَ بالندى النَّشَبُ ^{٧٠}
السُّرورُ أنعمهُ	والهناءُ ما يَهَبُ
والندى سجيَّتُهُ	والحنانُ والحَدَبُ ^{٧١}
يا عزيزُ دامَ لنا	رَوْضُ عِزِّكَ الأشْبُ ^{٧٢}
هذه عروسُ نُهي	في القبولِ تَرْتَعِبُ ^{٧٣}
زَفَّها لكم وَجَلًا	شاعرُ الحمى الأربُ
احتفى الحضورُ بها	واكتفى بها الغَيْبُ ^{٧٤}
أنتم الظُّلالُ لنا	والمنازلُ الخُصْبُ
لو مدحتكم زمني	لم أقمَ بما يَجِبُ

مَرَقِص

(نُظِمَت هذه القصيدة في وصفِ مَرَقِصٍ أُقِيمَ بسراي عابدين سنة ١٩٠٤ م.)

مالَ واحتَجَبُ	وَادَّعى الغَضَبُ
ليتَ هاجِرِي	يُشرِحُ السَّبَبُ
عَتَبُهُ رَضًا	ليته عَتَبُ
علَّ بيننا	واشيًا كَذَبُ

^{٦٩} الحِقَب: جمع حقبة، وهي هنا بمعنى السَّنة.

^{٧٠} الندى: الكرم. والنَّشَب: العقار، أو المال.

^{٧١} الحَدَب: العطف والإشفاق.

^{٧٢} الروض الأشْبُ: الملتفُّ.

^{٧٣} ارتغب في الأمر: رغب فيه.

^{٧٤} الغَيْب: جمع غائب.

يَخْلُقُ الرَّيْبُ ^{٧٥}	أَوْ مُفَنِّدًا
دَمْعُهُ سُحْبٌ ^{٧٦}	مَنْ لِمُدْنَفٍ
هُمُّهُ اللَّعِبُ	بَاتَ مُتَعَبًا
عِنْدَهُ وَصَبٌ	يَسْتَوِي خَلٍ
غَيْرَ مُحْتَسِبٍ	نَقْتُ صَدَّةٍ
سَلٍ وَالْكُتْبُ	ضَقْتُ فِيهِ بِالرُّ
أَخَجَلَ الْقُضْبُ	كُلَّمَا مَشَى
وَالْمَهَا نَسَبُ	بَيْنَ عَيْنِهِ
شَفَّ عَنْ لَهَبٍ	مَاءٌ خَدِّهِ
شُرْبُهَا وَجَبُ ^{٧٧}	سَاقِي الطَّلَا
فَوْقَهَا الْحَقْبُ ^{٧٨}	هَاتِهَا مَشَتْ
تَنْفُثُ الْحَبَبُ ^{٧٩}	بَابِلِيَّةٌ
آدَمُ الْعِنَبُ	إِنَّ كَرَمَهَا
دَنَّهَا الْأَدَبُ	هُذَّبَتْ فَفِي
خَيْرَ مَنْ شَرِبَ	اسْقِهَا فَتَّى
رَاضَهَا الْحَسَبُ	كُلَّمَا طَغَى
هَالَةٌ عَجَبُ ^{٨٠}	«عَابِدِينَ» أَم
وَالْعُلَا طُنْبُ ^{٨١}	أُسُّهُ الْهُدَى
مَائِجُ الرَّحَبُ	مُشْرِفُ الذُّرَا

^{٧٥} مفنِّدٌ: مكذِّبٌ.

^{٧٦} المدنف: الذي أثقله المرض.

^{٧٧} الطلاء: الخمر.

^{٧٨} الجقب: جمع حقبة، وهي السَّنة.

^{٧٩} الحبيب: الفقايع التي تعلق الماء والخمر.

^{٨٠} الهالة: دارة القمر.

^{٨١} الطنْب: حبلٌ طويلٌ يُشدُّ به سرادق البيت، أو الوتد.

قام ربُّه	يرفع الحُجُبُ
عندَ عرشِه	عرشٍ «منحُبِّ»
دونَ عِزِّه	«تُبَّعُ» الغَلَبُ
السُّرَاةُ مِن	وفدِه النُّخَبُ
حوْلَ سُدَّةِ	حقُّها الرِّغْبُ
طابَ عندها الـ	عُجْمُ والعَرَبُ
وارتضى المَلا	من بني الصُّلْبُ
مِنَ حِسانِهِم	سِرْبُ انسَرَبُ
بينَ كوكِبِ	يَسْحَبُ الذَّنْبُ
عندَ جُوذِرِ	فاتنِ الشَّنْبِ ^{٨٢}
عندَ شادينِ	حاسِرِ اللَّبِّ ^{٨٣}
تذهبُ النُّهَى	أينما ذهبُ
يلفتُ المَلا	كُلَّما وثَبُ
في غلائِلِ	سُنْدِسٍ قُشْبِ ^{٨٤}
دونهنَّ لا	يثبَّتُ اليَلْبُ ^{٨٥}
قرَّ نَهْدُهُ	عطفُه اضْطَرَبُ
خَصَرُهُ هبا	صدرُه صَبَبُ
يُرْكِضُ النُّهَى	مَشْيُهُ الخَبَبُ
رائعًا كما	شاءَ في الكُتُبِ
أنَّسًا إلى	شَبَّهه انجَذَبُ
يستخِفُّه	أينما انقلبُ

^{٨٢} الشنب: ماء ورقَّة وعذوبة في الأسنان.

^{٨٣} الشادن: ولد الظبية. واللَّب: المنحر، وموضع القلادة من الصدر.

^{٨٤} قُشْب: جمع قشيب، وهو الجديد، والقشيب أيضًا الأبيض والنظيف.

^{٨٥} اليَلْب: الترسة، أو الدروع اليمانية من الجلود، وقيل جلود يُخَرَز بعضها إلى بعض ثُلُبَس على الرءوس، واليَلْب الفولان، واليَلْب خالص الحديد.

مُطَرِبٌ مِنَ اللَّـمَّ حُنٍ مُنْتَحَبٍ
يَجْمَعُ الْمَلَا يُحْضِرُ الْغَيْبِ
مَا حَادَا الْمَهَا قَبْلَهُ طَرِبِ

* * *

يَا ابْنَ خَيْرِ أَبٍ يَا أَبَا النُّجُبِ
أَنْتَ «حَاتِمٌ» لِلْقَرَى انْتُدِبِ
فِي خَوَانِهِ كُلُّ مَا يَجِبِ
لَمْ تُقَمِّ عَلَى مِثْلِهِ الْقُبُبِ
أَنْهَلَ الْبِرَا يَا وَمَا نَضَبِ
أَطْعَمَ الْوَرَى لَمْ يَقُلْ جَدَبِ
مَا بِهِمْ صَدَى مَا بِهِمْ سَعَبِ^{٨٦}
قُمْ أَبَا «نُؤَا سَ» انْظُرِ النَّشَبِ^{٨٧}
مَا الْخَصِيبُ مَا أَلِ بَحْرُ ذُو الْعُجُبِ
هَلْ عَهْدَتُهُ يُمِطِرُ الذَّهَبِ
ذَا هُوَ الْجَنَا بُ الَّذِي خَصِبِ
ظَلَّلَ الْوَرَى رَوْضُهُ الْأَشْبِ^{٨٨}
خَيْرٌ مَن دَعَا خَيْرٌ مَن أَدَبِ^{٨٩}

* * *

«رَبِّ مِصْرَ» عَشْ وَابْلُغِ الْأَرْبِ
لَمْ تَزَلْ لَيَا لِيكَ تُرْتَقِبِ
مِثْلَ صَفْوَاهَا الدَّ هَرُ مَا وَهَبِ

^{٨٦} السَّغْبُ: الجوع، وقيل لا يكون إلا مع تعب.

^{٨٧} النَّشَبُ: المال والعقار.

^{٨٨} الْأَشْبُ: الملتف.

^{٨٩} أَدَبُ: أقام المأدبة.

أَحْيَاهَا لَنَا	عِدَّةَ الشُّهُبِ
هَآكَ مِدْحَةَ الشَّ	أَعْرِ الْأَرْبِ ^{٩٠}
زَقَّهَا إِلَى	خَيْرٍ مَن خَطَبُ
فَارِسِيَّةً	بَزَّتِ الْعَرَبُ
لَمْ يَجِئْ بِهَا	شَاعِرٌ نَهَبُ
إِنْ تُرَاعَهَا	تَسْمَعِ الْعَجَبِ ^{٩١}
بَيِّدَ أَنَهَا	بَعْضُ مَا وَجَبُ

تحلية كتاب

(قِيلَتْ بمناسبة تأليف كتاب فتح مصر الحديث لحافظ بك عوض.)
(صفة الكتاب - صفة التاريخ - صفة الجبرتي - واقعة الأهرام.)

أَنَا مَن بَدَلُ بِالْكُتُبِ الصَّحَابَا	لَمْ أَجِدْ لِي وَافِيًا إِلَّا الْكِتَابَا
صَاحِبٌ إِنْ عِبْتَهُ أَوْ لَمْ تَعِبْ	لَيْسَ بِالوَاجِدِ لِلصَّاحِبِ عَابَا
كُلَّمَا أَخْلَقْتُهُ جَدَّدَنِي	وَكَسَانِي مِنْ حُلَى الْفَضْلِ ثِيَابَا
صُحْبَةً لَمْ أَشْكُ مِنْهَا رِيْبَةً	وَوِدَادٌ لَمْ يُكَلِّفْنِي عِتَابَا
رُبَّ لَيْلٍ لَمْ نُقْصِرْ فِيهِ عَنْ	سَمَرٍ طَالَ عَلَى الصَّمْتِ وَطَابَا
كَانَ مِنْ هَمٍّ نَهَارِي رَاحَتِي	وَنَدَامَايَ وَنَقْلِي وَالشَّرَابَا ^{٩٢}
إِنْ يَجِدُنِي يَتَحَدَّثُ أَوْ يَجِدُ	مَلَلًا يَطْوِي الْأَحَادِيثَ اقْتِضَابَا
تَجِدُ الْكُتُبَ عَلَى النِّقْدِ كَمَا	تَجِدُ الْإِخْوَانَ صِدْقًا وَكِذَابَا
فَتُخَيِّرُهَا كَمَا تَخْتَارُهُ	وَأَخْرَ فِي الصَّحْبِ وَالْكُتُبِ اللَّبَابَا
صَالِحُ الْإِخْوَانِ يَبْغِيكَ التَّقَى	وَرَشِيدُ الْكُتُبِ يَبْغِيكَ الصَّوَابَا

* * *

^{٩٠} الأرب: الماهر البصير.

^{٩١} تراعاها: تُصْغِي إِلَيْهَا.

^{٩٢} النقل، بالفتح: مَا يُنْقَلُ بِهِ عَلَى الشَّرَابِ مِنْ فَسْتَقٍ وَتَفَاحٍ وَنَحْوِهِمَا.

غَالٍ بالتاريخ واجعل صُحُفَهُ
قَلْبَ الإنجيل وانظر في الهدى
رُبَّ مَنْ سافر في أسفاره
واطلب الخلدَ ورُمهُ مَنْزِلًا
عاشَ خَلْقٌ ومَضَوْا ما نقصوا
أخذَ التاريخُ ممَّا تركوا
ومن الإحسانِ أو من ضدهِ
مثلُ القومِ نسُوا تاريخَهم
أو كمغلوبٍ على ذاكرةِ

مِنْ كِتَابِ اللّهِ فِي الإِجْلَالِ قَابَا
تَلَقَّ للتاريخِ وزناً وحسابا
بليالي الدهرِ والأيامِ آبا
تجدِ الخلدَ من التاريخِ بابا
رُقْعَةً الأرضِ ولا زادوا التُّرابا
عملاً أحسنَ أو قولاً أصابا
نجحَ الراغبُ في الذِّكرِ وخابا
كلقيطٍ عَيٍّ فِي الناسِ انتسابا
يشتكى من صِلَةِ الماضي انقضابا^{٩٣}

* * *

يا أبا «الحُفَاطِ» قد بَلَّغْتَنَا
لَكَ فِي الفتحِ وفي أحداثه
مَنْ يُطَالَعُه وَيَسْتَأْنَسُ بِهِ
صُحُفٌ أَلْفَتْهَا فِي شِدَّةِ
لِغَةِ «الكامل» فِي استرساله
إِنَّ لِلْفَصْحَى زِمَامًا وَيدًا
لِغَةُ الذِّكْرِ لِسَانُ الْمُجْتَبَى
كُلُّ عَصِرٍ دَارُهَا إِنْ صادفتِ
ائتِ بِالْعُمَرَانِ رَوْضًا يَانِعًا
لَا تَجِنُّهَا بِالْمَتَاعِ الْمُقْتَنَى
سَلْ بِهَا أُنْدَلَسًا هَلْ قَصَّرَتْ
غُرِسَتْ فِي كُلِّ تَرْبٍ أَعْجَمِ

طَلْبَةً بَلَّغَكَ اللّهُ الرِّغَابَا
فَتَحَ اللّهُ حَدِيثًا وَخِطَابَا
يَجِدِ الْجِدَّ وَلَا يَعدِمُ دَعَابَا
يَتَلَاشَى دُونَهَا الْفِكْرُ انْتِهَابَا
«وَابِنِ خَلْدُونَ» إِذَا صَحَّ وَصَابَا
تَجَنَّبُ السَّهْلَ وَتَقْتَادُ الصُّعَابَا^{٩٤}
كَيْفَ تَعْيَا بِالْمُنَادِينِ جَوَابَا
مَنْزِلًا رَحْبًا وَأَهْلًا وَجَنَابَا^{٩٥}
وَادْعُهَا تَجِرِ يَنَابِيعَ عَذَابَا
سَرَقًا مِنْ كُلِّ قَوْمٍ وَنِهَابَا
دُونَ مِضْمَارِ الْعُلَا حِينَ أَهَابَا
فَزَكَّتْ أَصْلًا كَمَا طَابَتْ نِصَابَا

^{٩٣} انقضابا: انقطاعًا.

^{٩٤} تَجَنَّبُ: تنحَّى.

^{٩٥} الجَنَابُ: الفناء.

وَمَشَتْ مَشِيَّتَهَا لَمْ تَرْتَكِبْ غَيْرَ رَجَلَيْهَا وَلَمْ تَحْجُلْ غُرَابًا^{٩٦}

* * *

لَيْسَ الْأَيَّامَ دَجْنًا وَضَبَابًا ^{٩٧}	إِنَّ عَصْرًا قُمْتَ تَجْلُوهُ لَنَا
ظُلُمَاتٍ كُدْجِي اللَّيْلِ حِجَابًا	الْمَمَالِيكَ تَمْشَى ظُلْمُهُمْ
غَيْرَ أَنْ الْمَتَنَّبِيَّ عَنْهُ خَابًا ^{٩٨}	كُلُّهُمْ كَافُورٌ أَوْ عَبْدُ الْخَنَا
إِنْ لِلشَّرِّ إِلَى الشَّرِّ انْجَذَابًا	وَلِكُلِّ شَيْعَةٍ مِنْ جَنْسِهِ
غَيْرَ هَذَا الْأَزْهَرِ السَّمْحِ شَهَابًا ^{٩٩}	ظُلُمَاتٌ لَا تَرَى فِي جُنْحِهَا
فَاحْتَمَى فِيهَا رَوَاقًا وَقَبَابًا	زَيْدِ الْأَخْلَاقِ فِيهِ حَائِطًا
صَيَّرُوهُ بِسِلَاحِ الْحَقِّ غَابًا ^{١٠٠}	وَتَرَى الْأَعْزَالَ مِنْ أَشْيَاخِهِ
رَجُلٌ يَقْرَأُ أَوْ يَدْرِي الْكِتَابَا	قَسَمًا لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ بِهَا
يُنْقِذُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَمْلِكْ ذَهَابًا ^{١٠١}	حَفِظَ الدِّينَ مَلِيًّا وَمَضَى
وَقُصَارَى عَاجِزٍ أَلَا يُهَابَا	أَوْذَيْتَ هَيْبَتَهُ مِنْ عَجْزِهِ
دَوْلَةً مَا عَرَفَتْ إِلَّا الْجِرَابَا	لَمْ تُغَادِرْ قَلَمًا فِي رَاحَةٍ
قَلَمًا عَنْ غَائِبِ الْأَقْلَامِ نَابًا ^{١٠٢}	أَقْعَدَ اللَّهَ «الْجَبْرَتِيَّ» لَهَا
مَرْقَمًا أَهْـؤَى مِنَ الصَّلِّ انْسِيَابًا ^{١٠٣}	خَبَأَ «الشَّيْخُ» لَهَا فِي رُذْنِهِ
يَا لَهُ مِنْ مَلَكٍ يَهْوَى السَّبَابَا ^{١٠٤}	مَلَكٌ لَمْ يُغْضِ عَنْ سَيِّئَةٍ

^{٩٦} لم تحجل غرابا: كناية عن أنها لم تقلد كما قلّد الغراب الطاووس.

^{٩٧} الدجن: إلباس الغيم الأرض.

^{٩٨} كافور: هو كافور الإخشيدي ممدوح المتنبي. وعبد الخنا: أي كافور.

^{٩٩} الأزهر: يعني به معهد الأزهر.

^{١٠٠} الأعزال: الذين لا سلاح لهم.

^{١٠١} لم يملك ذهابًا: أي لم يستطع.

^{١٠٢} الجبرتي: المؤرّخ المعروف.

^{١٠٣} الشيخ يعني به الجبرتي. والرُذْن: أصل الكُـم، وكانت العرب تضع فيه الدراهم والدنانير. والمرقم:

القلم. والصل: الثعبان.

^{١٠٤} السّبَاب: السبُّ.

لا يراه الظُّلْمُ في كاهِلِهِ وهو يكوي كاهِلَ الظلمِ عقابا
صُحْفُ «الشيخ» ويوميأته كزمانِ الشيخ سُقْمًا واضطرابا
من حواشٍ كجَلِيدٍ لم يذُبْ وفصولٍ تُشْبِه التَّبَرَّ المُذابا
و«الجبرتي» على فِطْنَتِهِ مَرَّةً يَغْبَى وحينًا يتغابى^{١٠٥}
مُنْصِفٌ ما لم يَرْضَ عاطفةً أو يُعالِجْ لهوى النفسِ غَلَابًا^{١٠٦}
وإذا الحيُّ تولَّى بالهوى سيرةَ الحيِّ بغى فيها وحابى

* * *

وقعةُ الأهرامِ جَلَّتْ مَوْقعًا وتعالَت في المغازي أن تُرابًا^{١٠٧}
عِظَةُ الماضي ومُلْقَى درسه لِعُقُولٍ تجعلُ الماضي مَثابًا^{١٠٨}
من بناتِ الدهرِ إلا أنها تَنْشُرُ الدهرَ وتطويه كعابًا^{١٠٩}
ومن الأيامِ ما يَبْقَى وإن أَمَعَنَ الأبطالُ في الدهرِ احتجابا
هي من أيِّ سبيلٍ جئَتْها غايةً في المَجْدِ لا تدنو طَلابا
انظُرِ الشرقَ تجذُّها صرَّفتَ دولةَ الشرقِ استواءً وانقلابا
جلَبَت خَيْرًا وشرًّا وسَقَّت أُمَمًا في مَهْدِهِم شُهَدًا وصابا^{١١٠}
في «نَصِييْن» لِبِسْنَا حُسْنَهَا وعلى التَّلِّ لِبِسْنَاهَا مَعابًا^{١١١}
إن سِرْبًا زَحَفَ «النَّسْرُ» به قَطَعَ الأرضَ بِطاحًا وهضابًا^{١١٢}
إن ترامت بلدًا عِقبانُهُ خَطَفَتْ تاجًا أو اصطادت عُقابًا^{١١٣}

^{١٠٥} يتغابى: يتغافل.

^{١٠٦} غَلَابًا: أي مغالبة.

^{١٠٧} المغازي: وقائع الحروب والمعاني. تُرابًا: أي يُشَكُّ في قيمتها بالنظر لعظيم أثرها في مستقبل الشرق.

^{١٠٨} مَثابًا: أي مرجعًا.

^{١٠٩} بنات الدهر: أي شذائده. وكعاب: أي وهي صبيّة لم تكبر.

^{١١٠} الصاب: عصارة شجر مُر.

^{١١١} نَصِييْن: أكبر الوقائع وأشهرها بين إبراهيم بن محمد علي وبين الأتراك. التل: واقعة التل الكبير المشهورة التي جرّت على مصر الاحتلال الإنجليزي.

^{١١٢} النسْر: يعني به نابليون.

^{١١٣} عِقبان: واحداه عُقاب، وهو طائر من الجوارح.

شَهِدَ «الْجِيزِيُّ» مِنْهُمْ عُصْبَةً
كَذَّبَ الْقَفْرِ مِنْ طُولِ الْوَغَى
قَادَهُمَ لِلْفَتْحِ فِي الْأَرْضِ فَتَّى
غَرَّتِ النَّاسَ بِهِ نَكْبَتُهُ
بَرَزَتْ بِالْمَنْظَرِ الضَّاحِي لَهُمْ
حُلِّيَ الْفُرْسَانُ فِيهَا جَوْهَرًا
فِي سِلَاحٍ كَحُلِيِّ الْغَيْدِ مَا
طَرَحَتْ مَصْرٌ فَكَانَتْ «مُومِيَا»
نَالَهَا الْأَعْرَضُ ظَفْرًا مِنْهُمَا
وَبَنُو الْوَادِي رَجَالًا الْجَمَى
مَوْقِفَ الْعَاجِزِ مِنْ خَلْفِ الْوَغَى

لَبِسُوا الْغَارَ عَلَى الْغَارِ اعْتَصَابًا^{١١٤}
وَاخْتَلَفَ النَّقْعَ لَوْنًا وَإِهَابًا^{١١٥}
لَوْ تَأَنَّى حَظَّهُ قَادَ السَّحَابَا
جَمَعَ الْجُرْحُ عَلَى اللَّيْثِ الذُّبَابَا
فَلِيقُ كَالزَّهْرِ حُسْنًا وَالتَّهَابَا^{١١٦}
وَجِلَالُ الْخَيْلِ دُرًّا وَذَهَابَا^{١١٧}
لَمَسَتْ طَعْنًا وَلَا مَسَتْ ضَرَابَا
بَيْنَ لَصَّيْنٍ أَرَادَاهَا جُذَابَا
مِنْ ذُنَابِ الْحَرْبِ وَالْأَطْوَلُ نَابَا
وَقَفُوا مِنْ سَاقَةِ الْجَيْشِ ذُنَابِي
يَحْرُسُ الْأَحْمَالَ أَوْ يَسْقِي مُصَابَا

الربيع ووادي النيل

(إلى «هول كين» الكاتب الروائي الشهير.)

آذَارُ أَقْبَلَ قُمْ بَنَا يَا صَاحِ
وَاجْمَعْ نَدَامَى الظَّرْفِ تَحْتَ لَوَائِهِ
صَفَوْا أُتِيحَ فَخْذٌ لِنَفْسِكَ قِسْطُهَا
وَاجْلِسْ بِضَاحِكَةِ الرِّيَاضِ مُصَفَّقًا
وَاسْتَأْنَسَنَّ مِنَ السُّقَاةِ بِرُفْقَةٍ
رَقَّتْ كُنْدَمَانِ الْمُلُوكِ خِلَالَهُمْ
وَاجْعَلْ صَبُوحَكَ فِي الْبُكُورِ سَلِيلَةً

حَيَّ الرَّبِيعَ حَدِيقَةَ الْأَرْوَاحِ
وَانشُرْ بِسَاحَتِهِ بِسَاطَ الرِّاحِ
فَالصَّفْوُ لَيْسَ عَلَى الْمَدَى بِمُتَاحِ
لِتَجَاوِبِ الْأَوْتَارِ وَالْأَقْدَاحِ
غُرٌّ كَأَمْثَالِ النُّجُومِ صَبَاحِ
وَتَجَمَّلُوا بِمَرْوَةٍ وَسَمَاحِ
لِلْمُنْجَبِينَ الْكَرِّمِ وَالتَّفَاحِ^{١١٨}

^{١١٤} الجيزي: يعني به هرم الجيزة. واعتصب: تتوَج.

^{١١٥} النقع: الغبار. والإهاب: الجلد.

^{١١٦} الضاحي: البارز. والزهر: يعني بها النجوم.

^{١١٧} الجلال: واحدها جل، وهو للدابة كالثوب للإنسان تُصَان به.

^{١١٨} الصبوح: ما أصبح عند القوم من الشراب فشربوه.

مهما فضضت دنانها فاستضحكت
تطغى فإن ذكرت كريم أصولها
«فرعون» خبأها ليوم فتوحه
ما بين شاذ في المجالس أئكُّه
غريد على أوتاره يُوحى إلى
بيض القلانس في سواد جلاب
رتلن في أوراقهن ملاحنا
يخطرن بين أرائك ومنابر

* * *

ملك النبات فكل أرض داره
منشورة أعلامه من أحمر
لبست لمقدمه الخمائل وشيها
يغشى المنازل من لواظ نرجس
ورءوس «منثور» خفضن لعزه
الورد في سرر الغصون مُفتَّح
ضاحي المواكب في الرياض مُمَيَّز
مر النسيم بصفحته مقبلاً
هتك الردى من حسنه وبهائه
يُنْبِيكَ مَصْرَعُهُ وَكُلُّ زَائِلٌ
ويقائق النسرين في أغصانها
و«الياسمين» لطيفه ونقيته

تلقاه بالأعراس والأفراح
قان وأبيض في الربى لَمَّاح
ومرحن في كنف له وجناح
أنا وأنا من ثغور أقاح^{١١٩}
تيجانهن عواطر الأرواح
مُتَقَابِلٌ يُثْنِي عَلَى الْفَتْاحِ
دون الزهور بشوكية وسلاح
مر الشفاه على حدود ملاح
بالليل ما نسجت يد الإصباح
أن الحياة كغدوة وزواج
كالدرر رُكِبَ فِي صَدُورِ رِمَاحِ^{١٢٠}
كسريرة المتنزه المسماح

^{١١٩} أحد آلهة قدماء المصريين.

^{١٢٠} الأيك: الشجر الكثيف الملتف، وقيل الغيضة تُنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

^{١٢١} أقاح: واحدا أحوانة، وهو نبات له زهر أبيض في وسطه كتلة صغيرة صفراء.

^{١٢٢} يقائق: جمع يقق، وأبيض يقق أي شديد البياض ناصعه. والنسرين: ورد أبيض عطري قوي الرائحة.

مُتَالِقٌ خَلَلَ الْغُصُونِ كَأَنَّهُ
و«الْجُلْنَارُ» دَمٌ عَلَى أَوْرَاقِهِ
وَكَأَنَّ مَخْزُونٌ «الْبَنْفَسَج» ثَاكِلٌ
وَعَلَى «الْخَوَاطِرِ» رِقَّةٌ وَكَأَبَةٌ
وَالسَّرُورُ فِي الْحَبْرِ السَّوَابِغِ كَاشِفٌ
و«النَّخْلُ» مَمَشُوقُ الْعُذُوقِ مُعَصَّبٌ
كَبَنَاتٍ فَرَعُونَ شَهِدَنَ مَوَاكِبًا
وَتَرَى الْفَضَاءَ كَحَائِطٍ مِنْ مَرْمَرٍ
الْغَيْمُ فِيهِ كَالنَّعَامِ بَدِينَةٌ
وَالشَّمْسُ أَبْهَى مِنْ عُرُوسٍ بَرَّقَعَتْ
وَالْمَاءُ بِالْوَادِي يُخَالُ مَسَارِبًا
بَعَثَتْ لَهُ شَمْسُ النَّهَارِ أَشْعَةً
يَزْهَوُ عَلَى وَرَقِ الْغُصُونِ نَثِيرُهَا
وَجَرَتْ سَوَاقٍ كَالنَّوَادِبِ بِالْقُرَى
الشَّاكِيَاتُ وَمَا عَرَفْنَ صَبَابَةً
مِنْ كُلِّ بَادِيَةِ الضُّلُوعِ غَلِيلَةٍ
تَبْكِي إِذَا وَنَيْتَ وَتَضَحُكَ إِنْ هَفَّتْ
هِيَ فِي السَّلَاسِلِ وَالْغُلُولِ وَجَارُهَا

فِي بُلْجَةِ الْأَفْنَانِ ضَوْءُ صَبَاحٍ^{١٢٣}
قَانِي الْحُرُوفِ كَخَاتِمِ السَّفَاحِ
يَلْقَى الْقَضَاءَ بَخْشِيَّةً وَصَلَاحِ
كَخَوَاطِرِ الشُّعْرَاءِ فِي الْأَتْرَاحِ^{١٢٤}
عَنْ سَاقِهِ كَمَلِيحَةٍ مِفْرَاحٍ^{١٢٥}
مُتَزَيِّنٌ بِمَنَاطِقٍ وَوَشَاحِ
تَحْتَ «الْمَرَاوِحِ» فِي نَهَارٍ ضَاحِ
نُضِدَتْ عَلَيْهِ بَدَائِعُ الْأَلْوَاكِ
بَرَكَتٍ وَأُخْرَى حَلَّقَتْ بِجَنَاحِ
يَوْمِ الزَّفَافِ بِعَسَجِدٍ وَضَاحِ
مِنْ زَيْبِقٍ أَوْ مُلَقِيَاتِ صِفَاحٍ^{١٢٦}
كَانَتْ حُلًى «النَّيْلُوفِرِ» السَّبَاحِ
زَهْوُ الْجَوَاهِرِ فِي بَطُونِ الرَّاحِ
رُغْنُ الشَّجِيِّ بِأَنَّةٍ وَنُوحِ
الْبَاكِيَاتِ بِمَدْمَعِ سَحَاحِ
وَالْمَاءُ فِي أَحْشَائِهَا مِلْوَاحٍ^{١٢٧}
كَالْعَيْسِ بَيْنَ تَنْشِيطٍ وَزَرَاكِ^{١٢٨}
أَعْمَى يَنْوُو بَنِيرَهُ الْفَدَاحِ

* * *

إِنِّي لَأَذْكُرُ بِالرَّبِيعِ وَحُسْنِهِ عَهْدَ الشَّبَابِ وَطَرَفِهِ الْمِمْرَاحِ^{١٢٩}

^{١٢٣} البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر.

^{١٢٤} الخطر: نبات يُجَعَلُ وَرَقُهُ فِي الْخَضَابِ الْأَسْوَدِ يُخْتَصَّبُ بِهِ.

^{١٢٥} الحبر: جمع حَبْرَةٍ بِالتَّحْرِيكِ، ضَرْبٌ مِنْ بَرَدِ الْيَمَنِ، وَمَلَأَةٌ سُودَاءُ تَلْبَسُهَا نِسَاءُ مِصْرَ.

^{١٢٦} صفاح. واحده صفح، وهو عرض السيف.

^{١٢٧} الملواح: السريع العطش.

^{١٢٨} رزحت الناقة رزوحًا ورزحًا: أَلْقَتْ نَفْسَهَا إِعْيَاءً وَهَزَالًا.

^{١٢٩} الطرف: هو الكريم من الخيل.

هل كان إلا زهرة كزهوره عجلَ الفناء لها بغير جناح

* * *

«هول كين» مصرُّ روايةً لا تنتهي
فيها من البرديِّ والمُزْمورِ والتَّـ
ومِنَا» و«قمبيز» على «إسكندر»
تلك الخلائقُ والدُّهورُ خِزانةُ
أفقِ البلادِ وأنت بين رُبوعِها
منها يدُ الكُتَابِ والشرحِ
سورةَ والفرقانِ والإصحاحِ^{١٢٠}
فالقِصرينِ فذِي الجلالِ «صلاح»
فابعثْ خيالكِ يأتِ بالمِفْتَاحِ
بالنجمِ مُزدانُ وبالمِصباحِ

مسجد أيا صوفيا

كنيسةٌ صارت إلى مسجدٍ
كانت لعيسى حَرَمًا فانتَهتْ
شَيَدَها الرومُ وأقيالُهم
تُنْبِئُ عن عزٍّ وعن صَوْلَةٍ
مَجَامِرُ الياقوتِ في صَحْنِها
ومِثْلُ ما قد أودعت من حُلَى
كانت بها العذراءُ من فضةٍ
عيسى من الأمِّ لدى هالَةٍ
جَلَّاهما فيها وحلَّاهما
وأودَعَ الجدرانَ من نقشه
فَمِنْ مَلَاكٍ في الدُّجى رائجٍ
ومِنْ نِباتٍ عاشَ كالْبَبْغَا
فَقُلْ لِمَنْ شادَ فَهَدَّ القَوَى
هَدِيَّةُ السَيِّدِ للسَيِّدِ
بِنُصْرَةِ الرُّوحِ إلى أحمدٍ
على مِثَالِ الهَرَمِ الْمُخَلَّدِ^{١٢١}
وعن هَوَى للدينِ لم يَحْمِدِ
تملؤه من نَدَّها المَوْقِدِ^{١٢٢}
لم تَتَّخِذْ دارًا ولم تُحْشِدِ
وكان رُوحُ اللهِ من عسجدٍ
والأمُّ من عيسى لدى فَرَقِدِ
مُصَوِّرُ الرومِ القديرُ اليدِ
بدائِعًا من فنِّه المُفَرِّدِ
عندَ مَلَاكٍ في الضُّحى مُغْتَدِي
وهو على الحائِطِ غَضُّ نَدِي
قُوَى الأجيرِ المُتَعَبِ المُجْهِدِ

^{١٢٠} المزمور: واحد المزامير، وهي الأناشيد والأدعية التي كان يترنم بها داوود عليه السلام.

^{١٢١} أقيالهم: ملوكهم.

^{١٢٢} مجامر الياقوت: جمع مَجْمرة، وهو اسم ما يُجَعَل فيه الجمر.

كَأَنَّهُ فَرَعُونُ لَمَّا بَنَى
 أُيُوعَبْدُ اللّٰهُ بِسَوِّمِ الْوَرَى
 كَنِيسَةً كَالْفَدَنِ الْمُعْتَلِي
 وَاللّٰهُ عَنْ هَذَا وَذَا فِي غَنَى
 قَدْ جَاءَهَا «الْفَاتِحُ» فِي عُصِيَّةٍ
 رَمَى بِهِمْ بَنِيَانَهَا مِثْلَمَا
 فَكَبَرُوا فِيهَا وَصَلَّى الْعِدَا
 وَمَا تَوَانَى الرُّومُ يَفْدُونَهَا
 فَخَلَّتْهَا مِنْ قِيصِرٍ سَعْدُهُ
 بِفَاتِحِ غَازٍ عَفِيفِ الْقَنَا
 أَجَارَ مَنْ أَلْقَى مِقَالِيدَهُ
 وَنَابَ عَمَّا كَانَ مِنْ زُخْرِفٍ
 فَيَا لَثَارٍ بَيْنَنَا بَعْدَهُ
 بَاقٍ كَثَارُ «الْقَدَسِ» مِنْ قَبْلِهِ
 فَلَا يَغْرُنُكَ سَكُونُ الْمَلَا
 لَنْ يَتَرَكَ الرُّومُ عِبَادَاتِهِمْ
 هَذَا لَهُمْ بَيْتٌ عَلَى بَيْتِهِمْ
 فَإِنْ يُعَادُوا فِي مَفَاتِيحِهِ
 يَشِيبُ فِيهِ الطِّفْلُ فِي مَهْدِهِ
 فَكُنْ لَنَا اللَّهُمَّ فِي أَمْسِنَا
 لَوْلَا ضَلَالٌ سَابِقٌ لَمْ يَقُمْ
 فَكُلُّ شَرٍّ بَيْنَهُ أَوْ أُنَى

لَرَّبِّهِ بَيْتًا فَلَمْ يَقْصِدِ ١٣٣
 مَا لَا يُسَامُ الْعَيْرُ فِي الْمَقْوَدِ ١٣٤
 وَمَسْجِدٌ كَالْقَصْرِ مِنْ أُصَيْدِ ١٣٥
 لَوْ يَعْقِلُ الْإِنْسَانُ أَوْ يَهْتَدِي
 مِنَ الْأُسُودِ الرُّكَّعِ السُّجْدِ
 يَصْطَدُّمُ الْجِلْمَدُ بِالْجِلْمَدِ ١٣٦
 وَاخْتَلَطَ الْمَشْهُدُ بِالْمَشْهَدِ
 وَالسِّيفُ فِي الْمُفْدِيِّ وَالْمُفْتَدِي
 وَأُيِّدَتْ بِالْقِيَصِرِ الْأُسْعَدِ
 لَا يَحْمِلُ الْحَقْدَ وَلَا يَعْتَدِي
 مِنْهُمْ وَأَصْفَى الْأَمْنَ لِلْمُرْتَدِي
 جَلَالَةُ الْمَعْبُودِ فِي الْمَعْبَدِ
 أَقَامَ لَمْ يَقْرُبْ وَلَمْ يَبْعُدِ
 لَا نَنْتَهِي مِنْهُ وَلَا يَبْتَدِي
 فَالْشَّرُّ حَوْلَ الصَّارِمِ الْمُغْمَدِ
 أَوْ يَنْزِلُ التُّرْكُ عَنِ السُّوْدِ
 مَا أَشَبَّهَ الْمَسْجِدَ بِالْمَسْجِدِ
 فَيَا لَيَوْمٍ لِلوَرَى أُسُودِ
 وَيُزَعَجُ الْمَيْتُ مِنَ الْمَرْقَدِ
 وَكُنْ لَنَا الْيَوْمَ وَكُنْ فِي غَدِ
 مِنْ أَجْلِكَ الْخَلْقُ وَلَمْ يَقْعُدِ
 أَنْتَ بَرَاءٌ مِنْهُ طَهْرُ الْيَدِ

١٣٣ لم يقصد: لم يعدل.

١٣٤ المقود: ما يُقَاد به من حبل أو غيره.

١٣٥ الفدن: القصر المشيد.

١٣٦ الجلمد: الصخر.

يَا غَابَ بُولُونٍ وَلِي زَمَنُ تَقْضَى لِلْهَوَى
 حُلُمٌ أُرِيدُ رَجْوَعَهُ وَهَبِ الزَّمَانَ أَعَادَهَا
 يَا غَابَ بُولُونٍ وَبِي خَفَقَتْ لِرُؤْيَتِكَ الضُّلُوعُ
 وَأَرَاكَ أَقْسَى مَا عَهْدُ كَمِ يَا جَمَادُ قَسَاوَةَ
 هَلَّا ذَكَرْتَ زَمَانَ كُنَّا نَطْوِي إِلَيْكَ دُجَى اللَّيَالِي
 فَنَقُولُ عِنْدَكَ مَا نَقُولُ نَطْقِي هَوَى وَصَبَابَةً
 نَسْرِي وَنَسْرُحُ فِي فِضَا وَالطَّيْرُ أَقْعَدَهَا الْكَرَى
 فَزَبَبْتُ فِي الْإِنْسَانِ يَغْفِي فِي كُلِّ رُكْنٍ وَقَفَةً
 نَسْقِي وَنُسْقَى وَالْهَوَى فَمِنْ الْقُلُوبِ تَمَائِمٌ
 وَالْغَصْنُ يَسْجُدُ فِي الْفِضَا وَالنَّجْمُ يَلْحَظُنَا بَعِيدٌ
 حَتَّى إِذَا دَعَتْ النُّوَى بَيْنَنَا وَمِمَّا بَيْنَنَا
 لَيْلِي بِمَصْرَ وَلَيْلُهَا

زَمَمٌ عَلَيْكَ وَلِي عَهْدُ وَلَنَا بِظِلِّكَ هَلْ يَعُودُ
 وَرَجُوعُ أَحْلَامِي بَعِيدٌ هَلْ لِلشَّبَابَةِ مَنْ يُعِيدُ
 وَجَدُ مَعَ الذِّكْرِ يَزِيدُ عٌ وَزَلْزَلَ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ^{١٣٨}
 تُمْ فَمَا تَمِيلُ وَلَا تَمِيدُ كَمْ؟ هَكَذَا أَبَدًا جُحُودُ؟
 مَا وَالزَّمَانَ كَمَا نُرِيدُ لِي وَالذُّجَى عَنَّا يَذُودُ
 لُ وَلَيْسَ غَيْرُكَ مَنْ يُعِيدُ وَحَدِيثُهَا وَتَرُ وَعُودُ
 نِكَ وَالرِّيَّاحُ بِهِ هُجُودُ وَالنَّاسُ نَامَتْ وَالْوُجُودُ
 بَطُنًا بِهِ النَّجْمُ الْوَحِيدُ وَبِكُلِّ زَاوِيَةٍ قُعُودُ
 مَا بَيْنَ أَعْيُنِنَا وَلَيْدُ وَمِنْ الْجُنُوبِ لَهُ مُهْودُ
 عِ وَحَبَّذَا مِنْهُ السَّجُودُ نِ مَا تَحُولُ وَلَا تَحِيدُ
 فَتَبَدَّدَ الشَّمْلُ النَّضِيدُ بَحْرٌ وَدُونَ الْبَحْرِ بِيدُ
 بِالْغَرْبِ وَهُوَ بِهَا سَعِيدُ

^{١٣٧} غَاب بُولُونِيَا: مُتَنَزَّهٌ مشهور في باريس.^{١٣٨} العَمِيد: الذي هَزَّه العشق.

المرأة العثمانية

يا مَلَكًا تَعَبَّدَا
مُبَارَكًا فِي يَوْمِهِ
مُسَخَّرًا لِأُمَّةٍ
قَدْ جَعَلَتْهُ تَاجَهَا
وَأَعْرَضَتْ حَيْثُ مَشَى
تُجِلُّهُ فِي حُسْنِهِ
أَنْتِ شُعَاعٌ مِنْ عَلٍ
كَمْ قَدْ أَضَاءَ مَنْزِلًا
وَكَمْ كَسَا الْأَسْوَاقَ مِنْ
لَوْلَا التَّقَى لَقُلْتُ لَمْ
إِنْ شِئْتُ كَانَ الْعَيْرُ أَوْ
وَإِنْ تُرِدْ غِيًّا غَوَى
وَالْبَيْتُ أَنْتِ الصَّوْتُ فِيهِ
كَالْبَبِّغَا فِي قَفْصٍ
وَكَالْقَضِيبِ اللَّدَنِ قَدْ
يَأْخُذُ مَا عَوَّدَتْهُ
مِمَّا انْفَرَدَتْ فِي الْوَرَى
وَكُلُّ لَيْثٍ قَدْ رَمَى
أَنْتِ الَّذِي جَنَّدَتْهُ
وَقُلْتُ كُنْ لِلَّهِ وَالسُّـ

مُصَلِّيًا مَوْحِدَا
وَالْأَمْسِ مِيمُونًا غَدَا
مَنْ حَقَّهَا أَنْ تَسْعَدَا
وَعِزَّهَا وَالسُّؤْدَا
وَأَطْرَقَتْ حَيْثُ بَدَا
كَمَا تُجِلُّ الْفَرْقَدَا
أَنْزَلَهُ اللَّهُ هُدًى
وَكَمْ أَنْارَ مَسْجِدَا
حُسْنِ وَزَانِ الْبَلَدَا
يَخْلُقُ سِوَاكَ الْوَلَدَا
إِنْ شِئْتُ كَانَ الْأَسَدَا
أَوْ تَبِغِ رُشْدًا رَشْدَا
هُ وَهُوَ لِلصَّوْتِ صَدَى
قِيلَ لَهُ فَقَلَّدَا
طَاوَعَ فِي الشَّكْلِ الْيَدَا
وَالْمَرْءُ مَا تَعَوَّدَا
بِفَضْلِهِ وَانْفَرَدَا
بِهِ الْإِمَامُ فِي الْعِدَا
وَسُقَّتْهُ إِلَى الرَّدَى
لَطَانِ وَالتُّرْكِ فِدَى

الهلال

سَنُونَ تَعَادُ وَدَهْرٌ يُعِيدُ
أَضَاءَ لِأَدَمَ هَذَا الْهَلَالُ
نُعِدُّ عَلَيْهِ الزَّمَانَ الْقَرِيبَ
لَعَمْرُكَ مَا فِي اللَّيَالِي جَدِيدُ
فَكَيْفَ تَقُولُ الْهَلَالُ الْوَلِيدُ
وَيُحْصِي عَلَيْنَا الزَّمَانَ الْبَعِيدُ

على صفحتيه حديثُ القرى وأيامُ «عادٍ» ودنيا «ثمود»
و«طيبة» أهلةً بالملوك «وطيبة» مُقفرةٌ بالصعيد
يزولُ ببعضِ سناه الصفا ويفنى ببعضِ سناه الحديد^{١٣٩}
ومن عجبٍ وهو جدُّ الليالي يُبيدُ اللياليَ فيما يُبيدُ

* * *

يقولون يا عامٌ قد عُدتَ لي فيا ليت شعري بماذا تعودُ
لقد كنتَ لي أميسَ ما لم أُرِدْ فهل أنتَ لي اليومَ ما لا أريدُ
ومن صابرَ الدهرِ صبري له شكا في الثلاثينِ شكوى «لبيد»^{١٤٠}
ظمئتُ ومثلي برِّي أحقُّ كأني حُسينٌ ودهري يزيدُ^{١٤١}
تغابيتُ حتى صِحتُ الجهولَ وداريتُ حتى صِحتُ الحسودَ

مَنْظَرُ الشروق والغروب في عالم الماء من أعلى السفينة

لِمَنْ غُرَّةٌ تنجلي من بعيدٍ بمرأى كما الحُلُمُ ضاحٍ سعيدٍ
تَهْزُ الوجودَ تباشيرُها كما هزَّ من والديه الوليدُ
ويغشى الدُنا من حُلاها سناً أضاءَ لنا كلَّ حالٍ نضيدُ^{١٤٢}
من الموجِ مُلتَمِعٌ مثلاًما تحلَّتْ نحرُ الدُمي بالعقودُ^{١٤٣}
أَتَنُّنا من الماءِ مُهْتَزَّةٌ منوَّرةٌ تعتلي للوجودِ
وتصعد من غيرِ ما سُلِّمَ فيا لِلْمُصَوِّرِ هذا الصعودُ
وهذا المُنِيرُ القريبُ القريبُ وهذا المُنِيرُ البعيدُ البعيدُ
وهذا المُنِيرُ الذي لن يُرى وهذا المُنِيرُ وكلُّ شهيدٍ

^{١٣٩} الصِّفا: الصَّخر.

^{١٤٠} لبيد: هو لبيد بن أبي ربيعة أحد المعمرين.

^{١٤١} حسين: هو الحسين بن علي بن أبي طالب. ويزيد: هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان.

^{١٤٢} السنا: الضوء. وحليت المرأة: لبست حليها؛ أي ما تترين به. ونضيد: أي مُنْسَق.

^{١٤٣} الدُمي: واحدها دُمية، وهي الصورة المنقُشة المزيَّنة.

وهذا الجُسامُ الخفيفُ الخطا
ويا لَلْمُصَوِّرِ آثارَها
وتقليلُها كلَّ جمِّ السَّنا
من النار لكنَّ أطرافَها
من النار لكنَّ أنوارَها
هي الشمسُ كانت كما شاءها
تردُّ المِياهُ إلى حدِّها
وتطلعُ بالعِيشِ أو بالرَّدى
وتسعى لذا الناسِ مهما سعت
وقد تتجلَّى إذا أقبلت
وقد تتولَّى إذا أدبرت
فما للغروبِ يَهيجُ الأسى
كذا المرءُ ساعةَ ميلادِهِ
وليس بجارٍ ولا واقعٍ

وهذا الجُسامُ الذي ما يَميدُ
بكلِّ بحارٍ وفي كلِّ بيدُ
وتصغيرُها كلَّ عالٍ مَشيدُ
تدورُ بياقوتةٍ لن تَبِيدُ
إِلَهِيَّةٌ زَيَّنَتْ للعبيدُ
مَماتُ القديمِ حياةَ الجديدُ
وتُبلي جبالَ الصفا والحديدُ^{١٤٤}
على الزرعِ قائمهٍ والحَصِيدُ
بخيرِ الوعودِ وشرِّ الوعيدُ
بنُعمى الشَّقِيِّ وبُؤسى السعيدُ
وليست بمأْمونَةٍ أن تعودُ
وكان الشروقُ لنا أيَّ عيدُ
وساعةٌ يدعو الحِمامُ العنيدُ
سوى الحقِّ ممَّا قضاه المُرِيدُ

مَنْظَرُ طُلُوعِ الْبَدْرِ مِنْ سَفِينَةٍ

مَلِكُ السَّماءِ بَهَرَتْ فِي الْأَنْوَارِ
لَمَّا طَلَعَتْ عَلَى الْمِياهِ تُنِيرُها
وَزَهَتْ لَنَاظِرِها السَّماءُ وَقَرَّ ما
وَأَهْلٌ لِلِهِ السُّرَّاءُ وَأَزْلَفُوا
وَتَأَمَّلُوا فَكُلُّ جَارِحَةٍ لَهُمْ
وَالْبَدْرُ مِنْكَ عَلَى الْعِوَالِمِ يَجْتَلِي
مُتَقَدِّمٌ فِي النُّورِ مُحْجُوبٌ بِهِ

فَفَدَاكَ كُلُّ مُتَوَجِّعٍ مِنْ سَارِي
سَكَنَتْ وَقَدْ كَانَتْ بِغَيْرِ قَرَارٍ
فِي الْبَحْرِ مِنْ عُبُبٍ وَمِنْ تَيَّارٍ^{١٤٥}
لَكَ فِي الْكَمالِ تَحِيَّةُ الْإِكْبَارِ
عَيْنُ تَسَامُرٍ نَوْرَها وَتُسَارِي
بِشَرِّ الْوُجُوهِ وَزَحْمَةِ الْأَبْصارِ
مُوفٍ عَلَى الْآفاقِ بِالْأَسْفارِ

^{١٤٤} الصِّفا: الصَّخْر.

^{١٤٥} الْعُبُب: الْماءُ الْمُتَدَفِّقُ.

يُمناه يجلّوها على النُّظَارِ
يسمو بها والنصفُ كاسٍ عارٍ
عن قُفْلٍ ماسٍ في سِوَارِ نُضَارِ
ضاحٍ ويحملُ منك تاجَ فَخَارِ
والشَّهْبُ دينارٌ لدى دينارٍ
يبدو لها ذيلٌ من الأنوارِ
إِذ تَنَثَّنِي في عسجدٍ زَخَّارِ
أَوْفَيْتَ ثم دَنَوْتَ كالمُحْتَارِ
شِعْرًا ليقْرَأه وأنتَ القاري
ونظيره قُرْبًا وبُعْدَ مَزَارِ
وسواكما قمرٌ من الأقمارِ
وهي الضنينةُ بالخيالِ الساري
لكن أداري والمُحِبُّ يُداري
والله مُطَّلِعٌ على الأسرارِ

يا دُرَّةَ الغَوَاصِ أخرج ظافراً
مُتهللاً في الماءِ أبدى نِصفَهُ
وافى بك الأفقُ السماءَ فأسْفَرَتْ
ونَهَضَتْ يزهو الكونُ منك بِمَنْظَرِ
الماءِ والآفاقُ حولك فضةٌ
والفلكُ مُشرقةُ الجوانِبِ في الدُّجَى
بيننا تَخَطَّرُ في لُجَبِينَ مائِجٍ
وكانها والموجُ مُنتَظِمٌ وقد
غَيِّدَاءَ لاهيةً تَخْطُ لِأَغْيَدِ
فليهنِ بدرَ الأرضِ أنكِ صِنُوءُ
وحلاكما ما البدرُ إلا أنتما
أنتِ الكريمُ على الوجودِ بوجهه
هيفاءُ أهواها وأعشَقْ ذِكْرَهَا
لي في الهوى سرُّ أبيتُ أصُونَه

بلدة المؤتمر لناظرها في بهجة مناظرها

جنيف وضواحيها

طيفٌ يزورُ بفضلِه مهما سرى
سُبُلًا إلى جفنيك لم يرضِ الثرى
ملكًا تنمُّ به السماءُ مُطَهَّرًا
أهدابُه يأخذنَه مُتَحَدِّرًا
حذرًا وخوفًا أن يُراعَ ويُذعرا
بين الجفونِ وبين هُديك والكرى
مُتَصَوِّرًا ما شئتَ أن يتصوِّرا
وتدوسُ ألسنةُ الوشاةِ مُظَفَّرًا
ما سامحت أيامها فيما جرى

لا السُّهْدُ يُدنيني إليه ولا الكرى
تَخَذَ الدُّجَى وسماؤه ونجومه
وأَتَاكَ موفورَ النعيمِ تخالُه
عِلْمَ الظلامِ هبوطه فمَشَتْ له
وحَمَى النسائمُ أن تروحَ وأن تَجِي
ورقدتْ تَزَلِفُ للخيالِ مكانه
فَهَنِئَتْهُ مثلُ السعادةِ شائقًا
تطوي له الرُّقْبَاءُ منصورَ الهوى
لولا امتنانُ العينِ يا طيفَ الرضا

رُونا بتمثالِ الجمال مُنَوِّرا
بك أن تُقدِّم في المُنَى وتُوخِّرا
حتى إذا ودَّعت عانقت الثرى
فدنت كواكبها تُعلِّمه السرى
ويرى له الميلادُ أن يتصدَّرا
بينَ الرياضِ وبينَ ماءٍ «سُويسرا»
من كلِّ أبيضٍ في الفضاءِ وأخضرا
مشبوبةً الأجرامِ شائبةً الذُّرا
وأنافٍ مكشوفٍ الجوانبِ مُنذرا
أُنْنا من الحجرِ الأصمِّ ومشفِّرا^{١٤٦}
ألفيته دَرَجًا يَموجُ مُدَوِّرا
فبدا زبرجده بهنَّ مُجوِّهرا
أوكارُ طيرٍ أو خَميسُ عسكرا^{١٤٧}
والكهرياءُ تُضيءُ أثناءَ الثرى
يحكي حوالِها الغمامُ مُسَيِّرا
بَرِّدا ونارُ العاشقين تَسْعُرُا
وخلالها يجري ومن حولِ القرى
مُتسرِّعا مُتسلسِّلا مُتَعَثِّرا
يَصِلان جِسْرًا في المياهِ ومَعَبِّرا
تطوي الجداولَ نحوها والأنهرا
جاذبتُ ليلي ثوبه مُتَحَيِّرا
أستقبل العَرَفَ الحبيبَ إذا سرى
وقد اطمأنَّ الطيرُ فيها بالكرى
فأميلُ أنظر فيه أطمعُ أن أرى

باتت مُشَوِّقَةً وبات سوادُها
تُعْطى المُنَى وتُنيلهنَّ خليقةُ
وتُعانِقُ القمرَ السَّنيَّ عزيزةُ
في ليلةٍ قَدِمَ الوجودُ هلالُها
وثرية آثارَ البدورِ ليقتفي
ناجيتُ مَنْ أهوى وناجاني بها
حيث الجبالُ صغارُها وكبارُها
تَخِذَ الغمامُ بها بيوتًا فانجلت
والصخرُ عالٍ قام يُشبهه قاعدًا
بين الكواكبِ والسحابِ ترى له
والسفحُ من أيِّ الجهاتِ أتيتُهُ
نَثَرَ الفضاءُ عليه عِقدَ نجومِهِ
وتنظَّمت بيضُ البيوتِ كأنها
والنجمُ يبعث للمياهِ ضياءَهُ
هَامَ الفَراشُ بها وحامَ كتائبُا
خَلِقت لرحمته فباتت نارُهُ
والماءُ من فوقِ الدِّيارِ وتحتها
مُتصوِّبًا مُتصعِّدًا مُتمهِّلا
والأرضُ جِسْرٌ حيث دُرَّتْ ومَعَبَّرُ
والفُلكُ في ظلِّ البيوتِ مَواخِرا
حتى إذا هَدَأَ المَلا في ليله
وخرجت من بين الجسورِ لعلني
أوي إلى الشجرات وهي تهزُّني
ويهزُّ منِّي الماءُ في لمعانه

^{١٤٦} المشفر: الشفة من الإنسان.

^{١٤٧} الخميس: الجيش.

وهناك ازدهت السماء وكان أن
فسريت في لألائه وإذا به
حلم أعارتني العناية سمعها
فرايت صفوي جهره وأخذت أن
وأشرت هل لقيا فأوحى أن غدا
إن أشرقت زهراء تسمو للضحى
فشروقها منه أتم معانیا
تبدو هنالك للوجود وليدة
وتضيء أثناء الفضاء بغرة
فسمت فكانت نصف طار ما بدا
يعلو العوالم مُستقلًا ناميًا
سالت به الآفاق لكن عسجدًا
واهتز فالدنيا له مُهتزة
حتى إذا بلغ السمو كماله
فدنت لناظرها ودان عنانها
واصفر أبيض كل شيء حولها
وسما إليها الطود يأخذها وقد
مسته فاشتعلت بها جنابته
فكأنما مدت به نيرانها
حرقتة واحتترقت به فتوليا
فشروقها الأمل الحبيب لمن رأى
خطبان قاما بالفناء على الصفا
تتغير الأشياء مهما عاودا
أنهارنا تحت «السليف» وفوقه
رجلاً وركباناً وزحلقه على

آنست نوراً ما أتم وأبهر
بدر تُسايره الكواكب خطراً
فيه فما استتممت حتى فُسرا
سسى يقظة ومُنای لبّت حُضرا
بالطود أبيض من جبال «سويسرا»
وإذا هوت حمراء في تلك الذرا
وغروبها أجلى وأكمل منظرها
تهنأ بها الدنيا ويغتبط الثرى
لاحت برأس الطود تاجاً أزهر
حتى أناف فلأح طاراً أكبر
مُستعصياً بمكانه أن يُنقرا
وتغطت الأشباح لكن جوهر
وأناز فانكشف الوجود مُنوراً
أذنت لداعي النقص تهوي القهقري^{١٤٨}
وتبدل المُستعظم المُستصغراً
واحمر برقعها وكان الأصفر
جعلت أعاليه شريطاً أحمر
وبدت ذراه الشم تحمل مجمر
شركاً لتصطاد النهار المُدبر
وأتى طولهما الظلام فعسكرا
وغروبها الأجل البغيض لمن درى
ما كان بينهما الصفاء ليعمر
والله عز وجل لن يتغير
ولدى جوانبه وما بين الذرا
عجل هنالك كهربائي السرى

في مركبٍ مُستأنسٍ سالت به
ينساب ما بين الصخور تمهلاً
وإذا اعتلى بالكهرباء لذروة
لما نزلنا عنه في أمِّ الذرا
أرض تموج بها المناظر جمّة
وقرئ ضربن على المدائن هالة
ومزارعٍ للناظرين روائع
والماء غدر ما أرق وأغزرا
فحشون أفواه السهول سباتاً
قد صغر البعد الوجود لنا فيا

قُضِبَ الحديد تعرجاً وتحذراً
ويخف بين الهوئين تخطراً
عصماء هم معانقاً متسوراً
قمنا على فرع «السليف» لننظرا
وعوالم نغم الكتاب لمن قرا
ومدائن حلين أجياد القرى
لبس الفضاء بها طرازاً أخضرا
وجداول هن اللجين وقد جرى
وملأ أقبال الرواسخ جوهراً^{١٤٩}
لله ما أحلى الوجود مصغراً

وقال يصف مَشاهد الطبيعة في طريقه إلى الآستانة قادماً من أوروبا:

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري
الأرض حولك والسماء اهتزنا
من كل ناطقة الجلال كأنها
دلّت على ملك الملوك فلم تدع
من شك فيه فنظرة في صنعه

حتى أريك بديع صنع الباري
لروائع الآيات والآثار
أم الكتاب على لسان القاري^{١٥٠}
لأدلة الفقهاء والأخبار^{١٥١}
تمحو أثيم الشك والإنكار

* * *

كشف الغطاء عن «الطول» وأشرق
شبّهتها «بلقيس» فوق سريرها
أو بـ «ابن داود» وواسع ملكه

منه الطبيعة غير ذات سِتار
في نضرة ومواكب وجواري
ومعالم للعز فيه كبار^{١٥٢}

^{١٤٩} أقبال الجبال: أي وجوها.

^{١٥٠} أم الكتاب: فاتحته.

^{١٥١} الأخبار: جمع خبر، وهو العالم، وقيل الصالح من العلماء.

^{١٥٢} المعالم: جمع معلّم، وهو ما يُستدلُّ به على الطريق من أثر ونحوه.

هُوجُ الرياحِ خواشعُ في بابهِ والطيرُ فيه نواكسُ المِنقارِ^{١٥٣}

* * *

قامت على ضاحي الجنانِ كأنها
كم في الخمائل وهي بعضُ إمائها
وحسيرةٌ عنها الثيابُ وبضّةٌ
وضحوكُ سنٍّ تملأُ الدنيا سنًّا
ووحيدةٌ بالنجدِ تشكو وحشةً
وكثيرةٌ الأترابِ بالأغوارِ^{١٥٧}

* * *

ولقد تمرُّ على الغديرِ تخالُهُ
حُلُو التسلسلِ موجُه وجريزُهُ
مُدَّت سواعدُ مائه وتألّقت
ينساب في مُخضلةٍ مُبتلّةٍ
زهراءُ عَوْنِ العاشقين على الهوى
قام الجليدُ بها وسالَ كأنه
وترى السماءَ ضحَى وفي جَنحِ الدُّجى
في كلِّ ناحيةٍ سلكتُ ومذهبِ

والنَّبتَ مرآةً زهتَ بإطارِ^{١٥٨}
كأناملٍ مرَّت على أوتارِ
فيها الجواهر من حصىٍ وجِمارِ^{١٥٩}
منسوجةٍ من سُندسٍ ونُضارِ^{١٦٠}
مختارةٍ الشعراءِ في أذارِ
دَمَعُ الصبابةِ بلَّ غُصْنُ عذارِ
مُنشَقَّةٌ عن أنهرٍ وبِچارِ^{١٦١}
جبلانٍ من صخرٍ وماءٍ جاري

^{١٥٣} هُوج: جمع هوجاء، والرياح الهوجاء التي تستوي في هبوبها وتُقَلع البيوت.

^{١٥٤} الضاحي: المكان البارز. ويُزجي: يسوق ويستحث.

^{١٥٥} الإماء: الجواري.

^{١٥٦} الإزار: الملحفة وكل ما ستر.

^{١٥٧} النجد: ما ارتفع من الأرض. والغور: القعر من كل شيء.

^{١٥٨} إطار الشيء: كل ما أحاط به.

^{١٥٩} الجمار: جمع جمرة، وهي الحصى.

^{١٦٠} اخضَلَّ الشيء: صار نديًا بليلاً. والنضار: الذهب.

^{١٦١} الدُّجى: الظلمة أو سواد الليل.

من كلُّ مُنْهَمِرِ الجَوَانِبِ والذُّرَا
عَقْدَ الضَّرِيبِ له عِمَامَةٌ فارِع
وَمُكْذَّبٍ بِالْجَنِّ رِيْعٌ لَصَوْتِهَا
مَلَأَ الْفَضَاءَ عَلَى الْمَسَامِعِ ضَجَّةٌ
وَكَأَنَّمَا طَوْفَانُ نُوحٍ مَا نَرَى
يَجْرِي عَلَى مِثْلِ الصَّرَاطِ وَتَارَةً

غَمِرَ الْحَضِيضُ مُجَلَّلٌ بِوَقَارٍ^{١٦٢}
جَمَّ الْمَهَابَةِ مِنْ شَيُوخٍ نِزَارٍ^{١٦٣}
فِي الْمَاءِ مَنْحَدَرًا وَفِي الْتِيَارِ
فَكَأَنَّمَا مَلَأَ الْجِهَاتِ ضَوَارِي
وَالْفَلَكَ قَدْ مُسِخَتْ حَثِيثَ قِطَارٍ
مَا بَيْنَ هَاوِيَةٍ وَجُرْفٍ هَارِي

* * *

جَابَ الْمَمَالِكَ حَزَنُهَا وَسُهُولُهَا
حَتَّى رَمَى بِرَحَالِنَا وَرَجَائِنَا
مَلِكٌ بِمَفَرِّقِهِ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ
سَكَنَ «الثَّرِيًّا» مُسْتَقَرًّا جَلَالِهِ
فَالشَّرْقُ يُسْقَى دِيْمَةً بِيَمِينِهِ
وَمَدَائِنُ الْبَرِّيْنِ فِي إِعْظَامِهِ
اللَّهُ أَيْدِهِ بِأَسَادِ الشَّرَى
الصَّاعِدِينَ إِلَى الْعَدُوِّ عَلَى الظُّبَا
الْمَشْتَرِينَ اللَّهَ بِالْأَبْنَاءِ وَالـ
الْقَائِمِينَ عَلَى لَوَاءِ نَبِيِّهِ

وَطَوَى شِعَابَ «الصَّرْبِ» وَ«الْبَلْغَارِ»^{١٦٤}
فِي سَاحٍ مَأْمُولٍ عَزِيزِ الْجَارِ
تَاجَانِ تَاجٌ هُدًى وَتَاجُ فَخَارٍ
وَمَشَتْ مَكَارِمُهُ إِلَى الْأَمْصَارِ
وَالْغَرْبُ تُمَطِّرُهُ غِيُوْثُ يَسَارٍ^{١٦٥}
وَعَوَالِمُ الْبَحْرَيْنِ فِي الْإِكْبَارِ
فِي صُورَةِ الْمُتَدَجِّجِ الْجَرَّارِ
الْنَّازِلِينَ عَلَى الْقَنَا الْخَطَّارِ^{١٦٦}
أَزْوَاجٍ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْمَارِ
الْمُنْزَلِينَ مَنَازِلَ الْأَنْصَارِ

* * *

يَا عَرْشَ «قِسْطَنْطِينٍ» نِلْتَ مَكَانَةً
شُرِّفْتَ بِالصَّدِيقِ وَالْفَارُوقِ بَلْ

لَمْ تُعْطَهَا فِي سَالِفِ الْأَعْصَارِ
بِالْأَقْرَبِ الْأَدْنَى مِنَ الْمُخْتَارِ

^{١٦٢} الحضيض: القرار من الأرض عند منقطع الجبل.

^{١٦٣} الضريب: الثلج. والفارع: المرتفع الهيئ الحسن.

^{١٦٤} الحزن: ما غلظ من الأرض.

^{١٦٥} الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

^{١٦٦} الخطار: المضطرب.

حامي الخلافة مجدها وكيانها بالرأي آونة وبالبتار^{١٦٧}

* * *

تَاهَتْ «فَرُوقُ» عَلَى الْعَوَاصِمِ وَازْدَهَتْ
«جَمُّ الْجَلَالِ» كَأَنَّمَا كَرَسِيُّهُ
أَخَذَتْ عَلَى «الْبَسْفُورِ» زُخْرَفَهَا دُجَى
فَالْبَدْرُ يَنْظُرُ مِنْ نَوَافِذِ مَنَزَلِ
وَكَوَاكِبُ الْجُوزَاءِ تَخْطُرُ فِي الرَّبَى
وَاسْمُ الْخَلِيفَةِ فِي الْجِهَاتِ مُنَوَّرُ
كَتَبُوهُ فِي شُرَفِ الْقُصُورِ وَطَالَمَا
بَجَلُوسٍ أَصِيدَ بَاذِخِ الْمَقْدَارِ^{١٦٨}
جُزْءٌ مِنَ الْكَرْسِيِّ ذِي الْأَنْوَارِ
وَتَلَأَلَتْ كَمَنَازِلِ الْأَقْمَارِ
وَالشَّمْسُ ثَمَّ مُطْلَعَةٌ مِنْ دَارِ
«وَالنَّسْرِ» مَطْلَعُهُ مِنَ الْأَشْجَارِ
تَبْدُو السَّبِيلُ بِهِ وَيَهْدِي السَّارِي
كَتَبُوهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ

* * *

يَا وَاحِدَ الْإِسْلَامِ غَيْرَ مُدَافِعٍ
لِي فِي ثَنَائِكَ وَهُوَ بَاقٍ خَالِدٌ
أَخْلَصْتُ حُبِّي فِي الْإِمَامِ دِيَانَةً
لَمْ أَلْتَمَسْ عَرَضَ الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا
إِنِ الصَّنِيعَةُ لَا تَكُونُ كَرِيمَةً
وَالْحُبُّ لَيْسَ بِصَادِقٍ مَا لَمْ تَكُنْ
وَالشَّعْرُ إِنْجِيلٌ إِذَا اسْتَعْمَلْتَهُ
وَتَنَيْتَ عَنْ كَدْرِ الْحَيَاضِ عَنَانَهُ
عِنْدَ الْعَوَاهِلِ مِنْ سِيَاسَةِ دَهْرِهِمْ
«هَذَا مُقَامٌ أَنْتَ فِيهِ مُحَمَّدٌ
«إِنِ الْهَلَالَ وَأَنْتَ وَحْدَكَ كَهْفُهُ
لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مَنْ يَقُولُ أَصُونُهُ
أَنَا فِي زَمَانِكَ وَاحِدُ الْأَشْعَارِ
شِعْرٌ عَلَى الشَّعْرِ الْمَنِيعَةِ زَارِي^{١٦٩}
وَجَعَلْتُهُ حَتَّى الْمَمَاتِ شِعَارِي
أَقْرَضْتُهُ فِي اللَّهِ وَالْمُخْتَارِ
حَتَّى تُقَلِّدَهَا كَرِيمَ نَجَارِ
حَسَنَ التَّكْرُمِ فِيهِ وَالْإِيثَارِ
فِي نَشْرِ مَكْرُمَةٍ وَسَتَرِ عَوَارِ
إِنَّ الْأَدِيبَ مُسَامِحٌ وَمُدارِي
سِرٌّ وَعِنْدَكَ سَائِرُ الْأَسْرَارِ
أَعْدَاءُ ذَاتِكَ فِرْقَةٌ فِي النَّارِ
بَيْنَ الْمَعَاقِلِ مِنْكَ وَالْأَسْوَارِ
صُنُّهُ بِحَوْلِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

^{١٦٧} البتار: السيف القاطع.

^{١٦٨} الأصيد: الملك؛ لأنه لا يلتفت من زهوه يمينًا وشمالًا.

^{١٦٩} الشعري: الكوكب الذي يطلع في الجوزاء، وطلوعه في شدة الحر. وزرى عليه فعله: عابه.

البسفور كأنك تراه

على أَيْ الجِنَانِ بِنَا تَمُرُّ وفي أَيْ الحِدَائِقِ تَسْتَقِرُّ
رُويْدَا أَيَهَا الْفُلُكُ الْأَبْرُ بَلَغْتَ بِنَا الرُّبُوعَ فَأَنْتَ حُرٌّ^{١٧٠}

* * *

سَهَرْتَ وَلَمْ تَنْمَ لِلرَّكَبِ عَيْنُ كَأَنْ لَمْ يُضَوْهِمْ ضَجَرٌ وَأَيْنُ^{١٧١}
يَحُثُّ خَطَاكَ لُجٌّ بَلْ لُجَيْنُ بَلْ الْإِبْرِيْزُ بَلْ أَفُقُّ أَعْرُ^{١٧٢}

* * *

على شِبْهِ السَّهَوِلِ مِنَ الْمِيَاهِ تُحِيْطُ بِكَ الْجَزَائِرُ كَالشَّيَاهِ
وَأَنْتَ لَهْنٌ رَاعٍ ذُو انْتِبَاهِ تَكْرُرُ مَعَ الظَّلَامِ وَلَا تَفْرُ

* * *

يُنِيفُ الْبَدْرُ فَوْقَكَ بِالْهَبَاءِ رَفِيعًا فِي السَّمَوِّ بَلَا انْتِهَاءِ^{١٧٣}
تَخَالُكُمَا الْعَيُونُ إِلَى التَّقَاءِ وَدُونَ الْمُلتَقَى كَوْنٌ وَدَهْرٌ

* * *

إِلَى أَنْ قِيلَ هَذَا «الدردنيلُ» فَسِرْتُ إِلَيْهِ وَالْفَجْرُ الدَّلِيلُ
يُجِيزُكَ وَالْأَمَانُ بِهِ سَبِيلُ إِذَا هُوَ لَمْ يُجِزْ فَالْمَاءُ خَمْرُ

* * *

تَمُرُّ مِنَ الْمَعَاقِلِ وَالْجِبَالِ بَعَالٍ فَوْقَ عَالٍ خَلْفَ عَالِي
إِذَا أَوْمَانَ وَقَفْتَ اللَّيَالِي وَتَحْمِي الْحَادِثَاتِ فَلَا تَمُرُّ

* * *

^{١٧٠} الْفُلُكُ: السفينة، يُوْنْتُ وَيَذْكُرُ.

^{١٧١} الْأَيْنُ: الإعياء.

^{١٧٢} اللَّجَيْنُ: الفضة.

^{١٧٣} الْهَبَاءُ: الغبار، أَوْ مَا يُشَبِّهُ الدُّخَانَ.

الشوقيات

مَدَافِعُ بَعْضِهَا مُتَقَابِلَاتُ وَمِنْهَا الصَّاعِدَاتُ النَّازِلَاتُ
وَمِنْهَا الظَّاهِرَاتُ وَأُخْرِيَاتُ تَوَارَى فِي الصَّخُورِ وَتَسْتَسِرُّ

* * *

فَلَوْ أَنَّ الْبِحَارَ جَرَتْ مِئِينَا وَكَانَ اللَّجُّ أَجْمَعُهُ سَفِينَا
لِتَلْقَى مَنَفَذًا لِلْقَيْنِ حَيْنَا وَلَمَّا يَمْسِسِ «الْبُوغَارَ» ضُرُّ

* * *

وَبَعْدَ الْأَرْخَبِيلِ وَمَا يَلِيهِ وَتِيهِ فِي الْعِيَالِمِ أَيُّ تِيهِ^{١٧٤}
بَدَا ضَوْءُ الصَّبَاحِ فَسِرَتْ فِيهِ إِلَى «الْبَسْفُورِ» وَاقْتَرَبَ الْمَقَرُّ

* * *

تُسَايِرُكَ الْمَدَائِنُ وَالْأَنَاسِي وَفُلُكُ بَيْنَ جَوَالٍ وَرَاسِي^{١٧٥}
وَتَحْضُنُكَ الْجَزَائِرُ وَالرَّوَاسِي وَتَجْرِي رِقَّةً لَكَ وَهِيَ صَخْرُ

* * *

تَسِيرُ مِنَ الْفَضَاءِ إِلَى الْمَضِيقِ فَأَنَا أَنْتَ فِي بَحْرِ طَلِيقِ
وَأَوْنَةٌ لَدَى مَجْرَى سَحِيقِ كَمَا الشَّلَالُ قَامَ لَدَيْهِ نَهْرُ

* * *

وَتَأْتِي الْأَفُقَ تَطْوِيهِ سِجْلًا لِأَخَرِ كَالسَّرَابِ إِذَا أَضَلَّا
إِذَا قُلْنَا الْمَنَازِلُ قِيلَ كَلَّا فَدُونَ بُلُوغِهَا ظَهَرَ وَعَصْرُ

* * *

إِلَى أَنْ حُلَّ فِي الْأَوْجِ النَّهَارُ وَلِلرَّائِي تَبَيَّنَتِ الدِّيَارُ
فَقُلْنَا الشَّمْسُ فِيهَا أَمْ نُضَارُ وَيَا قَوْتُ وَمَرْجَانُ وَدُرُ

* * *

^{١٧٤} العِيَالِم: جمع عيلم، وهو البحر.

^{١٧٥} الْأَنَاسِي: جمع إنسي.

باب الوصف

وَدِدْنَا لَوْ مَشَيْتَ بِنَا الْهُوَيْنَا وَأَيْنَ لَنَا الْخُلُودُ لَدَيْكَ أَيْنَا
لِنَبْهَجَ خَاطِرًا وَنَقَرَّ عَيْنَا بِأَحْسَنِ مَا رَأَى فِي الْبَحْرِ سَفَرًا

* * *

بَلَوَحْ جَامِعِ الصُّوَرِ الْغَوَالِي وَدِيَوَانِ تَفَرَّدَ بِالْخِيَالِ
وَمِرَاةِ الْمَنَازِلِ وَالْمَجَالِي تَمَرُّ بِهَا الطَّبِيعَةُ مَا تَمُرُّ

* * *

فَضَاءٌ مُثَلَّ الْفِرْدَوْسُ فِيهِ وَمَرَأَى فِي الْبَحَارِ بِلَا شَبِيهِ
فَإِيهِ يَا بَنَاتِ الشَّعْرِ إِيهِ فَمَا لَكَ فِي عُقُوقِ الشَّعْرِ عُذْرُ

* * *

لَأَجْلِكَ سِرْتُ فِي بَرٍّ وَبَحْرِ وَأَنْتِ الدَّهْرُ أَنْتِ بِكُلِّ قُطْرٍ
حَنَنْتِ إِلَى الطَّبِيعَةِ دُونَ مَصْرِ وَقُلْتِ لَدَى الطَّبِيعَةِ أَيْنَ مَصْرُ

* * *

فَهَلَّا هَزَكَ النَّبْرُ الْمُذَابُ وَهَذَا اللَّوْحُ وَالْقَلَمُ الْعُجَابُ
وَمَا بَيْنِي وَبَيْنَهُمَا حِجَابُ وَلَا دُونِي عَلَى الْآيَاتِ سِتْرُ

* * *

جِهَاتٌ أَمْ عَذَارَى حَالِيَاتُ وَمَاءٌ أَمْ سَمَاءٌ أَمْ نَبَاتُ
وَتِلْكَ جَزَائِرُ أَمْ نَيِّرَاتُ وَكَيْفَ طُلُوعُهَا وَالْوَقْتُ ظَهْرُ

* * *

جَلَاهَا الْأَفَقُّ صُفْرًا وَهِيَ خُضْرُ كَزَهْرٍ دُونَهُ فِي الرَّوْضِ زَهْرُ
لَوْ بَحْرٌ بِهَا وَالتَّفُّ بَحْرُ كَمَا مَلَكْتَ جِهَاتِ الدَّوْحِ غُذْرُ^{١٧٦}

* * *

تَلُوحُ بِهَا الْمَسَاجِدُ بِانْخَاتِ وَتَتَّصِلُ الْمَعَاقِلُ شَامَخَاتِ

^{١٧٦} الدَّوْحُ: جمع دوحه، وهي الشجرة العظيمة المتسعة من أي شجرة كانت.

طَبَاقًا فِي الْعُلَا مَتَفَاوِتَاتِ سَمَا بَرَّ بِهَا وَانْحَطَّ بَرُّ

* * *

وَكَمْ أَرْضٍ هُنَاكَ فَوْقَ أَرْضِ وَرَوْضٍ فَوْقَ رَوْضٍ فَوْقَ رَوْضٍ
وَدُورٌ بَعْضُهَا مِنْ فَوْقِ بَعْضٍ كَسَطَرٍ فِي الْكِتَابِ عَلَيْهِ سَطَرٌ

* * *

سُطُورٌ لَا يُحِيطُ بِهِنَّ رَسْمٌ وَلَا يُحْصِي مَعَانِيَهُنَّ عِلْمٌ
إِذَا قُرِئَتْ جَمِيعًا فَهِيَ نَظْمٌ وَإِنْ قُرِئَتْ فُرَادَى فَهِيَ نَثْرٌ

* * *

تَأَرَّجُ كُلَّمَا اقْتَرَبَتْ وَتَزَكُّو وَيَجْمَعُهَا مِنَ الْآفَاقِ سِلْكُ^{١٧٧}
تَشَاكَلُ مَا بِهِ فَالْقَصْرُ فُلُكُ عَلَى بُعْدٍ لَنَا وَالْفُلُكُ قَصْرٌ

* * *

وَنَوْنٌ دُونَهَا فِي الْبَحْرِ نَوْنٌ مِنَ الْبَسْفُورِ نَقَطُهَا السَّفِينُ
كَأَنَّ السُّبُلَ فِيهِ لَنَا عَيُونُ وَإِنْسَانُ السَّفِينَةِ لَا يَقْرُ

* * *

هُنَاكَ حَفَّتِ النُّعْمَى خُطَانَا وَحَاطَتْنَا السَّلَامَةُ فِي حِمَانَا
فَأَلْقَيْنَا الْمَرَاسِي وَاحْتَوَانَا بِنَاءٌ لِلْخِلَافَةِ مُشْمَخِرٌ

* * *

فِيَا مَنْ يَطْلُبُ الْمَرَأَى الْبَدِيعَا وَيَعِشْقُهُ شَهِيدًا أَوْ سَمِيعَا
رَأَيْتُ مَحَاسِنَ الدُّنْيَا جَمِيعَا فَهَنَّ الْوَائِي وَالْبَسْفُورُ عَمْرُو

^{١٧٧} تَأَرَّجُ: أَي فَاح.

الرحلة إلى الأندلس

لَمَّا وَضَعَتِ الْحَرْبُ الشُّؤْمَى أَوْزَارَهَا،^{١٧٨} وَفَضَحَهَا اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِهِ وَهَتَكَ إِزَارَهَا،^{١٧٩} وَرَمَ لَهُمْ رُبُوعَ السَّلَامِ وَجَدَّ مَزَارَهَا،^{١٨٠} أَصْبَحَتْ وَإِذَا الْعَوَادِي^{١٨١} مُقْصِرَةٌ! والدواعي غير مقصورة، وإذا الشوق إلى الأندلس أغلب، والنفس بحق زيارته أطلب، فقصده من برشلونة وبينهما مسيرة يومين بالقطار المجد، والبخار المشتد، أو بالسفن الكبرى الخارجة إلى المحيط، الطاوية القديم نحو الجديد من هذا البسيط،^{١٨٢} فبلغت النفس بمَرَاهِ الأَرَبِ، واكتحلت العين في ثراه بآثار العرب، وإنها لشتى المواقع، متفرقة المطالع، في ذلك الفلك الجامع، يسري زائرها من حَرَمٍ إلى حَرَمٍ، كمن يُمسي بالكرنك ويصبح بالهرم، فلا تُقَارِبَ غَيْرَ الْعِتْقِ وَالْكَرَمِ؛ «طُلَيْطَلَة» تُطَلُّ عَلَى جِسْرِهَا الْبَالِي، وَ«أَشْبِيلِيَة» تُشْبِلُ^{١٨٣} عَلَى قَصْرِهَا الْخَالِي، وَ«قَرْطَبَة» مَنْتَبِذَةٌ نَاحِيَةً بِالْبَيْعَةِ^{١٨٤} الْغُرَاءِ، وَ«غَرْنَاطَة» بَعِيدَةٌ مَزَارِ الْحَمْرَاءِ. وَكَانَ «البحتري» — رحمه الله — رَفِيقِي فِي هَذَا التَّرْحَالِ، وَسَمِيرِي فِي الرُّحَالِ، وَالْأَحْوَالِ تَصْلَحُ عَلَى الرِّجَالِ، كُلُّ رَجُلٍ لِحَالٍ؛ فَإِنَّهُ أَبْلَغُ مَنْ حَلَّى الْأَثَرَ، وَحَيًّا الْحَجَرَ، وَنَشَرَ الْخَبَرَ، وَحَشَرَ الْعَبَرَ، وَمَنْ قَامَ فِي مَأْتَمٍ عَلَى الدُّوَلِ الْكُبَرِ، وَالْمُلُوكِ الْبَهَائِلِ الْغُرَرِ، عَطَفَ عَلَى «الجعفري» حِينَ تَحَمَّلَ^{١٨٥} عَنْهُ الْمَلَا، وَعَطَّلَ مِنْهُ الْحُلَى، وَوَكَّلَ بَعْدَ «المتوكل» لِبَلَى، فَرَفَعَ قَوَاعِدَهُ فِي السَّيْرِ، وَبَنَى رُكْنَهُ فِي الْخَبَرِ، وَجَمَعَ مَعَالِمَهُ فِي الْفِكْرِ، حَتَّى عَادَ كَقُصُورِ الْخُلْدِ امْتَلَأَتْ مِنْهَا الْبَصِيرَةُ وَإِنْ خَلَا الْبَصَرُ، وَتَكَفَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ لـ «كسرى» بِأَيْوَانِهِ، حَتَّى زَالَ عَنِ الْأَرْضِ إِلَى دِيْوَانِهِ، وَسَيْنِيَّتُهُ الْمَشْهُورَةُ فِي وَصْفِهِ، لَيْسَتْ دُونَهُ وَهُوَ تَحْتَ «كسرى» فِي رِصِّهِ وَرِصْفِهِ^{١٨٦} وَهِيَ تُرِيكُ حُسْنَ قِيَامِ الشَّعْرِ عَلَى الْآثَارِ، وَكَيْفَ تَتَجَدَّدُ الدِّيَارُ فِي بَيْتِهِ بَعْدَ الْإِنْدِثَارِ.

^{١٧٨} أوزار الحرب: آلاتها.

^{١٧٩} الإزار: الملحقة.

^{١٨٠} المزار. الزيارة.

^{١٨١} العوادي: العوائق.

^{١٨٢} البسيط: الأرض الواسعة.

^{١٨٣} أشبل عليه: أي عطف، والمرأة تُشبل على أولادها: أقامت عليهم بعد وفاة زوجها ولم تتزوج.

^{١٨٤} البيعة: مُتَعَبِّدُ النَّصَارَى.

^{١٨٥} تحمّل: ارتحل.

^{١٨٦} رصف الحجارة رصفاً: ضم بعضها إلى بعض.

قال صاحب الفتح القسي في الفتح القدسي، بعد كلام: «فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البحترى في وصفه، تجدوا الإيوانَ قد خَرَّتْ شَعَفَاتُهُ، وعُفِّرَتْ شرفاته، وتجدوا سينية «البحترى» قد بَقِيَ بها «كسرى» في ديوانه، أضعافاً ما بَقِيَ شخصُهُ في «إيوانه»..» وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها:

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يُدْنِسُ نَفْسِي وترَفَعْتُ عَنْ نَدَى كُلِّ جَبَسٍ

والتي اتفقوا على أن البديع الفرد من أبياتها قوله:

والمنايا مَوَاتِلُ وَأَنُوشِر وَأَنْ يُزْجِيَ الْجِيُوشَ تَحْتَ الدَّرَفِسِ

فكنت كلما وقفتُ بحجرٍ، أو أطفئتُ بأثرٍ، تمثَّلتُ بأبياتها، واسترحتُ من مَوَاتِلِ العبرِ إلى آياتها، وأنشدت فيما بيني وبين نفسي:

وَعَظَّ الْبَحْتَرِيُّ إِيوَانَ كَسْرَى وَشَفَّتَنِي الْقَصُورُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ

ثم جعلتُ أَرُوضُ القولَ على هذا الرويِّ، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المَهْلَهْلَةَ، وأتممت هذه الكلمة الرِيضَةَ، وأنا أعرضها على القراء راجياً أن يلحظونها بعين الرضاء، ويسحبون على عيوبها ذيل الإغضاء، وهذه هي:

اختلافُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ يُنْسِي	اذْكُرَا لِي الصَّبَا وَأَيَّامَ أَنْسِي
وَصِفَا لِي مُلَاوَةً مِنْ شَبَابٍ	صُوِّرَتْ مِنْ تَصَوُّرَاتٍ وَمَسَّ ^{١٨٧}
عَصَفَتْ كَالصَّبَا ^{١٨٨} اللَّعُوبِ وَمَرَّتْ	سِنَةً ^{١٨٩} حُلُوءَةً وَلَذَّةَ خَلْسٍ ^{١٩٠}

^{١٨٧} الملاوة: البرهة من الدهر.

^{١٨٨} الصَّبَا: ريحٌ مَهْبُها من مطلع الثريا إلى بنات نعش.

^{١٨٩} السنة: النعاس.

^{١٩٠} خَلْس الشيء: أخذه في نهزة ومخاتلة.

أو أسا^{١٩١} جُرحَه الزمانُ المؤسِّي
 رَقَّ والعهدُ في الليالي تُقَسِّي^{١٩٢}
 أوَّلَ الليلِ أو عَوَتَ بعدَ جَرَسِ^{١٩٥}
 كُلِّما تُرِنَ شاعَهَنَ بَنَقِسِ^{١٩٨}
 ما لَه مُولَعًا بمنعٍ وحبسِ
 حُ^{٢٠٠} حلالٌ للطير من كُلِّ جنسِ
 في خبيثٍ من المذاهبِ رَجِسِ^{٢٠١}
 بهما في الدموعِ سِيرِي وأرسي
 كِ يَدَ «الثَغْرِ» بينَ «رَمَلٍ» و«مَكِسِ»
 نازَعَتني إليه في الخُلْدِ نفسي
 ظمًا للسوادِ من «عينِ شَمِسِ»^{٢٠٤}
 شخصُه ساعةً ولم يخلُ جَسِي
 هِ و«بالسَّرحةِ الزَكِيَّةِ» يُمسي

وسلا مصرَ هل سلا القلبُ عنها
 كُلِّما مرَّت الليالي عليه
 مُستطارُ^{١٩٣} إذا البواخرُ رنَّتْ^{١٩٤}
 راهبُ^{١٩٦} في الضلوعِ للسُّفْنِ فَطُنُ^{١٩٧}
 يا ابنةَ اليمِّ^{١٩٩} ما أبوكِ بخيلُ
 أَحرامُ على بلابله الدَّو
 كُلُّ دارٍ أَحَقُّ بالأهلِ إلا
 نَفْسِي مِرْجَلُ^{٢٠٢} وقلبي شِراعُ
 واجعلي وجهكِ «الفنارَ» ومَجْرا
 وطني لو شَغِلْتُ بالخُلْدِ عنه
 وهفا^{٢٠٣} بالفؤادِ في سلسبيلِ
 شَهِدَ اللُّهُ لم يَغِبْ عن جفوني
 يُصبحُ الفكرُ و«المسلَّةُ» ناديمِ

١٩١ أسا الجرح: داواه.

١٩٢ قَسَاه تقسية: أي صَيَّرَه قاسيًا.

١٩٣ مستطار: استَطِير الشيء طُيِرَ وانتشر.

١٩٤ رَنَ: أي صاح ورفع صوته بالبكاء.

١٩٥ الجرس: الصوت.

١٩٦ الراهب: هو من تَبَتَّلَ لله، واعتزل عن الناس إلى الدير طلبًا للعبادة، ويُشَبَّه به القلب.

١٩٧ فطن للشيء: أي حَذَقَ به.

١٩٨ النقس: ضرب النواقيس.

١٩٩ اليمُّ: البحر.

٢٠٠ الدوح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة.

٢٠١ الرجس: المأثم.

٢٠٢ المِرْجَل: القدر من الحجارة والنحاس.

٢٠٣ هفا: أي أسرع.

٢٠٤ السواد: ما حول البلدة من القرى.

وكأنني أرى الجزيرة أيكاً^{٢٠٥} هي «بلقيس» في الخمائل صرْحُ^{٢٠٧}
 حسْبُها أن تكونَ للنيلِ عِرساً لبستَ بالأصيل حُلَّةً وشي
 قدَّها النيلُ فاستحت فتوارت وأرى النيلَ كـ «العقيق»^{٢١٢} بواديـ
 ابنُ ماءِ السماءِ ذو الموكبِ الفخ لا ترى في ركابه غيرَ مُثنٍ
 وأرى «الجيزة» الحزينة تكلَى أكثرت ضجَّةَ السواقي عليه
 وقيامَ النخيلِ ضفَّرنَ شعراً وكأنَّ الأهرامَ ميزانَ فرعو
 أو قناطرَه تأنقَ فيها نغمَت طيرَه بأرخمِ جَرسٍ^{٢٠٦}
 من عُبابٍ^{٢٠٨} وصاحبٌ غيرُ نِكسٍ^{٢٠٩} قبلَها لم يُجنَّ يوماً بعِرسٍ
 بينَ صنعاءَ^{٢١٠} في الثيابِ وقَسٍ^{٢١١} منه بالجسرِ بينَ عُري ولُبسٍ
 هـ وإن كان كوثِرَ المُتَحَسِّي^{٢١٢} م الذي يحسُرُ العيونَ ويُخسي^{٢١٤}
 بخميلٍ وشاكرٍ فضَلَ عَرسٍ لم تُفَقَّ بعدُ من مَنَاحَةٍ «رمسي»^{٢١٥}
 وسؤالَ اليراعِ عنه بهَميسٍ^{٢١٦} وتجردنَ غيرَ طوقٍ وسَلِسٍ^{٢١٧}
 نَ بيومٍ على الجبابِرِ نَحسٍ ألفُ جابٍ^{٢١٨} وألفُ صاحبٍ مَكسٍ^{٢١٩}

٢٠٥ الأيك: الشجر الكثير الملتف، وقيل الغيضة تُنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر.

٢٠٦ الجرس: الصوت، أو خفيه.

٢٠٧ الصَّرح: القصر، وكلُّ بناءٍ خالٍ.

٢٠٨ العُباب: كثرة الماء، والعباب معظم السيل، والعباب ارتفاعه وكثرته.

٢٠٩ النكس: الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه.

٢١٠ صنعاء: قسبة بلاد اليمن، وقرية باب دمشق.

٢١١ ثوبٌ قسي، وتُكسر قافه: منسوب إلى قس، وهو موضع بين العريش والفرما من أرض مصر.

٢١٢ العقيق: كل ما شقَّه ماء السيل فأنهره ووسَّعه، ويعني بالعقيق هنا عقيق المدينة، وهو معروف.

٢١٣ المتحسِّي: أي الشارب.

٢١٤ يخسي، من خسا البصر: كلٌّ وأعيا.

٢١٥ رمسي: أي رمسيس.

٢١٦ اليراع: القصب.

٢١٧ سلسلت النخلة سلسلاً: ذهب كربها.

٢١٨ جاب: الجابي الذي يجمع الخراج.

٢١٩ المكس: دراهم كانت تُؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.

حين يغشى الدُجى جماها ويُنغسي^{٢٢٠}
أنه صُنْعُ جِنَّةٍ غيرِ فُطُسٍ^{٢٢١}
سَبْعُ الخَلْقِ في أساريرِ إنسي
والليالي كواعبًا غيرِ عُنسٍ^{٢٢٢}
له لَنَقْدٍ ومِخلَبيه لَفَرَسٍ^{٢٢٣}
و«هَرَقْلًا» و«العَبْقَرِيُّ الفرنسي»
فيه يبدو وينجلي بعدَ لَبَسٍ
طالت الحوتَ طُولَ سَبَحٍ وَعَسٍ^{٢٢٤}
أو غريقٍ ولا يُصَاخُ لِجَسٍ
ويسومُ البدورَ ليلةً وَكُسٍ^{٢٢٥}
بَلَّغَتْها الأمورُ صارت لِعَكْسٍ
بقيامٍ من الجُدودِ وتَعَسٍ
لَطَمَتْ كُلَّ رَبٍّ «رُومٍ» «وَفُرْسٍ»
خِنْجَرًا يَنْفِذَانِ مِنْ كُلِّ تُرْسٍ
وعَفَتْ^{٢٢٦} «وائِلًا» وألَوَتْ بـ «عَبَسٍ»
أُمويٍّ وفي المغاربِ كُرْسِي^{٢٢٧}

روعةً في الضحى مَلَاعِبُ جِنَّ
و«رَهْيُنُ الرمالِ» أَفْطُسٌ إِلَّا
تتجَلَّى حَقِيقَةُ الناسِ فيه
لِعَبِّ الدهرِ في ثراه صَبِيًّا
رَكِبَتْ صَيِّدُ^{٢٢٨} المقاديرِ عَيْنِي
فأصابَتْ به الممالكُ: «كسرى»
يا فؤادي لكلِّ أمرٍ قَرَارٌ
عَقَلْتُ^{٢٢٩} لُجَّةَ الأمورِ عقولًا
غَرِقْتُ حيثُ لا يُصَاخُ بطافٍ
فَلَكُ يَكْسِفُ الشَّموسَ نهارًا
ومواقيتُ للأُمورِ إذا ما
دَوَّلُ كالرجالِ مُرتَهَنَاتُ
ولِيالٍ مِنْ كُلِّ ذاتِ سِوَارٍ
سَدَدَتْ بِالهِلالِ قوسًا وسَلَّتْ
حَكَمَتْ في القرونِ «خوفو» و«دارا»
أَيْنَ «مروان» في المشارقِ عَرَشُ

٢٢٠ يغسي: يظلم.

٢٢١ فطس الرجل: تطامنت قصبة أنفه وانتشرت في وجهه، فهو أفطس، والجمع فُطُس.

٢٢٢ عُنس: جمع عانس، وهي الجارية التي طال مُكثُّها في أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج.

٢٢٣ صَيِّدٌ: واحدها صائد.

٢٢٤ الفَرَسُ: الافتراس.

٢٢٥ عقلت: قَيِّدَتْ.

٢٢٦ غَسَّ في البلاد غَسًّا: دخل فيها ومضى قُدَمًا.

٢٢٧ ليلة الوكس: أي ليلة دخول القمر في نجمٍ منحوس.

٢٢٨ عفت: درست ومحت.

٢٢٩ كرسي: أي عرش.

نُورَهَا كُلُّ ثاقِبِ الرَّأْيِ نَطِيسٍ ٢٣٠
تِيكَ تَبْلَى وَتَنْطَوِي تَحْتَ رَمْسٍ ٢٣١
وَشَفَّتْنِي ٢٣٢ الْقَصُورُ مِنْ «عَبْدِ شَمْسٍ»
وَبِسَاطٍ طَوَيْتُ وَالرَّيْحُ عَنِّي ٢٣٣
بِ وَأَطْوِي الْبَلَادَ حَزْنًا ٢٣٤ لِدهسٍ ٢٣٥
وَمَنَارٍ ٢٣٦ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمَسِ
تَوْنٍ خُضِرَ وَفِي ذَرَا الْكَرَمِ طُلُسٍ ٢٣٨
لَمَسَتْ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي
وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أُمْسِي
تُمَسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي
لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلَسٍ ٢٣٩
فَأَتَى ذَلِكَ الْجَمَى بَعْدَ حَدْسٍ ٢٤٠
هَهَا مِنْ الْعَزِّ فِي مَنَازِلَ قُعْسٍ ٢٤١
لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بِنَجْسٍ

سَقِمَتْ شَمْسُهُمْ فَرَدَّ عَلَيْهَا
ثُمَّ غَابَتْ وَكُلُّ شَمْسٍ سِوَى هَا
وَعَظُ «الْبَحْتَرِيِّ» إِيوَانُ «كَسْرِي»
رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ وَالْبَرْقُ طَرْفِي
أَنْظُمُ الشَّرْقِ فِي «الْجَزِيرَةِ» بِالْغَرِ
فِي دِيَارٍ مِنَ الْخِلَائِفِ ٢٣٦ دَرَسِ
وَرُبًّا كَالْجِنَانِ فِي كَنْفِ الزَّيِّ
لَمْ يَرْعُنِي سِوَى ثَرَى قُرْطَبِي
يَا وَقَى اللَّهَ مَا أَصْبَحُ مِنْهُ
قَرِيَّةٌ لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ
غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمَحِيطِ وَغَطَّتْ
رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاهَا
فَتَجَلَّتْ لِي الْقَصُورُ وَمَنْ فِيهِ
مَا ضَفَّتْ ٢٤٢ قَطُّ فِي الْمُلُوكِ عَلَى نَذِّ

٢٣٠ نطس: أي عالم.

٢٣١ الرمس: القبر.

٢٣٢ شفتني: أي وعظمتني هي أيضًا وعظًا شافيًا.

٢٣٣ العنس: الناقة.

٢٣٤ الحزن: ما غلظ من الأرض.

٢٣٥ الدهس: المكان السهل ليس برمل ولا تراب.

٢٣٦ الخلائف: جمع خليفة.

٢٣٧ المنار: العلم يُجعل للطريق.

٢٣٨ طلس: واحدها أطلس، وهو ما لونه أسود تُخالطه غيرة.

٢٣٩ القلس: حبل السفينة.

٢٤٠ الحدس: السير على غير هداية.

٢٤١ القُعس: العزُّ الثابت.

٢٤٢ ضفت، من ضفا: سبغ واتسع.

ففيه ما للعقول من كلِّ دَرِسٍ
حَجَّه القومُ من فقيهٍ وقَسَّ
صُرَّ» نورُ الخميس تحت الدَّرَفِسِ^{٢٤٣}
وُحِّلِي به جبينَ «البرنيس»
وصحا القلبُ من ضلالٍ وهَجِسِ^{٢٤٤}
وإذا القومُ ما لهم من مُحِسِّ^{٢٤٥}
جاوَزَ الألفَ غيرَ مذمومٍ حَرِسِ^{٢٤٦}
صارَ لـ «الروح» ذي الولاءِ الأَمَسِّ^{٢٤٧}
بينَ «ثَهْلانٍ»^{٢٤٨} في الأساسِ و«قُدَسٍ»^{٢٤٩}
ويطول المدى عليها فترسي
أَلِفَاتُ الوزيرِ في عَرَضِ طَرِسِ^{٢٥٠}
ما اكتسى الهدبُ من فتورٍ ونَعَسِ
واحدِ الدهرِ واستعدَّتْ لخمِسِ^{٢٥١}
نِ ملاءٍ مُدْنَرَاتُ الدَّمَقِسِ^{٢٥٢}

وكأنِّي بلغتُ للعلمِ بيتًا
قُدُسًا في البلادِ شرقًا وغربًا
وعلى الجمعةِ الجلالةُ و«النا
يُنْزِلُ التاجَ عن مفارقِ» «دُونِ»
سِنَّةً من كَرَى وطيفُ أمانٍ
وإذا الدارُ ما بها من أنيسٍ
ورقيقُ من البيوتِ عتيقُ
أَثَرُ من «محمّدٍ» وتُراثُ
بَلَعِ النّجْمِ ذرّوةً وتناهى
مَرْمَرُ تسبّحِ النواظرُ فيه
وسَوارٍ^{٢٥٠} كأنها في استواءِ
فترةِ الدهرِ قد كَسَتْ سَطَرِيهَا^{٢٥٢}
ويَحَاها كم تزيّنت لعليم
وكان الرفيفُ^{٢٥٤} في مَسْرَحِ العيدِ

^{٢٤٣} الخميس: الجيش. والدَّرَفِس: العلم الكبير.

^{٢٤٤} الهجس: كل ما وقع في خلد الإنسان.

^{٢٤٥} مُحِسُّ: أي حاسُّ بهم.

^{٢٤٦} الحرس: الدهر.

^{٢٤٧} الأَمَسُّ: الأقرب.

^{٢٤٨} ثَهْلان: جبل بالعالية.

^{٢٤٩} قدس: جبلٌ عظيم بنجد.

^{٢٥٠} السواري: واحدتها سارية، وهي الأسطوانة (العمود).

^{٢٥١} الوزير: يعني به ابن مقلة المشهور بجودة الخط.

^{٢٥٢} سطرِيها: صفيها.

^{٢٥٣} ويحها كم تزيّنت لعليم: أي لمدرّس عالم، واستعدَّت لإقامة الصلوات الخمس.

^{٢٥٤} الرفيف: السقف.

^{٢٥٥} الدَّمَقِس: الحرير.

وَكأنَ الآياتِ فِي جانِبَيهِ
مَنْبَرٌ تَحْتَ «مُنْذِرٍ»^{٢٥٧} مِنْ جِلالِ
وَمكانُ الْكِتابِ يُغْرِيكَ رِيًّا
صَنْعَةُ «الدَّاخلِ»^{٢٥٩} الْمُبَارِكِ فِي الْغَرِ
يَتَنَزَّلْنَ فِي مَعارجِ قُدسٍ^{٢٥٦}
لَمْ يَزَلْ يَكْتَسِيهِ أَوْ تَحْتَ «قُسٍّ»
وَرِدِهِ غائِبًا فَتَدْنُو لِلمِسِّ^{٢٥٨}
بِ وَآلٍ لَهُ مَيامِينِ شَمْسٍ^{٢٦٠}

* * *

مَنْ لـ «حَمراءَ» جُلِّلَتْ بِغُبارِ الدِّ
كَسَنَ البرقِ لو مَحَا الضَّوءُ لَحِظًا
حِصْنُ «غَرناطَةٍ» وِدَارُ بَنِي «الأحـ
جَلَلِ الثَّلْجِ دُونَهَا رَأْسُ «شِيرى»
سَرْمَدٌ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرْ شَيْبًا
مَشَتْ الحادِثاتُ فِي عُرفِ «الحَمـ
هَتَكْتَ عِزَّةَ الحِجابِ وَفَضَّتْ
عَرِصاتُ تَخَلَّتْ الخَيْلُ عَنْها
وَمَغانٍ عَلَى اللَّيالي وَضاءٌ
لا تَرى غَيْرَ وَافِدِينَ عَلَى التَّـ
نَقَّلُوا الطَّرَفَ فِي نِضارَةِ آسٍ
وَقِبابٍ مِنْ لَازُورٍ وَتَبَرٍ

هَرِ كالجُرحِ بَيْنَ بُرِّ وَنُكسٍ
لَمَحَّتْها العِيونُ مِنْ طُولِ قَبسٍ
مَرٍّ مِنْ غافلٍ وَيَقْظانَ نَدسٍ^{٢٦١}
فَبدا مِنْه فِي عِصائِبَ بِرْسٍ^{٢٦٢}
قَبْلَهُ يُرْجى البَقاءُ وَيُنْسى
رِاءِ «مَشى النُّعْيِ فِي دارِ عُرْسٍ
سُدَّةَ البابِ مِنْ سَميرٍ وَأُنسٍ
وَاسْتراحَتْ مِنْ احْتِراسٍ وَعَسَّ^{٢٦٣}
لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكَرَّارَ مَسٍّ
رِيخٍ ساعِينَ فِي خِشوعٍ وَنُكسٍ
مِنْ نَقوشٍ وَفِي عِصارَةٍ وَرْسٍ^{٢٦٤}
كَالرُّبَا الشَّمُّ بَيْنَ ظِلٍّ وَشَمْسٍ

^{٢٥٦} المعارج: واحدها معراج، وهو السُّلم والمصعد.

^{٢٥٧} منذر: هو قاضي الأندلس منذر بن سعيد المعروف بالعدل والزهد.

^{٢٥٨} رِيًّا ورده: أي رائحة ورده.

^{٢٥٩} الدَّاخل: هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، مؤسس الدولة الأموية بالأندلس.

^{٢٦٠} الشُّمس: الأُبة.

^{٢٦١} الندس: الفهم.

^{٢٦٢} عِصائِبَ بِرْس: أي بيض كالقطن.

^{٢٦٣} العُس: احتراس الليل.

^{٢٦٤} الورس: نبات أحمر اللون.

ولألفاظها بأزَيْنَ لُبْسٍ
مُقْفِرَ القَاعِ من ظَبَاءٍ وَخُنْسٍ
يَتَنَزَّلْنَ فِيهِ أَقْمَارَ إِنْسٍ
كَلَّةَ الظُّفْرِ لِيَنَاتِ الْمَجْسُ
يَتَنَزَّى عَلَى تَرَائِبِ مُلْسٍ
بَعْدَ عَرِكٍ من الزَّمَانِ وَضَرْسٍ^{٢٦٥}
بَادَ بِالْأَمْسِ بَيْنَ أَسْرٍ وَحَسٍّ^{٢٦٦}
بَاعَهَا الْوَارِثُ الْمُضِيعُ بِبَخْسٍ
عَنْ حِفَاطٍ كَمُوكِبِ الدَّفَنِ خُرْسٍ^{٢٦٧}
تَحْتَ آبَائِهِمْ هِيَ الْعَرْشُ أَمْسٍ
لَمْشَتٌ وَمُحْسِنٌ لِمُخْسٍ
لَجْبَانٍ وَلَا تَسْنَى لَجْبِسٍ^{٢٦٨}
وَهْيَ خَلَقَ فَإِنَّهُ وَهْيَ أُسٍّ
وَجَنَى دَانِيًا وَسَلَسَالَ أُنْسٍ
هَهَا بِقَيْظٍ وَلَا جُمَادَى بِقَرْسٍ^{٢٦٩}
غَيْرَ حُورٍ حَوْ^{٢٧١} الْمَرَّاشِفِ^{٢٧٢} لُغْسٍ^{٢٧٣}
وَرَبَا فِي رُبَاكِ وَاشْتَدَّ غَرْسِي
بِمُضَاعٍ وَلَا الصَّنِيعُ بِمَنْسِي

وخطوطٍ تَكْفَلَتْ لِلْمَعَانِي
وَتَرَى مَجْلَسَ السَّبَاعِ خَلَاءً
لَا «الثريا» وَلَا جَوَارِي الثَرِيَا
مَرْمَرٌ قَامَتْ الْأُسُودُ عَلَيْهِ
تَنْثُرُ الْمَاءَ فِي الْجِيَاضِ جُمَانًا
آخَرَ الْعَهْدِ بِالْجَزِيرَةِ كَانَتْ
فَتَرَاهَا تَقُولُ رَايَةُ جَيْشٍ
وَمَفَاتِيحُهَا مَقَالِيدُ مُلِكٍ
خَرَجَ الْقَوْمُ فِي كِتَائِبٍ صُمِّ
رَكِبُوا بِالْبَحَارِ نَعَشًا وَكَانَتْ
رُبَّ بَانَ لِهَادِمٍ وَجَمُوعٍ
إِمْرَةُ النَّاسِ هِمَّةٌ لَا تَأْتِي
وَإِذَا مَا أَصَابَ بُنْيَانَ قَوْمٍ
يَا دِيَارًا نَزَلَتْ كَالْخُلْدِ ظِلًّا
مُحْسِنَاتِ الْفُصُولِ لَا نَاجِرُ^{٢٦٩} فِيهِ
لَا تُجَسُّ الْعَيُونُ فَوْقَ رُبَاهَا
كُسِيتَ أَفْرُخِي بِظِلِّكَ رِيشًا
هُمْ بَنُو مَصْرَ لَا الْجَمِيلُ لَدِيهِمْ

^{٢٦٥} الضَّرْس، من ضَرَسَ الزَّمَانِ الْقَوْمَ: اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ.

^{٢٦٦} الْحَسُّ: الْقَتْلُ.

^{٢٦٧} الْحِفَاطُ: الذُّبُّ عَنِ الْمَحَارِمِ.

^{٢٦٨} الْجِبْسُ: الْجَبَانُ.

^{٢٦٩} شَهْرُ رَجَبٍ أَوْ صَفَرٍ أَوْ شَهْرٍ مِنْ شَهْوَرِ الصَّيْفِ.

^{٢٧٠} بِقَرْسٍ: بِبَارِدٍ.

^{٢٧١} حَوْ الْمَرَّاشِفِ: أَيِ سَمَرِ الشَّفَاهِ، وَهُوَ مُسْتَمْلَحٌ مِنَ النِّسَاءِ.

^{٢٧٢} الْمَرَّاشِفُ: الشَّفَاهُ.

^{٢٧٣} اللَّغْسُ: سَوَادٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي الشَّفَةِ.

من لسانٍ على ثنائِكَ وَقِفِ
حَسْبُهُمْ هذه الطُّلُولُ عِظَاتِ
وإذا فاتك التَّفَاتُ إلى الما
وَجَنَانٍ على ولائِكَ حَبْسِ
من جَدِيدٍ على الدهورِ وَدَرِسِ
ضي فقد غاب عنك وجهُ التَّأْسِي

كُوكُ صُو

قال يصف «كوك صو»، وهو موقعٌ جميل في الآستانة العليّة، ومعنى اللفظين اللذين سُمِّيَ بهما «ماء السماء»:

تحيةُ شاعرٍ يا ماءَ «جَكْسُو»
فَدَنَتِكَ مِياهُ «دجلة» وهي سَعْدُ
وجاءَكَ ماءُ «زمزم» وهو طُهْرُ
وكان «النيل» يُعْرِسُ كلَّ عامٍ
وقد زعموه للغاداتِ رَمَسًا
وَرَدَنكَ كوثرًا وسَفَرَنَ حُورًا
فَقُلْ للجانحين إلى حِجابِ
إذا لم يَسْتَرِ الأدبُ الغواني
تَأْمَلْ هل ترى إلا جلالًا
كأن الخُودَ^{٢٧٤} «مريم» في سُفورٍ
تهَيَّبَها الرجالُ فلا ضَمِيرُ
غَشِيَتَكَ والأصيلُ يَفِيضُ تَبَرًا
وتذهب في الخليج له وتأتي
وفي جِدِ الخميَلَةِ^{٢٧٦} منه عَقْدُ

فليس سِوَاكَ للأرواحِ أُنْسُ
ولا جُعَلَتِ فدائِكَ وهي نَحْسُ
وأمواهُ على الأردنِ قُدْسُ
وأنت على المدى قَرْخُ وعُرْسُ
وأنت لِهَمِّهنَّ الدهرَ رَمْسُ
وهل بالحوَرِ إن أسْفَرَنَ بأُسُ
أُتَحَجَّبُ عن صنيعِ الله نَفْسُ
فلا يُغْنِي الحَرِيرُ ولا الدَّمَقْسُ
تُحِسُّ النفسُ منه ما تُحِسُّ
ورائِها حوارِيَّ وقَسُ
يهمُّ بها ولا عينُ تُحِسُّ
ويَنسُجُ للرُّبَى حُلًّا ويَكسو
أناملُ تنثرُ العَقِيانَ^{٢٧٥} حَمْسُ
وفي آذانها قُرْطُ وسَلْسُ^{٢٧٧}

^{٢٧٤} الخود: جمع خودة، وهي المرأة الشابة.

^{٢٧٥} العقيان: الذهب الخالص.

^{٢٧٦} الخميَلَة: الموضع الكثير الشجر.

^{٢٧٧} السلس: الخيط الذي يُنظَّم به الخرز الأبيض تلبسه الإمام، وقيل القرط من الحلي.

ولألأتِ الجبالُ فضاءَ سَفْحٍ
على فُلكٍ تسير بنا الهَوَيْنِي
تُنازِعُنا المذاهبَ حيثُ ملْنَا
لها في الماءِ مُنسابٌ كطيرٍ
صغارِ الحجمِ مُرهَفةِ الحواشي
إذا المجدافُ حرَّكها اطمأنتت
وإن هو جدٌ في الماءِ انسيابًا
حملن اللؤلؤَ المنثورَ عِينًا^{٢٧٨}
كأن سوافر^{٢٨٣} الغاداتِ فيها
كأن براقع الغاداتِ تهفو
كأن مآزر^{٢٨٤} العينِ انتسابًا
إذ نُشرت فريحانٌ ووردٌ
عجبت لهنَّ يجمعهنَّ حُسْنٌ
فكان لنا بظلكَ خيرٌ وقتٍ
نمتّع منك يا «جكسو» نفوسًا
على أن بان سِرُّك فانثنينا

يسُرُّ الناظرين ونارَ رأسٍ
ومن شعري نديمٌ لي وجلسُ
زوارقٍ حولنا تجري وترسو
تُسَفُّ^{٢٧٨} عليه أحيانًا وتحسو
لها عُرْفُ^{٢٧٩} إذا خطرت وجرسُ^{٢٨٠}
وإن هو لم يُحرِّكْ فهي رَعْسُ^{٢٨١}
فكلُّ طريقه وترٌ وقوسُ
كما حملت حبابَ الراح كَأْسُ
ملائكُ همُّها نظرٌ وهمسُ
على وجناتها غيمٌ وشمسُ
زهورٌ لا تُشَمُّ ولا تُمسُ
وإن طويّت فنسرينَ وورسُ
ولكن ليس يجمعهنَّ لُبْسُ
وخيرُ الوقتِ ما لك فيه أنسُ
بها من دهرها همٌّ وبؤسُ
وقد طويَ النهارُ ومات أَمْسُ

وقال في كلاب الآستانة، وكان يُضرب بها المثل في الكثرة والقدارة:

قالوا «فروق» المُلْكُ دارٌ مَخَوفٍ
وكلابُها في مَأْمِنٍ فاعجب لها
لا ينقضي لنزيلها وسواسُ
أَمِنَ الكلابُ بها وخاف الناسُ

^{٢٧٨} أَسَفَّ الطائر: طار على وجه الأرض.

^{٢٧٩} العُرْف: لَحْمَةٌ مستطيلة في أعلى رأس الديك.

^{٢٨٠} الجرس: الصوت، أو خفيّه.

^{٢٨١} رَعْس: من رَعَس الرجل إذا مشى مشيًا ضعيفًا.

^{٢٨٢} العَيْن: جمع عَيْناء، وهي المرأة التي عَظُم سواد عَيْنها في سعة.

^{٢٨٣} سوافر: جمع سافرة، وهي المرأة التي كشفت عن وجهها.

^{٢٨٤} مآزر: جمع إزار، وهو الملحقة.

أنس الوجود

إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة

أَتَأْذَنُ لِرَجُلٍ تَعَوَّدَ أَنْ يَخْرُجَ عَنْ دَائِرَةِ «الموظف» كلما عَرَضَتْ حَالٌ يَخْدُمُ
الوَطَنَ فِيهَا الرِّجَالُ أَنْ يَرْفَعَ لِسَعْرِهِ ذِكْرَهُ، وَيُشَرِّفَ قَدْرَهُ، مُهْدِيًا إِلَيْكَ مِنْهُ
هَذِهِ الْقَصِيدَةَ فِي لُغَةِ «الضاد»، وَهِيَ مِمَّا قُلْتُ فِي «أنس الوجود» ذَلِكَ الْأَثَرُ
الْمَحْتَضَرِ، الَّذِي جَمَعَ الْعِبْرَ، وَمَحَاهِ الدَّهْرِ أَوْ كَادَ، وَكَانَ إِحْدَى آيَاتِهِ الْكَبْرَى
لِـ «هياكل لـ «فرعون» و«بطليموس»، تَوَرَّثَا عَنْ «الكهنة» «القسوس»، وَصَارَتْ
لِـ «المسيح» وَكَانَتْ لِـ «هوروس»، ثُمَّ ظَهَرَ «الأذان» فِيهَا عَلَى «الناقوس»، ثُمَّ لَا
تَكُونُ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا حَتَّى يَهْوِيَ فِي الْمَاءِ كُلِّ حَجَرٍ كَانَ يُقْبَلُ كـ «الأسود»،^{٢٨٥}
وَكُلِّ رَكْنٍ كَانَ يُسْتَلَمُ كـ «الحطيم». ^{٢٨٦} شَهِدْتُ عَلَى «أنس الوجود» مَا يُعْلَمُ
الْإِنْسَانُ — وَلَوْ أَنَّهُ «روزفلت» عِلْمًا وَحِكْمَةً وَأَدَبًا — كَيْفَ يَحْتَقِرُ الدُّنْيَا وَيَحْتَرِمُ
الَّذِينَ جَمِيعًا.

دَخَلْتُهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَكَانَ «الدوق أوف كونوت» لَدَيْهِ يَتَمَشَّى فِي ظِلَالِهِ، وَيَتَنَقَّلُ
بَيْنَ رَسُومِهِ وَأَطْلَالِهِ، عَيْنَاهُ وَنَفْسُهُ فِي إِكْبَارِهِ وَإِجْلَالِهِ، فَكَانَتْ مِنْهُ التَّفَاتَةُ
فَرَأَيْتُ «فَلَّاحًا» أَقْبَلَ ثُمَّ أَلْقَى عِبَائَتَهُ وَتَوَجَّهَ يَصِلِي «العصر»، غَيْرَ مُلْقٍ بِالْأُ
لِـ «فرعون» كَيْفَ كَانَ يَعْبُدُ وَيُعْبَدُ، وَلَا لِـ «بطليموس» كَيْفَ كَانَ يُعْظَمُ وَيُمَجَّدُ،
وَلَا لِلْمَسِيحِيَّةِ السَّمْحَةِ كَيْفَ دَخَلَتْ عَلَى «الوثنية» الْمَعْبُدِ، وَلَا لِـ «الملك إدوارد»
الَّذِي تَحْتَلُّ جَنُودُهُ الْآنَ مِصْرَ وَهُوَ فِي ثِيَابِ أَخِيهِ «الدوق» يَرْفَعُ الْبَصَرَ وَيُسَدِّلُهُ
مَمْتَلِنًا مِنْ آيَاتِ الدَّهْرِ مَهَابَةٍ وَإِعْجَابًا، مُشْتَغَلًا بِالتَّارِيخِ الْقَائِمِ الْمَجَسَّمِ يَقْرُؤُهُ
كِتَابًا كِتَابًا. دِينَ سَهْلٌ سَمَحٌ يَسِرُ، وَإِلَهُ وَاحِدٌ يُعْبَدُ حَيْثُ وُجِدَ الْعَابِدُ، عَلَى الْعَرَاءِ
كَمَا فِي الْهَيَاكِلِ وَالْكَنَائِسِ وَالْمَسَاجِدِ.

التَّارِيخُ — أَيُّهَا الضَّيْفُ الْعَظِيمُ — غَابِرٌ مُتَجَدِّدٌ؛ قَدِيمُهُ مِنْوَالٌ، وَحَاضِرُهُ
مِثَالٌ، وَالْغَدُ بَيْدَ اللَّهِ الْمُتَعَالِ، وَأَنْتِ الْيَوْمَ تَمْشِي فَوْقَ مَهْدِ الْأَعْصَرِ الْأَوَّلِ، وَلَحْدِ
قَوَاهِرِ الدُّوَلِ؛ أَرْضُ اتَّخَذَهَا «الإسكندر» عَرِينًا، وَمَلَأَهَا عَلَى أَهْلِهَا «قَيْصَرُ»

^{٢٨٥} الأسود: هو الحجر الأسود الذي بمكة.

^{٢٨٦} الحطيم: جدار حجر الكعبة، وقيل ما بين الركن وزمزم والمقام.

سفينًا، وخَلَفَ «ابن العاص» فيها لسانًا وجنسًا ودينًا، فكان أعظم المستعمرين حقيقةً وأكبرهم يقينًا، وهو الذي لم يُعَلِّم عليه أن بغى أو ظلم أو سفك الدم أو نهى أو أمر، إلا بين الرجاء والحذر، من عدل «عمر»، الذي تُنَبِّك عنه السَّيْر. قمتَ — أيها الضيف العظيم — في السودان خطيبًا فأُنصت العصر، والتفتت مصر، وأقبل أهلها بعضهم على بعض يتساءلون: «كيف خالف الرئيس سُنَّة الأحرار من قادة الأمم وساسة الممالك أمثاله، فطارد الشعور وهو يهْبُ، والوجدان وهو يشبُّ، والحياة وهي تدبُّ، في هذا الشعب؟! ومن حرمة العواطف السامية، ألا تُطارِد كأنها وحوشٌ ضارية، على صحراء، أو بادية، كما طارِدَت السباع بالأمس نَقَمًا من طبائعها الجافية.»

المصريُّ — أيها الضيف العظيم — سمحَ كريمٌ كثير التجاوز؛ فقد ظفِرَت بمنَّ مهَّد عذرك، ونفى الظن عن كرمك، وأدَّخِر وُدَّك الذي تخطبه الأمم المستضعفة، والشعوب المتلهَّفة، المتشوّفة؛ إذ قيل: «إنما أراد الرئيس أن يمدح دينًا من حقه أن يمدح بكل لسان، وفي كل مكان، فكيف به في بعض معاهده في السودان؟! وأراد كذلك أن يحذِّر من الفتنة في الجيوش، وينهى عن إيقاظها، ويذكر للمُحسِن من الحكام ما رأى أو سمع من حسناته، ويدعو هذه الأمة التي حركتها المستقبل في السكون، إلى العمل في ظل الحق والصبر بإذن الله مضمون، ومستقبل بمشيئة الله مأمون، وقديمًا فاز بالصبر الصابرون.»

فإن كان ذلك — أيها الضيف العظيم — وهو ما لا نعتقد غيره، فمِثْلُك مَنْ نصح للأمم، وبعث العزائم والهمم، وعَلِّم باللسان والقلم.

على أننا نرجو أن ستدْكُرنا عند قومك الكرام الأحرار بما أنتم جميعًا أهلُه، وأن ستُعطينا عهدك، وتُصَفِّينا وُدَّك، وتَمَلِّأ من أجمل الظنون وأحسنها بُرْدَكَ، يوم تُقِلُّ السفينة عظمتك ومَجْدَكَ، وتنقل من أقصى البروج إلى أقصاها سعدك.

على يد الله تجري إن هي اندفَعَت وفي جِمى الله لا في الماء تحتجِبُ

* * *

أيها المُنتحي بـ «أسوان» دارًا كالثريَّا تريد أن تنقَضَّا
اخلع النعلَ واخفِض الطرفَ واخشع لا تُحاولُ من آية الدهر غَضًّا

مُمَسِّكًا بَعْضُهَا مِنَ الدُّعْرِ بَعْضًا
سَابِحَاتٍ بِهِ وَأَبْدَيْنَ بَضًّا
مُشْرِفَاتٍ عَلَى الْكَوَاكِبِ نَهْضًا
وَشَبَابُ الْفَنُونِ مَا زَالَ غَضًّا
نَعُ مِنْهُ الْيَدَيْنِ بِالْأَمْسِ نَفْضًا
أَعَصَرُ بِالسَّرَاجِ وَالزَّيْتِ وَضًّا^{٢٨٨}
حَسُنْتَ صَنْعَةً وَطَوْلًا وَعَرْضًا
لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قَدْرَةِ اللَّهِ نَبْضًا
عَزَمَاتٌ مِنْ عَزْمَةِ الْجَنِّ أَمْضَى^{٢٩٠}
وَبَنَى الْبَعْضَ أَجْنَبُ يَتَرْضَى^{٢٩٢}
مَسِكَ تَرْبًا وَبِالْيَوَاقِيتِ قَضًّا^{٢٩٣}
صُرِّفَتْ فِي الْحُظُوظِ رَفْعًا وَخَفْضًا
سِ إِلَى أَنْ تَعَاظَتْ النِّحْسَ مُحْضًا^{٢٩٤}
كَانَ إِتْقَانُهُ عَلَى الْقَوْمِ فَرَضًا

قِفْ بِتِلْكَ «الْقُصُورِ» فِي الْيَمِّ غَرْقَى
كَعْذَارَى أَخْفَيْنَ فِي الْمَاءِ بَضًّا^{٢٨٧}
مُشْرِفَاتٍ عَلَى الزَّوَالِ وَكَانَتْ
شَابٌ مِنْ حَوْلِهَا الزَّمَانُ وَشَابَتْ
رُبَّ «نَقِشٍ» كَأَنَّمَا نَفَضَ الصَّا
و«دِهَانٍ» كَلَامِغِ الزَّيْتِ مَرَّتْ
و«خُطُوطٍ» كَأَنَّهَا هُدْبُ رَيْمٍ^{٢٨٩}
و«ضَحَايَا» تَكَادُ تَمْشِي وَتَرْعَى
و«مَحَارِيبَ» كَالْبُرُوجِ بَنَتْهَا
شَيَّدَتْ بَعْضُهَا الْفَرَاعِينَ زُلْفَى^{٢٩١}
و«مَقَاصِيرُ» أَبْدَلَتْ بِفَتَاتِ الْـ
حَظُّهَا الْيَوْمَ هَذَّةً وَقَدِيمًا
سَقَّتِ الْعَالَمِينَ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْدِ
صَنْعَةً تُدْهِشُ الْعُقُولَ وَفَنٌّ

* * *

فَسَكَبْتُ الدَّمُوعَ وَالْحَقُّ يُقْضَى
كَيْفَ سَامَ الْبَلَى كِتَابَكَ فَضًّا

يَا قُصُورًا نَظَرْتُهَا وَهِيَ تَقْضَى^{٢٩٥}
أَنْتِ سَطَرٌ وَمَجْدٌ مَصْرَ كِتَابُ

^{٢٨٧} البُضُّ: الرِّخْصُ الْجَسَدِ.

^{٢٨٨} وَضًّا: وَضَاءٌ.

^{٢٨٩} رَيْمٌ: غَزَالٌ.

^{٢٩٠} أَمْضَى: أَحَدٌ.

^{٢٩١} زُلْفَى: تَقَرُّبًا.

^{٢٩٢} يَتَرْضَى: يَطْلُبُ الرِّضَا.

^{٢٩٣} قَضًا: حَصَى.

^{٢٩٤} مُحْضًا: خَالِصًا.

^{٢٩٥} تَقْضَى: تَفْنَى.

مَنْ يَصُنْ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانٌ عَرَضَا
كَانَ حَتَّى عَلَى «الْفَرَاعِينَ» غَمَضَا
يَا سَمَاءَ الْجَلَالِ لَا صِرْتَ أَرْضَا
وَتَوَلَّتْ عِزَائِمَ الْعِلْمِ مَرَضَى
مَنْ نِظَامِ النِّعِيمِ أَصْبَحَ فُضًّا^{٢٩٦}
يَرْكُضُ الْمَالِكِينَ كَالْخَيْلِ رَكُضَا
وَجَلَا لِلْفَخَارِ فِي السَّلْمِ عَرَضَا
حَكَمَتْ فِيهِ شَاطِئِينَ وَعَرَضَا
فِي ثَرَاهَا وَأَرْسَلَ الرَّأْسَ خَفُضَا
فِي قِيُودِ الْهَوَانِ عَانِينَ جَرَضَى^{٢٩٧}
تَشْتَكِي مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ عَضَا
مَلَكَةٌ فِي السَّجُونِ فَوْقَ حَضُوضَى^{٢٩٨}
أَبْهَذَا فِي شَرْعِهِمْ كَانَ يُقْضَى
أَمْ رَمَاهُ الْوَشَاءُ حَقْدًا وَبُغْضَا
دُونَ فَعَلِ الْفِرَاقِ بِالنَّفْسِ مَضَا
دُونَ سَيْفٍ مِنَ الْوَلَاحِظِ يُنْضَى^{٣٠٠}
أَيْنَ رَاوِي الْحَدِيثِ نَثْرًا وَقَرَضَا

وَأَنَا الْمُحْتَفِي بِتَارِيخِ مَصْرِ
رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبِكَ مُزَالٍ
قُلْ لَهَا فِي الدَّعَاءِ لَوْ كَانَ يُجْدِي
حَارَ «فِيكَ» الْمُهَنْدِسُونَ عَقُولًا
أَيْنَ مُلْكٌ حِيَالُهَا وَفَرِيدٌ
أَيْنَ «فَرَعُونَ» فِي الْمَوَاكِبِ تَتَرَى
سَاقٌ لِلْفَتْحِ فِي الْمَمَالِكِ عَرَضَا
أَيْنَ «إِيزِيسَ» تَحْتَهَا النِّيلُ يَجْرِي
أَسْدَلُ الطَّرْفِ كَاهِنٌ وَمَلِيكَ
يُعَرِّضُ الْمَالِكُونَ أَسْرَى عَلَيْهَا
مَا لَهَا أَصْبَحَتْ بِغَيْرِ مُجِيرٍ
هِيَ فِي الْأَسْرِ بَيْنَ صَخْرٍ وَبَحْرِ
أَيْنَ «هُورُوسَ» بَيْنَ سَيْفٍ وَنِطْعٍ
لَيْتَ شِعْرِي قَضَى شَهِيدَ غَرَامٍ
رُبَّ ضَرْبٍ مِنْ سَوْطِ فَرَعُونَ مَضٌ^{٢٩٩}
وَهَلَاكَ بِسَيْفِهِ وَهُوَ قَانٌ
قَتَلُوهُ فَهَلْ لَذَاكَ حَدِيثٌ

* * *

مَ سَتُعْطَى مِنَ الثَّنَاءِ فَتَرْضَى
وَجِمَى الْجُودِ «حَاتِمَ» الْجُودِ أَفْضَى

يَا إِمَامَ الشُّعُوبِ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ
«مَصْرُ» بِالنَّازِلِينَ مِنْ سَاحِ «مَعْنٍ»^{٣٠١}

^{٢٩٦} فُضًّا: مَفْضُوضًا.

^{٢٩٧} جَرَضَى: مَغْمُومِينَ.

^{٢٩٨} حَضُوضَى: جَبَلٌ فِي الْبَحْرِ.

^{٢٩٩} مَضٌ: مُوجِعٌ.

^{٣٠٠} يُنْضَى: يُسَلُّ.

^{٣٠١} مَعْنٍ: هُوَ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ أَحَدُ كُرَمَاءِ الْعَرَبِ.

كُنْ ظَهِيرًا^{٣٠٢} لأهلها ونصيرًا
قُلْ لِقَوْمٍ عَلَى «الولايات» أَيْقًا
شَيْمَةً «النيل» أَنْ يَفِي وَعَجِيبُ
حَاشَهُ^{٣٠٣} الْمَاءُ فَهُوَ صَيْدٌ كَرِيمٌ
شَيْدٌ وَالْمَالُ وَالْعِلْمُ قَلِيلٌ
وَابْذُلِ النَّصِيحَ بَعْدَ ذَلِكَ مَحْضًا
ظِ إِذَا ذَاقْتَ الْبَرِيَّةَ غُمْضًا
أَخْرَجُوهُ فَضِيحَ الْعَهْدِ نَقْضًا
لَيْتَ بِالنَّيْلِ يَوْمَ يَسْقُطُ غِيضًا^{٣٠٤}
أَنْقَذُوهُ بِالْمَالِ وَالْعِلْمِ نَقْضًا^{٣٠٥}

النفس

قال الرئيس ابن سينا:

هَبَطْتَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ
مَحْجُوبَةً عَنْ كُلِّ مُقْلَةٍ عَارِفٍ
وَصَلْتَ عَلَى كَرِهِ إِلَيْكَ وَرَبَّمَا
أَلْفَتْ وَمَا سَكَنْتَ فَلَمَّا وَاصَلْتَ
وَأَظْنُهَا نَسِيَتْ عَهودًا بِالْحِمَى
حَتَّى إِذَا اتَّصَلْتَ بِهَاءِ هَبْوَطِهَا
عَلِقَتْ بِهَا ثَاءُ الثَّقِيلِ فَأَصْبَحَتْ
تَبْكِي وَقَدْ ذَكَرْتَ عَهودًا بِالْحِمَى
... ..
وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمَنُّعٍ
وَهِيَ الَّتِي سَفَرَتْ وَلَمْ تَتَبَرَّقِعِ
كَرِهَتْ فِرَاقَكَ وَهِيَ ذَاتُ تَفَجُّعٍ
أَلْفَتْ مُجَاوِرَةَ الْخَرَابِ الْبَلَقِعِ
وَمَنَازِلًا بِفِرَاقِهَا لَمْ تَقْنَعِ
عَنْ مِيمٍ مَرْكَزَهَا بِذَاتِ الْأَجْرَعِ
بَيْنَ الْمَعَالِمِ وَالطُّلُولِ الْخُضْعِ
بِمَدَامِعِ تَهْمِي وَلَمَّا تُقْلِعِ
... .. إِلَـخْ

وقد قال المقتطف في الشاعرَيْن بعد كلام طويل: «والاثنتان جَرِيَا مَجْرَى أَفْلَاطُونِ فِي حَسْبَانِ النَّفْسِ رَوْحًا كَانَتْ عِنْدَ الْخَالِقِ، ثُمَّ هَبَطَتْ وَدَخَلَتْ جِسْمَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا أَنْ أَفْلَاطُونِ تَصَوَّرَهَا فَرَسًا مَجْنَّةً، غَذَاوَهَا الْجَمَالَ وَالْحِكْمَةَ وَالصَّلَاحَ، فَلَمَّا هَبَطَتْ فَقَدَتْ جَنَاحَيْهَا وَدَخَلَتْ جِسْمَ الْإِنْسَانِ. وَالفلاسفة يشعرون بشيءٍ لا يستطيعون معرفته، فيصفونه كما يتصوَّرونه، ويجاريهم الشعراءُ في التصوُّر، ويفوقونهم في الوصف.»

^{٣٠٢} ظهيرًا: نصيرًا.

^{٣٠٣} حاشه، من حاش الصيد: أخرجَه في كل مكان.

^{٣٠٤} غيضا، من غاض الماء غيضا: نقص، أو غار فذهب في الأرض.

^{٣٠٥} نقضا: ما انتقض من البناء؛ أي انتكث.

ضُمِّي قِنَاعَكَ يَا سُعَادُ أَوْ ارْقَعِي
الضاحيات الضاحكات ودونها
يا دُمِيَّة لَا يُسْتَزَادُ جَمَالُهَا
ماذا على سلطانِه من وقفة
بل ما يضرُّكَ لو سمحتِ بجلوة
ليس الحجابُ لَمَنْ يَعَزُّ مَنَالُهُ
أنتِ التي اتَّخَذَ الجَمالُ لِعَزِّهِ
وهو الصَّنَاعُ يَصوغُ كُلَّ دَقِيقَةٍ
لَمَسَّتِكَ راحته ومَسِّكَ روحه
اللهُ في الأحبارِ مِنْ مُتَهَالِكٍ
من كُلِّ غَاوٍ في طَوِيَّةٍ راشِدٍ
يتوهَّجون ويطفئون كأنهم
علموا فِضاقَ بهم وشقَّ طريقَهم
ذهب «ابنُ سينا» لم يَقْضِ بِكَ سَاعَةً
هَذَا مَقَامٌ كُلُّ عِزٍّ دُونَهُ
فـ «محمدٌ» لِكَ و«المسيحُ» تَرَجَّلَا
ما بِالُ «أحمد» عِيَّ عَنكَ بَيَانُهُ

هَـذِي المَحاسِنُ ما خُلِقْنَ لِبرُقَعِ
سِتْرِ الجَلالِ وَبُعْدُ شَأْوِ المَطْلَعِ
زِيديهِ حُسْنُ المُحسِنِ المُتَبَرِّعِ
لِلضَّارِعِينَ وَعَظْفَةٍ لِلخُشَعِ
إِنَّ العُرُوسَ كَثِيرَةَ المُتَطَلِّعِ
إِنَّ الحِجَابَ لِهَيِّينَ لَمْ يَمْنَعِ
مِنْ مَظْهَرٍ وَلِسَرِّهِ مِنْ مَوْضِعِ
وَأدقَّ مِنْكَ بَنانُهُ لَمْ تَصْنَعِ
فأتى البديعُ على مِثَالِ المُبْدِعِ
نَضِو وَمَهتوكِ المُسَوِّحِ مُصَرِّعِ
عاصي الظواهرِ في سِريرةِ طيِّعِ
سُرُجٌ بِمُعْتَرِكِ الرِّياحِ الأربَعِ
والجاهلون على الطريقِ المَهْيَعِ
وتولَّتِ الحُكَماءُ لَمْ تَتَمَتَّعِ
شَمْسُ النِّهارِ بِمِثْلِهِ لَمْ تَطْمَعِ
وترجَلَتِ شَمْسُ النِّهارِ لـ «يُوشَعَ»^{٣٠٦}
بل ما لـ «عيسى» لَمْ يَقُلْ أَوْ يَدَّعِ

^{٣٠٦} الخطاب للنفس: خاطبها كما يخاطبها فيلسوفٌ علِمَ بدائعها وبحثَ عن حقيقتها، فأراها تزيد غموضًا كلما زاد بحثًا، مع أنها أقرب ما يكون إليه.

^{٣٠٧} الضاحيات: الطاهرات البارزات، وصف بها محاسن النفس، وقال: إنها مع ذلك مَطْلَعُها بعيد وجلالها مستور.

^{٣٠٨} «من»: زائدة. والمعنى: أن النفس اتَّخَذَها الجَمالَ مَظْهَرًا لِعَزِّهِ، وموضِعًا لِسَرِّهِ.

^{٣٠٩} الصَّنَاع: الماهر في الصنعة.

^{٣١٠} نصب اسم الجلالة على الاستغاثَةِ، والكلام في الأبيات الخمسة بعده وصفٌ لما عاناه الأَحبار والفلاسفة من البحث عن حقيقة النفس، فشَقَّ طريقَهم كُلُّما زادوا بحثًا، أما الجاهلون ففي راحة سائرون في المَهْيَع؛ أي الطريق الواسع البَيِّن.

^{٣١١} الضمير في ذلك يرجع إلى النفس، أراد بها الجوهر الإلهي.

ولسانُ «موسى» انحَلَّ إلا عقدةً
لَمَّا حَلَلَتْ بـ «آدم» حلَّ الحبا
وأرى النبوةَ في ذَرَكٍ تَكَرَّمَتْ
وسَقَتْ «قريش» على لسانِ «محمد»
ومَشَتْ بـ «موسى» في الظلام مُشَرَّدًا
حتى إذا طُوِيَتْ ورِثَتْ خِلَالَهَا
قَسَمَتْ مَنَازِلَكَ الحُظُوظُ فَمَنْزَلًا
وخَلِيَّةً بالنحل منك عَمِيرَةً
وحَظِيرَةً قد أودَعَتْ غُرَرَ الدُمَى
نظر «الرئيس» إلى كَمَالِكَ نظرةً
فَرَأَاهُ مَنْزِلَةً تَعَرَّضَ دُونَهَا
لولا كَمَالُكَ في «الرئيس» ومِثْلِهِ
اللَّهُ ثَبَّتْ أَرْضَهُ بِدَعَائِمِ
لو أن كُلَّ أَخِي يرَاعِ بِالْغُ
زَهَبَ الكَمَالُ سُدَى وَضَاعَ مَحَلُّهُ

مِنْ جَانِبِكَ عِلَاجُهَا لَمْ يَنْجِعِ
ومَشَى عَلَى الْمَلَأِ السُّجُودِ الرُّكْعِ ٣١٢
فِي «يُوسُفَ» وَتَكَلَّمَتْ فِي الْمُرْضِعِ ٣١٣
بِالْبَابِلِيِّ مِنَ الْبَيَانِ الْمُمْتِعِ ٣١٤
وَحَدَّثَهُ فِي قُلُلِ الْجِبَالِ اللَّمْعِ ٣١٥
رُفِعَ الرَّحِيقُ وَسِرُّهُ لَمْ يُرْفَعِ ٣١٦
أُتْرِعَنَّ مِنْكَ وَمَنْزَلًا لَمْ تُتْرَعَ
وخلِيَّةً مَعْمُورَةً بـ «التَّبَعِ» ٣١٧
وحَظِيرَةً مَحْرُومَةً لَمْ تُودَعَ ٣١٨
لَمْ تَخُلْ مِنْ بَصْرِ اللَّبِيبِ الْأَرَوَعِ
قَصَرَ الْحَيَاةَ وَحَالَ وَشَكَ الْمَصْرَعِ
لَمْ تَحْسُنِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَتَرَعَّرِ ٣١٩
هَمْ حَائِطُ الدُّنْيَا وَرَكْنُ الْمَجْمَعِ
شَاوُ «الرَّئِيسِ» وَكُلُّ صَاحِبِ مِضْعِ
فِي الْعَالَمِ الْمُتَفَاوِتِ الْمُتَنَوِّعِ

* * *

- ٣١٢ حلَّ الحبا: نهض. والمقصود هنا تقديس الروح العالي الذي نفخ الله في آدم.
- ٣١٣ أراد بيوسف: يوسف الصديق، ومعنى تَكْرُمُ النبوة فيه أنها سَمَتْ بنفسه، وبلغت بها الكمال لما عَفَّ. وأراد بالمرضع: السيد المسيح.
- ٣١٤ أراد بالبابلي: السحر، إشارة إلى قوله ﷺ: «إن من البيان لِسِحْرًا».
- ٣١٥ إشارة إلى العليقة المُلْتَهَبَةِ.
- ٣١٦ فاعل طويت يعود إلى النبوة. والخلال: الصفات والمزايا التي يبقى أثرها كما يبقى أثر الخمر بعدما تزول.
- ٣١٧ التَّبَعُ: يعسوب النحل الأعظم، وهو ما يُسَمُّونه الملكة.
- ٣١٨ الدُمَى: الصور أو التماثيل الجميلة، أشار بما في الأبيات الثلاثة المتقدمة إلى تفاوت النفوس في الناس.
- ٣١٩ أي لولا كبار النفوس لما ارتقى العالم وصلحت الأنام، والمقصود من الكمال هنا بلوغ النفس الكمال في النبوة، أو ما يقرب من الكمال في بعض العبقريين من الناس، والرئيس منهم.

يا نفس مثل الشمس أنت؛ أشعة
فإذا طوى الله النهار تراجعت
لما نُعيت إلى المنازل غودرت
ضجت عليك معالماً ومعاهداً
أذنتها بنوى فقالت ليت لم
ورداء جثمان لبست مُرقم
كم بنت فيه وكم خفيت كأنه
أسيمت من ديباجه فنزعت
فزعت وما خفيت عليها غاية
ضرعت بأدمعها إليك وما درت
أنت الوفيّة لا الذمّام لديك مذ
أزمت فانهلّت دموعك رقة
بانّ الأحبة يوم بينك كلهم

في عامرٍ وأشعة في بلقع
شتى الأشعة فالتقت في المرجع
دكاً ومثلك في المنازل ما نُعي
وبكت فراقك بالدموع الهُمع^{٣٢٠}
تصل الحبال وليتها لم تقطع
بيد الشباب على المشيب مُرقع
ثوب الممئل أو لباس المرفع^{٣٢١}
والخز أكفان إذا لم يُنزع
لكن من يرد القيامة يفرع^{٣٢٢}
أن السفينة أقلت في الأدمع
موم ولا عهد الهوى بمضيع
ولو استطعت إقامة لم تزمعي
وذهبت بالماضي وبالمُتوقع

ميدان الكونكورد

(ميدان الكونكورد (الوفاق) بباريس، وهو الذي أُعِدَ فيه الملك لويس السادس عشر في أيام الثورة الفرنسية.)

أميدان الوفاق وكنت تدعى
أتدري أيّ ذنب أنت جان
هوى فيك السرير ومن عليه
أصابوا واستراح «لويس» منهم

بميدان العداوة والشقاق
وأيّ دم ذهب به مُراقٍ
ومات الثائرون وأنت باقٍ
لذا سُميت ميدان الوفاق

^{٣٢٠} فاعل ضجت عائد إلى المنازل؛ أي الأجسام. ومعالم ومعاهد منصوبتان على التمييز. أراد بالمعالم

ذوي النفوس الصغيرة، وبالمعاهد ذوي النفوس الكبيرة.

^{٣٢١} المرفع: الكرنفال الذي يلبس الناس فيه ثياباً مزوّقة.

^{٣٢٢} فزعت: تأهبت أو استجارت، والضمير عائد إلى الأجسام. وأراد بالقيامة: ساعة الموت.

أيها النيل

إلى الأستاذ مرجليوت مدرّس اللغة العربية في جامعة أكسفورد
أيها الأستاذ الكريم

تذكّرتُ «أثينا» مدينة الحكمة في الدهور الخالية، وأياماً غنّناها على رسومها العافية، وأطلالها البالية، فكأنني أنظر إلى المؤتمر، علماؤه الهالة، وأنت القمر، أو زمر الحبيج وأنت حادي الزمر، وأرى الملوك في الحفر، بُنيانهم مصدوع الجدر، وبيانهم نور البشر، نزلنا بهم فإذا الدول خبر، وإذا الممالك أثر، والطلول شغل الفؤاد والبصر، منّا العبرات ومنها العبر، صمت الإنسان ونطق الحجر، فسبحان العزيز المقتدر، القاهر فوق عباده بالقدر. كان ذلك والحوادث أجنّة، والأمور في أحسن الأعنّة، والأرض بالسلم مطمئنة، مغتبطة بسلامة الشباب، منبسطة بتلاقي الأحباب، والصفو في الدار والأقدار بالباب، ثم أخذ الله الأمم بذنوبهم فرماهم بعوان في الماء، ضروس في الأرض والسماء، منهومة بالأموال مُدمنة للدماء، نزلت بالبريّة فعصفت بأحسن شبابها ونباتها، ونقضت موفور أمنها وأقواتها، وهتكت في الثرى مَصُون رُفاتها، وخلطت في الخنادق أحياءها بأمواتها، وعدت على الوحش في فلواتها، وعلى الطير في وكنايتها، وعلى الرياح في مخترقاتها، وعلى بلم^{٣٢٣} البحار وأخواتها، وهوامّ القفار وحشراتنا، وعلى بيوت الله في ستراتنا، والنواقيس في قبابها، والمآذن في سمواتنا، فسبحان الملك الأكبر، الذي يقهر ولا يقهر، ويغيّر ولا يتغيّر، والذي يقيم القيامة في ميقاتها.

الشعر كالأحلام، تُدخل على السرور الكرى، وتكثر على المحزون في السرى. وقريحة الشاعر كعين صاحب الأيام، عندها للحزن عبرة، وللسرور عبرة، وهذه أيها — الأستاذ الكريم — كلمة قيلت والهموم سارية، والأقدار بالخاوف جارية، والدموع متبارية، وذئاب البشر يقتتلون على الفانية، نظمته تغنياً بمحاسن الماضي، وتقبيداً لمآثر الآباء، وقضاءً لحق «النيل» الأسعد الأمجد، ونسبتها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب، وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها،

٣٢٣ البلم: صغار السمك.

ونشر آدابها، وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر، في أعظم جامعات العالم، فلعلها تقع إليك، فنتذكر على النوى تلك الأيام، ونتنادم من بُعدٍ على بساط الأدب والكلام، ونسأل الله أن يحقن الدماء، ويقيم جدار السلام.

مِنْ أَيِّ عَهْدٍ فِي الْقَرْيِ تَدْفَقُ
وبأيّ كفٍّ في المدائن تُغْدِقُ
ومن السماء نزلت أم فُجِّرَتْ من
عَلْيَا الْجِنَانِ جَدَاوِلًا تَتَرَقُّقُ
وبأيّ عينٍ أم بآيةٍ مُزْنَةٍ^{٣٢٤}
أم أَيِّ طُوفَانٍ تَفِيضُ وَتَفْهَقُ^{٣٢٥}
وبأيّ نَوَلٍ^{٣٢٦} أنت ناسجٌ بُرْدَةٍ
لِلضَفَّتَيْنِ جَدِيدُهَا لَا يَخْلُقُ^{٣٢٧}
تَسْوَدُ دِيبَاجًا إِذَا فَارَقَتْهَا
فإِذَا حَضَرَ اخْضَوْضَرَ الْإِسْتَبْرَقُ^{٣٢٨}
فِي كُلِّ أَوْنَةٍ تُبَدِّلُ صِبْغَةً
عَجَبًا وَأَنْتِ الصَّابِغُ الْمُتَأَنِّقُ
أَتَتْ الدَّهْوَرُ عَلَيْكَ مَهْدُكَ مُتَرَعٌ^{٣٢٩}
وَحِيَاضُكَ الشُّرُقُ^{٣٣٠} الشَّهِيَّةُ دُقُقُ

^{٣٢٤} المِزْنَةُ: هي هنا السحابة الممطرة.

^{٣٢٥} تَفْهَقُ: فهق الإناء؛ أي امتلأ حتى صار يتصبَّب.

^{٣٢٦} النَوَلُ: خشبة الحائك ينسج عليها.

^{٣٢٧} يَخْلُقُ: يبلى.

^{٣٢٨} الْإِسْتَبْرَقُ: الحرير.

^{٣٢٩} مترع: ممتلئ.

^{٣٣٠} الشُّرُقُ: الغرقى.

تَسْقِي وَتُطْعِمُ لَا إِنْأَوَّكَ ضَائِقُ
 بالواردين ولا خَوَانُكَ يَنْفُقُ^{٣٣١}
 والماءُ تَسْكِبُهُ فَيُسَبِّكَ عَسْجَدًا^{٣٣٢}
 والأَرْضُ تُغْرِقُهَا فَيَحْيَا الْمُغْرَقُ
 تُعْيِي مَنَابِعُكَ الْعُقُولَ وَيَسْتَوِي
 مُتَخَبِّطٌ فِي عِلْمِهَا وَمُحَقِّقُ
 أَخْلَقْتَ رَاوُوقَ^{٣٣٣} الدَّهْورِ وَلَمْ تَزَلْ
 بِكَ حَمَاءُ^{٣٣٤} كَالْمِسْكِ لَا تَتَرَوَّقُ^{٣٣٥}
 حَمْرَاءُ فِي الْأَحْوَاضِ إِلَّا أَنَهَا
 بِيضَاءُ فِي عُنُقِ الثَّرَى تَتَأَلَّقُ
 دِينَ الْأَوَائِلِ فِيكَ دِينَ مَرْوَةٍ
 لِمَ لَا يُؤَلِّهِ مَنْ يَقُوتُ وَيَرْزُقُ
 لَوْ أَنَّ مَخْلُوقًا يُؤَلِّهِ لَمْ تَكُنْ
 لِسَوَاكَ مَرْتَبَةُ الْأَلُوْهِةِ تَخْلُقُ^{٣٣٦}
 جَعَلُوا الْهَوَى لَكَ وَالْوَقَارَ عِبَادَةً
 إِنَّ الْعِبَادَةَ خَشْيَةٌ وَتَعَلُّقُ
 دَانُوا بِبَحْرِ بِالْمَكَارِمِ زَاخِرِ
 عَذِبِ الْمَشَارِعِ مَدُّهُ لَا يُلْحَقُ
 مُتَقَيِّدٍ بَعْهَوْدِهِ وَوَعُوْدِهِ
 يَجْرِي عَلَى سَنَنِ الْوَفَاءِ وَيَصْدُقُ^{٣٣٧}

^{٣٣١} يَنْفُقُ: يَفْنَى وَيَقْلُ.

^{٣٣٢} الْعَسْجَدُ: الذَّهَبُ.

^{٣٣٣} الرَّاوُوقُ: الْمَصْفَاةُ.

^{٣٣٤} الْحَمَاءُ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ.

^{٣٣٥} تَتَرَوَّقُ، مِنْ رَوَّقَ الشَّرَابَ: صَفَّاهُ.

^{٣٣٦} تَخْلُقُ: أَيِ تَكُونُ خَلِيقَةً وَجَدِيدَةً.

^{٣٣٧} السَّنَنُ: النَّهْجُ.

يَتَقَبَّلُ الْوَادِي الْحَيَاةَ كَرِيمَةً
مَنْ رَاحَتَيْكَ عَمِيمَةً تَتَدَفَّقُ
مَتَقَلَّبُ الْجَنْبَيْنِ فِي نَعْمَائِهِ
يَعْرِى وَيُصْبَغُ فِي نَدَاكَ فَيُورِقُ
فَيَبِيتُ خَصْبًا فِي ثَرَاهِ وَنَعْمَةً
وَيُعْمُهُ مَاءُ الْحَيَاةِ الْمَوْسِقُ^{٣٣٨}
وَإِلَيْكَ بَعْدَ اللَّهِ يَرْجِعُ تَحْتَهُ
مَا جَفَّ أَوْ مَا مَاتَ أَوْ مَا يَنْفُقُ^{٣٣٩}

* * *

أَيْنَ الْفِرَاعَنَةُ الْأُلَى اسْتَذَرَى^{٣٤٠} بِهِمْ
«عِيسَى» وَ«يُوسُفُ» وَ«الْكَلِيمُ» الْمُصْعَقُ
الْمُورِدُونَ النَّاسَ مَنَهْلًا^{٣٤١} حَكْمَةً
أَفْضَى إِلَيْهِ الْأَنْبِيَاءُ لِيَسْتَقُوا
الرَّافِعُونَ إِلَى الضَّحَى أَبَاءَهُمْ
فَالشَّمْسُ أَصْلَهُمُ الْوَضِيءُ الْمُعْرِقُ^{٣٤٢}
وَكَأَنَّمَا بَيْنَ الْبِلَى وَقُبُورِهِمْ
عَهْدٌ عَلَى أَنْ لَا مِسَاسَ وَمَوْثِقُ
فَجَابُهُمْ تَحْتَ الثَّرَى مِنْ هَيْبَةٍ
كَحِجَابِهِمْ فَوْقَ الثَّرَى لَا يُخْرَقُ

^{٣٣٨} الموسق: اسم فاعل من أوسق، والهمزة فيه للتعدية، وثلاثيه وسق، من وسقت الشاة ونحوها بمعنى لقت، أو من وسقت الشيء إذا حملته.

^{٣٣٩} ينفق، من نفق الرجل والدابة: ماتا؛ يعني ما مات من الإنسان، وما هلك من الحيوان.

^{٣٤٠} استذرى بفلان: التجأ إليه، واستذرى بالشجرة: أي استظل بها.

^{٣٤١} المنهل: المورد.

^{٣٤٢} المعرق: العريق في النسب.

بَلَّغُوا الْحَقِيقَةَ مِنْ حَيَاةٍ عِلْمُهَا
حُجُبٌ مُكْتَفَتَةٌ وَسِرٌّ مُغْلَقٌ
وَتَبَيَّنُوا مَعْنَى الْوُجُودِ فَلَمْ يَرَوْا
دُونَ الْخُلُودِ سَعَادَةً تَتَحَقَّقُ
يَبْنُونَ لِلدُّنْيَا كَمَا تَبْنِي لَهُم
خَرِبًا غَرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
فَقُصُورُهُمْ كُؤُخٌ وَبَيْتٌ بَدَاوَةٌ
وَقُبُورُهُمْ صَرْحٌ أَشْمٌ وَجَوْسَقٌ^{٣٤٣}
رَفَعُوا لَهَا مِنْ جَنْدِلٍ وَصَفَائِحِ
عَمَدًا فَكَانَتْ حَائِطًا لَا يُنْتَقَى^{٣٤٤}
تَتَشَايَعُ الدَّارَانِ فِيهِ فَمَا بَدَا
دُنْيَا وَمَا لَمْ يَبْدُ أُخْرَى تَصْدُقُ
لِلْمَوْتِ سِرٌّ تَحْتَهُ وَجِدَارُهُ
سُورٌ عَلَى السَّرِّ الْخَفِيِّ وَخَنْدَقٌ
وَكَأَنَّ مَنْزِلَهُمْ بِأَعْمَاقِ الثَّرَى
بَيْنَ الْمَحَلَّةِ^{٣٤٥} وَالْمَحَلَّةِ فُنْدُقُ
مَوْفُورَةٌ تَحْتَ الثَّرَى أَزْوَادُهُمْ^{٣٤٦}
رَحْبٌ بِهِمْ بَيْنَ الْكَهْفِ الْمُطْبِقِ^{٣٤٧}
* * *

^{٣٤٣} الجوسق: القصر.

^{٣٤٤} ينتق: يززع.

^{٣٤٥} المحلة: المنزل.

^{٣٤٦} الأزواد: جمع زاد، وهو الطعام يُتَّخَذُ للسفر.

^{٣٤٧} المُطْبِق: السجن تحت الأرض.

وَلِمَنْ هِيَ كُلُّ قَدْ عَلَا الْبَانِي بِهَا
بَيْنَ الثَّرِيَا وَالثَّرَى تَتَنَسَّقُ^{٣٤٨}
مِنْهَا الْمُشَيِّدُ كَالْبُرُوجِ وَبَعْضُهَا
كَالطَّوْدِ مُضْطَجِعُ أَشْمُ مُنْطَقُ^{٣٤٩}
جُدُّ كَأَوَّلِ عَهْدِهَا وَحِيَالِهَا
تَتَقَادِمُ الْأَرْضُ الْفَضَاءُ وَتَعْتَقُ^{٣٥٠}
مَنْ كُلِّ ثِقَلٍ كَاهِلُ الدُّنْيَا بِهِ
تَعِبُ وَوَجْهُ الْأَرْضِ عَنْهُ ضِيْقُ
عَالٍ عَلَى بَاعِ الْبِلَى لَا يَهْتَدِي
مَا يَعْتَلِي مِنْهُ وَمَا يَتَسَلَّقُ
مُتَمَكِّنُ كَالطَّوْدِ أَصْلًا فِي الثَّرَى
وَالْفَرْعُ فِي حَرَمِ السَّمَاءِ مُحَلَّقُ
هِيَ مَنْ بِنَاءِ الظُّلَمِ إِلَّا أَنَّهُ
يَبْيِضُ وَجْهُ الظُّلَمِ مِنْهُ وَيُشْرِقُ
لَمْ يُرْهِقِ الْأَمَمَ الْمُلُوكُ بِمِثْلِهَا
فَخَرًّا لَهُمْ يَبْقَى وَذِكْرًا يَعْْبَقُ
فُتِنَتْ بِشَطِّيكَ الْعِبَادُ فَلَمْ يَزَلْ
قَاصٍ يَحْجُبُهُمَا وَدَانٍ يَرْمُقُ
وَتَضَوَّعَتْ مِسْكُ الدَّهْوَرِ كَأَنَّمَا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ بِخَوْرٍ يُحْرَقُ

^{٣٤٨} تَتَنَسَّقُ: تَتَنَظَّمُ.

^{٣٤٩} مُنْطَقُ: مُرْتَفَعٌ لَا يَبْلُغُ السَّحَابَ رَأْسَهُ.

^{٣٥٠} تَعْتَقُ، مَنْ عَتَقَ الشَّيْءَ: قَدَمَ.

وتقابَلَتْ فيها على السُّرْرِ الدُّمَى^{٣٥١}
 مُسْتَرْدِيَاتُ^{٣٥٢} الذل لا تَتَفَنَّقُ^{٣٥٣}
 عَطَلَتْ^{٣٥٤} وكان مكانهنَّ من العُلا
 «بلقيس» تقبِسُ من حُلَاهُ وتَسْرِقُ
 وَعَلا عليهن الترابُ ولم يكن
 يَزْكُو بهنَّ سوى العبير^{٣٥٥} وَيَلْبِقُ^{٣٥٦}
 حُجْرَاتُهَا مَوْطِوءَةً وستورُهَا
 مهتوكةٌ بيدِ البلى تَخْرَقُ
 أَوْدَى بزينتها الزمانُ وحليها
 والحُسْنُ باقٍ والشبابُ الرِّيْقُ^{٣٥٧}
 لو رُدَّ فرعونُ الغداةَ لَرَأَاهُ
 أَنَّ الغرانيقَ^{٣٥٨} العُلا لا تَنْطِقُ
 خلع الزمانُ على الورى أيامه
 فإذا الضُّحى لك حِصَّةٌ والرَّونقُ
 لك من مَواسمه ومن أعياده
 ما تَحْسِرُ^{٣٥٩} الأبصارُ فيه وتَبْرُقُ

^{٣٥١} الدُّمَى: جمع دمية، وهي الصورة المنقَّشة.

^{٣٥٢} مسترديات: لابسات.

^{٣٥٣} تَتَفَنَّقُ: تتنعم.

^{٣٥٤} عطلت، من عطلت المرأة: لم يكن عليها حلي.

^{٣٥٥} العبير: أخلاط من الطَّيب.

^{٣٥٦} يَلْبِقُ: يلبق.

^{٣٥٧} الرِّيْقُ من كل شيء: أوله وأصله.

^{٣٥٨} الغرانيق: جمع غرنيق، وهو الشاب الأبيض الجميل، ويقصد التماثيل.

^{٣٥٩} تحسِر، من حسر البصر: كلَّ لطول مدى البصر.

لا «الفرس» أوتوا مثله يوماً ولا
 «بغداد» في ظلّ «الرشيد» و«جَلَقُ»^{٣٦٠}
 فتح الممالك أو قيام «العجل» أو
 يوم القبور أو الزفاف المونق
 كم موكبٍ تتخايلُ الدنيا به
 يُجلى كما تُجلى النجومُ ويُنسقُ
 «فرعون» فيه من الكتائبِ مُقبلُ
 كالسُحبِ قرنُ الشمسِ منها مُفتقُ^{٣٦١}
 تعنو^{٣٦٢} لعزته الوجوهُ ووجهه
 للشمسِ في الأفاقِ عانٍ مُطرقُ
 آبت من السفرِ البعيدِ جنودهُ
 وأتته بالفتح السعيدِ الفيلقُ^{٣٦٣}
 ومشى الملوكُ مُصفّدين خدودهم
 نعلُ لفرعونَ العظيمِ ونُمرقُ^{٣٦٤}
 مملوكهُ أعناقهم ليمينه
 يأبى فيضربُ أو يمنُ فيعتقُ
 ونجيبهُ بينَ الطفولةِ والصِّبا
 عذراءُ تشرّبها القلوبُ وتعلقُ
 كان الزفافُ إليك غايةَ حظّها
 والحظُّ إن بلغَ النهايةَ مُوبقُ^{٣٦٥}

^{٣٦٠} جَلَقُ: دمشق.

^{٣٦١} مفتق، من فتق قرن الشمس: أصاب فتقاً من السحاب فبدا منه.

^{٣٦٢} تعنو: تخضع وتذلّ.

^{٣٦٣} الفيلق: الكتيبة العظيمة.

^{٣٦٤} النمرق: الوسادة الصغيرة.

^{٣٦٥} مُوبق: مُهلك.

لَافِيَتَ أَعْرَاسًا وَلَا قَتَ مَأْتَمًا
 كالشيخِ يَنعَمُ بِالْفَتَاةِ وَتُزْهَقُ
 فِي كُلِّ عَامٍ دُرَّةٌ تُلْقَى بِلا
 ثَمَنِ إِلَيْكَ وَحُرَّةٌ لَا تُصَدِّقُ^{٣٦٦}
 حَوْلُ^{٣٦٧} تُسَائِلُ فِيهِ كُلُّ نَجِيبَةٍ
 سَبَقَتْ إِلَيْكَ مَتَى يَحُولُ فَتَلْحَقُ
 وَالْمَجْدُ عِنْدَ الْغَانِيَاتِ رَغِيبَةٌ
 يُبْغَى كَمَا يُبْغَى الْجَمَالُ وَيُعْشَقُ
 إِنْ زَوَّجَكَ بِهِنَّ فَهِيَ عَقِيدَةٌ
 وَمِنَ الْعَقَائِدِ مَا يَلْبُ^{٣٦٨} وَيَحْمَقُ
 مَا أَجْمَلَ الْإِيمَانَ لَوْلَا ضَلَّةٌ
 فِي كُلِّ دِينَ بِالْهَدَايَةِ تُلْصَقُ
 زُفَّتْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ يَحْتُهَا
 دِينَ وَيُدْفَعُهَا هَوًى وَتَشَوُّقُ
 وَلِرُبَّمَا حَسَدَتْ عَلَيْكَ مَكَانَهَا
 تَرَبُّ^{٣٦٩} تَمَسَّحُ بِالْعُرُوسِ وَتُحْدِقُ
 مَجْلُوءَةٌ فِي الْفُلْكِ يَحْدُو^{٣٧٠} فُلُكَهَا
 بِالشَّاطِئِينَ مُزْغِرِدٌ وَمُصَفِّقُ
 فِي مَهْرَجَانٍ هَزَّتِ الدُّنْيَا بِهِ
 أَعْطَافُهَا وَاخْتَالَ فِيهِ الْمَشْرِقُ
 فَرَعُونَ تَحْتَ لَوَائِهِ وَبَنَاتُهُ
 يَجْرِي بِهِنَّ عَلَى السَّفِينِ الزَّوْرُقُ

^{٣٦٦} تُصَدِّقُ: مَنْ أَصْدَقَ الرَّجُلَ الْمَرْأَةَ؛ أَيِ سَمَّى لَهَا صَدَاقَهَا.

^{٣٦٧} الْحَوْلُ: السَّنَةُ.

^{٣٦٨} يَلْبُ: مَنْ لَبَّ؛ أَيِ صَارَ لَبِيبًا.

^{٣٦٩} التَّرَبُّ: مَنْ وُلِدَ مَعَكَ.

^{٣٧٠} يَحْدُو، مِنْ حَدَا الْإِبِلَ: سَاقَهَا وَغَنَّى لَهَا.

حتى إذا بَلَغَتْ مواكِبُهَا المَدَى
وجرى لغايته القضاءُ الأسْبَقُ
وكسا سماءَ المِهْرَجَانِ جلالَةً
سيفُ المنية وهو صَلْتُ^{٣٧١} يَبْرُقُ
وتَلَفَّتْ في اليمِّ كُلِّ سفينةٍ
وانثال^{٣٧٢} بالوادي الجموعُ وحدَّقوا
أَلَقَتْ إِيكَ بِنَفْسِهَا وَنَفْسِهَا
وَأَتَتْكَ شَيْقَةً حَواها شَيْقُ
خَلَعَتْ عَلَيْكَ حَياءَها وَحَياءَها
أَأَعَزُّ مِنْ هَذا شَيْءٌ يُنْفَقُ
وَإِذا تَناهى الحُبُّ وَاتَّفَقَ الفِدى
فالروحُ في بابِ الضحية أَلِيقُ
ما العالَمُ السُّفْلِيُّ إِلَّا طِينَةٌ
أَزَلِيَّةٌ^{٣٧٣} فِيهِ تُضَيءُ وَتَغْسِقُ^{٣٧٤}
هي فِيهِ لِلخَصْبِ العَمِيمِ خَمِيرَةٌ
يَنْدَى بِما حَمَلَتْ إِلَيْهِ وَيَبْثُقُ^{٣٧٥}
ما كان فِيها لِلزِيادةِ مَوْضِعُ
وَإِلَى جِماها النَقْصُ لا يَتَطَرَّقُ
مُنْبَثَّةٌ فِي الأَرْضِ تَنْتَظِمُ الثَّرَى
وَتَنالُ مَمًّا فِي السَّمَاءِ وَتَعْلَقُ
مِنْها الحِياةُ لَنا وَمِنْها ضِدُّها
أَبَدًا نَعوُدُ لَها وَمِنْها نُخَلَقُ

^{٣٧١} الصَّلْتُ: السيف الصقيل الماضي.

^{٣٧٢} انثال: أي انصب.

^{٣٧٣} أزلية: الأزل القديم.

^{٣٧٤} تغسق: تُظلم.

^{٣٧٥} يَبْثُقُ، من بَثَقَ السيل موضع كذا: خرقه وشقّه.

والزَّرْعُ سُنْبُلُهُ يَطِيبُ وَحَبُّهُ
 منها فيخرجُ ذا وهذا يُفَلِّقُ
 وتشدُّ بيتَ النحلِ فهو مُطَنَّبٌ
 وتمدُّ بيتَ النملِ فهو مُرَوِّقُ
 وتظلُّ بين قُوى الحياة جوائلاً
 لا تستقرُّ دوائلاً لا تُمَحِّقُ^{٣٧٦}
 هي كَلِمَةُ الله القديرِ ورُوحُهُ
 في الكائناتِ وسرُّه المُستَغْلِقُ
 في النجم والقمرين مَظهرُها إذا
 طلعت على الدنيا وساعة تَخْفِقُ
 والذَّرُّ^{٣٧٧} والصخراتُ ممَّا كَوَّرتُ
 والفيلُ ممَّا صَوَّرتُ والخرنقُ^{٣٧٨}
 فتنت عقولَ الأولين فألَّهوا
 من كلِّ شيءٍ ما يرُوعُ وَيَخْرُقُ
 سجَدوا لمخلوقٍ وظنُّوا خالقاً
 مَنْ ذا يُمَيِّزُ في الظلامِ وَيَفْرُقُ
 دانت بـ «آبِيسَ» الرعية كُلُّها
 مَنْ يستغلُّ الأرضَ أو مَنْ يَعزُقُ
 جاءوا من المَرعى به يمشي كما
 تمشي وتلتفتُ المَهاةُ وتَرشِقُ
 داجٍ كجنحِ الليلِ زانٍ جبينُهُ
 وَضَحَ عليه من الأهلَّةِ أَشْرَقُ^{٣٧٩}

^{٣٧٦} تُمَحِّقُ، من محقه: أهلكه.

^{٣٧٧} الذَّرُّ: الهباء المنبعث في الهواء، الواحدة ذرَّة.

^{٣٧٨} الخرنق: الفتى من الأرنب.

^{٣٧٩} الوضح: الغرَّة، والوضح: التحجيل في القوائم.

العسجد^{٣٨٠} الوهاج وشي جلاله
والورد موطئ خفه والزنبق^{٣٨١}
ومن العجائب بعد طول عبادة
يؤتى به حوض الخلود فيغرق
يا ليت شعري هل أضاعوا العهد أم
حذروا من الدنيا عليه وأشفقوا
قوم وقار الدين في أخلاقهم
والشعب ما يعتاد أو يتخلق
يدعون خلف الستر آلهة لهم
ملئوا الندي جلاله وتأبّقوا^{٣٨٢}
واستحجبوا^{٣٨٣} الكهان هذا مبلغ
ما يهتفون به وذاك مُصدّق
لا يُسألون إذا جرّت ألفاظهم
من أين للحجر اللسان الأذلق
أو كيف تخترق الغيوب بهيمة
فيما ينوب من الأمور ويطرّق
وإذا هم حجبوا القبور حسبتهم
وفد «العتيق»^{٣٨٤} بهم ترامى الأينق^{٣٨٥}
يأتون «طيبة» بالهدي^{٣٨٦} أمامهم
يغشى المدائن والقرى ويُطبّق

^{٣٨٠} العسجد: الذهب.

^{٣٨١} الزنبق: نبات له زهر طيب الرائحة.

^{٣٨٢} الندي: النادي.

^{٣٨٣} استحجبوا الكهان: أي ولّوهم الحجابة، وهي خطة الحاجب؛ أي البواب.

^{٣٨٤} العتيق: الكعبة.

^{٣٨٥} الأينق: جمع ناقة.

^{٣٨٦} الهدى: ما يُهدى إلى الحرم من النعم، وقيل هو جمع الهدى، واحداً هدية.

فالبَرُّ مشدودُ الزواحلِ مُحدَجٌ^{٣٨٧}
 والبحرُ ممدودُ الشِّراعِ مُوسَّقُ
 حتى إذا ألقوا بهيكلِها العصا
 وفُؤوا النذورَ وقربوا واصدَّقوا
 وجرت زوارقُ بالحجيجِ كأنها
 رُقْطٌ تدافعُ أو سهامٌ تمرُّقُ^{٣٨٨}
 من شاطئٍ فيه الحياةُ لشاطئٍ
 هو مَضْجَعُ للسابقين ومرفقُ^{٣٨٩}
 غرَبوا غروبَ الشمسِ فيه واستوى
 شاهُ ورُخٌّ^{٣٩٠} في الترابِ وبَيدقُ^{٣٩١}
 حيث القبورُ على الفضاءِ كأنها
 قِطْعُ السحابِ أو السرابُ الدَّيسقُ^{٣٩٢}
 للحقِّ فيه جولةٌ وله سَنًا
 كالصبحِ من جنّباتِها يتفلَّقُ
 نزلوا بها فمشى الملوكُ كرامةً
 وجثا المُدِلُّ بماله والمُملِقُ^{٣٩٣}
 ضاقت بهم عرصاتُها فكأنما
 ردت ودائعُها الفلاةُ الفيَهقُ^{٣٩٤}

^{٣٨٧} مُحدَج، من حدج الأحمال: شدّها ووسّقها.

^{٣٨٨} رقط: واحدتها رقطاء، وهي الحية.

^{٣٨٩} المرفق: المتكأ.

^{٣٩٠} الرُخُّ: قطعة شطرنج يُلعب بها.

^{٣٩١} البیدق: قطعة شطرنج يُلعب بها.

^{٣٩٢} الديسق: بياض السراب وترقرقه، وهو اسم للسراب أيضًا، ويُطلق كذلك على كل شيء يُنير ويضيء.

^{٣٩٣} المُملِق: الفقير.

^{٣٩٤} الفيَهق: الواسع من كل شيء.

وَتَنَادَمَ الْأَحْيَاءُ وَالْمَوْتَى بِهَا
فَكَأَنَّهُمْ فِي الدَّهْرِ لَمْ يَتَفَرَّقُوا

* * *

أَصْلُ الْحَضَارَةِ فِي صَعِيدِكَ ثَابِتٌ
وَنَبَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيْكَ مُخْلَقٌ^{٣٩٥}
وُلِدْتَ فَكَنْتَ الْمَهْدَ ثُمَّ تَرَعَرَعْتَ
فَأَظْلَلَهَا مِنْكَ الْحَفِيُّ الْمُشْفِقُ
مَلَأْتَ دِيَارَكَ حِكْمَةً مَأْثُورَهَا
فِي الصَّخْرِ وَالْبَرْدِيِّ الْكَرِيمِ مُنْبَقٌ^{٣٩٦}
وَبَنَتْ بَيْوتَ الْعِلْمِ بِإِذْنِ الذُّرَا
يَسْعَى لَهُنَّ مُغْرَبٌ وَمُشْرِقٌ
وَاسْتَحْدَثَتْ دِينًا فَكَانَ فُضَائِلًا
وَبِنَاءَ أَخْلَاقٍ يَطُولُ وَيَشْهَقُ^{٣٩٧}
مَهْدَ السَّبِيلِ لِكُلِّ دِينَ بَعْدَهُ
كَالْمَسْكِ رِيَّاهُ بِأُخْرَى تُفْتَقُ^{٣٩٨}
يَدْعُو إِلَى بَرٍّ وَيَرْفَعُ صَالِحًا
وَيَعَافُ مَا هُوَ لِلْمَرْوَةِ مُخْلِقٌ
لِلنَّاسِ مِنْ أَسْرَارِهِ مَا عُلِّمُوا
وَلِشُعْبَةِ الْكُهْنوتِ مَا هُوَ أَعَمَقُ
فِيهِ مَحَلٌّ لِلْأَقَانِيمِ^{٣٩٩} الْعُلَا
وَلِجَامِعِ التَّوْحِيدِ فِيهِ تَعَلَّقُ

^{٣٩٥} مُخْلَقٌ: مُتَطَيِّبٌ.

^{٣٩٦} مُنْبَقٌ: مُسَطَّرٌ.

^{٣٩٧} يَشْهَقُ، مِنْ شَهَقَ الْجَبَلُ: ارْتَفَعَ.

^{٣٩٨} تُفْتَقُ، مِنْ فَتَقَ الْمَسْكَ بَغِيرِهِ: اسْتَخْرَجَ رَائِحَتَهُ بِشَيْءٍ يُدْخِلُهُ عَلَيْهِ.

^{٣٩٩} الْأَقَانِيمُ: جَمْعُ أَقْنُومٍ، وَهُوَ الْأَصْلُ وَالشَّخْصُ.

تابوت موسى لا تزال جلاله
تبدو عليك له ورثاً تُنشَقُ^{٤٠٠}
وجمال يوسف لا يزال لواؤه
حوالك في أفق الجلال يُرنَقُ^{٤٠١}
ودموع إخوته رسائل توبة
مسطورهن بشاطئك مُنَمَّقُ
وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل
يزكو لذكرها النبات ويسمَّقُ^{٤٠٢}
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً
بركات ربك والنعيم الغيدَقُ^{٤٠٣}
وودائع «الفاروق»^{٤٠٤} عندك دينه
ولواؤه وبيانه والمنطق
بعث الصحابة يحملون من الهدى
والحق ما يحيي العقول ويفتق
فتح الفتوح من الملائك رَزَقُ^{٤٠٥}
فيه ومن «أصحاب بدر» رَزَقُ
يبنون لله الكنانة بالقنا
والله من حول البناء مُوفَّقُ
أحلاس^{٤٠٦} خيل بيد أن حسامهم
في السلم من حذر الحوادث مُقلَقُ

^{٤٠٠} تُنشَقُ: تُشَمُّ.

^{٤٠١} يرنق: يخفق ويتحرك.

^{٤٠٢} يسمق: سقى النبات أي طال وعلا.

^{٤٠٣} الغيدق، من غيدق المطر: كثر.

^{٤٠٤} الفاروق: عمر بن الخطاب.

^{٤٠٥} الرزديق: الصف من الناس.

^{٤٠٦} أحلاس خيل: أي ملازمون ظهورها.

تَطْوِي الْبِلَادُ لَهُمْ وَيُنْجِدُ جَيْشَهُمْ
جَيْشٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ غَايِ مُورِقٌ^{٤٠٧}
فِي الْحَقِّ سُلٌّ وَفِيهِ أُغْمِدَ سَيْفُهُمْ
سَيْفُ الْكَرِيمِ مِنَ الْجَهَالَةِ يَفْرِقُ^{٤٠٨}
وَالْفَتْحُ بَغْيِي لَا يُهَوِّنُ وَقَعَهُ
إِلَّا الْعَفِيفُ حَسَامُهُ الْمُتَرْفِقُ
مَا كَانَتْ «الْفُسْطَاطُ» إِلَّا حَائِطًا
يَأْوِي الضَّعِيفَ لِرُكْنِهِ وَالْمُرْهَقُ
وَبِهِ تَلَوِّذُ الطَّيْرِ فِي طَلَبِ الْكَرَى
وَيَبِيتُ «قَيْصَرُ» وَهُوَ مِنْهُ مُورِقُ
«عَمْرُو» عَلَى شُطْبٍ^{٤٠٩} الْحَصِيرِ مُعَصَّبٍ^{٤١٠}
بِقِلَادَةِ اللَّهِ الْعَلِيِّ مُطَوَّقُ
يَدْعُو لَهُ «الْحَاخَامُ» فِي صَلَوَاتِهِ
«مُوسَى» وَيَسْأَلُ فِيهِ عَيْسَى الْبَطْرَقُ
يَا نَيْلُ أَنْتَ بِطِيبٍ مَا نَعْتَ «الْهَدْيُ»
وَبِمَدْحَةِ «التَّوْرَةِ» أَحْرَى أَخْلَقُ
وإِلَيْكَ يُهْدِي الْحَمْدَ خَلْقُ حَازِهِمْ
كَنَفٌ عَلَى مَرِّ الدَّهْرِ مُرْهَقٌ^{٤١١}
كَنَفٌ «كَمَعِنٍ» أَوْ كَسَاحَةٍ «حَاتِمٍ»
خَلْقٌ يُودَّعُهُ وَخَلْقٌ يَطْرُقُ

^{٤٠٧} مُورِقٌ: هُوَ هُنَا بِمَعْنَى غَانِمٍ.

^{٤٠٨} يَفْرِقُ: يَحْذَرُ.

^{٤٠٩} الشُّطْبُ: السَّعْفُ الْأَخْضَرُ الرُّطْبُ مِنَ جَرِيدِ النَّخْلِ.

^{٤١٠} مُعَصَّبٌ: مَتَوَّجٌ.

^{٤١١} الْمُرْهَقُ: مَنْ يَغْشَاهُ النَّاسُ وَالْأَضْيَافُ كَثِيرًا.

وعليك تُجلى من مصونات النُّهى
خُودُ عرائسِ خِدرهنَّ المَهْرَقُ^{٤١٢}
الدُّرُّ في لَبَّاتهنَّ^{٤١٣} مُنْظَمٌ
والطَّيْبُ في حِبرَاتهنَّ مُرْقَرَقُ
لي فيك مدحٌ ليس فيه تكلُّفٌ
أَمْلَاهُ حُبُّ لَيْسَ فِيهِ تَمَلُّقُ
مَمَّا يُحْمَلُنَا الهوى لك أفرُحُ
سنطير عنها وهي عندك تُرْزَقُ
تهفُو إليهم في الترابِ قلوبُنَا
وتكاد فيه بغيرِ عِرْقٍ تَخْفُقُ
تُرجى لهم واللَّهُ جَلَّ جلاله
مَنَّا ومنك بهم أبرُّ وأَرْفَقُ
فاحفظ ودائعك التي استودِعَتْهَا
أنت الوفيُّ إذا أوْتُمِنْتَ الأَصْدَقُ
للأرضِ يومٌ والسماءِ قِيَامَةٌ
وقيامةُ «الوادي» غداةُ تَحْلُقُ^{٤١٤}

نكبة دمشق

(قِيلَتْ في حفلة أُقيمت لإعانة منكوبي سوريا بتياترو وحديقة الأزبكية في يناير سنة ١٩٢٦م.)

سلامٌ من صبا «بَرَكَي»^{٤١٥} أرقُّ ودمعٌ لا يُكفِّفُ يا دمشقُ

^{٤١٢} المَهْرَقُ: الصحيفة.

^{٤١٣} لَبَّاتهنَّ: واحدتها لَبَّةٌ، وهي النحر.

^{٤١٤} تَحْلُقُ: تجفُّ، من حلَّقت الإبل إذا ارتفع لبنها وجفَّ.

^{٤١٥} بَرَكَي: نهر دمشق.

ومعذرةَ اليراعة والقوافي ٤١٦ الرزء: المصيبة.
ونذكرى عن خواطرها لقلبي ٤١٧ خفق: خفوق.
وبي ممّا رمّتك به الليالي ٤١٨ ائتلاق، من ائتلق: لمع وأضاء.
دخلتُك والأصيلُ له ائتلاقُ^{٤١٨} ٤١٩ الورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.
وتحت جناك الأنهار تجري ٤٢٠ لهوات: جمع لها، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.
وحولي فتية غرّ صباح ٤٢١ لسن، من لسن الرجل: فصّح، أو تناهى في الفصاحة والبلاغة.
على لهواتهم^{٤٢٠} شعراء لسن^{٤٢١} ٤٢٢ شذق: جمع أشدق: أي بليغ مفوه كريم.
رواة قصائدي فاعجب لشعر ٤٢٣ اضطرم، من اضطرمت النار: اشتعلت.
غمزت إباءهم حتى تلظّت ٤٢٤ المدق: قصبه الأنف.
وضج من الشكيمة^{٤٢٥} كل حرّ

* * *

لحاهها الله أنباءً توالّت ٤٢٧ على سمع الولي بما يشقّ^{٤٢٧}
يفصلها^{٤٢٨} إلى الدنيا بريد ٤٢٩ ويجمّلها إلى الأفق برق^{٤٢٩}

٤١٦ الرزء: المصيبة.

٤١٧ خفق: خفوق.

٤١٨ ائتلاق، من ائتلق: لمع وأضاء.

٤١٩ الورق: جمع ورقاء، وهي الحمامة.

٤٢٠ لهوات: جمع لها، وهي اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم.

٤٢١ لسن، من لسن الرجل: فصّح، أو تناهى في الفصاحة والبلاغة.

٤٢٢ شذق: جمع أشدق: أي بليغ مفوه كريم.

٤٢٣ اضطرم، من اضطرمت النار: اشتعلت.

٤٢٤ المدق: قصبه الأنف.

٤٢٥ الشكيمة من اللجام: الحديدية المعترضة في فم الفرس.

٤٢٦ العتق: الكرم وخلوص الأصل.

٤٢٧ الولي: المحب والصديق.

٤٢٨ فصل: بين.

٤٢٩ يجمّل، من أجمل الكلام: فصله وبيّنه.

تَكَادُ لِرَوْعَةِ الْأَحْدَاثِ ٤٢٠ فِيهَا
وَقِيلَ مَعَالِمُ التَّارِيخِ دُنُكْتُ
أَلَسْتُ دِمَشْقُ لِلْإِسْلَامِ ظَنَرًا ٤٢١
صَلَاحُ الدِّينِ تَاوَجُّكَ لَمْ يُجَمَّلْ
وَكُلُّ حَضَارَةٍ فِي الْأَرْضِ طَالَتْ
سَمَاوُكَ مِنْ حُلَى الْمَاضِي كِتَابُ
بَنِيَتِ الدَّوْلَةِ الْكُبْرَى وَمُلْكًا
لَهُ بِالشَّامِ أَعْلَامٌ وَعُرسُ

* * *

رِبَاعُ الْخُلْدِ وَيَحَكُّ مَا دَهَاها
وَهَلْ غَرَفَ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتُ ٤٢٤
وَأَيْنَ دُمَى ٤٢٥ الْمَقَاصِرِ ٤٢٦ مِنْ جِبَالٍ
بَرَزْنَ وَفِي نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ
إِذَا رُمُنَ السَّلَامَةُ مِنْ طَرِيقٍ
بَلِيلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَايَا
إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرَ أَفُقُ
سَلِيٍّ مِّنْ رَّاعٍ غَيْدِكَ بَعْدَ وَهْنٍ ٤٢٧
وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلَانُوا

٤٢٠ الأحداث: المصائب.

٤٢١ الظَّن: المُرْضعة.

٤٢٢ السرح: الشجر العظام.

٤٢٣ الرَّقُّ: جِلْدٌ رَقِيقٌ يُكْتَبُ فِيهِ.

٤٢٤ مَنْضَدٌ: مَنْسَقٌ.

٤٢٥ الدُّمَى: وَاحِدَتُهَا دُمِيَّةٌ، وَهِيَ الصُّورَةُ الْمُنْقَشَةُ.

٤٢٦ الْمَقَاصِرِ: وَاحِدَتُهَا مَقْصُورَةٌ، وَهِيَ الْحَجَرُ.

٤٢٧ الْوَهْنُ: نِصْفُ اللَّيْلِ، أَوْ بَعْدُهُ بِسَاعَةٍ.

أخو حربٍ به صَلَفٌ وحمقٌ
يقول عصابةً خرجوا وشقوا
وتعلم أنه نورٌ وحقٌ
كمُنهلُ السماءِ وفيه رزقٌ^{٤٣٨}
وزالوا دونَ قومهم لِيَبْقُوا
فكيف على قناها تُسْتَرْقُ^{٤٣٩}
وَأَلْقُوا عنكم الأحلامَ أَلْقُوا
بألقابِ الإمارةِ وهي رِقٌّ^{٤٤٠}
كما مالت من المصلوبِ عُنُقُ
ولا يمضي لِمُخْتَلِفِينَ فَتَقُ
ولكن كلُّنا في الهمِّ شرقٌ
بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطَقُ
فإن رُمْتُم نعيمَ الدهرِ فاشقُوا
يدٌ سَلَفَتْ وَدَيْنٌ مُسْتَحَقُّ
إذا الأحرارُ لم يُسَقُوا وَيَسْقُوا
ولا يُدْنِي الحقوقَ ولا يُحِقُّ
وفي الأسرى فِدَى لَهُمْ وَعَتَقُ^{٤٤٢}
بكلِّ يدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
وعزَّ الشرقِ أوْلَه دِمَشْقُ
وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حقٌ
وإن أُخِذُوا بما لم يَسْتَحِقُّوا

رماكِ بَطْيِشِه ورمى فرنسا
إذا ما جاءه طُلابُ حقٍّ
دمُ الثَّوارِ تعرفه فرنسا
جرى في أرضها فيه حياةٌ
بلادٌ مات فتيتها لِتَحْيَا
وَحُرَّرتِ الشعوبُ على قناها
بني سورية أطرحوا الأمانِي
فمن خَدَعَ السياسة أن تُغَرَّوا
وكم صَيِّدٌ^{٤٤١} بدا لك من ذليلٍ
فَتَوَقَّ الْمُلِكُ تحدثُ ثم تمضي
نصحتُ ونحن مختلفون دارًا
ويجمعُنا إذا اختلفت بلادٌ
وَقَفْتُم بينَ موتٍ أو حياةٍ
وللاوطانِ في دمٍ كلُّ حُرٍّ
ومن يَسْقِي وَيَشْرَبُ بالمنايا
ولا يبني الممالك كالضحايا
ففي القتلِ لأجيالِ حياةٍ
وللحريةِ الحمراء بابٌ
جزاكم ذو الجلالِ بني دمشق
نصرتُم يومَ مِحْنَتِهِ أخاكم
وما كان الدُّرُوزُ قَبِيلَ^{٤٤٣} شرٍّ

^{٤٣٨} مُنْهَلُ السَّمَاءِ: أي قطره.

^{٤٣٩} تُسْتَرْقُ: تُسْتَعْبَدُ.

^{٤٤٠} الرِّقُّ: العبودية.

^{٤٤١} الصَّيِّدُ: مِيلُ العنق وهو يضرب للكبر.

^{٤٤٢} العَتَقُ: الحرية.

^{٤٤٣} الْقَبِيلُ: جمع قبيلة، وهي العشيرة.

ولكنْ زَادَةٌ^{٤٤٤} وَقِرَاءَةٌ ضَيْفٌ
لهم جَبَلٌ أَشْمٌ له شِعَافٌ
لكلِّ لَبْوَةٍ ولكلِّ شَبَلٍ
كَأَن من السَّمَوِلِ^{٤٤٥} فيه شَيْئًا

كَيَنْبُوعِ الصَّفا خُسْنُوا ورُقُوا
مَوَارِدُ في السَّحابِ الجُونِ بُلُقُ
نِضَالٌ دُونَ غَايَتِهِ ورَشَقُ
فَكُلِّ جِهَاتِهِ شَرَفٌ وَخُلُقُ

رمضان ولَّى

(الأبيات التي بين قوسين ترجمتها جريدة الطان بقلم المرحوم عثمان باشا غالب.)

رمضانٌ ولَّى هَاتِهَا يا سَاقِي
ما كان أَكْثَرَهُ على الْأَفْهَا
اللَّهُ غَفَّارُ الذُّنُوبِ جَمِيعِهَا
بالْأَمْسِ قد كُنَّا سَجِينِي طَاعَةٍ
ضَحِجْتَ إِلَيَّ من السُّرُورِ ولم تَزَلْ
هَاتِ اسْقِنِيهَا غَيْرَ ذَاتِ عَوَاقِبِ
صِرْفًا مُسْلَطَةً الشُّعَاعِ كَأَنَّمَا
حَمَرَاءُ أو صَفَرَاءُ إن كَرِيمَها
وَحَذَارٍ من دِمَها الزَكِيِّ تُرِيْقُهُ
لا تَسْقِنِي إِلَّا دِهَاقًا^{٤٤٦} إِنِّني
فلَعَلَّ سُلْطَانَ المُدَامَةِ مُخْرِجِي
«وطني أَسَفْتُ عَلَيْكَ في عِيدِ المَلا

مُشْتاقَةٌ تَسْعَى إلى مُشْتاقٍ
وأَقْلَهُ في طَاعَةِ الخَلَقِ
إن كان ثَمَّ من الذُّنُوبِ بَوَاقِي
والْيَوْمَ مَنْ العِيدِ بالإِطْلَاقِ
بَنَتْ الكُرومُ كَرِيمَةَ الأعْرَاقِ
حتى نُراغَ لَصِيحَةِ الصَّفَاقِ^{٤٤٦}
من وَجَنَتِكَ تُدَارُ والأَحْدَاقِ
كَالْغَيْدِ كُلِّ مَلِيحَةٍ بِمِذاقِ
يَكْفِيكَ يا قَاسِي دَمِّ العُشَاقِ
أُسْقَى بِكَأْسٍ في الهمومِ دِهَاقِ
مِنْ عَالَمٍ لم يَحِوْ غَيْرَ نِفَاقِ
وبَكَيْتُ مِنْ وَجْدٍ وَمِنْ إِشْفَاقِ

^{٤٤٤} الزادة: جمع ذائد، وهو الحامي.

^{٤٤٥} السموءل: هو السموءل بن عادياء اليهودي، صاحب القصيدة التي مطلعها:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلٌ

^{٤٤٦} الصَّفَاق: الديك.

^{٤٤٧} الدِّهَاق من الكئوس: الممتلئة.

«لا عيدَ لي حتى أراك بأُمةٍ
 «ذهب الكرامُ الجامعون لأمرهم
 «أيَظُلُّ بعضهم لبعضِ خاذلاً
 «وإذا أراد الله إشقاءَ القُرى
 شمَاءَ راويةٍ من الأخلاقِ»
 وبقيتُ في خَلْفٍ بغيرِ خَلَاقِ
 ويقال شعبٌ في الحضارة راقِي
 جعلَ الهداةَ بها دُعاةَ شِقَاقِ»

* * *

العيدُ بينَ يَدَيْكَ يا ابنَ محمدٍ
 وأتى يُقبِلُ راحتِكَ ويرتجي
 قابِلَتَهُ بسُعودٍ وجهك والسَّنا
 فاهناً بطالعه السعيدِ يَزينُهُ
 يتنَزَّلُ الأجرانِ ٤٤٨ في صُبْحَيهِمَا
 إني أُجِلُّ عن القتالِ سرائري
 وأرى سُمومَ العالمين كثيرةً
 قسَمَتِ بَنِيهَا واستبدَّت فوقهم
 واللهُ أتعَبَها وضلَّ كيدَها
 يأسُو جِراحَ اليائسين من الورى
 بلغَ الكرامُ المَجْدَ حينَ جرّوا له
 ورأوا غُبارَكَ في السُّها وتراكضوا
 مولاي طلبةُ مصرَ أن تَبْقَى لها
 سَبَقَ القريضُ إليك كلَّ مُهنِّي
 لم يدْخُرْ إلا رِضاكَ ولا اقتنى
 نثرَ السُّعودِ حُلَى على الآفاقِ
 ألا يفوتكما الزمانَ تلاقٍ
 فازدادَ من يُمنٍ ومن إشراقٍ
 عيدُ الفقيرِ و ليلةُ الأرزاقِ
 جَزَلَيْنِ عن صومٍ وعن إنفاقٍ
 إلّا قتالَ البؤسِ والإملاقِ ٤٤٩
 وأرى التعاونَ أنجعَ التَّرياقِ ٤٥٠
 دُنْيا تعقُ لئيمُهُ الميثاقِ
 من راحتِكَ بوابِلِ غَيْدَاقِ ٤٥١
 ويُساعدُ الأنفاسَ في الأرماقِ ٤٥٢
 بسوابِقٍ وبلَغَتَهُ بـ «بُراقِ»
 مَنْ للنجومِ وَمَنْ لهم بلِحاقِ
 فإذا بَقِيَتْ فكلُّ خيرٍ باقٍ
 من شاعرٍ مُتفَرِّدٍ سَبَّاقٍ
 إلا ولاءك أنفَسَ الأعلاقِ ٤٥٣

٤٤٨ الأجران: مثني أجر؛ أي أجر زكاة الفطر والصوم.

٤٤٩ الإملاق، من أَمَلَقَ الرجل: أنفق ماله حتى افتقر.

٤٥٠ التَّرياق: دواءٌ مرَكَّبٌ يدفع السموم.

٤٥١ الغيدق: الكريم الجواد الواسع الخلق الكثير العطية.

٤٥٢ الأرماق: جمع رَمَق، وهو بقية الحياة.

٤٥٣ الأعلاق: جمع علق، وهو النفيس من كل شيء.

إن القلوبَ وأنتِ ملءٌ صميمها بعثتَ تَهانِيها من الأعماقِ
وأنا الفتى «الطائي»^{٤٥٤} فيك وهذه كَلِمِي هَزَزْتُ بها أبا إِسْحاقِ^{٤٥٥}

مِصر

قال وقد كان أَعَدَّ وليمةً إلى الكاتب الإنجليزي المستر هول كين:

أَيُّها الكاتبُ المصوِّرُ صوِّرْ مِصرَ بالمنظَرِ الأنيقِ الخَلِيقِ
إن مِصرًا روايةُ الدهرِ فاقراً عِبْرَةَ الدهرِ في الكتابِ العتيقِ
مَلْعَبٌ مِثْلُ القِضاءِ عليه في صِبا الدهرِ آيَةُ «الصَّدِّيقِ»^{٤٥٦}
وأمَّحاء^{٤٥٧} «الكليم»^{٤٥٨} آنَسَ نارًا وألْتَجَأَ «البُتُولُ»^{٤٥٩} في وقتِ ضِيقِ
ومنايا «منا» فـ «كسرى» فِذي «الْقُرْ نَيْنِ» فالْقِصْرَيْنِ فـ «الفاروق»^{٤٦٠}
دُولُ لم تَبْدُ وَلِكنْ توارتْ خَلَفَ سِتْرٌ من الزمانِ رقيقِ
رَوْضَتِي أَزْيَنْتَ وأبَدْتَ حُلَها حينَ قالوا رِكابُكم في الطريقِ
مِثْلَ عِذراءٍ من عجائزِ «روما» بَشَّرُوها بِزُورَةِ البَطْرِيقِ
ضَحِكُ المائِ والأقْاحي^{٤٦١} عليها قَابَلَتْهُ الغِصُونُ بالتَصْفِيقِ
زُرْتُها والرَبِيعُ فصلًا فَخَفَّتْ نَحْوَ رِكْبَيْكِما خُفُوفَ المَشُوقِ
فانزلا في عيونِ نرجسِها الغُضِّ صَيانًا وفوقَ خُدِّ الشَّقِيقِ^{٤٦٢}

^{٤٥٤} الطائي: أبو تمام الطائي الشاعر.

^{٤٥٥} أبو إِسْحاق: المعتصم بالله.

^{٤٥٦} الصَّدِّيق: يوسف عليه السلام.

^{٤٥٧} أمَّحاء: صعق.

^{٤٥٨} الكليم: موسى عليه السلام.

^{٤٥٩} البتول: مريم العذراء عليها السلام.

^{٤٦٠} الفاروق: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

^{٤٦١} الأقاحي: جمع أقحوانة، وهو نبات له زهرٌ أبيض في وسطه كتلةٌ صغيرةٌ صفراء.

^{٤٦٢} الشقيق: زهر.

البحر الأبيض المتوسط

أَيُّ الْمَمَالِكِ أَيُّهَا
يَا أَبْيَضَ الْأَثَارِ وَالصَّبْ
إِنَّ الْبَيَانَ وَإِنَّ حُسْنَ
أَبَدًا تُذَكِّرُنَا الذِّيبَ
وَبَنَوْا مَنَارَكَ عَالِيًا
وَتَحَكَّمُوا بِكَ فِي الْوَجُو
حَتَّى إِذَا جِئْتَ الْأَنَا
وَالْيَوْمَ عَقُّ كَأَنَّمَا
فَابْلَعُ فِدَيْتَكَ كُلَّ مَا
فِي الدَّهْرِ مَا رَفَعْتَ شِرَاعَكَ
فَحَاتِ ضَيْعٌ مِّنْ أَضَاعَكَ
مَنْ الْعَقْلِ مَا زَالَا مَتَاعَكَ
مَنْ جَلَوْا عَلَى الدُّنْيَا شُعَاعَكَ
مُتَأَلِّقًا وَبَنَوْا قِلَاعَكَ
يَ تَحَكَّمَا كَانَ ابْتِدَاعَكَ
مَنْ بِأَهْلِ حِكْمَتِهِ أَطَاعَكَ
يَنْسَى جَمِيلَكَ وَاصْطِنَاعَكَ
ثُمَّ فَالْمَلَا يَنْوِي ابْتِلَاعَكَ

وقال عندما زار قسم الأزهار والثمار في المعرض ببائيس سنة ١٩٠١م:

رَزَقَ اللَّهُ أَهْلَ بَارِيسَ خَيْرًا
عِنْدَهُمُ لِلثَّمَارِ وَالزَّهْرِ مِمَّا
جَنَّتْ تَخْلِبُ الْعُقُولَ وَرَوْضُ
مَنْ رَأَاهُ يَقُولُ قَدْ حُرِّمُوا الْفِرْ
مَا تَرَى الْكَرَمَ قَدْ تَشَاكَلَ حَتَّى
يُسْكِرُ النَّاضِرِينَ كَرَمًا وَلَمَّا
صَوَّرُوهُ كَمَا يَشَاءُونَ حَتَّى
يَجِدُ الْمُتَّقِي يَدَ اللَّهِ فِيهِ
وَأَرَى الْعَقْلَ خَيْرَ مَا رَزَقُوهُ
تُنْجِبُ الْأَرْضُ مَعْرِضُ نَسْفُوهُ
تَجْمَعُ الْعَيْنُ مِنْهُ مَا فَرَّقُوهُ
دَوَسَ لَكِنْ بِسِحْرِهِمْ سَرَقُوهُ
لَوْ رَأَاهُ السُّقَاةُ مَا حَقَّقُوهُ؟
تَعْتَصِرُهُ يَدٌ وَلَا عَتَقُوهُ
عَجِبَ النَّاسُ كَيْفَ لَمْ يُنْطَقُوهُ
وَيَقُولُ الْجَحُودُ قَدْ خَلَقُوهُ

بائيس

جَهْدُ الصَّبَابَةِ مَا أَكَابِدُ فِيكَ
حَتَّمًا هَجْرَانِي وَفِيمَ تَجَنَّبِي
قَدْ مِتُّ مِنْ ظَمًا فَلَوْ سَامَحْتَنِي
أَجِدُ الْمَنَايَا فِي رِضَاكِ هِيَ الْمُنَى
لَوْ كَانَ مَا قَدْ ذُقْتُهُ يَكْفِيكَ
وَالْإِمَامَ بِي ذُلُّ الْهَوَى يُغْرِيكِ
أَنْ أَشْتَهِيَ مَاءَ الْحَيَاةِ بِفِيكَ
مَاذَا وَرَاءَ الْمَوْتِ مَا يُرْضِيكَ

يا بنتَ مَخضوبِ الصَّوَارِمِ والقنا
فخَضَابُ تلكَ من العيونِ وقَايَةُ
جَفْنَاكِ أَيُّهُمَا الجريُّ على دمي
بالسِّيفِ والسَّحَرِ المُبِينِ وبالطُّلى
بهما وبِي سَقَمٌ ومن عَجَبِ الهوى
رَفَقًا بِمُسْبَلَةٍ^{٤٦٤} الشُّثُونِ^{٤٦٥} قَرِيحَةٍ^{٤٦٦}
أَبَكِيَّتِهَا وَقَعَدَتْ عن إنسانِهَا^{٤٦٧}
ضَلَّتْ كَراهَا^{٤٦٨} في غِيَاهِبٍ^{٤٦٩} حَالِكٍ
رَقَّ النِّسِيمُ على دُجَاهِ لَأَنَّتِي
قَاسَيْتُهُ حَتَّى انجَلَى بالصَّبحِ عن
سُلَّتْ سِيوفُ الحَيِّ إِلَّا وَاحِدًا
جَرَدَتِهِ في غَيْرِ حَقٍّ كَالْأَلَى
طَلَعَتْ على حَرَمِ المَمَالِكِ خَيْلُهُم
البَّاسُ والجَبْرُوتُ في أَعْرَافِهَا^{٤٧٣}

بَرِئْتُ بَنَانُكِ من سَلاحِ أَبِيكِ
وِخْضَابُ ذَاكِ من الدِّمِ المَسْفُوكِ
بِأَبِي هُمَا من قَاتِلٍ وشَريكِ
حَمَلَا عَلَيَّ وبِالْقَنَا المَشْبُوكِ^{٤٦٣}
عُدَّوَانُ مُنْكَسِرٍ على مَنهُوكِ
تَسْلُو عن الدُّنْيَا وَلَا تَسْلُوكِ
يَا لَلرِّجَالِ لِمُغْرَقٍ مَتْرُوكِ
ضَلَّ الصَّبَاحَ عليه صَوْتُ الدِّيكِ
وَرَتَى لِحَالِي في السَّمَاءِ أَخُوكِ^{٤٧٠}
سِرِّي المَصُونِ ومَدْمَعِي المَهْتُوكِ
إِفْرَنْدُهُ^{٤٧١} في جَفْنِهِ يَحْمِيكِ
سَلُّوا سِيوفَهُمْ على أَهْلِيكِ
نَارًا سَنَابِكُهَا^{٤٧٢} على «البَلَجِيكِ»
والمَوْتُ حَوْلَ شَكِيمِهَا^{٤٧٤} المَعْلُوكِ^{٤٧٥}

^{٤٦٣} الطُّلى: الخمر.

^{٤٦٤} مُسْبَلَةٌ: من أسبل الدمع؛ أي أرسله.

^{٤٦٥} الشُّثُون: الدموع.

^{٤٦٦} قَرِيحَةٌ: أي ذات قرحة، وهي الجرح.

^{٤٦٧} إنسانِهَا: إنسان العين، وهو المثل يُرى في سوادِهَا.

^{٤٦٨} كَراهَا: نومِهَا.

^{٤٦٩} غِيَاهِب: جمع غيهب، وهو الظلمة.

^{٤٧٠} أَخُوكِ: يعني البدر.

^{٤٧١} الإِفْرَنْدُ: جوهر السيف ووشيه.

^{٤٧٢} سَنَابِكُهَا: جمع سنبك، وهو طرف الحافر.

^{٤٧٣} أَعْرَافُهَا: الواحد عُرْف، وهو شَعْرُ عُنُقِ الفرس.

^{٤٧٤} شَكِيمِهَا: جمع شَكِيمَة، وهي الحديدَة المَعْتَرِضَة في فم الفرس.

^{٤٧٥} المَعْلُوك، من علك الفرس اللجام: لأكه وحركه في فمه.

عَرَّتْ «لِيَاَجَ» عَنْ الْحَصُونِ وَجَرَّدَتْ
 تَمْشِي عَلَى خَطِّ الْمُلُوكِ وَخَتَمَهُمْ
 وَالْحَرْبُ لَا عَقْلَ لَهَا فَتَسُوْمُهَا
 دَغَّتْ حَصُونَ الْقَوْمِ إِلَّا مَعْقِلًا
 وَإِذَا احْتَمَى الْأَقْوَامُ بِاسْتِقْلَالِهِمْ
 وَلَقَدْ أَقُولُ وَأَدْمُعِي مُنْهَلَّةٌ
 مَا خِلْتُ جَنَاتِ النِّعِيمِ وَلَا الدُّمَى^{٤٧٨}
 زَعْمُوكِ دَارَ خِلَاعَةٍ وَمَجَانَةٍ
 إِنْ كُنْتَ لِلشَّهَوَاتِ رِيًّا فَالْعُلَا
 تَلِيدِينَ أَعْلَامَ الْبَيَانِ كَأَنَّهُمْ
 فَاضَتْ عَلَى الْأَجْيَالِ حِكْمَةٌ شِعْرَهُمْ
 وَالْعِلْمُ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا
 الْعَصْرُ أَنْتِ جَمَالُهُ وَجَلَالُهُ
 أَخَذْتَ لَوَاءَ الْحَقِّ عَنْكَ شُعُوبُهُ
 وَخَزَانَةُ التَّارِيخِ سَاعَةً عَرَضُهَا
 وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ وَادِيكَ الشَّرَى^{٤٨٢}
 يَا مَكْتَبِي قَبْلَ الشَّبَابِ وَمَلْعَبِي
 وَمِرَاحَ لِدَاتِي وَمَغْدَاها عَلَى

«نَامُورَ» عَنْ فُؤَادِهَا الْمَشْكُوكِ^{٤٧٦}
 وَعَلَى مَصُونِ مَوَاقِيقِ وَصُكُوكِ^{٤٧٧}
 مَا يَنْبَغِي مِنْ خُطَّةٍ وَسُلُوكِ
 مِنْ نَخْوَةٍ وَحَمِيَّةٍ وَفُتُوكِ
 لِأَذْوَا بَرْكَنِ لَيْسَ بِالْمَدْكُوكِ
 «بَارِيْسُ» لَمْ يَعْرِفْكَ مِنْ يَغْزُوكِ
 تُرْمِي بِمَشْهُودِ النَّهَارِ^{٤٧٩} سَفُوكِ
 وَدَعَارَةٍ يَا إِفْكُ مَا زَعْمُوكِ
 شَهَوَاتُهُنَّ مُرُوءِيَاتُ فَيْكِ
 أَصْحَابُ تَيْجَانِ مَلُوكِ أَرِيكِ
 وَتَفَجَّرَتْ كَالْكُوْثْرِ الْمَعْرُوكِ^{٤٨٠}
 مَا حَجَّ طَالِبُهُ سِوَى نَادِيكِ
 وَالرُّكْنُ مِنْ بُنْيَانِهِ الْمَسْمُوكِ^{٤٨١}
 وَمَشَتْ حَضَارَتُهُ بِنُورِ بَنِيكِ
 لِلْفَخْرِ خَيْرُ كَنْوَزِهَا مَاضِيكِ
 وَمَرَاتِعَ الْغَزْلَانِ فِي وَادِيكِ
 وَمَقِيلَ أَيَّامِ الشَّبَابِ النُّوكِ^{٤٨٣}
 أَفُقِ كَجَنَاتِ النِّعِيمِ ضَحُوكِ

^{٤٧٦} المشكوك: أي المشدود.

^{٤٧٧} أي إنها انتهكت المعاهدات.

^{٤٧٨} الدُّمَى: جمع دمية، وهي الصورة المنقّشة.

^{٤٧٩} يعني الحرب.

^{٤٨٠} ماء معروك: أي مُزْدَحَم عليه.

^{٤٨١} المسموك: المرتفع.

^{٤٨٢} الشرى: مأسدة بجانب الفرات يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَل.

^{٤٨٣} النوك: جمع أنوك، وهو الأحمق، وقيل العاجز الجاهل.

وسماءَ وَحَيَّ الشُّعْرَ مِنْ مُتَدَفِّقٍ سَلِسٍ عَلَى نَوَلٍ^{٤٨٤} السَّمَاءِ مَحُوكٍ^{٤٨٥}
لَمَّا احْتَمَلْتُ لِكَ الصَّنِيعَةَ لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الْقَوَافِي مَا بِهِ أَجْزِيكَ
إِنْ لَمْ يَقُوكِ بِكُلِّ نَفْسٍ حُرَّةٍ فَالِلْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَاقِيكَ

وقال في صاحبٍ أهوج كثير الحركة والكلام:

لَنَا صَاحِبٌ قَدْ مُسَّ إِلَّا بَقِيَّةً فَلَيْسَ بِمَجْنُونٍ وَلَيْسَ بِعَاقِلٍ
لَهُ قَدَمٌ لَا تَسْتَقِرُّ بِمَوْضِعٍ كَمَا يَتَنَزَّى^{٤٨٦} فِي الْحَصَى غَيْرُ نَاعِلٍ
إِذْ مَا بَدَا فِي مَجْلِسٍ ظَنُّ حَافِلًا مِنَ الصَّخَبِ الْعَالِي وَلَيْسَ بِحَافِلٍ
وَيُمِطِّرُنَا مِنْ لَفْظِهِ كُلَّ جَامِدٍ وَيُمِطِّرُنَا مِنْ رَيْلِهِ^{٤٨٧} شَرَّ سَائِلٍ
وَيُلْقِي عَلَى السُّمَارِ كَفًّا دِعَابُهَا كَعَضَّةِ بَرْدٍ فِي نَوَاحِي الْمَفَاصِلِ

وقال يشيِّع صديقه الدكتور محجوب ثابت وهو مسافر، وفيها وصف لبعض الأماكن المقدسة:

«مَحْجُوبٌ» إِنْ جَنَّتْ «الْحِجَا» زَ «وَفِي جَوَانِحِكَ الْهَوَى لَهُ
شَوْقًا وَحُبًّا بِالرَّسُو لِ وَآلِهِ أَزْكَى سُلَالَةٍ
فَلَمَحَتْ نَضْرَةً «بَانِهِ» وَشَمَمَتْ كَالرَّيْحَانِ «ضَالَهُ»
وَعَلَى «الْعَتِيقِ»^{٤٨٨} مَشَيْتَ تَد خَظْرُ فِيهِ دَمْعَكَ وَانْهَمَالَهُ
وَمَضَى السُّرَى بِكَ حَيْثُ كَا نَ الرُّوحُ يَسْرِي وَالرَّسَالَةُ
وَبَلَّغْتَ «بَيْتًا» بِالْحِجَا زِ يُبَارِكُ الْبَارِي حَيَالَهُ
اللَّهُ فِيهِ جَلَا الْحَرَا مَ لَخْلَقَهُ وَجَلَا حَلَالَهُ

^{٤٨٤} النول: خشبة الحائك يُنسج عليها.

^{٤٨٥} محوك: من حاك؛ أي نسج.

^{٤٨٦} يتنزَّى: يثب.

^{٤٨٧} الرَّيْل: اللعاب، من رال الصبي ريلًا؛ أي جرى لعبه.

^{٤٨٨} العتيق: الحرم المكي.

فهنالك طِبُّ الروحِ طِبُّ
وهناك أطلالُ الفصا
وهناك أذكى مسجدٍ
وهناك عُذْرِيُّ الهوى
وهناك مُجْرِي الخيل يُجـ
وهناك من جمعَ السما
وهناك خَيَّمَتِ النُّهى
وهناك سرْحُ حضارةٍ
إِنَّ الحُسَيْنَ بْنَ الحُسيـ
قمرُ الحجيجِ إذا بدا
أنتَ العليلُ فلذَّ به
لا طِبَّ إِلَّا جَدُّهُ
قَبَّلَ ثراه وقُلَّ له
أنا يا ابنَ أحمدَ بعدَ مَدَ
أنا في جمى الهادي أبيـ
شوقي إليك على النوى
يا ابنَ الملوك الراشديـ
إن كان بالملكِ الجلا
أوليس جدُّكم الذي

العالمين من الجهالة
حة والبلاغة والنِّبالة
أزكى البريَّة قد مشى له
وحديثُ «قَيْسٍ»^{٤٨٩} والغزاة
ري في أعنَّتْها خيالُه
حة والرَّجاجة والبسالة^{٤٩٠}
والعلمُ قد ألقى رِحالَه
اللهُ فَيَأْنَا ظِلَالَه
ن أميرَ مكة والإيالة
دارُ الحجيجِ عليه هالة
مُستشفياً واغْنَمَ نوالَه
شافي العقولِ من الضلالة
عني وبالغَ في المقالة
حي في أبيك بخير حالة
ك أُجِبُّهُ وأَجِلُّ آلَه
شوقُ الضريرِ إلى الغزاة^{٤٩١}
ن الصالحين أولي العدالة
له فالنبيُّ لكم جلاله
بلغَ الوجودُ به كماله

^{٤٨٩} هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون بني عامر، وله أحاديث يُرجع إليها في الأغاني، ومنها حديث الغزاة الآتفة.

^{٤٩٠} البسالة: الشجاعة.

^{٤٩١} الغزاة: الشمس.

طوكيو

(وصف نكبة اليابان الأخيرة بالزلزال الشهير.)

وَسَلِ الْقَرِيَّتَيْنِ كَيْفَ الْقِيَامَةُ
سُ وَحَلَّتْ أَشْرَاطُهَا^{٤٩٢} وَالْعَلَامَةُ
هَل تَرَى مِنْ دِيَارِ عَادٍ دِعَامَةُ
وَطَوَى أَهْلُهَا بِسَاطِ الْإِقَامَةِ^{٤٩٣}
وَأَدَارَ الرَّدَى عَلَى الْقَوْمِ جَامَةً^{٤٩٤}
غَيْرَ نَقْضٍ^{٤٩٥} أَوْ رِمَّةٍ أَوْ حُطَامَةٍ^{٤٩٦}
فِي مَدَى الظَّنِّ عُمُقُهُ أَلْفُ قَامَةٍ
نَفْخَةُ الصُّورِ أَنْ تَلُمَّ عِظَامُهُ
زَهَبَتْ رِيحُهُمْ وَشَالُوا نِعَامَةً^{٤٩٨}
صَحْبَةَ الْعَيْشِ أَوْ جَوَارَ السَّلَامَةِ
تَحَارُّ الْعَيُونُ فِيهَا فَخَامَةُ
وَالْأَسَاطِيلُ وَهِيَ فِي الْبَحْرِ لَامَةً^{٤٩٩}
خِلَتْهَا فِي يَدِ الْقَضَاءِ حَمَامَةُ
نَيْهِ «بُودَا» وَزَلْزَلَتْ أَقْدَامُهُ
لِ الَّذِي يَكْسَحُ الْبِلَادَ أَمَامَهُ

قَف بـ «طوكيو» وَطُفَ عَلَى «يوكاهاما»
دَنَتِ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْذَرَ النَّا
قِفْ تَأَمَّلْ مَصَارِعَ الْقَوْمِ وَانْظُرْ
خُسِفَتْ بِالْمَسَاكِنِ الْأَرْضُ خُسْفًا
طَوَّفَتْ بِالْمَدِينَتَيْنِ الْمَنَايَا
لَا تَرَى الْعَيْنُ مِنْهُمَا أَيْنَ جَالَتْ
حَازَهُمْ مِنْ مَرَاجِلِ^{٤٩٧} الْأَرْضِ قَبْرٌ
تَحَسُّبُ الْمَيْتِ فِي نَوَاحِيهِ يُعْيِي
أَصْبَحُوا فِي ذَرَا الْحَيَاةِ وَأَمْسَوْا
ثِقَ بِمَا شِئْتَ مِنْ زَمَانِكَ إِلَّا
دَوْلَةُ الشَّرْقِ وَهِيَ فِي زُرُورَةِ الْعِزِّ
خَانَهَا الْجَيْشُ وَهُوَ فِي الْبَرِّ دِرْعٌ
لَوْ تَأَمَّلْتَهَا عَشِيَّةً جَاشَتْ
رَجَّهَا رَجَّةً أَكْبَّتْ عَلَى قَرِّ
اسْتَعَذْنَا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ السَّيِّدِ

^{٤٩٢} الأشرط، المفرد شرط: العلامة.

^{٤٩٣} أي ارتحلوا.

^{٤٩٤} الجام: الكأس.

^{٤٩٥} النقص: اسم البناء المنقوض.

^{٤٩٦} الحطامة: ما تحطم من الشيء المحطوم؛ أي ما تكسر منه.

^{٤٩٧} مراجل: جمع مرجل، وهو القدر من الحجارة والنحاس.

^{٤٩٨} أي ارتحلوا وتفرقوا.

^{٤٩٩} اللامة: الدرع.

مَنْ رَأَى جَلَمِدًا يَهْبُ هُبُوبًا وَحَمِيمًا ٥٠٠ يَسْحُ سَحَّ الْغَمَامَةِ
وَدُخَانًا يَلْفُ جُنْحًا بِجُنْحٍ ٥٠١ لَا تَرَى فِيهِ مِعْصَمِيهَا الْيَمَامَةَ ٥٠٢
وَهَزِيمًا كَمَا عَوَى الذَّنْبُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَجَرَ الضَّرْغَامَةَ

* * *

أَتَتْ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِطُوفَا نِ يُنْسِي طُوفَانَ نُوحٍ وَعَامَهُ
فَتَرَى الْبَحْرَ جُنَّ حَتَّى أَجَازَ ٥٠٣ الـ بَرًّا وَاحْتَلَّ مَوْجُهُ أَعْلَامَهُ
مُزِيدًا ثَائِرَ اللَّجَاجِ كَجَيْشٍ قَوَّضَ الْعَاصِفُ الْهَبُوبُ خِيَامَهُ
فُلُكُ نُوحٍ تَعَوُّذُ مِنْهُ بَنُوحٍ لَوْ رَأَتْهُ وَتَسْتَجِيرُ زِمَامَهُ
قَدْ تَخَيَّلْتُهُمْ مَتَابِيلَ سِحْرِ مِنْ قِرَاعِ الْقَضَاءِ صَرَعَى مُدَامَهُ
وَتَخَيَّلْتُ مِنْ تَخَلَّفَ مِنْهُمْ ظَنُّ لَيْلِ الْقِيَامِ ذَاكَ فَنَامَهُ
أَبْرَاكِينُ تِلْكَ أُمُ نَزَوَاتٍ ٥٠٤ مِنْ جِرَاحِ قَدِيمَةٍ مُلْتَامَةِ
تَجِدُ الْأَرْضَ رَاحَةً حَيْثُ سَالَتْ رَاحَةُ الْجَسَمِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَامَةِ ٥٠٥
مَا لَهَا لَا تَضِجُ مِمَّا أَقَلَّتْ مِنْ فُسَادٍ وَحُمَلَتْ مِنْ ظُلَامَةِ
كُلَّمَا لُبَّسَتْ بِأَهْلِ زَمَانٍ شَهِدَتْ مِنْ زَمَانِهِمْ آثَامَهُ
اسْتَوُوا بِالْأَذَى ضَرِيًّا وَبِالشَّرِّ وُلُوعًا وَبِالْدُمَاءِ نَهَامَهُ
لَبَّسَتْ هَذِهِ الْحَيَاةُ عَلَيْنَا عَالَمَ الشَّرِّ وَخَشَهُ وَأَنَامَهُ
ذَاكَ مِنْ مُؤْنِسَاتِهِ الْخُفْرِ وَالنَّاءِ بٌ وَهَذَا سِلَاحُهُ الصَّمْصَامَةِ
سَرَّهُ مِنْ أَسَامَةِ الْبَطْشِ وَالْفَتْ كُ فَسَمَّى وَلِيَدَهُ بِأَسَامَةِ ٥٠٦
لَوُمَّتْ مِنْهُمَا الطَّبَاعُ وَلَكِنْ وَلِدُ الْعَاصِيَيْنِ شَرُّ لَامَةِ ٥٠٧

٥٠٠ الحميم: الماء الحار.

٥٠١ جنح الليل: طائفة منه.

٥٠٢ هي زرقاء اليمامة المشهورة بقوة البصر.

٥٠٣ أجاز الموضع: سلكه.

٥٠٤ نزوات الجرح: سوراته ونزفاته.

٥٠٥ الحجامه: الفصد.

٥٠٦ أسامة: الأسد.

٥٠٧ العاصيين: آدم وحواء.

طابعُ البريد

(العيد الفضي - ١٠ سبتمبر سنة ١٩٠٠ م - لطابع البوستة في جنيف - سلام على لسان البريد.)

أنا من خمسةٍ وعشرين عاما	لم أُرِح في رضاكمُ الأقداما
أركبُ البحرَ تارةً وأجوبُ الـ	بَرَ طَوْرًا وأقطعُ الأيَّاما
ويؤا في النفوسِ منِّي رسولٌ	لم يكن خائناً ولا نمّاما
يحملُ الغشَّ والنصيحةَ والبَغـ	ضاءَ والحُبَّ والرضا والمَلاما
ويُعِي ما تُسرُّه من كلامٍ	ويؤدِّي كما وعاهُ الكلاما
ولقد أضجكُ العَبوسَ بيومٍ	فيه أبكي المُنعمَ البَسَّاما
وأهني على النوى وأعزِّي	وأفيدُ الحرمانَ والإنعاما
وجزائي عن خدمتي ووفائي	ثمنٌ لا يُكلِّفُ الأقواما
رُبَّ عبدٍ قد اشتُراني بمالٍ	وغلّامٍ قد ساقَ منِّي غلاما
عرفَ القومُ في «جنيفا» محليّ	وجزوني عن خدمتي إكراما
جاملوني إذ تمَّ لي رُبْعُ قرنٍ	مثلما جاملوا الملوكَ العظاما
ويوبيلُ الملوكِ يلبثُ يومًا	ويوبيلي يدومُ في الناسِ عاما

الطيّارون الفرنسيون

قُم «سليمان» بِساطِ الرّيح قاما	مَلَكَ القومُ من الجوّ الزَّماما
حينَ ضاقَ البَرُّ والبحرُ بهم	أسرَجوا الرّيحَ وسامُوها اللّجاما ^{٥٠٨}
صارَ ما كان لكم مُعجزةً	آيةً للعلم آتاها الأناما
قدرةً كنتَ بها مُنفردًا	أصبحتَ حصّةً من جدِّ اعتزاما
«عينُ شمسٍ» قام فيها مارِدٌ	من عفاريَتِكَ يُدعى «شاتهاما»
يملاً الجوّ عزيقًا كَلِّما	ضرب الرّيحَ بسوِّطٍ والغَماما

^{٥٠٨} سام، من سام فلاناً الأمر: كلّفه إياه.

مَلِكُ الْجَوِّ تَلِيهِ عُسْبَةٌ
 اسْتَوَوْا فَوْقَ «مَنَاطِيدِهِمْ»
 وَقَبُورًا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا
 مُطْمَئِنِّينَ نَفُوسًا كُلَّمَا
 صَهْوَةُ الْعَزِّ اعْتَلَوْا تَحْسِبُهُمْ
 رَفَعُوا «لَوْلَبَهَا» فَاَنْدَفَعَتْ
 شَالَ^{٥١٢} بِالْأَذْنَابِ كُلٌّ وَرَمَى
 ذَهَبَتْ تَسْمُو فَكَانَتْ أَعْقَبًا^{٥١٣}
 تَنْبِرِي فِي زَرْقِ الْأَفْقِ كَمَا
 بَعْضُهَا فِي طَلِبِ الْبَعْضِ كَمَا
 وَيَرَاهَا عَالَمٌ فِي زُحَلٍ^{٥١٦}
 أَوْ نَجُومًا ذَاتَ أَذْنَابٍ بَدَتْ
 أَتَرَى الْقُوَّةَ فِي جُؤْجُئِهِ^{٥١٨}
 أَمْ تَرَاهَا فِي الْخَوَافِي^{٥١٩} خَفِيتَ

جَمَعَتْ شَهْمًا وَنَدَبًا وَهُمَا^{٥٠٩}
 مَا يُبَالُونَ حَيَاةً أَمْ حِمَامَا
 نَزَلُوا أَمْ حُفَرَاتٍ وَرَغَامَا^{٥١٠}
 عَبَسَتْ كَارِثَةً زَادُوا ابْتِسَامَا
 جَمَعَ أَمْلَاكِ عَلَى الْخَيْلِ تَسَامَى
 هَلْ رَأَيْتَ الطَّيْرَ قَدْ زَفَّ وَحَامَا^{٥١١}
 بَجَنَاحِيهِ كَمَا رُعَّتِ النَّعَامَا
 فَنُسُورًا فَصُقُورًا فَحَمَامَا
 سَبَحَ الْحُوتُ بِدَأْمَاءٍ وَعَامَا^{٥١٤}
 طَارَدَ «النَّسْرُ» عَلَى الْجَوِّ الْقُطَامَا^{٥١٥}
 أَرْسَلَتْ مِنْ جَانِبِ الْأَرْضِ سِهَامَا
 تُنْذِرُ النَّاسَ نُشُورًا وَقِيَامَا^{٥١٧}
 وَهُوَ بِالْجُؤْجُؤِ مَاضٍ يَتَرَامَى
 أَمْ مَقَرَّ الْحَوْلِ^{٥٢٠} فِي بَعْضِ الْقَدَامَى^{٥٢١}

^{٥٠٩} الندب: الخفيف في الحاجة الظريف النجيب؛ لأنه إذا نُدِبَ إليها خَفَّ لقضائها.

^{٥١٠} الرغام: التراب.

^{٥١١} زَفَّ الطائر: رمى بنفسه، أو بسط جناحيه.

^{٥١٢} شالت الناقة بذنبها: رفعت.

^{٥١٣} أعقبا: جمع عُقاب، وهو طائر من الجوارح.

^{٥١٤} الدأماء: البحر.

^{٥١٥} القطاما: الصقر.

^{٥١٦} زحل: كوكب من الخُتْس؛ سُمِّيَ به لِبُعْده وتخنيسه.

^{٥١٧} نُشُورًا، من نشر الله الموتى: أحياهم.

^{٥١٨} الجُؤْجُؤ من الطائر: الصدر.

^{٥١٩} الخوافي: ريشات إذا ضَمَّ الطائر جناحيه خفيت، وقيل هي الأربع اللواتي بعد المناكب.

^{٥٢٠} الحول: القوة والقدرة على التصرف.

^{٥٢١} القدامى: جمع قادمة، وهي عشر ريشات في مُقَدِّمِ الْجَنَاح.

أَمْ ذُنَابَاهُ إِذَا حَرَّكَه
أَمْ بَعِينِيهِ إِذَا مَا جَالَتْ
أَمْ بِأَظْفَارٍ إِذَا شَبَّكَهَا
أَمْ أَمَدَّتْهُ بَرْوَجُ أُمِّهِ
فَتَلَقَّاهُ أَبٌ كَمِ مَنْ أَبِي
فَلَكِيَّ هُوَ إِلَّا أَنَّهُ
طَلِبَةٌ قَدْ رَامَهَا أَبَاؤُنَا
أَسْقَطَتْ «إِيكَارَ» فِي تَجْرِبَةٍ
فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَوْدَى نَفْرٌ
خَلْفَاءُ الرُّسُلِ فِي الْأَرْضِ هُمْ
قَطْرَةٌ مِنْ دِمِهِمْ فِي مُلْكِهِ

رَبِّ إِنْ كَانَتْ لَخَيْرٍ جُعِلَتْ
وَإِنْ اعْتَرَّ بِهَا الشَّرُّ غَدًا
فَامْلَأِ الْجَوْعَ عَلَيْهَا رُجْمًا
فَاجْعَلِ الْخَيْرَ بِنَادِيهَا لِزَامًا
فَتَعَالَتْ تُمْطِرُ الْمَوْتَ الزُّوَامَا
رَحْمَةً مِنْكَ وَعَدْلًا وَانْتِقَامَا

يَا «فَرَنْسَا» لَا عِدْمَنَا مِنْنَا
لَطْفَ اللَّهِ بِـ «بَارِيْسَ» وَلَا
رَوَّعَتْ قَلْبِي خُطُوبُ رَوَّعَتْ
أَنَا لَا أَدْعُو عَلَى «سَيْنَ» طَغَى
لَسْتُ بِالنَّاسِي عَلَيْهِ عَيْشَةٌ
اجْعَلُوهَا رُسُلَكُمْ أَهْلَ الْهَوَى
وَاسْتَعِيرُوهَا جَنَاحًا طَالَمَا
يَحْمِلُ الْمُضْنَى إِلَى أَرْضِ الْهَوَى
لَكَ عِنْدَ الْعِلْمِ وَالْفَنِّ جُسَامَا
لَقِيَتْ إِلَّا نَعِيمًا وَسَلَامَا
سَامِرَ الْأَحْيَاءِ فِيهَا وَالنِّيَامَا
إِنَّ لـ «السَّيْنِ» وَإِنْ جَارَ زِمَامَا
كَانَتْ الشُّهْدَ وَأَحْبَابًا كَرَامَا
تَحْمِلُ الْأَشْوَاقَ عَنْكُمْ وَالْغَرَامَا
شَغَفَ الصَّبِّ وَشَاقَ الْمُسْتَهَامَا
«يَمَنَّا» حَلَّ هَوَاهُ أَمْ «شَامَا»

* * *

أَرْكَبُ اللَّيْثَ وَلَا أَرْكَبُهَا وَأَرَى لَيْثَ الشَّرَى أَوْفَى زِمَامَا
غَدَرْتُ «جِيْرُونَ» لَمْ تَحْفِلْ بِهِ وَبِمَا حَاوَلَ مِنْ فَوْزٍ وَرَامَا
وَقَعْتُ نَاحِيَةً فَاحْتَرَقْتُ مِثْلَ قَرِصِ الشَّمْسِ بِالْأَفْقِ اضْطَرَامَا
رَاضَهَا بِالْيُمْنِ مِنْ طَلْعَتِهِ خَيْرٌ مَنْ حَجَّ وَمَنْ صَلَّى وَصَامَا
كَخَلِيلِ اللَّهِ فِي حَضْرَتِهِ خَرَّتِ النَّارُ خُشُوعًا وَاحْتَرَامَا

* * *

مَا لَ «رُوحِي» صَاعِدًا مَا يَنْتَهِي أَتُرَاهُ آثَرَ الْجَوِّ فَرَامَا
كُلُّمَا دَارَ بِهِ دَوْرَتُهُ أَبَدَتْ الرِّيحُ امْتِثَالًا وَارْتَسَامَا
أَنَا لَوْ نِلْتُ الَّذِي قَدْ نَالَهُ مَا هَبَطْتُ الْأَرْضَ أَرْضَاهَا مُقَامَا
هَلْ تَرَى فِي الْأَرْضِ إِلَّا حَسَدًا وَرِيَاءً وَنِزَاعًا وَخِصَامَا

* * *

مُلْكُ هَذَا الْجَوِّ فِي مَنَعَتِهِ طَالَمَا لِلنَّجْمِ وَالطَّيْرِ اسْتِقَامَا
حَسَدَ الْإِنْسَانُ سِرْبِيهِ^{٥٢٣} بِمَا أُوتِيَا فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ اعْتِصَامَا
دَخَلَ الْعُشَّ عَلَى «أَنْسُرِهِ» أَتُرَى يَغْشَى مِنَ النَّجْمِ السَّنَامَا^{٥٢٤}
أَيُّهَا الشَّرْقُ انْتَبِهْ مِنْ غَفْلَةٍ مَاتَ مَنْ فِي طُرُقَاتِ السَّيْلِ نَامَا
لَا تَقُولَنَّ عِظَامِي أَنَا فِي زَمَانٍ كَانَ لِلنَّاسِ عِصَامَا
شَاقَتِ الْعُلَيَاءُ فِيهِ خَلْفًا لَيْسَ يَأْلُوهَا طِلَابًا وَاغْتِنَامَا
كُلَّ حَيْنٍ مِنْهُمْ نَابِغَةً يَفْضُلُ الْبَدْرَ بَهَاءً وَتَمَامَا

* * *

خَالِقَ الْعُصْفُورِ حَيَّرَتْ بِهِ أُمَمًا بَادُوا وَمَا نَالُوا الْمَرَامَا
أَفَنُوا النَّقْدَيْنِ فِي تَقْلِيدِهِ وَهُوَ كَالدَّرْهِمِ رِيْشًا وَعِظَامَا

^{٥٢٣} السرب: القطيع من الطيأ والنساء وغيرها.

^{٥٢٤} السنام: حدة في ظهر البعير.

وصفُ مرقص

وقال يصف «البال» الخديو الذي أُقيم سنة ١٩٠٣م بسراي عابدين:

طالَ عليها القِدَمُ	فهي وجودٌ عَدَمُ
قد وُئِدَتْ في الصُّبَا ^{٥٢٥}	وانبَعَثَتْ في الهَرَمِ
بالْغِ فرعونُ في	كَرْمِهَا من كَرَمِ
أهْرَقَ عُنْقودَهَا	تَقْدِيمَةً للصنمِ
خَبَأَهَا كَاهِنٌ	ناحيةً في «الهَرَمِ»
اكتُشِفَتْ فامَّحَتْ ^{٥٢٦}	غَيْرَ شَذَا ^{٥٢٧} أو ضَرَمَ ^{٥٢٨}
أو كخيالٍ لها	بعدَ مَتَابِ أَلَمِ ^{٥٢٩}
نَمَّ بها دَنُّهَا	وهي عليه أَنَمِ
بي رَشَاءً ناعِمٌ ^{٥٣٠}	ما عرفَ العَمَرَ هَمِ
أخرجها الله كالزُّ	هرة والحُسْنُ كِمِ ^{٥٣١}
تخَطَّرُ عن عادِلِ	لم يُرَ إلا ظَلَمِ
تَبَسُّمٌ عن لَوْلِي	قَدَّرَهُ مَنْ قَسَمِ
كَرْمِهِ في النَّوَى	هَذَّبَهُ في اليَتَمِ ^{٥٣٢}
مُضْطَهَّدٌ خَصَرُهَا	جَانِبُهُ مُهْتَزَمِ
طاوَعَ من صدرِها	أَيَّ قَوِيٍّ حَكَمِ

^{٥٢٥} وئدت، من وأد ابنته: دفنها في القبر وهي حية.

^{٥٢٦} امَّحى الشيء: ذهب أثره.

^{٥٢٧} الشذا: قوَّة ذكاء الرائحة.

^{٥٢٨} الضرم: الاشتعال.

^{٥٢٩} أي كخيال الخمر إذا أَلَمَّ بالتائب عنها.

^{٥٣٠} رشأ: الرشأ ولد الظبية الذي قد تحرَّك ومشى.

^{٥٣١} الكم: غطاء النور.

^{٥٣٢} اليتم: مصدر، يقال درَّةً يتيمة؛ أي ثمينة لا نظير لها.

حَمَلَهُ ثِقَلَهُ ۖ
 تَسْأَلُ أَتْرَابَهَا
 أَيُّ فَتَى ذَلِكُنَّ
 يَشْرِبُهَا سَاهِرًا
 قُلْنَ تَجَاهَلْتِهِ
 شَاعِرُ مِصْرَ الَّذِي
 قُلْتُ لَهَا لَيْتَ لَمْ
 عَاذَلْتِي فِي الطَّلَى ٥٣٥
 إِنَّ عَبَسَ الْعَيْشُ لِي
 يَشْرِبُهَا كَابِرٌ ٥٣٦
 يَبْذُلُ إِلَّا النُّهَى
 يُكْسِبُهَا خُلُقَهُ
 يَمْنَعُهَا جِلْمَهُ
 تِلْكَ شَمُوسُ الدُّجَى
 تُقْبِلُ فِي مَوَكِبٍ
 خَلَتْ بِأَنْوَارِهِ
 مَقْصِدُهَا سُدَّةٌ
 حَيْثُ كِبَارُ الْمَلَا
 قَدْ وَقَفُوا لِلْمَا
 ثُمَّ عَلَيْهِ الدَّعَمُ ٥٣٣
 مُؤَمِّتَةٌ بِالْعَنَمِ ٥٣٤
 الْعَرَبِيُّ الْعَلَمُ
 لَيْلَتَهُ لَمْ يَنْمِ
 ذَلِكَ رَبُّ الْقَلَمِ
 لَوْ خَفِيَ النُّجْمُ لَمْ
 نُزَمْ وَلَمْ نُتَّهَمْ
 لَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ أَلَمْ
 عُذْتُ بِهَا فَا بَتَسَمِ
 بَيْنَ ضُلُوعِي أَشَمِ
 يَهْتِكُ إِلَّا الْحُرْمِ
 يَمَزُجُهَا بِالشَّيْمِ
 إِنْ دَفَعْتَهُ احْتَشَمِ
 أَمْ ظَلَبَيَاتُ الْخَيْمِ
 شَقَّ سَنَاةِ الظُّلَمِ
 قَرْنَ ذُكَاءٍ نَجَمِ ٥٣٧
 آلَ إِلَيْهَا الْعِظَمِ
 بَعْضُ صَغَارِ الْخَدَمِ
 فَانْسَرَبَتْ ٥٣٨ مِنْ أَمَمِ ٥٣٩

٥٣٣ الدَّعَمُ: ارتكز.

٥٣٤ العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشَبَّه بها البنان المخضوب.

٥٣٥ الطَّلَى: الخمر.

٥٣٦ الكابر: الكبير، والكابر: الرفيع الشأن والشرف.

٥٣٧ ذُكَاء: الشمس.

٥٣٨ انسربت: يقال انسرب الطيبي إذا دخل في سربه.

٥٣٩ من أَمَم: أي من قريب.

تَخْطِرُ مِنْ جَمْعِهِمْ بَيْنَ لِيُوْثٍ بِهِمْ^{٥٤٠}
خَارِجَةً مِنْ شَرَى دَاخِلَةً فِي أَجْمٍ
نَاعِمَةً لَمْ تُرْعَ لَاهِيَةً لَمْ تَجْمَ
انْتَثَرَتْ لَوْلَا فِي الْمُهْجَاتِ انْتَضَمَ
تَمَرُّحٌ فِي مَأْمَنِ مِثْلَ حَمَامِ الْحَرَمِ
مُؤْتَلِفٌ سِرْبُهَا حَيْثُ تَلَاقَى التَّامِ
مُنْدَفِعَاتٌ عَلَى مُخْتَلِفَاتِ النَّعَمِ
بَيْنَ يَدٍ فِي يَدٍ أَوْ قَدَمٍ فِي قَدَمٍ
تَذْهَبُ مَشْيَ الْقَطَا تَرْجِعُ كَرَّ النَّسَمِ
تُبْعَثُ أَنْى بَدَتْ ضَوْءَ جَبِينٍ وَفَمِ
تُعْجَلُ خَطْوًا تَنِي^{٥٤١} فَاتِنَةً بِالرَّسَمِ^{٥٤٢}
تَجْمَعُ مِنْ ذَيْلِهَا تَتْرَكُهُ لَمْ يُلَمِ
تَرْفُلُ فِي مُخْمَلٍ نَمَّ وَلَمَّا يَنْمِ
تَتَّبِعُ إِلَّا الْهَوَى تَقْرَبُ إِلَّا النَّهْمِ
فَاجْتَمَعَتْ فَالْتَقَتْ حَوْلَ خِوَانِ نُظْمِ
مُنْتَهِبٍ كُلَّمَا ظَنَّ بِهِ النِّقْصَ تَمِ
مَائِدَةً مَدَّهَا بَحْرُ نَوَالٍ خِضَمِ
تَحَسَّبُهَا صُوِّرَتْ مِنْ شَهَوَاتِ النَّهَمِ
لَمْ تَرَ فِي «بَابِلٍ» مَا عُهِدَتْ فِي «إِرَمِ»
«حَاتِمٌ» لَوْ شَامَهَا أَقْلَعَ عَمَّا زَعَمِ
«مَعْنٌ» لَوْ انْتَابَهَا أَدْرَكَ مَعْنَى الْكَرَمِ
أَشْبَهُ بِالْبَحْرِ لَا يُحْرِجُهَا مُزْدَحَمِ
قَامَ لَدَيْهَا الْمَلَا يَبْلُغُ أَلْفَيْنِ ثَمِ

^{٥٤٠} بهم: واحدها بهمة، وهو الشجاع.

^{٥٤١} تني: تتأني.

^{٥٤٢} الرَّسَم: حسن المشي.

مُلتَقِيًا مَا رَسَمَ	مُقْتَرِحًا مَا اشْتَهَى
أَيْكَتِهِ مَا احْتَرَمَ ^{٥٤٣}	لَوْ طَلَبَ الطَّيْرَ مِنْ
سَاحَتِهِ بِالْأُمَمِ	يَا مَلِكًا لَمْ تَضُقْ
مَنْ عَرَبٍ أَوْ عَجَمَ	تَجْمَعُ أَشْرَافَهَا
بَيْنَ صَنُوفِ النَّعَمِ	تُخْطِرُ مَنْ أَمَّهَا
لُجَّتِهَا وَالْأَكَمِ	سَادَةُ أَفْرِيْقِيَا
فِي الْمَلَائِنِ احْتَكَمَ ^{٥٤٤}	أَنْتَ رَشِيدُ الْعُلَا
فَوْقَ غَوَالِي الْقِيَمِ	لَيْلَتُكُمْ قَدْرُهَا
فِي زَمَنِ لَمْ يَقُمْ	مُشْرِقَةً مِثْلُهَا
ظَلُّكُمْ يُغْتَنَمُ	لَا بَرَحَ الصَّفْوُ فِي
طَالَ عَلَيْهَا الْقِدَمُ	مَا شَرِبُوهَا وَمَا

توت عنخ آمون وحضارة عصره

وَأَتَتْ عَلَى الدَّنِّ السَّنُونَ ^{٥٤٥}	دَرَجَتْ عَلَى الْكَنْزِ الْقُرُونُ
نُ عَلَيْهِ فِي خَيْرِ الْجَفُونِ ^{٥٤٦}	خَيْرُ السِّيُوفِ مَضَى الزَّمَا
غَيْبِ اسْتَسَرَّ عَنْ الظُّنُونِ ^{٥٤٧}	فِي مَنْزِلٍ كَمْحَجَّبٍ إِلَى
رُ فَفَضَّ خَاتَمَهُ الْمَصُونُ	حَتَّى أَتَى الْعِلْمُ الْجَسُو
لَأَهْلِهِ مَا يَصْنَعُونَ	وَالْعِلْمُ «بَدْرِي» ^{٥٤٨} أُحِلَّ
رَةِ وَالْخُدُورَ عَلَى الْفَنُونِ	هَتَكَ الْجِبَالَ ^{٥٤٩} عَلَى الْحِضَا

^{٥٤٣} احترم الشيء: منعه.

^{٥٤٤} الملائن: العرب والعجم.

^{٥٤٥} الدن: باطية الخمر.

^{٥٤٦} الجفون: الأغمد.

^{٥٤٧} استسر: توارى.

^{٥٤٨} بدري: نسبة إلى بدر، وفي الأثر أن أهل بدر مغفورة لهم هفواتهم.

^{٥٤٩} الحبال: جمع حجلة، وهو ستر العروس في جوف البيت.

واندس كالْمِصْبَاحِ فِي حُفْرٍ مُمَرَّدَةٍ^{٥٥١} الْمَعَا
حُفَرٍ مِنَ الْأَجْدَاثِ جُونُ^{٥٥٠}
قَلٍ فِي الثَّرَى شُمُّ الْحُصُونِ
لَا تَهْتَدِي الرِّيحُ الْهَبْوِ
بُ لَهَا وَلَا الْغَيْثُ الْهَتُونِ
خَانَتْ أَمَانَةَ جَارِهَا
وَالْقَبْرِ كَالدُنْيَا يَخُونُ

* * *

يَا ابْنَ الثَّوَابِقِ مِنْ «رَع»
نَسَبٌ عَرِيقٌ فِي الضُّحَى
أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَثُوبُ مِنْ
وَتَدُولُ أَثَارُ الْقُرُ
حُبُّ الْخُلُودِ بَنَى لَكُمْ
لَمْ يَأْخِذِ الْمُتَقَدِّمُو
حَتَّى تَسَابَقْتُمْ إِلَى الْـ
لَمْ تَتْرَكُوهُ فِي الْجَلِيـ
هَذَا الْقِيَامُ فَقُلْ لَنَا الْـ
الْبَعَثُ غَايَةُ زَائِلِ
السَّابِقُ مِنْ عَادَاتِكُمْ
أَنْتُمْ أَسَاطِينُ الْحُضَا
الْمُتَقِنُونَ وَإِنَّمَا
وَابْنَ الزَّوَاهِرِ مِنْ «أَمُونُ»^{٥٥٢}
بَذَّ الْقَبَائِلَ وَالْبُطُونُ
عَمَرَ الْقَضَاءِ الْمُغْرَقُونَ
نِ عَلَى رَحَى الزَّمَنِ الطَّحُونُ
خُلُقًا بِهِ تَتَفَرَّدُونَ
نِ بِهِ وَلَا الْمَتَأَخَّرُونَ
إِحْسَانٍ فِيمَا تَعْمَلُونَ
لِ وَلَا الْحَقِيرِ مِنَ الشُّئُونِ
يَوْمُ الْأَخِيرِ مَتَى يَكُونُ
فَانِ وَأَنْتُمْ خَالِدُونَ
أُتْرَى الْقِيَامَةُ تَسْبِقُونَ
رَةِ وَالْبُنَاةُ الْمُحْسِنُونَ
يُجْزَى الْخُلُودَ الْمُتَقِنُونَ

* * *

أَنْزَلْتَ حُفْرَةَ هَالِكِ
أَمْ فِي مَكَانٍ بَيْنَ ذِ
هُوَ مِنْ قُبُورِ الْمُتَلَفِيـ
أَمْ حَجَرَةَ الْمَلِكِ الْمَكِينِ
لَكَ يُدْهَشُ الْمُتَأَمِّلِينَ
نِ وَمِنْ قُصُورِ الْمُتَرَفِينَ

^{٥٥٠} جون: سود.

^{٥٥١} ممرّدة: مطولة.

^{٥٥٢} رع وأمون: معبودان مصريان قديمان.

لم يَبْقَ غَالٍ فِي الْحِضَا رةٌ لَمْ يَحْزِهِ وَلَا تُمِينُ
مِثْتُ تُحِيطُ بِهِ الْحَيَا ةُ زَمَانُهُ مَعَهُ دَفِينُ
وَذَخَائِرُ مَنْ أَعْصُرُ وَلَّتْ وَمِنْ دُنْيَا وَدِينُ
حَمَلَتْ عَلَى الْعَجَبِ الزَّمَا نَ وَأَهْلَهُ الْمُسْتَكْبِرِينَ
فَتَلَفَّتْ «بَارِيسُ» تَحْد سَبُّ أَنَهَا صَنَعُ الْبَنِينَ

* * *

زَهَبٌ بِبَطْنِ الْأَرْضِ لَمْ تَذْهَبُ بِلَمَحْتِهِ الْقُرُونُ
اسْتَحْدَثَتْ لَكَ جَنْدَلًا وَصَفَاءًا مِنْهُ الْقِيُونُ^{٥٥٣}
وَنَوَاسِئًا^{٥٥٤} وَهَاجَةً لَمْ يَتَّخِذْهَا الْهَامِدُونَ
لَوْ يَفْطِنُ الْمَوْتَى لَهَا سَرَحُوا الْأَنَامِلَ يَنْبَشُونَ
وَتَنَازَعُوا الذَّهَبَ الَّذِي كَانُوا لَهُ يَتَفَاتَنُونَ

* * *

أَكْفَانُ وَشْيٍ فَصَّلَتْ بَرَقَائِقُ الذَّهَبِ الْفَتِينَ^{٥٥٥}
قَدْ لَفَّهَا لَفَّ الضَّمَا بِ مُحْنَطُ آسِ رَزِينُ
وَكَأَنَّهُنَّ كَمَائِمُ وَكَأَنَّكَ الْوَرْدُ الْجَنِينُ
وَبِكَلِّ رُكْنٍ صُورَةً وَبِكَلِّ زَاوِيَةٍ رَقِينَ^{٥٥٦}
وَتَرَى الدُّمَى فَتَخَالُهَا أَنْ تَتَثَرَّتْ عَلَى جَنَابَاتِ زُونُ^{٥٥٧}
صُورٌ تُرِيكَ تَحَرُّكًا وَالْأَصْلُ فِي الصُّورِ السُّكُونُ
وَيَمِرُّ رَائِعُ صَمْتِهَا بِالْحِسِّ كَالنُّطْقِ الْمُبِينُ
صَحِبَ الزَّمَانَ دِهَانُهَا حِينًا عَهِيدًا بَعْدَ حِينُ^{٥٥٨}

^{٥٥٣} القيون: الصُّناع.

^{٥٥٤} نواوس: توابيت.

^{٥٥٥} الفتين: المحرق.

^{٥٥٦} الرِّقِين: الرُّقِيم، وهو الكتاب.

^{٥٥٧} الزون: معرض الأصنام.

^{٥٥٨} العهيد: القديم.

غَضُّ عَلَى طَوْلِ الْبِلَى حَيٌّ عَلَى طَوْلِ الْمَنُونِ
خَدَعُ الْعَيُونِ وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى تَحْدَى اللَّامِسِينَ
غِلْمَانُ قَصْرِكَ فِي الرِّكَاءِ بِ يُنَاوِلُونَ وَيَطْرَدُونَ^{٥٥٩}
وَالْبُوقُ يَهْتَفُ وَالسَّهَاءُ مُ تَرْنُ وَالْقَوْسُ الْحَنُونُ
وَكَلَابُ صَيْدِكَ لُهِتْ وَالْخَيْلُ جُنَّ لَهَا جُنُونُ
وَالْوَحْشُ تَنْفَرُ فِي السُّهُو لِ وَتَارَةً تَنْبُ الْحُزُونُ
وَالطَّيْرُ تَرْسِفُ فِي الْجِوَاءِ ح وَفِي مَنَاقِرِهَا أَنْيُنُ
وَكَأَنَّ أَبَاءَ الْبَرِيَّةِ تَةً فِي الْمَدَائِنِ مُحْضَرُونَ
وَكَأَنَّ دَوْلَةَ «آلِ شَمْسٍ» سِ «عَنْ شِمَالِكَ وَالْيَمِينِ»^{٥٦٠}

* * *

مَلِكُ الْمُلُوكِ تَحِيَّةً وَوَلَاءَ مُحْتَفِظِ أَمِينِ
هَذَا الْمَقَامُ عَرَفْتُهُ وَسَبَقْتُ فِيهِ الْقَائِلِينَ
وَوَقَفْتُ فِي أَثَارِكُمْ أَرْنُ الْجَلَالَ وَأَسْتَبِينَ
وَبَنَيْتُ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ أَحْجَارِهَا شِعْرِي الرِّصِينَ
سَالَتُ عَيُونُ قِصَائِدِي وَجَرَى مِنَ الْحَجَرِ الْمَعِينِ
أَقْعَدْتُ جِيلاً لِلْهَوَى وَأَقَمْتُ جِيلاً آخِرِينَ
كَنْتُمْ خِيَالَ الْمَجْدِ يُرَى فَعُ لِلشَّبَابِ الطَّامَحِينَ
وَكَمْ اسْتَعَرْتُ جَلَالَكُمْ لِمُحَمَّدٍ وَالْمَالِكِينَ^{٥٦١}
تَاجُ تَنْقَلٍ فِي الْخِيَا لِ فَمَا اسْتَقَرَّ عَلَى جَبِينِ
خَرَزَاتِهِ السِّيفُ الصَّقِي لُ يَشْدُو الرَّمْحُ السَّنِينَ

* * *

قُلْ لِي أَحْيَيْنَ بَدَا الثَّرَى لَكَ هَلْ جَزَعْتَ عَلَى الْعَرِينِ

^{٥٥٩} يطردون: يزاولون الصيد.

^{٥٦٠} آل شمس: الفراغة.

^{٥٦١} الخديو محمد توفيق الأول.

أَنَسَتْ مُلْكَاً لَيْسَ بِالشَّـ
الْبَرِّ مَغْلُوبُ الْقَنَا
لَمَّا نَظَرَتْ إِلَى الدِّيا
لَمْ تَلَقْ حَوْلَكَ غَيْرَ «كَرَّ
أَقْبَلَتْ مِنْ حُجْبِ الْجَلَا
تَاجُ الْحَضَارَةِ حِينَ أَشْـ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ لَمْ يَرَوْ

لَا كِي السِّلَاحِ وَلَا الْحَصِينَ
وَالْبَحْرُ مَسْلُوبُ السَّفِينِ
رِ صَدَفَتْ بِالْقَلْبِ الْحَزِينِ^{٥٦٢}
تَرَ» وَالنُّطَاسِيَّ الْمُعِينِ
لِ عَلَى قَبِيلِ مُعْرِضِينَ
رَقَّ لَمْ يَجِدْهُمْ حَافِلِينَ
هُ مِنْ قُرُونٍ أَرْبَعِينَ

* * *

قَسَمًا بَمَنْ يُحْيِي الْعِظَا
لَوْ كَانَ مِنْ سَفَرِ إِيَا
أَوْ كَانَ بَعَثُكَ مِنْ دَبِيـ
وَطَلَعَتْ مِنْ وَادِي الْمَلُو
الْخَيْلُ حَوْلَكَ فِي الْجَلَا
وَعَلَى نِجَادِكَ هَالَتَا
وَالْجِنْدُ يَدْفَعُ فِي رِكََا
لِرَأَيْتَ جَيْلاً غَيْرَ جَيـ
وَرَأَيْتَ مُحْكُومِينَ قَدْ
رُوحُ الزَّمَانِ وَنَظْمُهُ
إِنَّ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ
فَإِذَا رَأَيْتَ مَشَايخَا
لَاقِ الزَّمَانَ تَجِدْهُمْ
هُمْ فِي الْأَوَاخِرِ مَوْلِدًا

مَ وَلَا أَزِيدُكَ مِنْ يَمِينِ
بُكَ أَمْسٍ أَوْ فَتَحَ مُبِينِ
بِ الرُّوحِ أَوْ نَبَضِ الْوَتِينِ
كَ عَلَيْكَ غَارُ الْفَاتِحِينَ
لِ الْعَسْجَدِيَّةِ يَنْثَنِينَ^{٥٦٣}
نِ مِنْ الْقَنَا وَالْدَارَعِينَ
بِكَ بِالْمَلُوكِ مُصَفِّدِينَ
لِكَ بِالْجَبَابِرِ لَا يَدِينِ
نَصَبُوا وَرَدُّوا الْحَاكِمِينَ
وَسَبِيلُهُ فِي الْآخِرِينَ
فَرَعَا مِنْ الْفَرْدِ اللَّعِينِ
أَوْ فِتْيَةً لَكَ سَاجِدِينَ
عَنْ رَكْبِهِ مُتَخَلِّفِينَ
وَعَقُولُهُمْ فِي الْأَوَّلِينَ

^{٥٦٢} صدفت: أعرضت.

^{٥٦٣} الجلال: جمعُ جَلٍّ، وهو غطاءُ الفرس.

دمشق

مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثُ وَأَزْمَانُ
رَثُّ الصَّحَائِفِ بَاقٍ مِنْهُ عُنْوَانُ
مِنْهُ وَسَائِرُهُ دُنْيَا وَبُهْتَانُ
إِلَّا قَرَائِحُ مِنْ رَادٍ وَأَذْهَانُ^{٥٦٦}
وَلِلْأَحَادِيثِ مَا سَادُوا وَمَا دَانُوا^{٥٦٧}
فَهَلْ سَأَلْتَ سَرِيرَ الْغَرْبِ مَا كَانُوا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مُلْكٌ وَسُلْطَانُ
سَرَى بِهِ الْهَمُّ أَوْ عَادَتِهِ أَشْجَانُ
وَالْيَوْمَ دَمْعِي عَلَى «الْفِيحَاءِ» هَتَّانُ^{٥٦٩}
وَنِيَّارَاتُ وَأَنْوَاءُ وَعِقْبَانُ
لَوْ هَانُ فِي تُرْبِهِ الْإِبْرِيْزُ مَا هَانُوا
وَلَا زَهَتْ بِبَنِي الْعَبَّاسِ بَغْدَانُ^{٥٧١}
هَلْ فِي الْمُصَلَّى أَوْ الْمِحْرَابِ «مَرْوَانُ»
عَلَى الْمَنَابِرِ أَحْرَارُ وَعُجْبَانُ
إِذَا تَعَالَى وَلَا الْأَذَانُ آذَانُ

قُمْ نَاجِ جَلَّقَ^{٥٦٤} وَانْشُدْ رَسْمَ مَنْ بَانُوا
هَذَا الْأَدِيمُ^{٥٦٥} كِتَابٌ لَا كِفَاءَ لَهُ
الدِّينُ وَالْوَحْيُ وَالْأَخْلَاقُ طَائِفَةٌ
مَا فِيهِ إِنْ قُلِّبَتْ يَوْمًا جَوَاهِرُهُ
بَنُو أُمِيَّةَ لِلْأَنْبَاءِ مَا فَتَحُوا
كَانُوا مَلُوكًا سَرِيرَ الشَّرْقِ تَحْتَهُمْ
عَالِيْنَ كَالشَّمْسِ فِي أَطْرَافِ دَوْلَتِهَا
يَا وَيْحَ قَلْبِيْ مَهْمَا انْتَابَ أَرْسَمَهُمْ
بِالْأَمْسِ قَمْتُ عَلَى «الزَّهْرَاءِ»^{٥٦٨} أُنْذِبُهُمْ
فِي الْأَرْضِ مِنْهُمْ سَمَوَاتُ وَأَلْوِيَّةُ
مَعَادُنُ الْعَزَّ قَدْ مَالِ الرَّغَامُ^{٥٧٠} بِهِمْ
لَوْلَا دِمَشْقُ لَمَّا كَانَتْ «طَلِيْطَلَةٌ»
مَرَرْتُ بِالْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ أَسْأَلُهُ
تَغْيِيرَ الْمَسْجِدِ الْمَحْزُونِ وَاخْتَلَفْتُ
فَلَا الْأَذَانُ آذَانُ فِي مَنَارَتِهِ

* * *

دِمَشْقُ رَوْحُ وَجَنَّاتُ وَرِيْحَانُ

أَمَنْتُ بِاللَّهِ وَاسْتَتْنَيْتُ جَنَّتَهُ

^{٥٦٤} جلق: دمشق.

^{٥٦٥} الأديم: الأرض.

^{٥٦٦} الراد: الراديوم.

^{٥٦٧} ما داناو: ما غلبوا من الأمم وقهروا.

^{٥٦٨} الزهراء: قصر خلفاء بني أمية بالأندلس.

^{٥٦٩} الفيحاء: دمشق.

^{٥٧٠} الرغام: التراب.

^{٥٧١} بغداد: إحدى لغات كثيرة في بغداد.

الأرض دارٌ لها «الفيحاء» بستانٌ
كما تلقاك دونَ الخُلدِ رضوانٌ
والشمسُ فوقَ لُجَيْنِ الماءِ عَقِيانٌ^{٥٧٢}
حورٌ^{٥٧٥} كواشفُ عن ساقٍ وولدانِ
الساقُ كاسيةٌ والنحرُ عُريانٌ
وللعيونِ كما للطيرِ أَلحانٌ
أفوافُه فهو أصباغٌ وألوانٌ^{٥٧٦}
لدى ستورِ حواشيهنَّ أفنانٌ
جَفَّتْ من الماءِ أذْيالٌ وأردانٌ^{٥٧٩}
نُبِّتَتْ أنَ طريقَ الخُلدِ لُبْنانٌ
فيها الندى وبها «طِيٌّ» وشيبانٌ^{٥٨٠}
آباؤهم في شبابِ الدهرِ غَسَّانٌ^{٥٨٢}
من «عبدِ شمسٍ»^{٥٨٥} وإن لم تبقَ تيجانٌ

قال الرفاقُ وقد هَبَّتْ خمائلُها
جرى وصفُك يلقانا بها «بَرَدَى»^{٥٧٢}
دخلتُها وحواشيهَا زُمُرْدَةٌ
والحورُ في «دُمَّرٍ»^{٥٧٤} أو حولَ «هامَّتها»
و«رَبوةٍ» الوادِ في جِلْبَابٍ راقصةٍ
والطيرُ تصدحُ من خلفِ العيونِ بها
وأقبلتُ بالنباتِ الأرضِ مُخْتَلِفًا
وقد صفًا «بَرَدَى» للريحِ فابتدرتُ^{٥٧٧}
ثم انتثتُ لم يزلُ عنها البلالُ^{٥٧٨} ولا
خَلَفْتُ «لُبْنانَ» جنَّاتِ النعيمِ وما
حتى انحدرتُ إلى فيحاءٍ وارفَةٍ
نزلتُ فيها بفَتِيانٍ جَاحِجَةٍ^{٥٨١}
بيضُ الأَسِرَّةِ^{٥٨٢} باقٍ فيهمُ صَيْدٌ^{٥٨٤}

^{٥٧٢} بردى: نهر دمشق.

^{٥٧٣} العقيان: الذهب الخالص.

^{٥٧٤} دُمَّر: ضاحية دمشق.

^{٥٧٥} الحور: شجرٌ عظيم يُشبه السرو.

^{٥٧٦} أفوافه، جمع فوف بالضم: نوع من الثياب، والمراد هنا الزهر.

^{٥٧٧} ابتدرت: اغتسلت.

^{٥٧٨} البلال: أي البلبل.

^{٥٧٩} أردان: جمع ردن، وهو الكُم.

^{٥٨٠} طي وشيبان: قبيلتا حاتم ومعن.

^{٥٨١} جاحج: جمع ججح، وهو السيد المسارع إلى المكارم.

^{٥٨٢} غَسَّان: أبو قبيلة باليمن، منهم ملوك غَسَّان، وكانوا ملوكًا للشام.

^{٥٨٣} الأَسِرَّة: الوجوه.

^{٥٨٤} الصيْد: رفع الرأس كِبْرًا.

^{٥٨٥} عبد شمس: يعني بني أمية.

يا فِتْيَةَ الشام شُكْرًا لا انقضاءَ له
ما فوقَ راحَتِكُم يومَ السَّماحِ يدُ
خَمِيلَتِ اللّهِ وشَتها يَداهُ لَكُم
شَيدُوا لها المُلْكُ وابْنُوا ركنَ دولَتِها
لو يُرْجِعُ الدهرُ مَفقودًا له خَطِرُ
المُلْكُ أنْ تَعْمَلُوا ما اسْطَعتُمُ عَمَلًا
المَلِكُ أنْ تُخْرِجَ الأموالَ ناشِطَةً
المَلِكُ تَحْتَ لسانِ حوله أدبُ
المَلِكُ أنْ تَتَلَقَّوا في هوى وطنِ

* * *

نَصيحةٌ مِلؤها الإخلاصُ صادقةٌ
والشُّعْرُ ما لم يكنْ ذَكَرَى وعاطفةٌ
ونحنُ في الشرقِ والفُصحى بنو رَجَمِ
والنُّصْحُ خالِصُهُ دينٌ وإيمانُ
أو حَكْمَةٌ فهو تقطيعٌ وأوزانُ
ونحنُ في الجُرحِ والآلامِ إخوانُ

أخت أمينة

وقال وقد رأى في الفُلكِ وهي ترجعُ به إلى مصر طفلةً فيها من كريمته أمينة مشابهة:

هذه نورُ السفينة
هذه صورتُها مُنْـ
هذه لؤلؤةٌ عنـ
من بناتِ الرومِ لكنْ
أنا من يتركُ للديـ
يا مَلَكَ الفُلكِ لي صُنْـ
هذه شَبَهٌ «أمينة»
بِئْتُ عنها مُبِينة
سَدي لها مِثْلُ ثَمِينة
لم تكنْ عِندي مَهِينة
إِن في الدنيا شُثُونُهُ
وَكُ في تلكَ المَدِينَةِ^{٥٨٧}

^{٥٨٦} جَنّان: بستانِي.

^{٥٨٧} الصُّنُو: الأَخ.

أَنْتِ فِي الْفُلكِ بَهَاءٌ وَهُوَ فِي «حُلُوانٍ» زِينَةٌ
 نَاجِهِ وَانْكَرُ لَهُ وَجْهٌ دَأْبِيهِ وَحَنِينُهُ
 وَأَفْهُهُ إِنْنِي فِي الْـ بَحْرِ مَذْذُتْ عَرِينُهُ
 لَسْتُ بِالنَّفْسِ ضَنِينًا وَبِهِ نَفْسِي ضَنِينَةٌ
 أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ يُرْعِي كَ وَإِيَّاهُ عُيُونُهُ

أندلسية

(نظمها في منفاه بإسبانيا، وفيها يحنُّ للوطن العزيز، ويصف كثيراً من مشاهده ومعاهده.)

يَا نَائِحَ «الطَّلَحِ»^{٥٨٨} أَشْبَاهُ عَوَادِينَا^{٥٨٩} نَشْجَى لِوَادِيكَ أَمْ نَأْسَى لِوَادِينَا
 مَاذَا تَقْصُّ عَلَيْنَا غَيْرَ أَنَّ يَدًا قَصَّتْ جَنَاحَكَ جَالَتْ فِي حَوَاشِينَا
 رَمَى بَنَا الْبَيْنُ أَيْكََا غَيْرَ سَامِرْنَا أَخَا الْغَرِيبِ وَظِلًّا غَيْرَ نَادِينَا
 كُلُّ رَمْتِهِ النَّوَى رِيَشٌ^{٥٩٠} الْفِرَاقُ لَنَا سَهْمًا وَسَلَّ عَلَيْكَ الْبَيْنُ سَكِينَا
 إِذَا دَعَا الشَّوْقُ لَمْ نَبْرَحْ بِمُنْصَدِعٍ مِنَ الْجَنَاحِينَ عَيٌّ لَا يُلَبِّينَا
 فَإِنْ يَكُ الْجَنْسُ يَا ابْنَ الطَّلَحِ فَرَّقَنَا إِنَّ الْمَصَائِبَ يَجْمَعُنَ الْمُصَابِينَا
 لَمْ تَأَلُ مَاءَكَ تَحْنَانًا وَلَا ظَمًا وَلَا ادِّكَارًا^{٥٩١} وَلَا شَجْوًا أَفَانِينَا^{٥٩٢}
 تَجَرُّ مِنْ فَنَنْ^{٥٩٣} سَاقًا إِلَى فَنَنْ وَتَسْحَبُ الذِّلَّ تَرْتَادُ الْمُؤَاسِينَا
 أَسَاةٌ^{٥٩٤} جَسْمِكَ شَتَّى حِينَ تَطْلُبُهُمْ فَمَنْ لِرُوحِكَ بِالنُّطُسِ^{٥٩٥} الْمُدَاوِينَا

^{٥٨٨} الطلح: نوع من الشجر، سُمِّيَ به وادٍ بظاهر إشبيلية كان ابن عبَّاد شديد الولع به.

^{٥٨٩} عوادينا: عوادي الدهر النازلة بنا، وهي مصائبه.

^{٥٩٠} ريش، من ريش السهم: ألصق عليه الريش.

^{٥٩١} ادِّكَارًا: تذكُّرًا.

^{٥٩٢} أفانين: أجناس.

^{٥٩٣} الفنن: الغصن المستقيم.

^{٥٩٤} الأساة: الأطباء.

^{٥٩٥} النطس: الأطباء الخُدَّاق.

* * *

أها لنا نازحي أيك^{٥٩٦} بأندلس
رسمُ وقفنا على رسمِ الوفاء له
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة^{٥٩٩}
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته
نسقي ثراهم ثناء كلما نُثرت
كادت عيون قوافينا تحرّكه
لكن مصر وإن أغضت على مقة^{٦٠٢}
على جوانبها رفّت تمائمنا
ملاعب مَرَحَت فيها مآربنا
ومطالع لسعود من أواخرنا
بنا فلم نخل من روح^{٦٠٥} يُراوحنا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا

وإن حللنا رفيفاً^{٥٩٧} من روابينا
نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
ولا مفارقهم إلا مُصلّينا^{٥٩٨}
للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
كالخمر من «بابل» سارت «لدارينا»^{٦٠٠}
تمائل الورد «خيراً» و«نسرينا»^{٦٠١}
دموعنا نُظمت منها مراثينا
وكدن يوقظن في الترب السلطينا
عين من الخلد بالكافور تسقينا
وحول حافاتهما قامت رواقينا^{٦٠٣}
وأربُع أنست فيها أمانينا
ومغرب لجدود من أوالينا^{٦٠٤}
من بر مصر وريحان يُغاديننا
وباسمه ذهبَت في اليمّ تلقينا^{٦٠٦}

٥٩٦ الأيك. الشجر الكثيف الملتف.

٥٩٧ الرفيف: الخصب.

٥٩٨ يقصد بهم ملوك الأندلس.

٥٩٩ منبهة: أي شرف ورفعة.

٦٠٠ بابل ودارينا: مدينتان مشهورتان بجودة الخمر.

٦٠١ خيراً ونسرينا: نوعان من الزهر.

٦٠٢ المقة: المحبة.

٦٠٣ الرواقي: واحدا راقية، وهي التي ترقى الصبي إذا كان به سحر.

٦٠٤ الجدود: الحظوظ.

٦٠٥ الروح: الرحمة والرزق.

٦٠٦ شبه مصر — حين ضاقت به على الرغم منها فركب البحر وخرج إلى المنفى — بأمر موسى — عليه السلام — حين ألقته في اليم صبيّاً وسألت الله أن يكفله.

ومصرُ كالكَرْمِ ذي الإحسانِ فاكهةٌ لحاضرينَ وأكوابٌ لِبَاديِنَا

* * *

يا ساريَ البرقي يرمي عن جوانِحِنَا
لَمَّا تَرَقَّرَقَ في دمعِ السماءِ دَمًا
الليلُ يشهدُ لم نَهَتْكَ دِياجِيَهُ
والنجمُ لم يَزِنَا إلا على قدم
كَزْفَرَةٍ في سماءِ الليلِ حائِرةٌ
بالله إن جُبَّتْ ظِلْمَاءُ الْعُبابِ على
تَرْدُ عَنْكَ يَدَاهُ كُلَّ عَادِيَةٍ
حتى حَوَّتْكَ سماءُ النِيلِ عَالِيَةً
وأَحْرَزَتْكَ شُفُوفُ اللَّازُورِدِ على
وحازَكَ الرِّيفُ أَرْجَاءَ مُورَّجَةٍ
فَقَفَّ إلى النِيلِ واهْتَفَى في خَمَائِلِهِ
وَأَسَ ما باتَ يَذوي من منازلِنَا

* * *

ويا مُعْطَرَّةَ الوادي سَرَتْ سَحْرًا
ذَكِيَّةَ الذَّيْلِ لو خِلْنَا غِلَالَتَهَا
جِشِمَتْ شَوْكَ السُّرَى حتى أَتَيْتِ لَنَا
فَلَوْ جَزَيْنَاكَ بِالْأَرْوَاحِ غَالِيَةً
هل من ذِيولِكَ مِسْكِيٍّ نُحْمَلُهُ
إلى الذينَ وَجَدْنَا وَدَّ غَيْرِهِمْ

* * *

يا من نَغَارَ عليهم من ضمائِرِنَا ومن مَصُونٍ هَوَاهِمٍ في تَنَاجِينَا

٦٠٧ الشفوف، واحدها شف: الثوب الرقيق. واللازورد: حجرٌ صافٍ شفافٌ أزرق. والأفواف: يريد بها الخمائل.

عن الدَّلالِ عليكم في أمانينا
في النائبات فلم يأخذ بأيدينا
حتى أَتَتْنا نواكم من صياصينا^{٦٠٨}
تُمَيِّتُنا فيه ذكراكم وتُحيينا
يكاد في غَلَسِ الأسحارِ يطوينا
حتى يزولَ ولم تهدأ تراقينا
حتى قَعَدْنَا بها حَسْرَى تُقاسينا
للشامتين ويأسوه تأسينا

نابَ الحنينُ إليكم في خواطرنَا
جئنا إلى الصبرِ ندعوه كعادتنا
وما غَلَبْنَا على دمع ولا جَلَدٍ
ونابغي^{٦٠٩} كأنَّ الحشرَ آخرُهُ
نطوي دُجَاهَ بَجْرَحٍ من فراقكم
إذا رسا النجمُ لم ترقأ محاجرُنَا
بِتْنَا نُقاسي الدواهي من كواكبه
يبدو النهارُ فيُخفيه تجلُّدُنَا

* * *

أُنِّي ذهبُنَا وأعطافِ الصِّبَا لينا
ترفُّ أوقاتُنَا فيها رياحينا
والسعدُ حاشيةً والدهرُ ماشينا
«بلقيس» ترفُّ في وشي اليمانينا
لو كان فيها وفاءً للمُصافينا
والسَّيلِ لو عَفَّ والمقدارِ لو دينا
ماءٌ لَمَسْنَا به الإكسيرَ أو طينا
على جوانبه الأنوارُ من سينا
عهدُ الكرامِ وميثاقُ الوفيِّينا
إلا بأيامنا أو في ليالينا
منا جِداً ولا أرحى ميادينَا

سقيًا لعهدِ كأكنافِ الرُّبَا رِفَةً^{٦١٠}
إذ الزمانُ بنا غَيْناءُ زاهيةً
الوصلُ صافيةً والعيشُ ناغيةً
والشمسُ تختالُ في العَقِيانِ تحسبُها
والنيلُ يُقبلُ كالدنيا إذا احتفلتْ
والسَّعدِ لو دامَ والنعمى لو اطَّردتْ
ألقي على الأرضِ حتى رَدَّها ذهبًا
أعداه من يُمِنه «التابوتُ» وارتسمتْ
له مَبالغُ ما في الخُلُقِ من كَرَمٍ
لم يجرِ للدهرِ إِعذارُ^{٦١١} ولا عُرُسُ
ولا حوى السعدُ أطفَى في أَعنَّتِه

^{٦٠٨} الصياصي: الحصون وكل ما امتنع به.

^{٦٠٩} يريد به الليل الذي ملؤه الهمُّ والأرق، أشار إلى قول النابغة:

كَلِّينِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةَ ناصِبٍ وليلِ أَقاسيه بطيءِ الكواكبِ

^{٦١٠} الرِّفَّة: النضرة.

^{٦١١} الإِعذار: طعامٌ يَتَّخَذُ لسرورٍ حادث.

ولم يهْنُ بيدِ التَّشْتِيتِ غالينا
إذا تلوَّنَ كالْحِرْبَاءِ شَانينا
في مُلْكِهَا الضَّخْمِ عَرْشًا مِثْلَ وادينا
عليه أبناءُهَا الْغُرَّ المِيَامينا
خَمَائِلُ السُّنْدِسِ الْمَوْشِيَةِ الْغِينَا^{٦١٢}
لَوَافِظُ الْقَزِّ بِالْخَيْطَانِ تَرْمِينَا
قَبْلَ «الْقِيَاصِرِ» دِنَاهَا «فِرَاعِينَا»
في الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى آثَارِ بَانِينَا
بِهِ يَدُ الدَّهْرِ لَا بَنِيَانُ فَانِينَا
يُفْنِي الْمُلُوكَ وَلَا يُبْقِي الْأَوَايِنَا^{٦١٤}
سَفِينَةٌ غَرِقَتْ إِلَّا أَسَاطِينَا^{٦١٥}
كَنْوَرُ «فِرْعَوْنَ» غَطَّيْنَ الْمَوَازِينَا

نَحْنُ الْيَوَاقِيْتُ خَاصُّ النَّارِ جَوْهَرُنَا
وَلَا يَحُولُ لَنَا صِبْغٌ وَلَا خُلُقٌ
لَمْ تَنْزِلِ الشَّمْسُ مِيزَانًا وَلَا صَعِدَتْ
أَلَمْ تُؤَلِّهِ عَلَى حَافَاتِهِ وَرَأَتْ
إِنْ غَازَلْتُ شَاطِئِيهِ فِي الضَّحَى لِبَسَا
وَبَاتَ كُلُّ مُجَاجٍ^{٦١٣} الْوَادِ مِنْ شَجَرٍ
وَهَذِهِ الْأَرْضُ مِنْ سَهْلٍ وَمِنْ جَبَلٍ
وَلَمْ يَضَعْ حَجَرًا بَانَ عَلَى حَجَرٍ
كَأَنَّ أَهْرَامَ مِصْرٍ حَائِطٌ نَهَضَتْ
إِيوَانُهُ الْفَخْمُ مِنْ غُلِيَا مَقَاصِرِهِ
كَأَنَّهَا وَرَمَالًا حَوْلَهَا التَّطَمَّتْ
كَأَنَّهَا تَحْتَ لَأَلَاءِ الضَّحَى زَهَبًا

* * *

مَرُّ الصَّبَا فِي ذِيُولٍ مِنْ تَصَابِينَا
غُرًّا مُسْلَسَلَةً الْمَجْرَى قَوَافِينَا
وَثَابَ مِنْ سِنَةِ الْأَحْلَامِ لَاهِينَا
«بَانَ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا»
وَالْبَرَّ نَارَ وَغَى وَالْبَحَرَ غَسْلِينَا^{٦١٦}
فِيهَا إِذَا نَسِيَ الْوَافِي وَبَاكِينَا
خَيْرَ الْوَدَائِعِ مِنْ خَيْرِ الْمُؤَدِّينَا^{٦١٧}
لَمْ يَأْتِهِ الشَّقُوقُ إِلَّا مِنْ نَوَاحِينَا
لَمْ نَدْرِ أَيُّ هَوَى الْأُمَيْنِ شَاجِينَا

أَرْضُ الْأَبُوءِ وَالْمِيلَادِ طَيِّبَهَا
كَانَتْ مُحِبَّةً فِيهَا مَوَاقِفُنَا
فَآبَ مِنْ كُرَّةِ الْأَيَّامِ لَاعِبُنَا
وَلَمْ نَدَعْ لِلْيَالِي صَافِيًا فَدَعَتْ
لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخُضْنَا الْجَوْ صَاعِقَةً
سَعِيًّا إِلَى مِصْرَ نَقْضِي حَقَّ ذَاكِرْنَا
كَغَزْبِ «حُلْوَانَ» عِنْدَ اللَّهِ نَطْلِبُهُ
لَوْ غَابَ كُلُّ عَزِيزٍ عَنْهُ غَيْبَتُنَا
إِذَا حَمَلْنَا لِمِصْرٍ أَوْ لَهُ شَجَنًا

^{٦١٢} الغين، واحدها أغين: الخضر.

^{٦١٣} المجاج: ما تمجُّه الأرض من شجر وغيره؛ أي ما تُخرجه.

^{٦١٤} جمع إيوان.

^{٦١٥} الأساطين: واحدها أسطوانة، وهي السارية.

^{٦١٦} الغسلين: الصديد.

^{٦١٧} إشارة إلى المرحومة والدة الناظم.

وصف الغواصة ونكبة الباخرة لوزيتانيا

قال في حادثة نسف غواصة ألمانية للباخرة لوزيتانيا:

قضى يوم «لوسيتانيا» أبواها
وإن هاج للنفس البُكى وشَجاها
وقُوض رُكناها وذلَّ صباها
كما راح يطوي الوالدين طواها
فقامت إليه أمه فرماها
ولا أم يبغي ظلّها وذراها^{٦٢٠}
أمين ترى الساري وليس يراها
فلو كان فولاذاً لكان أخاها
والأم ناباً حين تَفْغُرُ فاها
مُلَعْنَةً في سَبْجِها وسُراها
وتجني على من لا يخوض رَحاها
عليه زُباناها^{٦٢١} وحرَّ حُماها
لما أمنت مَقْدُوفَها ولَظاها
ولا كان بحرٌ ضمَّها وحوها
إذا كان في علم النفوس رَداها

رأيتُ على لَوَحِ «الخيال»^{٦١٨} يَتِيْمَةً
فيا لك من حاك أمين مُصَدِّق
فواهاً عليها ذاقَتِ اليَتَمَ طِفْلَةً
وليت الذي قاست من الموت ساعة
كفَرخ رمى الرامي أباه فغاله
فلا أب يَسْتَنْدِزِي^{٦١٩} بظلِّ جَنَاحِهِ
ودبّابة^{٦٢١} تحت العُبابِ بِمَكْمَنٍ
هي الحوتُ أو في الحوت منها مِشَابُهُ
أَبَتْ لأَصْحَابِ السَّفِينِ غَوَائِلًا
خَتُونٌ إذا غاصت غدورٌ إذا طَفَتْ
تُبَيَّتُ^{٦٢٢} سَفْنُ الأَبْرِياءِ من الوغى
فلو أدركت تابوت موسى لسلَّطت
ولو لم تُغَيِّبْ فُلُكُ نُوحٍ وتحتجب
فلا كان بانيتها ولا كان رَكْبُها
وأفَّ على العلم الذي تدَّعونه

^{٦١٨} الخيال: السينما توغراف.

^{٦١٩} يستندري: يستظل.

^{٦٢٠} الذرى بالفتح: الفناء.

^{٦٢١} الدبابة: يعني بها الغواصة.

^{٦٢٢} يقال: بيَّت العدو، إذا أوقع به ليلاً من دون أن يعلم.

^{٦٢٣} زُبانا العقرب: قرناها.

جسرُ البُسفور

(هذه القصيدة اهتمَّ بها المغفور له السلطان عبد الحميد، وطلبها وقرأها باهتمام.)

أمْرٌ على الصراطِ ولا عليه	أميرَ المؤمنين رأيتُ جِسْرًا
وتمضي الفأْرُ لا تأوي إليه	له خشبٌ يجوع السوسُ فيه
سوى مرِّ الفطيمِ بساعديه	ولا يتكلَّفُ المنشارُ فيه
وخلف في الهزيمة حافيه	وكم قد جاهَدَ الحيوانُ فيه
تراهم وسطه وبجانبيه	وأسمجُ منه في عيني جُباةٌ ^{٦٢٤}
كعفريتٍ يُشيرُ براحتيه	إذا لاقيتَ واحدَهم تصدَّى
بموكبه السنِّي وحارسيه	ويمشي «الصدرُ» ^{٦٢٥} فيه كل يوم
كما مرَّت يداه بعارضيه	ولكن لا يمرُّ عليه إلا
على البسفور يجمع شاطئيه	ومن عجبٍ هو الجسرُ المُعلَّى
ويُعطيها الغنى من معدنيه	يُفيدُ حكومةَ السلطانِ مالا
بعشرته وذاك بعشرتيه	يجود العالمون عليه هذا
لسان الحال يُنشِدنا لديه	وغايةُ أمره أنا سِمْعنا
يرى ما قلَّ مُمتنعًا عليه	«أليس من العجائب أنَّ مثلي
وما من ذاك شيءٌ في يديه»	«وتؤخذُ باسمه الدنيا جميعًا

(كتاب بعث به إلى المرحوم حسين واصف باشا، يستهديه لكرمة ابن هاني بالمطرية شجيرات، وكان مشهورًا باقتناء الرياحين والعناية بتربيتها.)

مثال حُسنِ الخُلُقِ في الرجال	إلى حسين حاكمِ القنَالِ
مع احترامٍ هو بعضُ حقه	أهدي سلامًا طيبًا كخُلُقِه
والصدق في الودِّ له وفي الهوى	وأحفظ العهدَ له على النوى

^{٦٢٤} جباة: جمع جاب، وهو المحصل.

^{٦٢٥} يريد به الصدر الأعظم، وهو كبير الوزراء.

وَبَعْدُ فَالْمَعْرُوفُ بَيْنَ الصَّحْبِ
وعندك الزهرُ وعندي الشُّعْرُ
وقد سمعتُ عنك من ثِقَاتٍ
زهركَ ليس للزهورِ رَوْنَقُهُ
ما نظرتُ مثلكَ عينُ النرجسِ
ولي من الحداثقِ الغنَّاءِ
أتيتُ أستهدي لها وأسألُ
عشرَ شَجِيرَاتٍ من الغوالي
تزكو وتزهو في الشِّتَا والصيفِ
تُرسلُها مُؤمَّنًا عليها
والحقُّ في الخرطومِ أيضًا حقِّي
وبعد هذا لي عليك زُورَةٌ
فإن فعلتَ فالقوافي تفعلُ
فما رأيتُ في حياتي أزيَنًا

أَنْ التَّهَادِي مِنْ دَوَاعِي الْحُبِّ
كلاهما فيما يقال نَدْرُ
أَنْكَ أَنْتَ مَلِكُ النَّبَاتِ
تَكَادُ مِنْ فَرَطِ اعْتِنَاءٍ تَخْلُقُهُ
بَعْدَ مَلُوكِ الظَّرْفِ فِي الْأُنْدَلِسِ
رَوْضٌ عَلَى «الْمَطْرِيَّةِ» الْفَيْحَاءِ
وَأَرْتَضِي النَّزَرَ وَلَا أُثْقِلُ
تَنْدُرُ إِلَّا فِي رِيَاضِ الْوَالِي
وَتَجْمَعُ الْأَلْوَانَ مِثْلَ الطَّيْفِ
إِنْ هَلَكْتَ لِي الْحَقُّ فِي مِثْلِيهَا
وَالدَّرْسُ لِلخَادِمِ كَيْفَ يَسْقِي
لَكِي تَدُورُ حَوْلَ رَوْضِي دَوْرَةٌ
مَا هُوَ مِنْ فَعْلِ الزَّهْوَرِ أَجْمَلُ
لِلْمَرْءِ بَيْنَ النَّاسِ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا

باب النسيب

خدعوها

خدعوها بقولهم حسناء
أتراها تناست اسمي لَمَّا
إن رأتنى تميل عني كأن لم
نظرة فابتسامة فسلام
يوم كُنَّا ولا تسَل كيف كُنَّا
وعلينا من العفاف رقيب
جاذبتني ثوبي العصي وقالت
فاتقوا الله في قلوب العذارى
والغواني يغرهنَّ الثناء
كثرت في غرامها الأسماء
تك بيني وبينها أشياء
فكلام فمَوعِد فليقاء
نتهادى من الهوى ما نشاء
تعبت في مراسه الأهواء
أنتم الناس أيها الشعراء
فالعذارى قلوبهنَّ هواء

أخذ البيت الرابع فزاد قوله:

نظرة فابتسامة فسلام
ففراق يكون فيه دواء
فكلام فمَوعِد فليقاء
أو فراق يكون منه الداء

وقال:

لا السُّهْد يطويه ولا الإغضاء
داجي عُبابِ الجُنحِ فوضى فُلُكُهُ
أغزالة الإشراف أنتِ من الدُّجى
ليل عِدادِ نَجومِهِ رُقَباءُ
ما للهموم ولا لها إرساءُ
ومن السُّهاد إذا طلعتِ شفاءُ

رفقًا بجفنٍ كلما أبكىته
ما مدَّ هُدْبِيهِ لِيَصْطَادَ الْكَرَى
من لي بهنَّ لِيَالِيَا نَهْلٌ^٢ الصَّبَا
أَلْفَنَ أَوْطَارِي فَعِيشِي وَالْمُنَى
سال الْعَقِيقُ^١ به وقام الماءُ
إِلَّا وَطِيفُكَ فِي الْكَرَى الْعَنْقَاءُ
مِمَّا أَقْضَنَ وَعَلَّتِ^٣ الْأَهْوَاءُ
فِي ظِلِّهِنَّ الْكَأْسُ وَالصَّهْبَاءُ

وقال:

سُويَجَ النِّيلِ رَفَقًا بِالسُّوَيْدَاءِ
لِلَّهِ وَإِ كَمَا يَهْوَى الْهَوَى عَجَبٌ
وَأَنْتَ فِي الْأَسْرِ تَشْكُو مَا تُكَابِدُهُ
اللَّهُ فِي فَنَنِ تَلْهُو الزَّمَانِ بِهِ
وَفِي جَوَانِحِكَ اللَّاتِي سَمَحَتْ بِهَا
مَاذَا تَرِيدُ بَذِي الْأُنْثَى فِي سَهْرِي
حَسْبُ الْمَضَاجِعِ مِنِّي مَا تُعَالِجُ مِنْ
أُمْسِي وَأَصْبَحُ مِنْ نَجْوَاكَ فِي كَلْفِ
الَلِيلِ يُنْهَضُنِي مِنْ حَيْثُ يُقْعِدُنِي
آتِي الْكَوَاكِبَ لَمْ أَنْقُلْ لَهَا قَدَمًا
وَأَلْحَظُ الْأَرْضَ أَطْوَى مَا يَكُونُ إِلَى
مُؤَيَّدًا بِكَ فِي جَلِّي وَمُرْتَحَلِي
تُوحِي إِلَيَّ الَّذِي تُوحِي وَتَسْمَعُ لِي

فَمَا تُطِيقُ أَنْيْنَ الْمَفْرِدِ النَّائِي^٤
تَرَكْتَ كُلَّ خَلِيٍّ فِيهِ ذَا دَاءٍ
لِصَخْرَةٍ مِنْ بَنِي الْأَعْجَامِ صَمَاءٍ
فَإِنَّمَا هُوَ مَشْدُودٌ بِأَحْشَائِي
فَلَوْ تَرَفَّقْتَ لَمْ تَسْمَحْ بِأَعْضَائِي
هَذَا جَفُونِي تَسْقِي عَهْدَ إِغْفَائِي
جَنَّبِي وَمَنْ كَبِدٍ فِي الْجَنَبِ حَرَاءٍ
حَتَّى لَيَعِشُقَ نَطْقِي فِيكَ إِصْغَائِي
وَالنَّجْمُ يَمْلَأُ لِي وَالْفَكْرُ صَهْبَائِي
لَا يَنْقُضِي سَهْرِي فِيهَا وَإِسْرَائِي
مَا كَانَ مِنْ آدَمٍ فِيهَا وَحَوَاءٍ
وَمَا هُمَا غَيْرُ إِصْبَاحِي وَإِمْسَائِي
وَفِي سَمَاعِكَ بَعْدَ الْوَحْيِ إِغْرَائِي

قال أبو نواس:

يَا وَيْحَ أَهْلِي أَبْلَى بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ
عَلَى الْفَرَّاشِ وَلَا يَدْرُونَ مَا دَائِي

^١ العقيق: كناية عن الدم.

^٢ نهل، من نهلت الإبل: شربت أول الشرب.

^٣ علَّت، من علَّ الرجل: شرب شربة ثانية.

^٤ سويج: تصغير ساجع. والسويداء: حبة القلب.

وطلب إليه تشطير هذا البيت فقال:

يا ويح أهلي أبلَى بين أعينهم
وينظرون لجنب لا هدوء له
ويدرج الموت في جسمي وأعضائي
على الفراش ولا يدرون ما دائي

وقال:

منك يا هاجر دائي
يا منى روعي ودنيا
أنت إن شئت نعيمي
ليس من عمري يوم
وحياتي في التداني
نم على نسيان سهدي
كل ما ترضاه يا مو
وكما تعلم حبي
فيك يا راحة روعي
وتواريت بدمعي
أنا أهواك ولا أر
غرث حتى لترى أر
ليتني كنت رداء
ليتني ماؤك في الغل

وبكفك دوائي
ي وسؤلي ورجائي
وإذا شئت شقائي
لا ترى فيه لقائي
ومماتي في التنائي
فيك واضحك من بكائي
لا يرضاه ولائي
وكما تدري وفائي
طال بالواشي عنائي
عن عيون الرقباء
ضى الهوى من شركائي
ضي غيري من سمائي
لك أو كنت ردائي
ة أو ليتك مائي

وقال:

لقد لامني يا هند في الحب لائم
فما هو بالواشي على مذهب الهوى
وصفت له من أنت ثم جرى لنا
وقلت له صبراً فكل أخى هوى

محب إذا عد الصحاب حبيب
ولا هو في شرع الوداد مريب
حديث يهم العاشقين عجب
على يد من يهوى غدا سيتوب

وقال:

على قدرِ الهوى يأتي العتابُ
ألومُ مُعذِّبي فألومُ نفسي
ولو أني استطعتُ لَتَبْتُ عنه
ولي قلبُ بأن يهوى يُجازي
ولو وُجد العِقَابُ فعلتُ لكن
يلوم اللاتِّمُون وما رأوه
صَحَوْتُ فأنكر السُّلوانُ قلبي
كأنَّ يدَ الغرامِ زِمَامُ قلبي
كأنَّ روايةَ الأشواقِ عَوْدُ
كأنني والهوى أَخَوَا مُدام
إذا ما اعتضتُ عن عشقٍ بعشقٍ

ومن عاتبتُ يَفديه الصَّحابُ
فأغضِبها ويُرضيها العذابُ
ولكنَّ كيف عن رُوحِي المَتَابُ
ومالِكُه بأن يَجْني يُثابُ
نِفَارُ الظَّبي ليس له عِقَابُ
وقَدِمَا ضاع في الناس الصَّوابُ
عليَّ وراجَعَ الطَّرَبَ الشبابُ
فليس عليه دون هوى حِجابُ
على بدءٍ وما كَمَلَ الكِتَابُ
لنا عهدٌ بها ولنا اصطحابُ
أُعِيدَ العهدُ وامتدَّ الشَّرَابُ

وقال:

أريدُ سُلُوككم والقلبُ يأبى
وأهجركم فيَهْجرني رُقادي
وأذكركم برؤيةِ كلِّ حُسنٍ
وأشكو من عذابي في هواكم
وأعلمُ أن دأبكمُ جفائي
وربَّ مُعَاتِبٍ كالعيش يشكى
أتَجْزِيني عن الزُّلْفى نِفَارًا
فكلُّ ملاحَةٍ في الناس ذَنْبُ
أخذتُ هواك عن عيني وقلبي

وأَعْتَبُكم ومِلءُ النفسِ عُتْبَى
ويُضَوِّني الظلامُ أَسَى وكَرْبًا^٥
فيصبو ناظري والقلبُ أَصْبَى^٦
وأجزيكم عن التعذيب حُبًا
فما بالي جعلتُ الحُبَّ دأبًا
ومِلءُ النفسِ منه هوى وعُتْبَى
عَتَبْتُكُ بالهوى وكفاك عَتْبًا
إذا عُدَّ النِّفَارُ عليك ذَنْبًا
فعيني قد دَعَتْ والقلبُ لَبَّى

^٥ يُضَوِّني: يُضعفني، من أضواه الأمر: أضعفه.

^٦ والقلبُ أَصْبَى: أي أشد صبوة.

وَأَنْتَ مِنَ الْمَحَاسَنِ فِي مِثَالٍ
أُحِبُّكَ حِينَ تَتَنَّى الْجِدَّ تِيهَا
وَقَالُوا فِي الْبَدِيلِ رِضًا وَرَوْحُ
وَرَجَعْتُ الرِّشَادَ عَسَايَ أَسْلُو
إِذَا مَا الْكَأْسُ لَمْ تَذْهَبْ هُمُومِي
عَلَى أَنِّي أَعَفُّ مَنْ احْتَسَاها
وَلِي نَفْسٌ أُرْوِيهَا فَتَزْكُو
فَدَيْتُكَ قَالِبًا فِيهِ وَقَلْبًا
وَأَخْشَى أَنْ يَصِيرَ التِّيَّهُ دَابَّا
لَقَدْ رُمْتُ الْبَدِيلَ فَرُمْتُ صَعْبًا
فَمَا بَالِي مَعَ السُّلُوانِ أَصْبَى
فَقَدْ تَبَّتْ يَدُ السَّاقِي وَتَبَّا
وَأَكْرَمُ مِنْ عِذَارَى الْدِيرِ شُرْبًا
كَزَهَرِ الْوَرْدِ نَدْوُهُ فَهَبَّا

وقال:

رَوَّعُوهُ فَتَوَلَّى مُغَضَّبًا
خُلِقْتَ لَاهِيَةً نَاعِمَةً
لِي حَبِيبٌ كُلَّمَا قِيلَ لَهُ
كَذَبَ الْعُدَّالُ فِيمَا زَعَمُوا
لَوْ رَأَوْنَا وَالْهَوَى ثَالِثُنَا
فِي جِوَارِ اللَّيْلِ فِي ذِمَّتِهِ
مِلءٌ بَرْدِينَا عِفَافٌ وَهَوَى
يَا غِزَالًا أَهْلُ^٧ الْقَلْبُ بِهِ
لَكَ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ حَبَّتِهِ
هُوَ عِنْدَ الْمَالِكِ الْأُولَى بِهِ
إِنْ رَأَى أَبْقَى عَلَى مَمْلُوكِهِ
لَكَ قَدْ سَجَدَ الْبَانُ لَهُ
وَلِحَاطٌ مِنْ مَعَانِي سِحْرِهِ
كَانَ عَنْ هَذَا لِقَلْبِي غُنِيَّةٌ
أَعْلِمْتُمْ كَيْفَ تَرْتَاغُ الظُّبَا
رُبَّمَا رَوَّعَهَا مَرُّ الصَّبَا
صَدَّقَ الْقَوْلَ وَزَكَّى الرَّيْبَا
أَمْلِي فِي فَاتِنِي مَا كَذَبَا
وَالدُّجَى يُرْخِي عَلَيْنَا الْحُجْبَا
نَذْكُرُ الصَّبْحَ بَالًا يَقْرِبَا
حِفْظُ الْحُسْنِ وَصُنْتُ الْأَدْبَا
قَلْبِي السَّفْحُ وَأَحْنَى مَلْعَبَا
مَنْهَلًا عَذْبًا وَمَرَعَى طَيِّبَا
كَيْفَ أَشْكُو أَنَّهُ قَدْ سُلِبَا
أَوْ رَأَى أَتْلَفَهُ وَاحْتَسِبَا
وَتَمَنَّتْ لَوْ أَقْلَّتَهُ الرُّبَا
جَمَعَ الْجَفْنُ سَهَامًا وَظُبَا^٨
مَا لِقَلْبِي وَالْهَوَى بَعْدَ الصَّبَا

^٧ أهل به: عمر.

^٨ الظُّبَا: جمع ظُبَّة، وهي حدُّ السيف.

فَطَرْتِي لَا أَخْذُ الْقَلْبَ بِهَا
لَوْ جَلَوَا حُسْنَكَ أَوْ غَنُّوا بِهِ
أَيُّهَا النَّفْسُ تَجْدِينَ سُدَى
جَرَّبِي الدُّنْيَا تَهْنُ عِنْدَكَ مَا
خُلِقَ الشَّاعِرُ سَمَحًا طَرِبًا
لِ«لَبِيدٍ» فِي الثَّمَانِينَ صَبَاً^٩
هَلْ رَأَيْتِ الْعَيْشَ إِلَّا لَعِبًا
أَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ جَرَّبَهَا
وَمُنِحَتِ الْخُلْدُ ذِكْرًا وَنَبَاً
نَلْتِ فِيمَا نَلْتِ مِنْ مَظْهَرِهَا

وقال والمعنى لشاعرٍ تركي:

مَا تَلَكَ أَهْدَابِي تَنْظَفُ
بَلْ تَلَكَ سُبْحَةُ لَوْلُو
مَ بَيْنَهَا الدَّمْعُ السَّكُوبُ
تُحْصَى عَلَيْكَ بِهَا الذُّنُوبُ

وقال:

لَا وَالْقَوَامِ الَّذِي وَالْأَعْيُنِ اللَّاتِي
وَلَا سَلُوتٌ وَلَمْ أَهْمُمْ وَلَا خَطَرَتُ
وَوَخَاتَمُ الْمُلْكِ لِلْحَاجَاتِ مُطَلَّبُ
مَا خُنْتُ رَبَّ الْقَنَا وَالْمَشْرِفِيَّاتِ
بِالْبَالِ سَلَوَاكِ فِي مَاضٍ وَلَا آتٍ
وَتَغْرُكَ الْمَتَمَنَّى كُلُّ حَاجَاتِي

وقال:

لَحَظْهَا لَحَظْهَا رُؤْيَا رُؤْيَا
كُفَّ أَوْ لَا تَكُفَّ إِنَّ بَجَنْبِي
تَصِلُ الضَرْبُ مَا أَرَى لَكَ حَدًّا
أَوْ فَصَّغَ لِي مِنَ الْحَجَارَةِ قَلْبًا
كَمْ إِلَى كَمْ تَكِيدُ لِلرُّوحِ كَيْدَا
لَسِهَامًا أَرْسَلْتَهَا لَنْ تُرَدًّا
فَاتَّقِ اللَّهَ وَالتَّزِمْ لَكَ حَدًّا
ثُمَّ صُغْ لِي مِنَ الْحَدَائِدِ كِبْدًا
وَكَفِّ جَنْبِي دَافِقًا لَيْسَ يَرْقَا
فَمِنْ الْغَبْنِ أَنْ يَصِيرَ وَعِيدًا
مَا قَطَعْتُ الزَّمَانَ أَرْجُوهُ وَعْدًا

^٩ هو لبید بن ربیعہ، الشاعر الذي قال حين بلغ الثمانين وقد شكا ثقل السمع وتهدم الشيخوخة:

إِنَّ الثَّمَانِينَ وَبُلَّغَتْهَا قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تَرْجَمَانٍ

وقال:

الرُّشْدُ أَجْمَلُ سِيرَةٍ يَا أَحْمَدُ
 قَدْ كَانَ فِيكَ لِوَدَّهَنْ بَقِيَّةُ
 «هَارُوتُ» شِعْرِكَ بَعْدَ «مَارُوتِ» الصَّبَا
 لَمَّا سَمِعْنَاكَ قُلْنَ شِعْرُ أَمْرَدُ
 مَا لِلَّوَاهِي النَّاعِمَاتِ وَشَاعِرِ
 وَلَكَمْ جَمَعْتَ قُلُوبَهُنَّ عَلَى الْهُوَى
 وَسَخَّرْتَ مِنْ وَاشٍ وَكَدْتَ لِعَاذِلِ
 أَثَذَا وَجَدْتَ الْغَيْدَ أَلْهَاكَ الْهُوَى

وقال:

إِنَّ الْوُشَاةَ وَإِنْ لَمْ أَحْصِهِمْ عَدَا
 لَا أَخْلَفَ اللَّهُ ظَنِّي فِي نَوَاطِرِهِمْ
 هُمْ أَغْضَبُوكَ فَرَّاحَ الْقَدِّ مُنْتَنِيًا
 وَصَادَفُوا أَذْنَا صَغَوَاءَ لِيِنَّةُ
 لَوْلَا احْتِرَاسِي مِنْ عَيْنِكَ قُلْتُ أَلَا
 اللَّهُ فِي مُهْجَةٍ أُيْتِمَتْ وَاحِدَهَا
 وَرُوحٌ صَبَّ أَطَالَ الْحُبُّ غُرْبَتَهَا
 دَعِ الْمَوَاعِيدَ إِنِّي مِتُّ مِنْ ظَمٍ
 تَدْعُو وَمَنْ لِي أَنْ أَسْعَى بِلَا كَيْدِ

وقال:

بَثَثْتُ شَكَايَ فِذَابِ الْجَلِيدِ
 وَقَلْبُكَ الْقَاسِي عَلَى حَالِهِ
 وَأَشْفَقَ الصَخْرُ وَلَانَ الْحَدِيدُ
 هِيَهَاتَ بَلْ قَسَوْتُهُ لِي تَزِيدُ

١٠ الفند: الكذب وكفر النعمة.

وقال:

وَيُبْدِي بُثِّي فِي الْهَوَى وَيُعِيدُ
وَلَكِنْ لَيْالٍ مَا لَهْنٌ عَدِيدُ
شُجُونٌ قِيَامٌ بِالضُّلُوعِ قُعُودُ
عَلَيْهِ قَدِيمٌ فِي الْهَوَى وَجَدِيدُ
لَكَ اللَّهُ يَا قَلْبِي أَنْتَ حَدِيدُ
إِذَا حَلَّ غَيْدٌ أَوْ تَرَحَّلَ غَيْدُ
لَهُمْ وَلَأَسْرَارُ الْغَرَامِ مَدِيدُ
غُصُونٌ قِيَامٌ لِلنَّسِيمِ سَجُودُ
يُعَارِضُهَا مُضْنَى الصَّبَا فَتَحِيدُ
وَمَارَتْ عَلَيْهَا الْحَلْيُ وَهِيَ تَمِيدُ
بِأَهْلٍ وَمَفْقُودُ الْأَلَيْفِ وَحِيدُ
وَجَذَلَانٌ يَشْدُو فِي الرُّبَا وَيُشِيدُ
وَعُرْيَانٌ كَاسٍ تَزْدَهِيهِ مُهَوْدُ
وَيَقْطُرُ مِنْهَا الْعَيْشُ وَهُوَ رَغِيدُ
فَقُلْتُ لَهَا حَتَّى النَّهَارِ شَهِيدُ
فَمَا هِيَ مِمَّا نَبْتَغِي وَنَصِيدُ
وَيَوْمَ تُسَلُّ الْمُرْهَفَاتُ أُسُودُ
وَيَقْتُلُنَا لَحْظٌ وَيَأْسِرُ جِيدُ
وَنَحْنُ لِسُلْطَانِ الْغَرَامِ عَبِيدُ
أَمَّا لَكَ يَا عَهْدَ الشَّبَابِ مُعِيدُ
لَأَمْسِ كَبَاقِي الْغَابِرَاتِ عَهِيدُ^{١١}
كَأَنِّي عَلَى دَرْبِ الْمَشْيَبِ «لَبِيدُ»
شَبَبْنَا وَشَبْنَا وَالزَّمَانُ وَلِيدُ

يَمُدُّ الدُّجَى فِي لَوْعَتِي وَيَزِيدُ
إِذَا طَالَ وَاسْتَعْصَى فَمَا هِيَ لَيْلَةٌ
أَرَقْتُ وَعَادَتْنِي لَذَكْرَى أَحْبَبْتِي
وَمَنْ يَحْمِلُ الْأَشْوَاقَ يَتَعَبُ وَيَخْتَلِفُ
لَقِيتَ الَّذِي لَمْ يَلْقَ قَلْبٌ مِنَ الْهَوَى
وَلَمْ أَخُلْ مِنْ وَجِدٍ عَلَيْكَ وَرَقَّةٌ
وَرَوْضٌ كَمَا شَاءَ الْمُحِبُّونَ ظِلُّهُ
تُظَلِّلُنَا وَالطَّيْرَ فِي جَنَابَتِهِ
تَمِيلُ إِلَى مُضْنَى الْغَرَامِ وَتَارَةٌ
مَشَى فِي حَوَاشِيهَا الْأَصِيلُ فَذُهِبَتْ
وَقَامَتْ لَدَيْهَا الطَّيْرُ شَتَّى فَأَنَسَ
وَبَاكِ وَلَا دَمْعٌ وَشَاكِ وَلَا جَوَى
وَذِي كَثْرَةٍ لَمْ يُعْطَ بِالدَّهْرِ خَبْرَةٌ
غَشِينَاهُ وَالْأَيَّامُ تَنْدَى شَبِيبَةٌ
رَأَتْ شَفَقًا يَنْعَى النَّهَارَ مُضَرَّجًا
فَقَالَتْ وَمَا بِالطَّيْرِ قُلْتُ سَكِينَةٌ
أَحِلَّ لَنَا الصَّيْدَانِ يَوْمَ الْهَوَى مَهَا
يُحْطَمُ رُمْحٌ دُونَنَا وَمُهَنْدٌ
وَنَحْكُمُ حَتَّى يَقْبَلَ الدَّهْرُ حُكْمَنَا
أَقُولُ لِأَيَّامِ الصَّبَا كُلَّمَا نَأَتْ
وَكَيْفَ نَأَتْ وَالْأَمْسُ آخِرُ عَهْدِهَا
جَزَعْتُ فَرَاعَتْنِي مِنَ الشَّيْبِ بِسَمَةِ
وَمَنْ عَبَثَ الدُّنْيَا وَمَا عَبَثَتْ سُدَى

^{١١} العهد: القديم.

وقال:

هَامَ الْفَوَّادُ بِشَادِنِ
أَبْكِي فَيُضْحِكُ تَغْرُهُ
أَلَفَ الدَّلَالَ عَلَى الْمَدَى
وَالِكُمُ يَفْتَحُهُ النَّدَى^{١٢}

وقال عن شاعرٍ تركي:

لِلْعَاشِقِينَ رِضَاكَ وَالـ
ذُكْرُوا فَكَانُوا سُبْحَةً
حُسْنَى وَلِي هَجْرٌ وَصْدٌ
وَأَنَا الْعَلَامَةُ لَا تُعَدُّ

وقال:

فِي مَقْلَتَيْكَ مَصَارِعُ الْأَكْبَادِ
كَانَتْ لَهُ كَيْدٌ فَحَاقَ بِهَا الْهَوَى
وَإِذَا النَفُوسُ تَطَوَّحَتْ فِي لَذَّةِ
نَشْوَى وَمَا يُسْقَيْنَ إِلَّا رَاحَتِي
ضَعُفَى وَكَمْ أَلْبَيْنَ مِنْ ذِي قُوَّةِ
يَا قَاتِلَ اللَّهِ الْعَيُونَ فَإِنَّهَا
قَاتَلْنَ فِي أَجْفَانِهِنَّ قُلُوبَنَا
وَصَبَغْنَ مِنْ دَمِهَا الْخُدُودَ تَنْصُلًا

وقال:

قِفْ بِاللَّوَاظِ عِنْدَ حَدِّكَ
وَاجْعَلْ لِيْغِمِدِكَ هُدْنَةً
وَصُنِّ الْمَحَاسِنَ عَنْ قُلُوبِ
نَظَرْتَ إِلَيْكَ عَنِ الْفُتُو
أَعْلَى رَوَايَاتِ الْقَنَا
نَالَ الْعَوَازِلُ جَهْدَهُمْ
يَكْفِيكَ فِتْنَةُ نَارِ حَدِّكَ
إِنَّ الْحَوَادِثَ مِلْءُ غِمْدِكَ
بِ لَا يَدِينُ لَهَا بِجُنْدِكَ
رَ وَمَا اتَّقَتْ سَطَوَاتِ حَدِّكَ
مَا كَانَ نِسْبَتُهُ لِقَدِّكَ
وَسَمِعَتْ مِنْهُمْ فَوْقَ جَهْدِكَ

^{١٢} الْكِمُ بِكَسْرِ الْكَافِ: الْغُلَافُ الَّذِي يَنْشَقُّ عَنِ الثَّمَرِ.

نقلوا إليك مقالةً ما كان أكثرها لعبدك
قسماً بما حملتني فحملت من وجدي وصدك
ما بي السهام الكثر من جفنيك لكن سهم بعودك

وقال:

مُضْنَاكَ جَفَاهُ مَرَقْدُهُ وَيَكَاهُ وَرَحْمَ عَوْدُهُ
حِيرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ مَقْرُوحُ الْجَفَنِ مُسَهِّدُهُ
أَوْدَى حَرَقًا إِلَّا رَمَقًا يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتَنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرْقَ تَأْوُهُ وَيُذِيبُ الصَّخَرَ تَنْهَدُهُ
وَيُنَاجِي النِّجْمَ وَيَتَعَبُهُ وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقْعِدُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوِّقَةٍ شَجَنًا فِي الدَّوْحِ تُرَدِّدُهُ
كَمْ مَدَّ لِطَيْفِكَ مِنْ شَرِكٍ وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
فَعَسَاكَ بَغْمُضٍ مُسَعِّفُهُ وَلَعَلَّ خِيَالِكَ مُسْعِدُهُ
الْحُسْنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ «وَالسُّورَةُ» إِنَّكَ مُفَرِّدُهُ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسَا حَوَاءُ الْخَلِيبِ وَأَمْرَدُهُ
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مُقَطَّعَةٍ^{١٢} يَدَهَا لَوْ تَبَعَتْ تَشْهَدُهُ
جَدَّتْ عَيْنَاكَ زَكِيَّ دَمِي أَكْذَلِكَ خَذُكَ يَجْحَدُهُ
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا فَأَشْرَتْ لَخَذِكَ أَشْهَدُهُ
وَهَمَمْتُ بِجِيدِكَ أَشْرِكُهُ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ أَصِيدُهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامَكَ أَعْطَفُهُ فَنَبَا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
سَبَبُ لِرِضَاكَ أُمَهِّدُهُ مَا بَالُ الْخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
بِئَنِي فِي الْحَبِّ وَبَيْنَكَ مَا لَا يَقْدِرُ وَاشٍ يُفْسِدُهُ
مَا بَالُ الْعَاذِلِ يَفْتَحُ لِي بَابَ السُّلُوفِ وَأَوْصِدُهُ
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أَعْبُدُهُ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمَتْ يَدُهُ

^{١٢} يعني بكل مقطعة يدها ... إلخ: صواحبات يوسف الصديق اللواتي ورد ذكرهن في السورة.

ناقوس القلب يدقُّ له
قسماً بثنايا لؤلئها
ورضابٍ يُوعَدُ كوثرُهُ
وبخالٍ كاد يُحجَّ له
وقوامٍ يروي الغصنُ له
وبخصرٍ أوهنَ من جلدي
ما خنتُ هواك ولا خطرَت
وحنايا الأضلعِ مَعْبَدُهُ
قسَمَ الياقوتُ مُنْصَدُهُ
مقتولُ العِشقِ ومُشْهَدُهُ
لو كان يُقْبَلُ أسودُهُ
نسباً والرمحُ يُفْنِدُهُ
وعوادي الهجرِ تُبَدِّدُهُ
سَلوى بالقلبِ تُبَرِّدُهُ

وقال:

بالله يا نَسَمَاتِ النِيلِ فِي السَّحَرِ
عَرَفْتُكَ بَعْرِفٍ لَا أَكَيِّفُهُ
مِنْ بَعْضِ مَا مَسَحَ الْحُسْنَ الْوَجْوهَ بِهِ
فَهَلْ عَلِقْتُنَّ أَثْنَاءَ السُّرَى أَرْجَا
هَجْتُنَّ لِي لَوْعَةً فِي الْقَلْبِ كَامِنَةً
ذَكَرْتُ مَصْرَ وَمِنْ أَهْوَى وَمَجْلَسَنَا
وَالْيَوْمُ أَشْيَبُ وَالْأَفَاقُ مُذْهَبَةٌ
وَالنَّخْلُ مُتَشَحٌّ بِالْغَيْمِ تَحْسَبُهُ
وَمَا شَجَانِي إِلَّا صَوْتُ سَاقِيَةٍ
لَمْ يَتْرِكِ الْوَجْدُ مِنْهَا غَيْرَ أَضْلَعِهَا
بَخِيلَةٌ بِمَا قِيَهَا فَلَوْ سَأَلْتِ
فِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي الدَّهْرِ طَيِّبَةً
عَفَّتْ وَعَفَّ الْهَوَى فِيهَا وَفَازَ بِهَا
بِتْنَا وَبَاتَتْ حَنَانًا حَوْلَنَا وَرَضَا
لَا أَكْذِبُ اللَّهَ كَانَ النَجْمُ رَابِعَنَا
وَأَنْصَفْتَنَا فَظَلَمُ أَنْ نُجَازِيَهَا
دَعْ بَعْدَ رِيْقَةٍ مِنْ تَهْوَى وَمَنْطِقِهِ
وَلَا تُبَالِ بِكَنْزٍ بَعْدَ مَبْسَمِهِ

هل عَنَذَكَنَّ عَنِ الْأَحْبَابِ مِنْ خَبَرٍ
لَا فِي الْغَوَالِي وَلَا فِي النُّورِ وَالزَّهَرِ
بَيْنَ الْجَبِينِ وَبَيْنَ الْفَرْقِ وَالشَّعَرِ
مِنْ الْغَدَائِرِ أَوْ طَيِّبًا مِنَ الطُّرَرِ
وَالْجَرْحُ إِنْ تَعْتَرَضَهُ نَسْمَةٌ يَثُرُ
عَلَى الْجَزِيرَةِ بَيْنَ الْجَسْرِ وَالنَّهْرِ
وَالشَّمْسُ مُصَفَّرَةٌ تَجْرِي لِمُنْحَدَرِ
هَيْفَ الْعَرَائِسِ فِي بَيْضٍ مِنَ الْأُزْرِ
تَسْتَقْبِلُ اللَّيْلَ بَيْنَ النَّوْحِ وَالْعَبْرِ
وَعَيْرَ دَمْعٍ كَصَوْبِ الْغَيْثِ مِنْهُمْ
جَفْنَا يُعَيِّنُ أَخَا الْأَشْوَاقِ لَمْ تُعِرْ
مَحَا بِهَا كُلَّ ذَنْبٍ غَيْرِ مُغْتَفَرِ
عَفَّ الْإِشَارَةَ وَالْأَلْفَاظَ وَالنَّظَرَ
ثَلَاثَةً بَيْنَ سَمْعِ الْحَبِّ وَالْبَصْرِ
لَوْ يُذَكِّرُ النَجْمُ بَعْدَ الْبَدْرِ فِي خَبَرِ
شَكْوَى مِنَ الطُّولِ أَوْ شَكْوَى مِنَ الْقَصْرِ
مَا قِيلَ فِي الْكَأْسِ أَوْ مَا قِيلَ فِي الْوَتْرِ
أَغْلَى الْيَوَاقِيَتِ مَا أُعْطِيَتْ وَالْدُّرِ

ولم يرُعْنِي إِلَّا قَوْلُ عَاذِلَةٍ
هَلَّا تَرْفَعَ عَنْ لَهْوٍ وَعَنْ لَعِبٍ
فَقُلْتُ لِلْمَجْدِ أَشْعَارِي مُسِيرَةٌ
مَصْرُ الْعَزِيزَةِ مَا لِي لَا أُودَّعُهَا
خَلَفْتُ فِيهَا الْقَطَا مَا بَيْنَ ذِي زَغَبٍ
أَسْلَمْتُهُمْ لَعْيُونَ لِلَّهِ تَحْرُسُهُمْ
مَا بَالُ أَحْمَدَ لَمْ يَحْلُمْ وَلَمْ يَقْرِ
إِنْ الضَّغَائِرُ تُغْرِي النَّفْسَ بِالصَّغْرِ
وَفِي غَوَانِي الْعُلَا لَا فِي الْمَهَا وَطَرِي
وَدَاعٌ مُحْتَفِظٌ بِالْعَهْدِ مُدَكِّرٍ
وَذِي تَمَائِمَ لَمْ يَنْهَضْ وَلَمْ يَطِرِ
وَأَسْلَمُونِي لَظْلَ اللَّهِ فِي الْبَشْرِ

وقال:

عَرَضُوا الْأَمَانَ عَلَى الْخَوَاطِرِ
فَوَقِفْتُ فِي حَذَرٍ وَيَأْ
يَا قَلْبُ شَأْنُكَ وَالْهَوَى
إِنْ الَّتِي صَادَتْكَ تَسْـ
يَا ثَغْرَهَا أَمْسَيْتُ كَالـ
يَا لِحَظْهَا مِنْ أُمِّهَا
يَا شَعْرَهَا لَا تَسْعَ فِي
يَا قَدَّهَا حَتَّامَ تَغْـ
وَبَأْيٍ ذَنْبٍ قَدْ طَعَنَـ
وَاسْتَعَرَضُوا السُّمَرَ الْخَوَاطِرُ^{١٤}
بَى الْقَلْبُ إِلَّا أَنْ يُخَاطِرُ
هَذَا الْغُصُونُ وَأَنْتَ طَائِرُ
عَى بِالْقُلُوبِ لَهَا النِّوَاطِرُ
غَوَّاصُ أَحْلُمَ بِالْجَوَاهِرُ
أَوْ مِنْ أَبْوْهَا فِي الْجَاذِرُ
هَتَكِي فَشَأْنُ اللَّيْلِ سَاتِرُ
دَوِ عَاذِلًا وَتَرَوْحُ جَائِرُ
تَ حَاشَايَ يَا قَدَّ الْكِبَائِرُ

وقال:

فِي ذِي الْجَفُونِ صَوَارِمُ الْأَقْدَارِ
وَكَفَى الْحَيَاةَ لَنَا حَوَادِثَ فَافْتَنِي
مَا أَنْتَ فِي هَذَا الْحُلَى إِنْسِيَّةٌ
زَهْرَاءُ بِالْأَفُقِ الَّذِي مِنْ دُونِهِ
تَهْتَكُ الْأَبَابُ خَلْفَ حِجَابِهَا
يَا زِينَةَ الْإِصْبَاحِ وَالْإِمْسَاءِ بَلْ
رَاعِي الْبَرِيَّةِ يَا رَعَاكَ الْبَارِي
مَلَأَ النُّجُومَ وَعَالَمَ الْأَقْمَارِ
إِنْ أَنْتَ إِلَّا الشَّمْسُ فِي الْأَنْوَارِ
وَتُبُّ النَّهْيِ وَتَطَاوُلُ الْأَفْكَارِ
مَهْمَا طَلَعَتْ فَكَيْفَ بِالْأَبْصَارِ
يَا رَوْنَقَ الْأَصَالِ وَالْأَسْحَارِ

^{١٤} السُّمَر: الرماح. والخواطر: المهتزات، يقال خطر الرمح إذا اهتز، وهي هنا كناية عن القُدود.

ماذا تُحاول من تنائينا النوى
ألقى الضحى ألقاك ثم من الدجى
وإذا أنست بوحدي فلأنها
إيه زمانى في الهوى وزمانها
متسلسلاً بين الصبابة والصبأ
نظر الفراق إليكما فطواكما

أنتِ الدُّنا وأنا الخيالُ الساري
سبُلُ إليكِ خَفِيَّةُ الأغوارِ
سببي إليكِ وسَلَمي ومَناري
ما كنتما إلا النَميرَ الجاري
مُترقِرَقاً بِمَسارِحِ الأوطارِ
إن الفراقَ جَهنمُ الأقدارِ

وقال:

لك أن تلومَ ولي من الأعذارِ
ما كنتَ أَسْلِمَ للعيون سلامتي
وطرُ تعلَّقهِ الفؤادُ وينقضي
يا قلبُ شأنك لا أمدُّك في الهوى
أمرى وأمرُك في الهوى بيد الهوى
جارِ الشبيبةَ وانتفع بجوارها
مثلُ الحياة تُحبُّ في عهد الصبأ
أبدًا «فروق» من البلاد هي المُنَى
ممنوعةٌ إلا الجمالَ بأسرِه
خُطواتُها التقوى فلا مَزْهُوَةٌ
مرَّت بنا فوق الخليج فأسفرت
في نِسوةٍ يُوردنَ من شَتَّى الهوى
عارضتَهْنِ وبين قلبي والهوى

إن الهوى قَدَرٌ من الأقدارِ
وأبيحُ حادثة الغرام وقاري
والنفسُ ماضيةٌ مع الأوطارِ
أبدًا ولا أدعوك للإقصارِ
لو أنه بيدي فككتُ إساري
قبلَ المَشيبِ فما له من جارِ
مثلُ الرياضِ تُحبُّ في آزارِ^{١٥}
ومُنَايَ منها ظبيةٌ بسوارِ
محجوبةٌ إلا عن الأنظارِ
تمشي الدَّلالَ ولا بذاتِ نِفارِ
عن جَنَّةٍ وتلفَّتت عن نارِ
نظرًا ولا ينظُرَنَ في الإصدارِ
أمرُّ أحوالُ كَتَمِهِ وأداري

وقال:

أَتَغْلِبُنِي ذَاتُ الدَّلَالِ عَلَى صَبْرِي^{١٦} إِنْ أَنَا أَوْلَى بِالْقِنَاعِ وَبِالْخَدِرِ

^{١٥} آذار: شهر مارس، وهو أول فصل الربيع.

^{١٦} هذا الشطر من المطلع للمرحوم محمود سامي باشا البارودي، نظمته ثم أمسكه، فأكمّله الشاعر وأضاف إليه هذه الأبيات.

رددتُ به أَمَرَ الغرامِ إلى أَمري
ولكنَّ نفسَ الحُرِّ أَزَجَرَ للحُرِّ
تراءتِ دموعي فيه سابقَةَ الفَجْرِ
وهل بالسُّها في حُلَّةِ السُّقَمِ من نُكْرِ
أخوضُ غَمَارَ الظنِّ والنظرِ الشَّزْرِ
يُبَالِغَنَ في زَجري وَيُسْرِفَنَ في نَهري
نرى حالَةَ بين الصَّبَابَةِ والسَّحَرِ
وذَرْنَ قضاءَ الله في خَلِقه يجري
رددتُ قلوبَ العاذلاتِ إلى العُذْرِ
يَقْلُنَ أمانًا للعداري من الشَّعْرِ
وجدتُ مقالَ الهُجرِ يُزري بأن يُزري
ومَن يهوَ يَعْدِلُ في الوصالِ وفي الهُجرِ
فلا بد من يُسرٍ ولا بد من عُسرٍ
يجدُ مَرَّها في الحلوِ والحلوَ في المَرِّ
فإنني وجدتُ الكدَّ أَقْتَلَ للفقيرِ
يُخْنَهُ الرقيقُ العونَ في المَسْلِكِ الوعرِ
يَعِشُ مُسْتَباحَ العَرَضِ مُنْهَتِكَ السَّترِ
يَبِنُ فضلُهُ عنه وَيَعْطِلُ من الفخرِ

تَتِيهٌ ولي حِلْمٌ إذا ما رَكِبْتُه
وما دَفَعِي اللُّوَامَ فيها سَامَةً
وليلَ كأنَّ الحشرَ مَطْلَعُ فَجْرِه
سَرِيَتْ به طيفًا إلى من أُجِبُّها
طَرَقَتْ حِمَاها بعدمَا هَبَّ أَهْلُها
فما راعني إلا نساءً لَقِينَنِي
يَقْلُنَ لَمَنَ أهوى وَأَنَسَنَ رَبِيَّةً
إليكَ جاراتِ الحِمى عن ملامتي
وأحرجني دمعِي فلما زَجَرْتُهُ
فساءَ لَنَها ما اسمي فَسَمَّتْ فِجْئَنِي
فَقُلْتُ أَخَافُ اللهَ فَيَكُنَّ إِنْنِي
أَخَذْتُ بِحِظٍّ من هواها وَبَيَّنَّها
إذا لم يكن للمرءِ عن عيشَةٍ غِنًى
ومن يَخْبِرِ الدنيا وَيَشْرِبُ بكأسِها
ومن كان يَغْزُو بالتَّعَلَّاتِ فَقَرَهُ
ومن يَسْتَعِنُ في أمرِهِ غيرَ نَفْسِهِ
ومن لم يُقِمِ سِتْرًا على عيبِ غيرِهِ
ومن لم يُجَمِّلِ بالتواضعِ فَضْلَهُ

وقال:

يا ليلُ هل خبرٌ عن الفجرِ
لا تبتغي جِوًّا ولا يسري
أن الصباخَ رهيْنَةُ الحشرِ
بدُجْنَةٍ كسريرةِ الدهرِ
والموجُ مُنْقَلِبٌ إلى البحرِ
«فرعون» هذا السُّهْدِ والفِكرِ

قلبٌ يذوب ومدمعٌ يجري
حالتِ نجومُك دونَ مَطْلَعِهِ
وتطاوَلَتْ جُنْحًا فُخَيْلٌ لي
أرسيَّتْها وملكتِ مَذْهَبَها
ظَلَمْتُ تَجِيءُ بها وتُرْجِعُها
ليت الكرى «موسى» فَيُورِدَها

* * *

ولقد أقول لهاتفٍ سَحَرًا
والروضُ أحرَسُ غيرَ وسوسةٍ
والطيرُ ملءُ الأيكِ أروُسُها
ألقي الجَنَاحَ وناءً بالصدرِ
كَلَمَ السَّهَادُ بيوتَ هُدَيْهِما
تهدا جوانحُه فتحسبُه
وتثور فهو على الغصونِ يدُ

* * *

يا طيرُ بُتَّ أخاك ما يجري
بي مثلُ ما بك من جوى ونوى
عبثَ الغرامُ بنا ورؤعنا
يا طيرُ لا تجزَعُ لحادثةٍ
فيما دهاك لو أطلعتَ رضا
يا طيرُ كدُرُ العيشِ لو تدري
وإذا الأمورُ استصعبتْ صعبتْ
يا طيرُ لو لُذْنَا بمُصْطَبِرٍ
وعسى الأمانِي العذابُ لنا

وقال:

بدأ الطيفُ بالجميلِ وزارا
خذ من الجَفَنِ والفؤادِ سبيلاً
أنتَ إنْ بتَّ في الجفونِ فأهلُ
زارَ والحربُ بينَ جَفَني ونومي
حَسَنُ يا خيالُ صُنْعُكَ عندي

يا رسولَ الرضا وُقِيَتِ العِثارا
وتيمَّمُ من السُّوَيْدَاءِ دارا
عادةُ النُّورِ ينزلُ الأبصارا
قد أعدَّ الدُّجَى لها أوزارا
أجملُ الصُّنْعِ ما يُصِيبُ افتقارا

^{١٧} القُمْرُ: جمع قُمْرِيَّة، وهي ضرب من الحمام.

بِ كَأَن لَّمْ يَكُنْ لَهُ الْقَلْبُ جَارًا
 هُ عَنْ الذَّنْبِ رِقَّةً وَاعْتِذَارًا
 وَجَرِيحُ الْأَنَامِ يَطْلُبُ ثَارًا
 هُدُ مِنْ مَقْلَتِي أَمْرًا فَصَارَا
 وَأَذَى النَّصِاحِ أَنْ يَكُونَ جِهَارًا
 رَحِمَ اللَّهُ يَا جَفَوْنِي النَّهَارَا
 قُلْنَ صَبْرًا فَقُلْتُ هَاتِي اصْطَبَارَا
 بَعْدَ لَيْلِي وَلَمْ أَجِدْكَ قِصَارَا
 لَا يُبَالِي بِحَمْلِهِنَّ صِغَارَا
 مُدْمِنُ الْخَمْرِ لَا يُحْسِ الْخُمَارَا
 خَرَجَ الرُّشْدُ عَنْ أَكْفِ السُّكَارَا

مَا لَرَبِّ الْجَمَالِ جَارَ عَلَى الْقَلْبِ
 وَأَرَى الْقَلْبَ كُلَّمَا سَاءَ يَجْزِيهِ
 أَجْرِيحُ الْغَرَامِ يَطْلُبُ عَطْفًا
 أَيُّهَا الْعَاذِلُونَ زِمْتُمْ وَرَامَ السُّ
 آفَةُ النَّصِاحِ أَنْ يَكُونَ لَجَاجًا
 سَاءَ لَتْنِي عَنِ النَّهَارِ جَفَوْنِي
 قُلْنَ نَبْكِيهِ قُلْتُ هَاتِي دَمُوعًا
 يَا لِيَالِي لَمْ أَجِدْكَ طَوَالًا
 إِنْ مِنْ يَحْمِلُ الْخُطُوبَ كِبَارًا
 لَمْ نَفِقْ مِنْكَ يَا زَمَانُ فَنَشْكُو
 فَاصْرِفِ الْكَأْسَ مُشْفِقًا أَوْ فَوَاصِلُ

وقال:

فإِنَّكَ دُونَ الطَّيْرِ لِلسَّرِّ مَوْضِعُ
 تَتَنُّ فَنَصْغِي أَوْ تَحَنُّ فَنَسْمَعُ
 كِلَانَا غَرِيبٌ نَارُحُ الدَّارِ مُوجَعُ
 وَنَاءٌ عَلَى قَرَبِ الدِّيَارِ مَرُوعُ
 وَأَنْتَ تُغْنِي فِي الْغُصُونِ وَتَسْجَعُ
 فَقَدْ تُمْسِكُ الْعَيْنَانِ وَالْقَلْبُ يَدْمَعُ
 نَدِ مِثْلُ أَيَّامِ الْحَدَاثَةِ مُمَرَّعُ
 فَمَا الْبَيْنُ إِلَّا حَادِثٌ مُتَوَقَّعُ
 تُفَرِّقُهَا الْأَيَّامُ وَالسَّمْطُ يَجْمَعُ
 فَلَا تُنْكِرِيهِ فَهُوَ عِنْدَكَ مُودَعُ
 جَوَانِحُ فِي شَوْقٍ إِلَيْهِ وَأَضْلَعُ
 يُذَالُ عَلَى سَفْحِ الْهَوَانِ وَيُوضَعُ
 وَيَطْرَبُ إِنْ قُلْتُ الْأَسِيرُ الْمُمنَعُ
 هُوَ الْقَلْبُ كَالْإِنْسَانِ يُغْرَى وَيُخَدَعُ

أَبْنُكَ وَجْدِي يَا حَمَامُ وَأُودِعُ
 وَأَنْتَ مُعِينُ الْعَاشِقِينَ عَلَى الْهَوَى
 أَرَاكَ يَمَانِيًّا وَمَصْرُ خَمِيلَتِي
 هُمَا اثْنَانِ دَانٍ فِي التَّغْرِبِ أَمِنُ
 وَمَنْ عَجِبَ الْأَشْيَاءَ أَبْكِي وَأَشْتَكِي
 لَعَلَّكَ تُخْفِي الْوَجْدَ أَوْ تَكْتُمُ الْجَوَى
 شَجَاكَ صِغَارُ كَالْجُمَانِ وَمَوْطِنُ
 إِذَا كَانَ فِي الْأَجَالِ طُولٌ وَفُسْحَةُ
 وَمَا الْأَهْلُ وَالْأَحْبَابُ إِلَّا لَالِي
 أَمْنِكِرْتِي قَلْبِي دَلِيلِي وَشَاهِدِي
 أَسِيرُكَ لَوْ يُفْدَى فَدَتَهُ بِجَمْعِهَا
 رَمَاهُ إِلَيْكَ الدَّهْرُ مِنْ حَالِقِ الْهَوَى
 وَمَنْ عَجِبَ يَا أَسَى إِذَا قُلْتُ مُتَعَبُ
 لَقِيتَ عَلِيمًا بِالْغَوَانِي وَإِنَّمَا

وأعلم أن الغدرَ في الناس شائعٌ
وأن نِزاعَ الرُّشدِ والغِيَّ حالةٌ
وأنَّ أمانِيَّ النفوسِ قِوَاتِلُ
وأن دُعَاةَ الخيرِ والحقِّ حربُهُم

وأن خليلَ الغانياتِ مُضِيعُ
تجِيءُ بأحلامِ الرجالِ وتَرَجُعُ
وكثرتُها من كثرةِ الزَّهرِ أَصْرَعُ
زَمَانُ بهم من عهدِ سُقراطَ مُولَعُ

وقال:

تَأْتِي الدَّلَالُ سَجِيَّةً وَتَصْنَعُ
تَهْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا الْجَمَالَ بِحَاكِمِ
لَكَ أَنْ يُرَوِّعَكَ الْوَشَاةُ مِنَ الْهُوَى
قَالُوا لَقَدْ سَمِعَ الْغَزَالَ لَمَنْ وَشَى
أَنَا مِنْ يُحِبُّكَ فِي نِفَارِكَ مُؤَنِّسًا
قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيَّ أَيَّامَ الْهُوَى
وَصَدَقْتُ فِي حُبِّي فَلَسْتُ مُبَالِيًا
يَا مَنْ جَرَى مِنْ مَقْلَتِيهِ إِلَى الْهُوَى
اللَّهُ فِي كِبِدٍ سَقَيْتَ بِأَرْبَعِ

وَأَرَاكَ فِي حَالِي دَلَالِكَ مُبِدَعَا
حَتَّى يُطَاعَ عَلَى الدَّلَالِ وَيُسْمَعَا
وَعَلَيَّ أَنْ أَهْوَى الْغَزَالَ مُرَوِّعَا
وَأَقُولُ مَا سَمِعَ الْغَزَالَ وَلَا وَعَى
وَيُحِبُّ تِيهَكَ فِي نِفَارِكَ مُطْمِعَا
وَجَعَلْتُهَا أَمَلًا عَلَيْكَ مُضِيعَا
أَنْ أُمْنَحَ الدُّنْيَا بِهِ أَوْ أُمْنَعَا
صِرْفًا وَدَارَ بَوَجْنَتِيهِ مُشْعَشَعَا^{١٨}
لَوْ صَبَّحُوا «رَضَوَى» بِهَا لَتَصَدَّعَا^{١٩}

وقال:

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمُضْنَى مَعَكَ
مَرَّ مِنْ بَعْدِكَ مَا رَوَّعَنِي
كَمْ شَكْوَتُ الْبَيْنَ بِاللَّيْلِ إِلَى
وَبَعَثْتُ الشَّوْقَ فِي رِيحِ الصَّبَا
يَا نَعِيمِي وَعَذَابِي فِي الْهُوَى
أَنْتَ رُوحِي ظَلَمَ الْوَاشِي الَّذِي

أَحْسَنُ الْأَيَّامِ يَوْمَ أَرْجَعَكَ
أَتُرَى يَا حُلُوْ بُعْدِي رَوَّعَكَ
مَطْلَعِ الْفَجْرِ عَسَى أَنْ يُطْلِعَكَ
فَشَكَ الْحُرْقَةَ مِمَّا اسْتَوْدَعَكَ
بِعَذُولِي فِي الْهُوَى مَا جَمَعَكَ
زَعَمَ الْقَلْبُ سَلَا أَوْ ضَيَّعَكَ

^{١٨} المشعشع: الشراب يُمزَج بالماء.

^{١٩} رَضَوَى: اسم جبل.

مَوْقِعِي عِنْدَكَ لَا أَعْلَمُهُ آهٍ لَوْ تَعَلَّمْتُ عِنْدِي مَوْقِعَكَ
أَرْجَفُوا أَنْكَ شَاكٍ مُوجِعُ لَيْتَ لِي فَوْقَ الضَّنَا مَا أَوْجَعَكَ
نَامَتِ الْأَعْيُنُ إِلَّا مُقْلَةً تَسْكُبُ الدَّمْعُ وَتَرَعَى مَضْجَعَكَ

وقال مشطراً حيث اجتمع بعض الأدباء في مجلس، فذكر أحدهم بيتاً للبهاء زهير،

وهو:

يقول أناسٌ لو وصفتَ لنا الهوى فوالله ما أدري الهوى كيف يُوصَفُ

فقال:

يقول أناسٌ لو وصفتَ لنا الهوى لعل الذي لا يعرفُ الحبَّ يَعْرِفُ
فقلتُ لقد ذُقْتُ الهوى ثم ذُقْتُه فوالله ما أدري الهوى كيف يُوصَفُ

وقال:

عَلَّمُوهُ كَيْفَ يَجْفُو فَجْفا ظَالِمٌ لَأَقِيْتُ مِنْهُ مَا كَفَى
مُسْرِفٌ فِي هَجْرِهِ مَا يَنْتَهِي أَتُرَاهُمْ عَلَّمُوهُ السَّرَفَا
جَعَلُوا ذَنْبِي لَدِيهِ سَهْرِي لَيْتَ بَدْرِي إِذْ دَرَى الذَّنْبَ عَفَا
عَرَفَ النَّاسُ حَقَّقِي عِنْدَهُ وَغَرِيمِي مَا دَرَى مَا عَرَفَا
صَحَّ لِي فِي الْعَمْرِ مِنْهُ مَوْعِدُ ثُمَّ مَا صَدَّقْتُ حَتَّى أَخْلَفَا
وَيَرَى لِي الصَّبْرَ قَلْبُ مَا دَرَى أَنْ مَا كَلَّفَنِي مَا كَلَّفَا
مُسْتَهَامٌ فِي هَوَاهُ مُدْنَفُ يَتَرْضَى مُسْتَهَامًا مُدْنَفَا
يَا خَلِيلِي صِفَا لِي حِيلَةً وَأَرَى الْحِيلَةَ إِلَّا تَصِفَا
أَنَا لَوْ نَادَيْتُهُ فِي ذَلَّةٍ هِيَ ذِي رَوْحِي فَخُذْهَا مَا احْتَفَى

وقال:

جئتنا بالشعور والأحداق وقسمَ الحظوظَ في العشاق
وهزَّزَ القنا قُدودًا فأبلى كلُّ قلبٍ مُسْتَضْعَفٍ خُفَّاقٍ

حَبَّذَا الْقِسْمُ فِي الْمُحِبِّينَ قِسْمِي
حِيلَتِي فِي الْهُوَى وَمَا أَتَمْنَى
لَوْ يُجَازَى الْمُحِبُّ عَنْ فَرِطِ شَوْقٍ
وَفِتَاةٍ مَا زَادَهَا فِي غَرِيبِ الْ-
نُقْتُ مِنْهَا حُلُومًا وَمَرًّا وَكَانَتْ
ضَرَبَتْ مَوْعِدًا فَلَمَّا التَّقِينَا
قُلْتُ مَا هَكَذَا الْمَوَاقِيقُ قَالَتْ
عَطَفَتْهَا نَحَافَتِي وَشَجَاهَا
فَأَرَتْنِي الْهُوَى وَقَالَتْ خَشِينَا
يَا فِتَاةَ الْعِرَاقِ أَكْتُمُ مَنْ أَنْ-
لِي قَوَافٍ تَعْفُ فِي الْحُبِّ إِلَّا
لَا تَمْنَى الزَّمَانُ مِنْهَا مَزِيدًا
حَمْلِينِي فِي الْحُبِّ مَا شَتَّتَ إِلَّا
وَأَسْمَحِي بِالْعِنَاقِ إِنْ رَضِيَ الدَّلُّ

لَوْ يُلَاقُونَ فِي الْهُوَى مَا أَلَاقِي
حِيلَةُ الْأُنْكَيَاءِ فِي الْأَرْزَاقِ
لَجُزِيتُ الْكَثِيرَ عَنْ أَشْوَاقِي
حُسْنٍ إِلَّا غَرَائِبُ الْأَخْلَاقِ
لَذَّةُ الْعَشْقِ فِي اخْتِلَافِ الْمَذَاقِ
جَانَبَتْنِي تَقُولُ فِيمَ التَّلَاقِ
لَيْسَ لِلْغَانِيَاتِ مِنْ مِيثَاقٍ
شَافِعُ بَادِرٌ مِنَ الْأَمَاقِ
وَالْهُوَى شُعْبَةٌ مِنَ الْإِشْفَاقِ
حَتِّ وَأُكْنِي عَنْ حَبِّكُمْ بِالْعِرَاقِ
عَنْكَ سَارَتْ جَوَائِبُ الْآفَاقِ
إِنْ تَمَنَّيْتُ أَنْ تَفْكَيَ وَثَاقِي
حَادِثَ الصَّدِّ أَوْ بِلَاءَ الْفِرَاقِ
وَسَامَحَتِ فَانِيًا فِي الْعِنَاقِ

وقال:

مُضْنَى وَلَيْسَ بِهِ حِرَاكُ
وَيَمِيلُ مِنْ طَرَبٍ إِذَا
إِنْ الْجَمَالَ كَسَاكَ مِنْ
وَنَبَتَ بَيْنَ جَوَانِحِي
حُلُوَ الْوَعْدِ مَتَى وَفَاكَ
مَنْ كُلُّ لَفِظٍ لَوْ أَدْنَى
أَخَذَ الْحَلَاوَةَ عَنْ ثَنَانَا
ظُلْمًا أَقُولُ جَنَى الْهُوَى
غَدَتَا مَنِيَّةً مِنْ رَأْيِ

لَكِنْ يَخِفُّ إِذَا رَأَى
مَا مَلَتْ يَا غَصْنَ الْأَرَكَ
وَرَقِ الْمَحَاسِنِ مَا كَسَاكَ
وَالْقَلْبُ مِنْ دِمِهِ سَقَاكَ
أَتَرَاكَ مُنْجِرَهَا تُرَاكَ
حَتَّى لِأَجَلِهِ قَبِلْتُ فَاكَ
يَاكَ الْعِذَابِ وَعَنْ لَمَّاكَ
لَمْ يَجِنِ إِلَّا مُقْلَتَاكَ
حَتَّى وَرُحْتُ مَنِيَّةً مِنْ رَأَى

وقال:

فَدَتِكَ الْجَوَانِحُ مِنْ نَازِلٍ
بَذَلْتُ لَهُ الْجَفْنَ دُونَ الْكَرَى
وَقَلْتُ أَرَاكَ بَرِغَمِ الْعَذُولِ
فَوَيْحَ الْمَتِيَمِ حَتَّى الْخِيَالِ
تَحَنُّنٌ إِلَيْكَ ضُلُوعٌ عَفَّتْ
وَقَلْبٌ جَوٍ عِنْدَهَا خَافِقُ
وَمِنْ عَيْثِ الْعَشَقِ بِالْعَاشِقِينَ
غَفَلْتُ عَنِ الْكَأْسِ حَتَّى طَغَتْ
وَشَفَّتْ وَمَا شَفَّ مِنْهُ الضَّمِيرُ
يَظِلُّ نَدِيمِي يُسْقَى بِهَا
أَبَدُودُهَا كَرَمًا كُلَّمَا

وَأَهْلًا بِطَيْفِكَ مِنْ وَاصِلٍ
وَمِنْ بِالْكَرَى لِلشَّجِيِّ الْبَاذِلِ
فَنَابَ السُّهَادُ عَنِ الْعَاذِلِ
إِذَا زَارَ لَمْ يَخْلُ مِنْ حَائِلِ
مَنْ الْبَيْنَ فِي جَسَدٍ نَاحِلِ
تَعَلَّقَ بِالسَّنَدِ الْمَائِلِ
حَنِينُ الْقَتِيلِ إِلَى الْقَاتِلِ
وَلِي أَدَبٌ لَيْسَ بِالْغَافِلِ
وَأَيْنَ الْجَمَادُ مِنَ الْعَاقِلِ
وَيَشْرَبُ مِنْ خُلُقِي الْفَاضِلِ
بَدَتْ لِي كَالْذَهَبِ السَّائِلِ

وقال:

لَمْ فَيَكَمْ عَذُولُهُ وَأَطَالَا
كُلَّ يَوْمٍ لَهُمْ أَحَادِيثُ لَوَمٍ
بَعَثَتْ ذِكْرَكُمْ فَجَاءَتْ خِفَافًا
أَيُّهَا الْمُنْكَرُ الْغَرَامَ عَلَيْنَا
أَيُّهُ الْحُسْنُ لِلْقُلُوبِ تَجَلَّتْ
لَكَ نُصْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي
وَهَبِ الرُّشْدَ أَنْنِي أَنَا أَسْلُو

كَمْ إِلَى كَمْ يُعَالِجُ الْعُدَّالَا
بَدَأَتْ رَاحَةً وَعَادَتْ مَلَالَا
وَاقْتَضَتْ هَجْرَكُمْ فَرَاحَتْ ثِقَالَا
حُسْبُكَ اللَّهُ قَدْ جَدَدَتْ الْجَمَالَا
كَيْفَ لَا تَعَشُقُ الْعَيُونُ امْتِثَالَا
آفَةُ النَّصِيحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالَا
مَا مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَرُومَ مُحَالَا

وقال:

بَاتَ الْمُعْنَى وَالْذُّجَى يَبْتَلِي
وَالشُّهْبُ فِي كُلِّ سَبِيلٍ لَهُ
إِذَا رَعَاهَا سَاهِيًا سَاهِرًا

وَالْبَرْحُ لَا وَإِنْ وَمَا مُنْجَلِي
بِمَوْقِفِ اللَّوَامِ وَالْعُدْلِ
رَعَيْنَهُ بِالْحَقِّ الْغُفْلِ

يا ليلُ قد جُرْتَ ولم تعدِلِ
تالله لو حُكِّمْتَ في الصبح أن
أو شِمْتَ سيفًا في جيوش الضحى
أبيتُ أُسقى ويُديرُ الجوى
الخدُّ من دمعي ومن فيضه
والشوقُ نارٌ في رماذِ الأسى
والقلبُ قِوَامٌ على أضلعي

وقال:

أنا إن بذلتُ الروحَ كيف أُلِّمُ
عمدَتِ إلى قلبي بسهمٍ نافذٍ
يا قلبُ لا تجزَعْ لحادثةِ الهوى
عرَفْتَ قلوبُ الناسِ قبلكَ ما الجوى
تجري العقولُ بأهلها فإذا جرى
ما كنتُ أعلمُ والحوادثُ جمَّةٌ
جنبا على كيدي وما عرَّضْتُها
ولقد أقولُ لمن يحثُّ كُئُوسَها
لم تجرِ بين جوانحي إلا كما

وقال:

هل تيممَ البانُ فؤادَ الحَمامِ
أم شَفَّه ما شَفَّنِي فانثنى
يهزُّه الأيكُ إلى إلفه
وتوقدُ الذكرى بأحشائه
كذلك العاشقُ عند الدُّجى
له إذا هبَّ الجوى صرعةٌ
فناح فاستبكى جفونَ الغَمامِ
مُبلبلَ البالِ شريدَ المَنامِ
هَزَّ الفراشَ المُدَنَّفَ المستهامِ
جمراً من الشوقِ حثيثَ الضَّرامِ
يا للهوى ممَّا يُثيرُ الظلامِ
من دونها السَّحَرُ وفعلُ المُدامِ

يا عادي البين كفى قسوة
تلك قلوب الطير حملتها
لا ضرب المقدور أحبابنا
يا زمن الوصل لأنت المني
لله عيش لي وعيش لها
وأنس أوقات ظفّرنا بها
لكنه الدهر قليل الجدى
لو سامحتنا في السلام النوى
ولانقضى العمران في وقفة
قالت وقد كاد يُميد الثرى
وغابت الأعين في دمعها
يا بين ولّى جلدي فأتئذ
فقلت والصبر يُجاري الأسى
إن كان لي عندك هذا الهوى

رُوعتَ حتى مُهجاتِ الحمام
ما ضعفت عنه قلوبُ الأنام
ولا أعاديننا بهذا الحُسام
وللمنى عقدٌ وأنت النظام
كنتَ به سمحاً رخيّ الزمام
في غلفة الأيام لو دُمتَ دام
مُضَيِّعُ العهدِ لئيمُ الذمام
لَطالَ حتى الحشرِ ذاك السلام
نسلو بها الغمضَ ونسلو الطعام
من هدّة الصبر وهول المقام
ونالت الألسنُ إلا الكلام
ويا زماني بعضُ هذا حرام
واللُبُّ مأخوذٌ ودمعي انسجام
بأيّما قلتِ كتمتِ الغرام

وقال:

صريعُ جفنيك ينفي عنهما التُّهما
الله في رُوح صَبٍّ يَغشيان بها
وكُفَّ عن قلبه المعمودِ نبلُهما
سلو غزالاً غزا قلبي بحاجبه
واستخبروه إلى كم نارُ جفوتِه
واستوهبوه يدًا في العمر واحدةً
ولا تروا منه ظلمًا أن يُضيّعني

فما رَميتَ ولكنَّ القضاء رمى
مَواردَ الحتفِ لم ينقل لها قدما
أليس عهدُك فيه حَبَّةٌ ودما
أما كفى السيفُ حتى جرَّد القلما
أما كفى ما جنت نارُ الخدودِ أَمَا
ومهدوا عُذْرَه عني إذا حرما
من ضيّع العرضَ المملوكُ ما ظلما

وقال:

ذادَ الكرى عن مقلتيك حمامُ
حيرانُ مشبوبُ المَضاجعِ ليلُهُ

لبَّاه شوقٌ ساهرٌ وغرامُ
حربٌ وليلُ النائمين سلامُ

بين الدُّجى لكما وعادية الدُّجى
تتعاونان وللتعاونِ أُمَّةٌ
يا أيها الطيرُ الكثيرُ سميْرُهُ
عانقتُ أغصاناً وعانقتُ الجوى
أُحَرِّمُ الأَجْفانِ إدناءَ الكرى
حاولنَ منه إلى خيالك سُلماً
فأذنَ لِطيفِكَ أن يُلِمَّ مُجَامِلاً
مُهَجُّ تُؤَلَّفُ بينها الأَسْقَامُ
لا الدهرُ يَخْذُلُها ولا الأيامُ
هل ريشةٌ لَجَنَاجِهَ فيُقامُ
وشكوتَ والشكوى عليَّ حرامُ
يَهْنِيكَ ما حَرَمْتَ حينَ تنامُ
لو سامحتَ بخيالك الأحلامُ
ومؤمِّلُ من طيفِكَ الإِلَمامُ

وقال:

شغَلَتْه أَشْغَالٌ عَنِ الأَرَامِ
ومضى يجرُّ على الهوى أذْيَالَهُ
ويذمُّ عهدَ الغانياتِ كَنَاقِهِ
لا تعجلَنَّ وفي الشبابِ بَقِيَّةُ
كانتِ إِنْابَتُكَ المُرِيبَةُ سَلْوَةً
إن الذي جعلَ القلوبَ أَعْنَةً
يا قلبَ أحمَدَ والسَّهَامُ شديدةُ
تدري وتَسألُني تَجاهِلَ عارفِ
ما زِلْتَ تَرَكَّبُ كُلَّ صَعْبٍ في الهوى
وَإِذَا القلوبُ اسْتَرسَلَتْ في غِيَّها
وقضى اللَّبَانَةَ من هوى وغرامِ
ويلومُ حَامِلَهُ مع اللُّؤَامِ
بعد الشِّفاءِ يذمُّ عهدَ سَقَامِ
إن الشبابَ مَزَلَّةُ الأحلامِ
نسَجْتَ على جُرْحِ بَجْنِكَ دامي
قَادَ الشَّبِيبَةَ لِلهوى بِزِمَامِ
ماذا لَقِيتَ من الغزالِ الرامي
أَرْنَا بَعِينَ أم رَمَى بِسَهَامِ
حتى رَكِبْتَ إلى هَوَاكِ جِمَامِي
كانت بَلِيَّتُها على الأَجْسَامِ

وقال:

بِه سِحْرٌ يُتَيَّمُهُ
هما كادا لِمُهْجَتِهِ
تُعَذِّبُهُ بِسِحْرِهِمَا
فلا هَارَوْتُ رَقَّ لَهُ
وتظلمُهُ فلا يشكو
كلا جَفَنِيكَ يَعْلَمُهُ
ومنكَ الكيدُ مُعْظَمُهُ
وتُوجِدُهُ وتُعِدُّهُ
ولا ماروتَ يَرَحِمُهُ
إلى من ليس يظلمُهُ

وَبَاخَ فَخَانَهُ فَمُهُ	أَسَرَ فَمَاتَ كَتْمَانًا
دِ حَتَّى الْبَثُّ يُحَرِّمُهُ	فَوَيْحَ الْمُدْنَفِ المَعْمُو
هُوَ اتَّفَهُ وَأَنْجُمُهُ	طَوِيلُ اللَّيْلِ تَرْحُمُهُ
جَرَى فِي دَمْعِهِ دُمُهُ	إِذَا جَدَّ الْغَرَامُ بِهِ
بِعَادِي السُّقْمِ يُسْقِمُهُ	يَكَادِ لَطُولُ صَحْبَتِهِ
وَأَلْقَى الْعِذْرَ لَوْمُهُ	ثَنَى الْأَعْنَاقَ عُودُهُ
إِلَيْكَ غَدًا يُقَدِّمُهُ	قَضَى عَشْقًا سَوَى رَمَقٍ
تَقُولُ اللَّهُ يَرْحُمُهُ	عَسَى إِنْ قِيلَ مَاتَ هَوَى
بَلْفِظْ مِنْكَ أَعْظَمُهُ	فَتَحْيَا فِي مَرَاقِدِهَا

* * *

عَنِ الْمَقْدُورِ أَعْصَمُهُ	بِرُوحِي الْبَانُ يَوْمَ رَنَا
مُعَلَّمُهُ مُنْعَمُهُ	وَيَوْمَ طُعِنْتُ مِنْ غُصْنٍ
وَلَطْفُ اللَّهِ مَبْسَمُهُ	قَضَاءُ اللَّهِ نَظَرُتُهُ
بِي الرَامِي وَأَسْهَمُهُ	رَمَى فَاسْتَهْدَفْتُ كَبْدِي
وَمَنْ عَجَبٍ يُسَلِّمُهُ	لَهُ مِنْ أَضْلَعِي قَاعٌ
كِنَاسٌ بَاتَ يَهْدُمُهُ	وَمَنْ قَلْبِي وَحَبَّتِي
هُ بَيْنَ الْغَيْدِ يَقْسِمُهُ	غَزَالٌ فِي يَدَيْهِ النَّيْبِ

وقال:

وَأَحْلَهُ حَدَقًا لَهَا وَجَفُونَا	مَنْ صَوَّرَ السَّحَرَ الْمُبِينَ عَيُونَا
كَبْدِي وَكَانَ فؤَادِي الْمَغْبُونَا	نَظَرْتُ فَحُلْتُ بِجَانِبِي فَاسْتَهْدَفْتُ
حَتَّى اسْتَقَرَّ فَرْنٌ فِيهِ رَنِينَا	وَرَمْتُ بِسَهْمٍ جَالٍ فِيهِ جَوْلَةٌ
وَلَمَسْتُ جَنْبِي مُشْفِقًا وَضُنِينَا	فَلَمَسْتُ صَدْرِي مُوجِسًا وَمُرَوَّعًا
سُودًا وَإِنَّ مِنَ الْجَاذِرِ عَيْنَا	يَا قَلْبُ إِنْ مِنَ الْبَوَاتِرِ أَعْيُنَا
إِنَّ الظَّوَاهِرَ تَخْدَعُ الرَّائِيْنَا	لَا تَأْخُذَنَّ مِنَ الْأُمُورِ بظَاهِرِ
وَصَدْرْتُ عَنْ هَيْفِ الْقُدُورِ طَعِينَا	فَلَكُمْ رَجَعْتُ مِنَ الْأَسِنَّةِ سَالِمًا
زَهَبَ الْأَصِيلُ حَوَاشِيَا وَمُتُونَا	وَخَمِيلَةٍ فَوْقَ الْجَزِيرَةِ مَسَّهَا

كَالتَّبْرِ أَفْقًا وَالزَّبْرَجِدِ رِبْوَةً
وَقَفَّ الْحَيَا مِنْ دُونِهَا مُسْتَأْذِنًا
وَجَرَى عَلَيْهَا النِّيلُ يَقْذِفُ فُضَّةً
يُغْرِى جَوَارِيَهُ بِهَا فَيَجْتَنُّهَا
رَاعِ الظَّلَامُ بِهَا أَوَانَسُ تَرْتَمِي
يَخْطُرْنَ فِي سَاحِ الْقُلُوبِ عَوَالِيَا
عَفَنَ الذُّيُولُ مِنَ الْحَرِيرِ وَغَيْرِهِ
عَارِضَتْهُنَّ وَلِي فَوَادُ عُرْضَةٍ
فَنَظَرْنَ لَا يَدْرِينَ أَذْهَبُ يَسْرَةً
وَنَفَرْنَ مِنْ حَوْلِي وَبَيْنَ حَبَائِلِي
فَجَمَعَتْهُنَّ إِلَى الْحَدِيثِ بِدَائِهِ
وَسَمِعْتُ مَنْ أَهْوَى تَقُولَ لِتَرْبِهَا
قَالَتْ أَرَاهُ عِنْدَ غَايَةِ وَجْدِهِ

والمِسكِ ثُرْبًا وَاللُّجَيْنِ مَعِينَا
وَمَشَى النِّسِيمُ بِظِلِّهَا مَاذُونَا
نَثَرَا وَيَكْسِرُ مَرْمَرًا مَسْنُونَا
وَيُغَيِّرُهُنَّ بِهَا فَيَسْتَعْلِينَا
مِثْلَ الظَّبَاءِ مِنَ الرُّبَا يَهْوِينَا
وَيَمْلَنَ فِي مَرَأَى الْعَيُونِ غُصُونَا
وَسَحَبْنَ ثَمَ الْأَسِّ وَالنَّسْرِينَا
لَهْوَى الْجَاذِرِ دَانَ فِيهِ وَدِينَا
فَيَجِدْنَ عَنِّي أَمْ أَمِيلُ يَمِينَا
كَالسَّرْبِ صَادَفَ فِي الرُّوَاكِ كَمِينَا
فَغَضِبْنَ ثَمَ أَعَدَّتْهُ فَرَضِينَا
أُحَرِّى بِأَحْمَدَ أَنْ يَكُونَ رَزِينَا^{٢٠}
فَلَعَلَّ لَيْلَى تَرْحَمُ الْمَجْنُونَا

وقال:

أَذْعَنَ لِلْحُسْنِ عَصِيَّ الْعَنَانُ
يَعِيشُ جَفْنَاكَ لِبَثِ الْمُنَى
يَا مُسْرِفًا فِي التَّيِّهِ مَا يَنْتَهِي
وَيَا كَثِيرَ الدَّلِّ فِي عَزِّهِ
وَيَا شَدِيدَ الْعُجْبِ مَهْلًا فَمَا

وَحَاوَلْتُ عَيْنَاكَ أَمْرًا فَكَانُ
أَوْ الْأَسَى فِي قَلْبِ رَاحٍ وَعَانُ
أَخَافُ أَنْ يَقْنَى عَلَيْنَا الزَّمَانُ
لَا تَنْسَ لِي عَزِّي قُبَيْلَ الْهَوَانُ
مِنْ مُنْكَرٍ أَنْكَ زَيْنُ الْحِسَانُ

وقال:

يَا حُسْنَهُ بَيْنَ الْحِسَانِ
كَالْبَدْرِ تَأْخُذُهُ الْعِيُو

فِي شَكْلِهِ إِنْ قِيلَ بَانَ
نُ وَمَا لَهُنَّ بِهِ يَدَانُ

^{٢٠} التَّربُّ بالكسر: مَنْ وُلِدَ مَعَكَ، وَأَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْمُؤَنَّثِ، يُقَالُ هَذِهِ تَرْبُ فُلَانَةٍ إِذَا كَانَتْ عَلَى سَنَاهَا.

مَلَكَ الجَوَانِحَ والْفَوَا
وَمُنَايَ مِنْهُ نَظْرَةً
فَعَسَى يُزَكِّي حُسْنَهُ
فَدَعُوهُ يَعْدِلْ أَوْ يَجْوَ
حَقَّ الدَّلَالُ لِمَنْ لَهُ
دَ ففِي يَدَيْهِ الْخَافِقَانُ
فَعَسَى يُشِيرُ الْحَاجِبَانُ
مَنْ لَا لَهُ فِي الْحُسْنِ ثَانُ
رُ فَإِنَّهُ مَلَكُ الْعِنَانُ
فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مَكَانُ

وقال:

يَا نَاعِمًا رَقَدْتَ جُفُونُهُ
حَمَلَ الْهَوَى لَكَ كُلَّهُ
عُدْ مُنْعِمًا أَوْ لَا تَعُدْ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الْهَوَى
رَشَاءُ يُعَابُ السَّاحِرُو
الرُّوحُ مَلِكُ يَمِينِهِ
مَا الْبَانُ إِلَّا قَدُّهُ
وَيَزِينُ كُلَّ يَتِيمَةٍ
مَا الْعَمْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ
بَاتَ الْغَرَامُ يَدِينُنَا
بَيْنَ الرَّقِيبِ وَبَيْنُنَا
نَغْتَابُهُ وَنَقُولُ لَا
مُضْنَاكَ لَا تَهْدَا شُجُونُهُ
إِنْ لَمْ تُعْنِهِ فَمَنْ يُعِينُهُ
أَوْدَعْتَ سِرَّكَ مَنْ يَصُونُهُ
سَبَبٌ سَيَجْمَعُنَا مَتِينُهُ
نَ وَسِحْرُهُمْ إِلَّا جَفُونُهُ
يَفْدِيهِ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ
لَوْ تَيَمَّتَ قَلْبًا غَصُونُهُ
فَمُهُ وَتَحَسَّبُهَا تَزِينُهُ
كَانَ الصَّبَاحُ لَهَا جَبِينُهُ
فِيهَا كَمَا بَتْنَا نَدِينُهُ
وَإِ تُبَاعَدُهُ حُزُونُهُ
بَقِيَ الرَّقِيبُ وَلَا عِيُونُهُ

وقال:

صَحَا الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ خُمَارِ أَمَانِي
حَنَانِيكَ قَلْبِي هَلْ أَعِيدُ لَكَ الصَّبَا
تَحَنُّ إِلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطِيبِهِ
إِذَا لَمْ تَصُنْ عَهْدًا وَلَمْ تَرَ عَ ذِمَّةَ
أَتَذَكِّرُ إِذْ نُعْطِيَ الصَّبَابَةَ حَقَّهَا
وَأَنْتَ خَفَوُكَ وَالْحَبِيبُ مُبَاعَدُ
يُجَاذِبُنِي فِي الْغَيْدِ رَثَّ عِنَانِي
وَهَلْ لِلْفَتَى بِالْمُسْتَحِيلِ يَدَانِ
وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا مِنْ دَمِ وَحْنَانِ
وَلَمْ تَذَكِّرْ إِلَّا فَا فَلَسْتَ جَنَانِي
وَنَشْرَبُ مِنْ صِرْفِ الْهَوَى بِدِنَانِ
وَأَنْتَ خَفَوُكَ وَالْحَبِيبُ مُدَانِ

وأنت فؤادي عند كل رهان
فولّي فيا لهفي على الخفقان
فكيف ترى الكأسين تختلفان
يشيب الفتى في مصر قبل أو ان
صنيعة إحسان ورق حسان
وأعنو إذا اقتاد الجميل عناني

وأيام لا آلو رهاناً مع الهوى
لقد كنت أشكو من خفوقك دائماً
سقاك التصابي بعدما علك الصبا
وما زلت في ريع الشباب وإنما
ولا أكذب الباري بنى الله هيكلي
أدين إذا اقتاد الجمال أزمّتي

وقال:

تفنى القلوب ويبقى قلبك الجاني
من التراب وهذا الحسن روحاني
لم يتخذ شركاً في العالم الفاني
منعماً في بديعات الحلى هاني
وإن تنفس أهدى طيب ريحان
بمنظر ضاحك اللألاء فتان
لا تطلع الشمس والأنداء في آن^{٢١}
فرحت أشوق مشتاق لأوطان
وسكبي الدمع من تذكّرها قاني
ليت الكريم الذي أعطاك أعطاني

الله في الخلق من صب ومن غاني
صوني جمالك عنا إننا بشر
أو فابتغي فلماً تأوينه ملكاً
ينساب في النور مشغوقاً بصورته
إذا تبسم أبدى الكون زينته
وأشركي من سماء العز مشرقة
عسى تكف دموع فيك هامية
يا من هجرت إلى الأوطان رؤيتها
أتذكرين حنيني في الزمان لها
وعبّطي الطير ألقاه أصبح به

وقال:

ماذا صنعت به يا ظبية البان
عليه مرعاك من قاع وكثبان
وحن للنازح المأسور جثماني
إن كان في رده صحوي وسلواني

قلب بوادي الحمى خلّفته رمقاً
أحنى عليك من الكثبان فاتخذي
غربته فوهى جنبي لفرقتيه
لا رده الله من أسر ومن خبل

^{٢١} الأنداء: الأمطار.

دلَّهتِه بعزیزِ فی مَاجِرِه
رمی فضجت على قلبي جوانحه
یا صورة الحورِ فی جِلبابِ فانیة
مُری عصی الکرى یَغشى مُجاملَة
فحسبُ خدی من عینی ما شربا
ماضٍ له من مُبین السَّحرِ جَفنانِ
وَقُلْنَ سَهْمُ فَقَالَ القلبُ سَهْمَانِ
وَكوكَبَ الصبحِ فی أعطافِ إنسانِ
وسامِحی فی عناقِ الطیفِ أجفانی
فَمِثْلُ ما قد جرى لم تَلَقَ عینانِ

وقال:

قالوا له رُوحی فداه
أنا لم أَقْم بِصُدُورِهِ
تَجري الأمور لَغایة
سَمیتُهُ بدرَ الدُّجى
ودعوته غصنَ الرِّيا
وأقولُ عنه أخو الغَزا
قال العوانلُ قد جفا
أنا لو أَطعْتُ القلبَ فیـ
والنُّصحُ مُتَّهَمٌ وإنْ
أذُنُ الفتى فی قلبه
هذا التَجَنُّی ما مَداه
حتى يُحَمِّلَنی نَواه
إلا عذابى فی هواه
ومن العجائب لا أراه
ضِ فلم أَجد رَوضاً حواه
لِ ولا أرى إلا أخاه
ما بالُ قلبك ما جفا
ه لم أَرِدْهُ على جَواه
نثرتَه كالذُّرِّ الشُّفاه
حیناً وحیناً فی نُهاه

وقال:

مقادیرُ من جَفَنیک حوَّلَ حالیَا
نَفَذَن عَلَی اللُّبِّ بالسَّهمِ مُرْسَلاً
وَأَبَسَنَنِ ثوبَ الضَّنَى فلبِستُهُ
وما الحبُّ إلا طاعةٌ وتجاوزُ
وما هو إلا العینُ بالعینِ تلتقي
وعندي الهوى موصوفه لا صفاته
وبي رشاً قد كان دنيائى حاضراً
فَذُقْتُ الهوى من بعدما كُنْتُ خالِيا
وبالسَّحرِ مَقْضِياً وبالسيفِ قاضِيا
فأَحِبِّ به ثوباً وإنْ ضَمَّ بالِيا
وإنْ أَكثَرُوا أوصافَه والمَعانِيا
وَأَنْ نَوَّعُوا أسبابَه والدَّواعِيا
إذا سألوني ما الهوى قلتُ ما بيا
فغادرني أَشتاقُ دُنيائى نائِيا

سمحتُ برُوحِي في هواه رخيصةً
ولم تجرِ ألفاظُ الوِشاةِ بريبةً
أقولُ لَمَنْ ودَّعتُ والركبُ سائرُ
أماناً لقلبي من جُفونكِ في الهوى
ولا تجعليه بين خديكِ والنوى
ولم يندملْ من طعنةِ القدِّ جرحُهُ

ومن يهوَ لا يُؤثِّرَ على الحبِّ غالياً
كهذي التي يجري بها الدَّمعُ واشياً
برغمِ فؤادي سائرُ بفؤاديا
كفى بالهوى كأساً وراحاً وساقياً
من الظلم أن يغدو لنا رَيْنَ صالياً
فرفقاً به من طعنةِ البينِ دامياً

وقال:

أهلَ القُدودِ التي صالتِ عَوالِها
خُذْنَ الأمانَ لها لو كان ينفعها
وانظرنَ ما فعلتِ أحداً كُنَّ بها
تعرَّضتِ أعينُ منّا فعارَضنا
ما تُرْنَ من كُنُسٍ ٢٢ إلا كُنُسٍ
عنَّتْ لنا أصلاً تُغري بنا أسلاً
وأرهفتِ أعيناً ضَعْفَى حمائلُها
لنا الحبالُ تُلقِيها نَصِيدُ بها
نصَبْنها لك من هُذْبٍ ومن حدَقٍ
من كلِّ زهراءٍ في إشراقِها ضجَّتْ
شمسُ المَحاسنِ يُستبقى النهارُ بها
مَشَتْ على «الجسرِ» ريمًا في تَلَفَّتْها
كأنَّ كلَّ غوانيه ضرائرُها
عارَضَتْها وضميري من مَحارِمِها
أَعَفَ من حَلِيها عَمَّا يُجاوِرُهُ

اللهُ في مُهَجٍ طاحتِ غَوالِها
واردُّدْناها كَرَمًا لو كان يُجِدِها
ما كان من عبثِ الأحداقِ يَكْفِيها
على «الجزيرةِ» سَرَبٌ من غَوانِها
من الجوانحِ ضَمَّتْها حَوانِها
مَهزوزةً شَكَلًا مشروعةً تِيها ٢٣
نَشَوَى مَناصِلُها كَحلى مَواضِيها
ولم نَحَلْ ظَبِيَّاتِ القاعِ تُلقِيها
حتى انثَنَيْتِ بنفْسٍ عَزَّ فادِيها
لَبَّاتُها عن شَبِيهِ الدَّرِّ من فِيها
كأنَّ يَوْشَعَ مَفْتونٌ يُجارِيها
لِلناظرينِ وبانًا في تَنثِيها
عُجْبًا وكلَّ نواحيه مَرائِيها
يزوِّرُ عن لحظاتي في مَسارِيها
ومن غلائِلِها عَمَّا يُدانِيها

٢٢ الكُنُسُ: جمع كناس، وهو بيت الظلي.

٢٣ يقال: شكلت المرأة شكلاً: كانت ذات شكل؛ أي غنج ودلال وغزل.

قالت لعلَّ أديبَ النيلِ يُحَرِّجُنَا فقلتُ هل يُحَرِّجُ الأَقْمَارَ رائيها
 بيني وبينك أشعارُ هتفتُ بها ما كنتُ أعلمُ أن الرِّيمَ يَرويها
 والقولُ إن عفَّ أو ساءت مَواقِعُهُ صدَى السَّريرةِ والآدابِ يحكيها

وقال:

أُداري العيونَ الفاتراتِ السَّواجيا وأشكو إليها كيدَ إنسانِها ليا
 قَتَلَنَ وَمَنِّيَنَ القَتِيلَ بِالسُّن من السَّحَرِ يُبَدِّلُ المَنايا أمانيا
 وَكَلَّمَنَ بِاللَّحَاطِ مَرَضَى كَلِيلَةً فَكَانَتْ صَاحَاً فِي القُلُوبِ مَوَاضيا
 حَبَبْتُكَ ذَاتَ الخَالِ وَالْحُبُّ حَالَةٌ إِذَا عَرَضَتْ لِلْمَرْءِ لَمْ يَدِرْ مَا هيا
 وَإِنَّكَ دُنِيا القَلْبِ مَهْمَا غَدَرْتَهُ أَتَى لِكَ مَمْلُوءًا مِنَ الوَجْدِ وافيَا
 صَدُودُكَ فِيهِ لَيْسَ يَأْلُوهُ جَارِحًا وَلَفْظُكَ لَا يَنْفَكُ لِلْجُرْحِ آسِيا
 وَبَيْنَ الهوى وَالْعَدْلِ لِلْقَلْبِ مَوْقِفُ كَخَالِكَ بَيْنَ السِّيفِ وَالنَّارِ ثَاوِيا^{٢٤}
 وَبَيْنَ المُنَى وَالْيَاسِ لِلصَّبْرِ هَزَّةٌ كَخَصْرِكَ بَيْنَ النِّهْدِ وَالرَّدْفِ واهِيا
 وَعَرَّضَ بِي قَوْمِي يَقُولُونَ قَدْ غَوَى عَدِمْتُ عَذُولِي فَيْكَ إِنْ كُنْتُ غَاوِيا
 يَرُومُونَ سُلُوانًا لِقَلْبِي يُرِيحُهُ وَمَنْ لِي بِالسُّلُوانِ أَشْرِيهِ غَالِيا
 وَمَا العِشْقُ إِلَّا لَذَّةٌ ثُمَّ شِقْوَةٌ كَمَا شَقِيَّ المَخْمُورُ بِالسُّكْرِ صَاحِيا

^{٢٤} يعني الشاعر بهذه التورية أن خالها بين نار الخد — وهي كناية عن الحمرة — وبين سيف اللحظ وهو معروف.

متفرقات

مَصَايِرِ الْأَيَّامِ

أَلَا حَبِّذَا صُحْبَةُ الْمَكْتَبِ
وَيَا حَبِّذَا صَبِيَّةٌ يَمْرَحُونَ
كَأَنَّهُمْ بِسَمَاتِ الْحَيَاةِ
يُرَاحُ وَيُغْدَى بِهِمْ كَالْقَطِيعِ
إِلَى مَرْتَعِ أَلْفَوْا غَيْرَهُ
وَمُسْتَقْبَلِ مَنْ قِيُودِ الْحَيَاةِ
فِرَاحُ بِأَيْكَ فَمِنْ نَاهِضِ
عَصَافِيرُ عِنْدَ تَهْجِي الدُّرُوسِ
خَلِيُونَ مِنْ تَبَعَاتِ الْحَيَاةِ
جَنُونَ الْحَدَاثَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ
عَدَا فَاسْتَبَدَّ بِعَقْلِ الصَّبِيِّ
لَهُمْ جَرَسٌ مُطَرَّبٌ فِي السَّرَاحِ
تَوَارَتْ بِهِ سَاعَةٌ لِلزَّمَانِ
تَشُولُ^٢ بِإِبْرَتِهَا لِلشَّبَابِ

وَأَحِبُّ بِأَيَّامِهِ أَحِبُّ
عِنَانُ الْحَيَاةِ عَلَيْهَا صَبِي
وَأَنْفَاسُ رِيحَانِهَا الطَّيِّبِ
عَلَى مَشْرِقِ الشَّمْسِ وَالْمَغْرِبِ
وَرَاعِ غَرِيبِ الْعَصَا أَجْنَبِي
شَدِيدِ عَلَى النَّفْسِ مُسْتَصَعِبِ
يَرُوضُ الْجَنَاحَ وَمَنْ أَزْغَبِ
مِهَارًا^١ عَرَابِيدُ فِي الْمَلْعَبِ
عَلَى الْأُمِّ يُلْقُونَهَا وَالْأَبِ
تَضِيقُ بِهِ سَعَةُ الْمَذْهَبِ
وَأَعْدَى الْمُؤَدَّبِ حَتَّى صَبِي
وَلَيْسَ إِذَا جَدَّ بِالْمُطَرَّبِ
عَلَى النَّاسِ دَائِرَةُ الْعَقْرِ
وَتَقْدِزُ^٢ بِالسُّمِّ فِي الشَّيْبِ

^١ المهار: جمع مهر. والعرايب: جمع عربيد بالكسر، والعربيد الكثير العريضة.

^٢ تشول: ترفع؛ أخذًا من قولهم شالت الناقة ذنبها إذا رفعت.

يدق بمطرقتيها القضاء وتجري المقادير في اللولب
وتلك الأوعي بأيمانهم^٣ حقائب فيها الغد المختبي
ففيها الذي إن يُقَم لا يُعدَّ من الناس أو يمض لا يحسب
وفيها اللواء وفيها المنار وفيها التببيع وفيها النّبي
وفيها المؤخر خلف الزحام وفيها المقدم في الموكب

* * *

جميل عليهم قشيب الثياب وما لم يُجمل ولم يقشب
كساهم بنان الصبا حلة أعز من المخمل المذهب
وأبهى من الورد تحت الندى إذا رف في فرعه الأهدب
وأطهر من ذيلها لم يلم من الناس ماش ولم يسحب
قطيع يزجيه راع من الدهر ر ليس بلين ولا صلب
أهابت هراوته بالرّفاق ونادت على الحيد الهرب
وصرف قطعانه فاستبدد ولم يخش شيئاً ولم يرهب
أراد لمن شاء رعي الجديد وأنزل من شاء بالمخصب
وروى على ربيها الناهلات وردّ الظماء فلم تشرب
وألقي رقاباً إلى الضاربين وضنّ بأخرى فلم تُضرب
وليس يُبالي رضا المستريح ولا ضجر الناقم المتعب
وليس بمُبِق على الحاضرين وليس بباك على الغيب

* * *

فيا ويحهم هل أحسوا الحياة لقد لعبوا وهي لم تلعب
تجرب فيهم وما يعلمون كتجربة الطب في الأرنب
سقتهم بسم جرى في الأصول وروى الفروع ولم ينضب
ودار الزمان فدال الصبا وشب الصغار عن المكتب

^٣ الأيمان: جمع يمين، وهي اليد اليمنى.

^٤ القشيب: الجديد.

وَجَدَّ الطَّلَابُ وَكَدَّ الشَّبَابُ
وَعَادَتِ نَوَاعِمُ أَيَّامِهِ
وَعُذِبَ بِالْعِلْمِ طُلَّابُهُ
رَمَتَهُمْ بِهِ شَهَوَاتُ الْحَيَاةِ
وَزَهَوُ الْأَبْوَةِ مِنْ مُنْجِبٍ
وَعَقْلٌ بَعِيدٌ مَرَامِي الطَّمَاكِ
وَلَوْعُ الرِّجَاءِ بِمَا لَمْ تَنْلُ
تَنْقَلُ كَالنَّجْمِ مِنْ غَيْهَبٍ
قَدِيمُ الشُّعَاعِ كَشَمْسِ النَّهَارِ
أَبُوقَرَّاطُ مِثْلُ ابْنِ سِينَا الرَّئِيسِ
وَكُلُّهُمْ حَجَرٌ فِي الْبِنَاءِ

* * *

تَوَلَّفَهُمْ فِي ظِلَالِ الرِّخَاءِ
وَتَكَسَّرُ فِيهِمْ غُرُورُ الثَّرَاءِ
بَيُوتُ مَنْزِلَتِهِ كَالْعَتِيقِ
يُدَانِي ثَرَاهَا ثَرَى مَكَّةِ
إِذَا مَا رَأَيْتَهُمْ عِنْدَهَا
رَأَيْتَ الْحَضَارَةَ فِي حِصْنِهَا
وَتَعَرَّضُ لَهُمْ مَوَكِبًا مَوَكِبًا
دَعِ الْحِظَّ يَطْلُعُ بِهِ فِي غَدٍ
لَقَدْ زَيْنَ الْأَرْضَ بِالْعَبْقَرِيِّ

* * *

وَحَدَّشَ ظَفَرُ الزَّمَانِ الْوُجُوهَ
وَعَالَ الْحَدَاثَةُ شَرْخُ الشَّبَابِ
سَرَى الشَّيْبُ مُتَنِدًّا فِي الرِّعَاسِ
حَرِيقُ أَحَاطٍ بِخَيْطِ الْحَيَاةِ
وَمَنْ تَظْهَرِ النَّارُ فِي دَارِهِ
وَعِيْضٌ مِنْ بَشْرِهَا الْمُعْجَبِ
وَلُوشِيَتِ الْمُرْدُ فِي الشُّبَّابِ
سَرَى النَّارِ فِي الْمَوْضِعِ الْمُعْشَبِ
تَعَجَّبْتُ كَيْفَ عَلَيْهِمْ غَيْبِي
وَفِي زَرْعِهِ مِنْهُمْ يَرْعَبِ

قد انصرفوا بعد علم الكتاب
حياة يُغامرُ فيها امرؤ
وصارَ إلى الفاقة ابنُ الغني
وقد ذهب المُمتلي صحّة
وكم مُنجبٍ في تلقّي الدروس
وغابَ الرِّفاقُ كأن لم يكن
إلى أن فنوا ثلّة ثلّة
لباب من العلم لم يُكتب
تسلّح بالناپ والمخلّب
ولاقى الغنى ولدُ المُترب
وصحّ السقيم فلم يذهب
تلقّى الحياة فلم يُنجب
بهم لك عهدٌ ولم تصحب
فناء السراب على السبب

لُبنان

السّحرُ من سُودِ العيونِ لقيتهُ
الفاتراتِ وما فترنَ رمايةً
الناعساتِ الموقظاتي للهوى
القاتلاتِ بعابثٍ في جَفنه
الشارعاتِ الهدبِ أمثالَ القنا
الناسجاتِ على سواءِ سطورهِ
والبابليّ بلحظهنّ سقيتهُ
بمُسدّدٍ بينَ الضلوعِ مبيتهُ
المُغرياتِ به وكنتُ سليتهُ
ثملِ الغرارِ مُعربِدٍ إصليتهُ^٥
يُحيي الطّعينَ بنظرةٍ ويُميتهُ
سَقَمًا على منوالهنّ كُسيتهُ

* * *

وأغنّ أكلَ من مَها «بِكُفَيّة»
لُبنانُ دارتُه وفيه كِناسُهُ
السلسبيلُ من الجداولِ ورُدُهُ
إن قلتُ تمثالُ الجمالِ مُنصَّبًا
دخلَ الكنيسةَ فارتقبتُ فلم يُطل
فازورَّ غضبانًا وأعرضَ نافرًا
فصرفتُ تلعبابي إلى أترابه
فمشى إليّ وليس أولَ جوذِرٍ
علقتُ محاجرهُ دمي وعلقتُهُ
بينَ القنا الخطارِ خطّ نحيتهُ
والأسُ من خُضرِ الخماثلِ قوتهُ
قالَ الجمالُ براحتي مثْلُهُ
فأتيتُ دونَ طريقهِ فزحمتُهُ
حالٌ من الغيدِ المِلاحِ عرفتهُ
وزعمتهُ لُبانتي فأغرتهُ
وقعتُ عليه حبائلي ففنصتهُ

^٥ الإصليت: السيف.

وَأَتَيْتُ مِنْ سِحْرِ الْبَيَانِ فَصِدَّتُهُ
لَابِنِ الْبَتُولِ وَلِلصَّلَاةِ وَهَبْتُه٦
أَفُقَ الْبَيَانِ بِأَرْضِكُمْ يَمَّمْتُهُ
لُبْنَانُ وَانْتَظَمَ الْمَشَارِقَ صَيَّتُهُ
تَتَهَلَّلُ الْفُصْحَى إِذَا سَمَّيْتُهُ
حَفْظًا وَلَا طَلَبُ الْجَدِيدِ يَفَوْتُهُ
خُلُقُ يَبِينُ جَلَالُهُ وَثَبُوتُهُ
تَبْرُ الْقَرَائِحِ فِي التَّرَابِ لِمَحْنَتِهِ
ثُمَّ انْتَنَيْتُ إِلَى الْبَيَانِ بِكَيْتِهِ
يُوسَمُ بِأَزَيْنَ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ
وَذَرَا الْبَرَاةِ وَالْحِجَا «بِيروته»
هَامُ السَّحَابِ عَرُوشُهُ وَتُخُوتُهُ
إِلَّا لَهُ سُبُحَاتُهُ٧ وَسُمُوتُهُ٨
فِي السُّودِ الْعَالِي لَهُ وَنَعُوتُهُ
وَشَتَاؤُهُ يَنْدُ الْقُرَى جَبْرُوتُهُ
وَالَّذُ مِنْ عَطَلٍ٩ النُّحُورِ مُرُوتُهُ١٠
مِسْكُ الْوَهَادِ فَتَيْقُهُ وَفَتَيْتُهُ١١
وَكَأَنَّ أَحْلَامَ الْكِعَابِ بِيُوتُهُ
سِرُّ السَّرُورِ يَجُودُهُ وَيَقُوتُهُ١٢
وَكَأَنَّ أَقْرَاطَ الْوَلَائِدِ تَوْتُهُ

قَدْ جَاءَ مِنْ سِحْرِ الْجَفُونِ فَصَادَنِي
لَمَا ظَفَرْتُ بِهِ عَلَى حَرَمِ الْهُدَى
قَالَتْ تَرَى نَجْمَ الْبَيَانِ فَقُلْتُ بَلْ
بَلَّغَ السُّهَى بِشَمُوسِهِ وَبَدُورِهِ
مِنْ كُلِّ عَالِي الْقَدْرِ مِنْ أَعْلَامِهِ
حَامِي الْحَقِيقَةِ لَا الْقَدِيمِ يَتُودُهُ
وَعَلَى الْمَشِيدِ الْفَخْمِ مِنْ آثَارِهِ
فِي كُلِّ رَابِيَةٍ وَكُلِّ قَرَارَةٍ
أَقْبَلْتُ أَبْكِي الْعِلْمَ حَوْلَ رُسُومِهِمْ
لِبْنَانُ وَالْخُلْدُ اخْتِرَاعُ اللَّهِ لَمْ
هُوَ ذِرْوَةُ فِي الْحُسْنِ غَيْرُ مَرُومَةٍ
مَلِكُ الْهَضَابِ الشَّمُّ سُلْطَانُ الرُّبَا
سَيْنَاءُ شَاطَرَهُ الْجَلَالَ فَلَا يُرَى
وَالْأَبْلَقُ الْفَرْدُ انْتَهَتْ أَوْصَافُهُ
جَبَلٌ عَلَى آذَارٍ يُزْرِي صَيْفُهُ
أَبْهَى مِنَ الْوَشْيِ الْكَرِيمِ مُرُوجُهُ
يَغْشَى رَوَابِيَهُ عَلَى كَافُورِهَا
وَكَأَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ رُبُوعُهُ
وَكَأَنَّ رِيْعَانَ الصَّبَا رِيْحَانُهُ
وَكَأَنَّ أَثْدَاءَ النِّوَاهِدِ تَيْنُهُ

٦ ابن البتول: هو المسيح عليه السلام.

٧ السُّبُحَةُ بضم السين: الجلال.

٨ السَّمْتُ بالفتح: هيئة أهل الخير.

٩ عَطَلٌ النحر من الحلي: خلا.

١٠ المروت: جمع مرت، وهي المفازة بلا نبات.

١١ فتق المسك: استخرجه بشيء يدخله عليه. والفتيت: المفتوت.

١٢ يقوته: يطعمه.

وَكأنْ هُمَسَ القاعِ في أذنِ الصِّفا^{١٣} صوتُ العتابِ ظهورُهُ وخُفوتُهُ
وَكأنْ ماءَهُما وَجَرَسَ^{١٤} لُجَيْنَهُ وَضَحَ^{١٥} العروسِ تُبَيَّنُهُ وتُصَيِّتُهُ^{١٦}

* * *

زعماءُ لُبْنانَ وأهلَ نَدْيِهِ لِبْنانُ في نادِيكُمْ عَظَمَتُهُ
قد زادني إقبالُكُمْ وَقَبولُكُمْ شَرَفًا على الشرفِ الذي أولِيَتُهُ
تاجُ النِيابَةِ في رَفِيعِ رءوسِكُمْ لَمْ يُشَرَّ لَوَلُوهُ ولا ياقوتُهُ
«موسى»^{١٧} عَدُوُّ الرِّقِّ حَوْلَ لوائِكُمْ لا الظُّلُمُ يُرهِبُهُ ولا طاغوتُهُ
أنتُمْ وصاحبُكُمْ إذا أَصَبَحْتُمْ كالشَّهِرِ أَكْمَلَ عَدَّةً موقوتُهُ
هو غُرَّةُ الأيامِ فيه وكلِّكُمْ آحادُهُ في فضلِها وسُبوئُهُ

المؤتمر^{١٨}

صرُحْ على الوادي المَبَارِكِ ضاحي مُتَظاهِرُ الأعلامِ والأَوضاحِ
ضافي الجلالةِ كالعَتِيقِ مُفَضَّلُ ساحاتِ فضلٍ في رِحابِ سَماحِ
وَكأنْ رَفَرَفَهُ رِواقُ من ضُحَى وَكَأنْ حائِطُهُ عَمودُ صَباحِ
الحقِّ خَلَفَ جَناحِ استَدْرَى^{١٩} به وَمَراشِدُ السُّلطانِ خَلَفَ جَناحِ
هو هيكُلُ الحَريَةِ القاني له ما لِلهياكلِ من فِدْوى وَأُضاحِ
يُبْنى كما تُبْنى الخنادِقُ في الوغى تَحْتَ النِّبالِ وَصَوْبِها السَّحاحِ
ينهارُ الاستبدادُ حَوْلَ عِراضِهِ مِثْلَ انْهيارِ الشُّرِكِ حَوْلَ «صَلاح»^{٢٠}

^{١٣} الصفا: الصخر.

^{١٤} الجرس: الصوت.

^{١٥} الوضع: حلي من الفضة.

^{١٦} تُصَيِّتُهُ: تجعله يُصَوِّت.

^{١٧} موسى نمور بك رئيس مجلس النواب اللبناني.

^{١٨} مؤتمر سياسي اجتمعت فيه كلمة الأحزاب السياسية المصرية على إنقاذ الدستور برئاسة المغفور له

سعد زغلول باشا سنة ١٩٢٦م.

^{١٩} استدري: استظل.

^{٢٠} صلاح: اسم لمكة.

وَيُكَبُّ طَاغُوتُ الْأُمُورِ لَوَجْهِهِ
هو ما بَنَى الْأَعْزَالُ بِالرَّاحَاتِ أَوْ
أَخَذَتْهُ «مَصْرٌ» بِكُلِّ يَوْمٍ قَاتِمٍ
هَبَّتْ سِمَاحًا بِالْحَيَاةِ شَبَابُهَا
وَمَشَتْ إِلَى الْخَيْلِ الدَّوَارِغُ وَانْبَرَتْ
وَقَفَاتُ حَقٍّ لَمْ تَقْفُهَا أُمَّةٌ
وَإِذَا الشُّعُوبُ بَنَوْا حَقِيقَةَ مُلْكِهِمْ
مُتَحَطِّمَ الْأَصْنَامِ وَالْأَشْبَاحِ
هو ما بَنَى الشَّهْدَاءُ بِالْأَرْوَاحِ
وَزَيَّ الْكَوَاكِبِ أَحْمَرَ الْإِصْبَاحِ
وَالشَّيْبُ بِالْأَرْمَاقِ غَيْرُ شَحَاحِ
لِلظَّافِرِ الشَّاكِي بِغَيْرِ سِلَاحِ
إِلَّا انْتَنَتْ أَمَالُهَا بِنَجَاحِ
جَعَلُوا الْمَاتَمَ حَائِطَ الْأَفْرَاحِ

* * *

بُشْرَى إِلَى الْوَادِي تَهْزُ نَبَاتُهُ
تَسْرِي مَلْمَحَةَ الْحُجُولِ^{٢١} عَلَى الرُّبَا
الْتَامَتِ الْأَحْزَابُ بَعْدَ تَصَدُّعِ
سُجِبَتِ عَلَى الْأَحْقَادِ أَذْيَالُ الْهُوَى
وَجَرَتْ أَحَادِيثُ الْعَتَابِ كَأَنَّهَا
تَرْمِي بِطَرْفِكَ فِي الْمَجَامِعِ لَا تَرَى
هَزَّ الرَّبِيعِ مَنَاكِبَ الْأَدْوَاكِ
وَتَسِيلُ غُرَّتُهَا بِكُلِّ بِطَاحِ
وَتَصَافَتِ الْأَقْلَامُ بَعْدَ تَلَاكِ
وَمَشَى عَلَى الضُّغَنِ الْوَدَادُ الْمَاحِي
سَمَرٌ عَلَى الْأَوْتَارِ وَالْأَقْدَاحِ
غَيْرَ التَّعَانِقِ وَاشْتَبَاكَ الرَّاحِ

* * *

شَمَسَ النَّهَارِ تَعَلَّمِي الْمِيزَانَ مِنْ
مِيلِي انْظُرِيهِ فِي النَّدِيِّ كَأَنَّهُ
كَمْ تَاجُ تَضْحِيَةٍ وَتَاجُ كِرَامَةٍ
وَالشَّيْبُ مُنْبِثُّ كُنُورِ الْحَقِّ مِنْ
لَبَّى أَذَانَ الصُّلْحِ أَوَّلَ قَائِمِ
سَبَقَ الرِّجَالُ مُصَافِحًا وَمُعَانِقًا
«سَعْدٍ» الدِّيارِ وَشَيْخِهَا النَّضَّاحِ^{٢٢}
«عَثْمَانُ» عَنْ أَمِّ الْكِتَابِ يُلَاحِي
لِلْعَيْنِ حَوْلَ جَبِينِهِ اللَّمَّاحِ
فَوْدِيهِ أَوْ فَجْرِ الْهَدْيِ الْمُنْصَاحِ^{٢٣}
وَالصُّلْحُ خُمُسُ قَوَاعِدِ الْإِصْلَاحِ
يُمْنَى السَّمَاحِ وَهَيْكَلِ الْإِسْجَاحِ^{٢٤}

^{٢١} الحُجُولُ: الخَلَائِلُ.

^{٢٢} النَّضَّاحُ: الرَّامِي بِالنَّبْلِ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ الْحَامِي وَالْمُدَافِعِ.

^{٢٣} الْمُنْصَاحُ: الْخَالِصُ.

^{٢٤} يُقَالُ سَجَّحَ خُلُقَهُ: سَهَّلَ وَلَانَ.

«عدي» الجليلُ ابنُ الجليلِ من الملا والماجدُ ابنُ الماجدِ المِسمَحِ
حُلُو السَّجِيَةِ في قنَاةٍ مُرَّةٍ ثَمَلُ الشَّمَائِلِ في وَقَارِ صَاحِ

* * *

شَتَّى فضائلَ في الرجالِ كأنها شَتَّى سلاحٍ من قنًا وصِفاحٍ^{٢٥}
فإذا هي اجتمعت لِمُلْكٍ جبهةً كانت حصونَ مَناعةٍ ونطاحٍ
اللَّهُ أَلْفَ للبلادِ صدورها من كلِّ داهيةٍ وكلِّ صُراحٍ
وزراءُ مملكةٍ دَعائِمُ دولةٍ أعلامُ مؤتمرٍ أُسودَ صَباحٍ^{٢٦}
يبنون بالدستورِ حائطَ مُلكهم لا بالصِّفاحِ ولا على الأرماحِ
وجواهرُ التيجانِ ما لم تُتَّخَذْ من مَعَدِنِ الدستورِ غيرُ صِاحِ

* * *

احتلَّ حصنَ الحقِّ غيرُ جنوده وتكالبت أيدٍ على المِفْتَاحِ
ضجَّت على أبطالِها ثُكُنَاتُهُ واستوحشت لِكُمَاتِهَا النُّزَاحِ
هُجرت أرائكُهُ وَعُطِّلَ عَوْدُهُ وخلا من الغادين والرُّواحِ
وعلاه نسجُ العنكبوتِ فزاده كالغارِ من شرفٍ وسمتٍ^{٢٧} صلاحِ

* * *

قُلْ للبنينَ مقالَ صدقٍ واقتصد نزعُ الشبابِ يَضِيقُ بالنُّصَّاحِ
أنتم بنو اليومِ العصيبِ نشأتُم في قصفِ أنواءٍ وعصفِ رياحِ
ورأيتمُ الوطنَ المؤلَّفَ صخرةً في الحادثاتِ وسيلِها المُجْتَاحِ
وشهدتمُ صدعَ الصفوفِ وما جنى من أمرٍ مُفَتَاتٍ ونهيٍ وَقَاحِ
صوتُ الشعوبِ من الزئيرِ مُجمَعًا فإذا تفرَّقَ كان بعضُ نُبَاحِ
أظمتكمُ الأيامُ ثم سَقَتكمُ رَنَقًا من الإحسانِ غيرَ قَرَاحِ
وإذا مُنحتِ الخيرَ من مُتكلِّفٍ ظهرت عليه سجيَّةُ المَنَاحِ

^{٢٥} الصَّفاح: السيوف.

^{٢٦} صباح هنا: أي حرب.

^{٢٧} السمت: هيئة أهل الخير.

تَرْكَتَكُمْ مِثْلَ الْمَهِيضِ جَنَاحُهُ
 مِنْ صَيَّرَ الْأَعْلَالَ زَهَرَ قَلَائِدُ
 إِنْ الَّتِي تَبْغُونَ دُونَ مَنَالِهَا
 سَيَرُوا إِلَيْهَا بِالْأَنَاءِ طَوِيلَةً
 وَخَذُوا بِنَاءِ الْمُلِكِ عَنْ دَسْتُورِكُمْ
 يَا دَارَ مَحْمُودٍ سَلِمَتْ وَبُورِكَتْ
 وَازْدَدَتْ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ وَطِيبِهِ
 الْأُمَّةُ انْتَقَلَتْ إِلَيْكَ كَأَنَّمَا
 بَرَكَاتُ شَيْخٍ بِالصَّعِيدِ مُحْمَلٍ
 بِالْأَمْسِ جَادَ عَلَى الْقَضِيَةِ بِأَبْنِهِ
 لَا فِي الْحِبَالِ وَلَا طَلِيقَ سَرَاكِ
 وَكَسَا الْقَيْوَدَ مَحَاسِنَ الْأَوْضَاحِ
 طَوْلُ اجْتِهَادٍ وَاضْطِرَادُ كِفَاحِ
 إِنْ الْأَنَاءَ سَبِيلُ كُلِّ فَلَاحِ
 إِنْ الشَّرَاعَ مُثَقَّفُ الْمَلَاكِ
 أَرْكَانُكَ الْهَرَمِيَّةُ الصُّفَّاحِ^{٢٨}
 حَجَرًا هُوَ الدُّرِّيُّ فِي الْأَمْدَاحِ
 أَنْزَلَتْهَا مِنْ بَيْتِهَا بِجَنَاحِ
 عِبَاءِ السَّنِينَ مُؤَمِّلِ نَفَّاحِ
 وَالْيَوْمَ آوَاهَا بِأَكْرَمِ سَاحِ

النَّسْرُ الْمِصْرِي^{٢٩}

أَعْقَابُ فِي عَنَانِ الْجَوِّ لَاحٍ
 أَمْ بِسَاطِ الرِّيحِ رَدَّتْهُ النُّوَى
 أَوْ كَانَ الْبَرْجَ أَلْقَى حُوتَهُ
 أَمْ سَحَابٌ فَرَّ مِنْ هُوجِ الرِّيحِ
 بَعْدَمَا طَوَّفَ فِي الدَّهْرِ وَسَاحٍ
 فَتَرَامَى فِي السَّمَوَاتِ الْفِسَاحِ

* * *

أَقْبَلْتُ مِنْ بُعْدٍ تَحَسُّبُهَا
 يَا سِلَاحَ الْعَصْرِ بُشْرُنَا بِهِ
 إِنَّ عِزًّا لَمْ يُظَلَّلْ فِي غَدٍ
 فَتَكَاتُرٌ وَتَأَلَّفٌ فَيَلْقَا
 مَصْرُ اللَّطِيرِ جَمِيعًا مَسْرُحُ
 رَبِّ سِرْبٍ قَاطِعٍ مَرَّ بِهِ
 لِمَ لَا يَفْتَنُ فِتْيَانُ الْجِمَى
 نَحْلَةٌ عَنَّتْ وَطَنَتْ فِي الرِّيحِ
 كُلُّ عَصْرٍ بِكَمِيٍّ وَسِلَاحُ
 بِجَنَاحَيْكَ ذَلِيلُ مُسْتَبَاحِ
 تَعَصُّمُ السَّلَمِ وَتَعْلُو لِلْكَفَاحِ
 مَا لَنَا فِيهِ ذُنَابَى أَوْ جَنَاحِ
 هَبِطْ الْأَرْضَ مَلِيًّا وَاسْتِرَاحِ
 ذَلِكَ الْإِقْدَامُ أَوْ ذَاكَ الطَّمَّاحِ

^{٢٨} الصفاح: حجارة عريضة.

^{٢٩} قِيلَتْ بِمُنَاسَبَةِ قُدُومِ صَدِيقِي الطَّيَارِ الْمِصْرِيِّ الْأَوَّلِ مِنْ بَرْلِينِ إِلَى الْقَاهِرَةِ طَائِرًا فِي سَنَةِ ١٩٣٠ م.

من فتى حلّ من الجوّ بهم
إنه أولُ عُصفورٍ لهم
دبّت الهمةُ فيه ومشت
ناطخَ النجمَ فتى علّمته
لك في الأجيالِ تمثالٌ مشى
جاوَزَ النيلَ وعبرَيه إلى
فتلقّوه على هامٍ وراخٍ
هزّ في الجوّ جناحيه وصاخٍ
عزّمتُ منك يا «حرب»^{٣٠} صِباحُ
في حياةٍ حُرّةٍ كيف النطاحُ
وجدوا الرُشدَ عليه والصّلاحُ
أكمّ الشام وهاتيك البطحُ

* * *

فارسَ الجوّ سلامٌ في الذّرا
ثبّ إلى النجمِ وزاحمٌ رُكنه
إنّ هذا الفتاحَ لا عهدَ به
تلك أبوابُ السماءِ انفتحت
أسماءُ النيلِ أيضًا حرّمٌ
وعلى الماءِ ومن كلّ النّواخِ
وامتلئ من خيلاءٍ ومِراحِ
لضفافِ النيلِ من عهدٍ «فتاح»
ما وراءَ البابِ يا طيرَ النّجاحِ
من طريقِ الهندِ أم جوّ مُباحِ

* * *

عينُ شمسٍ ملئت من موكبٍ
ربّما جلّ وجهَ الأرضِ أو
إن يفتّه الجيشُ أو روعتهُ
وفدى «فائزة» سُمُرُ القنا
ولقد أبطأت حتى لم ينم
فابتغى العُذرَ كرامٍ وانبرت
تلتوي الخيلُ على راكبها
ليس من يركبُ سرّجًا ليّنًا
سرّ رويدًا في فضاءٍ سافرٍ
طرفت عينًا به الشمسُ فلو
وتكاد الطيرُ من خفته
كان للأبطالِ أحيانًا يُتاح
ربّما سدّ على الشمسِ السّراحُ
لم يفتّه النّشأُ الزّهرُ الصّباحُ
وفدى حارسها بيضُ الصّفاحِ
للحمى ليلٌ ولم ينعم صباخُ
ألسنّ في الثّلمِ والهدمِ فصاخُ
كيف بالعاصفِ في يومِ الجِماخِ
مثّلَ من يركبُ أعرافَ الرّياحِ
ضاحكِ الصّفحةِ كالفرديوسِ صاخُ
خيّرتَ لم تتحفزَ للرّواخِ
تتعالى فيه من غيرِ جناخِ

^{٣٠} طلعت بك حرب مدير بنك مصر.

قِفْ تَأْمَلْ مِنْ عُلُوِّ قُبَّةٍ
نَزَلَ النُّوَابُ فِيهَا فِتْيَةٌ
رُفِعَتْ لِلْفَصْلِ والرَّأْيِ الصُّرَاخُ
فِي جَنَاحٍ وَشِيوْحًا فِي جَنَاحُ
كَرَعِيلِ الْخَيْلِ أَوْ صَفِّ الرِّمَاحُ
حَمَلُوا الْحَقَّ وَقَامُوا دُونَهُ

* * *

يَا أَبَا الْفَارُوقِ مَنْ تَرَعَى فَفِي
أَنْتَ مِنْ آبَائِكَ السُّحْبِ وَمَا
كَنَفِ الْفَضْلِ وَفِي ظِلِّ السَّمَاحِ
فِي بِنَاءِ السُّحْبِ الْأَيْدِي الشُّحَاخُ
يَذُكُ السَّمْحَةُ فِي الْخَيْرِ وَفِي
هَمَّةِ الْغَرَسِ وَفِي أَسْوِ الْجِرَاحُ
نَحْنُ أَفْلَحْنَا عَلَى الْأَرْضِ بِكُمْ
وَرَجَوْنَا فِي السَّمَوَاتِ الْفَلَاحُ

توت عنخ آمون والبرلمان

قُمْ سَابِقِ «السَّاعَةَ» وَاسْبِقْ وَعِذَّهَا
وَامْلَأْ رِمَاحًا غَوْرَهَا وَنَجِدَهَا
شَلَّالَهَا وَعَذْبَهَا وَعِذَّهَا^{٣١}
تِلْكَ الْوَجُوهُ لَا شَكُونَا فَقَدَهَا
سُلِّتَ مِنْ «وَادِي الْمُلُوكِ» فَازْدَهَى
وَاسْتَرْجَعَتْ دَوْلَتُهُ إِفْرِنْدَهَا
أَبْلَى ظُبَا الدَّهْرِ وَفَلَّ حَدَّهَا
سَافِرَ أَرْبَعِينَ قَرْنًا عِدَّهَا
إِنْجَلَّتْهَا وَجَيْشَهَا وَلُورَدَهَا
قَامَتْ عَلَى السُّودَانِ تَبْنِي سَدَّهَا
الْأَرْضُ ضَاقَتْ عَنْكَ فَاصْدَعْ غِمْدَهَا
وَأَفْتَحْ أَصُولَ النِّيلِ وَاسْتَرِدَّهَا
وَاصْرِفْ إِلَيْنَا جَزْرَهَا وَمَدَّهَا
بَيَّضْتَ الْقُرْبَى لَنَا مُسَوَّدَهَا
وَأَلَقْتَ الشَّمْسُ عَلَيْهِ رَأْدَهَا
أَبْيَضَ رِيَّانَ الْمُتُونِ وَرَدَّهَا
وَأَخْلَقَ الْعَصُورَ وَاسْتَجَدَّهَا
حَتَّى أَتَى الدَّارَ فَأَلْفَى عِنْدَهَا
مَسْلُولَةَ الْهِنْدِيِّ تَحْمِي هِنْدَهَا
وَرَكَّزَتْ دُونَ الْقَنَاةِ بِنْدَهَا^{٣٢}

* * *

فَقَالَ وَالْحَسْرَةَ مَا أَشَدَّهَا
لَيْتَ جِدَارَ الْقَبْرِ مَا تَدَّهَدَهَا^{٣٣}

^{٣١} العُدَّة: الماء الجاري له مادة لا تنقطع.

^{٣٢} البند: العلم.

^{٣٣} تدهده: انقضَّ وتدرج.

وليتَ عيني لم تُفارق رُقْدَها قُمْ نَبْنِي يا بنتئورُ ما دهَا^{٣٤}
مِصرُ فتاتي لم تُوقِرْ جَدَّها دَقْتُ وراءَ مَضْجعي جَارِبِنْدَها
وخلَطتْ ظِبَاءَها وأُسْدَها وسكَبَ الساقِي الطَّلَا وبَدَّها^{٣٥}
قد سَحَبْتَ على جلالِي بُرْدَها ليتَ جلالَ الموتِ كان صَدَّها

* * *

فقلتُ يا ماجِدَها وجَعَدَها^{٣٦} لو لم تَكْ ابْنَ الشمسِ كُنْتَ رِثْدَها^{٣٧}
لَحْدُكَ وَدَّتْهُ النجومُ لَحْدَها أَرَيْتَنَا الدنيا به وجَدَّها
سلطانَها وعَزَّها ورَغْدَها وكيف يُعْطَى المَتَّقونَ خُلْدَها
أثاركُم يُخْطِي الحِسابُ عَدَّها انهدَمَ الدهرُ ولم يَهْدَّها
أبوابُكَ اللَّاتِي قَصَدْنَا قَصْدَها «كَارْتَرُ» في وجْهِ الوَفودِ رَدَّها
لولا جُهوْدُ لا نريدُ جَحْدَها وحُرْمَةُ من قُرْبِكَ اسْتَمَدَّها
قلتُ لك اضْرِبْ يَدَهِ وَقْدَها وابْعَثْ له من البَعوضِ نُكْدَها

* * *

مِصرُ الفتاةُ بَلَغَتْ أَشَدَّها وأثَبَتَ الدَّمُ الزَكِيُّ رُشْدَها
ولعِبَتْ على الحَبالِ وَحْدَها وجَرَّبَتْ إِرْخاءَها وشَدَّها
فأرْسَلَتْ دُهاثَها وَلُدَّها^{٣٨} في الغَرْبِ سَدُّوا عِنْدَها مَسْدَها
وبعَثَتْ لِلْبِرْلَمَانِ جُنْدَها وحَشَدَتْ لِلْمِهْرِجَانِ حُشْدَها
حَدَّتْ إِلَيْهِ شَيْبَها ومُرْدَها وأَبْرَزَتْ كِعبَها وَخَوْدَها
ونَثَرَتْ فوقَ الطَرِيقِ ورْدَها واستَقْبَلَتْ فؤادَها ووفْدَها
مَوئِلَها وكهفَها ورِدَّها^{٣٩} وابنَ الذين قوِّمُوا مَقْدَها

^{٣٤} بنتئور: شاعرٌ مصريٌّ قديم.

^{٣٥} بدَّ الشيء: فرَّقَه، وهنا بمعنى أراقها.

^{٣٦} الجعد: الكريم.

^{٣٧} الرُّد: التَّرب.

^{٣٨} اللُد: الأشداء في الخصومة.

^{٣٩} الرُّد: العماد.

وَأَلْفُوا بَعْدَ انْفِرَاطٍ عِقْدَهَا وَجَعَلُوا صَحْرَاءَ لِيَبْيَا حَدَّهَا
وَبَسَطُوا عَلَى الْحِجَازِ أَيْدَهَا وَسَيَّرُوا الْعَاتِيَّ فِيهِ عِبْدَهَا
حَتَّى أَتَى الدَّارَ الَّتِي أَعَدَّهَا لِمَصْرَ تَبْنِي فِي ذَرَاهَا مَجْدَهَا
فَثَبَّتَ الشُّورَى وَشَدَّ عَقْدَهَا وَقَلَّدَ الْجَيْلَ السَّعِيدَ عَهْدَهَا
سُلْطَتُهُ إِلَى بَنِينَا رَدَّهَا
يَا رَبِّ قَوِّ يَدَهَا وَشُدَّهَا وَاَفْتَحْ لَهَا السُّبُلَ وَلَا تَسُدَّهَا
وَقَسْ لِكُلِّ خَطْوَةٍ مَا بَعْدَهَا وَعَنْ صَغِيرَاتِ الْأُمُورِ حُدَّهَا
وَاصْرِفْ إِلَى جِدِّ الشُّنُونِ جَدَّهَا وَلَا تُضِغْ عَلَى الضَّحَايَا جُهْدَهَا
وَاجْبَحْ هَوَى الْأَنْفَسِ وَاكْسِرْ حِقْدَهَا وَاجْمَعْ عَلَى الْأُمِّ الرِّعَومَ وَلَدَهَا
وَامْلَأْ بِالْبَيَانِ النَّبُوغَ نَهْدَهَا وَلَا تَدْعُهَا تُحِي مُسْتَبِدَّهَا
وَتَنْتَحِثْ بِرَاحَتِيهَا فَرْدَهَا

مَصْرَع اللُّورد كِتْشَنر

قَفْ بِهَذَا الْبَحْرِ وَانْظُرْ مَا غَمَزُ مَظْهَرَ الشَّمْسِ وَإِقْبَالَ الْقَمَرِ
وَاعْرِضِ الْمَوْجَ مَلِيًّا هَلْ تَرَى غَمْرَةً أَوَدَتْ بِخَوَاضِ الْغُمَرِ
أَخَذْتَ نَاحِيَةَ الْحَقِّ بِهِ وَسَبِيلَ النَّاسِ فِي خَالِي الْعُصْرِ
مَنْعَ اللَّبْثِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى فَلَكُ مَا لِعَصَاهُ مُسْتَقَرُّ
دَائِرُ الدُّوَلَابِ بِالنَّاسِ عَلَى جَانِبَيْهِ الْمُرْتَقَى وَالْمُنْحَدَرُ
نَقْضُ «الْإِيوَانِ» مِنْ آسَاسِهِ وَأَتَى «الْأَهْرَامَ» مِنْ أُمِّ الْحُجَرِ
وَمَحَا «الْحِمْرَاءَ»^{٤٠} إِلَّا عَمَدًا نَزَعُهَا مِنْ عَضْدِ الْأَرْضِ عَسَرُ
أَيْنَ «رُومِيَّةً» مَا قِصَرُهَا مَا لِيَا لِيَهَا الْمُرْنَاتُ الْوَتَرُ
أَيْنَ «وَادِي الطَّلَحِ»^{٤١} وَاللَّائِي بِهِ مِنْ دُمَى يَسْحَبْنَ فِي الْمِسْكِ الْحَبْرُ^{٤٢}

^{٤٠} الحمراء: قصرٌ عظيم بالأندلس.

^{٤١} وادي الطلح: مُنْتَزَعُهُ بِإِسْبِيلِيَّةَ لِلْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَاد.

^{٤٢} الحبر: جمع حبرة، وهي ضربٌ من بُرود اليمين.

شَنَّهَا الدهرُ عليه من غَيْرِ
نَمٍ طويلاً قد توسَّدتَ الزَّهْرُ
بَيْدَ أَنَّ الصِّلَٔ٤٣ في أصل الشجرِ
وقضاءُ الله يَأْتِي وَيَذُرُ
لك صافٍ وُدُّهُ بعدَ الكَدَرِ
أو تكن حرباً فقد فات الضَّرَرُ
أم كِتَابُ الدهرِ أم صُحُفُ القَدَرِ
قلمِ القدرةِ فيها ما سَطِرُ
والمسِ العبرة من بينِ الْفَقْرِ٤٤
آيةً جانبُهُ المُرْخَى السُّتُرُ
وجواري الدهرِ يَمْشِينَ الْخَمَرُ٤٥
في كنوزِ البحرِ مطروحِ الْكِسْرِ٤٦
نالهِ الفجرُ عِشاءً بالقِصَرِ
طالما أَوْحَتِ إليه فَأَتَمَرَ
في نهارِ الْفَرَقِ أو ليلِ الشَّعَرِ
بِرُفَاتِ السُّحْرِ أو فَلَ الْحَوَرِ٤٧
بينَ طِمٍّ وظلامٍ مُعْتَكِرِ٤٨
هكذا الدنيا إذا الموتُ حَضَرَ
ضاقَ عنكَ السَّعْدُ أو ضاقَ الْعُمُرُ
رحمةَ الْمَجِدِ وِرْفَقًا بِالْكَبَرِ

أَيْنَ «نَابِلِيُونُ» ما غاراتُهُ
أَيُّهَا السَّاكِنُ في ظِلِّ الْمُنَى
شَجَرٌ نَامٍ وَظِلٌّ سَابِغٌ
يَذُرُ المرءُ وَيَأْتِي ما اشتهى
كلُّ محمولٍ على النعشِ أَخُ
إن تكن سَلَمًا له لم ينتفع
راكِبُ الْبَحْرِ أَمْوَجُ ما ترى
لُجَّةً كـ «اللَّوْحِ» لا يُحصى على
فَتَلَقَّتْ وتَنَسَّمَ حكمةً
وتَأَمَّلْ مَلْعَبًا أعجَبُهُ
ها هنا تَمْشِي الجواري مَرْحًا
رُبَّ سيفٍ ضَرَبَ الْجَمْعُ به
وَنِجَادٍ لم يُطَاوَلْ ضَحْوَةً
وسفِينٍ أَمَرَ فيها الْبَلَى
ووجوهٍ ذَهَبَ الْمَاءُ بها
وعيونٍ سَاجِيَاتٍ سُجِّيتِ
قُلْ لِلَّيْلِ خُسْفُ الْغَيْلِ به
انظُرِ الْفُلْكَ أَمْنَهَا أَثَرُ
هذه مَنْزِلَةٌ لو زِدَتْهَا
فَامِضٌ شَيْخًا في هوى الْمَجْدِ قَضَى

٤٣ الصِّلُ: الثَّعْبَانُ.

٤٤ الْفَقَرُ: كُلُّ كَلَامٍ مَخْتَارٍ، نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا.

٤٥ يَمْشِي الْخَمَرُ: جَمْلَةٌ تَقَالُ لِمَنْ يَخْتَلِ صَاحِبِهِ.

٤٦ الْكِسْرُ: جَمْعُ كَسْرَةٍ، وَهِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الشَّيْءِ.

٤٧ الْفُلُ: الْكِسْرُ فِي حَدِّ السَّيْفِ.

٤٨ الطِمُّ: الْبَحْرُ.

مَيْتَةً لَمْ تَلَقَ مِنْهَا عَلَازًا^{٤٩} من وَقَارِ اللَّيْثِ أَلَا يُحْتَضَرُ

* * *

أَنْتُمْ الْقَوْمُ حِمَى الْمَاءِ لَكُمْ
لُجْجُ الدَّامَاءِ أَوْطَانُ لَكُمْ
لَسْتُ فِي الْبَحْرِ وَحِيدًا فَاسْتَضِفُّ
رَسَبُوا فِيهِ كِرَامًا وَطَفَا
يَرْجِعُ الْوَرْدُ إِلَيْكُمْ وَالصَّدَرُ
وَمِنَ الْأَوْطَانِ دُورٌ وَحُفَرُ
فِيهِ أَبَاءُكَ تَنْزِلُ بِالْدَّرَرِ
طَائِفُ النُّصْرِ عَلَيْهِمُ وَالظَّفَرُ

* * *

نَشَأَ «النَّيْلُ» إِلَيْكُمْ سِيرَةً
اقْرَءُوهَا يُكْشِفُ الْعَصْرُ لَكُمْ
لَا تَقُولُوا شَاعِرُ الْوَادِي غَوَى
مَوْقِفُ التَّارِيخِ مِنْ فَوْقِ الْهَوَى
لَيْسَ مِنْ مَاتَ بِخَافٍ عَنْكُمْ
شَدْتُمْ دَنِيَاهُ فِي أَحْسَنِهَا
وَبَنَى مَمْلَكَةَ النُّوبِ بِكُمْ
وَاحْذَرُوا مِنْ قِسْمَةِ النَّيْلِ فَيَا
لَكُمْ فِيهَا عِظَاتٌ وَعَبَزَ
كُلُّ عَصِرٍ بِرَجَالٍ وَسِيرَ
مَنْ يُغَالِطُ نَفْسَهُ لَا يَعْتَبِرُ
وَمَقَامُ الْمَوْتِ مِنْ فَوْقِ الْهَذَرِ
أَوْ قَلِيلِ الْفَعْلِ فِيكُمْ وَالْأَثَرُ
غَزْوَةَ السُّودَانِ وَالْفَتْحَ الْأَعْرَ
فَاذْكُرُوا الْقَتْلَى وَلَا تَنْسُوا الْبَدْرَ^{٥٠}
ضَيْعَةَ الْوَادِي إِذَا النَّيْلُ شَطِرُ

* * *

رَجُلٌ لَيْسَ ابْنُ «قَارُونَ» وَلَا
لَيْسَ بِالزَّآخِرِ فِي الْعِلْمِ وَلَا
رَضَعَ الْأَخْلَاقَ مِنْ أَلْبَانِهَا
وَرَأَاهَا صُورَةً فِي أُمَّةٍ
ذَلِكَ الْمَجْدُ وَهَذَا سَبِيلُهُ
أَبْعَدَ السَّاعُونَ يَبْغُونَ الْمَدَى
كَجِيَادِ السَّبْقِ لَنْ تُغْنِيَهَا
بَابِنُ «عَادِيٍّ» مِنَ الْعَظَمِ النَّخِرُ
هُوَ يَنْبُوعُ الْبَيَانِ الْمُنْفَجِرُ
إِنْ لِلْأَخْلَاقِ وَقَعًا فِي الصُّغَرِ
وَمِنَ الْقُدُورَةِ مَا تُوحِي الصُّورُ
بَيْنَ فِيهَا سَبِيلِ الْمُعْتَذِرِ
وَالْمَدَى فِي الْمَجْدِ دَانَ لِنَفَرِ
أَدَوَاتِ السَّبْقِ مَا تُغْنِيهِ الْفِطَرُ

^{٤٩} العِلْزُ: القَلْقُ والهَلْعُ مِنَ الْمَوْتِ.

^{٥٠} الْبَدْرُ: جَمْعُ بَدْرَةٍ، وَهِيَ عَشْرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ.

* * *

وَجَنَاحُ السَّلَمِ إِلَّا أَنَهَا
 مِنْ حَدِيدٍ جَانِبَاهَا سَابِغٌ
 أَشْبَهَتْ أَفْوَاهُهَا أَعْجَازَهَا
 أَرْهَفَتْ سَمْعَ الْعَصَا^{٥١} وَاکْتَحَلَتْ
 وَتَوَدَّى الْقَوْلَ لَا يَسْبِقُهَا
 خَطَرَتْ فِي مَحْجَرِهَا وَمَشَتْ
 غَابَةً تَجْرِي بِسُلْطَانِ الشَّرَى
 وَإِذَا الْمَوْتُ إِلَى النَّفْسِ مَشَى
 رَبٌّ ثَاوٍ فِي الظُّبَا مُمْتَنِعٌ
 تَسْحَبُ الْفُلُودَ فِي مُلْتَطِمٍ
 لَوْ أَشَارَتْ جَاءَهَا سَاجِلُهُ
 أَوْ فَدَى الْمَيِّتَ حَيٌّ فُديَتْ
 بَعَثَ الْبَحْرُ بِهَا كَالْمَوْجِ مِنْ
 لَمَسَتْهَا لِلْمَقَادِيرِ يَدٌ
 ضَرَبَتْهَا وَهِيَ سَرٌّ فِي الدُّجَى
 وَجَفَتْ قَلْبًا وَخَارَتْ جُؤْجُؤًا
 طُعِنَتْ فَانْبَجَسَتْ فَاسْتَصْرَحَتْ

سَاعَةَ الرَّوْعِ جَنَاحٌ مِنْ سَقَرِ
 رِبَاضِ الْمَوْتِ عَلَيْهِ وَفَعَرُ
 قُنْفُذٍ فِي الْيَمِّ مَشْرُوعُ الْإِبْرُ
 إِثْمَدَ الزَّرْقَاءُ^{٥٢} فِي عَرْضِ السَّدَرِ^{٥٣}
 رُسُلُ الْأَرْوَاحِ فِي نَقْلِ الْفِكْرِ
 بَعِیُونَ الْمَلِكِ فِي بَحْرِ وَبَرٍ
 خَادِرًا فِي أَلْفِ نَابٍ وَظُفْرٍ^{٥٤}
 وَرَكِبَتْ النُّجْمَ بِالْمَوْتِ عَثَرُ
 سَلَّهُ الْمِقْدَارُ مِنْ جَفَنِ الْحَذَرِ
 بِالْعَوَادِي مُتَعَالٍ مُعْتَكِرُ
 فِي حَدِيدٍ وَعَدِيدٍ مُنْتَصِرُ
 بَوْقَاحٍ فِي الْجَوَارِي وَخَفِرُ^{٥٥}
 لُجَجِ السَّنْدِ وَخُلْجَانِ الْخَزَرِ^{٥٦}
 تَلْمِسُ الْمَاءَ فَيَرْمِي بِالشَّرَرِ
 لَيْسَ دُونَ اللَّهِ تَحْتَ اللَّيْلِ سِرٍ
 وَنَزَتْ جَنْبًا وَنَاءَتْ مِنْ أُخَرِ
 فَاتَاهَا حَيْنُهَا فَهِيَ خَبَرُ^{٥٧}

^{٥١} العصا: الفرس المشهورة التي ورد ذكرها في مصرع الزَّبَاءِ، وقد كانت لقصير الذي يقول فيه المثل:

«لَأْمُرَ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ.»

^{٥٢} وهي زرقاء اليمامة المشهورة بقوة البصر.

^{٥٣} السَّدَر: البحر.

^{٥٤} الخادر: كناية عن أسد، يقال أسد خادر: مقيم في خدره.

^{٥٥} الوقاح: ذو الوقاحة، يقال امرأة وقاح الوجه.

^{٥٦} بحر الخزر: هو بحر قزوين، والخزر أيضا: جيل من الناس.

^{٥٧} الحَيْن: الهلاك.

البرلمان

على أثر ائتلاف الأحزاب

ولكلّ أمر غايةً وقراراً
فَلَكْ بَكْلٌ فُجَاءَةٌ دَوَّارُ
لا النقصُ يُعْجِزُهُ ولا الإمرارُ
وهل استجاب فسألمَ المقدارُ
لم يعترضها في الفصولِ ستارُ
وعَدَتْ فما حَوَتْ المدى الأوطارُ
خطواتُ شعبٍ في القتادِ تُسَارُ
سُورُ ومن عِلِمِ الزمانِ إطارُ
أصلٌ ومن أدبِ البلادِ نِجارُ

سكن الزمانُ ولانت الأقدارُ
أَرْخَى الأَعْنَةَ للخطوبِ ورَدَّهَا
يجري بأمرٍ أو يدورُ بضدِّهِ
هل أذْنتنا الحادثاتُ بهدنةٍ
سُدِلَ السَّتَارُ وهل شهدت رِوايةً
وجَرَتْ فما استولَتْ على الأمدِ المُنَى
دُونَ الجلاءِ ودونِ يانِعِ وَرِدِهِ
وَبِنَاءِ أخلاقٍ عليه من النُّهى
وحضارةٍ من منطقِ الوادي لها

* * *

مُسْتَهْتَرِينَ إلى الجرائمِ ساروا
إِنَّ العقائدِ بِالْغُلُوِّ تُضَارُ
من أن يكونَ رسولُه الإضرارُ
بالريفِ ما يدرون ما السُّردارُ
فيها وَلُطَخَ بالدمِ الأبرارُ
حتى انجَلَتْ غَمَمٌ لها وَغَمَارُ
لَيْنَ الحديدِ مَشَتْ عليه النارُ
والعزُّ لِلدستورِ والإكبارُ
فيه ولا يَطْغَى به جَبَّارُ
والخيرُ ما تقضي وما تختارُ
أصَالُهُ واخضَلَّتْ الأسْحَارُ
ولكلِّ جهدٍ في الحياةِ ثمارُ
وَبَيْنَ لَمْ يَجِدُوا السِّلَاحَ فَنَارُوا
ومن المَشَانِقِ والسجونِ جدارُ

أَعْمَى هوى الوطنِ العزيزِ عصابةً
يا سوءَ سُنَنِهِمْ وَقُبْحَ غُلُوِّهِمْ
والحقُّ أَرْفَعُ مِلَّةً وَقَضِيَّةً
أُخِذَتْ بِذَنبِهِمِ البلادُ وَأُمَّةُ
في فتنةٍ خَلِطَ البريُّ بِغَيْرِهِ
لِقِي الرِّجَالِ الحادثاتِ بصبرِهِمْ
لأنوا لها في شدةٍ وصلابةٍ
الحقُّ أَبْلَجُ والكنانةُ حُرَّةُ
الأمرُ شورى لا يَعِيْثُ مُسَلِّطُ
إن العنايةَ للبلادِ تَخِيَّرَتْ
عهدُ من الشورى الظِّلِيلَةِ نُضِرَتْ
تجني البلادُ به ثمارَ جهودِها
بُنْيَانُ آبَاءِ مَشَوْا بِسِلَاحِهِمْ
فيه من التَّلِّ المُدْرَجِ حائِطُ

أَبَتَ التَّقِيْدَ بِالْهَوَى وَتَقَيَّدَتَ
 فِي مَجْلِسٍ لَا مَالُ مِصْرَ غَنِيْمَةً
 مَا لِلرِّجَالِ سِوَى الْمَرَاشِدِ مِنْهَجٌ
 يَتَعَاوَنُونَ كَأَهْلِ دَارٍ زُلْزَلَتْ
 يُجْرُونَ بِالرَّفَقِ الْأُمُورَ وَفُلُكَهَا
 وَمَعَ الْمُجَدِّدِ بِالْأَنَاءِ سَلَامَةً
 الْأُمَّةُ اتَّخَذَتْ وَرَصَّ بِنَاءَهَا
 أَسَدٌ وَرَاءَ السِّنِّ مَعْقُودُ الْحُبِّ
 كَهْفُ الْقَضِيَّةِ لَا تَنَامُ نِيَابُهُ
 يَوْمَ الْخَمِيْسِ وَرَاءَ فَجْرِكَ لِلْهَدَى
 مَا أَنْتَ إِلَّا فَارِسِيٌّ لَيْلُهُ
 بَكَرَتْ تَزَاجُمُ مَهْرَجَانِكَ أُمَّةٌ
 وَرَوَى مَوَاكِيبُ الزَّمَانُ لِأَهْلِهِ
 أَقْبَلَتْ بِالدُّسْتُورِ أُبْلَجَ زَاهِرًا
 وَدُؤَابَةُ الدُّنْيَا تَرَفُّ حَدَاثَةً
 يَحْمِي لَفَائِقَهُ وَيَحْرُسُ مَهْدَهُ
 وَكَأَنَّهُ عَيْسَى الْهَدَى فِي مَهْدِهِ
 التَّاجُ فَضَّلَ فِي سَمَائِكَ بِالضُّحَى
 يَكْسُو مِنَ الدُّسْتُورِ هَامَةً رَبِّهِ
 بِالْحَقِّ يَفْتَحُ كُلُّ هَادٍ مُصْلِحٍ

* * *

وطني لديك وأنتَ سمحٌ مُفْضِلٌ
 تُنْسَى الذُّنُوبُ وَتُذَكَّرُ الْأَعْدَاؤُ
 بوزارةٍ تُمَحِي بِهَا الْأَوْزَارُ
 تابَ الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْ هَفَوَاتِهِ

وقال وقد أُلْقِيَتْ فِي حَفْلَةٍ نِسَائِيَّةٍ عَظِيمَةٍ انْعَقَدَتْ بِدَارِ التَّمْثِيلِ الْعَرَبِيِّ بِرِئَاسَةِ السَّيِّدَةِ
 هدى شعراوي:

قُلْ لِلرِّجَالِ طَغَى الْأَسِيرُ طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطِيرُ

أَوْهَى جَنَاحِيهِ الْحَدِيدَ ذُ وَحَزَّ سَاقِيهِ الْحَرِيرَ
 زَهَبَ الْجَبَابُ بِصَبْرِهِ وَأَطَالَ حَيْرَتَهُ السُّفُورَ
 هَلْ هُيِّئَتْ دَرَجُ السَّمَاءِ ٥٨ لَهُ وَهَلْ نَصَّ الْأَثِيرَ
 وَهَلْ اسْتَمَرَّ بِهِ الْجَنَّا حُ وَهَمَّ بِالنَّهْضِ الشَّكِيرَ^{٥٨}
 وَسَمَا لِمَنْزِلِهِ مِنَ الدِّ نِيَا وَمَنْزَلُهُ خَطِيرَ
 وَمَتَى تُسَاسُ بِهِ الرِّيَّا ضُ كَمَا تُسَاسُ بِهِ الْوُكُورَ
 أَوْكَلُ مَا عِنْدَ الرَّجَا لَ لَهُ الْخَوَاطِبُ وَالْمَهُورَ
 وَالسَّجَنُ فِي الْأَكْوَاحِ أَوْ سَجَنُ يُقَالُ لَهُ الْقُصُورَ

* * *

تَالِلُهُ لَوْ أَنَّ الْأَدْيَا سَمَ جَمِيعَهُ رَوْضَ وَنُورَ
 فِي كُلِّ ظِلٍّ رِبْوَةٌ وَبِكُلِّ وَارْفَةٍ غَدِيرَ
 وَعَلَيْهِ مِنْ زَهَبٍ سِيَا جُ أَوْ مِنَ الْيَاقُوتِ سُورَ
 مَا تَمَّ مِنْ دُونَ السَّمَاءِ ٥٩ لَهُ عَلَى الْأَرْضِ الْحُبُورَ
 إِنْ السَّمَاءُ جَدِيرَةٌ بِالطَّيْرِ وَهُوَ بِهَا جَدِيرَ
 هِيَ سَرَجُهُ الْمَشْدُودُ وَهُوَ وَ عَلَى أَعْنَتِهَا أَمِيرَ
 حُرِّيَّةٌ خُلِقَ الْإِنَا ثُ لَهَا كَمَا خُلِقَ الذُّكُورَ

* * *

هَاجَتِ بَنَاتِ الشُّعْرِ عَيَا نُنَّ مِنْ بَنَاتِ النَّيْلِ حُورَ
 لِي بَيْنَهُنَّ وَلَائِدُ هَمَّ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ نُورَ
 لَا الشُّعْرُ يَأْتِي فِي الْجَمَا نَ بِمِثْلِهِنَّ وَلَا الْبَحُورَ
 مِنْ أَجْلِهِنَّ أَنَا الشَّفِيءُ قُ عَلَى الدُّمَى وَأَنَا الْغَيُورَ
 أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ سَتَجِدَ رِي بِالَّذِي شَتَنَ الْأُمُورَ

* * *

يَا قَاسِمُ انْظُرْ كَيْفَ سَا رَ الْفَكْرُ وَانْتَقَلَ الشُّعُورَ

^{٥٨} الشكير: صغار الريش بين كبارها.

جابت قضيتك البلا
ما الناس إلا أول
الفكر بينهما على
هذا البناء الفخم ليد
إن التي خلفت أم
نهض الحفي بشائها
في ذمة الفضلى هدى
أقبلن يسألن الحضا
ما السبل بينة ولا

د كأنها مثل يسير
يمضي فيخلفه الأخير
بعد المزار هو السفير
س أساسه إلا الحفير
س وما سواك لها نصير
وسعى لخدمتها الظهير
جيل إلى هاد فقير
رة ما يفيد وما يضير
كل الهداة بها بصير

* * *

ما في كتابك ظفرة
هذبته حتى استقا
ووضعته وعلمت أن
لك في مسائله الكلا
ولك البيان الجدل في
في مطلب حشن كثي
ما بالكتاب ولا الحديد
حتى لنسأل هل تغا
عشرون عاماً من زوا
رعن النساء وقد يرو
فنسين أنك كالبدو
تفنى السنون بها وما

تنعى عليك ولا غرور
مت من خلائقك السطور
حساب واضعه عسير
م العف والجل الوقور
أثنائه العلم الغزير
ر في مزالقه العثور
ث إذا ذكرتهما نكير
ر على العقائد أم تغير
لك ما هي الشيء الكثير
ع المشفق الجلل اليسير
ر ودون رفعتك البدور
آجالها إلا شهور

* * *

لقد اختلفنا والمعا
في الرأي ثم أهاب بي
ومحا الرواح إلى مغا
في الرأي تضطغن العقو

شر قد يخالفه العشير
وبك المنادى والسّمير
ني الود ما اقتترف البُكور
ل وليس تضطغن الصدور

* * *

قُلْ لِي بَعِيشِكَ أَيْنَ أَنْدُ
أَيْنَ الْإِمَامُ وَأَيْنَ إِسْمُ—
لَمَّا نَزَلْتُمْ فِي الثَّرَى
عَصْرُ الْعَبَاقِرَةِ النُّجُورِ
سَتَ وَأَيْنَ صَاحِبُكَ الْكَبِيرِ
سَمَاعِيلُ وَالْمَلَأُ الْمُنِيرِ
تَاهَتْ عَلَى الشُّهُبِ الْقُبُورِ
مِنْ بَنُورِهِ تَمْشِي الْعُصُورِ

تكریم حسنین بك بمناسبة طيرانه

جُنْ عَلَى حَرَمِ السَّمَاءِ أَغَارُوا
مِنْ كُلِّ أَهْوَجَ فِي الْهَوَاءِ عِنَانُهُ
يَبْغِي حِجَابَ الشَّمْسِ يَطْلُبُ عِنْدَهَا
لَمْ يَبْقَ مِنْهُ وَمِنْ حَضَارَةِ عَهْدِهِ
وَمَقَالَةُ الْأَجْيَالِ لَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ
أَمْ فَتِيَّةٌ رَكَبُوا الْجَنَاحَ فَطَارُوا
هُوجُ الرِّيحِ وَسَرَجُهُ الْإِعْصَارُ
عَزَا تَحَمَّلَهُ الْجُدُودُ وَسَارُوا
إِلَّا صَوَى مُحْجُوجَةٍ وَمَنَارِ
بَانَ وَلَمْ يُدْرِكْهُمْ حَقَّارِ

* * *

طَلَعُوا عَلَى الْوَادِي بِرَايَةِ عَصْرِهِمْ
اِثْنَانِ ثُمَّ تَرَى النُّسُورَ كَثِيرَةً
سِرُّ النِّجَاحِ وَرُكْنُ كُلِّ حَضَارَةٍ
نُسِخَتْ بِأَبْطَالِ السَّمَاءِ بِطُولَةٍ
هَذَا زَمَانُ لَا الْأَعْنَةَ مَنْزِلُ
مَا الْبَاسُ إِلَّا مِنْ جَنَاحِي خَاطِفِ
أَتَرَى السَّلَامَةَ فِي السَّمَاءِ وَظَلَّهَا
حَرَمُ الْهَدْيِ وَالْحَقُّ رِيْعَ جَلَالِهِ
يَا جَائِبَ الصَّحْرَاءِ مِلْءُ سَرَابِهَا
يَكْفِيكَ مِنْ هِمَمِ الشَّجَاعَةِ لَيْلَةٌ
لَمَّا اعْتَمَدَتْ عَلَى الْجَنَاحِ تَلَفَّتَتْ
فِي كُلِّ صَحْرَاءٍ وَكُلِّ تَنْوُفَةٍ
«حَسَنِينَ» لَوْ لَمْ يَعْدِرُوكَ لِبَادَرَتْ
وَلَكُلِّ عَصْرٍ رَايَةٌ وَشِعَارِ
مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ لَهَا أَوْكَارِ
هِمَمٌ مِنَ الْمَتَطَوِّعِينَ كِبَارِ
فِي الْأَرْضِ يُوشِكُ رُكْنُهَا يَنْهَارِ
لِلْبَاسِ فِيهِ وَلَا الْأَسِنَّةُ دَارِ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ اسْمُهُ الطَّيَّارِ
أَمْ بِالسَّمَاءِ يَصُولُ الْاِسْتِعْمَارِ
وَعَدَا وَرَاحَ بِجَانِبِيهِ دِمَارِ
عَرَزٌ وَمِلْءُ تُرَابِهَا أَخْطَارِ
لَكَ مِنْ غَوَائِلِهَا خَلَتْ وَنَهَارِ
بَيْدٌ وَقَلَّبتِ الْعَيُونَ قِفَارِ
أَرْضٌ عَلَيْكَ مِنَ السَّمَاءِ تَغَارِ
لَكَ مِنْ لِسَانِ جِرَاحِكَ الْأَعْذَارِ

للهِ سِرْجُكَ فِي السَّمَاءِ فَإِنَّهُ
عَرَضَ الْخُسُوفُ لَهُ فَمَا أَرَزَى بِهِ
أَوَّلَمَ تَطَأَ أَرْضَ السَّمَاءِ وَلَمْ تَدُرْ
أَلْقَى أَبُو الْفَارُوقِ نَحْوَكَ بِأَلْهِ
مَلِكُ رُحِمَتِ بَقْرِيهِ وَجِوَارِهِ
سِرْجُ الْأَهْلَةِ مَا عَلَيْهِ غُبَارُ
مَا فِي الْخُسُوفِ عَلَى الْأَهْلَةِ عَارُ
حَيْثُ الشَّمْسُ تَدُورُ وَالْأَقْمَارُ
وَتَشَاغَلَتْ بِكَ أُمَّةٌ وَدِيَارُ
حَتَّى كَأَنَّكَ لِلْعَنَايَةِ جَارُ

* * *

نُصِبَ السُّرَادِقُ وَالْمَطَارُ وَحَلَّقَتْ
فَلَمَسَتْ أَقْصِيَةَ السَّمَاءِ وَأَسْفَرَتْ
قَدَرٌ عَلَى يُمْنَى يَدَيْهِ سَلَامَةٌ
فَإِذَا سَقَطَتْ عَلَى حَدِيدٍ مُضْرَمٍ
مَاذَا لَقِيَتْ مِنَ النِّجَائِبِ كُلِّهَا
هَذِي تَعَثَّرُ فِي الزَّمَامِ وَتَلِكُ لَا
فَشَلُّ يُعْظَمُ كَالنِّجَاحِ عَلَيْهِ مِنْ
لَوْ لَمْ يَكُنْ قَتْلَى وَجَرَحَى فِي الْوَغَى
فِي الْجَوِّ تَلِمَسُ شَخْصَكَ الْأَبْصَارُ
حَتَّى نَظَرَتْ وَجُوهَهَا الْأَقْدَارُ
لَكَ حَيْثُ مِلَتْ وَفِي السَّمَاءِ عِثَارُ
صَدَفَ الْحَدِيدُ وَلَمْ تَنَلِكِ النَّارُ
قُلْ لِي أَعِنْدَكَ لِلنِّجَائِبِ ثَارُ
تَمْضِي وَأُخْرَى فِي السُّلُوكِ تَحَارُ
شَرَفِ الْجُرُوحِ وَنُورِهَا فَخَارُ
لَمْ يَعْلُ هَامَ الظَّافِرِينَ الْغَارُ

صقر قريش (عبد الرحمن الداخل)

موشح أندلسي

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى^{٥٩} أَلَمَا
حَنَّ لِلْبَانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا
بَرَّحَ الشُّوقُ بِهِ فِي الْغَلَسِ
أَيْنَ شَرَقَ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَلِسِ

* * *

بُلْبُلٌ عَلَّمَهُ الْبَيْنُ الْبَيَانُ
فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ مَخْلُوعَ الْعِنَانُ
بَاتَ فِي حَبْلِ الشُّجُونِ ارْتَبَكَ
ضَاقَتْ الْأَرْضُ عَلَيْهِ شَبَكَ
كَلِمَا اسْتَوْحَشَ فِي ظِلِّ الْجِنَانُ
جُنَّ فَاسْتَضَحَكَ مِنْ حَيْثُ بَكَ

^{٥٩} يَتَنَزَّى: يَتَوَثَّبُ.

ارتدى بُرنسَه وألتئما وخطا خطوة شيخ مُرْعِس^{٦٠}
ويُرى ذا حَدَبٍ إن جئما فإن ارتدَّ بدا ذا قَعَسِ^{٦١}

* * *

فَمُه القاني على لَبَّتِه كبقايا الدم في نَصَلٍ دَقِيقٍ
مدَّه فانشقَّ من مَنبِتِه مَنْ رأى شَقِيٍّ مَقْصٍّ مِنْ عَقِيقٍ
وبكى شَجْوًا على شَعْبَتِه شَجَوَ ذَاتِ الثُّكُلِ فِي السِّتْرِ الرَقِيقِ
سَلَّ مِنْ فِيهِ لِسَانًا عَنَمًا^{٦٢} ماضيًا في البثِّ لم يَحْتَبِسِ
وَتَرَّ مِنْ غَيْرِ ضَرْبٍ رَنَّمَا فِي الدُّجَى أَوْ شَرَّرَ مِنْ قَبَسِ

* * *

نَفَرَتْ لَوَعُتُه بَعْدَ الْهُدُوءِ والدُّجَى بَيْتُ الْجَوَى وَالْبُرْحَا
يَتَعَايَا بِجَنَاحٍ وَيَنُوءُ بِجَنَاحٍ مُذْ وَهَى مَا صَلَحَا
سَاءَ الدَّهْرُ وَمَا زَالَ يَسُوءُ مَا عَلَيْهِ لَوْ أَسَا مَا جَرَحَا
كَلَّمَا أَدْمَى يَدَيْهِ نَدَمًا سَالَتَا مِنْ طَوَقِهِ وَالْبُرْنُسِ
فَنِيَتْ أَهْدَابُهُ إِلَّا دَمَا قَامَ كَالْيَاقُوتِ لَمْ يَنْبَجْسِ^{٦٣}

* * *

مَدَّ فِي اللَّيْلِ أَنْيَنًا وَخَفَقَ خَفَقَانَ الْقُرْطِ فِي جُنْحِ الشَّعَرِ
فَرَعَتْ مِنْهُ النَّوَى غَيْرَ رَمَقٍ فَضْلَةَ الْجُرْحِ إِذَا الْجُرْحُ نَغَرُ^{٦٤}
يَتَلَاشَى نَزَوَاتٍ فِي حُرْقٍ كَذْبَالٍ آخَرَ اللَّيْلِ اسْتَعَزُ
لَمْ يَكُنْ طَوْقًا وَلَكِنْ ضَرَمَا مَا عَلَى لَبَّتِه مِنْ قَبَسِ
رَحْمَةُ اللَّهِ لَهُ هَلْ عَلِمَا أَنَّ تِلْكَ النَّفْسَ مِنْ ذَا النَّفْسِ

^{٦٠} المرعس: من رعى الرجل، إذا مشى مشيًا ضعيفًا من الإعياء.

^{٦١} القعس: ضد الحدب، وهو نتوء الصدر.

^{٦٢} العنم: شجرة حجازية لها ثمرة حمراء يُشَبَّه بها البنان المخضوب.

^{٦٣} لم ينبجس: لم يتفجر.

^{٦٤} يقال: جرح نغار؛ أي جِئاش بالدم.

* * *

قَلْتُ لِلَّيْلِ وَلِلَّيْلِ عَوَاذُ	مَنْ أَخُو الْبَيْتِ فَقَالَ ابْنُ فِرَاقُ
قَلْتُ مَا وَادِيهِ قَالَ الشَّجْوُ وَادُ	لَيْسَ فِيهِ مِنْ حِجَازٍ أَوْ عِرَاقُ
قَلْتُ لَكِنْ جَفَنُهُ غَيْرُ جَوَاذُ	قَالَ شَرُّ الدَّمْعِ مَا لَيْسَ يُرَاقُ
نَغْبِطُ الطَّيْرَ وَمَا نَعْلَمُ مَا	هِيَ فِيهِ مِنْ عَذَابٍ بَئِيسُ
فَدَعَ الطَّيْرَ وَحِظًا قُسِمَا	صَيَّرَ الْأَيْكَ كَدُورِ الْأَنْسِ

* * *

نَاخَ إِذْ جَفَنَايَ فِي أَسْرِ النُّجُومِ	رَسَفَا فِي السُّهْدِ وَالْدَّمْعِ طَلِيقُ ^{٦٥}
أَيُّهَا الصَّارُخُ مِنْ بَحْرِ الْهَمُومِ	مَا عَسَى يُغْنِي غَرِيقُ عَنْ غَرِيقُ
إِنْ هَذَا السَّهْمُ لِي مِنْهُ كُلوْمُ	كَلُّنَا نَازِحُ أَيْكَ وَفَرِيقُ
قَلْبِ الدُّنْيَا تَجِدُهَا قِسْمَا	صُرِّقَتْ مِنْ أَنْعَمٍ أَوْ أَبْوَسِ
وَانْظُرِ النَّاسَ تَجِدُ مِنْ سَلِمَا	مِنْ سَهَامِ الدَّهْرِ شَجَّتَهُ الْقِسَى

* * *

يَا شَبَابَ الشَّرْقِ عُنْوَانَ الشَّبَابِ	ثَمَرَاتِ الْحَسَبِ الزَّاكِي النَّمِيرُ
حَسْبُكُمْ فِي الْكَرَمِ الْمَحْضِ اللَّبَابِ	سِيرَةٌ تَبْقَى بَقَاءَ ابْنِي سَمِيرُ ^{٦٦}
فِي كِتَابِ الْفَخْرِ لـ «الِدَاخِلِ» ^{٦٧} بَابُ	لَمْ يَلْجِهْ مِنْ بَنِي الْمُلْكِ أَمِيرُ
فِي الشَّمُوسِ الزُّهْرِ بِالشَّامِ انْتَمَى	وَنَمَى الْأَقْمَارَ بِالْأَنْدَلُسِ
قَعْدَ الشَّرْقِ عَلَيْهِمْ مَاتَمَا	وَانْتَنَى الْغَرْبُ بِهِمْ فِي عُرْسِ

* * *

هَلْ لَكُمْ فِي نَبَأٍ خَيْرِ نَبَأُ	حَلِيَّةِ التَّارِيخِ مَأْثُورٍ عَظِيمُ
حَلَّ فِي الْأَنْبَاءِ مَا حَلَّتْ سَبَأُ	مَنْزَلِ الْوَسْطَى مِنَ الْعِقْدِ النَّظِيمُ

^{٦٥} رسف: مثنى مشية المقيّد.

^{٦٦} ابني سمير: الليل والنهار.

^{٦٧} هو عبد الرحمن الداخل أول ملوك بني أمية في الأندلس.

مِثْلَهُ الْمِقْدَارُ يَوْمًا مَا خَبَأُ
يُعِجْزُ الْقُصَّاصُ إِلَّا قَلَمًا
يُؤَثِّرُ الصَّدَقَ وَيَجْزِي عِلْمًا
لِسَلِيبِ التَّاجِ وَالْعَرْشِ كَظِيمٍ
فِي سَوَادٍ مِنْ هَوًى لَمْ يُغْمَسِ
قَلْبَ الْعَالَمِ لَوْ لَمْ يُطْمَسِ

* * *

عَنْ عِصَامِيٍّ نَبِيلٍ مُعْرِقٍ
نَهَضَتْ دَوَلَّتُهُمْ بِالْمَشْرِقِ
ثُمَّ خَانَ التَّاجُ وَدَّ الْمَفْرِقِ
غَفَلُوا عَنْ سَاهِرٍ حَوْلَ الْجَمَى
حَامَ حَوْلَ الْمُلْكِ ثُمَّ اقْتَحَمَا
فِي بُنَاةِ الْمَجْدِ أَبْنَاءَ الْفَخَارِ
نَهَضَتْ الشَّمْسُ بِأَطْرَافِ النَّهَارِ
وَنَبَتْ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرُ الدِّيَارِ
بَاسِطٍ مِنْ سَاعِدَيِّ مُفْتَرِسٍ
وَمَشَى فِي الدِّمِ مَشْيَ الضَّرِسِ

* * *

ثَارُ عَثْمَانَ لِمَرْوَانَ مَجَازُ
حَسَّنُوا لِلشَّامِ ثَارًا وَالْحِجَازُ
مَكْرُ سُوَاسٍ عَلَى الدَّهْمَاءِ جَارُ
جَعَلُوا الْحَقَّ لِبَغْيٍ سُلَّامًا
وَقَدِيمًا بِاسْمِهِ قَدْ ظَلَمَا
وَدَمَ السَّبِيطُ^{٦٨} أَثَارَ الْأَقْرَبُونَ
فَتَغَالَى النَّاسُ فِيمَا يَطْلُبُونَ
وَرِعَاءُ بِالرِّعَايَا يَلْعَبُونَ
فَهُوَ كَالسَّتْرِ لَهُمُ وَالتُّرْسِ
كُلُّ نِيٍّ مِئْذَنَةٍ أَوْ جَرَسِ

* * *

جُزِيَتْ مَرْوَانَ^{٦٩} عَنْ أَبَائِهَا
وَمِنْ النِّفْسِ وَمِنْ أَهْوَائِهَا
خَلَّتِ الْأَعْوَادُ مِنْ أَسْمَائِهَا
ظَلَمَتْ حَتَّى أَصَابَتْ أَظْلَمًا^{٧٠}
فَطِنَّا فِي دَعْوَةِ الْإِلِّ لَمَّا
مَا أَرَاقُوا مِنْ دَمَاءٍ وَدُمُوعُ
مَا يُؤَدِّيهِ عَنِ الْأَصْلِ الْفُرُوعُ
وَتَغَطَّتْ بِالمَصَالِيبِ الْجُذُوعُ
حَاصِدَ السِّيفِ وَبِيءَ الْمَحْبِسِ
هَمْسُ الشَّانِي وَمَا لَمْ يَهْمِسِ

^{٦٨} يعني بالسبب الحسن بن علي صلوات الله عليه.

^{٦٩} يعني بمروان بني مروان.

^{٧٠} الأظلم هنا: هو أبو مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس، وقد سلب بني أمية ملكهم.

* * *

لِبَسْتَ بُرْدَ النَّبِيِّ النَّيِّرَاتِ	من بني العباس نورًا فوق نُورِ
وقديمًا عندَ مَرَوَانَ تَرَاتِ	لَزَكِيَّاتٍ مِنَ الْأَنْفُسِ نُورِ
فَنَجَا الدَّاحِلُ سَبْحًا بِالْفُرَاتِ	تَارِكَ الْفِتْنَةِ تَطْغَى وَتَنُورِ ^{٧١}
غَسَّ ^{٧٢} كَالْحَوْتِ بِهِ وَاقْتَحَمَا	بَيْنَ عِبْرِيهِ عَيُونََ الْحَرَسِ
ولقد يُجِدِّي الْفَتَى أَنْ يَعْلَمَا	صَهْوَةَ الْمَاءِ وَمَتَنَ الْفَرَسِ

* * *

صَحِبَ الدَّاحِلَ مِنْ إِخْوَتِهِ	حَدَثُ خَاصِ الْغُمَارِ ابْنَ ثَمَانٍ
غَلَبَ الْمَوْجَ عَلَى قُوَّتِهِ	فَكَأَنَّ الْمَوْجَ مِنْ جُنْدِ الزَّمَانِ
وَإِذَا بِالشَّطِّ مِنْ شِقْوَتِهِ	صَائِحٌ صَاحَ بِهِ نِلْتَ الْأَمَانِ
فَانْتَنَى مُنْخَدِعًا مُسْتَسْلِمًا	شَاةً اغْتَرَّتْ بِعَهْدِ الْأَطْلَسِ ^{٧٣}
خَضِبَ الْجَنْدُ بِهِ الْأَرْضَ دَمَا	وَقُلُوبُ الْجَنْدِ كَالصَّخْرِ الْقَسِيِّ

* * *

أَيُّهَا الْيَائِسُ مَتَّ قَبْلَ الْمَمَاتِ	أَوْ إِذَا شِئْتَ حَيَاةً فَالرَّجَا
لَا يَضِقُ ذَرْعُكَ عِنْدَ الْأَزْمَاتِ	إِنَّ هِيَ اشْتَدَّتْ وَأَمَّلَ فَرَجَا
ذَلِكَ الدَّاحِلُ لَأَقَى مُظْلِمَاتِ	لَمْ يَكُنْ يَأْمَلُ مِنْهَا مَخْرَجَا
قَدْ تَوَلَّى عِزَّهُ وَانْصَرَمَا	فَمَضَى مِنْ غَدِهِ لَمْ يَبْسُ
رَامَ بِالْمَغْرِبِ مُلْغًا فَرَمَى	أَبْعَدَ الْغَمْرِ وَأَقْصَى الْيَبْسِ

* * *

ذَاكَ وَاللَّهِ الْغِنَى كُلُّ الْغِنَى	أَيُّ صَعِبٍ فِي الْمَعَالِي مَا سَلَكَ
لَيْسَ بِالسَّائِلِ إِنْ هُمْ مَتَى	لَا وَلَا النَّاضِرِ مَا يُوجِي الْفَلَكَ

^{٧١} نارت الفتنة: وقعت وانتشرت.

^{٧٢} غس: دخل ومضى.

^{٧٣} الأطلس: الذئب.

زَايَلَ الْمُلْكُ ذَوِيهِ فَأَتَى مُلْكَ قَوْمٍ ضَيَّعُوهُ فَمَلَكَ
غَمَرَاتُ عَارِضَتْ مُقْتَحِمًا عَالِيِ النَّفْسِ أَشَمَّ الْمَعْطَسِ^{٧٤}
كُلُّ أَرْضٍ حَلَّ فِيهَا أَوْ حِمَى مَنْزِلُ الْبَدْرِ وَغَابُ الْبَيْهَسِ^{٧٥}

* * *

نَزَلَ النَّاجِي عَلَى حُكْمِ النَّوَى وَتَوَارَى بِالسُّرَى مِنْ طَالِبِيهِ
غَيْرَ ذِي رَحْلِ وَلَا زَادٍ سَوَى جَوْهَرٍ وَافَاهُ مِنْ بَيْتِ أَبِيهِ
قَمَرٌ لَاقَى حُسُوفًا فَاَنْزَوَى لَيْسَ مِنْ آبَائِهِ إِلَّا نَبِيَّهُ
لَمْ يَجِدْ أَعْوَانَهُ وَالْحَدَمَا جَانِبُوهُ غَيْرَ «بَدْرِ» الْكَيْسِ
مِنْ مَوَالِيهِ الثَّقَاتِ الْقُدَمَا لَمْ يَخُنْهُ فِي الزَّمَانِ الْمُؤَيَّسِ

* * *

حِينَ فِي أَفْرِيْقِيَا انْحَلَّ الْوِثَامُ وَاضْمَحَلَّتْ آيَةُ الْفَتْحِ الْجَلِيلُ
مَاتَتْ الْأُمَّةُ فِي غَيْرِ التَّثَامِ وَكَثِيرٌ لَيْسَ يَلْتَامُ قَلِيلُ
يَمَنْ سَلَّتْ ظُبَاهَا وَالشَّامُ شَامَهَا^{٧٦} هِنْدِيَّةٌ ذَاتَ صَلِيلُ
فَرَّقَ الْجَنْدَ الْغِنَى فَاَنْقَسَمَا وَغَدَا بَيْنَهُمُ الْحَقُّ نَسِي
أَوْحَشَ السُّودُّ فِيهِمْ وَسَمَا لِلْمَعَالَى مِنْ بِهِ لَمْ تَأْنَسِ

* * *

رُجِمُوا بِالْعَبْقَرِيِّ النَّابِهِ الْبَعِيدِ الْهَمَّةِ الصَّعْبِ الْقِيَادُ
مَدَّ فِي الْفَتْحِ وَفِي أَطْنَابِهِ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ بِنَاءِ ابْنِ زِيَادٍ^{٧٧}
هَجَرَ الصَّيْدَ فَمَا يُعْنَى بِهِ وَهُوَ بِالْمَلِكِ رَفِيقُ ذُوِ اصْطِيَادُ
سَلَّ بِهِ أُنْدَلَسًا هَلْ سَلِمَا مِنْ أَخِي صَيْدٍ رَفِيقٍ مَرَسٍ^{٧٨}

^{٧٤} المعطس: الأنف.

^{٧٥} البيهس: الأسد.

^{٧٦} شام: سل.

^{٧٧} هو طارق بن زياد، مولى موسى بن نصير فاتح الأندلس في عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي.

^{٧٨} المرس: الشديد المجرب في الحروب، يقال: إنه لمرس حذر.

جَرَّدَ السِّيفَ وَهَزَّ الْقَلَمَ ورمى بالرأي أمَّ الخُلسِ^{٧٩}

* * *

بِسْلَامٍ يَا شِرَاعًا مَا دَرَى ما عليه من حياءٍ وسَخَاءٍ
فِي جَنَاحِ الْمَلِكِ الرُّوحِ^{٨٠} جَرَى وبريح حَفَّهَا اللَّطْفُ رُخَاءٍ
غَسَلَ الْيَمُّ جِرَاحَاتِ الثَّرَى ومحا الشدةَ مَنْ يَمحو الرِّخَاءَ
هَلْ دَرَى أَنْدَلَسُ مَنْ قَدِمَا دارَه من نحوِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ
بَسَلِيلِ الْأُمُويِّينَ سَمَا فَتَحَ مُوسَى مُسْتَقَرَّ الْأُسُوسِ

* * *

أُمُويٍّ لِلْعُلَا رِحْلَتُهُ وَالْمَعَالِي بِمَطْيٍ وَطُرُقٍ
كَالْهَلَالِ انْفَرَدَتْ نُقْلَتُهُ لَا يُجَارِيهِ رِكَابٌ فِي الْأَفُقِ
بُنِيَتْ مِنْ خُلُقٍ ذُولَتُهُ قَدْ يَشِيدُ الدُّوَلُ الشُّمَّ الْخُلُقِ
وَإِذَا الْأَخْلَاقُ كَانَتْ سُلَّمَا نَالَتْ النِّجْمَ يَدُ الْمُتَمَسِّسِ
فَارَقَ فِيهَا تَرَقَّ أَسْبَابَ السَّمَا وَعَلَى نَاصِيَةِ الشَّمْسِ اجْلِسِ

* * *

أَيُّ مُلْكٍ مِنْ بِنَايَاتِ الْهِمَمِ أَسَّسَ الدَّاخلُ فِي الْغَرْبِ وَشَادَ
ذَلِكَ النَّاشِئُ فِي خَيْرِ الْأُمَمِ سَادَ فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يُخْلَقْ يُسَادَ
حَكَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي وَحَكَمَ فِي عَوَادِيهَا قِيَادًا بِقِيَادَ
سُلْبِ الْعِزِّ بِشَرْقٍ فَرَمَى جَانِبَ الْغَرْبِ لِعِزِّ أَقْعَسِ
وَإِذَا الْخَيْرُ لِعَبْدٍ قُسِمَا سَنَحَ السَّعْدُ لَهُ فِي النَّحْسِ

* * *

أَيُّهَا الْقَلْبُ أَحَقُّ أَنْتَ جَارُ لِلَّذِي كَانَ عَلَى الدَّهْرِ يُجِيرُ
هَـا هَـنَا حَلًّا بِهِ الرِّكْبُ وَسَارُ وَهَـنَا ثَاوٍ إِلَى الْبَعِثِ الْأَسِيرُ

^{٧٩} الخُلس: جمع خلصة، وهي الفرصة.

^{٨٠} الملك الروح: جبريل.

فَلَنْكَ بِالسَّعْدِ وَالنَّحْسِ مُدَارٌ صَرَخَ الْجَامُ^{٨١} وَأَلْوَى بِالْمُدِيرِ
هَـا هَـنَا كُنْتَ تَرَى حَوَّ الدُّمَى فَاتَنَاتِ بِالشُّفَاهِ اللَّعْسِ^{٨٢}
نَاقِلَاتٍ فِي الْعَبِيرِ الْقَدَمَا وَاطْنَاتٍ فِي حَبِيرِ السُّنْدُسِ

* * *

خُذْ عَنِ الدُّنْيَا بَلِيغَ الْعِظَةِ قَدْ تَجَلَّتْ فِي بَلِيغِ الْكَلِمِ
طَرَفَاهَا جُمِعَا فِي لَفْظَةٍ فَتَأَمَّلْ طَرَفَيْهَا تَعَلَّمَ
الْأَمَانِي حُلْمٌ فِي يَقْظَةٍ وَالْمَنَايَا يَقْظَةٌ مِنْ حُلْمِ
كُلُّ ذِي سِقْطَيْنِ^{٨٣} فِي الْجَوِّ سَمَا وَاقِعٌ يَوْمًا وَإِنْ لَمْ يُغْرَسِ
وَسِيلَقَى حَيْنَهُ نَسْرُ السَّمَا يَوْمَ تُطَوَّى كَالْكِتَابِ الدَّرْسِ

* * *

أَيْنَ يَا وَاحِدَ مَرَوَانَ عَلَّمَ مَنْ دَعَاكَ الصَّقْرَ سَمَاهُ الْعُقَابُ^{٨٤}
رَايَةً صَرَفَهَا الْفَرْدُ الْعَلَّمَ عَنْ وَجْهِ النَّصْرِ تَصْرِيفُ النَّقَابِ
كُنْتَ إِنْ جَرَدْتَ سَيْفًا أَوْ قَلَمَ أُبْتُ بِالْأَلْبَابِ أَوْ دِنْتَ الرِّقَابِ
مَا رَأَى النَّاسُ سِوَاهُ عَلَّمَا لَمْ يُرَمْ فِي لُجَّةٍ أَوْ يَبَسِ
أَعْلَى رُكْنِ السَّمَاءِ ادَّعَمَا وَتَغَطَّى بِجَنَاحِ الْقُدُسِ

* * *

قَصْرُكَ «الْمُنْيَةُ» مِنْ قُرْطَبَةِ فِيهِ وَارَوْكَ وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ
صَدَفَ خُطَّ عَلَى جَوْهَرَةٍ بَيَدَ أَنْ الدَّهْرَ نَبَّاشُ بَصِيرُ
لَمْ يَدَعْ ظِلًّا لِقَصْرِ «الْمُنْيَةِ» وَكَذَا عُمُرُ الْأَمَانِيِّ قَصِيرُ
كُنْتَ صَقْرًا قُرْشِيًّا عَلَّمَا مَا عَلَى الصَّقْرِ إِذَا لَمْ يُرْمَسِ
إِنْ تَسَلَّ أَيْنَ قُبُورِ الْعُظْمَا فَعَلَى الْأَفْوَاهِ أَوْ فِي الْأَنْفُسِ

^{٨١} الجام: الكأس.

^{٨٢} اللعس: سوادٌ مُستحسنٌ في الشفة.

^{٨٣} السقط: جناح الطائر.

^{٨٤} العقاب: اسم راية الداخل.

* * *

كم قبورٍ زِينَتِ جِيدَ الثرى
كان مَن فيها وإن جازوا الثرى
وعظامُ تتزَكَّى عنبرا
فاتَّخَذَ قَبْرَكَ من ذِكْرِ فما
هَبَكَ من حرصِ سكنتَ الهرما

تحتها أنجسُ من مِيتِ المجوسُ
قبلَ موتِ الجسمِ أمواتِ النفوسُ
من ثناءٍ صَرَنَ أغفالَ الرُّموسُ
تبينُ من محمودِهِ لا يُطمَسُ
أينَ بانيهِ المَنيعُ المَلَمَسُ

رَحْلَة

شَيَّعْتُ أحلامي بقلبِ باكٍ
ورجعتُ أدراجَ الشبابِ وورُدُهُ
وبجانبي واهِ كأنْ حُفَوَقَهُ
شاكِي السلاحِ إذا خلا بضلوعه
قد راعه أني طويْتُ حبائلي
ويحُ ابنِ جَنبِي كُلُّ غَايَةٍ لَذَّةٍ
لم تبقَ مِنَّا يا فؤادُ بقيَّةُ
كنا إذا صَفَّقْتَ نَسْتَبِقُ الهوى
واليومَ تبعثُ فيَّ حينَ تهزُّني
يا جارةَ الوادي طربتُ وعادني
مثلْتُ في الذكري هواكِ وفي الكرى
ولقد مررتُ على الرياضِ برَبوَةٍ
ضحكتُ إليَّ وُجوهُها وعيونُها
فذهبتُ في الأيامِ أنْكَرَ رَفَرُفًا
أذْكَرَتِ هَرولَةَ الصبابةِ والهوى
لم أدِرِ ما طِيبُ العِناقِ على الهوى
وتأوَّدَتِ أعطافُ بانيك في يدي
ودخلتُ في ليلَينِ فَرَعِكَ والدُّجى

ولمحتُ من طُرُقِ المِلاحِ شِباكِي
أَمْشِي مَكَانَهُما على الأشْواكِ
لما تَلَقَّتْ جَهشَةَ المُتَباكِي
فإذا أُهَيَّبَ به فليس بشاكِ
من بعدِ طوَلِ تناوُلِ وفكاكِ
بعدَ الشَّبابِ عَزيزَةُ الإدراكِ
لِفَتوَةٍ أو فَضْلَةٍ لِعِراكِ
ونشدُ شَدَّ العُصْبَةِ الفُتَّاكِ
ما يبعثُ الناقوسُ في النُّسَّاكِ
ما يُشْبِهُ الأحلامَ من ذِكراكِ
والذكرياتُ صدى السنينِ الحاكي
غَناءَ كُنْتُ حَيالَها أَلقَاكِ
ووجدتُ في أنفاسِها رِيَّكِ
بينَ الجداولِ والعيونِ حَواكِ
لما خَطَرَتِ يُقْبِلانِ خُطَاكِ
حتى تَرَفَّقَ ساعدي فطواكِ
واحمرَّ من خَفَرِيهما خَدَاكِ
ولثمتُ كالصُّبْحِ المُنوَّرِ فاكِ

ووجدتُ في كُنْهِ الجوانِحِ نَشوَةً
وتعطَّلتُ لُغَةً الكَلامِ وخاطَبْتُ
ومحوْتُ كُلَّ لُبَانَةٍ من خَاطِري
لا أَمْسٍ من عَمْرِ الزَمانِ ولا غَدُ

من طِيبِ فِيكِ ومن سُلَافِ لَمَأكِ
عَينِي في لُغَةِ الهوى عَينَاكِ
ونسِيتُ كُلَّ تَعَاتِبٍ وتَشَاكِي
جُمِعَ الزَمانُ فَكانَ يَومَ رِضاكِ

* * *

لُبْنانُ رَدَّتْني إِلَيكَ من النوى
جَمَعْتَ نَزِيلِي ظَهَرِها من فُرْقَةٍ
نَمَشِي عَلَیْها فَوَقَّ كُلَّ فِجاءَةٍ
ولو أَنَّ بِالشَّوْقِ المَزارُ وَجدتْني

أَقْدارُ سَيرِ لِحِياةِ دَراكِ
كُورَةً وِراءَ صَوالِجِ الأَفْلاكِ
كَالطَيرِ فَوَقَّ مَكانِ الأَشْراكِ
مُلْقَى الرِحالِ عَلى ثَراكِ الذَّاكِ

* * *

بِنتِ البِقاعِ وَأَمَّ بَرْدُونِیَّها
وَدَمَشقُ جَناتِ النَعمِ وإِنما
قَسَمًا لو انْتَمَتِ الجَداولُ والرُّبا
مَراكِ مَراهِ عَینُكَ عَینُهُ
تَلِكِ الكُرومُ بَقِیَّةً من بابِلِ
تُبَدِّي كَوَشِي الفَرسِ أَفتَنَ صِبْغَةٍ
خَرَزاتِ مِسكِ أو عُقودَ الكَهرِبا
فَكُرتُ في لَبَنِ الجِنانِ وخَمَرِها
لَمَ أنَسَ من هِبةِ الزَمانِ عَشيَّةً
كُنْتُ العَروسَ عَلى مَنصَةِ جَنجِها
يَمشي إِلَیكَ اللَحْظُ في الدِیابِجِ أو
ضَمَّتْ ذِراعَیْها الطَبِيعَةُ رِقَّةً
والبَدْرُ في ثَبِجِ السَماءِ مُنَوَّرُ
والنِیَّراتُ من السَحابِ مُطَلَّةُ

طِيبِي كَجَلَقَ واسْكَبِي بَرْدَاكِ
أَلْفِیتُ سُدَّةَ عَدَنِهِنَّ رُبَاكِ
لَتَهَلَّلَ الفَرْدوسُ ثَمَ نَماكِ
لِمَ يا زُحیلَةُ لا یكونُ أَباکِ
هِیَها تَنسَى البابِلِیَّ جَناکِ
لِلنَاظِرِینِ إلی الذِّحِیاكِ
أُودِعَنَ کافورًا من الأَسْلاكِ
لِما رَأیتُ المَاءَ مَسَّ طِلاكِ
سَلَفَتِ بِظُلُکِ وانقَضَتِ بَذَراكِ
لُبْنانُ في الوَشِيِّ الكَريمِ جَلاكِ
في العَاجِ من أَيِّ الشُّعابِ أَتاكِ
صَنِینَ وَالْحَرَمونَ^{٨٥} فَاحتَضَناکِ
سالتُ حُلاهُ عَلى الثَریِّ وحُلاكِ
كَالغَیدِ من سِترٍ ومن شُبَّاکِ

^{٨٥} هضبتان في رحلة.

رَكْنُ المَجَرَّةِ أَوْ جِدَارُ سَمَاكَ
فِي الْأَيْكَ أَوْ وَتَرًا شَجِيَّ حَرَاكَ
تَحْتَ السَّمَاءِ مِنَ الْبِلَادِ فِدَاكَ
وَمَشَى مَلُوكُ الشَّعْرِ فِي مَغْنَاكَ
أَرْضًا تَمَخَّضَ بِالشَّمُوسِ سِوَاكَ
وَيَرَاغُهُ مِنْ خُلُقِهِ بِمَلَاكَ
سَرَقَ الشَّمَائِلَ مِنْ نَسِيمِ صَبَاكَ
وَعَصَاهُ فِي سِحْرِ الْبَيَانِ عَصَاكَ
وَجَمَعَتْهُ بِرَوَايَةِ الْأَمْلاكَ
أُنْكَرْتُ كُلَّ قَصِيدَةٍ إِلَّاكَ
اللَّهُ صَاغَكَ وَالزَّمَانُ رَوَاكَ

وَكَأَنَّ كُلَّ ذُوَابَةٍ مِنْ شَاهِقِ
سَكَنْتِ نَوَاحِي اللَّيْلِ إِلَّا أَنَّهُ
شَرْفًا عُرُوسَ الْأَرَزِ كُلُّ خَرِيدَةٍ
رَكَّزَ الْبَيَانَ عَلَى ذِرَاكِ لَوَاءِهِ
أَدْبَاؤُكَ الزَّهْرُ الشَّمُوسُ وَلَا أَرَى
مِنْ كُلِّ أَرْوَغَ عِلْمُهُ فِي شِعْرِهِ
جَمَعَ الْقَصَائِدَ مِنْ رَبَّاكَ وَرَبِّمَا
«مُوسَى» بَبَابِكَ فِي الْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
أَحْلَلْتَ شِعْرِي مِنْكَ فِي غُلْيَا الذُّرَا
إِنْ تُكْرِمِي يَا زَحْلُ شِعْرِي إِنَّنِي
أَنْتِ الْخِيَالُ بَدِيعُهُ وَغَرِيبُهُ

ذِكْرِي اسْتِقْلَالَ سُورِيَا وَذِكْرِي شُهَدَائِهَا

وَدُنْيَا لَا نُودُّ لَهَا انْتِقَالَ
عُصَارْتُهُ وَإِنْ بَسَطَ الظَّلَالَا
وَإِنْ خِيلَتْ تَدَبُّ بَنَا نِمَالَا
وَنُسَمِعُهَا التَّبَرُّمَ وَالْمَلَالَا
طَوَالَ حِينَ نَقْطَعُهَا فِعَالَا
زَحَامُ السَّوِّ ضَيِّقُهَا مَجَالَا
وَلَكِنْ سَابَقُوا الْمَوْتَ اقْتِنَالَا
وَإِخْلَاصًا لَزَادَتَهُمْ جَمَالَا

حَيَاةٌ مَا نَرِيدُ لَهَا زِيَالَا
وَعِيشٌ فِي أَصُولِ الْمَوْتِ سَمُّ
وَأَيَّامٌ تَطِيرُ بَنَا سَحَابَا
نُرِيهَا فِي الضَّمِيرِ هَوًى وَحُبَّا
قِصَارُ حِينَ نُجْرِي اللَّهْوَ فِيهَا
وَلَمْ تَضِيقِ الْحَيَاةُ بَنَا وَلَكِنْ
وَلَمْ تَقْتُلْ بِرَاحَتِهَا بَنِيهَا
وَلَوْ زَادَ الْحَيَاةُ النَّاسَ سَعِيَا

* * *

لَأَهْلِ الْوَاجِبِ ادَّخَرَ الْكَمَالَا
وُلُوعًا بِالصِّغَاثِ وَاشْتَغَالَا
وَلَكِنْ أَنْعَمَ الْأَحْيَاءُ بِالَا
وَإِنْ قَالُوا فَأَكْرَمُهُمْ مَقَالَا
دَمًا حَرًّا وَأَبْنَاءَ وَمَالَا

كَأَنَّ اللَّهَ إِذْ قَسَمَ الْمَعَالِي
تَرَى جِدًّا وَلَسْتَ تَرَى عَلَيْهِمْ
وَلَيْسُوا أَرْغَدَ الْأَحْيَاءِ عَيْشَا
إِذَا فَعَلُوا فَخِيرُ النَّاسِ فَعَلَا
وَإِنْ سَأَلْتَهُمُ الْأَوْطَانَ أَعْطَوْا

* * *

بني البلد الشقيق عزاء جار
قضى بالأمس للأبطال حقاً
يُعظم كلَّ جهدٍ عبقرِيٍّ
وما زلنا إذا دهت الرزايا
وقد أنسى الإساءة من حسودٍ
ذكرتُ المهرجانَ وقد تجلَّى
وداري بينَ أعراس القوافي
تسلَّل في الزحامِ إليَّ نضوُ
رسولُ الصابرين ألمَّ وهناً
دنا منِّي فناولني كتاباً
وجدتُ دمَّ الأسودِ عليه مسكاً
كأنَّ أسامي الأبطال فيه
رواة قصائدي قد رتلوها
إذا ركزوا القنا انتقلوا إليها

أهابَ بدمعه شجنُ فسالا
وأضحى اليومَ بالشهداء غالي
أكان السِّلْمُ أم كان القتالا
كأرحم ما يكون البيتُ ألا
ولا أنسى الصنيعةَ والفَعالا
ووفدَ المشرقين وقد توالى
وقد جُلِيت سماءُ لا تُعالى
من الأحرارِ تحسُّبه خيالا
وبلَّغني التحيَّة والسؤالاً
أحسَّت راحتي له جلالاً
وكان الأصلُ في المسك الغزالا
حواميمٌ على رَقٍّ تتالَى
وغنَّوها الأسِنَّة والنِّصالا
فكانت في الخيام لهم نقالا

* * *

بني سوريَّة التَّيْمُوا كيوم
سلُّوا الحريةَ الزهراءَ عنَّا
وهل نلنا كِلانا اليومَ إلا
عرفتُم مهرها فمهرتُموها
وقُمتُم دونها حتى خضبتُم
دعوا في الناس مفتوناً جباناً
أيتطلب حقَّهم بالروح قومٌ
وكُونوا حائطاً لا صدعَ فيه
وعيشوا في ظلالِ السِّلْم كدًّا
ولكنْ أبعدُ اليومين مَرَمَى
وليس الحربُ مَرَكَبٌ كلَّ يومٍ

خرجتُم تطلبون به النَّزالا
وعنكم هل أذاقْنَا الوصالا
عراقيبَ المَواعِدِ والمِطالا
دمًا صبَّغَ السِّباسبَ والدِّغالا
هوادِجها الشريفةَ والحِجالا
يقول الحربُ قد كانت وبالا
فتسمع قائلاً ركبوا الضلالا
وصفًّا لا يُرَقَّع بالكسالى
فليس السِّلْمُ عَجْزاً واتَّكالا
وخيرُهما لكم نصحاً وآلا
ولا الدمُّ كلَّ آونةٍ حلالا

* * *

سأذكر ما حييتُ جدارَ قبرٍ
مُقيمٍ ما أقامت «ميسلون»
لقد أوحى إليّ بما شجاني
تغيبَ عظمةَ العظَماتِ فيه
كأن بُناتَه رفعوا مَنارًا
سراجَ الحقِّ في تَبجِ الصحارى
ترى نورَ العقيدةِ في ثراه
مشى ومشتَ فيالقُ من فرنسا
ملأَ الجوّ أسلحةً خفافًا
وأرسلنَ الرياحَ عليه نارًا
سلّوه هل ترجّل في هبوبٍ
أقامَ نهارَه يُلقِي ويلقى
وطاح ترى به قيدَ المنايا
فكفّن بالصوارمِ والعوالي
إذا مرّت به الأجيالُ تترى
تعلّق في ضمائرهم صليبًا

بظاهرٍ جَلّقَ ركبَ الرمالا
يُذكرُ مصرعَ الأسدِ الشُّبالا
كما تُوحى القبورُ إلى التَّكالي
وأولُ سيّدٍ لقيَ النُّبالا
من الإخلاص أو نصبوا مثالا
تَهَابَ العاصفاتُ له دُبالا
وتَنشقُ من جوانبه الخِلالا
تجرُّ مطارفَ الظفرِ اختيالا
ووجهَ الأرضِ أسلحةً ثقالا
فما حفلَ الجنوبُ ولا الشمالا
من النيرانِ أَرَجَلَتِ الجبالا
فلَمّا زال قرصُ الشمسِ زالا
ولستَ ترى الشَّكيمَ ولا الشَّكالا
وغيَّبَ حيثُ جالَ وحيثُ صالا
سمِعتَ لها أزيزًا وابتهاالا
وحلّقَ في سرائرهم هلالا

تمثال نهضة مصر

جعلتُ حُلاها وتمثالها
وأرسلتها في سماءِ الخيالِ
وإني لغرّيدُ هذي البطاحِ
ترى مصرَ كعبةَ أشعاره

عيونَ القوافي وأمثالها
تجرُّ على النجمِ أذيالها
تَغذّي جَناها وسلسالها
وكلَّ معلّقةٍ قالها

وتلمحُ بينَ بيوتِ القصيدِ جبال^{٨٦} العروسِ وأحجالها^{٨٧}
أدارَ النسيبَ إلى حبُّها وولَّى المدايحَ إجلالها
أَرَنَ بغابِرها العبقريَّ وغنَّى بمثلِ البُكى حالها
ويروي الوقائعَ في شعرِه يروضُ على البأسِ أطفالها
وما لمَحوا بعدُ ماءَ السيوفِ فما ضرَّ لو لمَحوا آلهَا

* * *

ويومِ ظليلِ الضحى من بشَنَسِ أفاءَ على مصرَ آمالها
روى ظلُّه عن شبابِ الزمانِ رفيفَ الحواشي وإخضالها^{٨٨}
مشتَ مصرُ فيه تُعيدُ العصورَ ويغمرُ ذكرُ الصِّبا بالها
وتعرضُ في المهرجانِ العظيمِ ضحاها الخوالي وأصالها

* * *

وأقبلَ «رمسيس» جمَّ الجلالِ سَنِيَّ المواكبِ مُختالها
وما دانَ إلا بشُورى الأمورِ ولا اختالَ كِبَرًا ولا استالها^{٨٩}
فحيًا بأبلجٍ مثلِ الصِّباحِ وُجوهَ البلادِ وأرسالها
وأومًا إلى ظلماتِ القرونِ فشقَّ عن الفنِّ أسدالها

* * *

فمن يُبلغُ «الكرنك» الأقصريَّ ويُنبئُ «طيبة» أطلالها
ويُسمعُ ثَمَ بوادي الملوكِ ملوكَ الديارِ وأقيالها
وكلَّ مخلَّدَةٍ في الدُّمى هنالك لم نُحصِ أحوالها
عليها من الوحي ديباجةٌ ألحَّ الزمانُ فما ازدالها
تكاد وإن هي لم تتصل بروحٍ تحرَّك أوصالها

^{٨٦} الحجال: جمع حجلة، وهي بيت العروس.

^{٨٧} الأحجال: الخلاخيل.

^{٨٨} أخضل الشيء: ابتل.

^{٨٩} استالها: أصله استأله؛ أي تشبَّه بالآله.

وما الفنُّ إلا الصرِيحُ الجميلُ إذا خالَطَ النفسَ أوحى لها
وما هو إلا جمالُ العقولِ إذا هي أولَّتَه إجمالها

* * *

لقد بعثَ اللهَ عهدَ الفنونِ وأخرجتِ الأرضُ مَنَّاها
تعالوا نرى كيف سوَّى الصَّفَاةَ فتاةً تُلمِّمُ سِرْبِالها
دنت من أبي الهول مشيَ الرِّءُومِ إلى مُقْعَدِ هاجٍ بَلْبِالها
وقد جاب في سكرات الكرى عُروضَ الليالي وأطوالها
وألقي على الرمل أرواقه^{٩٠} وأرْسَى على الأرض أثقالها
يُخالُ لإطراقه في الرِّمالِ سَطِيحَ^{٩١} العصورِ ورمالها
فقالَت تحرَّكُ فهُمَّ الجمادُ كأنَّ الجمادَ وعى قالها
فهل سكبت في تجاليدِهِ شُعاعَ الحياةِ وسيالها
أتذكُرُ إذ غضبت كاللِّبَاةِ^{٩٢} ولمَّت من الغيلِ أشبالها
وألقت بهم في غمارِ الخطوبِ فخاضوا الخطوبَ وأهوالها
وثاروا فجئنَ جُنُونُ الرياحِ وزُلْزِلَتِ الأرضُ زلزالها
وبات تلمُّسُهم شيخَهم حديثَ الشعوبِ وأشغالها
ومن ذا رأى غابةً كافحت فردَّت من الأسرِ رِئبالها
وأهيبَ ما كان بأسُ الشعوبِ إذا سلَّحَ الحقُّ أعزالها

* * *

«فؤاد» اِرْفَعَ السَّتَرَ عن نهضةٍ تقدَّم جَدُّك أبطالها
ورُبَّ امرئٍ لم تَلِدْه البلادُ نماها ونَبَّه أنسالها^{٩٣}
وليس اللالكئِ ملكَ البحورِ ولكنها ملكُ من نالها

^{٩٠} يقال ألقي أرواقه بالمكان: نزل به وضرب خيمته.

^{٩١} سطيح: اسم لكاهن من كهان العرب، والسطيح أيضًا: البطيء القيام لضعف أو زمانة.

^{٩٢} اللبابة: لغة في اللبوة.

^{٩٣} أنسال: جمع نسل.

وما كـ «عليّ» ولا جيلهِ
بنّوا دولةً من بناتِ الأسنِّ
لئن جَلَلُ البحرِ أسطولُها
فأما أبوكَ فدنيا الحضارِ
تخيّر «أفريقيّا» تاجه
ركابُك يا «ابن المُعزِّ» الغيوثُ
إذا سرنَ في الأرض نسيْنها
فلم تبحر القصر إلا شقيت
لقد ركبَ الله في ساعديك
تخطُّ وتبني صُروح العلوم

إذا عرّضت مصرُ أجيالها
ة لم يشهد «النيلُ» أمثالها
لقد لبسَ البرُّ قسطالها^{٩٤}
ة لو سألَم الدهرُ إقبالها
وركبَ في التاجِ «صومالها»
ويفضّلَن في الخير منوالها
ركابَ السماءِ وأفضالها
جُدوبَ العقولِ وإمالها
يمينَ الجدودِ وشيمالها
وتفتَحُ للشّرقِ أقفالها

الحرية الحمراء

(قيلت في احتفال بيوم ١٣ نوفمبر).

في مهرجانِ الحق أو يومِ الدم
يبدو على هاتور نورٌ دماؤها
يومُ الجهادِ بها كصدرِ نهاره
طلعت تحجُّ البيت فيه كأنها
لم لا تطلُّ من السماء وإنما
ولقد شجّباها الغائبون وراعها
وإذا نظرت إلى الحياة وجدتها
لا بد للحرية الحمراء من
وتبسّم يعلو أسرّتها كما
يومُ البطولة لو شهدت نهاره
عُينت حقيقته وفات جمالها

مُهَجُّ من الشهداء لم تتكلم
كدم الحسين على هلالٍ محرّم
مُتمایلُ الأعطافِ مُبتسّم الفم
زُهرُ الملائك في سماءِ الموسم
بينَ السحابِ قبورها والأنجم
ما حلَّ بالبيت المُضيء المُظلم
غُرْسًا أُقيمَ على جوانبِ مَأم
سلوى تُرقد جرحها كالبلسم
يعلو فَمَ الثّكلى وثغر الأيم
لنظمتُ للأجيال ما لم يُنظّم
باعَ الخيالِ العبقريّ المُلهَم

^{٩٤} القسطال: غبار الحرب.

لولا عوادي النَّفْيِ أو عقباتُهُ
لَجَمَعْتُ أُلُوَانَ الحَوَادِثِ صُورَةً
وحكيتُ فيها النِّيلَ كَاظِمَ غِيظِهِ
دَعَتِ البِلَادَ إِلَى العِمارِ فغامَرَتِ
ثارت على الحامي العتيد وأقسمت
نثر الكنانة رُبُّها وتخيَّرت
من كلِّ أعزَلِ حقِّه بيمينه
لم يُحِجِّمُوا في ساعةٍ قد أَظْفَرَتِ
وقفوا مطيَّهمُ بِسُلْمِ قصِرِهِ
وتقدَّموا حتى إذا ما بَلَّغُوا
سالت من الغابِ الشُّبُولُ غَلا بها
يومَ النضالِ كَسَتْكَ لَوْنُ جمالِها
أصبحت من غُرَرِ الزمانِ وأصبحت
ولقد يَتِمَّتْ فكننتِ أعظَمَ رَوْعَةً
لَيْنَمَ أبو الأشبالِ ملءَ جفونِهِ

والنَّفْيِ حالٌ من عذابِ جهنمِ
مَثَلْتُ فيها صورةَ المُسْتَسْلِمِ
وحكيتُهُ مُتَغَيِّظًا لم يَكْظِمِ
وطنِيَّةً بِمُثَقَّفٍ ومُعَلِّمِ
بسِواه جَلٌّ جلالُهُ لا تَحْتَمِي
يَدُهُ لِنُصْرَتِها ثلاثةُ أسْهُمِ
كالسيفِ في يَمْنَى الكَمِيِّ المُعَلِّمِ
مَلِكِ البِچارِ بكلِّ قيصَرَ مُحْجِمِ
والبأسِ والسلطانِ دونَ السُّلْمِ
أَوْحُوا إلى مصرَ الفتاةِ تَقَدَّمِي
لبنُ اللَّبابةِ وهاجَ عِرْقُ الضَّيْغِ
حريَّةٌ صَبَغَتْ أديمَكَ بالدمِ
ضجكتِ أَسْرَةً وجهَكَ المُتَجَهِّمِ
يا لَيْتَ من «سَعِدِ» الحِمَى لم تَيْتَمِ
ليس الشُّبُولُ عن العرينِ بُنُومِ

وقال في تكريم الدكتور علي بك إبراهيم الجراح العبقري:

ابتغوا ناصيةَ الشمسِ مكانا
واطلبُوا بالعبقریاتِ المَدَى
ابعثوها سابقاتِ نُجُبًا
وثبُّوا للعزِّ من صَهْوَتِها
لا تُثَيِّبُوها على ما قَلَّدَتِ

وَحُذُوا القِمَّةَ علَمًا وبيانًا
ليس كُلُّ الخيلِ يشْهَدُنَ الرِّهانًا
تملأُ المِضمارَ معْنَى وعيانًا
وخذوا المجدَ عِنانًا فِعْيانًا
من أيادٍ حسدًا أو شَنانًا

* * *

وضئيلٍ من أَساةِ الحَيِّ لم
ضامرٍ في سُفْعَةٍ تحسبه
أو طَبِيبًا آيَبًا من «طِيبَةِ»
تُنْكَرُ الأرضُ عليه جِسمُهُ

يُغْنَى باللحمِ وبالشحمِ اختزانًا
نِضْوَ صحراءِ ارتدى الشمسَ دِهانًا
لم تَزَلْ تَنْدَى يداهُ رَعْفَرانًا
واسمُهُ أعظَمُ منها دُورانًا

نال عرش الطبِّ من «أمحوتب»
يا لأمحوتب من مُستأله
خاشعاً لله لم يُزّه ولم
يلمس القدرة لمساً كلّما
لو يرى الله بمصباح لما
في خلال لفتت زهر الرُّبا
لو أتاه مُوجعاً حاسده
خير من علم في «القصر» ومن
كلّ تعليم تراه ناقصاً
درك مُستحدث من درج

وتلقى من يديه الصّولجانا
لم يلد إلا حوارياً هجانا
يرهب النفس اغتراراً وافتنانا
قلّب الموت وجسّ الحيوانا
كان إلا العلم جلّ الله شانا
وسجايأ أنست الشرب الدنانا
سلّ من جنب الحسود السرطانا
شقّ عن مُستتر الداء الكنانا
سُلم رث إذا استعمل خاناً
ومن الرُّفعة ما حطّ الدخاناً

* * *

لا عدينا لـ «السيوطي» يداً
تصرف المشرط للبرء كما
مدّها كالأجل المبسوط في
تجد الفولاذ فيها محسناً
يد «إبراهيم» لو جئت لها
لم تخط للناس يوماً كفنّاً
ولقد يؤسى ذوو الجرحى بها
نبغ الجيل على مشرطها
لو أتت قبل نضوج الطبِّ ما

خلقت للفتق والرتق بنانا
صرف الرُّمح إلى النصر السنانا
طلب البرء اجتهداً وافتنانا
أخذ الرفق عليها والليانا
بذبح الطير عاد الطيرانا
إنما خاطت بقاء وكيانا
من جراح الدهر أو يشفى الحزاني
في كفاح الموت ضرباً وطعانا
وجد التنويم عوناً فاستعانا

* * *

يا طرازاً يبعث الله به
من رجال خلقوا ألوية
قادة الناس وإن لم يقربوا
وغذاء الجيل فالجيل وإن
وهم الأبطال كانت حربهم

في نواحي ملكه أنا فآنا
ونجوماً وغيوماً ورعانا
طبّعات الهند والسمر اللدانا
نسي الأجيال كالطفل اللبانا
منذ شنوها على الجهل عوانا

* * *

يا أخي والذخرُ في الدنيا أُخْ
لك عندَ ابني أو عندي يدُ
حسُنْتُ منِّي ومنه موقعًا
هل ترى أنتَ فإنني لم أجِدْ
وإذا الدنيا خلَّت من خيرٍ
دفع الله «حُسينًا» في يدٍ
لو تناولتُ الذي قد لمسْت
جُرحه كان بقلبي يا أبًا
لطفَ الله فعُوفِينَا معًا

حاضرُ الخيرِ على الخيرِ أعانا
لستُ ألوها اذكَّارًا وصيانا
فجعلنا جِرْزها الشكرَ الحسانا
كجميلِ الصُّنعِ بالشكرِ اقترانا
وخلَّت من شاكر هانت هوانا
كيَدِ الألفافِ رفقًا واحتضانا
منه ما زدتُ حِذارًا وحنانًا
لا أنبِّيه بجُرْحِي كيف كانا
وارتهنَّا لك بالشكرِ لسانا

وقال وهي القصيدة التي أُلقيت في دار الأوبرا الملكية في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها:

مرحبًا بالربيع في ريعانه
رَقَّت الأرض في مواكبِ آذا
نزل السهلُ ضاحكُ البشرِ يمشي
عاد حَلْيًا بِراحَتِيهِ ووشْيًا
لفً في طيلسانه طُرَّرَ الأرْ
ساحرُ فتنهُ العيونِ مُبينُ
عبقريُّ الخيالِ زاد على الطيِّ
صبغةُ الله أين منها رفائيلُ
رَنَمَ الروضِ جدولًا ونسيمًا
وشدَّت في الرُّبا الرياحينُ همسًا
كلُّ ريحانةٍ بلحنٍ كعُرسٍ
نعمُ في السماءِ والأرضِ شتَّى
أين نورُ الربيعِ من زهرِ الشعِ
سَرمدُ الحُسنِ والبشاشةِ مهما
حَسُنَ في أوانِه كلُّ شيءٍ

وبأنواره وطيبِ زمانه
رَ وشبَّ الزمانُ في مهرجانه
فيه مشيُّ الأميرِ في بُستانه
طولُ أنهاره وعَرَضُ جنانه
ضِ فطابَ الأديمُ من طيلسانه
فصلُ الماءِ في الرُّبا بجُمانه
ف وأزبى عليه في ألوانه
لُ ومنقاشُه وسحرُ بَنانه
وتلا طيرَ أيكِه غصنُ بانه
كتغنِّي الطُروبُ في وجدانه
ألَفَت للغناءِ شتَّى قِيانه
من معاني الربيعِ أو ألحانه
رِ إذا ما استوى على أفنانه
تلتئمسه تجذُه في إِبَّانه
وجمالُ القريضِ بعدَ أوانه

مَلَكٌ ظَلَّمَهُ عَلَى رَبْوَةِ الْخُلْدِ مَلِكٌ ظَلَّمَهُ عَلَى رَبْوَةِ الْخُلْدِ
أَمَرَ اللَّهُ بِالْحَقِيقَةِ وَالْحَكِّ أَمَرَ اللَّهُ بِالْحَقِيقَةِ وَالْحَكِّ
لَمْ تَنْرُ أُمَّةً إِلَى الْحَقِّ إِلَّا لَمْ تَنْرُ أُمَّةً إِلَى الْحَقِّ إِلَّا
لَيْسَ عَرَفُ النَّحَاسِ أَوْقَعَ مِنْهُ لَيْسَ عَرَفُ النَّحَاسِ أَوْقَعَ مِنْهُ

* * *

ظَلَّلْتَنِي عَنَابَةً مِنْ «فَوَادٍ» ظَلَّلْتَنِي عَنَابَةً مِنْ «فَوَادٍ»
وَرَعَانِي رَعَى إِلَهُ لَهُ «الْفَا» وَرَعَانِي رَعَى إِلَهُ لَهُ «الْفَا»
مَلِكُ النِّيلِ مِنْ مَصْبِيهِ بِالشَّطِّ مَلِكُ النِّيلِ مِنْ مَصْبِيهِ بِالشَّطِّ
هُوَ فِي الْمُلْكِ بَدْرُهُ الْمُتَجَلِّي هُوَ فِي الْمُلْكِ بَدْرُهُ الْمُتَجَلِّي
زَادَهُ اللَّهُ بِالنِّيَابَةِ عَزًّا زَادَهُ اللَّهُ بِالنِّيَابَةِ عَزًّا

* * *

وَقَوَّامُ الْأُمُورِ فِي مِيزَانِهِ وَنَبْرُ الْحَقِّ فِي أَمَانَةٍ «سَعْدٍ»
رَجَّهَ مِنْ بَطَاحِهِ وَرِعَانِهِ^{٩٥} لَمْ يَرَ الشَّرْقُ دَاعِيًا مِثْلَ «سَعْدٍ»
كَيْفَ كَانَ الدُّخُولُ فِي أَدْيَانِهِ ذَكَرَتْهُ^{٩٦} عَقِيدَةُ النَّاسِ فِيهِ
سَرِيًّا كَالشَّبَابِ فِي عُنفَوَانِهِ نَهَضَةُ مَنْ فَتَى الشُّيُوخَ وَرُوحُ
مَدِ وَثَارًا بِهِ عَلَى أَرْسَانِهِ حَرَكًا الشَّرْقَ مِنْ سَكُونٍ إِلَى الْقَيْدِ
دَرَجَ الْبُرْءِ فِي قُوَى جُثْمَانِهِ وَإِذَا النَفْسُ أَنْهَضَتْ مِنْ مَرِيضٍ

* * *

مِنْ فِلَسْطِينِهِ إِلَى بَغْدَادِهِ يَا عُكَازًا تَأَلَّفَ الشَّرْقُ فِيهِ
سُتِّرَ عَلَى قُسَّهِ وَلَا سَحْبَانِهِ افْتَقَدْنَا الْحَجَارَ فِيهِ فَلَمْ نَعِ
مِنْ وَرُوحِ الْبَيَانِ مِنْ فُرْقَانِهِ حَمَلَتْ مِصْرُ دُونَهُ هَيْكَلَ الدَّيِّ
حَيَّ وَشَدَّ الْبَيَانُ مِنْ أَرْكَانِهِ وَطَّدَتْ فِيكَ مِنْ دَعَائِمِهَا الْفُصْ
مِثْلُهَا لِلْكَلامِ يَوْمَ رِهَانِهِ إِنَّمَا أَنْتَ حَلْبَةٌ لَمْ يُسَخَّرْ

^{٩٥} الرَّعَان: رءوس الجبال.

^{٩٦} الضمير عائذ على الشرق.

تتبارى أصائل الشام فيها
 قلدتني الملوك من لؤلؤ البحر
 نخلة لا تزال في الشرق معني
 حن للشام حقة وإليها
 وحبنتني بمباي فيها يراعا
 ليس تلقى يراعها الهند إلا
 أنتضيه انتضاء موسى عصاه
 يلتقي الوحي من عقيدة حر
 غير باغ إذا تطلب حقا
 موكب الشعر حرّ المتنبي
 شرفت مصر بالشموس من الشر
 قد عرفنا بنجمه كل أفق
 لست أنسى يدا لإخوان صدق
 رب سامي البيان نبه شأني
 كان بالسبق والميادين أولى
 إنما أظهروا يد الله عندي
 ما الرحيق الذي يذوقون من كز
 وهبوني الحمام لذة سجع
 وتر في اللهة^{٩٧} ما للمغني

والمذاكي العتاق من لبنانه
 رين آلاءها ومن مرجانه
 من بدواته ومن عمران
 فاتح الغرب من بني مروان
 أفرغ الود فيه من عقيان
 في ذرا الخلق أو وراء ضمان
 يفرق المستبد من شعبانه
 كالحواري في مدى إيمانه
 أو لئيم اللجاج في عدوانه
 في ثراه وهز من حسانه
 ق نجوم البيان من أعيانه
 واستبنا الكتاب من عنوانه
 منحوني جزاء ما لم أعانه
 أنا أسمو إلى نباهة شانه
 لو جرى الحظ في سواء عنانه
 وأذاعوا الجميل من إحسانه
 مي وإن عشت طائفا بدنانه
 أين فضل الحمام في تحنانه
 من يد في صفائه وليانه

* * *

رب جار تلفتت مصر تولى
 بعنتني معزيا بماقي
 كان شعري الغناء في فرح الشر
 قد قضى الله أن يؤلفنا الجر

ه سؤال الكريم عن جيرانه
 وطني أو مهنئا بلسانه
 ق وكان العزاء في أحزانه
 ح وأن نلتقي على أشجانه

^{٩٧} اللهة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.

متفرقات

كلما أنَّ بالعراقِ جريحُ
وعلينا كما عليكم حديدُ
نحن في الفقه بالديار سواءُ
لَمَسَ الشرقُ جنبَه في عُمانه
تَتَنَزَّى اللَّيْوُثُ في قُضبانِه
كلُّنا مُشْفِقٌ على أوطانِه

الجزء الثالث

سليمان باشا أباطه^١

من ظنَّ بعدَكَ أن يقولَ رثاءَ
فجعَ المَكَارِمِ فاجعٌ في ربِّها
ونعى النعاةُ إلى المروءةِ كنزها
أبا محمدٍ اتَّئدُ في ذا النُّوى
واستبقِ عزَّهمُ بـ «طهراء» التي
أُدجى بها ليلُ الخطوبِ وطالما
وإذا سليمان استقلَّ محلَّةً^٢
فانظر من الأعوادِ حولك هل ترى
فليرث من هذا الورى من شاء
والمجدَ في بانيه والعلياء
وإلى الفضائلِ نجمها الوضاء
وارفُق بِألكِ وارحمِ الأبناءَ
كانوا النجومَ بها وكنْتَ سماءَ^٣
مُلئتُ منازلها سَنًا وسناءَ^٤
كانت بِساطًا للندى ورجاءَ^٥
من بعدِ طبِّكَ للعُفاةِ دواءَ^٥

^١ سليمان باشا أباطه: أحد سُراة مصر الكبار، وكان في حياته كبير الأسرة الأباضية الشهيرة، وقد أُسندت إليه وزارة المعارف العمومية سنة ١٨٨٢م، وتوفي سنة ١٩٠١م.

^٢ طهراء: علمٌ على بلد الفقيد، وهي من أعمال إقليم الشرقية بمصر.

^٣ تدجى الليل وأدجى: كلاهما بمعنى أظلم. والسنا (بالقصر): الضوء. والسناء (بالمد): الرفعة.

^٤ المحلة: في الأصل هي الناحية التي ينزل بها القوم، ولا تقلُّ عن مائة بيت. والمراد هنا بقوله «استقلَّ محلَّة»: أي إنه كان عميدها المنفرد بزعامتها وبالعَمَل لرفعتهَا.

^٥ الأعواد: جمع عود، يُطلَق على المنبر وعلى السرير للحي أو الميت. كان رجل من العرب يُلقَّب «ذا الأعواد»؛ لأنه كان يُحمَل دائماً في سرير، والشعراء العظماء يستعملون الأعواد للموتى، وقُلَّما يستعملون النعش؛ تعظيماً للموت وتكريماً للميت، قال الشريف الرضي: أرأيت من حُمِلوا على الأعواد ... إلخ. والعُفاة: جمع عافٍ، وهو كل طالب فضل أو رزق.

سارت جنازة كل فضل في الورى
وتيتّم الأيتام أول مرة
ولقد عهدتُك لا تُضيّع راجياً
وعلمتُ أنك من يودّ ومن يفي
وذكرتُ سعيك لي مريضاً فانياً
والمرء يُذكر بالجمائل بعده
واعلم بأنك سوف تُذكر مرة
أبنيه كُونا للعدا من بعده
وتجلّدوا للخطب مثل ثباته
والله ما مات الوزير وكنتم
لما ركبَت الآلة الحدباء^٦
ورمى الزمان بصرفه الفقراء^٧
واليوم ضاع الكلُّ فيك رجاء
فقِف الغداة لو استطعت وفاء
فجعلتُ سعيي بالرثاء جزاء
فارفع لذكرِكَ بالجميل بناءً^٨
فيقالُ أحسن أو يقالُ أساء
كيداً وكُونا للوليّ عزاء
أيام كان يُدافعُ الأرزاء
فوق الترابِ أعزّة أحياء

^٦ الجنازة: بكسر الجيم وفتحها، وقيل بالكسر هي الميت، وبالفتح هي النعش، وقيل بالعكس، وأرجح تعريف يتناسب مع مألوف عصرنا هو إطلاقها بالكسر على سرير الميت والمشيعين له. والآلة الحدباء: كناية عن النعش، وشكله أحذب كما هو معروف.

^٧ صرف الزمان: نوائبه وحدثانه.

^٨ جمائل: جمع جميلة. والمقصود أن المرء يُذكر بصنيعته الجميلة، أو بمأثرته الجميلة، فحذف الموصوف، ثم جمع الصفة واستعملها. أقول: وهذه صنعة قصد بها التجميل الفني في الكلام بذكر الجمائل والجميل في البيت.

مصطفى باشا فهمي^١

يا أيها الناعي أبا الوزراء
حثَّ البريدَ مَشارِقًا ومَغارِبًا
واستبِكَ هذا الناسَ دمعًا أو دمًا
لم تنعَ للأحياءِ غيرَ ذخيرةِ
رُزءِ البريةِ في الوزيرِ زيادةً
نَهَبَت على أثرِ المشيِّعِ دولةً
ندمانُ «إسماعيل» في آثاره
وُلِدوا على راحِ العُلا وترعرعوا

هذا أوانُ جلائلِ الأنباءِ
واركبُ جَنَاحِ البرقِ في الأرجاءِ^٢
فاليومُ يومُ مَدامعِ ودماءِ
ولَّت وغيرَ بقيَّةِ الكُبراءِ
فيما أَلَمَ بها من الأرزاءِ
برجالِها وكرائمِ الأشياءِ
ذهبوا وتلك صابئةُ الندماءِ^٣
في نعمةِ الأملاكِ والأُمراءِ

^١ مصطفى باشا فهمي: كان إلهامًا موفقًا لأمير الشعراء حين كنَّاه بأبي الوزراء؛ فهو والد الزعيمة صفية زغلول زوجة الزعيم الخالد سعد زغلول، وكان ياورًا للخديو إسماعيل، ووزيرًا في عهد توفيق، فرئيسًا للوزراء، ثم استقال، ثم عاد للرئاسة ولم يتركها إلا لمرضه قبيل الحرب، وقد توفي أول سنة ١٩١٤م.

^٢ البريد: كلمة فارسية معناها القطع، كانوا يقطعون أذنان وأُعراف الخيل المستعملة لنقل رسائلهم؛ علامة لها حتى لا يعوقها أحد في الطريق، وأول اصطناع العرب لهذه الطريقة كان في زمن معاوية، وكانوا يُسمُّون الخيل المستعملة في ذلك خيل البريد، ونحن نُطلق كلمة البريد على رسائل البوستة وغيرها كما هو معروف. والمقصود بقوله «حث البريد» «واركب جناح البرق»: هو الأمر للناعي بإذاعة النعي في الدنيا بأسرع وسائل الإذاعة، والغرض من ذلك هو إظهار ما للنعي من قيمة وخطر وعلو شأن.

^٣ النَّدمان (بفتح النون الأولى): جمع نديم، وهو الظريف الكيِّس، أو المُجالِس على الشراب. وإسماعيل: هو سمو الخديو إسماعيل.

أَوْدَى الرَّدَى بِمُهَذَّبٍ لَا تَنْتَهِي
صَافِي الْأَدِيمِ أَغْرَأَبْلَجَ لَمْ يَزِدْ
مُتَجَنَّبِ الْخِيَلَاءِ إِلَّا عَزَّةٌ
عَفَّ السَّرَائِرَ وَالْمَلَاخِظَ وَالْخُطَا
مُتَدَرِّعٍ صَبَرَ الْكَرَامِ عَلَى الْأَذَى
نَقَمُوا عَلَيْهِ رَأْيَهُ وَصَنِيْعَهُ
وَالرَّأْيُ إِنِ اخْلَصَتْ فِيهِ سَرِيرَةٌ
وَإِذَا الرِّجَالُ عَلَى الْأُمُورِ تَعَاقَبُوا
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْكَرِيمُ تَحِيَّةٌ
هَذَا الْمَصِيرُ أَكَانَ طَوْلَ سَلَامَةٍ
مَاذَا انْتِفَاعُكَ بِاللَّيَالِي بَعْدَمَا
أَوْ بِالْحَيَاةِ وَقَدْ مَشَى فِي صَفْوِهَا
مَنْ لَمْ يُطِيبْهُ الشَّبَابُ فِدَاؤُهُ
قَسَمَاتُ وَجْهِكَ فِي التَّرَابِ نَخَائِرُ
وَلَكُمْ أَغَارَ عَلَى مُحْيَاً مَاجِدٍ
كَمْ مَوْقِفٍ صَعِبٍ عَلَى مَنْ قَامَهُ
كَبُرَ الْغُضَنْفَرِ يَوْمَ ذَلِكَ زَادَهُ

إِلَّا إِلَيْهِ شَمَائِلُ الرُّؤْسَاءِ
فِي الشَّيْبِ غَيْرَ جَلَالَةٍ وَرُؤَاءٍ^٤
فِي الْعَزِّ حُسْنٌ لَيْسَ فِي الْخِيَلَاءِ
نَزَهُ الْخِلَائِقِ طَاهِرِ الْأَهْوَاءِ^٥
إِنْ الْكَرَامَ مَشَاغُلُ السَّفَهَاءِ
وَالْحَكْمُ لِلتَّارِيخِ فِي الْآرَاءِ
مِثْلُ الْعَقِيدَةِ فَوْقَ كُلِّ مِرَاءٍ^٦
كَشَفَ الزَّمَانُ مَوَاقِفَ النُّظَرَاءِ
أُنْدَى لِقَبْرِكَ مِنْ زُلَالِ الْمَاءِ
أَمْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَلِيلَ بَقَاءِ
مَرَّتْ بِكَ السَّبْعُونَ مَرَّةً عِشَاءٍ^٧
عَادِي السَّنِينَ وَعَاثَ عَادِي الدَّاءِ
حَتَّى يَغْيِبَهُ بِغَيْرِ دَوَاءِ
مَنْ عَفَاً وَتَكَرَّمَ وَحِيَاءِ^٨
وَطَوَى مُحَاسِنَ مَسْمَحٍ مِعْطَاءِ^٩
ذَلَّلَتْهُ وَنَهَضَتْ بِالْأَعْبَاءِ
مَنْ نَخَوَةٍ وَحُمِيَةٍ وَإِبَاءِ^{١٠}

^٤ الرواء في المرء: هو مظهر السيادة والعظمة.

^٥ الملاحظ: جمع ملحظ: اسم مكان لما تقع عليه اللحاظ. يقول: إنه عفيف القلب وعفيف الأعين، فلا يقع لحظه على الريب.

^٦ المرء: الجدل.

^٧ يقصد سبعين عاماً، ولكنه في استعمال لفظ السبعين يجري مجرى العرب الفصحاء في استعمال هذا اللفظ للدلالة على الكثرة فقط لا العدد بعينه، وفي هذا الباب جاء القرآن الكريم «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً»، فليس المقصود عدد الاستغفار، ولكن يراد الدلالة على كثرتة.

^٨ القسَمَات: ملامح وتقاسيم الوجه.

^٩ مسمَح (بفتح الميم): واسع الساحة، وفي القاموس المحيط: «يَقَالُ إِنْ فِيهِ لِمَسْمَحًا كَمَسْكُنٍ؛ أَيِ مَتَسَعًا». والمعطاء: كثير العطاء.

^{١٠} الغضنفر: اسم من أسماء الأسد.

من يَكْذِبُ التَّارِيخَ يَكْذِبُ رَبَّهُ
السَّلَامُ لو لم تُودِ أَمْسِ بِجُرْجِهَا
لو أُخِّرَتْ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكَ سَاعَةٌ
انْفَضَّ غِبَارُكَ عَنْكَ وانظر هل ترى
يا وَيْحَ وَجْهِ الْأَرْضِ أَصْبَحَ مَاتَمًا
من ذَائِدٍ عَنْ حَوْضِهِ أَوْ زَائِدٍ
أَوْ مَانِعٍ جَارًا يُنَاضِلُ دُونَهُ
يَتَقَاذِفُونَ بِذَاتِ هَوْلٍ لم تَهَبْ
من مُحَدَّثَاتِ الْعِلْمِ إِلَّا أَنَّهَا
لَهْفِي عَلَى رُكْنِ الشُّيُوخِ مُهَدَّمًا
وعلى الشَّبَابِ بِكُلِّ أَرْضٍ مَصْرَعٌ
خَرَجُوا إِلَى الْأَوْطَانِ مِنْ أُرُوجِهِمْ
من كُلِّ بَانٍ بِالْمَنِيَةِ فِي الصَّبَا
الْمُرْضِعَاتِ سَكَبْنَ فِي وَجْدَانِهِ
وَقَرَّرْنَ فِي أَذْنِيهِ يَوْمَ فِطَامِهِ
أَبَا الْبَنَاتِ رُزِقَتْهُنَّ كَرَائِمًا

وَيُسَيِّئُ لِلْأَمْوَاتِ وَالْأَحْيَاءِ
أَوَدَّتْ بِهَذِي الطَّعْنَةِ النَّجْلَاءِ^{١١}
لَبِكَتْ عَلَيْكَ بِمَدْمَعِ الْخَنَسَاءِ^{١٢}
إِلَّا غِبَارَ كَتِيبَةٍ وَلَوْاءِ
بَعْدَ الْفَوَارِسِ مِنْ بَنِي حَوَّاءِ
فِي مُلْكِهِ مِنْ صَوْلَةِ وَثَرَاءِ
أَوْ حَافِظِ لِعَهْدِهِ مِيفَاءِ^{١٣}
حَرَمَ الْمَسِيحِ وَلَا جِمَى الْعِذْرَاءِ^{١٤}
إِثْمُ عَوَاقِبُهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ
وَالْحَامِلَاتِ الثُّكُلِ وَالْيَتِمَاءِ^{١٥}
لَهُمْ وَهْلُكَ تَحْتَ كُلِّ سَمَاءِ
كَرْمٌ يَلِيقُ بِهِمْ وَمَحْضُ سَخَاءِ^{١٦}
لَمْ يَتَّخِذْ عِرْسًا سِوَى الْهَيْجَاءِ^{١٧}
حُبِّ الدِّيَارِ وَبِغْضَةِ الْأَعْدَاءِ
أَنْ الدِّمَاءَ مُهَوَّرَةَ الْعَلِيَاءِ
وَرُزِقَتْ فِي أَصْهَارِكَ الْكُرْمَاءِ

^{١١} يشير إلى اتفاق موته مع نشوب الحرب العالمية، كأنه يقول: إن اتفاق موت المرثي مع نشوب الحرب لم يكن إلا لأن المتوفى كان سلمًا لقومه يُشَبِّهُ السلم العام للناس، فهو والسلم توءمان.

^{١٢} يقول في هذا البيت: إن السلم لو عاشت بعد الفقيـد ساعة لبكت عليه بدمع الخنساء، وهي شاعرة عاشت في صدر الإسلام اشتهرت بمراثيها في أخيها صخر، وهذا البيت تأكيد لمعنى البيت قبله.

^{١٣} ميفاء: كثير الوفاء.

^{١٤} بذات هول: أي مقذوفات موصوفة بأنها ذات هول، وهذا من باب إقامة الصفة مقام الموصوف.

^{١٥} الثكل: فقد الأبناء. واليتماء: من اليتـم، وهو في الناس فقد الأب، ويكون في غير الناس فقد الأم.

^{١٦} المحض: الخالص من كل شيء.

^{١٧} يقال: بنى على فلانة، إذا اتخذها زوجة. والعـرس بكسر العين: الزوجة. يصف هذا الشباب السخي بروحه للأوطان بأنه يألف الحروب، ويحبها كما يحب غيره من الناس الزوجات والعرائس والعيشة الوداعة.

لا تذهبنَّ على الذكورِ بحسرة
وأرى بُناةَ المجدِ يثلمُ مجدهم
إن البناتِ ذخائرُ من رحمةٍ
والساهراتُ لعلَّةٌ أو كُبرةٍ
والباكياتُك حينَ ينقطعُ البُكى
والذاكراتُك ما حيينَ تحدُّثًا
بالأمسِ عزَّاهنَّ فيكِ عقائلُ
وأبيكُ ما الدنيا سوى معروفها
أَجَزَعَنَ أن يجريَ عليهنَّ الذي
عذراَ لهن إذا ذهبنَ مع الأسى
ما كلُّ نبيٍّ وليدٌ يُسمَّى والدًا
هَبْنَنَ في عقلِ الرجالِ وحلمهم

الذَّكرُ نعمَ سُلالةِ العظماءِ
ما خَلَّفُوا من طالِحٍ وُغْثاءِ^{١٨}
وكنوزُ حبٍّ صادقٍ ووفاءٍ
والصابراتُ لشدةٍ وبلاءٍ
والزائراتُك في العراءِ النَّائي^{١٩}
بسؤالِ الحُرَماتِ والآلاءِ
واليومَ جامَلهنَّ فيكِ رِثائي
والبرُّ كلُّ صَنيعَةٍ بجزاءٍ
من قَلِهنَّ جرى على «الزَهراء»^{٢٠}
وطلبنَ عندَ الدمعِ بعضَ عزاءٍ
كم من أبٍ كالصخرةِ الصَّماءِ
أقلوبُهن سوى قلوبِ نساءٍ

^{١٨} الغثاء، بضم الغين: الفاسد.

^{١٩} العراء النَّائي: الخلاء البعيد، ويعني به هنا القبور.

^{٢٠} الزهراء: فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلوات الله عليه، والذي جرى عليها هو موت أبيها سيد الخلق.

أبو هيف بك^١

اجعلِ رِثاءَكَ للرجالِ جزاءً
إنَّ الديارَ تُريقُ ماءَ شئونها
تُكَلُّ الرجالُ من البنينَ وإنما
يجزَعَنَّ للعلمِ الكبيرِ إذا هوى
عَلِمُ الشريعةِ أدركته شريعةٌ
عانى قضاءَ الأرضِ عِلْمَ مُحَصِّلٍ
ومضى وفيه من الشبابِ بقيَّةٌ
إنَّ الشبابَ يُحِبُّ جَمًّا حافلاً

وابعثه للوطنِ الحزينِ عزاءً
كالأمهاتِ وتندبُ الأبناء^٢
تُكَلُّ الممالكُ فقدُها العلماءُ
جزعَ الكتائبِ قد فقدنَ لواء^٣
للموتِ يَنظُمُ حكمُها الأحياءُ^٤
واليومَ عالَجَ للسماةِ قضاءً
لِلنفعِ أَرجى ما تكونُ بقاءً
وتُحِبُّ أيامُ الشبابِ مِلاءً^٥

^١ هو فقيه العلم والقانون عبد الحميد بك أبو هيف، شغل منصب الأستاذ بكلية الحقوق، ومنصب القيم على دار الكتب المصرية، وقد وقف في معارضة مشروع ملنر موقفاً قانونياً لامعاً، فاقترن اسمه من ذلك الحين بأعلام المجاهدين الكبار في قضية البلاد، وقد توفي سنة ١٩٢٦م.

^٢ ماء الشئون: الدموع.

^٣ الكتائب: جمع كتيبة، وهي الجماعة أو الفرقة من الجيش لها لواء؛ أي رئيس تلتف وحدها حوله.

^٤ الشريعة: القانون.

^٥ الملاء: الأغنياء المتمولون، الواحد منهم مليء، ومن معاني الملاء أيضاً: الحسنُ القضاء. يقول: إن الشباب يُحِبُّ كثيراً على أي حال، ولكن أيام الشباب يُحِبُّون أكثرَ وهن في غنى من المال الكثير ومن تولى المناصب، كالحال في شباب الفقيه.

بالأُمس كانت لابن هيفٍ غضبٌ
مَشَتْ البلادُ إلى رسالةٍ «ملنر»
فلمحتُ أعرجَ في زوايا الحقِّ لم
ارتدَّت العاهاتُ عن أخلاقه
عطفته عطفَ القوسِ يومَ رمايةٍ
لَمَّا رأى «التقرير» ينفثُ سُمَّهُ
هتَكَ الحمايةَ والرجالَ وراءها
ما قَبَّحوا بالصبح من أشباحها
يا قيِّمَ الدارِ التي قد أخرجت
وترى لديها الواردين فلا ترى
وتُجالِسُ العلماءَ في حُجراتِها
تَكْفِيكَ شيطانَ الفراغِ وتعتني
دارُ الذخائرِ كنتَ أكملَ كُنْهها

للحقِّ نَذَرُها يَدًا بيضاءً^٦
وتحقَّرتُ أرضًا لها وسماءً^٧
أعلمُ عليه ذمَّةَ عرجاءً^٨
لَسُمُوهُنَّ وحلَّتِ الأعضاء
وثَنَّتْه كالماضي فزادَ مضاءً^٩
سبقَ الحِوَاةَ فأخرجَ الرِّقْطاءَ^{١٠}
يتلمَّسون لها السُّتورَ رياءً
راحوا إليك فحسَّنوه مَساءً
للمُدْلِجين مَنارةً زهراءً^{١١}
إلا ظمَاءً ينزلون رواءً^{١٢}
وتُسامِرُ الحكماءَ والشعراءَ
بالجاهلين تردُّهم عُقلاءَ
مجموعةً وأتمَّها أجزاءَ

^٦ يريد غضبته على مشروع ملنر، وموقفه في طليعة معارضيه.

^٧ اللورد ملنر: هو أحد وزراء إنجلترا، ورسالته التي مشت البلاد إليها وتحقَّرت لها هي تقريره المشهور، بُعث من لندن مع أربعة من رجال مصر الساسة، وكادت البلاد تتأثر بهذا المشروع، لولا الفقيه ومعه نفر قليل جدًّا قاموا بحملتهم ضده، وفي هذه الحملة نشر الفقيه بحثًا قانونية في تنفيذ المشروع، كانت من أهم مراجع رجال السياسة في رفضه بعد.

^٨ كانت ساق الفقيه مبتورة، وكان يمشي على ساقٍ صناعية.

^٩ في هذا البيت وصف لهيئة الأعرج، بلغ من جماله أنه قد يحبَّب المشية العرجاء للناس، فتأمل. والماضي: السيف.

^{١٠} قوله «سبق الحِوَاةَ فأخرج الرِّقْطاءَ»: لا يمكن أن يكون هناك أبلغ في الإعجاز وأدق في الإيجاز من هذا الكلام؛ فقوله «سبق الحِوَاةَ»: صورةٌ كاملة تُريك كيف وثب الفقيه فوقف أمام المشروع، كما يثب الحايي فيقف أمام جحر الحية؛ وقوله «فأخرج الرِّقْطاءَ»: أعظم ما يمكن في تصوير ذلك المشروع، فقد نبَّه على السُّمِّ الكامن فيه، بالرغم من جماله الظاهري ونعومته الشبيهة بنعومة الحية.

^{١١} الدار: هي دار الكتب المصرية، وكان الفقيه يشغل منصب مديرها.

^{١٢} الرواء: الماء الكثير.

لَمَّا خَلَتْ مِنْ كَنْزِ عِلْمِكَ أَصْبَحْتَ
هَزَّ الشَّبَابُ إِلَى رِثَائِكَ خَاطِرِي
«عَبْدَ الْحَمِيدِ» أَلَا أُسْرُكُ حَادِثًا
قُمْ مِنْ صَفُوفِ الْحَقِّ تَلَقَّ كَتِيبَةً
وَتَرَ الْكِنَانَةَ شَبِيبَهَا وَشَبَابَهَا
جَمَعَ السَّلَامُ الصُّحُفَ مِنْ غَارَاتِهَا
فِي كُلِّ وَجْدَانٍ وَكُلِّ سَرِيرَةٍ
وَعَدَا إِلَى دِينِ الْعَشِيرَةِ يَنْتَهِي
لَا يُحْجَبُونَ عَلَى تَجَنُّبِهِمْ وَلَا
وَالْأَهْلُ لَا أَهْلًا بِحَبْلِ وَلَائِهِمْ
كَذَبَ الْمُرِيبُ يَقُولُ بَعْدَ غَدٍ لَنَا
قَلْبِي يُحَدِّثُنِي وَلَيْسَ بِخَائِنِي
يَا «سَعْدُ» قَدْ جَرَتْ الْأُمُورُ لَغَايَةً
سَبَحَانَهُ جَمَعَ الْقُلُوبَ مِنَ الْهَوَى
الْفُلُكُ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسِّرُ أَمْرُهَا
وَتَأْهَبَتْ بِكَ تَسْتَعِدُّ لَزَاخِرِهَا
رَجَعَتْ بِرَاكِبِهَا إِلَى رُبَّانِهَا
فَاشْدُدْ بِأَرْبَابِ النُّهَى سَكَّانَهَا
مَنْ ذَا الَّذِي يَخْتَارُ أَهْلَ الْفَضْلِ أَوْ
أَخْرِجْ لِأَبْنَاءِ الْحَضَارَةِ مَجْلَسًا

مِنْ كُلِّ أَعْلَاقِ الْكُنُوزِ خِلَاءٌ^{١٣}
فَوَجَدْتَ فِيَّ وَفِي الشَّبَابِ وَفَاءً
يَكْسُو عِظَامَكَ فِي الْبِلَى السَّرَاءُ^{١٤}
مَلْمُومَةً وَتَرَ الصَّفُوفَ سَوَاءً
دُونَ «الْقَضِيَّةِ» عُرْضَةً وَفِدَاءً
وَتَأَلَّفَ الْأَحْزَابَ وَالزُّعَمَاءَ
خَلَفَ الْوِدَادُ الْحَقْدَ وَالْبَغْضَاءَ
مَنْ خَالَفَ الْأَعْمَامَ وَالْآبَاءَ
يَجِدُونَ إِلَّا الصَّفْحَ وَالْإِغْضَاءَ
حَتَّى تَرَاهُمْ بَيْنَهُمْ رُحَمَاءَ
خُلَفَ يُعِيدُ وَيُبْدِئُ الشَّحْنَاءَ
إِنْ الْعُقُولَ سَتَقْهَرُ الْأَهْوَاءَ
اللَّهُ هَيَّأَهَا لَنَا مَا شَاءَ^{١٥}
شَتَّى وَقَوَّى حَوْلَهُ الضُّعْفَاءَ
وَاسْتَقْبَلَتْ رِيحَ الْأُمُورِ رُخَاءَ
تَطَأَ الْعَوَاصِفَ فِيهِ وَالْأَنْوَاءَ
تُلْقِي الرِّجَاءَ عَلَيْهِ وَالْأَعْبَاءَ
وَاجْعَلْ مَلَكَ شِرَاعِهَا الْأَكْفَاءَ^{١٦}
يَزِنُ الرِّجَالَ إِذَا اخْتِيَارَكَ سَاءَ
يُبْقِي عَلَى اسْمِكَ فِي الْعُصُورِ ثَنَاءً

^{١٣} أَعْلَاقِ الْكُنُوزِ: نَفَائِسُهَا.

^{١٤} الْحَادِثُ: هُوَ حَادِثُ ائْتِلَافِ الْأَحْزَابِ الْمِصْرِيَّةِ فِي وَقْتِ نَظْمِ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ الَّتِي تَعُدُّ مِنْ مَفَاخِرِ الْمَرَاثِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ.

^{١٥} سَعْدُ: هُوَ الزَّعِيمُ الْخَالِدُ الذَّكَرُ سَعْدُ بَاشَا زَغْلُولُ، وَكَانَ رَئِيسَ الْبَرْلَمَانِ فِي عَهْدِ ذَلِكَ الْاِئْتِلَافِ.

^{١٦} السَّكَّانُ: مُؤَخَّرُ السَّفِينَةِ. وَمِلَاكُ الشَّيْءِ: قَوَامُهُ الَّذِي يُمْلِكُ بِهِ.

مولانا محمد علي^١

بيتٌ على أرضِ الهدى وسماؤه
الفتحُ من أعلامه والطُّهرُ من
تَحَنُّو مَنَّاكِبُهُ على شعبِ الهدى
مَنْ ذا يُنَازِعُنَا مَقَالَدَ بَابِهِ
ومحمدٌ صَلَّى على جنَّباتِهِ
واليومَ ضَمَّ النَّاسَ مَاتَمُ أرضِهِ
يا «قدسٌ» هِيَّ من رياضِكَ رُبُوبَةً
هو من سِيوفِ اللهِ جَلَّ جلالُهُ
فَتَحَ النَّبِيُّ لَهُ مُنَاخَ بُراقِهِ
بطلُ حقوقِ الشَّرْقِ من أحمالِهِ
لم تُنْسِهِ الهِنْدُ العَزِيزَةَ رُقَّةً
وَقَبَاوَهُ نَسَجَ الهِنْدُ فَهَلْ تُرى

الحَقُّ حَائِطُهُ وَأَسْ بُنَائِهِ
أوصافُهُ وَالْقُدُسُ من أَسْمَائِهِ
وَتُطِلُّ سُدَّتُهُ على سِينَائِهِ^٢
وجلالُ سُدَّتِهِ وَطُهرَ فَنَائِهِ
واستقبلَ السَّمَحَاتِ في أَرْجَائِهِ
وَحَوَى المَلَائِكِ مَهْرَجَانُ سَمَائِهِ
لِنَزِيلِ تُرْبِكَ واحْتَفِلْ بِلِقَائِهِ^٣
أَوْ من سِيوفِ الهِنْدِ عِنْدَ قَضَائِهِ
وَمَعَارِجَ التَّشْرِيفِ من إِسْرَائِهِ
وقَضِيَّةُ الإِسْلَامِ من أَعْبَائِهِ
لِلشَّرْقِ أَوْ سَهْرًا على أَشْيَائِهِ
دَفَنُوا الزَّعِيمَ مُكَفَّنًا بِقَبَائِهِ^٤

^١ هو كبير زعماء الهند المسلمين، توفي سنة ١٩٣١م، وكان لا يألُو جهدًا في خدمة الإسلام في شتى أقطاره، وقد أقيمت له في القاهرة حفلة تأبين كبيرة أُلقيت فيها هذه القصيدة.

^٢ السُّدَّة: باب الدار.

^٣ يا قدس: لأنه دُفِن في القدس.

^٤ القباء (بفتح القاف): نوع من الثياب.

«النيل» يذكر في الحوادث صوته
 قل للزعيم محمد نزل الأسى
 فمشى إليك بجفنه وبدمه
 اجتزته فحواك في أطرافه
 ولقد تعود أن تمر بأرضه
 نم في جوار الله ما بك غربة
 الفتحة وهو قضية قدسية
 أفتى بدفك عند سيده القرى
 بلد بنوه الأكرمون قصورهم
 قد عشت تنصره وتمنح أهله

والتترك لا ينسون صدق بلائه
 ب «النيل» واستولى على بطحائه^٥
 وإلى أخيك بقلبه وعزائه^٦
 ولو انتظرت حواك في أحشائه
 مر الغمام بظله وبمائه
 في ظل بيت أنت من أبنائه
 يا طالما ناضلت دون لوائه
 مفت أراد الله من إفتائه^٧
 وقبورهم وقف على نزلائه^٨
 عوناً فكيف تكون من غربائه

^٥ محمد: هو المرثي.

^٦ يريد بأخيه: مولانا شوكت علي، وقد آلت إليه زعامة المسلمين في الهند بعد أخيه.

^٧ سيدة القرى المقصودة: هي القدس الشريف، ولا بد للدفن في هذا الحرم من تصريح ديني يُصدّره مفتي الإسلام هناك، ولا يُصرّح بذلك إلا لمن ثبت نفعه للإسلام وللعرب.

^٨ يقصد بالبلد: فلسطين وسوريا جميعاً، وكثيراً ما هتف أمير الشعراء بأهل هذه البلاد إعجاباً بأخلاقهم.

سيد درويش^١

كلَّ يومٍ مِهْرَجَانُ كَلَّلُوا
لم يَعْلَمْ قَوْمَهُ حَرْفًا وَلَمْ
جُومِلِ الأَحْيَاءُ فِيهِ وَقَضَى
مَا أَضَلَّ النَّاسَ؟ حَتَّى الْمَوْتُ لَمْ
إِنَّمَا يُبْكِي شُعَاعُ نَابِغٍ
مَلَأَ الْأَفْوَاهَ وَالْأَسْمَاعَ فِي
حَائِطِ الْفَنِّ وَبَانِي رُكْنِهِ
مَنْ أَنَاسٍ كَالدَّرَارِيِّ جُدِدٍ
غَرَسَ النَّاسُ قَدِيمًا وَبَنَوْا
غَيْرَ غَرَسٍ نَابِغٍ أَوْ حَجَرٍ
مَنْ يَدٍ مَوْهوبَةٍ مُلْهِمَةٍ

فِيهِ مَيْتًا بَرِيَّاحِينَ الثَّنَاءُ^٢
يُضِيءُ الْأَرْضَ بِنُورِ الْكَهْرَبَاءِ
شَهَوَاتِ أَهْلِهِ وَالْأَصْدِقَاءِ
يَخْلُ مِنْ زُورٍ لَهُمْ أَوْ مِنْ رِيَاءٍ^٣
كَلَّمَا مَرَّ بِهِ الدَّهْرُ أَضَاءَ
ضَجَّةَ الْمَحْيَا وَفِي صَمْتِ الْفَنَاءِ
«مَعْبُدُ» الْأَلْحَانِ «إِسْحَاقُ» الْغِنَاءِ^٤
فِي سَمَوَاتِ اللَّيَالِي قُدَمَاءِ
لَمْ يَدُمْ غَرَسٌ وَلَمْ يَخْلُدِ بِنَاءُ
عَبْقَرِيٍّ فِيهِمَا سِرُّ الْبَقَاءِ
تَغْرُسُ الْإِحْسَانَ أَوْ تَبْنِي الْعَلَاءَ

^١ الشيخ سيد درويش: كان يُعَدُّ — رحمه الله — في طليعة المجددين في الموسيقى العربية، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلة أُقيمت لذكراه في سنة ١٩٣١م.

^٢ المهرجان: الاحتفال، معرَّب.

^٣ الزور: الكذب.

^٤ معبد وإسحاق: رجلان من أشهر رجال الغناء والموسيقى.

بُلْبُلٌ إِسْكَندَرِيٌّ أَيْكُهُ
هَبَطَ الشَّاطِئُ مِنْ رَابِيَةٍ
يَحْمِلُ الْفَنَّ نَمِيرًا صَافِيًا
حَلَّ فِي وَادٍ عَلَى فُسْحَتِهِ
يَمْلَأُ الْأَسْحَارَ تَغْرِيدًا إِذَا
رَبَمَا اسْتَلْهَمَ ظَلَمَاءَ الدُّجَى
وَرَمَى أُذُنِيهِ فِي نَاحِيَةٍ
فَتَلَقَّى فِيهِمَا مَا رَاعَهُ
أَيُّهَا الدَّرْوِيشُ قُمْ بَثَّ الْجَوَى
اضْرِبِ الْعُودَ تَفْهُ أَوْتَارُهُ
حَرِّكَ النَّايَ وَنُحْ فِي غَابِهِ
وَاسْكُبِ الْعَبْرَةَ فِي آمَاقِهِ
وَاسْمُ بِالْأَرْوَاحِ وَارْفَعْهَا إِلَى
لَا تُرِقْ دَمْعًا عَلَى الْفَنِّ فَلَنْ
هُوَ طَيْرُ اللَّهِ فِي رَبْوَتِهِ
رَوْحُ اللَّهِ عَلَى الدُّنْيَا بِهِ
تَكْتَسِي مِنْهُ وَمَنْ آذَارَهُ
وَإِذَا مَا حُرِّمَتْ رِقَّتَهُ
وَإِذَا مَا سَتَّمَتْ أَوْ سَقِمَتْ

ليس في الأرض ولكن في السماء^٥
ذات ظلٍّ ورياحينَ وماء
غَدَقَ النَّبْعُ إِلَى جَيْلٍ ظِمَاءٍ^٦
عَزَّتْ الطَّيْرُ بِهِ إِلَّا الْحِدَاءُ
صَرَفَ الطَّيْرَ إِلَى الْأَيْكِ الْعِشَاءُ
وَأَتَى الْكُوكَبَ فَاسْتَوَحَى الضِّيَاءُ
يَخْلُسُ الْأَصْوَاتُ خُلْسَ الْبَبْغَاءُ
مَنْ خَفِيَ الْهَمْسِ أَوْ جَهَرَ النَّدَاءُ
وَاشْرَحَ الْحَبَّ وَنَاجَ الشَّهْدَاءُ
بِالَّذِي تَهْوَى وَتَنْطِقُ مَا تَشَاءُ
وَتَنْفَسُ فِي الثُّقُوبِ الصُّعْدَاءُ^٧
مَنْ تَبَارِيحَ وَشَجْوٍ وَعِزَاءُ
عَالَمِ اللَّطْفِ وَأَقْطَارِ الصِّفَاءِ^٨
يَعْدِمُ الْفَنُّ الرُّعَاةَ الْأُمْنَاءُ
يَبْعَثُ الْمَاءَ إِلَيْهِ وَالْغِذَاءُ
فَهِيَ مِثْلُ الدَّارِ وَالْفَنِّ الْفِنَاءُ
نَفْحَةُ الطَّيِّبِ وَإِشْرَاقُ الْبَهَاءِ^٩
فَشَتَّ الْقَسْوَةَ فِيهَا وَالْجَفَاءُ
طَافَ كَالشَّمْسِ عَلَيْهَا وَالْهَوَاءُ

^٥ كان رحمه الله من نشء الإسكندرية. والأيك: في الأصل هو الشجر الملتف الكثير. يقول: إنه إذا كان لكل بلبل من أيك يتخذة عشًا، فهذا البلبل الإسكندري أيكه ليس محله الأرض، ولكن السماء هي محله اللائق به.

^٦ الغدق (بفتح الغين والدال): الكثير.

^٧ الصعداء (بضم الصاد وفتح العين): تنفّس ممدود.

^٨ عالم اللطف: هو عالم المعاني والأرواح، ولا تسمو إليه الأنفس إلا في أوقات الصفاء والانشراح.

^٩ آذار: شهر من فصل الربيع، أعجمي.

وَإِذَا الْفَنُّ عَلَى الْمُلْكِ مَشَى
قَدْ كَسَا الْكَرْنُكَ مَصْرًا مَا كَسَا
يُرْسِلُ اللَّهُ بِهِ الرُّسُلَ عَلَى
كُلِّمَا أَدَّى رَسُولٌ وَمَضَى
سَيِّدَ الْفَنِّ اسْتَرْخَ مِنْ عَالَمٍ
رَبِّمَا ضِيقَتْ فَلَمْ تَنْعَمْ بِهِ
لَقَدْ اسْتَخْلَفَتْ فَنًّا نَابِغًا
إِنْ فِي مُلْكٍ فَوَادٍ بُلْبَلًا
نَاحِلٌ كَالْكُرَّةِ الصَّغْرَى سَرَى
يَسْتَحْيِ أَنْ يَهْتَفَ الْفَنُّ بِهِ
ظَهَرَ الْحُسْنُ عَلَيْهِ وَالرُّوَاءُ
مَنْ سَنَّا أَبْلَى اللَّيَالِي وَسَنَاءُ
فَتَرَاتٍ مِنْ ظُهُورٍ وَخَفَاءُ
جَاءَ مَنْ يُوفِي الرِّسَالَاتِ الْأَدَاءُ
آخِرُ الْعَهْدِ بِنُعْمَاهُ الْبَلَاءُ
وَسَرَى الْوَحْيُ فَنَسَّكَ الشَّقَاءُ
دَفَعَ الْفَنُّ إِلَيْهِ بِاللَّوَاءِ
لَمْ يُتَخَ أَمْثَالُهُ لِلْخُلَفَاءِ^{١٠}
صَوْتُهُ فِي كُرَّةِ الْأَرْضِ الْفَضَاءِ
وَجَمَالُ الْعَبَقْرِياتِ الْحَيَاءِ

^{١٠} يُرَادُ بِالْبَلْبِلِ هُنَا: الْمَوْسِيقَارِ النَّابِغَةُ الْأُسْتَاذُ مُحَمَّدُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، وَهُوَ الَّذِي حَمَلَ لَوَاءَ التَّجْدِيدِ فِي الْمَوْسِيقَى بَعْدَ الشَّيْخِ سَيِّدِ دُرُوشِ.

عمر المختار^١

رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرِّمَالِ لِوَاءَ
يَا وَيَحَهُم نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ
مَا ضَرَّ لَوْ جَعَلُوا الْعَلَاقَةَ فِي غَدٍ
جُرْحٌ يَصِيحُ عَلَى الْمَدَى وَضَحِيَّةُ
يَا أَيُّهَا السِّيفُ الْمَجْرَدُ بِالْفَلَا
تِلْكَ الصَّحَارَى غَمْدٌ كُلُّ مُهَنْدٍ
وَقَبُورُ مَوْتَى مِنْ شَبَابٍ أُمِّيَّةِ
يَسْتَنْهَضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءٍ^٢
تُوجِي إِلَى جِيلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءُ^٣
بَيْنَ الشُّعُوبِ مَوَدَّةً وَإِخَاءَ
تَتَلَمَّسُ الْحَرِيَّةَ الْحَمْرَاءُ^٤
يَكْسُو السِّیُوفَ عَلَى الزَّمَانِ مَضَاءَ
أَبْلَى فَأَحْسَنَ فِي الْعَدُوِّ بَلَاءَ
وَكَهُولِهِمْ لَمْ يَبْرَحُوا أَحْيَاءَ

^١ شهيد المسلمين والعرب، بطل طرابلس الخالد عمر المختار، هو من الأسرة السنوسية أصحاب الطريقة السنوسية ذات النفوذ الروحاني العظيم في كثير من أقطار الإسلام، ظل يقاتل الطليان في سبيل الذود عن وطنه وقومه، حتى قبضوا عليه وأعدموه شنقاً سنة ١٩٣١م، وأُشيعَ وقتئذٍ أنهم سلكوا في إعدامه سبلاً بشعة متوحشة، ولم يرحموا سنَّه التي نَيَْقَتْ على التسعين.

^٢ ركز اللواء: غرزه في الأرض. وهذا استعمالٌ لغويٌّ مشتق من الركيزة، وهي قطع الفضة والذهب والمعادن، كان العرب في الجاهلية يحفرون لها في الأرض، ويُسمونها الدفائن، فقوله «ركزوا رفاتك» استعمالٌ أُريدَ به الإشارة إلى أن هذا الرفات من النفائس والذخائر، التي يُضُنُّ بها ويُحرَصُ عليها.

^٣ المنار: موضع النور، وجعلها مناراً من دم هو لون من التشبيه العجيب، كأنه يعجب كيف جعلوا موضع النور والائتناس محلاً للتفجير والإزعاج.

^٤ الحريَّة الحمراء: هي المكتسبة بالدم، إشارة إلى قولهم: الحرية شجرة لا تنبت إلا بالدماء.

لو لاذَ بالجوزاءِ منهم مَعْقِلٌ
فتحوا الشمالَ سُهولَه وجبالَه
وبنوا حضارتهم فطاوَلَ ركنُها
خُيِّرَت فاخترت المَبيتَ على الطَّوى
إنَّ البطولةَ أن تموتَ من الظَّما
أفريقيا مهدُ الأسودِ ولحدها
والمسلمون على اختلافِ ديارهم
والجاهلية من وراءِ قبورهم
في ذمة الله الكريم وحفظه
لم تَبَقِ منه رحي الوقائع أعظمًا
كرفات نَسِرَ أو بقيَّة ضيغم
بطلُ البداوة لم يكن يغزو على
لكن أخو خيل حمى صهواتها
لبى قضاء الأرض أمس بمهجة
وافاه مرفوع الجبين كأنه
شيخ تمالك سنه لم ينفجر
وأخو أمور عاش في سرائها
الأسدُ تزارُ في الحديد ولن ترى
وأتى الأسيرُ يجرُّ ثِقْلَ حديدِه

دخلوا على أبراجها الجوزاء^٥
وتوغلوا فاستعمروا الخضراء
«دار السلام» و«جَلَقَ» السماء^٦
لم تبينَ جاهًا أو تلمَّ ثراء^٧
ليس البطولةُ أن تُعَبَّ الماء
ضجَّت عليك أراجلاً ونساء
لا يملكون مع المصابِ عزاء
يبكون زيدَ الخيل والفلاحاء^٨
جسدُ ب «برقة» وُسَدَ الصحراء^٩
تبلى ولم يُبقِ الرِّماحُ دماء
باتا وراءَ السَّافيات هباء^{١٠}
«تَنك» ولم يكُ يركبُ الأجواء^{١١}
وأدارَ من أعرافها الهيجاء
لم تخش إلا للسماءِ قضاء
سُقراطُ جرَّ إلى القضاةِ رداء
كالطفلٍ من خوفِ العقابِ بكاء
فتغيَّرت فتوقَّع الضراء
في السَّجنِ ضرعاًمًا بكى استخذاء
أسدٌ يُجرُّ حياءَ رَقطاء

^٥ الجوزاء: نجمٌ معروف في السماء.

^٦ دار السلام: بغداد. وجَلَقَ: دمشق.

^٧ اللَّم: الجمع.

^٨ الفلاحاء: لقب عنترة العبسي. أما زيد الخيل فعَلِمَ على فارس بهذا الاسم.

^٩ برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا، فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١م، وسُمِّيَت باسم عاصمتها

القديمه، وقد اشتهرت بوقائعها الحربية المتعددة التي حدثت بين العرب والطليلان.

^{١٠} السافيات: الرياح.

^{١١} تنك: هي الدَّبابة المستعملة في الحروب.

عَضَّتْ بِسَاقِيهِ الْقَيُودُ فَلَمْ يَنْوُ
تَسْعُونَ لَوْ رَكِبْتَ مَنَاكِبَ شَاهِقٍ
خَفِيتَ عَنِ الْقَاضِي وَفَاتَ نَصِيبُهَا
وَالسُّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبٍ مُهَذَّبٍ
دَفَعُوا إِلَى الْجَلَادِ أَغْلَبَ مَا جَدَا
وَيُشَاطِرُ الْأَقْرَانَ ذُخْرَ سِلَاحِهِ
وَتَخَيَّرُوا الْحَبْلَ الْمَهِينِ مَنِيَّةً
حَرَمُوا الْمَمَاتَ عَلَى الصَّوَارِمِ وَالْقَنَا
إِنِّي رَأَيْتُ يَدَ الْحَضَارَةِ أُولَعَتْ
شَرَعَتْ حُقُوقَ النَّاسِ فِي أَوْطَانِهِمْ
يَا أَيُّهَا الشَّعْبُ الْقَرِيبُ أَسَامِعْ
أَمْ أَلْجَمْتَ فَآكَ الْخَطُوبُ وَحَرَّمْتَ
نَهَبَ الزَّعِيمُ وَأَنْتَ بَاقٍ خَالِدٌ
وَأَرْخُ شِيُوخَكَ مِنْ تَكَالِيفِ الْوَغَى

وَمَشَتْ بِهِيْكَلَهُ السَّنُونَ فَنَاءً
لَتَرْجَلَتْ هَضْبَاتُهُ إَعْيَاءً^{١٢}
مَنْ رَفِقَ جُنْدٍ قَادَةً نُبْلَاءً
عَرَفَ الْجُدُودَ وَأَدْرَكَ الْأَبَاءَ
يَأْسُو الْجِرَاحَ وَيُطْلِقُ الْأُسْرَاءَ
وَيَصُفُّ حَوْلَ خَوَانِهِ الْأَعْدَاءَ^{١٣}
لَلَّيْثِ يَلْفِظُ حَوْلَهُ الْحَوْبَاءَ^{١٤}
مَنْ كَانَ يُعْطِي الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ
بِالْحَقِّ هَدْمًا تَارَةً وَبِنَاءً
إِلَّا أَبَاةَ الضَّيِّمِ وَالضُّعْفَاءَ
فَأَصَوْغَ فِي عُمَرِ الشَّهِيدِ رِثَاءَ
أُذُنَيْكَ حِينَ تُخَاطَبُ الْإِصْغَاءَ
فَانْقُدْ رِجَالَكَ وَاخْتَرِ الزُّعْمَاءَ
وَاحْمِلْ عَلَى فِتْيَانِكَ الْأَعْبَاءَ

^{١٢} الشاهق: الجبل. والتسعون: عامًا التي يحدد بها عمر المرثي حين قبضوا عليه ليعدموه.

^{١٣} الخوان: مائدة الطعام.

^{١٤} الحوباء: النفس.

عبد الحليم العلايلي بك^١

لقد لبى زعيمكم النداء
وإن كان المعزى والمُعزى
فَجَعْنَا كُلُّنَا بَعْلَائِي
أَرْقُ شَبَابٍ دَمِيَاظٍ عَلَيْهَا
وخيرُ بيوتها كرمًا وتقوى
فتى كالرمح عاليةً وعُودًا
وأعطى المالَ والهممَ العوالي
شبابٌ ضارَعَ الرِّيحَانَ طِيبًا
وجُنْدِي الْقَضِيَّةِ مِنْذُ قَامَتْ
ورُوعَ شَيْخُهَا الْعَالِي بِيَوْمٍ
عزاءٌ أهلَ دَمِيَاظٍ عِزَاءُ
وكلُّ الناسِ في البلوى سواءُ
كَرُكِنِ النُّجْمِ أَوْ أُسْنَى عِلَاءُ
وأنشطهم لحاجتها قضاءُ
وأصلًا في السَّيَادَةِ وانتماءُ
وكالصَّمصَمِمْ إِفْرِنْدًا وَمَاءُ^٢
ولم يُعْطِ الْكَرَامَةَ وَالْإِبَاءُ
وَنَارَعَهُ الْبَشَاشَةَ وَالْبَهَاءُ
تَعَلَّمَ تَحْتَ رَايَتِهَا اللَّقَاءُ
فَكَانَ بِمَنْكَبِيهِ لَهُ وَقَاءُ^٣

^١ عبد الحليم العلايلي: كان عالية دمياط، توفي سنة ١٩٣٢م، بعد أن ترك له في القضية المصرية مواقف مذكورة. اشتهر منذ نشأ بعلو الهمة ونفوذ الكلمة، فانتُخب للمجالس النيابية بالنيابة عن دائرة دمياط عدة مرات، وانتُخب سكرتير حزب الأحرار الدستوريين، فكان في رجال ذلك الحزب ممن يُشار إليهم، وكان من أمير الشعراء بمنزلة الصَّهر والصديق.

^٢ عالية الرمح: نصفه الأعلى الذي يلي السَّنان. والصمصام: السيف. وإفْرِنْدَه وماؤه: كلاهما تمييز لجوهره.

^٣ يقصد بـ «شيخها العالي»: المغفور له سعد باشا زغلول.

سعى لضميره ولوجه مصر
ونعش كالغمام يرف ظلًا
ولم تقع العيون عليه إلا
عجبنا كيف لم يخضر عودًا
مشت دمياط فالتفت عليه
بني دمياط ما شيء بباقي
تعالى الله لا يبقى سواه
وأنتم أهل إيمان وتقوى
ملأتم من بيوت الله أرضًا
ولا تستقبلون الفجر إلا
وترتقبون مطلع صغارًا
وكم من موقف ماض وقفت
دفعتم غارة شعواء عنه
أخي «عبد الحليم» ولست أدري
وكم صحّ الوداد فكان صهرًا
عجيب ترك الدنيا سقيمًا
وكنّا حين يعضل كل داء
مضت بك آلة حدباء كانت
وسارت خلفك الأحزاب صفًا
تولّف بينهم ميتًا وتبني

ولم يتولّ ينتظر الجزاء
إذا ذهب الزحام به وجاء
أثار الحزن أو بعث البكاء
وقد حمل المروءة والوفاء
تُنازعُه الذخيرة والرجاء
سوى الفرد الذي احتكر البقاء
إذا وردت بريته الفناء
فهل تلقون بالعتب القضاء
ومن داعي البكور لها سماء
على قدم الصلاة إذا أضاء
وتستيقون غرته نساء
فكنتم فيه للوطن الفداء
وذدتم عن حواضره البلاء
أدعو الصّهر أم أدعو الإخاء
وكان كأقرب القربي صفاء
وكنت النحل تملؤها شفاء
نجيء إليك نجعلك الدّواء
على الزمن المّطيّة والوطاء^٥
وسرت فكنّت في الصفّ اللّواء
كعهديك في الحياة لهم ولأء

^٤ يريد تشبيهه المساعي الكثيرة النبيلة التي كان يقوم بها المرثي بعسل النحل.

^٥ الآلة الحدباء: النعش.

حافظ إبراهيم^١

قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رثائي
لكنْ سَبَقَتْ وكلُّ طولِ سلامةٍ
الحقُّ نادى فاستجبتَ ولم تزلْ
وأتيَتْ صحراءَ الإمامِ تذوبُ من
فلقيتَ في الدارِ الإمامَ محمدًا
أثرَ النعيمِ على كريمِ جبينه
فشكوئُما الشَّوقَ القديمَ ودُقْتُما
إن كانتِ الأولى مَنازلَ فُرْقَةٍ
ووددتُ لو أني فِداكَ من الرَّدَى

يا مُنْصِفَ المَوْتى من الأحياءِ
قدِرْ وكلُّ مَنِيَّةٍ بقضاءِ
بالحقِّ تحفِلُ عندَ كلِّ نداءِ
طُولِ الحنينِ لساكِنِ الصحراءِ^٢
في زُمرَةِ الأبرارِ والحُنفاءِ^٣
ومَراشدُ التفسيرِ والإفتاءِ
طِيبَ التداني بعدَ طولِ تنائي
فالسَّمْحَةُ الأخرى ديارُ لِقَاءِ
والكاذبون المُرْجفونَ فِدائي

^١ هو المرحوم محمد حافظ إبراهيم بك، شاعرٌ سبَّاقٌ معدود في الطليعة، وكان يُلقَّب بشاعر النيل. توفي سنة ١٩٣٢م، فرثاه أمير الشعراء شوقي بك بهذه القصيدة، التي يُنبئ مطلعها عن مبلغ تقديره لصاحبه ووفائه له.

^٢ صحراء الإمام: المقبرة التي بُنِي بها، وهذه الصحراء تُنسب للإمام الشافعي لوقوع ضريحه — رضي الله عنه — في نطاقها.

^٣ الإمام: هو المرحوم الشيخ محمد عبده العالم الديني الكبير، وقد اشتهر المرحوم حافظ في حياته باكتساب عطفه ورضاه.

^٤ الأولى: الحياة الدنيا.

الناطقون عن الضَّغِينَةِ والهوى
من كل هَدَامٍ وَيَبْنِي مَجْدَهُ
ما حَطَّموكَ وَإِنَّمَا بِكَ حُطِّمُوا
انظر فَأَنْتَ كَأَمْسٍ شَأْنُكَ بَاذُخُ
بِالْأَمْسِ قَدْ حَلَيْتَنِي بِقَصِيدَةٍ
غِيْظَ الْحَسُودِ لَهَا وَقَمْتُ بِشُكْرِهَا
فِي مَحْفَلٍ بِشَّرْتِ أَمَالِي بِهِ
يَا مَانِحَ السُّودَانِ شَرِّخَ شَبَابِهِ
لَمَّا نَزَلْتَ عَلَى خَمَائِلِهِ ثَوَى
قَلْدَتَهُ السَّيْفَ الْحُسَامَ وَزِدَّتُهُ
قَلَمُ جَرَى الْحِقْبِ الطَّوَالَ فَمَا جَرَى
يَكْسُو بِمِدْحَتِهِ الْكِرَامَ جَلَالَةً

المُوغِرُو المَوْتَى عَلَى الْأَحْيَاءِ
بِكِرَائِمِ الْأَنْقَاصِ وَالْأَشْلَاءِ
مَنْ ذَا يُحْطَّمُ رَفْرَفَ الْجُوزَاءِ^٥
فِي الشَّرْقِ وَاسْمُكَ أَرْفَعُ الْأَسْمَاءِ
غُرَاءَ تُحْفَظُ كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ^٦
وَكَمَا عَلِمْتَ مَوَدَّتِي وَوَفَائِي
لَمَّا رَفَعْتَ إِلَى السَّمَاءِ لَوَائِي
وَوَلِيَّهِ فِي السَّلَامِ وَالْهَيْجَاءِ
نَبْعُ الْبَيَانِ وَرَاءَ نَبْعِ الْمَاءِ
قَلَمًا كَصَدْرِ الصَّعْدَةِ السَّمْرَاءِ^٧
يَوْمًا بِفَاحِشَةٍ وَلَا بِهِجَاءِ^٨
وَيُشَيِّعُ المَوْتَى بِحُسْنِ تَنَاءِ

* * *

إِسْكَندَرِيَّةُ يَا عُرُوسَ الْمَاءِ
نَشَأْتُ بِشَاطِئِكَ الْفَنُونُ جَمِيلَةٌ
جَاءَتْكَ كَالطَّيْرِ الْكَرِيمِ غُرَابًا

وخميلةَ الحكماءِ والشعراءِ^٩
وترعرعتِ بِسَمَائِكَ الزَّهْرَاءِ
فجمعتها كالرَّبْوَةِ الْغَنَاءِ

^٥ الرفرف: ما يُجَعَلُ عَلَيْهِ طرائف البيت. والجوزاء: نجمٌ معروف في السماء. فالتعبير برفرف الجوزاء: كناية عن أسنى مواضع الشرف والسمو.

^٦ يريد القصيدة التي أنشأها المرحوم حافظ وأنشدها في المهرجان العظيم الذي أُقيم في القاهرة، وقد حضرت إليه وفود الأقطار العربية، وظل سبعة أيام تكريماً لمبايعة أمير الشعراء شوقي بإمارة الشعر في الشرق العربي عامة، وهي التي يقول فيها:

أَمِيرَ الْقَوَافِي قَدْ أَتَيْتُ مُبَايَعًا وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

^٧ الصعدة: قناة الرمح ينبت عودها مستويًا.

^٨ الحقب: جمع حقبه (بكسر الحاء)، وهي المدة من الزمن أو السنة.

^٩ نظم المرحوم شوقي هذه القصيدة وهو في الإسكندرية، فكان لا بد لشاعريته المستوعبة من وصف هذه المدينة وفاءً لإقامته فيها وقتئذٍ.

للوافدين ودُرَّة الدَّاماءِ
وبنوا قصورك في سنا الحمراء^{١٠}
كسبيل عيسى في فجاج الماء^{١١}
وتجملني بشبابك النُّجباء
حجرُ البناءِ وعُدَّةُ الإنشاءِ
للملِك في بغدادَ والفِيحاءِ
بينَ الممالكِ زِرْوَةُ العُلياءِ^{١٢}
وذخرت من حزن له وبُكاءِ
إن البلاءَ مَصارعُ العظماءِ
بالدمع غيرَ بخيلةِ الخطباءِ
جمَّ المآثرِ طيِّبِ الأنبياءِ
وحدا به البادون في البِداءِ^{١٣}
حلبٍ إلى الفِیحا إلى صنعاءِ
باني الصفوفِ مؤلِّفِ الأجزاءِ
وإمامَ من نجلت من البلغاءِ^{١٤}
حتى حميت أمانةَ القدماءِ
وأثيتَ للعِبادِ بسحرِ «الطائي»^{١٥}
حتى اقترنت بصاحبِ البُؤساءِ^{١٦}
دعةٍ ومن كرمٍ ومن إغضاءِ

قد جمَّلوك فصرتِ زنبَقَةُ الثَّرى
غرسوا رُبَاكِ على خمائلِ بابلٍ
واستحدثوا طُرُقًا مُنَوَّرَةً الهدى
فخذِي كَأَمْسٍ من الثقافةِ زينةً
وتقلَّدي لغةَ الكتابِ فإنَّها
بنَت الحضارةَ مرتينِ ومهدتِ
وسمَّت بقرطبةٍ ومصرَ فحلَّتَا
ماذا حشدتِ من الدموعِ لـ «حافظٍ»
ووجدتِ من وقعِ البلاءِ بفقدِهِ
اللهُ يشهدُ قد وفيتِ سخيَّةً
وأخذتِ قسطًا من مناحِ ماجدٍ
هتف الرُّواةُ الحاضرون بشعرِهِ
لُبنانُ يبكيه وتبكي الضادُ من
عربِ الوفاءِ وفوا بدميةِ شاعرٍ
يا حافظُ الفصحى وحارسَ مَجْدِها
ما زلتَ تهتَفُ بالقديمِ وفصلِهِ
جدَّدتِ أُسلوبَ «الوليد» ولفظُهُ
وجزيتِ في طلبِ الجديدِ إلى المَدَى
ماذا وراءَ الموتِ من سلوى ومن

^{١٠} بابل: موضع مدينة بالعراق، يُنسب إليها السحر والخمر. والحمراء: قصر مشهور في الأندلس.

^{١١} الفجاج: بكسر الفاء جمعُ فجٍّ، بفتحها: الطريق الواسع بين الجبلين.

^{١٢} قرطبة: إحدى عواصم الأندلس الكبرى، وكانت في المغرب مثل بغداد في المشرق، كلتاها منبع للعلوم والفنون في أزهر عصور الإسلام.

^{١٣} البادون: السائرون في البادية.

^{١٤} نجلت: أي ولدت.

^{١٥} الوليد: هو أبو عبادة البحري الشاعر العباسي الشهير. والطائي: هو حبيب الطائي الشهير بأبي تمام.

^{١٦} البُؤساء: كتاب لفكتور هيجو، عزَّبه الفقيده.

أشْرَحْ حَقَائِقَ مَا رَأَيْتَ وَلَمْ تَزَلْ
رُنُبُ الشَّجَاعَةِ فِي الرِّجَالِ جَلَائِلُ
كَمْ ضِيقَتْ ذُرْعًا بِالْحَيَاةِ وَكَيْدِهَا
فَهَلُمَّ فَارِقُ يَا سَ نَفْسِكَ سَاعَةً
وَأَشِرْ إِلَى الدُّنْيَا بِوَجْهِ ضَاكِ
يَا طَالَمَا مَلَأَ النَّدَى بِشَاشَةً
الْيَوْمَ هَادَنْتَ الْحَوَادِثَ فَاطَّرِحَ
خَلَّفْتَ فِي الدُّنْيَا بَيَانًا خَالِدًا
وَعَدًا سِيذُكَ الزَّمَانُ وَلَمْ يَزَلْ

أَهْلًا لَشَرْحِ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ
وَأَجْلُهَا شَجَاعَةُ الْآرَاءِ
وَهْتَفَتْ بِالشُّكُوفِ مِنَ الضَّرَاءِ
وَاطْلُحْ عَلَى الْوَادِي شُعَاعَ رَجَاءِ
خُلِقْتَ أَسْرَتَهُ مِنَ السَّرَاءِ
وَهْدَى إِلَيْكَ حَوَائِجَ الْفُقَرَاءِ
عَبَّ السَّنِينَ وَأَلْقِ عَبَّ الدَّاءِ
وَتَرَكْتَ أَجْيَالًا مِنَ الْأَبْنَاءِ
لِلدَّهْرِ إِنْصَافٌ وَحُسْنُ جَزَاءِ

محمد تيمور^١

وَتَوَوَا إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ^٢	ضَرَبُوا الْقَبَابَ عَلَى الْيَبَابِ
يَوْمًا سَيَسْكُنُ فِي التَّرَابِ	هَمَدُوا وَكُلُّ مُحَرِّكٍ
فَتَضَيَّفُوا شَرَّ الذَّنَابِ	نَزَلُوا عَلَى ذَنْبِ الْبِلَى
بِالْقَاعِ أَوْ صَرَعَى شَرَابِ	وَكَأَنَّهُمْ صَرَعَى كَرَى
فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْمَأَبِ	فَإِذَا صَحَّوْا وَتَنَبَّهَوْا

* * *

يَ هُنَاكَ مَهْجُورِ الْجَنَابِ	مَنْ كُلُّ مُنْفَضِّ الْوَفْوِ
إِلَّا الذَّخِيرَةُ مِنْ ثَوَابِ ^٣	مُورِثِ كُلِّ مَضْنَةِ

* * *

نُحِتُّنَّهْ غَضُّ الْإِهَابِ	يَا نَائِحَاتِ مُحَمَّدٍ
لَهُ الْمَكْرَمَاتُ مِنْ انْتِحَابِ	فِي مَا تَمَّ لَمْ تَخْلُ فِيهِ

^١ محمد تيمور: أديب كبير اشتهر بوضع القصص الاجتماعية، ولكن الموت لم يُمهله فاخترم شبابه في سنة ١٩٢١م.

^٢ القباب: جمع قبة. والمقصود بضرب القباب هنا هو الكناية عن المقبرة.

^٣ المضنة: هي الشيء النفيس يكون موضعاً للضن به.

تبكي الكريمَ على العشيِّ رة والحبیبِ إلى الصَّحابِ
حَسْبُ الحِمَامِ دُمُوعُكُنَّ المُسْتَهْلَةُ من عِتَابٍ^٤
فارجِعْنَ فيه لحكمةٍ أو جِئْنَ فيه إلى احتسابِ
في العالمِ الفاني مَصِيبِ رُ العالمين إلى ذهابِ
من سارَ لم يثْنِ العِنا نَ ومن أقامَ إلى اقترابِ

* * *

يا وارثَ الحَسْبِ الصمِيءِ م وكاسبَ الأدبِ اللُّبابِ
وابنَ الذي عَلِمَ الرِّجا لُ حياءه من كلِّ عابٍ^٥
وكأنه في كُتُبِهِ عثمانُ في ظلِّ الكِتَابِ^٦
ماذا نَقَمْتَ من الشُّبا بَ وأنتَ في نَعَمِ الشَّبابِ
مُتَحَلِّياً هِبَةً النُّبو غِ مُطَوَّقَ المِنحِ الرِّغابِ
ولمَ التَرَحُّلُ عن حيا ة أنتَ منها في رِكابِ
لم تَعُدْ شاطِئَهَا ولم تَبْلُغْ إلى ثَبَجِ العُبابِ^٧

* * *

رِفْقًا على محزونة الـ أبياتِ مُوحِشَةِ الحِجابِ^٨
فَقَدَّتْكَ في العمرِ الطَريـ رِ وفي زُها الدنيا الكَعابِ^٩

^٤ الحِمَام (بكسر الحاء): الموت.

^٥ وابن الذي ... إلخ: هو المرحوم أحمد باشا تيمور، كان عالماً بَحَّاثاً، اشتهر بالاطلاع الواسع وباقتناء أئمن الكتب.

^٦ يُشَبِّهُ والد الفقيد في إقباله على الكتب في شيخوخته بعثمان بن عفان، الخليفة الثالث الذي مات والكتابُ العزيز في يده.

^٧ العباب: البحر. وثبجه: وسطه.

^٨ موحشة الحجاب: كناية عن شدة مُصاب هذه السيدة. يقول: إن خدرها أقفر من الأنس حتى صار يبعث الوحشة والهلع في قلب صاحبتة.

^٩ العمر الطَريـ: هو سن الشباب. ويقصد بقوله «الدنيا الكعاب»: أنه كان يعيش في دنيا مزهوةً بنعيمها وثروتها.

تبكي وتندبُ إلَـفَها بينَ الأفانينِ الرُّطابُ
وانظر أباك وثُـكُلَهُ ورُزوحَه تحتَ المُصابِ
لو كان يملك سِرَّ يُو شَع رَدَّ شمسَكَ من غِيَابٍ^{١٠}

* * *

أَعْلِمْتَ غَيْرَكَ من جَلا التـ مَثِيلَ في جُدِّ الثيابِ
وكسا غرائبَ جِدِّه حُلًّا من الهزلِ العُجابِ
مُتَمِيزًا حينَ التَّميُّ زُ ليس من أَرَبِ الشَّبابِ
أُفُقُ العُلا كنتَ الشَّها بَ عليه لا ذَنَبَ الشَّهابِ
يا رَبَّ يومِ ضاقَ دُرُ عُك فيه بالحُسْدِ الغِضابِ
سَعَهم فَأَنتَ جَمَعَتَهم الشَّهْدُ مائدةُ الذُّبابِ
خُذْ مِنْهم نَقْدَ العَفا فِ ودَع لَهُم نَقْدَ السَّبابِ
دُونَ النُّبُوغِ وأُوجِه ما لا تُعَدُّ مِنَ الصَّعابِ
فإذا بلغتِ الأُوجَ كُنـ تَ الشَّمْسُ تَهزأُ بالضُّبابِ^{١١}

* * *

لا تَبْعَدَنَّ فَهذه آمالُ قومِكَ في اقْتِرابِ
اشْرُفْ بِرُوحِكَ فَوْقَهم ملَكًا يُرْفِرُ في السحابِ
وانظر بَعينِ نُزْهَتِ عَن زُخْرِفِ الدُّنيا الكِذابِ
تَرِ مِنْ لِدَاتِكَ أُمَّةً كَسَتِ الدِّيارَ جِلالَ غابِ^{١٢}
أُسْدُ تجولُ بِغَيرِ ظُفـ رٍ أَوْ تَصُولُ بِغَيرِ نابِ
جَعَلُوا الثِّباتَ سِلَاحَهم نَعَمَ السِّلاحُ مَعَ الصَّوابِ^{١٣}

^{١٠} يوشع (كما في التوراة): هو يوشع بن نون، اصطفاه الله وأرسله لبني إسرائيل بعد موسى، وأمره بمحاربة الجبَّارين، ففي بعض وقائعِهِ ابتهل إلى الله أن تقف الشمس حتى ينتقم من أعدائِهِ، فوقفت ولم تغرب مدة يوم أو نحو ذلك.

^{١١} الأوج: العلو.

^{١٢} لدات الإنسان: المقاربون له في السن. والغاب: جمع غابة، وهي مأوى الأساد.

^{١٣} يصف شباب الأمة المصرية في ثورة سنة ١٩٢٠م.

الشوقيات

أما الأمورُ فإنها بلَغْتَ إلى فصلِ الخطابِ
فإذا ملكتَ توجُّهاً لله في قُدسِ الرحابِ
سَل فَاتَحَ الأبوابِ يفـ ستح للكِنانةِ خيرَ بابِ

يعقوب صرُوف^١

سَمَاؤُكَ يَا دُنْيَا خِدَاعُ سَرَابٍ
وَمَا أَنْتِ إِلَّا جِيفَةٌ طَالَ حَوْلَهَا
وَكَمْ أَلْجَأَ الْجَوْعُ الْأُسُودَ فَأَقْبَلَتْ
قَعْدَتِ مِنَ الْأَطْعَانِ فِي مَقْطَعِ السُّرَى
وَجَدْتِ عَلَيْهِمْ فِي الْوَدَاعِ بَسَاخِرٍ
أَقَامُوا فَلَمْ يُؤْنَسْكَ حَاضِرُ صَحْبَةٍ
تَسُوقِينَ لِمَوْتِ الْبَنِينَ كَقَائِدٍ
رَأَى الْحَرْبَ سُلْطَانًا لَهُ وَسَلَامَةٌ
وَلَوْلَا غُرُورٌ فِي لُبَانِكَ لَمْ يَجِدْ
وَأَرْضُكَ عُمْرَانُ وَشَيْكَ خَرَابٍ^٢
قِيَامُ ضِبَاعٍ أَوْ قُعُودُ ذُنَابٍ
عَلَيْكَ بِظُفْرِ لَمْ يَعِفَّ وَنَابٍ
وَمَرُّوا رِكَابًا فِي غُبَارِ رِكَابٍ
مِنَ اللَّحْظِ عَنْ مَيِّتِ الْأَحْيَةِ نَابِي^٣
وَمَالُوا فَلَمْ تَسْتَوْحِشِي لَغِيَابٍ
يَرَى الْجَيْشَ خَلْقًا هَيْنًا كَذُبَابٍ
وَإِنْ آذَنْتِ أَجْنَادَهُ بَتَبَابٍ^٤
بَنُوكِ مَذَاقَ الضَّرِّ شَهْدَ رُضَابٍ^٥

^١ هو الدكتور يعقوب صرُوف، أحد صاحبي مجلة المقتطف وجريدة المقطم. كان متبتلاً للعلم، معدوداً في طليعة الكتاب والعلماء الذين يُشار إليهم بالبنان، توفي سنة ١٩٢٨م.

^٢ السراب: هو ما يرى في وسط النهار كأنه الماء. ووشيك: سريع.

^٣ النابي: المتجافي المتباعد.

^٤ يقال: آذنته بكذا؛ أي أنذرته. والتباب: الهلاك.

^٥ اللُّبان (بتشديد اللام مضمومة): جمع لبانة، وهي الحاجة يطلبها الإنسان من غير احتياج إليها، بل بدافع من علو الهمة والرغبة. الرضاب: هو ريق الإنسان ما دام في فمه.

ولا كنت للأعمى مَشاهدَ فتنَةٍ
ولا ضلُّ رأيي الناشئ الغرَّ في الصِّبا
ولا حسبَ الحفَّارِ للموتِ بعدما
يقولون يرثي كلَّ خلٍّ وصاحبٍ
جزيتُهُم دمعِي فلمَّا جرى المَدَى
كفى بذراً الأعوادِ منبرَ واعِظٍ
دعوتك يا يعقوبُ من منزلِ البلى
أذكرك الدنيا وكيف ولم يزل
حملنا إليك الغارَ بالأمس ناضراً
وما انفكت الدنيا وإن قلَّ لبُئها
ألا في سبيلِ العلمِ خمسونَ حِجَّةً
قطعت طوالي ليلها ونهارها
رأى الله أن تلقى إليك صحيفةً
ولم تتخذها آلةَ الحقدِ والهوى
مشينا بنُوري علمها وبيانها
وعشنا بها جيلين قمت عليهما
رسائل من عفو الكلام كأنها

وللمُقعَدِ العاني مجالَ وثابٍ^٦
ولا كرَّ بعدَ الفرصةِ المُتصابي
بَنى بيديه القبرَ ألفَ حسابٍ
أجلُ إنما أقضي حقوقَ صحابي
جعلتُ عيونَ الشعرِ حُسْنَ ثوابي
وبالمُستقلِّيها لسانَ صوابٍ^٧
ولولا المنايا ما تركت جوابي
لها أثراً شهدِ بِفِيكَ وصابٍ^٨
وُسقنا كتابَ الحمِدِ تلوَ كتابٍ^٩
لسانَ ثوابٍ أو لسانَ عقابٍ
مضت بينَ تعليمٍ وبينَ طلابٍ
بأمالِ نفسٍ في الكمالِ رِغابٍ
فنزَّهتها عن هوشةٍ وكذابٍ^{١٠}
ولا مُنتدى لغوٍ وسوقٍ سبابٍ
فلم نسرِ إلا في شُعاعِ شهابٍ
معلِّمَ نشءٍ أو إمامَ شبابٍ
حواشي عيونٍ في الطُّروسِ عذابٍ^{١١}

^٦ العاني: المقيّد، وهنا سُمّي الأسير بالعاني؛ لأن من شأنه أن يُقيّد.

^٧ بالمستقلّيها: أي براكبيها.

^٨ الشهد: عسل النحل. والصاب: المر.

^٩ إشارة إلى الاحتفال بالفقيد في اليوبيل الفضي لمجلته المقتطف. والغار: ورق شجر كانت تتخذ منه أكاليل الظافرين.

^{١٠} هذه الصحيفة هي مجلة المقتطف التي تعدُّ بحقُّ أُمجدَ صحيفة علمية أدبية في الشرق العربي كله، وكان الفقيد مختصاً بتحريرها.

^{١١} قوله «كأنها حواشي عيون ... الخ»: العيون هي عيون الماء، ويقصد بحواشيها النباتات والزهور التي تنبت حوالَيْها.

هي المحض لا يشقى به ابنُ تميمة
سهولٌ من الفصحى وقفت بها الهوى
وما ضعت بين الشرق والغرب مشيةً
فلم أر أنقى منك سمعةً ناقلٍ
وكم أخذ القول السريّ مُعربٌ
وفدت على الفصحى بخيراتٍ غيرها
وقدماً دنت «يونان» منها و«فارس»
تبتلت للعلم الشريف كأنه
وجشمت ميدان السياسة «فارساً»
وكنّا و«نمر» في شغابٍ فلم يزل
رأى الثورة الكبرى فسلّ يراعهُ
وما الشرق إلا أسرة أو عشيرة

غذاءً ولا يشقى به ابنُ خضاب^{١٢}
على ما لديها من رُبّا وهضابٍ
كما قيل في الأمثال حجلٌ غرابٍ
إذا وسَمَ النقلُ الرجالَ بعابٍ
فما رده لاسمٍ ولا لنصابٍ
فوالله ما ضاقت مَناكبَ بابٍ
و«روما» فحلُّوا في فسيحِ رحابٍ
حقيقةً توحيدٍ وأنت ضحابي
وكلُّ جوادٍ في السياسة كابي^{١٣}
بنا الدهرُ حتى فضَّ كلَّ شغابٍ
لتحطيمِ أغلالٍ وفكِّ رقابٍ^{١٤}
تلمُّ بَنِيها عندَ كلِّ مُصابٍ

* * *

سلامٌ على شيخِ الشيوخِ ورحمةٌ
ورفأفٌ رِيحانٍ يروحُ ويغتدي
وذكرى وإن لم ننسَ عهدك ساعةً
ووَيْحُ السَّوافي هل عَرَضَ على البلى
وهل صُنَّ ماءٌ كان فيه كأنه

تحدّرُ من أعطافٍ كلِّ سحابٍ
على طيّباتٍ في الخلالِ رطابٍ
وشوقٌ وإن لم نفتكرُ بإيابٍ
جبينك أم سترنّه بجِجابٍ^{١٥}
حياءٌ بتولٍ في الصلاةِ كغابٍ^{١٦}

^{١٢} المحض: هو الخالص من كل شيء. وابن تميمة وابن خضاب: يقصد بالأول اليفع الناشئ، وبالثاني الشائب الذي يخضب شعره.

^{١٣} المقصود بفارس في هذا البيت هو الدكتور فارس نمر، الشريك الثاني للفقيد في مجلتي المقتطف والمقطم، ولكنه الشريك المختص بالسياسة، كما كان الفقيد مختصاً بالعلم. وقوله «وكل جواد في السياسة كابي»: إشارة رقيقة إلى المثل القائل: «لكل جواد كبوة، ولكل عالم هفوة».

^{١٤} يريد أن الدكتور «نمر» لم يشاغب حباً في المشاغبة، ولكنه كان متأثراً بفكرة عامة.

^{١٥} السوافي: الرياح.

^{١٦} البتول: المنقطة عن الرجال وعن الدنيا إلى الله تعالى.

ويا لحياةٍ لم تدعُ غيرَ سائلٍ أكانت حياةً أم خليَّةَ دابٍ^{١٧}
وأين يدُ كانت وكان بنانُها يَراعةً وشيٍّ أو يَراعةً غابٍ
ولَهفي على الأخلاقِ في رُكنٍ هيكَلٍ ببطنِ الثرى رثُ المعالمِ خابي

* * *

نعيشُ ونمضي في عذابٍ كلذَّةٍ من العيشِ أو في لذَّةٍ كعذابٍ
نهبنا من الأحلامِ في كلِّ مذهبٍ فلمَّا انتهينا فُسَّرتْ بذهابٍ
وكلُّ أخي عيشٍ وإن طال عيشُهُ تُرابٌ لَعمرُ الموتِ وابنُ تُرابٍ

^{١٧} الداب: بمعنى الدأب.

حسين شيرين بك^١

أرأيت زينَ العابدينَ مُجَهَّزًا
من دارِ تَوَعُّمِهِ وَصِنُو حَيَاتِهِ
ساروا به من باطلِ الدنيا إلى
ومَضَوْا به لسبيلِ آدَمَ قبله
تحنو السماءُ على زكيِّ سَريره
وتَطَيَّبُ هَامُ الحاملينَ وراخُهم
نقلوه نقلَ الوردِ من محرابِهِ^٢
والأولِ المألوفِ من أترابِهِ^٣
بُحبوحةِ الحقِّ المُبينِ وغابِهِ^٤
ومَصَايرِ الأَقْوَامِ من أعقابِهِ
ويَمْسُ جِيدَ الأرضِ طيبُ رِكاِبِهِ
من طيبِ مَحْمَلِهِ وَطيبِ ثِيَابِهِ

١ حسين بك شيرين: كان مثالا عاليا من أمثلة مكارم الأخلاق، وكانت بينه وبين أمير الشعراء صداقة تُشبه القُرْبى، وقد توفي في سنة ١٩٣١م، فنظم فيه هذه القصيدة رثاءً له وتعزيةً لشقيقه إسماعيل بك شيرين.

٢ أراد تشبيهه بعلي زين العابدين ابن سيدنا الحسين رضي الله عنهما، وفي زين العابدين هذا يقول الشاعر الفرزدق:

ما قال «لا» قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لأوه «نعم»

وتجهيز الميت: تهيئته للقبر.

٣ الصنو: الأخ الشقيق. والتوعم: المولود مع غيره في بطن، وهذه حال الفقيد مع أخيه. والأتراب: إيدات المرء وزملائه الذين وُلدوا في سنٍّ متقاربة معه.

٤ بحبوحة المكان: وسطه.

وَكأنَ مصرَ بجانِبِيهِ رَبوَةٌ
ويكاد من طرِبٍ لعادته الندى
الطَّيِّبُ ابنُ الطَّيِّبِينَ وربما
والمؤمنُ المعصومُ في أخلاقه
أبدًا يراه اللهُ في غَلَسِ الدُّجَى
ويرى اليتامى لائذينَ بظُلِّهِ
ويراه قد أدَّى الحقوقَ جميعَها
أدَّى من المعروفِ حصَّةَ أهله
«مهويش» أين أبوك هل ذهبوا به
قد وكَّلَ اللهَ الكريمَ وعَيْنَهُ
ودَعِيَ البُكى يكفيه ما حَمَلْتَهُ
ولقد شَرِبْتَ بحادثٍ يا طالما
كلُّ امرئٍ غادٍ على عُوَّاده
والمرءُ في طلبِ الحياةِ طويلاً
في برٍّ «عمك» ما يقوم مكانَهُ

آذَارُ أَذَنِّهَا بوشكِ ذهابه
يَنسَلُّ للفقراءِ من أثوابه^٥
نضَحَ الفتى فأبانَ عن أحسابه
من كلِّ شائنةٍ وفي آدابه
في صحنِ مسجده وحولَ كِتَابِهِ
ويرى الأرامِلَ يعتصمَنَ ببابِهِ
لم ينسَ منها غيرَ حقِّ شبابه
وقضى من الأحسابِ حقَّ صحابه^٦
لِمَ لَمْ يَعدْ أَيَّانَ يومِ إِيابِهِ؟^٧
بكِ فاحسبِيه على كريمِ رحابه
من دمَعِ الشاكي ومن تَسْكابه
شَرِبْتَ بناتُ العالمينَ بِصَابِهِ
وسؤالَهم ما حالُهُ ماذا به؟
وخطى المَنِيَّةَ من وراءِ طَلابِهِ
في عَطفِهِ وحنانِهِ ودعابه

* * *

«إسكندرية» كيف صبرك عن فتى
عطلت سماؤك من بريقِ سحابِها
زَيْنُ الشبابِ قضى ولم تتزوَّدي
قد نابَ عنك فكان أصدقَ نائبٍ
أَعْلِمْتَهُ اتَّخَذَ الأمانةَ مرةً
لو عاش كان مؤملاً لمواقفِ

الصبرُ لم يُخْلَقْ لِمِثْلِ مُصابِهِ^٨
وخبا فضاؤك من شُعاعِ شهابِهِ
منه ولم تتمتعِي بِقَرابِهِ
والشعبُ يَهوى الصَّدقَ في نُوابِهِ
سببًا يُبَلِّغُهُ إلى آرابِهِ
يرجو لها الوادي كِرَامَ شبابه

^٥ الندى: الكرم.

^٦ المعروف هنا: بمعنى البر بالناس والقيام بواجب المحتاجين.

^٧ مهويش: اسمُ تركي، وهو عَلم على ابنة الفقيد.

^٨ كان الفقيد من الإسكندرية منشأً، وعضو مجلس بلديتها.

يَجْلُو عَلَى الْأَلْبَابِ هَمَّةَ فِكْرِهِ وَيُنَاوِلُ الْأَسْمَاعَ سِحْرَ خِطَابِهِ
وَيَفِي كَدِيدِنِهِ بِحَقِّ بَلَايِهِ وَيَفِي بَعْدِ الْمُسْلِمِينَ كَذَابَهُ^٩

* * *

تَقْوَاكَ «إِسْمَاعِيلُ» كُلُّ عِلَاقَةٍ سَيُّئُتُهَا الدَّهْرُ الْعَضُوضُ بِنَابِهِ^{١٠}
إِنَّ الَّذِي نُقِيتَ الْعَشِيَّةُ فَقَدَهُ بَتَّ اللَّيَالِي مُوجَعًا لِعَذَابِهِ
فَارَقْتَ صِنُوكَ مَرَّتَيْنِ فَلَاقِهِ فِي عَالَمِ الذِّكْرِ وَبَيْنَ شُعَابِهِ^{١١}
مَنْ لَا يَدِينُ لَنَا بِطِيٍّ غِيَابِهِ مِنْ لَا يَدِينُ لَنَا بِطِيٍّ غِيَابِهِ
حُلْمٌ كَأَحْلَامِ الْكَرَى وَسَنَاتِهِ مُسْتَعَذَّبٌ فِي صِدْقِهِ وَكِذَابِهِ
اسْكُبْ دُمُوعَكَ لَا أَقُولُ اسْتَبَقَهَا فَأَخُو الْهُوَى يَبْكِي عَلَى أَحْبَابِهِ

^٩ الديدن: العادة.

^{١٠} إسماعيل بك شيرين: شقيق المرثي.

^{١١} يشير هذا البيت إلى أن الفقيد كان مغترباً في سويسرا طيلة زمن الحرب الكبرى.

محمد عبد المطلب^١

قام من عِلَّتِهِ الشاكي الوَصْبُ
أيها النفس اصبري واسترجعي
نزل التُّرْبَ على مَنْ قبله
ذهب اللَّيْنُ في إرشاده
القريبُ العُتْبُ من مَعْنَى الرِّضَا
والأخُ الصادقُ في الودِّ إذا
خاشعٌ في درسه مُحْتَشِمٌ
قلَّدَ الأوطانَ نشءً صالحًا
ربما صالت بهم في غديها
جعلوا الأقلامَ أرماحهم
لا يميلون إلى البَغْيِ بها
وتلقَى راحةَ الدهرِ التَّعَبُ^٢
هتَفَ الناعي بعبدِ المُطَلِّبِ^٣
كلُّ حيٍّ مُنتَهاه في التُّرْبِ
كالأبِ المُشْفِقِ والجَدِّ الحَدِثِ
والقريبِ الجَدِّ من مَعْنَى اللَّعِبِ
ظهرَ الإخوانُ بالودِّ الكَذِبِ
فَكَهْ في مجلسِ الصَّفْوِ طَرِبِ
وشبابًا أهلَ دينٍ وحَسَبِ
صولَةَ الدولةِ بالجيشِ اللَّجِبِ^٤
وأقاموها مقاماتِ القُضْبِ
كيف يَبْغِي من إلى العلمِ انتَسَبِ

^١ هو الأستاذ محمد عبد المطلب أستاذ الأدب في مدرسة دار العلوم، كان ينظم الشعر مؤثراً في نظمه طريقة البادين؛ ولذلك كان يُلقَّب بشاعر البدو، وقد توفي سنة ١٩٣١م، وأقيمت له حفلة تأبين أُلقيت فيها هذه القصيدة.

^٢ يريد بالوصب: المتعب من مرض أو من علو الهمة.

^٣ الاسترجاع: هو قول ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

^٤ الجيش اللجب: الكثير العدد والعدة.

شاعِرَ البدو ومنهم جاءنا
قد جرت ألسُنُهم صافيةً
سلمت من عنَتِ الطبعِ ومن
قد نزلت اليوم في باديةٍ
ومشى «المجنون» فيها ساليًا
أعِرَ الناسَ لسانًا ينظموا
فم صِفِ الخلدَ لنا في مُلكِه
وثمارٍ في يواقيتِ الرُّبا
وانثُرِ الشُّعرَ على الأبرارِ في
واستعر «رضوان» عودِي قصبٍ
واسقِ بالمعنى إلهيًّا كما
كلَّمَا سبَّحتَ للعرشِ به
فم تأملْ هذه الدارَ وفَى
وفتِ الدارَ لباني رُكنِها
طلبوا العلمَ على شيخِهم
غابَ عن أعينهم لكنَّه
صورةٌ مُحسَّنةٌ ما تختفي
رجلُ الواجبِ في الدنيا مضى
عاش عيشَ الناسِ في دنياهم
أخذ الدرسَ الذي لُقَّنه

كلُّ معنَى رَقَّ أو لفظٍ عَذُبَ
جريانَ الماءِ في أصلِ العُشبِ
كُلْفَةُ الأقلامِ أو حشوِ الكُتُبِ^٥
عمرت فيها «امراً القيس» الحَقَبِ^٦
نَفَضَ اللوعةَ عنه والوصبُ^٧
لك فيه الشُّعرَ أو يُنشِوا الخُطَبَ
من جلالِ الخُلُقِ والصُّنْعِ العَجَبِ
وسُلافٍ في أباريقِ الذهبِ^٨
قُدُسِ السَّاحِ وعُلوِي الرحبِ
وترنمٌ بالقوافي في القَصَبِ^٩
تتساقونَ الرحيقَ المُنسكبِ
رفعَ الرحمنُ والرُّسلُ الحُجُبِ
لك من طُلَّابها الجمعُ الأربُ^{١٠}
وقضى الحقُّ بنو الدارِ النُّجُبِ^{١١}
زمنًا ثم إذا الشيخُ طَلِبَ
ماثلٌ في كلِّ قلبٍ لم يَغِبَ
ومثالٌ طيِّبٌ ما يحتجبُ
يُنصِفُ الأخرى ويقضي ما وجبُ
وكما قد ذهبَ الناسُ ذهبَ
عَجَمُ الناسِ قديمًا والعربُ

^٥ العنت: المشقة.

^٦ امرؤ القيس: الشاعر الجاهلي المعروف.

^٧ المجنون: مجنون ليلي، من شعراء البادية كامرئ القيس.

^٨ يواقيت الربى: الأكماء المتفتحة بالورد والثمار التي تُشبه الياقوت. والسلاف: الخمر.

^٩ رضوان: هو الملك القائم على الجنة. والقصب: المزمارة أو الناي الذي يترنم به.

^{١٠} الجمع الأرب: أي الكثير الحصافة والكياسة والدهاء.

^{١١} النُّجُب: جمع نجيب.

يرثي جدّته^١

خُلِقْنَا لِلْحَيَاةِ وَلِلْمَمَاتِ ومن هَذَيْنِ كُلُّ الْحَادِثَاتِ
ومن يُوَلَدُ يَعِشُ وَيَمُتُ كَأَن لَمْ يَمِرَّ خَيَالُهُ بِالْكَائِنَاتِ
ومهدُ المرءِ في أيدي الرواقي كنعشِ المرءِ بَيْنَ النَّائِحَاتِ^٢
وما سَلِمَ الْوَلِيدُ مِنْ اشْتِكَاءٍ فهل يخلو المَعْمَرُ مِنْ أَذَاةٍ^٣
هي الدُّنْيَا قِتَالُ نَحْنُ فِيهِ مقاصدُ لِلْحُسَامِ وَلِلْقَنَازِ
وكلُّ النَّاسِ مَدْفُوعٌ إِلَيْهِ كما دُفِعَ الْجَبَانُ إِلَى الثَّبَاتِ
نُرُوعُ مَا نُرُوعُ ثُمَّ نُرْمَى بسهمٍ مِنْ يَدِ الْمَقْدُورِ آتِي
صَلَاةُ اللَّهِ يَا «تَمَزَارُ» تَجْزِي تُرَاكِ عَنِ التَّلَاوَةِ وَالصَّلَاةِ
وعن تسعينَ عَامًا كُنْتُ فِيهَا مِثَالَ الْمُحْسِنَاتِ الْفُضْلِيَّاتِ
بَرَرْتُ الْمُؤْمَنَاتِ فَقَالَ كُلُّ لَعَلَّكَ أَنْتِ أُمُّ الْمُؤْمَنَاتِ

^١ جدّته: هي المرحومة السيدة «تمزار» معتوقة جنتمکان إبراهيم باشا والي مصر، وسترى في القصيدة كيف بلغت الجدة المحترمة تلك المنزلة العالية.

^٢ المهد: الموضع يُهَيَّأ لِلطِّفْلِ. والرواقي: جمع راقية، والراقية عند العرب هي الأم أو نحوها، تضع التمام والتعاويز على الطفل حفظاً له من العين أو من الشياطين، على زعمهم.

^٣ المَعْمَرُ: هو الذي يُمَدُّ لَهُ فِي الْعَمْرِ. يقول في هذه الأبيات الثلاثة: إن الدنيا لا ثبات لها، فالإنسان كأنه لم يوجد، فالراقيات والنائحات والمهد والنعش والصغر والكبر في لقاء الأقدار سواءً، فلا شيء يردُّ الموت ولا يمنع القدر.

وكانت في الفضائل باقياتُ
تبَنَّاك الملوكُ وكنيتَ منهم
يُظَلُّونَ المناقبَ منك شَتَّى
وما ملكوك في «سوقٍ» ولكنَّ
عننتَ لهم بـ «مورة» بنتَ عشرٍ
فكنتَ لهم وللرحمنِ صيداً
تبعَتِ محمداً من بعدِ عيسى
فكان الوالدان هدىً وتقوى
ولو لم تظهري في العربِ إلا
تجاوزتِ الولائدَ فاخراتِ
وأحكم من تحكَّم في يراعٍ
وأبرأ من تبرأ من عداءٍ
وأصون صائنٍ لأخيه عرضاً
وأقتل قاتلٍ للدهرِ خبراً
كأنِّي والزمانَ على قتالٍ
أخاف إذا ثاقلتِ الليالي

وأنتِ اليومَ كلُّ الباقياتِ
بمنزلةِ البنينِ أو البناتِ
ويُثوونَ التقى والصالحاتِ
لدى ظلِّ القنا والمُرهفاتِ
وسيفُ الموتِ في هامِ الكُماةِ^٤
وواسطةً لعقدِ المُسلماتِ
لخيرِك في سنيكِ الأولياتِ
وكان الولدُ هذي المعجزاتِ
بأحمدَ كنتِ خيرَ الوالداتِ^٥
إلى فخرِ القبائلِ واللغاتِ
وأبلغ من تبلَّغ من دواةٍ
وأنزله من تنزَّه من شَماتِ
وأحفظ حافظِ عهدِ اللداتِ
وأصبر صابرٍ للغاشياتِ
مُساجلةً بميدانِ الحياتِ^٦
وأشفق من خُفوفِ النائباتِ

٤ عننت لهم ... إلخ: مأخوذة من قولهم «عنَّ الصيد للصائد» إذا ظهر. ومورة: عَلم على صقع بعينه هو الوطن الأول لجده. والكُماة: جمع كمي، وهو الفارس المدجج بالسلاح. بعد أن قال إن جدته كانت متبناةً للملوك بين كيف وقع لها ذلك، فقال: إنها لاحت للفرسان الغيرين على وطنها «مورة»، فأخذوها أسيرة حرب وهي لم تجاوز العاشرة، وكان هذا لخيرها؛ حيث أكرمها الله، فنشأت مسلمة، ونزلت من الملوك بمنزلة بناتهم.

٥ أحمد: هو الاسم الشريف لأمير الشعراء. يقول لجده في هذا البيت: إذا لم يكن لك نسب في العرب إلا ولادتك لي لكنت بهذا خير أمهات العرب. لقد وضع هذا البيت نفسه توءماً لبيت المتنبي الذي يخاطب به أمه، فيقول:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد لكأن أباك الضخم كوكب لي أماً

٦ المساجلة في القتال هي من قولهم: «الحرب سجال؛ يوم لك ويوم عليك.»

وليس بنافعي حذري ولكن
أمامون من الفلك العوادي
تأمل هل ترى إلا شباكا
ولو أن الجهات خلقت سبعا
لعا للنعش لا حبا ولكن
ولا خانته أيدي حامليه
فلم أر قبله المريح ملقى
هناك وقفت أسألك اثنا
وأنظر في ترابك ثم أغضي
وأذكر من حياتك ما تقضى
إباء أن أراها باغيات
و«برجله» يخط الدائرات
من الأيام حولك ملقيات
لكان الموت سابعة الجهات
لأجلك يا سماء المكرّمات^٧
وإن ساروا بصبري والأناة
ولم أسمع بدفن النيرات
وأمسك بالصفات وبالصفة^٨
كما يغضي الأبى على القداة
فكان من الغداة إلى الغداة

^٧ لعا: كلمة دعاء تقال للعائر، تقول «لعا له» إذا أردت سلامته، و«لا لعا له» إذا أردت غير ذلك.

^٨ الصفة: الحجر الصلد، والمقصود بها هنا القبر.

محمد عبده^١

مُفَسِّرَ آيِ اللَّهِ بِالْأَمْسِ بَيْنَنَا
رُحِمَتْ مَصِيرُ الْعَالَمِينَ كَمَا تَرَى
هُوَ الدَّهْرُ مِيلَادٌ فَشَغْلٌ فَمَاتُمْ
قُمْ الْيَوْمَ فَسِّرْ لِلْوَرَى آيَةَ الْمَوْتِ
وَكُلُّ هِنَاءٍ أَوْ عَزَاءٍ إِلَى فَوْتِ
فَذِكْرٌ كَمَا أَبْقَى الصَّدَى زَاهِبَ الصَّوْتِ^٢

^١ هو الأستاذ الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية. توفي سنة ١٩٠٥م، وقد ظهرت أسمى ملكاته في فهم وتفسير القرآن الشريف.

^٢ يقول: إن الإنسان يُشبه الصوت، وذكره من بعده يُشبه الصدى، والصدى هو ما يردُّ على المصوَّت شبيهاً بصوته، ويقال له الرجع أيضاً.

رياض باشا^١

مَمَاتُ فِي الْمَوَاكِبِ أَمْ حَيَاةُ
وَيَوْمُكَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَمْ قِيَامُ
وخطْبُكَ يَا «رياضُ» أَمْ الدَّوَاهِي
يَجِلُّ الْخَطْبُ فِي رَجُلٍ جَلِيلٍ
وَلَيْسَ الْمَيْتُ تَبْكِيهِ بِلَادٌ
وَهَلْ تَلْقَى مَنَايَاهَا الرُّوَاسِي
وَتُكْسِرُ فِي مَرَكَزِهَا الْعَوَالِي
وَيُغْشَى اللَّيْثُ فِي الْغَابَاتِ ظُهْرًا
وَيَرْمِي الدَّهْرُ «نَادِي عَيْنِ شَمْسٍ»
وَنَعَشُ فِي الْمَنَاكِبِ أَمْ عِظَاتُ
وَمَوْكِبُكَ الْأَدْلَةُ وَالشَّيَاتُ^٢
عَلَى أَنْوَاعِهَا وَالنَّازِلَاتُ
وَتَكْبَرُ فِي الْكَبِيرِ النَّائِبَاتُ
كَمَنْ تَبْكِي عَلَيْهِ النَّائِحَاتُ
فَتَهْوِي ثُمَّ تُضْمِرُهَا فَلَاةُ^٣
وَتُدْفَنُ فِي التَّرَابِ الْمُرْهَفَاتُ^٤
وَكَانَتْ لَا تَقْرُ بِهَا الْحَصَاةُ
وَلَا يَحْمِي لِوَاءِهِمُ الرُّمَاءُ^٥

^١ يقترن تاريخ رياض باشا بتاريخ كبار الحوادث في مصر منذ الخديو إسماعيل إلى أواخر حكم عباس الثاني تقريباً؛ فتاريخه في الواقع هو تاريخ مصر طيلة هذه الحقبة من الزمن.

^٢ الشيات: جمع شية، وهي العلامة. يشبه يوم ممات رياض بيوم القيامة، ويشبه جنازته بأشراط وعلامات القيامة.

^٣ الفلاة: الصحراء.

^٤ العوالي: الرماح. والمرهفات: السيوف.

^٥ نادى عين شمس: موضع المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين ردّاً على المؤتمر الذي أقامه أعيان القبط في فترة من خلاف وقع بين الطائفتين المصريتين، لا أعادها الله.

وُؤسِدَتِ التَّرَابَ المَكْرُمَاتُ
يُشَيِّعُهُ الفَوَارِسُ والمُشَاةُ
يُطِيفُ بِهِ النَوَائِحُ والبُكَاءُ
وحَازَتْهُ القُرُونُ الخَالِيَاتُ
ولا هَتَفَتْ بدولته الرُّوَاةُ
نجومٌ فِي السَّمَاءِ مُحَلَّقَاتُ
إِلَيْهَا فَهِيَ حَسْرَى كَاسَفَاتُ
على آثَارٍ مِنْ دَرَجَا وَفَاتُوا
كَذَلِكَ فَلَيْلِدُنَ الأمَّهَاتُ
هَما غَرَسَا وَلِلوَطَنِ النِّبَاتُ
وَأَسْفَارُ النِّوَابِغِ مُرْجَعَاتُ
وَكَمْ بُعِثَ النِّوَابِغُ يَوْمَ مَاتُوا
وَزِينَتْهَا وَأَنْجَمُهَا الهُدَاةُ
هَدَى وَيَسَارَةً وَمُحَسِّنَاتُ
كَنُوزُ الأَرْضِ نَحْنُ هِيَ الدِّيَاتُ
كَمَا بَكَتِ الأبَّ الكَهْلُ البَنَاتُ
وَيَوْمَ كَبِرَتْ وَانْحَنَتِ القَنَاةُ
وَيَوْمَ الأَمْرُونَ بِهَا العُصَاةُ^٦
إِذَا بَسَطَتْ دُجَاهَا المُشْكِلَاتُ
إِذَا نَقَصَتْ مَعَ الشَّيْبِ الحَيَاةُ
إِذَا قِيلَ السَّنُونَ مُثَبِّطَاتُ
وَرَقَّتْ صَفْحَتَاهُ وَالظُّبَاتُ^٧
كَمَا نَظَرَتْ إِلَى النَّجْمِ السَّرَاةُ^٨

أَجَلٌ حُمِلَتْ عَلَى النَعِيشِ المَعَالِي
وَحُمِلَتِ المَدَافِعُ رُكْنَ سَلَمٍ
وَحَلَّ المَجْدُ حُفْرَتَهُ وَأَمْسَى
هُوَ عَنْ أَوْجٍ رَفَعْتَهُ «رِيَاضُ»
كَأَنَّ لَمْ يَمِلْ الدُّنْيَا فَعَالًا
نَعَاهُ «الْبَرْقُ» مُضْطَرِبًا فَمَاجَتْ
كَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ نُعِيتَ عِشَاءً
صَحِيفَةُ غَابِرٍ طُوِيَتْ وَوَلَّتْ
يَقُولُ الآخَرُونَ إِذَا تَلَّوْهَا
جَزَى اللَّهُ الرِّضَا أَبُو «رِيَاضُ»
بَنُو الدُّنْيَا عَلَى سَفَرٍ عَقِيمٍ
أَرَى الأَمْوَاتَ يَجْمَعُهُمْ نَشُورُ
صَلَاحُ الأَرْضِ أَحْيَاءُ وَمَوْتَى
قَرَائِحُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ عَلَيْهَا
فَلَوْ طُلِبَتْ لَهُمْ رِيَّةٌ لَقَالَتْ
أَبَا الوَطَنِ الأَسِيفُ بَكَتْكَ مِصْرُ
قَضَيْتَ لَهَا الحَقُوقَ فَتَى وَكَهْلًا
وَيَوْمَ النِّهْيِ لِلْأَمْراءِ فِيهَا
فَكَنَتْ عَلَى حُكُومَتِهَا سِرَاجًا
يَزِيدُ الشَّيْبُ نَفْسَكَ مِنْ حَيَاةٍ
وَتَمْلُوكُ السَّنُونَ قُوَى وَعِزْمًا
كَسِيفِ الهِنْدِ أَبْلَى حِينَ فُلَّتْ
رَفِيعُ القَدْرِ بِالْأَمْصَارِ يُرْنِي

^٦ يشير إلى أيام الثورة العربية في مصر، وإلى لون الحكم قبل تلك الثورة.

^٧ الظبات جمع ظبة (بضم الظاء): حدُّ السيف.

^٨ السراة (بضم السين): جمع سارٍ، ولا يكون السرى إلا للمشي بالليل.

كَأَنَّكَ فِي سَمَاءِ الْمُلْكِ «يَحْيَى»
تَسْوُسُ الْأَمْرَ لَا يُعْطَى نَفَادًا
إِذَا الْوُزَرَاءُ لَمْ يُعْطُوا قِيَادًا
زَمَاعُ فِي انْقِبَاضٍ فِي اخْتِيَالٍ
صِفَاتُ بَلَّغَتْكَ ذُرَا الْمَعَالِي
وَجَدْتَ الْمَجْدَ فِي الدُّنْيَا لَوَاءً
وَيَبْقَى النَّاسُ مَا دَامُوا رَعَايَا
«رِيَاضُ» طَوِيَتْ قَرْنًا مَا طَوْتَهُ
تَمَنَّتْ مِنْهُ أَيَّامًا تَحَلَّى
وَوَدَّ «الْقَيْصِرَان» لَوْ أَنَّ «رُومًا»
حَبَاكَ اللَّهُ «حَاشِيَتَيْهِ» عُمَرَا
فَقَمْتُ عَلَيْهِ تَجْرِبَةً وَخُبْرًا
تَمَرُّ عَلَيْكَ كَالْآيَاتِ تَتَرَى
فَأَدْرَكْتَ «الْبَخَارَ» وَكَانَ طِفْلًا
تُجَابُ عَلَى جَنَاحِيهِ الْفِيَا فِي
وَيُصْعَدُ فِي السَّمَاءِ عَلَى «بُرُوجٍ»
وَبَيْنَا الْكَهْرِبَاءُ تُعْدُّ خَرْقًا
وَدَانَ الْبَحْرُ حَتَّى خِيَضَ عُمَقًا
وَبُلِّغَتْ الرِّسَالُ لَا جَنَاحُ

وَأَلَّكَ فِي السَّمَاءِ النِّيِّرَاتُ^٩
عَلَيْكَ الْأَمْرُونَ وَلَا النَّهَاءُ
نَبَذَتْهُمْ كَأَنَّهُمُ النَّوَاءُ
كَذَلِكَ كَانَ «بِسْمَرُكُ» الثَّبَاتُ^{١٠}
كَذَلِكَ تَرَفَعَ الرَّجُلَ الصِّفَاتُ
تَلَقَّاهُ الْمُقَادِيمُ الْأَبَاءُ
وَيَبْقَى الْمُقَدِّمُونَ هُمْ الرُّعَاةُ
مَعَ «الْمَأْمُونِ» «دِجْلَةُ» وَ«الْفَرَاتُ»^{١١}
بِهَا الدُّوَلُ الْخَوَالِي الْبَاذَخَاتُ
عَلَيْهَا مِنْ حَضَارَتِهِ سِمَاتُ^{١٢}
وَأَعْمَارُ الْكِرَامِ مُبَارَكَاتُ
وَمَدْرَسَةُ الرِّجَالِ التَّجَرِبَاتُ
صَنَائِعُ أَهْلِهِ وَالْمُحَدَّثَاتُ
فَشَبَّ فَبَايَعْتَهُ الصَّافِنَاتُ^{١٣}
وَتَحَكَّمَ فِي الرِّيَاحِ الْمُنَشَّاتُ
غَدًا هِيَ فِي الْعَوَالِمِ بَارِجَاتُ^{١٤}
إِذَا هِيَ كُلُّ يَوْمٍ خَارِقَاتُ
وَقِيدَتْ بِالْعِنَانِ السَّافِيَّاتُ^{١٥}
يَجُوبُ بِهَا الْبَحَارَ وَلَا أَدَاةُ

^٩ يحيى: هو يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد.

^{١٠} بسمرک: وزير ألماني ضرب مثلاً في الحنكة والمهارة والسياسة. والزماع: الذي يجمع الأمر في جراحة وإقدام ثم لا يثبت.

^{١١} المأمون: هو المأمون العباسي. ودجلة والفرات: نهرا بالعراق.

^{١٢} سمات: علامات.

^{١٣} الصافنات: الخيل.

^{١٤} يريد بالبروج: الطائرات.

^{١٥} العنان: الزمام. والسافيات: الرياح.

كأن القطرَ حين يُجيبُ قطراً
 رَهينَ الرَّمسِ حَدَّثني مَلِيًّا
 هو الخبرُ اليقينُ وما سواه
 سألتُك ما المنيةُ أيُّ كأسٍ
 وماذا يُوجِسُ الإنسانُ منها
 وأيُّ المَصْرَعينَ أشدُّ موتُ
 وهل تقعُ النفوسُ على أمانٍ
 وتخلدُ أم كزعمِ القولِ تبلى
 تعالى الله قابضُها إليه
 وجازيها النعيمَ جمى أميناً
 أمثلُك ضائقٌ بالحقِّ ذرعاً
 أليس الحقُّ أن العيشَ فان
 فنمَ ما شئتَ لا توجشك دنياً
 تصرمتَ الشبيبةُ والليالي
 خلَّت «حلمية» ممَّن بناها
 أفيه من «المحلة» قوتُ يومٍ

ضمائرُ بينها مُتناجياتُ
 حديثَ الموتِ تبدُّ لي العِظَاتُ^{١٦}
 أحاديثُ المُنَى والتُّرَهَاتُ^{١٧}
 وكيف مذاقُها ومِن السُّقَاةُ
 إذا غصَّت بعلقمِها اللِّهَاتُ^{١٨}
 على عِلْمٍ أم الموتُ الفَوَاتُ^{١٩}
 كما وقَعَت على «الحرم» القِطَاةُ^{٢٠}
 كما تَبلى العِظامُ أو الرُّفَاتُ
 وناعِشُها كما انتعشَ النباتُ
 وعيشاً لا تُكدره أذاةُ
 وفي بُرْدِكَ كان له حُماةُ^{٢١}
 وأن الحيَّ غايتهُ المماتُ
 ولا يحزنُكَ من عيشِ فَوَاتُ
 وغاب الأهلُ واحتجبَ اللِّدَاتُ
 فكيف البيتُ حولك والبناتُ^{٢٢}
 ومن نِعَمٍ مَلَأَن «الطَّودَ» شاةُ^{٢٣}

^{١٦} الرمس: القبر.

^{١٧} الترهات: جمع ترهة، بتشديد الراء مفتوحة، وهي الباطل.

^{١٨} اللهاة (بفتح اللام): اللحمة المُشْرِفة على الحلق من أقصى الفم.

^{١٩} الموت الفوات: الموت المفاجئ.

^{٢٠} القِطَاة: الحمام أو طير يُشبه الحمام. ويقصد بالحرم: الحرم المكي، حيث يحرم صيد الطيور اللاتذة به.

^{٢١} حُماة: جمع حامٍ، وهو المُدافع والمُنازع من العدوان، والحامي: الأسد لحمايته عرينه.

^{٢٢} الحلمية: حيث كانت دار الفقيد. وقوله «وكيف البيت حولك والبنات»: يسأله عن حاله في القبر، وعن زاده هناك.

^{٢٣} المحلة: محلة روح، قرية في إقليم الغربية بمصر، حيث كانت توجد أملاك الفقيد الواسعة.

وهل لك من حرييرهما وِسَادٌ
تَوَلَّى الكُلُّ لم يَنْفَعَكَ مِنْهُ
عِبَادُ اللَّهِ أَكْرَمُهُمْ عَلَيْهِ
كَمَائِدَةُ الْمَسِيحِ يَقُومُ بُؤْسُ
أَخَذْتُكَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى هَنَاتٍ
فَصَفَحًا فِي التَّرَابِ إِذَا التَّقِينَا
خُلِقْتُ كَأَنَّنِي «عِيسَى» حَرَامٌ
يُسَاءُ إِلَيَّ أَحْيَانًا فَأَمْضِي
وَعَنْدِي لِلرَّجَالِ وَإِنْ تَجَافَوْا
طَلَعَتْ عَلَى «النَّدَى» بَعِينَ شَمْسٍ
عَلَى مَا كَانَ يَنْدُو الْقَوْمُ فِيهَا
تَمَلَّكْهُمْ وَقَارُكَ فِي خَشُوعٍ
رَأَيْتُ وَجْهَ قَوْمِكَ كَيْفَ جَلَّتْ
أَجِيلَ الرَّأْيِ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى
وَأَنْتَ عَلَى أَعْنَتِهِمْ قَدِيرٌ
إِذَا أَبْدَى الشَّبَابُ هَوًى وَزَهْوًا
فَهَلَّا قُمْتَ فِي النَّادِي خَطِيبًا
تُفَجِّرُ حِكْمَةً «التَّسْعِينَ» فِيهِ

إِذَا خُشِّنَتْ لَجَنَبَيْكَ الصَّفَاةُ^{٢٤}
سَوَى مَا كَانَ يَلْتَقِطُ الْعُفَاةُ
كِرَامٌ فِي بَرِيَّتِهِ أَسَاءُ
حَوَالِيهَا وَتَقَعْدُ بَائِسَاتُ
وَأَيُّ النَّاسِ لَيْسَ لَهُ هَنَاتُ^{٢٥}
وَلَوْشِيَتِ الْعَدَاوَةُ وَالتُّرَاتُ
عَلَى قَلْبِي الضَّغِينَةُ وَالشَّمَاتُ
كَرِيمًا لَا أَقُوتُ كَمَا أَقَاتُ
مَنَازِلُ فِي الْحَفَاوَةِ لَا تُفَاتُ
فَوَافَتْهَا بِشَمْسِينَ الْغَدَاةُ
تَوَافَى الْجَمْعُ وَائْتَمَرَ السَّرَاةُ^{٢٦}
كَمَا نَظَمْتَ مُقِيمِيهَا الصَّلَاةُ
وَكَيْفَ تَرَعَرَعْتَ مَصْرُ الْفَتَاةُ
تَبَيَّنَتْ الرِّزَانَةُ وَالْحَصَاةُ^{٢٧}
وَهُمْ بِكَ فِي الَّذِي تَقْضِي حُفَاةُ^{٢٨}
أَشَارَ إِلَيْهِ جِلْمُكَ وَالْأَنَاةُ
لَكَ الْكَلِمُ الْكِبَارُ الْخَالِدَاتُ
فَإِذَا الشَّبِيْبَةُ صَادِيَاتُ^{٢٩}

^{٢٤} الصفاة: الحجر، والمقصود به هنا القبر.

^{٢٥} الهنات: جمع هنة، وهي الشيء الصغير، وقد تعرف أسباب تلك الهنات من قصيدة مطبوعة في الجزء الأول من الشوقيات.

^{٢٦} يندو القوم: إذا اجتمعوا ليتشاوروا في ناديمهم. والسراة: جمع سري، وهو السيد الشريف.

^{٢٧} الحصاة: العقل والرأي.

^{٢٨} الحفاة: جمع حفي، وهو هنا بمعنى العالم يتعلم باستقصاء، قال الله تعالى: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾؛

أي سائل عنها باستقصاء.

^{٢٩} التسعين: هي مدة عمر الفقيده. وصاديات: أي ظلمات.

تقول متى أرى «الجيران» عادوا
وأين ألو النهى منا ومنهم
مشت بين العشيرة رسل شر
إذا الثقة اضمحلت بين قوم
فثق فعسى الذين ارتبت فيهم
ورب محبب لا صبر عنه
ومكروه على أخذات ظن
بني الأوطان هبوا ثم هبوا
مشى للمجد خطف البرق قوم
يعدون القوى برا وبحرا

وضم على الإخاء لهم شتات^{٣٠}
عسى يأسون ما جرح الغلاة^{٣١}
وفرقت الظنون السيئات
تمزقت الروابط والصلات
على الأيام إخوان ثقات
بدت لك في محبته بداءة^{٣٢}
تحببه إليك التجربات
فبعض الموت يجلبه السبات^{٣٣}
ونحن إذا مشينا «السلحفاة»
وعدتنا الأمانى الكاذبات

^{٣٠} الجيران: هم القبط والمسلمون في مصر.

^{٣١} الغلاة: هم البالغون حد الإفراط في عقائدهم وآرائهم.

^{٣٢} البداءة: من قولهم بدا لي في هذا الأمر بداء؛ أي ظهر لي فيه شيء.

^{٣٣} السبات: النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾.

عثمان باشا غالب^١

ضَجَّتْ لِمَصْرِعٍ «غَالِبٍ» فِي الْأَرْضِ «مَمْلَكَةُ النَّبَاتِ»
أَمَسَتْ بِـ «تِيْجَانٍ» عَلِيْهِ هِ مِنْ الْحِدَادِ مُنْكَسَاتٍ^٢
قَامَتْ عَلَى «سَاقٍ» لَغِيْهِ بَبْتِهِ وَأَقْعَدَتْ الْجِهَاتِ
فِي مَأْتَمٍ تَلْقَى الطَّبِيْبَ سَعَةً فِيْهِ بَيْنَ النَّائِحَاتِ
وَتَرَى «نَجُومَ الْأَرْضِ» مِنْ جَزَعٍ مَوَائِدَ كَاسِفَاتِ
وَالزَّهْرُ فِي «أَكْمَامِهِ» يَبْكِي بِدَمْعِ الْغَادِيَاتِ
وَشَقَائِقُ النُّعْمَانِ آ بَتَ بِالْخُدُودِ مُخَمَّشَاتٍ^٣
أَمَّا مُصَابُ الطَّبِّ فِيهِ هِ فَسَلَّ بِهِ مَلَأَ الْأُسَاةَ^٤
أَوْدَى الْجِمَامُ بِشِيْخِهِمْ وَمَا بِهِمْ فِي الْمَعْضَلَاتِ
مُلْقِي الدُّرُوسِ الْمُسْفِرَا تِ عَنْ الْغُرُوسِ الْمُثْمِرَاتِ

^١ عثمان باشا غالب: كان طبيباً عظيماً وعالمًا بالنبات يشار إليه بالنباتان، توفي في باريس سنة ١٩٢٠م.
^٢ التيجان للنبات: هي أكاليل الثمار، كالأكمام.

^٣ شقائق: جمع شقيقة، وهي الموضع ينبت الأعشاب، وشقائق النعمان موضع بعينه كثر فيه النبات المختلف الألوان والشَّيَات، مرَّ عليه النعمان بن المنذر فأعجبه، فقال: هو لي. فلم يعد أحد يمسُّه؛ ومن ذلك سُمِّي شقائق النعمان، وصار كل موضع ينبت مثل ذلك يقال له: شقائق النعمان. والخدود في شقائق النعمان يقصد بها الورد، وتخميَشها يعني لطمها أو قطعها.

^٤ الملاء: الجماعة من الناس. والأساة: جمع آس، وهو الطبيب.

قد كان حربَ الظلمِ حر
والمُستضاء بنوره
عَلِمُ الورى في علمه
قد كان فيه محلَّ إج
ومُمثِّلَ المصريِّ في
قُلِّ للمُريبِ إليك لا
إِن النوابغ «أهلَ بَد
هم في عُلَا الوطنِ الأدا
وهمُ الألى جمعوا الضما
لهم التَّجَلُّةُ في الحيا
«عثمانُ» قُم ترَ آيَة
خرجتَ بَنِينَ من الثرى
واسمَع بمصر الهاتفي
والطالبين لحَقَّها
والجاعليها قِبلةً
لاقوا أَبَوَّتْهم على
حتى الشبابُ تراهمُ
وزنوا الرجالَ فكان ما
قُلِّ للمُغالِطِ في الحقا
الفكرُ جاءَ رسولُهُ
عيسى الشُّعورِ إذا مشى

بَ الجهلِ حربَ التُّرَّهات
في الخافياتِ المُظَلِّمات
في الغربِ مُعْتَرِبُ الرُّفات
للالِ الجهابذةِ الثقاتِ
حظُّ الشعوبِ من الهبات
تأخذُ على الحرِّ الهنات
ر « ما لهم من سيئاتٍ
ةٌ فلا تحطُّ من الأداة
ثَر والعزائمُ من شتات
ةٍ وفوق ذلك في الممات
اللهُ أحياءُ «الموميات»
وتحرَّكتَ منه بَنات
ن بمجدها والهاتفات
بينَ السَّكينةِ والثبات
عندَ الترنُّمِ والصَّلاةِ^٦
غُرِّ المَناقِبِ والصفات
غلبوا الشيوخَ على الأناة
أعطوا على قدرِ الرُّنات^٧
ثِق حاضرٍ منها وآت
وأتى بإحدى المعجزات
ردَّ الشعوبَ إلى الحياة

٥ أهل بدر: هم أول الغزاة مع محمد ﷺ، شبَّه النوابغ بهم، ووجه الشبه بينهما هو سبق كل منهما لإحراز أسمى مراتب الشرف والرفعة. نقول: وهذا نوع من وجه الشبه لم نر شاعراً فطن إليه قبل شوقي حيَّاه الله.

٦ الترنُّم: أحد ضروب العبادة في المسيحية، كالصلاة عند المسلمين.

٧ الزنات: جمع زِنَة (كعِدَة)، وهي المرة من الوزن.

عبد الحي^١

طُويَ البِساطُ وجَفَّتِ الأقداحُ
وانفَضَّ نَادٍ بالشَّامِ وسامرٌ
وتَقَوَّضَتْ للفنِ أطولُ سَرحَةٍ
واللهِ ما أدري وأنتَ وحيدُهُ
«إسحاق» ماتَ فلا صَبُوحَ و«مَعْبُدٌ»
مَلِكُ الغِناءِ أزاله عن تَخْتِهِ
في التُّرْبِ فوقَ «بني سويف» يَتِيمةٌ
ما زال تاجُ الفنِ تِيأها بها
لو تستطيع كرامةً لمكانها
وغَدَتِ عواطلَ بَعْدَكَ الأفراحُ^٢
في مِصرَ أنتَ هَزَارُهُ الصَّدَّاحُ^٣
يُغْدِي إلى أَفْيائِها وَيُراحُ^٤
أَعْلِيه يُبْكِى أُمَ عَلَيْكَ يُنَاحُ
أَوْدَى فليسَ معَ الغَبوقِ فِلاحُ^٥
قَدَرُ يُزِيلُ الراسِياتِ مُتَاحُ
ومنَ الجواهرِ زَيْفٌ وصَاحُ^٦
حتى استَبَدَّ بها الردى المُجتاحُ
مَشَتِ الرِياضُ إِلَيْهِ والأدْواحُ

^١ هو المرحوم عبد الحي المغني، ذاع صيته في مصر وجاوزها إلى الأقطار العربية، حتى عُدَّ وحيد عصره وإمام فنّه، توفي سنة ١٩١٢م.

^٢ طوي البساط: تعبير يُكنى به عن انتهاء عوامل السرور.

^٣ الهزار: طائرٌ حسن الصوت، وهو فارسي، معرب هزاردستان.

^٤ السَّرحَة: الشجرة العظيمة. والأفْياء: جمع فيء، وهو — من الشجر — الظل.

^٥ إسحاق ومعبود: علّمان على مغنّيين. والصبوح: الشرب أول الصباح. والغبوق. الشرب بالعشي.

^٦ دُفْنُ الفقيد في بني سويف، وهي بلدة مشهورة بالقطر المصري. والجواهر الزائفة هي ضد الجواهر الصادقة الصحيحة.

رُحْمَاكَ «عبدَ الحيِّ» أُمُّكَ شَيْخَةً
كُسِرَتْ عَصَاهَا الْيَوْمَ فَهِيَ بِلَا عَصَا
اللَّهُ يَعْلَمُ إِنْ يَكُنْ فِي قَلْبِهَا
وَالنَّاسُ مَبْكِيٌّ وَبَاكِ إِثْرَهُ
كَانَ النَّدَامَى إِنْ شَدَوْتَ وَعَاقَرُوا
فِيَمَا تَقُولُ مُغْنِيًّا وَمُحَدِّثًا
فَارَقْتَ دُنْيَا أَرْهَقَتْكَ خَسَارَةً
يَا مُخْلِفًا لِلْوَعْدِ وَعَدُّكَ مَا لَهُ
عَبَثَتْ بِهِ وَبِكَ الْمَنِيَّةُ وَانْقَضَى
لَمَّا بَلَغْنَا بِالْأَحِبَّةِ وَالْمُنَى
زَعَمُوا نَعِيكَ فِي الْمَجَامِعِ مَازِحًا
الْجِدُّ غَايَةُ كُلِّ لَاهٍ لَاعِبٍ
رَمَتْ الْمَنَايَا إِذْ رَمَيْتُكَ بُلْبُلًا
أَهَاتُهُ حُرْقُ الْغَرَامِ وَلَفْظُهُ
وَذَبْحَنَ حَنْجَرَةً عَلَى أَوْتَارِهَا
وَفَلَّلَنَ مِنْ ذَاكَ اللِّسَانَ حَدِيدَةً
وَأَبْحَنَ رَاحَتَكَ الْبِلَى وَلَطَالَمَا
رَوْحٌ تَنَاهَتْ خَفَّةٌ فَتَخَيَّرَتْ
قُمْ غَنِّ وَلِدَانِ الْجِنَانِ وَحُورَهَا

قَعَدَتْ وَهِيضَ لَهَا الْغَدَاةَ جَنَاحُ
وَقَضَى فَتَاهَا الْأَجُودُ الْمِسْمَاحُ
جُرْحُ فَفِي أَحْشَاءِ مِصْرَ جِرَاحُ
وَبُكِيَ الشُّعُوبُ إِذَا النُّوَابِغُ طَاحُوا
سَيَّانِ صَوْتُكَ بَيْنَهُمُ وَالرَّاحُ^٧
تَتَنَافَسُ الْأَسْمَاعُ وَالْأَرْوَاحُ^٨
وَعَنِمْتَ قُرْبَ اللَّهِ وَهُوَ رَبَّاحُ
عِنْدِي وَلَا لَكَ فِي الضَّمِيرِ بَرَّاحُ
سَبَبٌ إِلَيْهِ بِأَنْسِنَا نَرْتَاخُ
بَابُ السَّرُورِ تَغْيِيبُ الْمِفْتَاحُ
هِيَهَاتَ فِي رَيْبِ الْمَنُونِ مِزَاحُ
عِنْدَ الْمَنِيَّةِ يَجْزَعُ الْمِفْرَاحُ^٩
أَرْدَاهُ فِي شَرِّكَ الْحَيَاةِ جِمَاحُ
سَجَّعَ الْحَمَامُ لَوْ أَنَّهُنَّ فِصَاحُ
تُؤَسَى الْجِرَاحُ وَتُذْبَحُ الْأَتْرَاحُ
يَخْشَى لِئِيمٍ بِأَسْهَاهُ وَوَقَاحُ
أَمْسَى عَلَيْهَا الْمَالُ وَهُوَ مُبَاحُ
نُزْلًا تَقَاصَّرُ دُونَهُ الْأَشْبَاحُ
وَابْعَثْ صَدَاكَ فَكُلُّنَا أَرْوَاحُ

^٧ النَّدَامَى: جمع نَدِيم. وعَاقَرُوا: من المَعَاقِرَةِ، وَهِيَ شَرِبَ الرَّاحِ. وَالرَّاحُ: الْخَمْرُ. يُشَبِّهُ صَوْتَهُ بِالْخَمْرِ؛ لِأَنَّهُمَا مُسْكِرٌ.

^٨ يَقُولُ: إِنْ حَدِيثُهُ كَانَ مِثْلَ غَنَائِهِ. وَالْمَأْثُورُ عَنْ عَبْدِ الْحَيِّ أَنَّهُ كَانَ فِكَةً الْحَدِيثِ بَارِعَ النِّكْتَةِ.

^٩ الْمِفْرَاحُ: كَثِيرُ الْفَرَحِ.

محمد ثابت باشا^١

سِرُّ أبا صالحٍ إلى الله وَاتركُ
هذه غايَةَ النفوسِ وهذا
هل ترى الناسَ في طريقك إلا
إِنَّ أَوْهَى الخيوطِ فيما بدا لي
مُضغَّةٌ بينَ خَفَقَةٍ وَسُكُونٍ
أَنزَلُوا في الثرى الوزيرَ وَاوَرُوا
كَنتَ فيها على يدٍ من حريرٍ
قد بَلَوْنَاك في الرياسةَ حينًا
أَخَذًا من لسانِ فارسٍ قِسْطًا

مصرَ في مَأْتَمٍ وَحُزنٍ شديدٍ
مُنْتَهَى العيشِ مُرَّه وَالرَّغِيدِ
نَعَشٌ كَهْلٍ تَلَاهُ نَعَشٌ وَلِيدِ
خَيْطُ عَيْشٍ مُعْلَقٌ بِالوَرِيدِ^٢
وَدَمٌ بَيْنَ جَرِيَةٍ وَجُمُودٍ
فيه تسعينَ حِجَّةً في صُعودٍ
لِلْيَالِي فَأَصْبَحْتَ من حديدٍ^٣
فَبَلَوْنَا الوزيرَ عبدَ الحميدِ^٤
وَإِفْرَ القسَمِ من لسانِ لَبِيدٍ^٥

^١ هو أحد باشوات مصر الكبار، عاصر أكثر ولاء مصر من الأسرة العلوية، وتوفي سنة ١٩٠١م بعد أن عمَّر حوالي تسعين عامًا.

^٢ الوريد: شريان بكسر الشين، وهو عِرْقٌ رئيسي في جسم الإنسان. يُشَبَّه العروق في جسم الإنسان بالخيوط؛ ليتوصل بذلك إلى إثبات ضرورة الضعف في الحياة وعدم بقائها.

^٣ يد من حرير: كناية عن رفاهية العيش.

^٤ بلونك في الرياسة: أي اختبرناك. والوزير عبد الحميد: هو عبد الحميد الكاتب المشهور.

^٥ القسم: هو العطاء أو الحظ. ولبيد: شاعرٌ عربيٌّ قديم. والغرض أن المرثي كان مُلَمًّا بالفارسية والعربية.

في ظلال الملوك تُدني إليهم
 لستَ من مرّ بالمعالم مرّاً
 قُم فحدّث عن السنين الخوالي
 والذي مرّ بين حالٍ قديمٍ
 وصِف العزّ في زمانٍ «عليّ»
 كيف أسطولهم على كلّ بحرٍ
 قد تولّوا وخلفوك وفيّاً
 فالحقّ اليوم بالكرام كريماً
 وتقبّل وداعٍ بكٍ على فقـ
 كلّ آو لظلك الممدود
 إنما أنت دولةٌ في فقيـ
 وفُتوح المملّكين الصّيد^٦
 أنت أذرى به وحالٍ جديدٍ
 واذكر اليّمن في زمانٍ سعيد^٧
 وسراياهم على كلّ بيدٍ^٨
 في زمانٍ على الوفيّ شديدٍ
 والقهم بين جنّةٍ وخلود
 يدك وافٍ لعهدك المحمود

^٦ الصيد: جمع أصيد، وهو العزيز الجانب.

^٧ يريد زمان محمد علي الكبير، ورفاهة العيش في زمن الخديو سعيد باشا.

^٨ السرايا: جمع سرية (بالباء المشددة مفتوحة)، وهي القطعة من الجيش لا يزيد عددها عن الأربعمئة.

والبيد: جمع بيداء، وهي الصحراء.

محمد فريد بك^١

كلُّ حيٍّ على المنيّة غادي
ذهب الأولونَ قَرْنًا فَقَرْنًا
هل ترى منهمُ وتسمعُ عنهم
كُرّة الأرضِ كم رَمَت صَوْلجانًا
والغُبارُ الذي على صفحتيّها
كلُّ قَبْرِ من جانبِ القَفْرِ يبدو
وزمَامُ الرُّكَّابِ من كلِّ فجٍّ
تتوالى الرُّكَّابُ والموتُ حادي^٢
لم يدُم حاضِرٌ ولم يبقَ بادي^٣
غيرَ باقي مآثِرٍ وأيادي^٤
وطوّت من مَلاعِبٍ وجِيادٍ
دورانُ الرّحى على الأجسادِ^٥
علَمَ الحقُّ أو مَنارَ المعادِ
ومَحَطُّ الرُّحالِ من كلِّ وادي

^١ محمد بك فريد: الرئيس الثاني للحزب الوطني، وهو الضحية الغالية للوطنية المصرية؛ فقد ورث عن والده ثروة طائلة جدًا، بذلها إلى آخر درهم في سبيل طلب الاستقلال لمصر والسودان، وظل يجاهد إلى أن مات مُعَدِّمًا فقيرًا في سنة ١٩٢٠م، محكومًا عليه بالنفي والتشريد، حيث لم يُسمح له بالعودة إلى وطنه إلا ميتًا.

^٢ الحادي: هو الذي يغني للفاقة فتتنشط في مسيرها.

^٣ الحاضر: ساكن الحضر. والبادي: ساكن البادية.

^٤ الأيادي: جمع يد، ويقصد باليد العطية أو الصنيعة، ولا تجمع اليد على أيادٍ إلا بهذا المعنى، فإذا أُريد جمع اليد الحقيقية قيل: أيدي.

^٥ المفهوم من المقام أن الرchy المقصودة هي رchy المنون، فاكنتى بتعريفها بأل، كأنه يقول: الرchy المعهودة.

تَطْلُعُ الشَّمْسُ حَيْثُ تَطْلُعُ نَضْحًا
تلك حمراء في السماء وهذا
لَيْتَ شِعْرِي تَعَمَّداً وَأَصْرًا
كذَبَ «الأزهران» ما الأمر إلا
يا حَمَامًا تَرَنَّمْتَ مُسْعِدَاتٍ
ضاقَ عن ثُكْلِها البُكَي فتغنَّتْ
الأنثاةُ الأنثاةُ كُلُّ أليْفٍ
هل رَجَعْتَنَ في الحياة لفهم
سَقَمٌ من سلامةٍ وعزاءٍ
يُجْتَنِي شَهِدُها على إِبْرِ النَحْ
وعلى نائِمٍ وَسَهْرانٍ فيها
«لُبْدٌ» صَادَهُ الرَّدَى وَأَظُنُّ النَّ
ساقَةَ النَّعْشِ بالرئيس رُويْدًا
كُلُّ أَعْوَادٍ مِنْبِرٍ وَسَرِيرٍ
تستريح المِطْيُ يومًا وهذي
لا وراءَ الجِيادِ زِيدَتْ جَلالًا
أَسأَلْتُمُ حَقِيبَةَ المَوْتِ ماذا

وَتَنَحَّى كِمِنْجَلِ الحَصَّادِ^٦
أَعَوُجُ النُّصْلِ من مِرَاسِ الجِلادِ
أَمْ أَعانا جِنائِيَةَ المِيلادِ
قَدَّرَ رائِحٌ بما شاء غادي^٧
وبها فاقَةُ إلى الإِسعادِ^٨
رُبَّ ثُكْلٍ سَمِعْتَهُ من شادي^٩
سابقُ الإِلْفِ أو مُلاقِي انفرادِ
إِنْ فَهَمَ الأُمُورَ نِصْفُ السَّدادِ
من هِنايَ وفُرْقَةٍ من وِدادِ
لِ وَيُمشِي لَوْرِدِها في القَتادِ^{١٠}
أَجَلٌ لا ينامُ بِالْمِرصادِ
سُرَّ من سَهْمِهِ على ميعادِ^{١١}
مَوَكِبُ المَوْتِ مَوْضِعُ الإِتِّئادِ^{١٢}
باطِلٌ غَيْرَ هَذِهِ الأَعوادِ
تَنْقُلُ العالَمِينَ من عَهْدِ عادِ
مَنْذُ كانت ولا على الأجيادِ
تَحْتَهَا من نَخيرَةٍ وَعَتادِ

^٦ قوله «وتنحَّى كمنجل الحصاد»: أي هلالاً شكله كالمنجل في اعوجاجه.

^٧ الأزهران: الشمس والقمر.

^٨ الإِسعاد: الإعانة، تقول أَسْعِدْنِي على كذا؛ أي أعْنِي عليه.

^٩ الثكل هنا: بمعنى الحزن. والشادي: المغني.

^{١٠} القَتاد: شجرٌ صلب له شوك كالإبرة.

^{١١} لبْد، بضم اللام وفتح الباء: عَلِمَ على آخر نسور لقمان، زعموا أن لقمان هذا عاش عمر سبعة أنسر،

كان آخرها النسر المسمى «لبد». أما قوله «وأظن النسر» فليس المقصود الطائر المعروف بالنسر، وإنما يقصد أحد الكواكب في السماء معروفاً باسم النسر. يقول: إن لكل كائن سَهْمًا من المنية مقدورًا.

^{١٢} ساقَة الجيش أو ساقَة النعش: هم السائرون في المقدمة. والاتئاد: بمعنى الترفُّق والتمهُّل.

إن في طيِّها إمامَ صُفوفٍ
 لو تركتُم لها الزُّمامَ لَجاءت
 انظروا هل ترونَ في الجمعِ مصرًا
 تاجُ أحرارِها غُلامًا وكهلاً
 وسُدُّوه الترابَ نِضوَ سِفارٍ
 واركزوه إلى القيامةِ رُمحًا
 وأقروْه في الصفائحِ عَضْبًا
 نازحِ الدارِ أقصرَ اليومَ بَينُ
 وكفى الموتُ ما تخافُ وترجو
 مَن دنا أو نأى فإنِ المنايا
 سرُّ معَ العمرِ حيثُ شئتَ تَتوبا
 ذلك الحقُّ لا الذي زعموه
 وجرى لفظُه على ألسِنِ النا
 يتحلَّى به القويُّ ولكنْ
 هل ترى كالترابِ أحسنَ عدلاً
 نزلِ الأقوياءُ فيه على الضَّعْفِ
 صَفحاتُ نَقِيَّةٍ كقلوبِ الرُّ
 قُم إنِ اسطَعتَ من سريرك وانظر
 هل تراهم وأنتَ مُوفٍ عليهم

وحَوارِي نِيَّةٍ واعتقاد^{١٣}
 وحَدها بالشَّهيدِ دارَ الرِّشادِ
 حاسراً قد تجلَّلتِ بسوادِ
 راعِها أن تراه في الأصْفادِ
 في سبيلِ الحقوقِ نِضوُ سُهَداءِ^{١٤}
 كان للحَشِدِ والنَّدَى والطَّرادِ
 لم يَدِنْ بالقرَّارِ في الأعمادِ
 وانتهتَ مِحْنَةً وكَفَّتْ عوادي^{١٥}
 وشفَى من أصادِقِ وأعادي
 غايَةً القُرْبِ أو قُصارى البِعادِ
 وافقِدِ العمرَ لا تَوْبُ من رُقادِ
 في قديمٍ من الحديثِ مُعادِ
 سِ ومِناه في صدورِ الصُّعادِ^{١٦}
 كتحلَّى القتالِ بِاسمِ الجهادِ
 وقيامًا على حقوقِ العبادِ^{١٧}
 سَفَى وحلَّ الملوكِ بالزُّهادِ
 سُلِّ مغسولةٌ من الأحقادِ
 سِرٌّ ذاك اللواءِ في الأجنادِ
 غيرَ بُنيانِ ألفَةٍ واتِّحادِ^{١٨}

^{١٣} الحواري: مفرد الحواريين، وهم الصفوة المختارة من الصحاب.

^{١٤} النضو: المهزول الجسم.

^{١٥} عوادي الدهر: عوائقه.

^{١٦} الصُّعاد: الرماح.

^{١٧} يقول: إنه لم يجد الحق خالصاً في هذه الأرض إلا للقوة، ولم يجد العدل كاملاً إلا في التراب، حيث يسوَّى الأقوياء بالضعفاء، والطامعين بالقانعين.

^{١٨} يشير هذا البيت إلى حقيقة تاريخية، هي أن عودة الفقيد ميّتا كانت في زمن اتحاد الأمة المصرية جميعاً على طلب الاستقلال التام، فلم يكن هناك أحزاب مختلفة المطالب وقتئذٍ.

أُمَّةٌ هَيَّئَتْ وَقَوْمٌ لَخِيرُ الدِّ
مَصْرٌ تَبْكِي عَلَيْكَ فِي كُلِّ خَدِرٍ
لَوْ تَأَمَّلْتَهَا لَرَأَعَكَ مِنْهَا
مُنْتَهَى مَا بِهِ الْبِلَادُ تُعَزَّى
أُمَّهَاتٌ لَا تَحْمِلُ التُّكْلَ إِلَّا
كَ «فَرِيدٍ» وَأَيْنَ ثَانِي فَرِيدٍ
الرَّئِيسِ الْجَوَادِ فِيمَا عَلِمْنَا
أَكَلَتْ مَالَهُ الْحَقُوقُ وَأُبْلَى
لَكَ فِي ذَلِكَ الضَّنَى رِقَّةُ الرُّو
عِلَّةٌ لَمْ تَصِلْ فِرَاشَكَ حَتَّى
صَادَفَتْ قُرْحَةً يُلَاقِيهَا الصَّب
وَعَدَ الدَّهْرُ أَنْ يَكُونَ ضِمَادًا
وَإِذَا الرُّوحُ لَمْ تُنْفَسْ عَنِ الْجَسَدِ
هَرٍ أَوْ شَرِّهِ عَلَى اسْتِعْدَادِ
وَتَصَوُّغِ الرِّثَاءِ فِي كُلِّ نَادِي
غُرَّةِ الْبِرِّ فِي سَوَادِ الْجِدَادِ
رَجُلٌ مَاتَ فِي سَبِيلِ الْبِلَادِ
لِلنَّجِيبِ الْجَرِيِّ فِي الْأَوْلَادِ
أَيُّ ثَانٍ لَوَاحِدِ الْأَحَادِ
وَبَلَوْنَا وَابِنَ الرَّئِيسِ الْجَوَادِ
جِسْمَهُ عَائِدٌ مِنَ الْهَمِّ عَادِي
حَ وَخَفَقُ الْفَوَادِ فِي الْعُودِ
وِطِئْتُ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَكْبَادِ
رُ وَتَأَبَّى عَلَيْهِ غَيْرَ الْفَسَادِ
لَكَ فِيهَا فَكَانَ شَرٌّ ضِمَادِ
سَمَ ف «بِقِرَاطٍ» نَافِخٌ فِي رَمَادِ^{١٩}

^{١٩} بقراط: هو أبو الطب كما يقولون.

البنون والحياة الدنيا^١

الضلوغُ تَتَقَدُّ	والدموغُ تَطَرِدُ
أَيُّهَا الشَّجِيُّ أَفْقُ	من عَناءٍ ما تَجِدُ
قد جَرَتْ لَهَايَتَهَا	عَبْرَةٌ لَهَا أَمْدُ
كُلُّ مُسْرِفٍ جَزَعًا	أو بُكْيٍ سَيَقْتَصِدُ
وَالزَّمَانُ سُنَّتُهُ	في السُّلُوِّ يَجْتَهِدُ
قُلْ لِثَاكِلَيْنِ مَشَى	في قُؤَاهُمَا الْكَمَدُ
لم يُعَافَ قَبْلَكُمَا	وَالدُّ وَلَا وَلَدُ
الذِينَ مِيلَ بِهِم	في سِفَارِهِم بَعُدُوا
ما عَلِمْتُمَا أَشَقُّوا	بِالرَّحِيلِ أَمْ سَعَدُوا
إِنْ مِنْزَلًا نَزَلُوا	لَا يَرُدُّ مَنْ يَرُدُّ
كُلُّنَا إِلَيْهِ غَدًا	ليس بِالْبَعِيدِ غَدُ
الْبَنُونَ هُمْ دَمُنَا	وَالْحَيَاةُ وَالْوَرْدُ ^٢
لَا تَلَذُّ مِثْلَهُمْ	مُهْجَةٌ وَلَا كَيْدُ
يَسْتَوُونَ وَاحِدُهُمْ	في الْحَنَانِ وَالْعَدَدُ
زِينَةٌ وَمَصْلَحَةٌ	وَاسْتِرَاحَةٌ وَدَدُ ^٣

^١ نظم أمير الشعراء هذه القصيدة تعزيةً للكاتب الكبير الدكتور محمد حسين هيكل «بك» في فقدٍ وحيدهِ سنة ١٩٣٥م.

^٢ الورد: جمع وريد، كبريد وبُرد.

^٣ الددُ (بالفتح): اللهو واللعب.

مِحْنَةٌ إِذَا فَسَدُوا	فِتْنَةٌ إِذَا صَلَحُوا
فَاجِعٌ إِذَا فُقِدُوا	شَاغِلٌ إِذَا مَرَضُوا
لَا تَلَمُّهُ الضُّمُدُ	جُرْحُهُمْ إِذَا انْتَزَعُوا
أَسِيًّا وَلَا الْجَلْدُ	العِزَاءُ لَيْسَ لَهُ
مِنْ وَرَائِهَا رَشْدُ	قُلْ لـ «هَيْكَلٍ» كَلِمًا
بَاطِلٌ وَلَا فَنَدُ	لَمْ يَشِبْ مُهَذَّبُهَا
ثَاكِلٌ وَيَنْجَرِدُ	قَدْ عَجِبْتُ مِنْ قَلَمٍ
وَهُوَ صَارِمٌ فَرَدُ	أَنْتَ لَيْتَ مَعْرَكَةٍ
فِي الْوَطَيْسِ تَتَقَدُّ	وَالسَيُوفُ نَحْوَتُهَا
وَالْأَرِيبُ يَنْتَقِدُ	أَنْتَ نَاقِدٌ أَرَبُ
بَعْضُ سِنِّهِ الْأَبْدُ	مَا تَقُولُ فِي قَدَرٍ
كُلُّ خُطْوَةٍ رَصَدُ	وَهُوَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى
إِنْ سَعَوْا وَإِنْ قَعَدُوا	يَعْتَرُ الْأَنَامُ بِهِ
حُكْمِهِ وَإِنْ جَحَدُوا	يَنْزِلُ الرِّجَالُ عَلَى
لَمْ يَحُلَّهَا أَحَدُ	الْقَضَاءِ مُعْضِلَةٌ
عُقْدَةٌ بَدَتْ عُقْدُ	كَلَّمَا نَقَضَتْ لَهَا
وَاسْتَرَاخَ مُعْتَقِدُ	أَتَعَبَتْ مُعَالِجُهَا
بِالْبَقَاءِ مُنْفَرِدُ	عَالَمٌ مُدَبِّرُهُ
كَائِنَاتُهُ الْجُدُدُ	مِنْ بَلَى كَوَائِنِهِ
إِنَّ حُسْنَهِ الْإِدْدُ ^٦	لَا تَقُلْ بِهِ إِدْدُ
غَايَةٌ وَتَتَّحِدُ	تَلْتَقِي نَقَائِضُهُ
لِلْبَقَاءِ أَوْ عَصْدُ	الْفَنَاءِ فِيهِ يَدُ
وَاخْتِلَافُهُ سَدَدُ	أَتْتَلَاْفُهُ رَشْدُ

^٤ الفند: هو الكذب.

^٥ الوطيس: الحرب.

^٦ الإدد: جمع إدة بالكسر، وهي الداهية.

البنون والحياة الدنيا

جَدَّ فِي عِمَارَتِهِ	مُنْصَفٌ وَمُضْطَهَدٌ
وَالْغِنَى لَخِدْمَتِهِ	كَالْفَقِيرِ مُحْتَشِدٌ
وَهُوَ فِي أَعْنَتِهِ	مُمَعِنٌ وَمُطَرَّدٌ
وَالْحَيَاةُ حَنْظَلَةٌ	فِي حُرُوفِهَا شُهْدٌ
هَيْكَلُ الشَّقَاءِ لَهُ	مِنْ مَدَامِعِ عَمَدٌ
قَامَتِ النُّعُوشُ عَلَى	جَانِبَيْهِ وَالْوُسْدُ
عُرْسُهُ وَمَأْتَمُّهُ	غَايَتَاهُمَا نَفْدٌ

ثروت باشا^١

يموتُ في الغابِ أو في غيره الأسدُ
قد غيَّبَ الغربُ شمسًا لا سقامَ بها
حدا بها الأجلُ المحتومُ فاغتربت
كلُّ اغترابٍ متاعٌ في الحياةِ سوى
نعي الغمامِ إلى الوادي وساكنه
برقُ الفجيعةِ لمَّا ثارَ ثائرُهُ
قام الرجالُ خيارى مُنصتين له
علا الصعيدَ نهارٌ كلُّه شجنٌ
لم يبقِ للمضحكين الموتُ ما وجدوا
وراءَ ريبِ الليالي أو فُجاءتها

كلُّ البلادِ وِسَادٌ حينَ تُتَسَدُ^٢
كانت على جنباتِ الشرقِ تَنَقَّدُ
إن النفوسَ إلى آجالِها تَفْدُ
يومُ يُفَارِقُ فيه المُهْجَةُ الجسدُ
برقٌ تمايلَ منه السهلُ والجَلْدُ
كادت كأمسٍ له الأحزابُ تَتَّحِدُ
حتى إذا هدَّ من آمالهم قعدوا
وجلَّ الريفَ ليلٌ كلُّه سُهْدُ
ولم يَرُدَّ على الباكين ما فقدوا
دمٌ لكلِّ شَمَاتٍ ضاحِكٍ رَصْدُ^٣

^١ هو المغفور له عبد الخالق ثروت باشا، كان زعيمًا وطنيًا عظيمًا، وسياسيًا إداريًا خطيرًا، تولى رئاسة الحكم في البلاد أكثر من مرة، وظفر من السياسة الإنجليزية لمصر بتصريح ٢٨ فبراير، وقد سافر إلى أوروبا لبعض المفاوضات السياسية المتممة لاستقلال مصر، فلم يُمهله الموت، ففُضِيَ بفرنسا في سنة ١٩٢٨م، وجيء به ميتًا، وكان بينه وبين أمير الشعراء صداقة حميمة ومودة قديمة، ظهر أثرهما في هذه المراثية التي تقرؤها فتُحسُّ رجْعها يعود إليك من أعماق الخلود.

^٢ هذا المطلع يُشير إلى موته بفرنسا.

^٣ رصد: بمعنى مترقّب.

تَكَادُ بِاللَّيْلِ فِي ظِلِّ الْبَلَى تَقْدُ
وما يدبُّ إلى البحرين أو يَرْدُ
ما يقذفُ المهدُ لا ما يقذفُ الرِّبْدُ
كأنها في الأُكْفِ الصَّارِمُ الْفَرْدُ
على السرير ومن رُمِحَ الْحِمَى قَصْدُ^٤
مُقَدَّمٌ كِلَواءِ الْحَقِّ مُنْفَرِدُ
كما تَدَلَّهَتْ التَّكْلَى وَتَفْتَقِدُ^٥
كأنهم من هَوَانِ الْخَطْبِ ما وُجِدُوا
هي النجابةُ في الأولاد لا العدد
عُودٌ من الهامِ يَحْوِيهِ ولا نَضْدُ^٦
من الصنائع أو أعناقهم سَنَدُ
وحلَّ فيه الهدى والرفقُ والرَّشْدُ
جندُ السلام ولا قَوَادِهِ الْمُجْدُ
عن البناءِ ولم يصرفه مُنْتَقِدُ
في ثورةٍ تَلِدُ الْأَبْطَالَ أو تَدِدُ^٧

باتت على الْفُلْكِ فِي التَّابُوتِ جَوْهَرُهُ
يُفَاخِرُ النِّيلُ أَصْدَافَ الْخَلِيجِ بِهَا
إِنَّ الْجَوَاهِرَ أَسْنَاهَا وَأَكْرَمُهَا
حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْفُلُكُ الْمَدَى انْحَدَرَتْ
تلك الْبَقِيَّةُ مِنْ سَيْفِ الْحِمَى كِسْرُ
قَدْ ضَمَّهَا فَرْكَاً نَعَشٌ يُطَافُ بِهِ
مَشَتْ عَلَى جَانِبَيْهِ مَصْرُ تَنْشُدُهُ
وقد يَمُوتُ كَثِيرٌ لَا تُجَسِّهُمُ
تُكَلُّ الْبِلَادُ لَهُ عَقْلٌ وَنَكْبَتُهَا
مُكَلِّلُ الْهَامِ بِالتَّصْرِيحِ لَيْسَ لَهُ
وَصَاحِبُ الْفَضْلِ فِي الْأَعْنَاقِ لَيْسَ لَهُ
خِلا مِنْ الْمِدْفَعِ الْجَبَّارِ مَرْكَبُهُ
إِنَّ الْمَدَافِعَ لَمْ يُخْلَقْ لِصُحْبَتِهَا
يَا بَانِي الصَّرْحِ لَمْ يَشْغَلْهُ مُمْتَدِحُ
أَصَمَّ عَنْ غَضَبٍ مِنْ حَوْلِهِ وَرِضًا

^٤ يشير إلى مجيئه من أوروبا في نعش على الباخرة. وتقد: تضيء.

^٥ يريد بالخليج: الخليج الفارسي، وبالبحرين: مجموعة جزر عربية بالقرب من الشاطئ الغربي للخليج الفارسي، وعندها يصاد اللؤلؤ.

^٦ القصد (بكسر القاف): جمع قصدة بكسرهما أيضاً، وهي القطعة مما يُكسر، ويقال رمح قصد، بكسر الصاد؛ أي منكسر.

^٧ التدلّه: ذهب الفؤاد من عشق أو حزن ونحوهما. وقوله «تفتقد»: من قولهم وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر.

^٨ العود هنا: هو السرير. النضد (محرّكة الضاد): ما نُضد من متاع، والسرير يُنضد عليه. كأنه يعجب لمن كلل هامات مصر بمجيئه لها بهذا الفوز السياسي في تصريح ٢٨ فبراير، كيف لا يحويه ميتاً سريراً متَّخِذاً من الهام أو منضد بها؛ حتى يكون الجزاء من جنس العمل؟! ومن هذا النحو يقول البيت التالي: «وصاحب الفضل في الأعناق ... إلخ».

^٩ يريد بالثورة: ثورة مصر سنة ١٩١٩م. والوَأْد: دفن الأحياء. يريد أنه كان يعمل في بناء صرح الوطن بدون رغبة في مدح أو خوف من ذم، في شجاعة لا تخاف الثورة وهي لا عقل لها.

يدنو على مثلها أو يبعد الأمد
من الفياصل ما في دينه أود
وملّ طول النضال الذئب والنقد^{١٠}
حتى تفتحت الأبواب والسدد
إن السياسة فيها الصيد والطرد^{١١}
يمشي إلى الصيد تحت العاصف الأسد
يداك للقوم ما ذموا وما حمدا
تبنى من الصخر الأساس والعمد
وفيه سعي من الآباء مطرد
على أسنتها الإحسان والسدد^{١٢}
لولا المنيّة ما مالوا ولا رقدوا
حتى تزعزع من أسبابه الود
حماية لله فاستدري بها البلد
ما شيد للحق فهو السرمذ الأبد
للناس أنك كنز في الثرى بدد^{١٣}
ولا استخفك لين العيش والرغد
ترجو فتقديم أو تخشى فتتدد
يدور حيث تدور المجد والحسد
وما ليومك يا خير اللدات غد
منيّة ما لها قلب ولا كبد
أزكى من الورد أو من مائه الورد^{١٤}

تصريحك الخطوة الكبرى ومرحلة
الحق والقوة ارتدّا إلى حكم
لولا سفارتك المهدية اختصما
ما زلت تطرق باب الصلح بينهما
وجدتها فرصة تلقى الجبال لها
طلبتها عند هوج الحادثات كما
لما وجدت معدّات البناء بنت
بنيت صرّحك من جهد البلاد كما
فيه ضحايا من الأبناء قيّمة
وفي أواسيه أقالم مجاهدة
وفيه ألوية عزّ الجهاد بهم
رميت في ودد الذلّ القديم به
طوى حمايته المحتلّ وانبسط
ثم غير باك على ما شدت من كرم
يا «ثروة» الوطن الغالي كفى عظة
لم يطغك الحكم في شتى مظاهره
تغدو على الله والتاريخ في ثقة
نشأت في جبهة الدنيا وفي فمها
لكلّ يوم غد يمضي بروعته
رمتك في قنوات القلب فانصدت
لما أناخت على تامورك انفجرت

^{١٠} النقد: جنس من الغنم قبيح الشكل من الهزال أو غيره.

^{١١} الطرد: مطاردة الصيد.

^{١٢} الأواسي: جمع آسية، وهي من البناء المحكم الدعامة. والسدد: بمعنى السداد؛ أي الصواب.

^{١٣} البدد: المتفرق.

^{١٤} التامور: القلب. والورد، جمع وريد: العرق في الجسم.

فيه الصديق وفيه الأهل والولد
منك الدهاء ورأيي مُنقِذُ نَجْدُ
شجَاهُ ذاك الحنان الساكن الهَمْدُ
لم يَبِكْ من آدمٍ أحبابه أحدُ
مدينةُ النورِ فارتدَّتْ بها رَمْدُ^{١٥}
للعلمِ حولك عينٌ لم تنمَ ويدُ
إليك تحمل تسليمي ولا بُرْدُ^{١٦}
في مجلسِ الراح والريحانِ تحتشدُ
كما تحدرُ حولَ السوسنِ البرْدُ^{١٧}
ودُّ من الصَّغَرِ المعسولِ مُنْعِدُ
ولا تغيّرُ في أبياتِها الشُّهُدُ
حادثةٌ تَعِدُ الأوطانَ ما تَعِدُ
يا ليتَ شعري هل قلتُ الذي أجدُ^{١٨}

ما كلُّ قلبٍ غدا أو راحَ في دمه
ولم تُطاوَلْكَ خوفاً أن يُناضِلَها
فهل رثى الموت للبرِّ الذَّبِيحِ وهل
هَيَّهَاتَ لو وُجِدَتْ للموت عاطفةُ
مَشَتْ تَذودُ المنايا عن وديعتها
لو يُدْفَعُ الموتُ رَدَّتْ عنك عادِيَةُ
«أبا عزيز» سلامُ الله لا رُسُلُ
ونفحةٌ من قوافي الشَّعرِ كنتَ لها
أرسلتها وبعثتُ الدمعَ يَكْنُفُها
عطفتُ فيك إلى الماضي وراجعتني
صافٍ على الدهر لم تُقْفِرْ خليَّتُهُ
حتى لمحتك مرموقَ الهلالِ على
والشَّعرُ دمعٌ ووجدانٌ وعاطفةُ

^{١٥} مدينة النور: تُطلَقُ في هذا العصر على باريس.

^{١٦} البرْدُ: جمع بريد.

^{١٧} السوسن: نوع من الزهر. والبرْد: هو ما يتساقط من المطر كحبات الثلج.

^{١٨} أي هل قلت الذي يجيش في وجداني.

عبد العزيز جاويز^١

أصابَ المُجاهدُ عُقبَى الشهيدِ
وأَمسى جمادًا عدوَّ الجمودِ
حداه السَّفارُ إلى منزلِ
فقرَّ إلى موعدٍ صادقٍ
وبات الحوارِيُّ من صاحِبِيهِ
تسرَّبَ في مَنكَبِي «مصطفى»
فيالكَ قَبْرًا أَكُنَّ الكَنوزَ
لقد غَيَّبوا فيكَ أَمْضى السِّيوفِ
ثلاثُ عَقائدَ في حَفرةٍ
قَعَدَنَ فَكُنَّ الأساسَ المَتِينَ
وَألقى عصاه المُضافُ الشَّريدُ
وباتَ على القيدِ حَصْمُ القيودِ
يُلاقِي الخَفيفَ عليه الوئيدُ
مُعزُّ اليَقينِ مُذِلُّ الجُحودِ
شَهِيدَينَ أُسْرَى إِلَيْهِمَ شَهِيدُ
كَأَمْسٍ وَبَيْنَ ذِراعِي «فريد»^٢
وساجَ الحقوقِ وحاطَ العُهودِ
فهل أنت يا قَبْرُ أَوْفى العُمودِ
تَدُكُ الجِبالَ وتُوهي الحديدِ
وقامَ عليها البِناءُ المَشِيدِ

^١ هو الشيخ عبد العزيز جاويز، أحد السابقين في خدمة القضية المصرية، كان زعيمًا سياسيًا دينيًا عظيمًا، وقد كرَّس حياته لخدمة سياسة بلاد الإسلام عامة، ومصر وتركيا خاصة، ثم حُكِمَ عليه بالنفي والتشريد مدةً طويلة، ثم عاد إلى مصر ولم يلبث إلا بضع سنين، ومات في سنة ١٩٢٩م، وله رسائل سياسية كانت مضرب المثل في الفصاحة والقوة في وقتها.

^٢ هو مصطفى كامل الزعيم الوطني الأول. وفريد: هو محمد فريد الزعيم الوطني الثاني. وكانا صاحبي الفقيدي في المبدأ والجهاد.

فلا تنسَ أميسَ وآلاءهُ
ولولا البلى في زوايا القبورِ
ومن طلبَ الخلقَ من كنزه
تعلمَ بالصبرِ أو بالثباتِ
طريدَ السياسةِ منذُ الشبابِ
لقيتَ الدواهيَ من كيدِها
حملتَ على النفسِ ما لا يُطاقُ
وقلّبتَ في النارِ مثلَ النُّصارِ
أتذكرُ إذ أنتَ تحتَ «اللواءِ»
إذا ما تطلّعتَ في الشاطئِ
وهزَّ الندى لك المنكبينِ
رسائلَ تُذري بسجعِ البديعِ
يَعِيها شيوخُ الجَمي كالحديثِ
فما بالها نكّرتَها الأمورُ
لقد نسيَ القومُ أميسَ القريبِ
يقولون ما لـ «أبي ناصرٍ»
وفيَمَ تحمّلَ همَّ القريبِ
فقلتُ وما ضرّكم أن يَقومَ
أتستكثرون لهم واحدًا
سعى ليؤلّفَ بينَ القلوبِ
يَشُدُّ عُرا الدينِ في داره
وللقومِ حتى وراءَ القفارِ

ألا إن أميسَ أساسُ الوجودِ^٣
لما ظهرتْ جدّةٌ للمُهودِ
فإن العقيدةَ كنزٌ عَتيدُ
جَلِيدُ الرجالِ وغيرُ الجليدِ
لقد آن أن يَستريحَ الطريدِ
وما كالسياسةِ داهٍ يَكيدُ
وجاوزتِ المُستطاعَ الجهودِ
وغُرّبتَ مثلَ الجُمانِ الفريدِ
نَبِيّةُ المكانِ جَمّ العديدِ^٤
رنا الريفُ وافتنَّ فيك الصعيدِ
وراحَ الثرى من زحامِ يَميدِ
وتُنسي رسائلَ عبدِ الحميدِ
ويحفظُها النشءُ جَفْظَ النشيدِ
وطولُ المَدَى وانتقالُ الجُودِ^٥
فهل لأحاديثِهِ من مُعيدِ
وللتُّركِ ما شأنُهُ والهنودِ
من المسلمينَ وهمَّ البعيدِ
من المسلمينَ إمامٌ رشيدِ
وليّ القديمِ نصيرَ الجديدِ
فلم يَعدْ هَدْيُ الكتابِ المَجيدِ
ويدعو إلى الله أهلَ الجحودِ
دعاةٌ تُغني ورُسُلُ تشيدِ

^٣ الآلاء: النعم.

^٤ الداهي: هو الذي يأتي بالداهية، وهي الأمر العظيم.

^٥ كان الفقيد محرّر جريدة اللواء في عهدها الأول.

^٦ الجود هنا: بمعنى الحظوظ.

جَزَى اللَّهُ مَلَكًا مِنَ الْمُحْسِنِينَ
كَأَنَّ الْبَيَانَ بِأَيَّامِهِ
يُداوِي نَدَاهُ جِرَاحَ الْكَرَامِ
أَجَارَ عِيَالَكَ مِنْ دَهْرِهِمْ
تَوَلَّى الْوَلِيدَةَ فِي يُتِمِّهَا
سَلَامٌ «أَبَا نَاصِرٍ» فِي التَّرَابِ
بَعْدَتْ وَعَزَّ إِلَيْكَ الْبَرِيدُ
أَجَلٌ بَيْنَنَا رُسُلُ الذِّكْرِيَّاتِ
وَفَكَّرْ وَإِنْ عَقَلْتَهُ الْحَيَاةُ
أَجَلٌ بَيْنَنَا الْخُشْبُ الدَّائِبَاتُ
مَضَى الدَّهْرُ وَهُيَ وَرَاءَ الدَّمُوعِ
وَكَمْ حَمَلْتَ مِنْ صَدِيدٍ يَسِيلُ
نَشَدْتُكَ بِالْمَوْتِ إِلَّا أَبْنَتَ
وَكَيْفَ يُسَمَّى الْغَرِيبَ امْرُؤُ
وَكَيْفَ يُقَالُ لِجَارِ الْأَوَائِ

رَعُوفَ الْفَوَادِ رَحِيمَ الْوَرِيدِ^٧
أَوْ الْعِلْمَ تَحْتَ ظِلَالِ «الرَّشِيدِ»^٨
وَيُدْرِكُهُمْ فِي زَوَايَا اللُّحُودِ
وَجَامَلَهُمْ فِي الْبِلَاءِ الشَّدِيدِ
وَكَفَكَفَ بِالْعَطْفِ دَمْعَ الْوَلِيدِ
يُعِيرُ التَّرَابَ رَفِيفَ الْوَرُودِ
وَهَلْ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيِّتٍ بَرِيدِ
وَمَاضٍ يُطِيفُ وَدَمْعٌ يَجُودِ
يُظِلُّ بَوَادِي الْمَنَايَا يَرُودُ^٩
وَإِنْ كَانَ رَاكِبُهَا لَا يَعُودِ
قِيَامٌ بِمُلْكِ الصَّحَارَى قَعُودِ
وَكَمْ وَضَعْتَ مِنْ جِنَاشٍ وَدُودِ
أَأَنْتَ شَقِيٌّ بِهِ أُمُّ سَعِيدِ
نَزِيلُ الْأُبُوءِ ضَيْفُ الْجُدُودِ^{١٠}
لِ جَارِ الْأَوَاخِرِ نَاءٍ وَحِيدِ

^٧ هو جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حيث تعطف على أبناء الفقيد ولم يتركهم بعد وفاة أبيهم لتصاريف الزمن، فأنعم عليهم بهبة ملكية وافرة.

^٨ هو هارون الرشيد، وقد اعتز العلم والأدب في عهده اعتزازًا كبيرًا.

^٩ يرود: أي يبحث ويكتشف.

^{١٠} يقول: إن الميت ينزل في التراب ضيفًا على آبائه وجدوده؛ إذن فليس يصح أن نعتبره غريبًا ولا وحيدًا.

تعزية ورثاء^١

كأُس من الدنيا تُدارُ	مَنْ ذاقها خَلع العِذار ^٢
الليلُ قَوَّامٌ بها	فإذا ونى قامَ النهارُ
وحبا بها الأعمارَ لم	تدُم الطَّوالُ ولا القِصارُ
شَرِبَ الصَّبِيُّ بها ولم	يخلُ المُعَمَّرُ من خُمارِ
وحسا الكرامُ سُلَافَها	وتناول الهَمَلُ العُقار ^٣
وأصابَ منها ذو الهوى	ما قد أصابَ أخو الوقارِ
ولقد تميلُ على الجما	دِ وتصرعُ الفلَكُ المُدارِ
كأُس المنيَّةِ في يدِ	عَسراءَ ما منها فرارُ ^٤
تجري اليمينَ فَمَنْ تَوَلَّى	سِ يَسْرَةً جَرَّتِ اليَسارُ
أودى الجريُّ إذا جرى	والمُسْتَميتُ إذا أغارِ

^١ وجَّه هذه التعزية إلى صديقه حامد بك خلوصي حين مات والده المرحوم الأميرالاي مصطفى بك خلوصي، وقد كان من الضباط الكرام الذين مجدوا في قمع الثورة في الجزيرة «كريد» أيام كانت تابعة للدولة العثمانية.

^٢ العذار: الحياء والوقار.

^٣ السلاف والعقار: من أسماء الخمر، يقال حسا فلان الماء، إذا شربه شيئاً بعد شيء.

^٤ يقال للرجل: أعسر، إذا عمل بيده الشمال، والعرب تصف ما ليس محبوباً بالأعسر إذا كان مذكراً، وبالعسراء إذا كان مؤنثاً، فيد المنية عسراء لأنها كذلك.

لَيْتُ الْمَعَامِعِ وَالْوَقَا وَبَقِيَّةُ الزُّمَرِ الَّتِي
 كَانَتْ تَذُودُ عَنِ الذُّمَارِ جَنْدُ الْخِلَافَةِ عَسْكَرُ السَّ
 لْطَانِ حَامِيَةُ الدِّيارِ ضَاقَتْ «كُرَيْدُ» جِبَالُهَا
 بِكَ يَا «خُلُوصِي» وَالْقِفَارِ أَيَّامُكُمْ فِيهَا وَإِنْ
 طَالَ الْمَدَى ذَاتُ اشْتِهَارِ عَلِمَ الْعَدُوُّ بِأَنْكُمْ
 أَنْتُمْ لِمَعْصِمِهَا سِوَارِ أَحْدَقْتُمْ بِمَقَرِّهِ
 فَتَرَكْتُمُوهُ بِلَا قَرَارِ حَتَّى اهْتَدَى مِنْ كَانَ ضَلَّ
 وَثَابَ مِنْ قَدْ كَانَ ثَارِ وَاعْتَزَّ رَكْنٌ لِلْوَلَا
 يَةِ كَانَ مُنْقَضَ الْجِدَارِ عِشْ لِلْعُلَا وَالْمَجْدِ يَا
 خَيْرَ الْبَنِينَ وَلِلْفَخَارِ أَبْكِي لِدَمْعِكَ جَارِيَا
 وَلِدْمَعِ إِخْوَتِكَ الصُّغَارِ وَأَوْدُ أَنْكُمْ رَجَا
 لُ مِثْلُ وَالِدِكُمْ كِبَارِ وَأُرِيدُ بَيْتَكُمْ عَمَّا
 رَا لَا يُحَاكِيهِ عَمَارِ لَا تَخْرُجُ النُّعْمَاءُ مِنْ
 هُ لَا يُزَايِلُهُ الْيَسَارِ

ذكرى هيجو^١

ما جلّ فيهم عيدُك المأثور
ذُكِرَ بالمائة السنين وإنها
ستدوم ما دام البيانُ وما ارتقت
ولئن حُجِبَتْ فأنت في نظر الورى
لولا التّقَى لَفَتَحَتْ قَبْرَكَ لِلْمَلَا
ولقلتُ يا قومُ انظروا إنجيلكم
مَنْ بعده مَلِكُ البيانِ فعندكم
مات القريضُ بموتِ «هيجو» وانقضى
ماذا يَزِيدُ العيدُ في إجلاله
فقدت وجوه الكائناتِ مُصَوِّراً
كُشِفَ الغطاءُ له فكلُّ عبارةٍ
لم يُعْيِهِ لفظٌ ولا معنًى ولا
مُسْلِي الحزينِ يَفْكُهُ من حزنه
ثأَرَ الملوكَ وظلَّ عندَ إِبائِهِ

إلا وأنت أَجَلٌ يا فكتورُ
عُمُرٌ لِمِثْلِكَ في النجومِ قصيرُ
للعالمينَ مَدَارُكَ وشعورُ
كالنجمِ لم يُرَ منه إلا النورُ
وسألتُ أين السيّدُ المقبورُ^٢
هل فيه من قلمِ الفقيدِ سُطورُ
تاجُ فقدتُم رَبَّهُ وسريزُ
مُلْكُ البيانِ فأنتُم جمهورُ
وجَلالُهُ بيراغِه مسطورُ
نزل الكلامُ عليه والتصويرُ
في طيِّها للقارئين ضَميرُ
غرضٌ ولا نظمٌ ولا منثورُ
ويردُّه لله وهو قريرُ
يرجو ويأملُ عفوه المثلثورُ

^١ نُظِمَتْ هذه القصيدة في ذكرى شاعر فرنسا الكبير «فكتور هيجو» لمناسبة مرور مائة عام على وفاته.

^٢ المَلَأ: جماعة الناس.

وأَعَارَ «واترلو» جلالَ يَرَاعِهِ
يا أَيُّهَا البحرُ الذي غَمَرَ الثرى
أنتَ الحقيقةُ إنَّ تحجَّبَ شخصُها
ارفعِ جِدادَ العالمينَ وعُدْ لهم
وانظرِ إلى البؤساءِ نظرةً راحم
الحالُ باقيةٌ كما صَوَّرَتَهَا
البؤسُ والنُّعمى على حالِيهما
ومن القويِّ على الضعيفِ مُسَيِّطِرٌ
والنفسُ عاكفةٌ على شهواتها
والعيشُ آمالٌ تَجِدُّ وتنقضي

فجلالُ ذاك السيفِ عنه قصيرٌ^٣
ومن الثرى حُفِرَ له وقبور
فلها على مرِّ الزمانِ ظهورُ
كيِّمًا يُعيِّدُ بائسٌ وفقير
قد كان يُسعدُ جمْعَهُم ويُجيرُ
من عهدِ آدمَ ما بها تغيير
والحظُّ يَعِلُّ تارةً ويجور
ومن الغنيِّ على الفقير أمير
تأوي إلى أحقادها وتثور
والموتُ أصدقُ والحياةُ غرورُ^٥

^٣ واترلو: علَّم على موضع من المواضع الذي حصلت فيه الموقعة التي هُزِم فيها نابليون هزيمته الكبرى.

^٤ يشير إلى رواية البؤساء، تأليف فكتور هيجو.

^٥ العيش آمال تجد: أي تتجدد.

عبده الحامولي^١

ساجعُ الشرقِ طارَ عن أوكارِهِ
غالَهُ نافذُ الجناحَيْنِ ماضٍ
يطرُقُ الفرخَ في الغصونِ ويغشى
كانِ مِزمارَهُ فأصبحَ داوُ
«عبدُهُ» بَيَدَ أَنْ كَلَّ مُغْنً
مَعْبُدُ الدَوْلَتَيْنِ فِي مِصْرَ وَإِسْحَا
فِي بَسَاطِ الرِّشِيدِ يَوْمًا وَيَوْمًا
صَفَوْ مُلْكِيهِمَا بِهِ فِي اَزْدِيَاذٍ
وتولَّى فَنَ عَلَى آثَارِهِ^٢
لَا تَفِرُّ النَّسُورُ مِنْ أَظْفَارِهِ
«لُبْدًا» فِي الطَّوِيلِ مِنْ أَعْمَارِهِ^٣
دُ كَثِيبًا يَبْكِي عَلَى مِزْمَارِهِ^٤
عَبْدُهُ فِي افْتِنَانِهِ وَابْتِكَارِهِ
قُ «السَّمِيِّينَ» رَبِّ مِصْرٍ وَجَارِهِ^٥
فِي حِمَى جَعْفَرٍ وَضَافِي سِتَارِهِ^٦
وَمِنْ الصَّفَوِ أَنْ يَلُودَ بَدَارِهِ

^١ توفي عبده الحامولي في ١٩٠٢، وكان نادرة الزمن في حسن الصوت وفي ابتكار الألحان، هذا إلى أريحية ومروءة يضرب بهما المثل.

^٢ الأوكار: جمع وكر، وهو عش الطائر.

^٣ لبد: اسم نسر.

^٤ يشبّه صوت المرثي في صفائه بمزمار داود النبي صاحب المزامير.

^٥ يشبّهه بمعبد وإسحاق. ويقصد بقوله «رب مصر وجاره»: ملك مصر وجاره من أرباب الأقطار العربية؛ يعني أن عبده كان يُطرب الأقطار العربية جميعها كما كان معبد وإسحاق كذلك.

^٦ الرشيد: هو هارون الرشيد. وجعفر: هو جعفر البرمكي وزيره. والغرض أن المرثي كان يتنقل من بساط الملوك المشابهين للرشيد، إلى بساط الوزراء المشابهين لجعفر.

يُخْرِجُ الْمَالِكِينَ مِنْ حِشْمَةِ الْمُلْ
رُبَّ لَيْلٍ أَغَارَ فِيهِ الْقَمَارِي
بَصْبًا يُذَكِّرُ الرِّيَاضَ صَبَاهُ
وَعَنَاءٍ يُدَارُ لَحْنًا فَلَحْنًا
وَأُنِينَ لَوْ أَنَّهُ مِنْ مَشُوقٍ
يَتَمَنَّى أَخُو الْهَوَى مِنْهُ آهًا
زَفَرَاتٍ كَأَنَّهَا بَثُّ «قَيْسٍ»
لَا يُجَارِيهِ فِي تَفَنُّنِهِ الْعَو
يَسْمَعُ اللَّيْلُ مِنْهُ فِي الْفَجْرِ يَا لَيْلِ
فُجِعَ النَّاسُ يَوْمَ مَاتَ «الْحَمُولِي»
بِأَبِي الْفَنِّ وَابْنِهِ وَأَخِيهِ
وَالْأَبْيِّ الْعَفِيفِ فِي حَالَتَيْهِ
يَحْبُسُ اللَّحْنَ عَنْ غَنِيِّ مُدِلٍّ
يَا مُغِيثًا بِصَوْتِهِ فِي الرِّزَايَا
وَمُحَلًّا الْفَقِيرِ بَيْنَ ذَوِيهِ
وَعِمَادَ الصَّدِيقِ إِنْ مَالَ دَهْرٌ
لَسْتُ بِالرَّاحِلِ الْقَلِيلِ فَتَنْسَى

كَ وَنُتْسَى الْوَقُورَ ذِكْرَ وَقَارِهِ
وَأَثَارَ الْجَسَانَ مِنْ أَقْمَارِهِ^٧
وَحِجَازٍ أَرْقَى مِنْ أَسْحَارِهِ^٨
كَحَدِيثِ النَّدِيمِ أَوْ كَعُقَارِهِ
عَرَفَ السَّامِعُونَ مَوْضِعَ نَارِهِ
حِينَ يُلْحَى تَكُونُ مِنْ أَعْذَارِهِ
فِي مَعَانِي الْهَوَى وَفِي أَخْبَارِهِ^٩
دُ وَلَا يَشْتَكِي إِذَا لَمْ يُجَارِهِ
لُ فَيُصْغِي مُسْتَمَهلاً فِي فِرَارِهِ
بَدَوَاءِ الْهَمُومِ فِي عَطَّارِهِ
الْقَوِيَّ الْمَكِينِ فِي أَسْرَارِهِ
وَالْجَوَادِ الْكَرِيمِ فِي إِثَارِهِ
وَيُذِيقُ الْفَقِيرَ مِنْ مُخْتَارِهِ^{١٠}
وَمُعِينًا بِمَالِهِ فِي الْمَكَارِهِ
وَمُعِزًّا الْيَتِيمَ بَيْنَ صِغَارِهِ
وَشَفَاءَ الْمَحْزُونِ مِنْ أَكْدَارِهِ
وَاحِدُ الْفَنِّ أُمَّةٌ فِي دِيَارِهِ

^٧ القماري: جمع قُمَرِيَّة، نوع من الحمام حسن التغريد. والأقمار: جمع قمر. يريد أنه كان يُطرب الحسان الشبيهات بالأقمار.

^٨ صبا الرياض (يفتح الصاد): نسيمها. أما كلمة «صبا» الواقعة في أول البيت فمقصود بها نغمة معروفة في فن الغناء، وهي مفتوحة الصاد أيضًا، كأنها سُميت بذلك تشبيهًا لها بالنسيم المعروف بالصبا، وكذلك «حجاز» نغمة معروفة في الغناء أيضًا.

^٩ قيس: هو ابن الملوح الشهير بمجنون ليل.

^{١٠} المُلْدُ بالمال: المتباهي به. يشير هذا البيت إلى بعض ما يُؤثّر عن عبده — رحمة الله عليه — أنه كان يلجأ إليه الفقراء ليحیی أفرأح أولادهم، فيحسن إليهم ويجيب طلبهم، وينفق من ماله في تشييد الاحتفال اللائق بسهرته، وربما أثر هذه الليلة الفقيرة على دعوة أحد الأغنياء الكبار، ويروى له في هذا الباب حكايات كثيرة.

غايَةُ الدهرِ إنْ أتى أو تَوَلَّى
نزل الجِدُّ في الثرى وتساوى
وانقضى الداءُ باليقين من الحا
لهفَ قومي على مَخايلِ عزٍّ
وعلى ذاهبٍ من العيش ولَّيْ
وزمان أنت الرُّضا من بقايا
كان للناس ليْلُهُ حينَ تشدو
ما لقيتَ الغداةَ من إدباره
ما مضى من قيامه وعِثاره
لَينٍ فالَموتُ مُنتهى إقصاره
زال عَنَّا بَرَوِضُهُ وهَزَارُهُ^{١١}
تَ فوَلَّى الأَخيرُ من أوطاره
هُ وَأنت العِزُّ من آثاره
لِحِقِّ اليَوْمِ ليْلُهُ بنهاره

^{١١} الهزار: طائرٌ حسن الصوت، فارسي.

قاسم بك أمين^١

يا أيُّها الدمعُ الوفيُّ بدارٍ
أنا إنْ أهنتُك في ثراهم فالهوى
هانوا وكانوا الأكرمين وعودِروا
لَهْفِي عليهم أُسْكِنوا دورَ الثرى
أين البشاشةُ في وسيمِ وجوههم
كُنَّا من الدنيا بهم في روضةٍ
عطفًا عليهم بالبكاءِ وبالأسى
يا غائبينَ وفي الجوانحِ طيفُهم
بيني وبينكم وإن طال المدى
إنِّي أكادُ أرى محلِّي بينكم
أوكلُّما سمحَ الزمانُ وبُشِّرَت
فُجِعَت به فكأنه وكأنها

نقضِي حقوقَ الرُّفقةِ الأخيرِ^٢
والعهدُ أنْ يُبْكَوا بدمعِ جاري^٣
بالقفرِ بعدَ مَنازلٍ وديارٍ
من بعدِ سَكْنِي السَّمْعِ والأبصارِ
والبُشْرُ للندماءِ والسُّمَّارِ^٤
مَرُّوا بها كنسائمِ الأسفارِ
فتَعَهَّدُ الموتى من الإيثارِ^٥
أُبْكِيكُمْ من غَيْبِ حُضَارِ
سَفَرٌ سَأزْمَعُه من الأسفارِ
هذا قَرَارُكُمْ وذاك قَراري
مَصْرٌ بفرْدٍ في الرجالِ مَنارِ^٦
نجمُ الهدايةِ لم يَدُم للساوي

^١ المرحوم قاسم بك أمين: هو الزعيم صاحب دعوة تحرير المرأة في مصر، وقد توفي في سنة ١٩٠٩م.

^٢ بدار: يعني بايِر.

^٣ يقول: إن الذين أبذل دمعِي وأهينهُ في ترابهم هم هواي وموضع حبي، وليس عجيبًا أن يبكي الإنسان أهل حبه وهواه.

^٤ السمار: جمع سامر، والسمر حديث الأصدقاء بالليل.

^٥ الإيثار: هو أن تعطي لغيرك ما أنت محتاج إليه.

^٦ المنار: هو العلم يهتدي الناس به في الطريق.

إن المصيبة في «الأمين» عظيمة
 في أَرْحَى ماجِدٍ مُستعْظَمٍ
 أَوْفَى الرجالِ لعهده ولِرائيه
 وأشدُّهم صبراً لمعتقداته
 يَسْقِي القرائحَ هادئاً مُتواضِعاً
 قُلْ للسماءِ تَغْضُّ من أقمارها
 من كلِّ وُضَاءٍ المآثرِ فائتِ
 تمضي الليالي لا تنالُ كماله
 آثاره بعدَ المواتِ حياته
 يا من تَفَرَّدَ بالقضاءِ وعِلِمِهِ
 ما زِلْتَ ترجوه وتخشى سَهْمَهُ
 هَلَّا بُعِثْتَ فكنْتَ أَفْصحَ مَخْبِراً
 انْفُضْ غُبَارَ الموتِ عنكَ وناجني
 هذا القضاءَ الجِدِّ فارِّوْ وهاتِ عن
 كُلِّ وإن شَغَفَتْهُ دُنياه هوى
 لله «جامعة» نهضت بأمرها
 أُمْنِيَةُ العُقلاءِ قد ظفروا بها
 والعقلُ غايَةُ جَزْيِهِ لَأَعْنَتُهُ
 لو يعلمون عظيمَ ما تُرجى له
 محمولةً لمشيئةِ الأقدارِ
 رُزُّ الممالكِ فيه والأُمصارِ
 وأبرُّهم بصديقه والجارِ
 وتَأدُّباً لمُجادِلٍ ومماري
 كالجدولِ المُتَرَقِّقِ المُتَواري
 تحتَ الترابِ أحاسنُ الأُقمارِ
 زُهرَ النجومِ بزهره السَّيَّارِ
 بِمَعِيبِ نَقْصٍ أو مَشِينِ سرارِ^٧
 إن الخلودَ الحقُّ بالآثارِ
 إلا قضاءَ الواحدِ القَهَّارِ
 حتى رمى فأحطتْ بالأسرارِ
 عمَّا وراءَ الموتِ من «لازار»^٨
 فَعَسَايَ أَعْلَمُ ما يكونُ غُباري
 حُكْمِ المنيَّةِ أصدَقُ الأخبارِ
 يوماً مُطْلَقُها طلاقُ «نوار»^٩
 هي في المَشارِقِ مَصدِرُ الأنوارِ^{١٠}
 بعدَ اختلافِ حوادثِ وطواري
 والجهلُ غايَةُ جَزْيِهِ لِعِثَارِ
 خرَجَ الشَّحِيحُ لها من الدينارِ

^٧ سرار (يفتح السين وكسرها): مشتق من قولهم استسر القمر، إذا خفي ليلة السرار، وهي آخر ليلة أو ليلتين في الشهر.

^٨ لازار، أو عازار: اسم الرجل الذي أحياه سيدنا عيسى. ويقول: لو بعثت لكنت أفصح في إخبارك عن الموت من هذا الرجل.

^٩ نوار: اسم امرأة بعينها كانت زوجة الفرزدق الشاعر، فطلقها فندم كثيراً حتى ضُرب المثل ببنامته في كل طلاق نادم.

^{١٠} هي الجامعة المصرية، وكان للفقيد فضلٌ مذكور في إنشائها.

تشري الممالك بالدم استقلالها
 بالعلم يُبنى الملكُ حقَّ بنائه
 ولقد يُشادُ عليه من شَمِّ العلا
 إن كان سرَّكَ أن أقمَت جدارها
 أضحت من الله الكريم بذمة
 كُلِّتْ بأنظار «العزیز» وحُصِّنت
 وإذا العزیزُ أعارَ أمرًا نظرةً
 ماذا رأيتَ من الحجابِ وعُسرِهِ
 رأيي بدا لك لم تجده مُخالفاً
 والباسلان شجاعُ قلبٍ في الوغى
 أوددت لو صارت نساءً النيل ما
 يجمَعن في سلم الحياة وحربها
 إن الحجابَ سماحةً ويسارةً
 جهلوا حقيقته وحكمة حُكمِهِ
 يا قَبَّةَ «الغوري» تحتك مأتَمٌ
 يُحييه قومٌ في القلوب على المدي
 هيهات تُنسى أُمَّةٌ مدفونةٌ
 إن شئتَ يوماً أو أردتَ فحقبةً
 هاتوا ابن «ساعدة» يُؤبِنُ قاسماً
 من كلِّ لائقةٍ لبانخِ قدرِهِ

قُومُوا اشْتَرَوْهُ بِفُضْيَةٍ وَنُضَارِ
 وَبِهِ تُنَالُ جَلَائِلُ الْأَخْطَارِ
 مَا لَا يُشَادُ عَلَى الْقَنَا الْخَطَّارِ^{١١}
 قَدْ سَاءَهَا أَنْ مَالَ خَيْرُ جِدَارِ
 مَرْمُوقَةِ الْأَعْوَانِ وَالْأَنْصَارِ
 بـ «فَوَادٍ» فَهِيَ مَنِيْعَةُ الْأَسْوَارِ^{١٢}
 فَالْيَمْنُ أَعْجَلَ وَالسُّعُودُ جَوَارِي
 فَدَعَوْتَنَا لِتَرْفُقِي وَيَسَارِ
 مَا فِي الْكِتَابِ وَسُنَّةِ الْمُخْتَارِ
 وَشُجَاعُ رَأْيِي فِي وَغَى الْأَفْكَارِ
 كَانَتْ نِسَاءُ «قُضَاعَةَ» وَ«نِزَارِ»^{١٣}
 بِأَسْ الرِّجَالِ وَخَشْيَةِ الْأَبْكَارِ
 لَوْلَا وَحُوشُ فِي الرِّجَالِ ضَوَارِي
 فَتَجَاوَزُوهُ إِلَى أُنَى وَضِرَارِ
 تَبَقَى شِعَائِرُهُ عَلَى الْأَدْهَارِ
 إِنْ فَاتَهُمْ إِحْيَاؤُهُ فِي دَارِ
 فِي أَرْبَعِينَ مِنَ الزَّمَانِ قِصَارِ
 كُلُّ يَمْرٍ كَلِيلَةٍ وَنَهَارِ
 وَخُذُوا الْمَرَاثِي فِيهِ مِنْ «بِشَّارِ»^{١٤}
 عَصْمَاءَ بَيْنَ قَلَائِدِ الْأَشْعَارِ

^{١١} الخطار: أي المهتز، واهتزاز القنا كناية عن استعدادهِ للقتال.

^{١٢} العزیز: هو كل ملك لمصر، وكان الخديو عباس وقتئذٍ. وفوَاد: هو جلالة ملك مصر فوَاد الأول.

^{١٣} ليس الغرض نساء هَاتَيْنِ الْقَبِيلَتَيْنِ قُضَاعَةَ وَنِزَارَ الْبَذَاتِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ الْمَرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ الْمَوْصُوفَةَ فِي الْبَيْتِ التَّالِي.

^{١٤} ابن ساعدة: هو قُسُ بْنُ سَاعِدَةَ الْإِيَادِي، أَحَدُ خُطَبَاءِ الْعَرَبِ الْحُكَمَاءِ، يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي بَلَاغَةِ الْخُطْبِ. وَبِشَّار: هو بِشَّارُ بْنُ بُرْدِ الشَّاعِرِ الْمَشْهُورِ. يَقُولُ: إِنْ قَاسِمًا لَا يُؤَبِّنُهُ إِلَّا أَمْثَالُ قُسُ مِنْ الْخُطَبَاءِ وَأَمْثَالُ بِشَّارٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ.

تولستوي^١

«تولستوي» تُجْري آيةُ العلمِ دمعها
وشعبُ ضعيفُ الركنِ زالَ نصيرُهُ
ويندبُ فلاحونَ أنتَ منارُهم
يُعانونَ في الأكواخِ ظُلماً وظُلماً
تطوفُ كعيسى بالحنانِ وبالرِّضا
ويأسى عليك الدِّينُ إذ لك لُبُّهُ
أيكفرُ بالإنجيل من تلك كُتُبُهُ
ويبكك إلفٌ فوق «ليلى» ندامةً
تناولَ ناعيكَ البلادَ كأنه
وقيلَ تولَّى الشيخُ في الأرضِ هائماً
وقيلَ قضى لم يُغنِ عنه طبيبُهُ

عليك ويبكي بئسَ وفقيرُ
وما كلُّ يومٍ للضعيفِ نصيرُ
وأنتَ سراجٌ غيَّبوه مُنيرُ
ولا يملكون البثَّ وهو يسيرُ
عليهم وتغشى دُورهم وتزور
وللخادمين الناقمين قُشور
أناجيلُ منها مُنذرٌ وبشيرُ
غداةَ مشى بـ «العامريِّ» سُرير
يراعُ له في راحتِكَ صريرُ^٢
وقيلَ بـ «ديرِ» الراهباتِ أسير
وللطبِّ من بطشِ القضاءِ عذيرُ

^١ تولستوي: هو الفيلسوف الروسي الشهير، كان عالماً عاملاً بما يقول، فتخلَّى عن ماله الجَمِّ ليساوي نفسه بالفقراء، ولعل رواياته ومؤلفاته كانت الأناجيل الأولى للثورة الأخيرة في روسيا، وقد توفي سنة ١٩١٠م وهو شيخٌ كبير.

^٢ الصرير: التصويت. واليراع: القلم.

وَجَاوَرَ «رَضْوَى» فِي التَّرَابِ «ثَبِير»^٢
وَعَالِي بِمَقْدَارِ النَّظِيرِ نَظِيرُ
جَنَاهُنَّ مَسْكُ فَوْقَهَا وَعَبِيرُ
عَلِيهِنَّ بَطْنُ الْأَرْضِ وَهُوَ فَخُورُ
فَأَنْتَ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ خَبِيرُ
بِمَا لَمْ يُحْصَلْ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
وَيَنْشُرُ بَعْدَ الطَّيِّ وَهُوَ قَدِيرُ
طَوِيلُ زَمَانٍ فِي الْبَلَى وَقَصِيرُ
وَلَمْ يُثْنُونِي دِيرُ هُنَاكَ طَهُورُ
وَكُلُّ فَرَاشٍ قَدْ أَرَاكَ وَثِيرُ^٦
وَكُنَّا كِلَانَا فِي الْحَيَاةِ ضَرِيرُ
وَنَجْوَايَ بَعْدَ اللَّهِ وَهُوَ غَفُورُ
وَلَا مُتَعَالٍ فِي السَّمَاءِ كَبِيرُ
وَعِلْمُ كَعِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ غَزِيرُ
بَنُونَ وَمَالٌ وَالْحَيَاةُ غُرُورُ
وَعُدَّةٌ صَيْفِي جَنَّةٌ وَغَدِيرُ
وَنَضَّرُ أَيَّامِي غِنَى وَحُبُورُ
وَلَا حَظٌّ مِثْلُ الشَّمْسِ حِينَ تَسِيرُ
وَرُبَّ ضَعِيفٍ تَحْتَمِي فَيُجِيرُ
وَجَاوَرْتُهُ فِي الْعَمْرِ وَهُوَ نَضِيرُ
وَلِذَا تُدْنِيَا كُلُّ ذَاكَ نَزُورُ^٧

إِذَا أَنْتَ جَاوَرْتَ «الْمَعْرِيَّ» فِي الثَّرَى
وَأَقْبَلَ جَمْعُ الْخَالِدِينَ عَلَيْكُمَا
جَمَاجِمُ تَحْتَ الْأَرْضِ عَطْرُهَا شَذَى
بَهْنٌ يُبَاهِي بَطْنَ «حَوَّاءَ» وَاحْتَوَى
فَقُلْ يَا حَكِيمَ الدَّهْرِ حَدِّثْ عَنِ الْبَلَى
أَحْطَتَ مِنَ الْمَوْتِ قَدِيمًا وَحَادَثًا
طَوَانَا الَّذِي يَطْوِي السَّمَوَاتِ فِي غَدٍ
تَقَادِمَ عَهْدَانَا عَلَى الْمَوْتِ وَاسْتَوَى
كَأَنَّ لَمْ تَضُقْ بِالْأَمْسِ عَنِّي كَنِيسَةً
أَرَى رَاحَةً بَيْنَ الْجَنَادِلِ وَالْحَصَى
نَظَرْنَا بَنُورَ الْمَوْتِ كُلَّ حَقِيقَةٍ
إِلَيْكَ اعْتِرَافِي لَا لِقَسٍّ وَكَاهِنٍ
فَزُهِدْكَ لَمْ يُنْكِرْهُ فِي الْأَرْضِ عَارِفُ
بَيَانُ يُشَمُّ الْوَحْيِ مِنْ نَفْحَاتِهِ
سَلَكْتُ سَبِيلَ الْمُتَرْفِينَ وَلِذَا لِي
أَدَاةُ شَتَائِي الدَّفْءُ فِي ظِلِّ شَاهِقٍ
وَمُتَعَتٌ بِالدُّنْيَا ثَمَانِينَ جَجَّةً
وَذِكْرُ كَضْوَى الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا عِذَارِي أَجْرَنَنِي
أَرَدْتُ جَوَارَ اللَّهِ وَالْعَمْرُ مُنْقَضُ
صَبَاً وَنَعِيمٌ بَيْنَ أَهْلِ وَمَوْطِنٍ

^٢ المعري: هو أبو العلاء المعري، وشعره الفلسفي الاجتماعي مشهور. ورضوى وثبير: علما على جبلين؛ أولهما بالمدينة وثانيهما بمكة. يريد تشبيهه هو والمعري بهذين الجبلين.

^٤ يريد أنه كان يعرف أشرار النفوس جد المعرفة.

^٥ النشر: هو البعث من الموت، وهو أيضا ضد الطي.

^٦ الفراش الوثير: اللين الناعم.

^٧ نزور: أي قليل.

بهنّ وما يَدْرِيَنَ ما الذنبُ خشيّةٌ
أوانسُ في داجٍ من الليل مُوحِشٍ
وأشبههُ طَهرٍ في النساءِ بِمَريمٍ
تُسأَلُنِي هل غيّرَ الناسُ ما بهم
وهل أثرَ الإحسانَ والرفقَ عالمٌ
وهل سلكوا سُبُلَ المَحَبَّةِ بينهم
وهل آنَ من أهلِ الكتابِ تسامُحٌ
وهل عالَجَ الأحياءُ بؤساً وشقوةً
قُم انظُرْ وأنتَ المالىُّ الأرضَ حكمةً
أناسُ كما تدري ودنيا بحالها
وأحوالُ خَلِقٍ غابِرٍ مُتَجَدِّدٍ
تمرُّ تَباعاً في الحياة كأنها
وحرصٌ على الدنيا وميلٌ مع الهوى
وقام مقامَ الفردِ في كلِّ أُمَّةٍ
وحوَرٌ قولُ الناسِ مَولى وعَبْدُهُ
وأضحى نفوذُ المالِ لا أمرَ في الورى
تُساسُ حكوماتٌ به وممالكُ
وعصرٌ بَنُوهُ في السلاحِ وجرصُهُ
ومن عجبٍ في ظلّها وهو وارفٌ
ويأخذُ من قوتِ الفقيرِ وكسبِهِ
ولمّا استقلَّ البرّ والبحرَ مذهباً

ومن عَجَبٍ تخشى الخطيئةَ حورٌ^٨
وللهِ أنسٌ في القلوبِ ونورٌ
فتاةٌ على نهجِ المسيحِ تسيرُ
وهل حَدَثتْ غيرَ الأمورِ أمورُ
دواعي الأذى والشرِّ فيه كثيرُ
كما يتصافى أسرةً وعشيرُ
خليقٌ بأدابِ الكتابِ جَدِيرُ
وقلّ فسادٌ بينهم وشرورُ
أَجْدَى نظيماً أم أفادَ نثيرُ
ودهرٌ رخيٌّ تارةً وعسيرُ
تَشابَهَ فيها أولٌ وأخيرُ
مَلاعِبُ لا تُرعى لهنَّ سُتورُ
وغيثٌ وإفكٌ في الحياة وزورُ
على الحكمِ جَمٌّ يستبدُّ غفيرُ
إلى قولهم مُستأجِرٌ وأجيرُ
ولا نهى إلا ما يرى ويُشيرُ
ويُذعنُ أقيالٌ له وصدورُ^٩
على السلمِ يُجري ذِكْرَهُ ويُدِيرُ
يُصادِفُ شعباً آمناً فيُغيرُ
ويُثوي جيوشاً كالحصى ويميرُ
تعلّقُ أسبابَ السماءِ يطيرُ

^٨ الحور: جمع حوراء، وهي الجارية في عينها حور، والحور اشتداد بياض العين وسوادها.

^٩ أقيال: جمع قَيل، وهو الملك. والصدور: جمع صدر، وهو العظيم من الناس كالوزير ونحوه.

عمر بك لطفي^١

قِفُوا بِالْقُبُورِ نُسَائِلُ عُمَرَ
سَلُوا الْأَرْضَ هَلْ زُيِّنَتْ لِلْعَلِيمِ
وَهَلْ قَامَ «رِضْوَانُ» مِنْ خَلْفِهَا
فَلَوْ عَلِمَ الْجَمْعُ مَمَّنْ مَضَى
إِلَى جَنَّةٍ خُلِقَتْ لِلْكَرِيمِ
بِرَغَمِ الْقُلُوبِ وَحَبَّاتِهَا
نَزُولُكَ فِي التُّرْبِ زَيْنُ الشَّبَابِ
مُقِيلُ الصَّدِيقِ إِذَا مَا هَفَا
حَيِّيتَ فَكُنْتَ فَخَارَ الْحَيَاةِ
عَجِيبُ رَدَاكَ وَأَعْجَبُ مِنْهُ
فَمَا قَبْلُهَا سَمِعَ الْعَالَمُونَ
وَقَدْ يَقْتُلُ الْمَرْءُ هُمُ الْحَيَاةِ

متى كانت الأرض مَثْوَى القمرِ
وهل أُرْجَتِ كَالْجِنَانِ الْحُفَرِ
يُلاقِي الرَضِيَّ النَقِيَّ الْأَبْرَ
تَنْحَى لَهُ الْجَمْعُ حَتَّى عَبَّرَ
وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَوْ مَنْ قَدَّرَ
وَرَغَمَ السَّمَاعِ وَرَغَمَ الْبَصَرِ
سَنَاءَ «النَّدَى» سَنَا «المُؤْتَمَرِ»^٢
مُقِيلُ الْكَرِيمِ إِذَا مَا عَثَرَ
وَمُتَّ فَكُنْتَ فَخَارَ السَّيْرِ
حَيَاتُكَ فِي طَوْلِهَا وَالْقَصْرِ
وَلَا عَلِمُوا مُصْحَفًا يُخْتَصِرُ
وَشَغْلُ الْفَوَادِ وَكَدُّ الْفِكْرِ

^١ توفي عمر بك لطفي في سنة ١٩١١م، وكان عالماً قانونياً ضليعاً، كما كان في حياته يكاد يتنقذ غيره على قوميته وحباً لمصلحة بلاده، وهو في طليعة مؤسسي نقابات التعاون في مصر.

^٢ الندي: يريد نادي المدارس العليا، وكان الفقيه رئيساً له. ويريد بالمؤتمر: المؤتمر الذي أقامه أعيان المسلمين في هليوبوليس، رداً على المؤتمر الذي أقامه أعيان الأقباط في أسيوط. والسنا: (بالمد) الضوء، و(بالقصر) الرفعة.

دفنًا التجاربَ في حُفرةٍ
 فكم لك كالنَّجمِ من رحلةٍ
 «نقاباتك» الغُرُّ تبكي عليكِ
 ويبكي فريقُ تخيَّرتَه
 ويبكي الألى أنتَ علَّمتهم
 حياتك كانت عِظَاتٍ لهم
 سَهَرْنَا قُبَيْلَ الردى ليلةً
 فقممتَ إلى حفرةٍ هُيِّئَتْ
 مددتُ إليك يدًا للوداعِ
 ولو أنَّ لي عِلْمٌ ما في غدٍ
 وقالوا شَكَّوتُ فما راعني
 رثيْتُك لا مالِكا خاطري
 ففبكِ عرفتُ ارتجالَ الدموعِ
 ومثلُك يُرثى بأيِّ الكتابِ
 فيا قبرُ كُنْ روضةً من رضاءِ
 سَقَّتْكَ الدموعُ فإن لم يَدْمَنْ

إليها انتهى بك طولُ السَّفرِ
 رأى البدو آثارها والحَضَرَ
 ويبكي عليكِ «الندى» الأغر
 شريفَ المَرامِ شريفَ الوَطَرِ
 وأنتَ غرستَ فكانوا الثمر
 وموتُك بالأمسِ إحدى العِبرِ
 وما دارَ ذِكْرُ الردى في السمر^٣
 وقمتُ إلى مِثْلِها تُحتَفَرُ
 ومدَّ يدًا لِلقَاءِ القَدَرِ
 خبأتُك في مُقْلَتِي من حَذَرِ
 وما أولُ النارِ إلا شَرَرُ
 من الحُزنِ إلا يسيرًا خطرُ
 ومنك علِمتُ ارتجالَ الدُّرَرِ
 ومثلُك يُفدى بنصفِ البَشَرِ
 عليه وكُنْ باقَّةً من زَهَرِ
 كعادَتِهِنَّ سَقاك المَطَرِ

^٣ السمر: حديث الليل.

^٤ يريد: لا مالكا من خاطري إلا بقية قليلة الخير لا تُغني في رثائك.

عمر بك لطفي^١

اليومَ أصعدُ دونَ قبرِكَ منبرا
وأقصُ من شعري كتابَ محاسنِ
ذكرًا لفضلِكَ عندَ مصرَ وأهلِها
العلمُ لا يُعلي المراتبَ وحدَهُ
والعلمُ أشبهُ بالسماءِ رجالُهُ
طُفْنَا بقبرِكَ واستلمْنَا جندلاً
بين التشرفِ والخشوعِ كأنما
لو أنصفوكَ جنادلاً وصفائحاً
يا من أراني الدهرُ صحّةً ودّه
وسمعتُ بالخلقِ العظيمِ روايةً
ماذا لقيتَ من الرُقَادِ وطوله
نَمْ ما بدا لك آمناً في منزلٍ

وأقلّدُ الدنيا رثاءَكَ جوهرًا
تتقدّمُ العلماءُ فيه مُسطّراً
والفضلُ من حُرُماتِهِ أن يُذكرا
كم قدّمَ العملُ الرجالَ وأخرا
خُلِطَت جَهماً في السحابِ ومُطرًا
كالركنِ أَزكى والحطيمِ مُطهّراً^٢
نستقبلُ الحرمَ الشريفَ منوراً
جعلوكَ بالذِكرِ الحكيمِ مُسوّراً
والودُ في الدنيا حديثٌ مُفتري
فأراني الخلقَ العظيمَ مُصوّراً
أنا فيك ألقى لوعةً وتحسّراً
الدهرُ أقصرُ فيه من سِنَةِ الكرى

^١ نُظِمَت هذه القصيدة لتُلقى في حفلة أُقيمت لتأبين عمر بك لطفي بعد الأربعين. أما القصيدة السابقة فقد نُظِمَت عقب الوفاة في سرعة تُشبه الارتجال.

^٢ يقول: إننا نطوف بقبرك ونستلم أحجاره، كما يطوف حجاج بيت الله فيستلمون الركن والحطيم المطهّرين.

ما زِلْتَ فِي حِمْدِ الْفِرَاشِ وَذَمِّهِ
لَا تَشْكُونُ الضَّرَّ مِنْ حَشْرَاتِهِ
يَا سَيِّدَ «النَّادِي» وَحَامِلَ هَمِّهِ
شَهِدَ الْأَعَادِي كَمْ سَهَرْتَ لِمَجْدِهِ
وَكَمْ اتَّقَيْتَ الْكِيدَ وَاسْتَدْفَعْتَهُ
وَلَبِثْتَ عَنْ حَوْضِ الشَّيْبِيَّةِ نَائِدًا
شُبَّانُ مَصْرَ حِيَالِ قَبْرِكَ خُشَّعٌ
جَمَعَ الْأَسَى لَكَ جَمْعَهُمْ فِي وَاحِدٍ
لَوْلَاكَ مَا عَرَفُوا التَّعَاوُنَ بَيْنَهُمْ
حَيْثُ التَّفَتُّ رَأَيْتَ حَوْلَكَ مِنْهُمْ
كَمْ مَنْطِقٌ لَكَ فِي الْبِلَادِ وَحِكْمَةٌ
تَمْشِي إِلَى الْأَكْوَاخِ تُرْشِدُ أَهْلَهَا
مُتَوَاضِعًا لِلَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ
لَمْ تَدْرِ نَفْسُكَ مَا الْغُرُورُ وَطَالَمَا
فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ تَخْطُ نِقَابَةً
هِيَ كَيْمِيَاؤُكَ لَا خُرَافَةٌ «جَابِر»
وَالْمَالُ لَا تُجْنِي ثِمَارُ رَعْوِسِهِ
وَالْمُلْكُ بِالْأَمْوَالِ أَمْنَعُ جَانِبًا
إِنَّا لَفِي زَمَنِ سَفَاهُ شَعُوبِهِ

حَتَّى لَقِيتَ بِهِ الْفِرَاشَ الْأَوْثَرَ^٢
حَشْرَاتُ هَذَا النَّاسِ أَقْبَحُ مَنَظَرًا
خَلَّفَتْهُ تَحْتَ الرِّزْيَةِ مُوقَرًا^٣
وَعَدَوْتَ فِي طَلَبِ الْمَزِيدِ مُشْمَرًا
وَرَمَيْتَ عُدَوَانَ الظَّنُونِ فَأَقْصَرَا
حَتَّى جَزَاكَ اللَّهُ عَنْهُ الْكَوْثَرَا
لَا يَمْلِكُونَ سِوَى مَدَامِعِهِمْ قَرَى^٤
كَانَ الشَّبَابَ الْوَاجِدَ الْمُسْتَعْبِرَا^٥
فِيَمَا يَسُرُّ وَلَا عَلَى مَا كَدَّرَا
آثَارَ إِحْسَانٍ وَغَرَسَا مُثْمِرَا
وَالْعَقْلُ بَيْنَهُمَا يُبَاعُ وَيُشْتَرَى
مَشْيَ الْحَوَارِيِّينَ يَهْدُونَ الْقَرَى^٦
وَاللَّهُ يُبَغِضُ عَبْدَهُ الْمُتَكَبِّرَا
دَخَلَ الْغُرُورُ عَلَى الْكِبَارِ فَصَغُرَا
فِيهَا حَيَاةُ أَخِي الزَّرَاعَةِ لَوْ دَرَى
تَذَرُ الْمُقَلَّ مِنَ الْجَمَاعَةِ مُكْثِرَا^٧
حَتَّى يُصِيبَ مِنَ الرَّعْوِسِ مُدَبِّرَا
وَأَعَزُّ سُلْطَانًا وَأَصْدَقُ مَظْهَرَا
فِي مُلْكِهِمْ كَالْمَرْءِ فِي بَيْتِ الْكِرَا^٨

^٢ الفراش الأوثر: هو الفراش الأكثر ليونةً ونعومة، ويريد به تراب القبر.

^٤ النادي: هو نادي المدارس العليا، وكان الفقيد رئيسًا له. وموقرًا: أي مثقلًا بما يحمله من فقدك.

^٥ القرى (بكسر القاف): ما يُقدَّم للضيف من إكرام ونحوه.

^٦ الواجد المستعبر: هو الحزين الباكى.

^٧ الحواريون: هم أصحاب عيسى ابن مريم.

^٨ جابر: هو جابر بن حيَّان صاحب الكيمياء القديمة. والمقلُّ: هو الفقير أو هو الذي لا يملك إلا شيئًا قليلًا.

^٩ بيت الكرا: هو بيت الأجرة.

أَسْوَكَ مِنْ أَهْلِ الْمَبَادِي مَنْ دَعَا
الْمَوْتَ قَبْلَكَ فِي الْبَرِيَّةِ لَمْ يَهَبْ
لَمَّا دُعِيْتُ أَتَيْتُ أَنْتَرُ مَدْمَعِي
أَبْكِي يَمِينَكَ فِي التُّرَابِ غَمَامَةً
لَمْ أُعْطَ عَنْكَ تَصَبُّرًا وَأَنَا الَّذِي
أَزِنُ الرِّجَالَ وَلِي يَرَاكَ طَالَمَا
بِالْأَمْسِ أَرْسَلْتُ الرِّثَاءَ مُمَسِّكًا
غَبَّرْتَنِي حَزْنًا وَغَيَّرَكَ الْبَلَى
فَعَلَيْ حِفْظِ الْعَهْدِ حَتَّى نَلْتَقِيَ

لِلْحِدِّ أَوْ جَمَعَ الْقُلُوبِ النُّفْرَا
طَهَ الْأَمِينَ وَلَا يَسُوعَ الْخَيْرِ^{١٠}
وَلَوْ اسْتَطَعْتُ نَثَرْتُ جَفَنِي فِي الثَّرَى
وَالصَّدْرَ بَحْرًا وَالْفَوَادِ غَضَنَفْرَا
عَزَّيْتُ فَيْكَ عَنِ الْأَمِيرِ الْمَعْشَرِ^{١١}
خَلَعَ الثَّنَاءَ عَلَى الْكِرَامِ مُحَبَّرَا
وَالْيَوْمَ أَهْتَفْتُ بِالثَّنَاءِ مُعَنْبَرَا
وَهَوَاكَ يَا أَبَى فِي الْفَوَادِ تَغْيِيرَا^{١٢}
وَعَلَيْكَ أَنْ تَرَعَاهُ حَتَّى نُحْشَرَا

^{١٠} يسوع: المسيح.

^{١١} كان أمير الشعراء هو نائب الخديو عباس في تعزية الفقيد.

^{١٢} يشير إلى قصيدته السابقة في الفقيد.

الأميرة^١

حَلَفْتُ بِالْمُسْتَرَّةِ	وَالرَّوْضَةِ الْمُعْطَرَّةِ ^٢
وَمَجْلِسِ الزَّهْرَاءِ فِي الْ-	حِظَائِرِ الْمُنَوَّرَةِ ^٣
مَرَاقِدِ السُّلَالَةِ الطِّ-	يِّبَةِ الْمُطَهَّرَةِ
مَا أَنْزَلُوا إِلَى الثَّرَى	بِالْأَمْسِ إِلَّا نَيْرَةً ^٤
سَيَرُوا بِهَا تَقِيَّةً	نَقِيَّةً مُبَرَّرَةً
نُجْلٌ سَتَرَ نَعِيشَهَا	كَالْكُسُوفَةِ الْمُسَيَّرَةِ ^٥
وَنَنْشِقُ الْجَنَّةَ مِنْ	أَعْوَادِهِ الْمُنْضَرَةِ
فِي مَوَكِبٍ تَمَثَّلُ الْ-	حَقُّ فَكَانَ مَظْهَرُهُ
دَعِ الْجَنُودَ وَالْبُنُو	دَ وَالْوَفُودَ الْمُحْضَرَةَ
وَكُلَّ دَمْعٍ كَذِبٍ	وَلَوْعَةٍ مُزَوَّرَةٍ
لَا يَنْفَعُ الْمَيِّتَ سِوَى	صَالِحَةٍ مُدَّخَرَةٍ

^١ هي الأميرة فاطمة إسماعيل، كان لها الفضل الأول في تأسيس وإنشاء الجامعة المصرية، وقد انتقلت إلى دار الجنان في سنة ١٩٢٠م.

^٢ المسترة: الكعبة.

^٣ يقصد فاطمة الزهراء، بنت الرسول صلوات الله عليه، ومجلسها في حجرات النبوة.

^٤ نيرة: هي واحدة النجوم النيرة.

^٥ الكسوة: هي كسوة الكعبة المكرمة، وتسير من مصر إلى الحجاز كل عام في موكب عظيم الإجلال.

قد تُرْفَعُ السُّوقَةُ عِنْدَ
 يا جَزَعَ الْعِلْمِ عَلَى
 أَمْسَى بَرْبَعٍ مُوَحِّشٍ
 مَنْ ذَا يُؤَسِّي هَذِهِ الـ
 لَوْ عَشْتِ شِدَّتِ مِثْلَهَا
 بَنَيْتِ رُكْنَيْهَا كَمَا
 قَرَنْتِ كُلَّ حَجَرٍ
 مَفْخَرَةً لِبَيْتِكُمْ
 يَا بِنْتَ إِسْمَاعِيلَ فِي الـ
 أَكُنْ عِنْدَ بَيْتِكُمْ
 هَلَّا وَصَفْتَهَا لَنَا
 وَلَوْ أَنَّهَا صَافِيَةٌ
 كَالْحُلْمِ أَوْ كَالْوَهْمِ أَوْ
 «فَاطِمٌ» مَنْ يُولَدُ يَمُتُ
 وَكُلُّ نَفْسٍ فِي غَدٍ
 وَإِنَّهُ مَنْ يَعْمَلُ الـ
 وَإِنَّمَا يُنَبِّئُهُ الـ

دَا اللَّهَ فَوْقَ الْقَيْصَرَةِ^٦
 «سُكَيْنَةَ» الْمُوقَّرَةِ^٧
 مِنْهَا وَدَارٍ مُقْفِرَةٍ
 جَامِعَةِ الْمُسْتَعْبِرَةِ^٨
 لِلْمَرْأَةِ الْمُحَرَّرَةِ
 يَبْنِي أَبُوكَ الْمَأْثِرَةَ
 فِي أَسْهَاءِ بَجُوهَرَةٍ
 كَمْ قَبْلَهَا مِنْ مَفْخَرَةٍ
 مَمِيَّتٍ لَحْيٍ تَبْصِرَةِ^٩
 لِهَذِهِ الدُّنْيَا تِرَّةَ^{١٠}
 مُقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً
 وَطَعَمَهَا مَكْدَرَةً
 كَالظِّلِّ أَوْ كَالزَّهَرَةِ
 الْمَهْدُ جَسْرُ الْمَقْبَرَةِ^{١١}
 مَيِّتَةٌ فَمُنْشَرَةٌ
 خَيْرٌ أَوْ الشَّرُّ يَرَهُ
 غَافِلٌ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ^{١٢}

^٦ القيصرة: عَلم على كل ملكة للروم، والقيصر عَلم على ملكها.

^٧ يشبَّهها بسكينة بنت الحسين في عطفها على العلم والأدب.

^٨ المستعبرة: أي الباكية لفقدها عطفك.

^٩ التبصرة: بمعنى الموعظة.

^{١٠} ترة: هي الثَّار.

^{١١} فاطم: أي فاطمة، وحُذفت التاء للترخيم، كقول امرئ القيس:

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلُّل

^{١٢} الغرغرة: وقت حشرجة الروح في الصدر.

يَلْفَظُهَا حَنْظَلَةً	كَانَتْ بِفِيهِ سُكَّرَةٌ ^{١٣}
وَلَنْ تَزَالَ مِنْ يَدٍ	إِلَى يَدِ هَذِي الْكُرَّةِ
أَيْنَ أَبُوكِ مَالُهُ	وَجَاهُهُ وَالْمَقْدَرَةُ
وَإِذَا النَّدَى وَغِيثُهُ	وَعَيْنُهُ الْمُفَجَّرَةُ ^{١٤}
أَيْنَ الْأُمُورُ وَالْقَصُورُ	رُ وَالْبَدُورُ الْمُخْدَرَةُ
أَيْنَ اللَّيَالِي الْبَيْضُ وَالـ	أَصَائِلُ الْمُزْعَفَرَةِ ^{١٥}
وَأَيْنَ فِي رَكْنِ الْبِلَا	يَدُهُ الْمُعَمَّرَةُ
وَأَيْنَ تِلْكَ الْهَمَّةُ الـ	مَاضِيَةُ الْمُشْمَرَةُ
تَبْغِي لِمَصْرِ الشَّرْقِ أَوْ	أَكْثَرَهُ مُسْتَعْمَرَةُ
جَرَى الزَّمَانُ دُونَهَا	فَرَدَّهُ وَأَعَثَّرَهُ
فَإِنْ هَمَمْتَ فَادْكُرِي الـ	مَقَادِرَ الْمُقَدَّرَةِ
مَنْ لَا يُصِيبُ فَالنَّاسُ لَا	يَلْتَمِسُونَ الْمَعْدَرَةَ

^{١٣} يلفظها: أي يلفظ الحياة.

^{١٤} الندى: الكرم. والعين: بمعنى التبع.

^{١٥} الأصائل: الوقت من بعد العصر إلى المغرب. والمزعفرة: أي الملونة بلون الزعفران. والليالي البيض والأصائل المزعفرة: يقصد بهما الكناية عن السعادة الوارفة الظليلة.

ذكرى مصطفى كامل^١

لم يَمُتْ من له أثرٌ وحياءٌ من السَّيَرِ
ادَّعُهُ غَائِبًا وَإِنْ بَعُدَتْ غَايَةُ السَّفَرِ
أَيُّبُ الْفَضْلِ كُلِّمَا آبَتْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ^٢
رُبَّ نَوْرٍ مُتَمِّمٍ قَدْ أَتَانَا مِنَ الْحَقْرِ^٣
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مِنْ مَشَى مَيِّتَ الْخَيْرِ وَالْخَبَرِ
مَنْ إِذَا عَاشَ لَمْ يُفِدْ وَإِذَا مَاتَ لَمْ يَضُرْ
لَيْسَ فِي الْجَاهِ وَالْغِنَى مِنْهُ ظِلٌّ وَلَا ثَمَرُ
قُبْحُ الْعِزِّ فِي الْقُصُوفِ رِ إِذَا ذَلَّتِ الْقِصَرُ
أَعْوَزَ الْحَقُّ رَائِدُ وَإِلَى «مُصْطَفَى» افْتَقَرُ
وَتَمَنَّتْ حَيَاضُهُ هَبَّةَ الصَّارِمِ الذَّكْرِ
الَّذِي يُنْفِذُ الْمُدَى وَالَّذِي يَرْكَبُ الْخَطَرَ^٤
أَيُّهَا الْقَوْمُ عَظُّمُوا وَاضِعَ الْأَسِّ وَالْحَجَرِ

^١ لأمير الشعراء عدة قصائد في مصطفى كامل باشا هذه إحداها، وقد أُلقيت في الاحتفال الذي أُقيمَ تمجيدًا لذكراه في فبراير سنة ١٩٢٦م.

^٢ يقول: في كلِّ أوبة شمس، وفي كلِّ عودة قمر، يثوب للفقيد فضل، ويتجدد له ذكر؛ وإنْ فهو لا يُحسب ميّتًا، وغاية الأمر أنه غائب في سفرٍ بعيد.

^٣ الحفر: القبور.

^٤ الذي ينفذ المدي: يراد به صاحب الطعنات النافذة.

اذْكُرُوا الْخُطْبَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ آيَةِ الْكُبَرِ^٥
 لَمْ يَرَ النَّاسُ قَبْلَهَا مِنْبَرًا تَحْتَ مُحْتَضِرٍ
 لَسْتُ أَنْسَى لِوَاءَهُ وَهُوَ يَمْشِي إِلَى الظَّفَرِ
 حَشَرَ النَّاسَ تَحْتَهُ زُمْرًا إِثْرَهَا زُمْرٍ
 وَتَرَى الْحَقَّ حَوْلَهُ لَا تَرَى الْبَيْضَ وَالسُّمْرَ^٦
 كَلَّمَا رَاحَ أَوْ عَدَا نَفَخَ الرُّوْحَ فِي الصُّورِ
 يَا أَخَا النَّفْسِ فِي الصَّبَا لَذَّةَ الرُّوحِ فِي الصَّغَرِ
 وَخَلِيلًا ذَخَرْتُهُ لَمْ يُقَوِّمْ بِمُدَّخَرٍ
 حَالٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي فُجَاءَاتِهِ الْقَدَرِ
 كَيْفَ أَجْزِي مَوَدَّةً لَمْ يَشْبُ صَفْوَهَا كَدَرٍ
 غَيْرَ دَمْعٍ أَقُولُهُ قَلَّ فِي الشَّانِ أَوْ كَثُرَ
 وَفُؤَادٍ مُعَلَّلٍ بِالْخِيَالَاتِ وَالذِّكْرِ
 لَمْ يَنْمَ عَنْكَ سَاعَةٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالسَّمَرِ
 قُمْ تَرِ الْقَوْمَ كَتَلَةً مِثْلَ مَلْمُومَةِ الصَّخْرِ^٧
 جَدَّدُوا أُلْفَةَ الْهَوَى وَالْإِخَاءَ الَّذِي شَطِرَ
 لَيْسَ لِلْخُلْفِ بَيْنَهُمْ أَوْ لِأَسْبَابِهِ أَثَرُ
 أَلْفَتْهُمْ رَوَائِحُ غَادِيَاتٍ مِنَ الْغَيْرِ
 وَصَحَّوْا مِنْ مُنُومٍ وَأَفَاقُوا مِنَ الْخَدَرِ^٨
 أَقْبَلُوا نَحْوَ حَقِّهِمْ مَا لَهُمْ غَيْرُهُ وَطَرُ
 جَعَلُوهُ خَلِيَّةً شَرَعُوا دُونَهَا الْإِبْرَ^٩

^٥ يريد آخر خطبة للفقيد، وقد ظنَّها الناس يومئذٍ خطبة الوداع.

^٦ البيض: السيوف، والسم: الرماح.

^٧ مَلْمُومَةٌ: بمعنى مجتمعة، ويقال للدرع مَلْمُومَةٌ، وكذا يقال للكتيبة — وهي الفرقة من الجيش — مَلْمُومَةٌ أَيضًا.

^٨ الخدر: الكسل، وهو مصدر خَدِرَ كَفَرِحَ.

^٩ الْخَلِيَّةُ: موضع سكن النحل. شرعوا الإبر: رفعوها استعدادًا للنضال بها، كما يقال شرع سيفه، إذا انتضاه من غمده.

وتداعوا لمؤتمر ^{١٠}	وتواصوا بخطبة
يتلاقون في الفكر	وقصارى أولي النهى
من جلال ومن خطر	أذنونا بموقف
دون آجابه زار	نسمع الليث عنده
مصر بالباب تنتظر ^{١١}	قل لهم في نديهم

^{١٠} تداعوا: تجمّعوا.

^{١١} يريد بالندي: البرلمان، وكان وقتئذٍ يهياً.

المنفلوطي^١

ونعاك في عصفِ الرياحِ الناعي^٢
جُرْحُ الرئيسِ مَنافذَ الأسماعِ
قَدَمًا تُشَيِّعُ أو حفاوَةً ساعي
كيف الوقوفُ إذا أهابَ الداعي
ليس الغرورُ لميَّتْ بمتاعِ
شَتَّى المواكبِ فيه والأتباعِ
واظهر بفضلِ كالنهار مُذاعِ
لَبِيقِ بوشى المُمْتِعَاتِ صَناعِ
للشيبِ في الفودِ الأحمِ رَواعي^٣
فتراه تحتَ روائعِ الأسجاعِ
أُسلوبها أو يُزِرِ بالأوضاعِ
شَوَاطًا فَأَحْرَزَ غَايَةَ الإبداعِ

اختَرَتَ يومَ الهولِ يومَ وداعِ
هتَفَ النُّعَاةُ ضُحَى فأوصَدَ دونهم
من ماتَ في فزعِ القيامةِ لم يجدِ
ما ضرَّ لو صيرتَ ركابُك ساعةً
خلَّ الجنائزَ عنك لا تحفلُ بها
سِرْ في لواءِ العبقريَّةِ وانتظِمْ
واصعد سماءَ الذِّكرِ من أسبابها
فُجِعَ البيانُ وأهلُه بمصوِّرِ
مرموقِ أسبابِ الشبابِ وإن بدتِ
تتخيلُ المنظومَ في منثورهِ
لم يجدِ الفصحى ولم يهجمْ على
لكن جَرى والعصرَ في مِضمَارِها

^١ هو الكاتب الذائع الصيت مصطفى لطفي المنفلوطي، اشتهر بأسلوبٍ إنشائيٍّ خاص لفتَ إليه أنظار القُرَّاء في عصره، وقد توفي سنة ١٩٢٤م.

^٢ يشير بيوم الهول إلى أن وفاة الفقيد كانت في يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد باشا.

^٣ الفود: أحد الفودين، وهما جانبا الرأس من الأمام. والأحم: الأسود. والرواعي: جمع راعية، ويريد بـ «الرواعي» الشعرات البيض اللواتي ظهرت في جانبي رأسه.

حُرُّ البَيَانِ قَدِيمُهُ وَجَدِيدُهُ
يُونَانُ لَوْ بَيَعْتَ بـ «هُومِيرٍ» لَمَّا
يَا مُرْسِلَ «النَّظَرَاتِ» فِي الدُّنْيَا وَمَا
وَمُرْقِرِ «العِبَرَاتِ» تَجْرِي رَقَّةً
مَنْ ضَاقَ بِالدُّنْيَا فَلَيْسَ حَكِيمَهَا
هِيَ وَالزَّمَانُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
مَنْ شَذَّ نَادَاهُ إِلَيْهِ فَرَدَّهُ
مَا خَلَفَهُ إِلَّا مَقُودٌ طَائِعٌ
جَبَّارٌ ذَهِنٌ أَوْ شَدِيدٌ شَكِيمَةٌ
مَنْ شَوَّهَ الدُّنْيَا إِلَيْكَ فَلَمْ تَجِدْ
أَبْكُلُ عَيْنٍ فِيهِ أَوْ وَجْهٍ تَرَى
مَا هَكَذَا الدُّنْيَا وَلَكِنْ نُقْلَةٌ
لَا الْفَقْرُ بِالْعِبَرَاتِ خُصَّ وَلَا الْغِنَى
مَا زَالَ فِي الْكُوخِ الْوَضِيعُ بَوَاعَتْ
فِي الْقَفْرِ حَيَاتٌ يُسَيِّبُهَا بِهِ
وَلَرُبَّ بُوْسٍ فِي الْحَيَاةِ مُقَنَّعٌ
يَا «مُصْطَفَى» الْبُلْغَاءِ أَيَّ يَرَاعَةِ
الْيَوْمَ أَبْصَرْتَ الْحَيَاةَ فَقُلْ لَنَا
وَصِفِ الْمُنُونَ فَكَمْ قَعَدَتْ تَرَى لَهَا

كَالشَّمْسِ جِدَّةَ رُقْعَةٍ وَشُعَاعِ
خَسِرَتْ لَعْمَرُكَ صَفْقَةَ الْمُبْتَاعِ
فِيهَا عَلَى ضَجَرٍ وَضِيقِ زِرَاعٍ
لِلْعَالَمِ الْبَاكِي مِنَ الْأُوجَاعِ
إِنَّ الْحَكِيمَ بِهَا رَحِيبُ الْبَاعِ
فِي لُجَّةِ الْأَقْدَارِ نَضُو شِرَاعٍ^٦
قَدَرُ كِرَاعٍ سَائِقٍ بِقُطَاعٍ^٧
مُتَلَفَّتٌ عَنْ كِبَرِيَاءِ مُطَاعِ
يَمْضِي مُضِيَّ الْعَاجِزِ الْمُنْصَاعِ
فِي الْمُلْكِ غَيْرَ مُعَذِّبِينَ جِيَاعِ
لَمَحَاتِ دَمْعٍ أَوْ رِسُومِ دِمَاعٍ^٨
دَمْعُ الْقَرِيرِ وَعَبْرَةُ الْمُتْلَاعِ
غَيْرُ الْحَيَاةِ لَهَنَّ حُكْمُ مَشَاعٍ^٩
مِنْهَا وَفِي الْقَصْرِ الرَفِيعِ دَوَاعِي
حَاوِي الْقَضَاءِ وَفِي الرِّيَاضِ أَفَاعِي
أَرْبَى عَلَى بُؤْسٍ بِغَيْرِ قِنَاعِ
فَقَدُوا وَأَيَّ مُعَلِّمٍ بَيْرَاعِ
مَاذَا وَرَاءَ سَرَابِهَا اللَّمَاعِ
شَبَحًا بِكُلِّ قَرَارَةٍ وَيَفَاعٍ^{١٠}

^٤ النظرات: اسم كتاب للفقيد.

^٥ العبرَات: اسم كتاب له أيضًا.

^٦ نضو شرع: أي شرع هزيل متمزق لا يكاد يقوى على مصارعة أمواج تلك اللجة، بل لا يكاد يرى في خضمها المحيط.

^٧ القطاع: طائفة من الغنم.

^٨ رسوم دماع: أي آثار تبدو في مجرى الدمع، كأن الدموع لكثرتها تصنع لها طريقًا في موضع مسيلها.

^٩ غير الحياة: نوائبها المغيرة على الناس.

^{١٠} اليفاع: ما ارتفع من الأرض، كالنجد. والقرار: ما انخفض منها، كالوهاد.

سكن الأحبَّة والعِدا وفرغت من
 كم غارة شنُّوا عليك دفعَتَها
 والجهْدُ مؤتٍ في الحياة ثِمَارُهُ
 فإذا مضى الجيلُ المِراضُ صدورُهُ
 فافزعْ إلى الزمنِ الحكيمِ فعنده
 فإذا قضى لك أُبَّتْ من شَمِّ العُلا
 وأجلُّ ما فوق الترابِ وتحتَهُ
 تلك الأناملُ نامَ عنهنَّ البلى
 والجبنُ في قلمِ البليغِ نظيرُهُ
 حقدِ الخُصومِ ومن هوى الأشياءِ
 تصلُّ الجهورُ فكنَّ خيرَ دِفاعِ
 والجهْدُ بعدَ الموتِ غيرُ مُضاعِ
 وأتى السليمُ جوانبَ الأضلاعِ
 نقدُ تنزَّهٍ عن هوى ونِزاعِ
 بثنيَّةٍ بعُدَتْ على الطَّلَاعِ^{١١}
 قلمٌ عليه جلالَةُ الإجماعِ
 عُطِّلَنَ من قلمِ أشمَّ شُجاعِ
 في السيفِ مَنقِصَةٌ وسوءُ سماعِ

^{١١} الثنية: الطريق في أعالي الجبال، ويُجمع على الثنايا، وقد تمثَّل الحجاج في خطبته الشهيرة بقول بعضهم: أنا ابن جلا وطلَّاع الثنايا.

عاطف بركات باشا^١

خَفَضْتُ لِعِزَّةِ الْمَوْتِ الْيَرَاعَا
كَفَى بِالْمَوْتِ لِلنُّذْرِ ارْتِجَالًا
حَكِيمٌ صَامْتُ فَضَحَ اللَّيَالِي
إِذَا حَضَرَ النَفُوسَ فَلَا نَعِيمًا
كَشَفْتُ بِهِ الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْهَا
وَمَا الْجَزَاحُ بِالْأَسَى الْمُرْجَى
فَإِنْ تَقَلَّ الرِّثَاءَ فَقُلْ دُمُوعًا
وَلَا تَكُ مِثْلَ نَادِيَةِ الْمُسْجَى
خَلَّتْ دَوْلُ الزَّمَانِ وَزُلْنَ رُكْنًا
كَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَشْهَدْ لِقَاءَ
وَلَوْ أَبَتْ ثَوَاكُلُ كُلِّ قَرْنٍ
وَلَكِنْ تُضْرَبُ الْأَمْثَالُ رُشْدًا
وَرُبَّ حَدِيثٍ خَيْرٍ هَاجَ خَيْرًا

وَجَدَّ جَلَالُ مَنْطِقِهِ فِرَاعَا
وَلِلْعَبَرَاتِ وَالْعِبَرِ اخْتِرَاعَا
وَمَزَّقَ عَنْ خَنَا الدُّنْيَا الْقِنَاعَا
تَرَى حَوْلَ الْحَيَاةِ وَلَا مَتَاعَا
وَلَمْحَةً مَائِهَا إِلَّا خِدَاعَا
إِذَا لَمْ يَقْتُلِ الْجُبْنُ أَطْلَاعَا^٢
يُصَاغُ بِهِنَّ أَوْ حِكْمًا تُرَاعَى
بَكَتْ كَسْبًا وَلَمْ تَبْكِ اتِّبَاعَا^٣
وَرَكْنُ الْأَرْضِ بَاقٍ مَا تَدَاعَى^٤
تَكَادُ لَهُ تَمِيدُ وَلَا وِدَاعَا
وَجَدْنَ الشَّمْسَ لَمْ تَتَّكِلْ شُعَاعَا
وَمِنْهَاجًا لِمَنْ شَاءَ اتِّبَاعَا
وَذَكَرَ شَجَاعَةً بَعَثَ الشُّجَاعَا

^١ عاطف بركات باشا: أحد رجالات مصر المقدّمين، وأحد نوابغ جيله المُعلّمين، ترقّى إلى منصب وكيل وزارة المعارف، وقد توفي سنة ١٩٣٥م.

^٢ يقال قتل الأمر إطلاقًا، إذا بحثه طويلاً. والآسي: الطبيب.

^٣ المسجى: الميت. والالتياح: شدة الحزن.

^٤ تداعى الركن: أي سقط متهدّمًا.

«معارف» مصرَ كانَ لهنَّ ركنٌ
مضى أعلى الرجالِ لها يمينًا
وأكثرهم لها وقفاتِ صدق
أتته فنالها نَفلاً وفيئاً
تنقَّلَ يافعاً فيها وكهلاً
فتى عجمته أحداثُ الليالي
سجنٌ مُهنِّدٌ ونفِينٌ تَجراً
شديدٌ صُلْبٌ في الحقِّ حتى
ومدرسةٍ سمّت بالعلم ركنًا
بناها مُحسِنًا بالعلم برًا
وحاربَ دونها صرعى قديم
إذا لمَحَ الجديدُ لهم تولَّوا
أخا «سيشيل» لا تذكُرَ بحارًا
وربِّك ما وراءَ نَوَاكِ بُعدُ

فدُنِقْنَ اليومَ للركنِ انصداعا
وأرحبهم بخَلَّتِها ذِراعاً
إباءٌ في الحوادثِ أو زَماعاً
فلا هِبةً أتته ولا اصطناعاً^٥
ومن أسبابها بَلَغَ اليَفاعا
فلا ذُلًّا رأينَ ولا اختضاعاً
وزدْنَ المسكَ من ضغطِ فضاءا^٦
يقولُ الحقُّ لينا واتِّداعاً^٧
وأنهضتِ القضاءَ والاشتِراعاً^٨
يَشِيدُ له المَعالمَ والربَّاعاً^٩
كأن بهم عن الزمن انقطاعاً
كذي رمدٍ على الضوء امتناعاً
بُعدنَ على المزارِ ولا بقاعاً^{١٠}
وأنت بظاهرِ الفُسطاطِ قاعاً^{١١}

٥ النفل: مفرد الأنفال؛ يعني العطايا المكتسبة من الفيء. والفيء: الغنيمة. والاصطناع: هو ما يُعبَّر عنه في زماننا بالمحسوبة.

٦ ضاع المسك والطيب: سَطع عطره. لما قال «فتى عجمته أحداث الليالي» شرح كيف كان ذلك، فأخبر أنه سُجِنَ فكان أشبه بالمهنِّد، ونُفي فكان مثل التَّبر، وحين اشتدت أحداث الليالي ضغطاً كان الفقيد أشبه بالمسك الذي يُسَحِّق فيزيد أريجاً وطيباً.

٧ صُلْب (باللام المشددة): أي كثير الصلابة. والاتِّداع: من الوداعة، وهي رقة الخلق. ٨ يشير بهذا البيت إلى أن الفقيد كان هو أول قِيَم على مدرسة القضاء الشرعي، وقد أُنشِئت تلك المدرسة لتخريج القضاة الشرعيين، ولم يستغن عنها إلا بعد إصلاح الأزهر والاكتفاء بأبنائه.

٩ الرباع جمع ربع: الدار. ١٠ سيشل: إحدى جزر الهند النائية، نُفي إليها الفقيد حين اتهمته السلطات الإنجليزية بالتحريض السياسي في ثورة مصر الكبرى.

١١ الفسطاط: مدينة مصر. وظاهر الفسطاط: أي ضاحيتها. والقاع في الأصل: هو المنخفض من الأرض، ويريد به هنا موضع القبر حيث دُفِن الفقيد.

نزلتَ بعالمٍ خرقَ القضايا
فخلَّ الأربعين لحافليها
مرِضتَ فما ألحَ الداءُ إلا
ولم يكُ غيرَ حادثِةٍ أصابتَ
ومن يتجرَّعِ الآلامَ حيًّا
أرقتَ وكيف يُعطى الغمضُ جَفْنُ
ولم يهدأُ وسادكُ في الليالي
عجبتُ لشارحِ سببِ المنايا
ولم تكن الحتوفُ محلَّ شكٍّ
ولكن صيِّدٌ ولها بُزاةٌ
أرى التعليمَ لمَّا زلتَ عنه
غريقٌ حاولتَ يدهُ شراعًا
سَراةُ القومِ مُنصرِفون عنه
لقد نسَّاه يومُك ناصباتٍ
قُم ابنِ الأمَّهاتِ على أساسٍ
فهُنَّ يلدنَ للقصَبِ المذاكي
وجدتُ معانيَ الأخلاقِ شتَّى
عزاءَ الصابرين «أبا بهيٍّ»
وأصبح فيه نظمُ الدهرِ ضاعا
وقم تجِدِ القرونَ مررنَ ساعا^{١٢}
على نفسٍ تعوَّدتِ الصُّراعا
مُفلِّلَ كلِّ حادثِةٍ قِراعا^{١٣}
تسُغُ عندَ المماتِ له اجتِراعا
تَسْلُ وراءه القلبَ الرُّوعا^{١٤}
لِعِلمِكَ أنْ ستُفنيها اضطجاعا
يُسَمِّي الداءَ والعِللَ الوجاعا
ولا الأجلُ تحتُمَلُ النزاعا
تري «السَّرطانَ» منها والصُّداعا^{١٥}
ضعيفَ الركنِ مخذولًا مُضاعا
فلمَّا أوْشكتَ فقدَ الشُّراعا
وضُحِفُ القومِ تقتَضِبُ الدِّفاعا^{١٦}
من السَّنواتِ قاساها تِباعا^{١٧}
ولا تبينِ الحصونَ ولا القِلاعا
وهُنَّ يلدنَ للغابِ السُّباعا^{١٨}
جُمِعنَ فكنَّ في اللفظِ الرُّضاعا
ومِثْلُكَ من أنابَ ومن أطاعا^{١٩}

^{١٢} الأربعين في هذا البيت: مقصود بها الأيام التي مضت على وفاته، أو السن التي توفي فيها. والساع: جمع ساعة.

^{١٣} القراع: نوع من الحرب والمغالبة.

^{١٤} الرُّوعا: من قولهم ناقة رُواع الفؤاد، بضم الراء وفتح الواو؛ أي شهمة زكية.

^{١٥} البزاة: جمع بازٍ، وهو ضرب من الصقور.

^{١٦} سراة القوم: ساداتهم. والقتضاب: بمعنى القطع أو الإيجاز والاختصار.

^{١٧} ناصبات: من قولهم عيشٌ ناصب؛ أي فيه كدٌّ وجهد. وتباعا: أي متتابعة.

^{١٨} المذاكي: الخيل التي كُملت قوتها. والقصب: هو الخط الذي يتراهن عليه المتسابقون.

^{١٩} أبا بهي: ينادي بهذه الكنية فتح الله بركات باشا شقيق الفقيد. وأناب: رجع إلى الله.

صبرتَ على الحوادث حينَ جلَّتْ
وإن النفسَ تهدأُ بعدَ حينٍ
إذا اختلفَ الزمانُ على حزينٍ
قُصارى الفرقَدينِ إلى قضاءٍ
ولم تحوِ الكنانةُ آلَ سعدٍ
ولم تحملْ كشيخكم المُفدَّى
غداً فصلَ الخطابِ فَمَنْ بَشيري
سَلُوا أهلَ الكنانةِ هل تداعوا
وما «سعدٌ» بمُتَجَرِّ إذا ما
ولكن تحتُمِي الآمالُ فيه
إذا نظرتَ قلوبُكمُ إليه

وحيَنَ الصبرُ لم يكُ مُستطاعاً
إذا لم تلقَ بالجزعِ انتفاعاً
مضى بالدمعِ ثم محَا الدِّماعا
إذا عثرا به انفصما اجتماعا
أشدَّ على العِدا منكم نِباعاً^{٢٠}
نُهوْضاً بالأمانةِ واضطلاعاً
بأن الحقَّ قد غلبَ الطُّماعا
فإن الخصمَ بعدَ غدٍ تداعى
تعرَّضتِ الحقوقُ شرى وباعاً
وتدَّرِعُ الحقوقُ به اُدِّراعاً^{٢١}
علا للحادثاتِ وطالَ باعاً^{٢٢}

^{٢٠} النباع: جمع نبع، وهو شجر للقسى والسهم ينبت في قمة الجبال. آل سعد: آل زغلول باشا أخوال الفقيده.

^{٢١} تدَّرِعُ الحقوق به: أي تجعل منه درعاً لها، والدرع ثوب حديد يلبسه المحارب ليحتمي به من السيوف وأشباهاها.

^{٢٢} طال باعاً: أي طال شأواً وعظم قوة.

المويلحي^١

كاتبٌ مُحسِنُ البيانِ صنَّاعُهُ
ابنُ مصرٍ وإنما كُلُّ أرضٍ
إنما الشرقُ منزلٌ لم يُفَرِّقْ
وطنٌ واحدٌ على الشمسِ والفص
علَّمُ في البيانِ وابنُ لواءٍ
حسبُهُ السَّحَرُ من تُراثِ أبيه
إنما السَّحَرُ والبلاغةُ والحك
في يدِ النَّشْرِ من بيانِ «المويلحي»
صُوِّرَ من حَقِيقَةٍ وخيالٍ
رُبَّ سَجْعٍ كَمُرْقِصِ الشُّعْرِ لَمَّا
أو كَسَجْعِ الحمامِ لو فَصَّلَتْهُ

استَخَفَّ العقولَ حينًا يَراعُهُ^٢
تنطقُ الضادَ مَهْدُهُ وربَّاعُهُ^٣
أهلُهُ إن تفرَّقتْ أَصقاعُهُ^٤
حي وفي الدمعِ والجراحِ اجتماعه
أخذَ الشرقَ حِقْبَةً إبداعه
إن تولَّتْ قصورُهُ وضياعه^٥
مئةُ بيتٍ كلاهما مِصرَاعه
مَثَلٌ يَنفَعُ الشَّبابَ اتِّباعه
هي إحسانٌ فِكْرِهِ وابتداعه
يخْتَلِفُ لَحْنُهُ ولا إيقاعه
وتأنَّتْ به ودُقَّ اختراعُه

^١ هو الكاتب الكبير محمد المويلحي المتوفي سنة ١٩٣٠م، وقد أُلْقِيَتْ هذه القصيدة في حفلة تأبينه.

^٢ يقال يدُّ صَناعٌ؛ أي ماهرة حاذقة، وبيان صَناع أيضاً.

^٣ رباع: جمع رَبع، وهو الدار.

^٤ أَصقاعه، جمع صقع بضم الصاد: الناحية.

^٥ تولَّتْ القصور: أي ذهبت، والضياع: جمع ضيعة، وهي العقار والأرض المغلَّة.

هو فيه بديعُ كلِّ زمان
عجبَ الناسِ من طباعِ المويلحيِّ
فيه كِبَرُ اللَّيْثِ حتَّى على الجو
تعبَ الموتُ في صَبْرٍ على النز
صارَعَ العيشَ حِقْبَةً لَيْتَ شِعْري
قهرَ الموتَ والحياةَ وقد تحـ
مُهْجَةً حُرَّةً وَخُلِقَ أَبِي
في الثمانين يا «محمد» عِلْمٌ
لَمْ تَقَاعَدَتْ دُونَهَا وَتَوَانِي
رُبَّ شَيْبٍ بَنَتْ صُرُوحَ المعالي
فيه من هِمَّةِ الشَّبابِ ولكن
سَيِّدُ الْمُنَشِّئِينَ حَتَّى الْمَطَايَا
حَطَّاهُمْ بـ «الإمام» للموت رَكْبٌ
قَنَعُوا بِالتَّرَابِ وَجْهًا كَرِيمًا
كَسَنَا الْفَجْرَ فِي ظِلَالِ الْغَوَاذِي
يا وحيدًا كَأَمْسٍ فِي كَسْرِ بَيْتٍ
كُلُّ بَيْتٍ تَحُلُّهُ يَسْتَوِي عَنْـ
نَمْ مَلِيًّا فَلَسْتُ أَوَّلَ لَيْثٍ
حَوْلَكَ الصَّالِحُونَ طَابُوا وَطَابَتْ

ما بديعُ الزمان ما أسجاعه^٦
وفي الأسدِ خُلُقُهُ وَطِبَاعُهُ
عَ وفيها إِبَاؤُهُ وَامْتِنَاعُهُ
عَ قليلٌ إلى الحياةِ نِزَاعُهُ^٧
ساعةَ الموتِ كيف كان صِراعُهُ
كَمْ في رَائِضِ السَّبَاعِ سِبَاعُهُ
عَيَّ عَنْهُ الزَّمَانُ وَارْتَدَّ بَاغُهُ
لَعَلِيمٍ وَإِنْ تَنَاهَى أَطْلَاعُهُ^٨
سَائِقُ الْفُلْكِ وَاضْمَحَلَّ شِرَاعُهُ
سَنَتَاهُ وَشَادَتْ الْمَجْدَ سَاعُهُ
ليس فيه جِمَاحُهُ وَانْدِفَاعُهُ
ومضى في غُبَارِهِ أَتْبَاعُهُ
يتلاقى بِطَاؤُهُ وَسِرَاعُهُ
كان من رُقْعَةِ الْحَيَاءِ قِنَاعُهُ
كَرْمٌ صَفَحَتَاهُ هَدْيٌ شُعَاعُهُ
ضَيِّقٌ بِالنَّزِيلِ رَحْبٌ ذِرَاعُهُ^٩
دَكَ فِي الزُّهْدِ ضَيْقُهُ وَاتَّسَاعُهُ
بِفَلَاةِ «الإمام» طَالَ اضْطِجَاعُهُ^{١٠}
أَكْمَاتُ «الإمام» مِنْهُمْ وَقَاعُهُ^{١١}

^٦ بديع الزمان: هو الهمذاني صاحب المقامات المشهورة.

^٧ النزاع للميت: ساعات احتضاره. يقول: إنه مع زهده في الحياة فقد طال زمن احتضاره، ولا يكون هذا إلا من قوة الحيوية التي تستطيع مغالبة الموت.

^٨ في الثمانين: يقصد ثمانين عامًا.

^٩ كسر البيت (بكسر الكاف وفتحها): جانبه.

^{١٠} فلاة الإمام: صحراء الإمام الشافعي، حيث مدفن الفقيد.

^{١١} أكمت، جمع أكمة: المرتفع من الأرض. والقاع: المنخفض منها.

قَلَّدُوا الشَّرْقَ مِنْ جَمَالٍ وَخَيْرٍ مَا يَثُودُ الْمُفَنِّدِينَ انْتِزَاعَهُ^{١٢}
أُسَّسَتْ نَهْضَةُ الْبِنَاءِ بِقَوْمٍ وَبِقَوْمٍ سَمَا وَطَالَ ارْتِفَاعُهُ
كُلُّ حَيٍّ وَإِنْ تَرَخَتْ مَنَایَا هُ قَضَاءٌ عَنِ الْحَيَاةِ انْقِطَاعُهُ
وَالَّذِي تَحْرَصُ النَفُوسُ عَلَيْهِ عَالَمٌ بَاطِلٌ قَلِيلُ مَتَاعِهِ

^{١٢} يَثُودُ: بمعنى يُثْقِلُ وَيُتْعَب. وَالْمُفَنِّدِينَ: الْمَكْذِبِينَ.

إسماعيل باشا صبري^١

أُخْلِى يَدَيْكَ مِنَ الْخَلِيلِ الْوَافِي
لَبَسَ النَّذِيرَ عَلَى هُدًى وَعَفَافٍ^٢
دُونَ الْمُصَابِ بِصَفْوَةِ الْأَلَفِ
هِمَمُ الْعِزَاءِ قَلِيلَةُ الْإِسْعَافِ
فِي حَادِثَاتِ الدَّهْرِ غَيْرُ خِفَافِ
إِلَّا مَوَدَّاتِ الرِّجَالِ تَلَافٍ^٣
أَمْ لَيْلُ عُرْسٍ أَمْ بِسَاطُ سُلَافِ
مَسَّتْ حَوَاشِيهِ نَقِيعَ زُعَافٍ^٤
حَتَّى ظَفِرَتْ بِخُلُقِكَ الْمُتَنَافِي
طُهِرَ الْمُكْفَنَ طَيِّبَ الْأَلْفَافِ^٥

أَجَلٌ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ مُوَافِي
دَاعٍ إِلَى حَقِّ أَهَابٍ بِخَاشِعِ
زَهَبِ الشَّبَابِ فَلَمْ يَكُنْ رُزْئِي بِهِ
جَلِيلٌ مِنَ الْأَرْزَاءِ فِي أَمْثَالِهِ
خَفَّتْ لَهُ الْعِبْرَاتُ وَهِيَ أَبْيَةُ
وَلِكُلِّ مَا أَتَلَفْتَ مِنْ مُسْتَكْرَمِ
مَا أَنْتَ يَا دُنْيَا أَرْوِيَا نَائِمِ
نَعْمَاؤُكَ الرِّيحَانُ إِلَّا أَنَّهُ
مَا زِلْتُ أَصْحَبُ فَيْكِ خُلُقًا ثَابِتًا
زَهَبَ الذَّبِيحُ السَّمْحُ مِثْلَ سَمِيهِ

^١ إسماعيل باشا صبري: أحد الشعراء السابقين الفحول، وكان يلقَّب بشيخ الشعراء، وكان أحد رجال الدولة في عصره، فقد تَسَمَّ أعلى المناصب القضائية، وترقَّى إلى منصب وكيل وزارة الحقانية، ثم وافاه الموت سنة ١٩٢٣م.

^٢ النذير: الموت.

^٣ المستكرم: هو كل كريم عليك من مال ونحوه.

^٤ نقيع زعاف: أي سم ناجع بالغ.

^٥ يشبُّه الفقيد بالذبيح، والذبيح قيل سيدنا إسحاق، والمراد هنا سيدنا إسماعيل، ومن أجل ذلك صار الفقيد سميًّا له. والألفاف: يقصد بها الكفن. يريد أنه ذهب طيب المظهر والمخبر.

كم بات يذبُ صدره لشكاته
نزلت على سحر السّماح ونحره
لجّت على الصّدر الرّحيب وبرّحت
ما كان أقسى قلبها من علّة
قلب لو انتظم القلوب حنائه
حتى رماه بالمنية فانجلت
أخنت على الفلك المدار فلم يذر
ومضت بنار العبقريّة لم تدع
حملوا على الأكتاف نور جلاله
وتقلّدوا النعش الكريم يتيمة
مُتمايل الأعواد ممّا مسّ من
وإذا جلال الموت وافٍ سابغ
ويح الشباب وقد تخطّر بينهم
لو عاش قدوتهم وربّ «لوائهم»
فلكم سقاه الودّ حين وداده
لا يوم للأقوام حتى ينهضوا
لا يُعجبَنَّ ما ترى من قُبّة

أُتراه يحسبها من الأضياف^٦
وتقلّبت في أكرم الأكناف^٧
بالكاظم الغيظ الصّفوح العافي
علقت بأرحم حبة وشغاف^٨
لم يبق قاس في الجوانح جافي
من يبتلي بقضائه ويُعافي
وعلى العباب فقر في الرّجاف^٩
غير الرّماح ودارسات أثافي^{١٠}
يذرّ العيون حواسد الأكتاف
ولكم نعوش في الرقاب زياف
كرم وممّا ضمّ من أعطاف
وإذا جلال العبقريّة ضافي
هل مُتّعوا بتمسّح وطواف
نكس «اللواء» لثابت وقاف^{١١}
حرب لأهل الحكم والإشراف
بقوادم من أمسهم وخوافي^{١٢}
ضربوا على موتاهم وطراف^{١٣}

^٦ الشكاة: هي العلّة التي يشكوها المريض.

^٧ السّحر: الرثة. والنّحر: أعلى الصدر. والأكناف: جمع كنف، وهو الجانب.

^٨ يريد بقوله «أرحم حبة»: القلب. والشغاف (بالفتح): غلاف القلب.

^٩ العباب: هو الموج. والرجاف: البحر.

^{١٠} الأثافي: جمع أثفية، وهي ما يوضع عليه القدر.

^{١١} رب لوائهم: يقصد به صاحب جريدة اللواء، ومُنشئها زعيم الشباب الأول المرحوم مصطفى كامل باشا.

^{١٢} القوادم والخوافي: ريش في جناح الطائر، وقد ورد في قول بعضهم:

فإن الخوافي قوة للقوادم

^{١٣} طراف (على وزن كتاب): بيت من آدم، ويقصد بها المقاصير الموضوعة على بعض القبور.

هجموا على الحقّ المُبينِ بباطلٍ
يبنون دارَ الله كيف بدا لهم
ويُزورون قبورهم كقصورهم
فُجِعت رُبّا الوادي بواحدٍ أيكها
فقدت بنانا كالربيع مُجيدةً
إن فاته نسبُ «الرضي» فرُبّما
أو كان دون أبي «الرضي» أبوةً
شرفُ العصاميّين صُنْعُ نفوسهم
قل للمُشير إلى أبيه وجده
لو أن «عمرانًا» نجارك لم تُسد
قاضي القضاة جرّت عليه قضيةً
ومُصرّفُ الأحكام موكولٌ إلى
ومُنَادِمُ الأملاك تحت قبابهم
في منزلٍ دارت على الصّيدِ العُلا
وأزيلَ من حُسنِ الوجوه وعزّها
من كلِّ لَمَاحِ النعيمِ تقلّبت
وترى الجماجمَ في الترابِ تماثلت

وعلى سبيلِ القصدِ بالإسراف^{١٤}
عُرُفاتٍ مُثّرٍ أو سقيفةً عافي^{١٥}
والأرضُ تضحكُ والرُّفاتُ السافي
وتجرّعت ثُكُلَ الغديرِ الصافي
وشَيَ الرياضِ وصنعةَ الأفواف^{١٦}
جَرِيًّا لغاية سُودٍ وطِراف^{١٧}
فلقد أعادَ بيانَ «عبدِ مَناف»
من ذا يقيس بهم بني الأشراف
أعلِمتَ للقمرين من أسلاف
حتى يُشارَ إليك في الأعراف^{١٨}
للموتِ ليس لها من استئناف
حُكمِ المنيّة ما له من كافي
أمسى تُنادِمُه ذئابُ فيافي^{١٩}
فيه الرّحى ومشت على الأرداف^{٢٠}
ما كان يُعبدُ من وراءِ سِجاف^{٢١}
ديباجتاهُ على بلى وجفاف
بعدَ العقولِ تماثلَ الأصداف

^{١٤} القصد: الاعتدال، وهو في كل شيء ضدّ الإسراف.

^{١٥} العافي: الفقير.

^{١٦} الأفواف: الثياب الرقيقة.

^{١٧} الطراف هنا: من قولهم توارثوا المجد طرفًا؛ أي عن شرف ورفعة. والرضي: هو الشريف الرضي الشاعر المشهور.

^{١٨} عمران: أبو موسى عليه السلام، وقد نزلت في القرآن المجيد سورة باسم آل عمران، كما نزلت سورة باسم الأعراف.

^{١٩} الأملاك: الملوك. والفيافي: الصحاري.

^{٢٠} الصيد العلا: الملوك. والأرداف: أبناء الملوك أو الذين يلونهم في المرتبة.

^{٢١} السجاف: الستر، كالكل ونحوها.

وترى العيون القتلات بنظرة
وتُراعُ من ضحك الثُغور وطالما
غزت القرونِ الزاهبين غزاةً
يجري القضاء بها ويجري الدهرُ عن
ترمي البرية بالحُبُول وتارةً
نسجت ثلاثَ عمائم واستحدثت
«أبا الحسين» تحيةً لثراك من
وسلام أهلٍ ولِّه وصحابة
هل في يديّ سوى قريض خالِد
ما كان أكرمَه عليك فهل ترى
هذا هو الرِّيحانُ إلا أنه
والدُّرُّ إلا أن مهدَ يتيَمِه
أيام أَمَرَحُ في غُبارِكَ ناشئاً
أتعلَّمُ الغايات كيف تُرامُ في
يا راكبَ الحدباءِ خلَّ زَمَامَها
دانَ المطيَّ الناسَ غيرَ مطيَّةٍ
لا في الجيادِ ولا النِّياقِ وإنما
تنتابُ بالركبانِ منزلةَ الهدى

منهوبةً الأَجْفانِ والأسياف^{٢٢}
فتنتَ بحُلُوِّ تبسُّمٍ وهُتافٍ
دُمهم بِذِمَّةِ قرنِها الرِّعافِ^{٢٣}
يَدُها فيا لثلاثةِ أحلافٍ
بحبائلٍ من خيطها وكفافِ^{٢٤}
أَكفانَ موتى من ثيابِ زفافِ^{٢٥}
رُوحٍ ورِيحانٍ وعذبٍ نِطافٍ
حَسرى على تلك الخِلالِ لِهافٍ
أزجيه بين يديكَ لِلإتحافِ
أنى بعثتُ بأكرمِ الألفافِ
نَفحاتُ تلك الروضةِ المِئنافِ^{٢٦}
بالأَمَسِ لُجَّةً بحركِ القَذافِ
نَهَجَ المِهارِ على غُبارِ «خِصافِ»^{٢٧}
مِضمارٍ فضلٍ أو مجالٍ قوافي
ليس السبيلُ على الدليلِ بِخافي
للحقِّ لا عَجلى ولا مِجافِ^{٢٨}
خُلِقَت بغيرِ حوافِرٍ وخِفافِ
وتومُّ دارَ الحقِّ والإنصافِ

^{٢٢} يريد بـ «أسياف العيون»: اللِّحَظ، وكثيراً ما تعمل اللِّحَظ في الناس عمل السيوف، وعبر بالأسياف ليجانس بينها وبين الأَجْفان.

^{٢٣} غزاة: هي الشمس. والرعاف: أي قرنِها الأحمر الذي يُشبه الدم.

^{٢٤} الكفاف: حبائل الصائد.

^{٢٥} ثلاث عمائم: الشعر الأسود والأسود فيه شيب والأبيض؛ أي أدوار العمر الثلاثة.

^{٢٦} الروضة المئناف والأنف: هي التي تُحمى فلا يكاد أحد يمرُّ بها أو يجتني منها.

^{٢٧} المهار: جمع مهر. وخصاف: فرس مشهور في العرب.

^{٢٨} المِجاف: السريعة.

قد بَلَغْتَ رَبَّ المَدَائِنِ وانتَهَتْ
 نَمِّ مِلءَ جَفْنِكَ فالْغُدُوْ غَوَافِلُ
 فِي مَضْجِعٍ يَكْفِيكَ مِنْ حَسَنَاتِهِ
 وَاضْحَكَ مِنَ الْأَقْدَارِ غَيْرَ مُعْجَزٍ
 وَالْمَوْتُ كُنْتَ تَخَافُهُ بِكَ ظَافِرًا
 قُلْ لِي بِسَابِقَةِ الْوِدَادِ أَقَاتِلُ
 فِي الْأَرْضِ مِنْ أَبْوَيْكَ كَنْزًا رَحْمَةً
 وَبِهَا شَبَابُكَ وَاللَّدَاتُ بِكَيْتِهِ
 فَازْهَبْ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ كَلَاكِمَا
 الشَّمْسُ تُخَلِّفُ بِالنُّجُومِ وَأَنْتَ بِالْـ
 غَلْبِ الْحَيَاةِ فَتَى يَسُدُّ مَكَانَهَا

حَيْثُ انْتَهَيْتَ بِصَاحِبِ الْأَحْقَافِ^{٢٩}
 عَمَّا يَرُوعُكَ وَالْعَشْيُ غَوَافِي
 أَنْ لَيْسَ جَنْبُكَ عَنْهُ بِالْمُتَجَافِي
 فَالْيَوْمَ لَسْتَ لَهَا مِنَ الْأَهْدَافِ
 حَتَّى ظَفِرْتَ بِهِ فَدَعُهُ كَغَافٍ
 هُوَ حِينَ يَنْزِلُ بِالْفَتَى أَمْ شَافِي
 وَهُوَ وَذَلِكَ مِنْ جِوَارٍ كَافِي
 وَبِكَيْتِهِم بِالْمَدْمَعِ الذَّرَافِ
 مَالِ النَّهَارِ بِهِ وَلَيْسَ بِطَافِي
 آثَارِ وَالْأَخْبَارِ وَالْأَوْصَافِ
 بِالذِّكْرِ فَهُوَ لَهَا بِدِيلٌ وَافِي

^{٢٩} رب المدائن: كسرى. وصاحب الأحقاف: عاد.

فوزي الغزي^١

جرحُ على جرحِ حَنَانِكَ «جِلْقُ»
صَبْرًا لِبَاةِ الشَّرْقِ كُلِّ مُصِيبَةٍ
أَنَسِيَتْ نَارَ الْبَاطِشِينَ وَهَزَّةَ
رَعْنَاءَ أَرْسَلَهَا وَدَسَّ شَوَاطِظَهَا
فَمَشَتْ تُحَطِّمُ بِالْيَمِينِ ذَخِيرَةً
جُبَّتْ فَضَعُضَعَهَا وَرَاضَ جَمَاحَهَا
لِقِيِّ الْحَدِيدِ حَمِيَّةً أُمُويَّةً
يَا وَاضِعَ الدِّسْتُورِ أَمْسِ كَخُلُقِهِ
نَظْمٌ مِنَ الشُّورَى وَحُكْمٌ رَاشِدٌ
لَا تَخْشَ مِمَّا أَلْحَقُوا بِكِتَابِهِ

حُمِّلَتْ مَا يُوهِي الْجِبَالَ وَيُزْهِقُ^٢
تَبْلَى عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ وَتَخْلُقُ^٣
عَرَّتِ الزَّمَانَ كَأَنَّ «رُومًا» تُحْرِقُ^٤
فِي حَجَرَةِ التَّارِيخِ أَرْعَنُ أَحْمَقُ^٥
وَتَلُصُّ أُخْرَى بِالشَّمَالِ وَتَسْرِقُ
مِنْ نَشِيكِ الْحُمُسِ الْجَنُونِ الْمُطْبِقِ
لَا تَكْتَسِي صَدًّا وَلَا هِيَ تُطَرِّقُ
مَا فِيهِ مِنْ عَوَجٍ وَلَا هُوَ ضَيِّقُ
أَدَبُ الْحَضَارَةِ فِيهِمَا وَالْمَنْطِقُ
يَبْقَى الْكِتَابُ وَلَيْسَ يَبْقَى الْمُلْحَقُ

^١ فوزي الغزي: هو أحد سراًة الزعماء في الشام، وأحد ألوية الثورة العربية في نهضتها العظمى، توفي وأقيمت له حفلة تأبين في دمشق، وألقيت فيها هذه القصيدة العصماء في سنة ١٩٢٠م.

^٢ جلق (بشدة اللام مفتوحة أو مكسورة): دمشق.

^٣ اللبابة: أنثى الأسد.

^٤ يشير إلى ضرب الفرنسيين لها بالمدافع، وحادثة حرق روما هي إحدى الحوادث التاريخية الكبرى، وهي مضرب المثل منذ صار نieron مثلاً للظلم والجبروت.

^٥ الشواط (بضم الشين وكسرهما): لهب لا دخان فيه.

مَيَّتَ الْجَلالِ مِنَ الْقَوافي زَفرةٌ
ولقد بَعَثْتُهُما إِلَيْكَ قَصيدةً
أُبكي لِيالِينا الْقِصارَ وصَحبةً
لا أَذْكرُ الدنْيا إِلَيْكَ فَرَبِّما
طُبِعَتِ مِنَ السُّمِّ الحِياةُ طَعامُها
والناسُ بَيْنَ بَطِيئِها وذُعافِها
أما الْوَلِيُّ فَقَدْ سَقاكَ بِسُمِّه
طَلْبوكَ والأَجَلَ الْوَشِيكَ يَحْتُهم
لَمّا أَعانَ الْمَوْتَ كَيْدَ جِبالِهم
طَرَقَتْ مِهادَكَ حِياةٌ بَشْريَّةٌ
يا «فوز» تلكَ دَمَشْقُ خَلْفَ سَوايِها
نَگَرَتْ لِيالِي بَدْرِها فَتَلَقَّتْ
«بَرْدَى» وِراءَ ضِفافِها مُسْتَعْبِرٌ
والطَيْرُ فِي جَنَباتِ «دُمَر» نُوْحٌ
ويَقولُ كُلُّ مُحَدِّثٍ لِسَميرِه

تَجْري وَمِنْها عَبرَةٌ تَتَرَقِّقُ
أَفأَنْتَ مُنْتَظَرٌ كَعَهْدِكَ شَيِّقُ
أَخَذْتَ مُخِيلَها تَجيشُ وَتَبْرقُ^٦
كَرِهَ الْحَدِيثَ عَنِ الْأُجاجِ الْمُغْرِقِ^٧
وَشِرابِها وَهَواؤُها الْمُتَنَشِّقُ
لا يَعلَمونَ بِأَيِّ سَمِّها سُقُوا^٨
ما لَيسَ يَسْقِيكَ العَدُوُّ الْأَزْرَقُ^٩
ولَكلِّ نَفْسٍ مُدَّةٌ لا تُسَبِّقُ
عَلِقتَ وَأَسبابُ الْمَنيَّةِ تَعلِّقُ
كَفَرْتَ بِما تَتَنابُ مِنْهُ وَتَطْرقُ^{١٠}
تَرمي مَكانَكَ بِالعيونِ وَتَرمقُ^{١١}
فَعَساكَ تَطْلُعُ أو لَعَلَّكَ تُشْريقُ
والحورُ مَحلولُ الضِفافِ مُطْريقُ^{١٢}
يَجدُ الهمومَ خَلِيَّهنَ وَيَأْرقُ^{١٣}
أَبْذاتِ طَوَقٍ بَعدَ ذلِكَ يُوثِقُ^{١٤}

^٦ السحابة المخيلة: التي تُحسب ماطرة؛ أي إن صحبة الفقيد كانت مرجوة الخير كما تكون السحابة

المخيلة مرجوة المطر.

^٧ الأجاج: الملح المر.

^٨ الذعاف: سم الساعة.

^٩ العدو الأزرق: هو الكثير العداوة.

^{١٠} المهاد: الفراش. وفي هذا البيت إشارة إلى حادثة قتل الفقيد بواسطة زوجته.

^{١١} سواد دمشق: أي القرى التابعة لها.

^{١٢} بردى: نهر بالشام. المستعبر: بمعنى الباكي. الحور: شجر. وضافر الحور: غصونه التي تُشبه جداول الشعر.

^{١٣} دُمَر (بضم الدال وتشديد الميم المفتوحة): عقبة في دمشق. خليهن: الخالي من الهموم، وهو ضد الشجي.

^{١٤} ذات الطوق: الحمامة، وهي في هذا البيت كناية عن المرأة.

عَشِقْتَ تَهَاوِيلَ الْجَمَالِ وَلَمْ تَجِدْ
فَمَشَتْ كَأَنَّ بَنَانَهَا يَدُ مُدْمِنٍ
وَلَوْ أَنَّ مَقْدُورًا يُرَدُّ لَرَدَّهَا
أَشَقَى قَضَاءُ الْأَرْضِ بَعْدَكَ أُسْرَةً
قَسَتْ الْقُلُوبُ عَلَيْهِمْ وَتَحَجَّرَتْ
إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِي أَكْنَافِهِمْ
سَخِرُوا مِنَ الدُّنْيَا كَمَا سَخَرْتَ بِهِمْ
يَا مَأْتَمًا مِنْ «عَبْدِ شَمْسٍ» مِثْلُهُ
إِنَّ ضَاقَ ظَهْرُ الْأَرْضِ عَنْكَ فَبَطْنُهَا
لَمَّا جَمَعَتْ الشَّامَ مِنْ أَطْرَافِهِ
يَبْكِي لَوَاءً مِنْ شَبَابِ أُمِّيَّةٍ
لَمَسَتْ نَوَاصِيهَا الْحَصُونُ تَرُومُهُ
رَكْنُ الزَّعَامَةِ حِينَ تَطْلُبُ رَأْيَهُ
وَيَكَادُ مِنْ سِحْرِ الْبَلَاغَةِ تَحْتَهُ
«فِيحَاءُ» أَيْنَ عَلَى جَنَانِكَ وَرْدَةٌ
عُلُويَّةٌ تَجِدُ الْمَسَامِعَ طَيِّهَا
وَأَرَاثُكَ الزَّهْرُ الْغُصُونُ وَعَرْشُهَا
مِنْ مُبْلَغٍ عَنِّي شُبُولَةٌ جَلَّقَ
بِاللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ بِمُحَمَّدٍ
قَدْ تُفْسِدُ الْمَرْعى عَلَى أَخَوَاتِهَا

فِي الْعَبْقَرِيَّةِ مَا يُحِبُّ وَيُعَشِّقُ^{١٥}
وَكَأَنَّ ظِلَّ السُّمِّ فِيهَا زَبَقُ
بَحْيَاتِهِ الْوِطْنُ الْمَرُوعُ الْمُشْفِقُ
لَوْلَا الْقَضَاءُ مِنَ السَّمَاءِ لَمَا شَقُوا
فَانْظُرْ فَوَادِكَ هَلْ يَلِينُ وَيَرْفُقُ
صَفَحُوا فَمَا مِنْهُمْ مَغِيظٌ مُحْنَقُ
وَانْبَتَّ مِنْ أَسْبَابِهَا الْمُتَعَلِّقُ^{١٦}
لِلشَّمْسِ يُصْنَعُ فِي الْمَمَاتِ وَيُنْسَقُ
عَمَّا وَرَاءَكَ مِنْ رُفَاتٍ أَضْيَقُ^{١٧}
وَأَفَى يُعْزِي الشَّامَ فِيكَ الْمَشْرِقُ
يَحْمِي حِمَى الْحَقِّ الْمُبِينِ وَيَخْفِقُ
وَتَلَمَّسْتَهُ فَلَمْ تَجِدْهُ الْفَيْلِقُ^{١٨}
فَيَرَى وَتَسْأَلُهُ الْخَطَابُ فَيَنْطِقُ
عَوْدُ الْمَنَابِرِ يُسْتَخَفُّ فَيُورِقُ^{١٩}
كَانَتْ بِهَا الدُّنْيَا تَرْفُ وَتَعْبِقُ^{٢٠}
وَتُحَسُّ رِيَاها الْعُقُولُ وَتَنْشَقُ
يَدُ أُمَّةٍ وَجَبِينُهَا وَالْمَفْرَقُ
قَوْلًا يَبْرُ عَلَى الزَّمَانِ وَيَصْدُقُ
بِيسُوعَ بِالْغَزِيِّ لَا تَتَفَرَّقُوا
شَاةً تَنْدُ مِنَ الْقَطِيعِ وَتَمْرُقُ

^{١٥} التهاويل: الألوان المختلفة.

^{١٦} انبت: أي قُطِع.

^{١٧} الرفات: بقايا الميت.

^{١٨} نواصي الحصون: أعاليها.

^{١٩} يستخف: بمعنى يسر ويطرب.

^{٢٠} فيحاء: دمشق.

كريمة البارودي^١

أَحِيثُ تَلَوْحِ الْمُنَى تَأْفُلُ كَفَى عِظَةً أَيُّهَا الْمَنْزَلُ^٢
حَكِيَتِ الْحَيَاةَ وَحَالَاتِهَا فَهَلَّا تَخَطَّيْتَ مَا تَنْقُلُ
أَمِنْ جُنْحٍ لَيْلٍ إِلَى فَجْرِهِ جَمَى يَزْدَهِي وَجَمَى يَعْطُلُ^٣
وَذَلِكَ يُوجِّشُ مِنْ رَبَّةٍ وَذَلِكَ مِنْ رَبَّةٍ يَأْهَلُ^٤
أَجَابَ النَّعْيُ لَدَيْكَ الْبَشِيرَ وَذَاقَ بِكَأْسِيهِمَا الْمَحْفَلُ
وَأَطْرَقَ بَيْنَهُمَا وَالِدٌ أَخُو تَرْحَةٍ لَيْلُهُ أَلِيلُ^٥
يَفِيءُ إِلَى الْعَقْلِ فِي أَمْرِهِ وَلَكِنَّهُ الْقَلْبُ لَا يَعْقِلُ
تَهَاوَتْ عَنِ الْوَرْدِ أَغْصَانُهُ وَطَارَ عَنِ الْبَيْضَةِ الْبُلْبُلُ^٦
وَرَأَتْ حَيَاةً وَجَاءَتْ حَيَاةً وَأَظْهَرَ قُدْرَتَهُ الْمُبْدِلُ

^١ وجَّه هذه القصيدة يعزِّي بها المرحوم محمود سامي باشا البارودي في كريمة التي توفيت أثناء زفاف شقيقتها.

^٢ تلوح المنى: بمعنى تُشرق. تأفل: بمعنى تغرب.

^٣ جنح الليل (بضم الجيم وكسرها): طائفة منه. يعطل: بمعنى يخلو، والأصل في العطل التجرد من الحلي.

^٤ الربة هنا: يقصد بها صاحبة البيت. يأهل: يمتلئ أو يعمر.

^٥ الترحة: الحزن. الأليل: الشديد السواد.

^٦ تهاوت: أي تساقطت أو تخلَّت.

وما غيرُ من قد أتى مُديرُ
 كأني بـ «سامي» هلوغُ الفؤادِ
 يرى قدرًا يأملُ اللُطفَ فيه
 يُضيءُ لضيّفانه بِشره
 ويقرّيهـم الأُنسَ في منزلِ
 فمن غادةٍ في مجالي الرّفافِ
 وذي في نفاسِتها تنطوي
 تقسّمَ بينهما قلبه
 فيا نكدَ الحرِّ هل تنقضي
 ويا صبرَ «سامي» بلغتِ المدى
 لقد زدتَ من رِقّةٍ كالصراطِ
 يمرُّ عليك خليطُ الخطوبِ
 ويا رجلَ الجِلْمِ خذ بالرضا
 اتّحسّبْ شهدًا إناءَ الزمانِ
 وما كان من مُرّه يعتلي
 وأنت الذي شربَ المُترعاتِ
 أفي ذا الجلالِ وفي ذا الوقارِ
 أَلَمْ تَكُنِ المَلِكُ في عزّه
 وقولك من فوقِ قولِ الرجالِ
 ستعرفُ دنياك من ساومتِ
 كأنك «شمشون» هذي الحياةِ

ولا غيرُ من قد مضى مُقبلِ
 إذا أسمعَت همسةً يعجلُ
 وعادي الرّدى دون ما يأملُ
 وبينَ الضلوعِ الغَضَى المُشعلُ^٧
 ويجمعه والأسى منزلِ
 إلى غادةٍ داؤها مُعضلِ
 وذي في نفائسها ترُقِلُ^٨
 وخانتته عيناه والأرجلِ
 ويا فرحَ الحرِّ هل تكملُ
 ويا قلبه السهلَ كم تحملُ
 ودون صلابتك الجندلِ
 ويجتازك الخِفَ والمُثقلُ^٩
 فذلك من مُتّق أجملُ
 وطينته الصابُ والحنظلِ
 وما كان من حُلوه يسفلُ
 فأَيُّ البواقي به تحفلُ
 تُخيفُك ضراءُ أو تُذهلُ
 وباعك من باعه أطولُ
 وفعلك من فعلهم أنبلُ^{١٠}
 وأن وقارك لا يُبذلُ
 وكلُّ حوادثها هيكَلُ^{١١}

^٧ الغضى: شجر إذا اشتعل بقي جمره طويلًا.

^٨ النفاسة: من قولهم هذا شيء نفيس؛ أي ثمين يُرغب فيه. والنفائس: الحلي وما أشبهها.

^٩ الخِفَ: الخفيف. المثل: الثقل.

^{١٠} يشير إلى زمن الثورة العربية وموقف البارودي منها.

^{١١} شمشون: أحد أنبياء التوراة، وله قصة هناك تدلُّ على أنه أُعطي بسطة عظيمة في القوة.

فتحي ونوري^١

وإلى وجوه السَّعدِ كيف تَحولُ
عادي الرَّدَى بِإِشارةٍ فَتَميلُ
صَرَعى عليهن التُّرابُ مَهيلُ
والعهدُ في عُمرِ النُّسورِ يطولُ
قمرٌ من الغُرِّ السُّماةِ قَتيلُ
هَياتِ ليس من القضاء مُقيلُ
فالأرضُ وَلهى والسماءُ تُكولُ
الموتُ لا يخفى عليه سبيلُ^٢
نسرٍ يُرْفِرُ فيه عزرائيلُ
فيها عَزِيزًا مات وهو ذليلُ
وإلى الأمانى يسكنُ المسلولُ
نُعمى الحياةِ وبؤسها تضليلُ
عمرُ الورودِ وإنه لَقَليلُ
كالحُلُمِ جاءَ بصدِّه التَّأويلُ

انظر إلى الأَعمارِ كيف تزولُ
وإلى الجبالِ الشُّمِّ كيف يُميلُها
وإلى الرياحِ تَخِرُّ دونَ قرارِها
وإلى النُّسورِ تقاصرتِ أعمارُها
في كُلِّ مَنْزِلَةٍ وكلِّ سَمِيَّةٍ
يهوي القضاءُ بها فما من عاصمِ
«فَتَحُ السَّماءُ» و«نورُها» سَكنا الثرى
سِرٌّ في الهواءِ ولُذْ بناصيةِ السُّها
واركبُ جَنَاحِ النَّسرِ لا يَعصمُكَ من
ولكلِّ نَفْسٍ ساعةٌ من لم يَمُتْ
أُلى الحياةِ سَكنتَ وهي مَصارعُ
لا تَحْفَلَنَّ ببؤسِها ونعيمِها
ما بين نَضْرَتِها وبين ذُبُولِها
هذا بَشِيرُ الأُمسِ أصبح ناعِيًا

^١ فتحي ونوري: هما الطياران العثمانيان اللذان قَدِمَا إلى مصر في سنة ١٩١٣م يقودان طيارتهما، فسقطت بهما فماتا، فكان لمصاهما في مصر أسف شديد، وكانت الخلافة الإسلامية وقتئذٍ ما تزال تربط المصريين بالعثمانيين.

^٢ السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

ما كان من فرح عليه يسيل
كالرُقْط في ظلّ الرياض ثقيل^٢
فتح أغرّ على السماء جميل
ولمن يشيد بعده فيطيل
لم يهد فيها السالكين دليل
أو علمه والآخرين فضول
والتابعون من الخميس حُجول^٣
فيم الوقوف ودون مصر ميل
لما طلعتُم في السحاب كليل
لكم على طغيانها لذلّول
أن المنيّة ثالث وزميل
لك في الحياة وفي الممات خليل
في الجوّ نسرٌ بالحياة بخيل
عرض السماء ضريحهم والطول^٤
ويُرفرفُ التسبيح والتهلّيل
ويسوعُ فوق يمينه إكليل^٥

يجري من العبرات حول حديثه
ولربّ أعراس خبان مآتما
يا أيها الشهداء لن ينسى لكم
والمجد في الدنيا لأول مبتن
لولا نفوس زلن في سبل العلّا
والناس باذل روحه أو ماله
والنصر غرته الطلائع في الوغى
كم ألف ميل نحو مصر قطعتم
«طوروس» تحتكم ضئيل طرفه
ترخون للريح العنان وإنها
اثنين إثر اثنين لم يخطر لكم
ومن العجائب في زمانك أن يفي
لو كان يُفدى هالك لفداكم
أي الغزاة أولي الشهادة قبلكم
يغدو عليكم بالتحية أهلها
«إدريس» فوق يمينه ريحانة

^٢ يريد أن الأحزان تختبئ في الأرواح كما تكمن الحيات الرقطة وقت القيلولة في ظلال الرياض، فوجود الحيات في ذلك الجو تسميم له ومانع من الانتفاع به، كما أن انطواء الأحزان في ثنايا الأفراح مسمم لجوها مانع من الاستمتاع بكل سرورها.

^٣ الخميس: الجيش. الحجل: أصلها من اللون الأبيض يكون في قوائم الفرس كأنه العلامات. يقول: إن الذين يقدمون في أوائل الجيوش يكونون في جسم النصر أشبه بالغيرة، وهي لا تكون إلا في الوجه، على حين أن غيرهم من سائر الجيش يكون أشبه بالحجل، وهي لا تكون إلا في الأيدي والأرجل، وطبيعي أن الوجه أشرف، وإن كانت الحجل بعض سمات الجمال.

^٤ في هذا البيت ترغيب عظيم يُساق للطيّارين؛ إذ يقول لهم: إن الغزاة — وهم موضع الإجلال والإكبار — تُشقّ قبورهم في الأرض، ولكن أضرحتكم تخط في السماء.

^٥ يسوع: هو عيسى ابن مريم. وإدريس: هو أحد الأنبياء الرسل، وقد خصّ إدريس بالذكر لما جاء في قصة الإسراء، من أن النبي صلوات الله عليه رآه قائماً على باب إحدى السموات السبع، فسأل جبريل: من هذا؟ فقال: أخوك إدريس.

في عالمٍ سَكَّانُهُ أَنْفَاسُهُمْ
إِنِّي أَخَافُ عَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْأَذَى
كَانَتْ مَطْهَرَةً الْأَدِيمِ نَقِيَّةً
يَتَوَجَّهَ الْعَانِي إِلَى رَحْمَاتِهَا
وَيُشِيرُ بِالرَّأْسِ الْمُكَلَّلِ نَحْوَهَا
وَالْيَوْمَ لِلشَّهَوَاتِ فِيهَا وَالْهَوَى
أَضْحَتْ وَمِنْ سَفَنِ الْجَوَاءِ طَوَائِفُ
وَأَزِيلَ هَيْكَلُهَا الْمَصُونُ وَسِرُّهُ
هَلَعَتْ «دِمَشْقُ» وَأَقْبَلَتْ فِي أَهْلِهَا
مَشَتْ الشُّجُونُ بِهَا وَعَمَّ غِيَاظُهَا
فِي كُلِّ سَهْلٍ أُنَّةٌ وَمَنَاخَةٌ
وَكَأَنَّمَا نُعِيتْ أُمِّيَّةٌ كُلُّهَا
خَضَعَتْ لَكُمْ فِيهِ الصَّفُوفُ وَأُزْلِفَتْ
مِنْ كُلِّ نَعَشٍ كَالثُّرَيَّا مَجْدُهُ
فِيهِ شَهِيدٌ بِالْكِتَابِ مُكَفَّنٌ
أَعْوَادُهُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَأَصْلُهُ
يَمْشِي الْجَنُودُ بِهِ وَلَوْ لَا أَنَّهُمْ

طَيْبٌ وَهَمْسٌ حَدِيثُهُمْ إِنْجِيلٌ^٧
فِي يَوْمٍ يُفْسِدُ فِي السَّمَاءِ الْجِيلُ^٨
لَا أَدَمُ فِيهَا وَلَا قَابِيلُ^٩
وَيَرَى بِهَا بَرْقَ الرَّجَاءِ عَلِيلُ
شَيْخٌ وَبِاللَّحْظِ الْبَرِيءِ بَتُولُ^{١٠}
سَيْلٌ وَلِلدَّمِ وَالدَّمْعِ مَسِيلُ
فِيهَا وَمِنْ خَيْلِ الْهَوَاءِ رَعِيلُ^{١١}
وَالدَّهْرُ لِلسَّرِّ الْمَصُونِ مُذِيلُ^{١٢}
مَلْهُوفَةٌ لَمْ تَدْرِ كَيْفَ تَقُولُ
بَيْنَ الْجَدَاوِلِ وَالْعَيُونِ ذُبُولُ^{١٣}
وَبِكُلِّ حَزَنِ رَنَّةٍ وَعَوِيلُ
لِلْمَسْجِدِ الْأُمُويِّ فَهُوَ طُلُولُ^{١٤}
لَكُمْ الصَّلَاةُ وَقَرَّبَ التَّرْتِيلُ
فِي الْأَرْضِ عَالٍ وَالسَّمَاءِ أَصِيلُ
بِمَدَامِعِ الرُّوحِ الْأَمِينِ غَسِيلُ
بَيْنَ «السُّهَى» وَ«الْمُشْتَرَى» مَحْمُولُ^{١٥}
أُولَى بِذَاكَ مَشَى بِهِ جَبْرِيلُ

^٧ قوله «وهمس حديثهم إنجيل»: يقصد أن أحاديثهم طهرٌ وتقدس.

^٨ يريد أنه خائف على جو السماء يوم يتخذها الطيارون ميداناً للحروب، فيلوثون ذلك الطهر بأذى قتل الناس وتخريب أوطانهم.

^٩ يريد بـ «قابيل» الإشارة إلى أول دم أراقه الإنسان ظملاً لأخيه الإنسان.

^{١٠} الرأس المكلل: الذي يتوجه الشيب، وهذه كناية عن حالة الضعف.

^{١١} خيل الهواء: الطيارات. الرعيل: القطعة من الخيل قدر العشرين أو الخمسة والعشرين.

^{١٢} مذيل: مهين. أي إن الدهر لم يحسن حفظ هذا السر المصون، فكأنه أهانه.

^{١٣} الغياط: جمع غوطة، وهي الموضع الكثير الماء والشجر. ويقصد بـ «العيون»: عيون الماء.

^{١٤} طول: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار البناء.

^{١٥} المشتري: من الكواكب السيّارة.

من قبلُ ثاوٍ والسماحُ نَزِيلٌ
حتى كأنَّ الميتَ فيه رسولٌ^{١٦}
وحواكُ ظلٍّ في «فروق» ظليلٌ^{١٧}
بينَ المآذنِ والقلاعِ نُزولُ
لِسُتُورِها التمسيحُ والتقبيلُ
صبرُ العظامِ على العظيمِ جميلُ
نَاءِ الفراتِ بشطريها والنيلُ
فالغابُ من أمثالها مأهولُ
عندَ الإلهِ وإنه لَجَزِيلُ
للحقِّ أنتَ بأنَّ يُحقَّ كفيلُ
عدلاً يُقيمُ الملكَ حينَ يَميلُ
لا الجيشُ يرفعه ولا الأسطولُ
والرفقُ عندَ محمدٍ مأمولُ^{١٨}
ما انفكَّ في جنبِ الهلالِ يَسيلُ
إنَّ الوثاقَ على الأسودِ ثَقِيلُ^{١٩}
صنديدُ «برقة» موثقٌ مَكْبُولُ^{٢٠}
ما كان يُغمَدُ سيفُكُ المسلولُ
واستَبَقَه إنَّ السيوفَ قليلُ

حتى نزلتُم بُقعةً فيها الهوى
عظمتُ وجلَّ ضريحُ «يوسفَ» فوقها
شِعري إذا جُبَّتِ البحارُ ثلاثٌ
وتداولتكَ عصابةً عربيةً
وبلغتَ من بابِ الخلافةِ سُدَّةً
قُلْ للإمامِ محمدٍ ولآله
تلك الخطوبُ وقد حملتُم شطرَها
إن تَفَقِدُوا الأسادَ أو أشبالَها
صبرًا فأجرُ المسلمين وأجرُكم
يا من خلافتُهُ الرضيَّةُ عصمةُ
واللهُ يَعْلَمُ أَنَّ في خلفائه
والعدلُ يرفعُ للممالكِ حائطًا
هذا مقامُ أنتَ فيه محمدُ
بالله بالإسلامِ بالجُرحِ الذي
إلا حلتَ عن السجينِ وثاقه
أيقولُ وإشٍ أو يُردَّدُ شامتُ
هو من سيوفِك أغمدوه لريبةٍ
فانكُرُ أميرَ المؤمنين بلاءهُ

^{١٦} يقصد بـ «يوسف»: صلاح الدين الأيوبي.

^{١٧} جبت: قطعت. فروق: الأستانة، وكانت عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذٍ.

^{١٨} كان يخاطب الخليفة محمد رشاد.

^{١٩} السجين: هو عزيز بك المصري القائد الحربي العظيم، وكان يجاهد في طرابلس أيام أغار عليها الطليان، وقد وُشي به للحكومة التركية، فاعتقلته وزجَّت به في السجن، ولم يخرج إلا بتحقيق وشفاعة مصرية، كانت هذه القصيدة من بعض ظواهرها ومن أجمل مظاهرها.

^{٢٠} برقة: أحد الأقاليم الليبية، حدثت به أهم الوقائع الحربية في تلك الإغارة، وفيها لمع مجد عزيز بك.

علي باشا أبو الفتوح^١

ما بينَ دمعي المُسبِلِ عهدٌ وبينَ ثرى «علي»
عهدُ «البقيع» وساكنيهِ
والدَّمْعُ مروحَةُ الحزيبِ
نمضي ويلحُّ من سلا
كم من تُرابٍ بالدمو
كالقبرِ ما لم يبلَ فيه
ريَّانٌ من مجدٍ يعزُّ
أُمست جوانبُه قرا
وحديثُهم مِسْكُ النَّدِيِّ
قُلْ للنَّعِيِّ هتكتَ دَمَ
المُلْتَقِي الأحداثِ إنْ
عهدٌ وبينَ ثرى «علي»
هـ على الحيا المُتهلِّلِ^٢
نِ وراحةُ المُتملِّمِ
في الغابرينَ بَمَن سُلِّي
عِ على الزمانِ مُبَلِّلِ
هـ من العِظامِ وما بلي
على القصورِ مؤثِّلِ
رَا للنُّجومِ الأَقْلِ
وعنبرٌ في المَحْفَلِ
عِ الصابِرِ المُتَجَمِّلِ^٣
نزلتْ كأنْ لم تَنْزَلِ

^١ علي باشا أبو الفتوح: أحد نوابغ مصر الذين اشتركوا في تمهيد الطريق لنهضتها، كان حقوقياً ضليعاً، وأسندت له وكالة وزارة المعارف، فكان موضع الفخر والأمل، وقد توفي سنة ١٩١٣م، فعدَّ موته خسارة وطنية كبرى.

^٢ البقيع: أحد المزارات المقدسة في المدينة المنورة.

^٣ المتجمل: الذي يدفن همه في صدره احتساباً، ويظهر عكسه للناس.

حَمَلَ الْأَسَى بَ «أَبِي الْفَتَوِ
حَتَّى ذَهَلْتُ وَمَنْ يَذُقُ
فَعَبْتُ فِي رُكْنِ «الْقَضَا
لَهَفِي عَلَى ذَاكَ الشَّبَا
وَعَلَى الْمَعَارِفِ إِذْ خَلْتُ
وَعَلَى شَمَائِلَ كَالرُّبَا
وَحَيَاءٍ وَجْهِهَ كَانَ يُؤْ
يَا رَاوِيًا تَحْتَ الصَّفِي
وَمُسْرِبًا حُلَّ الْوِزَا
وَمُوسَّدًا حُفَرَ الثَّرَى
إِنِّي التَفْتُ إِلَى الشَّبَا
وَوَقَفْتُ مَا بَيْنَ الْمُحَقِّ
فَرَأَيْتُ أَيَّامًا عَجَلْ
كَانَتْ مُوْطَأَةً الْمِهَا
ذَهَبَتْ كَحُلْمٍ بَيْدًا أَنْ
إِذْ نَحْنُ فِي ظِلِّ الشَّبَا
جَارَانِ فِي دَارِ النُّوَى
أَيُّكِي وَأَيُّكَ ضَاكَا
وَالدَّرْسُ يَجْمَعُنِي بِأَفْ

حِ «عَلَيَّ مَا لَمْ أَحْمَلْ^٤
فَقَدْ الْأَحْبَبَةُ يَذْهَلُ
ءِ «عَلَى الْقَضَاءِ الْمُنْزَلُ
بِ وَذَلِكَ الْمُسْتَقْبَلُ
مِنْ رُكْنِهَا وَالْمَوْئِلُ^٥
بَيْنَ الصَّبَا وَالْجَدُولُ
تَرُّ عَنْ «يَسُوعَ» الْمُرْسَلُ
حِ مِنْ الْكُرَى وَالْجَنْدَلُ^٦
رَةً بَاتَ غَيْرَ مُسْرِبِ
بَعْدَ الْبِنَاءِ الْأَطْوَلُ
بِ الْغَابِرِ الْمُتَمَثِّلُ
قِ فِيهِ وَالْمُتَخَيِّلُ
نَ وَلَيْتَهَا لَمْ تَعَجَلْ
دَ لَنَا عَذَابَ الْمَنْهَلِ
الْحُلْمَ لَمْ يُتَأَوَّلْ
بِ الْوَارِفِ الْمُتَهَدِّلُ^٧
مُتَقَابِلَانِ بِمَنْزِلِ
نِ عَلَى خَمَائِلِ مُونِبِلِي^٨
ضَلَّ طَالِبٍ وَمُحْصَلِ

^٤ الأسى: الحزن.

^٥ المowell: الملجأ الذي يلجأ إليه في الشدة.

^٦ يريد بـ «الصفوح والجندل»: حجارة القبر. يستعبر بالفقيد — وهو المرفقه في الحياة — كيف ينام هذا النوم العميق تحت الحجارة الصماء الثقيلة، وهذا حذق في سياق التفعُّع بأسلوب الاستعبار.

^٧ المتهدِّل: من قولهم تهدلت أغصان الشجر، إذا تدلَّت.

^٨ يشير في هذا البيت والذي قبله إلى أن الفقيد كان هو وأمير الشعراء زميلين وصديقين، كانا يطلبان العلم في جامعة «مونبلييه»، وهي إحدى مدن فرنسا الشهيرة. الأيك في الأصل: عش الطائر. الخمائِل: النباتات الكريمة كالحدائق والبساتين.

أَيَّامَ تَبَذَّلُ فِي سَبِيلِ
غَضِّ الشَّبَابِ فَكَيْفَ كُنْ
وَإِذَا دَعَاكَ إِلَى الْهَوَى
وَلَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَى الْحَيَا
لَمْ يَدِرْ إِلَّا اللَّهُ مَا
تَجْرِي بِنَا لِمُفْتَحِ
حَتَّى تَبَدَّلْنَا وَذَا
هَاتِيكَ أَيَّامُ الشَّبَا
مَنْ فَاتَهُ ظِلُّ الشَّبِيهِ
يَا رَاحِلًا أَخْلَى الدِيَا
تَتَحَمَّلُ الْأَمَالَ إِنْ
مَشَتْ الشَّبِيْبَةُ جَحْفَلًا
فَانْظُرْ سَرِيرَكَ هَلْ جَرَى
اللَّهُ فِي وَطَنِ ضَعِيفِ
وَأَبِ وَرَاءَكَ حُزْنُهُ
يَهْبُ الضِّيَاعُ الْعَامِرَا
لَيْسَ الْغَنِيُّ مِنَ الْبَرِيِّ
وَنَجِيبَةُ بَيْنَ الْعَقَا
دَخَلَتْ مَنَازِلَهَا الْمَنُو
كَسَرَتْ جَنَاحَ مُنْعَمٍ
فَكَأَنَّ آلَكَ مِنْ شَجِ
آلِ «الْحُسَيْنِ» «بِكَرْبَلَا

لِ الْعِلْمِ مَا لَمْ يُبَذَّلْ
تَ عَنْ الشَّبَابِ بِمَعَزَلِ
دَاعِي الصَّبَا لَمْ تَحْفَلِ
فَعَلْتَ مَا لَمْ يُفْعَلِ
خَبَأْتُ لَكَ الدُّنْيَا وَلِي
بَيْنَ الْغُيُوبِ وَمُقَفَّلِ
كَ الْعَهْدُ لَمْ يَتَبَدَّلِ
بِ الْمُحْسَنِ الْمُتَفَضَّلِ
بَةِ عَاشٍ غَيْرَ مُظَلَّلِ
رَ وَفَضْلُهُ لَمْ يَرَحَلِ
رَ شَبَابِهِ الْمُتَحَمَّلِ^٩
تَبْكِي لِوَاءِ الْجَحْفَلِ^{١٠}
فَوْقَ الدَّمُوعِ الْهُطَلِ
فِ الرِّكْنِ وَاهِي الْمَعْقَلِ
لِنَوَاكِ حُزْنُ الْمُثْكَلِ
تِ لِمَنْ يَرُدُّ لَهُ «عَلِي»
ةً غَيْرَ ذِي الْبَالِ الْخَلِي
ثَلِ هُمُّهَا لَا يَنْسَلِي^{١١}
نُ عَلَى الْجَرِيِّ الْمُشْبِلِ^{١٢}
وَرَمَتْ فَوَادَ مُدَلَّلِ
وَمُتَيِّمٍ وَمُرْمَلِ
فِي كُرْبَةٍ لَا تَنْجَلِي^{١٣}

^٩ الشباب المتحمل: أي الراحل.

^{١٠} الجحفل: الجيش.

^{١١} لا ينسلي: أي لا يمضي ولا يبارح مكانه من قلبها.

^{١٢} المشبل: هو الذي يلد الأشبال، وهي أولاد السباع.

^{١٣} كربلاء: اسم الموضع الذي قُتل فيه سيدنا الحسين رضي الله عنه.

خلعَ الشبابَ على القنا وبذلتَه للمُعْضِل^{١٤}
والسيفُ أرحمُ قاتلاً من عِلَّةٍ في مَقْتَل
فأذهب كما ذهبَ الحسيب نُنْ إلى الجوارِ الأفضَل
فكلاكما زينُ الشبا بَ بِجَنَّةِ اللهِ العَلي

^{١٤} يشبهُ الفقيد بالحسين، بجامع بذل الشباب من كليهما وموت كليهما قبل أوانه، كأنه يرى أن الموت في سن الشباب بمثابة بذل الحياة وخلع ثوبها، وهذا لا ينافي الاعتقاد بالأجل المكتوب؛ فقد تمثل الحسين نفسه عندما رأى أن لا مفرَّ من القتل بقول بعضهم:

فلو ترك القطا ليلاً لناام

جورجي زيدان^١

ممالك الشرق أم أدراس أطلال
أصابها الدهر إلا في مآثرها
وصار ما نتغنى من محاسنها
إذا جفا الحق أرضاً هان جانبها
وإن تحكّم فيها الجهل أسلمها
نوابغ الشرق هُزّوه لعلّ به
إن تنفخوا فيه من روح البيان ومن
لا تجعلوا الدين باب الشر بينكم
ما الدين إلا تراث الناس قبلكم

وتلك دُولاته أم رسمها البالي^٢
والدهر بالناس من حالٍ إلى حالٍ
حديث ذي محنة عن صفوه الخالي
كأنها غابة من غير رثبال^٣
لِفاتكِ من عوادي الذلّ قتّال
من الليالي جُمود اليأس السّالي
حقيقة العلم ينهض بعد إعضال
ولا محلّ مُباهاة وإدلال
كلّ امرئٍ لأبيه تابع تالي

^١ الأستاذ الكبير المرحوم جورج زيدان، مُنشئ دار الهلال الغراء، هو أحد مؤسسي النهضة الصحفية في البلاد العربية، وأحد أساطين رجال العلم والأدب، الذين يُرجع إلى مؤلفاتهم ويحتج بأرائهم، وقد توفي سنة ١٩١٤م، بعد أن ترك خلفه من التراث العلمي والأدبي ما يكفي لتسجيل اسمه في طليعة سجل المُصلّحين.

^٢ الأدراس: جمع درس، وهو الطريق الخفي أو الثوب الخلق. والأطلال: جمع طلل، وهو ما شخص من آثار الديار. وهذا المطلع الشعري ملآن بالتفجّع على ما صارت إليه ممالك الشرق في هذه الأيام، فهو يسأل مستنكراً: أهذه ممالك حقاً، أم هي آثار ورسوم من ممالك عظيمة كانت موجودة وذهبت؟

^٣ رثبال: أسد.

مناهجُ الرُّشدِ قد تخفى على الغالي
ما أبعدَ الحقَّ عن باغٍ ومُختالٍ
فَرُبَّ مَصْلَحَةٍ ضَاعَتْ بِإِهْمَالِ
ونومةٍ هَدَمَتْ بُنيانَ أجيالٍ
رَكُنُ الممالكِ صدرُ الدولةِ الحالي
أبى لها الله أن تمشي بأغلالٍ
ما تقدِرُ النفسُ من حُبٍّ وإجلالٍ
كناقدٍ مُمعِنٍ في كفٍّ لألٍ
ما ليس يفعلُ فيها طِبُّ دَجَالٍ
رَأَيْتَ شَبَهَ عَلِيمٍ بَيْنَ جُهَّالٍ
إلى كُھولٍ وشُبَّانٍ وأطفالٍ
رضا الصديقِ مُقِيلُ الحاسدِ القالي
مُفَاخِرِي جِكَمِي فيها وأمثالي
أَشْمَرُ الذَّيْلَ أو أَعْتَزُّ بِأَذْيَالِي
جَدْتُ في جنبِ فضلِ الله أفضالي
إن الصنائعَ تزكو عند أمثالي
إن الغيوبَ صناديقُ بأقفالٍ
وكالأذانِ على الأسماعِ إقلالي
ورُحْتُ من فُرْقَةِ الأحبابِ يُرْثِي لي
كالموتِ للمرءِ في جِلٍّ وتُرحالٍ
أليس في الموتِ أقصى راحةِ البالِ
من الترابِ مع الأيامِ مُنْهالٍ
إلا تَرْكُنَا رُفَاتًا عندَ غِرْبَالٍ
إلا زكاةُ النُّهى والجاهِ والمالِ
الخيرُ والشرُّ مِثْقَالٌ بِمِثْقَالٍ

ليس الغُلُوُّ أَمِينًا في مَشُورته
لا تطلبوا حَقَّكم بَغْيًا ولا صِلَفًا
ولا يَضِيعَنَّ بالإِهْمَالِ جانبُهُ
كم هَمَّةٌ دَفَعَتْ جِيلًا ذُرًا شَرَفَ
والعلمُ في فضله أو في مَفَاخره
إذا مَشَتْ أُمَّةٌ في العالَمين به
يَقِلُّ للعلمِ عندَ العارفين به
فَقِفْ على أهله واطلُبْ جواهره
فالعلمُ يفعلُ في الأرواحِ فاسدُهُ
ورُبَّ صاحبِ درسٍ لو وقفت به
وتسبَّقُ الشمسُ في الأمصارِ حكْمُهُ
«زيدانُ» إني مع الدنيا كعهدي لي
لي دولةُ الشعرِ دونَ العصرِ وائلةُ
إن تَمْشِ لِلخَيْرِ أو للشرِ بي قدَمْ
وإن لَقِيتُ ابنَ أُنثَى لي عليه يَدُ
وأشكرُ الصَّنْعَ في سِرِّي وفي علني
وأتركُ الغيبَ لله العليمِ به
كـ «أَرْغُن» الدَّيْرِ إِكْثَارِي وَمَوْقَعُهُ
رَثِيتُ قَبْلَكَ أَحِبَابًا فُجِعْتُ بِهِمْ
وما عَلِمْتُ رَفِيقًا غَيْرَ مُؤْتَمَنٍ
أَرَحْتُ بِأَلِكِ من دنيا بلا خُلُقٍ
طالت عليك عوادي الدهرِ في حَشِنٍ
لم نَأْتِهِ بِأَخٍ في العيشِ بعدَ أَخٍ
لا يَنْفَعُ النَّفْسَ فيه وهي حائِرةٌ
ما تصنعُ اليومَ من خيرٍ تَجِدُهُ غَدًا

٤ الأرغن: آلة موسيقية معروفة.

فلا رأى الدهرَ نقصًا بعدَ إكمال
كرامةِ الصُّحفِ الأولى على التالي
ومن وقائعِ أيامِ وأحوال
هُمّا لباغي المعالي خيرُ منوال
أن الحياةَ بآمالٍ وأعمال
صوّرته كلُّ أيامٍ بتمثال
والملك ما بينَ إدبارٍ وإقبال
كالعلمِ تُبرّزه في أحسنِ القال
روايةِ الموتِ في أسلوبها العالي
ويستبذُّ البلى بالهيكل الخالي
كما يَجُنُّ إلى أوطانه الجالي^٥
كأن لُبنانَ مَرْمِيٌّ بزلزال
كالألم تبكي زهابَ النافعِ الغالي

قد أكمل الله ذِيَّكَ «الهلل» لنا
ولا يزل في نفوسِ القارئین له
فيه الروائعُ من علمٍ ومن أدبٍ
وفيه همّةٌ نفسٍ زانها خُلُقٌ
علّمت كل نثومٍ في الرجال به
ما كان من دُولِ الإسلامِ مُنصرِمًا
نرى به القومَ في عزٍّ وفي ضعةٍ
وما عرّضت على الأبوابِ فاكهةً
وضعت خيرَ «روايات» الحياةِ فضْعُ
وصِفْ لنا كيف تجفو الروحُ هيكلها
وهل تَجُنُّ إليه بعدَ فرقتِه
هضابُ لُبنانَ من منعاتِكَ اضطربت
كذلك الأرضُ تبكي فقدَ عالمها

٥ الجالي: النازح أو المهاجر.

شهداء العلم والغربة^١

وللمجد ما أبقى من المثلِ العالي
حياةً لأقوامٍ ودُنيا لأجيالٍ
كريمِ المُصَفَّى من شبابٍ وآمالٍ
إلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتالٍ
بأبيضٍ من غُسلِ الملائكِ سَلسالٍ^٢
فعادت رقيقاً من عيونٍ وأطلالٍ
وفي العُصرِ الخالي وفي العالَمِ التالي
رياحينَ هامٍ في الترابِ وأوصالٍ^٣

ألا في سبيلِ الله ذاكَ الدَمُ الغالي
وبعضُ المنايا هَمَّةٌ من ورائها
أَعَيْنِي جُوداً بالدموعِ على دمٍ
تناهت به الأحداثُ من غُربةِ النُّوى
جرى أرجوانياً كُمَيْتاً مُشعشعاً
ولاذَ بقُضبانِ الحديدِ شهيدُهُ
سلامٌ عليه في الحياةِ وهامداً
خِليِّي قوماً في رُبا الغربِ واسقيا

^١ شهداء العلم والغربة: هم طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوروبا، فاصطدم القطار الذي يُقلُّهم من أرض إيطاليا؛ فقتل أحد عشر طالباً وجيء بهم إلى مصر، فاستُقبلت جثثهم استقبلاً رهيباً، فاشتريت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، ومما كان يزيد الهول في هذا المصاب حدوثه والبلاد مشتعلة بثورتها في سنة ١٩٢٠م.

^٢ الأرجواني: منسوب إلى الأرجوان، وهو صبغ أحمر يشبه به الدم لشدة حمرة. والكُميت: حمرة يخالطها السواد. ومعنى المشعشع: الممزوج بالماء. والغسل (بكسر الغين): ما يُغسل به. يصف دم هؤلاء الشهداء بأنه يجري أحمر مشوباً بسواد ممزوجاً بلون أبيض، كأنه الماء السلسال الذي أصابه من غسل الملائكة.

^٣ الأوصال: الأعضاء.

نَوَتْ بَيْنَ حِلٍّ فِي الْبِلَادِ وَتَرَحَّالَ
هَلُوعٌ وَأُمٌّ بـ «الكنانة» مِثْكَالَ
بِمُضْطَرِبٍ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِرْقَالٌ^٤
وَيُلْقِي عَلَى الْقَلْبِ الشَّجَى غَيْرَ قَوَّالٍ
مَنَاحَةً أَقْمَارٍ وَمَأْتَمٌ أَشْبَالَ
بَسَاطًا وَلَكِنْ مِنْ حَدِيدٍ وَأَثْقَالَ
غُدَاةً عَلَى الْأَخْطَارِ رُكَّابَ أَهْوَالٍ
بَاخَرَ مِنْ دُهِمِ الْمَقَادِيرِ ذِيَالٌ^٥
كَمِيَّانٍ فِي دَاخٍ مِنَ النِّقَعِ مُنْجَالٌ^٦
عَلَى نَاعِمٍ غَضٍّ مِنَ الزَّهْرِ مِنْهَالٍ
طُلُوعَ الْمَنَايَا مِنْ ثَنِيَّاتِ أَجَالٍ^٧
إِلَى سَفَرٍ يَنْوُونَهُ غَيْرَ قُقَّالٍ
أَقَامَ يَتِيمًا فِي جِرَاسَةٍ لِأَلٍّ^٨
لِنُزَّاعِ أَمْصَارٍ عَلَى الْحَقِّ نُزَّالٌ^٩
وَضَجَّةُ أَتْرَابٍ عَلَيْهِمْ وَأَمْثَالُ
لَقَدْ ظَفَرُوا بِالْبَعِثِ مِنْ تَرْبِهَا الْغَالِي
إِذَا اعْتَلَّ رَهْنُ الْمُحْبَسِينَ بِأَشْغَالٍ^{١٠}
تَلْقَى سَنَاها مُظْلَمًا كَاسِفَ الْبَالِ

من الناعماتِ الراوياتِ من الصُّبَا
نعاها لنا الناعي فمال على أب
طوى الغربَ نحو الشرقِ يعدو سُلَيْكُهُ
يُسِرُّ إِلَى النَّفْسِ الْأُسَى غَيْرَ هَامِسٍ
سَمَاءُ الْجَمَى بِالشَّاطِئِينَ وَأَرْضُهُ
تُرَى الرِّيحُ تَدْرِي مَا الَّذِي قَدْ أَعَادَهَا
يُقَلُّ مِنَ الْفَتِيَانِ أَشْبَالَ غَابَةِ
ثَنَّتُهُ الْعَوَادِي دُونَ «أَوْدِينَ» فَاثْنَى
قَدْ اعْتَنَقَا تَحْتَ الدُّخَانِ كَمَا التَّقَى
فَسَبْحَانَ مَنْ يَرْمِي الْحَدِيدَ وَبِأَسُهُ
وَمَنْ يَأْخُذُ السَّارِينَ بِالْفَجْرِ طَالِعًا
وَمَنْ يَجْعَلُ الْأَسْفَارَ لِلنَّاسِ هِمَّةً
فِيَا نَاقِلِيهِمْ لَوْ تَرَكْتُمْ رُفَاتَهُمْ
وَبَيْنَ «غَرِيْبَالَدِي» وَ«كَافُورٍ» مَضْجَعُ
فَهَلْ عَطَفْتَكُمْ رَنَّةَ الْأَهْلِ وَالْجَمَى
لَتَنَّ فَاتَ مَصْرًا أَنْ يَمُوتُوا بِأَرْضِهَا
وَمَا شَغَلْتَهُمْ عَنْ هَوَاهَا قِيَامَةً
حَمَلْتُمْ مِنَ الْغَرْبِ الشَّمُوسَ لِمَشْرِقٍ

^٤ سليك: رجل من العرب اشتهر بقوة الجري، ويُضرب به المثل في السرعة؛ أراد تشبيه الناعي به. مرقال: سريع.

^٥ دُهم: جمع أدهم، وهو الأسود. ذِيَال: طويل الذيل، والذيل من كل شيء آخره، ومن الفرس ذنبه.

^٦ كَمِيَّان: مثني كمي، وهو الشجاع المتكمي؛ أي المتغطي في سلاحه. النقع: الغبار.

^٧ الثنيات: قمم الجبال.

^٨ يريد باليتيم: اللؤلؤ. واللأل: بائع اللؤلؤ وصائدها وصانعها.

^٩ غريبالدي وكافور: بطلان من أبطال الحركة الاستقلالية في إيطاليا.

^{١٠} رهن المحبس: أول ما أُطلق هذا التعبير كان يُطلق على أبي العلاء المعري، والمحبسان هما العمى ولزومه البيت.

مَدَاها وَلَمْ تُوصَلْ ضُحَاها بِأَصَالِ
مَصَاحِفُ لَمْ يَعْلُ الْمُصَلِّي عَلَى التَّالِي^{١١}
كَتَابُوتِ مُوسَى فِي مَنَاكِبِ إِسْرَآلِ^{١٢}
هَلَالِيَّةٍ مِنْ رَايَةِ النِّيلِ تَمَثَالِ
فَلَمْ تُلَقْ إِلَّا فِي خُشُوعٍ وَإِجْلَالِ
إِلَى مَنْزِلٍ مِنْ جِيرَةِ الْحَقِّ مُحَلَالِ
وَهَزَّتْ بِهَا «حُلُوانٌ» أَعْطَافَ مُخْتَالِ^{١٣}
وَبَيْنَ ابْتِسَامِ الثَّغْرِ بِالْمَوَكِبِ الْحَالِي
عَلَى عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ ذِي الطُّولِ وَالنَّالِ^{١٤}
وَتَلَكِ الْمَنَايَا لَمْ يَكُنْ عَلَى بَالِ
وَإِنْ جَرَّ أَذْيَالُ الْحَدَاثَةِ وَالْخَالِ
وَلَكِنْ عَجِيبٌ عَيْشُهُ عَيْشَةُ السَّالِي
بِمُعْتَرِضٍ مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ مُغْتَالِ
إِلَى الْمَجْدِ تَرْكَبُ مَتْنٌ أَقْدَرِ جَوَّالِ
إِذَا الشَّيْبُ سَنَّ الْبَخْلَ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ
وَلَا تَذْكُرُوا الْأَقْدَارَ إِلَّا بِإِجْمَالِ
تَأْنُفٌ قَالِ أَوْ تَلَطُّفٌ مُحْتَالِ^{١٥}
وَلَيْسَ إِذَا الْأَعْلَامُ خَانَتْ بِخَذَالِ^{١٦}
وَصُولِ مَسَاعٍ لَا مَلُولٍ وَلَا آلِ^{١٧}

عَوَآثِرَ لَمْ تَبْلُغْ صِبَاها وَلَمْ تَنْلُ
يُطَافُ بِهِمْ نَعِشًا فَنَعِشًا كَأَنَّهُمْ
تَوَابِيْتُ فِي الْأَعْنَاقِ تَتَرَى زَكِيَّةً
مُلَفَّفَةً فِي حُلَّةٍ شَفَقِيَّةٍ
أَظْلَلْ جَلَالَ الْعِلْمِ وَالْمَوْتَ وَفَدَهَا
تُفَارِقُ دَارًا مِنْ غُرُورٍ وَبَاطِلِ
فِيَا حَلْبَةً رَفَّتْ عَلَى الْبَحْرِ حَلِيَّةٍ
جَرَتْ بَيْنَ إِيْمَاضِ الْعَوَاصِمِ بِالضُّحَى
كَثِيرَةً بَاغِي السَّبْقِ لَمْ يَزِ مِثْلُهَا
لَكَ اللَّهُ هَذَا الْخَطْبُ فِي الْوَهْمِ لَمْ يَقَعْ
بَلَى كُلُّ ذِي نَفْسٍ أَخُو الْمَوْتِ وَابْنُهُ
وَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ يَمُوتَ أَخُو الصَّبَا
وَكُلُّ شَبَابٍ أَوْ مَشِيْبٍ رَهِيْنَةُ
وَمَا الشَّيْبُ مِنْ خِيَلِ الْعُلَا فَارَكِبِ الصَّبَا
يَسُنُّ الشَّبَابُ الْبَآسَ وَالْجُودَ لِلْفَتَى
وَيَا نَشَأَ النِّيلِ الْكَرِيمِ عِزَاءَكُمْ
فَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ
عَلَيْكُمْ لَوَاءُ الْعِلْمِ فَالْفُوزُ تَحْتَهُ
إِذَا مَالٌ صَفٌّ فَاخْلَفُوهُ بِآخِرِ

^{١١} المصلي: هو الذي يجيء أول الخيل في السبق. التالي: هو الذي يجيء تاليًا له.

^{١٢} تابوت موسى: هو الذي وُضع فيه سيدنا موسى — عليه السلام — وألقي في البحر، فالتقطه آل فرعون وقاموا على تربيته حتى كبر. إسرائيل: أي إسرائيل.

^{١٣} الحلبة: الخيل التي تُجمع للسباق. حلوان: اسم الباخرة التي أقلت رفات الشهداء في عودتهم إلى مصر.

^{١٤} النال: العطاء. وفي هذا البيت إشارة إلى السباق الذي كان يقام في مدينة حلوان في عهد إسماعيل باشا.

^{١٥} قال: مبغض.

^{١٦} عليكم لواء العلم: أي الزموا أو التزموا.

^{١٧} آل: من قولهم: هو لا يألو جهداً.

ولا يَصْلُحُ الْفِتْيَانُ لَا عِلْمَ عَنْدَهُمْ
وليس لهم زادٌ إذا ما تزوّدوا
إذا جَزَعَ الْفِتْيَانُ فِي وَقْعِ حَادِثٍ
ولولا مَعَانٍ فِي الْفِدَى لَمْ تُعَانِهِ
فَعَنُّوا بِهَاتِيكَ الْمَصَارِعِ بَيْنَكُمْ
أَلَسْتُمْ بَنِي الْقَوْمِ الَّذِينَ تَكَبَّرُوا
رُدِدْتُمْ إِلَى فِرْعَوْنَ جَدًّا وَرُبَّمَا
ولا يَجْمَعُونَ الْأَمْرَ أَنْصَافَ جُهَّالٍ
بيانًا جُزَأَ الْكِيلَ كَالْحَشَفِ الْبَالِي^{١٨}
فَمَنْ لَجَلِيلِ الْأَمْرِ أَوْ مُعْضِلِ الْحَالِ
نُفُوسُ الْحَوَارِيِّينَ أَوْ مُهَيِّجِ الْآلِ^{١٩}
تَرْنَمَ أَبْطَالٍ بِأَيَّامِ أَبْطَالٍ
على الضرباتِ السَّبعِ فِي الْأَيْدِ الْخَالِي^{٢٠}
رَجَعْتُمْ لَعَمَّ فِي الْقَبَائِلِ أَوْ خَالٍ

^{١٨} الحشف البالي: التمر اليابس.

^{١٩} الحواريون: أصحاب عيسى. والآل: أصحاب محمد صلوات الله عليهما.

^{٢٠} الضربات السبع: يشير إلى نوازل سماوية امتحن الله بها قدماء المصريين. ويريد بالأبد: الزمن القديم المديد.

سعيد زغلول بك^١

آل «زغلول» حُسْبُكُمْ من عزاءٍ
في خِلالِ الخطوبِ ما راعٍ إلا
حَمَلَ الرُّزْءَ عنكمُ في «سعيدٍ»
قد دهاهُ من فَقْدِهِ ما دهاكم
فكما كان ذُخْرُكُمْ ومُنْاكُمْ
ليتَ من فكَّ أَسْرَكمُ لم يَكِلْهُ
حَبَّتْ من ربيعِهِ ما رَجَوْتُمْ
أَنَسَتْ صَحَّةً فَمَرَّتْ عليها
إنما من كِتَابِهِ يُتَوَفَّى الـ
لستَ تدري الجِمامُ بالغابِ هل حا
يا «سعيدُ» اتَّبُدْ وِرْفَقًا بشيخٍ
ما كفاه نوائِبُ الحَقِّ حتَّى
فجأ الدهرُ فاقتضِبْتُ القوافي

سُنَّةُ المَوْتِ في النَبِيِّ وَالِلهُ
أَنها دُونَ صَبْرِكُمْ وَجَمالِهِ
بلدٌ شَيْخُكُمْ أَبُو أَحْمالِهِ^٢
وبكى ما بَغَيْتُمْ من خِلالِهِ
كان من ذُخْرِهِ ومن آمالِهِ
للمنايا تَمُدُّهُ في اعتقالِهِ
وطَوَتْ رحلةَ العُلا من هلالِهِ
وتَخَطَّتْ شَبابَهُ لم تُبَالِهِ
مَرَّةً لا من شَبابِهِ واكتهاله
مَ على اللَّيْثِ أُم على أَشْبالِهِ
والِلهِ من لواعِجِ التُّكْلِ والهِ^٣
زِدَتْ في هَمِّهِ وفي أَشْغالِهِ
من فُجاءَتِهِ وخطْفِ ارتجالِهِ

^١ تَفَتَّحَ شَبابُ سَعِيدِ بَك زَغْلُولِ عَنِ رَجُولَةٍ مِمْتَازَةٍ، وَبَشَّرَ طالِعُهُ عَنِ طالِعِ عَظِيمٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكِدْ يُوْتِي ثَمَرَهُ حَتَّى اقْتَطَفَهُ المَوْتَ، فَقَضَى سَنَةَ ١٩٢٢م وَكَانَ خالَهُ سَعْدُ باشا زَغْلُولِ مَتَبْنِيًّا لَهُ.

^٢ شَيْخُكُمْ أَبُو أَحْمالِهِ: هُوَ الزَّعِيمُ سَعْدُ باشا. وَالْبَلَدُ: مِصْرُ.

^٣ الوالهِ: الَّذِي ذَهَبَ عَقْلُ أَوْ كادَ مِنْ شِدَّةِ الوَجْدِ.

قُمْ فَشَاهِدْ لَوْ اسْتَطَعْتَ قِيَامًا
 كَانَ لِي مِنْكَ فِي الْمَجَامِعِ رَاوٍ
 فِطْنٌ لِلصَّاحِجِ مِنْ لَوْلُؤِ الْقَوِ
 لَمْ يَكُنْ فِي غُلُوِّ ضَيْقِ الصَّدِّ
 لَا يُعَادِي وَيُتَّقَى أَنْ يُعَادِي
 فَاْمَضْ فِي ذِمَّةِ الشَّبَابِ نَقِيًّا
 إِنَّ لِلْعَصْرِ وَالْحَيَاةِ لَلْوُؤْمَا
 صَانَكَ اللَّهُ مِنْ فَسَادِ زَمَانٍ
 سَيَقُولُونَ مَا رَثَاهُ عَلَى الْفَضِّ
 أَيُّهُمْ مَنْ أَتَى بِرَأْسِ كُلِّبٍ
 لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ خَالِكَ إِلَّا
 أَتَمَّنَى لِمَصْرَ أَنْ يَجْرِيَ الْخَيْبِ
 لَسْتُ أَرْجُوهُ كَالرَّجَالِ لَصَيْدٍ
 كَيْفَ أَرْجُو «أَبَا سَعِيدٍ» لَشَيْءٍ
 هُوَ أَهْلٌ لِأَنْ يَرُدَّ لِقَوْمِي
 وَأَنَا الْمَرءُ لَمْ أَرِ الْحَقَّ إِلَّا
 رُبَّ حَرٍّ صَنَعْتُ فِيهِ ثَنَاءً

حَسْرَةَ الشُّعْرِ وَالتَّيَاغِ خِيَالَهُ
 عَجَزَ «ابْنُ الْحُسَيْنِ» عَنْ أَمْثَالِهِ
 لِ وَأَدْرَى بِهِنَّ مِنْ لِأَلِهِ
 رِ وَلَا كَانَ عَاجِزًا فِي اعْتِدَالِهِ
 وَيُخْلِي سَبِيلَ مَنْ لَمْ يُوَالِهِ
 طَاهِرًا مَا ثَنَيْتَ مِنْ أَذْيَالِهِ
 لَسْتُ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا مِنْ مَجَالِهِ
 دَنَسَ اللُّؤْمُ مِنْ ثِيَابِ رِجَالِهِ
 لِ وَلَكِنْ رَثَاهُ زُلْفَى لَخَالِهِ
 أَوْ شَفَى الْقُطْرَ مِنْ عِيَاءِ احْتِلَالِهِ
 أَنْنِي مَا حَيَّيْتُ فِي إِجْلَالِهِ
 رُ لَهَا مِنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ
 مِنْ حَرَامِ انْتِخَابِهِمْ أَوْ حَلَالِهِ
 كَانَ يُقْضَى بِكُفْرِهِ وَضَلَالِهِ
 أَمْرَهُمْ فِي حَقِيقَةِ اسْتِقْلَالِهِ
 كُنْتُ مِنْ حَزْبِهِ وَمِنْ عُمَالِهِ
 عَجَزَ النَّاحِتُونَ عَنْ تَمَثَالِهِ^٦

^٤ ابن الحسين: الشاعر المتنبي. وراوي الشعر وراويته: الذي يروي الشعر ويحفظه.

^٥ اللأل: صانع اللؤلؤ وبائعه.

^٦ يقول: إنني كثيرًا ما أصنع للأحرار قصائد ثناء، فتقوم في تصويرهم وتخليد أشكالهم ومزاياهم مقام التماثيل التي تُعجز المثاليين الناحتين أن يصنعوا مثالها.

أمين بك الرافي

مال أحببته خليلاً خليلاً
نصلوا أمس من غبار الليالي
سكنت منهم الركاب كأن لم
جردوا من منازل الأرض إلا
وتعروا إلى البلى فكساهم
في يباب من الثرى رده المو
وتولى اللدات إلا قليلا
ومضى وحده بحث الرحىلا^٢
تضطرب ساعة ولم تمض ميلا
حجرا دارسا ورملا مهىلا^٣
خشنة اللحد والدجى المسدولا
ت نقياً من الحقود غسىلا^٤

^١ أمين بك الرافي: كان كاتباً سياسياً عظيماً، وكان في الصحفيين السياسيين يعدُّ مثلاً عالياً، لطهارة الذمة ونبل الغاية ونزاهة الضمير، وله في تمسكه برأيه وصلابته على الحق الذي يعتقده مواقف تضحية، لا يصبر عليها إلا من وطن نفسه على احتمال جميع مكاره الحياة، وقد وقف حياته منذ نشأته على خدمة القضية المصرية، وظل مجاهداً في سبيل استقلال مصر حتى مات في سنة ١٩٢٦م.

^٢ نصلوا من غبار الليالي: تعبير كنائي عن الموت؛ إذ غبار الليالي عبارة عن أحداثها، وليس في إمكان الحي التنصل من هذه الأحداث إلا بالموت. يقول: إن أحببه وخلَّاه سبقوه وتنصلوا من الدنيا وحوادثها، وها هو ماضٍ على أثرهم مسرعاً ليلحق بهم، وينصل من بلاء الدنيا كما نصلوا.

^٣ يصف خروج الناس من الدنيا وليس في أيديهم من ممتلكاتها إلا الحجر الموضوع تحت رؤوسهم والتراب المهيل فوق قبورهم، فكأنه يقول: ليت شعري لم يتقاتل الناس، ويتكالبون على بناء القصور وشراء الضياع، وهم إذا ماتوا لا يصحبهم من هذه الممتلكات إلا حجر واحد وحفنة من تراب تداري جسومهم وتواري رممهم.

^٤ اليباب: الخراب. يقول: إن هذا اليباب الذي نسميه بالمقابر موضع نقاه الموت من الأكدار، وغسله من الأحقاد، فهو من أجل ذلك صار أزوح للأرواح عن المواضع الآهلة بالعمران.

طَرَحُوا عِنْدَهُ الْهَمُومَ وَقَالُوا
 إِنَّمَا الْعَالَمُ الَّذِي مِنْهُ جِئْنَا
 بَطْلُ الْمَوْتِ فِي الرِّوَايَةِ رَكْنُ
 كُلِّمَا رَاحَ أَوْ غَدَا الْمَوْتُ فِيهَا
 ذِكْرِيَّاتٌ مِنَ الْأَحِبَّةِ تُمَحَى
 كُلُّ رَسْمٍ مِنْ مَنْزِلٍ أَوْ حَبِيبٍ
 رَبُّ تَكْلِلُ أَسَاكَ مِنْ قُرْحَةِ التُّكُّ
 يَا بَنَاتِ الْقَرِيضِ قُفْنَ مَنَاحَا
 مِنْ بَنَاتِ الْهَدِيلِ أَنْتَنْ أَحْنَى
 إِنْ دَمْعًا تَذْرِفْنَ إِثْرَ رِفَاقِي
 رَبُّ يَوْمٍ يُنَاحُ فِيهِ عَلَيْنَا
 بِمَرَاثٍ كُتِبْنَ بِالْدمْعِ عَنَّا
 يَجِدُ الْقَائِلُونَ فِيهَا الْمَعَانِي
 أَخَذَ الْمَوْتُ مِنْ يَدِ الْحَقِّ سَيْفًا
 مِنْ سِيوْفِ الْجِهَادِ فُولَازَهُ الْحَقُّ
 لِمَسْتِهِ يَدُ السَّمَاءِ فَكَانَ الـ
 وَإِبَاءُ الرِّجَالِ أَمْضَى مِنَ السَّيْرِ
 رَبُّ قَلْبٍ أَصَارَهُ الْخُلُقُ ضُرْعَا
 قِيلَ حَلَّلَهُ قَلْتُ عِرْقُ مِنَ التَّبِّ
 لَمْ يَزِدْ فِي الْحَدِيدِ وَالنَّارِ إِلَّا
 لَمْ يَخَفْ فِي حَيَاتِهِ شَبَحَ الْفَقْرَ

إِنْ عِبَاءَ الْحَيَاةِ كَانَ ثَقِيلًا
 مَلْعَبٌ لَا يُنَوِّعُ التَّمَثِيلَا
 بُنِيَتْ مِنْهُ هَيْكَلًا وَفَصُولَا
 سَقَطَ السَّتْرُ بِالدَّمُوعِ بَلِيلَا
 بَيَدِ لِلزَّمَانِ تَمَحَوِ الطُّلُولَا
 سَوْفَ يَمْشِي الْبَلَى عَلَيْهِ مُحِيلَا
 لِرِ وَرُزْءٍ نَسَاكَ رُزْءًا جَلِيلَا
 تِ وَأَرْسَلْنَ لَوْعَةً وَعَوِيلَا
 نَغْمَةً فِي الْأَسَى وَأَشْجَى هَدِيلَا^٥
 سَوْفَ يَبْكِي بِهِ الْخَلِيلُ الْخَلِيلَا
 لَوْ نُحِسُ النُّوَاخَ وَالتَّرْتِيلَا
 أَسْطَرًّا مِنْ جَوَى وَأُخْرَى غَلِيلَا
 يَوْمَ لَا يَأْذُنُ الْبَلَى أَنْ نَقُولَا
 خَالِدِي الْغِرَارِ عَضْبًا صَقِيلَا^٦
 فَهَلْ كَانَ قَيْنُهُ جَبْرِيلَا^٧
 بَرَقَ وَالرَّعْدُ خَفَقَهُ وَصَلِيلَا
 فِ عَلَى كَفِّ فَارِسٍ مَسْلُولَا
 مَا وَصَدِرَ أَصَارَهُ الْحَقُّ غِيلَا^٨
 رِ أَرَاخَ الْبَيَانَ وَالتَّحْلِيلَا
 لَمَحَّةً حَرَّةً وَصَبْرًا جَمِيلَا
 رِ إِذَا طَافَ بِالرِّجَالِ مَهُولَا

^٥ الهديل: الحمام، وصوت الحمام، والهديل أيضًا: فرخ قالوا إنه كان على عهد نوح، فصاده جارج من جوارح الطير، فليس من حمامة إلا وهي تبكي عليه.

^٦ العضب: السيف. الغرار: حدُّ السيف. وقوله «خالدي»: نسبة إلى خالد بن الوليد. الصقيل: المصقول.

^٧ القين: هو الحداد الذي يصنع السيوف.

^٨ الضرغام: من أسماء الأسد. الغيل: موضع الأسد.

ما تُلاقِيه يومَ جُوعٍ هَزِيلًا
عت ولا تَأْكُلُ اللَّبَاءُ الشُّبُولَا
قد يَكُونُ الغُلُوُّ رَأْيَا أَصِيلَا
وقديماً بنى الغُلُوُّ عُقُولَا
في الشبابِ الطَّمَاخِ والتَّامِيلَا
أو يَكُونُ اتِّجَاهُهُ التَّضْلِيلَا
يُشْبِهُ البَغْيَ وَالْخَنَا وَالْفُضُولَا
افْعِيَّيْنَ وَالْعَفَافَ سَبِيلَا
عَلَّ شَتُونَ النُّفُوسِ قَالًا وَقِيلَا
أَيَقْظُوا النِّيلَ وَاذِيَا وَنَزِيلَا
فِ حُزُونًا وَكَالرَّقِيمِ سُهُولَا^٩
لم تَحْنُ مَصْرَ فِي الْحَقُوقِ فَتِيلَا
على نِيلِهَا الْمُبَارَكِ نِيلَا
كَ مُكِبًّا عَلَيْهِمَا مَشْغُولَا
كَ ضَنْئِيلَا وَمَا خُلِقَتْ ضَنْئِيلَا
سَاقٍ أَوْ سَائِلِ اللِّوَاءِ الظَّلِيلَا^{١٠}
وَمُغْنٌ قَعَدَتْ مِنْهُ رَسِيلَا
كَالْحَوَارِيِّ رَتَّلَ الْإِنْجِيلَا
تَزِنُ الصَّفَّ أَوْ تُقِيمُ الرَّعِيلَا^{١١}

جَاعَ حِينًا فَكَانَ كَاللَّيْثِ أَبِي
تَأْكُلُ الْهَرَّةُ الصَّغَارَ إِذَا جَا
قِيلَ غَالٍ فِي الرَّأْيِ قَلْتُ هَبُوهُ
وقديماً بنى الغُلُوُّ نَفُوسًا
وكم استنھض الشيوخَ وأذكى
ومن الرأْيِ مَا يَكُونُ نِفَاقًا
ومن النِّقَدِ وَالْجِدَالِ كَلَامٌ
وأرى الصَّدَقَ دَيْدَنًا لَسَلِيلِ الرَّ
عَاشَ لَمْ يَغْتَبِ الرِّجَالَ وَلَمْ يَجْ
قد فَقَدْنَا بِهِ بَقِيَّةَ رَهْطٍ
حَرَّكَوهُ وَكَانَ بِالْأَمْسِ كَالْكَهْ
يَا أَمِينَ الْحَقُوقِ أَدَيْتَ حَتَّى
وَلَوْ اسْطَعْتَ زِدْتَ مَصْرَ مِنَ الْحَقِّ
لَسْتُ أَنْسَاكَ قَابِعًا بَيْنَ دُرَجِي
قد تَوَارَيْتَ فِي الْخُشُوعِ فَخَالُو
سَائِلِ «الشَّعْبِ» عَنْكَ وَ«الْعَلَمِ» الْخَفَّ
كم إِمَامٌ قَرَّبَتْ فِي الصَّفِّ مِنْهُ
تُنَشِّدُ النَّاسُ فِي الْقَضِيَةِ لَحْنًا
مَاضِيًا فِي الْجِهَادِ لَمْ تَتَأَخَّرْ

^٩ الكهف: كالبيت المنقور في الجبل. الرقيم: يقال هو الكتاب؛ وإذن فيكون تشبيهه سهول النيل بالرقيم معناه أنها كانت وقتئذٍ مبسوطة خالية مهياة لأن يخط فوقها حروف الحياة الأولى، ولو سُئِلَ أحد الحكماء: ما هي الحروف الأولى للحياة؟ لأجاب على الفور: هي اليقظة. ولعمري إن ربة الحكمة إذن هي التي ألهمت أمير الشعراء قوله في البيت السابق: «أيقظوا النيل واديًا ونزيلة.» ففي تصويره الذهني لمعنى اليقظة سبق خياله إلى تشبيهه سهول وادي النيل بالرقيم.

^{١٠} الشعب والعلم واللواء: أسماء صحف كان الفقيه يحزرها مناضلاً فيها عن مبادئه.

^{١١} الرعيل: طائفة من الخيل. والمراد أنه كان في جيش المجاهدين في القضية المصرية يقوم الصفوف إذا مالت، ويرد الطوائف إذا نفرت.

الشوقيات

ما تُبالي مَضَيْتَ وَحَدَكَ تَحْمِي حَوْزَةَ الْحَقِّ أَمْ مَضَيْتَ قَبِيلَا
إِنْ يَفُتْ فِيكَ مِنْبَرُ الْأَمْسِ شِعْرِي إِنْ لِي الْمَنْبَرُ الَّذِي لَنْ يَزُولَا
جَلُّ عَنْ مُنْشِدٍ سِوَى الدَّهْرِ يُلْقِيهِ هِ عَلَى الْغَابِرِينَ جِيلًا فَجِيلَا

الشيخ سلامة حجازي^١

يا ثرى النيلِ في نَواحيك طيرٌ
لم يزلْ ينزلُ الخمائلَ حتى
أَقعدَ الرّوضَ في الحياةِ مَلِيًّا
يا لواءَ الغناءِ في دولةِ الفنِّ
عبقريًّا كأنه زَنبَقُ الخُلـ
أين من مِسمعِ الزمانِ أغانيُّ
أين صوتٌ كأنه رَنَّةُ البُلـ
فيه من نغمةِ المزاميرِ معنًى
كُلِّما رنَّ في المَسارحِ «إن كنـ

كان دنيا وكان فرحةَ جيلٍ
حلَّ في رَبوّةٍ على سَلَسبيلٍ
وأقلامَ الرُّبا بِسِحْرِ الهديلِ^٢
إليكِ اتجهتُ بالإكليلِ
بِـ على فَرعِهِ السَّرِيِّ الأَسيلِ^٣
عليهنَّ روعةُ التمثيلِ
بلِ في الناعمِ الوريثِ الظليلِ
وعليه قداسةُ الترتيلِ
تُ» انثنى بالهتافِ والتهليلِ^٤

^١ بلغ الشيخ سلامة حجازي أعلى قمم المجد في فن الغناء والتمثيل في عصره، وقد رؤي أن يُعترف له بهذا النبوغ اعترافاً عملياً، فتألفت جماعة من أهل الفضل واتَّفَقوا على نقل جثمانه إلى ضريح يتناسب وهذا التقدير، ورأوا من أفضل الوسائل لهذه الغاية أن يقيموا حفلة تذكارية تمجيداً لذكرى الفقيد، وتم لهم ذلك، وأقيمت الحفلة في شهر ديسمبر سنة ١٩٣١م، وأُنشِدت فيها هذه القصيدة العصماء.

^٢ الهديل: الصوت الحسن الذي يشبه صوت الحمام.

^٣ السري: الجدول.

^٤ إن كنت: يشير إلى أن الفقيد قد زاعت من أغانيه قصيدة مطلعها:

إن كنتُ في الجيش أدعى صاحب العلم فإنني في هواكم صاحب الألم

كِعْتَابِ الحَبِيبِ فِي أُذُنِ الصَّبِّ
 كَيْفَ إِخْوَانُنَا هُنَاكَ عَلَى الْكُو
 كَيْفَ فِي الْخُلْدِ ضَرْبُ أَحْمَدَ بِالْعُو
 فَرَحُ كُلِّهِ النِّعِيمُ وَعُزْسُ
 فَهْنِيئًا لَكُمْ وَنِعْمَةٌ بِالِ
 إِنَّمَا مَنْزِلُ رِفَاتِكُ فِيهِ
 ذُبُلْتُ فِي ثَرَاهُ رِيحَانَةُ الْفَنِّ
 قَامَ يَجْزِي «سَلَامَةً» فِي ثَرَاهُ
 قَدْ يُوقِي الْبِنَاءَ وَالْغَرْسَ أَجْرًا
 مُحْسِنٌ بِالْبَنِينَ فِي حَاضِرِ الْعَيْدِ
 وَيُعِدُّ الضَّرِيحَ مِنْ مَرَمَرِ الْخُلْدِ
 يَدْفِنُ الصَّالِحِينَ فِي وَرَقِ الْمُصَدِّ
 مَصْرُ فِي غَيْبَةِ الْمُشَايِعِ وَالْحَا
 قَامَتِ الْيَوْمَ حَوْلَ ذِكْرَاكَ تَجْزِي
 مِنْ رِجَالِ بَنَوا لِمَصْرٍ حَدِيثًا
 هُمْ سُقَاةُ الْقُلُوبِ بِالْوَدِّ وَالصَّفِّ
 لَيْسَ مِنْهُمْ إِلَّا فَتَى عِبْقَرِيٍّ

وَهَمْسِ النَّدِيمِ حَوْلَ الشَّمُولِ^٥
 ثَرِ بَيْنَ الصَّبَا وَبَيْنَ الْقَبُولِ^٦
 دِ وَنَفْحُ الْأَمِينِ فِي الْأَرْغُولِ^٧
 كَيْفَ «عَثْمَانُ» فِيهِ كَيْفَ «الْحَمُولِي»^٨
 اسْتَرَحْتُمْ مِنْ ظِلِّ كُلِّ ثَقِيلِ
 لَبَقَايَا مِنْ كُلِّ فَنٍّ جَمِيلِ
 وَجَفَّتْ رِيحَانَةُ التَّمَثِيلِ
 وَطُنُّ بِالْجِزَاءِ غَيْرُ بَخِيلِ
 وَيُكَافِي عَلَى الصَّنِيعِ الْجَلِيلِ
 شِ فِي سَالِفِ الزَّمَانِ الطَوِيلِ
 دِ الْكَرِيمِ الْمَهْدَبِ الْمَصْقُولِ^٩
 حَفِ أَوْ فِي صَحَائِفِ الْإِنْجِيلِ
 سِدِ وَالْحَاقِدِ اللَّئِيمِ الذَّلِيلِ
 وَطَنِيًّا مِنَ الطَّرَازِ الْقَلِيلِ
 وَأَذَاعُوا مَحَاسِنًا لِلنَّيْلِ
 وَ هُمْ تَارَةً سُقَاةُ الْعُقُولِ
 لَيْسَ فِي الْمَجْدِ بِالْدَّعِيِّ الدَّخِيلِ

^٥ الشمول: الخمر.

^٦ الصبا: ريح مهبها من جهة المشرق، وهي من ألطف الرياح.

^٧ أحمد: اسم أحد المعاصرين، اشتهر بضرب العود. وأمين: معاصر آخر اشتهر بالأرغول.

^٨ عثمان: هو محمد عثمان، وكان من المغنّين الكبار. والهامولي: هو عبده الهامولي.

^٩ الضريح: هو البناء الذي اتفقت لجنة إحياء ذكرى الفقيد على صنعه من المرمر المصقول ليُدفن فيه جثمان الفقيد تكريمًا له.

أدهم باشا^١

وأعظمُ منه حيرةُ الشعرِ في فَمِي
وأسكتُ والأنباءُ تَتَرى بِمُؤْلِمِ
فَمَنْ لِي بِغَالٍ فِي الرِّثَاءِ مُنْظَمِ
بكى التُّرْكُ واليُونَانُ بالدمعِ والدمِ
وكم من جَبَانٍ فِي اللَّدَاتِ مُذَمَّمِ
وقد فَتَكَتْ دُهُمُ المَنَايَا بِأدهمِ^٢
وما السَّهْمُ إِلَّا للقضاءِ المُحْتَمِ
وكان فَتَى الفِتْيَانِ فِي مَسكِ ضَيْغَمِ^٣
وما خُلِقَ الإِقْبَالُ إِلَّا لِمُقْدِمِ
وقائدُ جَرَّارٍ وَمُزَجِي عَرَمَرَمِ^٤
وفي ذِرْوَتَيْهِ من نُسُورٍ وأعْظَمِ
وَزُلْزِلَ فِي إِيْمَانِهِ كُلُّ مُسْلِمِ

مُصَابُ بَنِي الدُّنْيَا عَظِيمٌ بـ «أدهم»
أَنطَقُ والأنباءُ تَتَرى بِطَيِّبِ
أَتَيْتُ بِغَالٍ فِي الثَّنَاءِ مُنْضِدِ
عسى الشعرُ أَنْ يَجْزِي جَرِيئًا لِفَقْدِهِ
وكم من شُجَاعٍ فِي العِدَاةِ مُكْرَمِ
وهل نافعُ جَرِيٍّ القَوَافِي لَغَايَةِ
رَمَتْ فَأَصَابَتْ خَيْرَ رَامٍ بِهَا العِدَا
فَتَى كَانَ سَيْفُ الهِنْدِ فِي صُورَةِ امْرِئِ
لَحَاهُ عَلَى الإِقْدَامِ حُسَّادُ مَجْدِهِ
مُزْعَزَعُ أَجْيَالٍ وَغَاشِي مَعَاقِلِ
سَلُّوا عَنْهُ «مِيلُونَا» وَمَا فِي شِعَابِهِ
لِيَالِي بَاتَ الدِّينُ فِي غَيْرِ قَبْضَةٍ

^١ أدهم باشا: هو القائد التركي الذي اشتهر في الحروب العثمانية اليونانية.

^٢ دُهُمُ المَنَايَا: أي سود المَنَايَا.

^٣ المسك (بفتح الميم): الجلد. والضَيْغَم: الأسد.

^٤ العَرَمَرَم: الجيش الكبير.

وَهَمَّتْ ظَنُونٌ بِالتُّرَاثِ الْمُقَسَّمِ °
 مِنَ النِّصْرِ فِي دَاخٍ مِنَ الشُّكِّ مُظْلِمٍ
 وَكُنَّا حَدِيثَ الشَّامِتِ الْمُتَرَحِّمِ
 وَمَنْ يُقْرِضِ التَّارِيخَ يَرْبُخُ وَيَغْنَمِ
 سِوَا دَا وَقَدْ غَضَّ الْوَرُودُ بَزْمَزِمَ
 إِلَى كُلِّ رَامٍ بِالْجِمَارِ وَمُحْرَمِ
 فَكُمُ قَدْ تَلَوْتُمْ مَدَحَهُ بِالتَّرْنَمِ
 تَنَحَّتْ إِلَى أَنْ يَعْزَرَ الْفَارَسُ الْكَمِي
 يُعَمَّرُ وَإِنْ لَاقَى الْحُرُوبَ وَيَسْلَمِ
 دَهَاهُ بَبَابِ الدَّارِ سَيْفُ ابْنِ مُلْجَمِ
 وَقُومِي إِلَى نَعِشِ الْفَقِيدِ الْمَعْظَمِ
 فَخَفَّتْ لَهُ بَيْنَ الْبُكَى وَالتَّبَسُّمِ
 وَقَبْرًا بِجَنْبِ الْفَاتِحِ الْمَتَقَدِّمِ
 فَتُوبِي إِلَيْهِ فِي الْمَمَاتِ بِمَأْتَمِ
 وَقَدْ كَانَ فِيهِ الْمَلِكُ إِنْ رِيحٍ يَحْتَمِي
 أَحَطَّتُمْ بِتَارِيخٍ فَصِيحِ التَّكْلُمِ
 وَأَثْبَتُ قَلْبًا مِنْ رِوَاسِي الْمَقْطَمِ
 مِثَالُ لِبَاغِي قُدُودِ مُتَعَلِّمِ
 وَيَا أَرْضُ صُؤْنِيهِ وَيَا رَبِّي أَرْحَمِ

وَقَالَ أَنَاسُ آخَرُ الْعَهْدِ بِالْمَلَا
 فَأُطْلِعَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُلِكِ كُوكِبًا
 وَرُحْنَا نُبَاهِي الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ عِزَّةً
 مَفَاخِرُ لِلتَّارِيخِ تُحْصَى لِأَدْهَمِ
 أَلَا أَيُّهَا السَّاعُونَ هَلْ لَيْسَ الصِّفَا
 وَهَلْ أَقْبَلَ الرُّكْبَانُ يَنْعَوْنَ «خَالِدًا»
 وَهَلْ مَسْجِدٌ تَتَلَوْنَ فِيهِ رِثَاءَهُ
 وَكَانَ إِذَا خَاضَ الْأَسِنَّةَ وَالظُّبَا
 وَمَنْ يُعْطَى فِي هَذَا الدَّنِيَّةِ فُسْحَةٌ
 «عَلِيٌّ» أَبُو الزَّهْرَاءِ دَاهِيَةُ الْوَغَى
 «فَرُوقٌ» اضْحَكِي وَابْكِي فَخَارًا وَلَوْعَةً
 كَأَنَّ شَهِيدٍ قَدْ أَتَاهَا نَعِيُّهُ
 وَخُطِّي لَهُ بَيْنَ السُّلَاطِينِ مَضْجَعًا
 بَخِلَتْ عَلَيْهِ فِي الْحَيَاةِ بِمُوكِبِ
 وَيَا دَاءُ مَا أَنْصَفْتَ إِذْ رُعْتَ صَدْرَهُ
 وَيَا أَيُّهَا الْمَاشُونَ حَوْلَ سَرِيرِهِ
 وَيَا مَصْرُ مِنْ شَيِّعَتِ أَعْلَى هِمَامَةٍ
 وَيَا قَوْمُ هَذَا مَنْ يُقَامُ لِمِثْلِهِ
 وَيَا بَحْرُ تَدْرِي قَدَرَ مَنْ أَنْتَ حَامِلُ

° الملأ: الجماعة، ويريد بها الدولة العثمانية. والتراث المقسَّم: البلاد التابعة للدولة في ذلك الوقت.

عثمان باشا الغازي^١

كيف حامت جِيالُها الأيَّامُ
م وقد كُنْتَ في الوغى لا تُرامُ
صَعَّبَتْه لأهلِها الأَحلامُ
والخطوبُ المُروِّعاتُ جِسامُ
والسرايا تدعوه والأعلامُ
دُ وهم قادةُ الجنودِ العِظامُ
رُبَّ فردٍ سادت به أقوامُ
ورثاك الوليُّ والأخصامُ
تَ وأهوى من راحتِهِ الحُسامُ
فادحُ رائحٍ جليلُ جُسامُ
وقليلُ أمثاله الأعلامُ
وَلَوْ أَنَّ المُحاصِرِينَ الأنامُ
أين من هامةِ السِّماكِ الخِيامُ
عزْمُكَ الشُّهْبُ والجنودُ الظلامُ
قطَعَ السيفُ رأيكَ الصِّمصامُ

هالةٌ للهِلالِ فيها اعتصامُ
دخلتُها عليكِ «عثمانُ» في السِّلِ
وإذا الداءُ كان داءَ المنايا
فبِرغمِ «المُشيرِ» أن يتولَّى
ويدُ الملكِ تستجيرُ يَدِيهِ
وبَنُوهُ يرجونه وهُمُ الجُنْدُ
مَثَلَتْهُمْ صِفَاتُهُ للبرايا
بطلَ الشرقِ قد بَكَتْ المعالي
خَذَلَ الملكَ زنده يومِ أَوْدَيْ
ودهى الدينَ والخلافةَ أمرُ
عَلِمُ العصرِ والممالكِ ولَّى
سَلَّ «بلغنا» أَكُنْتَ تُدْرِكُ فيها
خَيْمَ الروسِ حولَ جِصْنِكَ لكن
وأحاطت بعزمِكَ الجندُ لكن
كُلَّمَا جَرَدَ «المُحاصِرُ» سيفًا

^١ هو قائدٌ تركي كبير، اشتهر في الحروب العثمانية الروسية.

وإذا كانت العقولُ كبارًا
وعجيبٌ لا يأخذُ السيفُ منكم
فخرجتُم إلى العدا لم تُبالوا
تخرقون الجيوشَ جيشًا فجيشًا
والمنايا مُحيطَةٌ وحصونُ الرُّ
ولنارِ العدوِّ فيكم قُعودٌ
جُرِحَ الليثُ يومَ ذاك فخان الـ
ما دفعتِ الحُسامَ عجزًا ولكن
فأعادوه خيرَ شيءٍ أعادوا
فتقلَّدته وكنْتَ خليفًا
ما لها عودَةٌ ولا لك ردٌّ
إنما الملكُ صارمٌ ويراعُ
ونظامُ الأمورِ عقلٌ وعدلٌ
وعجيبٌ خلقت للحربَ ليثًا
فهو في رأيك القويمِ حلالٌ
لك سيفٌ إلى اليتامى بغيضٌ
مُستبدٌ على قويٍّ حليمٌ

سَلِمَتْ فِي الْمَضَائِقِ الْجَسَامِ
وَيُنَالُ الطَّوَى وَيُعْطَى الْأَوَامُ
مَا لِأُسْدٍ عَلَى سُغُوبٍ مُقَامُ
مِثْلَمَا يَخْرُقُ الْخَوَاءُ الْغَمَامُ
وَسَ تَحْمِي الطَّرِيقَ وَالْأَلْغَامُ
وَلِسَيْفِ الْعَدُوِّ فِيكُمْ قِيَامُ
جَيْشٌ قَلْبٌ وَزُلْزِلَتْ أَقْدَامُ
عَجَزَتْ ضَيِّغَمَ الْحُرُوبِ الْكِلَامُ
وَكَذَا يَعْرِفُ الْكَرَامُ الْكَرَامُ
سَلَبَتْنَا كَلِيكَمَا الْأَيَّامُ
نِمْتَ عَنْهَا وَمَنْ تَرَكْتَ نِيَامُ
فَإِذَا فَارَقَاهُ سَادَ الطَّغَامُ
فَإِذَا وَلَّيَا تَوَلَّى النِّظَامُ
وَسَجَايَاكَ كُلُّهُنَّ سَلَامُ
وَهِيَ فِي قَلْبِكَ الرَّحِيمِ حَرَامُ
وَحَنَانٌ يُجِبُّهُ الْأَيْتَامُ
عَنْ ضَعِيفٍ وَهَكَذَا الْإِسْلَامُ

بطرس باشا غالي^١

الْجِلْمُ وَالْمَعْرُوفُ فَيْكَ أَقَامَا
عَامًا وَسَوْفَ تُغَيَّبَ الْأَعْوَامَا
فِي ظِلِّهَا صَلَّى الْمُطِيفُ وَصَامَا
يَقْضُونَ حَقًّا وَاجِبًا وَذِمَامَا
كَالْأَرْضِ تَنْشُدُ فِي السَّمَاءِ غَمَامَا
وَالْأَزْيَحِيِّ الْمُفْضِلِ الْمِقْدَامَا
نَادِيكَ فِي عِزِّ الْحَيَاةِ زَحَامَا
لَوْ كَانَ ذَلِكَ مَحْشَرًا وَقِيَامَا
وَأَخَذْتَ مِنْ نِعَمِ الْحَيَاةِ جِسَامَا
وَعِزَاءُ أَرْمَلَةٍ وَحُزْنُ يَتَامَى
يَزِنُ الرِّجَالَ وَيَنْطُقُ الْأَحْكَامَا
وَيُؤَيِّدُ حَمْدًا أَوْ يُؤَيِّدُ دَامَا
أَعْلِمْتَ حَيًّا غَيْرَ رَفِيدِكَ دَامَا
جَعَلَ الْبَقَاءَ لِوَجْهِهِ إِكْرَامَا

قَبَرَ الْوَزِيرِ تَحِيَّةً وَسَلَامَا
وَمَحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ فَيْكَ تَغَيَّبَتْ
قَدْ كُنْتَ صَوْمَعَةً فَصِرْتَ كَنِيْسَةً
الْقَوْمُ حَوْلَكَ يَا ابْنَ «غَالِي» خُشَّعُ
يَسْعَوْنَ بِالْأَبْصَارِ نَحْوَ سَرِيرِهِ
يَبْكُونَ مَوْتَهُمْ وَكَهْفَ رَجَائِهِمْ
مُتَسَابِقِينَ إِلَى ثَرَاكَ كَأَنَّهُمْ
وَدُّوا غَدَاةً نُقِلَتْ بَيْنَ غَيُونِهِمْ
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الرِّيَاسَاتِ الْعُلَا
الْيَوْمَ يُغْنِي عَنْكَ لَوْعَةُ بَائِسِ
وَالرَّأْيُ لِلتَّارِيخِ فَيْكَ فَفِي غَدِ
يَقْضِي عَلَيْهِمْ فِي الْبَرِيَّةِ أَوْ لَهُمْ
أَنْتَ الْحَكِيمُ فَلَا تَرْعَكَ مَنِيَّةُ
إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْحَيَاةَ وَضَدَّهَا

^١ بطرس باشا غالي: كان رئيس الوزارة المصرية في أيام حكم الخديو عباس الثاني، وقد اغتاله إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠م لأسباب سياسية.

قد عِشْتَ تُحَدِّثُ لِلنَّصَارَى أُلْفَةً
 وَالْيَوْمَ فَوْقَ مَشِيدِ قَبْرِكَ مَيِّتًا
 الْحَقُّ أَبْلَجُ كَالصَّبَاحِ لِنَاضِرِ
 أَعْهَدْتَنَا وَالْقَبْطَ إِلَّا أُمَّةً
 نُعَلِّي تَعَالِيمَ الْمَسِيحِ لِأَجْلِهِمْ
 الدَّيْنُ لِلدَّيَّانِ جَلٌّ جَلَالُهُ
 يَا قَوْمُ بَانَ الرَّشْدُ فَاقْصُوا مَا جَرَى
 هَذَا رُبُوعَكُمْ وَتِلْكَ رُبُوعُنَا
 هَذَا قُبُورُكُمْ وَتِلْكَ قُبُورُنَا
 فَبُحْرَمَةِ الْمَوْتَى وَوَاجِبِ حَقِّهِمْ
 وَتُجِدُّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَثَامَا
 وَجَدَ الْمُؤَفَّقُ لِلْمَقَالِ مَقَامَا
 لَوْ أَنَّ قَوْمًا حَكَّمُوا الْأَحْلَامَا
 لِلأَرْضِ وَاحِدَةً تَرُومُ مَرَامَا
 وَيُوقِرُونَ لِأَجْلِنَا الْإِسْلَامَا
 لَوْ شَاءَ رَبُّكَ وَحَدَّ الْأَقْوَامَا
 وَخُذُوا الْحَقِيقَةَ وَانْبِذُوا الْأَوْهَامَا
 مُتَقَابِلِينَ نُعَالِجُ الْأَيَامَا
 مُتَجَاوِرِينَ جَمَاعِمَا وَعِظَامَا
 عِشُوا كَمَا يَقْضِي الْجَوَارُ كِرَامَا

بيكي والدته^١

إلى الله أشكو من عوادي النوى سَهما
من الهاتكاتِ القلبِ أَوَّلَ وهلةٍ
توارَدَ والنَّاعِي فأوجستُ رَنَّةً
فما هَتَفَا حتى نَزَا الجنبُ وانزوى
طوى الشرقَ نحوَ الغربِ والماءَ للثرى
أَبَانٌ ولم يَنْبِسْ وأدَّى ولم يَفُهِ
أصابَ سُويداءَ الفؤادِ وما أَصَمَى^٢
وما دخلتُ لحماً ولا لامستُ عَظماً
كلَّما على سمعي وفي كِبدي كُلَّما^٣
فيا وَيْحَ جَنبي كم يسيلُ؟ وكم يَدَمَى؟
إِلَيَّ ولم يَرْكَبْ بِساطاً ولا يَمَّا^٤
وأُذمَى وما داوى وأوْهَى وما رَمَّا

^١ نظم أمير الشعراء هذه المراثية الرائعة على إثر إعلان الهدنة وهو في منفاه في الأندلس سنة ١٩١٨م؛ إذ كان يعمل النفس بالعودة إلى الوطن العزيز ولقاء آله، وفي مقدمتهم والدته الحبيبة، ولكنه ما كان يتحدث إلى نفسه بهذا الأمل المرموق، حتى وافاه البرق بنعيها، فأثّر هذا المصاب الجسيم في نفسه تأثيراً بالغاً، ولم تمض ساعة حتى كتب هذه المراثية، وقد قيل إنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها بعد، فبقيت مستورة ضمن أوراقه الخاصة، حتى نُشِرت في الصحف غداة وفاته رحمه الله.

^٢ عوادي النوى: عوائقه. وقوله «أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى»: أي أصاب صميم القلب ولم يقتل. ^٣ الكُلم (بفتح الكاف): الجرح.

^٤ نزا الجنب: يريد نزا القلب، ويقال نزا الطائر، إذا همَّ بالطيران.

^٥ بساطاً ولا يَمَّا: أي لم يركب طيارة تسير في الهواء كما سار بساط الريح بسليمان عليه السلام، ولم يركب باخرة تسير على اليمِّ؛ أي البحر.

إِذَا طَوَيْتَ بِالشُّهْبِ والدُّهْمِ شُقَّةً
ولم أرَ كالأحداثِ سَهْمًا إِذَا جَرَّتْ
ولم أرَ حُكْمًا كالمقاديرِ نافذًا
إِلَى حَيْثُ أَبَاءُ الْفَتَى يَذْهَبُ الْفَتَى
وما الْعَيْشُ إِلَّا الْجِسْمُ فِي ظِلِّ رُوحِهِ
ولا خُلِدَ حَتَّى تَمَلَأَ الدَّهْرُ حِكْمَةً
طَوَى الشُّهْبَ أَوْ جَابَ الْغُدَافِيَّةَ الدُّهْمَا^٦
ولا كَاللِّيَالِي رَامِيًا يُبْعِدُ الْمَرْمَى
ولا كَلِقَاءِ الْمَوْتِ مِنْ بَيْنِهَا حَتْمًا
سَبِيلُ يَدِينُ الْعَالَمُونَ بِهَا قَدَمًا
ولا الْمَوْتَ إِلَّا الرُّوحُ فَارَقَتْ الْجِسْمَا
عَلَى نُزْلَاءِ الدَّهْرِ بَعْدَكَ أَوْ عِلْمًا

* * *

زَجَرْتُ تَصَارِيفَ الزَّمَانِ فَمَا يَقَعُ
وَقَدَّرْتُ لـ «النَّعْمَانِ» يَوْمًا وَضُدَّهُ
شَرِبْتُ الْأَسَى مَصْرُوفَةً لَوْ تَعَرَّضْتُ
فَأَتَرَعُ وَنَاوِلُ يَا زَمَانُ فَإِنَّمَا
قَتَلْتُكَ حَتَّى مَا أُبَالِي أَدْرَتْ لِي
لِكَ اللَّهِ مِنْ مَطْعُونَةٍ بَقْنَا النَّوَى
مُدْلَهَةٌ أَزْكَى مِنَ النَّارِ زَفَرَةٌ
سَقَاهَا بِشِيرِي وَهِيَ تَبْكِي صَبَابَةً
أَسَتْ جُرْحَهَا الْأَنْبَاءُ غَيْرَ رَفِيقَةٍ
لِي الْيَوْمَ مِنْهَا كَانَ بِالْأَمْسِ لِي وَهْمًا^٧
فَمَا اغْتَرَبْتُ الْبُؤْسَى وَلَا غَرَّتْ النُّعْمَى^٨
بَأَنْفَاسِهَا بِالْفَمِّ لَمْ يَسْتَفِقْ غَمًّا
نَدِيمُكَ «سُقْرَاطُ» الَّذِي ابْتَدَعَ السُّمًّا^٩
بِكَأْسِكَ نَجْمًا أَمْ أَدْرَتْ بِهَا رَجْمًا
شَهِيدَةَ حَرْبٍ لَمْ تُقَارِفْ لَهَا إِثْمًا
وَأَنْزَرَهُ مِنْ دَمْعِ الْحَيَا عِبْرَةً سَحْمًا^{١٠}
فَلَمْ يَقَوْ مَغْنَاهَا عَلَى صَوْبِهِ رَسْمًا^{١١}
وَكَمْ نَازِعَ سَهْمًا فَكَانَ هُوَ السَّهْمَا

^٦ الشهب: البيض. الدهم: السود. وجاب: قطع. والغدافية: السوداء. ويقصد بالشهب وبالدهم: الخيل البيضاء والسوداء، أو النهار والليل، كأنه يتعجب من سرعة هذا النعي في وصوله إليه.

^٧ الزجر: العيافة والتكهن. يقول: إنه كان متكهنًا بما صنعه الزمن معه، وكان متوقعًا له.

^٨ كان للنعمان بن المنذر يوم بؤس لا يفد فيه عليه أحد إلا قتله، ويوم نعمي لا يسأل فيه إلا أعطى، ولهذين اليومين حوادث سارت من أجلها أمثال كثيرة للعرب، ويرجع في هذا إلى الكتب الأدبية المطولة من شاء.

^٩ سقراط: إمام الفلاسفة المتقشفين، حُكِمَ عليه بالإعدام فشرِب السمَّ بيده، ولم يرض أن يفرَّ مع أصحابه الذين عزموا عليه بالفرار.

^{١٠} العبرة السحما: أي السوداء، ولا يكون هذا إلا من أثر الحزن العميق.

^{١١} الرسم: هو هنا مصدر رسم المطر الديار، إذا عفاها وأبقى أثرها لاحقًا بالأرض.

لِما قَبَّلَتْ مِنْهَا وما ضَمَّتِ الحُمَى
إِذا هِيَ سَمَّاهَا بِذِي الأَرْضِ مَنْ سَمَّى
فَلَمَّا وَقُوا الأَسْوَاءَ لَمْ تَرَهَا ذَمًّا
إِذا أَقْصَرَ البَدْرُ التَّمَامُ مَضَوْا قُدُماً
عَدُوٌّ تَراهُمْ فِي مَعاطِسِهِ رَغْماً
وَلَا يُشْبِعُوا الرِّكَنَ اسْتِلامًا وَلَا لَثْماً
وَأُولِيَتْ جُثْمَانِي مِنَ المِنَّةِ العُظْمَى
تَلِيدَ الخِلالِ الكُثْرِ والطَّارِفِ الجَمًّا^{١٢}
مِنَ الصَّلَواتِ الحَمِيسِ والآيِ والأَسْماءِ
وَلَا رُمْتُ هَذا الثَّكَلُ لِلنَّاسِ وَالْيَتِما
فَكيفَ رِضائي أَنْ يَريَ البَشْرُ الظُّلْما
كَأَنَّ ثَمارَ القَلْبِ مِنْ وَلَدِي ثَمًّا
أَريَ النَّاسَ صَنفَيْنِ الذَّنابِ أَوِ البَهْمَا^{١٣}
وَلَا العَدْلُ إِلَّا حائِطٌ يَعْصِمُ الحُكْما

تَغَارُ عَلَى الحُمَى الفُضائِلُ والعُلا
أَكَانَتْ تَمَنَّاها وَتَهَوَّى لِقاءَها
أَلَمَّتْ عَلَيْها وَاتَّقَتْ ثَمراتِها
فَيا حَسْرَتاً أَلَّا تَراهُمْ أَهْلَةً
رِياحِينُ فِي أَنْفِ الوَلِيِّ وَمَا لَها
وَأَلَّا يَطُوفُوا خُشْعًا حَوْلَ نَعِيشِها
حَلَفْتُ بِما أَسْلَفْتُ فِي المَهْدى مِنْ يَدِ
وَقَبْرِ مَنُوطٍ بِالْجِلالِ مُقْلَدِ
وَبالْغادِياتِ السَّاقِياتِ نَزِيلُهُ
لَمَّا كانَ لِي فِي الحَرْبِ رَأْيٌ وَلَا هَوَى
وَلَمْ يَكُ ظَلَمُ الطَّيْرِ بِالرَّقِّ لِي رِضا
وَلَمْ أَلْ شُبَّانَ البَرِّيَّةِ رِقَّةً
وَكُنْتُ عَلَى نَهْجٍ مِنَ الرِّأْيِ واضِحِ
وَمَا الحُكْمُ إِلَّا فِي أُولِي البَأْسِ دَوْلَةً

* * *

فَما وَجَدَتْ نَفْسي لَأَنهارِها طَعْما
وَإِنْ لَمْ أَرُحْ «مَرْوانَ» فِيها وَلَا «لَخْما»^{١٤}
بَكَيْتُ النَّدَى فِي الأَرْضِ والبَأْسِ والحَزْما
أَخالُ القُصُورِ الزُّهْرَ والغُرْفَ الشُّمًّا
وَلَا أَنْتِ فِي ذِي الدَّارِ زائِلَتِ لِي وَهُما
فَجُنْحا إِلَى سَعْدِي وَجُنْحا إِلَى سَلْمِي^{١٥}
وَأَبْصَرَ فِيهِ ذُو البَصِيرَةِ والأَعْمَى

نَزَلْتُ رُبَّا الدُّنْيا وَجَنَّاتِ عَدْنِها
أُرِيحُ أُرِيحُ المِسْكِ فِي عَرْصاتِها
إِذا ضَحِكتُ زَهْواً إِلَيَّ سَماؤُها
أُطِيفُ بِرَسَمٍ أَوْ أَلْمُ بِدِمْنَةٍ
فَما بَرَحْتُ مِنْ خَاطِرِي «مَصْرُ» ساعَةً
إِذا جَنَنْتِ اللَّيْلُ اهِتَزَزْتُ إِلَيْكما
فَلَمَّا بَدَأَ لِلنَّاسِ صُبْحُ مِنَ المُنَى

^{١٢} التليد: القديم. الطارف: الجديد.

^{١٣} البهم (بفتح الباء): صغار الغنم.

^{١٤} مروان ولخم: قبيلتان عريبتان، وهما من القبائل التي تولت السيادة في بلاد الأندلس زمناً.

^{١٥} الجنح (بضم الجيم وكسرهما): طائفة من الليل.

وَقَرَّتْ سَيْوْفُ الْهِنْدِ وَارْتَكَزَ الْقَنَا
وَحَنَّتْ نَوَاقِيسُ وَرْنَتْ مَآذُنُ
أَتَى الدَّهْرُ مِنْ دُونِ الْهِنَاءِ وَلَمْ يَزَلْ
إِذَا جَالَ فِي الْأَعْيَادِ حَلَّ نِظَامِهَا
لَئِنْ فَاتَ مَا أَمْلَيْتَهُ مِنْ مَوَاقِبِ
رَثَيْتُ بِهِ ذَاتَ التَّقَى وَنَظَّمْتُهُ
نَمَتِكَ مَنَاجِيبُ الْعُلَا وَنَمَيْتِهَا
وَكُنْتُ إِذَا هَذَا السَّمَاءُ تَخَايَلْتُ
أَتَيْتُ بِهِ لَمْ يَنْظِمِ الشُّعْرَ مِثْلُهُ
وَلَوْ نَهَضَتْ عَنْهُ السَّمَاءُ وَمَخَضَتْ
وَأَقْلَعَتْ الْبَلَوَى وَأَقْشَعَتْ الْغُمَى
وَرَفَّتْ وَجْهُ الْأَرْضِ تَسْتَقْبِلُ السَّلْمَى
وَلَوْعًا بِبُنْيَانِ الرِّجَاءِ إِذَا تَمَّ
أَوْ الْعُرْسِ أَبْلَى فِي مَعَالِمِهِ هَذَا
فَدُونِكَ هَذَا الْحَشْدَ وَالْمَوَكِبَ الضَّخْمَا
لِعَنْصَرِهِ الْأَزْكَى وَجَوْهَرِهِ الْأَسْمَى
فَلَمْ تُلَحِّقِي بِنْتًا وَلَمْ تُسَبِّقِي أُمَّا
تَوَاضَعْتَ لَكِنْ بَعْدَمَا فَتَّهَا نَجْمَا
وَجِئْتُ لِأَخْلَاقِ الْكَرَامِ بِهِ نَظْمَا
بِهِ الْأَرْضُ كَانَ الْمُزْنَ وَالتَّبَرَّ وَالْكَرْمَا^{١٦}

^{١٦} يريد أنه يُشْبِهُ الْمُزْنَ فِي الْكَرْمِ، وَالتَّبَرَّ فِي الْعَرَقِ وَالنَّفَاسَةِ، وَالْخَمْرُ فِي السُّكْرِ الَّذِي يَسْكُرُ النَّاسَ بِهِ مِنْ شَعْرِهِ.

الملك حسين^١

لك في الأرض والسماء مآتم قام فيها أبو الملائك هاشم^٢
قعد الأمل للعزاء وقامت باكيات على الحسين الفواطم^٣

* * *

يا أبا العلية البهاليل سل آ بآءك الزهر هل من الموت عاصم^٤
المنايا نوازل الشعر الأب يرض جارات كل أسود فاحم^٥
ما الليالي إلا قصار ولا الدن يا سوى ما رأيت أحلام نائم
انحسار الشفاه عن سن جذلا ن وراء الكرى إلى سن نادم
سنة أفرحت وأخرى أساءت لم يدم في النعيم والكرب حالم

^١ هو ملك الحجاز الحسين بن علي، زعيم الحركة العربية في طلب تحرير أصقاع الجزيرة من حكم الأتراك، وقد توفي سنة ١٩٣١م، ودُفن بالقدس الشريف.

^٢ أبو الملائك: أي أبو الملوك. وهاشم: هو أحد جدود النبي صلوات الله عليه.

^٣ الآل: آل البيت النبوي الشريف، والمقصود هنا رجاله. والفواطم: يريد بهن نساء هذا البيت من ذرية السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وزوج الإمام علي كرم الله وجهه.

^٤ علية (بكسر العين): جمع علي، وهو الشريف العالي القدر من الناس. والبهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير. والآباء الزهر: هم المشرقو الوجوه المشابهون للنجوم الزهر في صفاء اللون والتلألؤ والظهور.

^٥ يقول: إن المنايا تنزل بالشيب كما تنزل بالشباب، فليس هناك من عاصم منهن.

* * *

الْمَنَاحَاتُ فِي مَمَالِكِ أَبْنَا نُّكَ بَدْرِئَةُ الْعَزَاءِ قَوَائِمُ^٦
تلك «بغداد» في الدموعِ وعمّا نُّ وِراءَ السَّوَادِ وَالشَّامُ وَاجِمُ^٧
وَالْحِجَازُ النَّبِيلُ رَبْعُ مُصَلِّ مِنْ رُبُوعِ الْهُدَى وَآخِرُ صَائِمُ^٨
وَاشْتَرَكْنَا فَمِصْرُ عَبْرَى وَلَبْنَا نُّ سَكُوبُ الْعَيُونِ بَاكِي الْحَمَائِمِ

* * *

قُمْ تَأَمَّلْ بَنِيكَ فِي الشَّرْقِ زَيْنُ التَّ سَاحِجِ مِلْءِ السَّرِيرِ نُورُ الْعَوَاصِمِ^٩
الزَّكِيُّونَ عُنْصُرًا مِثْلَ إِبْرَا هَيْمٍ وَالطَّيِّبُونَ مِثْلَ الْقَاسِمِ^{١٠}
وَعَلِيهِمْ إِذَا الْعَيُونُ رَمَتْهُمْ عُوذُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَتَمَائِمِ^{١١}
قَدْ بَنَى اللَّهُ بَيْتَهُمْ فَهُوَ بَاقٍ مَا بَنَى اللَّهُ مَا لَهُ مِنْ هَادِمِ
دَبَّرُوا الْمَلَكَ فِي الْعِرَاقِ وَفِي الشَّ مِ فَسَنُوا الْهُدَى وَرَدُّوا الْمَظَالِمِ
أَمِنْ النَّاسُ فِي ذَرَاهِمِ وَطَابَتْ عَرَبُ الْأَرْضِ تَحْتَهُمِ وَالْأَعَاظِمِ
وَبَنَوْا دَوْلَةً وَرَاءَ فَلَسْطِي نَّ كَعَابِ الْهُدَى فَتَاةَ الْعَزَائِمِ
سَاسَهَا بِالْأَنَاءِ أَرْوَعُ كَ «الدَّ خَلٍ» مَاضِي الْجَنَانِ يَقْظَانُ حَازِمِ^{١٢}

^٦ يشبّه الحزن على الفقيده بالحزن على صرعى بدر، أولى غزوات الرسول ﷺ.

^٧ بغداد: عاصمة العراق، والمراد بها القطر كله. وعمّان: عاصمة الأردن، كنى بها عن الإقليم جميعه. والشام: يقصد بها سوريا وما إليها من الأقاليم المحصورة بين تركيا وبلاد العرب ونهر الفرات والبحر المتوسط.

^٨ الحجاز النبيل: يقصد الحجاز الذي بقي محافظاً على عهده للفقيده. والرّبع: الدار.

^٩ العواصم: جمع عاصمة، وهي البلدان الكبيرة التي تقيم فيها الحكومات.

^{١٠} إبراهيم والقاسم: هما من أولاد النبي صلوات الله عليه.

^{١١} عوذ: جمع عوذة، وهي الرقية تحفظ من العين كالتميمة، وجمع التميمة تمائم.

^{١٢} الأناء: الرفق. ويريد بـ «الأروع»: الملك فيصل، يشبّهه بالداخل، وهو عبد الرحمن الداخل صقر قريش مؤسس دولة بني أمية في الأندلس.

قُبْرُصُ كَانَتْ الْحَدِيدَ وَقَدْ تَنَدَ زِلْ قُضْبَانَهُ اللَّيْثُ الضَّرَاغِمُ^{١٣}
كَرِهَ الدَّهْرُ أَنْ يَقُومَ لِوَاءُ تُحْشِرُ الْبَيْدُ تَحْتَهُ وَالْعَمَامُ^{١٤}

* * *

قَمِ تَحَدَّثْ «أَبَا عَلِيٍّ» إِلَيْنَا كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جِوَارِ الْأَرَاغِمِ^{١٥}
لَمْ تُبَالِ النُّيُوبَ فِي الْهَامِ خُشْنًا وَتَعَلَّقْتَ بِالْحَوَاشِي النَّوَاعِمِ
هَاتِ حَدَّثْ عَنِ الْعَوَانِ وَصَفْهَا لَا تُرْعَ فِي التَّرَابِ مَا أَنَا لِائِمٍ^{١٦}
كَلُّنَا وَارِدُ السَّرَابِ وَكُلُّ حَمَلٌ فِي وَلِيمَةِ الذَّنْبِ طَاعِمٍ^{١٧}
قَدْ رَجَوْنَا مِنَ الْمَغَانِمِ حَظًّا وَوَرَدْنَا الْوَعَى فَكُنَّا الْغَنَائِمِ

* * *

قَدْ بَعَثْتَ الْقَضِيَّةَ الْيَوْمَ مَيْتًا رُبَّ عَظَمٍ أَتَى الْأُمُورَ الْعِظَائِمَ
أَنْتَ كَالْحَقِّ أَلَّفَ النَّاسَ يَقْظَا نَ وَزَادَ اتِّتْلَافَهُمْ وَهُوَ نَائِمٍ
إِنَّمَا الْهَمَّةُ الْبَعِيدَةُ غَرَسُ مُتَأَتِي الْجَنَى بَطِيءُ الْكَمَائِمِ^{١٨}
رَبِّمَا غَابَ عَنْ يَدِ غَرَسَتِهِ وَحَوْتَهُ عَلَى الْمَدَى يَدُ قَادِمٍ
حَبَّبَا مَوْقِفٌ غُلِبَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَقِفْهُ لِلْعُرْبِ قَبْلَكَ خَادِمٍ
ذَائِدًا عَنِ مَمَالِكِ وَشُعُوبِ نُقِلْتُ فِي الْأَكْفِ نَقْلَ الدَّرَاهِمِ
كُلُّ مَاءٍ لَهُمْ وَكُلُّ سَمَاءٍ مَوْطِئُ الْخَيْلِ أَوْ مَطَارُ الْقِشَاعِمِ^{١٩}

^{١٣} قبرص: جزيرة في البحر الأبيض المتوسط، قضى فيها الملك حسين بقية عمره بعدما اعتزل الملك، يشبهها أمير الشعراء في حالة إقامة الفقيد فيها بالقفص الحديد الذي يُحبس فيه الأسد، وصنع الأقفاص الحديدية لحبس الأسود مألوف لمنظمي الحداث في عصرنا هذا.

^{١٤} العمام: الجماعات المتفرقون.

^{١٥} يشير إلى انضمام الفقيد في صف الحلفاء ضد تركيا في أثناء الحرب الكبرى، وقد كان لهذا الانضمام أثره في نهاية تلك الحرب.

^{١٦} العوان: الحرب.

^{١٧} كلنا في وليمة الذئب طاعم: يريد كلنا مطعوم مأكول لهذا الذئب.

^{١٨} الجنى: الثمار. الكمائم: محل ما تنبت تلك الثمار.

^{١٩} القشاعم: النسور، جمع قشعم. ويريد بـ «النسور»: الطيارين الذين يشبهون النسور.

لَمْ لَمْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهَمَّةِ الشَّمَّ
وَرَكُوبِ اللَّجَاجِ وَهِيَ طَوَاغٍ
وَالْقُطْبِ وَالْجَلِيدُ عَلَيْهِ
اغْسِلُوهُ بِطَيِّبٍ مِنْ وَضُوءِ الرُّ
وَحْذُوا مِنْ وَسَادِهِمْ فِي الْمُصَلَّى
وَاسْتَعِيرُوا لِنَعِيشِهِ مِنْ ذُرَا الْمَنَدِ
وَاحْمِلُوهُ عَلَى الْبُرَاقِ إِنْ اسْطَظَعَ
وَأَدِيرُوا إِلَى الْعَتِيقِ «حُسَيْنًا»
وَازْكُرُوا لِلْأَمِيرِ مَكَّةَ وَالْقَصَصِ
ظَمِي الْحُرِّ لِلدَّيَارِ وَإِنْ كَا

سَاءَ وَالْعِلْمِ وَالطَّمَّاحِ الْمُزَاحِمِ
وَالسَّمَوَاتِ وَهِيَ هُوجُ الشَّكَاثِمِ^{٢٠}
وَالصَّحَارِي وَمَا بِهَا مِنْ سَمَائِمِ^{٢١}
سَلِّ كَالْوَرْدِ فِي رُبَاهِ الْبَوَاسِمِ^{٢٢}
رُقْعَةً كَفَّنُوا بِهَا فَرَعَ هَاشِمِ
حَبْرٍ عَوْدًا وَمِنْ شَرِيفِ الْقَوَائِمِ
تَمَّ فَقَدْ جَلَّ عَنْ ظُهُورِ الرُّوَاسِمِ^{٢٣}
يَبْتَهِلُ رُكْنَهُ وَتَدْعُو الدَّعَائِمِ^{٢٤}
رَ وَعَهْدَ الصِّفَا وَطِيبَ الْمَوَاسِمِ
نَ عَلَى مَنَهْلِ مِنَ الْخُلْدِ دَائِمِ

* * *

نَقَلُوا النِّعَشَ سَاعَةً فِي رُبَا الْفَتِ
وَقِفُوا سَاعَةً بِهِ فِي ثَرَى الْأَقْبِ
وَادْفِنُوهُ فِي الْقُدْسِ بَيْنَ سُلَيْمِ
إِنَّمَا الْقُدْسُ مَنْزِلُ الْوَحْيِ مَغْنَى
كُنْفَتِ بِالْغُيُوبِ فَالْأَرْضُ أَسْرَا
وَتَحَلَّتْ مِنَ الْبُرَاقِ بِطُغْرَا

حِ وَطُوفُوا بِرَبِّهِ فِي الْمَعَالِمِ
حَمَارٍ مِنْ قَوْمِهِ وَتُرْبِ الْغَمَائِمِ
نَ وَدَاوُدَ وَالْمَلُوكِ الْأَكَارِمِ
كُلُّ حَبْرٍ مِنَ الْأَوَائِلِ عَالِمِ
رُ مَدَى الدَّهْرِ وَالسَّمَاءِ طَلَّاسِمِ
ءَ وَمِنْ حَافِرِ الْبُرَاقِ بِخَاتَمِ^{٢٥}

^{٢٠} يريد بـ «ركوب السموات»: ركوب الطيارات. ويريد بـ «هوج الشكاثم»: اللجم؛ أي اللجم الصعبة القيادة.

^{٢١} السماثم: جمع سموم، وهي الريح الحارة المحرقة.

^{٢٢} الوضوء (بفتح الواو): ما يتوضأ به.

^{٢٣} الرواسم: الإبل أو الخيل أو الركائب عامة.

^{٢٤} العتيق: مسجد بيت المقدس حيث دفن الفقيه.

^{٢٥} الطغراء: ما يكتب في أول الكتاب. والبراق: هو ركوبة النبي صلوات الله عليه ليلة أسري به.

يرثي أباه^١

سألوني لِمَ لَمْ أَرِثْ أَبِي
أَيُّهَا اللَّوْأْمُ مَا أَظْلَمَكُمْ
يَا أَبِي مَا أَنْتَ فِي ذَا أَوَّلٍ
هَلَكْتَ قَبْلَكَ نَاسٌ وَقُرَى
غَايَةُ الْمَرءِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى
وَطَبِيبٌ يَتَوَلَّى عَاجِزًا
إِنْ لِلْمَوْتِ يَدًا إِنْ ضَرَبْتَ
تَنْفُذُ الْجَوِّ عَلَى عِقْبَانِهِ
وَتَحْطُ الْفَرْخُ مِنْ أَيْكَتِهِ
أَنَا مِنْ مَاتَ وَمِنْ مَاتَ أَنَا
نَحْنُ كُنَّا مَهْجَةً فِي بَدَنِ
ثُمَّ عُذْنَا مَهْجَةً فِي بَدَنِ

وَرِثَاءُ الْآبِ دَيْنٌ أَيُّ دَيْنٍ
أَيْنَ لِي الْعَقْلُ الَّذِي يُسْعِدُ أَيْنَ؟^٢
كُلُّ نَفْسٍ لِلْمَنَايَا فَرَضُ عَيْنٍ
وَنَعَى النَّاعُونَ خَيْرَ الثَّقَلَيْنِ^٣
أَخِذْ يَأْخُذْهُ بِالْأَصْغَرَيْنِ^٤
نَافِضًا مِنْ طِبِّهِ خُفِّي حُنَيْنٍ^٥
أَوْشَكَتْ تَصَدُّعُ شَمَلِ الْفَرْقَدَيْنِ
وَتُلَاقِي اللَّيْثَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ
وَتَنَالِ الْبَبَّغَا فِي الْمَثْنَيْنِ
لَقِيَ الْمَوْتَ كِلَانَا مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ صَرْنَا مُهْجَةً فِي بَدْنَيْنِ^٦
ثُمَّ نُلْقَى جُثَّةً فِي كَفْنَيْنِ

^١ نظم هذه القصيدة حوالي سنة ١٨٩٧م، يرثي بها والده الطيب الذكر المرحوم علي بك شوقي رحمه الله.

^٢ يُسْعِدُ: يُعِين.

^٣ الثقلان: الإنس والجن، وخير الثقلين هو سيدنا محمد صلوات الله عليه.

^٤ الأصغران: القلب واللسان.

^٥ خفي حنين: مثلٌ عربي يُضرب عند اليأس من الحاجة المطلوبة والرجوع عن الطلب بالخيبة.

^٦ المهجة: الدم، وقد يُعبر بها عن الروح، يقال خرجت مهجته؛ أي روحه.

ثم نَحْيَا فِي «عَلِيٍّ» بَعْدَنَا
انظر الكونَ وَقُلْ فِي وَصْفِهِ
فَإِذَا مَا قِيلَ مَا أَصْلُهُمَا
فقدَا الْجَنَّةَ فِي إِجْبَادِنَا
وهما العذرُ إِذَا مَا أُغْضِبَا
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ حَيٍّ لَمْ يَدْنِ
وَقَفَ اللَّهُ بِنَا حَيْثُ هُمَا
مَا أَبِي إِلَّا أَخٌ فَارَقْتُهُ
طالَمَا قُمْنَا إِلَى مَائِدَةٍ
وَشَرِبْنَا مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ
وَتَمَشَّيْنَا يَدَيَّ فِي يَدِهِ
نَظَرَ الدَّهْرُ إِلَيْنَا نَظْرَةً
يَا أَبِي وَالْمَوْتُ كَأْسُ مُرَّةٍ
كَيْفَ كَانَتْ سَاعَةٌ قَضَيْتَهَا
أَشْرَبْتُ الْمَوْتَ فِيهَا جُرْعَةً
لَا تَخَفْ بَعْدَكَ حُزْنًا أَوْ بُغْيَ
أَنْتَ قَدْ عَلَّمْتَنِي تَرْكَ الْأَسَى
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَنَا أَنْ نَلْتَقِيَ
وَإِذَا مِتُّ وَأُودِعْتُ الثَّرَى

وبه نُبَعِثُ أُولَى الْبَعَثَتَيْنِ^٧
كُلُّ هَذَا أَصْلُهُ مِنْ أَبَوَيْنِ
قُلْ هُمَا الرَّحْمَةُ فِي مَرَحْمَتَيْنِ
وَنَعْمُنَا مِنْهُمَا فِي جَنَّتَيْنِ
وهما الصَّفْحُ لَنَا مُسْتَرْضَيْنِ
بِالَّذِي دَانَا بِهِ مُبْتَدئَيْنِ
وَأَمَاتَ الرُّسُلَ إِلَّا الْوَالِدَيْنِ^٨
وَدُّهُ الصَّدَقُ وَوَدُّ النَّاسِ مَيْنِ^٩
كَانَتْ الْكِسْرَةُ فِيهَا كِسْرَتَيْنِ
وَعَسَلْنَا بَعْدَ ذَا فِيهِ الْيَدَيْنِ
مَنْ رَأَانَا قَالَ عَنَا أَخَوَيْنِ
سَوَتْ الشَّرَّ فَكَانَتْ نَظَرَتَيْنِ
لَا تَذُوقُ النَّفْسُ مِنْهَا مَرَّتَيْنِ
كُلُّ شَيْءٍ قَبْلَهَا أَوْ بَعْدُ هَيْنٌ؟
أَمْ شَرِبْتَ الْمَوْتَ فِيهَا جُرْعَتَيْنِ؟
جَمَدَتْ مِنِّي وَمِنْكَ الْيَوْمَ عَيْنِ
كُلُّ زَيْنٍ مُنْتَهَاهُ الْمَوْتُ شَيْنِ
مَرَّةً أَمْ ذَا افْتِرَاقُ الْمَلَوَيْنِ^{١٠}
أُنَلِّقِي حُفْرَةً أَمْ حُفَرَتَيْنِ

^٧ علي: هو أحد نجلي أمير الشعراء.

^٨ يريد في هذا البيت أن يقرر أن الأبوة ضرب من ضروب الرسالة التي لم تنقطع كما انقطعت رسالة الأنبياء، وإنما هي ستظل قائمة بوظيفتها من طبع الأبناء على غرار الآباء، مصداقاً للأثر القائل: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

^٩ المين: الكذب. وفي هذا البيت على سهولة أدائه أعظم ألوان المدائح لوالده، فإن الوالد الذي لا يُشعر ابنه بسلطة الأب، هو الوالد المشتغل على جميع مكارم الأخلاق، البالغ أعلى درجات الحكمة.

^{١٠} الملوان: الليل والنهار، الواحد منهما ملا.

مصطفى كامل باشا^١

قاصيهما في مأتَمِ والدَّاني
في الله من خُلِدٍ ومن رِضوانٍ
في الزائرينَ ورُوعَ الحَرَمَانِ^٢
منكوسةُ الأعلامِ والقُضبانِ^٣
في الله والمختارِ والسلطانِ
في المَحْفَلَيْنِ بصوتِكَ الرنَّانِ
ما غابَ من قُسٍّ ومن سَحْبَانٍ^٤
ماذا لَقِيتَ من الوجودِ الفاني؟
هذا عليه كرامةٌ للجاني
بالقلبِ أم هل مُتَّ بالسرطانِ
والجدِّ والإقدامِ والعِرفانِ
في هذه الدنيا فأنتَ الباني
هل فيه آمالٌ وفيه أمانِي

المَشْرِقانِ عليكَ يَنتَحِبَانِ
يا خادِمَ الإسلامِ أجرٌ مُجاهِدٍ
لَمَّا نُعِيتَ إلى الحجازِ مشى الأسي
السَّكَّةُ الكبرى حِيالَ رَبَاهُما
لم تألَّها عندَ الشدائدِ خدمةً
يا ليتَ مكةَ والمدينةَ فازتا
ليرى الأواخرُ يومَ ذاكَ ويسمعوا
جارَ التُّرابِ وأنتَ أكرمُ راحِلٍ
أبكي صِباكَ ولا أَعَاتِبُ من جَنَى
يتساءلونَ أبَ «السُّلالِ» قضيتَ أم
اللهُ يشهدُ أن موْتَكَ بالِجَا
إن كانَ للأخلاقِ ركنٌ قائمٌ
بالله فتُشَّ عن فؤادِكَ في الثَّرَى

^١ هو الزعيم الخالد الذَّكر مصطفى كامل باشا مؤسس الحزب الوطني، وقد توفي سنة ١٩٠٨ م.

^٢ الحَرَمَان: حرَمَا مكة والمدينة.

^٣ السكة الكبرى: يريد سكة حديد الحجاز، وقد كان الفقيد أعظم الدعاة المجاهدين في سبيل إنشائها.

^٤ قُسٌّ وسَحْبَان: خطيبان عربيان يُضرب بهما المثل في الطلاقة الخطابية والفصاحة والحكمة.

وَلَرُبَّ حَيٍّ مَيِّتِ الْوِجْدَانِ
وَمُضَلَّلٍ يَجْرِي بَغِيرِ عِنَانِ
عُلْيَا الْمَرَاتِبِ لَمْ تَتَّحْ لِحَبَانِ
مَاتُوا عَلَى دِينِ مِنَ الْأَدْيَانِ
جُعِلَتْ لَهَا الْأَخْلَاقُ كَالْعُنُودِ
قَصْرُ يُرِيكَ تَقَاصِرَ الْأَقْرَانِ
إِنْ الْحَيَاةَ دَقَائِقُ وَثَوَانِي
فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمُرٌ ثَانِ
مَا شَاءَ مِنْ رِبْحٍ وَمِنْ خُسْرَانِ
وَهِيَ الْمَضِيقُ لِمُؤَثِّرِ السُّلُودِ
يَشْقَى لَهُ الرُّحَمَاءُ وَهُوَ الْهَانِي
فِي طَيْهَا شَجَنٌ مِنَ الْأَشْجَانِ
نُعْمَى الْحَيَاةِ وَبُؤْسُهَا سَيَّانٌ^٥
خَطَرَاتٍ وَالْإِسْرَارِ وَالْإِعْلَانِ
غَايَ بَغِيرٍ مُهَنْدٍ وَسِنَانِ
أَنْ الْعُلُومَ دَعَائِمُ الْعُمُرَانِ؟^٦
جَزَعَ الْهَلَالُ عَلَى فَتَى الْفَتِيَانِ
لَكِنَّمَا يَبْكِي بِدَمْعِ قَانِي^٦
فَكَأَنَّمَا فِي نَعِشِكَ الْقَمْرَانِ
يَخْتَالُ بَيْنَ بُغْيٍ وَبَيْنَ حَنَانِ
مَا ضَمَّ مِنْ عُرْفٍ وَمِنْ إِحْسَانِ
وَجَلَّالُكَ الْمَصْدُوقُ يَلْتَقِيَانِ
وَبِكَّتِكَ بِالْدمْعِ الْهَتُونِ غَوَانِي^٧

وَجَدَانُكَ الْحَيُّ الْمُقِيمُ عَلَى الْمَدَى
النَّاسُ جَارٍ فِي الْحَيَاةِ لَغَايَةٍ
وَالْخُلْدُ فِي الدُّنْيَا وَلَيْسَ بِهِيْنِ
فَلَوْ أَنَّ رُسُلَ اللَّهِ قَدْ جَبَنُوا لِمَا
الْمَجْدُ وَالشَّرَفُ الرَّفِيعُ صَحِيفَةٌ
وَأَحَبُّ مِنْ طَوْلِ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ
دَقَّاتُ قَلْبِ الْمَرْءِ قَائِلَةٌ لَهُ
فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا
لِلْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا وَجَمَّ شَتُونُهَا
فَهِيَ الْفَضَاءُ لِرَاغِبٍ مُتَطَلِّعٍ
النَّاسُ غَايٍ فِي الشَّقَاءِ وَرَائِحٍ
وَمُنْعَمٍ لَمْ يَلْقَ إِلَّا لَذَّةً
فَاصْبِرْ عَلَى نُعْمَى الْحَيَاةِ وَبُؤْسِهَا
يَا طَاهِرَ الْغَدَوَاتِ وَالرَّوْحَاتِ وَالـ
هَلْ قَامَ قَبْلَكَ فِي الْمَدَائِنِ فَاتِحُ
يَدْعُو إِلَى الْعِلْمِ الشَّرِيفِ وَعِنْدَهُ
لِفُوكَ فِي عِلْمِ الْبِلَادِ مُنْكَسًا
مَا أَحْمَرُّ مِنْ خَجَلٍ وَلَا مِنْ رِيْبَةٍ
يَزْجُونَ نَعِشَكَ فِي السَّنَاءِ وَفِي السَّنَا
وَكَأَنَّهُ نَعِشُ الْحُسَيْنِ بـ «كَرْبِلَا»
فِي زِمَةِ اللَّهِ الْكَرِيمِ وَبِرِّهِ
وَمَشَى جَلَالُ الْمَوْتِ وَهُوَ حَقِيقَةٌ
شَقَّتْ لِمَنْظَرِكَ الْجُيُوبَ عَقَائِلُ

^٥ سَيَّانٌ: مثلاً، الواحد سَيٌّ.

^٦ قَانٍ: أحمر.

^٧ العقائل: جمع عقيلة، وهي من كل شيء كريمته. والهتون: من هتن الدمع، إذا قطر. والغواني: جمع غانية، وهي الفتاة تغتني بجمالها عن الحلي.

إِذْ يُنصِتُونَ لخطبةٍ وبيان
بعدُ المنابرُ أم بأيِّ لسان؟
دفنوكَ بينَ جوانحِ الأوطان
حملوكَ في الأسماع والأجفان
كفنٌ لبستَ أحاسنَ الأكفان
لم تأتِ بعدُ رُثيتَ في القرآن
والداءُ ملءُ معالمِ الجُثمان
قَنِطُ وساعاتُ الرحيلِ دواني
دمعُ نُعالِجُ كُتْمَه وتُعاني
ويداك في القِرطاسِ ترتجفان
وأنا الذي هَدَّ السَّقَامُ كياني
وعرفتُ كيف مَصارِعُ الشَّجعانِ^٨
ما لِلْمَنُونِ بدَّكْهَنَ يَدانِ
من أدْمعي وسرائري وجَناني
لنظمتُ فيكَ يَتِيمةَ الأزمانِ
فتعودُ سِيرَتُها إلى الدَّورانِ
وتُجِلُّ فوقَ النِّيَّراتِ مكاني
فيكَ القريضُ وخانني إمكاني؟!
إِن المَنيَّةَ غايَةَ الإنسانِ
عزَّت على «كسرى» أنُوشروانِ
فهل استرحتَ أم استراح الشَّاني^٩؟
هذا ثرى مصرٍ فنمُ بأمانِ
والبسُ شبَابَ الحُورِ والوُلدانِ
مجدًا تَتِيهُ به على البُلدانِ

والخَلْقُ حولَكَ خاشعون كعهدِهِم
يتساءلون بأيِّ قلبٍ تُرتقي
لو أن أوطانًا تُصوِّرُ هيكلًا
أو كان يُحمَلُ في الجوارحِ ميّتُ
أو صيغَ من غُرِّ الفضائلِ والعُلا
أو كان للذِّكرِ الحكيمِ بَقِيَّةُ
ولقد نظرتُكَ والرَّدَى بك مُحدِّقُ
يبغي ويَطغى والطبيبُ مُضِلُّ
ونواظرُ العُودِ عنكَ أَمالُها
تُملي وتكتبُ والمشاعِلُ جَمَّةُ
فَهَشِشتَ لي حتى كأنكَ عائدي
ورأيتُ كيف تموتُ آسادُ الشَّرى
ووجدتُ في ذاك الخيالِ عزائمًا
وجعلتَ تسألُني الرثاءَ فهاكِهِ
لولا مُغالَبَةُ الشُّجونِ لَخاطري
وأنا الذي أرثي الشَّموسَ إذا هَوَتْ
قد كنتَ تهتِفُ في الورى بقصائدي
ماذا دهاني يومَ بَنَتَ فعقَّني
هوْنُ عليكَ فلا شَماتَ بمَيِّتٍ
مَنْ للحسودِ بِمَيِّتَةٍ بُلَّغَتْها
عُوفِيَّتٍ من حَرَبِ الحَيَاةِ وحَرَبِها
يا صَبَّ مصرَ ويا شهيدَ غرامِها
اخلع على مصرٍ شبَابَكَ عاليًا
فلعلَّ مصرًا من شبَابِكَ ترتدي

^٨ آساد: جمع أسد. والشَّرى: طريق في جبل سلمى كثيرة الأسد.

^٩ حَرَبُهُ (كطَلَبُهُ): سلبه ماله. والشَّاني: المبعُض.

فلو أنّ بالهرَمين من عَزَمَاتِهِ	بعضَ المَضاءِ تحرَّكَ الهرمان
علَّمتْ شُبَّانَ المدائنِ والقُرى	كيفَ الحياةُ تكونُ في الشبان
مصرُ الأسيْفَةِ ريفُها وصعيدُها	قبرٌ أبرُّ على عظامِكَ حاني
أقسمتُ إنك في الترابِ طهارةٌ	ملكٌ يهابُ سؤاله الملكان

حسن بك أنور^١

تُسأِّلُنِي «كَرْمَتِي» بِالنَّهَارِ
وَأَيْنَ النَّدِيمُ الشَّهْيُ الْحَدِيثِ
نَجِيَّ الْبَلَابِلِ فِي عَشَّهَا
فَقُلْتُ لَهَا مَاتَ وَاسْتَشَعَّرَتْ
لِئَنَ نَاءٍ مِنْ سَمَنَ جِسْمُهُ
وَمَا هُوَ مَيِّتٌ وَلَكِنَّهُ
وَمَعْنَى خَلَا الْقَوْلُ مِنْ لَفْظِهِ
وَلَا يَذْكُرُ الْمَعْهَدُ الشَّرْقِيَّ
وَمَا كَانَ مِنْ صَبْرِهِ فِي الصُّعَابِ
وِخْدَمَةٍ فَنُّ يُدَاوِي الْقُلُوبَ
وَمَا كَانَ فِيهِ الدَّعْيُ الدَّخِيلَ
وَلَوْ أَنْصَفَ الصَّحْبُ يَوْمَ الْوَدَاعِ

وَبِاللَّيْلِ أَيْنَ سَمِيرِي «حَسَنُ»^٢
وَأَيْنَ الطَّرُوبُ اللَّطِيفُ الْأَدُنُّ
وَمُلْهِمُهَا صَبِيَّةٌ فِي الْفَنِّ
لِيَالِي السَّرُورِ عَلَيْهِ الْحَزَنُ
فَمَا عَرَفَتْ رُوحَهُ مَا السَّمَنُ
بَشَاشَةً دَهْرٍ مَحَاها الزَّمَنُ
وَحُلْمٌ تَطَايَرَ عَنْهُ الْوَسَنُ^٣
لِ «أَنُور» إِلَّا جَلِيلَ الْمِنَنِ
وَمَا كَانَ مِنْ عَوْنِهِ فِي الْمَحَنِ
وَيَشْفِي النَفُوسَ وَيُذَكِّي الْفِطْنَ
وَلَكِنْ مِنَ الْفَنِّ كَانَ الرُّكْنُ
دُفِنْتَ كَ «إِسْحَاقَ» لَمَّا دُفِنَ

^١ المرحوم حسن بك أنور: أحد الأعضاء المؤسسين لنادي الموسيقى الشرقي، وكان من الأصدقاء المقربين لأمير الشعراء، وقد توفي سنة ١٩٣٠م.

^٢ كان يُطلق على دار أمير الشعراء كرامة ابن هاني.

^٣ الوسن: النعاس.

^٤ الرُّكْن: الرُّكْن، وقد حُرِّكَتْ الْكَافُ مِنْ أَجْلِ الشَّعْرِ، وَالرُّكْنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ جَانِبُهُ الْأَشَدُّ وَالْأَقْوَى.

فغُيِّبَتْ فِي الْمِسْكِ لَا فِي التُّرَابِ
وُخِطَّ لَكَ الْقَبْرُ فِي رَوْضَةٍ
وَيَنْتَحِبُ الطَّيْرُ فِي ظِلِّهَا
وَقَامَتْ عَلَى الْعُودِ أَوْتَارُهُ
وَطَارَحَكَ «النَّايُ» شَجْوُ النُّوَّاحِ
وَمَالَ فَنَاحَ عَلَيْكَ «الْكَمَانُ»
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَلَامُ الرُّبَا
سَلَامٌ عَلَى جِيرَةٍ بِالْإِمَامِ
سَلَامٌ عَلَى حُفَرٍ كَالْقَبَابِ
وَجَمَعَ تَأْلَفَ بَعْدَ الْخِلَافِ
سَلَامٌ عَلَى كُلِّ طَوْدٍ هُنَاكَ

وَأُدْرِجَتْ فِي الْوَرْدِ لَا فِي الْكَفَنِ
يَمِيلُ عَلَى الْغُصْنِ فِيهَا الْغُصْنُ
وَيَخْلَعُ فِيهَا النَّسِيمُ الرَّسَنُ^٥
تُعِيدُ الْحَنِينَ وَتُبْدِي الشَّجْنَ
وَكُنْتَ تَتَيْنُ إِذَا النَّايُ أَنْ
وَأَظْهَرَ مِنْ بَثَّةٍ مَا كَمَنْ
إِذَا نَفَحَتْ وَالْغَوَادِي الْهُتُنُ
وَرَهْطٍ بِصَحْرَائِهِ مُرْتَهَنُ
وَأُخْرَى كَمُنْدَرِسَاتِ الدِّمَنِ^٦
وَصَافِي وَصُوفِي بَعْدَ الضَّغَنِ
لَهُ حَجَرٌ فِي بِنَاءِ الْوُطْنِ

^٥ الرسن: الحبل، ويقال رسن الفرس؛ شدّه بالرسن.

^٦ الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار.

أم المحسنين^١

أَخَذَتْ نَعَشَكَ مَصْرُ بِالْيَمِينِ وَحَوَتْهُ مِنْ يَدِ الرُّوحِ الْأَمِينِ^٢
لَقِيَتْ طُهْرَ بَقَايَاكَ كَمَا لَقِيَتْ «يَثْرَبُ» أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ
فِي سَوَادِيهَا وَفِي أَحْشَائِهَا وَوَرَاءَ النَّحْرِ مِنْ حَبْلِ الْوَتِينِ^٣
خَرَجْتَ مِنْ قَصْرِكَ الْبَاكِي إِلَى رَمْلَةِ الثَّغْرِ إِلَى الْقَصْرِ الْحَزِينِ
أَخَذْتَ بَيْنَ الْيَتَامَى مَذْهَبًا وَمَشَتْ فِي عِبْرَاتِ الْبَائِسِينَ
وَرَمْتَ طَرْفًا إِلَى الْبَحْرِ تَرَى مِنْ وَرَاءِ الدَّمْعِ أُسْرَابَ السَّفِينِ
فَبَدَّتْ جَارِيَةً فِي حِضْنِهَا فَتَنُّ الْوَرْدِ وَفِرْعُ الْيَاسْمِينِ^٤
وَعَلَى جُوجُجِهَا نَوْرُ الْهَدَى وَعَلَى سُكَّانِهَا نَوْرُ الْيَقِينِ^٥

^١ أم المحسنين: هي والددة سمو الخديو عباس باشا الثاني، وقد توفيت بالآستانة سنة ١٩٣١م.
^٢ أخذت نعشك مصر باليمين: تعبير مقصود به القول إن مصر كلها أظهرت اهتمامًا وعناية كبيرين في استقبال نعش الفقيدة. أما الشطر الثاني من البيت فهو كناية عن أن النعش كان يحوي ذخيرة من الذخائر المقدسة، ومن أجل ذلك قام جبريل أمين الملائكة بحراسته حتى يسلم هذه الذخيرة لقومها يدًا بيد.

^٣ النحر: موضع القلادة من الصدر. والوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

^٤ جارية: سفينة، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾.

^٥ جُوجُ السفينة: مقدها. وسكانها: مؤخرها.

حَمَلْتُ مِنْ شَاطِئِي «مَرْمَرَةً»
 وَطَوْتُ بَحْرًا بِبَحْرِ وَجَرْتُ
 وَاسْتَقَلْتُ دُرَّةً كَانَتْ سَنًا
 زَهَبَتْ عَنْ عَلِيَّةٍ صَيْدٍ وَعَنْ
 وَالتَّقِيَّاتُ بَنَاتُ الْمُتَّقِي
 لَبِسَتْ فِي مَطْلَعِ الْعَزِّ الضُّحَى
 يَدُهَا بَانِيَّةٌ غَارِسَةٌ
 رَبَّةَ الْعَرْشَيْنِ فِي دَوْلَتِهَا
 أُضْجِعَتْ قَبْلَكَ فِيهِ «مَرِيْمٌ»
 إِنَّهُ رَحْلُ الْأَوَالِي شَدَّهُ
 اخْلَعِي الْأَلْقَابَ إِلَّا لِقَبًا
 وَدَعِي الْمَالَ يَسِرْ سُنَّتُهُ
 وَاقْذِفِي بِالْهَمِّ فِي وَجْهِ الثَّرَى
 وَاسْخَرِي مِنْ شَانِيٍّ أَوْ شَامِتٍ
 وَتَعَزِّيْ عَنْ عَوَادِي دَوْلَةٍ
 وَازْهَدِي فِي مَوْكِبٍ لَوْ شِئْتِهِ
 مَا الَّذِي رَدَّ عَلَى أَصْحَابِهِ
 رَبٌّ مَحْمُولٌ عَلَى الْمِدْفَعِ مَا

جَوْهَرَ السُّودِّ وَالْكَنْزَ الثَّمِينِ^٦
 فِي الْأَجَاجِ الْمِلْحِ بِالْعَذَبِ الْمَعِينِ
 وَسَنَاءً فِي جِبَاهِ الْمَالِكِينَ^٧
 خُرِّدٍ مِنْ خَفِرَاتِ الْبَيْتِ عَيْنِ
 وَالْأَمِينَاتُ بُنَيَّاتُ الْأَمِينِ
 وَنَضَّتْهُ كَالشَّمُوسِ الْأَفْلِينَ^٨
 كَيْدِ الشَّمْسِ وَإِنْ غَابَ الْجَبِينِ
 قَدْ رَكِبْتَ الْيَوْمَ عَرْشَ الْعَالَمِينَ
 وَتَوَارَى بِنِسَاءِ الْمُرْسَلِينَ
 لَهُمْ آدَمُ رُسُلِ الْآخِرِينَ
 عِبْقَرِيًّا هُوَ «أُمُّ الْمُحْسَنِينَ»
 يَمْضِ عَنْ قَوْمٍ لِأَيْدِي آخِرِينَ
 وَاطْرَحِي مِنْ حَالِقِ عِبَاءِ السَّنِينَ^٩
 لَيْسَ بِالْمُخْطِئِ يَوْمَ الشَّامِتِينَ
 لَمْ تَدُمِ فِي وَلَدٍ أَوْ فِي قَرِينِ
 لَتَغْطَى وَجْهَهَا بِالْدَارِعِينَ^{١٠}
 لَيْسَ يُحْيِي مَوْكِبُ الدَّفَنِ الدَّفِينِ
 مَنَعَ الْحَوْضَ وَلَا حَاطَ الْعَرِينِ^{١١}

^٦ مرمرة: بحر في بلاد الترك. يقول: إن هذه السفينة لم تحمل من شاطئ تلك البلاد نعش ميتة، وإنما حملت خلاصة السُّودد وجوهر الكنز الثمين.

^٧ السنا: (بالقصر) الضوء، و(بالمد) الرُّفعة.

^٨ نضته: خلعتة. والأفلين: جمع آفل، والأفول للشموس المغيبة.

^٩ حالق الجبل: أعلاه، كأنه يقول إن الموت ارتفاع عظيم.

^{١٠} الدارعين: جمع دارع؛ أي لابس الدرع.

^{١١} العرين: مأوى الأسد. يقول: كثير ممن تحمل نعوشهم فوق المدافع لم يدافعوا عن الحق، ولم يمنعوا العدوان عن الجمی، فما دام هذا المظهر قد يناله في الدنيا غير مستحقه، فهو إذن ليس بذی خطر، وليس بالذی یُعْتَزُّ به حقيقة.

باطلٌ من أُمِّ مخدوعةٍ
 في «فروقٍ» ورُباها مأتَمٌ
 قام فيها من عَقِيْلَاتِ الجِمْي
 أُسْرٌ مالت بها الدنيا فلم
 قد خلا «ببيبك» من حاتمِه
 طارت النعمةُ عن أيكَّتِه
 اليتامى نُوحٌ ناحيةً
 دولةٌ مالت وسلطانٌ خلا
 مُنْهَضُ الشرقِ «عليٌّ» لم يزل
 يُصْلِحُ اللهَ به ما أَفْسَدَتْ
 أُمُّ عَبَّاسٍ ومالي لم أَقْلُ
 كنتِ كالوَرْدِ لهم واستقبلوا
 فيقالُ الأُمُّ في موكبِها
 «العفيفيُّ» عفافٌ وهُدًى
 ادخلي الجنةَ من روضتِه

يتحدَّونَ به الحقَّ المُبين
 ذرَّفتَ أَمَاقَها فيه العيون
 ملأَ بُذْلانَ من عزٍّ بهُون
 تلقَ إلا عندَكَ الركنَ الركين
 ومن الكاسين فيه الطاعمين^{١٢}
 وانقضى ما كان من خَفَضٍ ولين
 والمساكينُ يَمُدُّونَ الرِّنين
 دُوِلتْ نُعماءُ بينَ الأقربين
 من بَنِيهِ سيِّدٌ في «عابدين»
 فَتَرأتِ الدهرَ من دُنْيا ودين
 أُمٌّ مصرٍ من بناتٍ وبنين
 دولةَ الرِّيحانِ حينًا بعدَ حين
 ويُقالُ الحرَمُ العَالي المَصون^{١٣}
 كـ «البقيع» الطُّهرُ ضمَّ الطاهرين^{١٤}
 إن فيها غُرْفَةً للصَّابرين

^{١٢} بيبك: قصر الفقيدة في الآستانة، كان مَصيفها كل عام. وحاتم: اسم رجل يُضرب به المثل في الكرم

البالغ، فيقال: كرمُ حاتمي. وقد اشتهرت الفقيدة بالكرم؛ ومن أجل ذلك قيل لها أم المحسنين.

^{١٣} يشير هذا البيت إلى أن الفقيدة العظيمة كانت أم خديو وزوجة خديو.

^{١٤} العفيفي: علم على الموضع الذي أقيم فيه مدفن الفقيدة بجوار مدفن قرينها.

الدكتور أحمد فؤاد^١

أَوْحَتْ لَطَرْفُكَ فَاسْتَهْلَ شُئُونَا
غَاضَتْ بِشَاشَتُهَا وَفَضَّتْ شَمْلَهَا
نَزَلَتْ عَوَادِي الدَّهْرِ فِي سَاحَاتِهَا
فَتَكَادُ مِنْ أَسْفَى عَلَى أَسَى الْجَمَى
تِلْكَ «الْعِيَادَةُ» لَمْ تَكُنْ عِبْنًا وَلَا
دَارُ «ابْنِ سِينَا» نُزَّهَتْ حُجْرَاتُهَا
خَبَتِ الْمَطَالِعُ مِنْ أَغْرٍ مُؤَمِّلٍ
كَالْفَجْرِ تَغْرًا وَالصَّبَاحِ جَبِينًا^٥

دَارُ مَرَرْتَ بِهَا عَلَى «قَيْسُونَا»^٢
دُنْيَا تَغْرُ السَّادِرَ الْمَفْتُونَا
وَأَقْلُ رَفَرَفُهَا الْخَطُوبَ الْعُونَا^٣
مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ تَثُورُ شُجُونَا
شَرَكًا لَصِيدِ مَآرِبٍ وَكَمِينَا
عَنْ أَنْ تَضُمَّ ضَلَالَةً وَمُجُونَا^٤
كَالْفَجْرِ تَغْرًا وَالصَّبَاحِ جَبِينًا^٥

^١ كان الدكتور أحمد فؤاد مثلاً نادراً من أمثلة حسن الخلق، ونابهة من نوابغ الطب المعدودين، وقد توفي سنة ١٩٣١م.

^٢ قيسون: علم على مسجد بهذا الاسم في شارع محمد علي بالقاهرة كانت دار الفقيد قريبة منه. والشئون: الدموع. يقول: إن المرور على هذه الدار يجعل العين تفيض دمعاً؛ حزناً لما أصاب تلك الدار من الخمول بعد النباهة، والسكون بعد الحركة، والوجوم بعد الطلاقة والسرور، وهذا لفقد صاحبها طبعاً.

^٣ أقل: حمل. والرفوف: شيء مثل الطاق يُجعل عليه طرائف البيت. والعون: جمع عوان. والخطوب العون: أي التي نزلت مرة قبل هذه. يريد أن هذه الدار قد عرفت عوائق الدهر وخطوبه قبل هذا الخطب الأخير الذي حل بها.

^٤ يشبه الفقيد في الطب والأمانة للعلم بابن سينا.

^٥ خبت المطالع: انطفأ نورها.

مَرَضَى بـ «عيسى الروح» يَسْتَشْفُونَا
لِلنَّشْءِ يَنْطِقُ فِي السَّكُوتِ مُبِينَا
وَتَخَالَهُنَّ مِنَ الْخُشُوعِ سُكُونَا
أَدَوَاهُمْ وَتَغَيَّبَ الشَّافُونَ^٦
وَلَرَبَّمَا بَذَلَ الدَّوَاءَ مُعِينَا
تَكَسَوِ الْفَقِيرَ وَتُطْعِمِ الْمِسْكِينَا
حَمَلَ الصَّدَاقَةَ وَافِيَا وَأَمِينَا
بِأَبِيهِ أَوْ يَصِلُ الْقَرَابَةَ حِينَا
خُلُقًا عَلَيْهِ وَلَا تُصَادِفِ دِينَا
قُمْ دَاوِ فِيكَ فَوَادِي الْمَحْزُونَا
حَيْرَانَ طَارَ بَلْبُهُ النَّاعُونَا
ظَنَّ الْمُدَّةَ بِالْقَضَاءِ ظُنُونَا^٧
وَنَسِيتَ دَاءً فِي الضَّلُوعِ دَفِينَا
فَحَمَلْتَ هَمَّ الْمُسْلِمِينَ سَنِينَا
وَتَذَوَّبَ لِلْوَطَنِ الْكَرِيمِ حَنِينَا
فَنَصَرْتَ خُلُقًا فِي الشَّبَابِ مَتِينَا^٨
وَرَوَائِعُ الْإِقْدَامِ فِي الْعَشْرِينَا
حُمُسُ الدُّعَاةِ وَطَاطُتُوا الْعِرْنِينَا^٩
وَاعْطَفُ عَلَى يَعْقُوبَ فِيهِ حَزِينَا^{١٠}

وَمِنَ الْوَفُودِ كَأَنَّهُمْ مِنْ حَوْلِهِ
مَثَلُ تَصَوُّرٍ مِنْ حَيَاةٍ حَرَّةٍ
لَمْ تُخَصَّ مِنْ عَهْدِ الصَّبَا حَرَكَاتُهُ
جَمَحَتْ جِرَاحُ الْمُعْوزِينَ وَأَعْضَلَتْ
مَاتَ الْجَوَادُ بِطَبِّهِ وَبَأَجْرِهِ
وَتَجَسَّ رَاحَتُهُ الْعَلِيلَ وَتَارَةً
أَدَّى أَمَانَةً عَلَيْهِ وَلِطَالَمَا
وَقَضَى حَقُوقَ الْأَهْلِ يُحْسِنُ تَارَةً
خُلُقٌ وَدِينٌ فِي زَمَانٍ لَا تَرَى
أُمْدَاوِي الْأَرْوَاحِ قَبْلَ جُسُومِهَا
رُوحٌ بَلْفِظِكَ كُلُّ رُوحٍ مُعَذِّبٌ
قَدْ كَالَ لِلْقَدَرِ الْعِتَابَ وَرَبِّمَا
دَاوَيْتَ كُلَّ مُحِطَّمٍ فَشَفَيْتَهُ
كَبِدٌ عَلَى دِمِهَا أَتَكَاتَ وَلَحِمِهَا
ظَلَّتْ وَرَاءَ الْحَرْبِ تَشْقَى بِالنَّوَى
نَاصَرَتْ فِي فَجْرِ الْقَضِيَّةِ «مُصْطَفَى»
أَقْدَمْتَ فِي الْعَشْرِينَ تَحْتَ لَوَائِهِ
لَمْ تَبْغِ دُنْيَا طَالَمَا أَغْضَى لَهَا
رُحْمَاكَ «يُوسُفُ» قَفَّ رِكَابَكَ سَاعَةً

^٦ أدواء: جمع داء.

^٧ المدلَّة: الذي ذهب فؤاده من همٍّ وعشقٍ ونحوه.

^٨ يشير إلى أنه كان من الأنصار الكبار للزعيم مصطفى كامل باشا.

^٩ حمس: جمع حمس، بكسر الميم، أو أحمس، وهو الصلب في القتال والعقيدة، والحمس لقب لقريش

وَمَنْ تَابِعَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِحُمْسِهِمْ وَالتَّجَائِثُ لِلْحَمْسَاءِ؛ أَيِ الْكَعْبَةِ. وَالْعَرْنَيْنِ: الْأَنْفُ.

^{١٠} يشبهه الفقيد بسيدنا يوسف الصديق؛ ليمهّد لتشبيهه أبيه بسيدنا يعقوب في صبره على فراق ابنه ومحنته.

لم يدرِ خلفَ النعشِ من حرِّ الجوى
ساروا بمُهْجَتِهِ فحُمِّلَ ثُكْلُهَا
أَتَعُودُ في رَكْبِ الربيعِ إذا انثنى
هَيَّهَاتَ من سَفَرِ المَنِيَّةِ أُوْبَةُ
ويقالَ للأرضِ الفضاءِ تمخّضي
اللَّهُ أبْقَى أين من جَسَدِي يَدُ
حتى تمثّلتِ العِنايةُ صورةً
فجَرَرْتُ جُثْمَانِي وهانت كُرْبَةُ
إن الشفاءَ من الحياةِ وعونها
واليومَ أرتجلُ الرِّثاءَ وأنزوي
سبحانَ من يرثُ الطبيبَ وطِبَّهُ

أَيَشُقُّ جَيْبًا أم يَشُقُّ وَتِينًا^{١١}
وقضُوا بعائلته فمالَ غَبِينًا^{١٢}
بَهْجًا يَزْفُ الوَرْدَ والنَّسْرِينَا؟
حتى يُهَيِّبَ الصُّبْحُ بالسارينا
فتردَّ شيخًا أو تمجَّ جنينا
لم أنسَ رِفَقَ بَنَانِهَا واللِّينَا^{١٣}
تُومِي براحٍ أو تُجِيلُ عيوننا
لولا اعتناؤك لم تكن لَتَهونَا
ما كان آسَ بالشفاءِ ضَمِينَا
في مَأْتَمٍ أبكي مع الباكيْنَا
ويُري المَريضَ مَصَارِعَ الآسِينَا!^{١٤}

^{١١} الوتين: عرق في القلب إذا قُطِع مات صاحبه.

^{١٢} المهجة: تُطْلَق على الدم وعلى الروح، يقال خرجت مهجته؛ أي روحه.

^{١٣} يشير إلى أن الفقيد كان أحد أطبائه الذين تمثّلت عناية الله به في عنايتهم بعلاجه واعتنائهم بشفاؤه.

^{١٤} الآسينا: جمع آس، وهو الطبيب.

نجل إمام اليمن^١

مضى الدهرُ بابنِ إمامِ اليَمَنِ
وباتت بصنعاءَ تبكي السيوفُ
وأعولَ نجدُ وضجَّ الحجازُ
وغصَّت مَناحاتُه في الخيامِ
ولو أن ميثًا مشى للعزاءِ
فتى كاسمِه كان سيفَ الإلهِ
ولُقِّبَ بالبدرِ من حُسنه
عزاءً جميلاً إمامَ الحمى
وأنت المُعانُ بإيمانه
ولكن متى رَقَّ قلبُ القضاءِ
يُجامِلُك العربُ النازحونَ
ويجمعُ قومُك بالمسلمينَ
وأن نبيَّهم واحدٌ
وأودى بزَيْنِ شبابِ الزَّمنِ
عليه وتبكي القنا في عدن^٢
ومالَ الحُسينُ فعزَّ الحَسَنُ
وغصَّت مآتمُه في المُدنِ
مشى في مآتمه ذو يَزَن^٣
وسيفُ الرسولِ وسيفُ الوطنِ
وما البدرُ ما قدرُه وابنُ مَنْ
وهوَنُ جليلِ الرزايا يهْنُ
وظنُّك في الله ظنُّ حَسَنٍ
ومن أين للموتِ عقلُ يَزَنِ
وما العربيةُ إلا وطنِ
عظيمُ الفروضِ وسمُّحُ السُّنَنِ
نبيُّ الصوابِ نبيُّ اللِّسَنِ

^١ هو الأمير سيف نجل الإمام يحيى، وقد توفي غرقاً وهو يحاول إنقاذ رفيق له من الغرق سنة ١٩٣٣ م.

^٢ صنعاء: حاضرة اليمن. عدن: إحدى الموانئ هناك، وهي على خليج عدن المشهور.

^٣ ذو يزن: أحد أقبال اليمن الأقدمين، ولشجاعة هذا الملك في استرداد عرش أبيه وأجداده أضيفت إليه أساطير كثيرة.

ومصرُ التي تجمعُ المسلمينَ
تُعزِّي اليمانيين في سيفهم
وتَقعدُ في مائِمِ ابنِ الإمامِ
وتنشُرُ ريحانتي زنبق
ترفانِ فوق رُفاتِ الفقيدِ
قضى واجبًا فقضى دونه
تطوَّحَ في لُججِ كالجبالِ
مشى مشيةً اللئيمِ لا في السلاحِ
متى صرتَ يا بحرُ غمدَ السيوفِ
وكنتَ صوانَ الجمانِ الكريمِ
ظفرتَ بجوهرَةٍ فذَّةٍ
فتى بذلَ الروحِ دونَ الرفاقِ
وهانت عليه مَلاهِي الشبابِ
وخاضَكَ يُنقِذُ أترابه
غدرتَ فتى ليس في الغادرينَ
وما في الشجاعةِ حتفُ الشجاعِ
ولكن إذا حانَ حينُ الفتى
ألا أيُّ هذا الشريفِ الرضيِّ
شهيدُ المروءةِ كان البقيعُ
فهل غسَّلوهُ بدمعِ العُفاةِ
لقد أغرقَ ابنَكَ صرْفُ الزمانِ
أتذكُرُ إذ هو يطوي الشهورَ

كما اجتمعوا في ظلالِ الرُّكنِ^٤
وتأخذُ حصَّتها في الحَرَنِ
وتبكيه بالعبرَاتِ الهُتَنِ
من الشُّعرِ في ربواتِ اليمينِ
رفيفَ الجنى في أعالي الغُصنِ
فتى خالصُ السرِّ صافي العَلنِ
عراضِ الأواسي طوالِ القَننِ^٥
ولا في الدُّروعِ ولا في الجُننِ^٦
وكنَّا عهدناكَ غمدَ السُّفنِ
فكيف أزيلَ ولمْ لمْ يُصنِ
من الشرفِ العبقريِّ اليُمْنِ
إليكَ وأعطى الترابَ البدنِ
ولولا حقوقُ العُلا لم تَهُنِ
وكان القضاءُ له قد كَمَنِ
وَحُنَّتْ امرأٌ وافيًا لم يَخُنِ
ولا مدَّ عمرَ الجبانِ الجُبْنِ
قضى ويعيشُ إذا لم يَحِنِ^٧
أبو السُّجَراءِ الرِّماحِ اللُّدنِ
أحقُّ به من ترابِ اليمينِ
وفي كلِّ قلبٍ حزينِ سكنِ
وأغرقتَ أبناءَهُ بالمِمننِ
وإذ هو كالخِشْفِ «حُلُو» أَعْنِ^٨

^٤ يريد بالركن: الكعبة.

^٥ القنن: جمع قنة، وهي رأس الجبل. والأواسي من البناء: الدعائم.

^٦ الجنن: جمع جنة، بالضم، وهي ما استترت به من سلاح ودروع ونحو ذلك.

^٧ الحين: الأجل.

^٨ الخشف (مثلثة الخاء): الظبي. والأعْنُ: الذي يُخرج صوته من خياشيمه، وهذا كناية عن ميعة الشباب.

وَإِذْ هُوَ حَوْلَكَ حَسَنُ الْقُصُورِ	وَطَيْبُ الرِّيَاضِ وَصَفُو الزَّمَنِ
بَشَاشَتُهُ لَذَّةٌ فِي الْعَيُونِ	وَنَغْمَتُهُ لَذَّةٌ فِي الْأُذُنِ
يُلَاعِبُ طُرَّتَهُ فِي يَدَيْكَ	كَمَا لَاعَبَ الْمُهْرُ فَضْلَ الرَّسَنِ
وَإِذْ هُوَ كَالشَّيْلِ يَحْكِي الْأُسُودَ	أَدْلَ بِمِخْلَبِهِ وَافْتَتَنَ ^٩
فَشَبَّ فَقَامَ وَرَاءَ الْعَرِينِ	يَشُبُّ الْحُرُوبَ وَيُطْفِي الْفِتَنَ ^{١٠}
فَمَا بَالُهُ صَارَ فِي الْهَامِدِينَ	وَأَمْسَى عَفَاءً كَأَن لَمْ يَكُنْ
نَظَّمْتُ الدِّمُوعَ رِثَاءً لَهُ	وَفَصَّلْتُهَا بِالْأُسَى وَالشَّجَنِ

^٩ الشبل: ولد الأسد إذا أدرك الصيد. وأدْل بمخلبه: أي تباهى به وتخايل على أقرانه.

^{١٠} العرين: بيت الأسد. ويشبُّ الحروب: يوقدها.

عبد الله بك الطوير^١

يا قلبُ ويَحَكْ والمودَّةُ ذِمَّةُ
جاذبتني جنبي عشيَّة نَعِيهِ
ولو أنَّ قلبًا ذابَ إثرَ حبيبهِ
فعليك من حُسنِ المروءةِ أَمْرُ
نزل «الطويرُ» في الترابِ منازلًا
عرصاتها ممطورةٌ بمدامع
لولا يمينُ الموتِ فوقَ يمينهِ
يا كابرًا من كابرين وطاهرًا
ومُحَكَّمًا عَلِمَ القضاءُ مكانَهُ
وحكيماً استعصت أَعْنَتُهُ على
ماذا صنعتَ بعهدِ «عبدِ الله»
وخفقتَ خَفَقَةً مُوجِعِ أَوَاهِ^٢
لَهوى بك الركنُ الضعيفُ الواهي
وعليك من حُسنِ التجلُّدِ ناهِ
تهوي المكارمُ نحوها بشِفاهِ
موطوءةٌ بمَفارقٍ وجباهِ
فيها لَفَاضَتْ من جَنَى ومياهِ^٣
من آلِ طُهرٍ عارفٍ باللهِ
في المُقسِطِينَ الجِلَّةِ الأنزاهِ
كذبِ النعيمِ وتُرَّهاتِ الجاهِ

^١ المرحوم عبد الله بك الطوير: كان أحد رجال القانون في مصر، وقد توفي سنة ١٩١٥م.

^٢ خفق القلب: اضطرب في موضعه. والأَوَاه: كثير التأوه، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

^٣ اليمين: يراد بها هنا القوة. والجنى: الثمار.

^٤ المقسطين: أي العادلين. والجلة (بكسر الجيم): قوم سادة عظماء ذوو أخطار. والأنزاه: جمع نَزَه، وهو العفيف المتكرم.

وأخا سقى الإخوان من «راووقه»
 قد كان شعري شغل نفسك فاقترح
 أنزلت منه حين فأتك جمعه
 فاقراً على «حسان» منه لعله
 وانزل بنور الخلد جدك وأتصل
 ناعيك ناعي حاتم أو جعفر
 بوداد لا صلف ولا تياه^٥
 من كل «جائلة» على الأقواه
 في منزل بهج بنورك زاه
 بفتاه في مدح الرسول مباح^٦
 بملائك من آله أشباه^٧
 فالناس بين نوازل ودواه^٨

^٥ الراووق: المصفاة، كالباطية ونحوها من الآنية التي يوضع فيها المشروب. والصلف: مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبراً.

^٦ حسان: هو ابن ثابت، شاعر الرسول صلوات الله عليه.

^٧ جدك: منصوب على نزاع الخافض؛ أي انزل على جدك، وكان الفقيده منسوباً لآل البيت النبوي.

^٨ حاتم: هو الطائي المشهور بالكرم. وجعفر: لعله يقصد به جعفرًا البرمكي، أو عبد الله بن جعفر أحد أجداد العرب في العصر الأموي. والمقصود تشبيهه الفقيد في كرمه بهذين الرجلين اللذين ضرب المثل بكرمه.

سعد باشا زغلول^١

شَيَّعُوا الشَّمْسَ وَمَالُوا بِضَحَايَا
لَيْتَنِي فِي الرِّكْبِ لَمَّا أَفْلَتُ
جَلَّلَ الصَّبْحَ سَوَادًا يَوْمُهَا
انْظُرُوا تَلَقَّوْا عَلَيْهَا شَفَقًا
وَتَرَوْا بَيْنَ يَدَيْهَا عِبْرَةً
أَذِنَ الْحَقُّ ضَحَايَاهَا بِهَا
كَفَّنُوهَا حُرَّةً عُلوِيَّةً
مِصْرُ فِي أَكْفَانِهَا إِلَّا الْهَدَى
خَطَرَ النِّعْشُ عَلَى الْأَرْضِ بِهَا
جَاءَهَا الْحَقُّ وَمِنْ عَادَتِهَا
مَا دَرَتْ مِصْرٌ بِدَفْنٍ صُبِّحَتْ

وَانْحَنَى الشَّرْقُ عَلَيْهَا فَبَكَاهَا
«يُوشَعُ» هَمَّتْ فَنَادَى فَنَنَاهَا^٢
فَكَأَنَّ الْأَرْضَ لَمْ تَخْلَعْ دُجَاهَا^٣
مِنْ جِرَاحَاتِ الضَّحَايَا وَدِمَاهَا
مِنْ شَهِيدٍ يَقْطُرُ الْوَرْدُ شَذَاهَا
وَيَحَهُ حَتَّى إِلَى الْمَوْتَى نَعَاهَا
كَسَتِ الْمَوْتَ جَلَالًا وَكَسَاهَا
لُحْمَةً الْأَكْفَانِ حَقٌّ وَسُدَاهَا^٤
يَحْسِرُ الْأَبْصَارُ فِي النِّعْشِ سَنَاهَا^٥
تُؤَثِّرُ الْحَقُّ سَبِيلًا وَاتَّجَاهَا^٦
أَمْ عَلَى الْبَعْثِ أَفَاقَتْ مِنْ كَرَاهَا

^١ زعيم مصر الخالد سعد باشا زغلول المتوفى سنة ١٩٢٧ م.

^٢ يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

^٣ جلل الصبح: كساه وغطى ضوءه.

^٤ اللُّحمة: ما سُدِّي به الثوب. والسدى: ضد اللُّحمة.

^٥ يحسر الأبصار: أي يردُّها كليَّةً ضعيفة.

^٦ الحق الأول: يقصد به الموت. والحق الثاني: يقصد به العدل.

طَلَبَتْ مِنْ مِخْلَبِ الْمَوْتِ أَبَاهَا^٧
شُعْبُ السَّيْلِ طَغَتْ فِي مُلْتَقَاهَا
يَلْمِسُونَ الرُّكْنَ فَارْتَدَّتْ نَزَاهَا
وَبِ «سَعْدٍ» رَفَعُوا أَمْسَ الْجِبَاهَا
هَلْ مَشَى النَّاعِي عَلَيْهَا فَمَحَاهَا^٨
وَجَلَا عَنْ ضِفَّةِ الْوَادِي دُمَاهَا^٩
وَالِى «النَّاقُوسِ» قَامَتْ بَيْعَتَاهَا
أَرْضُ «سُورِيَا» وَتَطْوِيهِ سَمَاهَا^{١٠}
كِعَوَادِي الثُّكُلِ فِي حَزِّ سُرَاهَا^{١١}
تَطَأُ الْأَذَانَ هَمْسًا وَالشَّفَاهَا
كُلُّ نَفْسٍ فِي وَرِيدَيْهَا رَدَاهَا^{١٢}
شَبَحَا فِي خُطَّةٍ إِلَّا أَبَاهَا
حَزَّ فِي سُوقِ الْأَوَالِي وَبَرَاهَا
أَرْجُلُ الْأَحْرَارِ فِيهِ فَعَفَاهَا
كَلَّلْتُ «عَدْنُ» بِهَا هَامَ رَبَاهَا^{١٣}
وَحَيَاةٍ أَتَرَعُ الْأَرْضَ حَيَاهَا^{١٤}
وَبَكَتْ أَنْظَمَةُ الشُّورَى صَوَاهَا^{١٥}

صَرَخَتْ تَحْسِبُهَا بِنْتَ الشَّرَى
وَكُنَّ النَّاسَ لَمَّا نَسَلُوا
وَضَعُوا الرَّاحَ عَلَى النِّعْشِ كَمَا
خَفَضُوا فِي يَوْمِ «سَعْدٍ» هَامَهُمْ
سَائِلُوا «رَحْلَةً» عَنْ أَعْرَاسِهَا
عَطَّلَ الْمُصْطَافَ مِنْ سُمَّارِهِ
فَتَحَّ الْأَبْوَابَ لَيْلًا «دَيْرُهَا»
صَدَعَ الْبَرْقُ الدُّجَى تَنْشُرُهُ
يَحْمِلُ الْأَنْبَاءَ تَسْرِي مَوْهِنًا
عَرَضَ الشُّكُّ لَهَا فَاضْطَرَبَتْ
قَلْتُ يَا قَوْمُ اجْمَعُوا أَحْلَامَكُمْ
يَا عَدُوَّ الْقَيْدِ لَمْ يَلْمَحْ لَهُ
لَا يَضِقُّ ذَرْعُكَ بِالْقَيْدِ الَّذِي
وَقَعَ الرُّسُلُ عَلَيْهِ وَالْتَوَتْ
يَا زُفَاتًا مِثْلَ رِيحَانِ الضَّحَى
وَبَقَايَا هَيْكَلٍ مِنْ كَرَمٍ
وَدَّعَ الْعَدْلُ بِهَا أَعْلَامَهُ

^٧ بنت الشرى: أنثى الأسد.

^٨ يشير البيت إلى أن أمير الشعراء وقت نعي الفقيد كان يصطاف في زحلة إحدى مصايف لبنان.

^٩ السُّمَّار: جمع سامر، وهم إخوان الحديث في المساء. الضفة من النهر ومن الوادي: الجانب. الدمى:

جمع دمية، وهي الصورة يعملها المثل من الرخام.

^{١٠} صدع: شق وقطع.

^{١١} الموهن: نصف الليل أو بعده بنحو ساعة.

^{١٢} الوريدان مثنى الوريد: أحد شرايين الجسم.

^{١٣} عدن: الجنة. وهام رباه: أي رءوس ربواتها. والربوات: الأمكنة المرتفعة فيها.

^{١٤} أترع: ملأ. والحيا: المطر.

^{١٥} الصُّوى: جمع صوة — بضم الصاد — وهي حجر يوضع في الطريق كعلامة يهتدى بها.

حَضَنْتَ نَعَشَكَ وَالتَفَّتْ بِهِ
 ضَمَّتِ الصَدْرَ الَّذِي قَدْ ضَمَّهَا
 عَجَبِي مِنْهَا وَمِنْ قَائِدِهَا
 مِنْبَرُ الْوَادِي ذَوْتَ أَعْوَادِهِ
 مَنْ رَمَى الْفَارَسَ عَنْ صَهْوَتِهَا
 قَدَّرَ بِالْمُذْنِ أَلْوَى وَالْقُرَى
 غَالِ «بَسْطُورًا» وَأَرْذَى عُصْبَةً
 طَافَتْ الْكَأْسُ بِسَاقِي أُمَّةٍ
 عَطِلَتْ أَذَانُهَا مِنْ وَتَرٍ
 أَرْغَنَ هَامَ بِهِ وَجْدَانُهَا
 كُلَّ يَوْمٍ خُطْبَةً رُوحِيَّةً
 دَلَّهَتْ مَصْرًا وَلَوْ أَنَّ بِهَا
 ذَائِدُ الْحَقِّ وَحَامِي حَوْضِهِ
 أَخَذَتْ «سَعْدًا» مِنَ «الْبَيْتِ» يَدُ
 لَوْ أَصَابَتْ غَيْرَ ذِي رُوحٍ لَمَا
 تَتَحَدَّى الطَّبَّ فِي قَفَازِهَا
 مِنْ وَرَاءِ الْإِذْنِ نَالَتْ ضَيْغَمًا
 لَمْ تُصَارِخْ أَصْرَحَ النَّاسِ يَدًا
 هَذِهِ الْأَعْوَادُ مِنْ أَدَمَ لَمْ
 نَقَلَتْ «خُوفُو» وَمَالَتْ بِ «مَنَا»
 تَخْلَطُ الْعُمَرَيْنِ شَيْبًا وَصَبًا
 زُورُقٌ فِي الدَّمْعِ يَطْفُو أَبَدًا
 تَهْلَعُ التُّكْلَى عَلَى آثَارِهِ
 تَسْكُبُ الدَّمْعَ عَلَى «سَعْدٍ» دَمًا
 مِنْ لَيَانٍ هُوَ فِي يَنْبِوعِهَا

رَايَةُ كُنْتَ مِنَ الذِّلِّ فِدَاهَا
 وَتَلَقَّى السَّهْمَ عَنْهَا فَوْقَاهَا
 كَيْفَ يَحْمِي الْأَعْزَلُ الشَّيْخُ جِمَاهَا
 مِنْ أَوَاسِيهَا وَجَفَّتْ مِنْ ذُرَاهَا
 وَدَهَا الْفَصْحَى بِمَا أَلْجَمَ فَاها
 وَدَهَا الْأَجْبَالَ مِنْهُ مَا دَهَاها
 لَمَسَتْ جُرْثُومَةَ الْمَوْتِ يَدَاهَا
 مِنْ رَحِيقِ الْوُطْنِيَّاتِ سَقَاهَا
 سَاحِرٍ رَنْ مَلِيًّا فَشَجَاهَا
 وَأَذَانُ عَشِيقَتِهِ أَذْنَاهَا
 كَالْمِزَامِيرِ وَأَنْغَامِ لُغَاهَا
 فَلَوَاتٍ دَلَّهَتْ وَحُشَّ فَلَاهَا
 أَنْفَذَتْ فِيهِ الْمَقَادِيرُ مُنَاهَا
 تَأْخُذُ الْأَسَادَ مِنْ أَصْلِ شَرَاهَا
 سَلِمَتْ مِنْهَا الثَّرِيَّا وَسُهَاها
 عِلَّةُ الدَّهْرِ الَّتِي أَعْيَا دَوَاهَا
 لَمْ يَنْلِ أَقْرَانَهُ إِلَّا وَجَاهَا
 وَلِسَانًا وَرُقَادًا وَانْتِبَاهَا
 يَهْدُ خُفَاهَا وَلَمْ يَعْرِ مَطَاهَا
 لَمْ يَفُتْ حَيًّا نَصِيبٌ مِنْ خُطَاهَا^{١٦}
 وَالْحَيَاتَيْنِ شِقَاءً وَرَفَاهَا
 عَرَفَ الضُّفَّةَ إِلَّا مَا تَلَاهَا
 فَإِذَا خَفَ بِهَا يَوْمًا شَفَاهَا
 أُمَّةٌ مِنْ صَخْرَةِ الْحَقِّ بِنَاهَا
 وَإِبَاءٍ هُوَ فِي صُمِّ صَفَاهَا

^{١٦} خوفو ومنا: من ملوك مصر الفرعونية.

لُقِّنَ الْحَقُّ عَلَيْهِ كَهْلُهَا
بَذَلْتُ مَالًا وَأَمْنًا وَدَمًا
حَمَلْتُهُ ذِمَّةً أَوْفَى بِهَا
ابْنُ سَبْعِينَ تَلَقَّى دُونَهَا
سَفَرٌ مِنْ عَدَنِ الْأَرْضِ إِلَى
قَاهِرٍ أَلْقَى بِهِ فِي صَخْرَةٍ
كَرِهَتْ مَنْزِلَهَا فِي تَاجِهِ
اسْأَلُوهَا واسألوا شَانَتْهَا
وَلَدَ الثَّوْرَةَ سَعْدٌ حُرَّةٌ
مَا تَمْنَى غَيْرَهَا نَسْلًا وَمَنْ
سَالَتِ الْغَابَةَ مِنْ أَشْبَالِهَا
بَارَكَ اللَّهُ لَهَا فِي فَرْعِهَا
أَوْلَمْ يَكْتَبْ لَهَا دَسْتُورَهَا
قَدْ كَتَبْنَاها فَكَانَتْ صُورَةً
رَقْدَ الثَّائِرِ إِلَّا ثُورَةً
قَدْ تَوَلَّاهَا صَبِيًّا فَكَوَتْ
جَالَ فِيهَا قَلَمًا مُسْتَنْهَضًا
وَرَمَى بِالنَّفْسِ فِي بُرْكَانِهَا
أَعْلِمْتُمْ بَعْدَ «مُوسَى» مَنْ يَدِ
وَطِئْتُ نَادِبَةً صَارِخَةً

وَاسْتَقَى الْإِيمَانَ بِالْحَقِّ فَتَاهَا
وَعَلَى قَائِدِهَا أَلَقْتُ رَجَاهَا
وَابْتَلَيْتُهُ بِحَقُوقِ فَقْضَاهَا
غُرْبَةَ الْأَسْرِ وَوَعْثَاءَ نَوَاهَا^{١٧}
مَنْزِلَ أَقْرَبٍ مِنْهُ قُطْبَاهَا
دَفَعَ النَّسْرَ إِلَيْهَا فَأَوَاهَا
دُرَّةً فِي الْبَحْرِ وَالْبَرِّ نَفَاهَا
لَمْ لَمْ يَنْفِ مِنَ الدَّرِّ سِوَاهَا
بِحَيَاتِي مَا جِدَّ حُرٌّ نَمَاهَا
يَلِدُ الزَّهْرَاءَ يَزْهَدُ فِي سِوَاهَا
بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَمَا جَتِ بِلَبَاهَا^{١٨}
وَقَضَى الْخَيْرَ لِمَصْرِ فِي جَنَاهَا
بِالدِّمِ الْحَرِّ وَيَرْفَعُ مُنْتَدَاهَا^{١٩}
صَدْرُهَا حَقٌّ وَحَقٌّ مُنْتَدَاهَا
فِي سَبِيلِ الْحَقِّ لَمْ تَخْضُدْ جُذَاهَا
رَاحَتِيهِ وَفَتِيًّا فَرَعَاهَا^{٢٠}
وَلِسَانًا كَلِمًا أَعْيَتْ حَدَاهَا^{٢١}
فَتَلَقَّى أَوَّلَ النَّاسِ لَظَاهَا
قَذَفَتْ فِي وَجْهِ «فِرْعَوْنَ» عَصَاهَا^{٢٢}
شَاهَ وَجْهَ الرُّقِّ يَا قَوْمُ وَشَاهَا^{٢٣}

^{١٧} الوعثاء: الطريق العسر أو المشقة.

^{١٨} اللَّبَا: جمع لباة — كقطاة — وهي أنثى الأسد.

^{١٩} المنتدى: البرلمان.

^{٢٠} يشير إلى عمل سعد باشا في الثورة العربية وهو في مقتبل شبابه.

^{٢١} أعيت: تعبت. حداهها: من قولهم حدا الإبل؛ أي ساقها وزجرها.

^{٢٢} إشارة إلى تحدي موسى لفرعون وسحرته بالعصا، فكانت كما ورد في القرآن: ﴿تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾.

^{٢٣} شاه وجه الرق: أي قبح.

ظَفِرَت بِالْكَبِيرِ مِنْ مُسْتَكْبِرِ
الْقَنَا الصُّمُّ نَشَاوَى حَوْلَهُ
أَيْنَ مِنْ عَيْنِي نَفْسٌ حُرَّةٌ
كَلَّمَا أَقْبَلْتُ هَزَّتْ نَفْسَهَا
وَجَرَى الْمَاضِي فَمَاذَا اذْكُرْتَ
أَلْمَحُ الْأَيَّامَ فِيهَا وَأَرَى
لَسْتُ أَدْرِي حِينَ تَنْدَى نَضْرَةً
حَلَّتِ السَّبْعُونَ فِي هَيْكَلِهَا
رَوْعَةُ النَّادِي إِذَا جَدَّتْ فَإِنْ
يَظْفِرُ الْعُذْرُ بِأَقْصَى سُخْطِهَا
وَلَهَا صَبْرٌ عَلَى حُسَادِهَا
لَسْتُ أَنْسَى صَفْحَةً ضَاحِكَةً
وَحَدِيثًا كِرَوَايَاتِ الْهَوَى
وَقِنَاءَةً صَعْدَةً لَوْ وَهَبْتَ
أَيْنَ مِنِّْي قَلَمٌ كُنْتُ إِذَا
خَانَنِي فِي يَوْمٍ «سَعِدٍ» وَجَرَى
فِي نَعِيمِ اللَّهِ نَفْسٌ أُوتِيَتْ
لَا الْحِجَابَ لَمَّا تَنَاهَى غَرَّهَا
زَهَبَتْ أَوَابَةً مُؤْمِنَةً
أَنْسَتَ خَلْقًا ضَعِيفًا وَرَأَتْ
مَا دَعَاها الْحَقُّ إِلَّا سَارَعَتْ

ظَافِرِ الْأَيَّامِ مَنْصُورِ لَهَا
وَسَيُوفِ الْهِنْدِ لَمْ تَصُحْ ظُبَاهَا
كُنْتُ بِالْأَمْسِ بَعَيْنِي أَرَاهَا
وَتَوَاصَى بِشَرْهَا بِي وَنَدَاهَا
وَاذْكُرِ النَّفْسَ شَيْءٌ مِنْ وَفَاهَا
مِنْ وَرَاءِ السَّنِّ تِمَثَالَ صِبَاهَا
عَلَتْ الشَّيْبَ أَمَ الشَّيْبِ عَلَاهَا
فَتَدَاعَى وَهِيَ مَوْفُورٌ بِنَاهَا
مَرَحَتْ لَمْ يُذْهِبِ الْمَرْحُ بَهَا
وَيَنَالُ الْوُدَّ غَايَاتِ رِضَاهَا
يُشْبِهُ السَّفْحَ وَحِلْمٌ عَنْ عِدَاهَا
تَأْخُذُ النَّفْسَ وَتَجْرِي فِي هَوَاهَا
جَدَّ لِلصَّبِّ حَنِينٌ فَرَوَاهَا
لِلسَّمَكِ الْأَعْزَلِ اخْتَالَ وَتَاهَا^{٢٤}
سُمَّتْهُ أَنْ يَرِثِي الشَّمْسَ رَثَاهَا
فِي الْمَرَاثِي فَكَبَا دُونَ مَدَاهَا
أَنْعَمَ الدُّنْيَا فَلَمْ تَنْسَ تُقَاهَا
بِالْمَقَادِيرِ وَلَا الْعِلْمُ زَهَاها
خَالِصًا مِنْ حَايِرَةِ الشَّكِّ هُدَاهَا
مِنْ وَرَاءِ الْعَالَمِ الْفَانِي إِلَهَا
لَيْتَهُ يَوْمَ «وَصَيْفٍ» مَا دَعَاهَا^{٢٥}

^{٢٤} القناة: الرمح. والصعدة: هي التي نبتت مستوية فلا تحتاج لتثقيف. والسماك: أحد كوكبين نيرين، يوصف أحدهما بالرامح، لأن أمامه كوكبًا صغيرًا يُسمى رمح السمك ورايته، ويوصف الآخر بالأعزل؛ حيث لا يوجد أمامه شيء. يقول: إن له قوامًا له منح للسمك الأعزل في السماء لاختال به وتباهى على السمك الرامح.

^{٢٥} وصيف: يقصد مسجد وصيف، وهي القرية التي توجد فيها ممتلكات الزعيم، والتي قضى بها.

الشاعر الموسيقي فردي^١

فتى العقل والنغمة العالِية
فلا سُوقَةً لم تكن أنْسَهُ
ولم تَخُلْ مِنْ طَيِّبِهَا بَلَدَةً
يكادُ إذا هو غَنَى الورى
يَتِيهُ على الماس بعضُ النحاسِ
وتَحَكُّمُ في النفس أوتارُهُ
وتَبْلُغُ موضعَ أوطارِها
وكم آيَةٍ في الأغاني له
إذا ما تَنادى بها العارفون
فإن همَّسوا بعدَ جهرِ بها
لقد شاب «فردي» وجاز المَشِيبَ
تُمَثِّلُ مصرَ لهذا الزمانِ
ونذُكرُ تلكَ الليالي بها
ونبكي على عِزِّنا المُنْقِضِ
فيا آل «فردي» نُعزِّيْكُمْ
فَقَدْنَا بمفقودكم شاعراً

مضى وَمَحاسنُهُ باقِية
ولا مَلِكٌ لم تَزِنْ نَادِيَهُ
ولم تَخُلْ مِنْ ذِكْرِها ناحِية
بقافية يُنطِقُ القافية
إذا ضَمَّ أَلحانَهُ الغالية
على العودِ ناطقَةً حاكِية
وتُفْشِي سَريرَتَها الخافية
هي الشمسُ ليس لها ثانية
قُلِ البرقُ والرعدُ من غادية
فخَفَقَ الحُلِيِّ على الغانية
و«عَيْدا» شَبِيبَتُها زاهية^٢
كما هي في الأعصرِ الخالية
وننشدُ تلكَ الرُّؤى السارية
ونندبُ أيامَنا الماضية
ونبكي مع الأسرةِ الباكِية
يَقِلُّ الزمانُ له راوية

^١ الشاعر الموسيقي فردي: أحد أعلام إيطاليا العالميين، وقد توفي سنة ١٩٠١م.

^٢ عيدا: رواية تمثيلية للفقيد.

إسماعيل أباطة باشا^١

تَضَوَّعَ كَافُورًا مِنَ الْخُلْدِ سَارِيَا
كَأَنَّ ثَرَى «بُرْدَيْنَ» مَسَّ الْغَوَالِيَا^٢
حَوَى السِّيفَ مَصْقُولَ الْغِرَارِ يَمَانِيَا^٣
فَلَمْ يُلَفَّ هَيَّابًا وَلَمْ يُلَفَّ نَابِيَا^٤
تَأَخَّرَ عَنْهَا بَاطِلُ الْقَوْمِ ظَامِيَا
إِذَا بَطَشَتْ يَوْمًا وَلَا الْمَالُ فَادِيَا
وَعِنْدَ جُفُوفِ الْعُودِ فِي السَّنِّ ذَاوِيَا
وَيَحْطُطْنَ فِي التُّرْبِ الْجِبَالِ الرُّوَاسِيَا
أَلَمَلْتُ عِنْدَ الرَّاحِلِينَ الْجَوَازِيَا
لَهُمْ وَمِثَالًا قَدْ يُصَادِفُ حَازِيَا
وَجَدْتُ حَسُودًا لِلرُّفَاتِ وَشَانِيَا
فَلَسْتُ لِحِيٍّ حَافِظَ الْعَهْدِ رَاعِيَا

سَقَى اللَّهُ بـ «الْكَفْرِ الْأَبَاطِيَّ» مَضْجَعًا
يَطِيبُ ثَرَى «بُرْدَيْنَ» مِنْ نَفْحِ طَيْبِهِ
فِيَا لَكَ غَمْدًا مِنْ صَفِيحٍ وَجَنْدِلٍ
وَكُنَّا اسْتَلَلْنَا فِي النَّوَائِبِ غَرْبَهُ
إِذَا اهْتَزَّ دُونَ الْحَقِّ يَحْمِي حِيَاضَهُ
طَوْتَهُ يَدٌ لِلْمَوْتِ لَا الْجَاهُ عَاصِمًا
تَنَالُ صِبَا الْأَعْمَارِ عِنْدَ رَفِيفِهِ
وَبَعْضُ الْمَنَايَا تَنْزِلُ الشُّهْدَ فِي الثَّرَى
يَقُولُونَ يَرِثِي الرَّاحِلِينَ فَوَيْحَهُمْ
أَبُوءَا حَسَدًا أَنْ أَجْعَلَ الْحَيَّ أُسُوءَ
فَلَمَّا رَثَيْتُ الْمَيِّتَ أَقْضِي حَقُّوهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْعَ الْعُهُودَ لِهَالِكٍ

^١ إسماعيل أباطة باشا: أحد سراة الزعماء في البلاد المصرية، كان صاحب الصوت المتبوع في الجمعية التشريعية، وقد توفي سنة ١٩٢٧م بعد أن ترك خلفه تاريخًا حافلًا بالمواقف الوطنية المحمودة.

^٢ بردين: قرية الفقيد، وهي من أعمال مديرية الشرقية. والغوالي: جمع غالية، وهي المسك.

^٣ الغرار من السيف: حده.

^٤ غرب السيف: حده أيضًا. وناپ: كليل لا يقطع.

وَهَبْهُ بَوَادٍ غَيْرِ وَادِيكَ نَائِيَا
وإن بَتُّمَا تستبعدانِ التلاقيا
وحَلَّيْتُ عهدًا بالمفاخرِ حاليا
مَشَايِخَ أَقْمَارًا ومُرَدًّا دَرَارِيَا^٥
أَظْلَلُ النَّدى أَقْطَارَهَا والنَّواحيا
تَلَفُّ التَّقَى في سَبِيهَا والمَعاصيا
ولا الصَّفْحَ تَوَابًا ولا العَفْوَ راجيا
ولم تُلْهِهِ دُنْيَاؤُهُ وهى ما هيا
لحاجِ اليتامى والأرامِلِ قاضيا^٦
وكنْتَ تقوم الليلَ بالنفس خاليا
فلا يصنع الخيراتِ لم يُعْطَ غاليا
تَلَفَّتَ فيه الحقُّ لم يَلَقَ حاميا^٧
وإن جَلَّتِ الأخلاقُ للعزمِ ثانيا
وقَدَّمَ كافورَ الخَصِيِّ الطَّوْاشيا
وأنزله عن رتبةِ الشُّعرِ هاجيا
ولا هو زُورُ المدحِ إن كنْتَ راضيا
حَمَلَتْ به المصباحُ في الناسِ هاديا
تُضَيُّ على الموتى الرَّجَامُ الدَّوْاجيا^٨
ألا إن عِتَقَ الخمرِ يُنْسِي الأوانيا
من الذَّامِ محمودَ الجوانِبِ زاكيا^٩

فلا يَطْوِيَنَّ الموتُ عهدَكَ من أَخٍ
أقام بأَرْضِ أَنْتَ لَاقِيهِ عندها
رَثِيئُ حَيَاةٍ بالثَناءِ خَلِيقَةٌ
وعَزِيَّتُ بَيْتًا قد تبارت سَمَاؤُهُ
إلى الله «إسماعيلُ» وانزِلْ بساحةِ
ترى الرحمةَ الكبرى وراءَ سَمَائِهَا
لدى مَلِكٍ لا يَمْنَعُ الظِّلَ لائِذَا
وأَقْسَمُ كُنْتَ المرءَ لم يَنْسَ دِينَهُ
وكنْتَ إذا الحاجاتُ عَزَّ قضاؤُهَا
وكنْتَ تُصَلِّي بالملوكِ جماعةً
ومن يُعْطَ من جَاهِ الملوكِ وسيلةً
وكنْتَ الجريءُ النَّدْبَ في كُلِّ موقفٍ
بَصُرْتُ بأخلاقِ الرجالِ فلم أَجِدْ
من العزمِ ما يُحْيِي فُحُولًا كثيرةً
وما حَطَّ من رَبِّ القصائدِ مادحًا
فليس البيانُ الهجوُّ إن كنْتَ سَاخِطًا
ولكنْ هُدَى الله الكريمِ ووَحْيُهُ
تَفِيضُ على الأحياءِ نورًا وتارةً
هياكلُ تَفْنَى والبيانُ مُخْلَدُ
ذهبت «أبا عبد الحميد» مُبْرَأً

^٥ يشبّه شيوخ الأسرة الأباضية بالأقمار، وشبابها المرد بدراري النجوم، على حين أن هذه الأقمار والنجوم تتبارى في الإشعاع والإضاءة.

^٦ حاج: جمع حاجة.

^٧ الندب: الخفيف عند الحاجة إليه.

^٨ الرجام: القبور. والدواجي جمع داجية: المظلمة.

^٩ زاكيا: أي ناميًا مباركًا.

قليلَ المَساوي في زمانٍ يرى العُلا
طَوِيناك كالماضي تَلَقَّاهِ غِمْدُهُ
فكُنْتَ على الأفواهِ سيرةً مُجَمِّل
وفَيْتَ لِمَن أدناكَ في الملكِ حِقْبَةً
أثاروا على آثارِ مَوْتِكَ ضَجَّةً
وَمَن سابَقَ التاريخَ لم يَأْمَنِ الهوى
إذا وضعَ الأحياءُ تاريخَ جيلِهِم
إذا سَلِمَ الدستورُ هانَ الذي مضى
ألا كُلَّ ذنبٍ ليليالي لأجله

ذُنُوبًا وناسٍ يخلقون المَساويا
فلم تسترِحْ حتى نَشَرْنَاكَ ماضيا^{١٠}
وكنْتَ حديثًا في المسامعِ عاليًا
فكانَ عَجيبًا أن يرى الناسُ وافيًا
وهاجُوا لنا الذكرى ورَدُّوا اللياليًا
مُلَجِّبًا ولم يَسَلِّمْ من الحَقْدِ نازيا^{١١}
عرَفْتَ المُلَاحي منهمُ والمُحابيا
وهانَ من الأحداثِ ما كانَ آتيا^{١٢}
سَدَلْنَا عليه صَفْحَنَا والتناسيا^{١٣}

^{١٠} الماضي: (في أول البيت) السيفُ، و(في آخره) من الزمن الماضي.

^{١١} نازيًا: أي واثبًا. والمُلَج: المتماذي في الخصومة.

^{١٢} الأحداث: نوازل الأيام.

^{١٣} سدَلْنَا عليه الصَفْح: أي سَحَبْنَا على كل الذنوبِ إعراضًا، وسترناها بغفراننا.

علي بهجت^١

أَحَقُّ أَنَّهُمْ دَفَنُوا عَلِيًّا
فَمَا تَرَكُوا مِنَ الْأَخْلَاقِ سَمَحًا
مَضَوْا بِالضَّاحِكِ الْمَاضِي وَالْقَوَا
فَمَنْ عَوْنُ اللِّغَاتِ عَلَى مُلِمٍّ
لَقَدْ فَقَدَتْ مُصَرِّفَهَا حَنِينًا
وَمَنْ يَنْظُرُ يَرِ الْقُسْطَاطَ تَبْكِي
أَلَمْ يَمْشِ الثَّرَى قِحَةً عَلَيْهَا
فَنَقَّبَ عَنْ مَوَاضِعِهَا عَلِيٌّ
وَلَوْلَا جُهْدُهُ احْتَجَبَتْ رُسُومًا
تَلَفَّتِ الْفَنُونُ وَقَدْ تَوَلَّى
سَلُّوا الْآثَارَ مَنْ يَغْدُو يُغَالِي
وَيُنْزِلُهَا الرُّفُوفَ كَجَوْهَرِيٍّ
وَمَا جَهْلَ الْعَتِيقِ الْحَرَّ مِنْهَا
وَحَطُّوا فِي الثَّرَى الْمَرْءَ الزَكِيَّا
عَلَى وَجْهِ التُّرَابِ وَلَا رَضِيَّا
إِلَى الْحُفْرِ الْخَفِيفِ السَّمْهَرِيَّا
أَصَابَ فَصِيحَهَا وَالْأَعْجَمِيَّا
وَبَاتَ مَكَانُهُ مِنْهَا خَلِيَّا
بِفَائِضَةٍ مِنَ الْعِبَرَاتِ رِيَّا
وَكَانَ رِكَابُهَا نَحْوَ الثَّرِيَّا
فَجَدَّ دَارِسًا وَجَلَا خَفِيَّا
فَلَا يَمْنَا تَرْيِكَ وَلَا نُؤْيَا
فَلَمْ تَجِدِ النَّصِيرَ وَلَا الْوَلِيَّا
بِهَا وَيَرُوحُ مُحْتَفِظًا حَفِيَّا
يُصَفِّفُ فِي خَزَائِنِهَا الْحَلِيَّا
وَلَا غَيْبِي الْمُقْلَدَ وَالْدَعِيَّا

^١ رثى أمير البيان «أحمد شوقي» فقيده العلم والعاديات المغفور له «علي بهجت» بهذه اليتيمة العصماء التي قيلت في حفلة تأبينه، وهي كما يراها القارئ الكريم أخذةً من أخذ السحر، ومعجزة من معجزات الشعر (نُشِرت بجريدة الأخبار بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٢٤م).

وصانَ عن القَذَى ماءَ المُحَيَّا
عَجَمَتَ بَنِيهِ لَمْ تَجِدِ الْأَبِيَّا
وليس يَرْوَنهُ الذَّنْبُ الدَنِيَّا
ولا يُغْنِي عن الأخلاق شَيْئا
من الأخلاقِ إِنْ صَحِبْتَ غَوِيَّا
عليكَ وَخُذْهُ مُكْتَمِلًا سَوِيَّا
وإن لم تمتلئُ منه دَوِيَّا
بما قد يُعْجِزُ السَّيْلُ الْأَتِيَّا
سراجًا يُعْجِبُ السَّارِي وَضِيَّا
وَرُحْتُ بَنُورِها أَحْبُو صَبِيَّا
ومن لك بِالْمُعَلِّمِ أَلْمَعِيَّا
غليظِ القلبِ أَوْ قَدَمًا غَبِيَّا
من الميلادِ رَدَّهُمْ عَصِيَّا
وإن هو ضلَّ كان السَّامِرِيَّا
إلى الحُرِّيَّةِ انْساقُوا هَدِيَّا
لنارِ الظَّالِمِينَ بها صِلِيَّا
على «المطريَّة» اندفَعَت بُكْيَا
وقبلي داخلَ الوَهْمِ الذَّكْيَا
ضلالًا أَنْ قَلَبْتُ لها الحَذِيَّا
جهلْتُ لسانَه فزَعَمْتُ غِيَّا
وصار البومُ بينهم نَبِيَّا
على فمه وأفعَى الجُرْهُمِيَّا
وراشَ من الطويلِ لها دَوِيَّا
وَعُودِرَ لَحْمُهُنَّ به شَقِيَّا
نفَضْتُ على المَنَاحَةِ مُقْلَتِيَّا
وحقُّ لَمْ يُفَاجِئِ مِسمَعِيَّا
خليلٌ عَزَّ مَصْرُعُه عَلِيَّا
يَجِدُ ظَلَمَ المَنِيَّةِ عبقريَّا

فَتَّى عافَ المَشارِبَ من دَنايَا
أَبِيَّ النفسِ في زَمَنِ إذا ما
تَعَوَّدَ أَنْ يِراه الناسَ رَأْسًا
وجدتُ العِلْمَ لا يَبْنِي نُفوسًا
ولم أَر في السِّلاحِ أَضْلَّ حَدًّا
هما كالسيفِ لا تُنصِفُه يَفْسُدُ
غديرٌ أَترَعُ الأوطانَ خَيْرًا
وقد تَأْتِي الجداولُ في خُشوعِ
حياةٍ مُعَلِّمِ طِفْئَتِ وكانتِ
سَبَقْتُ القابِسينَ إلى سَناها
أَخَذْتُ على أَرِيْبِ أَلْمَعِيَّ
وَرُبَّ مُعَلِّمٍ تَلَقَّاه فَظًّا
إذا انتدبَ البَنُونَ لها سِيوفاً
إذا رَشَدَ المُعَلِّمُ كان موسى
وَرُبَّ مُعَلِّمِينَ خَلَوْا وفاقوا
أَناروا ظُلْمَةَ الدنِيا وكانوا
أَرَقْتُ وما نَسِيتُ «بناتِ بومِ»
بَكْتُ وتَأَوَّهْتُ فَوَهَمْتُ شَرًّا
قَلَبْتُ لها الحَذِيَّ وكان مني
زَعَمْتُ الغَيْبَ خَلْفَ لسانِ طيرِ
أَصَابَ الغَيْبَ عِنْدَ الطيرِ قَوْمٌ
إذا غَنَّاهُمْ وَجَدُوا سَطيحًا
رمى الغِرْبَانُ شَيْخَ تَنوُخَ قبلي
نَحَا من نَاجِذِيهِ كُلُّ لَحْمِ
نَعَسْتُ فما وَجَدْتُ الغَمَضَ حَتَّى
فَقَلْتُ نَذِيرَةً وَبلاغَ صِدْقِ
ولَكِنَّ الذي بَكَّتِ البواكي
ومن يُفَجِّعُ بَحْرٌ عبقريَّ

ومن تَتَرَاخَ مُدَّتُهُ فَيُكْثِرُ
أُخِي أَقْبِلْ عَلَيَّ مِنَ الْمَنَايَا
فَلَمْ أَعِدِمِ إِذَا مَا الدُّورُ نَامَتْ
يُذَكِّرُنِي الدُّجَى لِدَهْ حَمِيمًا
نَشَدْتُكَ بِالْمَنِيَّةِ وَهِيَ حَقٌّ
عَرَفْتَ الْمَوْتَ مَعْنَى بَعْدَ لَفْظٍ
أَتَاكَ مِنَ الْحَيَاةِ الْمَوْتُ فَاَنْظُرْ
وَلِلْأَشْيَاءِ أَضْدَادٌ إِلَيْهَا
وَمُنْقَلَبٌ النُّجُومِ إِلَى سَكُونٍ
فَخَبَّرَنِي عَنِ الْمَاضِيْنَ إِنِّي
وَصِفْ لِي مَنْزِلًا حُمِلُوا إِلَيْهِ
وَكَيْفَ أَتَى الْغَنَى لَهُ فَقِيرًا
لَقَدْ لَبَسُوا لَهُ الْأَزْيَاءَ شَتَّى
سِوَاءٍ فِيهِ مِنْ وَاقِي نَهَارًا
وَمَنْ قَطَعَ الْحَيَاةَ صَدَى وَجُوعًا
وَمَيِّتٌ ضَجَّتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ

من الأَحْبَابِ لَا يُحْصِي النَّعِيَا
وَهَاتِ حَدِيثُكَ الْعَذَبِ الشَّهِيَا
سَمِيرًا بِالْمَقَابِرِ أَوْ نَجِيَا
هَنَالِكَ بَاتَ أَوْ خِلَا وَفِيَا
أَلَمْ يَكُ زُخْرُفُ الدُّنْيَا فَرِيَا
تَكَلَّمَ وَاكْشَفِ الْمَعْنَى الْخَبِيَا
أَكُنْتَ تَمُوتَ لَوْ لَمْ تُلَفَ حَيَا
تَصِيرُ إِذَا صَبَرْتَ لَهَا مَلِيَا
مِنَ الدَّوَرَانِ يَطْوِيهِنَّ طَيَا
شَدَدْتُ الرَّحْلَ أَنْتَظِرُ الْمُضِيَا
وَمَا لَمْحُوا الطَّرِيقَ وَلَا الْمُطِيَا
وَكَيْفَ ثَوَى الْفَقِيرُ بِهِ غَنِيَا
فَلَمْ يَقْبَلْ سِوَى التَّجْرِيدِ زِيَا
وَمَنْ قَذَفَ الْيَهُودَ بِهِ عَشِيَا
وَمَنْ مَرَّتْ بِهِ شَبَعًا وَرِيَا
وَأَخَرُ مَا تُحِسُّ لَهُ نَعِيَا

إيضاح لا بد منه

حين طُلب إليّ أن أشرف على طبع هذا الجزء من «الشوقيات» لم يكن في الوقت متّسع لإخراجه على كل ما كنت أتوق له من ضبط وشرح وتعليق؛ فقد كان الاتفاق بين الناشر والمطبعة قد تم على إنجازها في عشرين يوماً لا تزيد، ولقد كان لزاماً عليّ أن أكون أداة إنجاز لا أداة تعويق.

لهذه الاعتبارات رأيت أن أسير في العمل على الوجه الآتي:

أولاً: ترك الشرح والضبط كلما أمّن اللبس ووضح الكلام، سواء أكان خوف اللبس من جهة الإعراب أم من جهة النطق بالمفردة اللغوية، وحيث وُجد اللبس فكان لا بد من الضبط أو التعليق أو كليهما.

ثانياً: رأيت أيضاً أن أترك الكلمات التي تُستعمل عين الفعل المضارع فيها على وجهين أو ثلاثة بدون شكل مطلقاً حيث عدم الخطأ مضمون.

أما الشرح فتركته؛ لا لضيق الوقت ومراعاة الاختصار فقط، بل لأنني أحببت ألا أتحكم في ذوق القراء والأدباء وأفرض عليهم فهمي أنا؛ فقد يجوز أن يفهم البيت على أكثر من وجه.

وهذا على ما فيه من تطويل فهو تمرين للعقول على نوع من الكسل الذهني أحب أن يتحاشاه كل طابعي الدواوين.

أما بعد، فكل ما في هذا الكتاب من خطأ أو من مؤاخذه فهو إليّ، أما ما فيه من فضل فمرجهه إلى الأستاذ حسين شوقي.

فإلى ذوقه وحسن تنسيقه يرجع كل ما في هذا الكتاب من ذوق وجمال.

محمود أبو الوفا

الجزء الرابع

مقدمة

بقلم محمد سعيد العريان

كان شوقي — رحمه الله — شاعرًا ملء سمع الشرق، ما يلفظ من قولٍ إلا لقفته الآلاف عن الآلاف من أبناء الأمة العربية، تُنشده وتتغنى به وتضربه مثلًا، وما أحسب شاعرًا في الأمة العربية منذ كانت وكان الشعر، قد ذهب صيته في الناس حيًّا مذهب شوقي أو بلغ مبلغه، وقد كان حقيقًا بما بلغ، لا من أنه شاعر العربية الأول، ولا من أن الأمة العربية قد عقلت فلم تُنجب مثله في تاريخها المتطاوّل، ولكنه جاء على فترةٍ انقطع فيها أمل الأمل في نهضة الشعر العربي بعد ما ناله من الانحطاط والركّة وضيق المذهب وسوء التناول، وكأنما كان البارودي من قبله إرهابًا له ودعوةً إليه وتنبيهًا إلى فضله ومكانه. وقد كان البارودي بما اجتمع له من أدوات الشعر، وبما تهيأ له من أسبابه العامة والخاصة، أول من بعث الحياة في هذا الجسد الهامد، ونفخ فيه من قوّته، وخلع عليه من شبابه، فكان تصديرًا بليغًا لهذا الفصل الجديد في تاريخ الشعر العربي، فلما خلا مكانه تلقّت الناس ينظرون على حذر وخشية يريدون أن يسمعوا نغمًا صافيًا كهذا الذي عودهم البارودي أن يسمعوه من إنشاده وتطريبه، وما منهم إلا من ظنّ أن الشعر بعده منتكسٌ بعَلّته، وأن الرجل الذي كان يمدّه بأسباب الحياة والقوة قد ذهب فلا سبيل إليه بعد ولا أمل، وفي هذه الفترة ظهر شوقي.

على أن ذلك ليس هو كل السبب في زهاب صيت شوقي، وامتداد شهرته التي تأمر بها على شعراء الجيل، وحلّ في الصدر من ناديمهم؛ فقد انتدب والشرق على أبواب نهضة قد تهيأت له أسبابها واكتملت وسائلها، وإن آملًا قوية لتجيش في نفوس أهله وتضطرع

في خواطرهم؛ فإنهم لَيَحْسُون أثرها فيما تنفعل به عواطفهم ولا يُحسنون لها تعبيرًا ولا بيانًا، فختار شوقي أن يكون لسان هذه الأمة فيما تحب وتكره، وفيما تأمل وتحذر، وفيما تنفعل به عواطفها من ذكريات وحوادث، وكان لسان صدق في التعبير عن كل أولئك في بيان ساحر ولفظ رصين، فلم تلبث الأمة العربية أن رأت فيه شاعرها، فألقت إليه مقاليد الإمارة وبايعته عن رضا.

وقد ذهب شوقي إلى ربه منذ أكثر من عشر سنين،^١ وما زال صدى أَلحانه يتردد عذبًا مُطربًا، وما زال مكانه من ديوان العربية خاليًا لم يتأهل بعدُ شاعرٌ من شعراء الجيل أن يقتعد ذروته.

بلى، في مصر وفي سائر بلاد العربية شعراء، وإن منهم مَنْ بلغ في فنه ما لم يبلغ شوقي، ولكنهم فيما اختاروا لأنفسهم من مذاهب الشعر لم يبلغ واحدٌ منهم أن يكون من الأمة ما كان لها شوقي؛ لسانها المعبر عن كل ما يُلَم بها من الأحداث، وما يهمس في ضميرها من الأمانى.

أمن عجز أم من قوة كان شوقي شاعر الأمة وكان هؤلاء شعراء أنفسهم؟ سؤال لست أجد اليوم جوابه، وإن العربية لتدخل في تاريخ جديد، فلعل هذا التاريخ أن يجيب في غدٍ عن هذا التساؤل حين يرسم للشاعر مهمته، ويحدد مكانه من نفسه ومن أمته، وأيًا ما كان الجوانب فلن يضيع حق هذا الشاعر الذي خط هذه الصفحات الأولى من التاريخ، فحفظ للشعر العربي شبابه، وخطا به خطاه إلى القوة والمجد والخلود.

وبعدُ، فهذا هو الجزء الرابع من الشوقيات، دفعه إليّ مَنْ دفعه قصاصاتٍ من صحف، وجزازاتٍ من ورق، وبقيةً من مطبوعات أو مخطوطات أكلها اليل؛ لأنظر في ترتيبها وتبويبها وإخراجها ديوانًا.

ومن التجوُّز أن نسَمِّي ذلك جزءًا؛ فما هو إلا بقية أو شيء من البقية التي لم تُنشر في الأجزاء الثلاثة الأولى من الديوان؛ فليس يجمعها باب ولا تضمُّها وحدة، ولا تميِّزها خصيصة من خصائص شعر شوقي، وإن منها لآخِر ما قال وأوائل ما نظم من شعر الصُّبا، ولقد تكون هذه وحدها خصيصةً لهذه المجموعة من شعر شوقي؛ فإن الباحث ليجد فيها مادة تُعينه على الموازنة بين ما كان هذا الشاعر في أولاه وما صار في آخرته،

^١ ظهرت الطبعة الأولى من هذا الجزء سنة ١٩٤٣م.

وإنها بذلك لحقيقة أن تُعِينه على باب من القول لعل أسبابه لا تنتهي له من غير أن ينظر في هذا الجزء من ديوانه.

على أن ذلك الجزء ليس هو كل ما بقي من شعر شوقي بعد الأجزاء الثلاثة الأولى، ولكنه كل ما دُفِع إليّ مما تهيأ لجامعه أن يجمعه، وأرى شيئاً ما قد فاته أو هو قد أغفل نشره استجابةً لبعض الدواعي العامة أو الخاصة، أو لعل الشاعر — رحمه الله — كان له رأي في إغفال شيء من نظمه لجِدَّة أسباب أو زوال أسباب، ومهما يكن من شيء فهذه حقيقة ينبغي أن أذكرها لعل سائلاً يسأل من بعد أو لعل مدَّعيًا أن يدعي.

وقد رتبت هذا الجزء على ستة أبواب:

الباب الأول منها «متفرقات في السياسة والتاريخ والاجتماع»، وهو اثنان وأربعون وثمانمائة بيت في ثلاث وثلاثين قطعة،^٢ وإن منها آخر ما أنشأ،^٣ وإن منها القديم الذي تناولت عليه السنون وتراكت الحوادث حتى ليوشك أن ينساه التاريخ.^٤

والباب الثاني «الخصوصيات»، وهو ستة وخمسون ومائة بيت في عشرين قطعة،^٥ أكثرها في الحديث عن نفسه وولده وبعض خاصته، وإنه فيما تحدث عن ولده من هذا الباب ليهيئ للباحث النفسي أن يقول قولاً في الشاعر الأب، وفي أبوة الشاعر.

والباب الثالث «الحكايات»، وهو تسعة وسبعمائة بيت في خمس وخمسين قطعة،^٦ أكثرها مما نشره من قبل في طبعة «الشوقيات» الأولى، ولغة الشاعر في هذا الباب غير لغته في سائر شعره، وإنه لباب يُسمح فيه للشاعر أن يترخَّص، وأحسبه في بعض ما قص من الحكايات في هذا الباب كان يرمز لبعض ما مر به من كيد الناس في حياته ويعرِّض.^٧

والباب الرابع «ديوان الأطفال»، وهو ثلاثة وعشرون ومائة بيت في عشر قطع، وأكثره من الأناشيد العامة التي نظمها لمناسباتها، ثم أرادها لتكون مما يُنشده الناشئة.

^٢ زيد إليها في الطبعة الثانية اثنان وتسعون ومائة بيت في خمس قطع.

^٣ انظر «فتية الوادي عرفنا صوتكم»، يخاطب بها الشباب الذين نهضوا بمشروع القرش في سنة ١٩٣٢م، وكانت تلاوتها يوم وفاته.

^٤ انظر «معالي العهد» و«رسالة الناشئة».

^٥ زيد إليها في الطبعة الثانية ثلاثة عشر بيتاً في قطعة.

^٦ زيد إليها في الطبعة الثانية واحد وعشرون بيتاً في قطعة.

^٧ انظر «نديم الباذنجان» و«الثعلب والأرنب في السفينة» وغيرهما.

والخامس «من شعر الصِّبا»، وهو تسعة وتسعون بيتاً في ثمانى قطع من أوليات شعره.

أما الباب السادس «محبوبيات»، فهو باب طريف يشير إلى ما كان من ود بين الشاعر وصديقه الدكتور محبوب ثابت، وعدّته ثلاثة وستون بيتاً في أربع قطع، ولا أحسب ذلك كل ما كان من «محبوبيات» شوقي، ولكنه كلُّ ما أُلقيَ إليّ.^٨ فهذا هو الجزء الرابع من «الشوقيات» كما هو بين يدي قارئه، ولعلني كنت مسئولاً وقد حملت تبعة نشره أن أشرح أو أعلّق على بعض ما قد يحتاج إلى التعليق والشرح من أبياته، ولكنني آثرت والكتاب في طبعته الأولى أن أجعله خالصاً لشعر شاعره، وألا أستأثر بالتوجيه في الشرح كما يقول صديقي الأستاذ محمود أبو الوفا في كلمته بالجزء الثالث من الديوان.

على أن بعض كلمات قد اقتضاني موضوعها أن أجليها ببعض الشرح، فاكتفيت من ذلك بالنزر في بعض الصفحات، مكثفياً بما أثبت في رأس كل قصيدة من ذكر السبب والحادثة وبعض التاريخ إن دعا إلى ذلك موضوعها. وإني لأرجو بذلك أن أكون قد أدّيت واجبي على وجه يُعذرني عند الناقد من بعض ما قد يراه في هذا الجزء من هنات، وما أبرئ نفسي.

^٨ وليس يفوتني أن أشير إلى قطعتين لم تُنشرا في هذا الجزء: إحداهما بعنوان «دشواي» والأخرى بعنوان «الرقيب»، وكنت قيد هياتهما للنشر في الطبعة الأولى في موضعهما من باب «المتفرقات»، ولكن رقيب المطبوعات لم يأذن في نشرهما لظروف اقتضت هذا المنع في ذلك التاريخ (سنة ١٩٤٣م)، ثم غاب عني أصلهما فلم يتهيأ لي نشرهما في هذه الطبعة كذلك.

متفرقات

في السياسة والتاريخ والاجتماع

الجامعة المصرية

(أنشأها في حفلة افتتاح منشآت الجامعة المصرية سنة ١٩٣١م.)

تاج البلاد تحيةً وسلامُ
العلم والمُلك الرفيعُ كلاهما
فكأنك المأمونُ في سلطانه
أهدى إليك الغربُ من ألقابه
من كلِّ مملكةٍ وكلِّ جماعةٍ
ما هذه الغُرفُ الزواهرُ كالضحى
من كلِّ مرفوع العمودِ مُنورٍ
تتحطّم الأُميَّة الكبرى على
هذا البناءِ الفاطميِّ منارةً
مهدٌ تهياً للوليدِ وأيكةً
رَدَّتْكَ مصرُ وصحَّتِ الأحلامُ
لك يا «فؤاد» جلالَةٌ ومقامُ
في ظلِّك الأعلامُ والأقلامُ^١
في العلمِ ما تسمو له الأعلام
يسعى لك التقديرُ والإعظام
الشَّامخاتُ كأنها الأعلام
كالصبحِ مُنصديعٌ به الإظلامُ
عرصاته وتُمزقُ الأوهام
وقواعدٌ لحضارةٍ وِدعام
سَيرنُ فيها بلبلٌ وحمَام

^١ المأمون: ابن الرشيد العباسي، وعصره من أزهى عصور الدولة الإسلامية.

شُرْفَانُهُ نَوْرُ السَّبِيلِ وَرَكْنُهُ
وَمَلَأَبُ تَجْرِي الْحِظْوُظُ مَعَ الصَّبَا
يَمْشِي بِهَا الْفَتْيَانُ هَذَا مَا لَهُ
أَلْقَى أَوَاسِيَهُ وَطَالَ بَرْكُنِهِ
مَنْ آلَ إِسْمَاعِيلَ لَا الْعَمَاتُ قَدْ
لَمْ يُغَطِّ هَمَّتَهُمْ وَلَا إِحْسَانَهُمْ
وَبَنَى فَوَادُ حَائِطِيهِ يُعِينُهُ
انْظُرْ أَبَا الْفَارُوقِ غَرْسَكَ هَلْ دَنْتَ
وَهَلْ انْتَنَى الْوَادِي وَفِي فَمِهِ الْجَنَى
فِي كُلِّ عَاصِمَةٍ وَكُلِّ مَدِينَةٍ
كَمْ نَسْتَعِيرُ الْآخَرِينَ وَنَجْتَدِي
الْيَوْمَ يَرْعَى فِي خِمَائِلِ أَرْضِهِمْ
حَبٌّ غَرَسْتَ بِرَاحَتِكَ وَلَمْ يَزَلْ
حَتَّى أَنْافَ عَلَى قَوَائِمِ سُوقِهِ
فَقَرِيبُهُ لِلْحَاضِرِينَ وَلِيَمَّةٌ
عِظَةٌ لِفَارُوقٍ وَصَالِحٌ جِيلُهُ
وَنَمُودُجٌ تَحْذُو عَلَيْهِ وَلَمْ يَزَلْ
شَيَّدَتْ صَرْحًا لِلذَّخَائِرِ عَالِيًا
رَفٌّ عُيُونُ الْكُتُبِ فِيهِ طَوَائِفُ

لِلْعَبْقَرِيَّةِ مَنَزَلٌ وَمُقَامٌ
فِي ظِلِّهِنَّ وَتُوَهَّبُ الْأَقْسَامُ^٢
نَفْسٌ تُسَوِّدُهُ وَذَاكَ عِصَامُ^٣
نَفْسٌ مِنَ الصَّيْدِ الْمَلُوكِ كِرَامُ^٤
قَصَّرَنَ عَنْ كَرَمٍ وَلَا الْأَعْمَامِ
بَانَ عَلَى وَادِي الْمُلُوكِ هُمَامُ
شَعَبٌ عَنِ الْغَايَاتِ لَيْسَ يَنَامُ
ثَمَرَاتُهُ وَبَدَتْ لَهُ أَعْلَامُ
وَأَتَى الْعِرَاقُ مُشَاطِرًا وَالشَّامُ
شُبَانُ مِصْرَ عَلَى الْمَنَاهِلِ حَامُوا
هَيْهَاتَ مَا لِلْعَارِيَاتِ دَوَامُ
نَشَأُ إِلَى دَاعِي الرِّحِيلِ قِيَامُ
يَسْقِيهِ مِنْ كِلْتَا يَدَيْكَ غَمَامُ
ثَمَرًا تَنْوُوْءُ وَرَاءَهُ الْأَكْمَامُ
وَبَعِيدُهُ لِلْغَابِرِينَ طَعَامُ
فِي مَا يُنِيلُ الصَّبْرُ وَالْإِقْدَامُ
بَسْرَاتِهِمْ يَتَشَبَّهُ الْأَقْوَامُ
يَأْوِي الْجَمَالَ إِلَيْهِ وَالْإِلْهَامُ
وَجَلَائِلُ الْأَسْفَارِ فِيهِ رُكَامُ

^٢ الأقسام: الحظوظ.

^٣ يشير إلى قول النابغة:

نَفْسٌ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَلِمَتْهُ الْكَرَّ وَالْإِقْدَامَا

وعصام حاجب النعمان بن المنذر، وإليه يُنسب كل عصامي.

^٤ الأواسي: الدعائم والأبنية المحكمة.

حتى كأن لم يلتهمه ضرامٌ
 برُدَّ على ما لامست وسلام
 جرحُ الزمانِ بعُرفِها يلتام
 بعثت تليدَ المجدِ وهو رمام
 أرايت الاستقلالَ كيف يُرام
 حادٍ لكلِّ جماعةٍ وزمام
 ومثابةُ الأوطانِ حينَ تُضام
 للعبقريّةِ والنبوغِ قيام
 أو دورَ تعليمٍ هي الأجسام
 للطالبين ولا البيانُ كلام
 وعليك من آمالِ مصرٍ زحام
 أعيادهُ في الدهرِ وهي عظام
 قعدَ البُناةُ وقامت الأهرام
 فاهتزَّت الرِّبواتُ والآكام
 تعنو الجِباهُ لعِزِّه والهَامُ
 وتألَّفت دُولٌ عليه جِسام
 ومراشدُ الدستورِ والإسلام
 فالنيلُ زهُوٌ والضُّفافُ وسام
 سبغَ النوالِ عليه والإنعام
 وتردَّدت في أيِّكها الأنعام
 ويُشدُّ للدنيا إليه حِزام
 تُملِّي الثناءَ وتكتبُ الأيام
 من جهدٍ خيرٍ كهولةٍ أعوام
 ولكلِّ ما تبني يداك تمام

إسكندريّة عاد كُنزُك سالمًا
 لَمَّتْهُ من لهبِ الحريقِ أناملُ
 وأسَّتْ جِراحَتِكَ القديمةَ راحةً
 تَهَبُّ الطريفَ من الفَخارِ وربما
 أرايت رُكنَ العلمِ كيف يُقام
 العلمُ في سُبُلِ الحضارةِ والعُلا
 باني الممالكِ حينَ تنشُدُ بانِيًا
 قامت رُبوعُ العلمِ في الوادي فهل
 فهما الحياةُ وكلُّ دورٍ ثقافةُ
 ما العلمُ ما لم يَصنِّعه حقيقةُ
 يا مِهْرَجانَ العلمِ حوْلَكَ فرحةُ
 ما أشبهتَكَ مواسمُ الوادي ولا
 إلا نهارًا في بشاشةٍ صُبِجِه
 وأطال «خوفو» من مَوَاقِبِ عِزِّه
 يُومي بتاجٍ في الحضارةِ مُعرق
 تاجٌ تنقَلُ في العُصورِ مُعظَّمًا
 لَمَّا اضطلعت به مشى فيه الهدى
 سبقت مَوَاقِبُكَ الربيعِ وحُسْنُهُ
 الجيزةُ الفيحاءُ هزَّت مَنكَبًا
 لبست زخارفها ومست طيبها
 قد زدتها هرمًا يُحجُّ فِناؤه
 تقفُ القرونُ غداً على درجاته
 أعوامٌ جهدٍ في الشبابِ وراءها
 بلغَ البناءُ على يدِكَ تمامُهُ

° يشير إلى حديث التاريخ عن حريق مكتبة الإسكندرية.

بنك مصر

(أُنشِدَتْ في مجلس الاحتفال بوضع الحجر الأول في أساس «بنك مصر» في مايو ١٩٢٥).

نُراوِخُ بالحوادثِ أو نُغادِى
ونحمِّدُها وما رَعَتِ الضُّحايا
لحايها اللهُ باعْتَنَّا خيالاً
مَشِينَا أَمْسٍ نَلْقَاهَا جَمِيعاً
أَظَلَّتْنا عن الإصلاحِ حتى
تُلاقِينا فلا نَجِدُ الصِّياصِي
ومن لَقِيَ السَّبَّاعَ بغيرِ ظُفْرِ
خَفَضْنَا من عُلوِّ الحَقِّ حتى
ولمَّا لم نَنَلْ للسيفِ رَدًّا
وأَقْبَلْنَا على أقوالِ زورٍ
ولو عُذْنَا إليها بعدَ قرنٍ
وكم سحرِ سَمِعْنَا منذَ حينٍ
هنيئاً للعدوِّ بكلِّ أرضٍ
وبُعْدًا للسيادةِ والمَعالي
ورُبَّ حَقِيقَةٍ لا بدَ منها
ولو طلعوا عليها عالِجوها
تُعَدُّ لحادثِ الأيامِ صبراً
وتخلفُ بالنَّهى البِيضَ المَواضي
لَمَحْنَا الحِظَّ ناحِيَةً فلمَّا
وليس الحِظُّ إلا عبقريًّا
ونحنُ بنو زمانٍ حُولِيٍّ

وَنُنَكِّرُها ونُعْطِيها القِيادِ
ولا جَزَتْ المواقِفَ والجِهادِ
من الأحلامِ واشتَرَتْ اتِّحادِ
ونحنُ اليومَ نَلْقَاهَا فُرَادِى^٦
عَجَزْنَا أنْ نُناقِشَها الفسادِ
ونَلْقَاهَا فلا نَجِدُ العَتادِ^٧
ولا نابَ تَمَزَّقَ أو تَفادِى
توهَّمْنَا السِّيادَةَ أنْ نُسادِ
تَنازَعْنَا الحِمايِلَ والنَّجادِ
تَجِيءُ الغيِّ تَقْلِبُهُ رِشادِ
رَجِمْنَا الطُّرسَ منها والمِدادِ
تضاعَلْ بينَ أعينِنا ونادِى
إذا هو حلٌّ في بِلَدِ تَعادِى
إذا قَطَعَ القِرابَةَ والودادِ
خَدَعْنَا النِّشْرَ عنها والسَّوادِ
بِهَمَّةٍ أنْفُسٍ عَظُمَتْ مُرادِ
وأَوْنَةً تُعَدُّ له عِنادِ
وبالْخُلُقِ المَثَقَّقَةِ الصَّعادِ
بَلَّغْنَاهَا أَحْسَنَ بِنَا فحادِ
يُحِبُّ الأَريحيَّةَ والسَّدادِ
تَنَقَّلَ تاجِرًا ومَشى ورادِ

^٦ يشير إلى ما كان من حدَّة الخلاف بين زعماء مصر في ذلك التاريخ.

^٧ الصياصي: الحصون. والعتاد: عدَّة الحرب.

إذا قعد العبادُ له يسوق
وتعجبه العواطفُ في كتاب
يؤمننا على الدستور أنا
أبو الفاروق نرجوه لفضل
ملأنا باسمه الأفوّة فخرًا
نُناجيه فنسترعي حكيماً
ولم يزل المحبّب والمفدّى
تدقق مصرف الوادي فروى
دعا فتنافست فيه نفوس
تقدّم عونها ثقة ومالاً
وأقبل من شباب القوم جمع
كأن جوانب الدارِ الخلايا
فيا داراً من الهَمِّ العوالي
تأنّى حين أسسك ابنُ حرب
ولا تُرجى المتانةُ في بناءٍ
بنى الدارَ التي كنّا نراها
ولم يبعُد على نفسٍ مرامٌ
ولم أرَ بعدَ قدرته تعالى
جرى والناسُ في ريبٍ وشكٍّ
وعودِيّ دونها حتى بناها
يهونُ الكيدُ من أعدى عدوّ
فجاءت كالنهارِ إذا تجلّى
نصونُ كرائمِ الأموالِ فيها

شرى في السوق أو باع العبادا
وفي دمع المُشخص ما أجادا
نرى من خلف حوزته فؤادا
ولا نخشى لِمَا وهب ارتدادا
ولقّبناه بالأَمس «المكادا»^٨
ونسأله فنستجدي جوادا
ومرهم كل جرح والضّما
وصاب غمامه فسقى وجادا
بمصر لكلّ صالحه تُنادى
وأحياناً تُقدّمه اجتهادا
كما بنت الكهولُ بنى وشادا
وهم كالنحل في الدار احتشادا
سقيت التّبر لا أرضى العهدا^٩
وحين بنى دعائمك الشّدادا
إذا البناء لم يُعط اتّنادا
أمانِي المُخيل أو رُقادا
إذا ركبّت له الهَمّ البِعادا
كمقدرة ابن آدم إن أرادا
يروم السّبق فاخترق الجيادا
ومن شأن المُجدد أن يُعادى
عليك إذا الولي سعى وكادا
علوّا في المَشارِق وانطِبادا^{١٠}
وننزلها الخزائن والنّضادا

^٨ الميكادو: الملك في لغة اليابان.

^٩ العهد: المطر.

^{١٠} الانطِباد: الارتفاع.

وَنُخْرِجُهَا فَتَكْسَبُ ثُمَّ تَأْوِي
وَلَمْ أَرِ مِثْلَهَا أَرْضًا أَغْلَتْ
وَلَا مُسْتَوْدَعًا مَالًا لِقَوْمٍ
وَمِنْ عَجَبٍ نُبْثَتُهَا أَصُولًا
كَأَنَّ الْقَطْرَ مِنْ شَوْقٍ إِلَيْهَا
وَلَوْ مَلَكَتْ كَنُوزَ الْأَرْضِ كَفِّي
وَلَوْ أَنَّ النُّجُومَ عَنَّتْ لِحُكْمِي

رُجُوعَ النَّحْلِ قَدْ حُمِّلْنَ زَادًا
وَمَا سُقِيَتْ وَلَا طَعِمَتْ سَمَادًا
إِذَا رَجَعُوا لَهُ أَدَى وَزَادًا
وَتِلْكَ فِرْعَوْنُهَا تَغْشَى الْبِلَادَا
سَمَا قَبْلَ الْأَسَاسِ بِهَا عِمَادَا
جَعَلْتُ أَسَاسَهَا مَاسًا وَرَادَا
فَرَشْتُ النَّيِّرَاتِ لَهَا مِهَادَا

دار بنك مصر

(نظمها لتتشد في حفلة افتتاح الدار الجديدة لبنك مصر في يونيو سنة ١٩٢٧م.)

نَبَذَ الْهَوَى وَصَحَا مِنَ الْأَحْلَامِ
ثَابَتَ سَلَامَتُهُ وَأَقْبَلَ صَحْوُهُ
صَاحَتْ بِهِ الْأَجَامُ هُنْتُ فَلَمْ يَنْمِ
أُمٌّ وَرَاءَ الْكَهْفِ جَهْدُ حَيَاتِهِمْ
نَفَضُوا الْعِيُونَ مِنَ الْكُرَى وَاسْتَأْنَفُوا
مَنْ لَيْسَ فِي رُكْبِ الزَّمَانِ مُغْبِرًا
فِي كُلِّ حَاضِرَةٍ وَكُلِّ قَبِيلَةٍ
مَنْ كُلُّ مُمْتَنِعٍ عَلَى أَرْسَانِهِ
يَا مِصْرُ أَنْتِ كِنَانَةُ اللَّهِ الَّتِي
اسْتَقْبَلِي الْأَمَالَ فِي غَايَاتِهَا
وَحُذِي طَرِيفَ الْمَجْدِ بَعْدَ تَلِيدِهِ
يُعْنَى بِسُودٍ قَوْمِهِ وَحَقُوقِهِمْ
مَا تَاجِكِ الْعَالِي وَلَا نُوَابِئُهُ
جَرَّبَتْ نَعْمَى الْحَادِثَاتِ وَبُؤْسَهَا
عَبَسَتْ إِلَيْنَا الْحَادِثَاتُ وَطَالَمَا
وَثَبَتْ بِقَوْمٍ يَضِمُّونَ جِرَاحَهُمْ

شَرَقُ تَنْبَهَ بَعْدَ طَوْلِ مَنَامٍ
إِلَّا بَقَايَا فَتْرَةٍ وَسَقَامٍ
أَعْلَى الْهَوَانِ يُنَامُ فِي الْأَجَامِ
حَرَكَاتُ عَيْشٍ فِي سُكُونِ جَمَامٍ
سَفَرَ الْحَيَاةِ وَرِحْلَةَ الْأَيَّامِ
فَاعِدُّهُ بَيْنَ غَوَابِرِ الْأَقْوَامِ
هَمٌّ ذَهَبَنَ يَزْمَنُ كُلَّ مَرَامٍ
أَوْ جَامِعٍ يَعْدُو بِنِصْفِ لِجَامٍ
لَا تُسْتَبَاحُ وَلِلْكِنَانَةِ حَامٍ
وَتَأْمَلِي الدُّنْيَا بِطَرْفِ سَامٍ
مَنْ رَاحَتِي مَلِكٍ أَغْرَى هُمَامٍ
وَيَذُودُ دُونَ حِيَاضِهِمْ وَيُحَامِي
بِالْحَانِثِينَ إِلَيْكَ فِي الْإِقْسَامِ
أَعْلِمْتَ حَالًا أَذْنَتْ بِدَوَامٍ
نَزَلْتُ فَلَمْ نَغْلَبْ عَلَى الْأَحْلَامِ
وَيُرْقِدُونَ نَوَازِي الْأَلَامِ

والحقُّ نِعَمَ مُثَبَّتُ الأقدام
وعلى عواقبِ شحنةٍ وخصام
إنّا بنو الإقدام والإحجام
فإذا وثَبْنَ فنحن غيرُ نيام
لحوادثٍ خلفَ الغيوبِ جسام
المُنزَلونَ مَنَازِلَ الأكرام^{١١}
والخالفونَ أُمِّيَّةً في الشَّام
يَبْنونَ فيه حضارةَ الإسلام
لَمَّ الضيَاءِ حَواشيَ الإِظلام
وهوى الديارِ وراءَ كلِّ غرام
وثَنُوا إلى الفُسطاطِ فضلَ زمام
يَوْمًا أغرَّ مُلَمَّحَ الأعلام
ما كان مُمتنِعًا على الأوهام
بالقيد لا من هِمَّةِ الحُكَّام
وتجمَّعتَ لتحيَّةٍ وسلام^{١٢}
عُرسُ البيانِ وموكبُ الأَقلام
وكأنني فيه أبو تَمَّام^{١٣}
يَروي فينَتنظُمُ العصورَ كلامي
بالصبرِ آوَنَةً وبالإقدام
خدعُ الثَناءِ ولا عوادي الذَّام
يَجِدُونِ نقصًا عندَ كلِّ تمام
من أين جئتَ له بدارٍ مُقام

الحقُّ كلُّ سَلاحِهِم وكفاجِهِم
يَبْنونَ حائطٌ مُلْكِهِم في هُدْنِهِ
قُلْ للحوادثِ أَقْدَمِي أو أَحْجَمِي
نحن النِّيامُ إذا الليالي سالت
فينا من الصبرِ الجميلِ بَقِيَّةُ
أين الوفودُ المُلتَقونَ على القَرى
الوارثونَ القُدسَ عن أحبارِهِ
الحاملو الفُصحى ونورِ بيانِها
ويؤلَّفونَ الشرقَ في بُرْهانِها
تاقوا إلى أوطانِهِم فتحَمَّلوا
ما ضرَّ لو حبَسوا الرِّكائبُ ساعةً
ليُضِيفَ شاهدُهُم إلى أيامِهِ
ويرى ويسمَعُ كيف عادَ حَقِيقَةُ
من هِمَّةِ المحكومِ وهو مُكَبَّلُ
مِصرُ التَّقَتِ في مَهرِجانِ مُحَمَّدٍ
هَزَّتْ مَنَاكِبَها له فكأنه
وكأنه في الفَتَحِ عُمُورِيَّةُ
أَسْمُ العصورِ بِحُسْنِهِ وأنا الذي
شرفًا مُحَمَّدُ هَكَذا تُبْنى العُلا
هِمُّ الرِّجالِ إذا مَضَتْ لَمْ يَثْنِها
وتَمَّامُ فَضْلِكَ أن يَعيِبَكَ حُسْدُ
المالِ في الدنيا مَنَازِلُ نُقْلَةٍ

^{١١} يعني وفود البلاد العربية التي اجتمعت لتكريمه ومبايعته بإمارة الشعر في مارس من تلك السنة نفسها.

^{١٢} هو المرحوم محمد طلعت حرب باشا مؤسس البنك.

^{١٣} قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ذائعة مشهورة.

فرفعتَ إيوأنا كُرْكِنِ النجمِ لم
صيرتَ طينتهُ الخلودَ وجئتَ من
هذا البناءِ العبقريِّ أتى به
كانت به الأرقامُ تُدرِكُ حِسْبَةً
يا طالما شغفَ الظنونَ وطالما
ما زلتَ أنتَ وصاحبك بِرُكْنِهِ
أَسَّسْتُمْ بِالْحَاسِدِينَ جِدَارَهُ
شَرَكَاتُكَ الدُّنْيَا العَرِيضَةُ لَمْ تُنَلِّ
اللَّهُ سَخَّرَ لِلْكِنَانَةِ خَازِنًا
وَكأنْ عَهْدُكَ عَهْدُ يَوْسُفَ كُلُّهُ
وَكأنْ مَالُ الْمُؤَدِّعِينَ وَزَرَعَهُمْ
مَا زِلْتَ تَبْنِي رُكْنَ كُلِّ عَظِيمَةٍ

يُضْرَبُ عَلَى كِسْرَى وَلَا بَهْرَامِ
وَادِي الْمُلُوكِ بِجَنْدِلٍ وَرَغَامِ
بَيْتٌ لَهُ فَضْلٌ وَحَقٌّ ذِمَامِ
وَالْيَوْمَ جَاوَزَ حِسْبَةَ الْأَرْقَامِ
كَثُرَ الرَّجَاءُ عَلَيْهِ فِي الْإِلْمَامِ
حَتَّى اسْتَقَامَ عَلَى أَعَزِّ دِعَامِ
وَبَنَيْتُمْ بِمَعَاوِلِ الْهَدَامِ
إِلَّا بِطُولِ رَعَايَةٍ وَقِيَامِ
أَخَذَ الْأَمَانَ لَهَا مِنَ الْأَعْوَامِ
ظِلٌّ وَسُنْبِلَةٌ وَقَطْرُ غَمَامِ
فِي رَاحَتَيْكَ وَدَائِعُ الْأَيْتَامِ
حَتَّى أَتَيْتَ بِرَبَاعِ الْأَهْرَامِ

دار العلوم^{١٤}

(أُنشِدتَ في الاحتفال الخمسيني لدار العلوم، بمسرح حديقة الأزبكية، في يوليو سنة ١٩٢٧م.)

أَتَخَذْتَ السَّمَاءَ يَا دَارُ رُكْنًا
وَجَمَعْتَ السَّعَادَتَيْنِ فَبَاتَتْ
نَادِمًا الدَّهْرَ فِي ذَرَاكِ وَفَضًّا
وَإِذَا الْخُلُقُ كَانَ عِقْدَ وَدَادِ
وَأَرَى الْعِلْمَ كَالْعِبَادَةِ فِي أَبِ
وَاسِعِ السَّاحِ يُرْسِلُ الْفِكْرَ فِيهَا
هَلْ سَأَلْنَا أَبَا الْعِلَاءِ وَإِنْ قَلَّ
كَيْفَ يَهْزَا بِخَالِقِ الطَّيْرِ مَنْ لَمْ

وَأَوَيْتِ الْكَوَاكِبَ الزُّهْرَ سَكْنًا
فِيكَ دُنْيَا الصَّلَاحِ لِلدِّينِ خُذْنَا
مَنْ سُلَافِ الْوُدَادِ دَنَا فَدَنَّا
لَمْ يَنْدَلْ مِنْهُ مَنْ وَشَى وَتَجَنَّى
عِدِ غَايَاتِهِ إِلَى اللَّهِ أَدْنَى
كُلُّ مَنْ شَكَّ سَاعَةً أَوْ تَظَنَّى
بَبْ عَيْنًا فِي عَالِمِ الْكُونِ وَسَنَى
يَعْلَمُ الطَّيْرَ هَلْ بَكَى أَوْ تَغْنَى

^{١٤} زيدت هذه في الطبعة الثانية.

أَنْتِ كَالشَّمْسِ رَفَرَقًا وَالسَّمَائِ
 لَوْ تَسْتَرْتِ كُنْتَ كَالْكَعْبَةِ الْغَرِّ
 إِنْ تَكُنْ لِلثَّوَابِ وَالْبِرِّ دَارًا
 قَدْ بَلَغْتَ الْكَمَالَ فِي نَصْفِ قَرْنٍ
 لَا تُعَدِّي السَّنِينَ إِنْ ذُكِرَ الْعِلْمُ
 سَوْفَ تَفْنَى فِي سَاحَتِكَ اللَّيَالِي
 يَا عَكَظًا حَوَى الشَّبَابَ فَصَاحًا
 بَثُّهُمْ فِي كِنَانَةِ اللَّهِ نَوْرًا
 عَلَّمُوا بِالْبَيَانِ لَا غُرْبَاءَ
 فَتِيَّةٌ مُحْسِنُونَ لَمْ يُخْلِفُوا الْعِلْمَ
 صَدَعُوا ظُلْمَةً عَلَى الرَّيْفِ حَلَّتْ
 مِنْ قَضَى مِنْهُمْ تَفَرَّقَ فِكْرًا
 نَادِ دَارَ الْعُلُومِ إِنْ شِئْتَ «يَا عَا
 قُلْ لَهَا يَا ابْنَةَ «الْمُبَارَكِ»^{١٥} إِلَيْهِ
 هُوَ فِي الْمَهْرَجَانِ حَيٌّ شَهِيدٌ
 وَهُوَ فِي الْعُرْسِ إِنْ تَحَجَّبَ أَوْ لَمْ
 مَا جَرَى ذِكْرُهُ بِنَادِيكَ حَتَّى
 رَبِّ خَيْرٍ مُلِئْتُ مِنْهُ سُرُورًا
 أَدْرَى إِذْ بَنَّاكَ أَنْ كَانَ يَبْنِي
 حَائِطُ الْمُلِكِ بِالْمَدَارِسِ إِنْ شِئْتَ
 انْظُرِ النَّاسَ هَلْ تَرَى لِحْيَةً
 لَا الْغِنَى فِي الرِّجَالِ نَابَ عَنِ الْفَضْلِ
 رَبِّ عَاثٍ فِي الْأَرْضِ لَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ
 عَاشٍ لَمْ تَرِمِهِ بَعِينَ وَأَوْدَى
 نَظَّمَ اللَّهُ مُلْكَهُ بِعِبَادٍ

مِنْ رَوَاقًا وَكَالْمَجْرَّةِ صَحْنًا
 أَيْ ذِيلاً مِنَ الْجَلَالِ وَرُذْنًا
 أَنْتِ لِلْحَقِّ وَالْمَرَّاشِدِ مَغْنَى
 كَيْفَ إِنْ تَمَّتِ الْمَلَاوَةُ قَرْنًا
 ثُمَّ فَمَا تَعَلِّمِينَ لِلْعِلْمِ سَنًا
 وَهُوَ بَاقٍ عَلَى الْمَدَى لَيْسَ يَفْنَى
 قُرَشِيَّيْنَ فِي الْمَجَامِعِ لُسْنًا
 مِنْ ظِلَامٍ عَلَى الْبَصَائِرِ أَخْنَى
 فِيهِ يَوْمًا وَلَا أَعَاجِمَ لُكْنًا
 سَمَ رَجَاءً وَلَا الْمُعَلِّمَ ظَنًّا
 وَأُضَاءُوا الصَّعِيدَ سَهْلًا وَحَزْنًا
 فِي نَهْيِ النَّشْءِ أَوْ تَقَسُّمِ زَهْنًا
 نَشْءٍ أَوْ شِئْتَ نَادِيهَا «يَا سُكَيْنَا»
 قَدْ جَرَتْ كَاسِمِهِ أُمُورُكَ يُمْنًا
 يَجْتَلِي غُرْسَ فَضْلِهِ كَيْفَ أَجْنَى
 يَحْتَجِبُ وَالِدُ الْعُرُوسِ الْمُهْنًا
 وَقَفَ الدَّمْعُ فِي الشُّثُونِ فَأَثْنَى
 ذَكَرَ الْخَيْرَيْنِ فَاهْتَجَتْ حُزْنًا
 فَوْقَ أَنْفِ الْعَدُوِّ لِلضَّادِ حِصْنًا
 سَتَ وَإِنْ شِئْتَ بِالْمَعَاقِلِ يُبْنَى
 عُطِّلَتْ مَنْ نَبَاهَةِ الذِّكْرِ مَعْنَى
 لِي وَسُلْطَانِهِ وَلَا الْجَاهُ أَغْنَى
 ضُ لَهَا إِنْ أَقَامَ أَوْ سَارَ وَزْنَا
 هَمَلًا لَمْ تَهَبْ لِنَاعِيهِ أَذْنَا
 عِبْقَرِيَّيْنِ أَوْرَثُوا الْمُلْكَ حُسْنًا

^{١٥} يعني مُنْشَى دَارِ الْعُلُومِ الْمَرْحُومِ عَلِيِّ مَبَارَكِ بِأَشَا.

إنما يُحَسِّدُ العَظِيمُ وَيُشْنَا
أَوْ بَدِيعِ الخِيَالِ يَخْلُقُ فَنَّا
لَمْ يُقَلِّلْ لَهُ الجَدِيدَانِ شَأْنَا
رُؤْيُ وَيَفْنِي الزَّمَانُ قَرْنًا فَقَرْنَا
عَادَةُ الفُطْنِ بِالذِّخَائِرِ يُعْنَى
وَسَقَوْا شَانئِي عَلَى الغِلِّ أَجْنَا
أَنشَدُوهُ فَعَادَ أَمْرَدَ لَدُنَّا
وَهُوَ والمرءُ بالقَرِيبِ مُعْنَى
لَ وَيُلْفُونَ فِي المِمَاتِ أَضْنَا
سَدَمَ شَقِيقًا مِنَ الرُّوَاةِ أَوْ ابْنَا
رَايَةَ العِلْمِ كَالهَلَالِ وَأَسْنَى
يُصْبِحُ العِلْمُ وَالْمُعَلِّمُ مِنَّا
عِلْمٌ يَنْشِئُ لَكُمْ حِصُونًا وَسُقْنَا
ضَ وَشَقَّ السَّمَاءَ رِيحًا وَمُزْنَا
لَا شَدَدْنَا وَلَا رِكَابًا زَمَمْنَا
وَمَلِيًّا لِحَادِثِ الدَّهْرِ دَنَا
مَلُ مِنْ هَادِمٍ وَلَمْ يَبِنْ مِنَّا
مَعَ أَبْنَاءِنَا يَقُولُونَ «كُنَّا»

شَغَلَتْهُمْ عَنِ الحَسَوْدِ المَعَالِي
مَنْ ذَكَّى الفَوَادِ يُورِثُ عِلْمًا
كَمْ قَدِيمٍ كَرُوقَةٍ الفَنِّ حُرًّا
وَجَدِيدٍ عَلَيْهِ يَخْتَلِفُ الدَّهْ
فَاحْتَفِظْ بِالذِّخَائِرَتَيْنِ جَمِيعًا
يَا شَبَابًا سَقَوْنِي الْوَدَّ مَحْضًا
كَلَّمَا صَارَ لِلْكُهُولَةِ شِعْرِي
أُسْرَةُ الشَّاعِرِ الرُّوَاةُ وَمَا عَنَّا
هَمْ يَضُنُّونَ فِي الحَيَاةِ بِمَا قَا
وَإِذَا مَا انْقَضَى وَأَهْلُوهُ لَمْ يَعِ
النَّبُوغَ النَّبُوغَ حَتَّى تَنْصُوَا
نَحْنُ فِي صُورَةِ المَمَالِكِ مَا لَمْ
لَا تَتَادُوا الحِصُونَ وَالسُّفْنَ وَادْعُوا الـ
إِنْ رَكَّبَ الحِضَارَةَ اخْتَرَقَ الْأَرَّ
وَصَجَبْنَاهُ كَالْغُبَارِ فَلَا رَحَ
دَانَ أَبَاؤُنَا الزَّمَانَ مَلِيًّا
كَمْ نُبَاهِي بِلَحْدِ مِيتٍ وَكَمْ نَحْ
قَدْ أَنَى أَنْ نَقُولَ «نَحْنُ» وَلَا نَسْ

إِسْكَندَرِيَّةُ أَنْ أَنْ تَتَجَدَّدِي

(نظمها لحفلة افتتاح دار جديدة لبنك مصر في الإسكندرية، في يونيو سنة ١٩٢٩م.)

إِسْكَندَرِيَّةُ أَنْ أَنْ تَتَجَدَّدِي
رُدِّي مَكَانَكَ فِي البَرِّيَّةِ يُرَدِّدِ
وَعَلَى الفَنُونِ مِنَ الجَمَالِ السَّرْمِدِي
وَسَمِي الصَّبَابَةِ بِالعَوَاطِفِ تَخْلُدِ
لِمُمَثِّلِينَ مِنَ العُصُورِ وَشُهُدِ

أَمْسِ انْقَضَى وَالْيَوْمُ مِرْقَاةُ الغَدِ
يَا غُرَّةَ الوَادِي وَسُدَّةَ بَابِهِ
فِيضِي كَأَمْسِ عَلَى العُلُومِ مِنَ النُّهْيِ
وَسَمِي النَّبَالَةَ بِالمَلَاخِمِ تَتَسَمُّ
وَضِعِي رَوَايَاتِ الخَلَاةِ وَالْهَوَى

حسراتٍ مضياحٍ ودفعٍ مُبَدَّد
تَبْنِي الْمُقْصِرَ أَوْ تَحْتُ الْمُقْتَدِي
لَمْ يُبْنَ حَائِطُهَا بِمَالِكَ وَالْيَدِ
لَمْ يَبْقَ غَيْرُ الصِّيدِ وَالْمُتَصِيدِ
وَسَمَاوُهَا وَكَأَنَّهَا لَمْ تُوجَدْ
وَالِى الْجَبَا وَإِلَى الْعُلَا وَالسُّودِ
لِشِبَابِكَ الْعَرْفَانَ عَذَبَ الْمَوْرِدِ
رَبَضَتْ كَجُنْحِ الْغَيْهَبِ الْمُتَلَبِّدِ
وَعَلَى النَّدَى وَكُلِّ أْبْلَجٍ فِي النَّدَى
بِالْقَصْدِ مُوَحِيَّةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْصِدِ
يَا طَالَمَا افْتَقَرْتَ إِلَى الْمُتَقَلِّدِ
مَا يَبْلُغُ الْمِحْرَابُ مِنْ مُتَعَبِّدِ
غَيْرِ الْعَتِيقِ لِبَسْتٍ مِمَّا يَرْتَدِي
جَنْبَاتِهَا حَشْدُ يَرُوحٍ وَيَغْتَدِي
فَاشْهَدْ لِقَائِهَا وَلِلْمُتَجَنِّدِ
وَاقْرَأْ بِهِ شُكْرَ الْأَجِيرِ الْمُجْهَدِ
بَيْضُ الْأَسْرَةِ وَالصَّحِيفَةِ وَالْيَدِ
خَدَمًا وَبُورِكَ فِي الْجَمَى مِنْ سَيِّدِ
عَنْ حَائِطِي صَرَحَ أَشْمٌ مُمَرَّدِ
رَفَعَ الثَّبَاتُ بِنَايَةً كَالْفَرْقَدِ
قُلْ تِلْكَ إِحْدَى مُعْجَزَاتِ «مُحَمَّدٍ»^{١٦}

لَا تَجْعَلِي حُبَّ الْقَدِيمِ وَذِكْرَهُ
إِنَّ الْقَدِيمَ ذَخِيرَةٌ مِنْ صَالِحِ
لَا تَفْتَنَّكَ حَضَارَةٌ مَجْلُوبَةٌ
لَوْ مَالَ عَنْكَ شِرَاعُهَا وَبُخَارُهَا
وُجِدَتْ وَكَانَ لَغَيْرِ أَهْلِكَ أَرْضُهَا
جَارِي النَّزِيلِ وَسَافِقِيهِ إِلَى الْغِنَى
وَابْنِي كَمَا يَبْنِي الْمَعَاهِدَ وَاشْرَعِي
إِنِّي حَذَرْتُ عَلَيْكَ مِنْ أُمِّيَّةٍ
أَخْزَانَةُ الْوَادِي عَلَيْكَ تَحِيَّةٌ
مَا أَنْتِ إِلَّا مِنْ خَزَائِنِ يَوْسُفَ
قُلِّدْتِ مِنْ مَالِ الْبِلَادِ أَمَانَةً
وَبَلَغْتِ مِنْ إِيْمَانِهَا وَرَجَائِهَا
فَلَوْ أَنَّ أَسْتَارَ الْجَلَالِ سَعَتْ إِلَى
إِنَّا نَعُظُّمُ فِيكَ أَلُوبَةً عَلَى
وَإِذَا طَعِمْتَ مِنَ الْخَلِيَّةِ شَهْدَهَا
لَا تَمْنَحِ الْمَحْبُوبَ شُكْرَكَ كُلَّهُ
إِسْكَندَرِيَّةٌ شُرِّفَتْ بِعِصَابَةٍ
خَدَمُوا جَمَى الْوَطَنِ الْعَزِيزِ فَبُورِكُوا
مَا بَالُ ذَاكَ الْكُوخِ صَرَّحَ وَانْجَلَى
مِنْ كَسْرِ بَيْتٍ أَوْ جِدَارِ سَقِيفَةٍ
فَإِذَا طَلَعَتْ عَلَى جَلَالَةِ رُكْنِهَا

فَتِيَّةُ الْوَادِي عَرَفْنَا صَوْتَكُمْ

(يُخَاطَبُ الشَّاعِرُ بِهَذِهِ الْقَصِيدَةِ شِبَابُ مِصْرَ الَّذِينَ نَهَضُوا بِمَشْرُوعِ الْقِرْشِ سَنَةَ ١٩٣٢ م، وَهِيَ آخِرُ مَا جَادَتْ بِهِ شَاعِرِيَّتُهُ، وَكَانَتْ تَلَاوَتْهَا يَوْمَ وَفَاتِهِ!)

^{١٦} محمد طلعت حرب.

نَزَعَ الشُّبْلُ مِنَ الْغَابِ الْوَيْدَ
وَتَغَطَّى مَنَكِبَاهُ بِاللُّبْدِ
وَدَعَوْهُ عَنْ حِمَى الْغَابِ يَذُدُ
وَابْعَثُوهُ فِي صَحَارِهَا يَصُدُ
مَرْحَبًا بِالطَّائِرِ الشَّادِي الْغَرْدِ
يَحْمِلُ الْحَقْدَ وَلَمْ يُخَفِ الْحَسَدِ
صَالِحًا مِنْ عَمَلٍ إِلَّا فَسَدَ
كَانَ فِيهَا الْيَوْمُ بِالْأَيْكِ انْفَرَدَ
قَامَ فِي كُلِّ طَرِيقٍ وَقَعَدَ
كُلُّ سِرِّبٍ قَدْ تَلَاقَى وَاحْتَشَدَ
ثُمَّ أُعْطِيَ بَدَلُ الزَّهْرِ الشُّهُدَ
وَمَضَى يَقْصُرُ خَطْوًا وَيُمُدُّ
وَيُنَادِي النَّاسَ مِنْ جَادٍ وَجَدَ
أَوْ رَأَى دَارًا عَلَى الدَّرْبِ قَصَدَ
رَائِحًا يَسْأَلُ قَرِشًا لِلْبِلْدِ
أَخْرَجُوا الْمَالَ إِلَى الْبَرِّ يَعُدُّ
طَالِبُ الْعَوْنِ لِمَصْرٍ لَا يُرَدُّ
يَغْرُسُ الْقَرْشَ وَيَبْنِي وَيَلِدُ
مِنْ عِثَارٍ لَبِثَتْ فِيهِ الْأَبَدُ
لِكَفَاحِ السُّلَّ أَوْ حَرْبِ الرَّمَدِ
لَمْ يَضِقْ عَنْهُ وَلَمْ يَعْجِزْ أَحَدُ
نَادَتْ الْبَانِي وَجَاءَتْ بِالْعُدَدِ
ثَابِتَ الْآسَاسِ مَرْفُوعَ الْعَمَدِ
حَبَّذَا الرُّكْنَ وَأَعْظَمَ بِالسَّنَدِ
وَمَدَاهَا فِي الْمَعَالِي قَدْ بَعُدَ
كُلُّ عَصْرِ بِأَسَالِيبِ جُدُدِ
وَدَعَا الشُّبْلُ مِنَ الْوَادِي الْأَسَدِ

لَا يُقِيمَنَّ عَلَى الضَّيْمِ الْأَسَدُ
كَبِيرَ الشُّبْلِ وَشَبَّتْ نَابُهُ
اتْرَكَوه يَمْشِ فِي آجَامِهِ
وَاعْرِضُوا الدُّنْيَا عَلَى أَظْفَارِهِ
فَتِيَّةُ الْوَادِي عَرَفْنَا صَوْتَكُمْ
هُوَ صَوْتُ الْحَقِّ لَمْ يَبِغْ وَلَمْ
وَحَلَا مِنْ شَهْوَةٍ مَا خَالَطَتْ
حَرَّكَ الْبُلْبُلِ عِطْفِي رُبُوعِ
زَنْبُقِ الْمُدُنِ وَرِيحَانِ الْقُرَى
بَاكِرًا كَالنَّحْلِ فِي أُسْرَابِهَا
قَدْ جَنَى مَا قَلَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبَا
بَسَطَ الْكَفَّ لِمَنْ صَادَفَهُ
يَجْعَلُ الْأَوْطَانَ أُغْنِيَّتَهُ
كَلَّمَا مَرَّ بِبَابٍ دَقَّهْ
غَادِيًا فِي الْمُدُنِ أَوْ نَحْوِ الْقُرَى
أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا أَصْغُوا لَهُ
لَا تَرُدُّوْا يَدَهُمْ فَارْغَةً
سَيَرَى النَّاسُ عَجِيبًا فِي غَدٍ
يُنْهَضُ اللَّهُ الصَّنَاعَاتِ بِهِ
أَوْ يَزِيدُ الْبَرَّ دَارًا قَعْدَتِ
وَهُوَ فِي الْأَيْدِي وَفِي قَدَرَتِهَا
تِلْكَ مَصْرُ الْغَدِ تَبْنِي مُلْكُهَا
وَعَلَى الْمَالِ بَنَتْ سُلْطَانَهَا
وَأَصَارَتْ بَنَكُ مَصْرٍ كَهْفَهَا
مَثَلٌ مِنْ هِمَّةٍ قَدْ بَعْدَتْ
رَدَّهَا الْعَصْرُ إِلَى أَسْلُوبِهِ
الْبَنُونَ اسْتَنْهَضُوا آبَاءَهُمْ

أَصْبَحْتَ مَصْرُ وَأُضْحَى مَجْدُهَا
هَذِهِ الْهِمَّةُ بِالْأَمْسِ جَرَتْ
أَيُّهَا الْجِيلُ الَّذِي نَرْجُو لِعَدِّ
أَنْتَ فِي مَدْرَجَةِ السَّيْلِ وَقَدْ
قُدَّتْ فِي الْحَقِّ فَقْدٌ فِي مِثْلِهِ
رُبَّ عَامٍ أَنْتَ فِيهِ وَاجِدٌ
عَلَّمَ الْأَبَاءَ وَاهْتَفَ قَائِلًا
اجْمَعْ الْقَرَشَ إِلَى الْقَرَشِ يَكُنْ
اطْلُبِ الْقَطْنَ وَزَاوِلْ غَيْرَهُ
نَحْنُ قَبْلَ الْقَطَنِ كُنَّا أُمَّةً
قَدْ أَخَذْنَا فِي الصَّنَاعَاتِ الْمَدَى
وَوَغَزَلْنَا قَبْلَ إِدْرِيسِ الْكُوسَا
إِنْ تَكُ الْيَوْمَ لَوَاءً قَائِدًا

هِمَّةَ الْوَالِدِ أَوْ شُغْلَ الْوَلَدِ
فَحَوَتْ فِي طَلِبِ الْحَقِّ الْأَمَدِ
غَدُكَ الْعِزُّ وَدُنْيَاكَ الرَّغْدُ
ضَلُّ مَنْ فِي مَدْرَجِ السَّيْلِ رَقَدَ
مَنْ نَوَاحِي الْقَصْدِ أَوْ سُبُلِ الرَّشْدِ
فَادْخِرْ فِيهِ لِعَامٍ لَا تَجِدُ
أَيُّهَا الشَّعْبُ تَعَاوَنٌ وَاقْتَصِدْ
لَكَ مِنْ جَمْعِهِمَا مَالٌ لُبَدُ
وَاتَّخِذْ سَوْقًا إِذَا سُوِّقَ كَسَدُ
تَهَبِطُ الْوَادِي وَتَرَعَى وَتَرِدُ
وَبَنَيْنَا فِي الْأَوَالِي مَا خَلَدَ
وَنَسَجْنَا قَبْلَ دَاوُدَ الزَّرْدِ
كَمْ لَوَاءٍ لَكَ بِالْأَمْسِ انْعَقَدَ

عيد الجهاد^{١٧}

(نظمها احتفالاً بعيد الجهاد الوطني، في ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٦م.)

خَطَوْنَا فِي الْجِهَادِ خُطًّا فَسَاحَا
رَضِينَا فِي هَوَى الْوَطَنِ الْمَفْدَى
وَلَمَّا سُلِّتِ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي
فَحَطَّمْنَا الشَّكِيمَ سِوَى بَقَايَا
وَقُمْنَا فِي شِرَاعِ الْحَقِّ نَلْقَى
نُعَالِجُ شِدَّةَ وَنَرُوضُ أُخْرَى
وَنَسْتَوَلِي عَلَى الْعَقَبَاتِ إِلَّا
وَمَنْ يَصْبِرُ يَجِدْ طُولَ التَّمَنِّي

وَهَادِنَا وَلَمْ نُلْقِ السَّلَاحَا
دَمَ الشَّهْدَاءِ وَالْمَالِ الْمُطَاحَا
تَقَلَّدْنَا لَهَا الْحَقَّ الصُّرَاحَا
إِذَا عَضَّتْ أَرِينَاهَا الْجِمَاحَا
وَنَدْفَعُ عَنْ جَوَانِبِهِ الرِّيَاحَا
وَنَسْعَى السَّعَى مَشْرُوعًا مُبَاحَا
كَمِينِ الْغَيْبِ وَالْقَدَرِ الْمُتَاحَا
عَلَى الْأَيَّامِ قَدْ صَارَ اقْتِرَاحَا

^{١٧} زِيدَتْ هَذِهِ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ.

فَقَدَنَ النَجْمَ وَالْقَمَرَ اللَّيَاحَا
بِقَاءَ الرِّقِّ أَوْ نَرْجُو السَّرَاحَا
مِنَ الإِعْيَاءِ كَالْإِبِلِ الرِّزَاحِي
بِمَا صَبَرُوا وَلَا مَوْتَ أَرَا
وَمَنْزُوفٍ وَإِنْ لَمْ يُسَقِّ رَا
وَلَا اعْتَقَلُوا الْأُسْنَةَ وَالصَّفَاحَا
بِمَا عَمِلَ الْجَوَاسِيسُ اجْتِرَاحَا
فِيَا يَوْمَ الرِّسَالَةِ عَمَّ صَبَاحَا
وَلَا بَرَهَانَ عِزَّتِكَ التِّمَاحَا
بِهَا التَّارِيخُ يُفْتَتَحُ افْتِتَاحَا
وَنُورُكَ عَنِ هَلَالِ الْفَطْرِ لَاحَا
وَمَثَلَتِ الضَّحِيَّةُ وَالسَّمَاحَا
إِلَى «فِرْعَوْنَ» فَابْتَدَأَ الْكِفَاحَا^{١٨}
وَأَطْغَى مِنْ قِيَاصِهَا رِمَاحَا
يَخَالُ وَرَاءَ هَيْكَلِهِ «فِتَاحَا»
فِيَا لِكَ خَيْبَةً عَادَتْ نَجَاحَا
وَلَامَتْ^{١٩} فُرْقَةً وَأَسَتْ جِرَاحَا
عِزَائِمَهُمْ فَرَدَّتْهَا صِحَاحَا
فَرَجَّ شِعَابَ مَكَّةَ وَالْبِطَاحَا
عَلَى جَنْبَاتِهِ اسْتَبَقُوا الصَّلَاحَا
وَكَانُوا بِالْحَيَاةِ هُمْ الشُّحَاحَا
وَتَسْمَعُ فِي وَلَائِمِهِمْ نُوحَا
إِذَا تَرَكَ الْبَلَاعُ لَهُمْ فِصَاحَا

وَأَيَّامٍ كَأَجَوَافِ اللَّيَالِي
قَضَيْنَاهَا حِيَالَ الْحَرْبِ نَخْشَى
تَرْكُنَا النَّاسَ بِالْوَادِي قُعُودَا
جَنُودُ السَّلَامِ لَا ظَفَرُ جَزَاهُمْ
وَلَا تَلْقَى سِوَى حَيٍّ كَمَيِّتٍ
تَرَى أُسْرَى وَمَا شَهِدُوا قِتَالًا
وَجَزَحَى السُّوْطِ لَا جَزَحَى الْمَوَاضِي
صَبَاحُكَ كَانَ إِقْبَالًا وَسَعْدًا
وَمَا تَأَلَوْ نَهَارَكَ ذِكْرِيَاتٍ
تَكَادُ جِلَاكَ فِي صَفَحَاتِ مَصْرِ
جِلَاكَ عَنِ سَنَا الْأَضْحَى تَجَلَّى
هَمَا حَقٌّ وَأَنْتَ مُلِئْتَ حَقًّا
بَعَثْنَا فِيكَ «هَارُونَ وَمُوسَى»
وَكَانَ أَعَزُّ مِنْ رُومَا سِيُوفًا
يَكَادُ مِنَ الْفَتْوحِ وَمَا سَقْتَهُ
وَرَدُّ الْمُسْلِمُونَ فَقِيلَ خَابُوا
أَثَارَتْ وَادِيًا مِنْ غَايَتِيهِ
وَشَدَّتْ مِنْ قُوَى قَوْمِ مِرَاضٍ
كَأَنَّ بِلَالَ نُودِيٍّ قُمْ فَأَذْنُ
كَأَنَّ النَّاسَ فِي دِينٍ جَدِيدٍ
وَقَدْ هَانَتْ حَيَاتُهُمْ عَلَيْهِمْ
فَتَسْمَعُ فِي مَاتِمِهِمْ غِنَاءً
حَوَارِيِّينَ أَوْفَدْنَا ثِقَاتٍ

^{١٨} يشير إلى مقابلة سعد زغلول وصاحبيه لمثل بريطانيا في مصر في نوفمبر من سنة ١٩١٨م ليطلبوا

باستقلال مصر.

^{١٩} لامت: لأمت.

فكانوا الحقَّ مُنْقِبِضًا حَيًّا
لهم مِنَّا براءةُ أهلِ بدر
ترى الشَّحناءَ بينهم عِتَابًا
جعلنا الخُلْدَ منزلَهم وزِدْنَا
يَمِينًا بالتّي يُسعى إليها
وَتَعَبَقُ في أنوفِ الحجِّ رُكْنًا
وبالدستور وهو لنا حياةٌ
أَخَذْنَاهُ على المُهَجِّ الغوالي
بَنَيْنَا فيه من دمعِ رواقِ
لَمَّا مَلَأَ الشَّبَابَ كُرُوحِ سَعْدِ
سَلُّوا عنه القضيةَ هل حَمَاهَا
وهل نَظَّمَ الكهولَ الصَّيْدَ صَفًّا
هو الشَّيْخُ الفتَى لو استراحت
وليسَ بذائقِ النومِ اغتَبَاقًا
فيا لَكَ صَيَغَمًا سَهَرَ الليالي
ولا حَطَمَتْ لَكَ الأيَّامُ نَابًا

تَحَدَّى السيفَ مُنْصِلِتًا وَقَاحَا
فلا إِثْمًا نَعُدُّ ولا جُنَاحَا
وتَحَسَّبُ جَدَّهم فيها مُزَاحَا
على الخُلْدِ الثَّنَاءِ والامْتَدَا
غُدُّوا بِالنَّدَامَةِ أو رَوَا
وتَحْتَ جِبَاهِهِم رَحْبًا وَسَا
نرى فيه السَّلامَةَ والفَلَا
ولم نَأْخُذْهُ نَيْلًا مُسْتَمَاحَا
ومن دَمِ كُلِّ نَابِتَةٍ جَنَاحَا
ولا جَعَلَ الحَيَاةَ لَهُم طِمَاحَا
وكان جَمَى القضيةِ مُسْتَبَاحَا
وَأَلَّفَ من تجارِبِهِم رَدَا
من الدَّأْبِ الكواكِبُ ما اسْتَرَا
إِذَا دار الرِّقَادُ ولا اصْطَبَاحَا
ونَاضَلَ دُونَ غَايَتِهِ وَلا حَى
ولا غَضَّتْ لَكَ الدُّنْيَا صِيَا

مَعَالِي الْعَهْد

(نظمها في ميلاد الأمير السابق محمد عبد المنعم.)

مَعَالِي الْعَهْدِ قُمْتُ بِهَا فَطِيمَا
تَنْقُلُ مِنْ يَدِ لَيْدٍ كَرِيمَا
تَنْحَى لِابْنِ مَرِيَمَ حِينَ جَاءَ
ضِيَاءُ لِلْعَيُونِ تَلَا ضِيَاءَ
كَذَا أَنْتُمْ بَنِي الْبَيْتِ الْكَرِيمِ
وكان إِلَيْكَ مَرْجِعُهَا قَدِيمَا
كَرُوحَ اللَّهِ إِذْ خَلَفَ «الْكَلِيمَا»^{٢٠}
وخلَّى النَّجْمُ لِلْقَمَرِ الْفَضَاءَ
يَفِيضُ مِيَامِنًا وَهُدَى عَمِيمَا
وهل مُتَجَزَّئُ ضَوْءُ النُّجُومِ

^{٢٠} روح الله: عيسى. والكليم: موسى، عليهما السلام.

وأين الشُّهْبُ من شرفِ صَمِيمٍ
 أرى مُستَقْبَلًا يبدو عُجَابًا
 وكان «محمَّد» أَمَلًا شهابًا
 وأُشْرِقَتِ «الهِياكلُ» والمباني
 وأصْبَحَ ما تُكِنُّ من المعاني
 سألتُ فَقِيلَ لي وضَعَتِه طِفْلًا
 فقلْتُ كذَلِكُم أنستُ قَبْلًا
 بـ «مُنْتَزَه» الإمارة هلَّ فجرا
 فباتت مصرُ حَوْلَ المهدِ «ثَغْرًا»
 لِجِيلِكَ في غِدِّ جيلِ المعالي
 أُرْفُ نوابِغَ الكَلِمِ الغوالي
 إذا أَقبلتَ يا زَمَنَ البنيينا
 فدُرْ من بَعْدِنَا لَهُم يَمِينَا
 ويا جيلَ الأَمِيرِ إذا نشأتَا
 فخذُ سُبُلًا إلى العلياءِ شَتَّى
 ووضُنْ به فإنَّ الخيرَ فيه
 ولا تأخُذْهُ من شفتَي فقيه
 وثِقْ بالنَفْسِ في كُلِّ الشُّنُونِ
 كأنك من ضميرك عند دين
 وإن تَرُمَ المظاهرَ في الحياةِ
 وخُذْها بالمَساعي باهراتِ
 وإن تَخْرُجْ لحربٍ أو سلامٍ
 وكُنْ كالليثِ يَأْتِي من أمامٍ
 وكُنْ شعبَ الخصائصِ والمزايا
 وكُنْ كالنحلِّ والدُّنيا الخلايا
 ولا تطمحْ إلى طلبِ المُحالِ
 فإنَّ أبْطانَ فاصبرُ غيرَ سالٍ

تَأَلَّقَ عِقْدُهُ بِكُمْ نَظِيمًا
 وَعُنَوَانًا يُكِنُّ لَنَا كِتَابًا
 وَكَانَ الْيَأْسُ شَيْطَانًا رَجِيمًا
 كَمَا كَانَتْ وَأَزَيْنَ فِي الزَّمَانِ
 عَلَى الْآفَاقِ مَسْطُورًا رَقِيمًا
 وَهَذَا عَيْدُهُ فِي مِصْرَ يُجَلَّى
 وَكَانَ اللَّهُ بِالْجَوَى عَلِيمًا
 هِلَالًا فِي مَنَازِلِهِ أَغْرًا
 وَبَاتَ الثَّغْرُ لِلدُّنْيَا نَدِيمًا
 وَشَعْبُ الْمَجْدِ وَالْهَمَمِ الْعَوَالِي
 وَأَهْدَى حِكْمَتِي الشَّعْبَ الْحَكِيمَا
 وَشَبُّوا فِيكَ وَاجْتَازُوا السَّنِينَا
 وَكُنْ لَوُرُودِكَ الْمَاءِ الْحَمِيمَا
 وَشَاءَ الْجَدُّ أَنْ تُعْطِيَ وَشِئْنَا
 وَخَلَّ دَلِيلَكَ الدِّينَ الْقَوِيمَا
 وَخُذْهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا يَلِيهِ
 وَلَا تَهْجُرْ مَعَ الدِّينِ الْعُلُومَا
 وَكُنْ مِمَّا اعْتَقَدْتَ عَلَى يَقِينٍ
 فَمِنْ شَرَفِ الْمَبَادِي أَنْ تُقِيمَا
 فَرُمَهَا بِاجْتِهَادِكَ وَالثَّبَاتِ
 تُنَافِسُ فِي جَلَالَتِهَا النُّجُومَا
 فَأَقْدِمْ قَبْلَ إِقْدَامِ الْأَنَامِ
 فَيَمْلَأُ كُلَّ نَاطِقَةٍ وَجُومَا
 وَلَا تَكُ ضَائِعًا بَيْنَ الْبَرَايَا
 يَمُرُّ بِهَا وَلَا يَمْضِي عَقِيمَا
 وَلَا تَقْنَعْ إِلَى هَجْرِ الْمَعَالِي
 كَصَبْرِ الْأَنْبِيَاءِ لَهَا قَدِيمَا

ولا تقبَلْ لغيرِ اللهِ حُكْمًا
 ولا تَرْضَ القليلَ الدُّونَ قِسْمًا
 ولا تياسُ ولا تكُ بالضُّجُورِ
 فليسَ معِ الحوادثِ من قديرِ
 وفي الجُهَّالِ لا تَضَعِ الرجاءَ
 يضيعُ شعاعُها فيه هَباءُ
 وبالِغِ في التدبُّرِ والتَّحرِّيِ
 وكُنْ كالأسدِ عندَ الماءِ تجري
 وما الدنيا بمَثْوًى للعبادِ
 ولا تَسْتَكَثِرَنَّ من الأعدايِ
 ولا تجعلُ تودُّدَكَ ابتذالا
 وكُنْ ما بينَ ذاكِ وذاكِ حالا
 وصلِّ صلاةً من يرجو ويخشى
 ولا تحسبْ بأنَّ اللهَ يُرَشِّى
 لكلِّ جَنَى زكاةً في الحياةِ
 وما لله فينا من جُباةِ
 فإنَّ تكُ عالمًا فاعملْ وفطُنْ
 وإنَّ تكُ صانعًا شيئًا فأتقنْ
 وصُنْ لغةً يَحِقُّ لها الصِّيَانُ
 وكان الشعبُ ليس له لِسَانُ
 ألَمْ ترها تُنالُ بكلِّ ضَيرِ
 أينطقُ في المَشارِقِ كلُّ طيرِ
 فعَلِمَها صغيرُكَ قبلَ كلِّ
 فما بالعِىِّ في الدنيا التَّحَلِّيِ
 وخُذْ لغةَ المُعاصِرِ فَهْيَ دنيا
 كما نقلَ الغرابُ فَضْلَ مَشيَا
 لجيلِكَ يومَ نشأتهِ مَقالي
 فتَنظُرُ من أبيكِ إلى مِثالِ

ولا تحمِلْ لغيرِ الدهرِ ظُلما
 إذا لم تَقْدِرِ الأمرَ المَرُوما
 ولا تَثِقَنَّ من مَجْرى الأمورِ
 ولا أحدُ بما تأتيَ عليهما
 كَوَضْعِ الشمسِ في الوَحْلِ الضيَّاءِ
 وكان الجهلُ ممقوتًا ذميما
 ولا تعجَلْ وثِقْ من كلِّ أمرِ
 وليست وُرْدًا حتى تحوما
 فكنْ ضيفَ الرِّعايةِ والودادِ
 فسَرُّ الناسِ أكثرُهم خُصوما
 ولا تسمَحْ بحِلْمِكَ أن يُذالا
 فلن تُرضيَ العدوَّ ولا الحميما
 وقبَلِ الصومِ صُمْ عن كلِّ فَحْشا
 وأن مُزَكِّيًا أَمِنَ الجحيمَا
 ومَعْنَى البرِّ في لَفِظِ الزكاةِ
 ولا هو لامرئٍ زَكَّى غريما
 وإنَّ تكُ حاكمًا فاعِدِلْ وأحسِنْ
 وكُنْ للفرضِ بعددِ مُقيما
 فخيرُ مَظاهرِ الأُممِ البَيانُ
 غريبًا في مَواطنِهِ مَضيما
 وكان الخيرُ إذ كانت بخيرِ
 ويَبْقَى أهلُها رَحْمًا وبُوما
 ودُعِ دَعوى تَمْدُنْهم وَخَلِّ
 ولا خَرَسُ الفتى فَضلاً عظيما
 ولا تجعلْ لِسَانَ الأَصْلِ نَسِيا
 وما بَلَغَ الجَدِيدَ ولا القديمَا
 فأما أنتَ يا نَجَلَ المعالي
 يُحِيرُ في الكَمالاتِ الفُهوَمَا

ولا أبغي بها جَدَواكَ بَعْدِي
وكان النفعُ في الدنيا لُزوما
فإن أباك يعرفه وَيَدْرِي
فأصرعُ في سوابِقها «تَمِيمًا»
وعهدُكَ عِصمةٌ لهم وظلُّ
يعيشُ بأنَّ تعيش وأنَّ تدوما

نصائحُ ما أردتُ بها لأهْدي
ولكنِّي أُجِبُّ النفعَ جهْدي
فإن أقرئتُ يا مولاي شِعْري
وجَدَّكَ كان شأوي حينَ أجري
بَنُونًا أنتَ صُبْحُهم الأجلُ
فلمَ لا نرتجيكَ لهم وكلُّ

رسالة الناشئة

(أهداها إلى الأمير السابق محمد عبد المنعم.)

مَصَدَرَ الحِكمةِ طُرا والضياءُ
وعلى ما نلتُ من فضلٍ وجُودُ
وبقلبٍ من رجاءِ اللهِ حي
واخشه خَشِيَةً من فيه هَلَكُ
وتمتّع فيه من خيرِ رَزَقُ
كلُّ شيءٍ لك عبدٌ أو أمة
لك والريحُ وما تحتَ السَّمَاءِ
لك في الظُّلْمَةِ للنورِ حَنِينُ
حارَ فيه كلُّ «بِقَراطٍ» عَلمُ
حينَ مَسَّتْهُ يدُ اللهِ خَفَقُ
كان في الأضلاعِ لحمًا ودما
في انتفاضٍ كانتفاضِ البُلبُلِ
صَنَعَةُ اللهِ ولكن زَغَمْتُمَا
إن غيرَ اللهِ عقلاً لا يَجُوزُ
خيرَ ما في طلبِ العلمِ جُمُعُ
هل ترى الجُهالَ إلا كَالنَّعَمِ
لظهورِ باطلٍ بينَ المَلا
فإذا فاتَكَ هذا فافتراقُ

أحمدُ اللهَ وأطري الأنبياءُ
وله الشكرُ على نَعْمى الوجودِ
اعْبُدِ اللهَ بعقلٍ يا بُنَي
ارْجُه تَغَطَّ مَقاليدَ الفَلَكِ
انظرِ المُلْكَ وأكْبِرْ ما خَلَقُ
أنتَ في الكونِ محلُّ التَّكْرِمةِ
سُخِّرَ العالَمُ من أرضٍ وماءِ
اذْكُرِ الآيةَ إذ أنتَ جَنِينُ
كلَّ يومٍ لك شأنٌ في الظُّلَمِ
كان في جَنَبِكَ شيءٌ من عَلقِ
صارَ جَسًا وحياةً بعدَما
دَقَّ كالناقوسِ وسَطَ الهيكلِ
قُلْ لَمَن طَبَّبَ أو من نَجَّما
أَمِنَّا باللهِ إيمانَ العَجوزِ
أيُّها الطالبُ للعلمِ استمِعْ
هو إن أوتيتَه أَسْنَى النُّعَمِ
اطلبِ العلمَ لِدَاتِ العلمِ لا
عندَ أهلِ العلمِ للعلمِ مذاقُ

ليس للأعمى على الضوء هُدى
فامتنع عن كلِّ تحصيلٍ عقيمٍ
كم مع الجهل يسارٌ وغنى
التجاريبِ علومُ الفهم
كلَّ يومٍ فيه للعبرة بابٌ
ما يُفيدُ العقلُ إن عيَّ اللسانُ
مُظلمٌ لا تهتدي في كُتبه
جاء بالحكمة فيما نظمًا
من تغب عنه تفهته المعرفة
ضاع قومٌ ليس يدرون الخبرُ
من يخن أوطانه يومًا يُخنُ
يذكرُ المنة منه واليدا
كلُّ حُبٍّ شعبةٌ من حُبِّه
يعرفُ الشوقُ له من يغتربُ
فإذا وُوريت فالقبرُ الكريمُ
وعهودٌ بعدك استرعيتهُ
تذرفُ الدمعَ لذكره دما
إنما الصحةُ والرزقُ العملُ
مُتقنُ الأعمالِ سرُّ الله فيه
كلُّ شيءٍ بجزاءٍ وثمنٍ
قد حباها الخلدُ من أتقنها
أتقنوا الصنعةَ حتى في الجعلِ
طالعُ التاجرِ في حُسنِ الأدبِ
لا تُفارقُ بابَه أو فارقِ
كلُّهم منه رسولٌ وصلا
لفظةٌ من فيه للقومِ يمينُ
فتشبهه إن من يُقدمُ يسدُ
منهم «إسكندرُ» و«ابنُ زيادُ»

طلبُ المحرومِ للعلمِ سُدى
فإذا فاتك توفيقُ العليمِ
واطلبِ الرزقَ هنا أو ها هنا
كل ما علّمك الدهرُ اعلمِ
إنما الأيامُ والعيشُ كتابُ
إن رُزقتَ العلمَ زنه بالبيانِ
كم عليمٌ سقطَ العيُّ به
وأديبٌ فاتته العلمُ فما
إن للعلمِ جميعًا فلسفة
اقرأ التاريخَ إذ فيه العبرُ
كُنْ إلى الموتِ على حُبِّ الوطنِ
وطنُ المرءِ جماءهُ المُفتدى
قد عرفت الدارَ والأهلَ به
هو محبوبُك بادٍ مُحْتَجِبُ
لك منه في الصِّبا مهدٌ رحيمُ
كم عزيزٌ عندك استودعتهُ
ودفين لك فيه كرمًا
كُنْ نشيطًا عاملاً جَمَّ الأملِ
كلُّ ما أتقنتَ محبوبٌ وحيه
يُقبلُ الناسُ على الشيءِ الحَسَنِ
انظر الآثارَ ما أزيَنها
تلك آثارُ بني مصرَ الأولِ
أيُّها التاجرُ بُلِّغت الأربُ
بابُ حانوتك بابُ الرازقِ
واحترم في بابِه من دخلا
تاجرُ القومِ صدوقٌ وأمِينُ
إن للإقدامِ ناسًا كالأسُدِ
منهم كلُّ فتى سادَ وشادُ

كشجاع القلب في وقت الحروب
 إنما من ينصر الحق البطل
 من غزاة أو دُعاة مُصلحين
 ما لراعي غنم عند الغنم
 لكم دين رضىتم ولي دين
 إنه أولى بهم سبحانه
 فدع الأقدار تجري واستعد
 لا تُعارض أبداً مجرى الأمور
 وإذا شئت قضاءً وقدر
 طيب الحمد وإن مت بقي
 فرحيم سوف يُجزى من رحيم
 وتعهّد وتولّ البؤسا
 كلُّ خلقٍ فاضلٍ دون السخاء
 لست تدري في غدٍ ما يقع
 ربّ قيدٍ من جميل وصنيع
 فقديمًا جمل المرء الأدب
 إن ضيق الرزق من ضيق الخلق
 فهما ضدّان كبرٌ وكبر
 فاترك الكبر له والجبروت
 كم حسودٍ قد توفاه الكمّد
 شرفٍ قد مُسّ أو عرض كريم
 إنه كالنار والرُشد الحطب
 طالب الحق بعنفٍ مُعتد
 كم مُطيعٍ لهوى النفس هوى
 يحقر الموت ينل رِقّ الزمن
 إنما الطفل على الأرض ملك
 رجم الله امرأً يرحمهُ
 تُخرج المحزون من كربته

وشجاع النفس منهم في الكروب
 وابل «سقراط» والشجعان طل
 هم جمال الدهر حيناً بعد حين
 لهم من هيبة عند الأمم
 قل إذا خاطبت غير المسلمين
 خلّ للديان فيهم شأنه
 كلُّ حال صائر يوماً لـضد
 فلك بالسعد والنحس يدور
 قل إذا شئت صروفٌ وغير
 واعمل الخير فإن عشت لقي
 من يموت عن منة عند يتيم
 كن كريماً إن رأى جرحاً أسا
 واسخ في الشدة وازدد في الرخاء
 فيه كلُّ بلاء يُدفع
 جامل الناس تحز رِقّ الجميع
 عامل الكل بإحسان تحب
 وتجنب كل خلقٍ لم يرق
 وتواضع في ارتفاع تُعتبر
 كل حي ما خلا الله يموت
 وأرخ جنبك من داء الحسد
 وإذا أغضبت فاغضب لعظيم
 وتجنب في الصغيرات الغضب
 اطلب الحق برفق تحمد
 واعص في أكثر ما تأتي الهوى
 انكر الموت ولا تفزع فمن
 أحبب الطفل وإن لم يك لك
 هو لطف الله لو تعلمهُ
 عطفة منه على لعبته

وحديثُ ساعةِ الضَّيقِ مَعَهُ
يا مُدِيمَ الصَّوْمِ في الشَّهْرِ الكَرِيمِ
وَإِذَا صَلَّيْتَ خَفَّ مِنْ تَعَبِدُ
وَاجْعَلِ الْحَجَّ إِلَى «أُمِّ الْقُرَى»
هَكَذَا «طَه» وَمَنْ كَانَ مَعَهُ
وَتَسَمَّحْ وَتَوَسَّعْ فِي الزَّكَاةِ
فَرَضَ الْبِرَّ بِهَا فَرَضَ حَكِيمٌ
لَيْسَ لِي فِي طَبِّ «جَالِينُوسَ» بَاغٌ
احْذَرِ التُّخْمَةَ إِنْ كُنْتَ فَهَمٌ
وَاتَّقِ الْبَرْدَ فَكَمْ خَلَقَ قَتَلَ
اتَّخَذَ سَكَنًا فِي طَلْقِ الْجَوَاءِ
خَيْمَةً فِي الْبَيْدِ خَيْرٌ مِنْ قَصُورٍ
فِي غِدِّ تَأْوِي إِلَى قَفْرِ حِلْكِ
وَاتْرِكِ الْخَمْرَ لِمَشْغُوفٍ بِهَا
لَا تُنَادِمِ غَيْرَ مَأْمُونٍ كَرِيمٍ
وَعَنِ الْمَيْسِرِ مَا اسْطَغَتْ ابْتِعَدُ
وَتَعَشَّقْ وَتَعَفَّفْ وَاتَّقِ

يَمْلَأُ الْعَيْشَ نَعِيمًا وَسَعَةً
صُمُّ عَنِ الْغَيْبَةِ يَوْمًا وَالنَّمِيمِ
كَمْ مُصَلٍّ ضَجَّ مِنْهُ الْمَسْجِدُ
غَبَّ حَجٌّ لِبُيُوتِ الْفُقَرَا
مَنْ وَقَّارَ اللَّهِ أَلَّا تَخْدَعَهُ
إِنَّهَا مَحْبُوبَةٌ عِنْدَ الْإِلَهِ
فَإِذَا مَا زِدْتَ فَالِلَهُ كَرِيمٍ
بَيِّدُ أَنْ الْعَيْشَ دَرَسَ وَاطَّلَعَ
إِنْ «عِزْرَائِيلَ» فِي حَلْقِ النَّهْمِ
مَنْ تَوَقَّاهُ اتَّقَى نِصْفَ الْعِلَلِ
بَيْنَ شَمْسٍ وَنَبَاتٍ وَهَوَاءٍ
تَبْخُلُ الشَّمْسُ عَلَيْهَا بِالْمُرُورِ
يَسْتَوِي الصُّعْلُوكُ فِيهِ وَالْمَلِكُ
لَا يَرَى مَنَدُوحَةً عَنْ شَرْبِهَا
إِنْ عَقَلَ الْبَعْضُ فِي كَفِّ النَّدِيمِ
فَهُوَ سُلُّ الْمَالِ بَلْ سُلُّ الْكَيْدِ
مَا دَرَى اللَّذَّةَ مِنْ لَمْ يَعِشْ

حَجُّ الْأَمِيرِ

(أرسل الأبيات الآتية في برقية إلى شريف مكة سنة حج الخديو عباس.)

دامت مَعَالِيكَ فِينَا يَا ابْنَ فَاطِمَةٍ
قُلْ لِلْخَدِيوِ إِذَا وَافَيْتَ سُدَّتْهُ
حَجُّ الْأَمِيرِ لَهُ الدُّنْيَا قَدْ ابْتَهَجَتْ
فَلْتَحَيَّ مِلَّتُنَا فَلْتَحَيَّ أُمَّتُنَا

وَدَامَ مِنْكُمْ لِأَفْقِ الْبَيْتِ نِبْرَاسُ
تَمْشِي إِلَيْهِ وَيَمْشِي خَلْفَكَ النَّاسُ
وَالْعَوْدُ وَالْعِيدُ أَفْرَاحٌ وَأَعْرَاسُ
فَلْيَحَيَّ سُلْطَانُنَا فَلْيَحَيَّ عَبَاسُ

إسماعيل

وقال وقد أشرف في مدينة نابلي على الدار التي كان يقيم فيها الخديو إسماعيل:

أَبْكِيكَ إِسْمَاعِيلَ مِصْرَ وَفِي الْبُكَى
وَمِنَ الْقِيَامِ بَبَعْضِ حَقِّكَ أَنَّنِي
هَٰذَا بُيُوتُ الرُّومِ كَيْفَ سَكَنْتَهَا
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ نَفْسَكَ أَقْصَرْتَ
مَا زَالَ يُخْلِي مِنْكَ كُلَّ مَحَلَّةٍ
نَظَرَ الزَّمَانَ إِلَى دِيَارِكَ كُلِّهَا
بَعْدَ التَّذَكُّرِ رَاحَةَ الْمُسْتَعْبِرِ
أَرْقَى لِعِزِّكَ وَالنَّعِيمِ الْمُدِيرِ
بَعْدَ الْقُصُورِ الْمُزْرِياتِ بِقَيْصِرِ
وَالدَّهْرِ فِي إِحْرَاجِهَا لَمْ يُقْصِرِ
حَتَّى دُفِعْتَ إِلَى الْمَكَانِ الْأَقْفَرِ
نَظَرَ «الرَّشِيدَ» إِلَى مَنَازِلِ «جَعْفَرٍ»^{٢١}

حريقُ ميثَ عُمَرَ^{٢٢}

يَا «مَيْتَ عَمَرَ» خُذِي الْقَضَاءَ كَمَا جَرَى
إِلَّا وَهَوْنَهُ الْقِيَاسُ وَصَغَرَا
أَوْ «مَرْتَنِيْقَ» غَدَاةَ وَوَرِيَتِ الثَّرَى
شَرًّا بَجَنْبِ نَصِيْبِهَا مُسْتَصْغَرَا
هَلْ كُنْتَ زُكْنًا مِنْ جَهَنَّمَ مُسْعَرَا
فَوَقَفْتُ مُعْتَبِرًا بِهَا مُسْتَعْبِرَا
وَأَرَى النَّعِيمَ نَعِيمَ عُمَرَ مُقْصِرَا
لِلنَّفْسِ أَنْ تَرْضَى وَالْأَ تَضَجَّرَا
حَتَّى رَأَيْتُ بِكَ الشَّقَاءَ مُصَوَّرَا
بِبَنِي أُمِّيَّةٍ أَوْ قَرَابَةِ جَعْفَرَا
لَا يُنْظَرُونَ وَلَا مَسَاكِنُهُمْ تُرَى
وَإِذَا رَأَيْتَ رَأَيْتَ مَيْتًا مُنْكَرَا
اللَّهُ يَحْكُمُ فِي الْمَدَائِنِ وَالْقُرَى
مَا جَلَّ خَطْبُ ثُمَّ قَيْسَ بَغِيرِهِ
فَسَلِي «عَمُورَةَ» أَوْ «سَدُون» تَأْسِيًا
مُدُنٌ لِقِيْنٍ مِنَ الْقَضَاءِ وَنَارِهِ
هَٰذَا طُلُوكُ أَنْفُسَا وَحِجَارَةٍ
قَدْ جِئْتُ أَبْكِيهَا وَأَخْذُ عِبْرَةٍ
أَجْدُ الْحَيَاةَ حَيَاةَ دَهْرٍ سَاعَةٍ
وَأَعُدُّ مِنْ حَزْمِ الْأُمُورِ وَعِزْمِهَا
مَا زِلْتُ أَسْمَعُ بِالشَّقَاءِ رِوَايَةً
فَعَلَ الزَّمَانُ بِشَمْلِ أَهْلِكَ فَعَلَهُ
بِالْأُمْسِ قَدْ سَكَنُوا الدِّيَارَ فَأَصْبَحُوا
فَإِذَا لِقِيْتِ لِقِيْتِ حَيًّا بِائِسًا

^{٢١} جعفر اليرمكي ونكبة البرامكة مشهورة في تاريخ الرشيد.

^{٢٢} سنة ١٩٠٥م نُشِرَتْ بِمَجَلَّةِ الْمَجَلَاتِ الْعَرَبِيَّةِ.

تبكي الصغير وتلك تبكي الأصغرا
 من أجل طفل في الطلول استأخرا
 واليوم تسأل أن يعود فيقبرا
 فمحتك أساسا وغيّرت الذرا
 حمراء يبدو الموت منها أحمر
 لو قابلته ولا تهاب الأبحرا
 يدعى لينظرها لعاف المنظرا
 أستغفر الرحمن ولّى مدبرا
 عصم الديار من المدامع ما جرى
 ومطنّبا ومسيّجا ومُسوّرا
 من فرّ لم يجد الطريق مُيسّرا
 وأضلّهم قدر فضّلوا المصدرا
 ساحات حاتم غبّ نيران القرى
 خمدت به نار المجوس وأقفرا
 وتشمّ منها الثاكلات العنبرا
 يا طير «كلّ الصيّد في جوف الفرا»
 تغشى عليك الوكر في سنة الكرى
 تأتي لتمشي في الطلول وتخبرا
 وأرى الفرائس بالتساؤل أجّرا
 يُطفي القلوب المُشعلات تحسّرا
 بالصبر فهو بمالهم لا يشتري
 أو لم تكن للاجئين فمن ترى
 وارحم رَمِيمًا في التراب مُبعثرا
 آياتك السبع القديمة في الورى
 في كلّ ناحية يُسيّر عسكرا
 برّدا وخذ باللطف فيما قدّرا
 يا أُمَّة قد آن أن تستغفرا

والأمهات بغير صبر هذه
 من كلّ مُودعة الطلول دموعها
 كانت تُؤمل أن تطول حياته
 طلعت عليك النار طلعة شؤمها
 ملكت جهاتك ليلة ونهارها
 لا ترهب الطوفان في طغيانها
 لو أن «نيرون» الجماد فؤاده
 أو أنه ابتلي «الخليل» بمثلها
 أو أن سيلا عاصم من شرّها
 أمسى بها كلّ البيوت مُبوّبا
 أسرتهم وتملّكت طرقاتهم
 خفت عليهم يوم ذلك موردا
 حيث التفت ترى الطريق كأنها
 وترى الدعائم في السواد كهيكل
 وتشم رائحة الرُفات كريهة
 كثرت عليها الطير في حوماتها
 هل تأمنين طوارق الأحداث أن
 والناس من داني القرى وبعيدها
 يتساءلون عن الحريق وهوله
 يا ربّ قد خمدت وليس سواك من
 فتحوا اكتتابا للإعانة فاكتتب
 إن لم تكن للبائسين فمن لهم
 فتولّ جمعًا في اليباب مُشتتا
 فعلت بمصر النار ما لم تأتّه
 أوما تراها في البلاد كقاهر
 فادفع قضاءك أو فصير ناره
 مدّوا الأكف سخية واستغفري

أولى بعطفِ المُوسِرِينَ وبرِّهم
يا أيُّها السُّجَنَاءُ في أموالهم
لا يملكُ الإنسانُ من أحواله
لا يُبْطِرُنكَ من حريرِ موطئٍ
وإذا الزمانُ تنكَّرتْ أحداثُهُ
من كان مثْلَهُمْ فأصبحَ مُعسِراً
ألمنْتُمْ الأيامَ أن تتغيَّرا
ما تملكُ الأقدارُ مهما قدَّرا
فلرُبَّ ماشٍ في الحريرِ تعثَّرا
لأخيك فاذكُرْهُ عسى أن تُذكِّرا

خُطْبَةُ غَلِيُوم

وخطب غليوم عاهل ألمانيا خطبة في سنة ١٩٠٦م كان لها وقعٌ عظيم، وأحدثت أزمة أوشكت أن تنتهي إلى حرب أوروبية طاحنة، فقال:

يا رَبِّ ما حُكْمُكَ ماذا تَرى
قد قام غليومُ خطيباً فما
شيدَ في جَنبِكَ مُلْجاً له
قد ورثَ العالَمَ حيًّا فما
فالنَّصْفُ لِلْجِرمَانِ في زَعْمِهِ
يا رَبِّ قُلْ سَيْفُكَ أَمْ سَيْفُهُ
إن صدَقْتَ يا رَبِّ أحلامُهُ
لا نحنُ جِرمَانُ لَنَا حِصَّةٌ
يا رَبِّ لا تنسَ رعاياك في
جِنَايَةِ الجَهِلِ على أهْلِهِ
يا ليتَ لم نمددْ بِشَرٍّ يَدًا
جَنَى علينا عُصْبَةٌ جازَفوا
في ذلك الحُلُمِ العريضِ الطويلِ
أعطاكَ من مُلْكِكَ إلا القليلِ
مُلْكُكَ إن قيسَ إليه الضَّئيلُ
غادرَ من فجٍّ ولا من سبيلِ
والنَّصْفُ لِلرومَانِ فيما يقول
أيُّهما يا رَبِّ ماضٍ ثَقيلِ
فإن خَطَبَ المسلمِينِ الجليلِ
ولا بِرُومَانٍ فنُعْطى فَتيلِ
يومِ رعاياك الفريقُ الذليلِ
قديمَةٌ والجَهِلُ بئسَ الدليلِ
وليتَ ظِلُّ السُّلَمِ باقٍ ظليلِ
فحسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلِ

نادي الموسيقى الشرقي

وقال يخاطب الملك فؤاد الأول في حفلة افتتاح نادي الموسيقى الشرقي سنة ١٩٢٩م:

خطَّت يداكَ الرِّوضةَ الغنَّاءَ وفرغتَ من صرحِ الفنونِ بناءً

حتى تجاوزَ رُكْنَهُ الْجَوَازَ
 للساهرين روايةً ورواءَ
 لَحْظَ العيونِ وأعجبَ الإصغاءَ
 فَلَمَّا جلا شمسُ النهارِ عِشاءَ
 «وادي الملوك» حجارةً وفضاءَ
 فجرَ الحضارةِ في البلادِ أضواءَ
 أَكْثَرْنَ نحوَ بِنائِكَ الإيماءِ
 وترنَّمتْ أوتارُهنَّ ثناءَ
 وحذوتْ في هِنْدِماها «الحمراء»^{٢٣}
 يَتَبَوَّأُ الحُجَرَاتِ والأبهاءِ
 يحبو بها سبحانَه من شاء
 بعثَ الهَزَارَ وأرسلَ الوَرْقاءِ
 فاتَ «الرشيدَ» وأخطأَ النَّدْماءِ
 خَلَدُوا على جَنَابَتِهِ أَسْمَاءِ
 لم نُلَفَ أَمَجَدَ أُمَّةٍ آبَاءِ
 أرضاً وكُنَّا في الفَخَارِ سماءِ
 ظلَّ الوجودُ جَهَامَةً وجَفَاءِ
 تَجِدِ الحَيَاةَ من الجمالِ خَلَاءِ
 قد عالجتِ بالواحةِ الصحراءِ
 فتُصِيبُ ظِلًّا أو تُصَادِفُ ماءَ
 يجري السلامةَ أو يدقُّ الدَّاءِ
 أو زافَ كانتَ ظاهراً وطلاءِ
 بالغَرَسِ إلا نعمةً ونِّماءِ
 جاء الزمانُ بَجَنَّةٍ فَيُحْيَا

ما زِلْتَ تذهبُ في السُّمُو بِرُكْنِهِ
 دارُ من الفنِّ الجميلِ تقسَّمتْ
 كالرَّوِضِ تحتَ الطيرِ أعجبَ أَيْكُهُ
 ولقد نزلتْ بها فلم نرَ قبْلَها
 وتوهَّجتْ حتى تقلَّبَ في السَّنا
 فتلفَّتُوا يتهامسونَ لعلَّه
 تلكَ المَعازِفُ في طُلُولِ بِنائِهِم
 وتمايلتْ عيدانُهنَّ تحيَّةَ
 يا باني الإيوانِ قد نسَقْتَهُ
 أين «الغريضُ» يُجِلُّهُ أو «مَعْبُدٌ»^{٢٤}
 العبقريَّةُ من ضَنائِنِه التي
 لَمَّا بَنَيْتِ الأيْكَ واستوهبتَهُ
 فسمعتْ من مُتفرِّدِ الأنغامِ ما
 والفنِّ ريحانُ الملوكِ وربما
 لولا أياديهِ على أبنائِنَا
 كانتْ أوائلُ كلِّ قومٍ في العُلا
 لولا ابتسامُ الفنِّ فيما حوَّلَهُ
 جرَّدَ من الفنِّ الحَيَاةَ وما حوَّتْ
 بالفنِّ عالجتِ الحَيَاةَ طبيعَةً
 تأوي إليها الروحُ من رَمْضائِها
 نبضُ الحضارةِ في الممالكِ كُلِّها
 إن صحَّ ففِي الزمانِ صحيحةُ
 انظُرْ أبا الفاروقِ غَرْسَكَ هل ترى
 من حَبَّةٍ نُخِرَتْ وأيدٍ ثابرتْ

^{٢٣} من قصور بني الأحمر في غرناطة بالأندلس: «الهمبرا».

^{٢٤} الغريض ومعبود: من أمراء الغناء العربي.

وَأَكْنَنْتِ الْفَنَّ الْجَمِيلَ خَمِيلَةً
بَذَلَ الْجُهْدَ الصَّالِحَاتِ عَصَابَةً
صَحِبُوا رَسُولَ الْفَنِّ لَا يَأْلُونَهُ
دَفَعُوا الْعَوَاقِقَ بِالثَّبَاتِ وَجَاوَزُوا
إِنْ التَّعَاوَنَ قُوَّةً عُلوِيَّةً
فَلْيَهْزِهِمْ حَازَ الْتَفَاتِكَ سَعِيْهِمْ
لَمْ تَبْدُ لِلْأَبْصَارِ إِلَّا غَارِسًا
تَغْدُو عَلَى الْفَتَرَاتِ تَرْتَجِلُ النَّدى
فِي مَوَكِبٍ كَالْغَيْثِ سَارَ رِكَابُهُ
أَنْتَ اللِّوَاءُ التَّفَّ قَوْمُكَ حَوْلَهُ
مَنْ كُلِّ مِثْذَنَةٍ سَمِعَتْ مَحَبَّةً
يَتَأَلَّفَانِ عَلَى الْهَتَافِ كَمَا انْبَرَى

رَمَتْ الظُّلَالَ وَمَدَّتِ الْأَفْيَاءَ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ الْجُهُودِ جَزَاءَ
حُبًّا وَصِدْقَ مَوَدَّةٍ وَوَفَاءَ
مَا سَرَّ مِنْ قَدَرِ الْأُمُورِ وَسَاءَ
تَبْنِي الرِّجَالِ وَتُبْدِعُ الْأَشْيَاءَ
وَكَسَا نَدِيَّهِمْ سَنًا وَسَنَاءَ
لِخَوَالِفِ الْأَجْيَالِ أَوْ بَنَاءَ
وَتَرَوْحُ تَصْطَنَعُ الْيَدَ الْبَيْضَاءَ
بِشْرًا وَحَلَّ سَعَادَةً وَرَخَاءَ
وَالْتَاَجُ يَجْعَلُهُ الشُّعُوبُ لِيَوَاءَ
وَبِكُلِّ نَاقُوسٍ لَقِيَتْ دُعَاءَ
وَتَرَى يُسَايِرُ فِي الْبَنَانِ غِنَاءَ

في دار الأوبرا

(هذه القصيدة لم يتبين لي — على وجه اليقين — سبب إنشادها، وأحسبه نظمها لمناسبة احتفال في دار الأوبرا أقامته جمعية من جمعيات البر بأبناء السبيل.)^{٢٥}

حَبَّذا السَّاحَةُ وَالظِّلُّ الظَّلِيلُ
لَمْ تَزَلْ تَجْرِي بِهِ تَحْتَ الثَّرَى
صُنْعُ إِسْمَاعِيلَ جَلَّتْ يَدُهُ
أَتْرَاهَا سُدَّةً مِنْ بَابِهِ
مَلْعَبُ الْأَيَّامِ إِلَّا أَنَّهُ
شَهِدَ النَّاسُ بِهَا «عَائِدَةً»
وَائْتَنَّفْنَا فِي ذَرَاهَا دَوْلَةً
أَيْنَعَتْ عَصْرًا طَوِيلًا وَأَتَى

وَشَنَاءُ فِي فَمِ الدَّارِ جَمِيلُ
لُجَّةُ الْمَعْرُوفِ وَالنَّيْلِ الْجَزِيلُ
كُلُّ بُنْيَانٍ عَلَى الْبَانِي دَلِيلُ
فُتِحَتْ لِلْخَيْرِ جِيلاً بَعْدَ جِيلِ
لَيْسَ حَظُّ الْجِدِّ مِنْهُ بِالْقَلِيلِ
وَشَجَى الْأَجْيَالِ مِنْ «فَرِيدِي» الْهَدِيلِ
رَكْنُهَا السُّودُّ وَالْمَجْدُ الْأَثِيلِ
دُونَ أَنْ تُسْتَأْنَفَ الْعَصْرُ الطَّوِيلِ

^{٢٥} زِيدَتْ هذه في الطبعة الثانية.

وعقدناه لسبّاقٍ أصيل
 وشموسٍ شُيِّعت يومَ الرحيل
 ماجٍ بالخَيْرِ والسَّمَحِ المُنِيل
 ومشى يستروحُ البُرءَ العليل
 وسعى المأوى لأبناء السبيل
 ومن الدُّورِ جَواثٍ وبخيل
 منزلٌ ليس بمذموم النزيل
 ويُنحِّيهم عن المَرعى الوَبيل
 بعضُكم خَدُنْ لبعضٍ وخليل
 كلُّ مولودٍ وإن جَلَّ ضئيل
 تُبْعُ الظنُّ عن الإنصافِ ميل
 قَلَّتِ الحيلةُ في قالٍ وقيل
 رَقَّةُ الدينِ إلى الخلقِ الهزيل
 مُرشدٍ للنَّشءِ بالهَدْيِ كَفِيل
 نَشَأَ عن سُنَّةِ البِرِّ يَمِيل
 كلِّما عبَّ وكُونوا السلسبيل
 رَوَّتِ العُشبَ ولم تنسَ النخيل
 كلُّ نفسٍ بكتابٍ وسبيل
 فاطرَحوا خلفكم العِبءَ الثقيل
 ليلةَ القدرِ من الشهرِ النبيل
 ومشى بين يديه جَبْرئيل
 غُرِّرَ من لَمَحَةِ الخيرِ تَسِيل
 وكأنَّ الدارَ في ظلِّ الأصيل
 لَذَّةُ الخيرِ من الخيرِ بَدِيل
 لجليلِ العملِ العَوْنُ الجليل
 أخذتُ عهدَ النَّدَى ألا تَمِيل

كم ضفَرنا الغارَ في محرابها
 كم بُدورٍ وُدَّعت يومَ النوى
 رَبُّ عُرْسٍ مَرٍّ للبرِّ بها
 ضحكُ الأيتامِ في ليلته
 والتقى البائسُ والنَّعمى به
 ومن الأرضِ جَدِيبٌ ونَدِ
 يا شبابًا حَنفاءَ ضَمَّهم
 يصرفُ الشُّبانَ عن وِردِ القذى
 انهبوا فيه وجيئوا إخوةً
 لا يَضُرُّنكم قِلَّتُهُ
 أَرَجَفَتْ في أَمركم طائفةُ
 اجعلوا الصبرَ لهم حِيلَتكم
 أيريدون بكم أن تجمِعوا
 خَلَّتِ الأرضُ من الهَدْيِ ومن
 فَتَرى الأسرةَ فَوْضَى وترى
 لا تَكُونوا السَّيْلَ جَهْمًا خَشَنًا
 رَبُّ عَيْنٍ سَمَحَةٍ خاشعةٍ
 لا تُمارُوا الناسَ فيما اعتقدوا
 وإذا جِئْتُم إلى نادِيكمُ
 هذه ليلَتُكم في «الأوبرا»
 مِهْرَجَانٌ طَوَّفَ الهادي به
 وتجلَّت أوجُهُ زَيْنَها
 فكأنَّ الليلَ بالفجرِ انجلى
 أيها الأجواثُ لا نجزيكمُ
 رجلُ الأُمَّةِ يُرجى عنده
 إن دارًا حُطِّمَموها بالنَّدَى

مصرع بطرس غالي باشا

حينما قُتِل بطرس غالي باشا في مصر برصاصة من يد إبراهيم الورداني في سنة ١٩١٠م هاجت النفوس، واستاء كثير من الأقباط لوقوع الجريمة على زعيم ووزير قبطي، فقال في ذلك:

هَبُوهُ «يسوعاً» في البرية ثانياً
وهذا قضاءُ الله قد غَال «غالياً»
وداهيةُ السُّوَّاس لاقى الدواهيا
عليه لأودى فجأةً أو تداويا
إذا هي حانت لم تُؤَخَّر ثوانيا
ويبقى الأنامُ اثْنين ميئاً وناعيا
وننبذُ أسبابَ الشُّقاقِ نواحيا
وبينهما كانت لكلِّ مغانيا
و«موسى» و«طه» نعبُدُ النيلَ جاريا
وهلاً فديناه ضفافاً وواديا
وفي المسلمين الخيرُ ما زال باقيا
فقدّمنا عَرَفْنَا القتلَ في الناس فاشيا

بني القبطِ إخوانَ الدُّهورِ رُويَديكم
حملْتُم لِحُكْمِ اللهِ صلبَ «ابنِ مريم»
سديدُ المرامي قد رماه مُسدِّدُ
ووالله لو لم يُطْلِقِ النارَ مُطْلِقُ
قضاءٍ ومقدارٍ وأجالَ أنفُسِ
نَبِيدُ كما بادت قبائلُ قبلنا
تعالوا عسى نطوي الجفاءَ وعهدُ
ألم تَك «مصر» مهدنا ثم لحدنا
ألم نَك من قبل «المسيحِ ابنِ مريم»
فهلاً تساقينا على حُبِّه الهوى
وما زال منكم أهلٌ ودٌ ورحمةُ
فلا يثْنِكم عن ذمةٍ قتلَ «بطرس»

تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر

ويَندُبُهُم ولو كانوا عظاما
فتى يُحيي بمدحتِهِ الكراما
وما يَجْزِيهِمْ إلا كلاما
مقالاً مُرضياً ذاك المقاما
تعهدَ في الثرى مَلِكاً هُمَما
وقفتَ بقبرِهِ كنتَ الغماما
تركتَ الجيلَ في التاريخَ عاما
وأَيُّ مُمَلِّكٍ تُهدي السَّلاما

عظيمُ الناس من يبكي العظاما
وأكرمُ من غَمامٍ عندَ محلِّ
وما عذِرُ المقصّرِ عن جزاءِ
فهل من مُبْلِغٍ غليومَ عني
رعاكَ اللهُ من مَلِكٍ هُمَامِ
أرى النسيانَ أظْمَأَه فلمَّا
تُقرَّبُ عهدُهُ للناسِ حتى
أتدري أيَّ سلطانٍ تُحيي

وقفتَ به تُذَكِّرُهُ مُلوَكًا
وكم جَمَعَتَهُمْ حَرْبٌ فكَانُوا
كِلَامٌ لِلْبَرِيَّةِ دَامِيَاتُ
فَلَمَّا قَلْتَ مَا قَدْ قَلْتَ عَنْهُ
تَسَاءَلَتِ الْبَرِيَّةُ وَهِيَ كَلَمِي
وَأَنْتَ أَجَلٌ أَنْ تُزْرِيَ بِمَيِّتٍ
فَلَوْ كَانَ الدَّوَامُ نَصِيبَ مَلِكٍ
تَعَوَّدَ أَنْ يُلَاقِيَهُ قِيَامَا
حَدَائِدَهَا وَكَانَ هُوَ الْحُسَامَا
وَأَنْتَ الْيَوْمَ مِنْ ضَمَدِ الْكِلَامَا
وَأَسْمَعْتَ الْمَمَالِكَ وَالْأَنَامَا
أَحَبًّا كَانَ ذَاكَ أَمْ انْتِقَامَا
وَأَنْتَ أَبرُّ أَنْ تُؤْذِيَ عِظَامَا
لِنَالٍ بَحْدَ صَارِمِهِ الدَّوَامَا

الفنار ٢٦

سَمَا يُنَاغِي الشُّهُبَا
كَالدَّيْدَبَانِ الزَّمُو
شَيَّعَ مِنْهُ مَرَكَبًا
بَشَّرَ بِالْدارِ وَبِالْـ
وَخَطَّ بِالنُّورِ عَلَى
كَالْبَارِقِ الْمُلِحِّ لَمْ
يَا رَبِّ لَيْلٍ لَمْ تَذُقْ
بِتَنَا نُرَاعِيهِ كَمَا
سَعَادَةٌ يَعْرِفُهَا
مَشَى عَلَى الْمَاءِ وَجَا
وَقَامَ فِي مَوْضِعِهِ
يَرْمِي إِلَى الظَّلَامِ طَرُ
كُمُبَصِّرٍ أَدَارَ عَيْ
كَبَصِيرِ الْأَعْشَى أَصَا
وَكَالسَّرَاجِ فِي يَدِ الرَّ
كَلْمَحَةِ مِنْ خَاطِرِ
مُجْتَنِبِ الْعَالَمِ فِي
إِلَّا شِرَاعًا ضَلَّ أَوْ

هَلْ مَسَّهَا فَالْتَهَبَا
هُ فِي الْبَحَارِ مَرَقَبَا
وَقَامَ يَلْقَى مَرَكَبَا
أَهْلِ السُّرَاةِ الْغُيَّيَا
لَوْحِ الظَّلَامِ مَرَحَبَا
يُؤَلِّ إِلَّا عَقَّيَا
فِيهِ الرُّقَادَ طَرَبَا
يَرْعَى السُّرَاةَ الْكُوكِبَا
فِي النَّاسِ مَنْ كَانَ أَبَا
بِ كَالْمَسِيحِ الْعَبَّيَا
مُسْتَشْرِفًا مُنْقَبَا
فَا حَائِرًا مُذْبَذَبَا
نَا فِي الدُّجَى وَقَلْبَا
بِ فِي الظَّلَامِ وَنَبَا
يَحِ أَضَاءَ وَخَبَا
مَا جَاءَ حَتَّى ذَهَبَا
عُزْلَتِهِ مُجْتَنَبَا
فُلُكًا يُقَاسِي الْعَطَبَا

حارس الفنار ودلفين

وكان حارسُ الفنارِ	وكان حارسُ الفنارِ
يَهْوَى الحياةَ ويُحِبُّ	يَهْوَى الحياةَ ويُحِبُّ
أَتَتْ عَلَيْهِ سَنَوا	أَتَتْ عَلَيْهِ سَنَوا
لَمْ يَرَ فِيهَا زَوْجَهُ	لَمْ يَرَ فِيهَا زَوْجَهُ
وكان قد رَعَى الخطيـ	وكان قد رَعَى الخطيـ
فقال يا حارسُ خَلِّ	فقال يا حارسُ خَلِّ
من يُسَعِفُ الناسَ إذا	من يُسَعِفُ الناسَ إذا
ما الناسُ إِخْوَتِي ولا	ما الناسُ إِخْوَتِي ولا
...	...
انظُرْ إِلَيَّ كَيْفَ أَقْدُ	انظُرْ إِلَيَّ كَيْفَ أَقْدُ
قد عِشْتُ فِي خِدْمَتِهِمْ	قد عِشْتُ فِي خِدْمَتِهِمْ
كَمْ مِنْ غَرِيقٍ قَمْتُ عِنْدَ	كَمْ مِنْ غَرِيقٍ قَمْتُ عِنْدَ
وكان جَسَماً هامِداً	وكان جَسَماً هامِداً
وكنْتُ وَطْأْتُ لَهُ	وكنْتُ وَطْأْتُ لَهُ
حتى أَتَى الشَّطْطُ فَبِشَّ	حتى أَتَى الشَّطْطُ فَبِشَّ
وطَارَدُونِي فانقلبـ	وطَارَدُونِي فانقلبـ
ما نِلْتُ مِنْهُمْ فَضْلةً	ما نِلْتُ مِنْهُمْ فَضْلةً
وما الجِزَاءُ لَا تَسَلْ	وما الجِزَاءُ لَا تَسَلْ
أَلْقُوا عَلَيَّ شَبَكَا	أَلْقُوا عَلَيَّ شَبَكَا
وَاتَّخَذَ الصَّنَاعُ مِنْ	وَاتَّخَذَ الصَّنَاعُ مِنْ
ولم يَزَلْ إِسْعَافُهُمْ	ولم يَزَلْ إِسْعَافُهُمْ
ولم يَزَلْ سَجِيَّتِي	ولم يَزَلْ سَجِيَّتِي
إذا سَمِعْتُ صَرْخَةً	إذا سَمِعْتُ صَرْخَةً
لَا أَجِدُ الْمُسْعِفَ إِلَّا	لَا أَجِدُ الْمُسْعِفَ إِلَّا
وَالْمُسْعِفُونَ فِي غَدٍ	وَالْمُسْعِفُونَ فِي غَدٍ
يقول «رِضْوَانُ» لَهُمْ	يقول «رِضْوَانُ» لَهُمْ
مُذْنِبُكُمْ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ	مُذْنِبُكُمْ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ

القمر على آفاق كلاًزومين ليلة المولد النبوي الأسنى

فَدَيْنَاهُ مِنْ زَائِرٍ مُرْتَقِبٍ	بدا للوجودِ بمرأى عَجَبٍ
تَهْزُ الْجِبَالَ تَبَاشِيرُهُ	كما هَزَّ عَطْفَ الطُّرُوبِ الطَّرِبُ
وَيُحْلِي الْبِحَارَ بِلَآئِهِ	فَمِنَّا الْكُنُوسُ وَمِنْهُ الْحَبِّبُ
مَنَارُ الْحُزُونِ إِذَا مَا اعْتَلَى	مَنَارُ السَّهُولِ إِذَا مَا انْقَلَبَ
أَتَانَا مِنَ الْبَحْرِ فِي زَوْرِقٍ	لُجَيْنًا مَجَازِبُهُ مِنْ ذَهَبٍ
فَقُلْنَا سُلَيْمَانُ لَوْ لَمْ يَمُتْ	وَفِرْعَوْنُ لَوْ حَمَلَتْهُ الشُّهُبُ
وَكِسْرَى وَمَا خَمَدَتْ نَارُهُ	وَيُوسُفُ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَشِبْ
وَهِيَهَاتَ مَا تَوَجَّوْا بِالسَّنَا	وَلَا عَرْشُهُمْ كَانَ فَوْقَ السُّحُبِ
أَنَافَ عَلَى الْمَاءِ مَا بَيْنَهَا	وَبَيْنَ الْجِبَالِ وَشُمُّ الْهَضْبِ
فَلَا هُوَ خَافٍ وَلَا ظَاهِرٌ	وَلَا سَافِرٌ لَا وَلَا مُنْتَقِبُ
وَلَيْسَ بِثَاوٍ وَلَا رَاحِلٍ	وَلَا بِالْبَعِيدِ وَلَا الْمُقْتَرِبِ
تَوَارَى بِنَصْفٍ خِلَالَ السُّحُبِ	وَنَصْفٌ عَلَى جَبَلٍ لَمْ يَغِبْ
يَجِدُّهَا آيَةً قَدْ خَلَتْ	وَيَذْكُرُ مِيلَادَ خَيْرِ الْعَرَبِ

أثينا^{٢٧}

وأوفدته الحكومة المصرية إلى «أثينا» عاصمة اليونان لحضور مؤتمر المستشرقين، فقال
يخاطبها:

إِنْ تَسْأَلِي عَنْ مِصْرَ «حَوَاءِ» الْقُرَى	وَقَرَارَةِ التَّارِيخِ وَالْأَثَارِ
فَالصُّبْحُ فِي «مَنْفٍ» وَ«ثِيَّةٍ» وَاضِحٌ	مَنْ ذَا يُلَاقِي الصُّبْحَ بِالْإِنْكَارِ
بِالْهَيْلِ مِنْ «مَنْفٍ» وَمِنْ أَرْبَاضِهَا	مَجْدُوعُ أَنْفٍ فِي الرِّمَالِ كُفَّارِي ^{٢٨}
خَلَّتِ الدَّهْورُ وَمَا التَّقَتْ أَجْفَانُهُ	وَأَتَتْ عَلَيْهِ كُلَّيْلَةٌ وَنَهَارِ

^{٢٧} نُشِرَتْ بِمَجَلَّةِ رَعْمَسِيْس سَنَةِ ١٩١٢ م.

^{٢٨} الكفاري: العظيم الأذنين، يشير إلى تمثال أبي الهول.

منه اختلافُ جوارفٍ ودَوارٍ
أو كان غيرَ مُقَلِّمِ الأظفارِ
شُمٌّ على مرِّ الزمانِ كِبَارٍ^{٢٩}
تكسوه ثوبَ الفجرِ وهي عوار
مُتطاوِلٍ في الجوّ كالإعصار
ببدائعِ البنّاءِ والحفّار
من حيلةِ المصلوبِ في المِسمار
أخفّت من الأعلاق والأذخار
يجِدُون أرواحَ ضجعةٍ وقرار
والدهرُ دونَ سَريرِهِ بهِجار
المُنزِلونَ مَنازلَ الأقمار
بعدَ الصَّيانِ إزالةَ الأسرار
إلا بأيديّ في الرِّغامِ قِصار
ما بالهم عَرَضُوا على النُّظَّار
قاموا لخالِقِهِم بغيرِ غبار

ما فلَّ ساعِدَهُ الزمانُ ولم ينل
كالدهرِ لو ملكَ القيامَ لِفَتَكَةٍ
وثلاثةُ شبِّ الزمانِ حِيالِها
قامت على النيلِ العهدِ عهيدةً
من كلِّ مركزٍ كَرَضوى في الثرى
الجنُّ في جنّباتِها مطروقةً
والأرضُ أضيّعَ حيلةً في نَزْعِها
تلك القبورُ أضنَّ من غيبٍ بما
نام المُلوكُ بها الدهورَ طويلاً
كلُّ كأهلِ الكهفِ فوقَ سَريرِهِ
أملأكَ مصرَ القاهرون على الورى
هتَكَ الزمانِ جبابِهم وأزالهم
هَيهاتَ لم يَلِمَسْ جلالَهم البلى
كانوا وظَرْفُ الدهرِ لا يسمو لهم
لو أمهلوا حتى النُّشورِ بدورِهِم

ذكرى محمد فريد

(أُلقيَت في الاحتفال بالذكرى الخامسة للمغفور له محمد فريد بك سنة ١٩٢٤م.)

ونُدني خيالَ الأُمسِ وهو بعيدُ
عليهنَّ غاوي أو يسيرُ رشيدُ
تحيرُ فيها الحيّ كيف يسود
وإن لم يفتنا في الحقوقِ جديد
وأنتم أساسُ في البِناءِ وطيد
مجالُ الضحايا أنت فيه فريد

نَجِدُ ذِكْرِي عهدِكم ونُعِيدُ
وللناسِ في الماضي بصائرُ يهتدي
إذا الميتُ لم يَكُرِّمْ بأرضِ ثناؤُهُ
ونحن قضاةُ الحقِّ نرعى قديمَهُ
ونعلمُ أننا في البِناءِ دعائمُ
فريدُ ضحايانا كثيرٌ وإنما

^{٢٩} يشير إلى الأهرام.

ولا فوق ما قاسيت فيه مَزِيد
وأنت بأفاق البلاد شريد
وترزح تحت الداء وهو عتيد
من المال لم تبخل به وتلبد
إذا جزع المحضور وهو يجد
على سره نبني العُلا ونشيد
وكيف يُحامي دونه ويذود

فما خلف ما كابدت في الحق غايّة
تغرّبت عشرًا أنت فيهنّ بائس
تجوع ببُلدان وتعرى بغيرها
ألا في سبيل الله والحق طارف
وجودك بعد المال بالنفس صابرًا
فلا زلت تمثالا من الحق خالصا
يُعلم نشء الحي كيف هوى الحمى

النخيل ما بين المنتزه وأبي قير

(نظمها بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١ م.)

وشقّ العنانَ بمرأى عَجَب
ظواهرها درجُ من شَذَب
ولكن تصيحُ عليها الغُرب
نمت وربّت في ظلال الكُثب
ة أو كالْفَنارِ وراء العَجَب
إذا الريحُ جاء به أو ذهب
وجرّ الأصيلُ عليها اللهب
من الصّحو أو من حواشي السُّحب
من القصر واقفة ترتقب
مُفصّلة بِشُذور الذهب
على الصدر واتّشحت بالقَصَب
تَعَقَّد من رأسها للذنب
أميرُ الحقول عروسُ العزب
وزادُ المسافر والمُغترب
ولا قصّرت نخلات التُّرب
ولم يحتفل شعراء العرب

أرى شجرًا في السماء احتجب
مأذنُ قامت هنا أو هناك
وليس يؤذنُ فيها الرجال
وباسقة من بنات الرمال
كسارية الفلّك أو كالمسلّ
تطول وتقصّر خلف الكُثيب
تُخال إذا اتّقدت في الضحى
وطافَ عليها شعاعُ النهار
وصيفة فرعون في ساحة
قد اعتصبت بفصوص العقيق
وناطت قلائد مرجانها
وشدّت على ساقها مئزرا
أهذا هو النخل ملكُ الرّياض
طعامُ الفقير وحلوى الغنيّ
فيا نخلة الرمل لم تبخلي
وأعجب كيف طوى ذكركنّ

أليس حرامًا خُلُوُ القصائِدِ
وأنتنَّ في الهاجرات الظُّلالُ
وأنتنَّ في البِيدِ شاةُ المُعِيلِ
وأنتنَّ في عِرْصَاتِ القصورِ
جناكُنَّ كالكرَمِ شَتَّى المذاقِ
بِدٍ من وصفِكُنَّ وعُطْلُ الكتُبِ
كأنَّ أعاليكُنَّ العُبابِ
جَناها بجانبِ أخرى حَلَبِ
جِسانُ الدُّمى الزائِناتُ الرَّحَبِ
وكالشَّهَدِ في كلِّ لونٍ يُحِبِ

البحر الأبيض

(نُظِمَتْ بالإسكندرية في صيف سنة ١٩٣١ م.)

أَمِنْ البحرِ صائِغٌ عبقرِيٌّ
طاف تحت الضُّحى عليهنَّ والجو
جِئْنَه في مَعاصمٍ ونُحُورِ
وأبى أن يُقْلَدَ الدُّرَّ واليا
وترى خاتِمًا وراءَ بَنانِ
وسِوارًا يَزِينُ زَنَدَ كعابِ
وترى الغِيَدَ لؤلؤًا ثَمَ رَطْبًا
وكانَ السَّماءَ والماءَ شِقًّا
وكانَ السَّماءَ والماءَ عُرْسُ
أو ربيعٌ من ريشةِ الفَنِّ أبهى
أو تهاويلُ شاعرِ عبقرِيٍّ
يا سِوارِي فَيُروِجُ ولُجَيْنِ
في شُعاعِ الضُّحى يَعودانِ ماسًّا
ومشَّتَ فيهما النجومُ فكانت
لك في الأرضِ مَوَكَّبٌ ليس يَأْلُو الرِّ
سَرتَ فيه على كنوزِ «سُلَيْما

بالرِّمالِ النواعِمِ البِيضِ مُغَرى
هَرُ في سَوقِه يُباعُ ويُشَرى
فكسا مِعصَمًا وأخَرَ عَرى
قوتَ نَحرا وقلَدَ الماسِ نَحرا
وبَنانًا من الخواتِمِ صَفرا
وسِوارًا من زَنَدِ حَسَناءِ فَرّا
وجُمانًا حِوالِي المِماءِ نَثرا
صَدَفٍ حُمْلًا رَفيفًا ودُرّا
مُتَرَعٌ المِهرجَانِ لَمَحًا وعِطرا
من ربيعِ الرُّبا وأفتنُ زُهرا
طارَحَ البحرَ والطَّبِيعَةَ شِعرا
بهما حُلَيْتِ مَعاصِمِ مِصرِا
وعلى لَمَحَةِ الأصائلِ تَبرِا
في حِواشِيهما يَواقِيتُ زُهرا
يَحَ والطَّيْرَ والشَّياطِينِ حَشرا^{٣٠}
نَ» تَعُدُّ الخُطا اختِيارًا وكِبرًا

^{٣٠} ليس يَأْلُو الريح ... إلخ: ليس يقصر عنها.

راهب طاف في الأناجيل يقرأ
 قد عرفنا له ولا مُستقراً
 ظلّ في خاطر المُلحّن سرّاً
 لك يا أرفع الزواجر ذكراً
 ضي نبشاً وتقتل الأمس فكراً
 وقرأنا الكتاب سطرًا فسطرًا
 فلمحنا من الحضارة فجراً
 نَ» ويونان تقبس العلم مصرًا
 عبقرياً وتلك بالفن سحراً
 سم على برقه الملمح يسرى
 وأديم الشبَاب طيباً وبشراً
 ء وجرّ الأصيل والصبح تبرا
 من جميع الجهات وافترّ ثغراً
 كِلَّة تارة ويرفع سِتراً
 ماضيات تلفّ بالسَّهل وعرًا
 في المَهاوي وقام يطفّر صخرا
 ركبَ الوُكُر في نواحيه وكُرا
 وترى رُبوة تُزيّن مصرًا
 و«عليّ» وراء مايك ذكري^{٣١}
 ر^{٣٢} كشّم الجبال جُنْدًا ووفرا
 ر بملمومة ويدخلن مصرًا
 ء كنسر يشدّ في السُّحب نسرا
 وتسدّ الفجّاج كُرًا وفرا
 زحفت غابة لتميقيق أخرى
 ورمّت ها هنا عواءً وظُفرا
 ر فلا حظّ يومها لك قدرا

وترنّمت في الرُّكاب فقلنا
 هو لحنٌ مُضيّع لا جوابًا
 لك في طيّه حديثٌ غرام
 قد بعثنا تحيةً وثناءً
 وغشيناك ساعةً تنبشُ الما
 وفتحنّا القديمَ فيك كتابًا
 ونشرنا من طيهنّ الليالي
 ورأينا مصرًا تُعلّم «يونا
 تلك تأتيك بالبيان نبياً
 ورأينا المنارَ في مطلع النّج
 شاطئٍ مثل رُقعة الخلد حُسناً
 جرّ فيروزجا على فضّة الما
 كلّما جئتّه تهلّل بشراً
 انثنى موجهً وأقبل يُرخي
 شبّ وانحطّ مثل أسراب طير
 ربما جاء وهدة فتردّى
 وترى الرمل والقصور كأيك
 وترى جوسقا يُزيّن روضاً
 سيّد الماء كم لنا من «صلاح
 كم ملأناك بالسّفينِ مَواقِب
 شاكيات السلاح يخرجن من مص
 شارعَات الجناح في ثَبَج الما
 وكأنّ اللُّجاج حينَ تنزى
 أجْم بعضه لبعض عدو
 قدّفت ها هنا زئيراً وناباً
 أنت تغلي إلى القيامة كالقد

^{٣١} يريد صلاح الدين الأيوبي ومحمد علي باشا.

^{٣٢} مَواقِب، موقرة: مثقلة بما تحمل.

قَفْ حَيِّ شُبَّانَ الْجِمَى

(نظمها في الطلاب المصريين الذين يطلبون العلم في أوروبا.)

قَفْ حَيِّ شُبَّانَ الْجِمَى	قَبْلَ الرِّحِيلِ بِقَافِيَةٍ
عَوَّدَتْهُمْ أَمْثَالُهَا	فِي الصَّالِحَاتِ الْبَاقِيَةِ
مَنْ كُلُّ ذَاتِ إِشَارَةٍ	لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ خَافِيَةٍ
قُلْ يَا شَبَابُ نَصِيحَةٌ	مِمَّا يُزَوِّدُ غَالِيَةَ
هَلْ رَاعَكُمْ أَنْ الْمَدَا	رَسَ فِي الْكِنَانَةِ خَاوِيَةَ
هُجِرَتْ فَكُلُّ خَلِيَّةٍ	مَنْ كُلُّ شَهِدٍ خَالِيَةِ
وَتَعَطَّلَتْ هَالَاتُهَا	مَنْكُمْ وَكَانَتْ حَالِيَةِ
غَدَتِ السِّيَاسَةُ وَهِيَ آ	مِرَّةً عَلَيْهَا نَاهِيَةَ
فَهَجَرْتُمُ الْوَطَنَ الْعَزِيْ	زَ إِلَى الْبِلَادِ الْقَاصِيَةِ
أَنْتُمْ غَدًا فِي عَالَمٍ	هُوَ وَالْحَضَارَةُ نَاحِيَةِ
وَارَيْتُمْ فِيهِ شَبِيبَتِي	وَقَضَيْتُمْ فِيهِ ثَمَانِيَةَ
مَا كُنْتُ ذَا الْقَلْبِ الْغَلِيْ	خُظْ وَلَا الطُّبَاعِ الْجَافِيَةَ
سَيَرُوا بِهِ تَتَعَلَّمُوا	سِرَّ الْحَيَاةِ الْعَالِيَةِ
وَتَأَمَّلُوا الْبُنْيَانَ وَادَّ	كِرُوا الْجُهُودَ الْبَانِيَةَ
ذَوْقُوا الثَّمَارَ جَنِيَّةً	وَرُدُّوا الْمَنَاهَلَ صَافِيَةَ
وَاقْضُوا الشَّبَابَ فَإِنَّ سَا	عَتَهُ الْقَصِيرَةَ فَانِيَةَ
وَاللَّهِ لَا حَرْجَ عَلَيَّ	كَمْ فِي حَدِيثِ الْغَانِيَةِ
أَوْ فِي اشْتِهَاءِ السُّحْرِ مِنْ	لَحْظِ الْعَيُونِ السَّاجِيَةِ
أَوْ فِي الْمَسَارِحِ فَهِيَ بِالذَّ	فْسِ اللَّطِيفَةِ رَاقِيَةِ

ثَنَى عِطْفِيهِمَا الْهَرَمَانَ تَيْهًا

وقال يُحْيِيَّ الْمَلِكَ فَوَّادَ فِي إِبَّانَ زِيَارَتِهِ لِلجِيزَةِ فِي دَيْسَمْرِ سَنَةِ ١٩٣٠م:

بَارِضَ الْجِيزَةِ اجْتَازَ الْغَمَامُ	وَحَلَّ سَمَاءَهَا الْبَدْرُ التَّمَامُ
وَزَارَ رِيَاضَ إِسْمَاعِيلَ غَيْثُ	كُوَالِدِهِ لَهُ الْمِنْنُ الْجِسَامُ

وقال الثالثُ الأدنى سلامُ
 كقُصرِ الشمسِ يعرفه الأنامُ
 ومن خلفاءِ إسماعيلَ هامُ
 عليه جلالَةٌ وله وسامُ
 وشبَّ على جواهره النظامُ
 وأخراهنَّ عِزًّا لا يُرامُ
 كظلِّ النيلِ بُلٌّ به الأوامُ
 ونافسَ تحته الذهبَ الرِّغامُ
 جدارٌ للحضارةِ أو دِعامُ
 ومُستشفى يُذادُ به السَّقامُ
 إلى الإسعافِ أنجادُ كرامُ
 مِيازيبُ إذا انفجرَ الضَّرامُ
 وكلُّ نجيبةٍ ولها لجامُ
 وأنت من الصفوفِ هو الإمامُ
 ومِصرُ وحققها البيتُ الحرامُ
 علا شفتي أبي الهول ابتسامُ
 وطافَ به التلفتُ والرَّحامُ
 أجلُّ من البيوتِ بها الرِّجامُ
 هُمُ الأيقاظُ واليقظى النِّيامُ
 فعندك تُفرِّجُ الإزمَ العِظامُ
 ويخلفه من النُّعماءِ عامُ
 زمانٌ ما لحاليه دوامُ
 أليس على يدك له تمامُ
 ولا بلدًا بضاعته الكلامُ
 يشدُّ بناءها المَلِكُ الهُمامُ
 وأنت على الطريقِ هو الزَّمامُ
 وتُلجُّنا المسافةُ والمرامُ
 ويغلبُنا على صبرٍ مقامُ

ثنى عطفيهما الهرمانَ تيهًا
 هَلُمِّي مَنْفُ هذا تاجُ خوفو
 نمته من بني فرعونَ هامُ
 تالَّقَ في سماءِكِ عبقرِيًّا
 ترعرعتِ الحضارةُ في حُلَاهُ
 ونال الفنُّ في أولى الليالي
 مشى في جيزةِ الفسْطاطِ ظلُّ
 إذا ما مسَّ تَرْبًا عادِ مسكًا
 وإن هو حلَّ أرضًا قامَ فيها
 فمدرسةٌ لحربِ الجهلِ تُبنى
 ودارٌ يُستغاثُ بها فيمضي
 أساءَ جراحةَ حينًا وحينًا
 وأحواضُ يَراضُ النيلُ فيها
 أبا الفاروقِ أقبلنا صفوفًا
 إلى البيتِ الحرامِ بك اتجهنا
 طلعتَ على الصعيدِ فهشَّ حتى
 ركبًا سارتِ الآمالُ فيه
 فماذا في طريقك من كُفورِ
 كأن الراقدين بكلِّ قاعِ
 لقد أزمَ الزمانُ الناسَ فانظرُ
 وبعدَ غدٍ يفارقُ عامُ بؤسِ
 يدورُ بمِصرَ حالًا بعدَ حالِ
 ومِصرُ بناءٌ جدُّك لم يُتمَّ
 فلَسْنا أُمَّةٌ قعدتْ بشمسِ
 ولكنَّ همَّةٌ في كلِّ حينِ
 نرومُ الغايةَ القصوى فنمضي
 ونقصِرُ خطوةً ونمدُّ أخرى
 ونصبرُ للشدائدِ في مقامِ

فَقَوَّ حِضَارَةَ الْمَاضِي بِأُخْرَى
تَرْفُ صَحَائِفُ الْبَرْدِيِّ فِيهَا
رَعَتِكَ وَوَادِيَا تَرْعَاهُ عَنَّا
فَإِنْ يَكُ تَاجُ مِصْرَ لَهَا قِوَامًا
لِتَهْنَأُ مِصْرُ وَلِيَهْنَأُ بَنُوهَا
لَهَا زَهْوُ بَعْصَرِكِ وَاتِّسَامُ
وَيَنْطِقُ فِي هِيَائِهَا الرُّخَامُ
مِنَ الرَّحْمَنِ عَيْنٌ لَا تَنَامُ
فَمِصْرُ لَتَاجِهَا الْعَالِي قِوَامُ
فَبَيْنَ الرَّأْسِ وَالْجِسْمِ التَّنَامُ

الأميرة فتحية

وقال في برقية يهنئ الأميرة السابقة فتحية:

فَتْحِيَّةُ دُنْيَا تَدُومُ وَصِحَّةُ
مَوْلَايَ إِنْ الشَّمْسُ فِي عَلِيَّائِهَا
تَبْقَى وَبِهَجَّةِ أُمِّهِ وَحِيَاةُ
أُنْثَى وَكُلُّ الطَّيِّبَاتِ بَنَاتُ

تهنئة

وقال يهنئ الدكتور علي باشا إبراهيم بمناسبة الإنعام عليه برتبة الباشوية سنة ١٩٣٠م:

يَدُ الْمَلِكِ الْعَلَوِيِّ الْكَرِيمِ
لِسَانُ الْكَنَانَةِ فِي شِكْرِهَا
قَضَتْ مِصْرُ حَاجَتَهَا يَا «عَلِيُّ»
وَهَنَأَتْ بِالرُّتَبِ الْعَبْقَرِيِّ
عَلِيُّ لَقَدْ لَقَّبَتَكَ الْبِلَادُ
سِلَاحُكَ مِنْ أَدَوَاتِ الْحَيَاةِ
وَلَفْظُكَ «بِنَجْ» وَلَكِنَّهُ
أَنَامِلُ مِثْلُ بَنَانِ الْمَسِيحِ
تُعَالِجُ كَفَّكَ بِؤْسِ الْحَيَاةِ
وَيَسْتَمْسِكُ الدَّمُ فِي رَاحَتِكَ
كَأَنَّكَ لِلْمَوْتِ مَوْتُ أُتِيحَ
عَلَى الْعِلْمِ هَزَّتْ أَخَاهُ الْأَدَبُ
وَمَا هُوَ إِلَّا لِسَانُ الْعَرَبِ
وَنَالَتْ وَنَالَ بَنُوهَا الْأَرَبُ
وَهَنَأَتْ بِالْعَبْقَرِيِّ الرَّتَبِ
بِأَسَى الْجِرَاحِ وَنِعْمَ اللَّقَبِ
وَكُلُّ سِلَاحٍ أَدَاةُ الْعَطَبِ
لَطِيفُ الصَّبَا فِي جُفُونِ الْعَصَبِ
أَوَاسِي الْجِرَاحِ مَوَاجِي النَّدَبِ
فَكَفَّ تُدَاوِي وَكَفَّ تَهَبِ
وَفَوْقَهُمَا لَا يَقَرُّ الذَّهَبُ
فَلَمْ يَرَ وَجْهَكَ إِلَّا هَرَبَ

يا قاهر الغرب العتيد

وقال في حفل تكريم البطل العالمي في حمل الأثقال السيد نصير، في ديسمبر سنة ١٩٣٠ م:

شرفاً نصيرُ ارفعْ جَبِينَكَ عَالِيًا
يَهْنِيكَ مَا أُعْطِيَتْ مِنْ إِكْرَامِهَا
اليَوْمَ يَوْمَ السَّابِقِينَ فَكُنْ فَتَى
وَإِذَا جَرَيْتَ مَعَ السَّوَابِقِ فَاقْتَحِمْ
حَتَّى يَرَاكَ الْجَمْعُ أَوَّلَ طَالِعِ
هَذَا زَمَانٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَهُ
كُنْ سَابِقًا فِيهِ أَوْ أَبْقَ بِمَعْزَلِ
يَا قَاهِرَ الْغَرْبِ الْعَتِيدِ مَلَأْتُهُ
قَلْبَتَ فِيهِ يَدًا تَكَادُ لَشِدَّةِ
إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الْحَدِيدَ وَبِأَسَّهْ
زَحْزَحَتَهُ فَتَخَاذَلْتُ أَجْلَادُهُ
لِمَ لَا يَلِينُ لَكَ الْحَدِيدُ وَلَمْ تَزَلْ
الْأَزْمَةُ اشْتَدَّتْ وَرَانَ بِلَاؤُهَا
«شَمْشُونَ» أَنْتَ وَقَدْ رَسَتْ أَرْكَانُهَا
قُلْ لِي نُصِيرُ وَأَنْتَ بَرٌّ صَادِقُ
أَحْمَلْتَ دَيْنًا فِي حَيَاتِكَ مَرَّةً
أَحْمَلْتَ ظُلْمًا مِنْ قَرِيبٍ غَادِرِ
أَحْمَلْتَ مَنَا بِالنَّهَارِ مُكَرَّرًا
أَحْمَلْتَ طُغْيَانَ اللَّئِيمِ إِذَا اغْتَنَى
أَحْمَلْتَ فِي النَّادِي الْغَبِيَّ إِذَا التَّقَى
تِلْكَ الْحَيَاةَ وَهَذِهِ أَثْقَالُهَا

وَتَلَقَّ مِنْ أَوْطَانِكَ الْإِكْلِيلَا
وَمُنِحَتْ مِنْ عَطْفِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَا
لَمْ يَبْغِ مِنْ قَصَبِ الرَّهَانِ بَدِيلَا
غُرَّرَا تَسِيلُ إِلَى الْمَدَى وَحُجُولَا
وَيَرَوْا عَلَى أَعْرَافِكَ الْمِنْدِيلَا
يَبْغِي الْمُغَامِرُ عَالِيًا وَجَلِيلَا
لَيْسَ التَّوَسُّطُ لِلنُّبُوغِ سَبِيلَا
بِثْنَاءِ مِصْرَ عَلَى الشَّفَاهِ جَمِيلَا
فِي الْبَاسِ تَرْفَعُ فِي الْفَضَاءِ الْفِيلَا
جَعَلَ الْحَدِيدَ لِسَاعِدَيْكَ ذَلِيلَا
وَطَرَحْتَهُ أَرْضًا فَصَلَ صَلِيلَا
تَتَلُو عَلَيْهِ وَتَقْرَأُ التَّنْزِيلَا
فَاصْدِمِ بِرُكْنِكَ رُكْنَهَا لِيَمِيلَا
فَتَمْشُ فِي أَرْكَانِهَا لِتَزُولَا
أَحْمَلْتَ إِنْسَانًا عَلَيْكَ ثَقِيلَا
أَحْمَلْتَ يَوْمًا فِي الضُّلُوعِ غَلِيلَا
أَوْ كَاشِحٍ بِالْأُمْسِ كَانَ خَلِيلَا
وَاللَّيْلِ مِنْ مُسِدٍ إِلَيْكَ جَمِيلَا
أَوْ نَالَ مِنْ جَاهِ الْأُمُورِ قَلِيلَا
مَنْ سَامِعِيهِ الْحَمْدَ وَالتَّبْجِيلَا
وُزِنَ الْحَدِيدُ بِهَا فَعَادَ ضَيْلَا

ابن زيدون

(أنشأها ترحيباً بديوان ابن زيدون، حين ظهر مطبوعاً لأول مرة في مصر بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني.)

يا ابْنَ زِيدُونَ مَرْحَبَا	قد أَطْلَتِ التَّغْيِيبَا
إِنْ دِيَوَانِكَ الَّذِي	ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
يَشْتَكِي الْيُتَمُّ دُرَّةُ	وَيُقَاسِي التَّغْرِبَا
صَارَ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ	لِلْأَلْبَاءِ مَطْلَبَا
جَاءَنَا «كاملٌ» بِهِ	عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجَبَا	وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا
أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُلِّهِ	أَجْمَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا	مِنْ فَنُونِ مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا	كَنتَ أَمْ كُنتَ مُطْرِبَا
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ	مُبْدِعًا فِيهِ مُغْرِبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا	بِالْغَوَانِي مُشَبِّبَا
وَنَزِيلَ الْمُتَوَجِّعِ	نَ الْنَدِيمِ الْمُقْرَبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشَعْرِهِ	مَدْحَةً أَوْ تَعْتَبَا
وَمِنَ الْمَدْحِ مَا جَزَى	وَأَذَاعَ الْمَنَاقِبَا
وَإِذَا الْهَجُؤُ هَاجَهُ	لِمُعَانَاتِهِ أَبَى
وَرَأَاهُ رَذِيلَةً	لَا تُمَاشِي التَّأْدْبَا
مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِرًا	فَاضِلَ الْخُلُقِ طَيِّبَا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ فِي	زَنْبِقِ الشُّعْرِ عَقْرِبَا
جُلَّتْ فِي الْخُلْدِ جَوْلَةٌ	هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مِنْ نَبَا
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ	مِنْ عَيُونٍ وَمِنْ رُبَا
وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ	وِظْلَالٍ مِنَ الصَّبَا
وَصِفِ الْحَوْرَ مُوجِزًا	وَإِذَا شَتَّتَ مُطْنِبَا
قُمْ تَرَى الْأَرْضَ مِثْلَمَا	كَنتُمْ أَمْسٍ مَلْعَبَا

وترى العيش لم يزل	لبني الموت مأربا
وترى ذاك بالذي	عند هذا مُعذِّبا
إن مروان عَصْبَةٌ	يصنعون العجائباً ^{٢٢}
طَوْفُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا	بالأيادي ومغربا
هالةً أَطْلَعْتَكَ فِي	ذروة المجد كوكبا
أنت للفتح تنتمي	وكفى الفتح مَنْصِبا
لست أرضى بغيره	لك جَدًّا ولا أبا

البُلبُلُ الغرْدُ الذي هزَّ الرُّبَا

(أُنشِدتْ في الحفلة التي أقامتها رابطة الأدب الجديد تكريمًا للشاعر الأستاذ «محمود أبو الوفا»، وكانت هذه القصيدة سببًا إلى عناية الحكومة المصرية وقتئذٍ بالشاعر — أبي الوفا — وتسفيره إلى أوروبا لعمل رجلٍ صناعية بدل ساقه المبتورة!)

وعصاية بالخيرِ أَلْفَ شَمْلُهُم	والخيرُ أَفْضَلُ عَصْبَةٌ ورفاقا
جعلوا التعاونَ والبنائيةَ همَّهم	واستنهضوا الآدابَ والأخلاقا
ولقد يداوون الجراحَ ببرِّهم	ويُقَاتِلُونَ البؤسَ والإملاقا
يَسْمُونَ بالأدبِ الجديدِ وتارةً	يَبْنُونَ للأدبِ القديمِ رواقا
بعثَ اهتمامهمُ وهاجَ حنانهمُ	زمنٌ يُثِيرُ العطفَ والإشفاقا
عرَضَ القُعودُ فكانَ دُونَ نُبوغِهِ	قيداً ودونَ خُطَا الشبابِ وثاقا
البُلبُلُ الغرْدُ الذي هزَّ الرُّبَا	وشجى الغصونَ وحركَ الأوراقا
خَلَفَ البَهاءَ على القريضِ وكأسِهِ	فسقى بَعْدَ نَسِيبِهِ العُشَّاقا
في القيدِ مُمتَنِعُ الخُطَا وخيالُهُ	يَطوي البلادَ وينشرُ الآفاقا
سَبَّاقُ غاياتِ البيانِ جرى بلا	ساقٍ فكيف إذا استردَّ الساقا
لو يَطْعُمُ الطَّبَّ الصَّنَاعُ بيانَهُ	أو لو يُسَيِّغُ لِمَا يَقولُ مذاقا
غالى بقيمته فلم يصنع له	إلا الجَنَاحَ مُحَلَّقًا خَفَّاقا

^{٢٢} يشير إلى أصله «الرومي» وإلى أيادي بني مروان على العروبة، بما فتحوا من بلاد الروم، وبما استعرب من أهلها.

خليل مطران^{٣٤}

(نظمها لتُنشد في حفلة أُقيمت بدار الجامعة المصرية في ١٨ يونيو سنة ١٩١٣ م لتكريم الشاعر خليل مطران؛ لمناسبة إنعام الخديو عباس حلمي الثاني عليه بوسام، وكانت الحفلة برياسة الأمير محمد علي توفيق شقيق الخديو.)

لُبْنَانُ مَجْدُكَ فِي الْمَشَارِقِ أَوَّلُ
وَبَنُوكَ أَلْفُ مِنْ نَسِيمِكَ ظَلُّهُمْ
أَخْرَجَتْهُمْ لِلْعَالَمِينَ جَاحِجًا
بَيْنَ الرِّيَاضِ وَبَيْنَ أَفْقِ زَاهِرِ
هَذَا أَدِيبُكَ يُحْتَفَى بِوَسَامِهِ
وَيَجْلُ قَدْرُ قِلَادَةٍ فِي صَدْرِهِ
صَدْرٌ حَوَالِيهِ الْجَلَالُ وَمِلْؤُهُ
جَلَّاهُ إِحْسَانُ الْخَدِيوِ وَطَالَمَا
لِعُلاكِ يَا مُطْرَانُ أَمْ لِنُهَاكِ أَمْ
أَمْ لِلْمَوَاقِفِ لَمْ يَقِفْهَا ضَيْغَمُ
هَذَا مَقَامُ الْقَوْلِ فِيكَ وَلَمْ يَزَلْ
غَالِي بِقِيَمَتِكَ الْأَمِيرُ مُحَمَّدُ
فِي مَجْمَعِ هَزِّ الْبَيَانِ لَوَاءَهُ
ابْنُ الْمُلُوكِ تَلَا الثَّنَاءَ مُخَلِّدًا
فَمَنْ الْبَشِيرُ لِبَعْلَبِكَ وَبَيْنَهَا
يَبْلَى الْمَكِينُ الْفَخْمُ مِنْ آثَارِهَا

وَالْأَرْضُ رَابِيَةٌ وَأَنْتَ سَنَامُ
وَأَشْمُ مِنْ هَضْبَاتِكَ الْأَحْلَامُ
عُرْبًا وَأَبْنَاءُ الْكَرِيمِ كَرَامُ
طَلَعَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ وَالْإِسْلَامُ
وَبَيَانُهُ لِلْمَشْرِقِيِّينَ وَسَامُ
وَلَهُ الْقَلَائِدُ سَمَطُهَا الْإِلْهَامُ
كَرَمٌ وَخَشْيَةٌ مُؤْمِنٍ وَذِمَامُ
حَلَّاهُ فَضْلُ اللَّهِ وَالْإِنْعَامُ
لِخِلَالِكَ التَّشْرِيفِ وَالْإِكْرَامِ
لَوْلَاكَ لاضْطَرَبْتُ لَهُ «الْأَهْرَامُ»
لَكَ فِي الضَّمَائِرِ مَحْفِلٌ وَمَقَامُ
وَسَعَى إِلَيْكَ يَحْفَهُ الْإِعْظَامُ
بِكَ فِيهِ وَاعْتَزَّتْ بِكَ الْأَقْلَامُ
هَيْهَاتَ يَذْهَبُ لِلْمُلُوكِ كَلَامُ
نَسَبُ تُضْيُّ بَنُورِهِ الْأَيَّامُ
يَوْمًا وَآثَارُ الْخَلِيلِ قِيَامُ

^{٣٤} زِيدَتْ هَذِهِ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ.

غاندي

(أنشأها تحية لغاندي الزعيم الهندي المشهور، حين مروره بمصر سنة ١٩٣١م في طريقه إلى مؤتمر المائدة المستديرة بلندن.)

وحيُّوا بطلَ الهِنْدِ	بَنِي مِصرَ ارفعُوا الغارَ
حقوقَ العَلمِ الفردِ	وأدُّوا واجبًا واقضوا
وعَزَّكَ الموقفِ النَّكَدِ	أخوكم في المُقاساةِ
وفي المَطلبِ والجُهدِ	وفي التَّضحيةِ الكبرى
وفي النَّفيِّ من المَهدِ	وفي الجُرحِ وفي الدمعِ
وفي مرحلةِ الوفدِ	وفي الرحلةِ للحقِّ
على الفُلكِ ومن بُعدِ	قِفوا حيَّوه من قُربِ
وغَطُّوا البحرَ بالوردِ	وغَطُّوا البَرَّ بالأسِ
رَنَ ^{٣٥} تمثالُ من المجدِ	على إفريزِ «راجبوتا
سَ» أو من ذلك العهدِ	نبيِّ مِثْلُ «كُونفشيُو
من المُنتظرِ المَهدِي	قريبُ القولِ والفعلِ
عن الحقِّ وفي الزُهدِ	شبيهُ الرُّسلِ في الذودِ
وبالصبرِ وبالقصْدِ	لقد علَّم بالحقِّ
فلبَّاه من اللحدِ	ونادى المَشرقَ الأقصى
فداواها من الحِقدِ	وجاء الأنفُسَ المَرَضَى
مَ لِّلأُلفةِ والوُدِّ	دعا الهندوسَ والإسلا
حَوَى السَّيفينِ في غمدِ	بسِحْرِ من قُوَى الروحِ
يُقوِّي رائِضَ الأُسْدِ	وسلطانٍ من النفسِ
وتيسيرِ من السَّعدِ	وتوفيقٍ من اللّهِ
سوى المخلوقِ للخلدِ	وحظٌّ ليس يُعطاهُ
ولا الصَّولِ ولا الجُندِ	ولا يُؤخَذُ بالحوَلِ

^{٣٥} الباخرة التي أفلَّتْ غاندي من الهند إلى لندن.

ولا بالنسلِ والمالِ ولا بالكدحِ والكُدُّ
ولكن هِبَةً المولى تعالى الله للعبد
سلامُ النيلِ يا غاندي وهذا الزهرُ من عندي
وإجلالُ من الأُمرا مِ والكرنكِ والبرُدي
ومن مَشِيخَةِ الوادي ومن أشبالِه المُردي
سلامُ حالبِ الشَّاةِ سلامُ غازلِ البُردي
ومن صدَّ عن المِلحِ ولم يُقبِلِ على الشَّهد
ومن يركبُ ساقِيه من الهندِ إلى السَّنْد
سلامُ كلما صلَّى ستَ عُريانا وفي اللَّبد
وفي زاوية السجِنِ وفي سلسلَةِ القيد
من «المائدة الخضرا ع»^{٣٦} خذِ جذركَ يا غاندي
ولاحِظْ ورقَ «السَّيرِ» وما في ورقِ «اللوردي»
وكنْ أبرعَ من يلَعُ بُ بالشَّطرنجِ والنَّرد
ولا قِ العبقريَّينَ لقاءَ النَّدِّ للنَّدِّ
وقلْ هاتوا أفاعيكم أتى الحاوي من الهند
وعُدْ لم تحفِلِ الذَّامَ ولم تغتَرَّ بالحمد
فهذا النجمُ لا تَرقي إليه هَمَّةُ النقد
ورُدَّ الهندُ للأُمِّ عِ من حدٍّ إلى حدٍّ

تحية أبولو

أبولو: مجلة فنية لخدمة الشعر الحي، كان يُصدرها مرة كل شهر — في سنة ١٩٣٢م —
الدكتور أحمد زكي أبو شادي، فقال يُحييها:

أبولو مَرحبًا بك يا أبولو فإنك من عكاظِ الشعرِ ظلُّ
عكاظُ وأنتِ للبُلغاءِ سُوْقُ على جنباتِها رحلوا وحلُّوا

^{٣٦} يشير إلى المؤتمر الذي كان مسافرًا إليه للبحث في دستور الهند.

وَيَنْبُوغُ مِنَ الْإِنْشَادِ صَافٍ
وَمِضْمَارٌ يَسُوقُ إِلَى الْقَوَافِي
يَقُولُ الشُّعْرَ قَاتِلُهُمْ رَصِينًا
وَلَوْلَا الْمُحْسِنُونَ بِكُلِّ أَرْضٍ
عَسَى تَأْتِينَنَا بِمُعَلِّقَاتٍ
لَعَلَّ مَوَاهِبًا خَفِيَتْ وَضَاعَتْ
صَحَائِفُكَ الْمَدْبُجَةُ الْحَوَاشِي
رِيَا حِينَ الرِّيَاضِ يُمَلُّ مِنْهَا
يُمَهَّدُ عِبْقَرِيُّ الشُّعْرِ فِيهَا
وَلَيْسَ الْحَقُّ بِالْمَنْقُوصِ فِيهَا
وَلَيْسَتْ بِالْمَجَالِ لِتَقْدِيبِ بَاغٍ

صَدَى الْمُتَأَدِّبِينَ بِهِ يُقَلُّ
سَوَابِقُهَا إِذَا الشُّعْرَاءُ قَلُّوا
وَيُحَسِّنُ حِينَ يُكَثِّرُ أَوْ يُقَلُّ
لَمَّا سَادَ الشُّعُوبُ وَلَا اسْتَقَلُّوا
نَرُوحُ عَلَى الْقَدِيمِ بِهَا نُدُلُ
تُذَاعُ عَلَى يَدَيْكَ وَتُسْتَغَلُّ
رُبَا الْوَرْدِ الْمُفْتَحِ أَوْ أَجَلُ
وَرِيحَانُ الْقَرَائِحِ لَا يُمَلُّ
لِكُلِّ نَخِيرَةٍ فِيهَا مَحَلُّ
وَلَا الْأَعْرَاضُ فِيهَا تُسْتَحَلُّ
وَرَاءَ يَرَاعِهِ حَسَدٌ وَغِلُّ

أغنية

(نظمها بلبنان في صيف سنة ١٩١٣م لتغنيها إحدى القيان.)

بِي مِثْلُ مَا بِكَ يَا قُمْرِيَّةَ الْوَادِي
وَأَرْسَلِي الشَّجَوَ أَسْجَاعًا مُفَصَّلَةً
لَا تَكْتُمِي الْوَجْدَ فَالْجِرْحَانِ مِنْ شَجِنٍ
تَذَكَّرِي هَلْ تَلَاقَيْنَا عَلَى ظَمَأٍ
وَأَنْتِ فِي مَجْلِسِ الرِّيْحَانِ لَاهِيَّةُ
تَذَكَّرِي قُبْلَةً فِي الشُّعْرِ حَائِرَةٌ
وَقُبْلَةً فَوْقَ خَدِّ نَاعِمٍ عَطِرٍ
تَذَكَّرِي مَنْظَرَ الْوَادِي وَمَجْلِسَنَا
وَالْغُصْنُ يَحْنُو عَلَيْنَا رَقَّةً وَجَوَى
تَذَكَّرِي نَغْمَاتِهَا هُنَا وَهُنَا
تَذَكَّرِي مَوْعِدًا جَادَ الزَّمَانُ بِهِ
فَنِلْتُ مَا نِلْتُ مِنْ سُؤْلِ وَمِنْ أَمَلٍ

نَادَيْتُ لَيْلِي فَقُومِي فِي الدُّجَى نَادِي
أَوْ رَدِّدِي مِنْ وَرَاءِ الْأَيْكِ إِنْشَادِي
وَلَا الصَّبَابَةَ فَالْدمْعَانِ مِنْ وَادٍ
وَكَيْفَ بَلَّ الصَّدَى ذُو الْغُلَّةِ الصَّادِي
مَا سَرَّتْ مِنْ سَامِرٍ إِلَّا إِلَى نَادِي
أَضَلَّهَا فَمَشَتْ فِي فَرْقِكَ الْهَادِي
أَبْهَى مِنَ الْوَرْدِ فِي ظِلِّ النَّدى الْغَادِي
عَلَى الْغَدِيرِ كُصْفُورَيْنِ فِي الْوَادِي
وَالْمَاءُ فِي قَدَمَيْنَا رَائِحُ غَادٍ
مِنْ لَحْنِ شَادِيَةِ فِي الدَّوْحِ أَوْ شَادِي
هَلْ طَرْتُ شَوْقًا وَهَلْ سَابَقْتُ مِيعَادِي
وَرَحْتُ لَمْ أَحْصِ أَفْرَاحِي وَأَعْيَادِي

يا شِراعًا وراء دجلة

(غناها بين يدي ملك العراق المغفور له فيصل الأول الموسيقار محمد عبد الوهاب بمناسبة زيارته لتلك البلاد في سنة ١٩٣١ م.)

يا شِراعًا وراء دجلة يجري	في دموعي تجنَّبْتَكَ العَوادي
سِرَّ على الماءِ كالْمسيحِ رُويِدًا	واجِرَ في اليَمِّ كالشِعاةِ الهادي
وأَتِ قاعًا كَرَفَرَفِ الخُلْدِ طيِّبًا	أو كَفِرْدوسِه بِشاشَةٍ وادي
قَفَّ تَمَهَّلْ وَخُذْ أمانًا لِقَلْبِي	من عيونِ المها وراء السَّواد
والنُّواسِيَّ والنَّدَامَى أَمْنَهُم	سامِرٌ يَمَلَأُ الدُّجَى أو نادِ
خَطَرَتِ فوقه المِهارةُ تعدو	في غُبارِ الآبِاءِ والأجداد
أُمَّةٌ تُنَشِئُ الحِياةَ وتَبْنِي	كِبْناءِ الأَبُوَّةِ الأُمجاد
تَحْتَ تاجٍ من القِرابَةِ والمُلْ	كِ على فَرَقٍ أَرِحيَّ جِواد
مِلْكُ الشَّطِّ والفُرَاتَيْنِ والبَطْ	حِاءِ أعْظَمُ بِفَيْصَلِ والبلاد

الرجل السعيد^{٣٧}

(وهي ترجمة أبيات فرنسية عنوانها: L'homme heureux لسمو الأمير حيدر فاضل.)

عَفيفُ الجَهْرِ والهِمَسِ	قَضَى الواجِبَ بالأَمَسِ
ولم يَعرِضْ لِذِي حَقٍّ	بَنُقْصانٍ ولا بَخْسِ
وعندَ الناسِ مَجهولٌ	وفي أَلْسِنِهِم مَنسِي
وفيه رِقَّةُ القلبِ	لأَلامِ بَنِي الجَنسِ
فلا يَغِبُّ ذَا نُعْمَى	وِيرِثِي لأَخِي البُؤْسِ
وللمَحرومِ والعافي	حوالِي زادِهِ كُرسِي
وما نَمَّ ولا هَمَّ	ببِعضِ الكيدِ والدَّسِّ

^{٣٧} نُشِرَتْ في مجلة الكشكول سنة ١٩٢٥ م.

يَنَامُ اللَّيْلَ مَسْرُورًا	قَلِيلَ الْهَمِّ وَالْهَجَسِ
وَيُصْبِحُ لَا غُبَارَ عَلَى	سَرِيرَتِهِ كَمَا يُمْسِي
فِيَا أَسْعَدَ مَنْ يَمْشِي	عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْإِنْسِ
وَمَنْ طَهَّرَهُ اللَّهُ	مِنَ الرَّيْبَةِ وَالرَّجَسِ
أَنْلَ قَدْرِي تَشْرِيفًا	وَهَبْ لِي قُرْبَكَ الْقُدْسِي
عَسَى نَفْسُكَ أَنْ تُدِمَ	حَجَّ فِي أَحْلَامِهَا نَفْسِي
فَأَلْقَى بَعْضَ مَا تَلْقَى	مِنَ الْغِبْطَةِ وَالْأُنْسِ

الأثر

وَجَدْتُ الْحَيَاةَ طَرِيقَ الزُّمَرِ	إِلَى بَعْثَةٍ وَشُئُونِ أُخَرَ
وَمَا بَاطِلًا يَنْزِلُ النَّازِلُونَ	وَلَا عَبَثًا يُزْمَعُونَ السَّفَرِ
فَلَا تَحْتَقِرْ عَالَمًا أَنْتَ فِيهِ	وَلَا تَجْحَدِ الْآخِرَ الْمُنتَظَرَ
وَحُذْ لَكَ زَادِينَ مِنْ سِيرَةِ	وَمِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ يُدْخَرِ
وَكُنْ فِي الطَّرِيقِ عَفِيفَ الْخَطَا	شَرِيفَ السَّمَاعِ كَرِيمَ النَّظَرِ
وَلَا تَخُلْ مِنْ عَمَلٍ فَوْقَهُ	تَعِشْ غَيْرَ عَبْدٍ وَلَا مُحْتَقَرِ
وَكُنْ رَجُلًا إِنْ أَتَوْا بَعْدَهُ	يَقُولُونَ مَرَّ وَهَذَا الْأَثَرِ

السُّتَار

قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيَّ نَفْسًا أَذْنَبَتْ	وَأَتَيْتُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالْإِقْرَارِ
وَجَعَلْتُ أَسْتُرَّ عَنْ سِوَاكَ ذُنُوبَهَا	حَتَّى عَيِّتُ فَمَنْ لِي بِسِتَارِ

الخصوصيات

أبو علي

وقال عندما بُشِّرَ بابنه علي شوقي:

صارَ شوقي أبا علي	في الزمانِ «الترللي»
وجَناها جنايةً	ليس فيها بأوَّل

الزمن الأخير

وقال في ذلك أيضًا:

عليُّ لو استشرتَ أباكَ قَبْلًا	فإنَّ الخيرَ حظُّ المُستشيرِ
إذنَ لَعَلِمْتَ أَنَّا في غَناءٍ	وإنَّ نكَّ من لِقائِكَ في سرورِ
وما ضِيقنا بِمَقْدِمِكَ المُفدَّى	ولكن جئتُ في الزمنِ الأخيرِ

صاحبُ عهده

وقال أيضًا:

رُزِقْتُ صاحبَ عهدي	وتمَّ لي النسلُ بعدي
هم يحسدوني عليه	ويغبطوني بسعدي
ولا أُراني ونجلي	سنلتقي عندَ مجدٍ
وسوفَ يَعْلَمُ بيتي	أني أنا النسلُ وحدي

فيا علي لا تَلْمُني فما احتقارُكَ قَصْدي
وأنت منِّي كَرُوحِي وأنت من أنت عندي
فإن أساءَكَ قولي كَذَّبُ أباك بوعْدِ

يا ليلة

وكانت ولادة بنته أمينة ووفاة والده في ساعة واحدة، فقال في ذلك:

يا ليلة سَمَّيْتُها ليلتي لأنها بالناس ما مرَّتْ
أذكُرُها والموتُ في ذِكْرِها على سبيلِ البثِّ والعِبرةِ
لِيَعْلَمَ الغافلُ ما أَمْسَهُ ما يومُهُ ما مُنْتَهَى العِيشَةِ
نَبَّهَنِي المقدورُ في جُنْحِها وكنتُ بين النُّومِ واليَقْظَةِ
الموتُ عَجَلانُ إلى والدي والوضعُ مُستعصٍ على رَوجتي
هذا فتى يُبكي على مثله وهذه في أولِ النِّشَاةِ
وتلك في مصرَ على حالها وذاك رهنُ الموتِ والغُربةِ
والقلبُ ما بينهما حائرٌ من بلدةٍ أُسْري إلى بلدةٍ
حتى بدا الصُّبحُ فوَلَّى أبي وأقبلتُ بعدَ العَناءِ ابْنَتِي
فقلتُ أحكامُكَ جَرْنَا لها يا مُخْرِجَ الحيِّ من الميِّتِ

أمينة

وقال حين اكتملت بنته حولاً يصفها في هذا العمر:

أَمِينَتِي في عامِها الـ أوَّلِ مِثْلِ المَلِكِ
صالِحَةٌ لِلْحُبِّ من كلِّ ولِيتَبَرُّكَ
كم خَفَقَ القلبُ لها عند البُكى والضَّحِكِ
وكم رَعَتِها العَيْنُ في السُّـ كَوْنِ والتَّحَرُّكِ
فإن مَشَتْ فخاطري يَسْبِقُها كالمُمسِكِ
ألَحَظُها كأنها من بَصْري في شَرَكِ

فيا جَبِينَ السَّعْدِ لي ويا عُيُونَ الفَلَكِ
ويا بياضَ العِيشِ في الـ أيامِ ذاتِ الحَلَكِ
إنَّ اللياليَ وهْيَ لا تَنفُكُ حَرْبُ أَهْلِكَ
لو أنصَفْتَكَ طِفْلَةً لَكُنْتَ بِنْتُ المَلِكِ

طِفْلَةٌ لاهية

وقال يهنئها بسنتها الثانية:

أَمِينَةٌ يا بِنْتَیِ الغالية وأَسْأَلُ أَنْ تَسْلَمَ لي السنينِ
وَأَنْ تُقَسِّمَ لِأَبْرَ الرجالِ وَلَكِنْ سَأَلْتُكَ بِالوَالِدَيْنِ
أَتَدْرِيْنَ ما مَرَّ مِنْ حادِثٍ وَكَمْ بُلَّتْ في حُلٍّ مِنْ حَرِيرٍ
وَكَمْ سَهَرَتْ في رِضَاكِ الجَفَوْنَ وَكَمْ قَدْ خَلَّتْ مِنْ أَبْيَكِ الجِوْبِ
وَكَمْ قَدْ شكا المُرَّ مِنْ عِيشِهِ وَكَمْ قَدْ مَرَضَتْ فَاسْقَمَتْهُ
وَيُضْحِكُ إِنْ جِئْتَهُ تَضْحِكِينَ وَمَنْ عَجَبٍ مَرَّتِ الحادِثاتُ
فَلَوْ حَسَدَتْ مُهْجَةً وَلَدَهَا أَمِينَةُ يا بِنْتَیِ الغالية

الأُنانية

(ونظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير).

يا حَبَّذا أَمِينَةٌ وَكَلْبُهَا تُحِبُّهُ جَدًّا كَمَا يُحِبُّهَا
أَمِينَتِي تحبوا إلى الحَوْلَيْنِ وَكَلْبُهَا يُنَاهِزُ الشَّهْرَيْنِ
لَكُنْهَا بِيضَاءُ مِثْلُ العَاجِ وَعَبْدُهَا أَسْوَدُ كَالدِّيَاجِ

يَلْزَمُهَا نَهَارَهَا وَتَلْزِمُهُ
فَعَنْدَهَا مِنْ شِدَّةِ الْإِشْفَاقِ
فِي كُلِّ سَاعَةٍ لَهُ صِيَا حُ
وَهَذِهِ حَادِثَةٌ لَهَا مَعَهُ
جَاءَتْ بِهِ إِلَيَّ ذَاتَ مَرَّةٍ
فَقُلْتُ أَهْلًا بِالْعَرُوسِ وَابْنِهَا
قَالَتْ «غَلَامِي» يَا أَبِي جَوْعَانُ
فَمُرْهُمْ يَأْتُوا بِخَبْزٍ وَلَبَنٍ
فَقُمْتُ كَالْعَادَةِ بِالْمَطْلُوبِ
فَعَجَنْتُ فِي اللَّبَنِ اللَّبَابَا
ثُمَّ أَرَادَتْ أَنْ تَذُوقَ قَبْلَهُ
هُنَاكَ أَلَقْتُ بِالصَّغِيرِ لِلْوَرَا
تَقُولُ بَابَا أَنَا «دَحَا» وَهُوَ «كُخ»
فَقُلْ لِمَنْ يَجْهَلُ خَطْبَ الْآنِيَةِ

وَمِثْلَمَا يُكْرِمُهَا لَا تُكْرِمُهُ
أَنْ تَأْخُذَ الصَّغِيرَ بِالْخِنَاقِ
وَقَلَّمَا يَنْعَمُ أَوْ يَرْتَا حُ
تُنَبِّيكِ كَيْفَ اسْتَأْثَرَتْ بِالْمَنْفَعَةِ
تَحْمِلُهُ وَهِيَ بِهِ كَالْبَرَّةِ
مَاذَا يَكُونُ يَا تَرَى مِنْ شَأْنِهَا
وَمَا لَهُ كَمَا لَنَا لِسَانُ
وَيُحْضِرُوا آنِيَةً ذَاتَ ثَمَنِ
وَجِئْتُهَا أَنْظُرُ مِنْ قَرِيبِ
كَمَا تَرَانَا نَطْعِمُ الْكِلَابَا
فَاسْتَطَعَمَتْ بِنْتُ الْكِرَامِ أَكْلَهُ
وَانْدَفَعَتْ تَبْكِي بُكَاءَ مُفْتَرَى
مَعْنَاهُ بَابَا لِي وَحْدِي مَا طُبُخُ
قَدْ فُطِرَ الطِّفْلُ عَلَى الْآنَانِيَةِ

لُعبَة

وقال فيما ينفع أمانة من اللعب، وأشار إلى رأس السنة الميلادية الذي يكثر فيه بيعها:

صِغَارٌ بِحُلُوانٍ تَسْتَبْشِرُ
تَهْزُ اللِّوَاءَ بِعِيدِ الْمَسِيحِ
فَهَذَا بِلُعبَتِهِ يَزْدَهِي
وَهَذَا كَغُصْنِ الرُّبَا يَنْثَنِي
إِذَا اجْتَمَعَ الْكُلُّ فِي بُقْعَةٍ
أَوْ افْتَرَقُوا وَاحِدًا وَاحِدًا
وَمَنْ عَجِبَ مِنْهُمْ الْمَسْلُومُونَ
فَلِاسْفَةٍ كُلُّهُمْ فِي اتِّفَاقِ
يَسْمِرُ شَعْبَانُ عِنْدَ الْجَمِيعِ
وَلَا لُغَةً غَيْرَ صَوْتِ شَجِيٍّ

وَرُؤْيَتْهَا الْفَرْحُ الْأَكْبَرُ
وَتُحْيِيهِ مِنْ حَيْثُ لَا تَشْعُرُ
وَهَذَا بِحُلَّتِهِ يَفْخَرُ
وَهَذَا كَرِيحِ الصَّبَا يَخْطِرُ
حَسِبَتْهُمْ بَاقَةً تُزْهَرُ
حَسِبَتْهُمْ لَوْلُؤًا يُنْتَرُ
أَوْ الْمَسْلُومُونَ هُمْ الْأَكْثَرُ
كَمَا اتَّفَقَ الْآلُ وَالْمَعْشَرُ
وَشَعْبَانُ لِلْكَلِّ دِيَسْمِيرُ
كَرَوْضِ بِلَابِلِهِ تَصْفِرُ

ولا يَزِدْري بالفَقِيرِ الغَنِيِّ
فيا لَيْتَ شعري أَضَلَّ الصَّغَارُ
سؤالُ أَقْدَمِهِ للكِبَارِ
ولي طفلةٌ جازَتْ السَّنَتَيْنِ
بَعَيْنَيْنِ في مِثْلِ لونِ السَّمَاءِ
أَتَتْنِي تَسألُنِي لُعبةً
فقلتُ لَهَا أَيُّهَذَا المَلَكُ
ولكنَّ قَبْلَكَ خَابَ المَسِيحُ
فلا تَرُجُ سَلَمًا من العالَمينَ
ومن يَعمَدُ الظُّفَرَ بَيْنَ الذَّنَابِ
فإن شئتَ تحيا حياةَ الكِبَارِ
فخذْ هَاكَ «بُنْدُقَةً» نارُهَا
لَعَلَّكَ تَأَلَّفَهَا في الصَّبَا
ففيها الحِياةُ لَمَنَ حازَهَا
وفيها السَّلامُ الوَطِيدُ البِناءِ
فلُوبِيلُ مُمَسِّكَةٌ مَوَزَّرًا
أجابَتْ وما النُّطْقُ في وَسْعِهَا
تَقُولُ عَجِيبٌ كَلَامُكَ لي
تَزِينُ لِبَنَتِكَ حُبَّ الحُرُوبِ
وأنتِ امرؤٌ لا تُحِبُّ الأَذَى
فقلتُ لأَمْرِ ضَلَّتْ السَّبِيلَ
فلو جِئَ بالرُّسُلِ في واحدٍ
وبالْأَوَّلِينَ وما قَدَّمُوا
لَيَنْهَضَ ما بَيْنَهُم خاطِبًا
يقولُ «السَّلامُ» يُحِبُّ السَّلامَ
لَصُمَّ العِبَادُ فلم يَسمَعُوا

ولا يُنكِرُ الأَبْيَضَ الأَسْمَرُ
أَمَ العَقْلُ ما عَنْهُمْ يُؤَثِّرُ
لَعَلَّ الكِبَارَ بِهِ أَخْبَرُ
كَبَعِضِ المَلائِكِ أو أَطَهَرُ
وَسَنَيْنِ يا حَبَّذَا الجَوهرِ
لِتَكسِرْهَا ضِمَنَ ما تَكسِرُ
تُحِبُّ السَّلامَ ولا تُنكِرُ
وباءَ بِمَنْشورِهِ القَيصرِ
فإن السَّبَاعَ كما تُفْطِرُ
فإن الذَّنابَ بِهِ تَظْفِرُ
يُؤَمِّلُكَ الكَلُّ أو يَحْذَرُ
سَلامٌ عَلَيْكَ إذا تُسَعَّرُ
وتَخْلُفُهَا كُلُّما تَكبَرُ
وفيها السَّعادةُ والمَفخرِ
لَمَنَ آثَرَ السَّلامَ أو يُؤَثِّرُ
ولُوبِيلُ تُمَسِّكُهَا مَوَزَّرًا
ولكنَّهَا العَيْنُ قد تُخْبِرُ
أَبالْشَرِّ يا وَالِدِي تَأْمُرُ
وحُبُّ السَّلامِ بِهَا أَجْدَرُ
ولا تَبْتَغِيهِ ولا تَأْمُرُ
وَرَبُّ أَخِي ضَلَّةٌ يُعَذِّرُ
وبالْكَتَبِ في صَفْحَةٍ تُنْشَرُ
وبالْآخِرِينَ وما أَخْرُوا
على العَرشِ نَصٌّ لَهُ مِنْبَرُ
ويَأْجُرُكُم عَنْهُ ما يَأْجُرُ
وَكُفَّ العِبَادُ فلم يُبْصِرُوا

١ لوبيل: اسم تدل به أمانة. وموزر: نوع من البنادق سريع الطلقات، كان له شهرة قبل الحرب الحاضرة.

زَيْنُ الْمُهْود^٢

وقال وقد قَبَّلَهَا قُبْلَةً فِي الصَّبَاحِ:

لِ وَصُورَةِ الْمَلِكِ الطَّهَوْرُ	يَا شَبَّهَ سَيِّدَةَ الْبَتُّو
ثِ جَمَالَ يَوْسَفَ فِي الذَّكُورُ	نَسَى جَمَالَكَ فِي الْإِنَّا
حِ وَفِي غَدِ زَيْنُ الْخُدُورِ	زَيْنُ الْمُهْودِ الْيَوْمَ أَنَا
سَارَتْ عَلَى نَهْجِ الْبُدُورِ	إِنَّ الْأَهْلَةَ إِنْ سَرَتْ
حِ إِذَا تَهَيَّأَ لِلْسُّفُورِ	بِأَبِي جَبِينُ كَالصَّبَا
تِلْكَ الْخُيُوطُ مِنَ الشُّعُورِ	بَقِيَتْ عَلَيْهِ مِنَ الدُّجَى
زَيْنُ مَرْجَانِ النُّحُورِ	وَكِرَائِمُ مِنْ لَوْلِي
ئِمَّ فِي الْمَرَاشِفِ وَالتُّغُورِ	سَبْحَانَ مُؤْتِيهَا يَتَا
بِ النَّحْلِ أَوْ طَلَّ الزُّهُورِ	تَسْقِي وَتُسْقَى مِنْ لُعا
لِ نَضِيدِهَا أَنْفَاسُ حُورِ	وَكأنْ نَفْحَ الطَّيِّبِ حُو
دِ بَدِيعَةً مِنْ وَرْدِ جُورِ	وَعَرِيبَةً فَوْقَ الْخُدُو
حَمْرَاءُ فِي وَقْتِ الْبُكُورِ	صَفْرَاءُ عِنْدَ زَوَاجِهَا
وَسَقَيْتُهَا دَمْعَ السَّرُورِ	قَبَّلْتُهَا وَشَمَمْتُهَا

أول خطوة

وقال يذكر دخول ولده علي في السنة الثانية من عمره:

هذه أَوَّلُ كَبُوة	هذه أَوَّلُ خَطُوة
عنه لو يَعْقِلُ غُنُوة ^٢	في طريقي لِعَلِّي
مُرَّةً أَنَا وَحُلُوة	يَأْخُذُ الْعِيشَةَ فِيهِ
حَتَّى عَلَى سِنِّ الْفُتُوَّة	يَا عَلِي إِنْ أَنْتَ أَوفِي

^٢ زِيدَتْ فِي الطَّبْعَةِ الثَّانِيَةِ.

^٣ الْغَنُوةُ: الْغِنَى. يَقُولُ: هُوَ فِي غِنَى عَنْ سُلُوكِ طَرِيقِي.

دافع الناس وزاجم	وحذ العيش بقوّة
لا تقل كان أبي إيّ	ساك أن تحذو حذوه
أنا لم أغنم من النا	س سوى فنجان قهوة
أنا لم أجز عن المد	ح من الأملاك فروة
أنا لم أجز عن الكت	ب من القراء حطوة
ضيّع الكل حيائي	وعفافي والمروّة

يوم فراقه

وقال وقد بكى طفلاه وتشبّثا به ألا يخرج:

بكيا لأجل خروجه في زورة	يا ليت شعري كيف يوم فراقه
لو كان يسمع يومذاك بكاهما	رُدّت إليه الروح من إشفاقه

مظلوم

وكتب إلى عزيزه وظهيره صاحب العطفة المرحوم أحمد مظلوم باشا من باريس، يهنئه بالنيشان المجيدي الأول:

أقسمت لو أمر الزمان سماءه	فسعت لصدرك شمسها ونجومها
لئنيل قدرك في المعالي حقّه	شكت المعالي أنه مظلومها

سرّنا أنك ارتقيت

(وبعث من باريس بهذا التاريخ إلى صاحب السعادة محمود شكري باشا يهنئه برتبة المتمايز).

يا عزيزًا لنا بمصر علمنا	أنه بالرّضا الخديويّ فائز
سرّنا أنك ارتقيت وترقى	فكأننا نحوز ما أنت حائز
رتبة السنّ العلا أرختها	أنت محمود في العلا المتمايز

بَلَّغْتَنِي أَمَلًا

وقال يشكر صاحب العطفة المرحوم أحمد مظلوم باشا علي معروف صنعه معه:

ذِي هَمَّةٍ دُونَهَا فِي شَأْوِهَا الْهَمُّ	لَمْ تَتَّخِذْ «لَا» وَلَمْ تَكْذِبْ لَهَا «نَعَمْ»
بَلَّغْتَنِي أَمَلًا مَا كُنْتُ بِالْغَةِ	لَوْلَا وَفَاؤُكَ يَا مَظْلُومٌ وَالْكَرَمُ
وِدَاذُكَ الْعِزُّ وَالنُّعْمَى لَخَاطِبِهِ	وَوُدُّ غَيْرِكَ ضِحْكُ السَّنِّ وَالْكَلِمُ
أَكَلَّمَا قَعَدْتَ بِي عَنْكَ مَعْذَرَةٌ	مَشَتْ إِلَيَّ الْأَيَادِي مِنْكَ وَالنَّعْمُ
تُجِلُّ فِي قَلَمِ الْأَوْطَانِ حَامِلُهُ	فَكَيْفَ يَصْبِرُ عَنْ إِجْلَالِكَ الْقَلَمُ

أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبَتْ

وكتب إلى صديقه المفضل سعادة المرحوم إسماعيل باشا صبري، يهنئته بالسلامة على أثر حادثته في القطار:

أَتَتَنِي الصُّحُفُ عَنْكَ مُخْبِرَاتٍ	بِحَادِثَةٍ وَلَا كَالْحَادِثَاتِ
بَخَطْبِكَ فِي الْقِطَارِ أَبَا حُسَيْنٍ	وَلَيْسَ مِنَ الْخُطُوبِ الْهَيِّنَاتِ
أُصِيبَ الْمَجْدُ يَوْمَ أُصِيبْتَ فِيهِ	وَلَمْ تَخُلْ الْفَضِيلَةَ مِنْ شَكَاةٍ
وَسَاءَ النَّاسِ أَنْ كَبَتِ الْمَعَالِي	وَأَزَعَجَهُمْ عِثَارُ الْمَكْرُمَاتِ
وَلَسْتُ بِنَاسِ الْأَدَابِ لَمَّا	تَرَأَتْ رَبِّهَا مُتْلَهِّفَاتٍ
وَكَانَ الشَّعْرُ أَجْزَعَهَا فُؤَادًا	وَأَحْرَصَهَا لَدَيْكَ عَلَى حَيَاةٍ
هَجَرْتَ الْقَوْلَ أَيَّامًا قِصَارًا	فَكَانَتْ فِتْرَةً لِلْمُعْجَزَاتِ
وَأِنْ لِيَالِيَا أَمْسَكَتَ فِيهَا	لَسُوْدٌ لِلْيَرَاعِ وَلِلدَّوَاةِ
فَقُلْ لِي عَنْ رُضُوحِكَ كَيْفَ أَمَسْتَ	فَقَلْبِي فِي رُضُوضِ مُؤَلِّمَاتِ
وَهَبْ لِي مِنْكَ خَطًّا أَوْ رَسُولًا	يُبَلِّغُ عَنْكَ كُلَّ الطَّيِّبَاتِ

سألتك بالوداد

وكتب إلى سعادته يهنئه بتعيينه وكيلاً لنظارة الحقانية:

وبالذمِّ السَّوالفِ والعُهودِ	سألتك بالودادِ أبا حُسينِ
وآخرَ في فُؤادِكَ لي أكيدِ	وحُبِّ كامنٍ لك في فُؤادي
سَيُشَرُّ بَيْنَ «أحمد» و«الوليدِ»	أحقُّ أنْ مَطوِيَّ الليالي
سَتَدْنُو لِلتَّائِسِ والوُرودِ	وأنْ مَناهِلاً كُنَّا لَدِيها
سُعودُ في سُعودٍ في سُعودِ	قُدومُكَ في رُقيِّكَ في نَصيبي
وكنْتَ البدرَ مأمولَ الوفودِ	وقَدْتُ على رُبوعِكَ غَبَّ نأيِ
لقد خُلِقَ الأهلَةُ للصُّعودِ	لئن رفَعوكَ مَنزلةً فأعلى
ولا فيها احتمالٌ للمزيدِ	وأُقِسِمُ ما لِرِفْعَتِكَ انتهاءً

اهناً أخي

وكتب إلى صديقه الفاضل صاحب العزة حمزة بك فهمي يهنئه برتبة التمايز الرفيعة:

قلتُ «التمايزُ» من قديمِ	قالوا «تمايزَ» حمزةُ
لأمتارَ بالخلقِ العظيمِ	لو لم يَميزوه بها
وَجَّهَنَ منك إلى كريمِ	رُتَبُ كرائمُ في العُلا
وتلقَّ تهنئةَ الحميمِ	فاهناً أخي بوفودِها
حتى تُنِيفَ على النُّجومِ	وارقُ المَنازلِ كُلِّها

يأنصيب

وقال يعابث صديقه الشاعر خليل بك مطران، وقد جاءه أنه ربح ربحاً:

وأنبئتُ بما سرّاً	لقد وافتنَي البُشرى
رَبِحْتَ النُّمرةَ الكبرى	وقالوا عنكَ لي أمسِ
ويا مُطرانُ ما أُحرى	فيا مُطرانُ ما أُولى

لقد أقبَلتِ الدنيا	فلا تجزَعُ على الأخرى
أخذتِ الصُّفَرَ باليمنى	وكان الصُّفْرُ باليسرى
وكانتِ فِضَّةً بيضاً	فصارت ذهباً صُفْراً
وقال البعضُ أَلْفَيْنِ	وقالوا فوقَ ذا قَدراً

المُدَامَة

وقال عن بعض شعراء التُّرك:

كُنْ في التواضعِ كالمُدا	مَة حين تُجلى في الكُئُوسِ
مَسَتْ أَتْنَاداً في الصُّدُو	رِ فحَكَّموها في الرُّءُوسِ

تاريخ

وقال يُورِّخ ديوانه الأول — الشوقيات — وقد صدر في سنة ١٣١٧هـ:

وَجَنَّاتٍ من الأشعار فيها	جَنَى للمُجتني من كلِّ ذَوِقٍ
تأملُ كم تمنَّوها وأرَّخُ	لِشوقياتِ أحمدَ أيَّ شوقٍ

أَلَيْقُ ديوانِ ظَهَر

وقال يُورِّخ الشوقيات أيضاً:

مجموعةٌ لأحمدٍ	مُعجِزه فيها بهرُ
تُعَدُّ في تاريخها	أَلَيْقُ ديوانِ ظَهَرُ

الحكايات

أَنْتَ وَأَنَا

كان عَظِيمَ الجِسمِ هَمْشَرِيًّا
بكَثْرَةِ السِّلَاحِ فِي الجُيُوبِ
وَيُرْعَبُ الكِبَارَ والصَّغَارَا
يَصِيحُ بالنَّاسِ أَنَا أَنَا أَنَا
صَغِيرِ جِسمٍ بَطْلٍ قَوِيٍّ
وَلَيْسَ مَمَّنْ يَدْعُونَ القُوَّةَ
فَتَعْلَمُونَ صِدْقَهُ مِنْ كِذْبِهِ
وَالنَّاسُ مِمَّا سَيَكُونُ فِي وَجَلٍ
بِضَرْبِهِ كَادَتْ تَكُونُ القَاضِيَةُ
وَلَا انْتَهَى عَنْ رَعْمِهِ وَلَا تَرَكَ
الآنَ صِرْنَا اثْنَيْنِ أَنْتَ وَأَنَا

يَحْكُونُ أَنْ رَجُلًا كُرْدِيًّا
وَكَانَ يُلْقِي الرُّعْبَ فِي القُلُوبِ
وَيُفْزِعُ اليَهُودَ والنَّصَارَى
وَكُلَّمَا مَرَّ هُنَاكَ وَهْنَا
نَمَى حَدِيثُهُ إِلَى صَبِيٍّ
لَا يَعْرِفُ النَّاسُ لَهُ القُتُوبَ
فَقَالَ لِلْقَوْمِ سَادِرِيكُمْ بِهِ
وَسَارَ نَحْوَ الهَمْشَرِيِّ فِي عَجَلٍ
وَمَدَّ نَحْوَهُ يَمِينًا قَاسِيَةً
فَلَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا وَلَا ارْتَبَكَ
بَلْ قَالَ لِلْغَالِبِ قَوْلًا لَيْنًا

نَدِيمُ البَاذَنْجَانِ

يُعِيدُ مَا قَالَ بِلاِ اخْتِلَافٍ
إِذَا رَأَى شَيْئًا حَلَا لَدَيْهِ
وَيَسْمَعُ التَّمْلِيقَ لَكِنْ يَكْتُمُ
وَجِيءَ فِي الأَكْلِ بِبَاذَنْجَانٍ

كَانَ لِسُلْطَانٍ نَدِيمٌ وَافٍ
وَقَدْ يَزِيدُ فِي الثَّنَا عَلَيْهِ
وَكَانَ مَوْلَاهُ يَرَى وَيَعْلَمُ
فَجَلَسَا يَوْمًا عَلَى الخِوَانِ

فأكل السلطانُ منه ما أَكَلُ
قال النديمُ: صدقَ السلطانُ
هذا الذي غَنَى به «الرئيس»^١
يُذهِبُ أَلْفَ عِلَّةٍ وَعِلَّةٍ
قال: ولكنْ عنده مرارة
قال: نعم مُرٌّ وهذا عيبُهُ
هذا الذي مات به «بُقراطُ»
فالتفتَ السلطانُ فيمنَ حوله
قال النديمُ: يا مَلِيكَ الناسِ
جُعِلْتُ كي أَنادِمَ السلطانا

وقال: هذا في المَذاقِ كالعسلِ
لا يستوي شَهْدُ وبانجانِ
وقال فيه الشَّعَرُ «جالينوسُ»
ويُبرِدُ الصَّدْرَ وَيَشْفِي الغُلَّةَ
وما حَمِدْتُ مَرَّةً آثارَهُ
مُذْ كُنْتُ يا مولاي لا أُحِبُّهُ
وسَمَّ في الكأسِ به «سُقراطُ»
وقال: كيف تَجِدُون قولَهُ
عُذْرًا فما في فِعْلي من باسِ
ولم أَنادِمَ قطْ بانجانا

ضيافةِ قِطَّة^٢

لستُ بناسٍ ليلَةً
تطاوَلْتُ مِثْلَ لَيَا
إِنْ انفلتُ من سُحو
أَنظُرُ في ديوانِ شِعْ
فلم يَرْغُني غيرُ صَو
فَقَمْتُ أَلْقَى السَّمْعَ في السُّ
حتى ظَفِرْتُ بالتي
فمُذْ بَدَتْ لي والتَقْتُ
عادَ رَمادُ لَحْظِهَا
ورَدَّدَتْ فحيحَها
ولبِستُ لي من ورا

من رمضانَ مَرَّتْ
لِي القُطْبُ واكفَهَرَتْ
ري فدخلتُ حُجْرَتي
رِ أو كُتَابِ سِيرَةٍ
تِ كُمواءِ الهِرَّةِ
تُورِ والأَسْرَةِ
عليَّ قد تَجَرَّتْ
نَظَرَتِها ونَظَرَتِي
مِثْلَ بَصِيصِ الجَمْرَةِ
كَحَنَشٍ بِقَفْرَةٍ
ءِ السَّترِ جِلْدِ النَمْرَةِ

^١ الرئيس: ابن سينا.

^٢ نُشِرَتْ في سنة ١٩٢٩م.

كَرَّتْ وَلَكِنْ كَالْجَبَا
 وَاَنْتَفَضَتْ شَوَارِبًا
 وَرَفَعَتْ كَفًّا وَشَا
 ثَمِ ارْتَقَتْ عَنِ الْمَوَا
 لَمْ أَجْزِهَا بِشِرَّةٍ
 وَلَا غَبِيتُ ضَعْفَهَا
 وَلَا رَأَيْتُ غَيْرَ أُمٍّ
 رَأَيْتُ مَا يَعْطِفُ نَفْسَ
 رَأَيْتُ جِدَّ الْأُمِّهَا
 فَلَمْ أَزَلْ حَتَّى اِطْمَأَنَّ
 أَتَيْتُهَا بِشَرِبَةٍ
 وَصُنَّتْهَا مِنْ جَانِبِي
 وَزِدْتُهَا الدَّفَاءَ فَقَرَّ
 وَلَوْ وَجَدْتُ مَصِيدًا
 فَاضْطَجَعْتَ تَحْتَ ظِلِّهَا
 وَقَرَأْتُ أَوْرَادَهَا
 وَسَرَحَ الصَّغَارُ فِي
 غُرِّ نَجُومٍ سُبْحُ
 اخْتَلَطُوا وَعَبَّثُوا
 تَحَسُّبُهُمْ ضَفَادَعًا
 وَقُلْتُ لَا بَأْسَ عَلَى
 تَمَخُّضِي عَنْ خَمْسَةِ
 أَنْتِ وَأَوْلَادِكَ حَتَّى

نِ قَاعِدًا وَفَرَّتْ
 عَنْ مِثْلِ بَيْتِ الْإِبْرَةِ
 لَتُ ذَنْبًا كَالْمِذْرَةِ
 ۚ فَعَوَتْ وَهَرَّتْ
 عَنْ غَضَبٍ وَشِرَّةٍ
 وَلَا نَسِيتُ قُدْرَتِي
 بِالْبَنَيْنِ بَرَّةٍ
 سَ شَاعِرٍ مِنْ صَوْرَةِ
 تِ فِي بِنَاءِ الْأُسْرَةِ
 جَاشُهَا وَقَرَّتْ
 وَجِئْتُهَا بِكِسْرَةِ
 مَرَقِهَا بِسُتْرَتِي
 بَتُّ لَهَا مِجْمَرَتِي
 لَجِئْتُهَا بِفَأْرَةِ
 لِ الْأَمْنِ وَاسْبَطَرَّتْ
 وَمَا دَرَّتْ مَا قَرَّتْ
 تُدِيَّهَا فَدَرَّتْ
 فِي جَنْبَاتِ السُّرَّةِ
 كَالْعُمِيِّ حَوْلَ سُفْرَةِ
 أَرْسَلْتُهَا فِي جَرَّةٍ
 طِفْلِكَ يَا جُوَيْرَتِي
 إِنْ شِئْتِ أَوْ عَنْ عَشْرَةِ
 ى يَكْبَرُوا فِي خُفْرَتِي

الصيَّاد والعُصفورة^٣

حكايةُ الصيَّادِ والعُصفورةِ
ما هزَّؤوا فيها بمُستحقِّ
ما كلُّ أهلِ الزهدِ أهلُ الله
جعلتها شعراً لتلفتَ الفطنَ
وخيرُ ما يُنظمُ للأديبِ
صارت لبعضِ الزاهدين صورةً
ولا أرادوا أولياءَ الحقِّ
كم لأعيبَ في الزاهدين لاهِ
والشعرُ للحكمةِ مُدْ كان وطنُ
ما نطقته ألسُنُ التجريبِ

* * *

ألقى غلامٌ شرَّكاً يصطادُ
فانحدرت عُصفورةٌ من الشَّجرِ
قالت: سلامٌ أيُّها الغلامُ
قالت: صبيٌّ مُنحني القناةِ
قالت: أراك باديَّ العظامِ
قالت: فما يكونُ هذا الصوفُ؟
سلي إذا جهلتِ عارفِيه
قالت: فما هذي العصا الطويلةِ
أهشُّ في المرعى بها وأتكي
قالت: أرى فوق الترابِ حبًّا
قال: تشبَّهتُ بأهلِ الخيرِ
فإن هدى الله إليه جائعاً
قالت: فجُدْ لي يا أبا التنسُّكِ
فصليتُ في الفخِّ نارَ القاريِ
وهتفتُ تقول للأغرارِ
«إياك أن تغترَّ بالزُّهادِ»
وكلُّ من فوق الثرى صيَّادُ
لم ينهها النهي ولا الحزمُ زَجَرُ
قال: على العُصفورةِ السلامُ
قال: حنَّتها كثرةُ الصلاةِ
قال: برَّتها كثرةُ الصيامِ
قال: لباسُ الزاهدِ الموصوفُ
فابنُ عُبيدٍ والفضيلُ فيه
قال: لهايتيك العصا سَليلةِ
ولا أَرُدُّ الناسَ عن تبرُّكِ
مما اشتهى الطيرُ وما أحبَّ
وقلتُ أقري بئساتِ الطيرِ
لم يكُ قرباني القليلُ ضائعاً
قال: القُطيهِ بَارَكِ اللهُ لِكِ
ومصرعُ العصفورِ في المنقارِ
مقالةُ العارفِ بالأسرارِ:
كم تحت ثوبِ الزُّهدِ من صيَّادٍ

^٣ زيدت في الطبعة الثانية.

البلابل التي ربّاهَا البُوم

أُصْبَى الطُّيُورَ فَنَاجَتْهُ وَنَاجَاهَا
لِحُرْمَةٍ عِنْدَهُ — لِلْبُومِ يَرَعَاهَا
فَأَقْبَلَتْ وَهِيَ أَعْصَى الطَّيْرِ أَفْوَاهَا
بَأَنْ تَبْتُ نَبِيَّ اللَّهِ شَكَّوَاهَا
وَوَدَّ لَوْ أَنَّهُ بِالذَّبْحِ دَاوَاهَا
عَنْهَا يَقُولُ لِمَوْلَاهُ وَمَوْلَاهَا
خُرْسًا وَلَكِنْ بَوْمَ الشُّؤْمِ رَبَّاهَا

أُنْبِتْتُ أَنْ سُلَيْمَانَ الزَّمَانِ وَمَنْ
أَعْطَى بَلَابِلَهُ يَوْمًا — يُوَدِّبُهَا
وَاشْتَأَقَ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ رُؤْيَيْهَا
أَصَابَهَا الْعِيُّ حَتَّى لَا اقْتَدَارَ لَهَا
فَنَالَ سَيِّدُهَا مِنْ دَائِهَا غَضَبُ
فَجَاءَهُ الْهُدْهُدُ الْمَعْهُودُ مُعْتَذِرًا
بَلَابِلُ اللَّهِ لَمْ تَخْرُسْ وَلَا وُلِدَتْ

الدِّيكُ الهِنْدِيُّ والدِّجَاجُ الْبَلَدِيُّ

تَخْطُرُ فِي بَيْتٍ لَهَا طَرِيفُ
فَقَامَ فِي الْبَابِ قِيَامَ الضَّيْفِ
وَلَا أَرَاهَا أَبَدًا مَكْرُوهَا
يَوْمًا وَأَقْضِي بَيْنَكُمْ بِالْعَدْلِ
عَلَيَّ إِلَّا الْمَاءَ وَالْمَنَامُ
وَفَتَحَتْ لِلْعَلَجِ بَابَ الْعُشِّ
يَدْعُو لِكُلِّ فَرَخَةٍ وَدِيكَ
مُمتَّعًا بِدَارِهِ الْجَدِيدَةِ
تَحْلُمُ بِالذَّلَّةِ وَالْهَوَانِ
وَاقْتَبَسَتْ مِنْ نَوْرِهَ الْأَشْبَاحُ
يَقُولُ: دَامَ مَنْزِلِي الْمَلِيحُ
مَذْعُورَةً مِنْ صِيحَةِ الْغَشُومِ
غَدَرْتَنَا وَاللَّهِ غَدْرًا بَيْنَا
وَقَالَ: مَا هَذَا الْعَمَى يَا حَمْقَى
قَدْ كَانَ هَذَا قَبْلَ فَتْحِ الْبَابِ

بَيْنَا ضِعَافٌ مِنْ دِجَاجِ الرَّيْفِ
إِذْ جَاءَهَا هِنْدِيٌّ كَبِيرُ الْعُرْفِ
يَقُولُ: حَيَّاَ اللَّهُ ذِي الْوُجُوها
أَتَيْنُكُمْ أَنْشُرُ فَيْكُمْ فَضْلِي
وَكُلُّ مَا عِنْدَكُمْ حَرَامُ
فَعَاوَدَ الدِّجَاجُ دَاءَ الطَّيِّشِ
فَجَالَ فِيهِ جَوْلَةَ الْمَلِكِ
وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ السَّعِيدَةَ
وَبَاتَتْ الدِّجَاجُ فِي أَمَانٍ
حَتَّى إِذَا تَهَلَّلَ الصَّبَاحُ
صَاحَ بِهَا صَاحِبُهَا الْفَصِيحُ
فَانْتَبَهَتْ مِنْ نَوْمِهَا الْمَشْثُومِ
تَقُولُ: مَا تِلْكَ الشُّرُوطُ بَيْنَنَا
فَضَحِكَ الْهِنْدِيُّ حَتَّى اسْتَلْقَى
مَتَى مَلِكُكُمْ أَلْسَنَ الْأَرْبَابِ؟

العُصفور والغدير المهجور

قد غابَ تحتَ الغابِ في الألفافِ
خَشْيَةً أَنْ يُسْمَعَ عَنْهُ أَوْ يُرَى
وَحَرَكَ الصَّنِيعَ مِنْ لِسَانِهِ
وَمُخَجَلَ الكُوْثِرِ يَوْمَ العَرَضِ
لِيَعْرِفَ المَكَانَ والإِمْكَانَا
وَيَشْكُرَ الفضلَ كما شَكَرْتُ
وَتُنْسِيَ النّاسَ حَدِيثَ النِّيلِ
وقال يهدي مُهْجَةً المَغْرورِ
أَمَّنَكَ اللّهُ يَدَ ابْنِ آدَمِ
يُعْطِي وَلَكِنْ يَأْخُذُ الخَبِيثَا
وصار كُلُّ الذِّكْرِ للمَهْنَدِسِ
وَقِيَمَةُ المُحْسِنِ عِنْدَ النّاسِ
فَقُلْ لِمَنْ يَسْأَلُ عَنِّي بَعْدَهَا
يَا سَعْدَ مَنْ صَافَى وَصُوفَى وَاسْتَتَرَ

أَلَمْ عُصْفُورٌ بِمَجَرَى صَافٍ
يَسْقِي الثَّرَى مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي الثَّرَى
فَاغْتَرَفَ العُصْفُورُ مِنْ إِحْسَانِهِ
فَقَالَ يَا نَوْرَ عُيُونِ الأَرْضِ
هَلْ لَكَ فِي أَنْ أُرْشِدَ الْإِنْسَانَا
فَيَنْظُرَ الخَيْرَ الَّذِي نَظَرْتُ
لَعَلَّ أَنْ تُشْهَرَ بِالْجَمِيلِ
فَالْتَفَتَ الغَدِيرُ لِلْعُصْفُورِ
يَا أَيُّهَا الشَّاكِرُ دُونَ العَالَمِ
النِّيلُ فَاسْمَعْ وَافْهَمْ الحَدِيثَا
مَنْ طَوَّلَ مَا أَبْصَرَهُ النّاسُ نُسِي
وهكذا العَهْدُ بِوَدِّ النّاسِي
وقد عَرَفْتَ حَالَتِي وَضِدَّهَا
إِنْ خَفِيَ النّافِعُ فَالنَّفْعُ ظَهَرَ

الأفعى النيلية والعقربة الهندية

فِي هَوَيسِ الأَفْعَى وَخُبَيْثِ العَقْرَبَةِ
مُعْجَبَةً بِقَدِّهَا الْجَمِيلِ
وَتَدَّعِي العَقْلَ الكَبِيرَ الرَّاجِحَا
تَحْمِلُ وَزْنَيْهَا مِنَ الأَوْسَاخِ
سَاحِرَةً مِنْ سَاحِرَاتِ الهِنْدِ
وَانْدَفَعَتْ تِلْكَ كَسَهِمِ زَالِحِ
دَارَتْ عَلَيْهِ كَالسَّوَارِ دَوْرَهَا
أَيْنَ الْفِرَارُ يَا عَدُوَّ العَيْشِ؟
أَوْ تَخْرُجِي فَالْهَلْكَ فِي الخُرُوجِ

وهذه واقعةٌ مُسْتَغْرَبَةٌ
رَأَيْتُ أَفْعَى مِنْ بَنَاتِ النِّيلِ
تَحْتَقِرُ النُّصْحَ وَتَجْفُو النّاصِحَا
عَنَّتْ لَهَا رَبِيبَةُ السَّبَاخِ
فَحَسِبْتُهَا وَالْحِسَابُ يُجِدِي
فَانْخَرَطَتْ مِثْلَ الحُسَامِ الْوَالِحِ
حَتَّى إِذَا مَا أَبْلَغَتْهَا جُحْرَهَا
تَقُولُ يَا أُمَّ العَمَى والطَّيْشِ
إِنْ تَلْجِي فَالْمَوْتُ فِي الْوُلُوجِ

واغترَّتِ الأفعى بذا السكوتِ
فخرجتْ ضَرَّتُها بِسُرعةِ
واسترسلتْ في مُؤلمِ التُّلداغِ
تَصيحُ بالويل وبالنُّبورِ
فنزلتْ عن رأسِها العدوَّةِ
وإن وجدتْ قسوةً فعُذرا
وهكذا فلتُركبُ الأعداءُ
يُصبحُ يلقى ما لقيتْ منه
مَنِّي لما سَمُوا الخبيثَ عقربةِ

فسكنتْ طريدةَ البُيوتِ
وهجعتْ على الطريقِ هَجعةِ
ونهضتْ في ذروةِ الدماغِ
فانتبَهتْ كالحالمِ المذعورِ
حتى وهتْ من الفتاةِ القوَّةِ
تقول صبرا للبلَاءِ صبرا
فرأسك الداءُ وذا الدواءُ
من مَلَكِ الخَصمِ ونامَ عنه
لولا الذي أبصرَ أهلَ التَّجربةِ

السُّلوقيُّ والجواد

وهو إلى الصَّيْدِ مَسوقُ القيادِ
فأنتَ تدري لي الوفا في الودادِ
أهلُ السُّرى والسَّيرِ أهلُ الجهادِ
هامَ بها الشاعرُ في كلِّ وادِ
أنا به المشهورُ بين العبادِ
إذا دعا الصَّيْدُ وجَدَّ الطَّرادِ
إن العصا ما خُلقتْ للجوادِ
مُنكَّسَ الرأسِ ضئيلَ الفؤادِ
ينقادُ للمالكِ أيَّ انقيادِ
ما هكذا أنظارُ أهل الرِّشادِ
في عَظْمِ سيقانِكِ يا ذا السِّدادِ
إن البُطونَ قادراتُ شِدادِ
تطوي إلى الحَبِّ مئاةِ البلادِ

قال السُّلوقيُّ مرَّةً للجَوادِ
باللهِ قُلْ لي يا رفيقَ الهنا
ألسنُ أهلِ البَيدِ أهلُ الفَلا
ألمَ تَكُنْ رَبَّ الصفاتِ التي
قال بلى كلُّ الذي قَلَّتْهُ
قال فما بالُكَ يا صاحبي
تشكو فتُشكِكَ عصا سيدي
وتَنثنِّي في عَرَقِ سائلِ
وذا السُّلوقيُّ أبداً صابراً
فقال مهلاً يا كبيرَ النُّهى
السُّرُّ في الطيرِ وفي الوحشِ لا
ما الرِّجْلُ إلا حيثُ كان الهوى
أما ترى الطيرَ على ضعفِها

فأر الغيط وفأر البيت

تَتِيهْ بِابْنَيْهَا عَلَى الْفِيرَانِ
وَعَلَّمَتْهُ الْمَشْيَ فَوْقَ الْخَيْطِ
وَأَتَقَنَ الدُّخُولَ وَالْخُرُوجَا
وَعَاشَ كَالْفَلَّاحِ فِي هِنَاءِ
بِالْكِبَرِ فَاحْتَارَتْ بِمَا تُسَمِّي
لَأُنْنِي يَا أُمُّ فَأُرُ الْعَصْرِ
فَلِي طَرِيقٌ وَلَهُ طَرِيقُ
وَتُبَّا مِنْ الرَّفِّ إِلَى الْكَرَارِ
وَنِلْتُ يَا كُلَّ الْمُنَى مَرَامِي
مِنْ عَسَلٍ أَوْ جُبْنَةٍ أَوْ زَيْتِ
وَأَقْبَلْتُ مِنْ وَجْدِهَا تَضُمُّهُ
أَخْشَى عَلَيْكَ ظُلْمَةَ الْبُيُوتِ
فِي أَنْ تَكُونَ مِثْلَهُ فَلَّاحَا
أَوْ لَا فِسْرَ فِي ذِمَّةِ الرَّحْمَنِ
وَقَالَ مَنْ قَالَ بِذَا قَدْ خَرِفَا
وَعَاهَدَ الْأُمُّ عَلَى أَنْ تَكْتُمَا
وَجُبْنَةً فِي فَمِهِ أَوْ شَمْعَةً
وَعُورِ اللَّصِّ وَشَاعَ الْأَمْرُ
فَسَأَلْتَهُ أَيْنَ خَلَى الذَّنْبَا
فِي الشَّهْدِ قَدْ غَاصَ وَفِي الشَّهْدِ ذَهَبَ
مِنْهَا يُدَارِي فَقَدْ إِحْدَى الْأَرْجُلِ
صَيَّرَنِي أَعْرَجَ فِي الْمَعَالِي
قَدْ أَخْلَفَ الْعَادَةَ فِي الزِّيَارَةِ
وَسَارَتْ الْأُمُّ لَهُ عَلَى عَجَلٍ
قَدْ سَحِقَتْ مِنْهُ الْعِظَامُ سَحْقَا
إِنْ الْمَعَالِي قَتَلَتْ فَتَاهَا

يُقَالُ كَانَتْ فَأْرَةُ الْغَيْطَانِ
قَدْ سَمَّتِ الْأَكْبَرَ نُورَ الْغَيْطِ
فَعَرَفَ الْغِيَاضَ وَالْمُرُوجَا
وَصَارَ فِي الْجِرْفَةِ كَالْآبَاءِ
وَأَتَعَبَ الصَّغِيرُ قَلْبَ الْأُمِّ
فَقَالَ سَمِّينِي بِنُورِ الْقَصْرِ
إِنِّي أَرَى مَا لَمْ يَرَ الشَّقِيقُ
لَأَدْخُلَنَّ الدَّارَ بَعْدَ الدَّارِ
لَعَلَّنِي إِنْ ثَبَّتَتْ أَقْدَامِي
أَتِيكُمَا بِمَا أَرَى فِي الْبَيْتِ
فَعَطَفَتْ عَلَى الصَّغِيرِ أُمُّهُ
تَقُولُ إِنِّي يَا قَتِيلَ الْقُوتِ
كَانَ أَبُوكَ قَدْ رَأَى الْفَلَّاحَا
فَاعْمَلْ بِمَا أَوْصَى تُرِخْ جَنَانِي
فَاسْتَضْحَكِ الْفَأْرُ وَهَزَّ الْكَتِفَا
ثُمَّ مَضَى لِمَا عَلَيْهِ صَمَّمَا
فَكَانَ يَأْتِي كُلَّ يَوْمٍ جَمْعَةً
حَتَّى مَضَى الشَّهْرُ وَجَاءَ الشَّهْرُ
فَجَاءَ يَوْمًا أُمُّهُ مُضْطَرِبَا
فَقَالَ لَيْسَ بِالْفَقِيدِ مَنْ عَجَبَ
وَجَاءَهَا ثَانِيَةً فِي خَجَلٍ
فَقَالَ رَفُّ لَمْ أَصِبْهُ عَالِي
وَكَانَ فِي الثَّالِثَةِ ابْنُ الْفَارَةِ
فَاسْتَغْلَلَ الْقَلْبَ عَلَيْهِ وَاسْتَعَلَّ
فَصَادَفَتْهُ فِي الطَّرِيقِ مُلْقَى
فَنَاحَتْ الْأُمُّ وَصَاحَتْ وَاهَا

مَلِكُ الْغُرْبَانِ وَنُدُورُ الْخَادِمِ

وله في النخلة الكبرى أريك
لِصْغَارِ الْمُلْكِ أَصْحَابِ الْعُهْدِ
وهو في البابِ الْأَمِينُ الْحَازِمُ
أنت ما زِلْتَ تُحِبُّ النَّاصِحِينَ
جَازَتْ الْقَصْرَ وَدَبَّتْ فِي الْجُذُورِ
قَبْلَ أَنْ نَهْلِكَ فِي أَشْرَاقِهَا
ثُمَّ أَذْنَى خَادِمِ الْخَيْرِ وَقَالَ
أَنَا ذُو الْمِنْقَارِ غَلَّابُ الرِّيحِ
أَنَا لَا أَبْصُرُ تَحْتِي يَا نُدُورُ
قَامَ بَيْنَ الرِّيحِ وَالنَّخْلِ خِصَامُ
فَبَدَأَ لِلرِّيحِ سَهْلًا قَلْعُهَا
وَهَوَى الدِّوَانَ وَانْقَضَّ السَّرِيرُ
وَدَعَا خَادِمَهُ الْغَالِي يَقُولُ
مَا تَرَى مَا فَعَلْتُ فِينَا الرِّيحُ
«أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»!

كَانَ لِلْغُرْبَانِ فِي الْعَصْرِ مَلِيكَ
فِيهِ كَرْسِيٌّ وَخِذْرٌ وَمُهَوِّدٌ
جَاءَهُ يَوْمًا نُدُورُ الْخَادِمِ
قَالَ يَا فَرْعَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ
سُوسَةٌ كَانَتْ عَلَى الْقَصْرِ تَدُورُ
فَابْعَثِ الْغُرْبَانَ فِي إِهْلَاقِهَا
ضَحِكَ السُّلْطَانُ مِنْ هَذَا الْمَقَالِ
أَنَا رَبُّ الشُّوَكَةِ الضَّافِي الْجَنَاحِ
«أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»
ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ
وَإِذَا النَخْلَةُ أَقْوَى جِذْعُهَا
فَهَوَّتْ لِلْأَرْضِ كَالْتَلُّ الْكَبِيرِ
فَدَهَا السُّلْطَانُ ذَا الْخَطْبِ الْمَهُولِ
يَا نُدُورَ الْخَيْرِ أَسْعِفْ بِالصِّيَاحِ
قَالَ يَا مَوْلَايَ لَا تَسْأَلُ نُدُورُ

الطَّبِي وَالْعِقْد وَالْخَنْزِير

فَرَفَعَ الرَّأْسَ إِلَى السَّمَاءِ
زَنَهُ بِعِقْدِ اللُّؤْلُؤِ النَّضِيدِ
طَلَبْتَ يَا ذَا الطَّبِيِّ مَا لَنْ تُمْنَحَا
لَمْ يُبْقِ فِي الْحُسْنِ لَهُ مَزِيدَا
لَمْ يَخْرُجِ الدُّرُّ مِنَ الْبُحُورِ
وَزَادَهُ شَوْقًا إِلَى اللَّالِي
فَعَاشَ دَهْرًا فِي الْفَلَا يَهِيمُ
وَهَجَرَ طَيِّبَ النَّوْمِ وَالطَّعَامِ

ظَبْيٌ رَأَى صُورَتَهُ فِي الْمَاءِ
وَقَالَ يَا خَالِقَ هَذَا الْجِيدِ
فَسَمِعَ الْمَاءُ يَقُولُ مُفْصِحَا
إِنَّ الَّذِي أَعْطَاكَ هَذَا الْجِيدَا
لَوْ أَنَّ حُسْنَهُ عَلَى النُّحُورِ
فَافْتَتَنَ الطَّبِي بِذِي الْمَقَالِ
وَلَمْ يَنْلُهُ فَمُهُ السَّقِيمُ
حَتَّى تَقْضَى الْعُمْرُ فِي الْهَيَامِ

فسارَ نحوَ الماءِ ذاتَ مرَّةٍ
وبينما الجارانِ في الكلامِ
يتبَّعُه حيثَ مشى خنزيرُ
فاندفعَ الطَّبِيُّ لذاكِ يبكي
ما آفةَ السعيِ سوى الضلالِ
لولا قضاءَ المَلِكِ القديرِ
فالتفتَ الماءُ إلى الغزالِ
لا عَجَبٌ إن السنينَ مَوْقِظَةٌ
يشكو إليه نفعه وضره
أقبلَ راعي الدَّيرِ في الظلامِ
في جِيدِه قِلادةٌ تُنِيرُ
وقال من بعدِ انجلاءِ الشَّكِّ
ما آفةُ العمرِ سوى الآمالِ
لَمَّا سعى العِقدُ إلى الخنزيرِ
وقال حالُ الشيخِ شرُّ حالِ
حَفِظْتَ عُمْرًا لو حَفِظْتَ مَوْعِظَةَ

وليُّ عهد الأسد وخُطبة الحمار

لَمَّا دَعَا داعي أبي الأشبالِ
سَعَتِ سِباعُ الأرضِ والسماءِ
وصدَرَ المرسومُ بالأمانِ
فضاقَ بالذُّيولِ صحنُ الدارِ
حتى إذا استكملتِ الجمعيةُ
هل من خطيبٍ مُحسِنٍ خبيرِ
فنهَضَ الفيلُ المُشيرُ السامي
ثم تلاه الثعلبُ السفيرُ
واندفعَ القرَدُ مُديرُ الكاسِ
وأومَأَ الحِمَارُ بالعقيرةِ
فقال بِاسمِ خالِقِ الشعيرِ
فأزعَجَ الصَّوْتُ وليَّ العهدِ
فحملَ القومُ على الحِمَارِ
وانتُدِبَ الثعلبُ للتأبينِ
لا جَعَلَ اللُّهُ له قرارا
مُبَشِّرًا بأوَّلِ الأنجالِ
وانعقدَ المجلسُ للهَناءِ
في الأرضِ للقاصي بها والداني
من كلِّ ذي صُوفٍ وذِي منقارِ
نادى مُنادي اللَّيْثِ في المَعِيَّةِ
يدعو بطولِ العمرِ للأُميرِ
وقال ما يليقُ بالمَقامِ
يُنشِدُ حتى قيلَ ذا جَريرِ
فَقيلَ أحسنتَ أبا نُواسِ
يريدُ أن يُشَرِّفَ العشيرةَ
وباعِثِ العصا إلى الحميرِ
فماتَ من رِعدِته في المَهْدِ
بجُملةِ الأنبياءِ والأظفارِ
فقال في التعريضِ بالمسكينِ
عاشَ حِمَارًا ومضى حِمَارًا

الأسد والثعلب والعجل

كان بالقُربِ على غيْطِ أَمِينٍ
وكذا الأنْفُسُ يُصْبِيها النَفِيسُ
رَأْسُكَ المَحْبُوبُ أو ذاك الغَزَالُ
ومضى في الحَالِ لِلأَمْرِ الجَلِيلِ
فرأى العِجْلَ فأهداهُ السَّلامُ
أنتَ أَهلُ العَفْوِ والبرِّ الغَزِيرِ
فوشى بي عِنْدَ مَوْلانا الأَسَدُ
وهو فِينا لَمْ يَزَلْ نِعَمَ الشَّفِيعِ
ودنا يَسْأَلُ عَن شَرْحِ الحَدِيثِ
أَنْ مَوْلانا أبا الأَفْئالِ ماتَ
مَوطِنَ الحِكمَةِ والجِدْقِ الكَثِيرِ
ولأَمْرِ المُلِكِ رِكنًا يُذْخِرُ
مِثْلَ آيِسَ وَمَعْبُودِ اليَهُودِ
عَن يَمِينِ المَلِكِ السَّامِيِّ الخَطِيرِ
فِي انتِظارِ السَّيِّدِ العَالِي هِناكَ
وانتَهى الأَنْسُ إِلَيْكُم والسُّرُورُ
واطْلُبُوا لِي العَفْوَ مِنْهُ والأَمَانُ
أَخدمُ المُنْعَمَ جَهْدَ المُسْتَطِيعِ
أنتَ مِنْذُ اليَوْمِ جاري لا تُنَالُ
أنا لا يَشْقَى لَدِيهِ بي رَفِيقُ
ذا إِلى المَوْتِ وَهَذَا لِلحَيَاةِ
وَحِبا الثَّعْلَبِ مِنْهُ بِالْيَسِيرِ
وَجَرى فِي حَلْبَةِ الفَخْرِ يَقُولُ
فَفَداهُ كُلُّ ذِي رَأْسٍ كَبِيرِ

نَظَرَ اللَّيْثُ إِلى عَجَلٍ سَمِينِ
فاشْتَهَتْ مِنْ لَحْمِهِ نَفْسُ الرِّئِيسِ
قالَ لِلثَّعْلَبِ يا ذا الإِحتِيالِ
فَدعا بِالسَّعْدِ والعُمَرِ الطَّوِيلِ
وَأَتى الغَيْطَ وَقَدْ جَنَّ الظُّلَامُ
قائِلًا يا أَيُّها المَوْلَى الوَزِيرُ
حَمَلَ الذُّبَبَ عَلى قَتْلِي الحَسَدُ
فَتَرامَيْتُ عَلى الجاهِ الرَفِيعِ
فَبكى المَغْرورُ مِنْ حَالِ الخَبِيثِ
قالَ هَلْ تَجْهَلُ يا حُلُو الصِّفَاتِ
فَرأى السُّلطانُ فِي الرَأْسِ الكَبِيرِ
ورَأى خَيْرَ مَنْ يُسْتَوَزَرُ
ولقد عَدُّوا لَكُم بَيْنَ الجُدودِ
فأَقامُوا لِمعالِيكُم سَرِيرَ
واستَعَدَّ الطَّيْرُ والوَحْشُ لَذاكَ
فإِذا قُمتُم بِأَعْباءِ الأُمُورِ
بِرُّؤُوني عِنْدَ سُلطانِ الزَّمانِ
وكفَّاکم أَنني العَبْدُ المُطِيعُ
فأَحَدَ العِجْلِ قَرْنِيهِ وَقَالَ
فامْضِ واكْشِفْ لِي إِلى اللَّيْثِ الطَّرِيقُ
فَمَضى الخِلانُ تَوًّا لِلْفَلَاةِ
وهناكَ ابْتَلَعَ اللَّيْثُ الوَزِيرَ
فانْتَنى يَضْحَكُ مِنْ طَيْشِ العُجُولِ
سَلِمَ الثَّعْلَبُ بِالرَأْسِ الصَّغِيرِ

القرد والفيل

قردٌ رأى الفيلَ على الطَّرِيقِ
وكان ذاك القردُ نصفَ أعمى
فقال أهلاً بأبي الأهوالِ
تَفدي الرَّءوسَ رأسَكَ العظيما
للهِ ما أَظرفَ هذا القَدًّا
وأملَحَ الأذنَ في الاسترسالِ
وأحسنَ الخُروطومَ حينَ تَها
وظَهَرَكَ العاليِ هو البِساطُ
فعدَّها الفيلُ من السُّعودِ
فجالَ في الظَّهرِ بلا تَوانٍ
أوفَى على الشَّيءِ الذي لا يُذكرُ
فأنَّهم الفيلُ البعوضَ واضطربَ
فوقعَ الضربُ على السليمةِ
ونزلَ البصيرُ ذاكَ اكتئابِ
فقال لا مُوجبَ للندامةِ
من كان في عينيه هذا الداءُ

مُهرولًا خوفًا من التَّعويقِ
يُريدُ يُحصي كلَّ شيءٍ علما
ومرحبًا بمُخجلِ الجِبَالِ
فقفْ أَشاهدْ حُسْنَكَ الوسيما
وألطفَ العَظَمَ وأبهى الجِلدا
كَأنَّها دائِرَةُ الغِرْبَالِ
كَأنَّه النخلةُ في صباها
للنفسِ في رُكوبِهِ انبساطُ
وأمرَ الشاعِرَ بالصُّعودِ
حتَّى إذا لم يبقَ من مكانٍ
وأدخَلَ الأصبعَ فيه يَخْبِرُ
وضيقَ الثقبِ وصالَ بالذَّنْبِ
فلجِقتُ بأختِها الكريمةِ
يشكو إلى الفيلِ من المُصابِ
الحمدُ لله على السلامةِ
ففي العَمى لنفسيه وقاءُ

النشاة والغراب

مَرَّ الغُرابُ بشاةٍ
تقولُ والدمعُ جارٍ
يا ليتَ شعري يا ابني
وهل تكونُ بجَنبي
فقال يا أمَّ سعدٍ

قد غابَ عنها الفطيمُ
والقلبُ منها كَلِيمُ
وواحدٍ هل تدومُ؟
غداً على ما أرومُ؟
هذا عذابُ أليمٍ

٤ البصير: الأعمى.

فَكُرَّتْ فِي الْغَدِّ وَالْفَكِّ
لِكُلِّ يَوْمٍ خُطُوبٌ
وَبَيْنَمَا هُوَ يَهْدِي
يَقُولُ خَلَفْتُ سَعْدًا
رَأَى مِنَ الذَّنْبِ مَا قَدْ
فَقَالَ ذُو الْبَيْنِ لِلْأَمِّ
إِنَّ الْحَكِيمَ نَبِيٌّ
أَلَمْ أَقُلْ لَكَ تَوًّا
قَالَتْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ
فَإِنْ قَوْمِي قَالُوا

رُ مُقْعِدٌ وَمُقِيمٌ
تَكْفِي وَشُغْلٌ عَظِيمٌ
أَتَى النِّعَى الذَّمِّيمُ
وَالْعَظْمُ مِنْهُ هَشِيمٌ
رَأَى أَبُوهُ الْكَرِيمُ
حِينَ وَلَّتْ نَهِيمٌ
لِسَانُهُ مَعْصُومٌ
لِكُلِّ يَوْمٍ هُمُومٌ
هَذَا الْكَلَامُ قَدِيمٌ
وَجْهَ الْغُرَابِ مَشُومٌ

أمة الأرنب والفيل

يَحْكُونُ أَنَّ أُمَّةَ الْأَرَنْبِ
وَابْتَهَجَتْ بِالْوَطَنِ الْكَرِيمِ
فَاخْتَارَهُ الْفِيلُ لَهُ طَرِيقًا
وَكَانَ فِيهِمْ أَرَنْبٌ لَبِيبٌ
نَادَى بِهِمْ يَا مَعْشَرَ الْأَرَنْبِ
اتَّجِدُوا ضِدَّ الْعَدُوِّ الْجَافِي
فَأَقْبَلُوا مُسْتَصَوِّبِينَ رَأْيَهُ
وَانْتَحَبُوا مِنْ بَيْنِهِمْ ثَلَاثَةٌ
بَلْ نَظَرُوا إِلَى كِمَالِ الْعَقْلِ
فَنَهَضَ الْأَوَّلُ لِلْخِطَابِ
أَنْ تُتْرَكَ الْأَرْضُ لِذِي الْخُرْطُومِ
فَصَاحَتِ الْأَرَنْبُ الْغَوَالِي
وَوَثَبَ الثَّانِي فَقَالَ إِنِّي
فَلَنَدْعُهُ يُمِدَّنَا بِحِكْمَتِهِ
فَقِيلَ لَا يَا صَاحِبَ السُّمُورِ

قَدْ أَخَذَتْ مِنَ الثَّرَى بَجَانِبِ
وَمَوْتِلِ الْعِيَالِ وَالْحَرِيمِ
مُمَزَّقًا أَصْحَابَنَا تَمْزِيْقًا
أُذْهَبَ جُلٌّ صَوْفِهِ التَّجْرِبُ
مَنْ عَالِمٌ وَشَاعِرٌ وَكَاتِبٌ
فَالِاتِحَادُ قُوَّةُ الضُّعَافِ
وَعَقِدُوا لِلِاجْتِمَاعِ رَايَةً
لَا هَرَمًا رَاعُوا وَلَا حَدَاثَةً
واعتَبَرُوا فِي ذَاكَ سِنَّ الْفَضْلِ
فَقَالَ إِنَّ الرَّأْيَ ذَا الصَّوَابِ
كِي نَسْتَرِيحَ مِنْ أَذَى الْغَشُومِ
هَذَا أَضَرُّ مِنْ أَبِي الْأَهْوَالِ
أَعْهَدُ فِي الثَّلَبِ شَيْخُ الْفَنِّ
وَيَأْخُذُ اثْنَيْنِ جِزَاءَ خِدْمَتِهِ
لَا يُدْفَعُ الْعَدُوُّ بِالْعَدُوِّ

وانتدبَ الثالثُ للكلامِ
اجتمعوا فالاجتماعُ قُوَّةُ
يهوي إليها الفيلُ في مروره
ثم يقولُ الجيلُ بعدَ الجيلِ
فاستصوبوا مقالَه واستحسنوا
وهلكَ الفيلُ الرفيعُ الشَّانِ
وأقبلتْ لِصاحبِ التدبيرِ
فقال مهلاً يا بني الأوطانِ
فصاحبُ الصوتِ القويِّ الغالبِ
فقال يا معاشِرَ الأقوامِ
ثم احفروا على الطريقِ هُوَّةُ
فنستريحُ الدهرَ من شروره
قد أكلَ الأرنبُ عقلَ الفيلِ
وعملوا من فورهم فأحسنوا
فأمستِ الأُمَّةُ في أمانِ
ساعيةً بالتاجِ والسريرِ
إن محليَّ للمحلِّ الثاني
من قد دعا يا معشرَ الأرنبِ

حكاية الخفاش ومليكة الفراش

مرَّت على الخفاشِ
تطيرُ بالجموعِ
فعطفت ومالت
أزريت بالغرامِ
صف لي الصديقَ الأسودا
قال سألت فيه
هو الصديقُ الوافي
جوارهُ أمانُ
وطرفه كليلُ
يحنو على العشاقِ
وجُملةُ المقالِ
مليكةُ الفراشِ
سعيًا إلى الشموعِ
واستضحكت فقالت
يا عاشقَ الظلامِ
الخاملَ المُجردا
أصدق واصفيه
الكاملُ الأوصافِ
وسرُّه كتمانُ
إذا هفا الخليلُ
يسمعُ للمُشتاقِ
هو الحبيبُ الغالي

* * *

فقال الحمقاءُ وقولها استهزاءُ

° تعني الليل، والخفاش لا يأنس إلا بالظلام.

أَيْنَ أَبُو الْمِسْكِ الْخَصِي	ذُو الثَّمَنِ الْمُسْتَرْخَصِ ^٦
مَنْ صَاحِبِي الْأَمِيرِ	الظَّاهِرِ الْمُنِيرِ ^٧
إِنْ عُدَّ فَيَمَنْ أَعْرَفُ	أَسْمُو بِهِ وَأَشْرَفُ
وَأِنْ سُئِلْتُ عَنْهُ	وَعَنْ مَكَانِي مِنْهُ
أَفْأَخِرُ الْأَتْرَابَا	وَأَنْثَنِي إِعْجَابَا
فَقَالَ يَا مَلِيكَةَ	وَرَبَّةَ الْأَرِيكَةَ
إِنْ مِنَ الْغُرُورِ	مَلَامَةَ الْمَغْرُورِ
فَأَعْطِنِي قَفَاكِ	وَامْضِي إِلَى الْهَلَاكِ
فَتَرَكْتَهُ سَاخِرَةً	وَذَهَبَتْ مُفَاخِرَةً
وَبَعْدَ سَاعَةٍ مَضَتْ	مِنَ الزَّمَانِ فَانْقَضَتْ
مَرَّتْ عَلَى الْخُفَاشِ	مَلِيكَةَ الْفَرَاشِ
نَاقِصَةً الْأَعْضَاءِ	تَشْكُو مِنَ الْفَنَاءِ
فَجَاءَهَا مِنْهُمْ كَمَا	يُضْجِغُهَا مِنْهَا الْبُكْيَا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ	هَلَكْتَ أَوْ لَمْ تَهْلِكِي
رُبَّ صَدِيقٍ عَبْدٍ	أَبْيَضُ وَجْهِ الْوَدِّ
يَفْدِيكَ كَالرَّئِيسِ	بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ
وَصَاحِبٍ كَالنُّورِ	فِي الْحُسْنِ وَالظُّهُورِ
مُعْتَكِرِ الْفَوَادِ	مُضِيٍّ الْوَدَادِ
حِبَالُهُ أَشْرَاكَ	وَقُرْبُهُ هَلَاكَ

الأسد ووزيره الحمار

الَلَيْثُ مَلِكُ الْقِفَارِ	وَمَا تَضُمُّ الصَّحَارِي
سَعَتْ إِلَيْهِ الرِّعَايَا	يَوْمًا بِكُلِّ انْكَسَارِ
قَالَتْ تَعِيشُ وَتَبْقَى	يَا دَامِي الْأَظْفَارِ

^٦ أبو المسك الخصي: كافور الإخشيدي، وكان عبداً أسود.

^٧ تعني الضوء.

مات الوزيرُ فَمَنْ ذا
قال الحمارُ وزيري
فاستضحكت ثم قالت
وخَلَفَتْه وطارت
حتى إذا الشهرُ ولَّى
لم يَشْعِرِ اللَّيْثُ إِلَّا
القرْدُ عِنْدَ الْيَمِينِ
والقِطُّ بَيْنَ يَدَيْهِ
فقال من في جدودي
أين اقتداري وبطشي
فجاءه القردُ سِرًّا
يا عَالِي الجاهِ فينا
رأى الرعيَّةَ فيكم
يسُوسُ أَمْرَ الضَّواري
قضى بهذا اختياري
«ماذا رأى في الحمار؟»
بمُضْحِكِ الْأَخْبَارِ
كَلِيلَةٍ أَوْ نَهَارِ
وَمُلْكُهُ فِي دَمَارِ
والكلبُ عِنْدَ الْيَسَارِ
يلهُو بَعْظَمَةِ فَارِ
مِثْلِي عَدِيمُ الْوَقَارِ؟
وهيبتني واعتباري؟
وقال بعدَ اعتذارِ
كُنْ عَالِي الْأَنْظَارِ
من رأيكم في الحمارِ

النملة والمقطم

كانتِ النملةُ تمشي
فارتخى مَفْصَلُهَا مِنْ
وانثنت تنظرُ حتى
قالتِ اليومَ هلاكي
ليت شعري كيف أنجو
فسعت تجري وعينا
سقطت في شبرِ ماءٍ
فبكت يأسًا وصاحت
ثم قالت وهي أدري
ليتنني لم أتأخرُ
ليتنني سلّمتُ فالعَا
صاح لا تخش عظيمًا
مرّةً تحتَ الْمُقْطَمِ
هَيْبَةُ الطَّودِ الْمُعْظَمِ
أوجَدَ الْخَوْفَ وَأَعْدَمَ
حلَّ يومي وتحتّم
— إن هوى هذا — وأسلم
ها ترى الطَّودَ فَتَنْدَمُ
هو عِنْدَ النملِ كَالْيَمِ
قَبْلَ جَرَيِ الْمَاءِ فِي الْفَمِ
بالذي قالت وأعلم
ليتنني لم أتقدّم
قلُّ من خاف فسَلَّم
فالذي في الغيبِ أعظم

الغزال والكلب

من بيوت الكرام فيه غزالٌ
عسلاً لم يشبُه إلا الزُّلالُ
فيه وفي النفسِ تَرَحُّةٌ ومَلالُ
كيف حالُ الوري وكيف الرجال؟
أدقُّ الكاملُ النُّهى المِفضالُ
ليس فيهم حقيقةٌ فتُقالُ
وأذاً وغيبَةٌ وانتحالُ
كم أداريهم وكم أحتالُ!
ورضا الكلُّ مَطْلَبٌ لا يُنالُ
لا يُؤدِّي إليه إلا الكمالُ
لا ذاك القَبولُ والإقبالُ
رضٌ تقطَعُ من جسمك الأوصالُ
فهناك العيشُ الهنيُّ الحلالُ
لم تَطِبْ لي مع ابنِ آدمَ حالُ

كان فيما مضى من الدهر بيتُ
يَطْعُمُ اللُّوزَ والفطيرَ ويُسقى
فأتى الكلبَ ذاتَ يومٍ يُناجيـ
قال يا صاحبَ الأمانةِ قل لي
فأجابَ الأمينُ وهو القَتولُ الصَّـ
سائلي عن حقيقةِ الناسِ عُذراً
إنما هم حِقْدٌ وغشٌّ وبُغْضُ
ليتَ شعري هل يستريحُ فؤادي
فرضاً البعض فيه للبعضِ سُخْطُ
ورضا الله نَرتجيه ولكن
لا يَغُرَّنكَ يا أخا البیدِ من مَو
أنت في الأسرِ ما سلِمْتَ فإن تَمـ
فاطلبِ البیدَ وارضْ بالعُشبِ قُوّاً
أنا لولا العظامُ وهي حياتي

الثعلب والديك

في شِعارِ الواعِظينا
ويَسُبُّ الماكِرينا
به إله العالمينا
فهو كهفُ التائبينا
عيشُ عيشِ الزاهدينَا
لصلاةِ الصُّبحِ فينا
من إمامِ الناسكِينا
وهو يَرجو أن يَلينا
يا أضلَّ المُهتدينَا

بَرَزَ الثعلبُ يوماً
فمَشى في الأرضِ يَهْذي
ويقولُ الحمدُ للـ
يا عبادَ الله توبُوا
وازهّدوا في الطيرِ إن الـ
واطلبوا الديكَ يُؤدِّنُ
فأتى الديكَ رسولُ
عرَضَ الأمرِ عليه
فأجابَ الديكُ عُذراً

بَلَّغَ الثَّعْلَبَ عَنِّي
عن ذوي التَّيْجَانِ مَمَّنْ
أَنَّهُمْ قَالُوا وَخَيْرُ الـ
«مُخْطِئُ مَنْ ظَنَّ يَوْمًا
عن جُدُودِي الصَّالِحِينَ
دخل البطنَ اللَّعِينَا
سَقُولِ قَوْلُ العَارِفِينَ
أَنْ لِلثَّعْلَبِ دِينَا»

النعجة وأولادها

اسمَعْ نَفَائِسَ مَا يَأْتِيكَ مِنْ حِكْمِي
كَانَتْ عَلَى زَعِمِهِمْ فِيمَا مَضَى غَنَمٌ
قَدْ نَامَ عَنْهَا فَنَامَتْ غَيْرَ وَاحِدَةٍ
أُمُّ الْفَطِيمِ وَسَعِدَ وَالْفَتَى عِلْفٌ
فَبَيْنَمَا هِيَ تَحْتَ اللَّيْلِ سَاهِرَةٌ
بَدَأَ لَهَا الذُّئْبُ يَسْعَى فِي الظَّلَامِ عَلَى
فَقَامَ رَاعِي الْحِمَى الْمَرْعِيُّ مُنْذِرًا
وَضَاقَ بِالذُّئْبِ وَجْهُ الْأَرْضِ مِنْ فَرَقٍ
فَقَالَتْ الْأُمُّ يَا لِلْفَخْرِ كَانَ أَبِي
إِذَا الرُّعَاةُ عَلَى أَغْنَامِهَا سَهَرَتْ

وَأَفْهَمَهُ فَهَمَ لَبِيبٍ نَاقِدٍ وَاعِي
بِأَرْضِ بَغْدَادَ يَزْعَى جَمْعَهَا رَاعِي
لَمْ يَدْعُهَا فِي الدِّيَاجِي لِلْكَرَى دَاعِي
وَابْنِ أُمِّهِ وَأَخِيهِ مُنْيَةِ الرَّاعِي
تُحْيِيهِ مَا بَيْنَ أَوْجَالٍ وَأَوْجَاعٍ
بُعْدٍ فَصَاحَتْ أَلَا قُومُوا إِلَى السَّاعِي
يَقُولُ أَيْنَ كِلَابِي أَيْنَ مِقْلَاعِي
فَانْسَابَ فِيهِ انْسِيَابَ الطَّيِّبِ فِي الْقَاعِ
حُرًّا وَكَانَ وَفِيًّا طَائِلَ الْبَاعِ
سَهَرْتُ مِنْ حُبِّ أَطْفَالِي عَلَى الرَّاعِي

الكلب والقط والفأر

فَأَرُّ رَأَى الْقِطَّ عَلَى الْجِدَارِ
وَالْكَلبُ فِي حَالَتِهِ الْمَعْهُودَةِ
فَحَاوَلَ الْفَأَرُ اغْتِنَامَ الْفُرْصَةِ
لَعَلَّهُ يَكْتَسِبُ بِالأَمَانِ
فَسَارَ لِلْكَلبِ عَلَى يَدَيْهِ
فَاشْتَغَلَ الرَّاعِي عَنِ الْجِدَارِ
مُبْتَهَجًا يَفْكُرُ فِي وَلِيمَةٍ
يَجْعَلُهَا لِخَطْبِهِ عِلَامَةً

مُعَذَّبًا فِي أَضْيَاقِ الْحِصَارِ
مُسْتَجِمِعًا لِلوُثْبَةِ الْمَوْعُودَةِ
وَقَالَ أَكْفِي الْقِطَّ هَذِي الْغُصَّةِ
لِي وَلِأَصْحَابِي مِنَ الْجِيرَانِ
وَمَكَّنَ التُّرَابَ مِنْ عَيْنَيْهِ
وَنَزَلَ الْقِطُّ عَلَى بِدَارِ
وَفِي فَرِيَسَةٍ لَهَا كَرِيمَةٍ
يَذْكُرُهَا فَيَذْكُرُ السَّلَامَةَ

فجاء ذاك الفأر في الأثناء
رأيت في الشدة من إخلاصي
وقد أتيت أطلب الأمانا
فقال حقًا هذه كرامة
يكفيك فخراً يا كريم الشيمة
وانقض في الحال على الضعيف
فقلت في المقام قولاً شاعا

وقال عاش القبط في هناء
ما كان منها سبب الخلاص
فامنن به لمعشري إحسانا
غنيمة وقبلاًها سلامة
أنك فأر الخطب والوليمة
يأكله بالملح والرغيف
«من حفظ الأعداء يوماً ضاعا»

سليمان والهدهد

وقف الهدهد في با
قال يا مولاي كُن لي
مت من حبة بُر
لا مياه النيل تُروى
وإذا دامت قليلاً
فأشار السيّد العا
قد جنى الهدهد ذنباً
تلك نار الإثم في الصّد
ما أرى الحبة إلا
إن للظالم صدرًا

ب سليمان بذلة
عيشتي صارت مُملة
أحدث في الصدر غلة
ها ولا أمواه رجلة
قتلتني شر قتلة
لي إلى من كان حوله
وأتى في اللوم فَعلة
ر وذي الشكوى تَعلة
سُرقت من بيت نملة
يشتكي من غير علة

سليمان والطاووس

سمعت بأن طاووسًا
يُجرر دون وفد الطيّ
ويظهر ريشه طورًا
فقال لديّ مسألة
وها قد جئت أعرضها

أتى يوماً سليمانا
ر أذبالاً وأردانا
ويخفي الريش أحياناً
أظن أوانها آنا
على أعتاب مولانا

رِ والأنوارِ مُزْدَانَا	أَلَسْتُ الرِّوَضَ بِالْأَزْهَا
فِ أَشْكَالًا وَأَلْوَانَا	أَلَمْ أُسْتَوْفِ آيَ الظَّرِّ
لِجَمْعِ الطَّيْرِ سُلْطَانَا	أَلَمْ أَصْبِحْ بِبَابِكُمْ
وَقَوْمِي الْغُرُّ أَوْثَانَا	فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ أَبْقَى
نَصِيبِي مِنْهُ جِرْمَانَا	فَحُسْنُ الصَّوْتِ قَدْ أَمْسَى
وَلَا أَسْكُرْتُ أَذَانَا	فَمَا تَيَمَّمْتُ أَفْئِدَةً
يَزِيدُ الصَّبَّ أَشْجَانَا	وَهَذِي الطَّيْرُ أَحْقَرُهَا
إِذَا مَا هَزَّ عِيدَانَا	وَتَهْتَزُّ الْمُلُوكُ لَهُ

* * *

لَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَا	فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ
وَجَلَّ صَنِيعُهُ شَانَا	تَعَالَتْ حِكْمَةُ الْبَارِي
رُ نَعْمَى اللَّهَ كُفْرَانَا	لَقَدْ صَغُرْتَ يَا مَغْرُو
بِهِ كِبَرًا وَطُغْيَانَا	وَمُلْكُ الطَّيْرِ لَمْ تَحْفَلْ
لَمَّا كَلَّمْتَ إِنْسَانَا	فَلَوْ أَصْبَحْتَ ذَا صَوْتٍ

الغصن والخنفساء

يَقُولُ جَلَّ الْوَاحِدُ الْمُنْفَرِدُ	كَانَ بَرَوْضُ غُصْنٍ نَاعِمٍ
وَمِثْلُ حُسْنِي فِي الْوَرَى مَا عَهْدُ	فَقَامَتِي فِي ظَرْفِهَا قَامَتِي
وَنَجْلُهَا يَمْشِي بِجَنْبِ الْكَبْدِ	فَأَقْبَلْتُ «خَنْفَسَةً» تَنْثَنِي
إِنَّ الَّذِي تَطَلَّبُهُ قَدْ وُجِدَ	تَقُولُ يَا زَيْنَ رِيَاضِ الْبَهَا
مَا دَامَ فِي الْعَالَمِ أُمَّ تَلِدُ	فَانْظُرْ لِقَدْ ابْنِي وَلَا تَفْتَحْزُرْ

القبرة وابنُها

تُطَيِّرُ ابْنَهَا بِأَعْلَى الشَّجَرَةِ	رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الرِّيَاضِ قُبْرَةَ
لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْجَنَاحِ الْهَشِّ	وَهِيَ تَقُولُ يَا جَمَالَ الْعُشِّ
وَافْعَلْ كَمَا أَفْعَلُ فِي الصُّعُودِ	وَقِفْ عَلَى عَوْدٍ بِجَنْبِ عَوْدِ

فانتقلت من فَنَنٍ إِلَى فَنَنٍ
 كي يَستريحَ الفَرخُ في الأَثْناءِ
 لكنَّه قد خالفَ الإِشارةَ
 وطار في الفضاء حتى ارتفعا
 فانكسرت في الحالِ رُكبتاهُ
 ولو تأنَّى نالَ ما تمنَّى
 لكلِّ شيءٍ في الحياةِ وقتُهُ
 وجعلتُ لكلِّ نَقْلَةٍ رَمَنُ
 فلا يَمَلُّ ثِقَلَ الهَواءِ
 لَمَّا أرادَ يُظهِرُ الشَّطارةَ
 فخانَه جَناحُه فوقعا
 ولم يَنلَ من العُلا مَناءُ
 وعاش طوَلَ عُمُرِه مُهنَّا
 وغايةُ المُستعجِلينَ فوئُهُ

النعجتان

كان لِبعضِ الناسِ نَعتانِ
 إحداهما سَمِينَةٌ والثانيةُ
 فكانتِ الأولى تُباهي بالسَّمنِ
 وتَدَّعي أن لها مِقدارا
 فتصيرُ الأُختُ على الإِذلالِ
 حتى أتى الجَزَّارُ ذاتَ يومٍ
 فقال للمالكِ أَشترِيتها
 فانطلقتُ من فورِها لأُختِها
 تقولُ يا أُختاهُ خَبِّريني
 قالت دَعيَني وهُزالي والزَّمنَ
 لكلِّ حالٍ حُلُوها ومُرُها
 وكانتا في الغيظِ ترعيانِ
 عَظامُها من الهُزالِ باديةً
 وقولُهم بأنَّها ذاتُ النَّمَنِ
 وأنها تستوقِفُ الأبصارا
 حاملةً مَراةَ الإِذلالِ
 وقلبَ النعجةِ دونَ القومِ
 ونَقَدَ الكيسَ النفيسَ فيها
 وهي تشكُّ في صلاحِ بختِها
 هل تعرفينَ حَاملَ السَّكينِ
 وكُلِّمي الجَزَّارَ يا ذاتَ النَّمَنِ
 ما أدبُ النعجةِ إلا صبرُها

السفينة والحيوانات

لَمَّا أَتَمَّ نوحُ السَّفينةَ
 جَرى بها ما لا جَرى بِبالٍ
 حتى مشى اللَّيْثُ مع الحمارِ
 واستمعَ الفيلُ إلى الخنزيرِ
 وجلسَ الهَرُّ بجانبِ الكلبِ
 وحرَّكتها القُدرةُ المُعينةُ
 فما تعالى الموجُ كالجِبَالِ
 وأخذَ القِطُّ بأيدي الفارِ
 مُوتِنَسًا بصوتِه النَّكيرِ
 وقَبَّلَ الخروفُ نابَ الذئبِ

وعطفَ البازُ على الغزالِ
وفلَّتِ الفرخةُ صُوفَ الثعلبِ
فذهبتِ سوابقُ الأحقادِ
حتى إذا حطُّوا بسَفْحِ الجُودي
عادوا إلى ما تَقْتَضِيهِ الشِّيمَةُ
فقسَّ على ذلك أحوالَ البَشَرِ
بَيْنَا ترى العالمَ في جهادِ
واجتمعَ النملُ على الأَكْالِ
وتيمَّ ابنُ عرسِ حُبِّ الأرنبِ
وظهرَ الأحبابُ في الأعادي
وأيقنوا بَعُودَةِ الوجودِ
ورجعوا للحالةِ القديمةِ
إن شِملَ المحذورُ أو عمَّ الخطرُ
إذ كلهم على الزمانِ العادي

القرد في السفينة

لم يَتَّفَقْ مما جرى في المَرَكِبِ
فإنه كان بأقصى السَّطحِ
وصاحَ: يا للطيرِ والأَسماكِ
فبعثَ النبي له النسورا
ثم أتى ثَانِيَةً يصيحُ
فأرسل النبي كُلَّ مَنْ حَصَرَ
وبينما السَّفِيهُ يَوْمًا يَلْعَبُ
فسمِعوه في الدُّجَى يَنُوحُ
سقطتُ من حماقتي في الماءِ
فلم يُصَدِّقْ أَحَدٌ صِيَاحَهُ
قد قال في هذا المقامَ مَنْ سَبَقُ
من كان مَمْنُوعًا بِدَاءِ الكَذِبِ
ككذبِ القردِ على نوحِ النبي
فاشتاقَ من خِفَتِهِ لِلْمَزَجِ
لِمَوْجَةٍ تَجِدُ في هلاكِي
فوجدته لاهيًّا مسرورا
قد تُقَبِّتَ مَرَكِبُنَا يا نوحُ
فلم يَرَوْا كما رأى القردُ خَطَرَ
جادت به على المِيَاهِ المَرَكِبُ
يقول إنني هالكٌ يا نوحُ
وصرتُ بين الأرضِ والسماءِ
وقيلَ حقًّا هذه وقاحةُ
أكذبُ ما يُلْفَى الكذوبُ إن صدَّقُ
لا يتركُ اللهَ ولا يُعْفِي نبي

نوح — عليه السلام — والنملة في السفينة

قد ودَّ نوحُ أن يُبَاسِطَ قَوْمَهُ
وأشار أن يَلِيَ السفينةَ قَائِدُ
فتقدَّمَ اللَّيْثُ الرَفِيعُ جَلالُهُ
وتلاهما باقي السَّبَاعِ وكلُّهم
فدعا إليه مَعَاشِرَ الحيوانِ
منهم يكونُ من النُّهى بَمكانِ
وتعرَّضَ الفيلُ الفَخِيمُ الشانِ
خرُّوا لهيبَتِهِ إلى الأَنْقَانِ

حتى إذا حيُّوا المؤيَّد بالهدى
سَبَقَتْهُمْ لِحِطَابِ نوحِ نَمْلَةٌ
قالت نبيُّ اللهِ أَرْضِي فَارِسُ
سَادِيرٌ يَفْتَتِهَا وَأَحْمِي أَهْلَهَا
ضَحِكَ النَّبِيُّ وَقَالَ إِنَّ سَفِينَتِي
كُلُّ الْفَضَائِلِ وَالْعِظَائِمِ عِنْدَهُ
ويودُّ لو سَاسَ الزَّمَانَ وما له
ودَعُوا بطولِ العِزِّ والإِمْكَانِ
كانت هناك بجانِبِ الأردانِ
وأنا يَقيِنًا فَارِسُ المِيدانِ
وأقودُها في عِصْمَةٍ وأمانِ
لِهي الحِياةُ وَأَنْتِ كالإنسانِ
هو أَوَّلُ والغَيْرِ فيها الثاني
بأقلِّ أَشْغالِ الزمانِ يَدانِ

الدُّبُّ فِي السَّفِينَةِ

الدُّبُّ معروفٌ بسوءِ الظنِّ
لَمَّا اسْتَطالَ المُكْتَفِ فِي السَّفِينَةِ
وقال إنَّ الموتَ في انتِظارِي
ثم رأى مَوْجًا على بُعْدِ عَلا
فقال لا بد من النَزولِ
قد قال من أدَبَهُ اخْتِبارُهُ
فأسْلَمَ النفسَ إلى الأمواجِ
فشَرِبَ التَّعيسُ مِنْها فانتَفَخَ
وبعدَ سَاعَتَيْنِ غِيَضَ المَاءُ
وكان في صاحِبِنَا بَعْضُ الرَّمَقِ
فلَمَحَ المَرْكَبُ فَوْقَ الجُودِي
فقال يا لَجْدَيِ التَّعيسِ
ما كان ضَرَرَنِي لو امْتَثَلْتُ
فاسمَعْ حديثَهُ العَجيبَ عَنِّي
مَلَّ دَوامَ العِيشَةِ الظَّنِينَةِ
والماءُ لا شَكَّ به قَرارِي
فظَنَّ أن في الفِضاءِ جِبالا
وصلَّتْ أو لم أَحْظُ بِالوَصُولِ
السَّعْيُ لِلْمَوْتِ ولا انتِظارُهُ
وهي مع الرِّياحِ في هِياجِ
ثم رَسا على القَرارِ ورَسَخَ
وأقْلَعَتْ بِأَمْرِه السَّمَاءُ
إذ جاءه الموتُ بَطِيئًا في الغَرَقِ
والرَّكْبُ في خَيْرٍ وفي سُعودِ
أَسأتُ ظَنِّي بالنَّبِيِّ الرَّئيسِ
ومِثْلَما قد فَعَلُوا فَعَلْتُ

الثَّعْلَبُ فِي السَّفِينَةِ

أبو الحُصَيْنِ جالَ في السَّفِينَةِ
يقول إن حالَهُ اسْتَحْلالا
فعرَفَ السَّمِينِ والسَّمِينَةِ
وإن ما كان قَدِيمًا زالا

لِكَوْنٍ مَا حَلَّ مِنَ الْمَصَائِبِ
وَيُغْلِظُ الْإِيمَانَ لِلدِّيُوكِ
بَأَنَّهُمْ إِنْ نَزَلُوا فِي الْأَرْضِ
قِيلَ فَلَمَّا تَرَكُوا السَّفِينَةَ
حَتَّى إِذَا مَا نَصَفُوا الطَّرِيقَا
وَقَالَ إِذْ قَالُوا عَدِيمُ الدِّينِ
فَإِنَّمَا نَحْنُ بَنِي الدَّهَاءِ
وَمَنْ تَخَافُ أَنْ يَبِيعَ دِينَهُ
مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَى الثَّعَالِبِ
لِمَا عَسَى يَبْقَى مِنَ الشُّكُوكِ
يَرَوْنَ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ يُرْضِي
مَشَى مَعَ السَّمِينِ وَالسَّمِينَةَ
لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ حَوْلَهُ رَفِيقَا
لَا عَجَبُ إِنْ حَنَنْتَ يَمِينِي
نَعْمَلُ فِي الشَّدَةِ لِلرَّخَاءِ
تَكْفِيكَ مِنْهُ صُحْبَةَ السَّفِينَةِ

الليث والذئب في السفينة

يُقَالُ إِنْ اللَّيْثَ فِي ذِي الشَّدَةِ
فَقَالَ يَا مَنْ صَانَ لِي مَحَلِّي
إِنْ عُدْتُ لِلْأَرْضِ بِإِذْنِ اللَّهِ
أَعْطِيكَ عَجَلَيْنِ وَأَلْفَ شَاةٍ
وَصَاحِبَ اللِّوَاءِ فِي الذُّنَابِ
حَتَّى إِذَا مَا تَمَّتِ الْكَرَامَةُ
سَعَى إِلَيْهِ الذُّنْبُ بَعْدَ شَهْرٍ
فَقَالَ يَا مَنْ لَا تُدَاسُ أَرْضُهُ
قَدْ نِلْتَ مَا نِلْتَ مِنَ التَّكْرِيمِ
قَالَ تَجَرَّأَتْ وَسَاءَ زَعْمُكَ
أَجَابَهُ إِنْ كَانَ ظَنِّي صَادِقَا
رَأَى مِنَ الذُّنْبِ صَفَا الْمَوْدَةِ
فِي حَالَتِي وَلَايَتِي وَعَزْلِي
وَعَادَ لِي فِيهَا قَدِيمُ الْجَاهِ
ثُمَّ تَكُونُ وَالِيَّ الْوَلَاةِ
وَقَاهِرَ الرِّعَاةِ وَالْكَلاِبِ
وَوِطَى الْأَرْضَ عَلَى السَّلَامَةِ
وَهُوَ مُطَاعُ النَّهْيِ مَاضِي الْأَمْرِ
وَمَنْ لَهُ طَوْلُ الْفَلَا وَعَرْضُهُ
وَذَا أَوَانُ الْمَوْعِدِ الْكَرِيمِ
فَمَنْ تَكُونُ يَا فَتَى وَمَا اسْمُكَ
فَإِنَّنِي وَالِيَّ الْوَلَاةِ سَابِقَا

الثعلب والأرنب في السفينة

أَتَى نَبِيَّ اللَّهِ يَوْمًا ثَعْلَبُ
قَدْ سَوَّدَتْ صَحِيفَتِي الذُّنُوبُ
فَاسْأَلْ إِلَهِي عَفْوَهِ الْجَلِيلَا
وَإِنِّي وَإِنْ أَسَأْتُ السَّيِّرَا
فَقَالَ يَا مُوَلَايَ إِنِّي مُذْنِبُ
وَإِنْ وَجَدْتُ شَافِعًا أَتُوبُ
لِتَائِبٍ قَدْ جَاءَهُ ذَلِيلَا
عَمِلْتُ شَرًّا وَعَمِلْتُ خَيْرَا

فقد أتانِي ذاتَ يومِ أرنُبُ
ولم يَكُنْ مُراقِبُ هُنالِكا
إذ عَفْتُ في افتراسه الدَّناءةَ
وكان في المجلسِ ذاك الأرنُبُ
فقال لَمَّا انقطعَ الحديثُ
وأنتَ بينَ الموتِ والحياةِ
يرتَعُ تحتَ منزلي ويلعبُ
لكنني تركتُهُ معَ ذلِكا
فلم يَصِلْهُ من يدي مَساءةٌ
يَسْمَعُ ما يُبْدي هناك الثعلبُ
قد كان ذاك الزُّهدُ يا خبيثُ
من تُخْمَةُ أَلَقَتِكَ في الفلاةِ

الأرنب وبنت عرس في السفينة

قد حَمَلَتْ إحدى نِسا الأرنبِ
فقلِقَ الرُّكَّابُ من بكائها
جاءت عَجُوزٌ من بَناتِ عرسِ
أنا التي أُرْجى لَهْذي الغايةِ
فقالَتِ الأرنبُ لا يا جارةِ
ما لي وثوقٌ ببَناتِ عرسِ
وحلَّ يومٌ وضعِها في المَرَكِبِ
وبينما الفتاةُ في عَنائِها
تقولُ أَفْدي جَارَتِي بِنَفْسِي
لأنني كُنْتُ قَدِيمًا «دايَّة»
فإن بَعْدَ الألفَةِ الزيارةِ
إنني أريدُ دايَّةً من جنسِي

الحمار في السفينة

سقط الحِمَارُ من السفينة في الدُّجى
حتى إذا طلعَ النهارُ أَتَتْ به
قالت خُذوه كما أَتاني سالِمًا
فبكى الرِّفَاقُ لِفَقْدِهِ وَتَرَحَّموا
نحوَ السفينةِ مَوْجَةً تَتَقَدَّمُ
لم أَبْتَلِعه لأنه لا يُهْضَمُ

سليمان — عليه السلام — والحمامة

كان ابنُ داوودَ يُقَرِّ
خَدَمَتَهُ عُمَرًا مِثْلَما
فمَضَتْ إلى عُمَّالِهِ
والكُتُبُ تحتَ جَنَاحِها
فأَرادَتِ الحمقاءُ تَعـ
بُ في مَجالِسِهِ حمامة
قد شاءَ صِدْقًا واستقامة
يومًا تُبَلِّغُهُم سَلامَهُ
كُتِبَتْ لَها فيها الكرامة
رَفُ من رِسايلِهِ مَرَامَهُ

عمدت لأولها وكا
فرائته يأمر فيه عا
ويقول وفوها الرعا
ويشير في الثاني بأن
وأنت لثالثها ولم
فرائته يأمر أن تكو
فبغت لذاك تندما
وأنت نبى الله وهـ
قالت فقدت الكتب يا
لتسرعي لما أتا
فأجاب بل جئت الذي
لكن كفاك عقوبة

ن إلى خليفته برامة^٨
ملكه بتاج للحمامة
ية في الرحيل وفي الإقامة
تُعطي رياضاً في تهامة^٩
تستحي أن فضت ختامه
ن لها على الطير الزعامة
هيهات لا تجدي الندامة
سي تقول يا رب السلامة
مولاي في أرض اليمامة^{١٠}
ني البار يدفعني أمامه
كادت تقوم له القيامة
من خان خائنه الكرامة

الأسد والضفدع

انفع بما أعطيت من قدرة
إذ كيف تسمو للعلا يا فتى
عندي لهذا نبأ صادق
قالوا استوى الليث على عرشه
وقيل للسُلطان هذي التي
تُنقِنق الدهر بلا علة
فانظر إليك الأمر في ذنبها
فنهض الفيل وزيّر العلا
لا خير في الملك وفي عزه
فكتب الليث أماناً لها

واشفع لذي الذنب لدى المجمع
إن أنت لم تنفع ولم تشفع
يُعجب أهل الفضل فاسمع وع
فجيء في المجلس بالضفدع
بالأمس آذت عالي المسمع
وتدعي في الماء ما تدعي
ومر نعلقها من الأربع
وقال يا ذا الشرف الأرفع
إن ضاق جاء الليث بالضفدع
وزاد أن جاد بمستنقع

^٨ رامة وتهامة واليمامة: أمكنة.

^٩ رامة وتهامة واليمامة: أمكنة.

^{١٠} رامة وتهامة واليمامة: أمكنة.

النملة الزاهدة

وقائدٌ يَهْدِيهِ للسَّعَادَةِ
واللَّهُ لِلسَّاعِينَ نِعْمَ الْعَوْنُ
تُعَدُّ فِي هَذَا الْمَقَامِ غَايَةً
لَمْ تَسْلُ يَوْمًا لَذَّةَ الْبَطَالَةِ
وَاتَصَفَتْ بِالزَّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ
فَالْبَطْنُ لَا تَمْلُؤُهُ الصَّلَاةُ
وَنَمَلْتِي شَقَّ عَلَيْهَا الدَّأْبُ
وَجَعَلْتُ تَطَوُّفُ بِالْبُيُوتِ
تُنْعِمُ بِالْقَوْتِ لَذِي الْوَلِيَّةِ
وَمُنْذُ لَيْلَتَيْنِ لَمْ أُسَبِّحْ
لَمْ تَتْرِكِ النَّمْلَةُ لِلصَّرِصَارِ
مَتَى مَدَدْنَا الْكَفَّ لِلسُّؤَالِ
ذَا تُ اشْتَهَارُ بِعُلُوِّ الْهَمَّةِ
عَنْ بَعْضِهِ لَوْ أَنَّهَا نِمَالُ
مَا عِنْدَنَا لِسَائِلِ جَوَابِ
نَرَى كَمَالَ الزَّهْدِ أَنْ تَصُومِي

سَعْيُ الْفَتَى فِي عَيْشِهِ عِبَادَةٍ
لَأَنَّ السَّعْيَ يَقُومُ الْكُونُ
فَإِنْ تَشَأْ فَهَذِهِ حِكَايَةٌ
كَانَتْ بِأَرْضِ نَمْلَةٍ تَنْبَالَةٍ
وَاشْتَهَرَتْ فِي النَّمْلِ بِالتَّقَشُّفِ
لَكِنْ يَقُومُ اللَّيْلَ مِنْ يَفَقَاتٍ
وَالنَّمْلُ لَا يَسْعَى إِلَيْهِ الْحَبُّ
فَخَرَجَتْ إِلَى التَّمَاسِ الْقَوِيَّ
تَقُولُ هَلْ مِنْ نَمْلَةٍ نَقِيَّةٍ
لَقَدْ عَيَّيْتُ بِالطَّوَى الْمُبْرِجِ
فَصَاحَتِ الْجَارَاتُ يَا لِلْعَارِ
مَتَى رَضِينَا مِثْلَ هَذَا الْحَالِ
وَنَحْنُ فِي غَيْنِ الْوُجُودِ أُمَّةٌ
نَحْمِلُ مَا لَا يَصْبِرُ الْجِمَالُ
أَلَمْ يَقُلْ مِنْ قَوْلِهِ الصَّوَابُ
فَامْضِي فَإِنَّا يَا عَجُوزَ الشُّومِ

اليمامة والصياد

أَمْنَةٌ فِي عُشِّهَا مُسْتَتِيرَةٌ
وَحَامَ حَوْلَ الرُّوْضِ أَيَّ حَوْمٍ
وَهُمْ بِالرَّحِيلِ حِينَ مَلَأَ
وَالْحُمُقُ دَاءٌ مَا لَهُ دَوَاءُ
يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَمَّ تَبْحَثُ
وَنَحْوَهُ سَدَّدَ سَهْمَ الْمَوْتِ
وَوَقَعَتْ فِي قَبْضَةِ السَّكِينِ
«مَلَكْتُ نَفْسِي لَوْ مَلَكْتُ مَنْطِقِي»

يِمَامَةٌ كَانَتْ بِأَعْلَى الشَّجَرَةِ
فَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ ذَاتَ يَوْمٍ
فَلَمْ يَجِدْ لِلطَّيْرِ فِيهِ ظِلًّا
فَبَرَزَتْ مِنْ عُشِّهَا الْحَمَقَاءُ
تَقُولُ جَهْلًا بِالَّذِي سَيَحْدُثُ
فَالْتَفَتَ الصَّيَّادُ صَوْبَ الصَّوْتِ
فَسَقَطَتْ مِنْ عَرْشِهَا الْمَكِينِ
تَقُولُ قَوْلَ عَارِفٍ مُحَقِّقٍ

الكلب والحمامة

حكايةُ الكلبِ معَ الحمامة
يُقالُ كانَ الكلبُ ذاتَ يومٍ
فجاءَ من ورائه الثعبانُ
وهمَّ أن يَغْدِرَ بالأَمِينِ
ونزلتُ تَوًّا تُغِيثُ الكلبا
فحمِدَ اللّهُ على السّلامةِ
إذ مرَّ ما مرَّ من الزّمانِ
فسبقَ الكلبُ لتلك الشجرة
واتَّخَذَ النّبحَ له علامة
وأقلعتُ في الحالِ للخلاصِ
هذا هو المعروفُ يا أهلَ الفطنِ

تشهدُ للجنسَيْنِ بالكرامةِ
بينَ الرِّياضِ غارقًا في النّومِ
مُنْتَفِحًا كأنه الشيطانُ
فرقَّتِ الورقَاءُ للمِسْكِينِ
ونقَرَتِه نقرَةً فهبًّا
وحفِظَ الجميلَ للحمامةِ
ثم أتى المالكُ للبُستانِ
لِيُنْذِرَ الطيرَ كما قد أنذرهُ
ففهَمتُ حديثَه الحمامةِ
فسلّمتُ من طائرِ الرّصاصِ
الناسُ بالناسِ ومن يُعِنُ يُعِنُ

الكلب والبغاء

كانَ لبعضِ الناسِ بَبْغاءُ
رفيعةُ القَدْرِ لدى مولاها
وكانَ في المنزلِ كلبٌ عالي
كذا القليلُ بالكثيرِ يَنْقُصُ
فجاءها يومًا على غرارِ
وقال يا مليكة الطيورِ
بحسَنِ نَطَقِكَ الذي قد أصبى
لأنني قد حِرْتُ في التفكُّرِ
فأخرجتُ من طيشِها لسانها
ثم مضى من قَورِهِ يصيحُ
وما لها عندي من ثأرٍ يُعد

ما ملَّ يومًا نَطَقَها الإصغاءُ
وكلُّ من في بيتِه يهواها
أرَخَصَه وجودُ هذا الغالي
والفضلُ بعضُه لبعضِ مُرْخِصُ
وقلبُه من بُغْضِها في نارِ
ويا حياةَ الأنسِ والسرورِ
إلا أريتَنِي اللسانَ العَذْبَا
لَمَّا سمعتُ أنه من سُكَّرِ
فعَضَّه بِنايه فشأنها
قَطَعَتْهُ لأنّه فصيحُ
غيرَ الذي سَمَّوه قَدَمًا بالحسدِ

الحمار والجمل

كان لبعضهم حمارٌ وجملٌ
فانتظرا بِشائرِ الظُّلَماءِ
يَجْتَلِيانِ طلعةَ الحُرِّيَّةِ
فاتَّفقا أن يَقضيا العُمُرَ بها
وبعدَ ليلةٍ من المَسِيرِ
وقال كَرَبٌ يا أخِي عَظِيمُ
فقال سَلْ فِدَاكَ أُمِّي وأَبِي
قال: انطَلِقْ مَعِي لِإِدْرَاكِ المُنَى
لا بد لي من عَودةٍ لِلبَلَدِ
فقال سِرْ والزَّمْ أَخَاكَ الوَتِدَا

نالهما يومًا من الرِّقِّ مَلَلٌ
وانطَلقا مَعًا إلى البِيداءِ
وَيَنْشَقانِ رِيحَها الزَكِيَّةَ
وارتَضيا بِماءِها وَعُشْبِها
التفتَ الحِمَارُ لِلبَعِيرِ
فَقِفْ فَمَشِيي كُلُّهُ عَقِيمُ
عسى تَنالُ بي جَليلَ المَطْلَبِ
أو انتَظِرْ صاحِبَكَ الحَرَّ هُنا
لأنني تَرَكْتُ فيه مَقودِي
فإنما خُلِقْتَ كي تُقَيِّدَا!

دودة القزِّ والدودة الوضاعة

لِدودةِ القَزِّ عِنْدِي
حكايةٌ تَشْتَهِيها
لَمَّا رَأَتْ تلكَ هَذي
سَعَتْ إِلَيْها وَقالت
أنا المَوْمِلُ نَفْعِي
حَلا لِي النَفْعُ حَتى
وَقَد أَتَيْتُ لِأَحْظَى
فَهَل لِنُورِ الثَّرَى فِي
قالت عَرَضَتْ عَلَينا
مَنْ أَنْتِ حَتى تُدَانِي
أنا البَدِيعُ جَمالِي
أَيْن الكَوَاكِبُ مِنِّي
فامْضِي فلا وَدَّ عِنْدِي

وَدودةِ الأَضْواءِ
مَسامعُ الأَذْكياءِ
تُنِيرُ فِي الظُّلَماءِ
تَعِيشُ ذَاتُ الضِّيَاءِ
أنا الشَّهيرُ وفائِي
رَضِيتُ فِيهِ فَنائِي
بِوَجْهِكَ الوَضَّاءِ
مَوَدَّتِي وإِخائِي
وَجْهاً بِغَيرِ حِياهِ
ذاتُ السَّنا والسَّناءِ
أنا الرِّفيعُ عَلايِي
بَلْ أَيْنَ بَدْرُ السَّماهِ
إِذ لَسْتُ مِنْ أَكْفائِي

وعند ذلك مرّت
تقول لله ثوبي
كم عندنا من أيادٍ
ثم انثنت فأنت ذي
هل عندك الآن شكٌ
وقد رأيت صنيعي
إن كان فيك ضياءٌ
وإنه لضياءٌ

حسناً مع حسناءٍ
في حسنه والبهاءِ
للدودة الغراءِ
تقول للحمقاءِ
في رُتبتي القعساءِ
وقد سمعتِ ثنائِي
إن الثناءَ ضيائي
مؤيّد بالبقاءِ

الجمل والثعلب

كان على بعض الدُروبِ جملٌ
فقال يا للنَّحسِ والشقاءِ
لم تحمِلِ الجبالُ مثلَ جملي
فجاءه الثعلبُ من أمامه
فقال مهلاً يا أبا الأحمالِ
فأنت خيرٌ من أخيك حالا
كأن قدامي ألفَ ديكٍ
كأن خلفي ألفَ أرنبٍ
ورُبَّ أمٍّ جئتُ في مُناخها
يبعثني من مرقدي بُكاها
وقد عرفتُ خافيَ الأحمالِ
ليس بجملٍ ما يملُ الظهرُ

حمّله المالكُ ما لا يُحمَلُ
إن طال هذا لم يطلُ بقائي
أظنُّ مولاي يُريد قتلي
وكان نالَ القصدَ من كلامه
ويا طويلَ الباعِ في الجمالِ
لأنني أتعبُ منك بالا
تسألني عن دمها المسفوكِ
إذا نهضتُ جاذبتني ذنبي
فجعتُها بالفتكِ في أفرأها
وأفتحُ العينَ على شكواها
فاصبرِ وقُلْ لأُمّةِ الجمالِ
ما الحملُ إلا ما يُعاني الصّدْرُ

الغزالة والأتان

غزالةٌ مرّت على أتانٍ
وكان خلفَ الظبيةِ ابنُها الرّشا
ففعلتُ بسيدِ الصُّغارِ

تُقبّلُ الفطيمَ في الأسنانِ
بوّدها لو حملته في الحشا
فعلَ الأتانِ بابنِها الحمارِ

فأسرع الحمارُ نحوَ أمِّه
وجاءها والضَّحْكُ ملءٌ فمِه
يُصيحُ يا أمَّاه ماذا قد دها
حتى الغزاةُ استخفَّتِ ابنها

الثعلب الذي انخدع

قد سمِعَ الثعلبُ أهلَ القرى
فقال حقًّا هذه غايَةُ
من في النهيِ مثلي حتى الورى
ما ضَرَّ لو وافيتهم زائراً
لعلَّهم يُحيون لي زينةً
وقصدَ القومَ وحيَّاهمُ
فأخذَ الزائرُ من أذنيه
فلا تَثِقْ يوماً بِذي حيلةٍ

يَدْعُونَ مُحْتالاً بيا ثعلبُ
في الفخرِ لا تُؤتى ولا تُطلبُ
أُصِبتُ فيهم مَثلاً يُضربُ
أريهم فوقَ الذي استغربوا
يَحضرُها الديكُ أو الأرنبُ
وقام فيما بينهم يخطُبُ
وأعطى الكلبَ به يلعبُ
إذ ربما يَنخدعُ الثعلبُ

ثُعالة والحمار

أتى ثُعالةً يوماً
وقال إن كنتَ جاري
قُلْ لي فإنِّي كَثيبُ
في موكبِ الأَمْسِ لَمَّا
طرحتُ مولاي أرضاً
وهل أتيتُ عظيمًا

من الضواحي حمارُ
حقًّا ونِعَمَ الجارُ
مُفكِّرُ مُحْتارُ
سرنا وسارَ الكِبَارُ
فهل بذلك عارُ
فقال لا يا حمارُ

البغل والجواد

بَغْلٌ أتى الجوادَ ذاتَ مَرَّةٍ
فقال فضلي قد بدا يا خَلِي
إذ كنتَ أَمْسٍ ماشيًا بجانبِي
أُختالُ حتى قالتِ العِبادُ

وقلبه مُمتلئٌ مَسرَّةٍ
وَأَنَّ أن تعرفَ لي مَحَلِّي
تعجَّبُ من رقصي تحتَ صاحبي
لَمَن من الملوِكِ ذا الجوادُ

وقال بالمعهود من دلاله
لكن سمعت نكرة المِهماز

فَضَحَكَ الحِصَانُ من مَقَالِهِ
لم أَرِ رَقَصَ البَغْلِ تحتَ الغَازِي

الفأرة والقط

شَقِيقُهَا يَنْعَى لَهَا فَتَاهَا
من سَلَطَ القِطُّ على ابنِ أُخْتِي
وَجَمَعَتِ للمَأْتَمِ الأتْرَابَا
لا خَيْرَ لي بَعْدَكَ في الحَيَاةِ
يُريحُنِي من ذَا العَذَابِ المُرِّ
يَسْمَعُ مَا تُبْدي وما تُعِيدُ
إِن الذي دَعَوْتُ قد لَبَّأكَ
واعْتَصَمْتَ مِنْهُ بِنَيْتِ الجَارَةِ
إِن مِتُّ بَعْدَ ابْنِي فَمَنْ يَبْكِيهِ

سَمِعْتُ أَنَّ فَأْرَةً أَتَاهَا
يَصِيحُ يَا لي من نُحُوسِ بَخْتِي
فَوَلُولْتُ وَعَضَّتِ التُّرَابَا
وَقَالَتِ اليَوْمَ انْقَضَتْ لَذَاتِي
من لي بِهِرٌ مِثْلُ ذَاكَ الهِرِّ
وكانَ بالقُرْبِ الذي تَريدُ
فجاءها يَقولُ يَا بُشْرَاكَ
فَفَزَعَتْ لَمَّا رَأَتْهُ الفَارَةَ
وأَشْرَفْتُ تَقولُ لِلسَّفِيهِ

الغزال والخروف والتَّيس والذئب

وقال كُلُّ إِنَّهُ الظَّرِيفُ
أَعْطَاهُ عَقْلاً من أَطَالَ ذَنْهُ
عن حَكَمٍ لَهُ اعتَبَارٌ في المَلَا
عَسَاهُ يُعْطِي الحَقَّ مُسْتَحَقَّهُ
مُفْتَخِرًا بِثِقَةِ الإِخْوَانِ
تَرَفُّعُ شَأْنِ التَّيْسِ في العَشِيرَةِ
بالصِّدْقِ مَا جَاءَ مِنَ الأَعْدَاءِ
لا يَسْتَطِيعَانِ لَهُ تَكْذِيبَا
وَلَيْسَ يُلْقِي لِلخُرُوفِ بِالَا
أَنْتَ فِسرٌ مَعِيَ وَخُذْ بِلِحْيَتِي
فَقَامَ بَيْنَ الظُّبْيِ وَالخُرُوفِ

تَنَازَعَ الغَزَالُ وَالخُرُوفُ
فَرَأَى التَّيْسَ فَظَنًّا أَنَّهُ
فَكَلَّفَاهُ أَنْ يُفْتِّشَ الفَلَا
يَنْظُرُ فِي دَعَوَاهُمَا بِالدَّقَّةِ
فَسَارَ لِلبَحْثِ بِلَا تَوَانِي
يَقولُ عِنْدِي نَظْرَةٌ كَبِيرَةٌ
وَذَاكَ أَنْ أَجْدَرَ التَّنْأَاءِ
وَإِنِّي إِذَا دَعَوْتُ الذِّيبَا
لِكونِهِ لَا يَعْرِفُ الغَزَالَا
ثُمَّ أَتَى الذِّيبَ فَقَالَ طَلَبْتِي
وَقَادَهُ لِلْمَوْضِعِ المَعْرُوفِ

وقال لا أحمكم حسبَ الظاهرِ
وقال للتيس انطلقِ لِشأنِكا
فمزَّقَ الطَّبَّيَّينِ بالأظافرِ
ما قَتَلَ الحَصَمِينَ غيرُ ذقنكا

الثعلب والأرنب والديك

من أعجب الأخبار أن الأرنبا
وهو على الجدار في أمان
داخله الظن بأن الماكرا
فجاءه يلعن مثل الأول
فعصف الثعلب بالضعيف
وقال لي في دمك المسفوك
فالتفت الديك إلى الذبيح
ما كلنا ينفعه لسانه
لما رأى الديك يسب الثعلبا
يغلب بالمكان لا الإمكان
أمسى من الضعف يطيق الساخرا
عداد ما في الأرض من مغفل
عصف أخيه الذيب بالخروف
تسلياً عن خيبتني في الديك
وقال قول عارف فصيح
في الناس من يُنطقه مكانه

الثعلب وأم الذئب

كان ذئب يتغذى
ألزمته الصوم حتى
فأتى الثعلب يبكي
قال يا أم صديقي
فاصبري صبراً جميلاً
فأجابت يا ابن أختي
ما بي الغالي ولكن
ليته مثل أخيه
فجرت في الزور عظمة
فجعت في الروح جسمه
ويُعزي فيه أمه
بي ممّا بك غمة
إن صبر الأم رحمة
كل ما قد قلت حكمة
قولهم مات بعظمة
مات محسوداً بتخمة

ديوان الأطفال

مجموعة من الشعر السهل، نظمها لتكون للأطفال أدبًا وثقافة.

الهرة والنظافة

هَرَّتِي جِدُّ أَلِيفَةَ	وهي للبيتِ حليفة
هي ما لم تتحرَّكْ	دُمِيَّةُ الْبَيْتِ الظَّرِيفَةُ
فإذا جاءت وراحت	زَيْدٌ فِي الْبَيْتِ وَصِيفَةُ
شُغْلُهَا الْفَارُ تُنْقِي الرَّ	فَ مِنْهُ وَالسَّقِيفَةُ
وتقومُ الظهرَ والعصـ	رَ بِأَوْرَادِ شَرِيفَةِ
ومن الأثوابِ لم تمـ	لِكَ سَوَى فِرِّو قَطِيفَةِ
كلما استوسخَّ أو آ	وَى الْبِرَاغِيثِ الْمُطِيفَةِ
غَسَلَتْهُ وَكَوَتْهُ	بِأَسَالِيبَ لَطِيفَةِ
وَحَدَّتْ مَا هُوَ كَالْحَمَّا	مِ وَالْمَاءِ وَظِيفَةِ
صَبَّرَتْ رِيْقَتَهَا الصَّا	بُونَ وَالشَّارِبَ لِيْفَةِ
لَا تَمَرَّنْ عَلَى الْعِيـ	نِ وَلَا بِالْأَنْفِ جِيفَةِ
وتعوِّدْ أَنْ تُلَاقِي	حَسَنَ الثَّوْبِ نَظِيفَهُ
إنما الثَّوْبُ عَلَى الْإِنـ	سَانَ عُنْوَانُ الصَّحِيفَةِ

الجدة

لي جَدَّةُ تَرَأْفُ بي
وكلُّ شيءٍ سَرَّنِي
إِنْ غَضِبَ الأهلُ عَلَيَّ
مَشَى أَبِي يَوْمًا إِلَيَّ
غَضَبَانٌ قَدْ هَدَّدَ بالضِّ
فلم أَجِدْ لي منه غِيـ
فجَعَلْتَنِي خَلْفَهَا
وهي تقولُ لأبي
ويحُّ له ويحُّ لِهـ
ألم تَكُنْ تصنعُ ما

أُحْنِي عَلَيَّ من أَبِي
تذهبُ فيه مَذْهَبِي
كلُّهم لم تَغْضِبِ
مَشِيَّةَ المؤدِّبِ
رَبِّ وَإِنْ لم يَضْرِبِ
رَجَدْتِي من مَهْرِبِ
أُنْجُو بها وأختبي
بَلَهْجَةِ المؤنِّبِ
هذا الولدِ المُعَذِّبِ
يصنعُ إذ أنت صبي

الوطن

عُصفورتانِ في الجِجَا
في خَامِلٍ من الرِّيا
بينَا هُمَا تَنْتَجِيَا
مَرَّ عَلَى أَيْكِهِمَا
حَيًّا وَقَالَ دُرَّتَا
لقد رَأَيْتُ حَوْلَ صَنَدِ
خَمَائِلًا كَأَنَّهَا
الْحَبُّ فِيهَا سُكَّرُ
لم يَرَهَا الطَّيْرُ ولم
هَيَّا اركباني نَأْتَهَا
قالت له إِحْدَاهُمَا
يا رِيحُ أَنْتَ ابْنُ السَّبَبِ
هَبْ جَنَّةَ الخُلْدِ اليَمَنِ

زِ حَلَّتَا عَلَى فَنَنِ
ضِ لا نَدِ ولا حَسَنِ
نِ سَحَرًا عَلَى الغُصَنِ
رِيحُ سَرَى من اليَمَنِ
نِ فِي وِعَاءٍ مُمْتَهَنِ
عَاءَ وَفِي ظِلِّ عَدَنِ^١
بَقِيَّةً من ذِي يَزَنِ^٢
والماءُ شُهِدُ وَلَبَنُ
يَسْمَعُ بها إِلا افْتَتَنُ
فِي سَاعَةٍ من الزَّمَنِ
والطَّيْرُ مِنْهُنَّ الفَطِنُ
لِ ما عَرَفْتَ ما السَّكَنِ
لا شيءَ يَعدِلُ الوَطَنُ

^١ صنعاء وعدن: من بلاد اليمن.

^٢ ذو يزن: من ألقاب ملوك اليمن في التاريخ القديم.

الرفق بالحيوان

الحيوانُ خَلُقَ	له عليك حَقُّ
سَخَّرَهُ اللهُ لَكَ	وللعِبَادِ قَبْلَكَ
حَمُولَةً الْأَثْقَالِ	وَمُرْضَعُ الْأَطْفَالِ
وَمُطْعِمُ الْجَمَاعَةِ	وَحَايِمُ الزَّرَاعَةِ
مَنْ حَقَّهُ أَنْ يُرْفَقَا	به وَأَلَا يُرْهَقَا
إِنْ كَلَّ دَعَهُ يَسْتَرْحِ	وداوه إِذَا جُرِحَ
وَلَا يَجْعُ فِي دَارِكََا	أَوْ يَظْمُ فِي جَوَارِكََا
بِهَيْمَةٍ مِسْكِينُ	يشكو فَلَا يُبَيِّنُ
لسانهُ مَقْطُوعُ	وما له دُمُوعُ

الأمُّ

لَوْلَا التَّقَى لَقَلْتُ لَمْ	يَخْلُقُ سِوَاكَ الْوَلَدَا
إِنْ شِئْتَ كَانَ الْعَيْرُ أَوْ	إِنْ شِئْتَ كَانَ الْأَسَدَا
وَأِنْ تُرِدْ غِيًّا غَوَى	أَوْ تَبِغْ رُشْدًا رَشَدَا
وَالْبَيْتُ أَنْتَ الصَّوْتُ فِيهِ	ه وَهُوَ لِلصَّوْتِ صَدَى
كَالْبَبِّغَا فِي قَفْصِ	قِيلَ لَهُ فَقَلَّدَا
وَكَالْقَضِيبِ اللَّذْنِ قَدْ	طَاوَعَ فِي الشَّكْلِ الْيَدَا
يَأْخُذُ مَا عَوَّدَتْهُ	وَالْمَرْءُ مَا تَعَوَّدَا

ولد الغراب

وَمُمَهِّدٍ فِي الْوَكْرِ مِنْ	وَلَدِ الْغُرَابِ مُزَقِّقِ
كَرْوَيْهَبٍ مُتَقَلِّسِ	مُتَأَزِّرٍ مُتَنَطِّقِ ^٣

^٣ رويهب: راهب صغير. والمتقلِّس والمتأزِّر والمتنطِّق: الذي يلبس القلنسوة والإزار والنطاق، كالرهبان.

لَيْسَ الرَّمَادَ عَلَى سَوَا
كَالْفَحْمِ غَادَرَ فِي الرَّمَا
ثُلُثَاهُ مِنْقَارٌ وَرَأَى
ضَخْمُ الدَّمَاعِ عَلَى الْخُلُوِّ
مَنْ أُمِّهِ لِقَى الصَّغِيرِ
جَلَبَتَ عَلَيْهِ مَا تَذُو
فُتِنَتْ بِهِ فَتَوَهَّمَتْ
قَالَتْ كَبِرَتْ فَثَبَّ كَمَا
وَرَمَتْ بِهِ فِي الْجَوِّ لَمْ
فَهَوَى فَمَزَّقَ فِي فِنَا
وَسَمِعَتْ قَاقَاتٍ تُرَدُّ
وَرَأَيْتُ غَرِبَانًا تَفَرُّ
وَعَرَفْتُ رَنَّةَ أُمِّهِ
فَأَشْرَتْ فَالْتَفَتَتْ فَقُلِّ
أَطْلَقْتَهُ وَلَوْ امْتَحَنَ
وَكَمَا تَرَفَّقَ وَالِدَا

دِ جَنَاحِهِ وَالْمَفْرِقِ
دِ بَقِيَّةً لَمْ تُحَرِّقِ
سُ وَالْأُظَافِرُ مَا بَقِيَ
مِنْ الْحِجَا وَالْمَنْطِقِ
رُ مِنْ الْبَلِيَّةِ مَا لَقِيَ
دُ الْأُمُّهَاتُ وَتَتَّقِي
فِيهِ قُوَى لَمْ تُخْلَقِ
وَثَبَ الْكِبَارُ وَحَلَّقِ
تَحَرَّضَ وَلَمْ تَسْتَوِثِقِ
ءِ الدَّارِ شَرُّ مُمَزَّقِ
دُ فِي الْفَضَاءِ وَتَرْتَقِي
قُ فِي السَّمَاءِ وَتَلْتَقِي
فِي الصَّارِخَاتِ النُّعَقِ
سَتْ لَهَا مَقَالَةٌ مُشْفِقِ
سَتْ جَنَاحَهُ لَمْ تُطْلِقِي
كِ عَلَيْكِ لَمْ تَتَرَفَّقِي

النَّيْلُ

النَّيْلُ الْعَذْبُ هُوَ الْكَوْثَرُ
رِيَّانُ الصَّفْحَةِ وَالْمَنْظَرُ
الْبَحْرُ الْفَيَاضُ الْقُدْسُ
وَهُوَ الْمِنْوَالُ لِمَا لَبِسُوا
جَعَلَ الْإِحْسَانَ لَهُ شَرْعًا
فَتَرَى زَرْعًا يَتَلَوُ زَرْعًا

وَالْجَنَّةُ شَاطِئُهُ الْأَخْضَرُ
مَا أَبْهَى الْخُلْدَ وَمَا أَنْضَرُ
السَّاقِي النَّاسُ وَمَا غَرَسُوا
وَالْمُنْعِمُ بِالْقَطَنِ الْأَنْوَرُ
لَمْ يُخَلِّ الْوَادِيَّ مِنْ مَرْعَى
وَهْنَا يُجْنَى وَهْنَا يُبَذَّرُ

٤ القاقات: نعيق الغربان.

جار ويُرى ليس بجار
يَنْصَبُ كَتَلٌ مُنْهَارٍ
حبشيُّ اللَّونِ كَجِيرَتِهِ
صَبَغَ الشَّطِينَ بِسُمْرَتِهِ
لأُناةٍ فيه ووقارٍ
ويَضِجُ فَتَحْسَبُهُ يَزَارُ
من مَنبَعِهِ وَبُحَيْرَتِهِ
لونا كالمِسكِ وكالعنبرِ

المدرسة

أنا المدرسةُ اجعلني
ولا تفرِّعْ كماخوذٍ
كأني وجهُ صيَّادٍ
ولا بد لك اليومَ
أو استغنِ عن العقلِ
أنا المصباحُ للفكرِ
أنا البابُ إلى المجدِ
غداً ترتعُ في حوشي
وَأَلْقَاكَ بِإِخْوَانٍ
تُناديهم بيا فكري
وَأَبَاءٍ أَحَبُّوكَ
كأُمٍّ لا تَمِلُ عَنِّي
من البيتِ إلى السَّجِنِ
وأنتَ الطيرُ في الغُصَنِ
وإلا فغداً مِنِّي
إذن عَنِّي تستغني
أنا المِفْتَاحُ لِلذَّهْنِ
تعالِ ادخلْ على اليُمْنِ
ولا تشبَعْ من صَحْني
يُدانونَكَ في السَّنِ
ويا شوقي ويا حُسْني
وما أنتَ لهم بِابنٍ

نشيد مصر

بَنِي مِصْرٍ مَكَانَكُمْ تَهَيَّا
خُذُوا شَمْسَ النِّهَارِ لَهُ حُلِيَّا
على الأَخْلَاقِ خُطُّوا الْمَلِكُ وَابْنُوا
أليسَ لَكُمْ بِوَادِي النِّيلِ عَدُوٌّ
لنا وَطَنٌ بِأَنْفُسِنَا نَقِيهِ
إِذَا مَا سِيلَتِ الْأَرْوَاحُ فِيهِ
لنا الْهَرَمُ الَّذِي صَحِبَ الزَّمَانَا
ونحنُ بَنُو السَّنا العَالِي نَمَانَا
فَهَيَّا مَهْدُوا لِلْمَلِكِ هَيَّا
أَلَمْ تَكُ تَاجَ أَوْلَئِكَم مَلِيَّا
فليسَ وراءَها لِلْعِزِّ رُكْنُ
وكوثرُها الَّذِي يَجْري شَهِيَّا
وبالدنيا العَرِيضَةُ نَفْتِدِيهِ
بذلناها كَأَن لَمْ نُعْطِ شَيْئا
ومن حَدَثَانِهِ أَخَذَ الْأَمَانَا
أَوَائِلُ عَلِّمُوا الْأُمَمَ الرُّقِيَّا

تطاوَلَ عُهُدُهُمْ عِزًّا وَفَخِرَا
نَشَأْنَا نَشَأَةً فِي الْمَجْدِ أُخْرَى
جَعَلْنَا مِصْرَ مِلَّةَ ذِي الْجَلَالِ
وَأَقْبَلْنَا كَصَفٍّ مِنْ عَوَالِ
نَرُومُ لِمِصْرَ عِزًّا لَا يُرَامُ
وَيَنْعَمُ فِيهِ جِيرَانُ كِرَامُ
نَقُومُ عَلَى الْبِنَايَةِ مُحْسِنِينَ
إِلَيْكَ نَمُوتُ مِصْرُ كَمَا حَيِينَا

فَلَمَّا آلَ لِلتَّارِيخِ نُخْرَا
جَعَلْنَا الْحَقَّ مَظْهَرَهَا الْعَلِيًّا
وَأَلْفْنَا الصَّلِيبَ عَلَى الْهِلَالِ
يَشْدُ السَّمْهَرِيُّ السَّمْهَرِيًّا
يَرْفُ عَلَى جَوَانِبِهِ السَّلَامُ
فَلَنْ تَجِدَ النَّزِيلَ بَنَا شَقِيًّا
وَنَعُودُ بِالتَّمَامِ إِلَى بَنِينَا
وَيَبْقَى وَجْهُكَ الْمَفْدِيُّ حَيًّا

نشيد الكشافة

نحن الكشافة في الوادي
يا رَبِّ بَعِيسَى وَالْهَادِي
كَشَافَةُ مِصْرَ وَصَبِيَّتُهَا
وَجَمَالُ الْأَرْضِ وَحَلِيبَتُهَا
نَبْتَدُرُ الْخَيْرَ وَنَسْتَبِقُ
بِالنَفْسِ وَخَالِقِهَا نَثِقُ
فِي السَّهْلِ نَرْفُ رِيَا حِينَا
نَبْنِي الْأَبْدَانَ وَتَبْنِينَا
وَنُخْلِي الْخَلْقَ وَمَا اعْتَقَدُوا
نَأْسُو الْجَرْحَى أَنَّنِي وَجِدُوا
فِي الصَّدَقِ نَشَأْنَا وَالْكَرَمِ
وَرِعَايَةِ طِفْلِ أَوْ هَرِمِ
وَنُؤَافِي الصَّارِخَ فِي اللَّجَجِ
لَا نَسْأَلُهُ ثَمَنَ الْمُهِجِ
يَا رَبِّ فَكُنَّا عِدَا
هَيَّئْ لَهُمْ وَلَنَا رَشَدَا

جَبْرِيلُ الرُّوحُ لَنَا حَادِي
وَبِمُوسَى خُذْ بِيَدِ الْوَطَنِ
وَمَنَاةُ الدَّارِ وَمُنِيَّتُهَا
وَطَلَاتُحُ أَفْرَاحِ الْمُدُنِ
مَا يَرْضَى الْخَالِقُ وَالْخَلْقُ
وَنَزِيدُ وَثُوقًا فِي الْمَحَنِ
وَنَجُوبُ الصَّخَرِ شَيَاطِينَا
وَالْهَمَّةُ فِي الْجِسْمِ الْمَرِنِ
وَلَوْجُهُ الْخَالِقِ نَجْتَهُدُ
وَنُداوِي مَنْ جَرَحَ الزَّمَنُ
وَالْعِفَّةُ عَنْ مَسِّ الْحَرَمِ
وَالذُّودِ عَنِ الْغِيْدِ الْحُصْنِ
وَالنَّارِ السَّاطِعَةِ الْوَهْجِ
وَكَفَى بِالْوَاكِبِ مِنْ ثَمَنِ
وَابْذُلْ لِأَبْوَتِنَا الْمَدَدَا
يَا رَبِّ وَخُذْ بِيَدِ الْوَطَنِ

من شعر الصِّبا

وقال في صباه يهنئ الخديو توفيق بعيد الفطر، ويشير إلى صلة أنفذهـا إليه وهو في الدراسة بأوروبا:

قَصَرَ الْأَعْزَّةَ مَا أَعَزَّ جَمَاكَ	وَأَجَلَ فِي الْعَلِيَاءِ بَدَرَ سَمَاكَ
تَتَسَاءَلُ الْعَرَبُ الْمُقَدَّسُ بَيْتَهَا	أُأَعِيدَ بَانِي رُكْنِهِ فَبَنَاكَ
وَتَقُولُ إِذْ تَأْتِيكَ تَلْتَمِسُ الْهُدَى	سَيَّانٍ هَذَا فِي الْجَلَالِ وَذَاكَ
يَا مُلْتَقَى الْقَمَرَيْنِ مَا أَبْهَاكَ بَلْ	يَا مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ مَا أَصْفَاكَ
إِنْ الْأَمَانَةَ وَالْجَلَالَهَ وَالْعُلَا	فِي هَالَةٍ دَارَتْ عَلَى مَغْنَاكَ
مَا الْعِزُّ إِلَّا فِي ثَرَى الْقَدَمِ الَّتِي	حَسَدَتْ عَلَيْهَا النِّيْرَاتُ ثَرَاكَ
يَا سَادِسَ الْأُمَرَاءِ مِنْ آبَائِهِ	مَا لِلْإِمَارَةِ مِنْ يُعَدُّ سِوَاكَ
الْتُرْكُ تَقْرَأُ بِاسْمِ جَدِّكَ فِي الْوَعَى	وَالْعَرَبُ تَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ أَبَاكَ ^١
نَسَبُ لَوْ انْتَمَتِ النُّجُومُ لِعَقِيدِهِ	لَتَرَفُّعَتْ أَنْ تَسْكُنَ الْأَفْلاكَا
شَرْفًا عَزِيزَ الْعَصْرِ فُتَّ مَلُوكُهُ	فَضْلًا وَفَاتَ بَنِيهِمْ نَجْلَاكَ
لَكَ جَنَّةُ الدُّنْيَا وَكُوْثُرُهَا الَّذِي	يَجْرِي بِهِ فِي الْمُلْكِ شَرْطُ غِنَاكَ
وَلَكِ الْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ مَنِيْعَةٌ	فِي مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ تَحْتَ لِوَاكَ
مُلْكُ رَعِيَتِ اللَّهَ فِيهِ مُؤَيَّدًا	بِاسْمِ النَّبِيِّ مُوَفَّقًا مَسْعَاكَ

^١ هو توفيق بن «إسماعيل».

فأقمتَ أمراً يا أبا العباسِ مأ
 إن يعرضوه على الجبالِ تهنُّ له
 بسياسةٍ تقفُ العقولُ كليلَةً
 وبحكمةٍ في الحكمِ توفيقيةٍ
 مَولايَ عيدُ الفطرِ صُبْحُ سُعودِهِ
 فاستقبلِ الآمالَ فيه بشائراً
 وتلقُ أعيادَ الزمانِ مُنيرةً
 أيامُكَ الغُرِّ السعيدةُ كُلُّها
 فليَبَقْ بيتُكَ وليَدُم ديوَانُهُ
 وليَهْنِني بك كلَّ يومٍ أنني
 يا أيها الملكُ الأريبُ إليكها
 فطوتَ إليكَ البحرَ أبيضَ نسبةً
 قَدِمْتَ على عيدِ لبابِكَ بعدما
 أوكلما جادتَ نَدَاكَ رَوِيَّتِي
 أنتَ الغنيُّ عن الثناءِ فإن تُردِّ

مَوْنَ السبيلِ على رَشيدٍ نُهاكا
 وهَيَ الجبالُ فما أَشدُّ قُواكا
 لا تستطيعُ لَكُنْهَها إدراكا
 لك يَقتفي فيها الرجالُ خطاكا
 في مِصرَ أسفَرَ عن سَنا بُشراكا
 وأشائراً تُجلى على عَلياكا
 فَهَناؤُهُ ما كان فيه هَناكا
 عيدُ فَعِيدُ العالمينَ بَقاكا
 وَليَحِ جُنْدُكَ وَلتَعِشْ شُوراكَا
 في أَلْفِ عيدٍ من سُعودِ رِضاكا
 عِذراءُ هَامت في صِفاتِ عَلاكا
 لِنَظيرِهِ المورودِ من يُمناكا
 قَدِمْتَ عليَّ جَديدةً نَعماكا
 سَبَقْتَ ثَنائيَ بِالارتِجالِ يداكا
 ما يُطربُ المَلِكُ الأديبُ فهاكا!

قصر المنتزه

وقال يصف قصر المنتزه العامر بالإسكندرية بعد رؤية معلمه الشائقة بدعوة من الجنب
 العالي سنة ١٨٩٥م:

مُنْتزَهُ العَبَّاسِ لِلْمُجْتَلِي
 العِيشُ فيه ليس في غَيرِهِ
 قِصُورُ عَزٍّ باذِخاتُ الذِّرا
 من كُلِّ راسي الأَصْلِ تحت الثرى
 دارت على البحرِ سَلايِمُهُ
 مُنْتَظِماتُ مائِجاتُ به
 من الرِخامِ النَدْرِ لَكنْها

أَمَنْتُ بِاللِهِ وَجَنَّاتِهِ
 يا طالِبَ العِيشِ وَلذَّاتِهِ
 يودُّها كِسرى مَشِيداتِهِ
 مُحَيَّرِ النَجمِ بِذِروَاتِهِ
 فَبِتَنَ أَطواقاً لِلبَّاتِهِ
 مُنَمَّقاتُ مِثْلِ لُجَّاتِهِ
 تُنازِعُ الجَواهرَ قِيماتِهِ

من عملِ الإنسِ سوى أنها
 والريحُ في أبوابه والجوا
 وغابُه من سارَ في ظلِّها
 بالطولِ والعرضِ تباهي فذا
 والرَّمْلُ حالٍ بالضَّحَى مُذهَّبٌ
 وتُرعةٌ لو لم تكن حُلوةٌ
 أو لم تكن ثم حياةُ الثرى
 وفي فمِ البحرِ لَمَن جاءهُ
 تَنَحَّشْدُ الطيرُ بأكنافِه
 من معزٍ وحشيَّةٍ إن جرت
 أو وثبتَ فالنجمُ من تحتها
 وأرنبٌ كالنَّمْلِ إن أُحصيت
 يعلو بها الصَّيْدُ ويعلو إذا
 ومن ظُباءٍ في كِناساتِها
 والخيلُ في الحيِّ عراقِيَّةٌ
 غُرٌّ كأيامِ عزيزِ الورى

وقال يهْنَى الخديو توفيق بقدم نجليه من سياحتهما بأوروبا:

ما باتَ يُثني على عليكَ إنسانُ
 وما تَهَلَّلَتْ إذ وافاكَ ذو أملٍ
 لله ساحتك المسعودُ قاصدُها
 لئن تباهى بك الدِّينُ الحنيفُ لكم
 تُراقِبُ اللهَ في مُلكٍ تُدبِّرُهُ
 أنجى لك اللهُ أنجالاً يهيئُهم

إلا وأنتَ لَعينَ الدهرِ إنسانُ
 إلا وأدهشَه حُسْنُ وإحسانُ
 فإنما ظلُّها أَمْنٌ وإيمانُ
 تقوَّمتَ بك للإسلامِ أركانُ
 فأنتَ في العدلِ والتقوى سُلَيْمانُ
 لرفعةِ المُلكِ إقبالُ وعرفانُ

^٢ لامرتين: شاعر فرنسا العظيم، وقصيدته عن «البحيرة» ذائعة، وقد تُرجمت إلى العربية مرات.

أَعَزَّةٌ أَيْنَمَا حَلَّتْ رَكَائِبُهُمْ
 لَمْ تَنْتَهُمْ عَنْ طَلَابِ الْعِلْمِ فِي صَغَرٍ
 تَأْبَى السَّعَادَةَ إِلَّا أَنْ تُسَايِرَهُمْ
 نَجْلَانِ قَدْ بَلَغَا فِي الْمَجْدِ مَا بَلَغَا
 يَكْفِيهِمَا فِي سَبِيلِ الْفَخْرِ أَنْ شَهِدَتْ
 هُمَا هُمَا تَعْرِفُ الْعَلِيَاءَ قَدَّرَهُمَا
 مَا الْفَرْقَدَانِ إِذَا يَوْمًا هُمَا طَلَعَا
 يَا كَافِيَ النَّاسِ بَعْدَ اللَّهِ أَمْرَهُمْ
 وَيَا مُنِيلَ الْمَعَالِي وَالنَّدَى كَرَمًا
 مَوْلَايَ هَلْ لَفَتْنِي بِالْبَابِ مَعْذَرَةٌ
 سَعَى عَلَى قَدَمِ الْإِخْلَاصِ مُلْتَمِسًا
 أَرَى جَنَابَكَ رَوْضًا لِلنَّدَى نَضْرًا
 لَا زَالَ مُلْكُكَ بِالْأَنْجَالِ مُبْتَهِجًا

لَهُمْ مَكَانٌ كَمَا شَاءُوا وَإِمَكانٌ
 فِي عَزِّ مُلْكِكَ أَوْطَارٌ وَأَوْطَانٌ
 لِأَنَّهُمْ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ ضَيْفَانِ
 مُعْظَمٌ لَهُمَا بَيْنَ الْوَرَى شَانٌ
 بِفَضْلِ سَبْقِهِمَا رُوسٌ وَأَلْمَانٌ
 كِلَاهُمَا كَلِفٌ بِالْمَجْدِ يَقْظَانِ
 فِي مَوَكِبٍ بِهِمَا يَزْهَوُ وَيَزْدَانِ
 النَّصْرُ إِلَّا عَلَى أَيْدِيكَ خِذْلَانِ
 الرَّبْحُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْبَابِ خُسْرَانِ
 فَعَقْلُهُ فِي جَلَالِ الْمُلْكِ حَيْرَانِ
 رِضَاكَ فَهُوَ عَلَى الْإِقْبَالِ غُنْوَانِ
 لِأَنْ غُصْنَ رَجَائِي فِيهِ رَيَّانِ
 مَا بَاتَ يُثْنِي عَلَى غَلِيَاكَ إِنْسَانِ

وقال مهنئًا للخديو عباس بولادة إحدى الكريمات:

أَعْطَى الْبَرِيَّةَ إِذْ أَعْطَاكَ بَارِيهَا
 أَنْتَ الْبَرِيَّةُ فَاهْنَأْ وَهِيَ أَنْتَ فَمَنْ
 عِيدُ السَّمَاءِ وَعِيدُ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا
 فَبَارَكَ اللَّهُ فِيهَا يَوْمَ مَوْلِيدِهَا
 وَيَوْمَ تَشْرِقَ حَوْلَ الْعَرْشِ صَبِيَّتُهَا
 إِنَّ الْعَنَاءَةَ لَمَّا جَامَلْتَ وَعَدْتَ
 بِكُلِّ عَالٍ مِنَ الْأَنْجَالِ تَحَسَّبُهُ
 يَقُومُ بِالْعَهْدِ عَنْ أَوْفَى الْجُدُودِ بِهِ
 وَيَأْخُذُ الْمَجْدَ عَنْ مَصْرٍِ وَصَاحِبِهَا

فَهَلْ يُهْنِيكَ شِعْرِي أَمْ يُهْنِيهَا
 دَعَاكَ يَوْمًا لِتَهْنَأَ فَهُوَ دَاعِيهَا
 عِيدُ الْخَلَائِقِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا
 وَيَوْمَ يَرْجُو بِهَا الْأَمَالَ رَاجِيهَا
 كَهَالَةَ زَانِتِ الدُّنْيَا دَرَارِيهَا
 أَلَا تَكْفَى وَأَنْ تَتَرَى أَيْدِيهَا^٣
 مِنَ الْفِرَاقِ لَوْ هَشَّتْ لِرِائِيهَا
 عَنْ وَالِدٍ أَبْلَجَ الذَّمَّاتِ عَالِيهَا
 عَنْ السَّرَاةِ الْأَعَالِي مِنْ مَوَالِيهَا

^٣ تترى: متواترة متتابعة، وقد استعملها الشاعر هنا بمعنى تتواتر.

الناهضين على كرسيٍّ سُودِدها والقابضين على تاجيِّ معاليها
والساهرين على النِّيلِ الحفِّيِّ بها وكأسها وحميَّاهَا وساقِيها
مولاي للنفسِ أن تُبدي بِشائِرَها بما رزقتَ وأن تُهدي تَهانِيها
الشمسُ قدراً بل الجَوَراءُ منزلةً بل الثُّريَّا بل الدنيا وما فيها
أُمُّ البَنِينِ إذا الأوطانُ أَعَوَزَها مُدبِّرُ حازمٍ أو قَلَّ حامِيها
من الإناثِ سوى أن الزمان لها عبدٌ وأن الملا خُدامُ نادِيها
وأنها سرُّ عباسٍ وبَضْعَتُهُ فَهِيَ الفُضِيلَةُ ما لي لا أُسمِّيها
أَعَزُّ يَستَقْبِلُ العَصْرُ السَّلامَ به وتُشرِّقُ الأرضُ ما شاءت لِياليها
عالي الأريكةِ بين الجالسين له من المَفاخرِ عاليها وغاليها
عباسُ عِشٍ لِنُفوسٍ أنتِ طَلَبْتُها وأنتِ كُلُّ مُرادٍ من تَناجِيها
تُبدي الرِّجاءَ وتدعوهُ لِيَصْدَقَها واللَّهُ أَصدَقُ وعدًا وَهُوَ كافِيها

بيني وبين أبي العلاء

بيني وبين أبي العلاء قَضِيَّةٌ في البرِّ أَسْتَرعي لها الحُكَماءُ
هو قد رأى نَعْمَى أبيه جِنائَةً^٤ وأرى الجِنائَةَ من أبي نَعْماءُ

دواء المُتَيِّم

داوِ المُتَيِّمَ داوِهِ من قَبْلِ أن يَجِدَ الدَّوَا
إن النَّوَاصِحَ كُلَّهم قالوا بتَبْدِيلِ «الهوا»^٥

^٤ يشير إلى قول أبي العلاء المعري:

هذا جناه أبي عليٍّ وما جنيتُ على أحد

وأبو العلاء لم يتزوج ولم يُنْجِب.

^٥ يستعمل الشاعر كلمة «الهوا» على طريقة الإيهام عند البديعيين، فيقصد معنَى ويُوهم معنَى غيره، والهوا (مقصود الهوا) غير الهوى بمعنى العشق والمحبة.

فتحتُمُ بابًا على صَبِّكم للصدِّ والهجرِ وطُولِ النوى
فلا تَلومُوهُ إذا ما سَلا قد فُتِحَ البابُ ومرَّ «الهوا»^٦

وكتب على صورةٍ مُهداة لصديق:

سَعَتَ لكَ صُورَتِي وَأَتَاكَ شَخْصِي وسارَ الظِّلُّ نحوَكَ والجِهاثُ
لأنَّ الرُّوحَ عندَكَ وهِيَ أَصْلُ وحيثُ الأَصْلُ تسعى المُلَحَقَاتُ
وهَبَّهَا صورةً من غيرِ رُوحٍ أليس من القَبولِ لها حياةٌ

^٦ يستعمل الشاعر كلمة «الهوا» على طريقة الإيهام عند البديعيين، فيقصد معنى ويُوهم معنى غيره، والهوا (مقصود الهواء) غير الهوى بمعنى العشق والمحبة.

محجوبيات

(كان بين الشاعر والدكتور محجوب ثابت صلةً متينة من الود، وكان بينهما مسامرات ومداعبات أوحّت إلى الشاعر ببعض ما ننشره بعدُ من شعر الفكاهة.)

بَيْنَ مَكْسُوِينِي وَالْأُوْتُوْمُبِيل

(كان للدكتور محجوب ثابت حصانٌ يرتاد به ما شاء من أحياء القاهرة في أيام الثورة، وكان أصدقائه يُسمُّون حصانه «مكسويني»، وهو اسم بطل أيرلندي مشهور انتحر جوعاً؛ يُكنون بذلك عن هزال الحصان وجوعه وعدم العناية به.)
(وقد استبدل به الدكتور محجوب سيارة، فنظم الشاعر هذه القصيدة يداعب الدكتور ويعزّي حصانه، وقد نُشرت هذه القصيدة في سنة ١٩٢٤م).

لکم فی الخطّ سیّارة	حديثُ الجارِ والجارة
«أوفرلاند» يُنبّيك	بها القُنْصُلُ «طمّارة» ^١
کسیّارة «شارلوت»	على السّواقِ جَبّارة ^٢
إذا حرّکها مالت	على الجنّبينِ مُنْهارة

^١ الشيخ طمارة: كان إمامًا بالمفوضية المصرية في واشنطنون.

^٢ يعني شارلي شابِلن الممثل الهزلي المشهور.

وقد تَحَرُّنُ أحياناً وتمشي وحدها تارة
ولا تُشَبِّعُهَا عَيْنُ من «البَنَزِينِ» فَوَّارة
ولا تَرَوِي من الرِّيتِ وإن عامت به الفارة
تري الشارِعَ في دُعرِ إذا لاحت من الحارة
وصَبِياناً يَضْجُونَ كما يَلْقَوْنَ طيَّارة
وفي مَقْدِمِها بوقُ وفي المُوَخَّرِ زُمَّارة
فقد تمشي متى شاءت وقد ترجعُ مُخْتارة
قضى الله على السَّوَّا ق أن يجعلها دارَه
يُقَضِّي يومَه فيها ويلقى الليلَ ما زارَه

* * *

أُدنِيا الخيلِ «يا مَكْسِي» كُدُنِيا الناسِ غَدَّارة
لقد بدَّلَكَ الدهرُ من الإقبالِ إدبارَه
فصبراً يا فتى الخيلِ فنفسُ الحُرِّ صَبَّارة
أحقُّ أن «مَحْجُوباً» سَلا عنك بفَخَّارة
وباعَ الأَبْلَقَ الحُرَّ ب «أَوْفَرْلانَد» نَعَّارة
ولم يعرفْ له الفضلَ ولا قَدَّرَ آثارَه
قد اختارَ لك الشَّلَحَ وما كنتَ لَتَخْتارَه
فسَلَّه ما هو الشَّلَحُ عسى يُنَبِّيكَ أَخْبَارَه
كأن لم تَحْمِلِ الرَّايبَ لَةَ يومِ الرُّوعِ والشَّارة^٣
ولم تَرَكِبْ إلى الهولِ ولم تحمِلْ على الغارة
ولم تَعْطِفْ على جَرَحِي من الصَّبِيَةِ نَظَّارة
فمضروبٌ برَشَّاشٍ ومَقْلُوبٌ بِغَدَّارة
ولا والله ما كَلَّفَ ت «مَحْجُوباً» ولا بارَه
فلا البِرسِيمُ تَدْرِيه ولا تَعْرِفُ نَوَّارة

^٣ يشير إلى ملازمته إياه في إبان الثورة المصرية سنة ١٩١٩م.

وقد تَرَوَى على «صُلِّتِ»^٤ إذا نَادَمْتَ سُمَّارَهُ
وقد تَسْكُرُ من خَوْدِ على الإفْرِيزِ مَعْقَارَهُ
وقد تشَعُّ يا ابنَ اللَّيْلِ لِمِ من رَنَّةِ قَيْثَارَهُ
عسى اللُّهُ الذي سَاقَ إلى «يوسفَ» سَيَّارَهُ
فكانت خَلْفَهُم دُنْيَا له في الأرضِ كِبَّارَهُ
يَهْيِيُّ لك هَوَّارًا كَرِيمًا وابنَ هَوَّارَهُ
فإنَّ الحَظَّ جَوَّالٌ وإنَّ الأرضَ دَوَّارَهُ

مَكْسُوِينِي

(وهذه مداعبة أخرى قِيلَتْ في مكسويني حسان الدكتور محجوب أيام الثورة المصرية، حين كان الدكتور يرتاد بار اللواء وجريدة الأهرام).

تُفَدِّيك يا مَكْسُ الجَيَّادُ الصَّلَاحُ
كَأَنَّكَ إنَّ حَارِبْتَ فَوْقَكَ عَنَتَرُ
سُتَجَزَى التَّمَائِيلَ التي لَيْسَ مِثْلُهَا
فإنَّكَ شَمْسُ والجَيَّادُ كَوَاكِبُ
مِثَالُ بِسَاحِ البَرْلَمَانِ مُنْصَبُ
ولا تَظْفَرُ «الأهرامُ» إلا بِثَالِثِ
وكم تَدَّعي السُّودَانَ يا مَكْسُ هَا زَلَا
وما بَكَ مِمَّا تُبْصِرُ العَيْنُ شُهْبَةً
كَأَنَّكَ خَيْلُ التُّرْكِ شَابَتْ مُتَوْنُهَا
فيا رَبَّ أَيَّامٍ شَهِدَتْ عَصِيْبَةً
وتَفْدِي الأَسَاةَ النُّطْسُ من أَنْتَ خَادِمُ
وتَحْتَ ابنِ سِينَا أَنْتَ حِينَ تُسَالِمُ
إذا جَاءَ يَوْمٌ فِيهِ تُجَزَى البَهَائِمُ
وإنَّكَ دِينَارٌ وَهَنَّ الدَّرَاهِمُ
وآخِرُ فِي «بَارِ اللُّوَا» لك قَائِمُ
«مِزَامِيرُ» دَاوُودَ عَلَيْهِ نَوَاعِمُ^٦
وما أَنْتَ مُسَوَّدٌ ولا أَنْتَ قَاتِمُ
ولكن مَشِيبٌ عَجَلَتْهُ العِظَائِمُ
وشَابَتْ نَوَاصِيهَا وشَابَ القَوَائِمُ
وقَائِعُهَا مشهُورَةٌ والمَلَحَمُ

^٤ مشرب عام في القاهرة كان يرتاده الصفوة من سكان القاهرة ونزلائها.

^٥ هواره: قبيلة عربية يشتهر بنوها بالكرم، ومنها بطن تستوطن صعيد مصر.

^٦ نحسبه يعني المأسوف عليه داوود بركات رئيس الأهرام لذلك العهد.

ذخيرة

(وهذه مداعبةٌ أخرى — لم تكمل — نظمها في أيام الثورة، وهو يشير فيها إلى أَلْفِي جنيه كان الدكتور محبوب قد اكتنزها وحرص عليها في بنك حسن باشا سعيد.)

قُلْ لابنِ سينا لا طَبيبَ	سَبَّ اليومَ إلا الدَّرهمُ
هو قَبْلَ بقراطٍ وقَبْ	لَكَ للجِراحةِ مَرهمُ
والناسُ مُذْ كانوا عليـ	ه دائرونَ وحُومُ
وبسِحْرِهِ تعلو الأسا	فلُ في العيونِ وتَعْظُمُ
يا هل تُرى الألفانِ وقُـ	فُ لا يُمَسُّ ومَحْرَمُ
بنكُ «السَّعيدِ» عليهما	حتى القيامةِ قِيَمُ
لا «شيكَ» يظهرُ في البَنو	كِ ولا «حوالةَ» تُخَصِّمُ
وأَعْفُ من لاقيتَ يـلـ	قاهُ فلا يتكْرَمُ
...	...

براغيث محبوب

بَراغيثُ مَحجوبٍ لم أنسَها	ولم أنسَ ما طِعِمْتَ من دمي
تشقُّ خَراطيمُها جَوْرَبِي	وتنفذُ في اللحمِ والأعْظَمِ
وكنْتُ إذا الصَّيفُ راح احتَجَمْتُ	فجاءَ الخريفُ فلم أُحْجَمِ
تُرْحَبُ بالصَّيفِ فوقَ الطريقِ	فبابُ العيادةِ فالسُّلَمِ
قد انتَشَرَتْ جَوْقَةٌ جَوْقَةٌ	كما رُشَّتِ الأرضُ بالسَّمِسمِ
وترقُصُ رَقَصَ المَواسي الجِدادِ	على الجِلْدِ والعَلَقِ الأسْحَمِ
بواكيرُ تَطْلُعُ قَبْلَ الشِّتاءِ	وترفعُ أَلويَّةُ المَوسِمِ
إذا ما «ابنُ سينا» رمى بلغمًا	رأيتَ البَراغيثَ في البَلْغَمِ
وتُبَصِّرُها حولَ «بيبا» الرئِيسِ ^٧	وفي شارِبِيهِ وحولَ الفَمِ
وبينَ حَفائِرِ أسنانِهِ	مع السُّوسِ في طلبِ المَطْعَمِ

^٧ ابن سينا والرئيس: كناية عن الدكتور محبوب نفسه، ومن الأشياء الحبيبة إليه التدخين في «البيبا».

